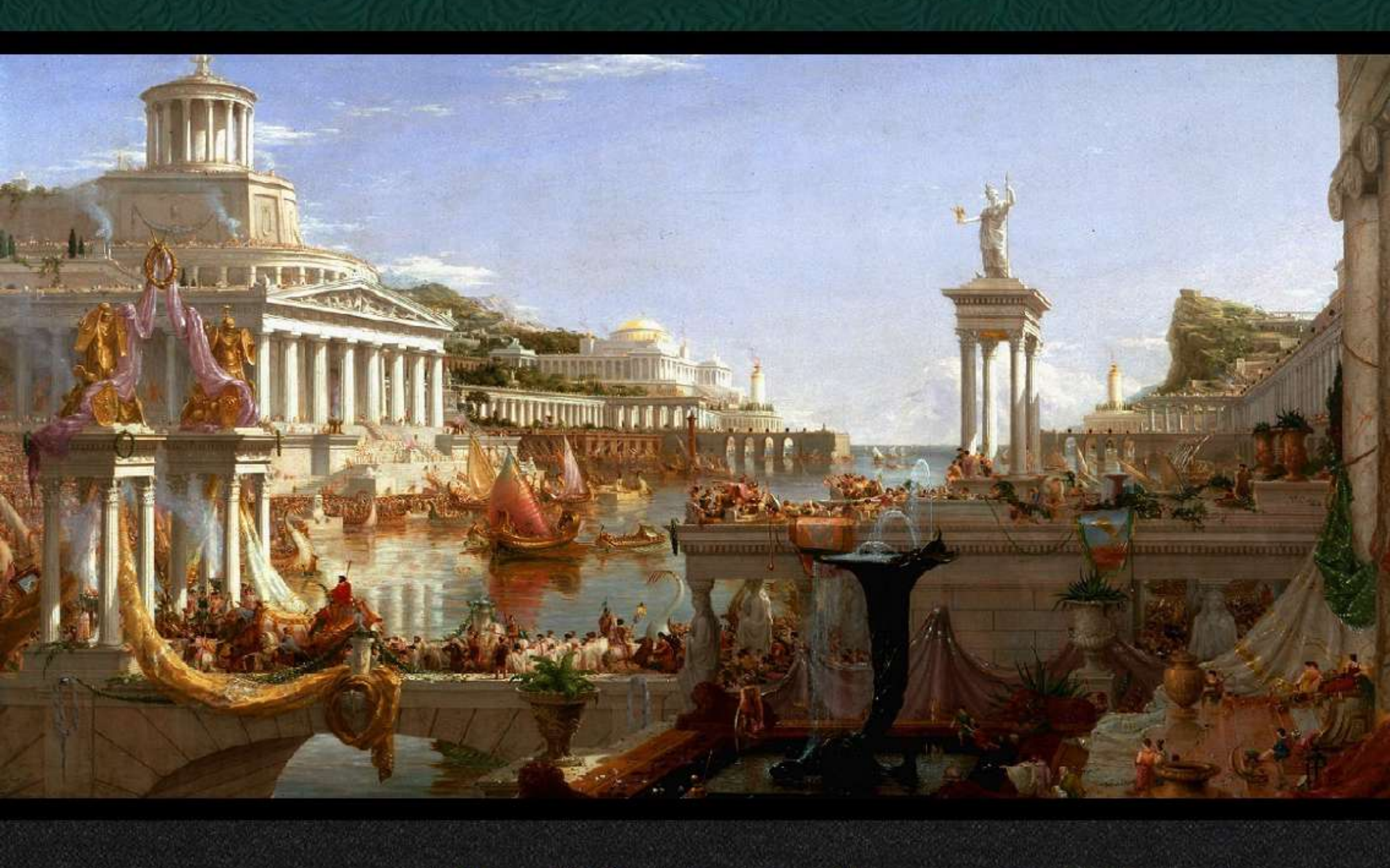
قصة الحضارة



المجلد الثاني

ويل ديورانت

قصة الحضارة

6- حياة اليونان (الجزء الأول)

7- حياة اليونان (الجزء الثاني)

8- حياة اليونان (الجزء الثالث)

ويل ديورانت

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

حياة اليونان

ترجمة

محمد بدران

الجزء الأول من المجلد الثاني





بيروت



تونس

مقدمة المؤلف

إن الغرض الذى أبتغيه من تأليف هذا الكتاب هو أن أجيل الفكر فى أصل الحضارة اليونانية ونشأتها وترعرعها واضمحلالها من أقدم العهود التى تدل عليها آثار كريت وطروادة إلى أن فتحت رومة تلك البلاد ، وأن أدون ما أهتدى إليه من بحوث فى هذا الميدان . وإنى لشديد الرغبة فى أن أرى هذه الحضارة المعقدة وأن أحس بها ، على ألا يكون إحساسى بها وروايتها مقصورين على البحث فى نهضتها وسقوطها بحثاً نظرياً مجرداً ، بل أريد به بحثاً يتغلغل فيما تشتمل عليه من عناصر حية كثيرة التباين ، متعددة الأنواع ، منها طريقة أهلها فى انتزاع الرزق من الأرض ، وفى تنظيم التجارة والصناعة ، وما قاموا به من تجارب فى الحكم الملكى المطلق ؛ والأرستقراطى والدمقراطى والدكتاتورى ، ومن ثورات على حكامهم ونظمهم ؛ ومنها عاداتهم وأخلاقهم وطقوسهم الدينية ومعتقداتهم ؛ وتربية أبنائهم وشئون أسرهم وتنظيم علاقاتهم الجنسية ؛ وبيوتهم ومعابدهم وأسواقهم ومسارحهم وميادين ألعابهم ؛ وأشعارهم ومسرحياتهم وتصويرهم ونحتهم وعمارتهم وموسيقاهم ؛ وعلومهم ومخترعاتهم وخرافاتهم وفلسفاتهم . أريد أن أرى هذه العناصر وأن أحس بها لا فى عزلتها النظرية العلمية ، بل فى تفاعلها الحى وأثر كل عنصر منها فى سائر العناصر ، وأن أبحثها من حيث هى حركة عامة شاملة يقوم بها كائن حى ثقافى عظيم ، له مائة عضو ومائة ألف ألف خلية ، ولكن له جسماً واحداً وروحاً واحداً .

ولم هذا العناء كله ؟ لأننا لا نكاد نجد شيئاً فى ثقافتنا الدنيوية — اللهم إلا آلاتنا — لسنا مدينين به لليونان ، فالألفاظ الإنجليزية الدالة على المدارس والملاعب ، والحساب والهندسة ، والتاريخ ، والبلاغة ، وعلوم الطبيعة

والأحياء والتشريح والصحة والأقراباذين ، وفن التجميل والشعر والموسيقى ، والمآسي والمسالي ، والفلسفة ، والدين ، واللاأدرية ، والتشكك ، والرواقية ، والأبيقورية ، وعلم الأخلاق ، والسياسة ، والمثالية ، وحب الإنسانية ، والكلبية ، والاستبداد ، والبلوتوقراطية والدمقراطية ، كل هذه ألفاظ يونانية لصور من الثقافة لم ننشئها نحن إنشاء بل إنها قد نضجت وترعرعت — خيراً كان ذلك أو شراً — بفضل نشاط اليونان العظيم . والمشاكل التي تقض مضاجعنا في هذه الأيام — كتقطيع الغابات واستئصال أشجارها وما ينشأ عن ذلك من تعرية الأرض وإزالة تربتها ، وتحرير المرأة ، وتحديد عدد أفراد الأسرة ، والمحافظة على القديم المستعز ، وإجراء التجارب على الجديد في الأخلاق والموسيقى ونظم الحكم ، وفساد السياسة والاعوجاج الخلقي ، والنزاع بين الدين والعلم ، وضعف المعنوية التي تستمدها الأخلاق من خوارق الطبيعة ، وحروب الطبقات والأمم والقارات ، وثورات الفقراء على الأغنياء الأقوياء من الناحية الاقتصادية ، وثورات الأغنياء على الفقراء الأقوياء من الناحية السياسية . والنزاع بين الدمقراطية والدكتاتورية ، وبين الفردية والشيوعية ، وبين الشرق والغرب ، كل هذه الأمور قد اضطربت بها حياة بلاد اليونان الباهرة المتألقة ، وكأنها قد اضطربت بها لنتعلم منها نحن ونفيد منها في حياتنا . وقصارى القول أنه ليس في الحضارة اليونانية شيء لا ينير لنا سبل حياتنا .

وسنحاول في هذا الكتاب أن ندرس حياة بلاد اليونان من حيث تفاعل عناصرها الثقافية ومن حيث هي مسرحية كبرى ذات فصول خمسة تبدأ بنهضتها وتختتم بسقوطها . سنبدأ بكريت وحضارتها التي أنيط عنها اللثام من وقت قريب لأن من كريت ، كما يبدو لنا ، ومن بلاد آسية جاءت ثقافة ميسيني Mycenae وتيرنز Tiryns التي نشأت فيها قبل الأزمنة التاريخية ، فحولت على مهل المهاجرين الآخيين Achaeans والغزاة

الدوريين Dorians إلى متحضرين ، وسنخصص بعض الوقت للدراسة عالم المحاربين والصبين ، والقراصنة والمغنين ، الذي انتقل إلينا فى أشعار هومر القوية الخارقة ؛ وسنرقب نشأة اسپارطة وأثينة فى عهد ليكورج Lycurgus وصولون Solon ونتتبع انتشار الاستعمار اليونانى فى جميع جزائر بحر إيجه ، وشواطئ آسية الغربية ، والبحر الأسود ، وأفريقية وإيطاليا وصقلية ، وفرنسا وأسبانيا ؛ وسنرى الدمقراطية تدافع عن حياتها فى مراثون Marathon ، ثم تبعث فيها نشوة الظفر قوة على قوتها ، فتنظم نفسها فى عهد بركليز Pericles ، وتزدهر وتثمر أغنى حضارة عرفها التاريخ وسنطيل النظر مسرورين مغتبطين إلى العقل البشرى وهو يتحرر من الخرافات والأوهام ، فينشئ علوماً جديدة ، وينزل الطب على حكم العقل ، وينزل بالتاريخ من خوارق الطبيعة ومن الأجرام السماوية إلى العالم الأرضى ، ويبلغ الغـاية التى لم يصل إليها عقل شعب آخر من قبل فى الشـعر ، والتمثيل ، والفلسفة ، والخطابة والتاريخ ، والفن ؛ وسوف نسجل فى هذا الكتاب ونحن آسفون محزونون ، ما اختتم به العصر الذهبى فى الحروب البلوبونيزية من خاتمة قضت فيها المدن اليونانية بعضها على بعض . وسنشاهد ذلك المجهود الجبـار المنطوى على البسالة والشهامة والذى بذلته أثينة المضطربة المختلة النظام لتستعيد قوتها بعد هزيمتها ؛ وسنراها عظيمة حتى فى اضمحلالها تنجب أفلاطون وأرسطاطاليس وأبليز Apelles وبركستليز Praxiteles ، وفيليب ودمستين وديجين ، والإسكندر ؛ وسنرى فى أعقاب قواد الإسكندر الحضارة اليونانية ، أعظم وأقوى من أن تحتويها شبه الجزيرة ، فتخترق حدودها الضيقة وتفيض من جديد على آسية ، وأفريقية ، وإيطاليا ؛ وتعلم الشرق المستغرق فى تصوفه وباطنيته جـلال الجسم والعقل ، وتعيد مجد مصر فى إسكندرية البطالمة ، وتغنى رودس بالتجارة والفن وتنهض بالهندسة على يد إقليدس فى الإسكندرية وأرخميدس فى سرقوسة ، وتضع على أيدى زينون وأبيقور أبقى الفلسفات فى التاريخ ،

وتنحت تماثيـــل أفروديتى Aphrodite فى ميلوس Melos واللاؤكوئون Laocoon وانتصار سمثريس Samothracae ومذبح برجاموم Pergamum ، وتحاول عبثاً أن تعيد تنظيم سياستها وتبث فيها روح الشرف والوحــدة والسلم ، ثم تهوى إلى أعماق الفوضى بسبب الحروب الداخلية وحروب الطبقات ، وتنضب مواردها ، ويقل عامرها ، وتفقد روحها المعنوية ؛ وتستسلم للأتوقراطية والخمول وتصوف الشرق ، وتكاد فى آخر الأمر أن ترحب بالرومان الفاتحين ، فتورث بلاد اليونان الميتة على أيديهم أوربا علومها ، وفلسفاتها ، وآدابها وفنونها فتكون هى الأساس الثقافى الحى لعالمنا الحديث .

الكتاب الأول

تمهيد

في حضارة بحر إيجه

من ٣٥٠٠ إلى ١٠٠٠ ق.م.

أهم الحوادث فى الكتاب الأول

مرتبة حسب تواريخها

ملحوظة : كل التواريخ المذكورة هنا تقريبية ، وتواريخ الأفراد هى تواريخ السنين التى بلغ فيها نضجهم العقلى ، وقد افترضنا أن هذه السنين هى التى تكون بعد أربعين عاماً من مولدهم ، أما تواريخ مولدهم ووفاتهم فسنذكرها إن استطعنا فى فهرس الأعلام . وتواريخ الحكام هى تواريخ حكمهم ، وإذا وضعنا علامة الاستفهام أمام اسم واحد منهم فمعنى هذا أن التاريخ لا تذكره إلا الرواية اليونانية وحدها .

ق . م .

— ٩٠٠٠ العصر الحجرى الحديث فى كريت .

٣٤٠٠ — ٣٠٠٠ الطور الأول من الحضارة المينوية الميلادية ، والسيكلادية المبكرة .

٣٤٠٠ — ٢١٠٠ العصر الحجرى الحديث فى تساليا .

٣٤٠٠ — ١٢٠٠ العصر البرنزى فى كريت .

٣٠٠٠ — ٢٦٠٠ الطور الثانى من الحضارة المنوية الميلادية ، والسيكلادية المبكرة .

— ٣٠٠٠ استخراج النحاس من قبرص .

— ٢٨٧٠ أول استقرار معروف فى طروادة .

٢٦٠٠ — ٢٣٥٠ الطور الثالث من الحضارة المينوية الميلادية ، والسيكلادية المبكرة .

٢٣٥٠ — ٢١٠٠ الطور الأول من الحضارة المينوية الميلادية ، والسيكلادية الوسطى .

٢٢٠٠ — ١٢٠٠ العصر البرنزى فى قبرص .

٢١٠٠ — ١٩٥٠ الطور الثانى من الحضارة المينوية الميلادية ، والسيكلادية لوسطى .
الجموعة الأولى من لقصور الكريتية .

٢١٠٠ — ١٦٠٠ العصر النحاسى — الحجرى فى تساليا .

١٩٥٠ — ١٦٠٠ الطور الثالث من الحضارة المينوية الميلادية ، والسيكلادية الوسطى ،

— ١٩٠٠ تدمير المجموعة الأولى من القصور الكريتية .

١٦٠٠ — ١٥٠٠ الطور الأول من الحضارة المينوية الميلادية ، والسيكلادية المتأخرة (الميسينية) ، المجموعة الثانية من القصور الكريتية .

١٦٠٠ — ١٢٠٠ عصر البرنز فى تساليا .

— ١٥٨٢ تأسيس أثينة على يد سكربس .

١٥٠٠ — ١٤٠٠ الطور الثانى من الحضارة المينوية الميلادية الميسينية والسيكلادية المتأخرة .

١٤٥٠ — ١٤٠٠ تدمير المجموعة الثانية من القصور الكريتية .

— ١٤٣٣ دوكليون والطوفان .

١٤٠٠ — ١٢٠٠		الطور الثالث من الحضارة المينية الميلادية (الميسينية) السيكلادية ، المتأخرة ، قصور تيرنز وميسينية .
	— ١٣١٣	تأسيس طيبة على يد كادموس .
١٣٠٠ — ١١٠٠		عصر سيطرة الآخيين على اليونان .
	— ١٢٨٣	بلوبس إلى إليس .
١٢٦١ — ١٢٠٩		هرقل
	— ١٢٣٠	ثيثوس فى أثينة ، وأوديب فى طيبة ، ومينوس وديدلوس فى نوسس .
١٢٥٠ — ١١٨٣		«المدينة السادسة» فى طروادة ؛ عصر أبطال هومر .
	— ١٢٢٥	رحلة أجمنن .
	— ١٢١٣	حرب السبعة على طيبة .
	— ١٢٠٠	ارتقاء أجممنن العرش .
١١٩٢ — ١١٨٣		حصار طروادة .
	— ١١٧٦	ارتقاء أورستيز .
	— ١١٠٤	غزو الدوريين لبلاد اليونان .

الباب الاول

كريت

الفصل الأول

البحر المتوسط

إذا ما دخلنا أجمل البحار كلها وتركنا من خلفنا المحيط الأطلنطى ومضيق جبل طارق ، انتقلنا من فورنا إلى حلبة التاريخ اليونانى . ويقول أفلاطون عن بنى وطنه الذين استقروا فى هذا الميدان : « لقد نزلنا فى شواطئ هذا البحر كما تنزل الضفادع حول بركة الماء »(١) . على هذه الشواطئ النائية ، أنشأ اليونان قبل ميلاد المسيح بقرون كثيرة ، مستعمرات مزعزعة غير وطيدة الأساس يحيط بها البرابرة من جميع الجهات : فى همرسكوبيوم Hemeroscopium وأمپورياس Ampurias فى أسبانيا ، ومرسيليا ونيس فى فرنسا ، وفى كل مكان تقريباً بإيطاليا وصقلية . وأنشأ المستعمرون اليونان مدناً زاهرة فى قورينى Cyrene بشمال أفريقية وفى نقراطس بدال النيل ؛ وبعثت مغامراتهم النشيطة الحركة والحياة فى جزائر بحر إيجة وشواطئ آسية الصغرى فى ذلك الوقت البعيد ، كما تبعثهما فيها هذه الأيام ؛ وشادوا مدناً كبيرة وصغيرة لتكون محاط لتجارتهم الواسعة على شواطئ الدردنيل وبحر مرمرة والبحر الأسود ؛ ولم تكن أرض اليونان الأصيلة إلا جزءاً صغيراً من العالم اليونانى القديم .

ترى لماذا نشأت مجموعة الحضارات الثانية على شواطئ البحر المتوسط كما نشأت المجموعة الأولى قبل ذلك على ضفاف الأنهار فى مصر وأرض الجزيرة

والهند ، وكما ازدهرت الثالثة بعدها على شواطئ المحيط الأطلنطى ، وكما يحتمل أن تنشأ الرابعة على شواطئ المحيط الهادى ؟ هل كان السبب فى نشأتها هو اعتدال مناخ البلاد المطلة على هذا البحر ؟ لقد كانت الأمطار السنوية تروى الأرض وتخصبها فى الزمن القديم كما ترويها وتخصبها فى هذه الأيام(٢)، وكان البرد المعتدل يبعث فى أهل البلاد النشاط ؛ وكان فى وسع الأهلين يعيشوا فى الهواء الطلق طوال العام تقريباً ، تدفئهم الشمس ولكنها لا توهن أجسامهم . ومع هذا فإن سطح الأرض حول هذا البحر وفى جزائره لا يبلغ من الخصب فى مكان ما مبلغ أرض الأودية الغرينيـــة فى أحواض الكنج أو السند أو دجلة أو الفرات أو النيل . وقد يبدأ جفاف الصيف مبكراً عن عادته ، أو قد يطول أكثر مما يستحب ، وتجد فى كل مكان فيه الأرض الجرداء لا تبعد إلا قليلا من القشرة الغرينية المتربة الرقيقة . وتقع إلى شمال هذه الأراضى التاريخية بلاد معتدلة المناخ وإلى جنوبها أرض مدارية ؛ وكلها أخصب منها تربة . ولما أضنى الجهد الفلاحين سكان شواطئ البحر المتوسط وجزائره ، ووجدوا أن التربة لا تجود عليهم بما يعوض عنهم جهودهم ، أخذوا يتخلون عن فلحها شيئاً فشيئاً ؛ ويستبدلون بذلك زراعة الزيتون والكرم . وكانت تلك البلاد تتعرض من حين إلى حين إلى أخطار الزلازل ، فتنشق الأرض تحت أقدام السكان على طول بعض العيوب الأرضية التى تعد بالمئين ، فترهبهم وتدفعهم إلى نوبات من التقى والإيمان . ولم يكن المناخ هو الذى جاء بالحضارة إلى بلاد اليونان ، وأكبر الظن أن المناخ لم يكن سبب قيام الحضارة فى قطر من الأقطار .

أما السبب الذى جذب الناس إلى بحر إيجه فهو جزائره . فلقد كانت هذه الجزائر جميلة ؛ ولا ريب فى أن الملاح المتعب كان ينشرح صدره حين يرى اختلاف ألوان التلال المظللة التى تقوم كالهياكل فوق مياه البحر وتنعكس عليها . وقلما يجد الإنسان فى هذه الأيام مناظر أجمل من منظر هذه التلال

أو أكثر منها إثارة لحاسة الجمال . وإذا ما طاف الإنسان ببحر إيجة أدرك لساعته لم أحب سكان هذه الشواطئ والجزائر بلادهم حبهم للحياة أو أكثر منها ، ولم كانوا يرون كما يرى سقراط أن النفى أشد ألماً من الموت . يضاف إلى هذا أن الملاح الذى كان يطوف بتلك البحار فى الزمن القديم كان يجد فى الجزائر منثورة كاللآلئ فى جميع الجهات ، وكان يراها متقاربة فلا تكاد سفينة تبعد عن الأرض أكثر من أربعين ميلا ، سواء أكان مسافراً من الغرب إلى الشرق أم من الشمال إلى الجنوب . وإذ كانت هذه الجزائر البارزة فوق سطح الماء هى قلل سلاسل جبلية قديمـــة ، متصلة بعضها ببعض ، كسلاسل الجبال فى بلاد اليونان القارية ، طغى عليها البحر على توالى الأيام[٢] ، فإن عين الملاح المرتقب كانت تقع على الدوام على قلة من هذه القلل المحببة كأنها تحييه وترحب بمقدمه ، وكانت أشبه بمنارات تهتدى بها السفن فى وقت لم تكن تهتدى فيها بالبوصلة البحرية . وفوق هذا كله فإن حركات الريح والماء كانت تعين الملاح على الوصول إلى هدفه . فقد كان تيار مائى قوى أوسط يسير من البحر الأسود إلى بحر إيجة ، وكانت تيارات أخرى مضادة له تسير نحو الشمال محاذية شواطئ البحر ، وكانت الرياح الشمالية الشرقية تهب بانتظام فى فصل الصيف فتساعد السفن التى خرجت من موانيها لتأتى بالحب والسمك والفراء من البحر اليكسينى Euxine[*] على العودة إلى موانيها فى

(*) كان اليونان يسمون البحر المتوسط **Ho Pontos** أى الممر أو الطريق ، وكانوا يسمون البحر الأسود تسمية يراعون فيها التجميـــل فى اللفظ **Pontos Euxienos** البحر المحب للأضياف — وربما كان سبب هذه التسمية أنه يقابل السفن المقبلة من الجنوب برياح وتيارات معاكسة لها . وكانت الأنهار الواسعة التى تصب ماءها فيه ، والضباب الكثير الذى يقلل من سرعة البحر يجعلان مستوى الماء فى البحر الأسود أعلى من مستواه فى البحـــر المتوسط ؛ ومن أجل هذا كان تيار مائى قوى يندفع خلال مضيق البسفور (مخاضة الثور) الضيق ومضيق الدردنيل إلى بحر إيجه ، وكانوا يسمون بحر مرمرة البروبنتيس **Propontis** أى ما قبل البحر .

الشمال . وكان الضباب نادراً فى البحر المتوسط ، كما أن أشعة الشمس التى لا تكاد تحتجب عنه ينشأ منها بالليل وبالنهار نسيم البر والبحر ، حتى ليستطيع الإنسان من بدء الربيع إلى آخر الخريف أن يستعين فى أى ثغر من ثغوره — إلا القليل النادر منها — بنسيم الصباح فى خروجه منه وبنسيم المساء فى عودته إليه .

فى هـــذه البحار الصالحة للتجوال نَمى الفينيقيون الكسابون واليونان القوازب فن الملاحة وعلمها ، فبنوا فيها سفناً معظمها أكبر وأسرع من جميع السفن التى كانت تمخر عباب البحر المتوسط قبلهم ولكنها كانت أيسر منها حركة ، وأضحت الطرق البحرية بين أوربا وأفريقية من جهة وآسية من جهة أخرى مارة بقبرص وصيدا وصور أو ببحر إيجه والبحر الأسود ، وأضحت على الرغم من قراصنة البحر وما يتهددها من أخطار ، أقل نفقة من الطرق البرية الطويلة الشاقة المعرضة للأخطار والتى كان ينقل عليها فى الأيام الخالية الكثيرة من تجارة مصر والشرق الأدنى . وبذلك اتجهت التجارة وجهات جديدة ، وضاعفت عدد السكان الجديد ، وأوجدت ثروات جديدة ، فاضمحل شأن مصر ، وأعقب ذلك اضمحلال شأن أرض الجزيرة وفارس ، وأقامت فينيقية إمبراطورية من المدائن على ساحل أفريقية وفى صقلية وأسبانيا ، وازدهرت بلاد اليونان ازدهار الوردة المرتوية .

الفصل الثاني

كشف كريت الثانى

« وفى وسط البحر القاتم كلون النبيذ أرض تسمى كريت ، وهى أرض جميلة غنية يحيط بها الماء ، وفيها خلق كثيرون يخطئهم العد ، كما أن بها تسعين مدينة[٤] » . لما أنشد هومر هذه الأبيات ، ولعل ذلك كان فى القرن التاسع قبل الميلاد(*)، كانت بلاد اليونان قد نسيت أو كادت تنسى ، وإن لم ينس الشاعر ، أن الجزيرة التى بدت له عظيمة حتى فى ذلك الوقت ، كانت فى وقت من الأوقات أعظم مما هى وقتئذ ثروة ، وأنها كانت تسيطر بأسطولها القوى على معظم نواحى بحر إيجة وعلى جزء من أرض اليونان الأصيلة ، وأنها قد أنشأت قبل حصار طروادة بألف عام حضارة من أعظم الحضارات الفنية فى تاريخ العالم . ولعل هذه الحضارة الإيجية التى كانت قديمة بالنسبة له بقدر ما هو نفسه قديم بالنسبة لنا ، هى التى عادت إلى ذاكرة هومر وهو يتحدث عن عصر ذهبى كان الناس فيه أكثر حضارة وأرق حاشية منهم فى أيامه المضطربة .

ولقد كان كشف هذه الحضارة المفقودة مرة ثانية عملا من أجل الأعمال فى تاريخ علم الآثار الحديث . فها هى ذى جزيرة تبلغ مساحتها قدر مساحة أكبر جزائر السكلديز عشرين مرة ، جوها جميل ، تنتج حقولها غلات مختلفة ، وتلالها كانت فى وقت من الأوقات كثيرة الأشجار ، وموقعها من أصلح المواقع للتجارة والحرب ، فهى فى منتصف الطريق بين فينيقية وإيطاليا ، وبين مصر وبلاد اليونان . ولقد أشار أرسطاطاليس إلى هذا

(*) كل التواريخ الواردة فى هذا المجلد قبل الميلاد إلا إذا نص على غير ذلك أو كانت واضحة الدلالة على أنها بعد الميلاد .

الموقع الحسن وذكر أنه « هو الذى مكن مينوس Minos من إقامة إمبراطورية لها فى بحر إيجة(*) . ولكن قصة مينوس ، التى يسلم بصحتها كل الكتاب الأقدمين ، وقد رفضها الكتاب المحدثون وعدوها خرافة من الخرافات . وقد كان من عادة المؤرخين قبل أيامنا هذه بستين عاماً لا أكثر أن يقولوا كما قال جروت Grote إن تاريخ الحضارة فى بحر إيجة يبدأ بغزو الدوريين أو بعصر الألعاب الأولمبية ؛ ثم حدث فى عام ١٨٧٨ م أن عثر تاجر كريتى يسمى مينوس كلكيرنوس Minos Kalikairinos — وهو اسم من أليق الأسماء للكشف الذى وفق إليه — عثر هذا التاجر على آثار قديمة فى سفح أحد التلال القائمة فى جنوب قندية(*) . وزار شليمان Schliemann العظيم هذا الموقع فى عام ١٨٨٦ ، بعد أن لم يمض على كشفه عن ميسينى Mycenae وطروادة إلا زمن قليل ، وأعلن عن اعتقاده بأن تحت ثراه آثار مدينة كنوسس القديمة ، وأخذ يفاوض مالك الأرض فى أن يسمح له بيده أعمال الحفر على الفور ، ولكن المالك أخذ يساوم ويماحك وحاول أن يمكر به ؛ وكان شليمان تاجراً قبل أن يكون عالم آثار ، فتركه مغضباً ، وأضاع بذلك فرصة ذهبية لو اغتنمها لأضاف هو حضارة جديدة إلى حضارات التاريخ ، ومات بعد عام واحد من ذلك الوقت .

وفى عام ١٨٩٣ ابتاع دكتور آرثر إيفنز Arthur Evans عالم الآثار البريطانى من امرأة فى أثينة عدداً من الحجارة البيضاء كانت تمائم ، وقد أدهشه ما كان محفوراً عليها من كتابة أثرية لم يكن فى وسع عالم من العلماء أن يقرأها . وما زال يتقصى مصدر هذه الحجارة حتى عرف أنها من كريت ، فحصل على إذن بالسفر إليها ، وأخذ يطوف فى أنحاء الجزيرة ويجمع منها مايعتقد أنه نماذج الكتابة الكريتية القديمة . وفى عام ١٨٩٥ ابتاع جزءاً من الموقع الذى كان شليمان والمدرسة الفرنسية يعتقدان أنه موقع كنوسس وبعد أن قضى

(*) العاصمة الجديدة للجزيرة واسمها الرسمى الحديث هرقليوم Heracleum

تسعة أسابيع من ربيع ذلك العام يحفر فيه مستخدماً فى ذلك خمسين رجلا أماط اللثام عن أعظم ما أسفرت عنه البحوث التاريخية الحديثة من كنوز ، نقصد بذلك قصر مينوس . وليس فيما كشف من الصروح القديمة صرح يعادل هذا الصرح المعقد فى اتساعه ، وأكبر الظن أنه هو قصر التيه الذى لا نهاية له ، والذى اشتهر فيما يروى من القصص اليونانية القديمة عن مينوس ، وديدلس Deadalus ، وثيسيوس Theseus ، وأدريانى Adriane والمينوتور Minotaur . وكأنما شاءت الأقدار أن تؤيد ما أوحت به قريحة إيفنز إليه ، فعثر فى هذه الخرافات وفى غيرها على آلاف من الأختام وألواح الصلصال ، عليها رموز تشبه الرموز التى جاء إلى كريت يتعقبها ، وكانت النيران التى دمرت قصور كنوسس قد حفظت هذه الألواح ، ولا يزال ما عليها من الكتابة التصويرية ومن الحروف الهجائية غامضاً يخفى قصة بحر إيجة القديمة(*) .

ولما ذاع نبأ هذا الكشف هرع العلماء إلى كريت من كثير من الأقطار . وبينا كان إيفنز يعمل فى كنوسس كشف جماعة من الإيطاليين ذوى الجلد والعزيمة — هلبهر Halbherr ، وبرنير Pernier ، وسفنيونى Savignoni وبربنيى Paribeni — فى حاجيا ترياداا Hagia Triada (الثالوث المقدس) — تابوتاً عليه صور من الحياة الكريتية واضحة الدلالة ، كما كشفوا فى فستس Phaestus عن قصر لا يفوقه فى سعته إلا قصر ملوك كنوسس . وفى هذه الأثناء كان اثنان من الأمريكيين هما سيجر Seager ومستر هوس Hawes يقومان بأعمال الكشف فى حفائر ڤاسلكى Vasiliki ، ومكلوس Mochlos ، وجورنيا Gournia ؛ وكان البريطانيون — هوجارث Hogarth ، وبوسنكوت Bosaquet ، ودوكنز Dawkins ، وميرز

(*) وظل إيفنز يعمل بجهد ومهارة فى كنوسس سنين طوالا ، ومنح لقب فارس Knight مكافأة له على جهوده ، وأتم فى عام ١٩٣٦ تقريره الرائع المسمى « قصر مينوس » فى أربعة مجلدات .

Myres ينقبون فى پليكسترو Palaikastro وپسيكرو Psychro وزكرو Zakro . واهتم أهل كريت أنفسهم بأعمال الحفر والتنقيب فى ديارهم ، فأخذ زنثوديديز Xanthoudidis وهتزيداكس Hatzidakis يحفران فى مواقع المساكن والمغارات والمقابر القديمة فى أركلوكورى Arkalochori وتيليسس Tylissus ، وكومازا Koumasa ، وشميزى Chamaizi ، وانضوت نصف الأمم الأوربية تحت لواء العلم فى الوقت الذى كان فيه ساستها يستعدون للحرب

ترى كيف تصنف هذه المادة الكثيرة — هذه القصور ، والرسوم ، والتماثيل والأختام ، والمزهريات والمعادن ، والألواح ، والنقوش ؟ — وإلى أى عصر من العصور الغابرة تضم ؟ وقد أرخ إيفنز ما كشف من الآثار حسب عمق الطبقات الأرضية التى وجدت فيها ، وما طرأ على أنماط الخزف من تطور تدريجى ، وما بين الآثار التى كشفت فى كريت وما كشف فى غيرها من البلاد من تشابه فى الشكل أو فى الغرض الذى صنعت من أجله ، والموازنة بين الطبقات التى كشفت فيها والطبقات التى يعرف تاريخها على وجه التقريب فى غير كريت . وما من شك فى أن هذه الطريقة لا تسلم من الخطأ ، ولكن البحوث التى أجريت فيها بعد ، وما حصل عليه العلماء من معلومات جديدة ، تؤيدها تأييداً يتزايد على مر الأيام . وظل إيفنز يواصل أعمال الحفر تحت كنوسس حتى قابلته على بعد ثلاث وأربعين قدماً من سطح الأرض الصخور الصماء ، وكان النصف الأسفل من الأرض التى حفرها تشغله بقايا عليها طابع العصر الحجرى الحديث — من أشكال بدائية لفخار مصنوع باليد ، محلى برسوم مكونة من خطوط بسيطة ، ومن لوالب مغازل تستخدم فى الغزل والنسيج ، ومن إلهات ذوات أعجاز ضخمة من الحجر الصابونى أو الصلصال ، وأسلحة وحجارة مصقولة ؛ ولم يكن من تلك البقايا أدوات من النحاس أو البرنز . وصنف إيفنز الفخار ووازنه بما وجد منه فى مصر القديمة وبلاد النهرين ، وعلى أساس هذا التصنيف

قسم ثقافة كريت فيما بعد العصر الحجرى الحديث وفى عصر ما قبل التاريخ ثلاثة عصور : العصر المينوى المبكر . والمينوى الأوسط ، والمينوى المتأخر . ثم قسم كل عصر من هذه العصور إلى ثلاثة أطوار .

ويمثل أول ظهور النحاس — أى أبعد الطبقات التى ظهر فيها عن سطح الأرض — قيام حضارة جديدة قياماً بطيئاً من مرحلة العصر الحجرى الحديث . وقبل أن يحل العصر المينوى المبكر كان الكريتيون قد عرفوا كيف يخلطون النحاس بالقصدير ، وبدأ بذلك عصر البرنز ، وفى الطور الأول من العصر المينوى الأوسط تظهر أقدم القصور : فيقيم أمراء كنوسس ، وفستوس ، وماليا Mallia لأنفسهم مساكن مترفة كثيرة الحجرات ، ومخازن واسعة ، وحوانيت متخصصة ، ومذابح وهياكل ، ومجارى تبهر المتكبر الغربى المتعجرف ، وتجعله يغض الطرف منها استحياء . ونرى الفخار ذا ألوان كثيرة براقة ، والجدران تزينها مقرنصات ساحرة جميلة ، ونرى نوعاً من الكتابة الحرفية قد تطور من الكتابة التصويرية التى كانت فى العصر السابق .

وفى نهاية الطور الثانى من العصر المينوى الأوسط حلت بالبلاد كارثة عجيبة تركت ما يدل عليها فى الطبقات الأرضية . فقد تهدم قصر كنوسس كأن الأرض قد انشقت فحطمته ، أو لعل ذلك كان على أثر غارة قامت

(*) لما كان من المستطاع تحديد تاريخ أقدم الطبقات المحتوية على أدوات نحاسية فى كنوسس بعام ٣٤٠٠ ق. م. أى منذ ٥٣٠٠ سنة من وقتنا هذا ، وذلك بمقابلتها بآثار الحضارات المجاورة لها ؛ وإذ كانت الطبقات المحتوية على أدوات من العصر الحجر الحديث فى كنوسس تشغل نحو خمسين فى المائة من سمك مجموع عمق الأرض من سطحها إلى الطبقات الصخرية ، فقد قدر إيفنز أن العصر الحجرى الحديث فى كريت بقى ٤٥٠٠ عام على الأقل قبل معرفة المعادن ، أى من عام ٨٠٠٠ إلى ٣٤٠٠ ق. م. تقريباً . ولا حاجة إلى القول بأن تقدير الزمن بناء على عمق الطبقات الأرضية تقدير يختلف فيه العلماء كل الاختلاف ، لأن معدل الرسوب قد يختلف فى العصور المختلفة . وقد أدخل إيفنز فى حسابه بطء هذا المعدل بعد أن ترك موقع كنوسس ، ولم يعد موضعاً لمدينة عامرة فى القرن الرابع قبل الميلاد . ولم توجد فى كريت أدوات من العصر الحجرى القديم .

بها فستوس التى ظل قصرها باقيا بعد ذلك فترة من الزمان . ثم أصاب فستوس ومكلوس ، وجورنيا وپليكسترو ، ومدناً أخرى كثيرة فى الجزيرة ، ما أصاب كنوسس من تخريب ، فترى الفخار قد غطاه الرماد ، والجرار الكبيرة فى المخازن ملأى بالأنقاض . أما الطور الثالث من العصر المينوى الأوسط فطور ركود نسبي ، وقد يكون هو الطور الذى اضطربت فيه أحوال البلاد الواقعة فى جنوب البحر المتوسط على أثر فتح الهكسوس مصر ، ودام اضطرابها زمناً طويلا(*) .

وفى العصر المينوى المتأخر يبدأ كل شىء من جديد ، فتتجدد آمال الإنسانية التى تصبر على كل بلوى ، وتسرى فيها روح الشجاعة ، وتبدأ الحياة مرة أخرى ، فتقوم قصور جديدة أجمل من القصور السابقة فى كنوسس ، وفستوس ، وتليسوس ، وحاجيا تريادا ، وجورنيا ، فتعمها الفخامة ، وتكثر المبانى ذوات الأطباق الخمسة ، والنقوش البديعة ، وتوحى المبانى الفخمة بأن أحوال البلاد قد بلغت من الثراء ما لم تعرفه بلاد اليونان حتى عصر پركليز .

هنالك ترى دور التمثيل قد شيدت فى أفنية القصور ، وترى النساء والرجال يجالدون الوحوش لتسلية الرجال والسيدات ، وهؤلاء لا تزال وجوههم الأرستقراطية اليقظة الحادثة حية فى المظلات البراقة الباقية على الجدران الجديدة . وتتضاعف حاجات الأهلين ، وترق أذواقهم ، وتزدهر الآداب ، وتنشأ مئات من الصناعات ، فيستطيع الفقراء أن يستمتعوا بالرخاء وهم يعملون ليمدوا الأغنياء بأسباب الراحة والنعيم . وترى أبهاء الملوك تدوى فيها أصوات الكتبة وهم يحصون السلع التى يوزعونها أو يتسلمونها ، وأصوات الفنانين وهم ينحتون التماثيل ، أو يرسمون الصور ، أو يصنعون

(*) إذا أراد القارىء أن يعرف كم من السنين دام كل طور من هذه الأطوار فليرجع إلى ثبت الحوادث المسلسلة فى أول هذا الباب .

الفخار ، أو ينقشون النقوش ؛ وأصـــوات كبار الموظفين يعقدون المؤتمرات ، ويستمعون إلى القضايا المستأنفة أحكامها إليهم ، أو يبعثون بالأوراق مبصومة بأختامهم الجملية الدقيقة الصنع ؛ بينا ترى الأمراء ذوى الخصر النحيل والأميرات المحليات بالجواهر ، المغريات ، العاريات النحور ، يجتمعون فى وليمة ملكية يقدم لهم فيها الطعام على موائد تتلألأ عليها صحاف البرنز والذهب . لقد كان القرنان السادس عشر والخامس عشر قبل الميلاد هما العهد الذى بلغت فيه الحضارة الإيجية ذروة مجدها وهما عصر كريت الذهبى القديم .

الفصل الثالث

حضارة تستعاد من بقاياها

إذا شئنا أن نستعيد هذه الحضارة المدفونة مما بقى من آثارها — أى أن نفعل بآثار كريت المتفرقة ما فعله كوفييه Cuvier بالعظام البشرية المشتتة — وجب علينا أن نذكر أننا نقدم بهذا العمل على مغامرة تاريخية لا تؤمن مغبتها ، وللخيال فيها شأن كبير ، لأنه هو المصدر الذى نستمد منه الصلات الحية التى تسد الثغرات وتربط المادة العلمية الضئيلة المشتتة التى يحركها المؤرخون حركة اصطناعية ، بعد أن ماتت من زمن طويل . وسيظل ما تنطوى عليه جزيرة كريت من معلومات مجهولا خافياً على العالم حتى يفيض للأسرار المخبوءة فى ألواحها عالم مثل شمبليون .

١ — الرجال والنساء

بين الكريتيين ، كما يتصورهم فنانوهم ، وبين البلطة المزدوجة التى تظهر كثيراً فى رموزهم الدينية شبه غريب . فالرجال منهم والنساء لهم أجسام تدق من أعلاها ومن أسفلها حتى تنتهى فى الوسط بدائرة شديدة الضيق كطراز هذه الأيام ، ولكنه مبالغ فيه . وكلهم تقريباً قصار القامة نحاف ، لدن ، رشيقو الحركة ، ذوو أناقة رياضية . وهم بيض البشرة وقت مولدهم ؛ فأما نساؤهم اللائى يلازمن الظل فلهن وجوه بيض ، جرى عرفهم بأن تمثل فى صورهن ضاربة إلى الصفرة ؛ وأما الرجال الذين يسعون فى مناكب الأرض طلباً للرزق ، فقد لوحت الشمس وجوههم فاحمرت ، ولذلك كان اليونان يسمونهم كما كانوا يسمون الفينيقيين الفوينيقيين أى الأرجوانيي اللون ، ورؤوسهم أقرب إلى الطول منها إلى العرض ، ومعارفهم حادة دقيقة ، وشعورهم وعيونهم سوداء



براقة كشعور الإيطاليين وعيونهم فى وقتنا الحاضر . ولا جدال فى أن هؤلاء الكريتيين فرع من جنس « البحر المتوسط[*] » ؛ والرجال منهم والنساء يرسلون شعرهم ، بعضه معقوص فوق رؤوسهم وأعناقهم ، وبعضه فى حلقات فوق جباههم ، وبعضه الآخر فى غدائر تنوس على أكتافهم أو صدورهم . ويضيف النساء إلى ذلك أشرطة فى غدائرهن ، أما الرجال فكانوا يصطحبون معهم حتى فى قبورهم طائفة من شفرات الحلاقة ليحتفظوا بوجوههم حليقة نظيفة حتى فى القبور[١٠] .

وليست ملابسهم بأقل غرابة من أجسامهم ، فقد كان الرجال يضعون على رؤوسهم — إذا وضعوا شيئاً عليها لأنهم كانوا فى أغلب الأحيان يتركونها عارية — عمائم أو قبعات عراضاً ، وكان النساء يلبسن قبعات فخمة من طراز القبعات التى كانت منتشرة فى بداية القرن العشرين . وكانوا فى العادة حفاة الأقدام ، عدا أفراد الطبقات العليا ، فقد كانوا أحيانا ينتعلون أحذية بيضاء من الجلد ، كانت عند النساء مزركشة جميلة فى أطرافها ، مزينة سيورها بالخرز . ولم يكن الرجال فى العادة يلبسون شيئاً على أجسامهم فوق وسطهم ، أما فى أوساطهم فكانوا يلبسون تنورات قصيرة ، أو مناطق تكون أحياناً منتفخة من الأمام تأدباً واحتشاماً . وقد تكون « التنورة » مفتوحة من الجانبين عند العمال ، أما عند العظماء وفى الحفلات فكانت تطول حتى تصل إلى الأرض عند الرجال والنساء على السواء . وكان الرجال يلبسون السراويل أحياناً ، وكانوا فى الشتاء يلبسون رداء خارجياً طويلا يتخذ من الصوف أو الجلد . وكانت الملابس تربط ربطاً محكما فى وسط

(*) يقسم علماء تاريخ الإنسان الطبيعى الأوربيين بعد العصر الحجرى الحديث الأقسام الثلاثة الآتية التى كانت لها على الترتيب الكثرة الغالبة فى شمال أوربا ، وسطها وجنوبها ، وهى : (١) « الجنس النوردى » أى الشمالى وأفراده طوال الرؤوس ، طوال القامة ، بيض البشرة شقر الشعر ملح العيون . (٢) « الجنس الألبى » وأفراده عراض الرؤوس ، متوسطو القامة ، عيونهم عسلية وبشرتهم ضاربة إلى السمرة . (٣) « جنس البحر المتوسط » وأفراده طوال الرؤوس قصار القامة سمر البشرة . وجدير بنا أن نعرف أنه لا يوجد من هذه الأجناس جنس خالص نقى .

الجسم ، لأن الرجال والنساء جميعاً كانوا يحرصون على أن يكونوا — أو أن يبدوا — رفيعي الوسط كأن أجسامهم تتركب من مثلثين[١١]. وأرادت النساء في العصور المتأخرة أن ينافسن الرجال في ضيق أوساطهن فعمدن إلى المشدات القوية تجمع تنوراتهن حول أعجازهن ، وترفع أثداءهن العارية إلى ضوء الشمس . وكان من عادات الكريتيات الظريفة أن تبقى صدورهن عارية ، أو تكشفها قمصان شفافة[١٢] ، ولم يكن أحد يتحرج من هذا أو يرى فيه غضاضة . وكان المجول يربط تحت الصدر ، ثم ينفتح فتحة دائرية غير دقيقة ، ثم يعود فينطبق انطباقا جميلا حول العنق أشبه بالطوق الميديشى لطراز . وكانت الأكمام قصيرة منتفخة فى بعض الأحيان ؛ وكانت التنورات تزدان بالثنايا والألوان الزاهية ، وتتسع كثيراً عند العجز ، وتقوَّى فى أغلب الظن بأعواد من المعدن أو بأطواق أفقية الوضع . وإنا لنرى فى ترتيب ملابس الكريتيات وأشكالها تناسقا فى الألوان ، وجمالا فى الأشكال ، ورقة فى الذوق ، تنم عن حضارة غنية راقية ازدهرت فيها الفنون وارتقت أساليب الحياة . ولم يتأثر اليونان بالكريتيين فى هذه المسائل ولم تتغلب أزياؤهم على غيرها من الأزياء إلا فى العواصم الحديثة ؛ بل إن علماء الآثار أنفسهم يطلقون اسم « الباريسية » على صورة المرأة الكريتية ذات الصدر المرتفع البراق ، والعنق الجميل ، والفم المغرى ، والأنف البارز ، والجمال القوى المثير . إن هذه المرأة لتجلس أمامنا اليوم فى غير حياء مصورة فى طنف منقوش ، يطل فيه جماعة من العظماء على منظر لن يسمح لنا الزمان برؤيته ما حيينا[١٣] .

وواضح فى هذه الرسوم أن رجال كريت كانوا يحمدون لنسائها ما يخلعنه على الحياة من لطف ومغامرات ، لأنهم لا يبخلون عليهن بما يحتجن من مال يزدن به جمالهن وفتنتهن . فقد كشف فى الآثار عن حلى كثيرة مختلفة الأنواع ، من دبابيس للشعر نحاسية وذهبية ، ودبابيس ومشابك منقوشة عليها بالذهب حيوانات أو أزهار ، أو رؤوس من البلور أو المرمر ، وأقراط

مزركشة بخيوط من الذهب تختلط بالشعر ، وعصائب أو حلى من المعادن النفيسة تربطه ، وأقراط أو قلادات مدلاة من الآذان ، ومشابك وخرز وعقود على الصدر ، وأساور فى الأذرع ، وخواتم فى الأصابع من فضة ، وعقيق ، وجزع ، وجمشت ، وذهب . وكان الرجال يتحلون أيضاً ببعض هذه الحلى ، فإذا كانوا فقراء لبسوا عقوداً وأساور من حجارة عادية ، وإذا أمكنتهم مواردهم ازينوا بخواتم كبيرة نقشت عليها صور الحرب أو الصيد . ونرى الساقى فى الصورة الذائعة الصيت يلبس فى عضده الأيسر إسورة عريضة من معدن نفيس ، وفى معصمه إسورة مطعمة بالعقيق . ونرى الرجل فى الحياة الكريتية أيا كان موضعه يعرض أنبل عواطفه وأشد ما يفتخر به من هذه العواطف وهى حرصه على التجمل .

وتكاد النساء أن يكن صاحبات السلطان الأعلى فى الحياة الكريتية . ذلك أن المرأة المينوية لم تكن ترضى بحياة العزلة التى كانت تسود بلاد الشرق ، ولم تكن تطيق الحجاب أو البقاء فى الدور ، وليس ثمة دليل على أنه كان للنساء أجنحة خاصة فى المنازل . لقد كانت المرأة تشتغل فى البيت بلا ريب كما تفعل بعض النساء حتى فى وقتنا هذا ، تنسج الأقمشة وتضفر السلال ، وتطحن الحب وتخبز العيش ، ولكنها كانت فوق ذلك تعمل مع الرجل فى الحقل وتصنع معه الفخار ، وتختلط بالرجال فى الأسواق ، وكان النساء يجلسن فى المقاعد الأمامية فى دور التمثيل وفى حلبات الألعاب ، وينتقلن فى المجتمعات الكريتية وعليهن سيماء العظمة والملل من التعظيم والتمجيد . ولما أن صاغت الأمة أربابها كان هؤلاء الأرباب فى أكثر الأحيان أشبه بالنساء منهم بالرجال . وإن العلماء المبجلين المشغفين على غير علم منهم — شغفاً لا غضاضة عليهم فيه — بصورة الأم المنقوشة على صفحات قلوبهم لبطأطئون رؤوسهم إجلالا أمام آثار المرأة فى هذه الحضارة ، ويقفون مذهولين أمام سلطانها العظيم(١٤) .

٢ — المجتمع

وسوف نفترض أن كريت فى عهدها القديم كانت تقسمها جبالها أقساماً تسكنها عشائر قليلة العدد متحاسدة متباغضة ، تقيم فى قرى منفصلة مستقلة ، يحكمها زعماؤها ، وتتقاتل كما يتقاتل سائر الناس بفطرتهم . ثم يظهر من بين هؤلاء الزعماء زعيم قدير يضم عدداً من هذه العشائر تحت سلطانه ، ويؤلف منها مملكة ، ويشيد قصره الحصين فى كنوسس أوفستوس أوتلنيوس أوغيرها من المدن ، ثم تصبح الحروب أقل عدداً وأكثر اتساعاً وأشد تقتيلا . ثم تنضم المدن كلها وتحارب دفاعاً عن الجزيرة بأجمعها وتنتصر كنوسس ؛ وتنشئ المدينة المنتصرة أسطولا بحرياً تسيطر به على بحر إيجه ، وتقضى على القراصنة ، وتفرض الخراج على غيرها من الجزائر ، وتناصر الفنون كما فعل بركليز فيما بعد[١٩] . وهكذا تقوم الحضارة فى إثر القرصنة ، والحق أن من الصعب قيام حضارة من غير سرقة كما أن من الصعب أن تبقى بغير عبيد(*) .

ويستند سلطان الملك ، كما يستدل من الآثار ، على القوة والبطش ، وعلى الدين والقانون . وهو يغوى الآلهة ويستخدمها لمعونته ليجعل طاعة الناس إياه أيسر عليهم وأقل كلفة ، ويلقن كهنته الناس أنه من نسل فلكانوس Volchanos ، وأنه تلقى من هذا الإله القوانين التى يصدرها ، وإذا ما كان الملك قديراً أو سخياً فإن هؤلاء الكهنة يخلعون عليه من جديد السلطة الإلهية ، ويتخذ الملك البلطة المزدوجة وزهرة الزنبق رمزاً لسلطانه كما فعلت رومة وفرنسا فيما بعد . وهو يستخدم فى تصريف شئون الدولة (كما تشير بذلك أكداس الألواح) طائفة من الوزراء وموظفى الدواوين والكتبة .

(*) يقول توكيديد ، الحذر المدقق ، إن أول شخص معروف تزعم الرواية التاريخية أنه بنى أسطولا هو مينوس وسيطر به على البحر المعروف باسم البحر الهيلينى وحكم جزائر سكلديس ... وقد بذل غاية جهده ليقضى على القرصنة فى ذلك البحر ، وكانت هذه خطوة لا بد منها لضمان الخراج الذى يستخدمه فى مصالحه .

وهو يجبى الضرائب عيناً ، ويختزن فى جرار ضخمة موارده من حب وزيت وخمر ، ومن هذه الموارد يؤدى رواتب رجاله عيناً . وهو يقضى وهو جالس على عرشه فى القصر من مجلسه فى بيته الملكى الصغير فيما يرفع إليه من القضايا التى مرت بمحاكمه . وقد بلغ من شهرته فى أحكامه أنه يصبح فى الدار الآخرة بعد موته قاضى الموتى الذين لا مفر من عرض قضاياهم عليه[٢١] ، كما يؤكد لنا هومر . ونحن نسميه فى كتابنا مينوس ولكننا لا نعرف حقيقة اسمه . ولعل هذا لقب لا اسم شبيه بلفظ فرعون أو قيصر يطلق على عدد كبير من الملوك .

وتدل هذه الحضارة فى ذروة مجدها على أنها حضارة مدن لا حضارة ريف . وتحدثنا الإلياذة عن « مدائن » كريت « التسعين » ، ويعجب اليونان الذين يفتحونها من كثرة سكانها . بل إن الدارس ليقف اليوم مرتاعاً أمام شوارعها المحطمة المرصوفة ذات المجارى ، وأمام أزقتها المتقاطعة ، وحوانيتها التى يخطئها الحصر ، وميادينها المتجمعة حول مركز من مراكز التجارة أو الحكم ، حيث نرى الرجال محتشدين يتحدثون وهم ساكنون وادعون . وليست كنوسس وحدها هى المدينة العظيمة ذات القصور الواسعة التى تغرى الخيال على أن يبالغ فى عظمة المدينة التى كانت بلا ريب أكبر مصدر لثروة هذه القصور ، وأول ما يستفيد من ثروتها . ويقابل كنوسس على شاطئ الجزيرة الجنوبى مدينة فستوس ، ومن مينائها « تحمل قوة الريح والأمواج إلى أرض مصر السفن ذات المقدمات القاتمة ، كما يقول هومر »[٢٢] . وفى هذه المدينة تتجمع تجارة كريت المينوية الذاهبة إلى الجنوب ، مضافاً إليها السلع التى يأتى بها تجار الشمال الذين ينقلون بضائعهم إليها بطريق البر ليتجنبوا أخطار الطريق البحرى الطويل . وتصبح فستوس بعدئذ لكريت كما كانت بريوس لليونان ، تحب التجارة أكثر من حبها الفن ؛ ومع هذا فإن قصر أميرها صرح فخم ، يرقى إليه بطائفة من الدرج يبلغ اتساعها

خمساً وأربعين قدماً ، ولا تقل أبهاؤه وأفنيته عن مثيلاتها فى كنوسس ؛ ففناؤه الأوسط مربع مرصوف يبلغ اتساعه عشرة آلاف قدم مربعة ، وحجرة الاستقبال فيه تبلغ مساحتها ثلاثة آلاف ، أى أكبر من الردهة العظيمة ، ردهة البلطة المزدوجة ، فى العاصمة الشمالية .

وعلى بعد ميلين من فستوس فى اتجاه الشمال الغربى منها تقع حاجياتريادا ؛ وإلى بيتها الملكى الصغير (كما يسميه علماء الآثار) يلجأ أمير فستوس ليتقى حر الصيف . وكان طرف الجزيرة الشرقى فى الأيام المينوية غنياً بالبلدان الصغيرة : سواء أكانت ثغوراً مثل زكرو ومكلوس ، أو قرى مثل بريسوس preasus وبسيرا pseira ، أو أحياء لسكنى العظماء مثل بليكسترو ، أو مراكز صناعية مثل جورنيا . والشارع الرئيسى فى بليكسترو حسن الرصف كثير المجارى ، تقوم على جانبيه بيوت رحبة ؛ منها بيت يحتوى على ثلاث وعشرين حجرة فى الطابق الذى بقى منه حتى الآن . ولجورنيا أن تفخر بما كان فيها من شوارع واسعة مرصوفة بالجبس وبيوت مشيدة بالحجارة من غير ملاط ، وحانوت حداد لا يزال كيره باقياً إلى الآن ، وحانوت نجار وجد فيه صندوق يحتوى على عدد ، ومصانع تعج بصناع المعادن ؛ وصناع الأحذية والمزهريات ، وتكرير الزيت ، والنسيج ، وإن العمال الذين يكشفون عن تلك الآثار فى هذه الأيام ويجمعون ما فيها من مناضد ذات ثلاث قوائم ، وجرار ، وفخار ، وأفران ، ومصابيح ، ومدى ، و « هاونات » ، وأدوات الصقل . وخطاطيف ، ودبابيس ، وخناجر ، وسيوف ، نقول إن العمال الذين يكشفون الآن عن تلك الآثار ويجمعونها لتعتريهم الدهشة من كثرة ما كانت تخرجه مصانعها من أدوات مختلفـــة الأنواع . ويطلقون عليها اسم « مدينة الآلات »[٢٣] . وإذا قيست شوارع المدينة إلى شوارعنا فى هذه الأيام بدت لنا ضيقة ، فهى لا تزيد على أزقة من طراز أزقة المدن الشرقية الواقعة قرب المدارين ، والتى تخشى حر الشمس اللافح ، أما بيوتها المستطيلة الشكل المشيدة من الخشب أو الآجر أو الحجر ، فلا ترتفع فى الغالب

إلى أكثر من طابق واحد . غير أن ما وجد فى كنوسس من النقوش الباقية من العصر المينوى الأوسط يصور بيوتاً من طابقين أو ثلاثة ، بل ومن خمسة أحياناً ، فى أعلاها حجرة مفردة أو برج صغير فى بعض المواضع ؛ وفى الأطباق العليا من هذه البيوت المصورة نوافذ ذات ألواح حمراء مصنوعة من مادة لم تعرف بعد . ولحجرات الطابق الأسفل أبواب ذات مصراعين يدوران على قوائم لعلها من خشب السرو توصل إلى فناء ظليل . ويصعد بدرج إلى الأطباق العليا وإلى سطح المنزل حيث ينام الكريتيون فى الليالى الشديدة الحرارة . أما إذا قضوا الليل فى داخل البيوت فإنهم يضيئون بيوتهم بمصابيح زيتية تصنع من الصلصال أو حجر الصابون ، أو الجبس أو الرخام ، أو البرنز حسب ثروة أصحابها[٢٤] .

ولسنا نعلم عن ألعاب الكريتى إلا شيئاً واحداً أو شيئين لا أهمية لها ؛ فإذا كان داخل الدار فإنه يحب لعبة شبيهة بلعبة الشطرنج ، فقد خلف لنا فى خرائب قصر كنوسس لوحة لعب فخمة ذات إطار من العاج وعليها مربعات من الفضة والذهب ، واثنتين وسبعين قطعة من المعادن النفيسة والأحجار الكريمة . فإذا كان الكريتى فى الحقول فإنه يعمد إلى الصيد بجرأة وحماسة ومعه قطط نصف برية ، وكلاب صيد أصيلة ضامرة . وإذا كان من سكان الحواضر شجع الملاكمين ، وتراه يصور على مزهرياته وفى نقوشه البارزة أنواعاً مختلفة من المباريات ، يتلاكم فيها ذوو الأوزان الخفيفة بأيديهم العارية وأقدامهم ، وذو الأوزان المتوسطة يتلاكمون بقوة ، وعلى رؤوسهم خوذ مزدانة بالريش ، وذوو الأوزان الثقيلة يدلون بخوذهم وأقنعة خدودهم وقفازاتهم الطويلة المبطنة ، ويواصلون الملاكمة حتى يسقط أحدهم على الأرض من فرط الإعياء ، ويقف الثانى فوقه يتباهى بما أحرزه من نصر[٢٥].

ولكن أكثر ما يثير حماسة الكريتى أن يشق طريقه بين الجموع التى تملأ المدرج فى يوم من أيام الأعياد ليرى الرجال والنساء يواجهون الموت أمام

هجمات الثيران الهائجة . وكثيراً ما يصور مراحل هذا الصراع الوحشى الشديد ، يصور الصائد الجرىء يقتنص الثور بأن يقفز فوق عنقه وينزل ساقيه على جانبيه وهو يشرب الماء من إحدى البرك ؛ ويصور المروض المحترف وهو يلوى رأس الثور حتى يتعلم شيئاً من الخضوع لحيل المدرب البغيضة ؛ ثم المجتلد الماهر النحيل الجسم الخفيف الحركة وهو يلتقى بالثور فى الحلبة ، ويمسك بقرنيه ، ويقفز فى الهواء ، وينقلب فوق ظهر الحيوان ، ثم ينزل برجليه على الأرض بين ذراعى فتاة تضفى على المنظر من جمالها وزشاقتها[٢٦] . ولقد أصبح هذا الصراع حتى فى كريت المينوية من الألعاب القديمة التى طال بها العهد ؛ فقد عثر فى كپدوشيا على أسطوانة من الصلصال يعزى تاريخها إلى عام ٢٤٠٠ ق . م ، وتمثل صراع ثور لا يقل فى شدته أو خطورته عما هو مصور فى المظلمات السالفة الذكر[٢٧] . وإذا ما قلبنا الفكر فى هذه اللعبة الدالة على شجاعة الإنسان وتعطشه لسفك الدماء ، والتى لا تزال منتشرة فى هذه الأيام ، وعرفنا أنها قديمة قدم الحضارة نفسها ، إذا ما فعلنا ذلك أدركت عقولنا المولعة بتبسيط الأمور والاستهانة بها — وإن كان هـــذا الإدراك لا يدوم إلا لحظات — ما فى الطبيعة البشرية من تناقض وتعقيد .

٣ — الدين

ربما كان الكريتى وحشياً قاسياً ، ولكنه كان بلا شك متديناً يتركب من مزيج بشرى كامل من الفيتشية والخرافة من جهة والمثالية وتعظيم الأرباب من جهة أخرى ؛ فهو يعبد الجبال والمغارات ، والعدد ٣ ، والأشجار ، والأعمدة ، والشمس والقمر ، والمعز والأفاعى ، واليمام والثيران ، وقلما يسلم شىء من عبادته . والهواء فى اعتقاده مملوء بالأرواح الطيب منها والخبيث ، وتنتقل منه إلى بلاد اليونان طائفة شفافة من جن الحراج منها الذكور ومنها الإناث .

وهو لا يعبد عضو التذكير عبادة ؛ ولكنه يعظم فى رهبة وخشوع ما فى الثور والأفعى من قوة حيوية منتجة(٢٨) . وإذ كان معدل الوفيات بين الكريتيين كبيراً فإنه يعظم الإخصاب ، وحين يسمو به تفكيره إلى إيجاد إله بشرى يصور لنفسه إلهته أماً ذات ثديين وجسم فارع الطول ، وأفاع تلتف حول ذراعيها وثدييها ، وتتلوى فى شعرها أو تتدلى فى أنفة وكبرياء من رأسها . وهو يرى فى هذه الإلهة الأم الحقيقة الأساسية من حقائق الطبيعة ، وهى أن الموت عدو الإنسان الألد تغلبه قدرة الأم الخفية العجيبة على التناسل والتكاثر ، وهو لذلك يؤله هذه القدرة . فالإلهة الأم تمثل له مصدر الحياة بأجمعها فى النبات والحيوان والإنسان . وإذا ما أحاط صورتها بالحيوان والنبات فما ذلك إلا أن الحيوان والنبات يوجدان من خصوبتها الخلاقة ، وهما لذلك يرمزان لها ولما ينبعث منها . وهى تظهر فى بعض الأحيان تضم بين ذراعيها طفلا قدسياً هو ڤلكانوس ولدته فى مغارة جبلية(٢٩)؛ وإذا ما تأملنا هذه الصورة القديمة رأينا من خلالها إيزيس وحورس ، وإشتار وتموز ، وسيبيل وأتيس ، وأفرديتى وأدنيس ، وأحسسنا بوحدة ثقافات ما قبل التاريخ ، واتصال الآراء والرموز الدينية فى عالم البحر المتوسط بعضها ببعض .

وزيوس الكريتيين ، وهو الاسم الذى يطلقه اليونان على ڤلكانوس ، أقل منزلة من أمه فى حب الكريتيين ، ولكنه يزداد أهمية على مر الأيام . ففيه يتمثل المطر المخصب ، والرطوبة التى يرى هذا الدين كما يرى طاليس أنها أساس كل شىء . وهو يموت ثم يشاهد الناس ضريحه جيلا بعد جيل على جبل يوكتاس Jouktas ، ولا تزال صفحة وجهه الفخمة الجلية تظهر للسائح القوى الخيال ؛ ثم يقوم من قبره ليكون رمزاً للنبات المجدد للحياة ، ويحتفل القسيسون ببعثه المجيد بالرقص والضرب بالدروع(٣٠) ، وهو بوصفه إلهاً للخصب يتصور أحياناً كأنه حل فى جسم الثور المقدس ؛ وهو بهذه الصفة

يضاجع باسفيا زوجة مينوس فى الخرافات الكريتية فتلد له ثور مينوس المهول أو المينوتور .

ويعمد الكريتى لاسترضاء هذه الآلهة إلى طقوس لا حصر لها من الصلوات والتضحيات ، والرموز ، والاحتفالات ، يقيمها فى العادة كاهنات من النساء ، ويقيمها فى بعض الأحيان موظفون من رجال الدولة . وهو يطرد الشياطين ويتقى أذاها بحرق البخور ، ويستثير الإله الغافل بالنفخ فى صدفة بحر زدوجة ، وبالقيثارة أو الناى ، وينشد الأناشيد الجماعية تعبداً وخشوعاً . ويعمل على إنماء البساتين والحقول بإرواء أشجارها ونباتها بمراسم دينية ، وترى كاهنات البلاد وهن عاريات هائجات يهززن الأشجار التى نضجت ثمارها لتسقط حملها ، أو نساءها يسرن فى مواكب يحملن الفاكهة والأزهار يقدمنها للآلهة التى يحملنها فى هودج ويومئن بها إليها . والظاهر أن الكريتى لم يبن له معبداً ولكنه كان يقيم مذبح القربان فى بهو القصر أو فى الأيك أو المغارات المقدسة أو على قلل الجبال . وهو يزين هذه الأماكن المقدسة بأن يضع فيها مناضد يصب عليها السوائل قرباناً للأرباب ، وأصناماً مختلفة الأشكال و « قروناً قدسية » لعلها ترمز إلى الثور المقدس . والرموز المقدسة عند الكريتى لا حصر لها ، ويلوح أنه يعبد هذه الرموز كما يعبد الآلهة التى تدل عليها . ومن هذه الرموز الدرع ولعله كان يراه رمزاً للآلهة فى صورتها الحربية ، ثم الصليب — فى صورتيه اليونانية والرومانية — يحفره على جبهة ثور أو على فخذ إلهة أو ينقشه على خواتم ، أو يقيمه من الرخام فى قصر الملك . وأهم هذه الرموز كلها البلطة المزدوجة بوصفها آلة التضحية ، وقد أضحت لها قوة سحرية عظيمة اكتسبتها من فضيلة الدم الذى تسفكه ، أو سلاحا مقدساً يهديه الإله فلا يخطئ قط ، أو رمزاً لزيوس الذى يرسل الرعد ويشق السماء بصواعقه[٣١] .

وهو إلى هذا كله يعنى بعض العناية بموتاه ، ويعبدهم عبادة لا تسمو إلى عبادة الآلهة السالفة الذكر . فهو يدفنهم في توابيت من الصلصال أو فى جرار ضخمة ، لأنهم إذا لم يدفنوا على هذا النحو قد يعودون إلى الحياة الدنيا . وهو يعمل على أن يظلوا راضين قانعين تحت الأرض بأن يضع معهم قدراً غير كثير من الطعام ، وأدوات الزينة ، ودمى صغيرة من الصلصال فى صورة نساء يقمن على خدمتهم أو يواسينهم إلى أبد الدهر . وهو يعمد أحياناً إلى الخداع مدفوعاً برغبته فى الاقتصاد الذى يطيقه تشككه البدائى ، فيستبدل بالطعام الحقيقى حيوانات من الصلصال يضعها فى القبر إلى جانب موتاه . وإذا دفن ملكاً أو نبيلا أو تاجراً مثرياً وضع مع جثته بعض الصحاف الثمينة أو الحلى التى كانت ملكاً لصاحب هذه الجثة ، ويضع أدوات الشطرنج مع اللاعب الماهر ، ومجموعة من الآلات الموسيقية مع الموسيقى ، وقارباً مع من كان مولعاً بركوب البحار . ألا ما أكثر ما يدل عليه هذا العمل من عطف على الأموات ! وهو يأتى إلى القبر فى مواسم معينة ليقدم للموتى قرباناً من الطعام يحفظ عليهم حياتهم ، وهو يرجو أن يستقبل ردمنثس Rhademanthus الإله العادل ابن زيوس فلكانوس الروح الذى تطهر ليهبه السعادة والسلام اللذين لا بقاء لهما على ظهر هذه الأرض .

٤ — الثقافة

أصعب ما يواجهنا فى حضارة الكريتيين هو لغتهم . فالكريتى حين يستخدم الحروف الهجائية اليونانية بعد غزو الدوريين بلاده ، إنما يستخدمها ليدون بها كلاماً يختلف كل الاختلاف عن الكلام اليونانى المعروف وأقرب منه شبهاً بلغات الشرق الأدنى المصرية والقبرصية والحبشية والأناضولية . وقد اقتصر فى أقدم العصور على الرموز التصويرية ، ثم بدأ حوالى ١٨٠٠ ق . م

يختصر هذه الرموز إلى نحو تسعين علامة مقطعية ، وبعد مائتى عام من ذلك الوقت استنبط نوعاً آخر من الكتابة تشبه علاماته الحروف الهجائية الفينيقية : ولعل الفينيقيين قد جمعوا منــه ومن المصريين والساميين تلك الحروف التي نشروها فيما بعد فى جميع البلاد المطلة على البحر المتوسط ، والتى أصبحت الأداة الفعالة فى الحضارة الغربية . والكريتى العامى نفسه ينطق بما توحي به إليه شاعريته ، وينقش أشعاره على جدران حاجيا تريادا ، مثله فى ذلك مثل الأخصاء من ساسة تلك الأيام . وإنا لنجد فى فستوس نوعاً من الكتابة باقياً من أزمنة ما قبل التاريخ . فقد كشف فى تلك المدينة قرص كبير من الطور الثالث من أطوار الحضارة المينوية الوسطى ، طبعت على صلصاله وهو لين رموز تصويرية لأصنام لكل رمز منها خاتم ؛ ولكن الذى يزيد من حيرتنا فى أمر هذه الرموز أنها ليست كريتية بل أجنبية ، وربما كان هذا القرص قد نقل إلى كريت من أحد البلاد الشرقية[٣٢] .

وربما كشفت الألواح الطينية ، التى كان الكريتى يكتب عليها ، فى يوم من الأيام ما كان عنده من العلوم . أما الآن فكل ما نستطيع أن نقوله إنه كان على علم بشىء من الفلك لأنه اشتهر بأنه ملاح ماهر ؛ وتقول الرواية إن الدوريين الذين استوطنوا كريت فيما بعد قد أخذوا التقويم عن المينويين . ويعترف المصريون بأنهم مدينون للكريتيين ببعض الوصفات الطبية ، وقد أخذ عنهم اليونان بعض الأعشاب العطرية والطبية كالنعناع (mintha) ، والشيخ الرومى (aspithon) ، وعقاراً آخر مفيداً كل الفائدة يقال إنه يشفى البدانة من غير حاجة إلى الاقتصاد فى الطعام[٣٣] كما تدل على ذلك أسماء هذه الأعشاب وهذا العقار . ولكن من واجبنا ألا نضع الحدس والتخمين فى مكان التاريخ الصحيح .

وفى وسعنا أن نتأمل خرائب دور التمثيل الكريتية وإن كانت آدابهم

لا تزال كتاباً مغلقاً محتفظاً بجميع أسراره . فقد بنى الكريتيون فى فستوس حوالى عام ٢٠٠٠ق . م عشرة صفوف من المقاعد الحجرية تمتد نحو ثمانين قدماً بجوار جدار يطل على فناء ترفرف عليه أعلام ، كما أقاموا فى كنوسس ثمانية عشر صفاً من المقاعد الحجرية أيضاً طولها ثلاث وثلاثون قدماً . وهذه الدور التى تتسع لعدد من النظارة يتراوح بين أربعمائة وخمسمائة من أقدم ما تعرفه دور التمثيل — فهى أقدم من ملهى ديونيسيوس بألف وخمسمائة عام . ولسنا نعرف ماذا كان يحدث على مسارح هذه الدور ، فالمظلمات تصور النظارة يشاهدون منظراً ما ، ولكننا لا نعرف ماهية هذا المنظر الذى يشاهدونه ، وأكبر الظن أنه خليط من الموسيقى والرقص . وقد احتفظت لنا صورة وجدت فى كنوسس بطائفة من سيدات الطبقة الراقية ، ومن حولهن جماعة من الرجال المعجبين بهن يشاهدون رقصاً تقوم به بعض الفتيات المرحات ، ذوات « النُّقَب » فى أيكة من شجر الزيتون ، وتمثل صورة أخرى راقصة تنوس غدائرها وتمد ذراعيها ؛ وهناك صور تمثل رقصات ريفية شعبية ؛ أو رقصات الكهنة والكاهنات والمتعبدين الفوية أمام صنم أو شجرة مقدسة

ويصف هومر المرقص الذى أنشأه ديدلوس يوماً من الأيام فى كنوسس العريضة لأدريادنى ذات الشعر الجميل ، وفيه يرقص ثلاثة شبان وثلاث عذارى فاتنات مغريات يتماسكون بالأيدى . . . على صوت القيثارة وتقاسيم شاعر من رجال الدين »[٢٤] . وترى القيثارة ذات السبعة الأوتار : التى يعزو اليونان اختراعها إلى عبقرية تربندر Terpander ، مصورة على تابوت فى حاجيا تريادا قبل أن يولد تربندر بألف عام . وهناك أيضاً الناى والمزمار ذو الأنبوبتين والثمانية الحروق والأربع عشرة نغمة بالصورة التى نجدها عند اليونان الأقدمين . ونرى على إحدى الحلى نقشاً يمثل امرأة تنفخ فى بوق مصنوع من صدفة ضخمة كما نرى على زهرية جلاجل تضبط الوقت لأقدام أم الراقصات .

وروح النضارة والمرح والخفة التى تبعث البهجة فى رقص الكريتى ولعبه هى نفسها التى تبعث الحياة فى أعماله الفنية . ولم يخلف لنا الكريتى من مبانيه شيئاً من الأعمال ذات الأبهة والفخامة ، أو ذات الطراز الراقى العظيم ؛ بل نراه يفعل ما يفعله اليابانى فى عصر السموراى ؛ فيجد اللذة والبهجة فيما تمتاز به الفنون الصغيرة من دقة ، وفى تزيين الأدوات التى يستخدمها فى حياته اليومية ، وفى إحكام صنع الأشياء الصغيرة والوصول بها إلى درجة الكمال . وهو يقبل ما يمليه عليه العرف فى الشكل وفى الموضوع شأن كل الحضارات الأرستقراطية ، ويتحاشى البدع المفرطة فى الجدة ، ويتعلم الحرية داخل قيود الذوق والمحافظة على القديم . وقد برع الكريتى فى صـــناعة الفخار ، وفى قطع الجواهر ، وفى حفر مواضع الفصوص فى الخواتم ، وفى النقوش البارزة حيث تتاح له الفرصة لإظهار ما طبع عليه من مهارة ودقة . وهو لا يجد صعوبة فى صياغة الذهب والفضة ، وتركيب الأحجار الكريمة ، وصنع أنواع كثيرة من المجوهرات . وهو يحفر على الأختام التى يصنعها ليوقع بها الوثائق الرسمية والبطاقات التجارية والصكوك المالية ، يحفر على هذه الأختام كثيراً من مظاهر الحياة العادية مفصلة دقيقة ، وكثيراً من مناظر كريت الطبيعية ، تكفى وحدها لأن نتصور منها ما كانت عليه الحضارة الكريتية . وهو يصنع من البرنز طاسات ، وأباريق ، وخناجر وسيوفاً مزدانة بصور النبات والحيوان ومرصعة بالذهب والفضة والعاج والحجارة النادرة . وقد خلف لنا فى جورنيا Gournia ، رغم عبث اللصوص مدى ثلاثة آلاف عام ، كأساً من الفضة مصقولة صقلا فنياً جميلا ، كما خلف فى أماكن متفرقة من الجزيرة ، قروناً للشراب تبرز من رؤوس الآدميين أو الحيوان يكاد الإنسان حتى فى هذه الأيام يحس فيها أنفاس الحياة .

ولم يترك شكلا من أشكال الفخار إلا صنعه وبرز فى هذه الأشكال كلها تقريباً ، فقد صنع المزهريات ، والصحاف ، والفناجين ، وأقداح الشراب ،

والمصابيح والجرار والحيوانات والآلهة . وقد كان في بادئ الأمر ، في العهد المينوى الأول ، يقنع بتشكيل هذه الآنية بيده ، حسب الأنماط التي ورثها عن العصر الحجرى الحديث . وكان يطليها بطبقة زجاجية سمراء أو سوداء ويترك النار تلونها بما تشاء من الظلال . ثم عرف في العهد المينوى الأوسط استخدام عجلة الفخراني ليبلغ بها الذروة في المهارة ، وهو يتطليها في العهد بطبعة زجاجية تماثل في تناسقها ورقتها طلاء الخزف ، وينشر عليها في غير نظام الألوان السوداء والسمراء ، والبيضاء ، والحمراء ، والبرتقالية ، والصفراء ، والقرمزية ، والحمراء القانية ، ويمزجها فيخرج منها ظلالا جديدة ؛ وهو يرقق الصلصال ترقيقاً وصل إلى حد الكمال في الآنية الجميلة الزاهية الألوان الرقيقة الجدران التي وجدت في كهف كمارس Kamares على جبل أيدا Ida ، والتي لا يزيد سمك جدرانها على ملليمتر واحد ، وقد أفرغ على هذه الآنية كل ما وهب من خصب الخيال : وبلغت صناعة الفخار في كريت ذروة مجدها بين عامى ٢١٠٠ ، ١٩٥٠ ق . م وترى الصانع يوقع باسمه على ما يصنع ، ويحرص أهل بلاد البحر المتوسط على اقتناء مصنوعاته ، وفي العهد المينوى المتأخر يطبق أصول الفن إلى أقصى حد على صناعة الفخار الرقيق ، فيصنع من عجينة الفخار ألواحاً ومزهريات زرقاء فيروزجية وآلهات متعددة الألوان ، ونقوشاً لحيوانات بحرية تكاد أن تكون هي والحيوانات الحقيقية سواء . وهل هناك أدل على هـذا من أن إيفنز رأى سرطاناً بحرياً من الميناء فظنه سرطاناً متحجراً (٣٥) . وفي ذلك العهد ترى الفنان يشق الطبيعة ويسره أن يمثل على آنيته أنشط الحيوانات حركة ، وأزهى الأسماك لوناً ، وأرق الأزهار أوراقاً ، وأجمل النباتات شكلا . وهو يخرج روائع الفن الخالدة في الطور الأول من أطوار العصر المينوى المتأخر أمثال مزهرية الملاكمين ومزهرية الحصادين ؛ ففي الأولى يصور القسوة بجميع أشكالها ومواقفها في ألعاب الملاكمة ، ويضيف إليها صوراً من حياة مصارعي الثيران ، وفي

الثانية يتتبع بمنتهى الدقة والإخلاص موكباً لعله موكب الفلاحين يمشون يغنون فى عيد ، ثم تضعف تقاليد الفخار الكريتى ويضمحل فنه ، وينسى الصناع تحفظهم وذوقهم ، فتغطى الزخارف المزهريات من أولها إلى آخرها فى غير نظام ، ويعجز الصناع عن التفكير البطىء والتنفيذ فى صبر وأناة ، ويحل الإهمال والتراخى اللذان ينتحلان اسم الحرية محل الدقة والصقل اللذين عهدناهما فى عصر كمارس . وليس من حقنا أن نلوم الكريتيين على هذا الاضمحلال فهو الموت الذى لا مفر منه والذى لابد أن يلاقيه الفن إذا بلغ سن الشيخوخة وخارت قواه ، فيستغرق فى سبات مدى ألف عام ، ثم يولد من جديد ، ويبلغ منتهى الكمال فى المزهريات الأتكية .

وفن النحت من الفنون الصغرى فى كريت ، وقلما يرقى إلى أكثر من صنع التماثيل الصغيرة إلا فى النقوش المنخفضة وفى قصة ديدلوس . وكثير من هذه التماثيل الصغرى فجة لا تخرج عن نمط واحد جرى به العرف وثبت عليه ؛ ويبدو أنها كانت تصنع من غير مثال تحتذيه . ومن هذه تمثال من العاج يمثل لاعباً رياضياً ساعة أن يقفز فى الهواء ؛ ومنها رأس جميل ضاع جسمه فى أثناء انتقاله إلينا خلال القرون الطوال . وخير هذه التماثيل يفوق فى دقة التشريح وفى وضوح الحركات كل ما عرفناه من تماثيل اليونان قبل أيام ميرون Myron . وأغربها كلها إلهة الأفاعى المحفوظة فى متحف بُسطن — وهى تمثال قوى من العاج والذهب نصفها أنثى ونصفها أفعى ؛ وفى هذا يعالج المثال آخر الأمر الجسم الآدمى بشىء من سعة الإدراك والنجاح . ولكنه حين يريد أن يمثل الضخامة يعمد فى الغالب إلى تمثيل الحيوانات ويقتصر على النقوش البارزة الملونة ، كما نرى ذلك فى رأس الثور المحفوظ فى متحف هركيولانيوم ؛ وفى هذا الأثر المدهش نرى العينين الوحشيتين ، والمنخارين الناخرين ، والفم اللاهث ، واللسان

المرتجف ، وكل هذه قد بلغت من القوة درجة لن تفوقها بلاد اليونان نفسها فى أى عهد من عهودها .

وأكثر ما يستلفت النظر فى كريت القديمة هو تصويرها . ذلك أن النحت معتل لا يؤبه له ، وما عثر عليه من الفخار قليل معظمه قطع متفرقة ، وعمارتها كلها أطلال دارسة ؛ ولكن أجمل الفنون كلها ، وهو الذى يقع فريسة سهلة لعوادى الزمان الذى لا يرحم ، قد أبقى لنا روائع نستطيع أن ندرسها وتستثير إعجابنا من عصر بلغ من القدم حداً سقط من ذاكرة اليونان الأقدمين ، وهم الذين لم يبق من تصويرهم على حداثة عهده بالقياس إلى تصوير الكريتيين صورة واحدة أصيلة . وقد أبقت الزلازل والحروب التى دكت القصور فى كريت على مظلم فى جدار هنا وآخر فى جدار هناك . وإذا ما جلنا فى هذه القصور المخربة ، وتخطينا أربعين قرناً من الزمان ، والتقينا بالرجال الذين زينوا حجرات الملوك المينويين رأيناهم فى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد يضعون على الجدران طبقة من الجير النقى ، ويهديهم تفكيرهم إلى التصوير على السطح المبلل ، فيحركون الفرشاة حركات سريعة ينفذ بها اللون إلى الطلاء قبل أن يجف سطحه . وقد استطاعوا بحذقهم أن ينقلوا إلى أبهاء القصور المظلمة جمال الحقول المكشوفة الوضاء ، فيستنبتون الجص زنبقاً ، وسوسنا ، ونرجسا ، وبردقوشا . وما من أحد شاهد هذه المناظر ثم قال مع القائلين إن روسو قد أزاح الستار عن الطبيعة . ونرى فى متحف هركيولانيوم جامع الزعفران حريصاً على قطف زهره كما صوره مصوره فى العصر المينوى الأوسط ؛ ونرى وسطه رفيعاً إلى حد ينفر منه الذوق ، كما يبدو جسمه طويلا لا يتناسب مع ساقيه ، ولكنا نرى رأسه متقن التصوير خالياً من العيوب ، ونرى الألوان هادئة والأزهار نضرة كما كانت منذ أربعة آلاف عام . وفى حاجيا ترياداً يزين الرسام تابوتاً برسوم لخلائق غريبة نكاد نقول إنها نوبية منهمكة فى طقوس دينية ؛ وخير من هذا كله ما زين به أحد الجدران من أشجار متماوجة يدس بينها — وإن

لم يخفها عن العين بل يتركها واضحة جلية — قطة متحفزة ، تستعد للهجوم دون أن يراها أحد على طائر ملطخ بنفسه ينشنش ريشه فى الشمس . ويصل الرسام الكريتى فى العصر المينوى المتأخر إلى ذروة مجده ، فكل جدار يغريه وكل ثرى يستدعيه ، وهو لا ينقش مساكن الملوك وحدها ، بل ينقش بيوت النبلاء وأثرياء البلاد ، ويزينها بما لا يقل عن زينة بيوت پمپى . على أن نجاحه هذا وكثرة ما ينهال عليه من الطلبات لا يلبثان حتى يفسدا عليه أمره ، وسرعان ما يؤدى حرصه على أن ينتهى مما بين يديه إلى قصوره عن الارتقاء إلى ما يقرب من الكمال فيما يصنع ، فيفضل الكم على الكيف ، ويكرر رسوم الأزهار حتى يمل الناظر إليها من التكرار ، ويصور الرجال بصور لا وجود لها فى الحياة الواقعية ، ويقنع برسم الخطوط الخارجية ، وينحط بفنه إلى المستوى الذى يدرك فيه أن هذا الفن قد جاوز مجده الأعلى وأنه قد آن أوان موته . ولكن من حقه علينا أن نقول إن التصوير لم يمثل الطبيعة بمثل النضارة التى مثلها بها التصوير الكريتى ، مع جواز استثناء مصر القديمة وحدها من هذا التعميم .

وتتضافر الفنون كلها على بناء القصور الكريتية ، فالقوة السياسية ، والسيادة التجارية ، والثراء ، والترف ، وما تجمع فى البلاد من رقة وسمو فى الذوق ، كل هذا يحتم على المهندس ، والبانى ، والصانع ، والمثال ، وصانع الفخار والمعادن ، والنجار ، والمصور ، يحتم على هؤلاء كلهم أن يجمعوا ما وهبهم الله من حذق ليشيدوا به طائفة من حجرات ملكية ، ومكاتب إدارية ، وملاه ، وحلبات ألعاب لتكون محور الحياة الكريتية ومشاهد رقيها وعظمتها . يبنون فى القرن الحادى والعشرين ثم يتهدم بنيانهم فى القرن العشرين ، فإذا جاء فى القرن السابع عشر لا يكتفون فيه ببناء قصر مينوس بل يشيدون كثيراً غيره من الصروح الفخمة فى كنوسس وفى نحو خمسين مدينة أخرى فى الجزيرة المثرية الرخية . ولقد كان عصر الحضارة الكريتية من أزهى العصور فى تاريخ العمارة .

وجدير بنا أن نذكر أن الذين شادوا قصر كنوسس كانت تنقصهم وفرة مواد البناء والرجال ؛ فالمعادن قليلة فى كريت والرخاء لا وجود له فيها على الإطلاق ، ومن أجل هذا تراهم يبنون بحجر الجير والجبس ، ويستخدمون الخشب فى إنشاء الأروقة المقامة على العمد والسقف وجميع الأعمدة التى فوق الطابق الأرضى . وهم يقطعون الكتل الحجرية قطعاً عدداً دقيقاً يستطيعون به أن يضعوها فى أماكنها من غير ملاط . وبهذه الأدوات شادوا حول فناء أوسط سعته عشرون ألف قدم مربعة ثلاثة أطباق من البناء أو أربعة يرقى إليها بدرجات حجرية واسعة ، وتحتوى على ما لا حصر له من الحجرات مراكز للحراسة ، وحوانيت ، ومعاصر للخمر ، ومخازن ، ومكاتب لتصريف شئون الدولة ، ومساكن للخدم ، وحجرات للانتظار ، وأخرى للاستقبال ، ومخادع ، ومعبد ، وجب ، وحجرة عرش ، « وبهو للبلطة المزدوجة » ، وبالقرب من هذه كلها دار للتمثيل ، وقصر صغير ذو حديقة ، ومقبرة . وفى الطابق الأسفل من القصر أقاموا عمداً مربعة ضخمة من الحجارة ، وأما فى الأطباق العليا فقد أقاموها من خشب السرو . والغريب فى هذه العمد أنها رفيعة من أسافلها ثم تتدرج فى السمك إلى أعاليها ، لتحمل السقف على تيجان ملساء مستديرة أو لتلقى بظلالها على جانبيها . وفى داخل هذا القصر وضع بناؤوه مقعداً حجرياً ، مستنداً فى مكان أمين إلى جدار جميل النقش ، وهذا المقعد الحجرى منحوت نحتاً بسيطاً ولكنه يشهد بمهارة من نحته وحذقه ؛ ويسمى الحفارون المستكشفون هذا المقعد الحجرى عرش مينوس ، وفى وسع كل سائح جوال أن يجلس عليه فى تواضع واحتشام ويتصور نفسه برهة من الزمان مسيطراً على هذا المقعد الذى يزيد على بضعة أشبار . وأكبر الظن أن هذا القصر الفسيح هو قصر التيه الشهير (لابرنث) أو هيكل البلطة المزدوجة (لبريس Labryth) الذى يعزوه الأقدمون إلى

ديدلوس والذى خلع اسمه فيما بعد على كل شيء كثير التعاريج سواء كان(*) حجرات أو ألفاظاً أو آذاناً[٣٦] .

وكأن الذين شادوا مدينة كنوسس قد أرادوا أن يدخلوا السرور على النفعيين أهل هذه الأيام الذين يهتمون بأنابيب المياه أكثر من اهتمامهم بالشعر ، فجهزوا القصر بنظام لصرف مائه وفضلاته أرقى من كل نظام مماثل له فى التاريخ القديم . فقد كانوا يجمعون فى قنوات حجرية الماء الذى يسيل على سفوح التلال أو ينزل من السماء ويسيرونه فى أسطوانات مجوفة إلى حمامات(**) ومراحيض ، ثم ينقلون الفضلات فى أنابيب من الصلصال المحروق مصنوعة على أحسن طراز — كل قسم منها طول قطره ست بوصات ، وطوله ثلاثون بوصة ، مزود بشرك لحجز الرواسب ، ومنته بطرف رفيع يدخل به فى القسم الذى يليه ، ويرتبط به ربطاً محكماً برباط من الأسمنت[٣٨] . وربما كان فيها جهاز يمد القصر الملكى بالمـــاء الساخن[٣٩] (†)

وقد زين الفنانون فى كنوسس داخل القصر على سعته بأرق وسائل التزيين . فجملوا بعض الحجرات بالمزهريات والتماثيل الصغيرة ، وبعضها الآخر بالصور الملونة أو النقوش البارزة ، وبعضها بالقوارير الحجرية أو الآنية

(*) ليس قدامنا حجرات إلا افتراضا محضاً بطبيعة الحال . وجدير بنا أن نضيف إلى هذا أن ما استخرج من نقوش القصر قد نقل كله إلى متحف هركيو لانيوم أو غيره من المتاحف ، وأن كثيراً مما بقى منه فى موضعه قد رمم ترميماً مجرداً من الذوق .

(**) لم يعد المؤرخو ن الآن متفقين على أن الفجوات المربعة التى عثروا عليها فى أرض بعض الحجرات كانت حمامات ، وحجتهم فى هذا أنها لا منفذ لها وأنها مصنوعة من الجبس وهو ما يذيبه الماء شيئاً فشيئاً (٣٧) .

(†) عثر مسو Mosso على أنابيب للصرف شبيهة بهذه فى البيت الملكى المقــام فى هاجياترياداً ، وقد وصفها بقوله : « لقد أدهشنى أن أرى فى يوم من الأيام سقط فيه المطر مدراراً أن كل وسائل صرف المياه تعمل عملها بمنتهى الدقة والإتقان ، ولقد رأيت المياه فى البالوعات التى يستطيع الرجل أن يسير فيها واقفاً على قدميه . وإنى لأشك فى أن نظاماً آخر للصرف غير هذا النظام قد بقى يؤدى عمله بعد أربعة آلاف عام من إنشائه »(٤٠) .



الضخمة ، وبعضها بتحف من العاج أو الخزف أو البرنز ، وأقاموا حول أحد الجدران طنفاً من حجر الجير عليه ألواح ذات ثلاثة حزوز متساوية الأبعاد ، وأنصاف ورود ، ونقشوا حول جدار آخر عدداً من اللوالب على سطح طلى ليمثل الرخام ؛ وحول جدار ثالث نقشوا صراعاً بين رجل وثور ، تجلت فيه جميع دقائق الصراع بغاية الوضوح ، ونشر المصور المينوى فى جميع الأبهاء والحجرات كل ما احتواه فنه المبهج من أمجاد ، فصور لنا فى إحدى حجرات الاستقبال سيدات فى ثياب زرقاء فاجأهن وهن يثرثرن ، وأبرز معارفهن ، وأذرعهن الجميلة ، وصدورهن ، وأثداءهن الدفينة ؛ وصور على جدار غيره حقولا من الأزورد والنيلوفر وغصون الزيتون ، وعلى جدار آخر سيدات فى دار التمثيل ، ودلافين تسبح من غير حركة فى ما البحر . وخير من هذه الرسوم الصورة الرائعة الذائعة الصيت ، صورة الساقى المنتصب القامة ، والقوى البنية ، يحمل دهاناً ثميناً فى وعاء أزرق رفيع ، وقد جمَّلت وجهة تربيته ويد الفنان ، وتدلى شعره فى غديرة سميكة على كتفيه الأسمرين وتلألأت الحلى فى أذنيه ، وحول عنقه وذراعيه ومنطقته ، وزين ثوبه الغالى بصور جميلة لبعض الأزهار . وما من شك فى أن هذا الساقى ليس من الرقيق ، بل هو شاب من أبناء الأشراف يفخر بما نال من شرف خدمة الملك . وجملة القول أن ليس فى مقدور حضارة ما أن تتطلب أو تخلق مثل هذا الترف وهذه الزينة إلا إذا كان قد طال عهدها بالنظام ، والثراء ، والفراغ ، وسلامة الذوق .

الفصل الرابع

سقوط كنوسس

إذا ما رجعنا إلى ما قبل هذه الحضارة الباهرة نبحث عن أصلها ، وجدنا أنفسنا نتقلب بين آسية ومصر . فالكريتيون يبدون من جهة شديدى الصلة بالشعوب المنديربية التى تسكن آسية الصغرى ؛ فنى هــذه البلاد كما فى كريت تستخدم ألواح الصلصال للكتابة ، وكان فيها الشاقل وحدة الموازين . وفى كاريا من أعمالها كان يعبد زيوس لبرنديوس Zeus Labrandeus أى زيوس ذو البلطة المزدوجة Labrys ، وفيها كان الناس يعبدون الأعمدة والثور واليمامة ، وفى فريجيا كانت سيبيل العظيمة الشبيهة كل الشبه بالأم الإلهة فى كريت حتى لقد أطلق اليونان على هذه الأم اسم ريا سيبيل Rhea Cybele وعدوا الاثنتين إلهة واحدة[٤٠] .

ومع هذا كله فإن الشواهد الدالة على أثر مصر فى كريت كثيرة فى كل عصر من عصور تاريخها . وقد بلغ تشابه الثقافتين فى أول عهديهما حداً جعل بعض العلماء يظنون أن موجة من الهجرة قد حدثت من مصر إلى كريت أيام الاضطراب الذى وقع فى عهد مينا[٤١] . فالآنية الحجرية التى كشفت فى مكلوس والأسلحة النحاسية الباقية من الطور الأول من العصر المينوى القديم ، تشبه ما وجد من نوعها فى مقابر الأسر المصرية الأولى شبهاً يثير العجب ، والبلطة المزدوجة تظهر على شكل تميمة فى مصر بل يظهر فيها كذلك « كاهن البلطة المزدوجة » . والموازين والمكاييل الكريتية مصرية فى شكلها إن كانت أســيوية فى قيمتها ؛ والأساليب المستخدمة فى النقش على الحجارة

الكريمة ، وفى فن الخزف والتصوير تتشابه فى البلدين تشابهاً جعل اسپنجلر يعتقد أن الحضارة الكريتية ليست إلا فرعا من الحضارة المصرية[٤٢] .

ولكننا لن ننهج نهج اسپنجلر لأننا لا يجوز لنا أن نتغاضى عن فردية الأجزاء فى كلتا الحضارتين ، فالصفة الكريتية واضحة فى حضارتها كل الوضوح مميزة أشد التميز ، ولسنا نجد فى العالم القديم شيئاً آخر امتاز بالرقة فى دقائق الفن وبالرشاقة المركزة فى الحياة والفن . ولنسلم جدلا بأن الثقافة الكريتية أسيوية فى نشأتها العنصرية ، مصرية فى كثير من فنونها ، غير أنها فى جوهرها وفى كليتها تبقى حضارة فذة ، وربما كانت تنتمى إلى خليط معقد من الحضارات شأن جميع البلاد الواقعة فى شرق البحر المتوسط ، حيث ورثت كل أمة فنوناً وعقائد وأساليب متماثلة متقاربة نشأت من ثقافة تنتمى إلى العصر الحجرى الحديث كانت واسعة الانتشار فى تلك البلاد وقامت عليها حضارتها .

ومن هذه الحضارة المشتركة أخذت كريت فى شبابها وأمدتها بقسط بعد نضجها . وبفضل حكمها ساد النظام فى الجزائر المجاورة لها ودخل تجارها فى كل ثغر من ثغورها ، ثم استقرت مصنوعاتها وفنونها فى جزائر سكلديس وعمت قبرص ، ووصلت إلى كاريا وفلسطين[٤٣] ، ثم سارت شمالا إلى آسية الصغرى والجزائر المجاورة لها حتى بلغت طروادة ، واجتازت فى ناحية الغرب إيطاليا وصقلية إلى أسپانيا[٤٤] ، وعمت بلاد اليونان حتى تساليا ، وبقيت فى تراث اليونان عن طريق مسيسينى وتيرنز ، وبذلك كانت كريت فى تاريخ الحضارة الحلقة الأولى من سلسلة الحضارة الأوربية .

ولسنا نعرف أى طرق الاضمحلال الكثيرة هى الطريق التى سلكتها كريت اضمحلالها ، أو لعلها سلكت هذه الطرق الكثيرة كلها ، فقد اختفى ما كانت تشتهر به من غابات السرو والأرز ، وأضحى ثلثا الجزيرة اليوم صخوراً

حجرية صماء لاتستطيع الاحتفاظ بمياه الأمطار الشتوية(٤٥) . ولعل أهلها هى أيضاً قد أسرفوا فى تحديد النسل كما تسرف سائر الحضارات فى عصور اضمحلالها، وتركوا الإكثار للعجزة والضعفاء . ولعل ازدياد الثروة والترف وما أعقبه من انهماك فى الملذات الجسمية قد أضعف ما فى السكان من حيوية ، وأضعف إرادتهم فى أن يعيشوا ويدافعوا عن أنفسهم ، ذلك أن الأمم تولد رواقية وتموت أبيقورية . ولعل انهيار مصر بعد موت إخناتون قد أحدث اضطراباً فى التجارة التى كانت قائمة بين مصر وكريت ، وقلل من ثراء الملوك المينويين ؛ وغير خاف أن كريت ليس فيها موارد داخلية واسعة ، وأن رخاءها إنما يعتمد على التجارة وعلى الأسواق الخارجية لتصريف مصنوعاتها ، ولذلك أصبحت كإنجلترا فى الوقت الحاضر تعتمد اعتماداً شديد الخطورة على سيطرتها البحرية . وربما كانت الحروب الخارجية قد قضت على الكثيرين من شبانها الأقوياء ، وتركت الجزيرة منقسمة مفككة لا تستطيع صد الغزاة الأجانب . وربما كانت الزلازل قد دكت قصورها ، أو أن أهلها قد انتقموا لأنفسهم فى ثورة عنيفة مما قاسوه من ظلم واستبداد قروناً طوالا .

ذلك ما لا نعلمه علم اليقين ، وأما الذى لا شك فيه فهو أن قصر فستوس قد دمر مرة أخرى فى عام ١٤٥٠ ، وأن قصر حاجيا تريادا قد التهمته النيران ، وأن بيوت الأثرياء فى توليسوس قد اختفت من الوجود . ويلوح أن كنوسس كانت فى الخمسين سنة التى تلت ذلك العهد تستمتع بأعظم ما وصلت إليه من ثراء ، ومن سلطان لا ينازعها فيه منازع فى جميع أنحاء بحر إيجة . وفى عام ١٤٥٠ التهمت النيران قصر كنوسس نفسه ، فقد عثر إيفنز فى كل مكان فيه على شواهد دالة على اندلاع اللهب الذى لم يقو الأهلون على حصره — من كتل خشبية وأعمدة محترقة ، وأسرار مسودة ، وألواح طينية قد جمدتها حرارة النار حتى استعصت على أنياب الزمان ، ولقد كان الدمار شاملا ، وكان اختفاء المعادن حتى من الحجرات التى غطتها الأنقاض وحمتها من النيران كاملا ،

مما جعل كثيرين من العلماء يظنون أن هذا الدمار(*) من فعل الغزاة لا من فعل الزلازل[٤٦] . ومهما يكن سبب هذه الكارثة فإن الجزيرة قد أخذت بها على غرة ، ذلك أن بأماكن الفنانين وحوانيت الصناع شواهد كثيرة على أن أصحابها كانوا منهمكين فى أعمالهم حين حل الموت بهم ؛ وفى هذا الوقت عينه دكت قواعد جورنيا ، وبسيرا ، وزكرو ، وبليكسترو .

وليس لنا أن نظن أن الحضارة الكريتية قد امحت فى يوم وليلة ، فقد أعيد بناء القصور ، ولكنها بنيت متواضعة ، وظلت لمنتجات كريت الفنية الغلبة على الفن الإيجى جيلا أو جيلين من الزمان . وفى منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد نجد آخر الأمر شخصية كريتية بارزة — هى شخصية الملك مينوس التى تقص الرواية اليونانية عنها كثيراً من القصص المرعبة . من ذلك قولها إن عرائس الملك قد ضايقهن كثرة الأفاعى والعقارب فى نطفته ، ولكن زوجته بسفائيه Pasiphae تخلصت منها بطريقة خفية عجيبة[٤٧] ، وأفلحت فى أن تلد له كثيراً من الأبناء ، منهم فيدرا Phaedra (زوجة تسيوس وحبيبه هبوليتوس) وأريدنى Ariadne ذات الشعر الأشقر . ولما أغضب مينوس پوسيدن Poseidon سلط هذا الإله على بسفائية هياما جنونياً بثور مقدس ، وأشفق عليها ديدلوس ، وبفضل صلته حملت فى ميناثور الرهيب ؛ وسجن مينوس ذلك الحيوان فى التيه الذى شاده ديدلوس إطاعة لأمره ، ولكنه كان يسترضيه بالضحايا البشرية من حين إلى حين[٤٨] .

ولعل أظرف من هذه القصة قصة ديدلوس الخرافية رغم خاتمتها المخزية ، لأنها تفتتح ملحمة من أعظم الملاحم وأشدها افتخاراً فى التاريخ . فقد مثلته

(*) إذا صححت التواريخ التى يحددها رجال الآثار بتأخير هذا الحريق الكبير إلى ١٢٥٠ أو نحوها ، أصبح من السهل تفسير هذه الكارثة بأنها من حوادث فتح الآخيين لجزائر بحر إيجة ، ذلك الفتح الذى كان مقدمة لحصار طروادة .

الأقاصيص اليونانية فى قصة أمير أثينى حسد ابن أخيه لمهارته ، فقتله فى ساعة من ساعات غضبه ، ونفى القاتل نفياً أبدياً من بلاد اليونان عقاباً له على قتله . فلجأ ديدلوس الطريد إلى قصر مينوس ، وأدهش الملك بمهارته فى اختراع الآلات وغيرها مما لا عهد له به فقربه وجعله كبير فنانيه ومهندسيه . وكان ديدلوس مثالا حاذقاً ، وقد استخدمت الأقاصيص اسمه فجعلته رمزاً على انتقال فن النحت من الأشكال الجامدة الميتة ، إلى صور الأناس الأحياء . ويحدثنا القصاصون بأن التماثيل التى صنعها كانت شديدة الشبه بالأحياء ، حتى لقد كانت تقف على أقدامها وتمشى إذا لم تشد إلى قواعدها[٤٩] . ولكن مينوس غضب على ديدلوس حين علم بما كان له من يد فى عشق باسيفائية ، فحبسه هو وابنه إيكاروس Icarus فى تية اللابرنث ، فما كان من ديدلوس إلا أن صنع له ولابنه إيكاروس أجنحة استطاعا بها أن يقفزا من فوق الجدران ويطيرا فوق البحر المتوسط ، غير أن إيكاروس لم يأبه بنصيحة أبيه فاقترب من الشمس أكثر مما ينبغى ، وأذابت أشعتها الحارة ما على جناحيه من الشمع فغرق فى البحر ، وتلك خاتمة تزدان بها القصة وتكسبها مغزى أخلاقياً . وأصبح فؤاد ديدلوس فارغاً بعد موت ولده ، فنزل فى صقلية ، وبعث فى هذه الجزيرة حضارة عظيمة بعد أن نقل إليها ثقافة كريت الصناعية(*) والفنية[٥٠] .

وأشد من هذه القصة إثارة للشجن قصة ثسيوس وأدريدنى . وخلاصتها أن مينوس بعد أن انتصر فى حرب على أثينة الناشئة الفتية ، فرض على هذه

(*) يعزو بوسنياس Pausanias أول من وضع أدلة السياح ، إلى ديدلوس كثيراً من التماثيل معظمها من الخشب ، كما يعزو إليه نقشاً على الرخام يمثل أدريدنى وهى ترقص ، ويقول إنها كلها كانت موجودة فى القرن الثانى بعد الميلاد[٥١] ولم يشك اليونان يوماً من الأيام فى أن ديدلوس شخص حقيقى ؛ وإن تجارب شليمان لتجعلنا نتشكك حتى فى تشككنا . وليس أسهل على العلماء فى جيل من الأجيال من أن يرفضوا الروايات القديمة ، ثم يأتى من بعدهم جيل آخر فيؤيدها أقوى تأييد .

المدينة أن ترسل إليه كل تسع سنين جزية من سبع بنات وسبعة شبان ، يلتهمها الميناتور ، فلما حل الموعد الثالث للوفاء بهذه الجزية المذلة عمل ثسيوس الوسيم على أن يكون هو من بين السبعة الشبان ، ورضى أبوه الملك إيجيوس بذلك على كره منه شديد ؛ وكان ثسيوس قد صمم على قتل الميناتور والقضاء بذلك على هذه التضحية المتكررة . وأشفقت أدريدنى على الأمير الأثينى ، وأحبته ، فأعطته سيفاً مسحوراً وعلمته حيلة بسيطة هي أن يفك خيطاً مطوياً على ذراعه حين يدخل التيه . وقتل ثسيوس الميناتور وسار متتبعاً الخيط حتى جاء أدريدنى وأخذها معه حين هرب من كريت . فلما وصلا إلى جزيرة نكسوس Naxos تزوجها وفاء بوعده ، ولكنه غدر بها فأقلع هو ورفاقه ، من الجزيرة فى أثناء نومها(٥٢) .

وبعد أدريدنى ومينوس تختفى كريت من التاريخ وتظل مختفية حتى يأتى ليكورج Lycurgus إلى الجزيرة ، ولعل ذلك كان فى القرن السابع قبل الميلاد . وثمة شواهد على أن الآخيين قد وصلوا إليها فى أثناء غاراتهم الطويلة على بلاد اليونان فى القرنين الرابع عشر والثالث عشر ؛ ولقد استوطنها الغزاة الدوريون فى أواخر الألف السنة الثانية قبل الميــلاد .

ويقول كثيرون من الكريتيين وبعض اليونان إن ليكورج وجد فيها أمثلة يحتذيها فى قوانينه ، كما وجد صولون أمثلة لقوانينه هو أيضاً وإن لم تبلغ من الكثرة مبلغ ما وجده ليكورج . وكانت الطبقات الحاكمة فى كريت بعد أن سيطر الدوريون على الجزيرة ، تحيا حياة البساطة والتقشف فى الظاهر إن لم تكن فى الواقع ، شأنها فى ذلك شأن أسبارطة . وكان الشبان يربون تربية عسكرية ، وكان الكبار من الرجال يأكلون مجتمعين فى أبهاء كبرى معدة لهذا الغرض(*) .

(*) يعد الأثينيون هذا كله تاريخاً ، وقد ظلوا عدة قرون يحتفظون بالسفينة التى ساق فيها ثسيوس من كريت ويرممونها كلما أصيبت بأذى ، ويتخذونها سفينة مقدسة يرسلون فيها الرسل فى كل عام للاحتفال بعيد أبلو فى دلوس .

وكانت البلاد يحكمها مجلس من شيوخ المدينة ويصرف أمورها عشرة مؤمرون Kosmci يشبهون الإفورين Ephor في أسبارطة والأركونين Arckons في أثينة(٥٤) . وليس من السهل علينا أن نحكم هل أخذت أسبارطة ذلك النظام عن كريت أو أخذته كريت عن أسبارطة ؛ وربما كان النظام في المدينتين نتيجة محتومة لظروف متشابهة — هي الحياة المزعزعة التي كانت تحياها طبقة عسكرية أرستقراطية من غير أهل البلاد بين أهلها الأقنان المعادين لها . ويلوح أن قوانين جورتيانا Gortyana المستنيرة نسبياً ، والتي وجدت على جدران تلك المدينة الكريتية ، قد وضعت في بداية القرن الخامس ؛ وليس ببعيد أن تكون هذه القوانين ، في صورة لها أقدم منها ، قد أثرت في المشترعين اليونان . وكان ثاليتاس Thaletas الكريتي يعلم الموسيقى في أسبارطة في القرن السادس قبل الميلاد ، كما كان ديبونس Dipoenus وسكليس Scyllis المثالان الكريتيان يعلمان فناني أرجوس Argosوشيسيون Sicyon . وملاك القول أن الحضارة القديمة كانت تفرغ مشتملاتها بعشرات العشرات من القنوات في الحضارة الجديدة .

الباب الثانى

قبل أجممنون

الفصل الأول

شليمان

فى عام ١٨٢٢ ولد فى ألمانيا صبى قدر له أن يكتب بمعوله صفحة من أروع صفحات علم الآثار فى القرن التاسع عشر . وكان والده مولعاً بالتاريخ القديم ، فنشأه على حب قصص هومر عن حصار طروادة ، وتجوال أديسيوس ، « ولشد ما كان يحزننى أن أسمع منه أن طروادة قد دمرت عن آخرها تدميراً تاماً ، وأنها محيت من الوجود دون أن تخلف وراءها أثراً يدل عليها » [1] . ولما بلغ هنريخ شليمان الثامنة من عمره وفكر فى الأمر تفكيراً أوفى من تفكيره الأول أعلن أنه سيهب حياته للكشف عن المدينة المفقودة ، وفى العاشرة من عمره عرض على أبيه قصة لاتينية عن حرب طروادة . وفى عام ١٨٣٦ غادر المدرسة بعد أن حصل فيها علماً أرقى مما تطيقه موارده ، واشتغل صبياً عند بدال ، وفى عام ١٨٤١ خرج من همبرج خادماً على ظهر سفينة تجارية مسافرة إلى أمريكا الجنوبية ، وبعد اثنى عشر يوماً من مغادرة السفينة الميناء غرقت ، وظل بحارتها تسع ساعات فى قارب صغير تتقاذفهم الأمواج حتى ألقت بهم على سواحل هولندة . واشتغل هنريخ كاتباً ، وكان يكسب من عمله مائة وخمسين ريالا أمريكيا فى العام ، ينفق نصفها فى شراء الكتب ويعيش على نصفها الآخر وعلى أحلامه ،

وأثمر ذكاؤه وجده ثمرتهما الطبيعية ؛ فلما أن بلغ الخامسة والعشرين كان تاجراً له مصالح مالية فى ثلاث قارات ، ولما بلغ السادسة والثلاثين أحس بأنه قد حصل من المال كفايته فاعتزل التجارة ووهب وقته كله لعلم الآثار .

« لقد كنت وأنا فى غمرة الأعمال التجارية دائم التفكير فى طروادة أو فيما قطعته لوالدى من عهد على أن أكشف عن آثارها(*) » (٣) .

وقد اعتاد فى أثناء اشتغاله بالتجارة أن يتعلم لغة كل بلد يتجر معه ، وأن يكتب بهذه اللغة ما يتصل بأعماله فى مفكرته اليومية (٤) . وبهذه الطريقة تعلم اللغات الإنجليزية ، والفرنسية ، والهولندية ، والأسبانية ، والبرتغالية ، والإيطالية ، والروسية ، والسويدية ، والبولندية ، والعربية . ثم ذهب إلى بلاد اليونان ودرس فيها لغـة الكلام الحية ، وسرعان ما أصبح فى مقدوره أن يقرأ اليونانية القديمة والحديثة بنفس السهولة التى يقرأ بها الألمانية . فلما تم له ذلك أعلن : « إنى لا أستطيع أن أعيش بعد الآن فى غير أرض اليونان القديمة »(٦) . ولما أبت زوجته الروسية أن تغادر روسيا أعلن فى الصحف رغبته فى الزواج بيونانية ، ووصف بغاية الدقة كل ما يتطلبه فى هذه الزوجة ، ثم اختار فى السابعة والأربعين من عمره عروساً فى التاسعة عشرة من بين الصور الشمسية التى أرسلت إليه . ولم يكد

(*) وقد كتب شليمان يقول : « ولكنى أستطيع تعلم المفردات اليونانية بسرعة حصلت على ترجمة يونانية حديثة ، لبول وفرجينى وقرأتها من أولها إلى آخرها ، وقابلت كل كلمة بأختها فى الأصل الفرنسى . فلما فرغت من هذا العمل عرفت على الأقل نصف ما يحتويه الكتاب من المفردات اليونانية ، وبعد أن كررت هذه العملية نفسها مرة أخرى عرفتها كلها ، أو كدت ، من غير أن أضيع دقيقة واحدة فى البحث عن هذه المفردات فى معاجم اللغة ... أما النحو اليونانى فلم أتعلم منه إلا علامات الإعراب والأفعال ، ولم أضيع وقتى الثمين فى تعلم قواعده لأنى رأيت أن التلاميذ بعد أن يلاقوا العذاب ثمانى سنين أو أكثر منها يكدون فى تعلم قواعد النحو اليونانى ، يخرجون من المدرسة وليس منهم من يستطيع أن يكتب خطاباً باللغة اليونانية القديمة دون أن يرتكب فيه مائة من الأغلاط . ولهذا أيقنت أن الطريقة التى يتبعها المدرسون فى تعليم تلك اللغة خاطئة من أولها إلى آخرها .. أما أنا فقد تعلمت اللغة اليونانية القديمة كما لو كنت أتعلم لغة من اللغات الحية »

يرى صاحبة الصورة حتى تزوجها من فوره ، وتزوجها بطريقة الشراء القديمة دون أن يعنى بمعرفة حقيقة أمرها ، وطلب إليه أبواها ثمناً يتناسب مع ما يعرفان من ثرائه . ولما ولدت له زوجته طفلين ، لم يرض أن يعمدهما إلا إلا مكرهاً ، ولكنه كان فى أثناء الاحتفال يضع نسخة من الإلياذة فوق رأسيهما ويقرأ منها مائة بيت بصوت عال . وسمى هؤلاء الأبناء أندروماك ، وأجممنون . وسمى خادميه تلامون Telamon ، وبلوبس Pelops ، وأطلق على بيته فى أثينة اسم بلروفون Bellerophon[٧] . لقد كان شليمان شيخاً افتتن بهومر إلى حد الجنون .

وفى عام ١٨٧٠ ذهب إلى الأرض المحيطة بطروادة — وهى الطرف الشمالى الغربى من آسية الصغرى — وأصر رغم آراء جميع العلماء فى ذلك الوقت على أن طروادة بريام مدفونة تحت التل المسمى حصار لك . واستطاع بعد مفاوضات دامت عاماً كاملا أن يحصل من الحكومة العثمانية على إذن بالحفر فى هذا الموقع ، واستأجر ثمانين عاملا وبدأ العمل . وكانت زوجته ، التى تحبه لما يتصف به من شذوذ ونزوات ، تشترك معه فى كدحه فى الأرض من مطلع الشمس إلى مغيبها . وظلت العواصف الثلجية تهب من الشمال طوال الشتاء وتقذف الثرى فى وجهيهما ، وكانت الرياح تندفع بقوة من ثغرات كوخهما الضعيف فلا يستطيعان أن يحتفظا فيه بمصباح مضىء أثناء الليل . « ولم يكن لدينا ما يدفئنا إلا تحمسنا لعملنا العظيم ألا وهو كشف طروادة »[٨] .

ومر عام كامل دون أن تثمر جهودهما ثمرة ما . ثم أخذت فأس أحد العمال تكشف ضربة فى إثر ضربة عن وعاء نحاسى كبير ، ولما فتح هذا الوعاء تكشف عن كنز مدهش ثمين مكون من تسعة آلاف تحفة مختلفة من الفضة والذهب . وكان شليمان ماكراً فأخفى الكنز فى لفاعة زوجته ، وصرف العمال على غير انتظار منهم لكى يستريحوا ، وأسرع إلى كوخه ، وأغلق

عليه الباب ، وبسط الكنز الثمين أمامه على المنضدة ، ووصل ما بين كل قطعة منه وبين فقرة فى شعر هومر ، وحلى رأس زوجته بجوهرة قديمة وأرسل إلى أصدقائه فى أوربا يبلغهم أنه كشف عن « كنز بريام »[٩] : لكن أحداً منهم لم يصدقه ، واتهمه بعض النقاد بأنه وضع بنفسه الأشياء التى كشفها فى المكان الذى استخرجها منه ، ورفع الباب العالى فى الوقت نفسه قضية عليه يتهمه بالاستيلاء على الذهب من أرض تركية . لكن بعض العلماء أمثال فرشاو Virchow ، ودوربفلد Dörpfeld وبرنوف Burnouf هرعوا إلى موضع الحفر ، وحققوا أقوال شليمان ، ووصلوا العمل معه حتى كشفوا عن طروادة مدفونة بعد طروادة ؛ ولم تبق المشكلة القائمة بعدئذ هل كانت هناك طروادة أو لم تكن ، بل أصبحت محصورة فى أى الطروادات التسع التى كشفت هى التى تطلق عليها الإلياذة اسم إليوس .

وفى عام ١٨٧٦ اعتزم شليمان أن يحقق ملحمة هومر من ناحية أخرى — وهى أن يثبت أن أجممنون كان هو أيضاً شخصاً حقيقياً . واسترشد فى عمله بوصف بوسنياس القديم لبلاد اليونان(*) ، فاحتفر أربعا وثلاثين فجوة فى ميسينى الواقعة فى شرقى البلوبونيز . وقطع عليه الموظفون الأتراك عمله بأن طالبوه بنصف الكنوز التى كشفها فى طروادة ؛ ولم يشأ هو أن يترك « كنز بريام » فى تركيا مختفياً عن الأنظار ، فأرسله سراً إلى متحف الدولة فى برلين ، وأدى للباب العالى خمسة أمثال ما طلبه من تعويض ، وواصل أعمال الحفر فى ميسينى . وكان النجاح فى هذه المرة أيضاً حليفه ، ولما أن أبصر عماله يحملون إليه هياكل بشرية ، وفخاراً ، وأقنعة ذهبية ، أبرق إلى ملك اليونان يقـــول إنه كشف قبرى أتريوس وأجممنون[١٠] . وفى عام ١٨٨٤ انتقل إلى تيرينز Tiryns واسترشـــد فى عمله هنالك

(*) لقــد طاف بوسنياس ببلاد اليونان فى عام ١٦٠ م ووصفها فى كتابه المسمى Periegesis أى الرحلة .

أيضاً بيوسنياس ، وكشف عن القصر العظيم وعن الأسوار الضخمة التى وصفها هومر[١١] .

ولسنا مبالغين إذا قلنا إنه قلما خدم أحد علم الآثار كما خدمه شليمان . لقد كان هذا الرجل متصفا بعيوب فضائله ، ذلك أن حماسته كانت تدفعه إلى العجلة والتهور فى عمله ، فأدى ذلك به إلى إتلاف كثير من الأشياء التى عثر عليها أو خلطها بعضها ببعض لكى يحقق بسرعة الهدف الذى كان يعمل لتحقيقه . يضاف إلى هذا أن الملحمتين اللتين كانتا تهديانه فى عمله قد أضلتاه فحسب أنه كشف عن كنز بريام فى طروادة ، وعن قبر أجممنون فى ميسينى . وارتاب العلماء فى أنحاء العالم فى تقاريره وظلت متاحف إنجلترا ، وروسيا ، وفرنسا زمناً طويلا لا تصدق أن ما كشفه آثار قديمة بحق : وكان فى هذه الأثناء يعزى نفسه بما ناله من مكانة عظمى فى عينه هو ، ويواصل الحفر بشاعة حتى أقعده المرض . وتحير فى آخر أيامه هل يصلى إلى إله المسيحيين أو إلى زيوس إله اليونان الأقدمين ؛ وكتب إلى ابنه يقول : « إلى أجممنون شليمان أحب الأبناء أرسل تحياتى ، وإنى ليسرنى أنك ستدرس أفلوطرخس ، وأنك فرغت من زنوفون . . . . . وإنى لأدعو أبانا زيوس وبلاس أثينة أن يجزياك من الصحة والسعادة ما يعادل جهودك مائة مرة »[١٢] . وتوفى عام ١٨٩٠ بعد أن أنهكه الكدح فى الحر والبرد ، وقاسى ما قاسى من عداوة العلماء ، ومن حمى أحلامه التى لم تفارقه فى يوم من الأيام .

لقد كشف شليمان — كما كشف كولمبس — عن عالم أشـــد غرابة من العالم الذى كان يبحث عنه ، فلقد كانت هذه الجواهر أقدم بمئات السنين من بريام وهكيبا Hecuuba : ولم تكن تلك القبور قبور أتريدا ، بل كانت أطلال حضارة إيجية قامت فى أرض اليونان الأصلية ، قديمة قدم العصر المينوى فى كريت ، ولقد حقق شليمان ، دون أن يعرف ، بيت هوراس

الذائع الصيت « لقد عاش قبل أجممنون كثيرون من الرجال البواسل »(*) .
وكلما توسع دوربفلد ، وملر Muller وتسونتاس Tsountas واستماتاكس Stamatakis ، وولدشتين Waldstein ، وويس Wace فى أعمال الحفر فى أرض البلوبونيز ، وواصل غيرهم الحفر فى أتكا وفى جزائر عوبيه Euboea وبوئتيا Boeotia ، وفوسيس Phocis وفى تساليا ، تكشفت أرض اليونان عن بقايا ثقافة قامت فيها فى أزمنة ما قبل التاريخ . وفى هذه الثقافة ارتقى الناس أيضاً من الهمجية إلى الحضارة بانتقالهم من حياة الصيد البدوية إلى حياة الاستقرار والأعمال الزراعية ، وباستبدال النحاس والبرنز بالحجارة ، وبما يسرته لهم الكتابة والتجارة من وسائل التقدم . إن الحضارة على الدوام أقدم مما نتصور ، وتحت كل شبر من الأرض نطؤه بأقدامنا عظام رجال ونساء عملوا وأحبوا كما نعمل نحن ونحب ، وكتبوا الأغانى وصنعوا الجميل من الأشياء ؛ ولكن أسماءهم وحيواتهم نفسها قد ضاعت على مر الزمان الذى لا يحفل قط بالرجال والنساء .

(*) وكاد دوربفلد وفرشاو يقنعانه فى أواخر أيامه بأنه لم يكشف عن بقايا أجممنون بل كشف عن جيل من الناس أقدم منه كثيراً . وبعد أن أظهر شليمان الشىء الكثير من الألم المبرح تقبل قولها قبولا حسناً وصاح قائلا : « ماذا تقولان ؟ إذن فليس هذا جسم أجممنون ، وليست هذه حلية ؟ فليكن ، ولنسمه إذن شلز Schulz ، وظلوا من ذلك الحين يتحدثون باسم « شلز »(١٣).

الفصل الثانى

قصور الملوك

على تل منخفض طويل ، على بعد خمسة أميال شرقى أرجوس ، وعلى بعد ميل واحد فى شمال البحر ، كان يقوم فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد قصر تيرينز الحصين . ويستطيع الإنسان أن يصل إلى خرائب هذا القصر بعد رحلة ممتعة من أرجوس أو نوبليا Nsuplia ، ويشهد هذه الخرائب التى تكاد تضيع معالمها بين حقول القمح والذرة الهادئة الساكنة . فإذا صعد السائح قليلا فوق درجات حجرية باقية من أزمنة ما قبل التاريخ ، وقف أمام الجدران الضخمة السيكلوبية التى بنيت كما تقول الرواية اليونانية للأمير الأرجوسى بروتوس Proetus قبل حرب طروادة بمائتى عام(*) . ولقد كانت المدينة حتى فى ذلك الزمن البعيد قديمة العهد ، فقد شادها كما تقول الرواية القديمة المأثورة البطل تيرينز بن أرجس Argus ذو المائة عين ، والعالم لا يزال فى طفولته[١٤] . وتضيف القصة إلى ذلك أن پروتيوس أهدى القصر إلى پرسيوس الذى حكم تيرينز مع الملكة أندرمدا Andromeda الحمراء .

وكان ارتفاع الأسوار التى تحمى المدينة بين عشرين وخمسين قدماً ، وقد بلغ من سمكها أن كانت تحتوى فى بعض المواضع على معارض واسعة ذات قباب وعقود فيها قطع حجرية ضخمة مركبة بعضها فوق بعض فى وضع أفقى ،

(*) كان اليونانيون يصفون الصروح بأنها سيكلوبية إذا كانت حسب ما يتصوره خيالهم المولع بالأساطير لا يستطيع بناءها إلا المردة الجبابرة أمثال سيكلوبس (أى صاحب العين المستديرة) الأعور الذى كان يكدح بكير هفاستوس Hephoestus فى براكين البحر المتوسط . ثم أصبح هذا الاسم يطلق فى هندسة البناء على الأحجار التى تشاد بلا ملاط والتى تنحت نحتاً غير متقن . ويملأ ما بينها بالحصا المخلوط بالطين . وتضيف الرواية إلى هذا أن پروتس قد جاء بالبنائين المشهورين المسمين سيكلوبس من لسيا Lycia .

ولاتزال بعض هذه الحجارة فى أماكنها حتى الآن ، والكثير منها يبلغ طوله ست أقدام وعرضه ثلاثا وسمكه مثلها ، أما أصغرها فيقول پوستياس « إنه يصعب على اثنين من البغال أن يحركاها من أماكنها »(١٥) . وكان فى داخل الأسوار ، وراء مدخل شيد على نمط كثير من مداخل الحصون فناء واسع مرصوف ، حوله طائفة من الأعمدة ، ومن حول هذه الأعمدة عدد كبير من الحجرات شبيهة بحجرات كنوسس ، تجتمع حول بهو فخم تبلغ سعته ألفا وثلثمائة قدم مربعة ، أرضه مرصوفة بالأسمنت المطلى وسقفه مقام على أربعة عمد بينها موقد . وهنا وجد مبدأ جرت عليه العمائر اليونانية يختلف عما كان متبعاً فى كريت وهو فصل الجناح الذى تقيم فيه النساء عن حجرات الرجال . فقد كانت حجرة الملك وحجرة الملكة متجاورتين ولكنهما — على قدر ما نستطيع أن نستدل عليه من آثارهما — منفصلتان إحداهما عن الأخرى كل الانفصال ولا صلة بينهما من داخلهما . ولم يعثر شليمان من هذا القصر الحصين إلا على أساس الطابق الأرضى ، وقواعد الأعمدة ، وأجزاء من الجدران . وفى أسفل التل وجدت بقايا البيوت المقامة من الحجارة أو الآجر ، والقناطر ، وقطع من الفخار القديم . وفى هذا الموضع كانت مدينة تيرينز فى عهد ما قبل التاريخ تتقارب بيوتها لتحمى نفسها تحت أسوار القصر . ذلك أنه لا مفر لنا من أن نتصور بلاد اليونان فى عصر البرنز تحيا حياة غير آمنة حول هذه القلاع الإقطاعية وفى داخلها .

وعلى بعد عشرة أميال فى شمال هذه المدينة شاد پرسيوس (إذا أردنا أن نصدق قول پوسنياس)(١٦) مدينة ميسينى — أعظم عواصم اليونان قبل التاريخ . وهنا أيضاً نشأت حول قلعة منيعة مدينة من عدة قرى ، تضم عدداً من السكان النشيطين زراع ، وتجار ، وصناع ، ورقيق ، كانوا سعداء لأنهم ليس لهم تاريخ . وبعد ستمائة عام من ذلك الوقت وصف هومر ميسينى بأنها « مدينة حسنة البناء واسعة الطرقات ، موفورة الذهب »(١٧) . ولقد أبقى الزمان

على أجزاء من هذه الجدران الضخمة رغم ما مر بها من مئات الأجيال التى تكفى لتخريب أقوى الصروح ، وإن ما بقى منها ليشهد برخص الأيدى العاملة وعدم اطمئنان الملوك على أنفسهم فى تلك الأيام . وفى ركن من أركان السور يوجد باب الأسد الشهير ، وهناك فوق أسكفة ضخمة نحت على حجر مثلث الشكل أسدان كبيران أبلاهما الزمان وحطم رأسيهما ، وأبقى على جسميهما ليحرسا وهما صامتان ذلك المجد العتيد الزائل . وعلى الرابية القريبة من هذا الباب ترى أطلال القصر . وفى وسعنا أن نفعل هنا ما فعلناه فى تيرينز فنتبين فيها حجرة العرش ، وحجرات المخازن ، وحجرة النوم ، وحجرات الاستقبال . وهنا كانت فى غابر الأيام أرضيات منقوشة ، ومداخل ذات عمد ، وجدران ذات مظلمات ، وسلالم فخمة .

وقد كشف عمال شليمان ، بالقرب من باب الأسد فى بقعة ضيقة تحيط بها دائرة من القطع الحجرية المسطحة ، عن تسعة عشر هيكلا عظمياً ، وعن عاديات قيمة ثمينة لا يسع من يراها إلا أن يغفر لهذا الهاوى العظيم ظنه أن هذه الحفر هى الحجرات التى دفن فيها أبناء أتريوس . كيف لا وقد وصف پوسنياس القبور الملكية بأنها « فى أطلال ميسينى ؟ »[١٨] لقد كان من بين هذه الهياكل العظمية جماجم رجال عليها تيجان من الذهب ، وعلى عظام وجوهها أقنعة ذهبية ؛ وكان من بينها هياكل سيدات لهن تيجان من الذهب كن يلبسنها على رؤوسهن التى لم يبق لها وجود . ومن بين ما وجد فى هذه المقابر آنية عليها رسوم جميلة ، وجفان من البرنز ، وكأس من فضة ، ورؤوس من الكهرمان والجمست ، وأدوات من المرمر والعاج والخزف ، وخناجر وسيوف مزخرفة ، ولوحة للعب شبيهة بالتى وجدت فى كنوسس ، وكل ما يستطيع أن يتصوره الإنسان من الأدوات مصنوعة من الذهب الخالص — أختام وخواتم ، ودبابيس ، ومشابك ، وأقداح ، وخرز وأساور ، ودروع ، وآنية للزينة ، وأثواب مزركشة بصفائح رفيعة من الذهب[١٩] وليس ثمة شك فى أن هذه الجواهر جواهر ملوك ، وأن هذه العظام عظام ملوك .

وقد كشف شليمان وغيره من العلماء فى سفح التل المقابل للسفح الذى شيد عليه هذا الحصن ، تسعة قبور تختلف كل الاختلاف عن « القبور البئرية » . فإذا ما خرج الإنسان عن الطريق النازل من القلعة دخل عن يمينه دهليزاً على جانبيه جدران من الحجارة الكبيرة الجيدة القطع . وفى آخر الدهليز مدخل بسيط كان يزدان فيما مضى بعمودين أسطوانيين رفيعين من الرخام الأخضر محفوظين فى المتحف البريطانى الآن ، ومن فوق العمودين أسكفة بسيطة من حجرين طول أحدهما ثلاثون قدما ووزنه ١١٣ طناً . فإذا اجتاز السائح هذا المدخل ألفى نفسه تحت قبة ارتفاعها خمسون قدما وقطرها خمسون ، وجدرانها من الحجارة المنشورة ، مقواة بصفائح من البرنز نقش عليها الورد ، وتركب كل طبقة من الحجارة على ما تحتها حتى تسد أعلى الطبقات قمة القبة . وقد اعتقد شليمان أن هذا الصرح العجيب هو قبر أجممنون ، ولم يتردد فى أن يصف قبة أخرى أصغر من هذه وجدت إلى جوارها وكشفها زوجته بأنها قبر كليتمنسترا Clytaemnestra . وكانت كل القبور التى وجدت فى ميسنى والتى تشبه خلية النحل فى كثرتها خالية ، لأن اللصوص سبقوا علماء الآثار إليها بعدة قرون .

وهذه الآثار الدارسة شواهد باقية على حضارة كانت قديمة فى أيام بركليز قدم شليمان إلينا نحن . ويرجع المؤرخون المحدثون تاريخ المقابر البئرية إلى عام ٦٠٠٠ ق . م (أى قبل التاريخ الذى يحددونه لأجممنون بأربعمائة عام) ، أما المقابر التى فى الجهة الأخرى من التل فيرجع تاريخها فى زعمهم إلى حوالى عام ١٤٥٠ ، ولكن تأريخ ما قبل التاريخ عملية بعيدة كل البعد عن الدقة . ولسنا نعرف كيف بدأت هذه الحضارة ، كما لا نعرف من هم أولئك الأقوام الذين شادوا مدائن فى موضعى ميسينى وتيرينز ، بل وفى مواضع اسبارطة ، وأمكلى Amyclae وإجينا Aegina ، وإليوزيس Eleusis ، وقيرونيا Chaeronia ، وأرثومينوس Orthomenos ودلفى . وأكبر الظن أن هؤلاء الأقوام كانوا كغيرهم من الأمم قد أصبحوا خليطاً من

سلالات مختلفة ، ورثوا ثقافات متعددة ؛ فلقد كانت بلا د اليونان مختلطة دماء أهلها قبل غزو الدورين (١١٠٠ ق . م) اختلاط دماء سكان إنجلترا قبل فتح النورمان . ومبلغ ما نستطع أن نهتدى إليه بظننا أن الميسينين كانوا يمتون بصلة القرابة العنصرية للفريجيين والكارين سكان آسية الصغرى ، وللمينويين سكان كريت[٢٠] . وللأسدين اللذين وجدا فى ميسينى وجهان شبيهان بآساد أرض النهرين ، ولعل هذه الفكرة القديمة قد انتقلت إلى هذه البلاد عن طريق أشور وفريجيا[٢٠] .

وتسمى الرواية التاريخية الميسينين باسم « پلاسجى Pelasgi » (وربما كان معناه أهل البحر — پلاجوس Pelagos) ، وكانوا يصورونهم كأنهم آتون من تراقية وتساليا إلى أتكا والپلوپونيز فى زمن يبلغ من القدم حداً جعل اليونان يطلقون عليهم اسم السكان الأصليين ، أوتوكتنوى Autochthonoi وقد صدق هيرودوت هذه القصة وقال إن الآلهة الأولمبية من أصل پلاسجى ولكنه « لا يستطيع أن يقول وهو واثق ماذا كانت لغة الپلاسجى »[٢١] ولسنا نحن أكثر منه علما بها .

وما من شك فى أن أولئك الأوتوكتنويين قد قدموا فى عصر متأخر إلى أرض كانت تزرع من أيام العصر الحجرى الحديث ؛ ذلك أنه لا يوجد فى بلد من بلاد العالم سكان أصليون . وقد غلبهم على مر الزمان أقوام آخرون ، وشاهد ذلك أننا نجد فى العصور المتأخرة من تاريخ الميسينين حوالى عام ١٦٠٠ ق . م دلائل كثيرة على غزوة تجارية ثقافية ، إن لم تكن سياسية عسكرية ، لأرض الپلوپونيز ، من حاصلات كريت أو من مهاجريها[٢٢] . وحجتنا فى هذا القول أن قصور تيرينز وميسينى قد خططت وزينت على غرار القصور المينوية إذا استثنينا أقسام النساء فى الأولى وهى التى لا نظير لها

فى الثانية . يضاف إلى هذا أن الآنية والأنماط الفنية الكريتية وصلت إلى إيجينيا وكلسيس Chalcis وطيبة ، وأن سيدات ميسينى وإلاهاتها قد قلدن الطراز الكريتى الساحر فى الملبس والزينة ، وأن الفن الذى كشف عنه فى القبور البئرية المتأخرة مينوى بلا ريب[٢٣] . وجلى أن اتصال الميسينيين بحضارة أرقى من حضارتهم كان له فيهم أثر حافز قوى ، وأنه هو الذى رفع ميسينى إلى أرقى ما وصلت إليه حضارتها .



الفصل الثالث

الحضارة الميسينية

إن ما لدينا من آثار هذه الحضارة أقل من أن يمكننا من أن نصورها في صورة واضحة وضوح الحضارات التي تتكشف عنها خربات كريت أو أشعار هومر . ولكننا نستطيع أن نقول عنها إن الحياة في أرض اليونان القارية كانت أقرب إلى مرحلة الصيد من الحياة في كريت ، وإن ما نجده بين بقايا الآثار الميسينية من عظام الظباء ، والخنازير البرية ، والمعز ، والضأن ، والأرانب ،والثيران ، والخنازير — بل عظام السمك والأصداف البحرية — ليدل على أن شهوة الطعام بين أولئك القوم قد وصلت إلى المرحلة التي يصفها لنا هومر ، والتي لا تلائم خصر الكريتيين النحيل . وتكشف الآثار في أماكن متفرقة عما بين أساليب الحياة « القديمة » و« الحديثة » من تشابه عجيب ، فقد نجد سهاماً من الحجر الزجاجي إلى جانب مثقب برنزي أجوف كان يستعمل في عمل ثقوب في الحجارة للأوتاد[٢٤] .

أما الصناعة فلم تكن متقدمة تقدمها في كريت ، فلسنا نجد في أرض اليونان القارية مراكز صناعية مثل جورنيا . كذلك كان نمو التجارة بطيئاً ، لأن البحار كانت عرضة لغارات القراصنة ، ومنهم الميسينيون أنفسهم . وكان ملوك ميسيني وتيرينز يستخدمون فنانين كريتيين ليحفروا على الأواني والخواتم ، ما كانوا يقومون به من أعمال القرصنة التي يفخرون بها[٢٥] . وكانوا يبنون مدنهم في داخل البلاد ليدفعوا عن أنفسهم شر غيرهم من القراصنة ، بعيدة عن البحر بعداً يمكنهم من أن يتقوا الغارات المفاجئة ،

وقريبة منه قرباً يمكنهم من الإسراع إلى سفنهم ، وكان موقع مدينتى تيرينز ، وميسينى إلى الطريق الممتد من خليج أرجولى إلى برزخ كورنث يمكنهما من فرض إتاوات باهظة على التجار ومن القيام بغارات قرصنة عليهم من حين إلى حين . ولما رأت ميسينى أن كريت قد أثرت من اشتغالها بالتجارة المشروعة ، أدركت أن القرصنة ، كالضريبة الجمركية وليدتها المتحضرة ؛ قد تخنق التجارة خنقاً وتنشر الفاقة فى أوسع نطاق ؛ ولذلك أصلحت أمرها وقبلت أن تتطور القرصنة فتصير تجارة . وما وافى عام ١٤٠٠ حتى بلغ أسطولها التجارى من القوة درجة استطاع بها أن ينازع كريت سلطانها البحرى ؛ فرفضت أن تنقل بضائع ميسينى الذاهبة إلى إفريقية عن طريق الجزيرة وأرسلتها إلى مصر مباشرة ؛ وقد يكون هذا العمل سبباً أو نتيجة لحرب انتهت بتدمير القلاع الكريتية.

ولم تكن الثروة التى أفادتها البلاد من هذه التجارة مصحوبة بثقافة تتناسب معها ، ونستطيع أن نتبينها فيما بقى من الآثار . وتعزو الروايات اليونانية إلى البلاسجيين فضل تعلم الحروف الهجائية من التجار الفينيقيين ، وقد وجدت فى تيرينز وطيبة جرار عليها رموز لم تحل بعد ، ولكن لم تكشف قط ألواح من الصلصال ، أو نقوش ، أو وثائق ؛ وأكبر الظن أن ميسينى حين أرادت أن يتعلم أهلها الكتابة استخدمت فيها مواد سريعة العطب ، كما فعل الكريتيون فى المرحلة الأخيرة من تاريخهم ، ولذلك لم يبق شىء من هذه المواد . ونهج الميسينيون فى الفن نهج الكريتيين ، وقلدوهم فيه بأمانة جعلت علماء الآثار يظنون أنهم كانوا يأتون بكبار الفنانين من كريت ، ولكن يرد على هـذا بأنه بعد أن اضمحل الفن الكريتى ازدهر فن التصوير أيما ازدهار فى أرض اليونان ، فترى النقوش التى تزدان بها أطراف الجدران وحلياتها ترقى إلى المرتبة الأولى فى الفن وتبقى إلى عصر ازدهار الحضارة اليونانية ؛ وكذلك يدل ما بقى من المظلمات على

إحساس قوى بالحيـــاة والنشاط . وترى « النساء اللاتى فى المقاصير » من كبريات السيدات اللائى تزدانّ بأمثالهن دور التمثيل فى هذه الأيام . وقد صففن شعرهن وارتدين من الملابس ما يتفق مع أحسن طراز فى الوقت الحاضر ، وهن أقرب إلى الحياة الحقة من « السيدات الراكبات فى العربة » اللائى خرجن للتنزه فى الحقول آخر النهار وتكلفن الجمود فى ركبتهن . وخير من سيدات المقاصير منظر « صيد الخنازير البرية » وهو نقش من نقوش تيرنز . إن الخنزير والأزهار قد تحكم فى تصويرهما العرف إلى حد لا يصدقه العقل ، واللون القرنفلى الغير المعقول قد شوهته بقع أرجوانية وسوداء وزرقاء تتفق مع الخط المألوف وقتئذ ، والنصف الخلفى من الخنزير المندفع فى جريه يدق تدريجاً حتى يشبه عذراء عالية الحذاءين تسقط من عريشة فى قصرها . ولكن المطاردة رغم هذا مطاردة حقيقية ، والخنزير قد أعياه الطراد حتى وصل إلى درجة اليأس ، والكلاب تقفز بأقصى سرعتها فى الهواء ؛ والرجل ، وهو أقوى الوحوش المفترسة عاطفة وأشدها قسوة ، واقف متأهب يرمحه القاتل الفتاك[٢٦] . ومن حق الإنسان أن يستدل من هذه النماذج على ما كان يستمتع به الميسينيون من حياة نشطة ومن أجسام قوية ، وما كان لنسائهم من جمال وما كان فى قصورهم من زينة واضحة جميلة .

وأرق فنون ميسينى كلها ما كان منها على المعادن ، ففيها بلغت بلاد اليونان ما بلغته كريت ، وبلغ من جرأتها فى هذه الناحية أن اتبعت فيها أشكالها الخاصة وزينتها . وإذا لم يكن شليمان قد عثر حقاً على عظام أجممنون ، فقد عثر على ما يعادل وزنها فضة وذهباً . عثر على حلى كثيرة الأنواع ؛ وبكميات تدل على الإسراف الشديد ، وعلى أزرار ذات رؤوس خليقة بأن تكون فى ملابس الملوك ، وحجارة كريمة حفرت عليها مناظر صيد أو حرب أو قرصنة ؛ ورأس بقرة من الفضة البراقة لها قرنان وجبهة من الفضة نقشت عليها ورود ، يتوقع الناظر إليها فى أية لحظة من اللحظات أن تخور خواراً

عجزنا ؛ قد يفسره شليمان ، وهو الذى لا يعدم وسيلة لتفسير كل ما يراه ، بأنه اسم ميسينى[٢٧] : وأجمل ما وجد فى تيرينز وميسينى من آثار معدنية خنجران من البرنز مرصعان بمزيج من الذهب والفضة ، ومصفحان بالذهب المجلو المصقول ، وعليهما نقوش تمثل قططاً برية تطارد بطاً ، وأساداً تطارد فهاداً أو تحارب أناسى[٢٩] . وأغرب من هذه كلها الأقنعة الذهبية التى كانت على ما يظهر تغطى بها وجوه الموتى من الملوك . ويشبه أحد هذه الأقنعة وجه قطة ، وقد دفعت شليمان شهامته إلى أن يعزو هذا القناع لأجممنون لا لكليتمنسترا .

ولكن أروع روائع الفن الميسينى بلاجدال لم يعثر عليها فى تيرينز ولا فى ميسينى ، بل عثر عليها فى قبر فى ﭭفيو Vaphio بالقرب من أسپارطة حيث كان أحد صغار الأمراء ينافس ملوك الشمال فى التفاخر والعظمة . وقد عثر فى ذلك المكان ، بين كنز آخر من الحلى ، على قدحين من الذهب المطروق بسيطين فى شكلهما ولكنهما يدل فى صنعهما كل ما يستطيع الفنان المحب لفنه العظيم أن يبذله فيه من الصبر والإتقان . وتشبه صناعة هذين القدحين أحسن الصناعة المينوية ، وقد أغرى ذلك بعض العلماء على أن يعزوهما إلى فنان كريتى عظيم بلغ من المنزلة فى كريت ما بلغه تشلينى عند الإيطاليين ، ولكننا يحزننا أن نحرم الثقافة الميسينية أحسن ما خلفت من آثار . نعم إن موضوع النقوش التى على القدحين — وهو اقتناص ثور وترويضه — يبدو من الموضوعات التى اختصت بها كريت ، ولكن كثرة هذا المنظر وأمثاله محفورة على الخواتم والأختام الميسينية ، أو مصورة على جدران القصور ، تشهد بأن مصارعة الثيران كانت منتشرة فى أرض اليونان انتشارها فى الجزيرة . وقد نقش على أحد القدحين منظر الثور وقد صيد فى شبكة من الحبال السميكة ، وفتح فاه ومنخريه وهو لا يكاد يستطيع التنفس من شدة

الغضب وفرط التعب ، وكلما حاول التخلص من الشرك ضاقت عليه حلقاته ؛ وعلى الجانب الآخر ثور ثان يقفز قفزة الرعب والهلع ، وثالث يهاجم غلاماً من الرعاة أمسكه بشجاعة نادرة من قرنيه . وعلى القدح الثانى يساق الثور المصيد ؛ فإذا أدنا القدح رأيناه قد رضى بقيود الحضارة ، وانهمك على حد قول إيفنز فى « حديث غرامى » مع بقرة[٣١] . وقد مضت قرون كثيرة بعد ذلك العهد قبل أن يظهر مثل هذا الصنع البديع فى بلاد اليونان .

ويوجد الميسينى نفسه ، كما توجد معظم مخلفات فنه ، فى قبوره ، ذلك أنه كان يطوى موتاه ويدفنهم فى جرار غير مريحة ، وقلما كان يحرق جثثهم كما كان يُفعل بها فى عصر الأبطال .

ويستدل من مخلفاته على أنه كان يؤمن بحياة من نوع ما فى الدار الآخرة ، لأن أدوات ذات قيمة ونفع قد وجدت فى قبوره . وفيما عدا هذا فإن الدين الميسينى ، على قدر ما تكشف لنا من مقدماته ، قوى الدلالة على أنه نشأ من الدين الكريتى أو كان قوى الصلة به ، ففيه — كما فى كريت — نجد البلطة المزدوجة ، والعمود المقدس ، واليمامة الإلهية ، وعبادة أم إلهة ممثلة فى إله غلام لعله ولدها ؛ وهنا أيضاً نجد أربابا صغارا فى صور أفاع . وقد بقيت الأم الإلهة فى بلاد اليونان خلال كل ما حدث فى دينها من تطور وتغيير ، فقد جاءت بعد ريا Rhea الكريتية دمتر Demeter أم اليونان الحزينة ، وبعد دمتر جاءت العذراء أم الإله . وإذا ما وقف الإنسان اليوم على أطلال ميسينى رأى فى القرية الصغيرة القائمة أسفلها كنيسة مسيحية متواضعة ، لقد ولى عصر الأبهة والفخامة ولم تبق إلا البساطة والسلوى .

وازدهرت ميسينى بعد سقوط كنوسس كما لم تزدهر من قبل ، واستخدمت الثروة الطائلة المتزايدة التى كانت « لأسرة القبور البئرية » فى تشييد القصور

الفخمة على تلال ميسينى وتيرينز ، واتخذ الفن الميسينى لنفسه طابعاً خاصا ؛ واستولى على أسواق بحر إيجه ، ووصلت تجارة أمراء البلاد شرقاً إلى قبرص وسورية ، وجنوباً إلى مصر مارة بجزائر سكلديس ، وغرباً إلى أسبانيا مارة بإيطاليا ، وشمالا إلى نهر الدانوب مخترقة بؤوتيا وتساليا ، ولم يقف فى سبيلها إلا طروادة . وكما أن رومة قد استحوذت على حضارة اليونان ونشرتها فى أنحاء العالم ، كذلك فعلت ميسينى فاستحوذت على ثقافة كريت المحتضرة ونشرت الطور الميسينى من أطوار تلك الحضارة فى عالم البحر المتوسط كله

الفصل الرابع

طروادة

بين كريت وأرض اليونان ٢٢٠ جزيرة منثورة فى بحر إيجة فى دائرة حول ديلوس ، ومن أجل ذلك سميت السكليديس ؛ ومعظم هذه الجزائر صخرى قحل ، وهى بقايا قمم جبال كانت تمتد فى أرض غرق بعضها تحت ماء البحر ، ولكن بعضها كان غنياً بالرخام أو المعادن إلى حد جعل أهله يعملون فى استخراجهما ؛ وأنشأوا فيه حضارة على مر القرون القديمة قبل أن يطل علينا التاريخ اليونانى . وقد قامت المدرسة البريطانية فى أثينة عام ١٨٩٦ بأعمال الحفر فى أرض ميليوس Melos عند فيلاكوبى Phylakopi وعثرت على أدوات وأسلحة وفخار مشابهة شبهاً يثير الدهشة لآثار العصور التى مرت بها الحضارة المينوية عصراً عصراً ؛ واستطاع الباحثون بفضل البحوث التى أجريت فى عصرها من الجزائر أن يرسموا صورة جزائر السكلديس فى عصر ما قبل التاريخ تتفق فى زمنها وصفاتها مع الصورة المستعادة التى رسمها المنقبون لكريت ، وكانت جزائر السكلديس ضيقة الرقعة لا تزيد مساحة أرضها كلها على ألف ميل مربع ، فكانت من هذه الناحية شبيهة ببلاد اليونان عاجزة عن الاجتماع فى قوة سياسية موحدة ؛ ولم يكد يحل القرن السابع قبل الميلاد حتى خضعت هذه الجزائر الصغيرة فى حكمها وفنونها ، بل خضع بعضها فى لغته وكتابته ، لسيطرة الكريتيين ؛ ولما أن حل الطور الأخير من أطوار الحضارة الكريتية (١٤٠٠ — ١٢٠٠) انقطع ما تستورده تلك الجزائر من كريت ، وولت وجهها شطر ميسينى تستورد منها فخارها وأساليبها

وإذا اتجهنا نحو الشرق إلى جزائر أسپوراديس Sporades (أى المتفرقة) ألفينا فى جزيرة رودس ثقافة أخرى فى عصر ما قبل التاريخ من نوع الثقافات

الإيجية البسيطة ، أما فى قبرص فإن رواسب النحاس الغنية التى اشتق منها اسم الجزيرة قد أفاءت عليها قدراً من الثراء دام حتى عصر البرنز (٣٤٠٠ — ١٢٠٠) ، ولكن مصنوعاتها(*) ظلت مع ذلك خشنة غير مهذبة لا تمتاز فى شىء إلى ما قبل السيطرة الكريتية . وكان أهلها الذين يغلب عليهم العنصر الأسيوى يستخدمون كتابة مقطعية شديدة الصلة بالكتابة المينوية ، ويعبدون إلهات تنحدر من إشتار السامية ، وهى التى قدر لها أن تصبح أفروديتى إلهة اليونان[٣٢] . ثم نمت صناعة المعادن فى الجزيرة نمواً سريعاً بعد عام ١٦٠٠ ؛ وأخذت المناجم التى تمتلكها الحكومة الملكية تصدر النحاس إلى مصر ، وكريت ، وبلاد اليونان ؛ وكان المصنع المقام فى إنكومى Enkomi يصنع الخناجر الذائعة الصيت ، وكان الفخرانيون يبيعون آنيتهم المستديرة فى جميع البلاد الممتدة من مصر إلى طروادة . وفى القرن الأخشاب من الغابات ، وأخذ سرو قبرص ينافس أرز لبنان . وفى القرن الثالث عشر أنشأ المستعمرون الميسينيون المستعمرات التى أضحت فيما بعد مدناً يونانية وهى پاثوس Pathos مدينة أفروديتى المقدسة ، وسيتيوم Citium ، مسقط رأس الفيلسوف زينون ، وسلاميس القبرصية التى حط فيها صولون رحاله فى أثناء تجواله ليُحل القانون محل الفوضى .

وعبرت التجارة الميسينية كما عبر النفوذ الميسينى البحر من قبرص إلى سوريا وكاريا ، ومنهما انتقلا عن طريق الشواطئ والجزائر الأسيوية حتى وصلا إلى طروادة . وهناك كشف شليمان ودوربفلد على تل تفصله عن البحر ثلاثة أميال عن تسع مدن كل واحده فوق الأخرى كأنما كان لطروادة تسع حيوات .

١ — فكان فى الطبقة الدنيا بقايا قرية من العصر الحجرى الحديث يصل تاريخها إلى عام ٣٠٠٠ ق : م ، وقد وجدت فيها جدران من الحجارة غير

(*) ثابر على جمعها القائد دى سسنولا di Cesnola ، وهى الآن محفوظة فى المتحف الفنى بنيويورك .

المنحوتة بينها طبقات من الطين ، كما وجدت قواقع حلزونية ، وقطع من العاج المشغول ، وأدوات من الحجر الزجاجى ، وقطع من الفخار المصقول باليد .

٢ — ووجدت فوق هذه الآثار أنقاض المدينة الثانية التى اعتقد شليمان أنها طروادة هومر . وكانت أسوارها المحيطة بها مقامة من حجارة ضخمة كأسوار تيرينز وميسينى ، وكان فى أماكن متفرقة منها حصون وفى أركانها أبواب ضخمة مزدوجة لا يزال اثنان منها باقيين حتى الآن . وهناك أيضاً بيوت باقية تعلو نحو أربع أقدام ، وقد بنيت من الآجر والخشب فوق أساس من الحجارة . ويستدل مما عثر عليه فيها من فخار مطلى بطلاء أحمر ، مصنوع على العجلة ولكنه خشن فج ، على أن هذه المدينة كانت قائمة فى الفترة المحصورة بين ٢٤٠٠ ، ١٩٠٠ على وجه التقريب . وقد حل البرنز فيها محل الحجر فى صنع الأدوات والأسلحة ، وكثرت فيها الحلى ، ولكن التماثيل الصغيرة قبيحة المنظر بدائية الصنع . ويتضح من مخلفات هذه المدينة الثانية على أن النار قد دمرتها ، فآثار النار كثيرة فيها كثرة اقتنع معها شليمان بأن هذا كان من عمل يونانيى أجممنون .

(٣ — ٥) ووجدت من فوق « المدينة المحروقة » بقايا ثلاث دساكر متتالية صغيرة وفقيرة ، لا قيمة لها من الناحية الأثرية .

٦ — وقامت حوالى ١٦٠٠ ق . م مدينة أخرى على هذا التل التاريخى . وقد دفعت السرعة والحماسة شليمان إلى أن يخلط عاديات هذه الطبقة بعاديات الطبقة الثانية ، وأن يصف المدينة السادسة بأنها « مستقر ليدى »[٣٣] لا خطر له ، ولكن دوربفلد واصل الحفر بعد موت شليمان مستعيناً إلى وقت ما بمال شليمان نفسه[٣٤] حتى كشف عن مدينة أكبر كثيراً من المدينة الثانية مزدانة بالمبانى الكبيرة مقامة من حجارة مسواة ، يحيط بها سور يرتفع فوق الأرض ثلاثين قدماً بقيت له ثلاثة من أبوابه . ووجدت فى أنقاض

المدينة مزهريات ذات لون واحد أدق صنعاً من المزهريات التى وصفناها من قبل ، كما وجدت فيها آنية كآنية أوركمنوس Orchomenes المينية Minyan ، وقطع من الفخار شبيهة بما وجد فى ميسينى إلى حد اعتقد معه دوربفلد أنها مستوردة من هذه المدينة الثانية وأنها لذلك معاصرة لأسرة القبور البئرية (١٤٠٠ — ١٢٠٠ ق . م) . ويرى معظم العلماء أن هذه المدينة السادسة هى طروادة هومر مستندين إلى هذه الآثار وإلى عوامل أخرى أقل منها ثباتاً واستقراراً(*)[٣٥] . ويخصون بها « كنز بريام » الذى ظن شليمان أنه عثر عليه فى المدينة الثانية ، والمكون من ستة أساور ، وطاسين ، وتاجين ، وعصابتين للرأس ، وستين قرطاً و ٨٧٠٠ قطعة أخرى كلها من الذهب[٣٦] . ويؤكد لنا المؤرخون أن المدينة الثانية قد دمرتها النار أيضاً حوالى عام ١٢٠٠ ق . م ، ويحدد المؤرخون اليونان حصار طروادة بالفترة الواقعة بين : ١١٩٤ ، ١١٨٤ ق . م(**) .

وبعد ، فمن هم الطرواديون ؟ تذكر إحدى البرديات المصرية اسم الدردنيوين Dardenui بين أحلاف الحثيين فى واقعة قادش (١٢٨٧) ؛ ويحتمل أن يكون هؤلاء هم أسلاف الدردنويين Dardenoi وهم فى لغة هومر الطرواديون أنفسهم[٣٧] . والراجح أن هؤلاء الأقوام ينتمون إلى أصل

(*) يعتقد الدكتور كارل بلجن Dr. Carl Blegen مدير أعمال الحفر التى تقوم بها بعثة جامعة سنستاتى فى طروادة (١٩٣١ وما بعدها) على أن مدينة طروادة السادسة قد دمرت حوالى عام ١٣٠٠ ويرجح أن ذلك كله كان بفعل زلزال ، كما يعتقد أن المدينة السابعة قامت فوق أنقاض هذه المدينة . وهو يسمى هذه المدينة السابعة طروادة بريام . أما دوربفلد فيسمى هذه المدينة طروادة رقم ٦ ب ، انظر ماجاء بصحيفة الدراسات اليونانية Journal of Hellenic Studies العدد السادس والخمسين ص ١٥٦ .

(**) كانت طروادة السابعة مستقراً صغيراً غير محصن قامت فى ذلك المكان حتى أنشأ (٨) الإسكندر الأكبر فى عام ٣٣٤ طراودة الثامنة تقليداً لذكرى هومر . (٩) وشاد الرومان فى بداية التاريخ المسيحى اليوم أو طروادة الحديدة Novum Ilium التى بقيت إلى القرن الخامس بعد الميلاد .

بلقانى ، وأنهم عبروا مضيق الهلسبنت فى القرن السادس عشر مع أبناء عمومتهم الفريجيين واستقروا فى وادى نهر اسكمندر Scamander الأدنى [٣٨] . أما هيرودوت فيوحد بين الطرواديين والتيكريين Teucrians وهؤلاء فى رأى اسطرابون أقوام من كريت استقروا فى الصقع الذى بنيت فيه طروادة فيما بعد(*) ، ولعل استقرارهم فى ذلك المكان كان بعد سقوط كنوسس [٤٠]. ولقد كان لكريت وطروادة جميعاً جبل مقدس يسمى جبل أيدا « جبل أيدا ذا الفوارات الكثيرة » الذى يذكره هومر وتنيسن Tnnyson . ولقد تعرض هذا الإقليم فى أوقات مختلفة إلى مؤثرات سياسية وجنسية من أرض الحيثيين الواقعة خلفه . وتدل أعمال الحفر فى جملتها على وجود حضارة بعضها مينوى ، وبعضها ميسينى ، وبعضها أسيوى ، وبعضها دانوبى Danubian .

ويصف هومر الطرواديين بأنهم كانوا يتكلمون لغة اليونان ويعبدون آلهتهم ، ولكن اليونان المتأخرين عن عصر هومر كانوا يقولون إن طروادة مدينة أسيوية ، وإن حصارها الذائع الصيت هو أول الأحداث المعروفة فى النزاع القائم بين الساميين والآريين ، وبين الشرق والغرب [٤١] .

وأهم من مظهر أهلها وجنسهم موقع المدينة المنيع قرب مدخل الهلسبنت والأراضى الغنية المحيطة بالبحر الأسود . لقد كان هذا الممر الضيق فى التاريخ كله ميدان القتال بين الإمبراطوريات ، وكان حصار طروادة هو معركة غليبولى

(*) ترجع الرواية اليونانية اسم طروادة إلى البطل الإبونيمى تروس Tros والإيلس Ilus واللؤمدون Leomedon والبريام [٣٩] . وهذا منشأ الأسماء المختلفة التى تطلق على المدينة : ترواس Troas إليوس Ilios إليون Ilion اليوم Ilium . والبطل الأيونيمى أو الإيونيم شخص خرافى فى أغلب الظن ، تعزو إليه جماعة سياسية أو اجتماعية أصلها واسمها . فالدردانيون مثلا يعتقدون أو يدعون أنهم من دردانوس بن زيوس ، ويعزو الدوريون أصلهم إلى دورس Dorus والأيونيون إلى أيون وهلم جرا .

الحديثة نشبت فى عام ١١٩٤ ق . م . وكان السهل القائمة عليه على درجة لا بأس به من الخصب ، وكانت الأرض المجاورة له من الشرق غنية بالمعادن الثمينة ؛ ولكن هذه الثروة وحدها لا يمكن أن تكون سبب ثراء طروادة أو هجمات اليونان عليها . إن أهم من هذا فى رأينا أن موقع المدينة كان يمكنها من فرض المكوس على السفن المارة بالهلسپنت ، وكانت هى فى الوقت عينه بعيدة عن البحر بعداً يجعلها فى مأمن من الهجمات البحرية(٤٢). وربما كان هـذا السبب لا وجه هلن Helen الجميل هو الذى جردت من أجله ألف سفينة للهجوم على إليوم . وثمة رأى آخر يفسر ثراء طروادة — وربما كان أرجح من الرأى الأول — وهو أن التيارات المائية والرياح الجنوبية فى مضيق الهلسپنت قد جعلت التجار يفرغون بضائعهم فى طروادة وينقلونها براً إلى داخل البلاد ، وأن طروادة قد حصلت من المكوس التى تتقاضاها نظير قيامها بهذا العمل على ما تجمع لها من قوة(٤٣) . ومهما يكن سبب هذا الثراء فإن تجارة المدينة نمت نمواً سريعاً كما يستدل على ذلك من اختلاف المصادر التى تنتمى إليها آثارها . فقد كان يأتى إليها من الجزء الجنوبى من بحر إيجة النحاس ، وزيت الزيتون ، والخمر ، والفخار ؛ ومن بلاد الدانوب وتراقية : الفخار ، والكهرمان ، والخيل ، والسيوف ؛ ومن بلاد الصين النائية أشياء نادرة كحجر اليشب(٤٤) . وكانت طروادة تستورد من داخل البلاد المحيطة بها خشباً ، وفضة ، وذهباً ، وحمرا برية ، وتصدرها إلى الخارج .

وكان أهل طروادة « مروضو الخيول » المقيمون فى زهو وخيلاء داخل أسوارهم ، يسيطرون على ما حولهم من البلاد ويفرضون المكوس على تجارتها البرية والبحرية .

والصورة التى تطالعنا فى الإلياذة عن پريام وبيته هى صورة العظمة والعطف الأبوى التى تطالعنا فى أسفار التوراة . فالملك كثير الزوجات ، ولم يكن منشأ هذه الكثرة حب المتعة بل كان منشؤها ما يشعر به من تبعة تفرض

عليه أن يستمر فى إنجاب الأبناء وزيادة عددهم . أما أبناء الملك فيقتصرون على زوجة واحدة ، وكلهم حسنو الأخلاق مستقيمون – إذا استثنينا بطبيعة الحال باريس المرح الذى كان بعيداً عن حسن الخلق بعد ألقبيادس . وإن هكتور Hector ، وهلنوس Helenus ، وترويلوس Troilus لأجدر بالحب من أجممنون المتقلب ، وأديسيوس Odysseus الغدار ، وأخيل المشاكس ، وأندروماك Andromache وپلكسينا Polyxena لا تقلان سحراً وفتنة عن هيلين وإفجينيا Iphigenia ؛ وهكيبا أحسن قليـــلا من كليتمنسترا . والطرواديون فى جملتهم كما يصورهم أعداؤهم يبدون فى نظرنا أقل خداعاً ، وأكثر وفاء ، وأحسن تهذيباً ، من اليونان الذين غلبوهم على أمرهم . ولقد أحس الفاتحون أنفسهم بهذا التفوق فى أواخر أيامهم ؛ ولم يبخل هومر على أهل طروادة بكلمة طيبة ؛ ولم يترك سافو Saphe ولا يوربيديز شكا فى الناحية التى يريان أنها خليقة بعطفهما وإعجابهما .

ولقد كان من دواعى الأسف أن يعترض هذا الشعب طريق بلاد اليونان المتوسعة التى جاءت ، رغم عيوبها الكثيرة ، إلى هذا الإقليم وإلى غيره من أقاليم البحر المتوسط فى آخر الأمر بحضارة أرقى من كل الحضارات التى عرفها من قبل .

الباب الثالث

عصر الأبطال

الفصل الأول

الآخيون

عثر المنقبون فى بوغاز كوى Boghaz Keui على ألواح حثية قليلة يرجع عهدها إلى حوالى عام ١٣٢٣ ق . م تصف الأهجافا Ahhijava بأنهم شعب لا يقل فى قوته عن الحثيين أنفسهم . وورد فى سجل مصرى يرجع إلى حوالى عام ١٢٢١ ق . م أن الأكيواشا Akaiwasha انضموا إلى غيرهم من « شعوب البحر » فى غارة لوبية على مصر ، ويصفهم بأنهم عصابات رحل « يقاتلون ليشبعوا بطونهم ...[1] » .

والآخيون كما يصفهم هومر فى شعره شعب يتكلم اللغة اليونانية يسكن جنوبى تساليا[1] ، وإذ كان هذا الشعب قد أصبح أقوى القبائل اليونانية فإن هومر يطلق اسمه على جميع اليونان الذين حاربوا طروادة . ويصف المؤرخون والشعراء اليونان، الذين عاشوا فى أيام مجد البلاد الأدبى ،الآخيين ، كما يصفون البلاجيين ، بأنهم أهل البلاد الأصليون ، وأنهم كانوا يعيشون فيها من أقدم الأزمنة التى تعيها الذاكرة ، وافترضوا من غير ما تردد أن الثقافة الآخية التى يصفها هومر كانت هى والتى سميناها فى هذا الكتاب بالثقافة الميسينية ثقافة واحدة . وأخذ شليمان بهذا الرأى ، وظل العلماء يأخذون به فترة قصيرة من الزمان .

ثم حدث فى عام ١٩٠١ أن جاء رجل إنجليزى عنيد هو سير وليم ردجواى Sir William Ridgeway[٢] وزعزع هذه الثقة العزيزة على نفوس العلماء بقوله إن الحضارة الآخية ، وإن اتفقت هى والميسينية فى نواح كثيرة ، تختلف عنها فى تفاصيل هامة : (١) فالحديد لا يكاد يعرف فى الحضارة الميسينية أما الآخيون فهم على علم به . (٢) ويذكر هومر أن موتى الآخين يحرقون ، أما فى تيرينز وميسينى فهم يدفنون ، وهذا يدل على اختلاف هؤلاء وأولئك فى عقيدتهم عن الحياة الآخرة . (٣) والآلهة الآخية هى الآلهة الأولمبية ، وهذه لا أثر لها قط فى ثقافة ميسينى . (٤) إن الآخين يستعملون سيوفاً طويلة ، وتروساً مستديرة ودبابيس للصدور مأمونة ، ولم يعثر قط بين الآثار الميسينية على أدوات مشابهة لها فى الشكل . (٥) وبين الشعبين اختلافات كثيرة فى ملابسهم وفى تصفيف شعرهم . واستنتج ردجواى من هذا أن الميسينين بلاسجيون ، وأنهم كانوا يتكلمون اللغة اليونانية ، وأن الآخين « كيلت » شقر أو من شعوب أوربا الوسطى نزحوا إلى تلك البلاد مخترقين إبيروس وتساليا ابتداء من عام ٢٠٠٠ ق . م ، وجاءوا معهم بعبادة زيوس ، ثم غزوا البلوبونيز حوالى عام ١٤٠٠ ، واتخذوا اليونانية لغة لهم ، واتبعوا أساليب الحياة اليونانية ، وأقاموا من أنفسهم زعماء إقطاعيين يحكمون من قصورهم الحصينة البلاسجيين الخاضعين لسلطانهم .

وتلك نظرية تلقى بلا شك كثيراً من الضوء على أصل أولئك القوم حتى لو اضطر العلماء إلى إدخال تعديلات جوهرية عليها . ومما يؤخذ عليها أن الآداب اليونانية لا تذكر قط شيئاً عن غارة آخية على بلاد اليونان ، وأن ليس من الحكمة أن ترفض نظرة أجمع عليها العلماء بسبب زيادة تدريجية فى استعمال الحديد ، أو تبدل فى أساليب الدفن أو تصفيف الشعر ، وفى إطالة

السيوف أو استدارة التروس أو التزين بدبابيس مأمونة . وأرجح من هذا الرأى أن نفترض ، كما كان يفترض كتاب اليونان الأقدمون ، أن الآخيين قبيلة يونانية انتشرت على أثر الزيادة الطبيعية فى عددها من تساليا إلى البلوبونيز فى خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر وامتزجت دماؤهم بدماء البلسجيين – الميسينيين الذين كانوا فى تلك البلاد – وأنهم أصبحوا حوالى عام ١٢٥٠ ق . م الطبقة الحاكمة فيها[٤] . وأغلب الظن أنهم هم الذين أخذ عنهم البلاسجيون اللغـــة اليونانية ، ولم يأخذوها هم عن البلاسجيين . وقد تكون ألفاظ كورنثة ، وتيرينز ، وبارنسس Parnassus ، وأولمبيا(*) وأمثالها من أسماء الأماكن ، قد تكون هذه أصداء للغة كريتية – بلاسجية – ميسينية[٥] . وبهذه الطريقة عينها ، فيما يبدو لنا ، فرض الآخيون آلهتهم الجلية والسماوية على الآلهة [illegible] لأرضية التى كان يعبدها من قبلهم من الأهلين . أما فيما عدا هذا فليس ثمة فارق واضح بين الثقافة الميسينية وذلك الطور الأخير منها ، وهو الآخية ، الذى نجده فى أشعار هومر . ويلوح أن أساليب الحياة عند هؤلاء وأولئك قد امتزجت وانصهرت حتى أمست أساليب واحدة . ثم انمحت الحضارة الإيجية ببطء بعد أن جرى هذا الامتزاج فى مجراه ، وقضى عليها القضاء الأخير فى هزيمة طروادة ؛ ومن ذلك الوقت بدأت الحضارة اليونانية .

(*) وألفاظ يونانية أخرى مثل sesamon سمسم ، kyparissos (السرو) ، hyssops (الثمام) ، oinos (الخمر) ، sandalon (الصندل) ، chalkos (النحاس) thalassa (البحر) ، molybdos (الرصاص) ، zephyros (النسيم) ، kybernao (يوجه السفينة) ، sphongos (الإسفنج) ، laos (النـــاس) ، labyrinthis (التيه) ، kitharis (الزيثار وهى آلة موسيقية شبيهة بالقيثارة) syrinx (الناى) ، paian (تهليل) .

الفصل الثاني

خرافات الأبطال

توحى إلينا خرافات عصر الأبطال بأصل الآخيين وبما آل إليه أمرهم . وليس من حقنا أن نغفل هذه القصص ، فهى وإن سادها خيال القتيل وإراقة الدماء قد يكون فيها من الحقائق التاريخية أكثر مما نظن ، وهى ممتزجة بالشعر والمسرح والفن اليونانى امتزاجاً يجعل فهمها مستحيلا بغير هذه القصص(*) ،

وتذكر النقوش الحثية اسم ملك يدعى أتارسياس Atarissyas تقول إنه ملك الأهجاقا فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وأكبر الظن أنه هو أتريوس ملك الآخيين[٦] . وتقول الأساطير اليونانية إن زيوس أعقب تنتالوس Tantalus ملك فريجيا(**) وإن هذا أعقب پلپس Pelops ، وأعقب پلپس أجممنون ، ولما نفى پلپس من وطنه جاء إلى إليس فى غرب

(*) برسيوس ... هرقليس ... مينوس ، ثسيوس ، جيسن ... إن من المألوف فى هذه الأيام أن تعد هؤلاء وغيرهم من أبطال ذلك العصر ... من خلق الأساطير وحدها . أما اليونان المتأخرون فقد كانوا فى تقدهم لتواريخ أيامهم الماضية لا يشكون فى أن هؤلاء أشخاص حقيقيون حكموا بالفعل فى أرجوس وغيرها من الممالك ، وقد أخذ كثيرون من النقاد المحدثين ، بعد أن ظلوا يشكون فى آراء النقاد اليونان زمناً طويلا ، أخذ كثيرون من هؤلاء النقاد يعودون إلى رأى اليونان ويرون أنه هو الرأى الذى يفسر ما لدينا من الشواهد تفسيراً مقبولا ... إن أبطال القصص « أبطال حقيقيون » شأنهم فى هذا شأن المواضع الجغرافية التى كانوا يتحركون فيها » . تاريخ كيمبردج القديم المجلد الثانى ص ٤٧٨ . وسنفترض فى هذا الكتاب أن الخرافات الكبيرة حقيقية فى جوهرها وهمية فى تفاصيلها .

(**) وأغضب تنتالوس الآلهة بأن أفشى أسرارها ، وسرق شرابها وطعامها ، وقدم لها بدلا منهما ابنه بلپس بعد أن قطعه إرباً وغلاه . وأعاد زيوس جسم بلپس كما كان وجازى تنتالوس فى الجحيم بأن سلط عليه ظمأ شديداً ، فوضعه وسط بحيرة ينحسر ماؤها كلما هم بشربه وعلق فوق رأسه أغصاناً مثقلة بالفاكهة ، تبتعد عنه كلما حاول الوصول إليها ، كما علق فوقه
وعلق فوق رأسه أغصاناً مثقلة بالفاكهة ، تبتعد عنه كلما حاول الوصول إليها ، كما علق فوقه
صخرة تهدده فى كل وقت بأن تسقط عليه وتهشمه[٧] .

البلوبونيز حوالى ١٢٨٣ وصمم على أن يتزوج هبودوميا Hippodomia ابنة أونوماوس Onomaus ملك إليس . ولا تزال القوصرة الشرقية فوق الهيكل العظيم المقام لزيوس فى أولمبيا تقص علينا قصة خطبتهما . وقد كانت عادة الملك أن يختبر من يتقدمون لخطبة ابنته بأن يتبارى وإياهم فى سباق المركبات فإذا سبقه الخطيب تزوج هبودوميا ، أما إذا لم يسبقه فإنه يقتل . وحاول كثير من الخاطبين أن يفوزوا بها ، ولكنهم خسروا السباق وخسروا حياتهم جميعاً ؛ وأراد پلپس أن يقلل ما يتعرض له من الأخطار بأن أرشى مرتلوس Myrtilus سائق عربة الملك ليزيل المسامير التى تربط عجلات العربة بقطبها ، ووعده بأن يقتسم معه المملكة إذا أفلحت خطتهما . وحدث فى أثناء المباراة أن انكسرت عربة الملك وقتل ، وتزوج پلپس هبوداميا وحكم إليس ولكنه لم يقتسم مملكته مع مرتيلوس بل ألقاه فى البحر ؛ وصب مرتيلوس وهو يغرق لعنة على پلپس وعلى جميع نسله .

وتزوجت ابنة پلپس سثنلوس Sthenelus بن پرسيوس ملك أرجوس ؛ وورث الملك من بعده ابنهما يوريسثيوس Eurystheus ، ولما مات خلفه عمه أتريوس . وتزوج أجممنون ومنلوس Menelaus ابنا اتريوس كليتمنسترا وهلن ابنتى تنداريوس Tyndareus ملك لاسيديمون Lacedoemon ، ولما مات أتريوس وتنداريوس اقتسم أجممنون ومنلوس فيما بينهما بلاد البلوبونيز الشرقية بأجمعها ، وحكماها من عاصمتيهما ميسينى واسپارطة ، وسميت تلك البلاد پلوپونيز أو جزيرة پلوپس نسبة إلى جدهما ، بعد أن نسى أحفاده لعنة مرتيلوس .

وكانت بقية بلاد اليونان فى ذلك الوقت تجد فى إنجاب الأبطال ، وكانوا يعملون فى الغالب فى تشييد المدن . وتقول الرواية اليونانية إن زيوس غضب على الجنس البشرى لما كان يقترفه من مظالم لسلط عليه طوفاناً جائحاً لم ينجح منه إلا رجل واحد هو ديوكاليون Deucalion وزوجته پرها Pyrrha فى فلك

أو صندوق استقر على جبل پارنسس . وتناسلت من هيلّن Hellen بن ديوكاليون جميع القبائل اليونانية واشتق من اسمه هلين Hellenes اسم هذه القبائل مجتمعة . وكان هيلّن جد أخيوس Acheus وأيون Ion اللذين تناسلت منهما القبائل الآخية والأيونية واستقرتا بعد تجوال طويل أولاهما فى الپلوپونيز والثانية فى أتكا . وأنشأ سكرپس أحد أبناء أيون بمعونة الإلهة أثينا فى موضع كان الپلسجيون قد استقروا من قبل على رابية فيه المدينة التى سميت فيما بعد باسمها وهى مدينة أثينة[٨] . وتقول القصة إنه هو الذى نشر الحضارة فى أتكا ، وسن شريعة الزواج ، وحرم التضحية بالأحياء ، وعلم رعاياه عبادة الآلهة الأولمبية ، وخاصة زيوس وأثينا .

وحكم أبناء سكرپس وأحفاده أثينة وكانوا ملوكاً عليها . وكان رابع من حكمها من نسله إرکثيوس Erechtheue الذى ألهته المدنية وأقامت له فيما بعد هيكلا من أجمل هياكلها . وجمع حفيده ثسيوس حوالى ١٢٥٠ ق م . قرى أتكا الاثنتى عشرة فى وحدة سياسية سمى سكانها فيما بعد أينما كانوا بالأثينيين . ولعل السبب فى أن اسم أثينة اليونانى ينطق به بصيغة الجمع كما ينطق أيضاً اسم طيبة وميسينى هو أنها نشأت فى بداية أمرها من اجتماع سكان عدة قرى متجاورة . وكان ثسيوس هو الذى وهب أثينة النظام والقوة ، وقضى على عادة التضحية بأبنائها قرباناً لمنيوس ، وأمن أهلها فى ترحالهم بقتل قاطع الطريق بركرستيس Procrustes الذى كان يحب أن يمد سيقان أسراه أو يقطعها حتى تكون فى طول سريره . وعبدت أثينة ثسيوس بعد وفاته واتخذته هو أيضاً إلهاً لها . وجاءت المدينة فى عام ٤٧١ ق . م أى فى عصر التشكك أيام بركليز ، جاءت بعظام ثسيوس من اسكيروس Scyros وأودعتها آثاراً مقدسة فى هيكل ثسيوس .

وقامت فى شمال أثينة فى بوْوتيه Boeotia حاضرة أخرى تنافسها ، وكان لها مثلها تاريخ مثير للمشاعر ، قدر له أن يكون محور المسرحيات اليونانية فى عصر البلاد الأدبى . فقد أنشأ الفينيقيون أو الكريتيون ، أو كادموس Cadmus أحد أمراء المصريين فى أواخر القرن الرابع عشر مدينة طيبة عند ملتقى الطرق التى تعبر بلاد اليونان من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ، وعلم منشئوها أهلها الحروف الهجائية ، وقتلوا التنين (ولعل هذا رمز قديم لوباء معد أو فتاك) الذى كان يمنع الأهلين من الانتفاع بماء العين الآرية Areian وخرج من أسنان التنين التى غرسها كدموس فى الأرض رجال مسلحون أخذوا يقتتلون كما يقتتل اليونان فى عصورهم التاريخية حتى لم يبق منهم إلا خمسة ، وهؤلاء الخمسة هم الذين أنشئوا المدينة المالكة ، على حد قول طيبة نفسها . وكان مركز حكومة المدينة حصناً يدعى كدمية Cadmeia أقيم على ربوة عثر فيها فى هذه الأيام على قصر كدموس(*) ، وحكم بعد كدموس من هذا الحصن نفسه ابنه پوليدوروس Polydorus ثم حفيده لبدكوش Labdacus ثم ابن حفيده لايوس Laius وهو الذى قتله ابنه أوديبوس (أوديب) Oedipus كما يعرف العالم كله وتزوج أمه . ولما مات أوديب تنازع الملك أبناؤه كما يتنازع الأمراء على الدوام ، وطرد إتوكليز Eteocles أخاه پوليبيسيز ، فذهب هذا إلى أدراستوس Adrastus ملك أرجوس وأقنعه بالعمل على تنصيبه ملكا . وحاول أدراستوس أن يقوم بهذه المهمة (حوالى ١٢١٣ ق . م .) وشن على أثينة حرب (الأحلاف) السبعة ، ثم عاد إلى حربها مرة أخرى بعد ستة عشر عاماً من ذلك الوقت فى حرب الإبجونى Epigoni أو الأبناء السبعة . وفى هذه الحرب قتل إتيوكليز وپولينيسيز وحرقت طيبة عن آخرها .

(*) يرجع المؤرخون تاريخ هذا العصر إلى ما بين ١٤٠٠ ، ١٢٠٠ ق . م . وقد عثروا فيه على كتابة قليلة بحروف لم تحل رموزها بعد ولعلها متفرعة من أصل كريتى .



وكان بين أشراف طيبة رجل يسمى أمفتريون Amphitryon متزوج من امرأة فاتنة تدعى ألكمين Alcmene . وزارها زيوس وأمفتريون غائب فى حرب من الحروب واستولدها هرقليز (هرقل) Heracles أو هرقول Hercules(*) . ولم تكن هيرا Hera تحب أن ينزل الآلهة فى عبثهم إلى هذا الحد فأرسلت حيتين لإهلاك الوليد فى مهده ؛ ولكن الطفل أمسك كل واحدة منهما بإحدى يديه وخنقهما جميعاً ، ومن أجل ذلك سمى هرقليز لأنه ورث المجد عن هيرا . وحاول لينوس Linus ، أقدم الأسماء فى تاريخ الموسيقى ، أن يعلم الطفل العزف والغناء ، ولكن هرقليز لم يعبأ بالموسيقى ، وقتل لينوس بقيثارته . ولما شب الطفل ، وأصبح جباراً ، شقياً ، سمجاً ، سكيراً ، نهماً ، تعهد أن يقتل أسداً كان يفتك بقطعان أمفتريون وثسپيوس . وقدم ثسپيوس ملك ثسپيا Théspiæ بيته وبناته الخمسين إلى هرقليز . وقام البطل بما تعهد به على أحسن وجه(١٠) ، فقتل الأسد واتخذ جلده لباساً له ، وتزوج مجارة Megara ابنـــة كريون Creon الطيبى وحاول أن يحيا حياة مستقرة هادئة ، ولكن هيرا سلطت عليه نوبة من الجنون ، فقتل أبناءه على غير علم منه . وجاء إلى مهبط الوحى فى دلفى يستنصحه ، فأشير عليه بأن يذهب إلى تيرينز ويعيش فيها ويخدم يورثيوس ملك أرجوس مدى اثنى عشر عاماً يصبح بعدها إلهاً مخلداً . فصدع بالأمر وقام ليورثيوس بالاثنى عشر عملا(**) الذائعة الصيت . ولما أطلقه الملك عاد إلى طيبة ، حيث قام

(*) ويقول ديودور إن « زيوس ضاعف طول تلك الليلة ثلاثة أضعاف طولها الأصل ؛ وإنه تنبأ الطفل بقوته غير العادية بسبب طول الوقت الذى قضياه فى إنجابه »(٩)

(**) وخنق الأسد الذى كان يفترس قطعان نيميا Nemea ، وقتل الأفعى هيدرا الكثيرة الرؤوس التى أهلكت لرنا Lerna ، وقبض على ظبى سريع العدو وجاء به إلى يورسثيوس Eurystheus ، واقتنص خنزيراً برياً من جبل يورمنثوس Eurymanthus وجاء به إلى يورسثيوس ، وطهر فى يوم واحد اسطبلات أوجياس وكان فيها ثلاثة آلاف ثور وذلك بأن حول مجرى ألفيوس Alpheus وپنيوس Peneus إلى مزاود الثيران ، وانتظر فى إلس حتى أقام الألعاب الأولمبية ، ثم أهلك الطيور الأستمفالية Stymphalian الفتاكة التى كانت فى أركاديا ، وقبض على الثور الهائج الذى كان يعيث فى كريت فساداً ، —

بأعمال كثيرة شاقة ، وانضم إلى ركاب السفينة أرجوس ، ونهب طروادة فيمن نهبوها ، وأعان الآلهة على أن تنتصر على المردة الجبابرة ، وفك قيود بروميثيوس Prometheus ، وأعاد الحياة إلى ألستيس Alcestis ، وقتل أصدقاءه فى أوقات مختلفة بطريق الصدفة . واتخذه الناس بعد موته بطلا وإلهاً وعبدوه . وإذ كان قد أحب فتيات يخطئهن الحصر فقد ادعت كثير من القبائل أنها من نسله(*) .

واستقر أبناؤه فى تراكيس Trackis فى تساليا ، ولكن يوريسثيوس خشى أن يخلعوه عن عرشه انتقاماً منه لما عاناه أبوهم على يديه من نصب لا ضرورة له ، فأمر ملك تراكيس أن يخرجهم من بلاد اليونان . ولجأ أبناء هرقل إلى أثينة ، وسير يوريسثيوس إليهم جيشاً ليقاتلهم ولكنهم هزموا الجيش وقتلوه . ولما جاءهم أتريوس على رأس قوة أخرى ، عرض هيلوس Hyllus أحد أبناء هرقل أن يبارز أحد رجال أتريوس مشترطاً أنه إذا غلب خصمه استولى الهرقليون على مملكة ميسينى ، وإذا هزم خرج الهرقليون فلا يعودون قبل

= وحمله فوق ظهره إلى يورسثيوس ، وقبض على خيل ديوميديس Diomedes آكلة الآدميين وروضها ، وقتل الأمزونات عن آخرهن ؛ وأنشأ عند مدخل البحر المتوسط نتوءين بارزين متقابلين هم « عمود هرقول » . وقبض على ثورى جريون Geryon و خترق بلاد غالة وجبال الألب ، وإيطاليا ثم عبر بهما البحر إلى يورسثيوس ، ووجد تفاحتى هسپريدس ، ثم أمسك بالأرض زمنا ما بدل أطلس ؛ ثم نزل إلى هيديس (الجحيم) ، وأنجى من العذاب فيها ثسيوس وأسكلفوس Ascalophus . وكانت هيرا قد عهدت إلى بنات أطلس بالتفاحات الذهبية التى أهدتها إياها جائيا Gaea (الأرض) حين تزوجت زيوس . وكان تنين جبار يحرس التفاحتين ، اللتين تهبان من يأكلهما صفات شبيهة بصفات الآلهة .

(*) يظن ديودور أن هذا « البطل الثقافى » العجيب كان مهندساً بدائياً فى عصر ما قبل التاريخ شبيهاً بأمبدقليز . ويفهم من الخرافات التى تروى عنه أنه طهر أجزاء مائية ، وشق الطرق فى الجبال ، وحول مجارى الأنهار وصلح الأراضى البور ، وطهر الغابات من الوحوش المفترسة ، وجعل أرض اليونان صالحة للسكنى(١١) وقد تفسر قصة هرقل على أنه كان ابن الله المحبوب الذى يرضى بالعذاب حباً فى الخلق ، ويحيى الموتى وينزل إلى الجحيم ثم يصعد إلى السماء .

مضى خمسين عاماً يمتلك أبناؤهم بعدها ميسينى(١٢) . فلما هزم خرج هو وأتباعه من البلاد ، وبعد خمسين عاماً عاد إليها جيل جديد من الهرقليين . وكانوا هم ، لا الدوريون ، الذين رفضت مطالبهم ، ففتحوا الپلوپونيز ، كما تقول الرواية اليونانية ، وانتهى بهذا الفتح عصر الأبطال .

وإذا كانت قصة پلپس وأبنائه توحى بأن آسية الصغرى هى أصل الآخيين فإنا نستطيع أن نتتبع ما آل إليه أمرهم فى قصة ركاب السفينة أرجوس ، وهذه القصة ككثير غيرها من الخرافات التى تجمع بين الرواية التاريخية والقصص الشعبية عند اليونان تعد من أحسن القصص القديمة لأن فيها جميع عناصر المغامرة ، والارتياد ، والحرب ، والحب ، والغموض ، والموت ، اندمجت كلها بعضها ببعض وتكون منها نسـيج غنى خصب صاغ منه أپولونيوس الرودسى فى أيام الحضارة المتأغرقة ملحمة جديدة متوسطة القيمة بعد أن كاد الكتاب المسرحيون الأثينيون يبلونه بما صاغوه منه من مسرحيات . وتبدأ هـذه الملحمة بقصة أوركنوس البيوتى Boeotian وبالتضحية الآدمية كما تبدأ مأساة أجممنون . ذلك أن الملك أثاماس Athamas لما وجد أن بلاده قد حل بها القحط ، عرض أن يقرب ابنه فركسوس Phrixus قرباناً للآلهة . وبلغ الخبر مسامع فوكسوس ففر من أركمنوس بصحبة أخته هـلى Hel'e بأن طار معها فى الجو على ظهر كبش ذى جزة من الذهب . ولكن الكبش لم يكن ثابتاً فى طيرانه فسقطت هلى من فوق ظهره وغرقت فى المضيق الذى سمى فيما بعد الهلسپنت . أما فركسوس فوصل سالماً إلى البر واتخذ طريقه إلى كلكيز Colchis عند الطرف الشرقى من البحر الأسود ، وهناك ضحى بالكبش وعلق جزته قرباناً لآريس Ares إله الحرب . وأقام أيتيس Aietes ملك كلكيز تنيناً لا تغمض له عين ليحرس الجزة ، لأن نبوءة قد أوحت إليه أنه سيموت إذا استولى عليها رجل من غير أهل البلاد ، وأراد أن يزيد اطمئناناً على نفسه فأمر أن يقتل

كل من يأتى إلى كلكيز من الغرباء . وكانت ابنته ميديا Medea تحب الغرباء والأساليب الغريبة ؛ وتشفق على أبناء السبيل وتساعدهم على الخروج من بلاد أبيها سالمين ، فأمر أبوها بأن تمنع من الاتصال بالناس ، ولكنها فرت إلى مكان مقدس بجوار البحر وعاشت هناك مكتئبة حزينة دائمة التفكير فى أمرها حتى عثر عليها چيسن Jason فى أثناء تجواله على شاطئ البحر .

وقبل عشرين عاماً من ذلك الوقت (والمؤرخون اليونان يقولون إن ذلك كان حوالى ١٢٤٥) اغتصب پلياس Pelias بن پوسيدن Poseidon عرش إيسن Aeson ملك يولكوس Iolcus من أعمال تساليا . وأخفى أصدقاء الملك المخلوع ابنه الطفل چيسن ، وشب هذا الطفل فى الغابات حتى أصبح شابا قوياً شجاعاً . وظهر يوما من الأيام فى السوق يرتدى جلد فهد ويحمل من السلاح رمحين ، وطالب بملك أبيه . ولكنه كان يبلغ من السذاجة مبلغه من القوة . وأقنعه پلياس أن يقوم بعمل شاق يكون ثمنا لعرشه — وكان هذا العمل الشاق هو استعادة الجزة الذهبية . فصنع چيسن السفينة العظيمة أرجو (أى السريعة) ودعا إلى صحبته فى مغامرته أشجع شجعان اليونان ، فلبى الدعوة هرقل ومعه هيلاس Hylas رفيقه المحبوب ؛ وجاء معهما پليوس Peleus والد أخيل ، وثسيوس ، ومليجر Meleager ، وأرفيوس Orpheus والعذراء أتلنتا السريعة العدو . ولما دخلت السفينة الهلسپنت اضطرت إلى الوقوف ، ولعلها قد وقفت فى وجهها قوة من طروادة لأن هرقل ترك الحملة لينهب المدينة ويقتل ملكها لوميدون Laomedon وأبناءه كلهم عدا پريام .

ولما وصل ركاب السفينة أرجو إلى مقصدهم بعد أن لاقوا ألوانا من العذاب حذرتهم ميديا من الموت الذى ينتظر كل من جاء كلكيز من الغرباء ، ولكن چيسن أصر على عزمه ورضيت ميديا أن تساعده فى الحصول على الجزة إذا وعدها بأن يأخذها معه إلى تساليا ويحتفظ بها زوجة له حتى مماته .

وعاهدها على ذلك واستولى بمعونتها على الجزة ، وفر بها إلى سفينته ومعه ميديا ورجاله . وجرح الكثيرون منهم ولكن ميديا عالجتهم بالأعشاب والجذور . ولما وصل چيسن إلى پولكوس طالب بمملكته مرة أخرى ، وتلكأ پلياس فى إجابة طلبه ، فما كان من ميديا إلا أن استعانت بفنون السحر فخدعت بنات پلياس وحملتهن على أن يغلين أباهن حتى يموت . وارتاع الناس من قواها السحرية فأخرجوها هى وچيسن من پولكوس وحرموه من العرش إلى أبد الدهر(١٣) . ونترك بقية القصة إلى يوريپديز .

إن الأسطورة فى الكثير الغالب قطعة من الحكم الشعبية يخلق منها الشعر أشخاصاً . وكثيراً ما تكون الأسطورة قطعة من التاريخ تضخمت بفضل ما اتصل بها من قصص جديدة على مرّ السنين . وأكبر الظن أن اليونان قد حاولوا فى الجيل السابق على حصار طروادة التاريخى أن يشقوا طريقهم فى الهلسپنت ويفتحوا بلاد البحر الأسود للاستعمار والتجارة ؛ وقد تكون قصة رجال السفينة أرجو ذكريات قديمة لهذا الارتياد التجارى صيغت فى قالب المسرحيات ؛ وقد تكون قصة « الجزة الذهبية » إشارة إلى الجلود الصوفية أو الأقمشة التى كانت تستخدم قديماً فى شمالى آسية الصغرى للحصول على ما تحمله المجارى المائية من قطع ذهبية صغيرة(١٤) .

ولقد استقر اليونان فعلا حوالى ذلك الوقت فى جزيرة لمنوس Lemnos التى لا تبعد كثيراً عن الهلسپنت . لكن البحر الأسود لم يكن من البحار الصالحة للتجارة والاستعمار رغم اسمه المغرى ، وقامت طروادة الحصينة مرة أخرى بعد أن انتهبها هرقل تعترض سبيل من يخاطرون باجتياز المضيق ؛ ولكن اليونان لم ينسوا ما فعلوه من قبل وعادوا من جديد يحاولون اجتيازه بمائة سفينة بدل سفينة واحدة ، وأهلك الآخيون أنفسهم فى سهل إليون ليحرروا الهلسپنت .

الفصل الثالث

الحضارة الهومرية

ترى كيف نستطيع أن نعيد تصوير حياة بلاد اليونان الآخية (١٣٠٠ — ١١٠٠ ق . م) بالاستناد إلى أقاصيصها ؟ أن أكثر ما نعتمد عليه من المصادر فى رسم هذه الصورة هو أشعار هومر ، وهو إنسان قد لا يكون له وجود ، وقد قيلت ملاحمه بعد عصر الآخيين بثلاثة قرون على أقل تقدير . نعم إن علم الآثار قد أدهش الأثريين بأن أثبت أن طروادة ، وميسينى ، وتيرينز ، وكنوسس وغيرها من المدائن التى وصفتها الإلياذة كلها مدن حقيقية ، كما أدهشهم بالكشف عن حضارة ميسينية تشبه شبهاً عجيباً تلك الحضارة التى تتشكل من تلقاء نفسها بين أشعار هومر ؛ ومن أجل هذا ينزع العلماء فى هذه الأيام إلى أن يعدوا بعض الأشخاص المهمين الذين ورد ذكرهم فى هذه القصص الخلابة أشخاصاً حقيقيين . لكننا مع هذا لا نستطيع أن نقول إلى أى حد تعكس قصائد هومر حال العصر الذى كان يعيش فيه الشاعر لا العصر الذى يكتب عنه . إذن فكل الذى فى وسعنا أن نسأل عنه هو : ما هى الصورة التى كانت تتخيلها الرواية اليونانية كما جمعها هومر فى أشعاره عن العصر الهومرى ؟ ومهما تكن هذه الصورة فإنا سنحصل منها على صورة من بلاد اليونان فى طور الانتقال الظريف من الثقافة الإيجية إلى حضارة اليونان فى العصور التاريخية .

١ — العمال

إن الصورة التى تنطبع فى أذهاننا عن الآخيين (أى عن اليونان فى عصر الأبطال) هى أنهم كانوا أقل حضـــارة من الميسينيين الذين سبقوهم ،

وأرق حضارة من الدوريين الذين خلفوهم ، وأهم ما نلاحظ فيهم أنهم كانوا أحسن أجساماً منّ هؤلاء وأولئك ، فرجالهم طوال القامة أقوياء البنية ، ونساؤهم ذوات جمال بارع فتان يسلب العقول بكل ما فى هذا التعبير من معان . والآخيون ينظرون ، كما ينظر الرومان الذين عاشوا من بعدهم بألف عام ، إلى الثقافة الأدبية على أنها تدهور وتخنث . وهم لا يستخدمون الكتابة إلا مضطرين ، ولا يعرفون من الأدب إلا الأغانى الحربية وأناشيد الشعراء الجوالين غير المكتوبة . وإذا جاز لنا أن نصدق هومر حق علينا أن نقول إن زيوس قد حقق فى المجتمع الآخى آمال الشاعر الأمريكى الذى كتب يقول إنه لو كان إلهاً لجعل الرجال كلهم أقوياء ، والنساء كلهن حساناً ، ثم جعل نفسه بعد ذلك رجلا . لقد كانت بلاد اليونان الهومرية جنة من الحور العين[١٥] . وحتى رجالها كانوا على جانب كبير من الجمال ، كان لهم شعر مرسل طويل ، ولحى كبيرة ؛ وكانت أعظم هدية يستطيع الرجل أن يهديها أن يقص شعر رأسه ويقربه قرباناً أمام كومة الحطب التى تحرق عليها جثة صديقه[١٦] ؛ ولم يكن العرى قد أصبح بعد عادة فى البلاد فكان النساء والرجال يغطون أجسامهم برداء مربع يطوونه فوق الكتفين ، ويشبكونه بدبوس ، ويصل إلى قرب الركبتين . وتضيف النساء إلى هذا نقاباً أوحزاماً ويضيف الرجال غطاء للحقوين — قدر له أن يتطورّ على مر الزمن وازدياد الاحتشام والكرامة حتى أصبح هو اللباس ثم السروال (البنطلون) . وكان الأغنياء يرتدون أثواباً غالية الثمن كالثوب الذى تقدم به بريام فى ذلة إلى أخيل ليفتدى به ولده[١٧] . وكان الرجال حفاة الأقدام والنساء عاريات الأذرع ، إلا فى خارج الدور فكانوا يحتذون جميعاً صنادل ، أما فى داخلها فكانوا فى العادة حفاة . وكانوا رجالا ونساء يتحلون بالجواهر ، وقد ادهنت النساء وادهن باريس « بالزيت الذى له رائحة الورد[١٨] » .

ترى كيف كان يعيش أولئك الرجال والنساء ؟ يصفهم هومر بأنهم

كانوا يحرثون الأرض ، ويشمّون وهم فرحون الأرض السوداء بعد تقليبها ، ويتتبعون بأعينهم في فخر وخيلاء الخطوط المستقيمة التي خطتها المحاريث : ويبذرون القمح ويروون الأرض ، ويقيمون الجسور ليتقوا بها فيضان الأنهار في الشتاء[١٩] . ويشعرنا هومر بيأس الفلاح الذي قضى الشهور الطوال في كدح مستمر ثم يأتي « التيار الجارف السريع فيهدم الحواجز والجسور ، ولا تستطيع سلسلة الأكوام الطويلة أن تكبح جماحه ، أو أسوار البساتين المثمرة حين يفاجئها أن تقف في سبيله[٢٠] وليست أرض البلاد مما يسهل فلحها لأن الكثير منها جبال أو مناقع ، أو تلال كثيفة الأشجار ؛ وكانت الحيوانات البرية تهاجم القرى ، فكان الصيد ضرورة قبل أن يصبح رياضة وهواية . وكان الأغنياء يعنون بتربية قطعان كبيرة من الماشية ، والضأن ، والخنازير ، والمعز ، والخيل ، ويروى أن رجلا منهم يسمى إركثونيوس Erichthonius كان له ثلاثة آلاف فرس ولود مع أمهارها[٢١] . وكان الفقراء يأكلون لحم السمك ، والبقول ، والخضر أحياناً ، أما المحاربون والأغنياء فكان جل اعتمادهم على اللحم المشوي الكثير ، وكان فطورهم اللحم والنبيذ . وقد تغذى أديسيوس مع راعي خنازيره بخنزير صغير مشوي ، وتعشيا بثلث خنزير عمره خمس سنوات » . وكانوا يستعملون عسل النحل بدل السكر ، ودهن الحيوان بدل الزبد ، والكعك المصنوع من الحب بدل الخبز ، فكانوا يجعلونه رقائق ثم يخبزونه على لوح من الحديد أو على حجر محمي ، ولم يكن الآكلون يضطجعون في أثناء تناول الطعام كما كان الأثينيون يفعلون فيما بعد ، بل كانوا يجلسون على كراسي ممتدة على طول الجدار لا مصفوفة حول مائدة وسطى. ولم يكونوا يستعملون الشوك أو الملاعق أو الفوط إلا ما عسى أن يكون مع الضيوف من مدى ؛ وكانوا يأكلون بأيديهم وأصابعهم[٢٢] ، وكان شرابهم الرئيسي حتى الفقراء والأطفال هو النبيذ المخفف .

وكانت الأرض ملكاً للأسرة أو العشيرة لا للفرد : وكان الأب هو الذي

يشرف عليها ويصرف شئونها ، ولكنه لم يكن من حقه أن يبيعها[٢٤] ، وتقول الإلياذة إن مساحات واسعة كانت من أملاك الملك المشاعة (الدومين) ؛ وكانت فى واقع الأمر ملكاً للمجتمع يستطيع أى إنسان أن يرعى فيها ماشيته ؛ ونرى فى الأودية أن هذه الأرض المشاعة قد قسمت وبيعت — أو أصبحت ملكا للأفراد الأثرياء أو الأقوياء ؛ وهكذا اختفت الأرض المشاعة فى بلاد اليونان القديمة بنفس الطريقة التى اختفت بها فى إنجلترا الحديثة[٢٥] .

وكان فى مقدور الأرض أن تخرج المعادن كما تخرج الطعام ؛ ولكن الآخيين أهملوا استخراج المعادن واكتفوا باستيراد النحاس ، والقصدير ، والفضة والذهب ، ومادة أخرى جديدة عجيبة من أسباب الترف ، وهى الحديد . فنرى كتلة غير مشكلة من الحديد تقدم هدية ثمينة فى الألعاب التى أقيمت تكريماً لپتروكلوس Patroclus[٢٦] ، ويقول عنها أخيل إنه سوف يُصنع منها كثير من الأدوات الزراعية . وهو لا يذكر فى هذا المقام شيئاً عن الأسلحة ، وكانت لا تزال تصنع من البرنز[٢٧] ، وتصف الأودية سقى الحديد[*] ، ولكن هـذه الملحمة قد وصلت إلينا فى أكبر الظن من عصر متأخر من عصر الإلياذة .

وكان الحداد أمام كوره والفخرانى أمام عجلته يعملان فى حانوتيهما ، وكان غيرهم من الصناع الذين ورد ذكرهم فى أشعار هومر — كصناع السروج ، والبنائين ، والنجارين ، وصناع الأثاث — كان هؤلاء يعملون فى منازل من يكلفونهم بعمل لهم ؛ ولم يكونوا يعملون للأسواق ، أو للبيع أو للكسب ؛ وكانوا يداومون العمل ساعات طوالا ، لكنهم كانوا يعملون على مهل وليس وراءهم دافع من المنافسة الظاهرة[٢٩] . وكانت الأسرة نفسها تقوم بصنع أكثر حاجياتها ، فكان كل فرد يعمل بيديه ، وكان

(*) « وحين يسقى الحداد بلطة عظيمة أو مقشراً فى الماء البارد ، كان يخرج منها أزيزه ، حسيس هو الذى يكسب الحديد صلابته[٢٨] » .

رب الأسرة ، بل كان الملك المحلى نفسه مثل أديسيوس ، يصنع ما يحتاجه بيته من سرر وكراسى ، وما يلزمه هو من أحذية وسروج ، وكان — على عكس اليونان المتأخرين — يفخر بمهارته فى الأشغال اليدوية . ولقد كانت بنبي ، وهلين ، وأندروماك وخادماتهن لا ينقطعن عن الاشتغال بالغزل والنسج والتطريز ، والأعمال المنزلية . وتبدو هلين وهى تعرض تطريزها على تلك[٣٠] ، أجمل منها وهى تتبختر فوق أسوار طروادة .

وكان الصناع من الأحرار ، ولم يكونوا قط من الرقيق كما كانوا عند اليونان الأقدمين ؛ وكان من المستطاع عند الحاجة تجنيد الفلاحين للعمل فى خدمة الملك ، ولكننا لا نسمع قط بالأقنان اللاصقين بالأرض المرتبطين بها ؛ ولم يكن الأرقاء كثيرين ، ولم تكن منزلتهم منحطة ، وكان معظم الرقيق من الجوارى خادمات المنازل ، وكانت منزلتهن فى الواقع لا تقل عن منزلة خادمات المنازل فى هذه الأيام إذا استثنينا أنهن كن يُشترين أو يبعن لآجال طوال لا للقيام بأعمال قصيرة غير ثابتة كحالهن فى هذه الأيام . وكن فى بعض الأحيان يعاملن بقسوة ووحشية ؛ لكنهن فى العادة كن كأعضاء فى الأسرة التى يعملن لها ، يعنى بهن فى مرضهن أو عجزهن أو شيخوختهن ؛ وكن يرتبطن فى بعض الأحيان بعلاقات الود والمحبة مع رب الأسرة أو ربتها . فقد كانت نوسكا Nausica تساعد جواريها فى غسل الملابس فى النهر ، وتلعب الكرة معهن ، وتعاملهن فى جميع الأحوال معاملة الرفيقات[٣١] . وإذا ولدت الجارية ولداً من سيدها كان هذا الولد فى العادة من الأحرار[٣٢] ، غير أنه كان ككل إنسان معرضاً لأن يكون رقيقاً إذا وقع أسيراً فى الحرب أو فى غارة القراصنة . وكان هذا أسوأ ما فى الحياة الآخية .

والمجتمع الهومرى مجتمع ريفى ، وحتى « مدنه » لا تعدو أن تكون قرى تشرف عليها قلاع قائمة فوق التلال المجاورة لها . وكانت الرسائل تنقل على أيدى السعاة أو الرسل ، وإذا كانت المسافة طويلة نقلت الرسالة بإشارات

النار تبعث من إحدى قلل الجبال إلى قلة أخرى[٢٣] : وكان النقل البرى تعوقه الجبال الخالية من الطرق ، كما تعوقه المستنقعات ، والمجارى الخالية من القناطر . وكان النجارون يصنعون عربات ذات أربع عجلات لها تروس وأطر من الخشب ، ولكن معظم البضائع كانت رغم وجود هذه العربات تنقل على ظهور البغال أو الرجال ؛ وكانت التجارة البحرية أقل مشقة من التجارة البرية رغم القراصنة والعواصف ؛ فقد كانت الموانئ الطبيعية كثيرة ، ولم تكن السفن تنقطع عن رؤية الأرض إلا فى أثناء الرحلة الخطرة التى تدوم أربعة أيام من كريت إلى مصر . وكانت السفن عادة ترسو إلى البر فى الليل وينام البحارة والمسافرون فى مكان أمين على الأرض . وكان الفينيقيون فى العصر الذى نتحدث عنه لا يزالون أفضل من اليونان فى التجارة والملاحة ، وكان اليونان يثأرون لأنفسهم من هذا النقص باحتقار التجارة وإيثار القرصنة .

ولم يكن عند اليونان الهومريين نقود ، فكانوا يستخدمون بدل النقود المضروبة سبائك من الحديد ، والبرنز ، والذهب ؛ وكان الثور والبقرة يتخذان واسطة للتبادل . وكانت السبيكة الذهبية التى تزن سبعة وخمسين رطلا تسمى تالنت (من تالنتون أى وزنة[٢٤]) . وكانت المقايضة كثيرة رغم ما كان عندهم من وسائط متعددة للتبادل ، وكانت ثروة الشخص تقدر بما عنده من بضائع وخاصة بما عنده من ماشية لا بما يملك من قطع من المعدن أو الورق قد تفقد قيمتها أو يعتريها التغيير والتبديل فى أى وقت من الأوقات إذا ما بدل الناس عقائدهم الاقتصادية . وفى أشعار هومر كما فى الحياة الواقعية أغنياء وفقراء ؛ ذلك بأن المجتمع أشبه ما يكون بعربة تجعجع(*) فى طريق لا مستو ولا معبد ، ومهما أتقن صنع العربة وتركيبها فإن بعض ما تحمله من متاع سوف يرسب فى قاعها ويطفو بعضه الآخر

(*) الجعجعة صوت الرحى وهو أقرب الأصوات إلى صوت العربات على الطريق الغير المعبد . (المترجم)

إلى أعلى سطحها . ولم يصنع الفخرانى آنيته كلها من طينة واحدة كما لم يصنعها كلها بنفس القوة والمشاشة ؛ ومن أجل هذا لا يكاد يستهل عصر الكتاب الثانى من كتب الإلياذة حتى نستمع إلى حرب الطبقات ، وحين يستشيط ثرسيتس Ther.sites غضباً ويطلق لسانه فى أجممنون ندرك من فورنا أن هذا عرض قديم من أعراض ذلك للداء المزمن الوبيل(٣٥) .

إنا ليخيل إلينا ونحن نقرأ أشعار هومر أننا نعيش فى مجتمع أكثر بدائية وأقل خضوعاً للقوانين من المجتمع الذى شهدناه فى كنوسس أو ميسينى . فلقد رجعت الثقافة الآخية خطوة إلى الوراء ، وكانت مرحلة انتقال بين الحضارة الإيجية الزاهرة والعصر المظلم الذى سوف يعقب الفتح الدورى . فالحياة الهومرية فقيرة فى الفنون ، غنية فى النشاط والعمل ؛ وهى ثقافة ينقصها التفكير والتأمل ، خفية سطحية ، سريعة . وهى أصغر سناً وأصلب عوداً من أن تهتم بالأخلاق أو الفلسفة . أو لعلنا نخطئ فى حكمنا عليها لأننا نراها فى الأزمنة الحادة أو الفوضى التى أعقبت الحرب .

ولسنا ننكر أننا نشهد فى هذه الثقافة كثيراً من الصفات والمناظر الرقيقة الرحيمة ، وإنك لترى المحاربين أنفسهم كراماً ، يعطف بعضهم على بعض ، كما ترى بين الأب والابن حبا به من العمق قدر ما به من السكون والصمت . فها هو ذا أديسوس يقبل رؤوس أفراد أسرته وأكتافهم حينما يعرفونه بعد غيابه الطويل ، وها هم أولاء يقبلونه كما يقبلهم(٣٦) . وحين يعلم منلوس وتعلم هلن أن تلمكس الطفل النبيل ابن أديسيوس المفقود الذى حارب من أجلهم حرب الأبطال يبكيان ويتحسران(٣٧) . وحتى أجممنون نفسه لا يستعصى عليه البكاء فيذرف من الدموع ما يذكر هومر بمجرى ماء يتدفق فوق الصخور(٣٨) . والصداقة بين الأبطال قوية متينة ، وإن كنا نظن أنه قد يكون فى العلاقة أو قل العلاقة الغرامية التى بين أخيل وپتركلوس وخاصة پتركلوس الميت

شيء من الصلات الجنسية الشاذة . وهم شديدو السخاء على الأضياف لأن « الغرباء والمتسولين أبناء زيوس(٣٩) » والعذارى يغسلن قدمي الضيف أو جسمه ويدهنه بالأدهان ، وربما قدمن له ثياباً غير ثيابه ؛ وهو يجد الطعام والمأوى إذا كان في حاجة إليهما ، وقد يتلقى الهدايا أيضاً(٤٠) . ومن أقوال هلن ذات الخد الأسيل ، وهي يضع بين يدى تلمكس ثوباً غالى الثمن : « هأنذا أقدم لك أيها الطفل العزيز هذه الهدية لتذكر بها يدى هلن في يوم زواجك المرتقب من زمن بعيد ولتلبسها زوجتك(٤١) » : تلك صورة تكشف لنا عن الحنو الإنساني والشعور الرقيق اللذين يختفيان حتما في الإبادة بين نقع الحرب وقعقعة السلاح .

والحرب نفسها لا تحول بين اليونان وبين حبهم القوى للألعاب . فالصغار والكبار على السواء يتبارون مباريات على جانب عظيم من الخطورة والمهارة ، تسودها العدالة والفكاهة . ويلعب خُطّاب بنلبي الداما ويتقاذفون الأقراص والحراب ، ويلعب ضيوف أديسيوس الفاكهون لعبة القرص وألعاباً غريبة هي مزيج من ألعاب الكرة والرقص(*) . ولما أحرقت جثة بتركلوس بعد وفاته أقيمت بهذه المناسبة حسب العادات الآخية ألعاب كانت هي المثل الذى احتذى في الألعاب الأولمبية ، وكانت تشمل العدو ، وقذف القرص والحربة ، والرمى بالسهام ، والمصارعة ، وسباق المركبات ، والمبارزة بالسلاح ؛ وكانت كلها تسودها الروح الرياضية الطيبة ، إذا استثنينا أنها كانت محرمة إلا على الطبقات الحاكمة ، وأن الآلهة وحدها هي التي كان يسمح لها بالغش والخداع(٤٢) .

(*) ثم أمر ألسنوس Alcinous هلياس Halias ولأودماس Laodmas أن يرقصا منفردين لأن أحداً من قبل لم يجرؤ على أن يراقصهما . وأخذ كل منهما في يده الكرة الجميلة ، المصبوغة باللون الأرجواني ... وأخذا يلعبان . فكان أولهما يثني جسمه كله إلى الوراء ، ثم يقذف الكرة نحو الجماهير التي لا يراها ، فيقفز الآخر في الهواء ويلتقطها بخفة ورشاقة قبل أن تلمس قدماه الأرض . وبعد أن يمارسا لعبة قذف الكرة إلى أعلى ، يشرعان في قذفها فيما بينهما ، وهما في أثناء ذلك كله يرقصان فوق الأرض المثمرة

أما الجانب الآخر من الصورة فكان أقل من هذا مدعاة للسرور. فنحن نرى أخيل يقدم « امرأة تحذق الأشغال اليدوية الجميلة » جائزة للفائز فى سباق العربات . ونرى الخيل ، والكلاب ، والثيران ، والضأن ، والآدميين يضحى بها على كومة إحراق بترکلوس حتى يكون له بعد موته ما يبتغيه من حسن الخدمة ومن الطعام[٤٤] : ويحسن أخيل معاملة بريام ، ولكنه لا يفعل ذلك إلا بعد أن يجر جسم هكتور المشوه جراً مهيناً حول كومة الحريق . وكانت الحياة فى نظر الرجل الآخى قليلة القيمة ، لا يعد سلبها من الأمور الخطيرة ، وكانت لحظة من السرور كفيلة بردها إلى من قضى عليه بفقدها . وإذا ما غلبت مدينة على أمرها قتل رجالها أو بيعوا بيع الرقيق ، واتخذت النساء خليلات إن كن حساناً ، أو رقيقات إن لم تكن كذلك . وكانت القرصنة لا تزال من المهن المحترمة ، وكان الملوك أنفسهم ينظمون حملات مغيرة ، تنهب المدن والقرى وتتخذ أهلها عبيداً ، ويقول توكيديدس فى هذا : « والحق أن هذا العمل أصبح أهم مورد من موارد الرزق لليونان الأولين ، ولم تكن هذه المهنة حتى ذلك الوقت مما يجلل صاحبها العار[٤٥] » ، بل كانت تكسبه المجد . وكان فى مقدور الأمم العظيمة أن تهاجم الشعوب الضعيفة المحرومة من وسائل الدفاع وتخضعها لسلطانها دون أن يعد ذلك منها مخالفاً للعدل أو الكرامة ، شأنها فى هذا شأن الأمم القوية فى هذه الأيام . وحين يسأل أديسيوس هل هو تاجر يهتم بالمكاسب التى يسد بها مطامعه[٤٦] يرى فى هذا القول إهانة له ؛ ولكنه يتحدث فى زهو وخيلاء عما فعله وهو عائد من طروادة إذ قل ما كان لديه من المؤن فنهب مدينة إسمروس Ismarus وملأ منها سفينة بالطعام ؛ وكيف صعد فى نهر إجبتس Aegyptus (يقصد نيل مصر) لينهب الحقول النضرة ويسوق أمامه النساء والأطفال الصغار ، ويقتل الرجال[٤٧] » . وملاك القول أنه

لم تكن ثمة مدينة من المدن آمنة من هجوم القراصنة المفاجئ عليها دون أن تعمل من جانبها ما يستفزهم أو يبرر هجومهم .

ويتصف الآخيون فضلاً عن حبهم للنهب والقتل دون أن يخشوا فى ذلك تأنيب الضمير ، يتصفون فضلا عن هذا بالكذب والخداع دون حياء ؛ فأديسيوس لا يكاد ينطق بقول دون أن يكذب فيه ، أو يعمل عملا دون يشوبه الغدر . من ذلك أنه لما قبض على دولون Dolon الجاسوس الطروادى وعده هو وديوميد Diomed أن يبقيا على حياته إذا أدلى إليهما بما يطلبانه من المعلومات ، فلما فعل قتلاه[٣٨] . ولسنا ننكر أن غير أديسيوس من الآخيين لا يضارعونه فى الغدر والخيانة ، ولكنهم لا يمتنعون عن ذلك لأنهم لا يريدون أن يغدروا أو يخونوا ، بل هم يحسدون أديسيوس ويعجبون به ، ويرونه أنموذجاً للخلق الطيب ؛ والشاعر الذى يصوره يعده بطلا من كل الوجوه ، وحتى الإلهة أثينا نفسها تثنى عليه لكذبه ، وتضيف هذه الصفة إلى محاسنه الخاصة التى تحببه إليها ، وتقول له وهى تبتسم وتربت عليه بيدها : « إن الذى يفوقك فى حيلك المختلفة الأنواع لا بد أن يكون ماكراً خبيثاً ، ولو كان الذى يلقاك إلهاً من الآلهة . إنك رجل ماكر فيما تسديه من نصح ، لا يقف خداعك وغدرك عند حد ؛ ويلوح أنك لا تمتنع فى بلدك نفسه عن الاحتيال وعن القصص الكاذبة الخادعة التى تحبها من أعماق قلبك »[٤٩] .

والحق أننا نحن أنفسنا نشعر بميل نحو هذا البطل الذى يشبه فى التاريخ القديم البطل منشهوزن الخرافى Munchausen ، فنحن نتبين فيه وفى الشعب المجد المحتال الذى ينتمى إليه من الصفات ما يستثير الحب ؛ فهو أب لطيف رقيق القلب ، وهو فى بلده حاكم عادل « لم يسئ لأحد فى أرضه لا بالقول ولا بالفعل » . ويقول فيه راعى خنازيره : « إننى لن أجد بعد اليوم سيداً يضارعه فى شفقته مهما بعدت البلاد التى أذهب إليها ، حتى لو عدت إلى

بيت أبي وأمي ! »[٥٠] . ونحن نغبط أديسيوس على « شكله الشبيه بأشكال الآلهة الخالدين » وعلى جسمه الرياضي ، الذي يمكنه وهو في نحو الخمسين من عمره أن يقذف القرص أبعد مما يقذفه أي شـــاب من شبان الفيشيان Phaeacian ؛ ونعجب « بثبات جنانه » و « بحكمته الشبيهة بحكمة جوف »[٥١]. ولا ينقطع عطفنا عليه وهو يتمنى الموت بعد أن ييئس من قدرته على أن يرى مرة أخرى « الدخان ينبعث من أرض وطنه » ، أو حين يقوى قلبه وسط ما يحيط به من أخطار وآلام بالألفاظ التي كان بقراط يحب أن يرددها : « اصبري الآن يا نفسي ، لقد قاسيت من قبل ما هو شر من هذا »[٥٢] . وهو في جسمه وعقله رجل من حديد ، ولكن كل قطعة فيه مهما صغرت قطعة من إنسان ، ولهذا فإنا نعفو عنه ونتجاوز عن سيئاته .

والحق أن المعايير الخلقية عند الآخيين تختلف عن معاييرنا اختلاف فضائل الحرب عن فضائل السلم . فالرجل الآخي يعيش في عالم مضطرب ، كدِر جوعان ، على كل إنسان فيه أن يعني بحراسة نفسه ، وأن يكون على الدوام ممسكاً بقوسه ورمحه ، قادراً على أن ينظر في هدوء إلى الدم المراق . وفي ذلك يقول أديسيوس : « إن المعدة الجائعة لا يستطيع أحد أن يخفيها ... ومن أجلها صنعت السفن المعوجة وأعدت لتحمل الويل إلى الأعداء فوق البحر المائج المضطرب »[٥٣]. وإذا كان الآخي لا يجد إلا القليل من الأمن والسلامة في بلاده . فإنه لا يرعى شيئاً منهما في خارجها ؛ ويرى أن من حقه أن يفترس كل ضعيف . وأسمى الفضائل في رأيه فضيلة الذكاء المقرون بالشجاعة والقسوة ، ولفظ الفضيلة في لغته مشتق من لفظ الرجولة ومن صفة Ares أو المريخ(*) . وليس الرجل الصالح عنده هو الرجل اللطيف المتسامح ،

(*) Virtus = الرجولة ، Arete صفة أريس أو المريخ .

الأمين الرزين ، المجد الشريف ؛ بل هو الرجل الذى يحارب ببسالة وكفاية ، وليس الرجل الطالح هو الذى يدمن الشراب ، ويكذب ، ويقتل ويغدر ، بل هو الجبان الغبى أو الضعيف . لقد كان ثمة نيتشيون قبل نتشه ، وقبل ثرازمكس Thrasymachus بزمن طويل ، فى فجاجة العالم الأوربى وصلابته ؟

٣ – الرجال والنساء

كان المجتمع الآخى مجتمعاً أبوياً استبدادياً ، يمتزج به جمال المرأة وغضبها بحنان الأبوة وحبها القويين(*) . وكان الأب من الوجهة النظرية صاحب السلطان الأعلى ، وكان له أن يتخذ من السرارى ما يشاء(**) ، وأن يقدمهن لضيوفه ، وأن يضع أطفاله على قمم الجبال ليموتوا أو يذبحهم قرباناً للآلهة الغضاب . وهذه السلطة الأبوية المطلقة لا تستلزم حتماً أن يكون المجتمع الذى تسوده مجتمعاً وحشياً ، بل كل ما تعنيه أن هذا المجتمع لم يبلغ نظام الدولة فيه مبلغاً يكفى لحفظ النظام الاجتماعى ، وأن الأسرة فيه تحتاج فى خلق هذا النظام الاجتماعى إلى القوى التى آلت فيما بعد إلى الدولة حين أممت حق القتل ؛ وكلما تقدم التنظيم الاجتماعى وارتقى نقص سلطان الأب ، وتفككت وحدة الأسرة ، ونمت الحرية والفردية . ولقد كان الرجل الآخى فى الحياة العملية رجلا معقولا فى أغلب الأحوال ، يصغى فى صبر وأناة إلى فصاحة أهل منزله ويخلص إلى أبنائه .

وكان مركز المرأة فى نطاق هذا الإطار الأبوى أرقى فى بلاد اليونان

(*) لدينا آثار تدل على وجود مجتمع قبل ذلك العهد كانت السيادة فيه للأم . من ذلك ما تقوله الرواية الأثينية من أن « الأطفال » قبل سكربس Cecrops لم يكونوا يعرفون آباءهم ؛ ولنا أن نستنتج من هذا أن الأطفال كانو ينتسبون إلى أمهم . بل إننا نرى فى الأيام الهومرية نفسها أن الآلهة التى كانت تعبدها المدن اليونانية بصفة خاصة كانت نساء : هيرا فى أرجوس ، وأثينا فى مدينة أثينة ، ومترو پرسفون فى إليوسيس Ilausis . ولسنا نرى هذه الإلهات تخضع لإله ذكر(٥٤)

(**) لقد كان لتسيوس زوجات بلغن من الكثرة درجة لم يحاول معها مؤرخ أن يترك لنا إحصاء لهن موثوقاً به(٥٥)

الهومرية منه فى أيام بركليز . فهى تضطلع بدور رئيسى فى القصص والملاحم من خطبة بلپس لهپوداميا Hippodameia إلى رقة إفچينيا وحقد إلكترا : فلا الحجاب ولا البيت بمانع لها من الخروج ، بل نراها تسير حرة بين الرجال والنساء على السواء ، وتشترك أحياناً فى مناقشات الرجال الجدية كاشتراك هلن مع منلوس وتلمكس . ولم يكن الزعماء الآخيون إذا أرادوا أن يستثيروا غضب الشعب على طروادة يلجئون إلى المبادئ السياسية أو العنصرية أو الدينية ، بل كانوا يستثيرونه بجمال النساء ؛ ومن أجل ذلك كان وجه هلن الجميل هو الحجة التى تذرعوا بها لإثارة حرب تهدف إلى امتلاك الأرض وإلى التجارة ؛ ولولا المرأة لكان بطل هومر جلفاً فظاً ليس له هدف يعيش من أجله ، فهى تعلمه شيئاً من الأدب والمثالية ودماثة الأخلاق .

وكان الشراء طريقة الزواج ، وكان الثمن عادة أثواراً أو ما يساويها يؤديه الخطيب إلى والد الفتاة . ويحدثنا الشاعر عن « العذراء جالبة الماشية[٥٦] » . ولم يكن الخطيب وحده هو الذى يؤدى ثمن العرس ، بل كان والدها يؤدى لها أحياناً بائنة قيمة . وكانت حفلة الزفاف عائلية واجتماعية معاً ، وكان من مظاهرها كثرة الطعام، والرقص ، والمرح الذى تنطلق فيه الألسنة . وكانوا يسيرون بالعروسين فى وهج المشاعل من حجراتهما ويخترقون بها المدينة وسط أغانى العرس العالية . وكان الشبان يرقصون وهم يدورون ، وتعلو بينهم نغمات الناى والقيثارة[٥٧] ، — ألا ما أشبه الليلة بالبارحة . ومتى تزوجت المرأة أصبحت من فورها ربة بيتها ونالت من التكريم بقدر ما تنجب من الأبناء وكان الحب بمعناه الحقيقى أى بوصفه حناناً وشوقاً —يأتى إلى اليونان كما يأتى إلى الفرنسيين بعد الزواج لا قبله ، فلم يكن هو الشرارة التى تنطلق باتصال جسمين أو تقاربهما . بل كان ثمرة الاشتراك الطويل فى العناية بالبيت وشئونه . وفى الزوجة الهومرية من الوفاء بقدر ما فى زوجها

من عدمه ، وليس فى أشعار هومر إلا ثلاث زانيات — هن كليتمنسترا ، وهلن ، وأفرديتى ؛ ولكن الصورة التى يرسمها لهن لا تنطبق على المرأ العادية ، وإن انطبقت على الإلهات فى تلك الأيام :

وكانت الأسرة الهومرية التى أثرت فيها هذه العوامل (إذا صرفنا النظر عن مغالاة الأقاصيص التى لا وجود لها فى أشعار هومر) نظاماً سليما يستريح له الإنسان ويسر منه ، أكثر نسائها مهذبات رقيقات وأكثر أطفالها مخلصون أوفياء . ولم يكن عمل الأمهات مقصوراً على إنجاب الأبناء ، بل كن يقمن فيها بكثير من الأعمال ، فكن يطحن الحب ، ويمشطن الصوف ، ويغزلن ، وينسجن ، ويطرزن . ولم يكن يخطن كثيراً لأن معظم الملابس لم تكن بحاجة إلى الخياطة ، كما كان الطبخ فى العادة من أعمال الرجال . وكن فضلا عن هذه الأعمال يلدن الأطفال ويربينهم ، ويعالجن ما يصيبهم من أذى ، ويسوين ما يقوم بينهم من خصام ، ويعلمنهم عادات القبيلة وأخلاقها وتقاليدها الموروثة . ولم تكن لديهم تربية منظمة ، ولم يكونوا يتعلمون الكتابة أو الهجاء أو النحو ، ولم تكن عندهم كتب ؛ فكانت الأسرة والحالة هذه أحسن نظام يرتضيه الصبيان . وكانت البنات يتعلمن الفنون المنزلية على حين يتعلم الأولاد الصيد والحرب ؛ فكان الولد يدرب على صيد السمك وعلى السباحة ، وحرث الأرض ، ونصب الشراك وترويض الحيوانات ، وتصويب السهام والحراب ، وأن يعنى بنفسه فى كل ما يعترضه من الأحداث فى حياته التى لم يكن للقوانين فيها السلطان الكامل على الأهلين . وإذا شب أكبر أبناء الأسرة من الذكور وبلغ سن الرجولة أصبح فى غيبة أبيه رب الأسرة المسئول عنها ؛ فإذا تزوج جاء بزوجته إلى بيت أبيه . وهكذا تتجدد الأجيال جيلا بعد جيل ، يتغير فى خلالها أفراد الأسرة على مر الأيام وتبقى الأسرة محتفظة بهما عدة قرون ، تضع فى بوتقة البيت التى ينصهر فيها الأفراد قواعد النظام والأخلاق التى لا بد منها لقيام الحكومات على اختلاف أنواعها .

٤ ــ الفنون

وترك الآخيون إلى التجار والكتبة من أهل الطبقة الدنيا فن الكتابة الذى تلقوه فى أغلب الظن من بلاد اليونان الميسينية ، ذلك أنهم كانوا يفضلون الدم عن المداد واللحم عن الطين ، ولسنا نجد فى أشعار هومر كلها إلا إشارة واحدة للكتابة[٥٨] . ونجدها فى سياق فذ واضح الدلالة ، وهو أن لوحة مطوية تعطى لرسول ويؤمر فيها من سوف يتلقاها بأن يقتل حاملها . وإذا ما وجد الآخيون وقتاً يقضونه فى ممارسة الأدب فإن ذلك لم يكن إلا حين يجدون بين الحروب والغارات فترة من الوقت يركنون فيها إلى السلم ، ووقتئذ يجمع الملك أو الأمير أتباعه حوله ، يولم لهم وليمة ويدعو شاعراً أو مغنياً جوالا ينشدهم على قيثارته شعراً ساذجاً يقص أعمال الأبطال من أسلافهم الأولين . وكان ذلك شعر الآخيين وتاريخهم . ولعل هومر قد أراد كما أراد فيدياس أن ينقش صورته على ملاحمه فأخذ يقص علينا كيف طلب ألسينوس ملك القباشانيين أن يحيى أديسيوس بشىء من هذه الأغانى : « ادع إلينا المنشد الإلهى دمدوكس Demodocus ، لأن الله قد اختصه دون غيره بالمهارة فى الغناء . . . . ثم اقترب الرسول يقود المنشد القدير الذى تحبه إلهة الشعر أكثر من سائر الناس ، فوهبته من نعمتها وسلطت عليه من نقمتها ، فحرمته قوة البصر ولكنها وهبته نعمة الصوت الجميل »[٥٩] .

والفن الوحيد الذى يعنى به هومر غير فنه هو طرق الحديد وتشكيله فهو لا يذكر شيئاً عن التصوير ولا النحت ولكنه يستجمع كل ما أوتى من إلهام ليصف المناظر المصورة بالجواهر أو المزركشة على ترس أخيل ، أو المنقوشة نقشاً بارزاً على دبوس أديسيوس الذى يحلى به صدره . وإذا تحدث عن العمارة كان حديثه قصيراً ولكنه يلقى على هذا الفن كثيراً من الضوء . فنى وسعنا أن نستدل من حديثه على أن المساكن العادية فى



عصره كانت تشاد من اللبن على أساس من الحجارة ، وأرضها من الطين المطروق بالأقدام ، والذى كان ينظف بحكه بأداة خشنة ؛ وكان السقف يتخذ من الغاب تعلوه طبقة من الطين لا تميل إلا بالقدر الذى يمكن الأمطار من النزول . وكانت الأبواب مفردة أو مزدوجة ، وقد تكون لها مزالج أو مفاتيح[٦٠] . أما المساكن التى هى أعلى من هذه درجة فكانت جدرانها تطلى بالجبس الملون ، وتزين حافاتها أو تنقش ، وتعلق عليها الأسلحة والتروس والنسيج المنقوش . ولم يكن فى الدار مطبخ ، ولا مدخنة ، ولا نوافذ ، وكان فى سقف بهوها الأسط فتحة يخرج منها بعض الدخان المنبعث من الموقد ، وتخرج بقيته من باب الدار ، أو تستقر صناجا على الجدران . وكانت الحمامات من المرافق التى تحتويها بيوت الأغنياء ، أما غيرهم فكانوا يقنعون بوعاء من الخشب بدل الحمام . وكانوا يتخذون أثاثهم من الخشب الثقيل ، وكثيراً ما كان يصقل وتحفر فيه أشكال فنية جميلة . وقد صنع إكماليوس لبنلبى كرسياً ذا متكأ مطعما بالعاج والمعادن النفيسة ، وكذلك صنع أديسيوس له ولزوجته سريراً ضخما متيناً قدّر له أن يبقى مائة عام .

ومن خصائص هذا العصر أن أهله يُغفلون الهياكل ويوجهون كل عنايتهم إلى تشييد القصور ، بعكس عصر بركليز فإن أهله كانوا يهملون القصور ويصرفون جهودهم فى بناء الهياكل . فنحن نسمع عن « بيت باريس الفخم » الذى شاده ذلك الأمير بمعونة أمهر المهندسين فى طروادة[٦١] ، وبقصر الملك ألسنوس الفاخر الذى كانت جدرانه من البرنز ؛ وطنفه من عجين الزجاج الأزرق ، وأبوابه من الفضة والذهب ، إلى غير ذلك من الأوصاف التى تصدق على الشعر أكثر مما تصدق على فن العمارة . ونسمع كذلك الشىء القليـــل عن بيت أجممنون الملكى فى ميسينى كما نسمع الشىء الكثير عن قصر أديسيوس فى إثكا . وقد كان لهذا القصر دهليز أمامى مرصوف بعضه بالحجارة ، ويحيط به سور مجصص ، ويزدان بالأشجار ومذاود الخالى ، وكومة من الروث الساخن ينام عليها أرجوس كلب أديســـيوس فى

ضوء الشمس(*) . ويؤدى إلى داخل القصر مدخل ذو عمد ينام فيه العبيد والزائرون فى كثير من الأحيان ، أما داخل القصر نفسه فكان يحتوى على حجرة للانتظار تؤدى إلى بهو أوسط يستند إلى عمد يصل إليه الضوء من قمته فى السقف ، وفى بعض الأحيان من فتحة أخرى بين طنف البناء وعوارضه التى فوق الأعمدة . وكانت مجامر نحاسية مستقرة على قواعد عالية تضىء البيت إضاءة مضطربة غير مستقرة . وكان فى وسط البهو مدفأة الدار تجتمع الأسرة حول نارها المقدسة أثناء الليل للدفء والطرب ، وللتحدث عن أخبار الجيران ، وعاد الأطفال ، وتقلبات الأيام .

٥ — الدولة

ترى كيف كان هؤلاء الآخيون الأشداء السريعو الانفعال يُحكمون ؟ لقد كانوا فى السلم تحكمهم الأسرة وفى الأزمات تحكمهم العشيرة . والعشيرة جماعة من الناس ينتسبون إلى أصل واحد ويدينون بالطاعة إلى رئيس واحد ، وحصن هذا الرئيس هو منشأ المدينة ومركزها ، حتى إذا ما أصبح سلطانه سنة متبعة وشريعة معترفاً بها ، تجمعت حول الحصن عشيرة بعد عشيرة حتى يتكون من مجموعها مجتمع سياسى من ذوى القربى . وإذا تطلب الرئيس عملا إجماعياً من عشيرته أو مدينته دعا أحرارها الذكور إلى اجتماع عام وعرض عليهم اقتراحاً قد يقبلونه وقد يرفضونه ، ولكن أعظم الأعضاء شأناً هم الذين يستطيعون أن يقترحوا تغييره . ولقد كانت هذه الجمعية القروية العنصر الدمقراطى الوحيد فى هذا المجتمع الأرستقراطى الإقطاعى ، وكان أعظم أعضائها فائدة للدولة أفصحهم لساناً وأقدرهم على التأثير فى عامة الشعب . وإنا لنشهد منذ ذلك الوقت البعيد فى الشيخ نسطور الذى « يسيل صوته من لسانه أحلى من الشهد[٦٣] » ، وفى أديسيوس الخاتل الذى تقع

(*) يموت أرجوس من فرط الطرب حين يرى سيده بعد أن غاب عنه عشرين عاما .

كلماته « على الناس وقح هشاشش الثالج[٦٣] » ، نشهد فيهما بداية ذلك السيل من الفصاحة الذى قدر له أن يبلغ فى بلاد اليونان مستوى أرفع مما بلغه فى أية حضارة أخرى ، والذى قضى فى آخر الأمر على هذه الحضارة القضاء الأخير ،

وإذا تطلب الأمر أن تعمل العشائر مجتمعة فإن رؤساءها يطيعون أوامر أقواهم سلطاناً ، ويتخذونه ملكا عليهم ، ويدينون له بالطاعة هم وجيوشهم من الأحرار وأتباعهم العبيد . وكان أقرب الرؤساء إلى الملك مسكناً ، وأكبرهم مقاماً عنده ؛ يسمون « صحابة الملك » ، وهذا هو الاسم الذى أطلق عليهم أيضاً فى مقدونية أيام فليب وفى معسكر الإسكندر . وكان هؤلاء الأعيان يستمتعون فى البول boule أو المجلس بحرية القول ويخاطبونه حين يوجهون له القول على أنه « الأول بين الأنداد » . ومن هذه الهيئات المختلفة — الجمعية العامة ، ومجلس الأعيان ، والملك — نشأت دساتير العالم الغربى الحديث كله على كثرتها واختلاف أنواعها وأسمائها .

وكان للملك سلطان عظيم ولكنه ضيق الحدود . فهو ضيق فى الرقعة التى يظلها لأن مملكته صغيرة ، وهو ضيق فى زمانه لأن الملك معرض لأن يخلعه المجلس أو أن يخلع استناداً إلى حق سرعان ما اعترف به الآخرون وهو حق من عساه أن يكون أقوى من الملك سلطاناً . وفيما عدا هذا فقد كان حكم الملك وراثياً وكانت حدود سلطانه غير واضحة المعالم . وهو قبل كل شىء زعيم عسكرى شديد العناية بجيشه لأنه إذا عدمه تبينت الناس أخطاءه ؛ وهو يحرص على أن يكون هذا الجيش حسن العدة ، والطعام ، والتدريب ؛ لديه ذخيرة من السهام المسمومة[٦٤] ، والحراب ، والخوذ ، والجراميق ، والرماح ، والتروس ، والدروع ، والعربات الحربية . وهو الحكومة بأجمعها طالما كان الجيش يحميه ، يجمع فى يديه التشريع والتنفيذ والقضاء ، وهو كاهن الدين الأكبر الذى يقرب القرابين باسم الشعب ، أوامره هى القانون ، وأحكامه نهائية لا معقب لها ، ولم يكن لفظ القانون قد وجد بعد[٦٥] . ومن

تحته المجلس الذى يجتمع أحياناً ليفصل فى المنازعات الخطيرة ؛ وكأنما كان هذا المجلس يضع التقاليد التى تسير عليها جميع المحاكم فيما بعد ، فكان يبحث عن السوابق ويحكم على غرارها . وكان للسوابق الغلبة على القانون لأن السابقة مستمدة من العادة ، والعادة هى الأخت الكبرى للقانون تنازعه سلطانه : على أن المحاكمات على أنواعها نادرة فى المجتمع الهومرى، وقلما نسمع فيه عن هيئات عامة للقضاء ، بل كان على كل أسرة أن تدفع الأذى عن نفسها وتثأر لنفسها ، وكانت أعمال العنف كثيرة تسود المجتمع .

ولم يكن من عادة الملك أن يجبي الضرائب ليقيم بها دعائم ملكه ، بل كان يتلقى من حين إلى حين « هدايا » من رعاياه ؛ ولو أنه كان يعتمد على هذه الهدايا وحدها لكان ملكا فقيراً بحق ، أما مورده الأكبر فكان فى أغلب الظن مستمداً من الرسوم التى يفرضها على ما ينتزعه جنوده وسفنه من الأسلاب فى البر والبحر . ولعل هذا هو السبب من أجله وجد الآخيون فى عصر متأخر كالقرن الثالث عشر قبل الميلاد فى مصر وفى كريت . فكانوا فى مصر قراصنة غير ناجحين وفى كريت فاتحين عابرين . ثم نسمع عنهم فجأة وهم يستثيرون غضب الشعب بقصة عن السبي المذل ؛ ويجمعون بذلك قوى القبائل جميعها ، ويجندون مائة ألف محارب ، ويبحرون بأسطول ضخم منقطع النظير مكون من نحو ألف سفينة ليجربوا حظهم ضد حراب آسية على سهول طروادة وتلها .

الفصل الرابع

حصار طروادة

ترى هل حوصرت طروادة بحق ؟ لسنا نعلم أكثر من أن كل مؤرخ يونانى وكل شاعر يونانى ، وأن كل سجل فى معبد يونانى إلا القليل الذى لا يستحق الذكر ، وكل قصة يونانية — من أن هذه كلها تسلم بلا جدال بأن طروادة حوصرت ؛ وأن علم الآثار قد كشف لنا عن المدينة المخربة مضاعفة عدة مرار ؛ وأن القصة وأبطالها لا تزال فى هذه الأيام كما كانت فى آخر القرن الماضى تعد فى جوهرها قصة صحيحة[٦٦] : وقد جاء فى نقش مصرى خلفه رمسيس الثالث أن « الجزائر كانت قلقة مضطربة » حوالى ١١٩٦ ق . م[٦٧] ، وفى يلى إشارة إلى رمسيس « الذى سقطت طروادة فى أيامه[٦٨] » . ويرجع إرتشثنز Eratosthenes العالم الإسكندرى العظيم تاريخ هذا الحصار إلى عام ١١٩٤ ق . م مستنداً فى ذلك إلى الأنساب المتواترة التى نسقها المؤرخ — الجغرافى هِكتيُوس Hecataeus فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد .

ويتفق الفرس الأقدمون والفينيقيون مع اليونان فى قولهم إن تلك الحرب العظمى قد استعرت نارها لأن أربعة من النساء الحسان قد اختطفن عن بلادهن . فالمصريون على قولهم اختطفوا أيو Io من أرجوس ، واليونان اختطفوا أوربا Europa من فينيقية وميديا من كلكز Colchis ؛ أليس من الإنصاف والحالة هذه أن يختطف باريس(*) هلن[٦٩] ؟ ويأبى استسيكورس

(*) لا حاجة بنا إلى القول بأن هلن كانت ابنة زيوس ، فقد اتخذ صورة بجعة وأغوى ليدا زوجة تنداريوس Tyndareus ملك اسپارطة .

فى سنيه الأخيرة بعد أن تاب وأناب ، كما يأبى هيرودوت ويوربيدز من بعده ، أن يعترفا بأن هلن قد غادرت بلادها إلى طروادة ؛ وكل ما فى الأمر أنها ذهبت إلى مصر مكرهة وأقامت فيها اثنتى عشرة سنة حتى جاءها منلوس . ويتساءل هيرودوت قائلا : هل من الناس من يصدق أن الطرواديين يحاربون عشر سنين من أجل امرأة واحدة ؟ ويعزو يوربيديز إرسال الحملة إلى ازدياد السكان فى بلاد اليونان أكثر مما تتحمله مواردها ، واضطرار أهلها بسبب هذه الزيادة إلى الهجرة والتوسع[٧٠] . ألا ما أقدم الأسباب الحديثة التى تبرر بها الرغبة فى القوة والسلطان .

على أنه لا يبعد أن تكون قصة شبيهة بهذه القصة قد استعين بها على جعل هذه المغامرة مستساغة لدى اليونان العادى ، وذلك بأن الناس فى حاجة إلى الألفاظ الطنانة إذا أريد منهم أن يضحوا بحياتهم . ومهما تكن أسباب الحرب الظاهرة ، فإن الذى لا شك فيه أن حقيقة أمرها وجوهرها لم تكن إلا نزاعاً بين طائفتين تتنازعان السيطرة على مضيق الهسبنت والأراضى الغنية المحيطة بالبحر الأسود ، وكانت بلاد اليونان بأجمعها وغرب آسية على بكرة أبيها ترى أنها نزاع حاسم ؛ واحتشدت أمم اليونان الصغيرة لمساعدة أجممنون ، كما أرسلت شعوب آسية الصغرى العون بعد العون لطروادة . وكانت الحرب فى حقيقة أمرها بداية الكفاح الذى تجدد فى مراثون وسلاميس ، وعند إسوس وأربيلا ، وعند تور وغرناطة ، وعند ليبنتو وفينا ...

وليس فى وسعنا أن نذكر من أحداث الحرب وما بعدها غير ما يقصه علينا الشعراء اليونان ومؤلفو المسرحيات منهم ، ونحن نقبل ما يقولون على أنه أدب أكثر مما هو تاريخ ، وهذا فى حد ذاته مبرر قوى لاعتباره جزءاً من قصة الحضارة . فنحن نعلم أن الحرب بشعة وأن الإلياذة جميلة ، وأن الفن (إذا عكسنا قول أرسطاطاليس) قد يجمل الرعب — ويظهر تبعاً لذلك —

بما يخلعه عليه من معنى جميل وشكل ظريف . ولسنا نقصد بقولنا هذا أن الإلياذة قد وصلت إلى حد الكمال فى شكلها ، إذ الحقيقة أن تركيبها مهلهل غير رصين ، وأن القصص فيها متناقض تارة وغامض تارة أخرى ، وأن خاتمتها ليست خاتمة بالمعنى الصحيح . غير أن كمال كل جزء على حدته يعوض ما فى مجموعها الكلى من اضطراب ، والقصة رغم عيوبها الصغرى لا تقل فى مستواها عن مسرحيات التاريخ العظمى ، ولعلها لا تقل عن مستوى التاريخ نفسه .

(١)(*) نرى اليونان فى مستهل القصيدة وقد قضوا فى حصار طروادة تسع سنين دون أن يظفروا بها ؛ وقد غلبهم اليأس والحنين إلى الوطن ، وفتك بهم المرض . وقد وقفوا طويلا عند أوليس Oulis لأن المرض وسكون الريح فى البحر قد حالا بينهم وبين مواصلة السير ، وأثار أجممنون غضب كلتمنسترا وهيأ السبيل لسوء مصيره بأن ضحى بابنتهما إفچينيا لكى تهب الريح . وكان اليونان قد وقفوا فى أماكن متفرقة فى طريقهم ليأخذوا حاجتهم من الطعام والسرارى ، فأخذ أجممنون الحسناء كريسيس Chryses وأخذ أخيل بريسيس البارعة الجمال ؛ ثم يقول عراف إن أپلو يمنع النصر عن اليونان لأن أجممنون قد اعتـــدى على عفاف ابنه كاهنه كريسيز Chryseis . فيرد أجممنون كريسيس لأبيها ولكنه يواسى نفسه ويخلق فى القصة موقفاً مثيراً بأن يرغم بريسيس على أن تفارق أخيل وتحل محل كريسيس فى الخيمة الملكية . ويدعو أخيل الجمعية العامة إلى الانعقاد ، ويشكو إليها أجممنون وهو غاضب ثائر ، وينطق بأول كلمة فى الإلياذة ويثير الموضوع الذى يتردد فيها مراراً وتكراراً ، ويقسم أنه لن يمد هو أو جنوده يداً لمساعدة اليونان . (٢) ثم ننتقل بعدئذ إلى استعراض سفن الجيوش المتجمعة وقبائلهم ، ثم (٣) نشاهد منلوس المتعجرف يبارز باريس

(*) تشير الأعداد المحصورة بين قوسين إلى كتب الإلياذة .

مبارزة يراد بها وضع حد للقتال ؛ ويتهادن الجيشان مهادنة المتحفزين ، ويشترك بريام مع أجممنون فى تقديم القربان إلى الآلهة . ويظفر منلوس بباريس ولكن أفروديتى تنقذه وتختطفه فى سحابة ثم تلقيه على فراش زوجته بعد أن تعطره وتمسحه بالمساحيق الربانية . وتأمره هلن أن يعود إلى القتال ولكنه يعرض عليها بدلا من هذا أن « يصرفا الوقت فى الفراش » . وتتغلب على هلن شهوتها فتجيبه إلى طلبه (٤) ويعلن أجممنون انتصار منلوس ، ويلوح أن الحرب قد وضعت أوزارها ، ولكن الآلهة تعقد مجلساً على جبل أولمبس للتشاور فى الأمر كما يتشاور البشر ، وتقرر أنها فى حاجة إلى أن يسفك فوق ما سفك من الدماء . ويقترح زيوس لمصلحة السلم ولكنه يسحب صوته وينقلب مرتاعاً حين توجه زوجته هيرا خطابها إليه ، وتقترح أن تسمح لزيوس بأن يدك ميسينى وأرجوس واسپارطة دكا إذا وافق على تدمير طروادة : ويبدأ القتال من جديد ويهلك عدد كثير من الرجال تمزق أجسامهم السهام أو الحراب أو السيوف « ويخيم الظلام على أعينهم » .

(٥) وتشترك الآلهة فى هذه اللعبة المرحة لعبة التقتيل والتقطيع ، فتنفذ حربة ديوميد فى جسم أريس إله الحرب الرهيب ، ويصيح صيحة كأنها صادرة من تسعة آلاف رجل » ، ويسرع إلى زيوس ليبثه شكواه .

(٦) وتعقب ذلك فترة يودع فيها هكتر البطل الطروادى زوجته أندرمكا وداعاً حاراً قبل عودته إلى القتال . وتخاطبه بصوت رقيق قائلة : « حبيبى ، إن بسالتك ستؤدى إلى هلاكك ؛ إنك لا ترحم طفلك ولا ترحمنى ، أنا التى سأكون عما قريب أرملة ، لقد قتل أبى وأمى وإخوتى جميعاً ، ولكنك أنت يا هكتر أبى وأمى ، وأنت زوج شبابى ، فأشفق على إذن وأقم هنا فى البرج » . فيرد عليها بقوله : « إنى أعلم حق العلم أن مآل طروادة هو السقوط ، وأرى بعين الخيال أحزان إخوانى وأحزان الملك ؛ غير أنى لا أحزن من أجلهم ؛ أما الذى يكاد يزلزل كيانى فهو أن أراك أسيرة رقيقة فى أرجوس ؛ ولكنى مع هذا لن أحجم

عن القتال(٧١) ، ويصرخ ابنه الطفل أستياناكس Astyanax ، الذى قدر له أن يلقيه اليونان المنتصرون من فوق أسوار المدينة بعد قليل فيسقط على الأرض جثة هامدة ، يصرخ مرتاعاً حين يبصر الريش يتماوج فى خوذة أبيه ، فيرفع البطل خوذته حتى يستطيع أن يضحك ، ويبكى ويصلى للطفل الحائر المندهش . ثم يتخذ طريقه إلى المعركة . (٧) ويبارز أجاكس Aijox ملك سلاميس . ويستميت البطلان فى القتال ثم يفترقان فى المساء بعد أن يتبادلا الثناء والهدايا . يا لها من زهرة مجاملة تسبح فى بحر من الدماء . (٨) وبعد أن يقضى الطرواديون يوماً كاملا يتنقلون فيه من نصر إلى نصر بأمر هكتر المحاربون بالكف عن القتال ليستريحوا .

هكذا خطب فيهم هكتر ، وحياه الطرواديون بأعلى أصواتهم وصفقوا له بأكفهم . ثم رفعوا النير عن جيادهم حربية والعرق يتصبب من أجسامهم وعقل كل منهم جواديه بالسيور بجوار عربته ، وجاء من المدينة بالثيران والضأن السمين ، وقدم هكترلهم النبيذ وهو يخاطبهم بأعذب الألفاظ وأرقها .. وجاءهم بالحب من البيوت ، وجمع الرجال وقود النار ، وحمل الهواء لرائحة الذكية من السهل إلى السماء ، وسهر من كانوا على جانبى الميدان الليل الطويل يملأ الأمل صدورهم ، وأوقدوا نار المراقبة ، وعلا لهب النيران الكثيرة التى أوقدها الطرواديون مروضو الخيول بجوار إليوم بين السفن السود ونهر زنثوس Thanathus ، وتلألأت تلألؤ النجوم حول آية الليل ، فكان منظراً من أعجب المناظر ، وسكنت الريح ، ولاحت قمم الجبال والرؤوس ، وظهرت الخلوات التى بين الجبال . وبدت السماء الواسعة ذات الجلال ، وتلألأت نجومها التى يخطئها الحصر على قلب الراعى الذى أضناه النصب . وفى هذه الأثناء كانت خيل القتال المتعبة تلوك القمح والشعير الأبيض بالقرب من مركباتها تنتظر مقدم الفجر فوق عرشه الجميل(٧٤) .

(٩) ويشير نسطور ملك پيلوس الإيلية على أجممنون أن يرد بريسيس

إلى أخيل ، ويجيبه أجممنون إلى طلبه ، ويعد أخيل بأن يعطيه نصف بلاد اليونان إذا انضم مرة أخرى إلى المحاصرين ، ولكن أخيل يظـــل غاضباً . (١٠) ويفاجئ أديسيوس وديوميد معسكر الطرواديين بهجمة فى أثناء الليل يقتلان فيها اثنى عشر من رؤساء العشائر . (١١) ويقود أجممنون جنده ويستبسل فى القتال ويُجرح ثم ينسحب من الميدان . (١٢) ويلتف الأعداء حول أديسيوس فيقاتلهم قتال الأسود ، ويشق له أجاكس ومنلوس الطريق وينجيانه ليقاسى فيما بعد حياة مريرة (١٢ — ١٣) ويتقدم الطرواديون إلى الأسوار التى أقامها اليونان حول معسكرهم . (١٤) فتنزعج هيرا وتصمم على إنقاذ اليونان ، فتدهن بالزيت وتتعطر وتلبس أفخر الثياب ، وتتمنطق بمنطقة أفرديتى المقوية ، وتغوى زيوس فيضاجعها ، ويعمد پوسيدن فى هذه الأثناء إلى مساعدة اليونان على رد الطرواديين (١٥) وتظل الحرب سجالا فيصل الطرواديون إلى سفن اليونان ، وهنا تصل حماسة الشاعر ذروتها وهو يقص علينا كيف كان اليونان يحاربون مستيئسين وهم يتراجعون تراجعاً سيؤدى بهم إلى الهلاك .

(١٦) ويقنع پتركلوس حبيب أخيل هذا البطل فيسمح له بأن يقود جنوده لمحاربة طروادة . ويقتله هكتر بيده ، (١٧) ويحارب أجاكس حرباً شديدة فوق جثة الشاب القتيل . (١٨) ويسمع أخيل بموت پتركلوس فيصمم آخر الأمر على القتال ، وتقنع أمه الإلهة ثيتيس الحداد الإلهى هفستوس Hephaestus بأن يصنع له أسلحة جديدة ودرعاً سابغة ضخمة . (١٩) ويتصالح أخيل مع أجممنون ، (٢٠) ويقاتل إينياس ويوشك أن يقتله لولا أن پوسيدن ينقذه ليتخذ منه ڤرجيل موضوعاً لشعره. (٢١) ويقتل أخيل عدداً كبيراً من الطرواديين ويقذف بهم إلى الجحيم مودعين بخطب يتحدث فيها عن نسبهم . وتواصل الآلهة القتال : فتقذف أثينا أريس بحجر يطرحه أرضاً وتحاول أفروديتى وهى فى زى جندى أن تنقذه، فتضربها أثينا ضربة على

صدرها الجميل تلقيها على الأرض . وتصفع هيرا أرتميس على أذنيها ، أما پوسيدن وأپلو فيكتفيان بحرب الألفاظ . (٢٢) ويولى الطرواديون الأدبار من أخيل عدا هكتر وحده ؛ ويشير پريام وهكيبا على هكتر أن يبقى وراء أسوار المدينة ولكنه يرفض مشورتهما ، حتى إذا تقدم أخيل نحوه ولى الأدبار فجأة ؛ ويطارده أخيل حول أسوار طروادة ويطوف بها ثلاث مرات ؛ ثم يقف هكتر ليلاقى عدوه فيخر صريعا .

(٢٣) وفى ختام هذه المسرحية تحرق جثة پتركلوس بالمراسم الفخمة ؛ ويضحي أخيل من أجله بعدد كبير من الماشية ، وباثنى عشر من أسرى الطرواديين وبشعره هو الطويل . ويقيم اليونان الألعاب تكريماً له و (٢٤) يجر أخيل جثة هكتر خلف مركبته ثلاث مرات حول كومة الحريق . ويقبل پريام بموكبه وحزنه يرجو أن يسمح له بجثة ولده ، ويرق قلب أخيل له ، ويرضى بعقد هدنة تدوم اثنى عشر يوماً ، ويسمح للملك الشيخ بأن يأخذ جثة ولده بعد تطهيرها ودهنها بالزيت ، ويعود بها إلى طروادة .

الفصل الخامس

العودة إلى الوطن

وهنا تختتم القصيدة العظيمة خاتمة فجائية ، كأن الشاعر قد قام بنصيبه من القصة العامة ورأى من واجبه أن يترك ما بقى منها ينشده شاعر غيره ؛ وتقص الآداب بعدئذ كيف رمى پاريس أخيل وهو واقف إلى جانب المعركة بسهم اخترق مؤخرة قدمه ، وهو الجزء الوحيد من جسمه الذى تؤثر فيه السهام ، فأرداه قتيلا ، وكيف سقطت طروادة آخر الأمر نتيجة لخدعة الحصان الخشبي .

وكان النصر الذى أحرزه المنتصرون سبباً فى هزيمتهم ، فعادوا منهكين محزونين إلى أوطانهم بعد حنين إليهـا طويل . وتحطم كثير من السفن التى أقلتهم ، وارتطم بعضها بشواطئ البلاد الأجنبية وأنشأ من فيها مستعمرات يونانية فى آسية وجزائر بحر إيجة وإيطاليا[٧٣] : ولما أقبلت هلن « الإلهة بين النساء » على منلوس بجلال جمالها الهادى عاد حبها إلى قلبه وكان قد أقسم أن يقتلها حين يظفر بها ، وسره أن يعود بها إلى اسبارطة لتكون ملكته فيها . ولما عاد أجممنون إلى ميسينى « عانق أرض بلاده وقبلها وذرفت عينه الدمع السخين[٧٤] » ولكن كلتمنسترا تزوجت ابن عمه إجستس وأجلسته على العرش ، فلما أن دخل أجممنون القصر قتلا .

وأدعى إلى الأسى من هذا عودة أديسيوس ، وأكبر ظننا أن شاعراً آخر غير هومر قد قص قصته فى ملحمة أقل قوة وبطولة من الإلياذة(*) ،

(*) وأكبر ظن أن أساس القصة التى تروى عودة أديسيوس [illegible] الحقائق التاريخية من الإلياذة . ذلك أن أسطورة الملاح أو المحارب الجوال الذى لا تعرفه [illegible] حين عودته أقدم يقيناً من قصة طروادة ، ولا يكاد يخلو منها أدب من آداب الأمم كلها[٧٥] —

ولكنها أسلس منها وأرق وأجمل ، وتقول الأديسة إن أديسيوس تحطمت سفينته على ساحل جزيرة أجيجيا Ogygia ، وهي جزيرة مسحورة شبيهة بجزيرة تهيتي Tahiti ، تحكمها ملكة إلهة تدعى كلبسو Calypso ؛ شغفها حباً فاستبقته عندها ثماني سنين يحن فيها أشد الحنين إلى زوجته پنلپي وابنه تلمكس اللذين ينتظرانه في إثكا على أحر من الجمر .

وتقنع أثينة زيوس بأن يأمر كلپسو بإطلاق سراح أديسيوس ، وتطير الإلهة إلى تلمكس وتستمع إلى قصته الساذجة وتعطف عليه ، فتعرف كيف أقبل أمراء إثكا والجزائر الخاضعة لها على پنلپي يتوددون لها ويسعون إلى زواجها ليظفروا بعد ذلك الزواج بعرش إثكا ، وكيف يعيشون في قصف ومرح في قصر أديسيوس ويستمتعون بخيراته (٢) ويأمر تلمكس الخطاب بأن يعودوا إلى ديارهم ولكنهم يسخرون من شبابه ، فيخرج سراً على ظهر سفينة يبحث عن أبيه ، وتحزن پنلپي لبعد زوجها وابنها ، وتستمهل خاطبيها بأن تعدهم أنها ستتزوج واحداً منهم بعد أن تتم نسيج غزلها ، ولكنها تنقض منه في الليل ما تعمله بالنهار (٣) ويزور تلمكس نسطور في پيلس و (٤) منلوس في إسپارطة ولكن أحداً منهما لا يستطيع أن يدله على مكان أبيه . ويرسم الشاعر صورة جذابة لهلن وقد استقرت في بيتها خاضعة ولكنها لا تزال تستمتع بجمالها الرباني ، وقد غفر لها زوجها خطاياها من زمن بعيد ، وتقول إنها حين سقطت طروادة كانت قد سئمت المقام في المدينة(*) .

= بأديسيوس اليونان هو بعينه سنوحي Sinuhe وسندباد ، وربنسن كروزو ، وإنك أردن Enoch Arden . أما الأماكن الواردة في القصيدة فهي من الأسرار المحيرة للعقول التي لا يجد أصحابها ما يتفضون فيه أوقات فراغهم .

(*) وتقول الرواية اليونانية إن مواطنيها قد اتخذوها بعد موتها إلهة لهم وعبدوها ، وكان من العقائد الشائعة في بلاد اليونان أن الآلهة تعاقب من يستطيلون في عرضها . بل إنهم قد أشاروا إلى أن هومر نفسه إنما أصيب بالعمى لأنه تغنى بالفرية القائلة بأن هلن فرت إلى طروادة بدل أن يقول إنها اختطفت وحملت إلى مصر رغم إرادتها(٧٧)

(٥) وهنا يدخل أديسيوس القصة لأول مرة . فقد كان « يجلس على ساحل جزيرة كلپسو ، وقد جف الدمع من عينيه وغاض ماء حياته الحلوة من شدة حزنه وحنينه إلى وطنه . نعم إنه كان يقضى ليله فى الكهوف الجوفاء مضطجعاً على الرغم منه بجوار كلپسو ، ينام وهو كاره بجوار الحورية المشتاقة ، ولكنه كان يقضى النهار جالساً على الصخور والرمال ، يبكى ويتوجع وينظر إلى البحر المضطرب[٧٨] » وتستبقيه كلپسو ليلة أخرى تأمره بعدها أن يصنع رمثاً ويبحر فيه منفرداً .

(٦) ويكافح أديسيوس البحر كفاحاً طويلا ثم ينزل فى أرض فيشيا الخرافية (ولعلها كورسيرا — كورفو Corcyra - Corfu) حيث تعثر عليه العذراء نوسكا Nausicaa وتأخذ إلى قصر أبيها الملك ألسنوس ، وتعشق الفتاة البطل الجرىء المفتول العضلات ، وتفضى بسرها إلى أترابها فتقول لهن : « استمعن إلىّ أيتها العذارى ذوات الأذرع الجميلة البيضاء . . . لقد كان هذا الرجل يبدو لى منذ قليل غير وسيم ، أما الآن فهو فى نظرى كالآلهة التى تستقر فى السماء الواسعة . ألا ليت رجلا كهذا يصبح لى زوجاً ، يقيم هنا ، ألا ليته يرضى أن يقيم هنا معى[٧٩] » . (٧ — ٨) ويعجب ألسنوس بأديسيوس أشد الإعجاب فيعرض عليه ان يزوجه نوسكا ، ويعتذر أديسيوس ولكنه يسره أن يقص عليه قصة عودته من طروادة .

(١١) فيقول للملك إن سفنه قد دفعتها الرياح عن طريقها إلى أرض أكلة (اللوطس) ، وإن هؤلاء قدموا لرجاله فاكهة اللوطس الحلوة فنسى الكثيرون منهم أوطانهم وحنينهم إليها حتى لم يجد أديسيوس بد من أن يرغمهم على العودة إلى سفنهم . وساروا من هنا إلى أرض السيكلوبين الجبابرة العور ، الذين لا يقومون بعمل ولا يخضعون لقانون ، ويعيشون فى جزة تكثر فيها الحبوب والفاكهة البرية . ووقعوا فى كهف السيكلوپ

بلنيفيمس Polyphemus فأكل عدداً منهم ، وأنقذ أديسيوس من بق بأن
أنام الوحش الجبار بعد أن أسكره ، ثم حرق بالنار عينه الوحيدة : (١٠)
ثم ركب الجوالون البحر مرة أخرى وأوغلوا فيه حتى وصلوا إلى أرض
الستريجونيين Laestrygonians ، وكان هؤلاء أيضاً من أكلة اللحوم
البشرية فلم تنج منهم إلا سفينة أديسيوس . ووصل هو ومن كان معه في
السفينة إلى جزيرة إينيا Aenea حيث أغوت سرس Circe الإلهة الجميلة
الغدارة معظم رفاقه بغنائها الجميل فدخلوا كهفها ، ثم خدرتهم ومسختهم
فصاروا خنازير . وأوشك أديسيوس أن يذبحها ، ولكنه غير رأيه ورضي
بحبها ، ثم عاد هو ورفاقه إلى صورتهم البشرية وأقاموا مع سرس سنة
كاملة . (١١) أبحروا بعدها مرة أخرى ووصلوا إلى أرض يغشاها الظلام
السرمدي تبين لهم أنها مدخل الجحيم (هيدس Hades) ، وفيها تحدث
أديسيوس إلى أطياف أجممنون وأخيل ووالدته . (١٢) ثم واصلوا سيرهم
ومروا بجزيرة السيرينات Sirens ، وهناك أنجى أديسيوس رجاله من
أغانيهن المغوية بأن وضع شمعاً في آذانهم . ثم تحطمت سفينته في مضيق
سلا Scylla وكربديس Charybdis (مسينا ؟) ولم ينج ممن كانوا فيها إلا هو
وحده ، وقد نجا ليعيش تسع سنين أخرى في جزيرة كلبسو .

(١٣) ويتأثر ألسنوس بقصة أديسيوس وتدفعه شفقته عليه فيأمر رجاله
أن ينقلوه بحراً إلى إثكا ، على أن يعصبوا عينيه لئلا يعرف مكان أرضهم
المنيعة ويدل الناس عليها . وفي إثكا تقود الإلهة أثينة السائح الجوال إلى
كوخ يوميوس Eumaeus راعي خنازيره . (١٤) ويستقبله الراعي ويكرمه
إكراماً حاتمياً ، وإن كان لا يعرفه . (١٥) وتقود أثينة تلمكس إلى هذا
الكوخ نفسه (١٦) ويكشف أديسيوس عن نفسه لولده . (١٧) ويبكيان
كلاهما ، وينتحبان بحرقة وبأعلى صوتيهما ، ويفضي الوالد لولده بخدعة
يقتل بها جميع الذين تقدموا لخطبة زوجته .

(١٧ – ١٨) ويدخل القصر فى زى متسول ، ويرى الخاطبين يأكلون ويتمتعون بماله ، وتغلى مراجل الغضب فى صدره حين يعلم أنهم يضاجعون خادماته بالليل وإن كانوا يغازلون پنلپى بالنهار . (١٩ – ٢٠) ويحتقره الخاطبون ويهينونه ولكنه يرد أذاهم بقوته وصبره . (٢١) وكان الخاطبون وقتئذ قد كشفوا حيلة النسيج التى خدعتهم بها پنلپى ، وأرغموها على أن تفرغ منه ، وتوافق على أن تتزوج من يستطيع منهم أن يشد وتر قوس أديسيوس المعلق على أحد جدران القصر ، ويرمى منه بسهم يمر من فتحات اثنى عشرة بلطة مصفوفة فى صف واحد . ويحاولون جميعاً أن يفعلوا هذا ولكنهم لا يفلحون ، ويطلب أديسيوس أن تتحاح له الفرصة ليجرب حظه ويفلح فيما أخفقوا فيه . (٢٢) ثم يلقى عن نفسه القناع ويكشف عن حقيقة أمره وهو غضبان أسف ، ويصوب سهامه إلى صدور الخاطبين ويقتلهم جميعاً بمعونة تلمكس ، ويوميس ، وأثينا . (٢٣) ويلقى صعوبة شديدة فى إقناع پنلپى أنه هو أديسيوس ، ذلك أن من أصعب الأمور أن تتخلى امرأة عن عشرين خاطباً من أجل زوج واحد . (٢٤) ويواجه هجمات أبناء الخاطبين ، ويسئل سخائم صدورهم ويستعيد ملكه .

وفى هذه الأثناء كانت أشد المآسى فى القصص اليونانى تجرى فى مجراها ذلك أن أرستيز Arestes بن أجممنون كان وقتئذ قد بلغ رشده ، وأثارت أخته إلكترا ثائرته فأخذا بثأر أبيهما وقتلا أمهما وعشيقها . وقضى رستيز بعدئذ سنين كثيرة يضرب فى الأرض وهو ذاهب العقل حتى جلس آخر الأمر على عرش أرجوس – ميسينى (حوالى عام ١١٦٧ ق . م) ، وضم بعدئذ اسپارطة إلى ملكه(*). ولكن بيت پلوپس Pelops أخذ بعد اعتلائه العرش فى الاضمحلال ،

(*) عثر السير آثر إيفنز فى قبر منيسيى فى بؤوتيا على نقوش محفورة تمثل كهلا يهاجم تمثالا لأبى الهول وشابا يهاجم رجلا أكبر منه سناً وامرأة . ويرى أن هذه النقوش تشير إلى =

ولعل هذا الاضمحلال قد بدأ من أيام أجممنون نفسه ، وكان هذا الزعيم قد اتخذ الحرب وسيلة لضم شتات ملك كان وقتئذ ينفرط عقده . غير أن انتصاره كان الضربة القاضية عليه لأن من كان معه من الزعماء لم يعد منهم إلا القليل ، وشقت كثير من الممالك عصا الطاعة وخرجت على كثيرين ممن لم يصحبوه من الزعماء . ولم يكد ينتهى العهد الذى بدأ بحصار طروادة حتى كانت قوة الآخيين قد أنهكت ونضب معين الحياة من جسم أبناء بلوپس ، وأخذ الشعب يترقب فى صبر وأناة ظهور أسرة جديدة .

— أديبوس وأرستيز . وإذ كان يعزو هذه النقوش إلى حوالى عام ١٤٥٠ ق.م. فإنه يرجع تاريخ أديبوس وأرستيز بناء على هذا إلى عصر يسبق بمائتى عام العصر الذى حددناه فى المتن إلى هاتين الشخصيتين تحديداً لا نجزم بصحته .

الفصل السادس

فتح الدوريين

اجتاحت بلاد اليونان حوالى عام ١١٠٤ موجة جديدة من الهجرة أو الغزو متدفقة من الشمال القلق المضطرب النازع إلى التوسع ؛ فقد انزلق أو سار إلى البلوبونيز ، أو تدفق عليها ، شعب ذو روح حربية ؛ طويل القامات مستدير الرؤوس ، معدوم الصلة بالأدب ، بعد أن اخترق إليريا وتسليا وعبر خليج كورنثة عند نوپكتوسNaupacuts ، ومضيق كورنثة عندكورنثه نفسها ، واستولى على البلاد وقضى على الحضارة الميسينية قضاء يكاد يكون تاماً . وكل ما نقوله عن أصلهم وعن الطريق الذى سلكوه لا يرقى إلى أكثر من الحدس والتخمين . أما أخلاقهم وأثرهم فى البلاد التى فتحوها فإن علمنا عنهما يرقى إلى مرتبة اليقين . لقد كانوا لا يزالون فى مرحلة الرعى والصيد ؛ وكانوا من حين إلى حين يستقرون لفلح الأرض ، ولكن جل اعتمادهم كان على ماشيتهم ، وكانت حاجة هذه الماشية إلى المرعى الجديد سبباً فى كثرة تنقلهم وعدم استقرارهم . وكان الشىء الوحيد الموفور عندهم وفرة لم يسمع بها عند غيرهم هو الحديد ؛ ومن أجل ذلك كانوا هم رسل الثقافة الهلستانية(*) إلى بلاد اليونان ؛ وكانت صلابة أسيافهم وشدة بأسهم سبباً فى تفوقهم على الآخيين والكريتيين ، وفى قسوة قلوبهم وبطشهم الشديد، وكان الآخيون والكريتيون وقتئذ يستخدمون أسلحة من البرنز . والراجح أنهم تدفقوا من الغرب والشرق ، من إليس وعجارا ، على ممالك البلوبونيز المتفرقة الصغيرة وذبحوا بسيوفهم طبقاتها الحاكمة ، واتخذوا من بقى

(*) مدينة فى النمسا أطلق اسمها على الفترة الأولى من الحديد فى أوربا لكثرة ما كشف فيها من الآثار المصنوعة منه .

من الميسينيين أرقاء . ودمرت النيران ميسيني وتيرينز وأضحت أرجوس عاصمة جزيرة بلوپس وظلت كذلك مائتين من السنين . واستولى الغزاة فى برزخ كورنثة على أكروكورنثوس Acrocorinthus وهى قمة عالية تشرف على ما حولها وتسيطر عليه ، وشادوا حولها مدينة كورنثة الدورية(٨٠) . وفر أمامهم من بقى حياً من الدوريين ، فلجأ بعضهم إلى جبال البلوبونيز الشمالية ، وبعضهم إلى أتكا ، وعبر بعضهم البحر إلى الجزائر وإلى سواحل آسية . واقتفى الفاتحون أثرهم إلى أتكا ولكنهم صدوا عنها ؛ وجاءوا فى أثرهم إلى كريت(٨١) ، ودمروا ما بقى من كنوسس تدميراً تاماً ؛ واستولوا على ميلوس وثيرا Thera وكوس Cos ، ونيدس Nidus ورودس . وكان الخراب أشمل وأتم فى جميع أنحاء البلوبونيز وكريت حيث ازدهرت الثقافة الميسينية أكثر من ازدهارها فى غيرهما من الأصقاع .

وهذه الكارثة الختامية التى وقعت فى العصر السابق للحضارة الإيجية هى المعروفة لدى المؤرخين المحدثين باسم الفتح الدورى ، والتى تسميها الرواية اليونانية « عودة الهرقليين » . ذلك أن الظافرين لم يقنعوا بأن يسموا انتصارهم هذا غلبة أقوام همج على شعب متحضر ، بل قالوا إن ما حدث فى واقع الأمر هو أن أبناء هرقل ومن تناسلوا من أبنائه حيل بينهم وبين حقهم المشروع فى العودة إلى البلوبونيز ، فانتزعوا هذا الحق بقوة سواعدهم وبطولتهم . ولسنا نعرف ما فى هذا القول من الحقائق التاريخية وما فيه من الأساطير الدبلوماسية التى يقصد بها تصوير هذا الفتح الدموى فى صورة حق مقدس . وإنا ليصعب علينا أن نعتقد أن الدوريين قد برعوا فى الكذب هذه البراعة كلها فى شباب العالم . وقد تكون القصتان كلتاهما صحيحتين وهو ما لم يسلم به المحاجون : فقد يكون الدوريون غزاة فاتحين من الشمال يقودهم أبناء هرقل وحفدته .

ومهما يكن مظهر هذا الفتح فإن ما ترتب عليه من الأثر هو أنه عاق تقدم بلاد اليونان ونماءها زمناً طويلا ، وأصابها بمحنة شديدة . فقد ظلت أحوالها السياسية مضطربة قرنين كاملين ، وكان كل رجل فيها يحمل السلاح لأنه بات غير مطمئن على حياته ؛ وزادت أعمال العنف زيادة مطردة فعطلت أعمال الزراعة والتجارة البرية والبحرية ، واشتعلت نيران الحرب وعلا سعيرها ، وازداد الفقر شدة وانتشاراً ؛ وأصبحت الحياة قلقة مضطربة لأن الأسر أخذت تنتقل من إقليم إلى إقليم طلباً للأمن والسلم[٨٢] . ويسمى هزيود Hesiod هذا العصر عصر الحديد ، ويأسف على فساده وانحطاطه عن العصور الجميلة التي سبقته ، وكان كثير من اليونان يعتقدون أن « كشف الحديد قد أضر بالإنسان[٨٣] » ؛ واضمحلت الفنون وأهمل التصوير ، وقنع المثالون بنحت التماثيل الصغيرة الملونة ؛ وانحطت صناعة الفخار لأن الصناع غفلوا عما كان يمتاز به فن ميسيني وكريت من نزعة طبيعية حيوية ، فاتبعوا « طرازاً هندسياً » لا حياة فيه ، ظل يسيطر على فن الخزف اليوناني جملة قرون .

ولكن الخسارة لم تحل بكل شيء ، فقد امتزج العنصر الجديد بالقديم امتزاجاً سريعاً في خارج لكونيا Laconia وامتزاجاً بطيئاً في داخلها ، على الرغم من تصميم الغزاة الدوريين على أن يحتفظوا بدمائهم نقية طاهرة من دماء الأهلين المغلوبين ، وعلى الرغم من الكراهية العنصرية بين الدوريين والأيونيين ، وهي الكراهية التي اصطبغت بها بلاد اليونان على بكرة أبيها . ولعل امتزاج دم الآخيين والدوريين القوي النشيط بدم الشعوب التي هي أقدم من هذين الشعبين وأرق ، والتي كانت تقيم في جنوبي اليونان ، لعل هذا كان ذا أثر حافز منشط . ومهما يكن لهذا الامتزاج من أثر فإن النتيجة النهائية التي أسفر عنها بعد قرنين من الزمان هي نشأة شعب جديد يختلف عن الشعوب التي كانت تعيش من قبل في تلك البلاد ، امتزجت فيها دماء عناصر « البحر المتوسط » و « الألبي » و « الشمالي



(النوردى) » والعناصر الأسـيوية امتزاجاً أدى إلى كثير من القلق والاضطراب .

كذلك لم تمح الحضارة الميسينية من الوجود . فقد بقيت الحياة كامنة طوال قرون العنف والفوضى فى بعض عناصر التراث الإيجى — كطرائق الحكم والنظام الاجتماعى ، وعناصر الصناعات اليدوية والفنية ، وأساليب التجارة وطرقها ، وأشكال العبادة وأدواتها[٨٤] ، والمهارة فى صنع الخزف والنقش ، وفن طلاء المظلمات ، وأساليب الزينة وطرز العمارة . ويعتقد اليونان أن النظم الكريتية قد انتقلت إلى اسپارطة[٨٥] ، وقد ظلت الجمعية الآخية عنصراً أساسياً فى بلاد اليونان الدمقراطية . وأكبر الظن أن تصميم الهياكل الدورية قد أخذ عن الميسينيين[٨٦] ، بعد أن خلعت عليه الروح الدورية حرية وتناسقاً وقوة . وانتعشت التقاليد الفنية انتعاشاً بطيئاً فرفعت كورنثة وطيبة وسكيون Sicyon وأرجوس إلى نهضة فنية مبكرة شبيهة بالنهضة الأوربية التى أعقبت العصور الوسطى ، وجعلت الفن والغناء يبتسمان فى اسپارطة العنيدة نفسها ، حيناً من الدهر ، وظلت هذه التقاليد تبعث الحياة فى الشعر الغنائى طوال هذا العصر المظلم الذى لا تاريخ له ، وحملها معهم البلاسجيون والآخيون ، والأيونيون ، والميناويون المنفيون فى هجرتهم إلى جزائر بحر إيجة وإلى آسية هرباً من الغزاة الفاتحين ، وأعانت المدن التى أقامها المستعمرون على أن تفوق أمهاتها فى الآداب والفنون . ولما جاء المنفيون إلى الجزائر وإلى أيونيا وجدوا بقايا الحضارة الإيجية فاستولوا عليها واستعانوا بها . فقد احتفظ عصر البرنز بشىء من المهارة والنضارة القديمتين فى المدن القديمة بهذه الجزائر ، لأنها كانت أقل اضطراباً من مدن القارة الأوربية ، وهناك فى هذه الأرض الأسيوية بدأت بعدئذ يقظة اليونان الجديدة .

وبعض هذا الاتصال بين خمس ثقافات — الكريتية والمسينية والآخية ، والدورية والشرقية — الشباب من جديد فى حضارة بدأ يدب فيها دبيب

الفناء ، حضارة فقدت رقتها فى أرض القارة بفعل الحرب والنهب ، وأصبحت حضارة منحلة مخنثة فى كريت لما ركنت إليه عبقرية أهلها من ترف . وقد احتاج امتزاج السلالات والأساليب قروناً عدة حتى استقر بفضل الاستقرار ، ولكنه أعان على خلق ما فى التفكير اليونانى والحضارة اليونانية من تنوع ، ومرونة ، ودقة منقطعة النظير . وليس من حقنا أن ننظر إلى الثقافة اليونانية على أنها وميض لاح فجأة ، وبطريقة غير عادية ، فى بحر مظلم من الهمجية ، بل إن علينا أن ننظر إليها على أنها عملية بطيئة كدرة أدت إلى خلق شعب غنى غنىّ يكاد أن يكون مفرطاً فى تنوع دمائه وفى ذكرياته ، تحيط به وتتحداه ، وتعلمه ، جموع همجية ، وإمبراطوريات قوية وحضارات قديمة .

الكتاب الثاني

نهضة بلاد اليونان

من ١٠٠٠ إلى ٤٨٠ ق . م .

أهم الحوادث فى الكتاب الثانى

مرتبة حسب تواريخها

ملحوظة : كل التواريخ السابقة لعام ٤٨٠ عدا ٧٧٦ تواريخ غير مؤكدة . إذا ذكر اسم مكان غير مصحوب بوصف آخر دل ذكره على تاريخ استيطانه الأول كما تذكره الروايات التاريخية المأثورة :

ق . م .

١١٠٠ – ٨٥٠ هجرة الأيوليين والأيونيين .

١٠٠٠ – تشييد هيكل هيرا فى أولمبيا .

٨٤٠ – عصر هومر المرجح .

٧٧٦ – الألعاب الأولمبية الأولى .

٧٧٠ – سينوب وكوميا .

٧٥٧ – ٦ سيزكس وترابيزس .

٧٥٢ – العهد الأول للرؤساء (الأرخون) الذين كانوا يتولون الأمور عشر سنين .

٧٥٠ – ٦٥٠ اليونان يستقرون فى شبه جزيرة تراقية .

٧٥٠ – ٥٩٤ عصر الأشراف .

٧٥٠ – عصر هزيود المرجح .

٧٣٥ – ناكسوس و (صقلية) .

٧٣٤ – كرسيرا وسرقوسة .

٧٣٠ – ٢٩ رجيوم ، ولينتينى : وكتانا .

٧٢٥ – ٧٠٥ الحرب المسينية الأولى .

٧٢٥ – النقود فى ليديا وأيونيا .

٧٢١ – سيبارس ، ٧١٠ كروتونا .

٧٠٥ – تاراس ؛ ٧٠٠ ، پوسيدونيا ؛ بدء استعمال الحجارة فى العمارة اليونانية .

٦٨٣ – العصر الأول للحكام التسعة الذى كان يدوم عاماً واحداً .

٦٨٠ – فيدون طاغية أرجوس ؛ أول ظهور العملة الرسمية فى بلاد اليونان .

٦٧٦ – أرثجراس طاغية فى سيكون .

٦٧٠ – ترپندر اللسبوسى الشاعر والموسيقى ؛ أركلوكس الپاروسى الشاعر ، أناشيد هومر لأبلو وديتر .

٦٦٠ – شرائع زلوكس فى لكرى .

٦٥٨ – بيزنطية ، ٦٥٤ لمپساكوس .

ق . م .

٦٥٥ — ٦٢٥ كبسيلوس طاغية فى كورنثة .

٦٥١ — سلنيوس ؛ ٦٥٠ ، أبديرا وألبيا .

٦٤٨ — هيرا ، ميرون طاغية فى سكيون .

٦٤٠ — ٣١ الحرب الميسينية الثانية ، ترتيوس الشاعر فى اسپارطة .

٦٣٠ — شرائع ليقورغ فى اسپارطة (؟) .

٦٣٠ — سيرينى (٦١٥) أبيدوس .

٦٢٥ — ٥٨٥ پرياندر طاغية فى كورنثة .

٦٢٠ — شرائع دراكو فى أثينة .

٦١٥ — ثراسيبولوس طاغية فى ميليتس .

٦١٠ — شرائع كارنداس فى كتانا .

٦٠٠ — نقراطس ؛ ماساليا (مرسيليا) ؛ كليستنيس طاغية فى سكيون ، وبتاكس فى متليني ، وسپفو وألكيوس شاعرا لسبوس ، طاليس فيلسوف مليتس ، ألكمان الشاعر فى اسپارطة ، نهضة فن النحت .

٥٩٥ — الحرب المقدسة الأولى .

٥٩٤ — شرائع صولون فى أثينة .

٥٩٠ — عصر الحكماء السبعة ، نشأة الحلف الأمفكتيونى ، والأرفية ، الهيكل الثانى لأرتميس فى إفسس .

٥٨٢ — الألعاب البينية والبرزخية الأولى ، تماثيل الأكروپولس وأپلو

٥٨٠ — أكراجاس ، إيسوپ الساموسى ، صاحب الخرافات المشهورة .

٥٧٦ — الألعاب النيمية الأولى .

٥٧٠ — فلارس طاغية فى أكراجاس ؛ استسيكورس الهميرى الشاعر ؛ انكسمندر فيلسوف ميليتس .

٥٦٦ — الألعاب الأثينية الجامعة الأولى .

٥٦١ — ٦٠ حكومة الطاغية پيسستراتس الأولى .

٥٦٠ — ٤٦ كروسس الليدى يخضع أيونيا .

٥٥٨ — قرطاجة تستولى على صقلية وقورسقة .

٥٥٠ — إمپوريوم (اسپانيا) ، ٦٢٥ إيليا (إيطاليا) .

٥٤٦ — ٢٧ حكومة الطاغية پيسستراتس الثانية

٥٤٥ — فارس تخضع أيونيا .

٥٤٤ — انكسمينس فيلسوف ميلتس .

٥٤٠ — هپوناكس شاعر إفسوس .

ق.م.

٥٣٥ — ١٥ پولكراتس طاغوسة ساموس ؛ ثيودورس فنان ساموس ؛ أنكريون شاعر تيوس .
٥٣٤ — ثيسيس يوطد قواعد التمثيل فى أثينة .
٥٣٠ — ثيجنيس شاعر مجارا .
٥٢٩ — ٥٠٠ الفيلسوف فيثاغورس فى كروتونا .
٥٢٧ — ١٠ هپياس طاغية أثينة .
٥٢٠ — بدء هيكل الألمپيوم فى أثينة .
٥١٧ — سمنيدس شاعر كيوس .
٥١٤ — مؤامرة هرمديوس وأرستوجيتون .
٥١١ — فرينكوس الممثل الأثينى .
٥١٠ — كروتونا يدمر سيبارس .
٥٠٧ — كليستنيز يوسع نطاق الدمقراطية فى أثينة .
٥٠٠ — هكتيوس جغرافى ميلوتس .
٤٩٩ — أيونيا تثور ؛ مسرحية إيسكلس الأولى .
٤٩٧ — اليونان الأيونيون يحرقون سردبس .
٤٩٤ — الفرس يغلبون الأيونيين فى لادى .
٤٩٣ — شستكليز حاكم (أرخون) فى أثينة .
٤٩٠ — مرثون ؛ هيكل أفيا فى إيجنيا .
٤٨٩ — أرستيديز حاكم (أرخون) ؛ محاكمة ملتيادس .
٤٨٨ — ٧٢ ثيرون طاغية فى أكرجاس .
٤٨٧ — اختيار الأرخونيين بالقرعة لأول مرة .
٤٨٥ — ٤٧٨ جيلون طاغية فى سرقوسة .
٤٨٥ — إبكارمس يوطد دعائم الملهاة فى سرقوسة .
٤٨٢ — نفى أرستيديز .
٤٨٠ — معارك أرتميسيوم ، وترموبيل ، وسلاميس ، وهيرا ؛ أجلاداس الأرجوسى المثال .
٤٧٩ — معركتا بلاتية وميكالى .

الباب الرابع

اسـپارطة

الفصل الأول

البيئة المحيطة ببلاد اليونان

لننظر إلى خريطة للعالم القديم ونطلع فيها على جيران بلاد اليونان القديمة ، ونعنى ببلاد اليونان أو هلاس جميع البلاد التى كان يسكنها فى الزمن القديم شعوب تتكلم اللغة اليونانية .

ولنبدأ بالنظر إلى الأصقاع التى دخل منها إلى تلك البلاد كثير من الغزاة — فوق تلال إپيروس وعلى طول وديانها . وما من شـك فى أن أسلاف اليونان قد أقاموا فى تلك الأماكن كثيراً من السنين ، لأنهم أنشأوا فى ددونا Dodona مزاراً لزيوس إله السماء المرعد . ولقد ظل اليونان حتى القرن الخامس يتلقون الوحى فى هـذا المكان ويقرأون ما تريده الآلهة فى غليان المراجل أو حفيف أوراق البلوطة المقدسة[1] . ويخترق نهر أكرون الجزء الجنوبى من إپيروس ، وسط أخاديد بلغت من الظلمة والعمق درجة جعلت شعراء اليونان يصفونها بأنها مدخل الجحيم أو أنها هى الجحيم نفسها . وكان معظم أهل إپيروس فى أيام هومر يتكلمون اللغـة اليونانية ويتبعون الأساليب اليونانية ، ثم طغت عليهم موجات جديدة من الهمج أهل الشمال وحالت بينهم وبين المدينة .

وإلى شمال إبيروس على ساحل البحر الأدرياوى تقع إليريا Illyria ، وكانت فى الوقت الذى نتحدث عنه بلاداً قليلة السكان أهلها من الرعاة يبيعون الماشية والعبيد بملح الطعام[٢] . وعلى هـــذا الساحل عند إبدمنوس Epidamnus (وهى ديركيوم Dyrrachium الرومانية ودرزو الحالية) أنزل قيصر جنوده وهو يطارد بمبى . وعلى الجانب الآخر من البحر الأدرياوى اغتصب اليونان السواحل الجنوبية من القبائل المستوطنة هناك . وأدخلوا الحضارة فى إيطاليا ، (وقد عادت تلك القبائل فى آخر الأمر فاكتسحتهم وابتلعت معهم بلادهم الأصلية وضمت بلادهم إلى إمبراطورية لم يسبق لها مثيل فى تاريخ العالم) . وكان من وراء جبال الألب الغاليون ، الذين أخلصوا الود فيما بعد لمساليا (مرسيليا) ؛ وفى الطرف الغربى من البحر المتوسط تقع أسپانيا ، وكانت قد تمدنت إلى حد ما على يد الفينيقيين والقرطاچيين حين أنشأ اليونان فى عام ٥٥٠ مستعمرتهم الوجلة فى إمپريوم (أمپورياس Ampurias) . وكانت قرطاجنة الإمبراطورية تقع على ساحل أفريقية أمام صقلية تتسلط عليها وتهددها ، وقد اختط هذه المدينة ديدو Dido والفينيقيون ، وتقول الرواية إن ذلك كان فى عام ٨١٣ . ولم تكن وقت إنشائها قرية صغيرة بل كانت مدينة عامرة يبلغ سكانها ٧٠٠,٠٠٠ نسمة ، تحتكر تجارة البحر المتوسط الغربى وتسيطر على يتكا ، وهپو Hippo وثلثمائة بلدة أخرى فى أفريقية ، ومناجم غنية ، ومستعمرات فى صقلية ، وسردينية ، وأسپانيا ، وقد قدر لهذه الحاضرة ذات الثروة الطائلة أن تقود الكفاح ضد اليونان من ناحية الغرب ، كما قدر لبلاد الفرس أن تقوده من ناحية الشرق .

وإلى شرق هذه المدينة على ساحل أفريقية كانت تقع مدينة قورينة اليونانية ، وفى مؤخرتها بلاد اللوبيين المجهولة ، وإلى شرقها مصر . وكان معظم اليونان يعتقدون أن عناصر كثيرة من حضارتهم قد جاءتهم من مصر . وتعزو قصصهم نشأة كثير من المدن اليونانية إلى رجال من أمثال كدموس

Cadmus ودانوس Danaus جاءوا من مصر أو نقلوا الحضارة المصرية إلى بلاد اليونان عن طريق فينيقية وكريت[٣] . وقد انتعشت التجارة المصرية وبعث الفن المصرى من جديد فى عهد الملوك الساويين (٦٦٣ — ٥٢٥) ، وفتحت الثغور الواقعة على نهر النيل لتستقبل التجارة اليونانية لأول مرة فى التاريخ . وزار مصر كثيرون من عظماء اليونان المشهورين — أمثال طاليس ، وفيثاغورس ، وصولون ، وأفلاطون ، ودمقريطس ، فأعجبوا أشد إعجاب بعظم حضارتها وقدمها ، ولم يجدوا فيها برابرة همجاً كالذين كانوا يجدونهم فى الأقطار الأخرى ، بل وجدوا فيها أقواماً كانت لهم حضارة ناضجة ، وفنون راقية ، قبل سقوط طروادة بألفى عام . وكان مما قاله أحد الكهنة المصريين لصولون : « إنكم أيها اليونان لا تزالون أطفالا ، ثرثارين ، مغرورين ، لا تعرفون شيئاً عن الماضى . ولما أخذ هكتيوس الميلقى يزدهى على الكهنة المصريين ويقول لهم إن فى وسعه أن يذكر لهم سلسلة نسبه التى تنتهى بعد خمسة عشر جيلا إلى أحد الآلهة ، أطلعوه فى هياكلهم على ٣٤٥ تمثالا لكبار الكهنة كل منهم ابن الذى قبله ويتكون من مجموعهم ٣٤٥ جيلا تبدأ من العهد الذى كان فيه الآلهة يحكمون الأرض[٥] . وكان علماء اليونان أمثال هيرودوت وأفلوطرخس يرون أن العقيدة الأرفية القائلة بأن الخلق يحاسبون بعد موتهم على ما قدموا من خير وشر فى حياتهم ، وأن الاحتفالات التى كانت تقام لبعث دمتر وپرسفونى فى إليوسيس ، مأخوذة كلها عن عبادة إيزيس وأوزريس المصريين . وأكبر الظن أن طاليس الميليتى تعلم الهندسة النظرية فى مصر ، وأن روكوس Rhoecus وثيودورس الساموسيين قد عرفا فيها فن صب الآنية المجوفة البرنزية ، وفى مصر ازداد مهارة فى صناعة الفخار والنسيج وطرق المعادن والحفر على العاج[٧] . وعن المصريين والأشوريين والفينيقيين والحثيين أخذ المثالون اليونان طراز تماثيلهم الأولى — وجوهها المستوية ، وعيونها

المائلة ، وأيديها المقبوضة ، وأطرافها المعتدلة المتصلبة(*) . وقد وجد مهندسو اليونان بعض إلهامهم الفنى ، الذى أوحى إليهم بالعمد المحززة وبالطراز الدورى ، فى عمد سقارة ، وبنى حسن ، كما وجدوا بعضه الآخر فى بقايا ميسينى اليونانية(٨) . وكما أن بلاد اليونان قد تعلمت فى شبابها من مصر واعترفت لها بالفضل ، فإنها حين خارت قواها ماتت فى أحضان مصر إذا جاز هذا التعبير ، فقد مزجت فى الإسكندرية فلسفتها ، وطقوسها الدينية ، وآلهتها بنظائرها فى مصر وبلاد اليهود حتى تبعث وتحيا حياة جديدة فى رومة وفى المسيحية .

وكان أثر فينيقية فى اليونان لا يزيد عليه إلا أثر مصر نفسها . فقد كان تجار صور وصيدا المغامرون وسيلة طوافة لنقل الثقافة ، ونشروا فى جميع أقاليم البحر المتوسط علوم مصر والشرق الأدنى ، وصناعاتهما ، وفنونهما . وطقوسهما الدينية . ولقد بز الفينيقون اليونان فى صنع السفن ولعل اليونان قد أخذوا هذه الصناعة عنهم ، وعلموهم كذلك أساليب فى طرق المعادن ، والنسيج والصباغة خيراً من أساليبهم(٩) ، وقد اشتركوا مع كريت وآسية الصغرى فى نقل الصورة السامية للحروف الهجائية إلى بلاد اليونان بعد نمائها وتطورها فى مصر واليونان وسوريا : وأخذت بلاد اليونان عن بابل نظام موازينها ومكاييلها(١٠) ، وساعتها المائية ومزولتها(١١) ، ووحدات العملة المتداولة فيها ، وهى الأبول obol والمينا mina ، والتالنت (الوزنة)(١٢) ، وقواعد علم الفلك ، وآلاته ، وسجلاته ، وحسابه ، ونظامها الستينى الذى يقضى بتقسيم السنة والدائرة والزوايا الأربع القائمة التى تتقابل فى مركزها إلى ٣٦٠ جزءاً ، وتقسيم كل درجة إلى ٦٠ دقيقة وكل دقيقة من هذه الستين إلى ٦٠ ثانية ، ولعل معرفة طاليس بعلم الفلك عند المصريين

(*) انظر تمثال كاريز Cibares الجالس الذى عثر عليه فى ميليتس والمحفوظ فى المتحف البريطانى ، أو رأس كليوبس Cleobis الذى صنعه پليميدس Polymedes والمحفوظ فى متحف دلف .

والبابليين هي التي أمكنته أن يتنبأ بكسوف الشمس(١٣) ، ولعل هزيود قد أخذ عن بابل فكرته القائلة إن الفوضى والماء أصل الأشياء جميعها ؛ وإن قصة إشتار وتموز لتشبه قصتي أفرديتي وأدنيس ودمتر وپرسفوني شبهاً يدعو إلى الظن بأن الأولى هي الأصل الذي أخذت عنه القصتان الأخريان .

وكان بالقرب من الطرف الشرقي للمحيط التجاري الذي يضم أجزاء العالم القديم كله آخر أعداء اليونان ونعني بهم الفرس . ولقد كانت حضارة بلادهم من بعض نواحيها – وإن كانت نواحي قليلة – أرقى من حضارة بلاد اليونان المعاصرة لها . فلقد أخرجت إلى العالم طرازاً من الرجل المهذب أرقى وأظرف من الرجل اليوناني في كل ناحية من النواحي عدا حدة الذهن والتعليم ، كما أنشأت نظاماً للإدارة الإمبراطورية يفوق بلا جدال ذلك النظام الذي كانت تتزعمه أثينة واسپارطة ، ولم يكن ينقصه إلا حرص اليونان على الحرية . ولقد أخذ اليونان الأيونيون عن أشور قدراً من المهارة في صنع تماثيل الحيوان ، كما أخذوا عنهم في صناعة النحت المبكرة ميلهم إلى ضخامة التماثيل واستواء ما عليها من الملبس ، وأساليب الزينة في الأطناف والقوالب ، وفي طراز النقش البارز في بعض الأحيان ، كما نشاهد ذلك في لوحة أرسنيون الجميلة(١٤) . وكانت لليديا علاقات وثيقة بأيونيا ، وكانت سرديس عاصمتها الزاهرة بمثابة البيت التجاري الذي تصفى فيه المتاجر والأفكار المتبادلة بين بلاد النهرين والمدن اليونانية المنتشرة على الساحل . وقد اقتضت الأعمال التجارية الواسعة قيام المصارف ، واضطرت الحكومة الليدية إلى إصدار عملة مضمونة من الدولة في عام ٦٨٠ . وسرعان ما حاكى اليونان هذا العمل الجليل ذا الفائدة العظمى للتجارة ، وأدخلوا عليه ضروب الإصلاح والتحسين ، وكان له من الآثار التي لا تقل في خطرها وسعتها عن استخدام الحروف الهجائية . وكان أثر فريجيا في بلاد اليونان أقدم من هذه الآثار السابقة وأدل على حذق الفريجيين . فقد دخلت سيبيلي أمها

الإلهة من أول الأمر إلى دين اليونان ، وأضحت موسيقى الناى وما يصحبها من تهتك هي « الطراز الفريجي » الشائع بين عامة الشعب ، والذى أقلق بال رجال الأخلاق اليونان . وعبرت هذه الموسيقى العنيفة مضيق الهلسبنت من فريجيا إلى تراقية ، واستخدمت فى طقوس ديونيسس . وكان إله الخمر أهم ما أهدته تراقية إلى بلاد اليونان ، ولكن مدينة تراقية هي أبدرا المتأخرة أرادت أن تعوض بلاد اليونان عما أصابها بهذه الهدية فأهدت إليها ثلاثة من فلاسفتها هم ليوسپس Leucippus ودمقريطس Democritus ، وپروتجراس Protagoras . وتراقية هي التي انتقلت منها طقوس ربات الشعر إلى بلاد اليونان ، ولقد كان واضعو فن الموسيقى اليونانية نصف الخرافيين – أرفيوس ، وموسايوس Mausaeus وثاميريس Thamyris – مغنين وشعراء تراقيين .

وننتقل بعد من تراقية نحو الجنوب إلى مقدونية ، وبذلك نكون قد أتممنا دراسة كل ما يحيط ببلاد اليونان من حضارات . ومقدونية بلاد جميلة المناظر الطبيعية ، كانت أرضها فى الزمن القديم غنية بالمعادن ، وسهولها الخصبة تنتج الفاكهة والحب ، وجبالها تنشئ أقواماً صلاباً قدر لهم فيما بعد أن يفتحوا بلاد اليونان . وكان سكان الجبال والفلاحون من أهلها من عناصر مختلطة ، أهمها الإليريون والتراقيون ، وربما كانت لهم صلات فى الدم بالدوريين الذين فتحوا البلوپونيز . وكان حكامها الأشراف يدعون أنهم من نسل اليونان (ومن أبناء هرقل نفسه) ، وكانوا يتكلمون لهجة يونانية . وكانت عاصمتهم الأولى إدسا Edessa تقع فوق هضبة واسعة بين السهول الممتدة إلى إپيروس وسلاسل الجبال التى تصل إلى بحر إيجة . وكان إلى الشرق منها مدينة پلا Pella التى أضحت فيما بعد عاصمة فليب والإسكندر ؛ وبالقرب من البحر مدينة پدنا ، التى هزم فيها الرومان المقدونيين الفاتحين وكسبوا بعد هذه الهزيمة حق نقل حضارة اليونان إلى العالم الغربى .

تلك إذن هي البيئة التي كانت تحيط ببلاد اليونان : حضارات كحضارة مصر وكريت وبلاد النهرين أمدت العناصر الفنية في الصناعة ، والعلوم ، والفن ، فاستحالت على أيدي اليونان إلى أزهى صـــورة في التاريخ ؛ وإمبراطوريات كبلاد فارس وقرطاجنة تؤثر فيها منافسة التجارة اليونانية ، وينضم بعضها إلى بعض لمحاربة اليونان وجعلها ولاية خاضعة لسلطانها غير قادرة على أذاها ؛ وإلى الشمال جموع حربية النزعة ، تتكاثر دون تفكير في العواقب ، وتتنقل في قلق واضطراب ، وتعبر بعد زمن قد يقصر وقد يطول الحواجز الجبلية القائمة بينها وبين بلاد اليونان ، وتفعل بها ما فعله الدوريون من قبل فتمزق ما سماه شيشرون الإطار اليوناني الموشى به الثوب الهمجي[١٥] ، وتدمر حضارة لا تفقه لها معنى . وقلما كانت هذه الأمم المحيطة ببلاد اليونان تعنى بما كان يعده اليونان جوهر الحياة وأغلى ما فيها ألا وهو الحرية ـــ حرية الحياة والتفكير ، والقول والعمل . وكان كل شعب من هذه الشعوب ، عدا الفينيقيين ، يرزح تحت حكم الطغاة المستبدين ، ويسلم أرواح بنيه إلى الخرافات والأوهام ، ولا يعرف إلا القليل من بواعث الحرية أو الحياة العقلية . وهذا هو السبب الذي حدا باليونان إلى أن يطلقوا عليهم بلا تمييز بينهم اسم البَرْبَرُوى barbaroi أي الهمج ؛ فالهمجي في اعتقادهم هو الذي لا يرضى بالاعتقاد دون تفكير ، والذي يعيش مسلوب الحرية . ثم تتنازع الفكرتان ـــ صوفية الشرق وعقلية الغرب ـــ آخر الأمر جسم بلاد اليونان وروحها ، فتنتصر العقلية في عهد بركليز ، كما انتصرت في عهد قيصر ، وليو العاشر ، وفردريك ؛ ولكن الصوفية كانت تعود على الدوام . وتبادل النصر بين هاتين الفلسفتين المكملة كلتاهما للأخرى هو الذي تتكون منه أهم المراحل في قصة الحضارة الغربية .

الفصل الثاني

أرجوس

وأخذت بلاد اليونان الصغيرة تمد رقعتها داخل هذه الدائرة من الأمم المحيطة بها حتى لم يكد يبقى جزء من شاطئ البحر المتوسط لم يعمره أبناؤها . ذلك أن اليد الهزيلة التي مدت أصابعها الرفيعة إلى البحر نحو الجنوب لم تكن إلا جزءاً صغيراً من بلاد اليونان التي يعنينا تاريخها في هذا الكتاب ؛ فقد انتشر اليونان ، الذين لا تصدهم عن غرضهم عقبات مهما قويت في أثناء تطورهم ونمائهم ، في كل جزيرة من جزائر بحر إيجة ، وإلى كريت وقبرص ، وإلى مصر وفلسطين ، وسوريا ، وما بين النهرين ، وآسية الصغرى ، وإلى بحر مرمرة والبحر الأسود ، وإلى شواطئ بحر إيجة وشبه الجزيرة الممتدة منه ، وإلى إيطاليا ، وغالة ، وصقلية ، وإلى شمال أفريقية . وقد أنشأوا في هذه الأقاليم جميعها دول مدن مستقلة متفرقة ولكنها يونانية ، تتكلم اللغة اليونانية وتعبد الآلهة اليونانية ،وتكتب الآداب اليونانية وتقرؤها ، وتقوم بنصيبها في تقدم العلوم والفلسفة اليونانية ، وتمارس الدمقراطية على الطريقة اليونانية الأرستقراطية . وهم حين هاجروا من بلاد اليونان لم يتركوا موطنهم الأصلي وراءهم ؛ بل حملوه معهم ، حتى أرضه نفسها ، أينما ذهبوا ، وقد جعلوا حوض البحر المتوسط بحيرة يونانية ومركزاً للعالم ، ودام على هذا الوضع قرابة ألف عام .

وأصعب ما يواجه مؤرخ الحضارة اليونانية القديمة ويثبط همته هو أن يؤلف من هذه الأعضاء المتفرقة في جسم بلاد اليونان وحدة منسجمة

وقصة متصلة الأجزاء(*) . وسنحاول أن نفعل هذا بتلك الطريقة الشيقة طريقة الطواف فى رحلة بهذه الأجزاء . وسنضع أمامنا فى خلال هذه الرحلة خريطة ، لا تكلفنا غير قليل من الخيال ، وسننتقل من مدينة إلى مدينة فى العالم اليونانى ، وندرس فى كل مركز من هذه المراكز حياة الأهلين قبل الحرب الفارسية — أساليبهم الاقتصادية والحكومية ، ونشاط علمائهم وفلاسفتهم ، وما أنشدوه من الشعر وما أنتجوه من الفنون(**) . ولسنا ننكر أن فى هذه الطريقة عيوباً كثيرة : فالتتابع الجغرافى لن يتفق كل الاتفاق مع السياق التاريخى ، وسنضطر فى هذه الرحلة إلى أن نقفز من قرن إلى قرن ومن جزيرة إلى جزيرة ، وسنجد أنفسنا نتحدث إلى طاليس وأنكسمندر قبل أن نصغى إلى هومر وهزيود . ولكننا لا يضيرنا قط أن نرى الإلياذة وما فيها من فحش فى ضوء التشكك الأيونى ، أو أن نستمع إلى شكاية هزيود الشديد بعد أن زار المستعمرات الأيونية التى جاء منها والده المنهوك . وسنحيط بعض الإحاطة ، حين نصل فى آخر رحلتنا إلى أثينة ، بالنواحى الكثيرة الاختلاف لتلك الحضارة التى ورثتها والتى حافظت عليها ببسالة فى مرثون .

وإذا بدأنا رحلتنا من أرجوس حيث أقام الدوريون المنتصرون حكمهم ، وجدنا أنفسنا فى إقليم يونانى خالص : فى سهل غير مسرف فى خصبه ، ومدينة صغيرة مهوشة النظام ، ذات بيوت صغيرة من الآجر والجص ، وهيكل

(*) « إن كتابة تاريخ بلاد اليونان فى كل عصر من عصوره إلا القليل النادر منها من غير أن يتشتت اهتمامنا عمل من أصعب الأعمال ... ذلك أنه لا توجد وحدة دائمة متصلة أو مركز ثابت نستطيع أن نخضع له أعمال الدول اليونانية المتعددة وأهدافها » بيورى Bury من كتاب « المؤرخون اليونان الأقدمون » .

(**) سنقص التاريخ المعمارى للمدن اليونانية الصغرى فى هذه الفصول (الكتاب الثانى) حتى وفاة الإسكندر (٣٢٣) ، وذلك لكى نتحاشى العودة مراراً كثيرة إلى المكان الواحد .

على تلها ، وملهى فى الهواء الطلق على سفح ذلك التل ، وقصور متواضعة فى أماكن منها متفرقة ، وأزقة ضيقة ، وشوارع غير مرصوفة ، وعلى بعد منها البكر الجميل الجذاب المضطرب الأمواج . ذلك أن بلاد اليونان إنما تتكون من جبال وبحار؛ والمناظر الجميلة الفخمة عادية فيها مألوفة إلى حد يجعل اليونان لايعنون بذكر ذلك الجمال فى كتبهم وإن كان يستحوذ على قلوبهم ويوحى إلى عقولهم . وشتاء البلاد بارد مطير ، وصيفها حار جاف ، وأهلها يزرعون فى الخريف ويحصدون فى الربيع ؛ والمطر فيها نعمة وبركة ، وزيوس مرسل المطر إله الآلهة . وأنهارها قصيرة ضحلة ، تتحول إلى سيول جارفة فى فصل الشتاء ، وتجف حتى تظهر الحصباء فى قيعانها فى حر الصيف . ولقد كان على طول الشاطئ اليونانى مائة مدينة فى حجم أرجوس وشبيهة بها ، وألف مدينة أخرى تشبهها ولكنها أقل حجماً منها ، وكلها ذات سيادة تغار على سيادتها ، يفصل كل واحدة عن الأخرى ما بينها من خصام شديد أو مياه خطرة ، أو تلال عديمة المسالك .

ويعزو أهل أرجوس منشأ مدينتهم إلى أرجس البلاسجى ، البطل ذى المائة العين ، كما يعزون ازدهارها الأول إلى رجل مصرى يدعى داوس Danaus قدم إليها على رأس جماعة من « الدنائيين » ، وعلم الأهلين طريقة إرواء حقولهم من الآبار. وليس من حقنا أن نسخر من هذه الأسماء الخيالية ؛ فقد كان اليونان يفضلون أن تنتهى بالأساطير تلك التواريخ الطويلة التى تنتهى عندنا نحن إلى الجهل والغموض . وقد أصبحت أرجوس ، تحت حكم تمنوس أحد الهرقليين الذين عادوا إليها ، أقوى المدن اليونانية بأجمعها ، وأخضعت لسلطانها تيرينز ، وميسينى وجميع الأراضى المحيطة بها . واستولى على زمام الحكم فيها حوالى عام ٦٨٠ أحد أولئك tyrranoi ، الذين أصبح حكمهم الطراز المألوف فى كبريات المدن اليونانية طوال القرنين اللذين أعقبا ذلك العهد . ولعل هذا الطاغية المسمى فيدون Pheidon قد استولى على الحكم ،

كما استولى عليه أمثاله من الطغاة ، بأن تزعم طبقة التجار الآخذة قوتها في الازدياد بعد أن ضموا إليهم العامة مؤقتاً ليسهل عليهم الوصول إلى غرضهم — وهو مقاومة سلطان الأشراف ملاك الأراضي . ولما هددت إيدروس وأثينة [illegible] حفر [illegible] قاعدتها واستولى عليها لنفسه . [illegible] فيدون طريقة الموازين والمكاييل البابلية — ولعله أخذها عن الفينيقيين — كما استخدم نظام النقد اليدى الذى تضمنه الدولة . وأنشأ دار الضرب فى إيجينة وأصبحت « السلاحف » (أى قطع النقد المنقوش عليها رمز الجزيرة) أول عملة رسمية فى بلاد اليونان القارية[١٦] .

وكان حكم فيدون الاستبدادى المستنير بداية عصر من الرخاء جاء إلى أرجوس وما حولها بكثير من الفنون حتى كان موسيقيو أرجوس أشهر الموسيقيين فى بلاد اليونان كلها فى القرن السادس قبل الميلاد[١٧] ، ومن هؤلاء لاسوس Lasus الهرميونى (Hermione) الذى اشتهر بين الشعراء الغنائيين فى عصره ، والذى أخذ عنه پندار Pindar مهارته فى هذا الضرب من الشعر . وفى أيامه [illegible] أساس مدرسة النحت الأرجوسية التى أهدت إلى بلاد اليونان [illegible] كما أهدت إليها قواعدها الفنية ؛ ووجد التمثيل مرتعاً له فى تلك المدينة حيث أنشئت له دار تحتوى على عشرين ألف مقعد ؛ وشاد المهندسون فيها هيكلا لهيرا ، التى كانت تحبها أرجوس ، وتخصها بعبادتها ، وتعدها العروس الإلهة التى تتجدد بكارتها فى كل عام[١٨] لكن ما أصاب خلفاء فيدون من ضعف وفساد — هما نقمة الملكية — بالإضافة إلى الحروب المتعاقبة الطوال مع اسپارطه ، أوهن أرجوس ، واضطرها إلى أن تتخلى عن زعامة الپلوپونيز إلى السديمونيين Lacedaemonians ؛ وهى اليوم بلدة هادئة تختفى معالمها بين ما يحيط بها من حقول ، ولا تذكر إلا قليلا عن مجدها الغابر ، وتفخر بأن أهلها لم يهجروها قط فى أثناء تاريخها الحافل الطويل .

الفصل الثالث

لـكونيا

فى جنوب أرجوس ، وعلى مسافة بعيدة من البحر ، يشاهد السائح قلل سلاسل جبال البرنون Parnon ، وهى قلل جميلة المنظر ولكن أجمل منها فى العين نهر يورو تاس Eurotas الذى يجرى بينها وبين سلسلة تيجتوس فى الغرب ، وهو أكثر منها ارتفاعاً وأشد قتاماً وتكلل أعلاها الثلوج . وفى الوادى المعرض لفعل الزلازل يمتد « تجويف لسديمون » ، وهو سهل منبسط تحميه التلال من جميع جوانبه بحيث لا تحتاج حاضرته اسپارطة إلى أسوار تحميها . وكانت اسپارطة « المبعثرة » فى ذروة مجدها تتكون من خمس قرى منضمة بعضها إلى بعض يعمرها حوالى سبعين ألف نسمة . أما اليوم فهى قرية صغيرة لا يزيد سكانها على أربعة آلاف ، ولا يكاد يبقى شىء حتى فى متحفها الصغير ، من تلك المدينة التى حكمت فيما مضى بلاد اليونان وكانت سبباً فى خرابها .

١ - توسع اسبارطة

ولقد سيطر الدوريون من هذا الحصن الطبيعى المنيع على جنوبى الپلوپونيز واستعبدوه . وكان هؤلاء الشماليون ذوو الشعر المرسل الطويل ، الذين قوت حياة الجبال أجسامهم وضرستهم الحروب ، كان هؤلاء الأقوام يرون أن الحياة إما فتح أو استرقاق ولا ثالث لها . وكانت الحرب عملهم المألوف يحصلون بها على رزقهم الشريف فى ظنهم ، كما كان غير الدوريين من أهل البلاد الذين أضعفهم اشتغالهم بالزراعة وطول عهدهم بالسلم فى حاجة ملحة إلى سادة يتولون أمورهم ويسيطرون عليهم . وكان أول هؤلاء ملوك اسپارطة ، الذين

يدعون أنهم من سلالة الهرقليين الذين وفدوا إلى البلاد منذ عام ١١٠٤ ، أن أخضعوا سكان لكونيا الأصليين ثم هاجموا مسينيا Messinia . وكانت تلك الأراضي الممتدة فى الطرف الجنوبى الغربى من البلوبونيز مستوية وخصبة إذا قيست إلى سائر أجزاء شبه الجزيرة ، وتقوم بحرثها قبائل هادئةمسالمة . ويقص علينا بوسنياس كيف ذهب أرستوديموس Aristodemus ملك مسينيا إلى مهبط الوحى فى دلفى ليستشيره فى الوسائل التى يستطيع بها أن يهــزم الاسپارطيين ، وكيف أمره أپلو أن يضحى بعذراء يجرى فى عروقها دمه الملكى ، وكيف قتل ابنته هو وخسر الحرب[١٩] (وربما كان سبب خسرانه أنه كان مخطئاً فى اعتقاده أنه قتل ابنته) ، وكيف قاد أرستيـنسAristomenes الشجاع الميسينيين بعد جيلين من ذلك الوقت فى ثورة جامحة على حكامهم الفاتحين ، وكيف ظلت مدنهم تسع سنين صابرة على الهجوم والحصار ولكن الإسپارطيين ظفروا بهم آخر الأمر ، فأخضعوا الميسينيين وفرضوا عليهم جزية سنوية تعادل نصف محصولاتهم ، وساقوا نصف عددهم وضموهم إلى أقنان هيلوت Helot :

والصورة التى ترتسم فى مخيلتنا للمجتمع اللكونى قبل ليقورغ تتكون ، كما تتكون بعض الصور الملونة القديمة ، من ثلاث طبقات ، العليا منها هى طبقة السادة الدوريين ، ويعيش معظمهم فى اسپارطه على منتجات الحقول التى يملكونها فى الريف والتى يحرثها لهم الهيلوتيون (الأرقاء) . وكان بين هاتين الطبقتين من الوجهة الاجتماعية ، ويحيط بهما من الوجهة الجغرافية ، طبقة البريئيســيين Perioeci (الساكنين حولهم) ، وهم قوم أحرار يسكنون فى مائة قرية أو على تخوم لكونيا ، أو يشتغلون بالتجار أو الصناعة فى المدن ، يؤدون الضرائب ويخدمون فى الجيش ولكنهم لا نصيب لهم فى حكم البلاد ، وليس لهم حق الزواج من الطبقة الحاكمة . وكانت أحط الطبقات وأكثرها عدداً طبقة الهيلوتيين ، وقد سموا بهذا الاسم —



— على حد قول استرابون — نسبة إلى مدينة هيلوس ، وكان أهلها من أول من استعبدهم الاسبارطيون(٢٠) . وقد استطاعت اسبارطة بالغزو السافر لسكان لكونيا من غير الدوريين أو باستيراد أسرى الحرب أن تجعل لكونيا بلاداً يعمرها نحو ٢٢٤٫٠٠٠ من الهيلوتين ، ١٢٠٫٠٠٠ من البريئيسين، ٣٢٫٠٠٠ رجل وامرأة وطفل من طبقة المواطنين(*)(٢١) .

وكان الهيلوتيون يتمتعون بجميع الحريات التي يستمتع بها أقنان الإقطاع في العصور الوسطى ، فكان للواحد منهم أن يتزوج كيف شاء ، وأن يكون له أبناء لا يهتم بعددهم أو ما سوف يؤول إليه أمرهم ، ويستغل الأرض بطريقته هو ، ويعيش في قريته مع جيرته ، لا يقلقه مالك أرضه الغائب عنها ، ما دام يؤدي إلى هذا المالك بانتظام إيجارها الذي حددته لها الحكومة . وكان هذا القن مرتبطاً بالأرض ولكن مالكها لم يكن في مقدوره أن يبيعه أو يبيعها وكان في بعض الحالات يؤدي خدمات منزلية في المدينة ؛ وكان ينتظر منه أن يقوم على خدمة سيده في الحرب ، وأن يحارب دفاعاً عن الدولة إذا ما طلب إليه أن يحارب من أجلها ، فإذا أبلى في الحرب بلاء حسناً فقد ينال حريته . ولم تكن حاله الاقتصادية في الظروف العادية أسوأ من حال المزارعين القرويين في سائر أجزاء اليونان الخارجة عن أتكا ، أو الفعلة غير المهرة في مدينة من المدن الحديثة . وكان مما يخفف عنه عبء الحياة مسكنه الذي يملكه ، وعمله المنوع ، وما حوله من حقول وأشجار هادئة تؤنسه وتعينه على عيشه ؛ ولكنه كان من الناحية الأخرى معرضاً على الدوام لأن تطبق عليه القوانين العسكرية ، وأن تفرض عليه رقابة الشرطة السرية تقتله في أية لحظة من غير سبب أو محاكمة .

وكان الساذج في لكونيا كما كان في غيرها من بلاد العالم يؤدي الجزية إلى الشاطر الماكر : وتلك عادة لها ماض قديم مبجل ومستقبل مبشر بطول البقاء .

(*) هذه الأرقام بطبيعة الحال ظنية كلها ، تستند إلى إشارات قليلة وفروض كثيرة .

وسبب ذلك أن طيبات الحياة فى أكثر الحضارات تأتى بها وتنظم تصريفها عملية البيع والشراء العادية السوية : فالشاطر الماكر يحملنا على أن ندفع فى الكماليات التى لا يتيسر مضاعفتها وفى الخدمات التى يؤديها لنا أكثر مما يستطيع الساذج أن يحصل عليه فى نظير ما ينتجه من الضرورات التى يسهل إنتاجها وتعويض ما يستهلك منها . أما فى لكونيا فقد توصل بعضهم إلى تركيز الثروة فى أيديهم بوسائل بادية للعين منفرة ، ملأت قلوب الهيلوتيين غيظاً بلغ من الشدة حداً جعل اسپارطة فى كل عام تقريباً مهددة بالثورات التى تعرض كيان الدولة لأشد الأخطار .

٢ — عصر اسبارطة الذهبى

كانت اسپارطة فى هذا الماضى الغامض قبل أن يأتيها ليقورغ مدينة كسائر المدن اليونانية ازدهر فيها الفن والأغانى كما لم يزدهرا قط بعد أيامه . وكانت الموسيقى أكثر الفنون انتشاراً فيها وهى قديمة فيها قدم السكان أنفسهم ، ذلك أننا مهما أوغلنا فى القدم نجد اليونان يغنون . وإذ كان تاريخ اسبارطة لا تنقطع منه الحروب فإن موسيقاها قد اصطبغت بالصبغة العسكرية — وكان أسلوبها هو « الأسلوب الدورى » البسيط القوى . أما غيره من الأساليب الموسيقية فلم يكن يثبط فحسب ، بل كان كل خروج عن هذا النمط الدورى يعاقب عليه القانون ؛ وحتى ترپندر نفسه Terpander ، وهو الذى أخمد بأغانيه فتنة قامت فى المدينة ، قد حكم عليه الإفوريون(*) بغرامة وسمرت قيثارته فى جدار لأنه جرؤ على أن يزيد على أوتارها وتراً جديداً لتنسجم نغماتها مع صوته ؛ ولم يسمح لتيموثيوس Timotheus فى عهد آخر من عهودها بأن يشترك فى المباريات

(*) طبقة الحكام الاسپارطيين .

الاسپارطية إلا بعد أن نزع بأمر الإفوريين ما أضافه من الأوتار الشاذة المرذولة على قيثارة ترپندر وكان قد زاد هذه الأوتار من سبعة إلى أحد عشر(٢٣) .

وقد وجد فى اسپارطة ، كما وجد فى إنجلترا ، مؤلفون عظام فى الموسيقى ، حين كانت تستورد هؤلاء المؤلفين من خارجها ؛ فقد استدعيت حوالى عام ٦٧٠ ترپندر من لسپس بأمر الوحى فى دلفى ، حسب زعمهم ، ليعد مباراة فى الغناء الجماعى فى الاحتفال بعيد كرنيا Carneia . وكذلك استدعى ثاليتاس Thaletas من كريت حوالى عام ٦٢٠ كما استدعى بعد ذلك بقليل ترتيوس Tyrteus ، وألكمان Alcman ، وپلمنستوسPolymnestus. وقد وجه هؤلاء معظم جهودهم لوضع ألحان وطنية وتدريب الفرق على إنشادها . وقلما كانت الموسيقى تعلم للأفراد من الاسپارطيين(٢٤) ، فقد بلغت الروح الشيوعية فيها ، كما بلغت فى روسيا الثورية ، من القوة درجة جعلت الموسيقى تنزع فيها نزعة جماعية ، وكانت الجماعات فيها تتبارى فى إقامة حفلات الغناء والرقص الفخمة . وأتاحت هذه الأغانى الجماعية للاسپارطيين فرصة أخرى للتدريب ولتنظيم الجماهير ، لأن كل صوت فى الغناء كان خاضعاً للرئيس . ولم يشذ الملوك أنفسهم عن هذا الخضوع ، فقد حدث فى احتفال الهيَاَثيا Hyacinthia أن غنى الملك أجلسوس فى الزمان والمكان اللذين عينهما له رئيس الفرقة . وكان الاسپارطيون على بكرة أبيهم ، كبيرهم وصغيرهم ، رجالهم ونساؤهم ، يشتركون أثناء الاحتفال بعيد الجمنوپيدياه Gymnopedia فى تمارين رياضية جماعية ورقص متناسق وغناء . وما من شك فى أن هذه المناسبات كانت باعثاً قوياً للشعور الوطنى ، ومصرفاً ينصرف فيه ما يتأجج فى الصدور من هذا الشعور .

وكان ترپندر أى « مطرب الناس » أحد أولئك الشعراء الموسيقيين الناهبين الذين بدأ بهم عصر ليسبوس المجيد فى الجيل الذى سبق سافو . وتعزو إليه الرواية المأثورة اختراع أناشيد الشراب المعروفة باسم اسكوليا scolia

وزيادة أوتار القيثارة من أربعة إلى سبعة ؛ ولكن القيثارة ذات السبعة الأوتار كانت ، كما سبق القول ، قديمة قدم ميتوس ، وأكبر الظن أن الناس كانوا يتغنون بفضائل الخمر فى شباب العالم الذى جر عليه النسيان ذيله ؛ والذى لا شك فيه أن ترپندر قد ذاع صيته فى لسبوس وعرف فيها بأنه مؤلف المقطوعات الغنائية الموسيقية ومغنيها . ولما أن قتل رجلا فى مشاجرة ، نفى من هذه المدينة ورأى من مصلحته أن يقبل دعوة جاءته من اسپارطة بالذهاب إليها . ويلوح أنه أقام فيها بقية أيام حياته يعلم الموسيقى ويدرب الفرق الغنائية . ويقال لنا إنه قضى نحبه فى مجلس شراب : فبينما هو يغنى — ولعله كان يغنى النغمة التى أضافها فى أعلى السلم الموسيقى — قذفه أحد السامعين بتينة ، فدخلت فى فمه ، وفى قصبته الرئوية ، فسدت مسالك التنفس ، وقضت عليه وهو فى نشوة الغناء[٢٥] .

وواصل ترتيوس عمل ترپندر فى اسپارطة فى أثناء الحرب الميسينية الثانية ؛ وقد جاءها من أفدنا Aphidna — وقد تكون فى لسيدمون ، وقد تكون وهو الأرجح فى أتكا . والذى لا شك فيه أن الأثينيين كانوا يروون فكاهة قديمة عن الأسپارطيين ، وهى أنهم حين كانت الدائرة تدور عليهم فى الحرب الثانية أنجاهم من الهزيمة الماحقة معلم أتكى أعرج أيقظت أغانيه الاسپارطيين الخاملين وبعثت فى قلوبهم الشجاعة فانتصروا بذلك على أعدائهم[٢٦] . وجلى أنه كان ينشد أغانيه فى المجتمعات العامة بمصاحبة الناى ، وهو يعمل لتبديل الموت الحربى بالمجد الذى يحسد عليه . وقد جاء فى إحدى القطع الباقية من أغانيه : « ما أجمل أن يموت الرجل الشجاع فى الصف الأول من المجاهدين فى سبيل أوطانهم ؛ ألا فليثبت كل إنسان فى مكانه واقفاً على قدميه لا يتزحزح عن موقفه ؛ وليعض على نواجذه . . . . وليضم كل إنسان قدمه إلى قدم زميله ، ولتتلاحق الدروع ، ولتختلط الرياش المتماوجة ، والخوذ المتلاطمة ، وليتقدم المقاتلون متلاصقين كالبنيان المرصوص ، تتلاقى فى معمعان القتال نصال سيوفهم وأسنة رماحهم[٢٧] » . ويقول

ليونداس ملك اسبارطة إن ترتيوس « كان رجلا بارعاً فى إثارة حمية الشباب[٢٨] .

وغنى ألكمال لأهل ذلك الجيل نفسه ، وكان صديقاً لترتيوس ومنافساً له ، ولكن غناءه كان أكثر تنوعاً من غناء صديقه وأقرب منه إلى مطالب هذه الحياة الدنيا . وكان موطنه الأصلى ليديا البعيدة . ويقول بعضهم إنه كان عبداً ولكن اللسديمونيين رحبوا به لأنهم لم يكونوا قد تعلموا كراهية الأجنبي التى أصبحت فيما بعـد جزءاً من قانون ليقورغ . ولو أنه قد عاصر الاسبارطيين المتأخرين لرأوا فى مدائحه فى الحب والطعام وتعداده لأصناف الخمور اللكونية مسبة لهم . وتصفه الرواية التاريخية بأنه أشد الأقدمين شرهاً وشغفاً بالنساء . وهو يقول فى إحدى أغانيه إنه كان سعيد الحظ لأنه لم يبق فى سرايس ، وإلا لجبت خصيتاه وأصبح من كهنة سيبيل ، بل جاء اسبارطة حيث يستطيع أن يحب بكامل حريته حبيبته مجالستراتا Megalostrata ذات الشعر الذهبي[٢٩] . وبه تبدأ أسرة الشعراء العشاق التى تنتهى بأنكريون ، وهو حامل لواء « التسعة الشعراء الغنائيين » الذين اختارهم النقاد الإسكندريون ووصفوهم بأنهم أحسن شعراء بلاد اليونان القديمة[*] ؛ ولقد كان فى وسعه أن يكتب ترانيم وتهاليل ، وخمريات وغزلا ، وكان أحب شيء إلى الاسبارطيين ما وضعه من المقطوعات لتغنيها البنات مجتمعات . وإنا لنجد فى هذه الأغانى من حين إلى حين قطعاً تكشف لنا عن قوة الشعور الخيالى التى هى جوهر الشعر وأساسه :

« لقد استغرقت فى النوم قلل الجبال ومسايلها ، وشعابها ، وخوانقها ، والزواحف التى تخرج من الأرض السوداء ، والوحوش التى تتربص على

(*) ألكمان ، ألسيوس Alcaeus ، سفو ، استسيكورس ، إيبكس ، أنكريون ، سمنيدس ، پندار ، بكليدس .

سفوح التلال ، وثول النحل ، والحيوانات المهولة فى قاع البحر الأرجوانى ، استغرقت كلها فى النوم ، ومعها أسراب الطيور المجنحة(*) (٣٠) .

ولنا أن نستنتج من وجود هؤلاء الشعراء أن الاسپارطيين لم يكونوا اسپارطيين على الدوام ، وأنهم لم يكونوا فى القرن السابق لليقورغ أقل شغفاً بالشعر والفنون الجميلة من سائر اليونان ؛ ولقد أضحت الأغانى الجماعية من الخواص الوثيقة الصلة بهم ؛ ولما أن أراد كتاب المسرحيات الأثينيون أن يكتبوا أغانى جماعية لمسرحياتهم ولم يروا بدأ من أن يكتبوها باللهجة الدورية ، مع أنهم كتبوا الحوار باللهجة الأتيكية . وليس من السهل علينا أن نقول أى الفنون الأخرى قد ازدهرت فى لسديمون فى تلك الأيام ، أيام الهدوء والاطمئنان ، لأن الاسپارطيين أنفسهم قد غفلوا عن تأريخ تلك الأيام والاحتفاظ بتاريخها إن كانوا قد سجلوه ؛ ولكنا نستطيع أن نقول إن الفخار والبرنز اللكونيين قد اشتهرا فى القرن السابع ، وإن الفنون الصغرى قد أخرجت كثيراً من الكماليات التى تستمتع بها الأقلية المحظوظة . لكن هذه النهضة القصيرة الأجل قضت عليها الحروب المسينية . فقد وزعت الأراضى المفتوحة على الاسپارطيين ، وكاد عدد الأقنان أن يتضاعف نتيجة لهذا التوزيع . وكيف يستطيع ثلاثون ألفاً من المواطنين أن يخضعوا على الدوام أربعة أمثالهم من البرئيسيين وسبعة أمثالهم من الهيلوتيين ؟ إنهم

(*) ما أشبه هذه الأغنية « بأغنية الجائل الليل » لجيته . كأن إحساساً واحداً قد جمع بين شاعرين بين أحدهما والآخر خمسة وعشرون قرناً من الزمان :

فوق قلل التلال كلها
ساد السكون الآن
وفى أعالى الأشجار جميعها
لا تكاد تستمع
إلى نفس يهب .
إن الطيور نائمة بين الأغصان ،
على رسلك ، إنك أنت الآخر
لن تلبث حتى تستريح مثلها

لا يستطيعون ذلك إلا إذا نفضوا أيديهم من ممارسة الفنون ومناصرتها ، وجعلوا من كل اسبارطي جندياً شاكي السلاح مستعداً على الدوام لقمع الثورات أو السير إلى ميدان القتال . ولقد بلغوا هذه الغاية بفضل دستور ليقورغ ، ولكن هذا الدستور نفسه قد أخرج اسبارطة من تاريخ الحضارة بكافة معانيها اللهم إلا معناها السياسي وحده .

٣ – ليقورغ

يعتقد المؤرخون اليونان اعتقاداً لا يقبل الجدل أن ليقورغ هو واضع شرائع اسبارطة ، كما يعتقدون أن حصار طروادة وقتل أجممنون من الحقائق التاريخية المسلم بصحتها . وكما أن العلماء المحدثين قد ظلوا مائة عام كاملة ينكرون وجود طروادة وأجممنون ، فإنهم اليوم يترددون في الاعتراف بأن ليقورغ شخص واقعي كان له وجود في التاريخ . وتختلف التواريخ التي يحددها له من يؤمن بوجوده منهم ما بين ٩٠٠ ، ٦٠٠ ق . م ؛ وكيف يستطيع رجل واحد أن يبتدع أعجب وأبغض طائفة من الشرائع في التاريخ كله ثم لا يفرضها في سنين قليلة على شعب خاضع مغلوب فحسب بل يفرضها كذلك على الطبقة الحاكمة ذات النزعة العسكرية صاحبة الإرادة القوية[٣٣] ؟ ولكننا رغم هذا إذا رفضنا رواية يأخذ بها جميع المؤرخين اليونان اعتماداً منا على هذه الأسباب ، نكون متجنين على الحقيقة والتاريخ . لقد كان القرن السابع قبل الميلاد عصر المؤرخين الأفراد – زلوكس Zleucus في لكريس الإيطالية (حوالي ٦٦٠) ، ودريكو Draco في أثينة (٦٢٠) ، وكراندس Charondas في قطانا بصقلية (حوالي ٦١٠) – دع عنك كشف يوشع لشرائع موسى في هيكل أورشليم (حوالي ٦٢١) . ولعل الحق في الحالات السالفة الذكر أن هذه الشرائع لم تكن من وضع رجل بعينه بل كانت طائفة من العادات

نسقت وصيغت — حتى صارت قوانين معينة محددة ، سميت من قبيل التيسير باسم الرجل الذى جمعها وقننها وأبرزها فى معظم الأحيان فى صورة شرائع مكتوبة(*) . وسوف نسجل فى هذا الكتاب الرواية المتواترة كما وصلت إلينا على أن نذكر مع ذلك أنها فى أغلب الظن تجسيد وتصوير لعملية طويلة تطورت فيها العادات حتى صارت قوانين على يد عدد كبير من المؤلفين دأبو على العمل كثيراً من السنين .

ويقول هيرودوت [٣٤] إن ليقورغ ، عم الملك كاريلوس Charilaus ملك اسپارطة ووليه ، تلقى من الوحى فى دلفى بعض مراسيم ، يصفها البعض بأنها قوانين ليقورغ نفسها ، ويصفها البعض الآخر بأنها تصديق ربانى على القوانين التى اقترحها هو . ويبدو أن المشترعين قد أحسوا أن آمن طريقة لتغيير بعض العادات القائمة أو إدخال عادات جديدة هى أن يعرضوا ما يريدونه فى الحالين على أنه أوامر من عند الله ؛ ولم تكن هذه أول مرة أقامت الدولة قواعدها فى السماء . وتضيف الرواية إلى هذا أن ليقورغ سافر إلى كريت ، وأعجب بنظمها ، واعتزم أن يدخل بعضها فى لكونيا[٣٥] ؛ وقبل الملوك ومعظم النبلاء إصلاحاته على مضض لأنهم رأوا أن لا بد لهم منها إذا أرادوا أن يضمنوا لأنفسهم السلامة والطمأنينة ؛ ولكن أحد الشبان الأشراف ، واسمه الكمندر ، قاوم هذا الإصلاح مقاومة شديدة عنيفة وفقأ إحدى عينى المشترع نفسه . ويقص أفلوطرخس هذه القصة بأسلوبه السلس الساحر :

ولم يثبط هذا العمل عزيمة ليقورغ أو يضعف همته ، بل سكت وكشف لمواطنيه عن وجهه المشوه وعينه المفقوءة . واستولى عليهم الخجل والهلع من هذا المنظر فجاءوه بألكمندر ليعاقبه على فعلته .... فشكر لهم ليقورغ ما فعلوا ، وصرفهم عن آخرهم ، ولم يستبق منهم إلا الكمندر ، ثم أخذه معه

(*) ويقال إن ليقورغ قد نهى الناس عن كتابة قوانينه .

إلى منزله ، ولم يقل له كلمة نابية أو يوقع عليه أى عقاب ، بل . . . أمره أن يقف فى خدمته وقت الطعام . وكان الشاب ذا خلق كريم فقام بكل ما كان يؤمر أن يقوم به دون أن يتذمر أو يتململ ، وبذلك أتيحت له الفرصة لأن يعيش مع ليقورغ فيلاحظ حبه فضلا عن رقته وهدوء طباعه استقامة لا عهد له بها ، وجداً وصبراً على العمل ، وأصبح الشاب من أشد الناس إعجاباً به وقد كان من قبل من ألد أعدائه ، وقال لأصدقائه وأقاربه إن ليقورغ لم يكن ذلك الرجل النكد السيئ الطباع كما كانوا يظنون ، بل إنه دون غيره الرجل الظريف الرقيق الحاشية فى العالم كله .

ولما أتم ليقورغ قوانينه ، أخذ على الأهلين عهداً (ولعل هذه زيادة خرافية زيدت على قصته) ألا يبدلوا فى القانون شيئاً قبل أن يعود إليهم . ثم سافر إلى دلفى ، واعتزل العالم ، وحرم على نفسه الطعام حتى مات « ظنا منه أن الواجب يقضى على السياسى أن يجعل موته إذا استطاع عملا يخدم به الدولة[٣٧] » .

٤ — دستور لسديمدنيا

وإذا أردنا أن نحدد بالضبط إصلاحات ليقورغ ، وجدنا الروايات التاريخية مضطربة متناقضة ، حتى ليصعب علينا أن نقول أى عناصر القوانين الاسپارطية سبقت ليقورغ ، وأيها من وضعه هو أو من وضع الجيل الذى كان يعيش فيه ، وأيها أضيفت إليها بعد أيامه . فأما أفلوطرخس وپليبيوس[٣٨] فيؤكدان لنا أن ليقورغ أعاد تقسيم أراضى لكونيا ثلاثين ألف قسم متساوية ووزعها على المواطنين ؛ وأما توكيديدس[٣٩] فيفهم من أقواله أن تقسيما من هذا النوع لم يحدث قط ، ولعل الذى حدث فعلا أن الأملاك القديمة لم تمس وإنما وزعت الأراضى التى استولوا عليها حديثا توزيعاً متساوياً . وألغى ليقورغ (أو واضعو الدستور المنسوب إليه) ،

كما فعل كليستنيز السكيونى وكليستنيز الأثينى ، نظام المجتمع اللكونى القائم على صلة القرابة ، واستبدل به أقساماً جغرافية ، وبهذا تحطم سلطان الأسر القديمة ، وأنشئ نظام أرستقراطى واسع النطاق . وأراد ليقورغ أن يمنع هذه الأبلركية مالكة الأرض من أن تقضى عليها طبقات التجار ونحوها التى كانت تسير سيراً حثيثاً نحو مركز الزعامة فى أرجوس ، وسكيون ، وكورنثة ، ومجارا ، وأثينة ، فحرم على المواطنين أن يشتغلوا بالصناعة ، أو التجارة ، ومنع استيراد الفضة والذهب ، وأمر ألا يستخدم فى سك العملة غير الذهب وحده . ذلك بأنه قد وطد العزم على أن يتفرغ الاسپارطيون (المواطنون ملاك الأرض) إلى شئون الحكم والحرب .

وكان مما يفخر به المحافظون الأقدمون[٤٠] أن دستور ليقورغ قد دام عهداً طويلا لأن أنظمة الحكم الثلاثة : الملكية ، والأرستقراطية ، والديمقراطية قد اجتمعت كلها فيه ، واجتمعت بنسب تمنع طغيان أى عنصر منها على العنصرين الباقيين . من ذلك أن الملكية الاسپارطية كانت فى الواقع ملكية ثنائية ، فقد كان فيها ملكان يحكمان معاً وينحدران من الهرقليين الغزاة . ولعل هذا النظام الغريب كان تراضيا بين أسرتين متنافستين لأنهما تنتميان إلى أصل واحد ، أو لعله كان وسيلة للاستفادة مما للملكية من مزايا نفسانية فى المحافظة على النظام الاجتماعى والعزة القومية مع تجنب استبدادها وطغيانها . وكانت سلطة الملكين سلطة محددة غير مطلقة : فكانا يقومان بتقريب القرابين التى يتطلبها دين الدولة ، ويرأسان الهيئة القضائية ، ويقودان الجيش فى الحرب . وكانا فى جميع أعمالهما خاضعين لمجلس الشيوخ ، وأخذا بعد معركة بلاتية يفقدان سلطانهما شيئاً فشيئاً ويتولاها الإفورون .

أما العناصر الأرستقراطية ذات السلطان الأكبر فى الدولة فكان مقرها فى مجلس الشيوخ أو الجروسيا . وكانت الجروسيا بمعناها الحرفى

وحقيقة أمرها جماعة من الرجال كبار السن ، وكان الذين تقل أعمارهم عن ستين عاما يعدون فى العادة غير ناضجين لمناقشة شئون الدولة فى هذا المجلس . ويحدد أفلوطرخس عدد أعضاء المجلس بثمانية وعشرين عضواً ويروى عن طريقة انتخابهم رواية لا يصدقها العقل ، فيقول إنه إذا خلا مكان فى المجلس كان يطلب إلى من يتقدمون لملئه أن يمروا صامتين واحداً بعد واحد أمام الجمعية ، فمن حيته منهم بأعلى الأصوات وأطولها أعلن انتخابه[٤١] . وربما كانت هذه الطريقة فى رأيهم طريقة واقعية مختصرة للإجراءات الدمقراطية الطويلة الكاملة . ولسنا نعرف أى المواطنين كانوا هم الصالحين لهذا الانتخاب ، وأكبر الظن أن الذين يصلحون كانوا هم « المموينوى » أى الأنداد والذين يمتلكون أرض لكونيا وخدموا فى الجيش ، وجاءوا بنصيبهم من الطعام إلى المائدة العامة[٤٢] . وكان مجلس الشيوخ هو الذى يقترح القوانين ، وكان هو المحكمة العليا التى تفصل فى الجرائم الكبرى ، وهو الذى يضع أسس السياسة العامة للدولة .

وكانت الجمعية ، الأبلا Apella ، هى العنصر الدمقراطى الذى ارتضته اسبارطة فى حكومتها . ويلوح أن جميع المواطنين الذكور كانوا يقبلون فيها متى بلغوا سن الثلاثين ، وكان عدد من يمكن اختيارهم أعضاء فيها ٨٠٠٠ من بين سكان اسبارطة البالغ عددهم ٣٧٦٠٠٠ . وكانت تجتمع فى كل يوم من الأيام التى يكون فيها القمر بدراً ، وتعرض عليها جميع المسائل العامة ذات الأهمية الكبرى ، ولا يسن قانون إلا إذا وافقت عليه . على أن الذى حدث بالفعل أن القوانين التى أضيفت إلى دستور ليقورغ كانت قلة لا تستحق الذكر ، وهكذا لم يكن للجمعية إلا أن تقبلها أو ترفضها دون أن يكون لها حق تعديلها . فهى فى جوهرها الاجتماع الهومرى العام القديم تستمع فى رهبة إلى آراء الزعماء والكبار أو إلى الملكين قائدى الجيش . وكانت الأبلا من الوجهة النظرية مصدر السلطات وصاحبة السيادة ، ولكن تعديلا أدخل على

الدستور بعد ليقورغ جعل لمجلس الشيوخ حق تغيير قرار الجمعية إذا رأى أنها اتخذت قراراً « معوجاً[٤٣] » ولما أن طلب مفكر سبّاق لعصره إلى ليقورغ أن ينشئ دولة دمقراطية أجابه المشرع بقوله : « ابدأ أيها الصديق بإنشائها فى أسرتك[٤٤] » .

وكان شيشرون يشبه الإفورين (المشرفين) الخمسة بالتربيونين فى رومة لأن الجمعية هى التى كانت تختارهم فى كل عام ، ولكنهم فى الواقع كانوا أكثر شبها بالقناصل الرومان لأنهم كانت لهم سلطة إدارية لا يقف فى سبيلها إلا معارضة مجلس الشيوخ . وكانت وظيفة الإيفور قائمة قبل ليقورغ ، ولكنها مع ذلك لم يرد لها ذكر فيما وصل إلينا من أنباء عن شرائعه . ولم يكد يمضى من القرن السادس إلا نصفه حتى أضحت سلطة الإفورين مساوية لسلطة الملكين ؛ ثم أصبحوا فى واقع الأمر أصحاب السلطة العليا بعد الحرب الفارسية ، فكانوا يستقبلون السفراء ، ويفصلون فى المنازعات القضائية ، ويقودون الجيوش ، ويوجهون أعمال الملوك ، ويعاقبون الملوك أنفسهم أو يبرئونهم من التهم التى توجه إليهم .

أما تنفيذ أوامر الحكومة فكان يتولاه الجيش أو الشرطة . وقد جرت عادة الإفورين بأن يسلحوا بعض الشبان الاسپارطيين ، ويتخذوهم شرطة سرية (كرپتيا krypteia) ليتجسسوا على الناس ، وكان لهم حق قتل الهليوتيين بمحض إرادتهم[٤٥] . وكانت هذه الهيئة تستخدم فى أوقات لم يكن ينتظر أن تستخدم فيها ، بل إنها كانت تستخدم للتخلص من الهليوتيين إذا كان سادتهم يرونهم رجالا قادرين يخشى بأسهم ، وإن كانوا قد دافعوا عن الدولة فى الحرب دفاع الأبطال . ويقول عنهم توكيديدس النزيه بعد ثمان سنين من حرب الپلوپونيز :

صدر إعلان يدعو الهليوتيين لأن يختاروا من بينهم من يقولون إنهم

قد أظهروا تفوقهم فى قتال الأعداء لكى ينالوا حريتهم ؛ وكان الغرض الحقيقى من هذه الدعوة هو اختبارهم ، لأن أول من يتقدمون للمطالبة بحريتهم كانوا فى رأى الداعين أعزهم نفسا وأكثرهم استعداداً للعصيان . واختير بهذه الطريقة ألفان منهم وضعت على رؤوسهم التيجان ، وطافوا بالهياكل مغتبطين بحريتهم الجديدة ، ولكن الاسپارطيين ما لبثوا أن تخلصوا منهم جميعاً ؛ ولم يعترف أحد قط كيف هلك كل فرد من أفرادهم[١٦] .

وكان الجيش عماد السلطة فى اسپارطة ومناط فخرها ، لأنها وجدت فى شجاعته ، ونظامه ، ومهارته ، أمنها ومثلها الأعلى . وكان كل مواطن يدرب تدريباً حربياً ، وكان عرضة لأن يدعى إلى الخدمة العسكرية فيما بين العشرين والستين من عمره . وبفضل هذا التدريب القاسى نشأت الهپليت hoplites الاسپارطية وهى فرق المشاة المتراصة الثقيلة قاذفات الحراب ، والمكونة من المواطنين ، التى كانت تقذف الرعب فى قلوب الأثينيين أنفسهم ، ولم يكد يقهرها عـــدو حتى انتصر عليها إپامينونداس Epaminondas فى لكترا Leuctra . وكان هذا الجيش هو المحور الذى صاغت اسپارطة حوله قانونها الأخلاقى . فالطيبة فى اسپارطة هى أن تكون قوياً شجاعاً ؛ والموت فى ميدان القتال هو أعظم الشرف ومنتهى السعادة ؛ والحياة بعد الهزيمة هى العار الذى لايمحى والذى لاتغتفره الأم نفسها لابنها الجندى . وكانت الأم تودع ابنها الجندى الذاهب إلى حومة الوغى بقولها : « عد بدرعك أو محمولا عليه » . وكان الفرار بالدرع الثقيل أمراً مستحيلا .

٣ - القانون الاسپارطى

إن تدريب الناس على مثل أعلى متعب للجسم وخاصة إذا كان كالذى يدرَّب عليه الاسپارطيون ، يحتم أخذهم من أيام مولدهم وتعويدهم أشد النظم

وأعظمها صرامة . وكانت الخطوة الأولى هي تقوية النسل بأقسى الطرق . فلم يكن كل ما يفرض على الطفل هو أن يواجه ما لأبيه من حق قتله ، بل كان يؤتى به فضلا عن ذلك أمام مجلس من مجالس الدولة مكونة من مفتشين ، فإذا ظهر أن الطفل مشوه ألقى به من فوق جرف فى جبل تيجيتس ليلقى حتفه على الصخور القائمة فى أسفله[٤٧] . وكان ثمة وسيلة أخرى للتخلص من ضعاف الأطفال نشأت من العادة التى جرى عليها الاسپارطيون وهى تعويد أطفالهم تحمل المشاق والتعرض لمختلف الجواء[٤٨] ; وكان يطلب إلى الرجال والنساء أن يهتموا بصحة من يريدون أن يتزوجوهم وبأخلاقهم وحتى الملك أركداموس Archidamus نفسه قد فرضت عليه غرامة لأنه تزوج بامرأة ضئيله الجسم[٤٩] . وكان الأزواج يشجعون على أن يعيروا زوجاتهم إلى رجال ذوى قوة ممتازة غير عادية حتى يكثر بذلك الأطفال الأقوياء ; وكان ينتظر من الأزواج الذين أنهكهم المرض أو أعجزتهم الشيخوخة أن يدعوا الشبان ليعينوهم على تكوين أسر قوية . ويقولون أفلوطرخس « إن ليقورغ كان يسخر من الغيرة ومن احتكار الأزواج ويقول إن من أسخف الأشياء أن يعنى الناس بكلابهم وخيلهم ، فيبذلوا جهدهم ومالهم ليحصلوا منها على سلالات جيدة ، ثم تراهم مع ذلك يبقون زوجاتهم فى معزل ليختصوا بهن فى إنجاب الأبناء ، وقد يكونون ناقصى العقل أو ضعفاء أو مرضى » . والأقدمون كلهم مجمعون على أن الذكور من الاسپارطيين كانوا أقوى أجساماً وأجمل وجوهاً من سائر رجال اليونان ، وأن نساءهم كن أصح وأجمل من سائر نساء تلك البلاد[٥٠] .

وأغلب الظن أن هـــذه النتيجة يرجع أكثرها إلى التدريب لا إلى العناية بالنسل . وفى ذلك يقول توكيديدس على لسان الملك أركداموس : « قلما يكون ثمة فرق » (يعنى وقت المولد على ما نظن) « بين الرجل والرجل . ولكن الذى يتفوق فى آخر الأمر هو الذى ينشأ فى أقسى مدرسة »[٥١] . وكان الولد الاسپارطى يؤخذ من أسرته فى السابعة من عمره

لتتكفل الدولة بتربيته ؛ فكان يسلك فى فرقة عسكرية هى فى الوقت نفسه فصل مدرسى تحت إشراف پيدونوموس Paidonomos أو قيم على الأولاد . وكان أقدر الأولاد وأشجعهم فى كل فصل ينصب عريفاً عليهم ؛ ويطلب إلى سائر الأولاد أن يطيعوه ، وأن يخضعوا لما عساه أن يفرضه عليهم من عقاب ، وأن يحاولوا أن يجاروه أو أن يتفوقوا عليه فى الأعمال الشاقة وفى حسن النظام . ولم يكن هدفهم من هذه التربية هو الجسم الرياضى والمهارة فى الألعاب كما كان هدف الأثينيين ، بل كان هذا الهدف هو الشجاعة الحربية والقيمة العسكرية . وكانوا يقومون بالألعاب وهم عراة على أعين الكبار والعشاق من الرجال والنساء. وكان هم الكبار من الرجال أن يثيروا الشحناء بين الأولاد فرادى وجماعات ، ليختبروا بهذا ما لديهم من قوة وجلد ويدربوهم عليهما ؛ فإذا ما جبنوا لحظة جللهم العار أياماً طوالا . وكان يطلب إلى الاسپارطيين جميعاً أن يتحملوا الألم ويقاسوا الصعاب ، وأن يصبروا على المصائب وهم صامتون لايتذمرون . وكان عدد من الشبان يختارن كل عام أمام مذبح أرتميس أرثيا Artemis Orthia وتلهب أجسامهم بالسياط حتى تخضب دماؤهم الحجارة[٥٢] . وإذا بلغ الولد الثانية عشرة من عمره منعت عنه ملابسه السفلى ، ولم يسمح له إلا بثوب واحد طوال أيام السنة . ولم يكن يستحم كثيراً كغلمان الأثينيين ، لأن الماء والأدهان تجعل الجسم ليناً رخواً ، أما الهواء البارد والتراب النظيف فيجعلانه صلبا شديد المقاومة . وكان ينام فى العراء صيفاً وشتاء ، على فراش من الأسل يقطع من شاطئ يوروتاس . وكان يعيش حتى الثلاثين من عمره فى الثكنات مع فرقته ، ولا يعرف وسائل الراحة المنزلية .

وكان يتعلم القراءة والكتابة ، ولكنه لا يكاد يتعلم منهما ما يكفى لأن يخرجه من سلك الأميين ، وقلما كانت الكتب تجد فى اسپارطة من يشتريها[٥٣] وكان الناشرون قلة كالمشترين . ويقول أفلوطرخس إن ليقورغ كان يرغب ألا يتعلم الأطفال قوانينه بطريق الكتابة ، بل يجب أن يتلقوها مشافهة وبطريق

المران عليها فى شبابهم بعناية من يرشدهم ويضرب لهم المثل بنفسه . وكان يرى أن تقويم الأخلاق بتعويدهم إياها دون أن يحسوا هم بذلك خير من الاعتماد على الإقناع بالحجج النظرية ؛ وأن التعليم الصحيح هو خير أساليب الحكم ، على أن يكون هذا التعليم خلقيا أكثر منه عقلياً ، لأن الخلق أعظم خطراً من العقل . وكان الشاب الاسپارطي يدرب على الاعتدال فى الشراب ، وكانوا يرغمون بعض الهليوتيين على الإفراط فيه حتى يرى الشبان ما قد يتردى فيه المخمور من حماقات(٥٤) . وكان يعلم أن يستعد للحرب بأن ينطلق فى الحقول يجد طعامه بنفسه أو يموت جوعاً إذا لم يجده ، وكانو يجيزون له السرقة فى هذه الأحوال ، فإذا قبض عليه وهو يسرق عوقب بالجلد(٥٥). وإذا كان حسن السلوك سمح له أن يحضر اجتماع المواطنين العام ، وكان ينتظر منه أن يعنى بالاستماع إلى ما يقال فيه حتى يلم بمشاكل الدولة ويتعلم فن الحديث الظريف . فإذا تخطى صعاب الشباب بشرف وبلغ سن الثلاثين منح كل ما للمواطن من حقوق ، وألقيت عليه جميع ما يلقى على المواطن من تبعات ، وأجيز له أن يجلس لتناول الطعام مع من هم أكبر منه .

وكانت البنت أيضاً خاضعة لقيود تفرضها الدولة وإن كانت تتركها لتربى فى منزل أبويها . فكان يطلب إليها أن تقوم ببعض الألعاب العنيفة — كالجرى، والمصارعة ، ورمى القرص ، وإطلاق السهام من القوس — لكى تصبح قوية البنية ، صحيحة الجسم ، صالحة فى يسر للأمومة الكاملة . وكان عليها أن تسير عارية فى أثناء الرقصات والمواكب العامة ، ولو كانت فى حضرة الشبان لكى يحفزها ذلك إلى أن تعنى بجسمها العناية الواجبة ، ولكى تنكشف للناس عيوبها فيعملوا على إزالتها » وفى ذلك يقول أفلوطرخس وهو الرجل الشديد الحرص على الأخلاق : « ولم يكن ثمة شىء يستحى منه فى عرى الفتيات ، فقد كان الوقار شعارهن ، وكان الفجور أبعد الصفات عنهن . وكن وهن يرقصن يغنين الأغانى

فى مدح من أظهروا الشجاعة فى الحرب . ويصببن اللعنات على من يجبن . ولم يكن الاسپارطيون يضيعون جهودهم ووقتهم فى تربية البنات تربية عقلية .

أما الحب فكان يسمح للشاب أن ينغمس فيه وأن يحب الذكور والإناث دون ما تحرج ؛ فقد كان لكل صبى تقريباً حبيب بين من هم أكبر منه من الرجال ، وكان ينتظر من هذا الحبيب أن يواصل تعليمه ، وأن يجزيه الصبى عن هذا حباً وطاعة . وكثيراً ما استحال هذا النفع المتبادل صداقة عاطفية قوية تبعث فى نفس الفتى والرجل ضروب البسالة فى الحرب(٥٦) . وكان يسمح للشبان بالكثير من الحرية قبل الزواج ، ولذلك كانت الدعارة الرسمية نادرة الوجود وكان التسرى لا يلقى تشجيعاً(٥٧) . ولم نسمع عن وجود هياكل لأفرديتى فى لسديمون كلها ، اللهم إلا هيكلا واحداً ، وحتى فى هذا الهيكل قد مثلت الإلهة وعليها نقاب وفى يدها سيف ، وفى قدميها أغلال ، كأنها تشير بذلك إلى ما فى زواج الحب من سخف وطيش ، وإلى خضوع الحب للحرب ، وإلى إشراف الدولة إشرافاً قوياً على الزواج .

وحددت الدولة أنسب سن للزواج سن الثلاثين للرجال والعشرين للنساء . وكانت العزوبة فى اسپارطة جريمة ، وكان العزاب يحرمون حق الانتخاب وحق مشاهدة المواكب العامة التى يرقص فيها الفتيان والفتيات عرايا ؛ ويقول أفلوطرخس إن العزاب أنفسهم كانوا يرغمون على أن يمشوا بين الجماهير عرايا صيفاً وشتاء ينشدون نشيداً فحواه أنهم يقاسون هذا العقاب العادل جزاء لهم على مخالفة قوانين البلاد . وكان الذين يصرون على عدم الزواج عرضة لأن تهاجمهم فى أى وقت من الأوقات جماعات من النساء يؤذينهم أشد الأذى . ولم يكن العار الذى يلحق بمن يتزوجون ولا يلدون ليقل كثيراً عن العار الذى يلحق العزاب ؛ وكان المفهوم أن من لا أبناء لهم من الرجال غير خليقين بذلك الإجلال الدينى الذى يقدمه الشبان الاسبارطيون لمن هم أكبر منهم سناً(٥٨) .

وكان الوالدان هما اللذين ينظمان زواج أبنائهما ، دون أن يكون للبيع والشراء أثر فى هذا التنظيم ؛ فإذا ما اتفقا على الزواج كان ينتظر من العريس أن ينتزع عروسه من بيت أبيها قوة واقتداراً ، كما كان ينتظر منها أن تقاوم هذا الانتزاع ، وكان اللفظ الذى يعبر به عن الزواج هو لفظ هرپدزين harpadzein أى الاغتصاب(٥٩) . فإذا ترك هذا التنظيم بعض الكبار بلا زواج ، جاز حشر عدد من الرجال فى حجرة مظلمة ومعهم عـــدد مساو لهم من البنات ، ثم يترك هؤلاء وأولئك ليختار كل رجل شريكة حياته فى الظلام(٦٠) ؛ ذلك أن الاسپارطيين كانوا يعتقدون أن هذا الاختيار لم يكن فيه من العمى أكثر مما فى الحب . وقد كان من المألوف أن تبقى العروس مع أبويها وقتاً ما ، وأن يبقى العريس فى ثكناته لا يزور زوجته إلا خلسة . ويقول أفلوطرخس إنهما كانا يعيشان على هذا النحو زمناً طويلا حتى لقد كان بعضهم ينجب من زوجته أطفالا قبل أن يرى وجهها فى ضوء النهار » . فإذا ما أوشكا أن يكونا أبوين سمح لهما بأن ينشئا بيتاً . وكان الحب ينشأ بعد الزواج لا قبله ، ويلوح أن الحب بين الزوج وزوجته لم يكن فى اسپارطة أقل منه فى سائر الحضارات(٦١) . وكان الاسپارطيون يفخرون بأن الزنا لا وجود له بينهم ، وقد يكونون على حق فى هذا الفخر . ، لأنهم كانوا يتمتعون قبل الزواج بقسط كبير من الحرية ، وكان الكثيرون من الأزواج يقبلون أن يشترك معهم غيرهم وخاصة إخوتهم فى زوجاتهم(٦٢) . وكان الطلاق نادراً وقد عوقب ليسندر Lysander القائد الاسبارطى لأنه هجر زوجته وأراد أن يتزوج أخرى أجمل منها(٦٣) .

وكان مركز المرأة بصفة عامة فى اسبارطة خيراً منه فى أى مجتمع يونانى آخر ، فقد احتفظت فيها أكثر من سائر المدن اليونانية بمكانتها الهومرية العالية وبالمزايا التى بقيت لها من أيام المجتمع القديم الذى كان الأبناء فيه ينسبون إلى أمهاتهم... وفى ذلك يقول أفلوطرخس إن النساء الاسبارطيات كن

يمتزن « بالجرأة والرجولة ، وبالتشامخ على أزواجهن ... وكن يتحدثن بصراحة حتى فى أهم الأمور » ؛ وكان من حقهن أن يرثن ويورثن ، وقد آلت لهن على مر الوقت نصف الأملاك الثابتة فى اسپارطة بفضل ما كان لهن من سيطرة قوية على الرجال[٦٥] . وكن يعشن فى بيوتهن عيشة الترف والحرية ، على حين كان الرجال يقاسون أهوال الحروب الكثيرة أو يطعمن الطعام البسيط مع سائر الرفاق .

ذلك أن الدستور الاسپارطى كان يفرض على كل رجل من سن الثلاثين إلى الستين أن يتناول وجبته اليومية الرئيسية فى مطعم عام كبير ، وكان الطعام فيه بسيطاً فى نوعه وأقل قليلا فى كميته مما يلزم للشخص العادى. وكانت هذه القلة فى الطعام متعمدة يقصد بها المشترع كما يقول أفلوطرخس أن يعودهم الصبر على ما يلاقونه فى الحرب من حرمان ، وأن يحول بينهم وبين ما ينشأ فى عهود السلم من تدهور وانحطاط ؛ فكان يحرم عليهم « أن يقضوا حياتهم فى البيوت ، ينامون على الفراش الوثير ويطعمون الطعام الشهى ، يسلمون أنفسهم إلى أيدى التجار والطهاة ، يتخمونهم فى أركان الدور كما يتخمون الحيوانات الشرهة ، فلا يفسدون بذلك عقولهم فحسب بل يفسدون أجسامهم كذلك ، فإذا ما انحطت قواهم بسبب الانهماك والإفراط ، أصبحوا فى حاجة إلى النوم الطويل والاستحمام بالماء الساخن والتحرر من العمل ؛ وجملة القول أنهم يصبحون لا يعنون بعمل شىء ولا يشرفن على شىء كأنهم مصابون بعلة دائمة لا يبرءون منها[٦٦] » . وكانوا يحصلون على المواد اللازمة لهذه الوجبة العامة بأن يطلب إلى كل شخص أن يقدم فى فترات معينة إلى النادى الذى يطعم فيه كميات محددة من الحبوب وغيرها من الطعام ؛ فإذا لم يقدمها حرم من حقوق المواطنين .

وكانت هذه البساطة فى المأكل والمشرب ، وكان هذا التقشف فى المعيشة ، اللذان يدرب عليهما الشاب الاسپارطى يمتدان فى القرون الأولى بعد وضع القانون إلى ما بعد سن الشباب . ولذلك كانت البدانة نادرة فى لسديمون ؛ نعم

إنهم لم يسنوا قانونا يحدد حجم المعدة ، ولكن إذا كبر بطن الرجل كبراً معيباً ، كان عرضة لأن تؤنبه الحكومة علنا على هذا الكبر أو أن تنفيه من لكونيا . ولم يكن في اسپارطة إلا القليل من السكر واللهو المنتشرين في أثينة ؛ وكان ثمة فروق حقيقية في الثروات ولكنها كانت فروقاً خفية ؛ فقد كان الأغنياء والفقراء يلبسون الثياب البسيطة نفسها — وهي قميص من الصوف يتدلى من الكتفين من غير تظاهر بجمال أو اختيار شكل معين له ؛ وكان الإكثار من الثروة المنقولة من أصعب الأمور ، وكان ادخار نقود حديدية تبلغ قيمتها نحو مائة ريال أمريكي يتطلب صندوقا كبيراً ، ولم يكن نقل هذا القدر من المال يحتاج إلى أقل من ثورين[٦٨] ، بيد أن الطمع الإنساني لم يكن معدوما ، وكان يجد له منفذاً في الفساد الرسمي ، ذلك أنه كان من المستطاع شراء الإفوربن ، وأعضاء مجلس الشيوخ ، والرسل ، وقواد الجيش ، والملوك بأثمان تتفق مع مكانتهم[٦٩] . ولما أن عرض سفير من جزيرة ساموس صحافة الذهبية في اسپارطة حتم الملك كليومنيس الأول استدعاءه منها لئلا يفسد مواطنوه بهذا المثل الأجنبي[٧٠] .

وكان نظام الحكم الاسبارطي ، لخوف الأهلين من هذه العدوى ، غير كريم في معاملة الأجانب إلى حد لم يسبق له مثيل . فقلما كان الأجانب يرحب بهم في البلاد ، وكانوا يفهمون عادة أن زياراتهم يجب ألا تطول ، فإذا طالت فوق ما يجب صحبهم رجال الشرطة إلى حدود البلاد . وكان يحرم على الاسپارطيين أنفسهم أن يخرجوا من بلادهم إلا بإذن من الحكومة ؛ كما كان يقلل من تشوفهم بتعويدهم العزلة المتعجرفة التي لا يحلمون معها أن في وسع غيرهم من الأمم أن تعلمهم شيئاً[٧١] ؛ وكان لا بد لهذا النظام أن يكون غير كريم إلى هذا الحد ليحمي بذلك نفسه ؛ لأن ريحاً تهب من هذا العالم المحرم عليهم ، عالم الحرية ، والترف ، والآداب ، والفنون ، قد تدك هذا النظام المصطنع العجيب الذي كان ثلثا الشعب فيه من الأقنان وكل السادة فيه من الرقيق .



٦ — ما لاسبارطة وما عليها

ترى أى طراز من الرجال وأى نوع من الحضارة أنتجهما هذا القانون ؟ فأما الرجال فكانوا أقوياء الأجسام ألفوا المشاق والحرمان . وقد قال عنهم احد السيباريين Sybarites المترفين إن الاسپارطيين « لا يمدحون على استعدادهم للموت فى ميدان القتال لأن موتهم هذا ينجيهم من كثير من العمل الشاق ومن الحياة البائسة »(٧٢) . وكانت صحة الجسم من الفضائل الرئيسية فى اسپارطة ، كما كان المرض جريمة فيها ؛ وما من شك فى أن أفلاطون قد سره أن يجد بلاداً خالية من الدواء ومن الدمقراطية . وكان الاسپارطى شجاعاً ؛ وما من أحد من الناس غير الرومان يضارعه فى ثبات جنانه وفى انتصاره فى الحروب ؛ وليس أدل على ذلك من أن بلاد اليونان كلها لم تكد تصدق ان الاسپارطيين قد استسلموا لأعدائهم فى اسفكتيريا Sphacteria ؛ ذلك أنه لم يسمع عنهم من قبل أنهم لم يحاربوا إلى آخر رجل فيهم ، وحتى الجندى الاسپارطى العادى كان يفضل الانتحار على الحياة بعد الهزيمة(٧٣) . ولما أن وصلت إلى آذان الإفورين أنباء هزيمة الاسبارطيين المنكرة فى لوكترا Leuctra — وكانت هزيمة ما حقه اختتم بها فى واقع الأمر تاريخ اسبارطة — وكانوا وقتئذ على رأس الألعاب الجمنوپودية ، لم ينطقوا بكلمة واحدة . وكل ما فعلوه أن أضافوا إلى سجل الموتى المقدسين الذين نالوا شرف الموت فى الألعاب أسماء القتلى الجدد . وكان من الصفات العادية التى يتصف بها كل مواطن اسپارطى ، والتى كان يكتب عنها الأثينيون ولكنهم قلما كانوا يتحلون بها ، كان من هذه الصفات ضبط النفس ، والاعتدال ، والهدوء والثبات فى السراء والضراء .

وإذ كانت إطاعة القانون فضيلة فقد كان الاسپارطى يفوق فى هذه الفضيلة سائر الناس . وفى ذلك يقول الطبيب دمراتوس Demaratus

لخشيارشاى : « إن اللسديمونيين ، وإن كانوا أحراراً ، ليسوا أحراراً فى كل شىء ، لأن القانون سيدهم الأعلى ، يخافونه أكثر مما يخافك شعبك »[٧٤] . وقل أن تجد شعباً غيرهم — مع جواز استثناء الرومان واليهود فى العصور الوسطى — كان احترامه لقوانينه سبباً فى قوته . وقد ظلت اسپارطة مائتى عام على الأقل تزداد قوة على قوة تحت دستور ليقورغ ، وهى وإن عجزت عن فتح أرجوس وأركاديا ، قد أقنعت جميع البلوپونيزيين أن يقبلوا زعامتها لحلف البلوپونيز الذى ساد بفضله السلام فى جزيرة پلوپس ما يقرب من قرنين كاملين (٥٦٠ — ٣٨٠ ق . م) . وكانت بلاد اليونان على بكرة أبيها تعجب بجيش اسپارطة وحكومتها ، وتتطلع إلى معونتها فى ثل عروش الطغاة الظالمين . ويحدثنا أكسانوفون عن « الدهشة التى عرتنى حين لاحظت أول مرة موقع اسپارطة الفذ بين دول اليونان ، وعدد سكانها القليلين بالنسبة لغيرها من الدول ، وقوة شعبها ومنزلته العالية بالرغم من هذه القلة . وقد حيرنى تعليل قوة هذا الشعب ومنزلة هذه الدولة ، ولم تزل هذه الحيرة إلا حين فكرت فى أنظمة الاسپارطيين العجيبة »[٧٥] . ولم يكن أكسانوفون يمل من الثناء على أساليب الاسپارطيين ، كما لم يكن أفلاطون وأفلوطرخس يملان من الثناء عليهم . ولا حاجة إلى القول بأن اسپارطة هى التى وجد فيها أفلاطون الخطوط الرئيسية لمدينته الفاضلة ، التى طمس معالمها بعض الشىء إغفاله العجيب للمثل العليا . ولقد كان كثيرون من المفكرين اليونان يعمدون إلى تمجيد نظام اسپارطة وشرائعها بعد أن ملوا ما فى الدمقراطية من انحطاط وفوضى وأوجسوا فى أنفسهم خيفة منهما .

والحق أنهم كانوا يستطيعون الثناء على اسپارطة لأنهم لم يضطروا إلى المعيشة فيها ، ولم يروا عن كثب ما فى أخلاق الاسپارطيين من أنانية ، وبرود ، وقسوة ، ولم يتبينوا ممن يرونهم من الصفوة التى التقوا بها منهم ، أو من الأبطال الذين يمجدونهم عن بعد ، أن الشرائع الاسپارطية كانت تخرج

جنوداً بواسل ولا شيء غير الجنود ، وأنها جعلت قوة الجسم وحشية مرذولة لأنها أماتت الكفايات العقلية كلها تقريباً . ذلك أنه لما أصبح لهذا القانون المقام الأول فى البلاد أصاب الموت فجاءة جميع الفنون التى ازدهرت قبل سيادته ، فلم نعد نسمع بعدئذ عن شعراء أو مثالين ، أو بنائين فى اسپارطة بعد عام ٥٥٠ ق . م(*) ، ولم يبق فيها إلا الرقص الجماعى والموسيقى لأن فيهما يمكن أن يتجلى النظام الاسپارطى وأن يختفى الفرد ويضيع فى المجموع . ولقد كان أثر حرمان الاسپارطين أن يتجروا مع العالم ومنعهم من الأسفار ، وجهلهم بعلوم بلاد اليونان وآدابها وفلسفتها الآخذة فى الظهور والنماء ، أن أصبحوا أمة من الجنود المشاة المدرعين الثقال ، لا ترقى عقليتهم فوق مستوى الذين قضوا فى هذه الجندية حياتهم كلها ؛ ولقد كان الرحالة اليونان يعجبون من هذه البسيطة الخالية من الرونق والبهاء ، ومن هذا القدر الضئيل المقيد من الحرية ، وهذه المحافظة الشديدة على كل عادة وكل خرافة ، وفى الشجاعة التى كانت موضع الإجلال ، وذلك النظام الصارم ، وهذا الخلق النبيل ، وذاك الغرض الدنىء الذى لا يؤدى إلى غاية . وعلى بعد لا يزيد على مسيرة يوم واحد على ظهور الجياد كان الأثينيون يشيدون من آلاف المظالم والأخطاء صرح حضارة واسعة المدى ، قوية فى أعمالها ، تتقبل كل فكرة جديدة ، حريصة على الاتصال بالعالم ، متسامحة ، متنوعة ، معقدة ، مترفة ، مبتدعة ، متشككة ، واسعة الخيال ، شعرية ، مشاغبة ، حرة . لقد كان ما بين أثينة واسپارطة من التناقض هو الذى صبغ التاريخ اليونانى بصبغته المعروفة ورسم خطوطه الرئيسية .

(*) لقد زين جتياداس Gitiadas هيكل أثينة بصفائح البرنز البديعة الصنع ، وشاد بالكليز Bathycles المجنيزى عرشاً فخماً لأپلو فى أمكل Amyclae كما شاد ثيودورس الساموسى جسراً كبيراً لمدينة اسپارطة ؛ وبعد هذا لا نكاد نسمع شيئاً عن الفن الاسپارطى حتى حل به قاتلين من خارجها .

ولقد قضى ضيق أفق اسپارطة فى آخر الأمر على ما لها من قوة نفسية ، ذلك أن نفسيتها قد انحطت حتى صارت ترتضى كل وسيلة تؤدى إلى غرض اسپارطى ، وبلغ من ذلتها فى آخر الأمر للغزاة أن باعت للفرس تلك الخربات التى كسبتها بلاد اليونان فى مراثون . لقد استحوذت عليها النزعة العسكرية وجعلتها سوط عذاب لجيرانها بعد أن كانت فى مكان الشرف منها ، ولما أن سقطت ، عجبت الأمم كلها من سقوطها ، ولكن ما من أمة حزنت لها . ولا نكاد اليوم نجد بين الأنقاض القليلة الباقية من هذه العاصمة القديمة نقشاً واحداً أو عموداً ملقى على الأرض يعلن للعالم أن اليونان كانوا فى يوم من الأيام يسكنون فى هذا المكان .

الفصل الرابع

الدول المنسية

يمتد وادى نهر يوروتس Eurotas فى شمال اسپارطة إلى جبال أركاديا المتجمعة بعد أن يجتاز حدود لكونيا . ولو أن هذه الجبال كانت أقل مما هى خطورة لكانت أكثر مما هى جمالا . ويلوح أنها لم ترحب بالطرق الضيقة التى نحتت فى منحدراتها الصخرية ، وأنها تهدد بقتامها كل من يحاول الاعتداء على هذه الملاجئ الأركادية المنعزلة ؛ فلا غرابة والحالة هذه إذا ضل فيها الفاتحون الدوريون والاسپارطيون وتركوا أركادية كما تركوا إليس وآخيا للسلالات الآخية والبلاسجية . ويعثر السائح فى أماكن متفرقة من هذا الإقليم على سهل أو هضبة ، كما يجد فيه مدناً جديدة زاهرة كمدينة تريبوليس Tripolis ، أو بقايا مدن قديمـــة كمدائن أركمنوس Orchomenos ، ومجالوبوليس Megalopolis ، وتيجيا Tegea ، ومنتينيا Mantinea حيث انتصر أپامينونداس ولاقى حتفه . ولكنها فى معظم أجزائها أرض يسكنها فلاحون ورعاة متفرقون يعتمدون على موارد مزعزعة غير ثابتة ، ويعيشون هم وماشيتهم على هذه التلال الضنينة ؛ ومع أن هذه المدائن قد استيقظت بعد مرثون لتستقبل الحضارة والفن ، فإن من الصعب أن نسلكها فى قصة الحضارة قبل الحرب الفارسية . وفى هذه الغابات ذات الأشجار العمودية كان يجول الإله پان فى وقت من الأوقات .

ويلتقى نهر يوروتس فى أركاديا الجنوبية بنهر آخر أوسع منه شهرة وهو نهر ألفيوس Alpheus . وهذا النهر يشق طريقه شقاً سريعاً خلال سلاسل الجبال البرهازية Parhasian ، ثم يمشى ببطء حتى يدخل سهول إليس ،

ويرشد السائح إلى أولمبيا . ويحدثنا بوزنياس بأن الإليانيين(٣٦) . كانوا من أصل إيولى أو بلاسجى جاءوا إلى إيتوليا بعد أن عبروا الخليج . وكان أول ملوكهم إيثليوس Aethlius والد إندميون Endymion الذى أغوى جماله القمر(*) فأغمضت عينيه وأرسلت عليه نعاساً سرمدياً ، وما زالت تضاجعه على مهل حتى ولدت منه مائة بنت . وفى هذا المكان الذى يلتقى فيه نهر ألفيوس بنهر كلاديوس Cladeus المقبل من الشمال كانت المدينة المقدسة للعالم اليونانى كله ؛ وقد بلغ من قدسيتها أن الحرب قلما أزعجتها ، ومن أجل ذلك نعم الإيليون Elians بتاريخ استبدلوا فيه الألعاب بالحروب . وفى الزاوية المحصورة بين النهرين كانت الألتيس Altis أو التخوم المباركة لمقر زيوس الأولمبى . وكانت موجات الغزاة المتتابعة تحط رحالها فى هذا المكان لتعبده ، كما كان مندوبون عن هؤلاء الغزاة يعودون إليه فيما بعد فى مواسم معينة ليسألوه العون ويغنوا مزاره بالنذور . وظلت ثروة هيكلى زيوس وهيرا وشهرتهما تزدادان جيلا بعد جيل حتى انتصر اليونان على الفرس فحشد أكابر المهندسين والمثالين اليونان ليعيدوا بناء الهيكلين ويزينوهما وينفقوا فى سبيل ذلك الأموال الطائلة اعترافاً بما كان لها من فضل فى هذا النصر . ويرجع تاريخ هيكل هيرا إلى عام ١٠٠٠ ق . م ، وآثاره أقدم ما بقى من آثار الهياكل فى بلاد اليونان جميعها . وقد بقى من هذه الآثار أجزاء من ستة وثلاثين عموداً وعشرين تاجاً دورياً تشهد بأن هذه العمد قد أقيمت المرة بعد المرة ، وأنها كانت تقام بأشكال مختلفة . ولا جدال فى أنها صنعت فى أول الأمر من الخشب . وكان جذع من أحدها وهو من شجر البلوط لا يزال قائماً حين أقبل بوزنياس على ذلك المكان ، وبيده كراسته ، فى أيام الأنطونيين.

وإذا ما غادر الإنسان أولمبيا مر بموضع إيليس العاصمة القديمة ودخل

(*) القمر فى القصة مؤنث وقد احتفظنا به كذلك حتى يستقيم المعنى .

آخيا التي فر إليها بعض الآخيين بعــد أن استولى الدوريون على أرجوس ومسينى ، وهي شبيهة بأركاديا فى أنها بلاد جبلية يرعى على منحدراتها الرعاة الصابرون قطعان الماشية ، ويصعدون إلى أعلاها أو ينزلون إلى سفلها فى فصول السنة المختلفة . ولا يزال ثغر پتراس القديم قائماً مزدهراً حتى الآن على الساحل الغربي ؛ وهذا الثغر هو الذى قال پوزنياس عن نسائه إنهن « ضعفا عدد الرجال ، وإنهن وفيات لأفروديتى إن كان فى النساء وفاء »[٢٧] .
وكانت هناك عدة مدن أخرى محتشدة فى غير نظام على طول خليج كورنثة — إجيوم Aegium ، وهليس Helice ، وإجيرا Aegira ، وپلينى Pellene ، وقد كادت كلها تصبح نسياً منسياً ولكنها كانت فى غابر الأزمان تعج بالرجال والنساء والأطفال ، وما من أحد منهم إلا كان مركز العالم .

الفصل الخامس

كورنثة

وبعد أن يخترق السائح عدداً آخر قليلا من الجبال يعـود إلى سكيون مستقر الدوريين . وفى هذه المدينة علم رجل يدعى أورثجراس Orthagoras العالم فى سنة ٦٧٦ حيلة ظل يلجأ إليها فيما بعد ذلك من القرون . فقد قال للفلاحين إنهم من نسل البلاسجيين أو الآخيين على حين أن الأشراف المالكين للأرض والذين يستغلونهم من نسل الغزاة الدوريين ، ثم أخذ يستثير نعرة غير المالكين العنصرية ، وتزعمهم فى ثورة موفقة ، ونصب نفسه حاكما بأمره عليهم ، ووضع السلطة فى أيدى طبقتى الصناع والتجار(*) . وأصبحت سكيون فى عهد خليفتيه العظيمين ميرون Myron وكليستنيز مدينة يشتغل نصف أهلها بالصناعة ، واشتهرت بأحذيتها وفخارها ، وإن كانت لا تزال تسمى باسم ما ينمو فيها من الخيار .

وإلى شرقها تقوم المدينة التى كان موقعها الجغرافى والاقتصادى خليقاً بأن يجعلها أغنى بلاد اليونان وأرقاها ثقافة . تلك هى مدينـة كورنثة ؛ وكان موقعها على الخليج المسمى باسمها مما تحسدها عليه سائر المدن اليونانية ؛ فقد كان فى مقدورها أن تغلق باب الطريق البرى الموصل إلى البلوبونيز ، وفى وسعها أن تيسر أسباب التجارة البرية بين شمالى بلاد اليونان وجنوبها ، أو أن تفرض عليها ما تشاء من الإتاوات . وكان لها موان وسفن على خليجى ساروس وكورنثة . وقد أنشأت بين هذين البحرين « مزلقاً للسفن »

(*) وهكذا فعل كامى ده مولن Camille Desmoulins فى عام ١٧٨٩ نقد حرض الغالبين من فوق دكته فى المقهى على طرد الأشراف الألمان .

(ديولكوس Diolcos) — أى طريقاً خشبياً تجر عليه السفن نحو أربعة أميال فوق الأرض على اسطوانات ، وربحت من وراء ذلك كثيراً من الأموال(*) .
وكان لها قلعة منيعة تدعى أكروكورنثس Acrocorinthus وهى قلة من قلل الجبال يبلغ ارتفاعها ألنى قدم ، ويغذيها بالماء نبع لا ينضب معينه أبداً . وقد وصف لنا استرابون المنظر الذى تقع عليه عين من يشرف على هذا المكان من القلعة ، والمدينة مبسوطة على سطحين مدرجين من تحتها ، والملهى المقام فى الهواء الطلق والحمامات العامة العظيمة ، والسوق ذات العمد ، والهياكل البراقة ، والأسوار التى تصد عنها الأعداء والتى تمتد إلى ميناء لكيوم Lechaeum على الخليج الشمالى . وكان على قمة الجبل نفسها هيكل لأفروديتى وكأنما أقيم ليرمز إلى صناعة من أهم صناعات المدينة(٨٠) .

وكان لكورنثة تاريخ يرجع فى قدمه إلى الأيام الميسينية ، واشتهرت المدينة فى أيام هومر نفسه بثروتها الطائلة(٨١) . وكان يحكمها بعد الفتح الدورى ملوك ، ثم تولى حكمها الأشراف تسيطر عليهم أسرة البكيادى Bachiadae ثم حدث فيها ما حدث فى أرجوس ، وسكيون ، ومجارا ، وأثينة ، ولسبوس ، وميليتس ، وساموس ، وصقلية ، وفى كل مكان راجت فيه التجارة اليونانية ، وهو استيلاء طبقة التجار ورجال الأعمال على السلطة السياسية بالثورة أو الدسائس . وهذا هو المعنى الحقيقى الذى يجب أن يفهم من قيام حكومات « الطغيان » أو الدكتاتورية فى بلاد اليونان فى القرن السابع قبل الميلاد . ففى عام ٦٥٥ استولى سيبسيلوس على مقاليد الحكم ، وكان قد نذر أن يخص زيوس بثروة كورنثة كلها إذا ما وصل إلى غرضه ، فلما تم له الأمر فرض

(*) وكان هذا المزلق طريقاً يرحب به التجار ويفضلونه على المياه الصاخبة القريبة من رأس ماليا Malea التى تعترض الطريق الذاهب إلى الجزء الغربى من البحر المتوسط . وكان الطريق الخشبى يقوى على حمل السفن التجارية المألوفة فى أيام اليونان . ولقد نقل أغسطس أسطوله على هذا الطريق وهو يطارد أنطونيوس وكليوبطره ، بعد معركة أكتيوم ، ونقل أسطول بوقاني بهذه الطريقة نفسها فى عام ٨٨٣(٧٨) م . وقد وضع پرياندر فى أيامه مشروعاً لحفر القناة التى تصل الخليجين ، ولكن مهندسيه رأوا هذا العمل فوق طاقتهم(٧٩)

على جميع أملاك المدينة ضريبة سنوية قدرها عشرة فى المائة من قيمتها ، ووهب ما تجمع منها للهيكل ، فلم تمض إلا عشر سنين حتى كان قد وفى بنذره وأبقى ثروة المدينة كما كانت من قبل[٨٢] . وقد وضع بحكمه المحبب المستنير الذى دام ثلاثين عاماً أساس رخاء كورنثة[٨٣] .

وكان حكم ولده القاسى پرياندر أطول حكم للطغاة فى تاريخ اليونان (٦٢٥ — ٥٨٥) . وقد أقر فيه الأمن والنظام ، ومنع استغلال الناس بعضهم بعضاً ، وشجع الأعمال التجارية والصناعية ، وناصر الآداب والفنون ، وجعل كورنثة زمناً ما أولى المدائن اليونانية ، ونشط التجارة بسك عملة رسمية[٨٤] ، كما نشط الصناعة بخفض الضرائب المفرضة عليها ، وحل مشكلة التعطل بإقامة طائفة من المبانى العامة وإنشاء المستعمرات فى خارج البلاد ؛ وحمى صغار رجال الأعمال من منافسة الشركات الكبرى بتحديد عدد الأرقاء الذين يجوز للرجل الواحد أن يستخدمهم فى أعماله ، وحرم استيرادهم بعد هذا التحديد[٨٥] ، وأنجى الأغنياء مما عندهم من الذهب الزائد على حاجتهم بأن أرغمهم على الاشتراك بذهبهم فى صنع تمثال ذهبى لتزدان به المدينة ؛ ثم دعا النساء ذوات المال فى كورنثة إلى حفلة كبرى ، جردهن فيها من أثوابهن الغالية وحليهن الثمينــة ، ثم أمرهن بالعودة إلى بيوتهن بعد أن أتم جمالهن . وقد خلقت له أعماله هذه أعداء كثيرين أقوياء ، فلم يكن يجرؤ على الخروج دون حرس كبير ، وكان لخوفه وعزلته نكداً قاسياً . وأراد أن يحمى نفسه من الثورات فعمل بالنصيحة الخفية التى أشار بها عليه زميله الطاغية تراسيبولس الميليتى ، وهى أن يقطع « القينة بعد القينة أطول ما فى الحقل[٨٦] من سنابل(*) » . وأخذت سراريه يوجهن التهم إلى زوجته ، حتى أثرن غضبه عليها ، فألقاها فى نوبة من نوبات هذا الغضب من فوق سلم القصر ، وكانت حاملا فماتت من شدة الصدمة ، فما كان منه إلا أن

(*) يريد بذلك أنه كان يعدم أقوى رجال الدولة (المترجم) . قارن ذلك بأعمال « التطهير » التى تحدث من آن إلى آن فى روسيا الشيوعية ١٩٣٥ — ٣٨ .

حرق السراري ونفى ابنه ليكفرون Lycophron إلى كرسيرا Corcyra لأنه حزن على أمه حزناً لم يطق معه أن يتحدث إلى أبيه . ولما أن قتل الكرسيريون ليكفرون قبض بريندر على ثلثمائة شاب من أشراف الأسر وأرسلهم إلى ألياتس Alyattes ملك ليديا ليتخذهم خصياناً ، ولكن السفينة التي أقلتهم مرت بساموس ، فما كان من أهلها إلا أن أطلقوا سراح الشبان متحدين بعملهم هذا بريندر غير عابئين بغضبه . وعمر هذا الطاغية طويلا وعده البعض بعد موته من السبعة الحكماء فى بلاد اليونان القديمة(٨٧) .

وثل الاسبارطيون بعد جيل من وفاته عرش الطغاة فى كورنثة ، وأقاموا مكانهم حكم الأشراف — ولم يكن ذلك لأن اسبارطة تعشق الحرية ، بل لأنها كانت تفضل طبقة الملاك على طبقات رجال الأعمال . بيد أن ثروة كورنثة كانت تقوم على التجارة يعينها من حين إلى حين أتباع أفرديتى والألعاب الهيلينية التى كانت تقام فى برزخ كورنثة . وكانت العاهرات كثيرات فى المدينة إلى حد جعل اليونان يطلقون اسم كورنثيازوماى Corinthiazomai على العهر نفسه (٨٨) . وكان من العادات المتبعة فى كورنثة أن تخصص إلى هيكل أفرديتى نساء يحترفن فيه الدعارة ويأتين بأجورهن إلى الكهنة . وقد وصل إلى علمنا أن رجلا يدعى أكسانوفون (وهو غير أكسانوفون قائد العشرة الآلاف) وعد الإلهة خمسين عظاية إذا أعانته على النصر فى الألعاب الأولمبية . ويشير پندار الشاعر التقى إلى هذا النذر وهو يشيد بهذا النصر دون حياء أو اشمئزاز(٨٩) . ويقول استرابون إن « هيكل أفرديتى قد بلغ من الثروة أن كان له أكثر من ألف عبد من عبيد الهياكل ، وعاظ وهبهن الرجال والنساء للهيكل ؛ وبفضل أولئك النسوة ازدحمت المدينة بالناس وعظمت ثروتها ؛ من ذلك أن قادة السفن كانوا ينفقون أموالهم فى المدينة بلا حساب » . وكانت المدينة تشكر لهن حسن صنيعهن وتنظر إلى « أولئك السيدات الكريمات » نظرتها إلى المحسنين للشعب . وفى ذلك يقول

مؤلف قديم نقل عنه أثينيوس Athenayus : « من العادات القديمة فى كورنثة ، كلما أرادت المدينة أن توجه دعاء إلى أفروديتى . . . ، أن تستعين بأكبر عدد مستطاع من المحاظى ليشتركن فى هذا الدعاء » . وكان لهؤلاء المحاظى عيد دينى خاص بهن هو عيد الأفروديزيا Aphrodisia يحتفلن به احتفالا فخما محوطاً بضروب التقى والصلاح(٩٢) . وقد ندد القديس بولس فى رسالته الأولى إلى الكورنثيين(٩٣) بأولئك النسوة اللائى ظللن يمارسن حرفتهن فى المدينة إلى أيامه .

وكان يسكن كورنثة فى عام ٤٨٠ ق م خمسون ألفا من المواطنين وثلاثون ألفا من الأرقاء ، وهذه النسبة بين الأحرار والعبيد عالية علوا غير مألوف فى المدن اليونانية(٩٤) . وكان اقتناص اللذة والذهب هم جميع الطبقات ، يستنفد كل جهودهم فلا يبقى منها ما ينفقونه فى الأدب والفنون إلا القليل . نعم إننا نسمع فى القرن الثامن عشر عن شاعر يدعى يوملوس Eumelus ولكن الأدب اليونانى قلما يزدان بأسماء كورنثية . وكان بريندر يرحب بالشعراء فى بلاطه واستقدم أريون Arion من لسبوس لينظم شئون الموسيقى فى كورنثة . واشتهر فخار المدينة وبرنزها فى القرن الثامن ؛ وكان من يعملون فى طلاء مزهرياتها فى القرن السادس أرقى أهل هذا الفن فى بلاد اليونان كلها . ويحدثنا بوزنياس عن صندوق عظيم من خشب الأرز اختفى فيه سپسيلوس Cypselus من البكياديين وحفر فيه الفنانون نقوشاً ظريفة ورصعوه بالعاج والذهب(٩٥) . والراجح أن عصر بريندر هو الذى أقامت فيه كورنثة لأپلو هيكلا دوريا اشتهر بأعمدته السبعة المنحوت كل واحد منها من حجر واحد . ولا تزال خمسة من هذه الأعمدة قائمة إلى يومنا هذا توحى بأن كورنثة قد تكونُ أحبت الجمال فى أكثر من صورة واحدة . ولربما كان الدهر والمصادفات قد ظلما هذه المدينة فلم يوفياها حقها من الشكر لأن تاريخها دونه رجال لا يدينون لها بولاء ولا يعترفون لها بفضل ، ولو أتيح للماضى أن يطلع على ما كتب عنه فى صحف المؤرخين لعجب مما يرى أشد العجب .

الفصل السادس

مجـــارا

لم تكن مجارا أقل حباً للذهب من كورنثة ، وكانت التجارة عماد ثروة الأولى كما كانت عماد ثروة الثانية ، لكنها تختلف عنها فى أنها كان لها شاعر عظيم نحيا تلك المدينة القديمة فى شعره ، كأن ما قام فيها من الثورات هى بعينها الثورات التى قامت فى بلادنا . وكانت المدينة تقع عند مدخل البلوپونيز نفسه ، وكان لها مرفأ على كلا الخليجين ، ومن أجل هذا كان موقعها يمكنها من أن تساوم الجيوش المغيرة على تلك البلاد ، وتفرض المكوس على التجارة ؛ وقد أضافت إلى هذه التجارة صناعة للنسيج مزدهرة يشتغل بها رجال ونساء كانوا يسمون بلغة تلك الأيام الصادقة عبيداً . وقد بلغت المدينة أوج ازدهارها فى القرنين السابع والسادس حين كانت تنازع كورنثة تجارة البرزخ ؛ وهذا هو العهد الذى أنشأت فيه مستعمرات لها كانت بمثابة محطات تجارية انتشرت ما بين بيزنطية على البسفور حتى مجارا هبليا Megara Hyblaea فى صقلية ، وازدادت الثروة فى المدينة زيادة مطردة ؛ ولكنها تجمعت فى أيدى طائفة قليلة برعت فى جمعها وبقيت جمهرة الشعب مكونة من أقنان معدمين بين أقلية موفورة الثراء ،[٩٦] يستمعون إلى الدعاة الذين يمنونهم بعيش أرخى وحياة أنعم من عيشهم وحياتهم . وفى عام ٦٣٠ قرر ثياجينز Theagenes أن يصبح طاغية فيها ، فأخذ يتملق الفقراء ويندد بالأغنياء ، ثم قاد جماهير الغوغاء الجياع إلى مراعى الأغنياء أصحاب الأنعام ، وأفلح فى حمل العامة على أن يؤلفوا له حرساً خاصاً ، فلما تألف ضاعف عدده ، واستعان به على إسقاط الحكومة القائمة[٩٧] . وحكم ثياجينز مجارا

نحو ثلاثين عاماً حرر فى أثنائها الأقنان ، وأذل الأقوياء ، وناصر الفنون ؛ ولكن أغنياء المدينة أنزلوه عن العرش حوالى عام ٦٠٠ ؛ ثم قامت ثورة ثالثة أعادت الدمقراطية الشعبية ، وصادرت أملاك زعماء طبقة الأشراف ، واستولت على بيوت الأغنياء ، وألغت الديون ، وأصدرت قراراً يحتم على أصحاب الأموال أن يردوا إلى المدينين ما استولوا عليه من فوائد عن قروضهم(٩٨) .

وكان ثيوجنيز Theognis حياً خلال هذه الثورات كلها ، وقد وصفها فى قصائد مليئة حقداً تصلح لأن تكون وصفاً لحرب الطبقات عندنا فى هذه الأيام . ويقول عن نفسه (وهو مرجعنا الوحيد فى هذا الموضوع) إنه من أبناء أسرة قديمة شريفة . وما من شك فى أنه قد نشأ نشأة منعمة راضية ، لأنه كان مرشداً ، وفيلسوفاً ، وعاشقاً لشاب يدعى سيرنس Cyrnus أصبح فيما بعد زعيم حزب الأشراف ؛ وهو يسدى سيرنس هذا كثيراً من النصح ، ولا يطلب إليه فى نظير هذا إلا أن يحبه . وهو يشكو الصد كما يشكو سائر المحبين ، وأجمل ما بقى من قصائده قصيدة يذكر فيها سيرنس بأنه لن يخلد اسمه إلا شعر ثيوجنيز :

هأنذا قد جعلت لك جناحين تطير بهما
فوق البحر والأرض اللذين لا آخر لها ؛
وسيتردد اسمك على ألسنة الكثيرين ،
وستكون رفيقاً لهم فى مآدبهم وفى مرحهم .
وسيأمرك الشبان الذين يحبونك أن
تطربهم بالناى الفض ذى الصوت الشجى ؛
وإذا ما ذهبت إلى أطباق الثرى المظلمة ،
إلى مستقر الموتى الذى يبعث الأسى فى القلوب ،
فلن ينقطع اتصالك بالمجد والشرف
بل سوف تجول فى الآفاق اسماً مخلداً ،

سيرنس ، يتردد فى بحار بلاد اليونان وسواحلها ،
يعبر البحر المجدب من جزيرة إلى جزيرة
ولن تكون فى حاجة إلى الخيل ، بل سوف تنطلق بخفة
تحملك ربات الشعر ذوات التاج البنفسجى .
وسيولع بذكرك كل من يولع بالغناء ،
أجل ، لقد جعلت لك جناحين ، ولم أنل منك
فى نظير هذا إلا السخرية التى تتلظى كالنار بين أضاعى[٩٩]

وهو ينذر سيرنس بأن مظالم الأشراف قد توقد نيران الثورة فيقول

إن الليالى حبالى ، وستلد عما قريب
من ينتقمون لهذا الفساد الطويل الأمد .
إن العامة ليظهرون حتى الآن بمظهر الاعتدال ،
ولكن سادتهم فاسدون عمى العيون .
وحكم النفوس النبيلة ، الباسلة العالية ،
لم تعرض السلام والانسجام للخطر فى يوم من الأيام ؛
أما التشامخ والغطرسة والادعاء الكاذب
من ذوى العقول الصغيرة ، والضعف والوقاحة ،
واغتصاب العدالة والحق والقانون ،
والعبث بها بالحيلة والطمع والكبرياء ،
أما هذا كله فهو الطريق الذى سيؤدى بنا إلى الخراب .
وحذار أن تحلم يا سيرنس
(وإن بدت الدولة هادئة غير مضطربة)
أن ستكون الدولة فى مستقبلها متمتعة بالسلام والأمن ،
بل سيعقب هذا الهدوء الظاهر ،

عاجلاً كان ذاك أو آجلا ، الدم المراق والنزاع (١٠٠)(*) .

وشبت نار الثورة فعلا ؛ وكان ثيوجنيز من بين من نفتهم الدمقراطية المنتصرة من البلاد وصودرت أملاكه . فترك زوجته وأطفاله فى رعاية بعض أصدقائه ، وأخذ يتنقل من دولة إلى دولة — من عُوبية ، إلى طيبة ، إلى اسپارطة ، إلى صقلية ؛ وكان يجد فيها بادئ الأمر الطعام والحفاوة جزاء له على شعره ، ثم حل به بعدئذ ما لم يتعوده من ضنك شديد . وأنطقه غيظه بتلك الأسئلة يوجهها إلى زيوس ، وما أشبهها بالأسئلة التى يوجهها أيوب إلى يهوه :

طوبى لك يا جوف يا ذا الحـول والطول ! إنى أنظر إلى العالم وأنا مندهش غاية الدهشة ، متحير من أساليبك فيه . . . يا عجباً كيف ينطبق فعلك فيه على إدراكك للحق والباطل إذا كنت توزع نعمك على الصالح والطالح على حد سواء ؟ وإذن فكيف يعرف الناس كنه شرائعك أو يدركون معناها ؟(١٠١) .

ويصب جام غضبه على زعماء الدمقراطيـــة ويرجو زيوس الإله الذى تخفى على الناس طرائقه أن ينعم عليه بشرب دمائهم(١٠٢) . وهو يشبه مجازا بسفينة استبدل بقائدها ملاحـــون عاجزون لا يعرفون قيمة النظام فى العمل(١٠٣) ، وتلك على ما نعلم هى أول مرة يستخدم فيها هذا التشبيه . ويقول إن بعض الناس أقدر من غيرهم بفطرتهم ، وإن الأرستقراطية فى صورة من الصور نظام لا بد منه ؛ وهكذا نرى أن الناس فى ذلك العهد القديم قد تبينوا أن الأغلبية لا تحكم قط . وهو يستخدم لفظ الأخيار hoi agathoi بمعنى الأشراف ، ولفظ الأشرار أو الأراذل أو المنحطين hoi kokoi بمعنى السوقة . ويقول إن هذه الفروق المتأصلة لا يمكن

(*) إن نسبة هذه القصيدة والقصائد التى سيرد ذكرها فيما بعد إلى فترات معينة فى حياة ثيوجنيز ظنى محض .

استئصالها ؛ « وإن الرجل الشرير لا يمكن أن يصبح صالحا مهما علمته »[١٠٥] . — وقد يكون كل الذى يعنيه بقوله هذا أنه ما من تعليم يستطيع أن يجعل السوقى أرستقراطياً ، وهو ككل المحافظين الخلّص يحرص أشد الحرص على نقاء النسل ويقول « إن ما فى العالم من شرور ليس ناشئاً من شره الأخيار بل من سوء اختيارهم لأزواجهم ومن ضعف خصبهم[١٠٦] » .

وهو يدبر مع سيرنس ثورة جديدة مقاومة للثورة السابقة ؛ ومن رأيه أن الإنسان ، وإن أقسم يمين الولاء للحكومة الجديدة ، يجوز له أن يغتال الحاكم المستبد الظالم ؛ ويتعهد بأن يعمل مع رفاقه حتى ينتقموا لأنفسهم من أعدائهم أشد انتقام . لكنه بعد أن قضى فى النفى والعزلة كثيرا من السنين يرشو موظفاً من الموظفين ليمكنه من العودة إلى مجارا[١٠٧] . ثم تشمئز نفسه من نفاقه هذا وينشد أبياتاً من الشعر يعبر فيها عن يأسه ، وهى أبيات يكررها مئات من اليونان :

ليس فى العالم نعمة
أحسن من ألا يولد الإنسان أو لا يرى الشمس !
ويليها أن يدركه الموت عاجلا
ويدفن تحت أطباق الثرى[١٠٨] .

وتراه فى آخر حياته فى مجارا رجلا طاعناً فى السن مهشما ، وقد أخذ على نفسه ألا يكتب شيئاً فى السياسة ليضمن بذلك سلامته . ويجد سلواه فى الخمر وفى زوجة صالحة[١٠٩] ، ويحاول جهده أن يتعلم أخيراً أن كل شىء طبيعى ممكن أن يغتفر .

تعلم ، ياسيرنس ، تعلم أن تكون هادئ العقل ؛
ووفق بين مزاجك وبين الجنس البشرى والطبيعة البشرية ،

وخذ تلك الطبيعة كما تجدها ،

فهي مزيج من العناصر فيه الطيب وفي الخبيث —

هكذا خلقنا كلنا ، وليس في الإمكان أبدع مما كان .

فخير الناس لا يخلون من نقص ، ومن بقي منهم

حين يراد الانتفاع بهم لا يقلون عن خيارهم .

ولو أن الأمر كان على عكس هذا

لما أمكن أن تسير شئون العالم[١١٠] !

الفصل السابع

إيجينا وإبدورس

لقد رفعت الزلازل أو خلفت وراءها فى عرض الخيج الممتد من مجارا إلى كورنثة جزيرة من أقدم الجزائر المنافسة لهاتين البلدتين فى الصناعة والتجارة ، وهى جزيرة إيجينا حيث نشأت فى أيام ميسينى مدينة عامرة كشف فى مقابرها كميات كبيرة من الذهب[١١١] . وقد وجد القادمون الدوريون أرض الجزيرة جدباء مستعصية على الزراعة ولكنها جد صالحة للتجارة . ولما غزا الفرس بلاد اليونان لم تكن فى الجزيرة إلا أرستقراطية من التجار الحريصين على أن يبيعوا المزهريات الرائعة والآنية البرنزية التى يصنعونها فى حوانيتهم ، ليشتروا بها العبيد الذين كانوا يستوردون منهم عدداً كبيراً ليعملوا فى المصانع ، أو ليبيعوها للمدن اليونانية . وقد قدر أرسطو حوالى عام ٣٥٠ ق د م سكان إيجينا بنصف مليون منهم ٤٧٠ر٠٠٠ من العبيد[١١٢] . وفى هذه المدينة وسكت أول عملة يونانية ، وبقيت الموازين والمكاييل الإيجينية هى الموازين والمكاييل الرسمية فى بلاد اليونان إلى أيام الفتح الرومانى .

ولقد عرف أن هذه البيئة التجارية يمكن أن تتحول من الاهتمام بالثراء إلى الاهتمام بالفن حين كشف أحد الرحالة فى عام ١٩١١ فى كومة من المخلفات التماثيل الجميلة القوية التى كانت تزدان بها فى وقت من الأوقات قوصرة هيكل أفئيا Aphaea . أما الهيكل نفسه فقد بقى منه اثنان وعشرون من الأعمدة الدورية تحمل فوقها عوارضها . وأكبر الظن أن أهل إيجينا قد

شادوا هذا المعبد قبيل الحرب الفارسية ، وذلك لأن فى التماثيل شواهد كثيرة من الطرز نصف الشرقى العتيق وإن كانت هندسة البناء من الطراز ليونانى . غير أننا لا نستطيع أن نجزم بهذا ، فربما كان الهيكل قد شيد بعد سلاميس لأن التماثيل التى تصور الإيجينيين يهزمون الطروادين قد تكون مجرد رمز للنزاع الدائم بين بلاد اليونان والشرق ، وإلى النصر الذى أحرزه الأسطول اليونانى من عهد قريب على مرأى من إيجينا فى سلاميس ، وقد أمدت الجزيرة الصغيرة ذلاء الأسطول بثلاثين سفينة منح اليونان إحداها بعد النصر الجائزة الأولى من جوائز الشجاعة .

ويستطيع السائح بعد رحلة بحرية ممتعة أن ينتقل من إيجينا إلى إپدورس ، وهى الآن قرية لا يزيد سكانها على خمسة نسمة ، ولكنها كانت فى وقت من الأوقات من نهر أشهر المدن فى بلاد اليونان ؛ فقد كان فيها ، أو على الأصح على بعد عشرة أميال منها ، فى أخدود ضيق بين أعلى الجبال وبين شبه جزيرة أرجوس ، الموطن الرئيسى لأسكلپيوس Asclepius إله الشفاء وبطله . وقد خاطبه أپلو نفسه على لسان الوحى فى دلفى بقوله : « أى اسكلپيوس يا من ولدت لتكون مصدر السرور للخلق أجمعين ، يا وليد الحب يا من أنجبتك لى كورونيس الجميلة عند إپدورس الصخرية »[١١٣] . ولقد بلغ من شفاهم إسكپيوس من الكثرة حداً جعل پلوتو إله الجحيم يشكو إلى زيوس — وخاصة بعد أن أحيا رجلا من الموت — أنه لا يكاد أحد يموت . وتحير زيوس فى أمره ، ولم يدر ما يفعل بالجنس البشرى إذا لم يكن مآلهم الموت ، فأرسل على أسكلپيوس صاعقة أهلكته[١١٤] . لكن الناس اتخذوه إلهاً منقذاً وعبدوه فى تساليا أولا ثم فى بلاد اليونان بعدئذ ، وشادوا له فى إپدورس أعظم تماثيله ، وهناك أنشأ الكهنة الأطباء ، الذين سموا على اسمه بالأسكلپياويين ، مصحة اشتهرت فى بلاد اليونان جميعها بنجاحها فى علاج الأمراض . وأصبحت إپدورس فيما بعد لوردِس Lourdes اليونان ، يحج



إليها الناس من جميع بلاد البحر المتوسط ، ينشدون فيها نعمة الصحة التى يعدها اليونان أعظم النعم جميعها . وكانوا ينامون فى الهيكل ، ويتبعون بدقة النظام الذى يفرض عليهم ، ويسجلون شفاءهم الذى يعتقدون أنه من المعجزات الإلهية على ألواح من الحجر لا تزال باقية فى أماكن متفرقة بين خربات الأيكة المقدسة . ومن الأجور والهدايا التى كانت تجمع من هؤلاء المرضى شادت إيدورس دار تمثيلها وملعبها ، ولا تزال مقاعدهما ومراميهما باقية إلى اليوم بالقرب من التلال المجاورة لها ؛ وقبابها المرفوعة على العمد والتى تعد بقاياها المحفوظة فى متحف المدينة الصغير من أروع قطع الرخام المنقوش فى بلاد اليونان . ويذهب اليوم أمثال هؤلاء المرضى إلى تنوس Tenos فى السكلديس حيث يعالجهم قساوسة الكنيسة اليونانية(١١٥) كما كان قساوسة أسكلبيوس يعالجون أسلافهم منذ ألفى عام وخمسمائة . أما القُلَّة القائمة التى كان أهل إيدورس يقربون عليها القرابين إلى زيوس وهيرا فقد أضحت الآن جبل سانت الياس St. Elias المقدس . إن الآلهة تموت ولكن التقى والصلاح مخلدان .

وليس أعظم ما يحرص العلماء على مشاهدته فى إيدورس هو خرائب أسكلبيوم التى سويت بالأرض . فالمكان كثير الأشجار وليس فى وسع السائح أن يرى الملهى الكامل الذى جاء لمشاهدته حتى يصل إلى منعطف فى الطريق يبسطه أمامه عند سفح الجبل على هيئة مروحة ضخمة من الحجارة . ولقد شاده پوليكليتوس الأصغر فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ولكنه لا يزال باقيا إلى اليوم ، ويكاد يكون كاملا لم ينقص منه شىء . وإذا وقف السائح فى وسط المرقص (الأركستر Orchestra) وهو مكان رحب مستدير مرصوف بالحجارة ، وأبصر أمامه أربع آلاف مقعد فى صفوف متراصة يعلو بعضها وراء بعض ، وقد نظمت تنظيما رائعا بحيث يكون كل مقعد منها مواجها له ، وإذا ما تتبع بنظراته الممرات المتشعبة التى ترتفع ارتفاعا

سريعا فى خطوط مستقيمة من المسرح إلى سفح الجبل من ورائه ، وتحدث بصوت خافت إلى أصدقائه الجالسين على أبعد المقاعد وأعلاها على مسافة مائتى قدم منه ، وأيقن أن كل كلمة نطق بها قد سمعها هؤلاء الأصدقاء وفهموها ، إذ ما فعل هذا تمثلت له إپدورس فى أيام عزها ورخائها ، وصور له خياله الجموع الهائلة مقبلة حرة مرحة من كل مدينة ومزار لتستمع إلى يوريپديز ، وسرى فى نفسه إحساس ، أقوى من أن يعبر عنه بلسانه ، بحياة الهواء الطلق البهجة التى كان يستمتع بها اليونان الأقدمون ٠

———

الباب الخامس
أثينــــة

الفصل الأول

بؤوتية هزيود

يتفرع الطريق في شرق مجارا – فيتجه جنوباً إلى أثينة وشمالا إلى طيبة . والطريق الشمالي جبلي وعر يؤدي بالمسافر إلى مرتفعات جبل سيثرون Cithaeron ، وإذا نظر المسافر نحو الغرب رأى من بعيد جبل پرنسس Parnassus . ومن وراء هذا الجبل تقوم مرتفعات أقل منه ، ومن بعدها يتبسط سهل بؤوتية الخصيب . وعند سفح التل تقوم پلاتية حيث أفنى مائة ألف من اليونان ثلثمائة ألف من الفرس . وإلى غربها قليلا نجد لوكترا Leuctra حيث كسب أپامينونداس أول نصر عظيم له على الاسپارطيين . وإلى غرب لوكترا بقليل يرتفع جبل هليكون Mt. Helicon موطن ربات الشعر «وهبكرين الحيية» التي تغنى بها كيتس Keats ، وهي الينبوع الذائع الصيت ، ينبوع الجواد الذي تؤكد لنا الأساطير أنه نبع منه الماء حين ضرب پجسوس Pegasus الجواد المجنح الأرض بقدمه وهو يصعد إلى السماء[1] . وإلى شمال هذا النبع مباشرة تقوم مدينة ثسبيا التي لا ينقطع النزاع بينها وبين طيبة ، وبالقرب منها يوجد النبع الذي أبصر فيه نارسس خياله – أو خيال أخته الميتة التي كان يحبها على ما جاء في قصة أخرى[2] .

وفي بلدة أسكرا Ascra الصغيرة بالقرب من ثسبيا كان يعيش ويكدح الشاعر هزيود الذي لا يعلو عنه في حب اليونان الأقدمين إلا هومر وحده .

وتقول الرواية المتواترة إن هذا الشاعر ولد فى عام ٨٤٦ وتوفى فى عام ٧٧٧ ، ولكن بعض العلماء المحدثين يؤخرون تاريخه إلى حوالى ٦٥٠[٣] ، وأكبر ظننا أنه عاش قبل التاريخ الأخير بمائة عام[٤] . وكان مولده فى سيمى Cyme من أعمال إيوليا فى آسية الصغرى ، ولكن والده حاقت به الفاقة فيها فهاجر إلى أسكرا التى يصفها هزيود بأنها « بائسة فى الشتاء ، لا تطاق فى الصيف ، وليس فيها خير فى وقت من الأوقات »[٥] — كمعظم الأماكن التى يعيش فيها الناس . وبينا كان هزيود الغلام الراعى والعامل فى المزرعة يسير وراء قطعانه على سفوح جبال هليكون صاعداً تارة ونازلا تارة أخرى خيل إليه أن ربات الشعر قد نفثت فى جسمه روح الشعر فأخذ يكتبه ويغنيه ويكسب الجوائز فى المباريات الموسيقية[٦] ، ويقول البعض إنه فاز على هومر نفسه[٧] .

وإذ كان ككل شاب يونانى مولعاً بعجائب الأساطير ، فقد كتب(*) أنساباً للآلهة عندنا منها ألف بيت غث تسرد أسر الأرباب وملوكهم ، وهى أنساب لا غنى عنها فى الدين كما أن أنساب الملوك لا غنى عنها فى التاريخ . وقد تغنى فى بادئ الأمر بربات الشعر نفسها لأنها كانت جاراته على تل هليكون إذا جاز القول بأن الآلهة يجاورون الآدميين ، وقد صور له خيال الشباب أنه يكاد يراها « ترقص بأقدامها الدقيقة » على سفح الجبل ، و « تغسل جلدها الرقيق » فى الهبكرين[٧] . ثم وصف بعدئذ مولد العالم — لا خلقه — فأخذ يقص علينا كيف ولد إله من إله حتى ضاق أولمبس بالآلهة . ويقول إنه فى بادئ الأمر عماء ثم « كانت بعدئذ الأرض العريضة الصدر المقر الثابت الأمين لجميع الآلهة المخلدين » ؛ وكان الآلهة فى الدين اليونانى يعيشون إما على ظهر الأرض أو فى باطنها ، وهم على الدوام قريبون من الناس ،

(*) هذا ما كان يعتقده جميع الكتاب الأقدمين ما عدا بعض الأدباء البؤوتيين عن عاشوا فى القرن الثانى بعد الميلاد ، وهؤلاء يرتابون فى أن هزيود هو مؤلف هذه الأنساب .

ثم جاء بعدئذ طرطروس Tartarus إله العالم السفلى ثم جاء بعده إروس Eros أو الحب « أجمل الآلهة » كلهم[١٠] . وولد للعماء Chaos الظلمة والليل وولد لهذين الأثير Ether والنهار ؛ وولدت الأرض الجبال والسماء ؛ وولد من اقتران السماء والأرض الأقيانوس Oceanus أى البحر . والمؤلفون الإنجليز يبدءون هذه الأسماء بالحروف الكبيرة Capitals ولكن هذه الحروف لم يكن لها وجود فى اللغة اليونانية أيام هزيود ، ومبلغ علمنا أنه لم يكن يقصد بهذا كله أكثر من أن العالم فى بادئ الأمر كان عماء ، ثم نشأت الأرض وما فى باطنها ، والليل والنهار والبحار ، وأن الشهوة هى التى أوجدت كل شىء ولعل هزيود كان فيلسوفاً ألهم الشعر فأخذ يجسد المعانى المجردة وينشئ منها شعراً ؛ وقد لجأ إمبدقليز إلى تلك الأساليب نفسها بعد مائة عام أو مائتين فى صقلية[١١] . وليس بين هذا القصص الدينى وبين فلسفة الأيونيين الطبيعية إلا خطوة واحدة .

ويكثر فى أساطير هزيود الهولات والدماء وهو لا يتحرج من أن يعزو إلى الآلهة أفحش الصلات الجنسية . وقد نشأ من تزاوج السماء (أورانوس) والأرض (جى أوجيا) جنس من الجبابرة (Titans) لبعضهم خمسون رأساً ومائة يد . ولم يكن أورانوس يحبهم فقذف بهم إلى طرطروس المظلمة . ولكن الأرض ساءها هذا فعرضت عليهم أن يقتلوا أباهم . وقام كرونس أحد الجبابرة بهذه المهمة . فابتهجت « جى الضخمة بهذا العمل وأخفته فى كمين ؛ ووضعت فى يده منجلا ، مثلم الأسنان ، وأوحت إليه بالخطة التى يسير عليها . ثم جاء السماء الواسع وأحضر معه الليل (Erebus) ، وكان السماء محباً ولهاً فاحتضن الأرض وامتد حولها فى جميع الجهات » . فلما رأى كرونس ذلك بتر قضيب أبيه وألقى باللحم المقطوع فى اليم ، ونشأت من نقط الماء التى سقطت على الأرض آلهة الانتقام (Furies) ؛ ومن الزبد الذى

تكون حول اللحم وهو طاف فوق الماء نشأت أفروديتى(*)[١٢] . واستولى الجبابرة على أولمبس ، وأنزلوا أورانوس (السماء) عن عرشه ورفعوا عليه كرونس . وتزوج كرونس بأخته ريا Rhae ، ولكن أبويه الأرض والسماء كانا قد تنبأا بأن أحد أبنائه سيقتله ، فابتلعهم كرنس جميعاً ما عدا زيوس ، الذى ولدته ريا سرا فى كريت . فلما شب زيوس خلع كرونس وأرغمه على أن يخرج أولاده من بطنه . وأعاد الجبابرة إلى باطن الأرض قوة واقتداراً[١٣] .

هذه هى الطريقة التى ولدت بها الآلهة وهذه هى أساليبهم كما جاء فى أقوال هزيود . وهنا نجد قصة پروميثيوس البعيد النظر ، جالب النار ؛ ونجد كذلك فجور الآلهة الكثير الممل ، وهو الفجور الذى استطاع به كثير من اليونان أن يصلوا بأنسابهم إلى هؤلاء الآلهة — ولم يكن الإنسان ليظن أن الشعر الذى يروى هذا الفجور سيكون شعراً مملا خالياً من الروعة إلى هذا الحد . ولسنا نعرف كم من هذه الأساطير كانت هى القصص الشعبى الذى نشأ فى ثقافة بدائية تكاد أن تكون همجية ، وكم منها من تأليف هزيود نفسه ، ولسنا نجد فى صحف هومر الطيبة إلا القليل من هذه الأساطير . ولربما كان بعض الفساد الذى غمرت فيه هذه القصص آلهة جبل أولمبس فى أيام النقد الفلسفى والتطور الأخلاقى ربما كان هذا البعض من خيال شاعر أسكرا القاتم النكد .

وينزل هزيود فى القصيدة الوحيدة التى لا يجادل أحد فى أنها من شعره من قلل أولمبس إلى السهول فيكتب شعراً زراعياً قوياً فى وصف حياة الفلاح . وتلك هى قصيدة الأعمال والأيام وهى عتاب طويل ونصيحة إلى أخيه پرسيوس ، وقد صوره فيها بصورة غريبة تحمل على الظن بأن هذا الأخ لا يعدو أن يكون تجسيداً أدبياً لمعنى تخيله الشاعر . وهو يقول فى مطلع

(*) واللفظ مشتق من أفروس Aphros الزبد . أما المقطع الأخير فى الكلمة dite فلا يعرف أصله على وجه التحقيق .

القصيدة : « والآن سأتحدث إليك أيها الأخ الأبله پرسيوس ولا أبغى من حديثى إلا الخير لك[١٤] » . ويقول لنا هزيود إن پرسيوس هذا قد خدعه واغتصب منه بعض ميراثه ؛ ثم يحدثنا بعد هذا الاغتصاب حديثاً هو أول موعظة معروفة فى التاريخ تصف فضيلة الجد وكرامته ، وتقول إن الشرف والكدح أوفر كرامة وأدل على الحكمة من الرذيلة والترف والخمول : « إن من أيسر الأمور لك أن تختار الرذيلة وأن تختار منها أكداساً مكدسة ؛ لأن الطريق إليها معبد ومقامها جد قريب . ولكن الآلهة المخلدين قد أقاموا فى سبيل الفضيلة عرق الكدح ، وجعلوا الطريق المؤدى إليها طويلا وعراً . شاقاً فى بداية الأمر ، ولكنك إذا وصلت إلى أعلاه وجدته سهلا بحق رغم ما لقيت فيه من المشقة قبل[١٥] » . ثم يضع الشاعر قواعد لأعمال الزراعة الجدية ، ويحدد خير أيام الحرث والغرس والحصاد ، ويصوغ أقواله فى أمثال فجة صقلها ڤرچيل فيما بعد فى شعر بلغ حد الكمال . وهو يحذر پرسيوس من عاقبة الإفراط فى الشراب صيفاً ومن تخفيف الملابس شتاء . ويصور شتاء بؤوتية القاسى فيقول عنه إن ريحه زمهرير تسلخ جلد الجؤذر ، والبحار والأنهار تضطرب مياهها بفعل ريح الشمال ، والغابات تنوح وأشجار الصنوبر تتساقط ، والحيوانات « ترهب الثلج الأبيض » ، وتأوى خائفة إلى حظائرها ومذادرها[١٦] ، وما أدفأ الكوخ الحسن البناء فى ذلك الوقت ، فهو الجزاء الأخير للكدح بشجاعة وفطنة ! ففيه لا تنقطع الأعمال المنزلية مهما اشتدت العواصف ، وفيه تكون الزوجة نعم العون حقاً ، فهى خير عوض للرجل مما سببته له من متاعب كثيرة .

ولا يستطيع هزيود أن يقطع برأى فى الزوجات ، وما من شك فى أنه كان أعزب أو أرمل ، لأن من كانت له زوجة حية لا يتحدث عن المرأة بهذا الغل الشديد . نعم إن الشاعر يبدأ فى آخر القطعة الباقية من قصيدته ثبتاً بأسماء النساء كله شهامة ومروءة ، ويعيد على مسامعنا قصص تلك الأيام التى كان عدد البطلات فيها لا يقل عن عدد الأبطال وحين كانت كثرة الأرباب

من النساء . ولكنه يذكر فى كتابيه الكبيرين فى اغتباط الحاقد الشامت أن معظم الشرور التى فى العالم من فعل پندورا الحسناء ، وأن زيوس لما غضب على پروميثيوس Prometheus حين سرق النار من السماء أمر الآلهة أن تخلق المرأة لتكون هدية يونانية إلى الرجل : « فأمر هفستوس Hephaestus أن يمزج من فوره التراب بالماء وأن يهب المزيج صوت الرجل وقوته ، وأن يجعل وجه الفتاة الحسناء جميلا كوجه الآلهات والخالدات . ثم أمر أثينا أن تعلمها كيف تنسج القماش المتين ، وأمر أفروديتى الذهبية أن تنشر حول رأسها الرشاقة ، والشهوة الملحة ، والقلق الذى يتلف الأعضاء ، ولكنه أمر الرسول هرمس أن يمنحها عقلا كعقل الكلاب وأخلاقاً كلها ختل ودهاء . وأطاعوا كلهم زيوس ... ووضع رسول الآلهة فى جوفها صوتا جذاباً ؛ وسمى هذه المرأة پندورا لأن كل الساكنين فى البيوت الأولمپية قد أهدوا إليها هدية لتؤذى بها الرجال المبدعين[١٧] » .

ثم يقدم زيوس پندورا إلى إپميثيوس Epimstheus ؛ وقد حذره أخوه پروميثيوس من قبول هدايا الآلهة ، ولكنه رغم هذا التحذير يشعر بأنه لا حرج عليه من أن يخضع للجمال هذه المرة . وكان پروميثيوس قد ترك مع إپميثيوس صندوقاً خفياً عجيباً وأوصاه ألا يفتحه بحال من الأحوال . وغلب على پندورا حب الاستطلاع ففتحت الصندوق فطار منه عشرة آلاف شر أخذت تنغص على الناس حياتهم ، ولم يبق فيه إلا الأمل وحده . ومن پندورا ، كما يقول هزيود ، نشأ جنس النساء الرقيقات ، ومنها نشأت سلالة مؤذية ، وتسكن طوائف النساء الشديدات الأذى مع الرجال وهن لا يعنهم على الفقر المدقع بل يعنّهم على التخمة ؛ وبهذه الطريقة وهب زيوس الرجال نساء ليكن مصدر الشر والأذى[١٨] » .

ثم يقول الشاعر المذبذب بعدئذ فى حسرة ولوعة إن العزوبة لا تقل شراً عن الزواج لأن الشيخوخة مع العزلة شقاء أيما شقاء ، ولأن أملاك من لا ولد له تعود بعد موته إلى عشيرته ، ولهذا فإن من مصلحة الرجل أن

يتزوج — وإن كان عليه ألا يتزوج قبل سن الثلاثين ، ومن مصلحته أن يكون له أولاد — وإن كان من الواجب ألا يكون له أكثر من ولد واحد ، حتى لا تنقسم ثروته بعد موته .

« إذا ما توج النضج فخر رجولتك ، فخذ بيدك إلى بيتك زوجة راضية ؛ وخير سن الزواج هي سن الثلاثين ، فلا تنقص منها كثيراً ولا تزد عليها كثيراً ؛ . . واخترها عذراء حتى تطبع الأخلاق الطاهرة صدرها بطابع الحب القائم على الحكمة والعقل . ولتكن الهدية التي تهدى إليك فتاة من جيرتك معروفة لك ؛ ولتكن حذراً غاية الحذر لئلا تسيء الاختيار فتكون أضحوكة لجميع من يسكنون حولك . وخير ما تهبه الحكمة الإلهية للإنسان امرأة جميلة فاضلة ؛ وشر ما يصيب الإنسان زوجة صغيرة تقضي كل وقتها في الطعام والشراب . إن هذه المرأة لتحرق بغير نار متقدة جسمك الذي أنهكته المتاعب ، وتشعل النار في عظامك القوية التي في داخل جسمك ، وتسبب لك الشيخوخة وأنت لا تزال في عنفوان الشباب[١٩] » .

ويقول هزيود إن الجنس البشري عاش على وجه الأرض قبل سقوط الإنسان على هذا النحو مئات من السنين يرسل في حلل السعادة . ذلك بأن الآلهة قد خلقت أولا في أيام كرونس (ستورينا في شعر فرچيل) جيلا ذهبياً كانوا كالآلهة يعيشون بلا كدح ولا قلق ؛ تنتج لهم الأرض من نفسها الطعام ، وتغذى بكلئها قطعانهم الكثيرة ، ويقضون كثيراً من الأيام فرحين مسرورين لا تدركهم الشيخوخة ، حتى إذا أقبل عليهم الموت آخر الأمر كان كأنه نوم خال من الآلام والأحلام . ثم خلق الآلهة في نزوة من نزواتهم القدسية جيلا فضيا أحط منزلة من الجيل الأول ، يحتاج أفراده في نموهم إلى مائة عام ، فإذا كمل هذا النمو عاشوا معذبين زمناً قليلا يدركهم بعده الموت . ثم خلق زيوس جيلا نحاسياً ، رجالا أعضاؤهم وأسلحتهم وبيوتهم من النحاس ، شن بعضهم على بعض كثيراً من الحروب

حتى « ساط عليهم الموت الأسود فغادروا ضياء الشمس اللامعة » . ثم عاود زيوس التجربة وخلق جيل الأبطال الذين حاربوا فى طيبة وطروادة ؛ ولما مات أولئك الرجال « سكنوا بأرواحهم الخالية من الهم فى جزائر الأبرار » ، وجاء من بعدهم شر الناس كلهم ، الجيل الحديدى ، وهم خلق أدنياء فاسدون فقراء لا يعرفون النظام ، يكدحون بالنهار ويقاسون الشدائد والأهوال بالليل ؛ لا يوقر أبناؤهم آباءهم ، يعصون الآلهة ويخاونون عليهم ، كسالى مشاغبون ، يحارب بعضهم بعضاً ، يرشون ويرتشون ، لا يثق بعضهم ببعض ، ويفترى بعضهم على بعض ، ويطأون بأقدامهم وجوه الفقراء منهم . ويقول هزيود فى حسرة : « ألا ليتنى لم أولد فى هذا العهد بل ولدت قبله أو بعده ! » وهو يتمنى أن يعجل زيوس بدفن هذا الجيل الحديدى فى باطن الأرض[٢٠] .

هذا هو اللاهوت التاريخى الذى يفسر به هزيود ما فى زمانه من فقر وظلم . وقد كان يرى هذه الشرور بعينيه ويلمسها بيديه ؛ ولكن الشاعر لم يكن يشك فى أن الماضى الذى ملأه أبطالا وآلهة كان أنبل وأجمل من هذا الجيل ؛ ولسنا نرتاب فى أن الناس لم يكونوا على الدوام فقراء معذبين أذلاء كما كان الزراع الذين عرفهم فى بؤوتية . وهو لا يعرف أن أخطاء الطبقة التى ينتمى إليها قد أثرت فى نظرته ، وأن آراءه فى الحياة والعمل والنساء والرجال آراء ضيقة ، أرضية ، تكاد أن تكون تجارية . وما أبعد هذه الصورة من صورة أعمال الناس التى تطالعنا فى شعر هومر ، وهى صورة إن كان فيها الإجرام والفزع فإن فيها أيضاً العظمة والنبل ! لقد كان هومر شاعراً ، يعرف أن ومضة من الجمال تمحو آلافا من الخطايا ؛ أما هزيود فكان فلاحاً يصعب عليه ما تتكلفه الزوجة ، ويغضب من وقاحة النساء اللاتى يجلسن حول المائدة مع أزواجهن[٢١] . ويكشف لنا هزيود فى صراحة فظة عما كان فى المجتمع اليونانى القديم من انحطاط قبيح — عن الفقر المدقع الذى كان يعانيه رقيق الأرض وصغار الزراع الذين يقوم على سواعدهم مجد

الأشراف والملوك وعبث الحروب . وكان هومر يتغنى بالأبطال والأمراء للأشراف من الرجال والنساء ، أما هزيود فلم يكن يعرف أمراء ، بل كان يتغنى فى قصائده بالسوقة من الرجال ويوائم بين نغماته وبين موضوعه . فنحن نستمع فى شعره إلى قعقعة ثورات الفلاحين التى أنتجت فى أتكا من بعد إصلاحات صولون وطغيان بيسستراتس(*) .

لقد كانت الأرض فى بؤوتية ، كما كانت فى البلوبونيز ، فى حوزة نبلاء غائبين عنها يقيمون فى المدن أو بالقرب منها . وقد شيدت أكثر المدن رخاء وازدهاراً نحو بحيرة كبسيس Capsais ، وهى الآن جافة ولكنها كانت فيما مضى تمد بالماء شبكة معقدة من قنوات الرى وأنفاقه . وقد غزت هذا الإقليم المغرى الجذاب فى أواخر عصر هومر شعوب اشتق اسمهم من جبل بيئون Boeon فى إبيروس الذى أقاموا بيوتهم بالقرب منه . وقد استولوا على قيرونيا Chaeronia (وبقربها قضى فليب على حرية اليونان) ، وطيبة عاصمتهم فى مستقبل الأيام ، ثم استولوا أخيراً على أركمنوس العاصمة المنياوية القديمة . وقد انضوت هذه المدن وغيرها فى أيام اليونان الأقدمين تحت لواء طيبة فى اتحاد بؤوتى يصرف شئونه العامة رجال من أهل هذا الحلف يختارون فى كل عام ، ويحتفـــل أهله مجتمعين فى كورونية Coronea بعيد الجامعة البؤوتية .

وكان من عادة الأثينيين أن يسخروا من البؤوتيين ويتهموهم بأنهم أغبياء ويعزوا بلادة ذهنهم إلى إفراطهم فى الأكل وإلى جو بلادهم الكثير الضباب والأمطار — كما كان الفرنسيون يعيرون الإنجليز سواء بسواء . وقد

(*) ولا يذكر التاريخ شيئاً عن موت هزيود ، ولكن الأقاصيص تقول إنه وهو فى سن الثلاثين أغوى العذراء كليمينى Clymene ؛ وإن أخاها قتله وألقى بجثته فى البحر ؛ وإن كليمينى حملت منه بابنه الشاعر الغنائى استسيكوروس Stesichorus وهو الشاعر الذى ولد مع ذلك فى صقلية » .

يكون فى هذا الوصف والتعليل بعض الصدق ، لأن البؤوتيين يضطلمون فى تاريخ اليونان بدور لا ترتاح له النفوس . من ذلك أن طيبة مثلا قد ساعدت الغزاة الفرس ، وظلت شوكة فى جانب أثينة مئات السنين . ولكننا نضع فى الكفة الأخرى — كفة الحسنات — أبطال بلاتية الشجعان الأوفياء ، ونضع هزيود الكادح المثابر ، وپندار الذى بلغ السماكين ، وأپامينونداس الأبى الشريف النفس ، وفلوطرخس الحبيب إلى النفوس . ومن واجبنا أن نكون على حذر فلا نرى منافسى أثينة بأعين الأثينيين .

الفصل الثاني

دلفى

بعد أن يغادر الإنسان قيرونيا مدينة أفلوطرخس يصعد وهو يعرض حياته للخطر فوق اثنى عشر ميلا يلتقى عند آخرها بفوقيس Phocis ، ثم يصل عند سفح جبل پارنسس نفسه إلى دلفى مدينة اليونان المقدسة . وعلى بعد ألف قدم من تحتها ينبسط سهل كريسيا Crisaea الذى تتلألأ فيه بأوراقها الفضية عشرة آلاف شجرة زيتونة ؛ وعلى بعد خمسمائة قدم أخرى تحت هذا السهل يمتد فى الأرض جون صغير من خليج كورنثة ، تمر فيه السفن وهى مقبلة من بعيد ، تتهادى فى بطء وصمت فوق المياه الساكنة الخداعة . ومن وراء الجون سلاسل أخرى من الجبال تكسوها عند مغيب الشمس حلة أرجوانية . وعند منعطف فى الطريق يلتقى السائح بنبع كستاليا Castalia فى خانق بين الصخور العمودية . وتروى القصص أن أهل دلفى ألقوا إيسوب Aesop من فوق هذه الصخور المرتفعة (وأضافوا بقولهم هذا خرافة أخرى إلى خرافاته) ؛ كما يروى التاريخ أن فلوميلوس Philomelus الفوقى Phocian طارد اللكريين المنهزمين من فوق هذه الصخور فى الحرب المقدسة(*) الثانية(٢٣) . ومن فوقها قمتا پرنسس التوأمتان حيث سكنت ربات الشعر بعد أن ملت المقام فى جبل هيليكُن . ولم يكن اليونان الذين يتسلقون مئات

(*) لقد أوقد اليونان نار حربين مقدستين بسبب مطالب هيكل أپلو أولاهما من ٥٩٥ إلى ٥٨٦ وفيها قضى اليونان الجنوبيون على ما كان يفرضه أهل سرا Cirrha المجاورة للهيكل من إتاوات باهظة على الحجاج المارين بثغرهم فى طريقهم إلى دلفى ؛ وكانت الحرب الثانية بين عامى ٣٥٦ ، ٣٤٦ ، فيها هزم جيش حلف يونانى بقيادة فليب المقدونى الفوقيين الذين استولوا على دلفى ونهبوا أموال الهيكل . وأدت الحرب الأولى إلى إعلان حياد دلفى وإلى إقامة الألعاب البيثية Pythian ، أما الثانية فكانت عاقبتها أن خضعت مقدونية بلاد اليونان .

الأميال فوق الصخور الوعرة ليقفوا على قمة الجبل — متزنين على لسان بارز من الصخر بين المرتفعات التي يكسوها الضباب من جهة والبحر الذي تسطع عليه الشمس من جهة أخرى ، ويحيط بهم من جميع الجهات جمال الطبيعة وأهوالها — لم يكن هؤلاء اليونان يشكّون في أن من تحت هذه الصخور إله رهيب . وكثيراً ما زلزلت الأرض في هذا المكان وقذفت الرعب في قلوب الفرس النهابين ، ومن بعدهم بمائة عام في قلوب الفوقيين النهابين ، وبعد مائة عام أخرى في قلوب الغالبيين النهابين ؛ وكانت الزلازل في اعتقاد اليونان من فعل الإله يحمي بها قراره . وكان العباد المتدينون يؤمون هذا المكان من أقدم الأزمنة التي تتحدث عنها التواريخ اليونانية ليجدوا في الرياح التي تهب بين الأخاديد ، أو الغازات التي تنبعث من باطن الأرض ، صوت إلههم وإرادته . وكانت الصخرة العظيمة ، التي تكاد تسد الفتحة التي تنبعث منها الغازات ، وسط بلاد اليونان كلها في اعتقاد الأهلين ، ومن ثم كانت هي سرة العالم أو أمفالوسه omphalos كما كانوا هم يسمونها .

وقد شادوا فوق هذه السرة مذابحهم لجي أمهم الأرض في الأيام القديمة ، ثم لأبلو مالكها الأزهر فيا بعد . وكانت تحرس الأخدود في الزمن القديم أفعى رهيبة فتصد عنه الرجال ؛ حتى قتلها فيبوس Phoebus بسهم وأصبح هو أبلو البيثين الذي يعبد في هذا الضريح . ولما أن دمرت النيران في عام ٥٤٨ هيكلا قديماً أعاد بناءه الأشراف الألكميونيون المنفيون من أثينة بأموال اكتتبت بها بلاد اليونان كلها وبأموالهم هم ، وجعلوا له واجهة من الرخام . وأحاطوه برواق دورى الطراز ، وأقاموه من الداخل على أعمدة أيونية . وقاما رأت بلاد اليونان ضريحاً مثله من قبل . وكان طريق مقدس ملتف حول الجبل يؤدى إلى المزار ، ويزدان في كل خطوة بالتماثيل والأروقة والخزانات أي الهياكل الصغيرة التي أقامها عند تخومه المقدسة (في أولمبيا ، ودلفي ، وديلوس المدن اليونانية) لتودع فيها أموالها أو لتكون

هبات منها إلى الإله . وقد أقامت كورنثة وسكسيون خزائن من هذا النوع فى دلفى ، وأقامت مثلها فيما بعد أثينة ، وطيبة ، وسيرينى ، وأقامت أحسن منها نيدوس Cnidus وسفنوس Siphnos . وفى وسطها كلها شيد ملهى مواجه لجبل برنسس ليذكر الناس أن التمثيل كان فى اليونان أصلا من الأصول الدين . وكان يعلو فوق هذه كلها ملعب يمارس فيه اليونان أحب الشعائر إليهم وهى عبادة الصحة ، والشجاعة ، والجمال ، والشباب .

وفى وسعنا أن نتخيل منظر هذا المكان فى عيد أبلو ، فنصور لأنفسنا الحجاج المتحمسين يزحمون الطريق الموصل إلى المدينة المقدسة ، ونغص وبهم وبصخبهم وضجيجهم النزل والخيام التى أقيمت على عجل لتأويهم ، وهم يمرون فى حذر وارتياب بين الحوانيت التى يعرض فيها التجار الماكرون بضاعتهم ، ثم يصعدون فى مواكب دينية أو حاجين إلى هيكل أبلو يطلبون إليه الرضوان ، ويقربون إليه القرابين أو الضحايا ، ويرتلون الأناشيد ، أو يتلون الأدعية والصلوات ، ويجلسون خاشعين فى الملهى ، ثم يصعدون فى خطى ثقيلة متعبة تبلغ الحسباته عدا ليشهدوا الألعاب البيثية أو ليتطلعوا فى دهشة إلى البحر والجبال . لقد كانت الحياة يوماً من الأيام تسير على هذا النهج المليء بالحمية والحماسة .

الفصل الثالث

الدول الصغرى

كان الأهلون فى الجزء الغربى من أرض اليونان الأصلية يعيشون قانعين بحياتهم الريفية الهادئة طوال تاريخ اليونان القديم ولا يزالون كذلك حتى اليوم . لقد كان الناس فى لكريس Locris ، وإيتوليا Aetolia ، وأكرنانيا Acarnania ، واينيانيا Aenianìa ، لشدة قربهم من الحقائق البدائية الواقعية ، وبعدهم عن تيار الحركة والتجارة الجارف ، لا يجدون متسعاً من الوقت ، وليست لهم المهارة الكافية ، للاشتغال بالأدب أو الفلسفة أو الفن ؛ إن الملعب والملهى العزيزين على أثينا لم يجدا لهما مواطناً فى هذا المكان ، وكانت الهياكل نفسها أضرحة قروية لا يجملها الفن ولا تثير العاطفة القومية . وكانت تقوم فى فترات طويلة مدائن متواضعة مثل أمفسا Amphissa فى لكريس ، أو نوبكتوس Naupactus الإيتولية ، أو كليدون Clydon الصغيرة حيث صاد مليجر Meleager فى يوم من الأيام الخنزير البرى مع أطلنطا Atalanta(*) . وعلى الساحـــل الغربى بالقرب من كليدون تقوم مسولنجيون Messolongion أو مسولنجى Messolongi حيث

(*) دمر خنزير برى حقول كليدون فانبرى له مليجر ابن مليكها إنيوس . ودبر أمر صيده مستعيناً بثيوس ، وكاستر ، وپلكس ، ونسطور ، وجيسن ، وأطلنطا ذات الوجه الجميل والخطو السريع . وقتل الخنزير عدداً من الأبطال ولكن أطلنطا صادته ومليجر قتله . وتزاحم الخاطبون على أطلنطا فى بيتها فى أركاديا ، فوافقت على أن تتزوج من يسبقها منهم واشترطت أن تقتل كل من لا يستطيع أن يسبقها . واستطاع هپومينيس Hippomenes أن يسبقها بأن ألقى فى طريقها وهو يعدو التفاحات الثلاث التى أعطتها إياه أفروديتى من الهسپريدين Hesperides ، فوقفت أطلنطا لتأخذها وخسرت الرهان . وفى وسع القارئ أن يطلع على حب مليجر الخفى لأطلنطا وموته المفجع فى قصيدة سونبيرن Swinburne المسماة « أطلنطا فى كيلدون Atalanta in Clydon » .

حارب ماركو بوزارس Marco Bozzaris وقُتل بيرن Byron ؟ ويجرى بين أكرانيا وإيتوليا أعظم نهر فى بلاد اليونان — نهر أكلوس الذى اتخذه اليونان ذوو الخيال الخصب إلهاً لهم وعبدوه واسترضوه بالصلاة والضحايا . وبالقرب من منابعه فى إبيروس Epirus ينبع نهر أسبركيوس Spercheus ، وبالقرب من شاطئيه فى دولة إينيانيا Aeniania الصغيرة كان يعيش الآخيون فى العصر السابق لعصر هومر ، هم وقبيلة صغيرة تسمى هلينز وهو الاسم الذى سمى به اليونان كلهم أنفسهم طوعاً لحكم العادة التى لا تخضع لغير الهوى . وفى اتجاه الشرق يقع ممر ترموبيل المعروف باسم « الأبواب الحارة . . . » بسبب عيونه الكبريتية الساخنة وممره الضيق المنيع الممتد من الشمال إلى الجنوب بين الجبال والخليج المالى Malic Gulf ؛ وبعد أن يصعد الإنسان جبل أثربس Othrys ويخترق آخيا ثيوتيس Achaea Ththiotis ينحدر إلى سهول تساليا العظيمة .

وفيها عند فرسالس Pharsalus أبادت جنود قيصر المتعبة قوات بمبى ؛ وليس فى بلاد اليونان كلها إقليم آخر أوفر من تساليا زرعاً ، أو أقوى منها خيولا ، أو أفقر فنوناً . وتجرى فيها الأنهار من جميع الجهات ، ويصب كلها فى نهر پنيوس فتكون فيها تربة غرينية خصبة تمتد من حدود الإقليم الجنوبية إلى سفوح السلاسل الشمالية . ويشق نهر پنيوس طريقه خلال هذه الجبال مخترقاً تساليا إلى بحر تراقية ، وينحت بين قمم أسا Assa وأولمبس وادى التمپى (القطع) حيث تحيط بالنهر الغضوب من جميع الجهات صخور وعرة تمتد على شاطئيه مدى أربعة أميال ، وتعلو عن ماء النهر نحو ألف من الأقدام . وقد قامت على طول النهر فى الزمن القديم مدن كثيرة — فيرى ، وكرانون ، وفركا ، ولاريسا ، وجيرتون ، وإلاتيا(*) ، كان يحكمها أمراء إقطاعيون

(*) Elates, Gyrton, Larisa, Frice, Crannon, Pherae

يعيشون من كدح رقيق الأرض . وهنا فى أقصى الشمال يعلو جبل أولمبس أعلى قلل البلاد ومواطن الآلهة الأولمبية . وعلى سفوحه الشمالية والشرقية تقوم پيريا Pieria التى كانت موطن ربات الشعر قبل انتقالهن إلى هليكون(*) . وإلى الجنوب ، على طول الخليج ، تمتد مجنيزيا حيث تتجمع الجبال من أسَّا Ossa إلى پليون Pelion .

وتمتد جزيرة عوبية العظيمة Euboea مقابلة لسواحل اليونان القارية بين الخلجان الداخلية ومياه بحر إيجة الخارجية ، مبتدئة فى عرض المضيق على بعد أميال قليلة من مجنيزيا ، وترتكز على شبه جزيرة فى كليس تكاد تصلها ببؤوتيـــة . والعمود الفقرى للجزيرة سلسلة جبلية هى امتداد لأولمپس ، وپليون ، وأثربس وتنتهى بجزائر سكلديس . وقد بلغت سهولها الساحلية درجة من الخصب والثراء أغرت بها الأيونيين القادمين من أتكا فى أيام غزو الدوريين ، وأدت إلى فتحها على يد الأثينيين فى عام ٥٠٦ ق . م ، وكانت حجة أثينة التى تذرعت بها لهذا الفتح أنها إذا حوصرت عند پيريوس ماتت جوعاً إن لم تصلها حبوب عوبية . وكانت رواسب النحاس والحديد وأجراف الأصداف مصدر ثراء كلسيس والأصل الذى اشتق منه اسمها . وقد ظلت وقتا ما أهم مراكز الصناعات المعدنية فى بلاد اليونان ، واشتهرت بسيوفها التى لا تضارعها قط سيوف أخرى ، وبمزهرياتها البرنزية التى بلغت أعلى درجة من الإتقان . ومما ساعد على انتعاش تجارة الجزيرة أن استخدمت فيها نقود من أقدم النقود اليونانية ، وكانت تخرج من كلسيس فكانت مصدر ثراء أهلها وحافزاً لهم إلى إنشاء مستعمرات تجارية فى تراقية وإيطالية وصقلية . وكاد نظام الموازين والمكاييل العوبى أن يعم بلاد اليونان كلها ، كما أضحت حروف كلسيس الهجائية التى أخذتها رومة عن كومى الإيطالية مستعمرة

(*) وهى التى وردت فى نصيحة ألكسندر پوپ الحكيمة التى يتضمنها البيتان الآتيان :

إن العلم القليل يعرض للأخطار
فإما أن ترتوى منه وإما ألا تمس النبع الپيرى(٢٤)

عوبية ، كما أضحت هذه الحروف فى صورتها اللاتينية هى الحروف الهجائية لأوربا الحديثة . وعلى بعد أميال قليلة من جنوب كلسيس كانت مدينة إرتريا منافستها القديمة حيث أنشا منديموس Meredemus أحد تلاميذ أفلاطون مدرسة للفلسفة ؛ وفيما عدا هذا فإن إرتريا وكلسيس Cha cis كلتيهما لا يظهر أسماهما واضحين فى تاريخ الفكر أو الفن اليونانيين .

ومن كلسيس يعبر المسافر على جسر قائم مكان المعبر الخشبى الذى أنشئ فى عام ٤١١ ق . م مضيق يوريبوس Euripus عائداً إلى بؤوتية . وعلى بعد بضعة آميال إلى الجنوب على الساحل البؤوتى تقع بلدة أوليس الصغيرة حيث ضحى أجممنون بابنته للآلهة . وكانت تعيش فى هذا الإقليم فى يوم من الأيام قبيلة خاملة الذكر هى قبيلة الجرايس التى أرسلت مع العوبيين جماعة من أهلها أنشئوا مستعمرة كومى بالقرب من نابلى ، واشتق الرومان من اسم هذه القبيلة الاسم الذى أطلقوه على من قابلهم من الهيلينيين فسموهم الجراكى (الإغريق)(*) . ومن أجل هذا أطلق العالم كله على هلاس Hellas اسما لم يسم أهلها بلادهم به فى يوم من الأيام[٢٥] . وإلى جنوب أوليس تقوم تنجارا Tangara التى كسبت شاعرتها كورنا Corinna الجائزة من پندار حوالى عام ٥٠٠ ق . م . والتى صنع خزافوها فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد أشهر التماثيل الصغيرة فى التاريخ . وبعد خمسة أميال أخرى إلى الجنوب يدخل السائح أتكا ، وفى وسعنا إذا وقفنا على قلل جبال پارنيس أن نبصر تلال أثينة .

(*) وقد فعل العرب بهم ما يشبه هذا فاشتقوا من اسم الأيونيين اسماً أطلقوه على جميع الهيلينيين فسموهم اليونان أو اليونانيين . (المترجم)

الفصل الرابع

أتِكا

١ — ما حول أثينة

إن الجو نفسه فى هذا الإقليم يختلف عنه فى الإقليم السابق — فهو هنا نظيف ، بارد ، مضىء ؛ وكل سنة هنا تحتوى على ثلثمائة يوم ذات شمس ساطعة . وإذا قدم الإنسان إليه تذكر من فوره وصف شيشرون « هواء أثينة الصافى الذى يقال إنه كان له أكبر الأثر فى حدة عقول أهل أتكا[٢٦] » . ويسقط المطر فى أتـكا فى الخريف والشتاء ، وقلما يسقط فى الصيف والضباب نادر فيها ، ويسقط الثلج فى أثينة مرة واحدة فى العام تقريباً ، ويسقط أربع مرات أو خمساً كل عام على قمم الجبال المحيطة بها[٢٧]. والصيف هنا حار ولكنه جاف يطاق ، وكانت الأراضى المنخفضة فى الزمن القديم ذات مناقع تنتشر فيها الملاريا فتقلل من ملاءمة الهواء للصحة[٢٨] . وتربة أتكا فقيرة ، والصخور الصلبة قريبة من سطح الأرض فى كل مكان تقريباً ، وهـذا القرب يجعل الزراعة كفاحاً شاقاً للحصول على أبسط ضرورات الحياة(*) ؛ ولولا التجارة التى تتطلب كثيراً من المغامرة ، وزراعة الزيتون والكرم التى تتطلب كثيراً من الصبر ، لما أمكن قيام الحضارة فى أتكا .

وأكثر ما يدهش له الإنسان أن تقوم مدن كثيرة فى هذه الشبه الجزيرة القاحلة ؛ فهى تطالع الإنسان فى كل مرفأ على الساحل ، وفى كل واد

(*) يقول توكيديدس إن « أتكا نجت لفقر تربتها منذ أقدم الأزمان من الانقسامات الداخلية (؟) والغزو الأجنبى » .



بين التلال ، فقد استقر فى أتكا شعب نشيط مغامر إبان العصر الحجرى الحديث أو قبله ، وأكرم وفادة القادمين عليه من الأيونيين — وهم مزيج من البلاسجيين الميسينيين والآخيين[٢٨] — الفارين من بؤوتية والبلوبونيز أمام المهاجرين والغزاة الشماليين ، وتزوج منهم وتزوجوا منه . ولم يكن هؤلاء القادمون فاتحين من الأجانب ، يستغلون أهل البلاد الأولين ، بل كانوا سلالة مختلطة من شعوب البحر المتوسط ، متوسطى القامة ، سمر البشرة ، ورثوا من طريق مباشر دم الحضارة الهيليفية وثقافتها ، وكانوا يعتزون بنشأتها وصفاتها الأصلية[٢٩] ، ويصدون عن قدسها القومى ، الأكربوليس ، الدوريين نصف الهمج الحديثى العهد بالثقافة اليونانية[٣٠] .

وكان نظامهم الاجتماعى مستمداً من صلة الدم هذه ؛ فكانت كل أسرة تنتمى إلى قبيلة من القبائل يدعى أفرادها أنهم من نسل بطل مقدس واحد ، ويعبدون إلهاً واحداً ، ويشتركون فى حفلات دينية واحدة ، ولهم أركون (حاكم) واحد وخازن على المال واحد ، ويملكون مجتمعين بعض الأراضى العامة ، ويستمتعون بحق التزاوج والتوارث ، ويقبلون ما تفرضه عليهم واجبات التعاون ، والثأر ، والدفاع ، ويوارون التراب آخر الأمر فى مدافن القبيلة . وكانت كل قبيلة من قبائل أتكا الأربع تتألف من ثلاثة بطون ، وكل بطن من ثلاث أفخاذ وكل فخذ من ثلاثين من آباء الأسر أو نحوهم[٣١] . وكان تقسيم المجتمع الأتيكى هذا التقسيم القائم على صلة القربى مما يسر تنظيمه الحربى وتعبئته العسكرية ، كما أنه ساعد على قيام طبقة أرستقراطية من الأسر القديمة اضطر كليستنيز بسبب وجودها إلى إعادة توزيع القبائل قبل أن يستطيع اقامة نظام دمقراطى فى البلاد .

ويغلب على الظن أن كل بلدة أو قرية كانت فى الأصل موطن بطن من البطون وكانت تسمى أحياناً باسم هذا البطن أو باسم الإله أو البطل الذى

تعبده ، وكانت هذه هي الحال فى أثينة نفسها . وإذا أقبل السائح على أتكا
من بؤوتية الشرقية التقى أولا بأوروبوس Oropus وانطبعت فى ذهنه صورة
غير جميلة لهذا الإقليم ، لأن أوروبوس كانت بلدة قائمة عند تخومه يرتاع
لها السائح ارتياعه من أية بلدة مثلها فى هذه الأيام . ويصفها ديكي آركوس،
Dicacarchus حوالى عام ٣٠٠ ق . م بقوله إن « أوروپوس معشش للبائعين
المحتالين . وموظفو الجمارك فى هذا البلد شرهون شرهاً لا يدانيه شره سواه ،
وخستهم متأصلة فى لحمهم وعظامهم . ومعظم أهله أغلاظ ، شرسو الطباع ،
لأنهم أطاحوا برؤوس المؤدبين الظرفاء من الأهلين »[٣٢] . وإذا اتجه
السائح من أوروپوس نحو الجنوب التقى فى الزمن القديم بسلسلة من البلدان
المتقاربة ؛ رامنوس Rhamnus ، أفدنا Aphidna ، دسليا Deceleia (وهى
مكان ذو موقع حربى حصين اشتهر فى حرب الپلوپونيز) ، وأكارنى
Acharnae (موطن ديسپوپوليس Dicaepolis داعية السلام الشرس فى
مسرحيات أرستفنيز) ، ومراثون ، وبروورونيا Brauronia . وفى الهيكل
العظيم الذى كان قائماً فى هذه المدينة الأخيرة نصب تمثال أرتميس الذى
جاء به أرستيز وإفيجينيا من كرسنيز Chersonese فى طوروس Taurus ،
وكان يحج إليه كل أربعة أعوام كل من يستطيع الحج إليه من أهل أتكا
ليشتركوا فى حفلات التقى والدعارة المعروفة باسم بروورونيا أو عيـــد
أرتميس[٣٣] . وبعد هذا يلتقى السائح ببراسيه Prasiae وثوركوس Thoricus ،
ثم يدخل إقليم لوريوم Laurium الذى تستخرج الفضة من مناجمه ، والذى
كان عظيم الشأن فى تاريخ أثينة الاقتصادى والحربى ؛ ثم يلتقى فى طرف شبه
الجزيرة بسونيوم Sunium التى شيد على أطرافها هيكل جميل يهتدى به
الملاحون ويوفون فيه بنذورهم إلى بوسيدن . وعلى الساحل الغربى (لأن
نصف أرض أتكا سواحل، واسمها نفسه مشتق من أكتيكى Aktike أى أرض

السواحل) ، يمر المسافر بأنافلستوس Anaphlystus ويصل إلى جزيرة سلاميس Salamis [*] موطن إجاكس ويوريديز ، ومن بعدها إلى إلوسيس المدينة المقدسة لدمتر وطقوسها الخفية ، ثم يعود آخر الأمر الى پيريس (پيريه) Piraeus . وإلى هذا المرفأ الأمين ، الذى ظل مهملا حتى كشف ثمستكليز فائدته العظيمة ، صارت السفن فيما بعد تنقل جميع غلات عالم البحر المتوسط لتستخدمها أثينة فيما يعود عليها بالمنفعة أو اللذة . وكان جدب تربة أتكا ، وقرب أجزائها كلها من شاطئ البحر ، ووفرة الموانى الصالحة ، كان هذا كله حافزا لأهل أتكا للاشتغال بالتجارة ؛ وقد كسبوا بفضل شجاعتهم وقوة ابتكارهم أسواق بحر إيجه ؛ ومن هذه الإمبراطورية التجارية العظيمة نشأت ثروة أثينة ، وقوتها ، وثقافتها ، فى عصر پركليز .

٢ — أثينة فى عهدها الأجركى

لم تكن هذه البلدان محيطة بأثينة فحسب ، بل كانت أجزاء منها كذلك . وقد سبق القول كيف جمع ثيسوس ، كما يعتقد اليونان ، الأهلين فى نظام سياسى واحد وجعل لهم عاصمة واحدة[**] . ونشأت أثينة ثم نمت على بعد خمسة أميال من پيريس بين معشش من التلال ، همتوس Hymettus وپنتلكوس Pentalicus وپارنس Parnes ، حول الحصن الميسينى القديم . وكان جميع ملاك الأراضى فى أتكا من مواطنيها . وكانت أقدم الأسر ، وأكثرها أملاكا هى التى تحفظ التوازن بين ذوى السلطان فى البلاد ؛ فقد رضوا بقيام الملكية حين كان اضطراب الأمن يهدد

(*) وأكبر الظن أن الفينيقيين هم الذين أطلقوا عليها هذا الاسم المشتق من شالام أى السلام ؛ ومنه أيضاً سالم الخ .

(**) تحدد الرواية زمن هذه الحادثة بالقرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ولكن اتحاد أتكا كلها تحت سلطان أثينة لا يمكن أن يكون قد تم قبل عام ٧٠٠ ، وذلك لأن نشيد دمتر « الهومرى » الذى وضع حوالى ذلك الوقت حين يتحدث من إليوسيس يقول إنها كانت لا تزال تحت حكم ملك خاص بها[٣٦]

البلاد ، ولما أن عاد إليها الهدوء والاستقرار عادوا هم أيضاً إلى الاستمساك بسيطرتهم الإقطاعية وبالحكومة المركزية ؛ ولما مات الملك كادروس Cadrus ميتة الأبطال مضحياً بنفسه لصد الدوريين الغزاة(*) أعلنوا (كما تروى القصة المتواترة) أن أحداً من الناس لا يصلح خليفة له ، واستبدلوا بالملك أركونا (حاكما) يختار ليتولى السلطة مدى الحياة . وفى عام ٧٥٢ حددوا مدة الأركونية بعشر سنين ثم أنقصوها إلى سنة واحدة فى عام ٦٨٣ . وفى هذه السنة الأخيرة قسموا سلطة صاحب هذا المنصب بين تسعة أركونيين ، أركون سميت السنة باسمه ليستطيعوا بذلك تأريخ الحوادث ، وأركون يسمى ملكا ولكنه لم يكن إلا رئيس دين الدولة ؛ وأركون يتولى قيادة الجند وستة مشترعين . وحدث هنا ما حدث فى اسپارطة ورومة ، فلم يكن القضاء على الملكية نصراً للعامة أو خطوة مقصودة نحو الدمقراطية ؛ بل كان يمثل عودة الإقطاعيين إلى السيادة ، ويكرر ماكان يحدث فى التاريخ كله من قيام السلطة المركزية تارة وغير المركزية تارة أخرى . وبفضل هذه الثورة المجزأة جرد منصب الملك من كل ماكان له من سلطان ، واقتصر عمل من يتولاه على الكهانة دون غيرها من الأعمال . ولقد بقيت لفظة ملك فى الدستور الأثينى حتى آخر تاريخ المدينة القديم ، ولكن حقيقة الملكية لم تعد إليها قط . إن الدساتير قد تبدل أو يقضى عليها من ذوى السلطة العليا دون أن ينالهم من جراء ذلك عقاب ما إذا تركت أسماؤها دون تغيير .

وظل « الحاكمون الشريفو المحتد » (Eupatrid Oligarchs) يحكمون أتكا زمناً يكاد يبلغ خمسة قرون . وكان أهل البلاد أيام حكمهم مقسمين خمس طبقات سياسية : طبقة الفرسان (Rippes) الذين يملكون الخيل(**)

(*) والراجح أنها حادثة خرافية ترجعها الرواية التاريخية إلى عام ١٠٦٨ ق . م .

(**) وكانت هذه وقتئذ ميزة الرجل الشريف المهذب كما كانت الحال عند الفرسان الرومان equites والفرنسيين Chevailiers والإنجليز Cavalers .

والذين يستطيعون أن يكونوا فرقة الفرسان فى الجيش ، وذوى الثيران (Zeugitai) الذين يملك كل منهم ثورين والذين يستطيعون أن يسلحوا أنفسهم ليكونوا من فرق المشاة الثقيلة ، وطبقة العمال المأجورين Chetes الذين كانوا يؤلفون فرق المشاة الخفيفة . وكانت الطائفتان الأوليان وحدهما هما اللتين تحسبان فى عداد المواطنين ؛ والفرسان وحدهم هم الذين يمكن اختيارهم أركونين أو قضاة أو كهنة . وكان الأركونون بعد أن يتموا مدة توليهم منصبهم يصبحون ، إذا لم يرتكبوا فضائح تلوث سمعتهم ، بحكم منصبهم القديم أعضاء فى البول boule أو المجلس الذى كان يجتمع فى نسيم المساء العليل على الأريوباجوس Areopagus أو تل أريس Ares ، ويختارون الأركونين ، ويحكمون الدولة . وقد حدد مجلس شيوخ الأريوباجوسى فى عهد الملكية نفسها سلطان الملوك ؛ فلما قامت الحكومة الألجركية كان له مثل ما لنظيره فى رومة من سعة النفوذ وعظيم السلطان[٣٦] .

وكان السكان ينقسمون من الوجهة الاقتصادية ثلاثة أقسام كذلك . فكان على رأسهم الأشراف الكريمو المحتد Eupatrids الذين كانوا يعيشون عيشة مترفة بالنسبة إلى غيرهم من الجماعات ، ويقيمون فى المدن بينما يقوم العبيد والعمال المأجورون بزراعة أملاكهم فى الريف ، أو التجار باستغلال الأموال التى اقترضوها منهم وأداء جزء غير يسير من الأرباح إليهم . ويلى هؤلاء فى الثروة العمال العموميون (demiugoi) أى أرباب المهن ، والصناع ، والتجار ، والعمال الأحرار . ولما فتح الاستعمار أسواقاً جديدة للتجارة ، وتحررت هذه التجارة بعد سك العملة ، كان سلطان هذه الطبقة المتزايد هو القوة الفعالة التى أنالتها فى عهد صولون وپيسستراتس نصيباً من الحكم ، ورفعتها فى عهد كليستنيز وپركليز إلى ذروة السلطان . وكان معظم العمال أحراراً لأن العبيد كانوا فى ذلك العهد لا يزالون أقلية حتى بين الطبقات الدنيا[٣٧] . وكان أفقر الأهلين عمال الأرض (georgoi) ، وهم

الزراع الصغار الذين ينتزعون القوت من التربة الضنينة ومن شره المرابين والأشراف ، وليس لهم من عزاء إلا التباهى بأنهم يملكون قطعة من الأرض .

وكان بعض هؤلاء الزراع يملكون فى أيامهم الخالية أراضى واسعة ، ولكن زوجاتهم كن أكثر خصوبة من أرضهم ، فتقسمت هذه الأرض ثم تقسمت بين أبنائهم وأحفادهم على مر الأجيال . وكان امتلاك العشائر أو الأسر الأبوية للأرض يزول زوالا سريعاً ، كما كانت الأسوار والخنادق والحواجز تشير إلى الأملاك الفردية وما يصحبها من غيرة وتحاسد . وكلما صغرت مساحة الأراضى التى يملكها الأفراد وأضحت الحياة الريفية مزعزعة غير مأمونة باع كثيرون من الفلاحين أرضهم — رغم ما كان يوقع على الذين يبيعونها من عقاب وما يحرمون بسببه من حقوق — ونزحوا إلى أثينة أو غيرها من المدن الصغرى ليشتغلوا فيها تجاراً أو صناعاً أو فعلة . وأصبح غيرهم ، ممن عجزوا عن تحمل لتزامات الملكية ، مستأجرين لضياع الأشراف hectemoroi ، أوعاملين فيها لقاء نصيب من غلتها[٣٨] . وظل غيرهم فى أرضهم يكافحون ، يقترضون المال بربا فاحش ويرهنون أرضهم ضماناً لما اقترضوه ، ولكنهم عجزوا عن الوفاء بديونهم وألفوا أنفسهم لاصقين بالأرض يلزمهم بذلك دائنوهم ويعملون فيها عمل الرقيق الإقطاعيين . وكان الدائن المرهونة إليه الأرض يعد مالك الأرض الحقيقى حتى يسترد ماله من دين ، وكان يضع عليها لوحاً من الحجر يعلن فيه هذه الملكية[٣٩] . وتضاءلت الملكيات الصغيرة على توالى الأيام ، وقل عدد الملاك ، واتسعت الأملاك الكبيرة . ويقول أرسطاطاليس فى هذا : « وأصبحت كل الأراضى ملكاً لعدد قليل من الناس » وتعرض الزراع هم وأزواجهم وأبناؤهم لأن يباعوا بيع الرقيق « لا فى داخل البلاد فحسب بل فى خارجها أيضاً » ، « إذا عجزوا عن أداء إيجار الأرض » أو الوفاء بما عليهم من ديون[٤٠] . وألحقت التجارة الخارجية واستبدال النقود بالمقايضة ضرراً آخر بالأهلين ، لأن منافسة مواد الطعام المستوردة من خارج

البلاد أبقت أثمان محصولاتهم منخفضة ، على حين أن ما كان عليهم أن يؤدوه ثمناً للسلع المصنوعة التي كانوا مضطرين إلى شرائها كانت تحدده عوامل لا سلطان لهم عليها ؛ وظلت هذه الأثمان تزداد على توالي السنين . وإذا ما أجدبت البلاد عاماً حل الخراب بكثيرين من الزراع وهلك بعضهم جوعاً . وبلغ الضنك في أتكا درجة رحب معها الأهلون بالحرب وعدوها نعمة وبركة ، فقد تؤدي إلى كسب أرض جديدة ، وستؤدي حتماً إلى قلة الأفواه التي تتطلب الطعام[٤١] .

وفي هذه الأثناء كانت الطبقات الوسطى من أهل المدن التي لا يقف في وجهها القانون تنزل بالعمال الأحرار الفقر والضنك ، وتستبدل بهم الرقيق شيئاً فشيئاً[٤٢] . وبلغ الجهد العضلي من الرخص حداً أصبح معه كل القادرين على ابتياعه يترفعون عن العمل بأيديهم . وصار العمل اليدوي غلا وعبودية ، ومهنة غير جديرة بالأحرار ، وأخذ ملاك الأرض ، لغيرتهم من ثراء التجار المتزايد ، يبيعون في خارج البلاد الحبوب التي يحتاجها مستأجرو أرضهم طعاما لهم ، وانتهوا آخر الأمر ببيع الأثينيين أنفسهم تطبيقا لقانون الديون[٤٣] .

وأمل الناس وقتاً ما أن تعالج تشريعات دراكون Draco هذه الشرور . فقد كلف هذا المشرّع ثسموثيتي Thesmothete حوالي عام ٦٢٠ بأن يسن القوانين الكفيلة بإعادة النظام إلى أتكا ، وأن يسجلها كتابة لأول مرة في تاريخ اليونان . ومبلغ علمنا أن أهم ما نجده من تقدم في قوانينه هو أنه وسع إلى حد ما دائرة من لهم الحق في أن يُختاروا أركونين حتى شملت كثيرين من الأغنياء المحدثين ، وأحل القانون محل الغضب والانتقام ، وأصبح مجلس الشيوخ الأريوباجوسيّ بعدئذ صاحب الحق في النظر في جميع جرائم القتل . وكان هذا التشريع الأخير إصلاحاً أساسياً تقدمياً ؛ ولكنه لما أراد أن ينفذه ، بل لما أراد أن يقنع ذوي الثراء بقبوله وبأنه أقسى من كل ما يستطيعون فرضه من ثأر وانتقام ، لما أراد هذا وذاك

اضطر أن يضمن قوانينه صنوفاً من العقاب القاسى الشديد . ولما أن حلت شرائع صولون محل معظم قوانينه هو ، كان كل ما يذكره الناس به هو ضروب القسوة والعقاب لا قوانينه نفسها . والحقيقة أن دراكون قد جمع فى شرائعه ما كان فى نظام الإقطاع من عادات قاسية مهوشة خالية من النظام ، ولكنه لم يفعل شيئاً لإنقاذ المدينين من الاسترقاق ، أو يقلل من استغلال الأقوياء للضعفاء ؛ ومع أنه قد وسع دائرة من لهم حقوق سياسية بعض التوسيع ، فإنه ترك لطبقة كرام المحتد (اليوپترد) السيطرة التامة على دور القضاء ، كما ترك لهم الحق فى أن يفسروا كما يرون كل ما يمس مصالحهم من القوانين ونقط الخلاف[٤٤] . وقد ضمنت شرائعه لأصحاب الأملاك حماية أكثر مما كان لهم من قبل ؛ فكانت السرقات الصغيرة ، بل التراخى فى العمل ، يعاقب عليهما بحرمان المواطنين من حقوقهم السياسية ، ويعاقب عليهما غير المواطنين[*] بالإعدام[٤٥] .

وبينا كان القرن السابع عشر قبل الميلاد يقترب من نهايته ، كان حقد الفقراء المعدمين عديمى النصير على الأغنياء المتمتعين بحماية القانون قد أوشك أن يقذف بأثينة فى أتون الثورة . ذلك أن المساواة ليست نظاماً طبيعياً ، وحيث تطلق الحرية للكفاية وللدهاء فلا بد من أن تنشأ الفوارق وتبقى حتى تقضى على نفسها فى الفقر الشامل الذى تؤدى إليه الحرب الاجتماعية والذى لا يميز بين من كان فى الأصل غنياً ومن كان فقيراً ؛ وقصارى القول أن الحرية والمساواة ليستا رفيقين متلازمين بل عدوين متباغضين . وتجمع الثروة يبدأ بأن يكون نظاماً محتوماً ، ثم ينتهى بأن يكون نظاماً مهلكا مبيداً . وفى ذلك يقول أفلوطرخس : إن التفاوت فى الثراء بين الأغنياء والفقراء قد بلغ غايته ، حتى بدا أن المدينة قد أضحت فى حال تخشى مغبتها ، وأن ليس ثمة وسيلة تنجيها من الاضطراب . . . إلا سلطة استبدادية »[٤٦] . ورأى الفقراء أن حالهم تزداد سوءاً عاماً بعد عام ،

(*) « كان الذى يسرق كرنبة يجازى بما يجازى به من يقتل أمه أو ينتهك حرمة الدين » صولون لأفلوطرخس .

فزمام الحكم والجيش فى أيدى سادتهم ، والمحاكم الفاسدة المرتشية تقضى فى كل نزاع فى غير مصلحتهم(٤٧) — فأخذوا يتحدثون عن الثورة العنيفة ، وعن توزيع الثروة توزيعاً يخالف ما هو قائم وقتئذ مخالفة تامة(٤٨) . فلما عجز الأغنياء عن تحصيل ما لهم من ديون قانونية ، وأغضبهم تحدى الفقراء لهم وتهديدهم بالاعتداء على أموالهم المدخرة وأملاكهم(٤٩) ، لجأوا إلى القوانين القديمة واستعدوا الحماية أنفسهم بالقوة من الغوغاء ، بعد أن بدا لهم أن هؤلاء لايهددون أموالهم فحسب ، بل يهددون فوق ذلك النظام القائم كله ، والدّين ، والحضارة بقضها وقضيضها .

٢ — الثورة الصولونية

قد يبدو عجيباً بعيداً عن المعقول أن يقوم فى هذا الدرك الذى تدهورت إليه شئون أثينة والذى يتكرر كثيراً فى تاريخ الأمم ، نقول قد يبدو عجيباً أن يقوم رجل يستطيع بغير عنف أو خطب قاسية مربرة أن يقنع الأغنياء والفقراء على السواء بأن يسووا أمورهم فيما بينهم تسوية لم تحل دون الفوضى الاجتماعية فحسب بل أقامت فوق ذلك نظاماً سياسياً واقتصاديا جديداً خيراً من النظام السابق ، بقى ما بقيت أثينة مدينة مستقلة . ألا إن ثورة صولون السلمية لمن المعجزات التاريخية التى تبعث الشجاعة والأمل فى النفوس !

كان والد صولون من الأشراف الكرام المحتد ، ومن أرفعهم بيتاً ، وأنقاهم دما ، ينتهى نسبه إلى الملك كدروس ، بل إنه كان يتبع نسبه إلى پوسيدن نفسه . وكانت أمه ابنة عم پيسستراتس الطاغية الذى خرق دستور صولون فى أول الأمر ثم عاد بعدئذ فثبت دعائمه . وقد انغمس صولون فى شبابه فيما كان ينغمس فيه أهل زمانه : فكان يقرض الشعر ويتغنى بملاذ « الصداقة اليونانية(٥٠) » ، وفعل ما فعله ترتاتوس Tyrtaetus فأثار حماسة

الناس بشعره ودفعهم إلى فتح سلاميس[٥١] . ثم صلحت أخلاقه فى سن الكهولة صلاحاً يتناسب تناسباً عكسياً مع شعره ، فأصبحت أشعاره فاترة ونصائحه جيدة . انظر مثلا إلى قوله فى أشعاره : « إنالكثيرين من الناسأغنياء ، ولكنهم لا يستحقون هذا الغنى ، على حين أن من هم خير منهم يقاسون آلام الفاقة . ولكنا لن نستبدل حال هؤلاء الأغنياء بحالنا ، لأن ميزتنا باقية دائمة ، أما ميزتهم فإنها تنتقل من إنسان إلى إنسان » ، وثروة الغنى « ليست أعظم من ثروة من لا يملك إلا معدته ورئتيه وقدميه ، وهى الأعضاء التى تأتيه بالسرور ولا تأتيه بالألم ؛ وليست خيراً من محاسن الفتى أو الفتاة أو نضرة شبابه أو شبابها ، أو من وجود ينسجم مع صروف الأيام[٥٢] » . ولما حدث فى أثينة شقاق وانقسام بقى هو على الحياد ، وكان ذلك لحسن الحظ قبل أن تقرر الشرائع المعزوة له أن هذه الحيطة جريمة[٥٣] ، ولكنه لم يتردد قط فى التشهير بالوسائل التى سلكها الأغنياء لإذلال الفقراء ، ودفعهم إلى أحضان الفاقة[٥٤] . وإذا كان لنا أن نأخذ بأقوال أفلوطرخس فإن والد صولون قد « بدد ثروته فى التصدق على الناس والإحسان إليهم » . واشتغل صولون بالتجارة وأصبح من التجار الناجحين ذا مصالح كثيرة فى أقطار بعيدة ، أكسبته خبرة واسعة وأمكنته من الأسفار والتنقل فى بلاد بعيدة ، وكان يسير فى عمله على المبادئ التى يدعو إليها فى قوله ، واشتهر بين جميع طبقات الناس بالاستقامة . وكان لا يزال صغير السن نسبياً — فى الرابعة والأربعين أو الخامسة والأربعين — حين أقبل عليه فى عام ٥٩٤ ممثلو الطبقات الوسطى يدعونه إلى قبول ترشيحهم إياه ليكون أركونا بالاسم teponymos ، على أن يمنح سلطة مطلقة لإخماد نار حرب الطبقات ، ووضع دستور جديد للبلاد ، وإعادة الاستقرار إلى الدولة . ووافقت الطبقات العليا على هذا

الاختيار وهي كارهة ، وكان الباعث لها على الموافقة ثقتها بأن رجلا مثله من أصحاب المال لا بد أن يكون رجلا محافظا .

وكانت أعماله الأولى أعمالا بسيطة ولكنها كانت من قبيل الإصلاحات الاقتصادية الشاملة ؛ وقد خيب آمال المتطرفين بإحجامه عن إعادة تقسيم الأراضي . ولو أنه فعل هذا لأدى ذلك إلى الحرب الأهلية وإلى الفوضى التي تدوم جيلا كاملا ، وإلى عودة الفوارق مسرعة ، ولكن صولون استطاع بفضل قانونه الشهير قانون السيسكثيا Seisachtheia أو « رفع الأعباء » أن يلغي كما يقول أرسطاطاليس « جميع الديون القائمة سواء أكانت للأفراد أم للدولة[55] » ، وهكذا حرر أراضي أتكا من جميع الرهون بجرة قلم ؛ هذا إلى أنه أطلق سراح جميع من استرقوا أو التصقوا بالأرض ، وكل من بيعوا رقيقاً في خارج البلاد وطاب إليهم أن يعودوا إلى مواطنهم ، وحرم مثل هذا الاسترقاق في المستقبل . وخليق بنا أن نذكر من خصائص الخلق في هذا المقام أن بعض أصدقاء صولون قد عرفوا ما يعتزمه من إلغاء الديون فاشتروا أراضي واسعة مرتهنة ثم احتفظوا بها فيما بعد من غير أن يؤدوا ما عليها من رهون ؛ ويحدثنا أرسطاطاليس بأسلوب تهكمي بأن هذا كان منشأ ثروات طائلة كثيرة العدد « ظن الناس » فيما بعد « أنها ترجع إلى أزمنة لا يذكرها الناس لقدم عهدها[57] » . وقال بعض الناس إن صولون قد تغاضى عن هذا العمل وإنه استفاد منه ، حتى تبين بعدئذ أنه وهو الدائن الكبير قد خسر بقانونه الشيء الكثير[58] . واحتج الأغنياء بأن هذا التشريع كان في حقيقة الأمر مصادرة لأموالهم ، ولكنه أصم أذنيه عن سماع احتجاجهم ؛ ولم تمض عشرة أعوام على صدوره حتى أجمع الناس ؛ أو كادوا يجمعون ، على أنه أنجى أتكا من الثورة[59] .

وثمة إصلاح آخر من إصلاحات صولون لا نستطيع أن نتحدث عنه حديثاً يقينياً واضحاً . وفيه يقول أرسطاطاليس إن صولون قد « استبدل

بالنقود الفيلونية « Pheidonian » – أي النقود الأجنبية التي كانت مستعملة في أتكا حتى ذلك الوقت – « نظام عوبية النقدى على نطاق واسع وجعل قيمة المينا mina(*) مائة درخمة بعد أن كانت من قبل سبعين[٦٠] » . ويقول أفلوطرخس في بيانه عن هذا الإصـــلاح ، وهو أوفى من بيان أرسطاطاليس ، إن صولون جعل المينا تصرف بمائة درخمة بعد أن كانت ثلاثاً وسبعين ، وبهذا أصبحت قيمة القطع التي تدفع أقل مما كانت قبل وإن كان عددها واحداً ، وكان في هذا نفع كبير للذين يريدون أن يوفوا بديونهم ، ولم يكن فيه خسارة على الدائنين[٦١] » . إن أفلوطرخس الظريف الكريم وحده هو الذى استطاع أن يجد طريقة لتضخم العملة ينقذ بها المدينين دون أن يلحق الضرر بالدائنين – إلا هذا الضرر الوحيد وهو أن نصف العمى في بعض الحالات خير بلا ريب من العمى كله(**) .

وكان أبقى من هذه الإصلاحات الاقتصادية تلك القرارات التاريخية التي أنشئ بمقتضاها دستور صولون . وقد قدم لها صولون بعفو عام أطلق به سراح كل من سجن ، وأعاد إلى البلاد كل من نفى منها لجرائم سياسية إذا لم تكن هذه الجرائم هي محاولة اغتصاب مقاليد الحكم في البلاد . ثم واصل عمله بأن ألغى إلغاء صريحاً أو ضمنيا معظم شرائع دراكون ؛ إلا أنه أبقى منها على القانون الخاص بعقاب القتلة[٦٢] وقد طبقت قوانين صولون

(*) انظر قيمة العملة الأثينية في الفصل الثالث من الباب الثاني عشر من هذا الكتاب .

(**) فسر جروت Grote وغيره قول أفلوطرخس إن صولون قد خفض العملة بمقدار ٢٧٪ من قيمتها فتيسر الأمر للملاك الذين كانوا هم أنفسهم مدينين وحرموا من فوائد الرهون التي كانوا يعتمدون عليها للوفاء بما عليهم من التزامات . غير أن هذا التضخم لو أنه قد حصل لكان ضربة ثانية شديدة الوقع على الملاك الذين أقرضوا التجار أموالا ؛ وإذا كان قد أفاد طائفة ما فهى طائفة التجار لا طائفة الملاك أو الفلاحين الذين ألغى من قبل ما على أملاكهم من رهون . ولعل صولون لم يفكر قط في تخفيض قيمة العملة ، بل كل ما فعله هو أنه أراد أن يستبدل بالمعيار النقدى الذى وجد أنه ييسر التجارة مع بلاد البلوبونيز معياراً آخر ييسر الأعمال التجارية مع أسواق أيونيا الغنية المطردة الاتساع والتى كان معيار النقد العوبى مستعملا فيها[٦٣].

على جميع السكان الأحرار بلا تمييز بينهم ؛ فأصبح الأغنياء والفقراء على السواء مقيدين بقيود واحدة تفرض عليهم عقوبات واحدة . وإذ كان صولون قد عرف أنه لم يستطع تنفيذ إصلاحاته إلا بمعونة طبقتى التجار والصناع ، ورغبة منه فى أن يجعل لهم حظاً فى حكومة البلاد ، فقد قسم سكان أتكا أربع مجموعات على أساس ثروتهم : الأولى أصحاب الخمسمائة بشل bushel(*) وهم الذين يصل دخلهم السنوى إلى خمسمائة مكيال من الحاصلات أو ما يعادلها pentacosiomedemni(**) ، والثانية هم الهبي hippes الذين يتراوح دخلهم بين ثلثمائة وخمسمائة بشل . والثالثة جماعة الزوجتاى zeugitai الذين يتراوح دخلهم بين مائتين وثلثمائة ، والرابعة جماعة الثيتى hetes وتشمل غير هؤلاء كلهم من الأحرار . وكانت مظاهر الشرف والتكريم تتناسب مع ما يؤدى من الضرائب فلا يستمتع إنسان بالأولى دون أن يتحمل عبء الثانيه ، يضاف إلى هذا أن الضرائب التى تؤديها الطبقة الأولى كانت تفرض على ما يعادل دخلها السنوى اثنى عشر مرة ؛ والطبقة الثانية على ما يعادل دخلها عشر مرات ، والثالثة على ما يعادل دخلها خمس مرات فقط ؛ أى أن ضريبة الأملاك كانت فى واقع الأمر ضريبة دخل تصاعدية[٦٥] . أما الطبقة الرابعة فكانت معفاة من الضرائب المقررة (المباشرة) . وكانت الطبقة الأولى وحدها هى التى يمكن اختيار رجالها إلى الأركونية وإلى قيادة الجيش ؛ أما الطبقة الثانية فكان من حقها أن يختار أفرادها إلى المناصب وإلى فرق الفرسان فى الجيش ، وكانت الطبقة الثالثة تختص بالعمل فى فرق المشاة الثقيلة ؛ وأما الرابعة فكان يطلب إليها أن تمد الدولة بالجنود العاديين . وقد أضعف هذا التقسيم الفذ نظام

(*) البشل مكيال إنجليزى يعادل ثمانية جالونات .

(**) كان المدمنس medimnous — المعادل لبشل ونصف تقريباً — يعد مساوياً فى قيمته النقدية للدرخمة .

القرابة الذى كانت تعتمد عليه قوة الأجاركية ؛ وأحل محله مبدأ جديداً هو مبدأ «التمقراسيه Timocracy » ، أى حكم ذوى الشرف أو المنزلة ، ويحددهم صراحة ما لهم من ثروة تفرض عليها الضرائب . وكان حكم «بلوتوقراطى (يتولاه المثرون) » شبيه بهذا الحكم منتشراً خلال القرن السادس كله وبعض القرن الخامس فى معظم المستعمرات اليونانية .

وقد أبقى دستور صولون على رأس الدولة مجلس الشيوخ القديم مجلس الأريوبجوس ، بعد أن جرده من بعض ما كان له من سلطان وما كان يمتاز به من عزلة ، وبعد أن أصبح مفتوح الأبواب لجميع أفراد الطبقة الأولى ، ولكنه ظل مع ذلك صاحب السلطة العليا المهيمن على سلوك الناس وعلى موظفى الدولة(٦٦) . ثم أنشأ بولا boule أو مجلساً جديداً مؤلفاً من أربعمائة عضو يلى مجلس الشيوخ فى السلطة تختار له كل طبقة من الطبقات الأربع مائة عضو . وكان هذا المجلس يختار جميع الأعمال التى تعرض على الجمعية ويبحثها ويعدها . ووضع صولون فى منزلة أدنى من هذا النظام الأجركى الأعلى الذى استرضى به الأقوياء ، أنظمة دمقراطية فى أساسها ، ولعله كان مدفوعاً إلى ذلك بحسن النية ورغبة العمل على خير الطبقات الدنيا . فقد أعاد إلى الحياة الإكليزيا lekiesia (الجمعية) القديمة التى كانت قائمة فى أيام هومر ودعا كل المواطنين إلى الاشتراك فى مناقشاتها . وكانت هذه الجمعية تختار كل عام من بين ذوى الخمسمائة بشل الأركونين الذين كانوا حتى ذلك الوقت يعينون من قبل مجلس الأريوبجوس ؛ وكان من حقها أن تستجوب هؤلاء الموظفين فى أى وقت ، وتتهمهم ، وتعاقبهم ؛ وإذا ما انقضت مدة توليهم مناصبهم ، كانت تبحث فى مسلكهم فى السنة التى تولوا العمل فيها ، وكان لها إذا شاءت أن تحرمهم حقهم فى أن يكونوا أعضاء فى مجلس الشيوخ . وأهم من هذا الحق ، وإن لم يبد وقتئذ كذلك ، مساواة الطبقات الدنيا للطبقات العليا فى حق الاختيار بالقرعة إلى الهيليائيا heliaea ، وهى هيئة من خمسة آلاف

من المحلفين تتألف منهم أنواع المحاكم التى تنظر فى جميع القضايا عدا قضايا القتل والخيانة ، والتى يصح أن ترفع إليها الشكاوى من أعمال الحكام على اختلاف أنواعها . ويقول أرسطاطاليس فى هذا : « يظن البعض أن صولون قد تعمد إدخال الغموض على قوانينه ليمكن العامة من استخدام سلطتهم القضائية لتقوية نفوذهم السياسى » ؛ ذلك أنه « لما كان الخلاف بينهم وبين الحكام لا يمكن تسويته بتطبيق حرفية القانون ، فقد كان عليهم أن يعرضوا جميع منازعاتهم على القضاة ، وكان هؤلاء إلى حد ما سادة القوانين(٦٧) » كما يقول أفلوطرخس نفسه . وقد كان حق الاستئناف إلى المحاكم الشعبية الإسفين الذى وسع نطاق الدمقراطية الأثينية ، كما كان حصنها الحصين فى مستقبل الأيام .

وأضاف صولون إلى هذا التشريع الأساسى ، وهو أهم ما فى تاريخ أثينة من تشريعات ، طائفة أخرى من الشرائع المختلفة يقصد بها معالجة مشاكل الوقت التى لم تكن لها مثل ما للمسائل الأساسية السابقة من خطر . وكان أول ما فعله أن جعل الثروة الفردية التى قرتها العادات قبل معترفاً بها قانوناً . وإذا كان للرجل أولاد كان عليه أن يقسم ثروته بينهم قبل وفاته ؛ فإذا لم يكن له أولاد كان له أن يوصى لأى إنسان بأملاكه التى كانت تؤول حتى ذلك الوقت ومن تلقاء نفسها لقبيلته(٦٨) . فبقوانين صولون بدأ حق الوصية وقانونها . وإذ كان هو من رجال الأعمال فقد أراد أن يشجع التجارة والصناعة بمنح حق المواطنية لجميع الأجانب الذين يحذقون حرفة ما والذين يأتون مع أسرهم ليقيموا بصفة دائمة فى أثينة . وحرم تصدير الغلات الزراعية عدا زيت الزيتون ، وكان يرجو بهذا أن يحول الناس من إنتاج المحصولات الزراعية الزائدة على الحاجة إلى الاشتغال بالصناعة . وسن قانوناً يقضى بأن الولد غير ملزم بمساعدة أبيه إذا كان هذا الأب لم يعلمه حرفة خاصة(٦٩) . ويرجع الفضل فيما نالته الصناعات من تشريف

عظيم ومكانة سامية إلى صولون - لا إلى من جاء بعده من الأثينيين .

ولم يحجم صولون عن التشريع فى ذلك الميدان الخطر ميدان الأخلاق والآداب العامة . فقد كان يعد الإصرار على البطالة جريمة ، ولم يكن يسمح للرجل الذى يعيش عيشة الدعارة والفجور أن يتقدم إلى الجمعية بطلب[٧٠] ، وجعل البغاء قانونياً وفرض على البغاة ضريبة ، وأنشأ مواخير عامة ، مرخصة من قبل الدولة وخاضعة لرقابتها . وشاد هيكلا لأفروديتى پندموس من إيراد هذه المواخير . وقد تغنى بمدحه رجل من معاصريه يدين بما يدين به لكى Lecky المؤرخ الأيرلنـدى المعروف فقال : « مرحباً بك يا صولون ! لقد ابتعت المومسات لخير المدنية ، ولوقاية أخلاق المدينة الغاصة بالشبان الأشداء ، ولولا تشريعك الحكيم ، لضايق هؤلاء الشبان فضليات النساء ونشروا فى المدينة الفساد والاضطراب[٧١] » . وفرض غرامة قدرها مائة درخمة على من يعتدى على عرض امرأة حرة ، وهى عقوبة أقل كثيراً مما فى قوانين دراكون ، ولكنه أباح لمن يمسك برجل زان متلبس بجريمته أن يقتله لساعته . وحدد بائنات العرائس ومهورهن لرغبته فى أن يكون الباعث على الزواج هو الحب المتبادل بين الزوجين والرغبة فى النسل وتربية الأولاد ، ونهى النساء عن أن يكون لهن من الملابس أكثر من ثلاث حلل ، وكان فى ثقته بقدرته على تنفيذ قانونه شبيهاً بالأطفال فى ثقتهم بقدرتهم على تنفيذ أوامرهم ونواهيهم . ولقد طلب إليه أن يسن قانوناً يضيق به على العزاب ، ولكنه لم يجب هذا الطلب وقال فى تبرير عدم إجابته إن « الزوجة عبء ثقيل الحمل[٧٢] » . وقد جعل اغتياب الموتى جريمة ، وكذلك كان اغتياب الأحياء فى الهياكل والمحاكم ، ومكاتب الموظفين العموميين ، وفى ساحات الألعاب ؛ ولكنه حتى هو نفسه لم يستطع أن يمسك ألسنة الناس فى أثينة حيث كانت الغيبة والنميمة تبدوان كما تبدوان عندنا الآن من مستلزمات الدمقراطية

وقد قرر أن الذين يبقون على الحياد فى أوقات الفتن يفقدون حقهم بوصف كونهم مواطنين ، وذلك لأنه كان يرى أن عدم اهتمام الجمهور بالشئون العامة يؤدى إلى خراب الدولة . وحرم الاحتفالات الفخمة ، والقرابين الكثيرة النفقة ، والندب الطويل فى الجنائز . وحدد مقدار ما يدفن مع الأموات من متاع ، وسن ذلك القانون العادل الذى ظل مصدراً لبسالة الأثينيين أجيالا طويلة وهو القانون الذى فرض على الحكومة تربية أبناء من يقتلون فى الحرب وتعليمهم على نفقتها .

وأضاف صولون إلى كل شريعة من شرائعه عقوبات كانت أخف من عقوبات دراكون ولكنها مع ذلك صارمة ، وجعل من حق كل مواطن أن يقاضى أى شخص يرى أنه ارتكب جريمة ما . وأراد أن يعرف الناس قوانينه حق المعرفة وأن يطيعوها ويلتزموا العمل بها فكتبها فى ساحة الأركون الدينى (أركون باسليوس) على ملفات أو منشورات خشبية تدار وتقرأ . ولم يدَّع كما ادعى ليقورغ ومينوس ، وحورابى ، ونحوهما ، أن إلها ما قد أنزل عليه هذه الشرائع ؛ وهذا العمل فى حد ذاته مما يكشف عن مزاج ذلك العصر ومزاج المدينة ومزاج صولون نفسه . ولما طلب إليه أن يجعل نفسه حاكما بأمره مدى الحياة أبى وقال إن الدكتاتورية « مُقام جميل حقا ، ولكن ليس ثمة طريق للنزول منه(٧٣) » . وكان المتطرفون ينتقدونه لأنه لم يسو بين الناس فى الملك وفى السلطان ، والمحافظون ينددون به لأنه منح العامة الحقوق السياسية وأجلسهم فوق منصة القضاء ؛ بل إن صديقه أنكرسيس Anachrsis ، الحكيم السكوذى صاحب الأطوار الشاذة ، قد سخر من دستوره الجديد وقال فى ذلك إن الحكماء قد أصبحوا يترافعون ، والحمقى يحكمون ، وأضاف إلى ذلك قوله إنه لا يمكن أن تقوم بين الناس عدالة دائمة لأن فى وسع الأقوياء والمهرة أن يحوروا أى قانون يسن لكى يتفق مع مصلحتهم الخاصة ؛ ولأن القانون أشبه ببيت العنكبوت يقتنص الذباب الصغير ويفلت منه البق الكبير . وكان صولون

يتقبل كل هذا النقد بقبول حسن ، ويعترف بما فى شرائعه من نقص ؛ ولما سئل هل سن للأثينيين أحسن الشرائع أجاب « لا ، بل » سننت لهم « خير ما يستطيعون أن يُعطَوه » — أى خير ما يمكن إقناع الجماعات والمصالح المتضاربة فى أثينة بأن تقبله كلها فى ذلك الوقت بالذات . وقد اتبع الطريق الأوسط وأبقى بذلك على الدولة ؛ وكان تلميذاً ناجحا من تلاميذ أرسطاطاليس قبل أن يولد هذا الفيلسوف الاستجيرى Stagirite . وتعزو إليه الرواية الشعار الذى نقش على هيكل أپلو فى دلفى وهو me ienagan أى لا إفراط فى شىء[٧٥] ، وقد أجمع اليونان على وضعه بين السبعة الحكماء .

وخير شاهد على حكمته هو ما كان لتشريعه من أثر خالد ، فقد استطاع شيشرون ، على الرغم مما حدث فى أثينة من آلاف التغيرات والتطورات ، وبالرغم مما قام فيها من دكتاتوريات وانقلابات سطحية ، استطاع على الرغم من هذا أن يقول بعد خمسة قرون من عهد صولون إن شرائعه كانت لا تزال نافذة فى أثينة[٧٦] . ولقد كان عمله من الوجهة القضائية الحد الفاصل بين حكم المراسيم المتغيرة التى لا عداد لها وبين بداية حكم الشرائع المدونة الدائمة . ولما سأله سائل متى تكون الدولة حسنة النظام ثابتة البنيان أجاب بقوله : « حين يطيع المحكومون الحكام ، ويطيع الحكام القوانين[٧٧] » . وبفضل قوانينه تحرر زراع أتكا من الاسترقاق الإقطاعى ، وقامت فيها طبقة من الزراع الملاك ، كان امتلاكهم الأرض هو الذى جعل الجيوش الأثينية الصغيرة قادرة على الاحتفاظ بحرية المدينة أجيالا طويلة ، ولما اقترح فى نهاية حرب البلوپونيز قصر الحقوق السياسية على الملاك الأحرار لم يوجد من الأحرار الراشـــدين فى أتكا كلها من لا ينطبق على هذا الشرط إلا خمسة آلاف لا أكثر[٧٨] . هذا إلى أن التجارة والصناعة قد تحررتا فى الوقت نفسه من القيود السياسية التى كانت مفروضة عليهما ، ومن العوائق المالية ، وبذلك بدأ فيهما ذلك التطور القوى النشيط

الذى أصبحت أثينة بفضله الزعيمة التجارية فى بلاد البحر المتوسط وكانت أرستقراطية الثراء الجديدة ترفع من شأن الذكاء لا من شأن المولد ، وتشجع العلم والتعليم ، وتمهيد السبيل مادياً وعقلياً للأعمال الثقافية العظيمة التى تمت فى العصر الذهبى .

ولما بلغ صولون فى عام ٥٧٢ سن السادسة والستين آثر الحياة الخاصة ، فاعتزل منصبه بعد أن ظل أركونا خمسة وعشرين عاماً ، وبعد أن أخذ العهد على أثينة ، بأيمان أقسمها ،وظفروها ، أن تطيع قوانينه بلا تغيير فيها ولا تبديل مدة عشر سنين[٧٩] ؛ وسافر بعدئذ ليطلع على حضارة مصر والشرق ، ويلوح أن ذلك الوقت هو الذى قال فيه قالته الذائعة الصيت — « إنى لتكبر سنى وما فتئت أتعلم »[٨٠] . ويقول أفلوطرخس إنه درس التاريخ فى عين شمس (هليوبوليس) على الكهنة ، ويقال إنه سمع منهم عن أطلنطيس Atlantis القارة الغارقة ، التى قص قصتها فى ملحمة لم يتمها ، افتتن بها أفلاطون الواسع الخيال بعد مائتى عام من عصره . وسافر من مصر إلى قبرص ووضع القوانين لتلك المدينة التى غيرت اسمها من قبرص إلى Soli تكريماً له(*) . ويصف هيرودوت[٨١] أفلوطرخس حديثه مع كروسس ملك ليديا فى سرديس — وما أقوى ذاكرتهما التى أمكنتهما من أن يقصا هذا الحديث — فيروبا كيف خرج هذا الرجل صاحب الثروة المنقطعة النظير مزداناً بكل ما عنده ، وسأل صولون ألا يرى أنه ، كروسس ، رجل سعيد ، وكيف أجابه صولون بصفاقته اليونانية قائلا : « إن الآلهة أيها الملك قد وهبت اليونان كل ما وهبتهم من النعم بقسط معتدل ؛ وكذلك حكمتنا فهى حكمة مرحة معتدلة ، لا حكمة نبيلة ملكية ؛ وإذا ما قلبنا النظر فى البلايا الكثيرة التى تكتنف الناس فى جميع الظروف فإن هذا الاعتدال

(*) يقص ديوجنيز ليرتيس هذه القصة عن صول فى قليقية — وهى البلدة التى كان استخفافها باللغة اليونانية القديمة إلى أيام الإسكندر سبباً فى وجود لفظ solecism ومعناه الخطأ فى الكلام أو خرق حرمة الآداب .

ينأى بنا عن أن نصطنع الصغار فيما نتمتع به فى وقتنا الحاضر ، أو أن نعجب بما يتقلب فيه أى إنسان من سعادة ، قد تتبدل إلى نقيضها على مر الأيام . ذلك أن المستقبل المجهول قد يأتى بما لا يحصى من مختلف الحظوظ ؛ ونحن لا نسمى إنساناً سعيداً إلا إذا وهبته الآلهة السعادة إلى آخر أيامه . وإن فى وصف الرجل الذى لا يزال فى منتصف حياته وأخطارها بأنه سعيد من الخطأ والمخاطرة مثل ما فى تتويج المصارع بتاج النصر وإعلان فوزه وهو لا يزال فى حلبة الصراع[٨٢] .

وهذا العرض الشائق لما يطلق عليه كتاب المسرحيات اليونان اسم هبريس hybris — أى الرخاء الوقح — ليم عن حكمة أفاوطرخس الشاملة . وكل ما نستطيع أن نقوله فيها إنها قد صيغت فى ألفاظ أجمل من الألفاظ التى صاغها فيها هيرودوت ، وإن كلا النصين فى أغلب الظن من نسج الخيال . وما من شك فى أن الطريقة التى مات بها صولون وكروسس تبرر ما فى هذه العظة من تشكك . فقد خلع قورش كروسس فى عام ٥٤٦ ، وعرف الرجل (إذا صح لنا أن نعيد صياغة عظة هيرودوت فى ألفاظ داتى) وهو فى بؤسه مرارة تذكر أيام مجده السعيدة وما كان فى تحذير الحكيم اليونانى من صرامة . أما صولون فإنه بعد أن عاد إلى أثينة ليلاقى فيها الموت ، شهد فى آخر أيامه القضاء على دستوره ، وإقامة حكم دكتاتورى على أنقاضه ، وإخفاق كل ما بذله من جهود وإن كان إخفاقاً فى ظاهر الأمر فحسب .

٤ — دكتاتورية بيسستراتس

لما غادر صولون أثينة — عادت الجماعات المتنازعة التى سيطر عليها مدى جيل كامل إلى ما كانت عليه من دسائس ومشاحنات سياسية متأصلة فى طبيعتها . وكان فيها ، كما كان فى أيام الانفعالات الشديدة فى الثورة الفرنسية ، ثلاثة أحزاب تسعى جاهدة ليكون منها صاحب السلطان الأقوى : « الشاطئ » ويتزعمه تجار الثغور الذين يميلون إلى صولون ؛ و « السهل »



ويتزعمه ملاك الأراضى الذين يكرهون صولون ؛ و « الجبل » ويتألف من خليط من الفلاحين وعمال المدن ، وكانوا لايزالون يطالبون بإعادة توزيع الأراضى . ورضى بيسستراتس ، كما رضى بركليز بعد مائة عام من ذلك الوقت ، أن يتزعم حزب العامة ، وإن كان هو من الأشراف مولداً ، وثروة ، وأخلاقاً ، وميولا . وكشف فى إحدى جلسات الجمعية عن جرح قال إنه أصابه به أعداء الشعب ، وطلب أن يعين له حرس خاص ؛ واحتج صولون على هذا الطلب ، لأنه كان يعرف ما عليه قريبه من دهاء ، وظن أن الجرح قد أحدثه هو فى جسمه ، وأن الحرس الخاص سيمهد السبيل إلى الدكتاتورية ، وقال محذراً الأثينيين : « يا رجال أثينة ! إنى أكثر من بعضكم حكمة ، وأكثر من البعض الآخر شجاعة : أكثر حكمة ممن لا يدركون غدر بيسستراتس ، وأكثر شجاعة ممن يدركونها ولكنهم لخوفهم يسكتون عنها[٨٣] » . ولكن الجمعية رغم هذا التحذير وافقت على أن يكون له حرس مؤلف من خمسين رجلا ، غير أن بيسستراتس لم يكتف بخمسين — بل جمع أربعمائة ، واستولى على الأكروبول ، وأعلن نفسه حاكما بأمره . ونشر صولون على الأثينيين رأيه فيهم فقال إن « كل واحد منكم يمشى وهو منفرد بخطى الثعلب فإذا اجتمعتم كنتم إوزا[٨٤] » ، ثم وضع أسلحته ودرعه على باب بيته إشارة إلى أنه لم يعد يهتم بالسياسة ، وخص أيامه الباقية بقرض الشعر .

واتحدت قوات أصحاب المال من حزبى الشاطئ والسهل زمناً ما ، وطردت الطاغية من البلاد (٥٥٦) ، ولكن بيسستراتس اصطلح مع حزب الشاطئ سراً ، وعاد إلى أثينة فى ظروف يلوح أنها تؤيد رأى صولون فى عقلية الجماعة . وأكبر الظن أن حزب الشاطئ قد غض الطرف عن هذه العودة . وأقبلت امرأة طويلة حسناء مدرعة بدرع أثينا إلهة المدينة وعليها ثيابها ، تجلس فى مركبة جلسة العظمة والكبرياء ، وتقود جيش بيسستراتس إلى المدينة ، بينا كان المبشرون ينادون أن ربة المدينة وحاميتها أخذت تعيد

إليه بنفسها سلطته (٦٥٠) . ويقول هيرودوت فى هذا : « ولم يكن لدى أهل المدينة أقل شك فى أن هذه المرأة هى الإلهة نفسها ، فخروا سجداً أمامها ، ورضوا بعودة بيسستراتس[٨٥] » . وانقلب زعماء الشاطئ عليه مرة أخرى ، وأخرجوه من المدينة مرة ثانية (٥٤٩) ، ولكنه عاد إليها من جديد فى عام ٥٤٦ ، وهزم الجنود الذين سيروا لقتاله . وبقى فى هذه المرة حاكما بأمره تسعة عشر عاماً ، كادت سياسته وخططه الحكيمة فى خلالها أن تكفر عن الأساليب الروائية غير الشريفة التى استولى بها على أزمة الحكم .

وكانت أخلاق بيسستراتس مزيجا نادراً من الثقافة ، وقوة العقل ، ومن الكفاية الإدارية ، والجاذبية الشخصية . وكان فى وسعه أن يقاتل دون أن تأخذه بأعدائه رحمة ، وأن يعفو عنهم دون ما تردد ؛ وكان فى مقدوره أن يعيش فى أكثر التيارات الفكرية تقدماً فى أيامه ، وأن يحكم دون أن يتأثر مما يتأثر به الرجل المفكر من تردد فى الهدف وإحجام عن البت فى الأمور . وكان دمث الأخلاق ، رحيما فى أحكامه ، كريماً فى معاملته جميع الناس . ويقول فيه أرسطاطاليس : « وكان حكمه معتدلا ، وسار فيه سيرة السياسى لا سيرة الرجل الظالم المستبد »[٨٦] . ولم ينتقم إلا من عدد قليل من أعدائه الجدد ؛ ولكنه نفى من البلاد من لم يستطع استرضاءهم من معارضيه ، وقسم ضياعهم على الفقراء . وأصلح الجيش ، وأنشأ الأسطول ، ليصد بهما الاعتداء من خارج البلاد ؛ وجعل أثينة بمنجاة من الحرب ، ونشر فى المدينة التى لم تخرج من غمار المنازعات الطائفية إلا من عهد قريب لواء الأمن والنظام والرضا والطمأنينة ، حتى أصبح من الأقوال التى تألف الأذن سماعها أنه أعاد إليها عصر كرونوس الذهبى .

وأدهش الناس كلهم باحتفاظه بدستور صولون وعدم إدخاله شيئاً على تفاصيله إلا القليل الذى لا يستحق الذكر ذلك أنه كان يعرف ، كما عرف أغسطس من بعده ، كيف يزين الدكتاتورية ويؤيدها بالمنح والأشكال

الدمقراطية . لقد ظل الأركونون يختارون كما كانوا يختارون من قبل ، وظلت الجمعية ، والمحاكم الشعبية ، ومجلس الأربعمائة ، ومجلس شيوخ الأريوبجوس تجتمع وتقوم بواجباتها كما كانت تفعل قبل أيامه ، وكل ما جد أن اقتراحات پيسستراتس كانت تلقى فيها كلها أذناً واعية . ولما أن اتهمه أحد المواطنين بالقتل مثل أمام مجلس الشيوخ وعرض عليه أن يتقدم للمحاكمة ، فما كان من الشاكي إلا أن قرر أنه لا يستمسك بالتهمة . ورضى الناس بحكمه على مر السنين ، وكان أكثرهم رضا أقلهم ثراء ، وما لبثوا أن تفاخروا به ، وفى آخر الأمر أحبوه وأولعوا به ، وأكبر الظن أن أثينة كانت بعد صولون فى حاجة إلى رجل مثل پيسستراتس أوتى من الشدة ما يستطيع به أن يستبدل بما كان فى الحياة الأثينية من اضطراب نظاماً واستقراراً ، وأن يعود الناس بالإكراه فى بادئ الأمر عادات النظام وطاعة القانون ، وهما للمجتمع البشرى كالهيكل العظمى للحيوان يكسبانه الشكل والقوة وإن لم يكسباه الحياة المبدعة الخلاقة . ولما زالت الدكتاتوريه بعد جيل من ذلك الوقت ، بقيت عادات النظام ، وبقى معها الإطار الخارجى لدستور صولون ، لترثهما الدمقراطية . فكأن پيسستراتس لم يأت ليمحو القانون بل ليوطد أركانه ، وربما كان قد فعل ذلك على غير علم منه .

أما خططه الاقتصادية فقد واصل بها تحرير الشعب ، وهو التحرير الذى بدأه صولون . وقد حل المشكلة الزراعية بأن وزع على الفقراء ما كانت تمتلكه الدولة من الأراضى ، وما كان يمتلكه منها الأشراف الذين نفوا من البلاد ، وهكذا استقر فى الأرض الزراعية آلاف من الأثينيين الذين كانت بطالتهم خطراً على البلاد ، وظلت أتكا بعدئذ قروناً طوالا لا نسمع فيها عن تذمر بين الزراع[٨٧] . وأوجد عملا للمحتاجين فيما شرع فيه من منشآت متسعة النطاق ، فقد أنشأ سلسلة من المجارى لنقل ماء الشرب إلى المدينة ، ومن الطرق المعبدة ، وشاد هياكل عظيمة للآلهة ، وشجع استخراج الفضة من مناجم لوريوم Laurium ، وسك

للبلاد عملة جديدة خاصة بها . وجاء بالمال اللازم لهذه الأعمال بأن فرض ضريبة قدرها عشرة فى المائة على جميع المحصولات الزراعية ، ويبدو أنه خفض هذه الضريبة فيما بعد إلى خمسة فى المائة (٨٨) . ووضع مشروعاً لإقامة مستعمرات فى النقط الحربية الهامة على الدردنيل ، وعقد معاهدات تجارية مع كثير من الدول . وراجت التجارة فى أيامه رواجاً عظيماً ، وازدادت الثروة ، ولم تكن زيادتها بين عدد قليل من الناس بل شملت الأهلين بوجه عام ؛ فقد أصبح الفقراء أقل فقراً ، ولم يعد الأغنياء أقل غنى ؛ مما كانوا ؛ وامتنع تركيز الثروة الذى كاد يقذف بالمدينة فى أتون الحرب الأهلية ؛ وانتشر الرخاء وسنحت له الفرص فوضعت بذلك الأسس الاقتصادية للدمقراطية الأثينية .

وتبدلت أحوال أثينة جسما وعقلا فى أيام بيسستراتس وولده فقد كانت إلى ما قبل أيامهما بلدة فى المرتبة الثانية بين بلاد العالم اليونانى ، تسبقها ميليتس وإفسوس ، ومتلينى ، وسرقوسة ، فى الثروة والثقافة ، والحيوية والنتاج العقلى . أما فى أيامهما فقد قامت فيها أبنية من الحجر والرخام شاهدة بما كانت فيه وقتئذ من بهجة ونعيم ، وزين معبد أثينا القديم القائم على الأكروبول بأن ضم إليه رواق دورى الطراز ، وبدئ العمل فى هيكل زيوس الأولمبى الذى تزين أعمدته الكورنثية الفخمة ، حتى وهى محطمة ، الطريق الممتد بين أثينة ومرفئها . وأقام الألعاب الأثينية الجامعة ، وخلع عليها الصبغة اليونانية العامة ، فأولى المدينة بذلك شرفاً عظيما ، فضلا عما بعثه فيها من النشاط رؤيتها وجوها أجنبية ، ومباريات وأساليب غير أساليبها ، وفى أيامه أصبح عيد أثينة الجامع عيداً قومياً عاماً للشعب اليونانى كله ، ولا يزال موكبه العظيم يتحرك أمامنا على إفريز البارثنون . وقد أقبل على بلاطه ، بفضل منشآته العامة وحياته الخاصة ، المثالون والمهندسون ، والشعراء ، وجمع فى قصره مكتبة من أولى المكتبات التى أنشئت فى بلاد اليونان . وقد عين لجنة أعطت للإلياذة والأوديسة الصورتين اللتين

تعرفهما بهما الآن . وبفضل إدارته الرشيدة وتشجيعه العظيم ارتقى تسپيس وغيره من الكتاب بالتمثيل من تقليد هزلى ساخر إلى عمل فنى قابل لأن يصل إلى ذروة الكمال فى العهد الثلاثى العظيم من عهود المسرح الأثينى .

ولم يكن « استبداد » پيسستراتس إلا جزءاً من حركة عامة فى المدن التجارية النشيطة التى كانت قائمة فى بلاد اليونان فى القرن السادس ، والتى كانت تسعى لكى تستبدل بالحكم الإقطاعى على أيدى الملاك الأشراف السلطان السياسى للطبقة الوسطى المتحالفة موقتاً مع الطبقات الفقيرة(*) . وكانت أهم الظروف التى مهدت لهذه الدكتاتوريات هى تركيز الثروة فى أيد قليلة تركيزاً وخيم العاقبة ، وعجز الأغنياء عن الاتفاق على وسيلة للتوفيق بينهم وبين غيرهم من الطبقات . وإذ لم يكن للفقراء بد من أن يختاروا بين المال والحرية السياسية ، فإنهم كالأغنياء سواء بسواء يؤثرون المال على الحرية ، والحرية السياسية التى تستطيع البقاء وهى التى تنشب بحيث تمنع الأغنياء أن يستخدموا ما عندهم من مقدرة أو دهاء فى تجريد الفقراء مما عندهم ، وتمنع الفقراء أن ينهبوا الأغنياء بعنفهم أو بأصواتهم . ومن ثم كانت لسبيل إلى السلطة فى المدن التجارية اليونانية ممهدة سهلة : فما على من يريدها إلا أن يهاجم الأشراف ، ويدافع عن الفقراء ، ويتفاهم مع الطبقات الوسطى[٨٩] . فإذا وصل الطاغية إلى ما يرجوه من سلطان ألغى الديون ، أو صادر الضياع الواسعة ، وفرض الضرائب على الأغنياء ليمول بحصيلتها ما ينشئه من الأشغال العامة ، أو أعاد توزيع الثروة المركزة فى أيد قليلة بوسيلة أخرى غير هذه الوسيلة . وفى الوقت الذى يضم فيه الجماهير إلى جانبه

(*) والكلمة الإنجليزية tyrant أى المستبد أو الطاغية كلمة ليدية ، ولعلها مشتقة من اسم ترها Tyrrha المدينة الليدية . ومعنى هذا اللفظ هو قلعة ، ولعله ذو صلة بعيدة بلفظ Tower الإنجليزى (ولفظه بتريس اليونانى) . ويبدو أن أول من وصف « هو جيجيس Gyges ملك ليديا .

بهذه الوسائل وأشباهها ، يحصل على معونة رجال الأعمال بتشجيع التجارة عن طريق العملة الرسمية وعقد المعاهدات التجارية الأجنبية ، ورفع المنزلة الاجتماعية للطبقات الوسطى. وإذ كان الحاكم بأمره مضطراً إلى الاعتماد على حب الشعب له لا على حقه الموروث فى السلطان ، فإن الدكتاتوريات كانت فى الأغلب الأعم تتجنب الحروب وتناصر الدين ، وتحفظ النظام ، وتحث على الأخلاق الفاضلة ، وترفع منزلة النساء فى المجتمع ، وتشجع الفنون ، وتنفق المال بسخاء فى تجميل مدائنها . والطغاة يفعلون هذا كله فى كثير من الأحيان وهم محتفظون بصور الحكومة الشعبية وأساليبها فى العمل ، ومن ثم كان الناس حتى فى عهود الاستبداد يتعلمون طرائق الحرية . وبعد أن تنتهى الدكتاتورية من تحطيم الأرستقراطية كان الشعب يحطم الدكتاتورية ، ولم يكن يحتاج إلى تغيـــيرات كثيرة ليجعل دمقراطية الأحرار قائمة شكلا وعملا .

٥ – قيام الدمقراطية

لما توفى پسستراتس فى عام ٥٢٧ ورث أبناؤه السلطة من بعده ، وكانت حكمته قد اجتازت بنجاح كل اختبار إلا اختباراً واحداً ، فقد أخفق فى كسب حب أبنائه له . وقد وعد هپياس أن يكون عادلا عاقلا فى حكمه ، وظل ثلاثة عشر عاماً يسير على نهج أبيه . وكان أخوه الأصغر مولعاً بالحب والشعر ؛ ولم يكن فى هذا من الضرر أكثر من تبديد المال فى هاتين الهوايتين ؛ وكان هو الذى استقدم أنكريون Anacreon وسمنيدس Simonides إلى أثينة . غير أن الأثينيين لم يكونوا راضين كل الرضا عن أن يروا أزمة الحكم تنتقل بغير رضاهم إلى ابنى پيسستراتس ، وأخذوا يدركون أن الدكتاتورية قد مكنت لهم فى كل شىء إلا حافز الحرية . على أن أثينة رغم هـــذا كانت تتمتع بالرفاهية ورغد العيش ، ولولا أن الحب اليونانى الحقيقى يسير فى طريق وعر شائك لاستطال

حكم هبياس المادئ حتى يصل إلى خاتمته السلمية الطبيعية . وكان أرستوجيتون Aristogeiton وهو رجــل كهل قد كسب حب الفتى هرمديوس Harmodius وهو وقتئذ « فى ريعان الشباب ونضارته » كما يقول توكيديدس[٩٠] ، ولكن هباركس ، وهو أيضاً ممن لا يستحون أن يحبوا الغلمان ، كان يسعى هو الآخر ليتحبب إلى هذا الشاب ؛ فلما سمع أرستوجيتون بهذا اعتزم أن يقتل هباركس ويعمل فى الوقت ذاته على حماية نفسه بقلب الحكومة الاستبدادية ، وانضم إليه فى هذه المؤامرة هرموديوس وغيره من الأثينيين (٥١٤) واغتالوا هباركس وهو يعد العدة لموكب الألعاب الأثينية الجامعة ؛ ولكن هبياس أفلت منهم ودبر قتلهم . ومما زاد الأمور تعقيداً أن لينا Leaena عشيقة هرمديوس ماتت ميتة الشجعان أثناء تعذيبهم إياها ، لأنها أبت أن تغدر بالباقين من المتآمرين ؛ وإذا كان لنا أن نصدق الرواية اليونانية فإنها قطعت طرف لسانها وبصقته فى وجه معذبيها لتؤكد لهم أنها لن تجيب عن أسئلتهم[٩١] .

وارتاع هبياس لهذه الثورة ، وإن كان الأهلون لم يؤيدوها تأييداً ظاهراً ، ودفعه هذا الروع إلى أن يستبدل بحكمه الرحيم حكماً طابعه القمع ، والتجسس والإرهاب . وكان فى مقدور الأثينيين ، بعد أن نعموا بالرخاء جيلاً كاملاً ، أن يطلبوا الآن ترف الحرية ، وزادت صرخة المطالبة بها دوياً كلما زاد الطغيان قسوة ؛ واستحال هرمديوس وأرستجيتون فى خيال الشعب شهيدين من شهداء الحرية بعد أن لم يكونا إلا متآمرين يحيكان مؤامرة مبعثها الحب والهيام لا الديمقراطية(*). ورأى الألكميونيون فى دلفى الذين نفاهم بيستراتس من البلاد الفرصة سانحة لهم ، فجمعوا جيشاً ، وزحفوا به على أثينة ،

(*) ليس من حق الإنسان أن يعجب من أنهما يمثلان طبقة الأشراف الناصبة ، كما كان بروتس وكاسيس يمثلان هذه الطبقة فى رومة . وقد صار بروتس أيضاً بطل ثورة ، بعد أن طمس تاريخه مدى ثمانية عشر قرناً .

وأعلنوا أنهم لا يقصدون إلا خلع هيپاس . ورشوا فى الوقت نفسه الناطق بلسان الوحى فى پيثيا لكى يعلن لكل من يستشيره من الاسپارطيين أن من واجب اسپارطة أن تقضى على حكومة الطغيان فى أثينة . وقاوم هيپاس قوى الألكميونيين مقاومة عنيفة موفقة ، حتى انضم إليهم جيش لسديمونى ، فانسحب من الميدان واعتصم بالأريوپجوس . وأراد أن يؤمن أبناءه على حياتهم إذا ما قُتل هو ، فأخرجهم سراً من أثينة ؛ ولكن الغزاة ألقوا القبض عليهم ، وافتداهم هيپاس بأن قبل النزول عن الحكم والنفى (٥١٠) . ودخل الألكميونيون وعلى رأسهم كليسثنيز الباسل(*) ، أثينة ظافرين ، وفى أعقابهم الأشراف المنفيون يستعدون للاحتفال باسترجاع أملاكهم وسلطانهم .

واختير إسجوراس Isagoras فى الانتخابات التى أعقبت هذه الحوادث ليكون كبير الأركونين ، ولكن كليسثنيز أحد المرشحين المنهزمين حرض الشعب على العصيان ، وأسقط إسجوراس ، وأقام دكتاتورية شعبية . وغزا الاسپارطيون أثينة مرة أخرى ، يريدون إعادة إسجوراس إلى منصبه ، ولكن الأثينيين قاوموا الغزو مقاومة عنيفة اضطرت الاسپارطيين إلى الارتداد ، فلما تم ذلك شرع كليسثنيز ، الشريف الألكيمونى ، ينشئ حكومة دمقراطية (٥٠٧) .

وكان أول إصلاح له بمثابة معول دك به قواعد الارستقراطية الأتيكية — ونعنى بها القبائل الأربع والبطون الثلثمائة والستين التى كانت تتولى زعامتها ، جرياً على التقاليد التى دامت مئات السنين ، أقدمُ الأسر وأوفرها ثراء : فقد ألغى كليسثنيز هذا التقسيم القائم على صلات القرابة واستبدل به تقسيما آخر إقليمياً جعل الأهلين بمقتضاه عشر قبائل تتألف كل

(*) وهو حفيد كليسثنيز طاغية سكيون .

منها من عدد من المراكز يختلف باختلاف القبائل . وأراد أن يمنع التكتلات الجغرافية أو المهنية الشبيهة بأحزاب الجبل ، والشاطئ ، والسهل ، فألف كل قبيلة من عدد متساو من أقسام المدينة وسواحل البحر وداخلية البلاد . وعوض كل الأقسام الجديدة عن القداسة التي كان يخلعها على الأقسام القديمة فأوجد لكل قسم أو قبيلة حفلات دينية واختار أحد الأبطال القدماء وجعله إلهاً أو قديساً راعياً للقسم أو القبيلة . وأصبح الأحرار الذين ولدوا من أصل أجنبي مواطنين من تلقاء أنفسهم في القسم الذي يقيمون فيه ، وقلما كان هؤلاء يتمتعون بحق الانتخاب في العهود الأرستقراطية التي كان حق المواطن فيها يعتمد على حسبه ونسبه ، وبهذا العمل وحده تضاعف عدد الناخبين ، وأصبحوا عوناً جديداً للدمقراطية التي أضحت من ذلك الوقت أقوى أساساً من ذي قبل .

وخولت كل قبيلة جديدة حق ترشيح أحد الاستراتيجوى (القواد) العشرة الذين اشتركوا من ذلك الوقت مع القائد الأعلى في قيادة الجيش ، كما خولت أيضاً حق اختيار خمسين عضواً من أعضاء المجلس الجديد المؤلف من خمسمائة عضو وعضو والذي حل الآن محل مجلس صولون المؤلف من أربعمائة ، وجعلت له السلطات العامة التي كانت لمجلس الأريوبجوس . وكان هؤلاء الأعضاء يختارون مدة عام واحد بالقرعة لا بالانتخاب ، من قوائم تحوى أسماء جميع المواطنين الذين بلغوا سن الثلاثين ، والذين لم يكونوا قد قضوا في المجلس القديم دورتين . وفي هذا النوع الجديد العجيب من أنواع النظام النيابي استبدل بالمبدأ الارستقراطي القائم على شرف المحتد ، وبالمبدأ البلوتقراطي القائم على الثراء ، مبدأ الانتخاب بالقرعة ، فأتيحت لكل مواطن فرص متكافئة للاقتراع ، ولشغل منصب في أهم فرع من فروع الحكومة وأعظمها سلطاناً . ذلك أن المجلس الذي كان يختار بهذه الطريقة كان يعين جميع المسائل والاقتراحات التي تعرض على الجمعية لإقرارها أو رفضها ،

كما كان يحتفظ لنفسه ببعض السلطات القضائية المختلفة الأنواع ، ويصرف كثيراً من الشئون الإدارية ، ويشرف على جميع موظفى الدولة .

وزيد عدد أعضاء الجمعية بمن دخلها من المواطنين الجدد ، وبهذا كانت جلستها التى يحضرها الأعضاء جميعاً تضم ما يقرب من ثلاثين ألف رجل ، وكان من حق هؤلاء جميعاً أن يختاروا للعمل فى البليا أو المحاكم ، أما الطبقة الرابعة أو الثيتيس فقد بقيت كما كانت فى عهد صولون لا يختار منها أحد للمناصب التى يشغلها فرد واحد . وزادت سلطات الجمعية بإنشاء نظام « الحرمان » من عضوية الهيئة الاجتماعية والطرد من البلاد ، وهو الحق الذى أضافه كليسثنيز الى حقوقها على ما يبدو ليحمى به الجمهورية الناشئة . وبمقتضى هذا الحق الجديد كان فى استطاعة الجمعية ، بناء على اقتراح تقدمه أغلبية أعضائها مكتوب بطريقة سرية على قطع من الفخار ، كان فى استطاعة الجمعية إذا حضرها العدد القانونى وهو ستة آلاف من أعضائها أن تنفى من البلاد مدة عشر سنين أى إنسان ترى هى أنه أصبح خطراً على الدولة . وبهذه الطريقة كان الزعماء الطموحون يضطرون إلى أن يسلكوا مسلك الحذر والاعتدال ، وكان فى استطاعة الجمعية أن تتخلص ممن تظنهم يتآمرون عليها من غير الإبطاء الذى تستلزمه الإجراءات القضائية . وكان كل ما يتطلبه هذا العمل من إجراء أن يسأل أعضاء الجمعية : « هل من بينكم رجل تظنونه شديد الخطر على الدولة ؟ وإذا كان فمن هو هذا الرجل ؟ » وكان فى وسع الجمعية حينئذ أن تقترع على نفى أى مواطن دون أن يستثنى من ذلك صاحب السؤال نفسه(*) . ولم يكن هذا النفى يتضمن مصادرة الملك كما أن المنفى لم يكن يلحقه من جرائه عار ؛ ولم يكن إلا الطريقة التى تلجأ إليها الدمقراطية لقطع « أطول السنابل[٩٢] » . ولم تسئ الجمعية استخدام سلطانها هذا ، ذلك أنها

(*) وقد أنشئ نظام كهذا فى أرجوس ، ومجارا ، وسرقوسة .

. . .

لم تستخدم حقها طوال التسعين عاماً التي مضت بين تقريره وبين إبطال العمل به فى أثينة إلا فى إخراج عشرة أشخاص من أتكا .

ويقال إن كليستنيز نفسه كان من بين هؤلاء العشرة ؛ ولكننا فى واقع الأمر لا نعرف تاريخه فى آخر أيامه ، فقد اختفى وضاع فى لألاء أعماله . بدأ عمله بثورة تتعارض كل المعارضة مع الأصول الدستورية ، ولكنه وضع بها رغم معارضة أقوى الأسر فى أثينة دستوراً دمقراطياً ظل نافذاً ، مع بعض تغييرات قليلة ، إلى آخر عهود الحرية الأثينية . على أن الدمقراطية لم تكن كاملة ، لأنها لم تكن تطبق إلا على الأحرار ، وظلت تضع قيداً خفيفاً من الملكية على حق الانتخاب للمناصب الفردية(*) . غير أنها أعطت جميع السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية إلى جمعية وإلى محكمة تتكونان من المواطنين ، وإلى حكام كبار تعينهم الجمعية ويكونون مسئولين أمامها ، وإلى مجلس يختار أعضاؤه بأصوات كل من يريد الاقتراع من المواطنين ، ويشترك بالفعل فى ممارسة سلطانه الأعلى ثلثهم مدة سنة من حياتهم على الأقل . إن العالم لم ير قط فى تاريخه كله قبل ذلك العهد نظاماً انتخابياً أكثر من هذا النظام حرية ، ولا سلطة سياسية شعبية أوسع من هذه السلطة .

واغتبط الأثينيون أنفسهم أشد الاغتباط بهذه المغامرة التى تستهدف سيادة الشعب . لقد أدركوا أنهم كانوا مقدمين على مغامرة شاقة خطيرة ، ولكنهم أقدموا عليها بشجاعة وأنفة ، وباعتدال وضبط للنفس داما بعض الوقت . ولقد عرفوا من ذلك الوقت لذة الحرية فى العمل والقول والتفكير ، وبدأوا يتزعمون بلاد اليونان كلها فى الآداب والفنون ، بل فى السياسة والحرب أيضاً ، وتعلموا أن يطيعوا من جديد قانوناً يعبر عن إرادتهم

(*) اشترط قدر من الملك لممارسة حق الانتخاب فى المراحل الأولى من الدمقراطية الأمريكية والفرنسية .

هم أنفسهم ، وأن يحبوا حباً لا يعادله حب من قبله الدولة التي كانت تمثل وحدتهم وسلطانهم ، والتي تعمل لإكمال هذه الوحدة وهذا السلطان ؛ ولما همت أعظم إمبراطورية في ذلك العهد أن تدمر هذه المدن المتفرقة المسماة ببلاد اليونان ، وأن تفرض عليها الجزية تؤديها عن يد إلى الملك العظيم ، نسيت أنها سيقاومها في أثينا رجال يمتلكون الأرض التي يفلحونها ، ويسيطرون على الدولة التي تحكمهم . وكان من حسن حظ بلاد اليونان ومن حسن حظ أوربا أن كليسثنيز قد أتم عمله وعمل صولون قبل مرثون باثني عشر عاماً .

الباب السادس

الهجرة الكبرى

الفصل الأول

أسبابها ووسائلها

بقد ضحينا فى سبيل استكمال قصة اسپارطة وأثينة إلى قبيل واقعة مرثون بوحدة الزمان من أجل وحدة المكان . نعم إن مدن بلاد اليونان الأصلية كانت أقدم من المستعمرات اليونانية فى بحر إيجة وفى جزائر أيونيان ، وإن هذه هى التى أنشأت فى كثير من الحالات المستعمرات التى سنصف حياتها فى هذه الفصول ، ولكن عدداً من هذه المستعمرات أضحى بما حدث من انقلاب مربك فى سياق الحوادث السوى أعظم شأناً من المدن التى أنشأتها وسبقتها فى ثروتها وفنونها ، وبذلك لم يكن الذين أوجدوا الثقافة اليونانية بحق هم اليونان أهل البلاد التى نسميها الآن بلاد اليونان ، بل كانوا هم الذين فروا أمام الدوريين الفاتحين وحاربوا حرب المستيئسين ليثبتوا أقدامهم على السواحل الأجنبية ، وأنشأوا بفضل ذكرياتهم الميسينية وجهودهم العجيبة العلوم والفنون ، والفلسفة والشعر ، التى جعلت لهم قبل مرثون بزمن طويل المقام الأول فى العـــالم الغربى ؛ ثم أورثت المستعمرات أمهاتها من المدائن الأصلية الحضارة اليونانية .

وليس شىء فى تاريخ اليونان أدل على حيويتهم من انتشارهم السريع

فى جميع بلاد البحر المتوسط (*) . لقد كانوا قبل أيام هومر شعباً بدوياً متنقلا ، وكانت شبه جزيرة البلقان كلها تضطرب بحركاتهم ، ولكن أهم العوامل التى أثارت الموجات اليونانية المتتابعة التى طغت على جزائر بحر إيجة وعلى السواحل الغربية للقارة الأسيوية كانت غزوات الدوريين . فقد خرج الناس على أثرها من جميع أنحاء هيلاس يبحثون عن الموطن وينشدون الحرية بعيدين عن قبضة الفاتحين المستعبدين ؛ وكان من العوامل الأخرى التى بعثت على هذه الهجرة ما فى الدول القديمة من انقسامات سياسية ومنازعات بين الأسر ؛ فكان المغلوبون يختارون النفى من البلاد أحياناً ، وكان الغالبون يشجعونهم على الخروج منها أعظم تشجيع ؛ يضاف إلى هذا أن بعض من بقى على قيد الحياة من اليونان الذين اشتركوا فى حرب طروادة فضلوا البقاء فى آسية ؛ واستقر غيرهم فى جزائر بحر إيجة حباً فى المغامرات أو عجزاً عن العودة إلى وطنهم بعد أن تحطمت بهم السفن التى كانت تقلهم ، ووجد غيرهم حين عادوا إلى أوطانهم بعد أسفارهم الطويلة التى تعرضوا فيها لأشد الأخطار ، أن عروشهم قد ثلت وأن زوجاتهم قد احتضنهن غيرهم ، فعادوا إلى سفنهم لينشئوا لهم أوطاناً جديدة ويجمعوا ثروات جديدة فى خارج بلادهم[٢] . وعاد الاستعمار على بلاد اليونان الأصيلة ، كما عاد صنوه على أوربا الحديثة ، بمزايا عظيمة من عدة وجوه . فلقد كان منفذاً للزائدين على طاقة الأرض من السكان وللمغامرين منهم ، وكان بمثابة صمام الأمان من التذمر الزراعى . وبفضله نشأت أسواق أجنبية لغلات البلاد الأصيلة ، ومستودعات حصينة فى مراكز منيعة للواردات من الطعام والمعادن . وأوجد الاستعمار فى آخر الأمر إمبراطورية تجارية كان ما فيها من تبادل السلع ،

(*) قارن هذا بقول پيتر Pater : « لعل أروع حوادث التاريخ اليونانى كله وأشدها إثارة للنفس هو استعمارهم فى بداية أمره ! » .

والفنون ، وأساليب الحياة ، والأفكار ، من أقوى العوامل فى نشأة حضارة اليونان المعقدة .

وسارت الهجرات فى خمسة خطوط رئيسية - إيولية ، أيونية ، دورية ، يكسينية Euxine ، إيطالية . . وبدأت أقدمها فى الدويلات الشمالية من أرض اليونان الأصيلة ، وهى التى لاقت أولى الغزوات من الشمال والغرب . فقد سارت على مهل جحافل من المهاجرين من تساليا ، وثيوتس . وبؤوتية ، وإيتوليا ، لم تنقطع طوال القرنين الثانى عشر والحادى عشر ، مخترقة بحر إيجه ، وزحفت على الأصقاع المحيطة بطروادة ، وأنشأت فيها المدائن الاثنتى عشرة التى تألف منها الحلف الإيولى . ويبدأ الخط الثانى من خطوط الهجرة فى البلوبونيز حيث فر آلاف من الميسينيين والآخيين على أثر « عودة الهرقليين » ، واستقر بعضهم فى أتكا والبعض الآخر فى عوبية ، وخرج الكثيرون منهم إلى جزائر سكلديس ، وجازفوا باختراق بحر إيجه ، وأسسوا فى غربى آسية الصغرى المدائن الاثنتى عشرة التى تألف منها الحلف الأيونى الاثنى عشرى Ionian Dadecapolis . وسار فى الخط الثالث من خطوط الهجرة الدوريون الذين فاضت بهم أرض البلوبونيز ، فاستقروا فى جزائر سكلديس ، وفتحوا كريت وسيرينى ، وأنشأوا حلفاً من ست مدن دورية Dorian Hexapolis حول جزيرة رودس . وبدأ الخط الرابع فى مكان ما من بلاد اليونان واستقر من ساروا فيه على سواحل تراقية ، وأنشأوا مائة مدينة على شواطئ الدردنيل ، والبروبنتس (بحر مرمرة) والبحر اليكسينى (البحر الأسود) . واتجه الخط الخامس نحو الغرب إلى الجزائر التى أسماها اليونان الجزائر الأيونية ، ثم اخترق إيطاليا وصقلية حتى بلغ آخر الأمر غالة وأسبانيا .

وليس فى وسع إنسان ما أن يتصور ما قام من العقبات فى سبيل هذه الهجرة الطويلة المدى التى دامت مائة عام ، أو كيف ذللت ، إلا إذا كان عُطرفاً واسع الخيال أو كان قوى الذاكرة لم ينس ما لقيناه نحن الأمريكيين

فى تاريخنا الاستعمارى . لقد كان فى مغادرة الأرض التى خلعت عليها شعائر القداسة قبور الآباء والأجداد ، والتى يحرسها الأرباب القدامى ، والخروج إلى أصقاع غريبة لا تحميها فى أكبر الظن آلهة بلاد اليونان ، لقد كان فى هذا وذاك مغامرة خطيرة الشأن ، ومن أجل هذا أخذ المستعمرون معهم حفنات التراب من بلادهم الأصيلة لينثروها فوق أرض الأقاليم الأجنبية ، وحملوا فى جد ووقار قبساً من النار من المذابح العامة فى مدافنهم الأولى ليشعلوا به النار فى مواقد المدن التى أنشأوها فى مستعمراتهم الجديدة . وكانوا يختارون مواضع هذه المدن على شاطئ البحر أو قريبة منه ، حيث يمكن أن تكون السفن — وهى الموطن الثانى لنصف اليونان — ملجأ يعصمهم من هجمات الأعداء براً ؛ وكان خيراً من هذا الوضع عندهم أن تقام فوق سهل ساحلى تحميها الجبال التى تصد المغيرين من ورائها ، أو على تل يكون حصناً منيعاً فى داخل المدينة نفسها ، أو أن تكون ذات ميناء فى البحر يحميه لسان بارز منه ؛ وخير من هذا وذاك أن يكون هذا الميناء الأمين على طريق تجارى أو قريباً من مصب نهر تصل إليه السفن حاملة الغلات من داخـــل البلاد لتصدر أو يستبدل بها غيرها من الغلات ، فتنتعش ويعمها الرخاء عاجلا كان ذلك أو آجلا . وكانوا لا يكادون يجدون موقعاً صالحاً إلا احتلوه ، واستولوا عليه بالحيلة إن أفلحت ، فإن لم تفلح سلكوا إليه سبيل القوة . ولم يكن اليونان فى هذه الظروف يرعون مبادئ أخلاقية أرقى مما نرعاه نحن الآن(*) ، فكان الفاتحون فى بعض الأحيان يستعبدون السكان الأولين بنفس الدعاوى المضحكة الباطلة التى ادعاها الحجاج المهاجرون طلباً للحرية . وكان أكثر من هـــذا حدوثاً أن يتودد المهاجرون الجدد إلى السكان الأولين بما يحملونه إليهم من الهدايا ، ويخلبوا لبهم بثقافتهم الراقية ، ومغازلة نسائهم ، وعبادة آلهتهم . ولم يكن اليونان المستعمرون يعنون بنقاء الدم[٢] . وكان فى وسعهم على الدوام أن يجدوا فى مجتمع آلهتهم الكثيرة

(*) يريد الأمريكيين .

إلهاً شبيهاً بإله الموطن الجديد شبهاً ييسر لهم التوفيق بين الإلهين : ولهم من هذا كله أن المستعمرين كانوا يعرضون ما صنعته أيديهم من سلع يونانية على السكان الأصليين ، ويستبدلون بها الحبوب والماشية أو المعادن ، ويصدرون هذه الغلات إلى بلاد البحر المتوسط ، ويفضلون من هذه البلاد أمهم التي هاجروا منها ، والتي لا تنفك قلوبهم تنطوى لها مدى القرون على حب وولاء يبلغ حد التقديس .

وأخذت هذه المستعمرات واحدة بعد أخرى تتشكل وتتخذ صورة المدائن اليونانية حتى لم تعد بلاد اليونان مقصورة على شبه الجزيرة الضيقة التي كان يطلق عليها هذا الاسم فى أيام هومر ، بل أضحت طائفة من المدن المستقلة مرتبطة بعضها مع بعض برباط غير متين ، ومنتشرة من إفريقية إلى تراقية ، ومن جبل طارق إلى الطرف الشرقى من البحر الأسود . وكان هذا العهد من أهم العهود فى تاريخ نساء اليونان ، فلسنا نجدهن على الدوام أكثر استعداداً مما كن فى ذلك الوقت لإنجاب الأبناء . وبفضل هذه المراكز التي تفيض جِدًّا وحيوية وذكاء نشر اليونان فى جميع أنحاء أوربا الجنوبية نور ذلك الترف المزعزع الدال على الحذق والدهاء الذى يطلق عليه اسم الحضارة ، والذى لولاه لما كان للحياة جمال ولا للتاريخ معنى .

الفصل الثاني

السيكلديس الأيونية

إذا سار السائح بحراً من پيريس (پيرية) ، متجهاً نحو الجنوب ، مصاقباً ساحل أتكا ، ثم انحرف نحو الشرق وحول لسان سنيوم ذى الهيكل ، وصل إلى جزيرة كيوس Ceos الصغيرة حيث « كان فى يوم من الأيام قانون يحتم على من بلغو الستين من عمرهم أن يشربوا عصير الشيكران السام حتى يكفى الطعام من يبقى حياً من الناس(٤) » إذا قبلنا ما لا يقبله العقل اعتماداً على قول استرابون وأفلوطرخس .

وربما كان هذا هو الذى جعل شاعرها العظيم ينفى نفسه مختاراً من كيوس بعد أن جاوز سن الكهولة ؛ ولعله قد وجد أن من العسير عليه أن يبلغ فى موطنه الأصلى السابعة والثمانين من العمر التى تقول الرواية اليونانية المتواترة إنه قد بلغها . وقد كان جميع العالم اليونانى يعرف سمنيدس وهو فى سن الثلاثين ، ولما مات فى عام ٤٦٩ أجمع الناس كلهم على أنه أنبه كتاب زمانه ذكراً . كانت شهرته فى الشعر والغناء هى التى جعلت هپاركس Hipparchus ، وهو ثانى اثنين من الحاكمين بأمرهما معاً فى أثينة ، يدعوه إليها ، وقد استطاع فى بلاطها أن يعقد أواصر الصداقة مع شاعر آخر . وبقى حياً بعد الحروب الفارسية واختير عدة مرار ليكتب قبريات الأنصاب التى تقام على قبور المكرمين من الأموات . وعاش فى شيخوخته فى بلاط هيرون Hieron الأول طاغية سرقوسة ، وبلغ من الشهرة وقتئذ حداً أمكنه به أن يعقد الصلح فى ميدان القتال عام ٤٧٥ بين هيرون وثيرون Theron طاغية أكرجاس ، وكان القتال قد أوشك أن ينشب بينهما(٥) . ويحدثنا أفلوطرخس فى مقاله الشديد الصلة بهذا الموضوع نفسه وعنوانه « هل يجب أن يحكم الناس الشيوخ » أن سمنيدس ظل يكسب جائزة

الشعر الغنائى والغناء الجماعى حتى بلغ سن الشيخوخة . ولما رضى آخر الأمر أن يموت دفن فى أكرجاس بمظاهر التكريم الخليقة بالملوك .

ولم يكن سمنيدس شاعراً فحسب ، بل كان فوق ذلك رجلا ذا شخصية عجيبة ، وكان اليونان يتددون به ويحبونه لرذائله وشذوذه . وكان مغرماً بالمال فإذا غاب عنه الذهب لم يلهم الشعر ؛ وكان أول من كتب الشعر ليؤجر عليه ، وحجته فى هذا أن من حق الشاعر أن يأكل كما يأكل سائر الناس؛ ولكن هذه العادة كانت جديدة فى بلاد اليونان، وكان أرستفنيز يردد غضب الشعب منها ، ويقول إن سمنيدس « لا يستنكف أن يذهب إلى البحر فى محفة ليكسب فيه فلساً[٦] » . وكان يفخر بأنه اخترع طريقة لمساعدة الذاكرة على الاستظهار أخذها عنه شيشرون واعترف بفضله عليه[٧] . والمبدأ الجوهرى الذى تقوم عليه هذه الطريقة هو ترتيب الأشياء التى يريد أن يتذكرها متتابعة فى ترتيب منطقى من نوع ما بحيث يؤدى كل قسم منها بطبيعته إلى القسم الذى يليه . وكان رجلا فكها ، انتشرت أجوبته الفكهة المسكتة فى جميع مدن اليونان وتداولها الناس فيما بينهم تداول النقود ، ولكنه قال فى شيخوخته إنه كثيراً ما ندم على الكلام وإن لم يندم قط على السكوت[٨] .

وإنا ليدهشنا أن نجد فى القليل الباقى لدينا من أقوال هذا الشاعر الذى نال كثيراً من الثناء والعطاء تلك الكآبة التى كانت طابع الكثير من أدب اليونان بعد هومر — ونقول بعد هومر لأن الناس فى أيامه كانوا أنشط من أن يكتئبوا ، وكانوا أعنف من أن يتضايقوا ويملوا :

« ألا ما أقل أيام الحياة وما أكثر ما فيها من شرور ، ولكن نومنا تحت أطباق الثرى سيكون نوماً سرمدياً ... وما أضعف الإنسان وما أقوى أغلاطه ؛ إن الأحزان تأتى فى أعقاب الأحزان طوال حياته القصيرة ثم يدركه آخر الأمر الموت الذى لا ينجو منه إنسان ، والذى يرد حوضه الأخيار والأشرار على

السواء ... ما من أحد من الناس وما من شيء من صنعهم خالد ؛ وما أصدق قول شاعر طشيوز Chjos إن حياة الإنسان كحياة ورقة الشجر الخضراء . لكن الذين يسمعون هذا لا يكاد يذكره منهم أحد ، لأن الأمل قوى فى صدور الشبان ؛ فإذا كان الإنسان فى نضرة الشباب ، وكان فارغ القلب من المتاعب ، امتلأ عقله بالأفكار الباطلة وظن أنه لن تدركه الشيخوخة ، ولا الموت ؛ وهو لا يفكر فى المرض إذا كان صحيح الجسم.. ألا ما أشد حمق من يفكرون هذا التفكير ومن لا يعرفون أن أيام شبابنا وأيام حياتنا قصيرة[٩] » .

ولم يكن يجيش فى صدر سمنيدس أمل فى جزيرة مباركة تخفف عنه آلامه ؛ كما أن أرباب أولمبس قد أصبحت كأرباب المسيحية فى بعض الشعر الحديث أدوات لقرض الشعر لا وسائل لتخفيف أحزان النفوس . ولما تحداه هيرون وطلب إليه أن يحدد طبيعة الله وصفاته ، استمهله يوماً واحداً يعد فيه جوابه ، وفى اليوم الثانى استمهله يومين آخرين ، وكان فى كل مرة يضاعف المهلة التى يطلبها ليعد فيها الجواب . ولما طلب إليه هيرون أن يوضح له معنى مسلكه هذا ، أجابه أن هذا الأمر يزداد غموضاً كلما طال تفكيره فيه[١٠] .

ولم تنجب كيوس سمنيدس وحده بل أنجبت أيضاً بكليدس Bacchylides ابن أخيه وخليفته فى الشعر الغنائى ، وأنجبت فى أيام الإسكندر الأكبر إراسترانس Erasistratus العالم الكبير فى تشريح الأجسام . وليس فى مقدورنا أن نقول هذا القول نفسه عن جزائر سريفوس Siriphos ، أو أندروس Andros أو تينوس Tenos أو ميــكونوس Myconos أو سيكنوس Sicinos أو إيوس los . وفى سيروس Syros عاش فرسيديز Pherecydes (حوالى ٥٥٠) ، وقد اشتهر بأنه علم فيثاغورس ، وبأنه أول من كتب من الفلاسفة نثراً . أما ديلوس فكانت مسقط رأس أبلو نفسه ، على حد قول القصة اليونانية . ولقد بلغ من تقديس الناس لهذه الجزيرة ، لأن فيها مزاره ، أن حرموا الموت والولادة داخل



حدودها . فكانت كل امرأة مقبلة على الوضع تنقل منها ، وكان كل إنسان دنت منيته يبعد عنها ، إلى غيرها من البلاد ، وأخرجت أجسام من كان فيها قبل مولد أبلو من قبورها المعروفة حتى تصبح الجزيرة طاهرة نقية[١١] . وفي هذه الجزيرة احتفظت أثينة هي وحليفاتها من المدن الأيونية بكنوز حلف ديلوس بعد هزيمة الفرس ؛ وفيها كان الأيونيون يجتمعون كل أربع سنين اجتماعاً يختلط فيه التقى بالمرح للاحتفال بعيد الإله الجميل . وتصف إحدى ترانيم القرن السابع قبل الميلاد « النساء ذوات المناطق الجميلة[١٢] » ، والتجار الحريصين الدائبين على العمل في حوانيتهم ؛ والجماهير المصطفة على جوانب الطرق ترقب الموكب المقدس ، وما يقام في المعبد من شعائر وطقوس مهيبة ، وما يقرب فيه من قربان مقدس ؛ وتصف كذلك الرقص المرح والترانيم الجماعية التي تنشدها عذارى من ديلوس وأثينة اختاروهن لجمالهن وحسن أصواتهن ؛ والمباريات الرياضية والموسيقية ، والمسرحيات التي كانت تمثل في الملاهي في الهواء الطلق . وكان الأثينيون يرسلون في كل عام بعثة إلى ديلوس تحتفل فيها بمولد أبلو ، فإذا سافرت إليها لا يعدم مجرم في أثينة حتى تعود . وهذا هو سبب الفترة الطويلة التي انقضت بين الحكم على سقراط وبين إعدامه والتي أفاد منها الأدب والفلسفة أعظم فائدة .

ونكسوس Naxos أكبر جوائر السكلديس كما أن ديلوس تكاد تكون أصغرها . واشتهرت في الزمن القـــديم بخمرها ورخامها ، وأثرت في القرن السادس ثراء أمكنها أن تبني لها أسطولا خاصاً بها ، وأن تكون لها مدرسة خاصـــة للنحت . وإلى الجنوب الشرقي من نكسوس جزيرة أمرجوس Amorgos موطن سمنيدس Semonides البغيض الذي هجا النساء

هجاء لاذعاً حرص التاريخ الذى كتبه الرجال على الاحتفاظ به إلى هذه الأيام(*) . وإلى الغرب منها تقع جزيرة پاروس وتكاد كلها أن تكون من الرخام ، وأهلها يشيدون منه بيوتهم ، وقد وجد فيها پركسيتيلز الحجر النصف الشفاف الذى نحته وصقله وصور فيه الجسم الآدمى صورة يكاد يعتقد الناظر إليها أنها من لحم ودم . وفى هذه الجزيرة ولد فى أواخر القرن الثامن أركلوكوس Archilochus من جارية مشتراة بالمال ولكنه كان أعظم الشعراء المغنين فى بلاد اليونان . وقد قاده حظ الجنود شمالا إلى ثاسوس Thasos حيث اشتبك فى حرب مع أهلها ، ولكنه فى أثناء المعركة ألقى بدرعه وأطلق ساقيه للريح لأنه وجدهما أعود عليه بالفائدة من الدروع ، وعاش ليسخر من هذا الحرب فيما بعد سخريات مرحة كثيرة . ولما عاد إلى پاروس أحب فيها نيوبولى Neobule ابنة الثرى ليكمبز Lycambes . وهو يصفها بأنها فتاة متواضعة ، لها ضفيرتان تتوسان على كتفيها ، ويتحسر كما يتحسر أمثاله فى كل الأزمان ويقول إن « كل ما يتمناه أن يلمس يدها[14] » . ولكن ليكمبز كان يعجب بشعر الشاعر أكثر من إعجابه بماله ، فقضى على آماله ، فما كان من أركلوكس إلا أن حمل عليه وعلى نيوبولى وأختها حملة من الهجاء شعواء آثر معها ثلاثتهم كما تقول القصة أن يشنقوا أنفسهم . وامتلأ قلب أركلوكس حقداً على پاروس فترك « تينها وسمكها » وأصبح مرة أخرى جندياً يبحث عن حظه فى ميادين القتال . ولما أن عجزت ساقاه فى آخر الأمر عن أن تسعفاه فى الحرب قتل وهو يحارب النكسيين(**) .

وتدلنا قصائده على أنه كان يغلظ فى القول لأعدائه وأصدقائه على السواء ، وأنه كان شديد الولع بالزنا يدفعه إلى هذا خيبة آماله فى الحب[51]

(*) يشبه سمنيدس النساء فى أيامه بالثعالب والحمير والخنازير ، والبحر المتقلب ، ويتهم أن زوجاً من الأزواج لا يمر عليه يوم واحد فى حياته دون أن توجه إليه زوجته كلمة تأنيب

(**) أهل جزيرة نكسوس Naxos .

والصورة التي ترتسم له في مخيلتنا هي صورة القرصان الملهم والبحار الرخيم الصوت ، ذي اللفظ الخشن في نثره المصقول في شعره ، يعمد إلى البحر العمبق(*) من بحور الشعر ، وهو الذي كانت تصاغ فيه الأغاني الشعبية وقتئذ ، فيؤلف به أبياتاً قصيرة لاذعة من ثلاثة أوتاد . وهذا البحر العمبق ذو الثلاثة الأوتاد هو الذي كتبت به المآسي اليونانية الشهيرة . لكنه لم يقتصر على هذا الوزن بل أخذ يجرب بحوراً أخرى كالبحر الدقتيلي(**) السداسي الأوتاد والتروقي(†) الرباعي الأوتاد ، وبحوراً أخرى تجاوز العشرة عدا(††) . وهو الذي أدخل في الشعر اليوناني الأوزان التي احتفظ بها إلى آخر الأيام . ولم يبق من قصائده إلا بضعة أسطر قليلة غير كاملة ، ولسنا نجد بداً من قبول قول الأقدمين إنه كان أحب الشعراء اليونان إلى بني وطنه بعد هومر . وكان هوراس يحب أن يقلد أوزانه المتغيرة ، ولما سئل أرستفنيز البزنطي الناقد المتأغرق المعظم أي قصائد أركلوكوس أحبها إليه ، أجاب عن ذلك السؤال بكلمتين اثنتين عبر بهما عن شعور بلاد اليونان كلها فقال : « أطول القصائد[16] » .

وعلى مسيرة باكورة اليوم بالسفينة من پاروس تقع جزيرة سفنوس Siphnos الشهيرة بمناجم الفضة والذهب . وكان الشعب يمتلك هذه المناجم عن طريق حكومته . وكان نتاجها عظيماً استطاعت الجزيرة به أن تعتمد

(*) البحر العمبق Iambic هو المؤلف من فاصلة قصيرة تليها فاصلة طويلة ؛ أو من مقطع لا نبرة صوتية عليه يليه مقطع ذو نبرة صوتية . (المترجم)

(**) البحر الدقتيلي هو الذي يتألف كل وتد من أوتاده من ثلاثة مقاطع أولها قصير ويليه مقطعان طويلان . (المترجم)

(†) والتروقي يتألف كل وتد من أوتاده من مقطعين أولها طويل والآخر قصير . (المترجم)

(††) إذا شاء القارئ أمثلة لهذه البحور فإنه يجدها في قصيدتي Evangeline و Hiawtha لنج فلو Longfellow ، وفي مقطوعة Blow blow, thou winter wind لشكسبير ؛ فالأولى من البحر الدقتيلي السداسي الأوتاد والثانية من التروقي الرباعي الأوتاد والثالثة من العمبق الثلاثي الأوتاد .

عليه فى إقامة الخزانة السِّفنية فى دلفى ، وما فيها من تماثيل النســوة اللائى يحملن على رؤوسهن مواد البناء وهن هادئات مطمئنات ، وأن تقيم آثاراً غيرها كثيرة ، وأن توزع مع ذلك مقداراً كبيراً من المعدنين النفيسين على الأهلين فى آخر كل عام[١٧] . وفى عام ٥٢٤ جاء جماعة من اللصوص من ساموس ونزلوا فى هذه الجزيرة وفرضوا عليها جزية تبلغ مائة وزنة — أى ما يساوى ٦٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى من نقود هذه الأيام . وقبلت بلاد اليونان الأخرى هذه السرقة الجريئة بالاطمئنان والجلد اللذين يقبل بهما الناس فى العادة مصائب أصدقائهم .

الفصل الثالث

الفيض الدورى

واستعمر الدوريون أيضاً جزائر سكلديس وروضوا طباعهم العسكرية بتدريج جوانب الجبال وتسويتها على مهل حتى تمسك الأمطار الشحيحة فتروى نباتهم وكرومهم . وفى ميلوس ورثوا عن أسلافهم من أهل العصر البرنزى استخراج الحجر الزجاجى الطبيعى ، وبفضلهم أثرت الجزيرة ثراء جعل الأثينيين يبذلون قصارى جهدهم لكسب معونتها فى كفاحهم مع اسپارطة . وسنرى هذا فى الفصول التالية من هذا الكتاب . وفى هذه الجزيرة عثر المنقبون على « أفرديتى ميلوس(*) » وهو الآن أشهر تمثال فى العالم الغربى كله .

واتجه الدوريون شرقاً ثم جنوباً وفتحوا ثيرا Thera وكريت ؛ ومن ثيرا أرسلوا جالية منهم استعمرت سيرينى . واستقر عدد قليل منهم فى قبرص ، وكان فيها منذ القرن الحادى عشر جالية قليلة العدد من اليونان الأركاديين تنازع الأسر الفينيقية القديمة السيادة على الجزيرة . وكان من هؤلاء الملوك الصغار بجمليون الذى تروى عنه القصص أنه أعجب بتمثال من العاج لأفرديتى نحته هو بنفسه فشغفه حباً ورجا الآلهة أن تهبه الحياة ، فلما أجابت رجاءه تزوج الفتاة التى صنعها بيده[١٨] . والراجح أن كشف الحديد قد قلل طلب الناس لنحاس قبرص فتخلفت الجزيرة عن ركب التقدم الاقتصادى اليونانى . وكان من أثر تقطيع الأهلين الأشجار ليصهروا بها فلذ النحاس ، وتقطيع الفينيقيين إياها لصنع سفنهم ، وتقطيع اليونان الكثير منها لإعداد الأرض للزراعة ، كان من أثر هذا التقطيع أن استحالت الجزيرة

(*) أوفينوس (زهرة) مطوكا يعرفها الغربيون باسمها المشتق من اسم الإلهة الرومانى واسم الجزيرة الإيطالى .

شيئاً فشيئاً إلى تلك الأرض المهجورة نصف الجدبة كما نراها اليوم . وكان فن الجزيرة ، كما كان أهلها ، فى العصر اليونانى خليطاً من آثار الفن المصرى والفينيقى واليونانى ، ولم يكن له فى يوم من الأيام طابع واحد خاص به(*) .

ولم يكن الدوريون إلا أقلية من سكان قبرص اليونان ؛ أما فى رودس ، وجزائر اسبرديس Sporades الجنوبية وما جاورها من أرض القارة الأوربية فقد أصبحوا هم الطبقة الحاكمة . وازدهرت رودس وعمها الرخاء فى القرون التى بين هومر ومرثون ، وإن لم يبلغ هذا الازدهار ذروته إلا فى العصر الذى اصطبغت فيه تلك البلاد بالصبغة اليونانية . وأنشأ المستعمرون الدوريون على لسان فى البحر بارز من قارة آسية مدينة نيدوس Cnidus ؛ وبفضل موقعها هذا أضحت ثغراً صالحاً للتجارة الساحلية . وفى هذه المدينة ولد فى مستقبل الأيام يودكسس Eudoxus الفلكى وتسياس Ctesias المؤرخ (أو كاتب الخرافات) وستراتس Sostratus الذى بنى فى مستقبل الأيام منارة الإسكندرية . وهنا أيضاً وجد بين أنقاض المعابد القديمة تمثال دمتر الأم الحزينة المحفوظ فى المتحف البريطانى .

وتقع أمام نيدوس جزيرة كوس موطن أبقراط ، وقد كانت مركزاً لعلم الطب اليونانى ينافس فيه نيدوس . وفيها ولد أبلز Apelles الرسام وثيكريتوس Theocritus الشاعر . وكان على بعد قليل منها وعلى الساحل نفسه مدينة هليكرنسس Halicarnassus مسقط رأس هيرودوت . وقد كانت فى أيام انتشار الحضارة اليونانية مقر حكم موسولوس Mausolus الملك الكارى وحبيبته أرتميزيا . وقد تكون من هذه المدينة ومن كوس ونيدوس ومن مدائن رودس الشهيرة (لندس ، وكمرس ، وبليس) المدائن الست الدورية فى آسية الصغرى وهى التى قامت تنافس إلى حين مدائن أيونيا الاثنتى عشرة منافسة ضعيفة .

(*) انظر الصندوق رقم ١٢ من مجموعة العاديات القبرصية لسنولا Cesnola فى المتحف الفنى بنيويورك . وقد كشف علماء الآثار الإنجليز فى عام ١٨٦٨ لوحة عليها كتابة بلغتين استطاعوا بفضلها أن يحلوا رموز الكتابة القبرصية ، وتبين لهم وللعالم أنها لهجة من اللهجات اليونانية تكتب برموز مقطعية . ولكن نتيجة هذا الكشف لم تضف شيئاً ذا قيمة لتاريخ العالم .

الفصل الرابع

الاثنتا عشرة مدينة الأيونية

١ - ميليتس والموطن الأول للفلسفة اليونانية

كان يمتد إلى الشمال الغربي من كاريا مسافة تسعين ميلا شريط ساحلي جبلي يختلف عرضه بين عشرين وثلاثين ميلا ، وهو المعروف في الزمن القديم باسم أيونيا . ويصفه هيرودوت بقوله « إن هواءه ومناخه أجمل هواء ومناخ في العالم كله[١٩] » . وكانت كثرة مدائنه عند مصاب الأنهار أو عند منتهى الطرق ، وكانت هذه الأنهار والطرق تنقل البضائع مما وراءها من الإقليم إلى شاطئ البحر المتوسط ، منه تنقل على ظهور السفن إلى كافة الأنحاء .

وكانت ميليتس ، وهي أبعد المدن الاثنتي عشرة الأيونية جهة الجنوب ، أغنى مدائن العالم اليوناني كله في القرن السادس قبل الميلاد . وقد قامت هذه المدينة في موضع كان يسكنه الكاريون من العهد المينوى ، فلما أقبل الأيونيون من أتكا على هذا المكان حوالى ١٠٠٠ ق . م ، وجدوا فيه الثقافة الإيجية وإن كانت في صورة مضمحلة ، تنتظرهم ليتخذوها بداية متقدمة لحضارتهم . ولم يأتوا معهم بنساء إلى ميليتس فاكتفوا بأن قتلوا الذكران من أهلها وتزوجوا الأرامل[٢٠] . وبدأ امتزاج الثقافتين بامتزاج دماء الأهلين والوافدين . وخضعت ميليتس ، كما خضعت كثرة المدن الأيونية ، في أول الأمر لحكم الملوك الذين يقودون جيوشها في الحرب ، ثم خضعت بعدئذ لحكم الأشراف الذين يملكون الأرض ، ثم لحكم « المستبدين » الذين يمثلون الطبقة الوسطى . ووصلت الصناعة والتجارة إلى ذروتيهما في عهد الطاغية ثراسيبولوس Thrasybulus في بداية القرن

السادس قبل الميلاد ، وأثمر رخاؤها المطرد أدباً وفلسفة وفناً . وكان الصوف يحمل إليها من أرض الكلأ الغنية فى الداخل وينسج ملابس فى مصانع النسيج القائمة فى المدينة . وتعلم التجار الأيونيون عن الفينيقيين إقامة المستعمرات لتكون مراكز تجارية ، فأنشأوا العدد الكبير منها فى مصر وإيطاليا وعلى شواطئ بحر البروبنتس واليوكسين ، ثم تفوقوا شيئاً فشيئاً على معلميهم فى هذا المجال فكان لميليتس وحدها ثمانون مستعمرة من هذه المستعمرات التجارية ، ستون منها فى الشمال . وكانت ميليتس تستورد من أبيدوس ، وسيزيكوس Cyzicus ، وسينوب ، وألبيا Olbia ، وترابيزوس Trapezus ، وديوسكورياس Dioscurias ، الكتان ، والخشب ، والفاكهة ، والمعادن ، وتصدر إليها بدلا منها مصنوعاتها اليدوية . وأصبح ثراء المدينة وترفها تضرب بهما الأمثال وتعير بهما المدينة فى بلاد اليونان بأجمعها . وفاضت خزائن تجارها بالأموال فأخذوا يمولون المشروعات فى طول البلاد وعرضها وفى المدينة نفسها ، فكانوا هم آل ميديتشى فى عصر النهضة الأيونية .

وفى هذه البيئة المنعشة الباعثة على النشاط الذهنى أثمرت بلاد اليونان الثمرتين الأوليين من الثمار التى امتازت بها على غيرها ، وأهدتهما إلى العالم كله — نقصد العلوم الطبيعية والفلسفة ؛ ذلك أنه حيث تتلاقى الطرق تتلاقى كذلك الآراء والعادات والعقائد المتباينة ؛ وينشأ من اختلافها احتكاك ، فتنازع ، فمفاضلة ، فتفكير ؛ فتمحو الخرافات بعضها بعضاً ، ويبدأ التفكير المنطقى السليم . وقد تلاقى فى ميليتس كما تلاقى فى أثينة رجال جاءوا من مائة دولة متفرقة ، ذوو نشاط عقلى بعثه فيهم التنافس التجارى ، وقد تحرروا من أسر التقاليد لطول غيابهم عن أوطانهم ، وهياكلهم ، ومذابح آلهتهم . وكان أهل ميليتس أنفسهم يسافرون إلى المدن البعيدة حيث تفتحت عيونهم على حضارة ليديا ، وبابل ، وفينيقية ، ومصر . وبهذه الطريقة وغيرها من الطرق دخل علم الهندسة المصرية

وعلم الفلك البابلي العقل اليوناني ، ونمت التجارة الداخلية . والعلوم الرياضية ، والتجارة الخارجية ، وعلوم الجغرافية ، والملاحة ، والفلك ، كلها في وقت واحد . وكان الثراء في هذه الأثناء قد أوجد للناس الفراغ ؛ ونشأت في البلدة أرستقراطية ثقافية امتازت بالتسامح الفكري لأن من يستطيعون القراءة كانوا أقلية صغيرة في المدينة . ولم يكن يُضيّق على عقول الناس وتفكيرهم قيود يفرضها رجال دين أقوياء ، ولا نصوص قديمة منزلة موحى بها ، وحتى القصائد الهومرية التي أمست فيها بعد كتاب اليونان المقدس إلى حد ما لم تكن قد اتخذت بعد شكلها النهائي المحدد المعروف ، ولما اتخذته كان ما فيها من أساطير دينية مطبوعاً بطابع التشكك الأيوني والمرح المجوني . ومن ثم أصبح التفكير في هذه المدينة لأول مرة تفكيراً دنيوياً غير ديني يسعى وراء الأجوبة العقلية المنسقة غير المتنافرة لما يحير العقول من مسائل العالم والناس(*) .

على أن الفرس الجديد ، وإن كان قد حل محل الفرس القديم ، كانت له أصوله وكان له آباؤه وأجداده ، فقد امتزجت بالفلسفة الواقعية العلمية التي كانت من خصائص التجار الفينيقيين واليونان حكمة الكهنة المصريين والمجوس الفرس الأقدمين ، بل لعلها قد امتزج بها أيضاً حكمة المتنبئين الهنود وعلم الكهنة الكلدان وبداية الخليقة المجسدة التي صاغها هزيود شعراً . وقد مهد الدين نفسه السبيل إلى هذا المزج حين تحدث عن مويرا mori a أو القدر ، وقال إنه هو المتحكم في الآلهة والبشر . وكان هذا بداية فكرة القانون الذي يعلو على الإرادة الشخصية مهما عظمت ، وهي الفكرة التي تدل على الفرق الجوهري بين العلم والأساطير ؛ وبين الاستبداد والديمقراطية . ولقد تحرر الإنسان من يوم أن اعترف أنه خاضع لحكم القانون ، وأكبر الأسباب التي جعلت اليونان ذوي خطر في

(*) وقد ظهرت حركات شبيهة بهذه الحركة في الهند والصين في هذا القرن السادس قبل الميلاد .

التاريخ ورفعتهم فيه إلى أعلى مكانة ، هى أنهم ، على قدر ما وصل إليه علمنا ، كانوا أول من اعترف بخضوع الإنسان لحكم القانون وبحقه فى البحث الفلسفى وفى اختيار الحكم الذى يرتضيه .

وإذ كانت الحياة تتطور متأثرة بعاملين هما الوراثة والتجديد ، أى بتثبيت العادات وإقرارها وبالتجديد التجريبى ، فقد كان من المنتظر أن تكون الأصول الدينية للفلسفة هى التى تغذيها ، وأن يبقى فيها إلى آخر أيامها عنصر دينى قوى . وقد كان فى الفلسفة اليونانية تياران يجريان جنباً إلى جنب : أحدهما تيار طبيعى النزعة ظاهر والثانى تيار صوفى غامض . وقد نشأ الثانى من عهد فيثاغورس ، وشمل برمنيدس وهرقليطس ، وأفلاطون وكلنثيس Cleanthes وانتهى ببلنتينوس Biontinus والقديس بولس ؛ وأما الثانى فقد كان أول رجاله العالمين طاليس وشمل أنكسمندر ، وكزنوفانيس Xenophanes ، وبروتجراس ، وهبقراطس ، ودمقريطس ، وانتهى بأبيقور ولكرتيتوس Lucretius . وكان يحدث من حين إلى حين أن يقوم رجل عظيم — كسقراط وأرسطاطاليس ، وماركس أورليوس — فيمزج التيارين فى مجرى واحد يحاول به أن يوضح نظم الحياة المعقدة التى لا تنطبق على قانون . على أن النغمة الغالبة فى هؤلاء الرجال أنفسهم كانت هى حب اتباع العقل ؛ وهى النغمة التى يمتاز بها التفكير اليونانى .

وولد طاليس حوالى ٦٤٠ق . م وأكبر الظن أنه ولد فى ميليتس وكان الدائر على ألسنة الناس أنه من أبوين فينيقيين[٢١] ، وتلقى معظم تعليمه فى مصر والشرق الأدنى . وفيه يتمثل انتقال الثقافة من الشرق إلى الغرب . ويبدو أنه لم يشتغل بالأعمال التجارية والمالية إلا بالقدر الذى أمكنه أن يحصل به على طيبات الحياة العادية . وليس من يجهل قصة مضارباته فى معاصر الزيت[*] . ثم صرف باقى

(*) وهاهى ذى القصة على لسان أرسطو نفسه ؛ يقولون إن طاليس أدرك بمهارته فى علم النجوم (الفلك) أن محصول الزيتون سيكون موفوراً فى ذلك العام فاستأجر فى الشتاء —

وقته فى الدرس وانهمك فيه انهماكا توحى به قصة سقوطه فى حفرة وهو يرقب النجوم . وكان رغم عزلته يهتم بشئون المدنيـــة ، يعرف الطاغية ثراسيبولوس معرفة وثيقة ، ويدعو إلى تكوين حلف من الدول الأيونية للدفاع عن نفسها ضد ليديا وفارس[٢٣]

وتعزو إليه الروايات المتواترة كلها إدخال العلوم الرياضية والفلكية إلى بلاد اليونان . وتروى إحدى القصص القديمة أنه وهو فى مصر قدر ارتفاع الأهرام بقياس ظلها فى الساعة التى يكون فيها ظل الإنسان مساوياً لطول قامته . ولما عاد إلى أيونيا واصل دراسة الهندســـة النظرية التى خلبت لبه بمنطقها السليم ، وما فيها من استدلال علمى ، وشرح كثير من النظريات التى جمعها إقليدس فيما بعـــد(*) . وكما أن هذه النظريات كانت الأساس الذى قام عليه علم الهندسة النظرية اليونانية ، كذلك كانت دراسته لعـــلم الفلك الأساس الذى قام عليه هـــذا العلم فى الحضارة الغربية ، بعد أن خلصه من التنجيم الذى أدخله فيه الشرقيون . وكانت له بعض الأرصاد الصغرى ، وقد دهشت بلاد أيونيا بأجمعها حين أفلح فى التنبؤ بخسوف الشمس فى الثامن والعشرين من شهر مايو عام ٥٨٥ ق . م [٢٥] ، والراجح أنه قد بنى هذا التنبؤ على أساس السجلات المصرية وعلى حساب البابليين . أما فيما عدا هذا فإن نظريته فى نظام الكون لا ترقى كثيراً على ما كان

= قبل أن يحين موعد جنيه جميع معاصر الزيت فى ميليتس وخيوز بإيجار منخفض لأنه لم يجد وقتئذ أحداً ينافسه . ولما حل موعد عصر الزيت وتقدم الكثيرون من الناس يطلبون هذه المعاصر أجرها لهم بالشروط التى يرتضيها ، وجمع بهذه الطريقة أموالا طائلة وأثبت لهم أن من اليسير على الفلاسفة أن يثتنوا إذا شاءوا .

(*) وهى : أن قطر الدائرة يقسمها قسمين متساويين ، وأن الزاويتين المجاورتين لقاعدة المثلث المتساوى الساقين متشابهتان (يقصد متساويتين) ، وأن الزاوية المقابلة لربع الدائرة زاوية قائمة ؛ وأن الزاويتين المتقابلتين بالرأس الناشئتين من تقاطع خطين مستقيمين متساويتان ؛ وأن المثلثين يتساويان إذا تساوت فى أحدهما زاويتان وضلع بنظائرها فى المثلث الثانى[٢٤] .

شائعاً عن هذا النظام عند المصريين واليهود ، فقد ظن أن العالم يتكون من نصف كرة يرتكز على منبسط من الماء لا نهاية له ، وأن الأرض قرص مستوطاف على السطح المستوى فى داخل هذا الجسم النصف الكرى . ويذكرنا هذا بقول جيته Goethe إن الإنسان يشترك فى رذائله (أو أخطائه) مع أهل زمانه ، أما فضائله (أو فراسته) فإنه ينفرد بها دون سائر الناس .

وكما أن بعض الأساطير اليونانية قد جعلت أقيانوس Oceanus والد الخلائق بأجمعها ، فكذلك جعل طاليس الماء المبدأ الأول لجميع الأشياء ، وشكلها الأصلى ومصيرها النهائى . ويقول أرسطو إنه ربما جاء بهذا الرأى بعد أن شاهد « أن غذاء كل شىء رطب وأن ... بذور كل شىء ذات طبيعة رطبة ؛ .. وأن ما يتولد منه كل شىء هو دائماً مبدؤها الأساسى[٢٧] » . أو لعله كان يعتقد أن الماء هو الصورة الأولى أو الأساسية من صور المادة الثلاث — الغازية والسائلة والصلبة — التى يمكن أن تتحول إليها المواد كلها من الوجهة النظرية ؛ وليس أهم ما فى آرائه قوله إن الماء أصل كل شىء ، بل أهمها إرجاعه الأشياء جميعها إلى أصل واحد ؛ ولقد كان ذلك أول قول بوحدة المادة فى التاريخ المدون كله . ويصف أرسطو آراء طاليس بأنها آراء مادية ؛ ولكن طاليس يضيف إلى أقواله السابقة أن كل جزء فى العالم حى ، وأن المادة والحياة وحدة لا ينفصل أحد جزأيها عن الآخر ، وأن فى النباتات والمعادن « نفساً » خالدة كما فى الحيوان والإنسان ، وأن القوة الحيوية تتغير صورتها ولكنها لا تموت أبداً[٢٨] . وكان من عادة طاليس أن يقول إنه لا يوجد فرق جوهرى بين الأحياء والأموات . ولما أراد بعض الناس أن يضايقه بسؤال إياه لم إذن يؤثر الحياة على الموت أجابه بقوله : « ذلك لأنه لا فرق بينهما[٢٩] » .

ولما بلغ سن الشيخوخة أجمع مواطنوه على تلقيبه بلقب الحكيم Sophos ، ولما اعتزمت بلاد اليونان أن تخلد أسماء حكمائها السبعة ، وضعت اسم طاليس

على رأسهم . وسئل طاليس عن أصعب الأشياء ، فأجاب بقوله الحكيم الذى جرى مجرى الأمثال : « أن تعرف نفسك » . ولما سئل عن أسهل الأشياء قال : « أن تسدى النصح » وسئل ما هو الله ؟ فأجاب « هو ماليس له بداية ولا نهايه » . وسئل كيف يستطيع الناس أن يعيشوا عيشة الفضيلة والعدالة فأجاب : « ألا نفعل نحن ما نلوم غيرنا على فعله[٣٠] » . ويقول ديوجنيز ليرتيوس Diogenes Laertius[٣١] : إنه مات « وهو يشاهد مباراة فى الألعاب الرياضية . بعد أن أضناه الحر والظمأ والتعب لأنه بلغ سن الشيخوخة » .

ويقول استرابون[٣٢] . إن طاليس كان من كتب فى الفزيولوجيا أى علم الطبيعة (physics) أو مبدأ وجود الأشياء وتطورها . وقد تقدم علمه تقدماً عظيما على يد تلميذه أنكسندر ؛ وقد عاش بين عامى ٦١١ ، ٥٤٩ ق . م ولكنه نشر على الناس فلسفة تشبه شبهاً عجيباً الفلسفة التى نشرها هربرت اسبنسر Herbert Spencer فى عام ١٨٦٠ م وهو يهتز طرباً من قوة ابتكاره الفطين . ويقول أنكسمندر إن المبدأ الأول كان لا نهائية غير محددة واسعة الأرجاء (Apeiron) ، أى كتلة غير محددة ليست لها صفات خاصة ، ولكنها تنمو وتتطور بما فيها من قوى ذاتية ، حتى نشأت منها جميع حقائق الكون المختلفة(*) . وهذه اللانهائية الحية السرمدية التى لا صلة لها بالشخصية ولا بالأخلاق هى الإله الذى لا إله غيره فى نظام أنكسمندر ؛ هى الواحد السرمدى الذى لا يحول ، والذى يختلف كل الاختلاف عن الكثرة الفانية المتغيرة التى فى عالم الأشياء . وهنا تلتقى هذه الفلسفة بآراء المدرسة الإيلية Eleatic فيما وراء الطبيعة — وهى أن الواحد السرمدى دون غيره هو الحقيقة . ومن هذه اللانهائية التى لا خواص لها تولد العوالم الجديدة فى تتابع لا ينقطع أبداً ، وإليها تعود هذه العوالم فى تتابع

(*) قارن هذا بما عرف به اسبنسر التطور إذ قال إنه قبل كل شىء تحول من التجانس غير المترابط غير المحدد ؛ إلى التباين المترابط المحدد[٣٣] .

لا ينقطع أبداً ، بعد أن تتطور وتموت . وتحتوى اللانهائية الأزلية على جميع الأضداد — الحر والبرد ، والرطوبة والجفاف ، والسيولة والصلابة والغازية . . . ، وهذه الصفات الإمكانية تصبح فى حالة التطور حقائق واقعية ، وتنشأ منها أشياء محددة مختلفة ؛ وفى حالة الانحلال تعود الصفات المتضادة مرة ثانية إلى اللانهائية (ومن هذه الآراء استمد هرقليطس واسپنسر آراءهما) . وفى قيام العوالم وسقوطها على هذا النحو تصطرع العناصر المختلفة بعضها مع بعض ، ويعتدى بعضها على بعضها اصطراع الأضداد المتعادية ، ويكون جزاؤها على هذا التضاد هو الانحلال ؛ « فتفنى الأشياء فى الأشياء التى ولدت منها » .

ولا يسلم أنكسمندر هو الآخر من الأوهام الفلكية التى يمكن أن تغتفر فى عصر لا توجد فيه آلات ، ولكنه تفوق على طاليس بقوله إن الأرض اسطوانة معلقة بغير شىء فى وسط الكون لا يمسكها غير وجودها على أبعاد متساوية من جميع الأشياء[٣٤] . وهو يرى أن الشمس والقمر والنجوم تتحرك فى دوائر حول الأرض . وأراد أنكسمندر أن يوضح هذا كله فصنع فى اسپارطة مزولة (gnomon) — وأكبر الظن أنه قلد فيها نماذج بابلية — أظهر فيها حركة الكواكب ، وميل الفلك(*) وتعاقب الانقلابين والاعتدالين والفصول[٣٥] . وقد استطاع بمعاونة زميله ومواطنه هكاتيوس Hecataeus أن يجعل الجغرافية علما ، وذلك برسمه أول خريطة معروفة للعالم المعمور(**) .

ويقول أنكسمندر إن الدنيا فى أول صورة لها كانت فى حالة الميوعة ، ولكن الحرارة الخارجية جففت بعضها فكان أرضا ، وبخرت بعضها فكان سحابا ؛

(*) ودائرة فلك البروج هى الدائرة الكبرى التى تدور فيها الشمس فى حركتها الظاهرية السنوية فى السماء . وإذ كان مستوى الفلك هو أيضاً مستوى مدار الأرض ، فإن ميل دائرة البروج هو زاوية الميل (٢٣°) بين مستوى دائرة خط الاستواء الأرضى ومستوى مدارها حول الشمس .

(**) لقد رسم المصريون قبله خرائط ولكنها كانت خرائط لأقاليم قليلة محدودة .

وإن اختلاف الحرارة فى جوها الذى تكوّن بهذه الطريقة قد نشأت عنه حركة الرياح . ونشأت الكائنات الحية بمراحل تدريجية من الرطوبة الأولى ؛ وكانت الحيوانات الأرضية فى بادئ الأمر سمكاً ، ولم تتشكل بأشكالها الحالية إلا بعد أن جفت الأرض . وقد كان الإنسان هو الآخر سمكة ولا يمكن أن يكون من أول ما ظهر على الأرض قد ولد بالصورة التى هو عليها الآن وإلا لكان عاجزاً عن الحصول على طعامه ، ولهلك[٣٦]

وكان أنكسمينز Anaximenes تلميذ أنكسمندر أقل منه شأنا ، والمبدأ الأول عنده هو الهواء . ومن الهواء تنشأ جميع العناصر الأخرى بالتلطيف (تقليل الكثافة) وبه تحدث النار ، وبالتكثيف وبه تحدث على التوالى الرياح والسحب والماء والأرض والحجارة . وكما أن الروح وهى هواء ، تمسك أجسامنا فكذلك يكون هواء العالم (النوما pneuma) هو روحه السارية فيه كله أو نفسه أو الإله [٣٧] تلك فكرة لا تنال منها جميع أعاصير الفلسفة اليونانية ، ونجد لها عاصما فى الرواقية والمسيحية .

ولم تنتج هذه الأيام أيام مجد ميليتس وعزتها أقدم ما أنتجته الفلسفة اليونانية فحسب ، بل أنتجت أيضاً أقدم النثر وأقدم التاريخ المدون فى بلاد اليونان كلها(*) . ويبدو أن قول الشعر أمر طبيعى فى شباب الأمة حين يكون الخيال فيها أعظم من المعرفة وحين يجسد الإيمان القوى قوى الطبيعة فى الحقل ، والغابة ، والبحر ، والجو . وإن من أصعب الأشياء على الشعر تجنب تجسيد القوى ومنحها روحا ، كما أن أصعب الأشياء على هـذا التجسيد وذاك المنح أن يتجنبا الشـعر . أما النثر فهو صورة المعرفة التى تخلصت من الخيال ومن الإيمان ، وهو لغة الشئون العـادية الدنيوية غير الدينية ، وهو رمز نضوج الأمة والشاهد على انقضاء عهد

(*) على القارئ الحكيم أن يضع لفظ المعروف بعد كلمتى أقدم وأول وأمثالها .

شبابها . وقد ظل الأدب اليوناني كله تقريبا إلى العصر الذى تتحدث عنه (٦٠٠ ق . م) ، وتقل التعليم أخلاق اليونان وقصصهم شعراً لا نثرا ، بل إن الفلاسفة الأولين أمثال زنوفانيز ، وپرميدس ، وأنبدقليز قد ألبسوا نظامهم الفلسفى ثوبا شعريا ؛ وكما أن العلم كان فى بداية الأمر صورة من صور الفلسفة تكافح لتحرر نفسها من الصور العامة النظرية غير القابلة للتحقيق ، كذلك كانت الفلسفة فى أول عهدها صورة من صور الشعر ، تحاول أن تتحرر من الأساطير ، وتجسيد القوى ومنحها روحا ، ومن التشابيه والاستعارات(*) .

ولذلك كان من الحوادث الهامة فى تاريخ العلم أن يشرح فرسيدس Pherecydes وانكسمندر آراءهما نثراً . وقد بدأ رجال غيرهما فى ذلك العصر نفسه يسميهم اليونان لوجوجرافوى أى الكتاب العقليين أو كتاب النثر ، بدءوا يسجلون بهذه الوسيلة الجديدة تواريخ دولهم ؛ فكتب كدموس Cadmus (٥٥٠) تاريخاً لمليتس ، وكتب يوجايون Eugaeon تاريخاً لساموس ، وكتب زانثوس Xanthus تاريخاً لليديا . وفى أواخر ذلك القرن ارتقى هكتيوس Hecataeus المليتى بالتاريخ والجغرافية رقياً عظيما فى كتابين يعدان فتحاً جديداً فى هذين العلمين هما الستّرياى Historiai أو البحوث والجس پريودوس Ges Periodos أو دورة الأرض . وقد قسم الكتاب الثانى الكوكب الأرضى قارتين هما أوروبا وآسية وضم مصر إلى آسية . وإذا كانت الأجزاء الباقية من هذا الكتاب حقيقية ؛ فإن فيها معلومات قيمة عن مصر سطا هيرودوت على الكثير منها دون أن يعترف بهذا . وقد بدأ كتاب البحوث بهذه العبارة القوية الدالة على تشككه : « إنى أكتب ما أرى أنه حق ؛ لأن روايات اليونان فى نظرى كثيرة وسخيفة » . وكان هكتيوس يعد أقوال هومر تاريخاً وأخذ منها

(*) للكاتب الإنجليزى اررد مكول بحث طريف فى هذا الموضوع تضمنه مقاله من ملتن وقد ترجمنا هذا المقال إلى العربية . (المترجم)

عدة قصص وهو مغمض العينين ، على أنه قد حاول محاولة شريفة أن يميز الحقائق من الأساطير ، وأن يتعقب الأنساب الحقة ، وأن يحاول الوصول إلى تاريخ لليونان يمكن الركون إليه . وجملة القول أن كتابة التاريخ اليونانى كانت قديمة العهد حين ولد « أبو التاريخ » .

وكان هكتيوس وغيره من الكتاب العقليين الذين ظهروا فى هذا العصر فى معظم مدن اليونان ومستعمراتهم يفهمون من كلمة هستوريا(*) بحث الحقائق المتصلة بأية مادة من المواد العلمية ، سواء كانت متصلة بالعلوم الطبيعية أو بالفلسفة أو بكتابة التاريخ بمعناه الحديث . وكان لهذا اللفظ فى أيونيا معنى يثير الريبة فى نفوس أهلها ؛ فقد كانوا يفهمون منه أنه يراد به أن يستبدل بقصص المعجزات الخاصة بالآلهة وبالأبطال أنصاف الآلهة ، سجلات للحوادث الدنيوية وتفاسير عقلية لعلل هذه الحوادث ونتائجها . وقد بدأت هذه العملية بهكاتيوس ، وتقدمت على يد هيرودوت ، وبلغت غايتها على يد توكيديدس .

ويرتبط فقر النثر اليونانى قبل هيرودوت بهزيمة ميليتس وتغلب المغيرين عليها وفقرها فى العصر الذى بدأ فيه النثر . ذلك أن الاضمحلال الداخلى قد عهد السبيل للفاتحين كما جرت العادة فى مختلف العصور ، وقد كان ازدياد الثراء وانتشار الترف سبباً فى انغماس الناس فى الملاذ ، وبدت الرواقية والوطنية فى نظر الناس من المبادئ العتيقة السخيفة ؛ وجرت على ألسنة اليونان تلك العبارة التى يسخرون بها من أهل ميليتس : « لقد كان الميليتيون شجعانا فى يوم من الأيام[٢٨] » . واشتدت المنافسة بين الأهلين للحصول على طيبات الحياة حين فقد الإيمان القديم قدرته على تخفيف النزاع بين الطبقات ببث مبادئ الرحمة والعدالة فى

(*) وهى مشتقة من histor أو istor ومعناها عارف ، وهى تيسير فى النطق لكلمة id - tor المأخوذة من id فى eidenai بمعنى يعرف . قارن هذا أيضاً بكلمة wit الإنجليزية فى wisdom . وكلمة Story اختصار لكلمة history .

نفوس الأقوياء والسلوى فى نفوس الضعفاء ؛ وأصبح الأغنياء وهم عماد الدكتاتورية الألجاركيـــة حزباً متحداً يقف فى وجه الفقراء المطالبين بالدمقراطية ؛ ولكن الفقراء استولوا على زمام الحكم ، وطردوا الأغنياء من البلاد ، وجمعوا من بقى من أبناء الأغنياء فى أماكن الدراس ، وأطلقوا عليهم الثيران فداستهم بأقدامها وقضت عليهم جميعاً . ثم عاد الأغنياء وقبضوا على أزمة الحكم وطلوا جلود زعماء الدمقراطية بالقار وأحرقوهم أحياء[٣٩] ، وستقال عنا هذه القصة فى مستقبل الأيام . ولما شرع كروسس فى عام ٥٦٠ يخضع إلى حكم ليديا ساحل آسية الصغرى اليونانى الممتد من نيدس إلى الهلسپنت (الدردنيل) حافظت ميليتس على استقلالها بامتناعها عن مساعدة أخواتها من الدول اليونانية . ولكن قورش فتح ليديا فى عام ٥٤٦ ولم يجد صعوبة كبيرة فى الاستيلاء على مدن أيونيا التى مزقتها الانقسامات الداخلية ، وضمها إلى الدولة الفارسية ، وانقضى بذلك عصر ميليتس المجيد . إن العلم والفلسفة فى تاريخ الدول يصلان إلى غايتهما بعد أن يبدأ فيها الانحلال ، ذلك أن الحكمة نذير الموت .

٢ - بوليكراتيز الساموسى

على شاطئ الخليج فى مقابل ميليتس ، بالقرب من منافذ نهر الميندر Maender كانت تقوم بلدة ميوس المتواضعة أشهر مدائن البرينى Priene ، وكان يسكنها فى القرن السادس بياس Bias أحد الحكماء السبعة ، ونقول سبعة وإن كان هرميوس Hermippus يقول إنهم سبعة عشر ، لأن اليونان اختلفوا فى أسمائهم فوضع كل منهم أسماء غير التى وضعها الآخر . ولكن معظمهم متفقون على طاليس ، وصولون ، وبياس ، وپتكوس Pittacus الميليتى ، وپريندر الكورنثى ، وشيلون Chilon الأسپارطى ، وكليوبولوس Cleobolus اللندى (Lindus) من أعمال رودس . وكانت بلاد اليونان تعظم الحكمة كما

تعظم الهند الدين، وكما عظمت إيطاليا فى عهد النهضة العبقرية الفنية ، وكما تعظم أمريكا الناشئة بطبيعة الحال المشروعات الاقتصادية . فأبطال اليونان لم يكونوا قديسين أو فنانين أو من أصحاب الملايين ، بل كانوا حكماء ، ولم يكن أجل حكمائهم هم أصحاب النظريات العلمية ، بل كانوا رجالا جعلوا لحكمتهم عملا جدياً نشيطاً فى العالم . وأصبحت أقوال هؤلاء الرجال حكما وأمثالا يتناقلها اليونان ، وكانت فى بعض الأحيان تنقش على جدران معبد أبلو فى دلفى . فقد كان الناس مثلا مولعين بترديد قول بياس ، إن أبأس الناس من لم يعرف كيف يصبر على البؤس ، وإن على الناس أن ينظموا حياتهم كما لو كانوا قد قدر عليهم أن يعيشوا طويلا أو قصيراً ، وإن « الحكمة يجب أن يعتز بها وأن تكون وسيلة للانتقال من الشباب إلى الشيخوخة ، لأنها أبقى من كل ما عداها مما يملكه الإنسان [٤٠] » .

وإلى غرب بريينى تقوم جزيرة ساموس ثانية جزائر أيونيا فى الاتساع . وكانت حاضرتها تقوم على ساحلها الجنوبى الشرقى ؛ وكان الإنسان إذا ما دخل موفأها الأمين ، ماراً بالسفن الحمراء الذائعة الصيت التى يتألف منها أسطول الجزيرة ، شاهد المدينة تقوم أمامه كأنها مشيدة من القرميد على سفح التل . وكان أول ما يشهده الأرصفة والحوانيت ، ثم يرى بعدئذ البيوت ؛ ثم حصنها القائم على الربوة ، ثم هيكل هيرا العظيم ، ومن وراء هذه كلها سلاسل متتابعة من الجبال والقلل تعلو إلى خمسة آلاف قدم . لقد كان ذلك بلا ريب منظراً يثير الحماسة الوطنية فى قلب كل ساموسى .

ووصلت ساموس إلى أوج عظمتها فى الربع الثالث من القرن السادس تحت حكم پوليكراتيز Polycrates . وقد استطاع هذا الطاغية بفضل المال الذى تدره عليه رسوم الميناء أن يقضى فترة من البطالة كانت تنذر الجزيرة بأوخم العواقب ، فوضع خطة لإقامة منشآت عامة أثارت إعجاب هيرودوت . وكان أعظم مشروعاته نفق فى جبل ينقل الماء إلى المدينة مسافة ٤٥٠٠ قدم . وفى

وسعنا أن نستدل بعض الاستدلال على مهارة اليونان فى الرياضة والهندسة إذا عرفنا أن الثقبين الذين بدأ من اتجاهين متضادين التقيا فى وسط النفق ، وأن الخطأ فى تقديرهم عند التقائهما لم يزد على ثمانى عشرة قدماً فى الاتجاه وعلى تسع أقدام فى الارتفاع(*)(٤١) .

وكانت ساموس مركزاً من مراكز الثقافة قبـــل پوليكراتيز بزمن طويل . ففيها عاش إيسوب صاحب الخرافات المشهورة ، وكان عبدا فريجيا للادمون Lodmon اليونانى . وتقول إحدى الروايات التى لم تؤيد بعدُ إن لادمون أعتقه وإن إيسوب سافر كثيراً والتقى بصولون ، وعاش فى بلاط كروسس ، واستولى على الأموال التى كلفه كروسس بتوزيعها فى دلفى ، وإنه لقى حتفه على يد الدلفيين الذين اغتصب مالهم(٤٢) . وكانت خرافاته التى أخذ معظمها من مصادر شرقية منتشرة بين الأثينيين فى عصر بلادهم الأدبى . ويقول أفلوطرخس إن سقراط قد نظمها شعراً(٤٣) ، وإن ما فيها من فلسفة فلسفةٌ يونانية خالصة ، وإن كانت الخرافات نفسها مصوغة فى قالب شرقى : « ما أحلى جمال الطبيعة ، والأرض والبحر ، والنجوم وقرصى الشمس والقمر ، وأما ما عدا هـــذه فخوف وألم(٤٤) » وخاصة إذا اغتصب الإنسان مال غيره ! ولا نزال حتى الآن نلتقى به فى الڤاتيكان حيث نراه على كوب من عصر پركلير ذى رأس أصاب الصلع نصفه ولحية كلحية ڤانديك Vanoyke ، يستمع إلى ثعلب مرح يروى له قصة ذات فائدة له(٤٥)

وفى ساموس ولد فيثاغورس العظيم ، ولكنه غادرها فى عام ٥٢٩ ليعيش فى كروتونا بإيطاليا . وجاء أنكريوس من تيوس Teos إلى ساموس ليتغنى بمحاسن بوليكراتيز ويربى له ابنه ؛ وكانت أعظم شخصية فى بلاد بوليكراتيز هى شخصية الفنان ثيودوس Theodorus ليوناردو ساموس ، الذى يعرف

(*) ولا يزيد الخطأ عند التقاء الثقبين فى هذه الايام على بضع بوصات ، وقد لا يكون ثمة خطأ على الإطلاق .



طرفاً من كل شيء ويجيد معظم ما يعرف . ويعزو إليه اليونان ـ ولعلهم فعلوا هذا بعد بحث وتنقيب ـ اختراع ميزان الماء ، وزاوية النجار ، والمخرطة[٤٦] . وكان ماهراً في الحفر على الجواهر ، كما كان يحترف صنع الأدوات المعدنية والحجرية والخشبية ؛ وكان مثالا ومهندسا معمارياً ، اشترك في تصميم المعبد الثاني لأرتميس في إفسوس ، وشاد قبة عظيمة للجمعيات العامة في اسپارطة ، وساعد على إدخال التماثيل والنماذج الطينية إلى بلاد اليونان ، وشارك ريكوس Rhoecus شرف إدخال صناعة صب البرنز المجوف من مصر أو من أشور إلى ساموس[٤٧] . وكان اليونان قبل ثيودورس يصنعون تماثيل برنزية غير متقنة بتثبيت ألواح من المعدن على « قنطرة » من الخشب[٤٨] ، أما في أيامه فقد استطاعوا أن يخرجوا من روائع الصناعة البرنزية أمثال راكب العربة في دلفي وقاذف القرص في ميرون . واشتهرت ساموس فضلا عن هذا بفخارها ؛ ويثني پلني على هذا الفخار بقوله إن كهنة سيبيل لم يكرنوا يستخدمون غير شقافة ساموس في حرمان أنفسهم من رجولتهم[٤٩] .

٣ ـ هرقليطس الإفسوسي

وعلى الجانب الثاني المقابل لساموس من خليج كايستر ا كانت تقوم إفسوس أشهر مدائن أيونيا ، وقد أنشأها حوالى عام ١٠٠٠ق . م مستعمرون من أثينة . وكان اجتماع تجارة نهرى كايستر ومينلر سبباً في رخاء المدينة . وكان في أصلها ، وفي دينها ، وفنها ، عنصر شرقي واضح . وكانت أرتميز التي تعبد فيها من بداية أمرها إلى نهايته إلهة شرقية للأمومة والخصوبة . وقد حدثت في هيكلها العظيم وفيات كثيرة وعاد فيه إلى الحياة خلق لا يقلون في عددهم عمن ماتو فيه . وقد شيد هيكلها الأول حوال عام ٦٠٠٠ ق . م في موضع كان فيه من قبل هيكل قديم ، وأعيد بناؤه مرتين ودمر مرتين ، ولعله كان أول صرح

عظيم شيد على الطراز الأيونى . وشيد الهيكل الثانى حوالى عام ٥٤٠ وقدم كروسس جزءاً كبيراً من المال الذى أنفق فى تشييده ، واشترك فى تصميمه بيونيوس الإفسوسى وثيودورس الساموسى ، وديمتريوس أحد كهنة الضريح . وكان أكبر هيكل يونانى أقيم حتى ذلك الوقت ، وكان يعد بلا نزاع من بين عجائب الدنيا السبع(*) . ولم تشتهر المدينة بهياكلها وحدها ، بل اشتهرت أيضاً بشعرائها ، وفلاسفتها ، وبنسائها ذوات الجلابيب الغالية[٥١] . وعاش فيها فى ذلك الزمن البعيد أى حوالى ٦٩٠ ق . م كلنوس Callinus أول من نعرف من شعراء المراثى فى بلاد اليونان . وكان أعظم منه قدراً وأقبح منه منظراً هيوناكس Hipponax الذى ألف عام ٥٥٠ قصائد قبيحة فى موضوعها ، غامضة فى ألفاظها ، لاذعة فى فكاهتها ، دقيقة فى وزنها الشعرى ، جعلت بلاد اليونان كلها تتحدث عنه ، وإفسوس كلها تحقد عليه . وكان قصير القامة نحيل الجسم ، أعرج ، مشوها ، غاية فى قبح المنظر . ويقول فى بعض ما بقى من إحدى قصائده إن المرأة تسبب السعادة للرجل فى يومين — « أحدهما يوم يتزوجها ، والثانى يوم يدفنها[٥٢] » . وكان هجاء قاسياً هجا كل عظيم فى إفسوس من أحقر المجرمين إلى أعظم كهنة الهيكل ، ولما عرض المثالان بوپالوس Bupalus وأثنيس Athenis رسماً له مضحكاً لطيفاً ، هجاهما فى شعره هجوا قاذعاً بلغ من القذارة حداً جعله أبقى على الدهر من حجارتهم وأحد من أسنان الزمان .

وكان أعظم أبناء إفسوس كلهم هوهرقليطس الغامض Heracleitus the Obscure

---

(*) وكانت العجائب الست الأخرى هى حدائق بابل المعلقة ، ومنارة الإسكندرية ، وتمثال رودس الضخم ، وزيوس فيدياس فى أولمپيا ، وقبر موسولس فى هليكرنسس ، وأهرام مصر . ويصف پلنى الهيكل الثانى بقوله إنه يبلغ ٤١٥ قدماً فى الطول ، ٢٢٥ قدماً فى العرض ، وإن به ١٢٧ عموداً يبلغ ارتفاعها ٦٠ قدماً — وكان بعضها مزداناً أو مشوهاً بالنقوش[٥٠] . وقد تم بناء هذا الهيكل فى عام ٥٢٠ ق . م بعد كدح دام قرناً كاملا ، ثم احترق وتهدم فى عام ٣٥٦ ق . م .

وقد ولد فى عام ٥٣٠ من أسرة نبيلة ، ولذلك كان يرى أن الدمقراطية نظام خاطئ . ومن أقواله فى هذا المعنى (١١١(*)) : « إن الفاسدين كثيرون والصالحين قلائل » و « عندى أن رجلا واحداً خير من عشرة آلاف إذا كان هو أحسنهم » (١١٣) . ولكن الأشراف أنفسهم لم يعجبوه ، كما لم يعجبه العلماء والنساء . وقد كتب فى هذا المعنى خاصة بعبارة طريفة هى : « إن العلم الكثير لا يكون العقل ، ولو كان يكونه لأفاد هزيود ، وفيثاغورس ، وزنوفانيز ، وهكاتيوس » . (١٦) « لأن الحكمة الحقة الوحيدة هى معرفة الفكرة التى تسيطر بنفسها على كل شىء فى جميع الأحوال » (١٩) . ثم خرج ، كما كان يخرج حكماء الصين ، ليعيش فى شعاب الجبال ، ويجيل العقل فى الفكرة الوحيدة التى يستطيع بها أن يفسر كل شىء . وترفع عن شرح ما هداه إليه تفكيره فى ألفاظ يفهمها عامة الناس ، وأخذ يطلب فى غموض الحياة وغموض الأقوال ملجأ يعصمه من متابعة الأحزاب والعامة الذين يقتلون الفردية ، ولذلك أخذ يعبر عن آرائه فى أمثال جامعة غامضة فى الطبيعة ، أودعها هيكل أرتميز لتحير عقول الخلف .

وقد صُوِّر هرقليطس فى الأدب الحديث بأنه يقيم فلسفته حول فكرة التغير ، ولكن من الصعب علينا أن نجد القليل الباقى من هذه الفلسفة ، ما يؤيد هذا التفسير . وقد كان يتوق كما يتوق معظم الفلاسفة للكشف عن الواحد المستتر وراء الكثرة ، وعن وحدة تثبت العقول ، ونظام بين ما فى العالم من زحام وفوضى وكثرة . وقد قال فى هذا المعنى قولا لا يقل قوة وحماسة عن قول پرمنيدز Parmenidez (١) إن الأشياء كلها وحدة » ؛ والمشكلة التى تواجهها الفلسفة هى أن تعرف ما هى هذه الوحدة . وقد أجاب هرقليطس عن هذا السؤال بأنها

(*) تشير الأعداد التى بين الأقواس إلى الباقى من أقوال هرقليطس كما رقمها باى ووتر Bywater .

هي النار . ولعله كان في هذا الجواب متأثراً بعبادة الفرس للنار . وأكبر الظن أنه كان يستعمل هذا اللفظ استعمالا رمزياً وحرفياً معاً ، ويقصد به الطاقة كما يقصد به النار نفسها ، كما نستدل على هذا من جمعه بين النار والنفس والله في معنى واحد . على أننا ليس في وسعنا أن نقطع برأى في هذا بالاستناد إلى القليل الباقي من فلسفته . انظر مثلا إلى قوله : « إن هذا العالم ... لم يصنعه إله ولا إنسان ، ولكنه كان منذ الأزل ، وهو كائن ، وسيكون ، ناراً حية أزلية ، توقد بقدر ، وتنطفئ بقدر » . (٢٠) وكل شيء صورة من صور النار ، فهو إما في « طريق » النار « إلى أسفل » في تكثفها المتتابع إلى رطوبة ، فماء ، فأرض ؛ أو إلى « طريقها إلى أعلى » من الأرض ، إلى الماء ، إلى الرطوبة(*) ، إلى النار[٥٤] » .

ومما يضايق هرقليطس في النار الخالدة أنها تتبدل تبدلا لا يقف عند حد وإن كان يجد فيها ثباتاً يخفف عنه ما يسببه هذا التبدل من ضيق ؛ والمحور الثاني الذي يدور حوله تفكيره هو أبدية « هذا التبدل ووجوده في كل شيء » ، فهو لا يجد قط شيئاً جامداً في الكون أو في العقل أو في النفس ؛ فلا شيء كائن بل

(*) وربما كان في عقل هرقليطس شيء يشبه نظرية السديم ، على النحو الآتي : يبدأ العالم ناراً ، (أو حرارة أو طاقة) ، ثم تستحيل غازاً أو أبخرة ، تتكثف وتسقط ماء ، وتتكون من رواسبها الكيميائية بعد أن تتبخر المواد الصلبة التي في الأرض[٥٥] ، والماء والأرض (أي السوائل والأجسام الصلبة) مرحلتان من عملية واحدة وصورتان من حقيقة واحدة (٢٥) . « الأشياء جميعها تتحول إلى نار ، والنار تتحول إلى جميع الأشياء » (٢٢) . وكل التغيرات « طريق إلى أسفل أو إلى أعلى » أي انتقال من إحدى صور الطاقة أو النار إلى صورة أخرى منها ، تارة أكثر منها تكثفاً وطوراً أقل — . والطريق إلى أعلى أو إلى أسفل واحد لا يتغير » (٦٩) . والتلطيف والتكثيف حركتان في دورة دائبة من التغير ؛ والأشياء كلها تتكون في طريق الحقيقة إلى أسفل وهو طريق التكثف أو طريقها إلى أعلى وهو طريق التلطيف من النار ثم تعود مرة أخرى إلى النار ، والأشكال جميعها صور من طاقة واحدة كامنة وراءها . وقد عبر اسبنوزا عن هذا بقوله : إن النار أو الطاقة هي المادة الخالدة الموجودة في كل مكان أو هي المبدأ الأساسي . والتكثيف والتلطيف (الطريق إلى أسفل أو إلى أعلى) هما خاصتان . وصورها الخاصة أو أساليبها هي الأشياء الظاهرة في العالم .

كل شيء صائر ، وليس ثمة حالة تبقى على حالها دون أن تتغير ، حتى فى أقصر اللحظات ؛ فكل شيء دائب على الخروج عن حاله التى هو عليها ، صائر إلى ما سيكون عليه . وتلك حال جديدة من حالات الفلسفة تلقى من هرقليطس عناية وتوكيداً ، فهو لا يقتصر (كما يقتصر طاليس) على السؤال عن مادية الأشياء فى حاضرها ، ولكنه يسأل كما يسأل أنكسمندر ، ولكريشبوس ، واسپنسر عن الطريقة التى أدت بها إلى ما هى عليه . وهو يشير ، كما يشير أرسطو ، إلى أن دراسة الحالة الثانية هى خير طريقة تعرف بها الأولى . ولسنا نجد فيما بقى لدينا من أمثاله المثل القائل : « كل شيء يسير ، ولا شيء يسكن » (Panta rei,ouden menei) ، ولكن الأقدمين على بكرة أبيهم يعزون هذا المثل إلى هرقليطس[٥٦] : « إنك لا تستطيع أن تخطو خطوتين فى نهر واحد ، لأن مياها أخرى لا تنفك تجرى إليك (٤١) ». « نحن كائنون ونحن غير كائنين » (٨١) ؛ والكون عنده كما هو عند هيجل صيرورة كبرى . والتضاعف ، والاختلاف ، والتغير حقائق لا تقل فى ذلك عن الوحدة ، والذاتية ، والكينونة ؛ والتعدد حقيقة لا تقل فى ذلك عن الوحدة[٥٧] . فالتكثرة هى الوحدة ؛ وكل تغير ما هو إلا انتقال الأشياء نحو حالة النار أو منها إن الوحدة هى الكثرة ، وفى قلب النار نفسها يخفق التغير الذى لا يستقر أبداً (*) .

ومن هنا ينتقل هرقليطس إلى العنصر الثالث من عناصر فلسفته — وهو وحدة الأضداد ، واعتماد المتناقضات بعضها على بعض ، وائتلاف النزاع . « الله هو الليل والنهار ، والشتاء والصيف ، والحرب والسلم ، والتخمة والجوع » (٣٦) . والخيّر والشرير واحد ، وكذلك الخير والشر » (٥٧—٥٨) « والحياة والموت شيء واحد ، وكذلك اليقظة والنوم ، والشباب والشيخوخة » (٧٨) لأن هذه

(*) على القارئ أن يذكر على الدوام أن هرقليطس هو الفيلسوف الغامض !

الأضداد كلها مراحل فى حركة متقلبة ، ولحظات فى النار الدائمة التغير ؛ وكل فرد فى الزوجين المتضادين لا غنى عنه لمعنى الآخر ووجود ، والحقيقة هى توتر الأضداد وتفاعلها وتبادلها وتغيرها ووحدتها وانسجامها . « وهم لا يفهمون كيف يتفق مع نفسه ما يختلف مع نفســه . وهنا يكون تطابق التوترات المتضادة ، كتطابق قوس الرامى ووتر القيثارة » . (٤٥) فكما أن وتر الآلة الموسيقية إذا أرخيته أو شددته أحدث التآلف فى الذبذبة الذى نسميه موسيقى أو نغمة ، فكذلك تبادل الأضداد وتنازعها يخلق جوهر تآلف الحياة والتغير ومعناهما . وفى النزاع القائم بين كائن حى وكائن حى ، بين رجل ورجل ، وبين رجل وامرأة ، وبين جيل وجيل ، وبين طبقة وطبقة ، وبين أمة وأمة ، وبين فكرة وفكرة ، وبين عقيدة وعقيدة ، تكون الأضداد المحتربة هى اللحمة والسدى على نول الحياة ، تعمل كل منها لغاية تناقض التى تعمل لها الأخرى ، لتنتج وحدة الكل غير المنظورة واتفاقه المخبوء . وأجمل التطابق ما كان بين الأشياء التى تختلف » (٤٦) ؛ وليس هذا المعنى بخاف على كل عاشق

وهذه المبادئ الثلاثة جميعها — النار والتغير ووحــدة التوتر فى الأضداد — تدخل كلها فى فكرة هرقليطس عن الروح والله . وهو يسخر من الذين « يسعون عبثاً ليطهروا أنفسهم من خفايا الدم بتدنيس أنفسهم بالدم » (١٣٠) ، ومن الذين يُصَلُّون إلى التماثيل القائمة هنا — ولا فرق بين من يفعل هــذا وبين من يخاطب البيوت ؛ إن هؤلاء الناس لا يعرفون قط شيئاً عن طبيعة الآلهة الحقة » (١٢٦) . وهو لا يوافق فكرة الخلود الشخصية ، ويقول إن الإنسان أيضاً ، ككل شىء آخر ، لهب كثير التغير كثير التقلب ، « يشتعل ثم ينطفئ كالضوء فى الليــل » (٧٧) . والإنسان فى هذه الحالة نفسها ، نار ؛ والنفس ، أو المبدأ الحيوى فى الإنسان ، جزء من الطاقة الخالدة فى الأشياء جميعها ؛ وهى بهذا الوصف لا تموت أبداً ، والموت والميلاد نقطتان حددهما العقل البشرى المحلل

للأشياء تحديداً تعسفياً ؛ ولكنهما من وجهة نظر الكون النزيهة الخالية من التحيزات لا تعدوان أن تكونا صورتين من صور تغير الأشكال التي لا تقف عند حد ؛ ففي كل لحظة من اللحظات يموت جزء منا ، ويعيش الكل ، وفي كل ثانية يموت واحد منا وتبقى الحياة . والموت بداية كما هو نهاية ؛ والمولد نهاية كما هو بداية . وألفاظنا ، وأفكارنا ، وحتى أخلاقنا نفسها ، نزعات وأهواء ، وتمثيل لمصالحنا مجزأة أو مجتمعة ؛ ومن واجب الفلسفة أن تنظر إلى الأشياء الفردية في ضوء المجموع . « والأشياء كلها عند الله جميلة طيبة ، حقة ؛ ولكن الناس يرون بعض الأشياء خطأ ويرون بعضها صواباً » (٦١)

وكما أن الروح لسان عابر من لهب الحياة المتغير إلى أبد الدهر ، فكذلك الله هو النار الخالدة الأبدية ، هو طاقة العالم التي لا تفنى أبداً . وهو الوحدة التي تربط جميع الأضداد ، وهو الانسجام الكائن بين جميع التفاعلات ، وهو جماع المعاني في كل المشاحنات . وهذه النار المقدسة كالحياة (لأن كلتيهما توجد في كل مكان ، وهما شيء واحد) تغير شكلها على الدوام ولا تنفك تنقل إلى أعلى أو أسفل على سلم التغير ، ولا تفتأ تبيد الأشياء وتعيد صنعها ؛ والحق أن سيأتي يوم بعيد « تحكم فيه النار على جميع الأشياء وتدينها » ، (٢٦) تهلكها وتمهد السبيل لأشكال جديدة ، في يوم الحساب الأخير ، أو يوم الكارثة الكونية . بيد أن أعمال النار الخالدة ليست خالية من المعنى أو مجردة من النظام ؛ ولو أننا استطعنا أن نفهم العالم مجتمعا ، لرأينا فيه حكمة عظيمة غير شخصية ، علما أو عقلا أو كلمة (٦٥) ؛ ومن واجبنا أن نحاول تشكيل حياتنا بحيث تتفق مع هذه السُّنة من سنن الطبيعة ، وهذا القانون العالمي ، هذه الحكمة أو الطاقة المنظمة التي هي الله (٩١) . « إن من الحكمة ألا تستمعوا إليَّ بل إلى الكلمة » (١) ، وأن تبحثوا عن العقل اللانهائي للكل وتتبعوه .

وحين يطبق هرقليطس على الأخلاق هذه القواعد الأربع الأساسية من أفكاره — الطاقة ، والتغير ، ووحدة الأضداد — وعقل الكل — ينير بعمله هذا سبيل الحياة كلها والسلوك كله . فالطاقة إذا سيطر عليها العقل ، واقترنت بالنظام ، نشأ عنها أعظم الخير . وليس التغير شرا بل هو خير وبركة ؛ « وفى التغير يجد الإنسان الراحة ؛ والإنسان يمل الكدح الدائم فى الأشياء نفسها والبدء دائماً من جديد » (٧٢ — ٧٣) . وحاجة الأضداد بعضها إلى بعض تجعل نزاع الحياة وآلامها شيئاً معقولا يمكن فهمه وغفرانه . « ليس حصول الناس على كل ما يرغبون فيه هو أحسن الأشياء ؛ فالمرض هو الذى يجعل الصحة سارة حلوة ؛ والشر هو الذى يفهم به الإنسان الخير ، والجوع هو الذى يفهم به الشبع ، والكدح هو الذى يفهم به الراحة » (١٠٤) . وهو يلوم الذين يرغبون فى القضاء على ما فى العالم من نزاع (٤٣) ؛ فبغير تشاد الأضداد لا يكون هناك تآلف ، ولا ينسج نسيج حى ولا يحدث تطور . وليس الانسجام هو القضاء على النزاع وإنما هو تشاد لا ينتهى بانتصار عنصر على عنصر ، بل يعمل فيه العنصران دون أن يستغنى كلاهما عن الآخر (كتطرف الشباب وتحفظ المشيب) ، وتنازع البقاء ضرورى لكى ينفصل الأطيب عن الأخبث ، وينشأ الأعلى . والنزاع والد كل شىء ومَلِك كل شىء ، وقد اختار البعض ليكونوا آلهة ، والبعض ليكونوا رجالا ؛ وجعل البعض عبيدا ، والبعض أحرارا » (٤٤) . وفى النهاية يكون التنازع هو « العدالة » (٦٢) . وتنافس الأفراد ، والجماعات ، والأنواع ، والأنظمة ، والإمبراطوريات يكوّن محكمة الطبيعة العليا ، التى لا يستأنف حكمها ولا ينقض .

وفلسفة هرقليطس فى جملتها ، كما تجمعها لنا الآن مائة وثلاثون جملة متفرقة ، تعد من أعظم نتاج العقل اليونانى . وقد انتقلت نظرية النار المقدسة إلى الرواقية ؛ كما انتقلت منها فكرة النار الأخيرة إلى المسيحية بطريق الرواقية

وكما صارت الكلمة أو عقل الطبيعة فى اللاهوت المسيحى هى الكلمة الإلهية ، أو الحكمة المجسدة التى يخلق الله بها الأشياء كلها ويحكمها . وقد مهدت هذه الفلسفة إلى حد ما لفكرة القانون الطبيعى فى الفلسفة الحديثة ؛ وأصبحت الفضيلة بوصفها إطاعة الطبيعة شعار الرواقية ؛ وانتعشت وحدة الأضداد انتعاشاً قوياً فى فلسفة هيجل ، واستردت فكرة التغير فى فلسفة برجسن Bergson ما كان لها من قوة ، وعادت إلى الظهور فكرة التنازع والكفاح المحددة لجميع الأشياء ، فى فلسفة دارون ، واسپنسر ، ونتشه — وقد واصل آخرهم حرب هرقليطس ضد الدمقراطية بعد أربعة وعشرين قرناً — .

ولا نكاد نعرف شيئاً عن حياة هرقليطس ؛ ولا نعرف عن موته إلا قصة لا سند لها رواها ديوجنيس ليرتس توضح لنا ما قد تنتهى إليه حياة النوابغ الأفذاذ . ذلك أنه أصبح أخيراً شديد الكره للإنسانية ، فكان يقضى وقته يضرب فى الجبال يقتات بالعشب والنبات ، فأصابه بسبب هذا داء الاستسقاء ، وعاد إلى المدينة يسأل الأطباء ويحاورهم هل يستطيعون أن يحدثوا الجفاف بعد الجو الرطب ؟ ولما لم يفهموه حبس نفسه فى حظيرة ثيران ، وغطى نفسه بروث البقر ، لعل الرطوبة تتبخر منه بما يحدثه هذا الروث من دفء ، ولكن عمله هذا لم يفده شيئاً ، ومات بعد أن عاش من العمر سبعين عاماً [٥٨] .

٤ — أنكريون التئوسى

تقوم كلوفون Colophon على مسيرة بضعة أميال من إفسوس ، ولعل اسمها مأخوذ من اسم التل الذى تقوم على جانبه(*) وقد ولد فيها حوالى ٥٧٦ ق.م .

(*) من لفظ Kolophon اليونانى ومعناه تل ويقابل باللاتينية collis وبالإنجليزية hill ولما كان فرسان المدينة قد اشتهروا بإجهازهم على قوى العدو المنهزم ، فقد أصبحت كلمة —

زنوفانيز الذى كان يبغض الكهنة ، وقد وصف مواطنيه بأنهم « يلبسون الثياب الأرجوانية الفاخرة ، ويعجبون بشعورهم المصففة المضمخة بالزيوت العطرة الغالية » ؛ إن للزهو بلا شك تاريخاً طويلا[٦٠] . وكان الشاعر ممنرموس Mimnermus (٦١٠) يغنى فى هذه المدينة . ولعله كان يغنى أيضاً فى أزمير ، لأقوام سرى فيهم تشاؤم الشرق الواهن بأغانيه الحزينة عن الشباب والحب القصيرى الأجل . وشغف حباً بنانو Nanno الفتاة التى كانت توقع أغانيه على نغمات الناى الحزينة ، ولما لم تستجب إلى حبه (ولعل سبب امتناعها اعتقادها أن الشاعر إذا تزوج مات) خلد اسمها فى قصيدة من الشعر الرثائى العذب الرقيق .

« نحن نزهر كأوراق الربيع ، حين تبدأ الشمس تتوهج وتلتهب ، وفى مسرات الشباب القصيرة الأجل لا نعرف من الآلهة خيراً ولا شراً ، ولكن الأرواح السوداء تقف دائماً عند الهدف ، تمسك فى يدها عمراً واحداً عزناً وموتاً واحداً[٦١] » .

وبعد مائة عام من ذلك الوقت كان شاعر آخر أعظم شهرة من أنكريون يعيش فى مدينة تئوس القريبة من كلوفون ، ذلك هو أنكريون . وكان هذا الشاعر كثير الأسفار ولكنه ولد فى أنكريون (٥٦٣) وتوفى فيها (٤٧٨) . وقد دعاه كثير من الملوك ليعيش فى بلاطهم لأنه لم يكن ينافسه فى بعد الصيت أحد من معاصريه إلا سمنيدس وحده . ونشهده منضماً إلى جماعة من المهاجرين إلى أبدرا Abdera فى تراقية ، وينخرط فى سلك الجندية ، ويحارب فى سلسلة أو سلسلتين من المعارك . ثم يترك درعه فى الميدان كما كان يفعل الشعراء فى زمانه ، ولا يستل بعدئذ إلا قلمه ، ثم يقضى بضع سنين فى بلاط پوليكراتيس فى ساموس ؛ ويجىء به من هنالك فى موكب رسمى فخم ، ليزدان به قصر هپاركس فى أثينة ، ثم عاد آخر

— Kolophon فى اللغة اليونانية مرادفة لعبارة الضربة القاضية ؛ ولما انتقلت إلى اللغة الإنجليزية أضحت رمزاً للناشرين كانوا يضعونها أولا فى نهاية الكتاب .

الأمر إلى تنوس بعد الحرب الفارسية ليخفف عن نفسه العناء فى شيخوخته وضعفه بالغناء والشراب . وكان جزاؤه على إفراطه فى ملذاته أن عمر طويلا حتى بلغ الخامسة والثمانين من عمره ؛ وكان سبب موته على ما نقل إلينا الرواة أن وقفت بذرة عنبة فى حلقه(٦٢) .

وقد عرفت الإسكندرية خمسة من كتب أنكريون ولكن لم يبق من أشعاره إلا بضعة أبيات مزدوجة . وكانت موضوعات شعره هى الخمر ، والنساء ، والغلمان ، وكان يلجأ فيه إلى المزاح اللطيف يصوغه فى البحر العمبى (iambic) الخفيف « وأيا كان الموضوع الذى يطرقه فإنه لا يبدو للقارئ بذيئاً أو غليظاً لأنه يصوغه فى ألفاظ عفة وشعر رقيق . ولم يكن أنكريون مثل هيبوناكس ذا ألفاظ بذيئة حادة ، أو مثل سافو فى شدتها ، بل كان شاعر بلاط يعرض ثرثرته المهذبة الرقيقة على من يشتريها ، ويمتدح كل ملك يعجبه ويبتاع له خمره . ويظن أثنيوس أن أغانيه الخمرية ، وتقلبه فى عشقه ، كانت كلها تصنعاً(٦٣) ؛ ولعل أنكريون كان يخفى وقاره لكى يحظى بإعجاب النساء به ، كما كان يخفى اعتداله فى الشراب لتزيد بذلك شهرته . وثمة قصة لطيفة تروى كيف صدمت قدمه وهو طفل طفلا صغيراً فانهال عليه سباً بأقذع الألفاظ ، ثم أحب فى شيخوخته هذا الغلام نفسه وكفر عن ذنبه بأن أخذ يكيل له المدح(٦٤) . وكان لا يفرق فى عشقه بين الذكور والإناث ، بل يحب الجنسين على السواء ، ولكنه لما كبر دفعته شهامته إلى تفضيل الإناث على الذكور . وقد جاء فى بعض ما بقى لنا من شعره : « أنظر الآن ، إن الحب ذا الشَّعر الذهبى يضربنى بكرته الأرجوانية ، ويدعونى لكى ألعب مع فتاة ذات حذاءين متعددى الألوان ، ولكنها تسكن لسبوس الشامخة ، ولا يعجبها شعرى الأبيض وتذهب لتبحث لها عن ضحية أخرى(٦٥) » . وقد كتب أحد الكتاب الفكهين الذى عاش بعد عصره قبرية تكشف عن حقيقة أمره قال فيها :

« الشجرة الساحرة يا ربيبة الخمر ، يا كرمة ، أينعى وطولى فوق قبر أنكريون حتى يستطيع الصاحب الثمل صديق الشراب الصافى ، الذى كان يقضى الليل الطويل يقصف ويطرب وينشد على نغمات العود أغانى حب الغلمان ، حتى يستطيع ذلك الصاحب الثمل أن يعبث بما فوق رأسه المدفون من عناقيد غصن ملىء مثقل ، وحتى لا ينفك يبتل برضاب الندى الذى لم يكن شذاه الذكى إلا أنفاساً تخرج من فم الرقيق حين كبر[٦٦] .

٥ - طشيوز ، أزمير ، فوسيا

تمتد أرض اليونان الاصلية من تنوس نحو الغرب فى خلجان ونتوءات أرضية متتالية ، حتى إذا قطع المسافر فى البحر عشرة أميال وصل إلى طشيوز Chios(*) . وليس ببعيد أن يكون هومر قد قضى شبابه فى هذه الجزيرة بين غياض التين والزيتون والكروم الأنكرونية . وكان عصر الخمر من الصناعات الكبرى فى طشيوز ، وكان يشتغل به عدد كبير من الرقيق ، فقد كانت الجزيرة فى عام ٤٣١ تضم ٣٠٫٠٠٠ من الأحرار و ١٠٠٫٠٠٠ من الأرقاء[٦٧] ، وأصبحت على مر الزمن سوقاً كبرى للنخاسة ، فكان النخاسون يبتاعون من الدائنين أبناء من عجزوا عن الوفاء بديونهم ، ويبتاعون الغلمان ليجعلوهم خصياناً يخدمون فى قصور ليديا وفارس[٦٨] .

وفى القرن السادس ثار الأرقاء بزعامة زميلهم درمكوس Drimachus وهزموا جميع الجيوش التى أرسلت للقضاء عليهم ، واعتصم قائدهم بمكان منيع فى الجبال وفرض الإتاوات على الأغنياء من أهل الجزيرة ، ونهب أموال من يرى أن أموالهم خليقة بأن تنهب ، وعرض عليهم « حمايته » نظير جعل معين كما يحدث

(*) هذا هو الاسم التركى لهذه الجزيرة ولا تزال تعرف به الآن . (المترجم)

عندنا(*) فى هذه الأيام ، وأرغمهم بجبروته على أن يعاملوا عبيدهم معاملة أقرب إلى العدل من معاملتهم السابقة ، وقُطع رأسه باختياره وأوصى بأن يعطى لجماعة من أصدقائه حتى يحق لهم أن يطالبوا بالمكافأة التى وعد بها من يأتى به ، وظل مئات من السنين بعد موته يعد نصير الأرقاء والإله الحامى لهم(٦٩) ، وتلك حياة ما أجدرها أن تكون ملحمة طيبة يتغنى بها كاتب ثورى مثل حياة اسپارتكوس . وازدهرت الآداب والفنون بين أحضان الثروة والرق فى طشيوز . وكانت الجزيرة مركز الهومريين وهم رابطة من الشعراء المتابعين ، وفيها ولد أيون Ion الكاتب المسرحى ، وتيوپومپوس Theopompus المؤرخ . وهنا كشف جلوكوس Glaucus (كما تقول الرواية المتواترة) حوالى ٥٦٠ صناعة طرق الحديد المحمى ، وهنا صنع أركرموس Archermus وولداه بوپالوس وأثنيس أجمل ما صنع من التماثيل فى القرن السادس فى بلاد اليونان .

وإذا عاد المسافر بعدئذ إلى أرض اليونان الأصلية مر بمواقع إرِيثرا Erythra وكلازومينى Clazomenae — مسقط رأس أنكسجراس Anaxagoras معلم پركليز وصديقه . وبعدها من جهة الشرق على خليج صغير أمين تقع مدينة أزمير التى استقر فيها الإيوليون من زمن بعيد يرجع إلى عام ١٠١٥ ق . م(٧٠) ، ثم استحالت بالهجرة والفتح مدينة أيونية . وكانت مدينة واسعة الشهرة فى ايام أخيل ، وقد نهبها ألياتس Alyattes الليدى حوالى عام ٦٠٠ ق . م ، ودمرت بعد ذلك مراراً ، كان آخرها فى عام ١٩٢٤ م على أيدى اليونان أنفسهم . وتنافس أزمير دمشق فى قدم عهدها وطول حياتها ، وقد ذاقت صروف الزمان حلوها ومرها على السواء(**) . ويدل ما بقى من مبانى المدينة القديمة على ثرائها

(*) يريد فى أمريكا .

(**) إن اسم المدينة القديم أزمير نا Smyrna واسمها الحديث أزمير يرتبطان فى أغلب الظن بتجارة المُر . وهى ثالث مدينة فى تركيا من حيث تعداد السكان وأكبر مدينة فى آسية الصغرى .

وتنوع الحياة فيها ، فقد كشف فى أرضها عن ملعب رياضى ، وحصن ، ومضمار للركض ، ودار للتمثيل . وكانت طرقاتها واسعة جيدة الرصف تزينها الهياكل والقصور ، وكان شارعها الرئيسى ، المعروف بالذهبى ، مشهوراً ذائع الصيت فى بلاد اليونان بأجمعها .

وكانت أبعد المدن اليونانية شمالا مدينة فوقية Phocaea ، ولا تزال قائمة إلى اليوم يطلق عليها اسم فوقية Fokia ؛ وكان نهر هرمس يكاد يصلها بسرديس نفسها فأكسبها هذا الاتصال مزية عظيمة فى تجارة اليونان مع ليديا ، وكان التجار الفوقيون يسافرون أسفاراً بعيدة بحثاً عن الأسواق ، وهم الذين حملوا الثقافة اليونانية إلى قورسقة Corsica وأسسوا مرسيليا .

تلك هى مدائن أيونيا الاثنتا عشرة ألقينا عليها نظرة عاجلة كأنا نطوف بها فى رحلة جوية خلال الزمان والفضاء . لقد كان ما بين هذه المدائن من تنافس وتحاسد مانعاً لها من أن تكون فيما بينها وحدة تعينها على الدفاع المشترك ، ولكن أهلها مع ذلك كانوا يعترفون بما بينهم من تضامن واتفاق فى المصالح ، وكانوا يجتمعون فى مراسم معينة فى ميكالى Mycale ، الأكمة الممتدة فى البحر عند برين Prien ، فى عيد جميع الأيونيين Paniomium العظيم . وقد طلب إليهم طاليس أن يؤلفوا منهم جامعة يكون فيها كل ذكر رشيد مواطناً فى مدينته وفى الاتحاد الأيونى ، ولكن التنافس التجارى كان أقوى من أن يسمح بقيام هذه الجامعة ، بل إنه بدل أن يؤدى إلى الوحدة السياسية أدى إلى التقاتل والتطاحن ، ولما أن أقبل الفرس غازين فاتحين (٥٤٦ — ٥٤٥) واتحدت تلك المدائن اتحاداً مرتجلا للدفاع عن نفسها ، كان هذا الاتحاد ضعيفاً واهى الأساس ، فلم تلبث المدن الأيونية أن [illegible] أن ما كانت تنطوى عليه قلوب

الأهلين من نزعة الاستقلال والتطاحن قد بعث فى نفوس الجماعات الأيونية حب التنافس والحرص الشديد على الحرية .

وتلك هى الظروف التى نمت فيها فى أيونيا العلوم ، والفلسفة ، والتاريخ ، ونشأت فيها العاصمة الأيونية ، ووجد فيها فى الوقت نفسه الشعراء الكثيرو العدد الذين جعلوا القرن السادس فى هيلاس يبدو خصيباً كالقرن الخامس . ولما أن سقطت أيونيا خلفت وراءها ثقافتها فورثتها أثينة التى حاربت الدفاع عنها ، كما انتقلت إليها الزعامة العقلية لبلاد اليونان جميعها .

الفصل الخامس

سافو اللسبوسية

وفى أعلى المدن الأيونية الاثنتى عشرة تقوم المدن الإيولية الاثنتا عشرة فى الأرض القارية التى يسكنها الإيوليون والآخيون الذين وفدوا من شمالى بلاد اليونان ، بعد أن افتتحت آسية الصغرى للمهاجرين اليونان عقب سقوط طروادة . وكانت كثرة هذه المدن صغيرة ، وكان شأنها فى التاريخ صغيراً كذلك . غير أن جزيرة لسبوس كانت تنافس المراكز الأيونية فى الثروة ، والرقى ، والعبقرية الأدبية . وكانت تربة أرضها البركانية قد جعلتها جنة حقة من البساتين والكروم ؛ وكانت متلينى أكبر مدائنها الخمس ، وكانت تجارتها سبباً فى ثرائها العظيم الذى لا يكاد يقل عن ثراء ميليتس ، وساموس، وإفسوس . وتحالفت طبقات التجار فيها مع مواطنيها الفقراء فى أواخر القرن السابع ، وانتزعوا الحكم من طبقة الملاك الأشراف وعينوا بتاكوس Bitacus الشجاع الفظ حاكماً بأمره مدة عشر سنين ، ووضعوا فى يديه من القوة مثل ما كان فى يدى صديقه وزميله الحكيم صولون . وأخذ الأشراف يأتمرون ليستعيدوا سلطانهم ، ولكن بتاكوس رد كيدهم فى نحرهم ، ونفى زعماءهم ومنهم ألكيوس Alcaeus وسافو ، فأخرجهم أولا من متلينى ثم من لسبوس نفسها آخر الأمر .

وكان ألقيوس ثائراً صخاباً ، خلط السياسة بالشعر ، فكانت كل قصيدة من قصائده مثاراً للفتنة والثورة . وكان شريف المحتد ، وهاجم بتاكوس بكل ما فى اللغة من بذاءة استحق عليها النفى من البلاد . وقد صطنع هو بحوره الشعرية التى أسماها من جاءوا بعده « ألقيوس » ؛ ويقال لنا إن كل مقطوعة فى شعره كانت لها نغمتها الجميلة وسحرها . وقد غنى بعض الوقت فى الحروب ،

ووصف بيته بأنه مزدان بالغنائم الحربية والدروع العسكرية . غير أنه لما سنحت له الفرصة التي كان يستطيع أن يظهر فيها بطولته ، ألقى بدرعه ، وفر كما فر أركلوكس من قبله ، وأخذ يمتدح نفسه لحصافته الباسلة . وقد غنى أحياناً في الحب ، ولكن أحب الموضوعات التي كتب فيها إلى نفسه كان موضوع الخمر التي اشتهرت بها لسبوس شهرتها في الشعر . وهو ينصحنا بأن نعب الخمر عباً ، وأن ننقع بها غليلنا في الصيف ، وأن نستقبل بها الموت بلا رهبة في الخريف ، وأن ندفئ بها دماءنا في الشتاء ، ونحتفل بها ببعث الطبيعة في الربيع .

ينزل مطر زيوس ، وفي السموات العلا تثور العاصفة ،
ويمسك البَرد بقبضته الثلجية مجارى الماء .
إذن فقم ! وتغلب على الشتاء ، وأشعل النار عالية ، عالية —
وامزج الخمر الكثيرة حلوة كشهد النحل ؛
ثم اشربها ولفاعة الصوف المريحة قد لفت حول صدغيك .
إن علينا ألا نستسلم للأحزان أو نضنى أجساماً بكثرة
المشاغل التي تذهب بقوانا ؛
لأن الحزن يا صاح لا يعود علينا بأقل نفع ،
ولا يصلح حالاً بأى حال ؛
أما خير دواء لنا
فهو الخمر نطرد بها لأفكار(٧٢)(*)

ولقد كان من سوء حظه — وإن كان قد تحمل هذه الكارثة بصدر رحب ولم يلق بالاً إليها — أن كان بين معاصريه امرأة هي أشهر نساء اليونان أجمعين ، ونعني بها سافو . وكانت بلاد اليونان بأجمعها تعظمها حتى قبل أن

(*) ما أشبه هذه الأقوال بأقوال عمر الخيام . (المترجم)

تموت ، ومن أقوال استبايوس Stobaeus فيها : « وحدث مرة فى مجلس شراب أن أخذ إجزستيديس Execestidez ابن أخى صولون يغنى أغنية من أغانى سافو ، أعجب بها عمه إعجاباً لم يسعه معه إلا أن يأمر الغلام أن يعلمه إياها ، ولما سأله أحد الحاضرين : « لم يطلب هذا الطلب ؟ » أجاب بقوله : « إنى أريد أن أتعلمها ثم أموت ![٧٣] » . وكان سقراط — ولعله كان يرجو مثل ما يرجوه صولون لنفسه — يسميها « الجميلة » ، وكتب فيها أفلاطون مقطوعة شعرية حماسية قال فيها :

يقولون إن ربات الشعر تسع ، ألا ما أكثر غباءهم
فليعلموا أن سافو اللسبوسية هى العاشرة ![٧٤] .

ويقول استرابون : « كانت سافو امرأة فذة عجيبة ؛ لأنى لا أعرف أن قد وجدت فى جميع العصور التى وصل إلينا علمها امرأة أوتيت معشار ما أوتيت سافو من النبوغ فى قرض الشعر[٧٥] » . وكما أن الأقدمين إذا ذكروا لفظ « الشاعر » فإنما يعنون بهذا اللفظ هومر ، كذلك كان العالم اليونانى كله إذا نطق أمامهم أحد بلفظ « الشاعرة » فهموا من فورهم من يعنون بهذا الاسم .

وقد ولدت پسافا Psappha كما كانت تسمى نفسها بلهجتها الإيولية الرقيقة ، فى إرسوس Eresus من أعمال لسبوس حوالى ٦١٢ ق . م ، ولكن أسرتها انتقلت إلى متلينى وهى لا تزال فى المهد . وكانت فى عام ٥٩٣ بين الأشراف الذين ائتمرا بپتاكوس والذين نفاهم إلى مدينة پيرا Pyrrha ؛ ولما بلغت التاسعة عشرة كانت ذات شأن فى الحياة العامة لاشتغالها بالسياسة ، وبقول الشعر . ولم تشتهر بجمالها ، فقد كانت صغيرة الجسم ، ضعيفة البنية ، وكان شعرها وعيناها ، وبشرتها أسود مما يحبه اليونان[٧٦] ، ولكنها كانت تسحر الناس برشاقتها ، ورقتها ، ودماثة أخلاقها ، وحصافة عقلها الذى لم يبلغ من « السفسطة » درجة تخفى رقتها وحنانها . ومما قالته هى عن نفسها : « إن قلبى كقلب الطفل »[٧٧] ، ويستدل من شعرها

على أنها كانت ذات عواطف جياشة، وأن ألفاظها كما يقول أفلوطرخس « كانت تمتزج باللهب »[٧٨] ؛ وكانت مرهفة الحس إلى حد ما ، وكان هذا سبباً فى الحد من حاسة عقلها . وقد وصفها أثيس تلميذها المقرب إليها بأنها كانت ترتدى الثياب الزعفرانية اللون والأرجوانية ، وتتوج رأسها بالزهر ؛ وما من شك فى أن قوامها النحيل قد أكسبها ملاحة وجاذبية ، وشاهد ذلك أن لفيوس الذى نفى معها إلى پيرا أرسل إليها مسرعاً رسالة عشق وهيام قال فيها : « أى سافو ! يا ذات التاج القرنفلى ، يا طاهرة ، يا ذات الابتسامة الحلوة ، أريد أن أحدثك فى أمر ولكن الحياء يمنعنى أن أنطق به » . وكان جوابها أقل غموضاً من اقتراحه « لوكانت رغباتك طيبة نبيلة ، ولو كنت تريد ألا تنطق لسانك بما هو دنىء ، لما أسدل الحياء على عينيك غشاوة ، ولأفصحت عن رغباتك الطيبة العادلة »[٩٧] . وأخذ الشاعر يتغنى بمدحها فى قصائده وأناشيده ، ولكننا لا نعرف أن صلة غير هذه الصلة قد عقدت أواصرها بينهما ، ولعلهما قد افترقا حين نفيت سافو للمرة الثانية ، وكان سبب نفيها أن پتاكوس قد خشى قلمها بعد نضوجه فنفاها فى هذه المرة إلى صقلية ، وكان ذلك فى أغلب الظن عام ٥٩١ ، وهى فى سن يكاد الإنسان يظنها فيها فتاة لا تستطيع أن تؤذى إنساناً . وقد تزوجت حوالى ذلك الوقت بتاجر ثرى من أندروس Anodros ، وكتبت بعد بضع سنين من ذلك الوقت تقول : « لى ابنة صغيرة شبيهة بالزهرة الذهبية ، هى كليس Cleis قرة عينى ، التى لا أفرط فيها ولو أعطيت ليديا كلها أو لسبوس الحبيبة »[٨٠] . وما من شك فى أنها كان فى وسعها أن ترفض ما فى ليديا من ثروة لأنها ورثت ثروة زوجها بعد وفاته المبكرة ، وعادت إلى لسبوس بعد أن أقامت فى منفاها خمس سنين ، وأضحت زعيمة الحياة الاجتماعية والعقلية فى الجزيرة . وإنا لنلمح بهرج الترف فى إحدى القطع الباقية من شعرها حيث تقول : « أما أنا فليكن فى علمكم أنى أحب الحياة اللينة ، وأرى أن النور والجمال مما تشتهيه الشمس »[٨١] . وأضحت وثيقة

الصلة بأخيها الأصغر كركسوس Charaxus ، شديدة التعليق به ، وغضبت أشد الغضب حين شغف فى إحدى سفراته التجارية إلى مصر بحب محظية تدعى دريكا Doricha ثم تزوجها ، ضارباً بتوسلات أخته عرض الحائط[٨٢] .

وفى هذا الوقت نفسه أحست سافو بنار الحب تشتعل فى قلبها . ذلك أن نفسها تاقت إلى الحياة النشيطة ، فأنشأت مدرسة للفتيات ، تعلمهن فيها الشعر والموسيقى والرقص ، كانت هى أولى « مدارس صقل » الفتيات فى التاريخ كله ؛ ولم تكن تسمى الطالبات فيها تلميذات بل كانت تسميهن الرفيقات (hetairai) ، ولم تكن هذه الكلمة قد أصبح لها بعد معنى الاختلاط الجنسى الشاذ . وأحبت سافو — وكانت وقتئذ أرملة — هاته الفتيات واحدة بعد واحدة . وقد قالت فى إحدى القطع الباقية من أشعارها : « لقد هز الحب قلبى كما تهز الريح القوية أشجار البلوط[٨٣] » . وتقول فى إحدى القطع الأخرى : « لقد أحببتك يا أثيس من زمن بعيد ، حين كانت أنوثتى كلها أزهاراً ، وقد حسبتك وقتئذ طفلة صغيرة سمجة » . فلما أن تقبلت أثيس حب شاب من متليني ، عبرت سافو عن غيرتها بألفاظ تبدو فيها قوة العاطفة فى قصيدة احتفظ بها إلينا لنجينس وترجمها ترجمة عرجاء جون أدنجتن سمندس فى شعر من البحر السافى :

إنه ليبدو لى هو والآلهة سواء ، ذلك الرجل السعيد الذى يجلس ويراك بعينيه أمامه . فهو يجلس بالقرب منك ويستمع إليك وهو معقود اللسان تتحدثين حديثك الفضى وتضحكين ضحك الحبيب فى غير صوت عال . إن هذا ، هذا وحده ، ليكفى لأن يثير قلبى المكلوم فى صدرى ويبعثه على الاضطراب ! لأنى إذا رأيتك لحظة قصيرة خشع صوتى من فورى ، وانعقد لسانى ؛ وسرت فى ضلوعى نار تلظى يسمع من حولى حسيسها ، ولا تبصر عيناى منها شيئاً ، وتطن فى أذنى أمواج من الصوت عالية ، ويتصبب جسمى عرقاً فيجرى أنهاراً ، وترتجف جميع أعضائى ، ويصبح لونى أكثر اصفراراً من لون الكلأ فى الخريف ، وتنتابنى



آلام الموت المترصد لى فأضطرب وأضل فى سكرات(*) الحب[٨٤] .

وأخرج والدا أثيس ابنتهما من المدرسة ، ولدينا رسالة تعزى إلى سافو نفسها تصف فيها ساعة فراقهما :

بكت (أثيس ؟) بكاء مراً لفراقنا وقالت : « واحسرتاه ما أتعس حظنا ، وأقسم لك يا سافو أن فراقى إياك كان على الرغم منى » ، فأجبتها : « سيرى فى طريقك منشرحة الصدر ، ولكن اذكرينى لأنك تعرفين هيامى بك . فإذا لم تذكرينى ، فإنى سأذكرك بما تنسين ، ألا ما أعز وأجمل الأيام التى قضيناها معاً ! لقد كنت تزينين غدائرك المتماوجة بتيجان القرنفل والورد الجميل وأنت إلى جانبى ، وتزينين جيدك الرقيق بعقود مجدولة من مئات الأزهار ، وبالأدهان الكثيرة الغالية الخليقة بالملوك دهنت إهابك الأبيض النضر وأنت بين ذراعى . ولم يكن فى المكان كله تل ، أو موضع مقدس ، أو غدير ماء لم تذهب إليه ، ولم تملأ الأصوات الكثيرة فى بواكير الربيع غابة من الغابات بسجع العندليب إلا ذهبت إليه معى[٨٥] » .

وتأتى بعد هذه الأغنية فى نفس المخطوط تلك الصيحة المريرة : « لن أرى أثيس بعد اليوم ولا فرق عندى بين هـــذا وبين الموت » . إن هذا بلا ريب هو صوت الحب الصادق ، الذى يعلو ذروة الوفاء والجمال ويسمو فوق الخير والشر !

وقد ثار الجدل بين من جاء بعد ذلك العصر من علماء التاريخ القديم واختلفوا هل هذه القصائد تعبر حقاً عن « الحب اللسبوسى » أو أنها لم تكن إلا تدريباً للخيال الشعرى ولتجسيد المعانى المجردة . ولكنا لا شأن لنا بهذا

(*) ولقد ترك لنا سونبيرن مثلا من هذا البحر خيراً مما تركه جون أدنجتن سمندس ووصف حب سافو فى قصيدة رائعة سماها « السافيات » فى كتابه Poems and Ballads مطلعها : لم يطرق جفونى الكرى طول الليل .

الجدل ، وحسبنا أن هذه القصائد شعر من الطراز الأول جياش بالعاطفة ، قوى الخيال ، يبلغ حد الكمال فى لفظه ومبناه . وفى قطعة باقية منه حديث عن « وقع أقدام الربيع المزهر » ؛ وفى قطعة أخرى حديث عن « الحب الذى يفكك الأعضاء ، والعذاب المر — الحلو » وتُشبِّه قطعة ثالثة الحبيب البعيد المنال « بالتفاحة الحلوة التى تحمر على طرف الغصن ، على الطرف الأعلى للغصن ، والتى سها عنها الجانى ، لا لم ينسها بل إنه لم يستطع لعلوها أن يصل إليها(٨٦) » . وكتبت سافو عن موضوعات أخرى غير الحب ، واستخدمت فيها بحوراً من الشعر بلغ عدد ما بقى لنا منها خمسين بحراً . وقد لحنت هى بنفسها أغانيها ووقعتها على العود . وجُمع شعرها فى خمسة دواوين تحتوى نحو ألف بيت ومائتين ، بقى منها ستمائة يندر أن تكون متتالية . وحدث فى عام ١٠٧٣ بعد الميلاد أن أمر رؤساء الكنيسة فى القسطنطينية ورومة بإحراق جميع أشعار سافو وألفيوس علناً(٨٧) ، وفى عام ١٨٩٧ كشف جرنفل Grenfel وهنت Hunt فى أكسرنكوس Oxyrhynchus بمديرية الفيوم توابيت مصنوعه من طبقات من الورق استخدمت فى صناعتم قطع من كتب قديمة ، وجدت عليها بعض قصائد سافو(٨٨) .

وقد ثار ذكور الأجيال التاليـــة لأنفسهم منها بأن نقلوا عنها ، أو اخترعوا من عندهم ، قصة تروى كيف ماتت قتيلة هيامها برجل لم يبادلها الحب . وثمة فقرة فى معجم سويداس Suidas (٨٩) تروى كيف قفزت « العاهر سافو » — وهو الوصف الذى توصف به الشاعرة عادة — من فوق صخرة فى جزيرة لوكاس Leucas قفزة قضت بها على نفسها ، لأن البحار فاؤون لم يستجب لحبها . ويشير ماناندر ، واسترابون ، وغيرهما من الكتاب إلى هـــذه القصة ، ويروبها أوفد فى تفاصيل جميلة(٩٠) ولكنا نجد فيها حوادث كثيرة من نسج الخيال ، وخليق بنا أن نتركها من غير تمحيص حائرة بين الحقيقة والخيال . وتقول الروايات المتواترة إن سافو عادت فتعلمت حب الرجال . ونجد فى القطع الصغيرة التى

كشفت أشعارها فى مصر جواباً لها مؤثراً ردت به على اقتراح عرضه عليها بعضهم بأن تتزوجه فقالت « لو أن ثديى قد بقيا قادرين على إرضاع الأطفال ، ولو أن رحمى قد بقى قادراً على حملهم ، لجئت إلى فراش الزوجية بقدمى ترتجفان ، ولكن الزمان قد خط على جسدى خطوطاً كثيرة ، والحب لا يسرع إلى بما يحمله من هدايا الآلام » ، ثم تشير على خطيبها بأن يبحث له عن زوجة أصغر منها سناً[٩١] . وفى الحق أننا لا نعلم متى ماتت وكيف قضت نحبها ، وكل الذى نعرفه أنها خلفت وراءها ذكريات واضحة من العاطفة القوية ، والشعر الرائع ، واللطف والدعة ، وأنها بزت ألفيوس نفسه فكانت أشجى أهل زمانها صوتاً . وتراها فى آخر قطعة لها تلوم فى غير عنف من لا يقرون بأن غناءها قد انتهى فتقول :

« إنكم يا أطفالى تجللون بالعار هبات ربات الشعر القيمة حين تقولون : « سنتوجك يا سافو الحبيبة ، يا خير من يعزف على القيثارة أوضح الأغانى وأشجاها ، ألا تعرفون أن إهابى كله قد تجعد من طول العمر ، وأن شَعرى قد استحال من أسود إلى أبيض ؟ . . وكما أن الليل ذا النجوم يخلف حتما الفجر ذا الذراع الوردية وينشر الظلام فى طول الأرض وعرضها ، كذلك يقتفى الموت آثار كل حى ويمسك بتلابيبه آخر الأمر »[٩٢] .

الفصل السادس

الإمبراطورية الشمالية

فى شمال لسبوس تقع تندوس Tenedos الصغيرة التى يقول بعض الرحالة الأقدمين إن نساءها أجمل النساء فى بلاد اليونان جميعها[٩٣]، ومنها يسير الإنسان فى أثر اليونان المغامرين إلى جزائر اسبرديس الشمالية؛ إلى إمبروس، ولمنوس، وسمثريس. وأنشأ الميليزيون حوالى عام ٥٦٠ فى سعيهم للإشراف على الهلسبنت (الدردنيل) بلدة أبيدوس Abydos على شاطئه الجنوبى، ولا تزال هـــذه البلدة قائمة حتى الآن(*). ومن هذا المكان قطع ليندر Leander وبيرن Byron المضيق سباحة، ومنه عبر جيش خشيارشاى البحر إلى أوربا على جسر من القوارب، وإلى شرق هذه البلدة استعمر الفوقيون لمپاكوس Lampacus مسقط رأس أبيقور. وفى داخل البروپنتس مجموعتان من الجزائر، أولاهما مجموعة الفقونيسوس Phoconnesus ، وهى غنية بالرخام الذى أكسب البروپنتس اسمه المعروف به فى هذه الأيام (بحر مرمره — أى بحر الرخام) وثانيتهما مجموعة الأركتنيسوس Arctonnesus . وفى أقصى طرفها الجنوبى أنشأ الميليزيون فى عام ٧٥٧ ثغر سيزكوس Cyzicus العظيم. وقامت على طول الساحل مدينة فى إثر مدينة: پنورموس Panormus، ودسيليوم Dascylium، وأپاميا Apameia ، وكيوس Cius، وأستكوس Astacus؛ وخلقدون Chalcedon. وتقدم اليونان مجتازين مضيق البسفور، طلباً للمعادن والحبوب والتجارة، وأنشأوا كرسپوليس

(*) كل المدن المذكورة فى هذا الباب تقريباً لا تزال قائمة حتى اليوم، وإن سميت بأسماء غير أسمائها القديمة.

Chrysopolis (اشقودار الحالية) نتقوبوليس Neopolis ، « مدينة النصر » ، ثم شقوا طريقهم على طول الشاطئ الجنوبى للبحر الأسود ، وأقاموا مدائن فى هرقلية ، وبنتيكا Tieum ، وتتوم Pontica ، وسينوب Sinope — التى يصفها استرابون بأنها مدينة مزدانة أفخم زينة(٩٤) ، بها ملعب رياضى عظيم ، وساحة كبرى ، وأروقة مظللة ذات عمد ؛ وكانت خليقة بأن يولد فيها ديوچين الكلبى Diogenes the Cynic ؛ ثم تليها أميسس Amisus ، وإينوى Oenoe ، وتربوليس Tripolis ، وترابيزوس Trapezus (تربزند أو طربزون) ، والتى صاح فيها رجال زنوفون العشرة الآلاف من فرط السرور حين أبصروا البحر الذى طالما تاقت نفوسهم لرؤيته . وقد كان افتتاح هذا الإقليم للاستعمار ، على يد چيسن فى أكبر الظن ، ثم على أيدى الأيونيين فيما بعد ، مصرفاً ينزح إليه من تفيض بهم المدائن الأصلية من السكان ، وتنصرف إليه تجارتها ، كما جعلها هذا الفتح مورداً للطعام والفضة والذهب ، شأنها فى ذلك شأن أمريكا بالنسبة لبلاد أوربا فى بداية العصر الحديث(٩٥) . واتجه اليونان نحو الشمال بإزاء الساحل الشرقى لبحر اليوكسين حتى وصلوا إلى كلكيز Colchis الميدية وأسسوا فاسيس Phasis ، وديوسكورياس Dioscurias ، وثيودوسيا Theodosia ، وپنتيكيپيوم Panticapaeum فى شبه جزيرة القرم . وأنشأوا عند مصبى نهرى البوج Bug والدنيپر مدينة ألبيا Olbia (نيقولايف الحالية) وعند مصب الدنيستر أسسوا مدينة تيراس Tyras ، وأقاموا على نهر الدانوب مدينة ترسميس Troesmis . ثم اتجهوا جنوباً على طول الشاطئ الغربى وشادوا مدائن إستروس Istrus (قنسطنطة أو قسطنج) ، وتومى Tomi (التى مات فيها أوفد) ؛ وأدِسُّوس (وارنة)، وأپولونيا Apollonia (برجاس) . وإن الرحالة الذى يدرك طول الأعصر التاريخية ليذهله قدم هذه المدائن التى لا تزال باقية حتى الآن ،

ولكن سكانها الحاليين المنهمكين فى أعمالهم الحاضرة لا يشغلون أنفسهم بالقرون الطوال المستقرة فى بطون الثرى تحت أقدامهم .

وأنشأ الجاريون أيضاً على البسفور حوالى عام ٦٦٠ مدينة بيزنطيوم (بيزنطية Byzantium [*]) التى كانت إلى عهد قريب تسمى القسطنطينية والتى تسمى الآن اسطنبول . وقد كان هذا الثغر ذو الموقع الحربى المنيع حتى قبل أيام پركليز مفتاح أوربا كما سماه ناپليون فى معاهدة تلزت Tilsit . وقد وصف پوليبيوس فى القرن الثالث قبل الميلاد موقعه البحرى بأنه « من حيث السلامة والرخاء خير من موقع أية مدينة أخرى فى العالم المعروف لنا[٩٧] » . وازدادت ثروة بيزنطية بما كانت تفرضه من المكوس على السفن المارة بها ، وبما كانت تصدره إلى العالم اليونانى من حبوب روسيا الجنوبية (« سكوذيا » Scythia) والبلقان ، وبما كان يصاد بلا أدنى عناء من السمك الذى يتجمع فى المضايق الضيقة . وقد كان التواؤها ، وما تفيضه عليها صناعة الصيد من ثرائهما اللذين خلعا على المدينة اسم « القرن الذهبى » ، وكانت أثينة فى عصر پركليز هى المسيطرة على سياسة بيزنطية ، وكانت تفرض المكوس على السفن المارة لتملأ بها خزائنها فى أوقات الشدائد ، وتعامل إصدار الحبوب من موانى البحر الأسود معاملة مهربات الحرب[٩٨] .

وأنشأ اليونان على الشاطئ الشمالى أو التراقى للبروپنتس مدائن عند سلمبريا Selymbria . وپرنثوس Perinthus (إرجلى Eregli الحديثة) وبيزنثى Bisanthe ، وكاليپوليس Callipolis (غاليپولى) ، وسستوس Sestus . ثم أقاموا فيما بعد مدناً أخرى على ساحل تراقية الجنوبى الغربى عند أفرودبسياس Aphrodisias ، وإينوس Oenus ، وأبدرا Abdera — حيث قام ليوسپوس

(*) ونرجح أن اسمها مشتق من لفظ بيزاس Byzas أى الملك الوطنى .

Leucippus ودمقرايطوس Democritus بعد ذلك العصر بنشر الفلسفة المادية الذرية(*) وأمام ساحل تراقية فى البحر تقع جزيرة ثاسوس Thasos ، « الجرداء القبيحة المنظر كأنها ظهر حمار فى البحر » كما وصفها أركلوكوس(٩٩) ، ولكنها كانت غنية بمناجم الذهب غنى جعل متحصلاتها منه تفى بنفقات الأداة الحكومية كلها . وأنشأ الباحثون عن الذهب من اليونان وخاصة الأثينيون على ساحل مقدونية الشرقى أو بالقرب منه مدينتى نيبوليس Neapolis وأمفيپوليس Amphipolis — وكان استيلاء فليب على هاتين المدينتين سبباً فى اشتعال نار الحرب التى خسرت فيها أثينة حريتها . واستولى يونان آخرون معظمهم من كلسيس وإرتريا على شبه جزيرة كلسديس Chalcidice ذات الأصابع الثلاث وسموها بهـذا الاسم . وما وافى عام ٧٠٠ ق . م حتى كانوا قد أنشأوا فيها ثلاثين بلدة قدر للكثير منها أن تكون ذات شأن عظيم فى تاريخ اليونان : استاجيروس Stageirus (مسقط رأس أرسطاطاليس) وسيونى Scione ، ومندى Mende ، وپوتيديا ، وأكنثوس Acanthus ، وكليونى Cleonae ، وتورونى Torone ، وأولنثوس Olynthus التى استولى عليها فليب فى عام ٣٤٨ والتى تشتهر عندنا لصلتها بخطب دمستين . وقد كشفت أعمال الحفر الحديثة فى أولنثوس عن مدينة واسعة الرقعة ذات بيوت كثيرة من طابقين يحتوى بعضها خمسا وعشرين حجرة . ويبدو أن هذه المدينة كان يسكنها فى أيام فليب نحو ستين ألف نسمة . وفى وسعنا أن نستدل من هـذا العدد الكبير الذى كان يقيم فى مدينة صغيرة على سرعة تناسل اليونان قبل عصر پركليز ونشاطهم وسرعة انتشارهم

وآخر ما نذكره عن انتشار اليونان أن المهاجرين الأيونيين استقروا فى الجزائر العوبية الواقعة بين كلسديس وجزيرة عوبية الكبيرة ، وهى جيرونثيا Gerontia ،

(*) هى الفلسفة القائلة بأن العالم يتكون من ذرات ترتب نفسها فيه فى صور مختلفة (المترجم)

وپوليجوس Polyaegos ، ، وإيكوس Icos ، وپيارثوس Peparethos ، واسكانديل Scandile ، واسكيروس Scyros ؛ وهكذا انطبق محيط الإمبراطورية فى الشرق والشمال انطباقا تاما والتقى طرفاه . وبفضل نشاط اليونان ومغامراتهم استحالت جزائر بحر إيجة وســـواحل آسية الصغرى ، وشواطئ الهلسپنت ، والبحر الأسود ، وسواحل مقدونية وتراقية معششا من المدائن المصطبغة بالصبغة اليونانية ، تفيض بالأعمال الزراعية والصناعية ، والتجارية ، وبالنشاط السياسى ، والأدبى ، والدينى ، والفلسفى ، والعلمى ، والفنى ، وبالبلاغة ، وبالسفسطة ، والمماحكة . ولم يبق أمام اليونان فى ذلك الوقت إلا أن يفتحوا بلادا يونانية أخرى فى غرب بلادهم ، ويقيموا قنطرة بين هيلاس القديمة والعالم الحديث .

الباب السابع

اليونان فى الغرب

الفصل الأول

السيباريون

بعد أن تمر سفينتنا الخيالية بسنيوم Sunium وتتجه نحو الغرب تصل إلى سترا Cythera مقر أفروديتى الجزرى ، والتى كانت من أجل هذا مقصد وتو Watteau (*) . وفيها شاهد پوزنياس فى عام ١٦٠ م « أقدس وأقدم ما شاده اليونان من الهياكل لأفروديتى[١] » ، وفيها كشف شليمان فى عام ١٨٨٧ م عن أنقاض هـذا الهيكل[٢] . وكانت فى أقصى الجنوب من الجزائر الأيونية التى تجاور ساحل بلاد اليونان الغربى وقد سميت أيونية لأن مهاجرين أيونيين استقروا فيها ، وبقية هذه الجزائر هى زاسنثوس Zacynthos ، وكيفالينيا Cephalenia ، وإثكا Ithaca ، ولوكاس Leucas ، وپاكوس Paxos ، وكورسيرا Corcyra . وحسب شليمان أن إثكا هى جزيرة أديسيوس ، وحاول عبثاً أن يجد تحت ثراها ما يؤيد قصة هومر[٣] . غير أن دورپفلد Dörpfeld كان يعتقد أن موطن أديسيوس هو جزيرة لوكاس الصخرية . ويقول استرابون إن أهل هذه الجزيرة القدامى كانوا يلقون من فوق صخورها ضحية بشرية يقدمونها فى كل عام قرباناً لأپلو ؛

(*) كانت صورة Embarkation for Cythera (السفر إلى سترا) التى صورها وتو تمثل روح الطبقات العليا فى فرنسا خلال القرن الثامن عشر بعد أن تخلت عن الدين القدر الذى يسمح لها بأن تكون أبيقورية .

ولكن هؤلاء السكان لم يكونوا رجال دين فحسب بل كانوا فوق ذلك بشراً ، ولهذا كانوا يربطون فى الضحية طيوراً قوية شفقة بها ورحمة ، حتى تخفف أجنحتها من شدة الصـــدمة عند سقوط الضحية على الأرض(٤) . والراجح أن قفزة سافو نفسها ذات اتصال بذكريات هذه العادة الدينية .
واحتل كرسيرا (كورفو Corfu) مستعمرون كورنثة حوالى ٧٣٤ ق . م ، ولم يلبثوا أن أصبح لهم من القوة ما أمكنهم بها أن يهزموا أسطول كورنثة ويقرروا استقلالهم . وسافر بعض المغامرين اليونان من كرسيرا فى البحر الأدرياوى متجهين نحو الشمال حتى وصلوا إلى البندقية ؛ واستقر بعضهم فى مستعمرات صغيرة على ساحل دلماشيا ، وفى وادى نهر البو Po(٥)، وعبر بعضهم آخر الأمر مياه البحر الهائجة وقطعوا فيها خمسين ميلا حتى استقروا فى كعب إيطاليا . ووجدوا فى ذلك المكان شاطئاً جميلا ينحنى فتتكون من انحنائه مرافئ طبيعية آمنة ، ومن ورائه أرض خصبة أهملها السكان الأصليون إهمالا يكاد أن يكون تاماً(٦) . واستولى الغزاة اليونان على هذا الإقليم الساحلى بمقتضى قانون التوسع الاستعمارى الذى لا يعرف للرحمة معنى ، وهو القانون القائل إن الموارد الطبيعية التى لا يستغلها أهل الإقليم تجتذب ، بنوع من الجاذبية الكيميائية ، غيرهم من الناس ليستغلوها ويدفعوا بها إلى تجارة العالم ومنفعته . واخترق الوافدون الجدد — وأكثرهم من اللوريين — كعب شبه الجزيرة مبتدئين من برنتيزيوم (برنديزى) وأنشأوا مدينة كبيرة فى تاراس Taras — تارنتم الرومانية (تارنتو الحديثة)(*) وفيها غرسوا أشجار الزيتون وربوا الخيول ، وصنعوا الفخار ، وبنوا السفن ، وصادوا

(*) ذكرنا فى جدول الحوادث التاريخية المسلسلة التواريخ المتواترة لإنشاء هذه المدن فى غرب بلاد اليونان وقد أخذ ثوكيديدس هذه التواريخ عن المؤرخ القديم أنتيكوس السرقوسى Antiochus of Syracuse . ومظنة الخطأ فيها كبيرة ، ويعتقد مهفى Mahaffy أن المدن التى أنشئت فى صقلية قد أنشئت فى عهود متأخرة عن العهد الذى أنشئت فيه المدن الإيطالية . غير أن تواريخ ثوكيديدس لا يزال يؤيدها كثيرون من المؤرخين(٧) .

السمك بالشباك ، وجمعوا بعض القواقع البحرية ليستخرجوا منها الصبغة الأرجوانية التي كانت أغلى قيمة من نظيرتها الفينيقية[٨] . وبدأت الحكومة كما بدأت معظم المستعمرات اليونانية بأن كانت أجاركية يتولاها ملاك الأرض ، ثم انتقلت إلى أيدى طغاة تمدهم بالمال الطبقة الوسطى ، واستمتعت بفترات من الحكم الديمقراطى القوى المضطرب . وفى هذا المكان نزل پيرّس صاحب الشخصية الروائية فى عام ٢٨١ ، وأراد أن يقوم فى الغرب بالدور الذى قام به الإسكندر فى الشرق .

وأسست موجة أخرى من المهاجرين معظمهم من الآخيين مدينتى سيبارس وكروتونا على الجانب الآخر من خليج تارنتم . وتدل الغيرة القاتلة التى نشاهدها بين هذه الدول ، وكلها من أصل واحد ، على ما كان يتصف به اليونان من نشاط قوى مبدع ، وعواطف جياشة مدمرة . وكان للتجارة بين بلاد اليونان الشرقية وإيطاليا الغربية طريقان أحدهما بحرى والثانى برى فى بعض أجزائه . وكانت السفن التى تسير فى الطريق البحرى تمر بكروتونا وتبادل فيها بالكثير من بضائعها ، وتمر بعـــدها برجيوم Rhegium وتؤدى فيها المكوس ، ثم تجتاز فى حذر بحاراً موبوءة بالقراصنة ، ومضيق مسينا الكثير الدوامات ، حتى تقبل إلى إلياوكومى ، أقصى المستعمرات اليونانية فى إيطاليا شمالا . وكان التجار الذين يختارون الطريق الآخر يفرغون بضائعهم فى سيبارس ليفروا من هذه المكوس والأخطار ، وليوفروا على أنفسهم عناء السير بحراً بالمجاذيف والشراع ، ثم ينقلونها بطريق البر نحو ثلاثين ميلا إلى ساحل لوس Laus الغربى ، ثم يحملونها مرة أخرى على ظهور السفن إلى پوسيدونيا ، ومنها تنتقل إلى الأسواق فى داخل إيطاليا .

وكانت سيبارس ذات موقع حسن على هذا الطريق التجارى ، فأثرت وعمها الرخاء حتى بلغ عامرها (إذا جاز لنا أن نصدق أقوال د يودور الصقلى[٩])

ثلثمائة ألف نسمة ، وأثرت ثراء لا يضارعها فيه إلا القليل من مدن اليونان ، حيث أضحت كلمة سيبارى مرادفة لكلمة أبيقورى . وكان العمل الجثمانى كله يقوم به العبيد ورقيق الأرض ، أما المواطنون الأحرار فكانوا يرتدون الثياب الغالية ، ويسكنون بيوتاً مترفة مريحة ، ويطعمون الأطعمة الشهية الواردة من خارج البلاد(*) . وكان يحرم على من يشتغلون بأعمال ذات جلبة أن يمارسوا صناعتهم فى داخل حدود المدينة . وكانت بعض الطرقات فى الأحياء الغنية من المدينة تغطيها خيام ومظلات لتقى الناس شر الحر والمطر[11] . ويقول أرسطو إنه كان لألسستنيز السيبارى ثوب من نسيج بلغ من عظم قيمته أن باعه ديونيسيوس الأول السرقوسى فيما بعد بمائة وعشرين وزنة (٧٢٠ر٠٠٠ ريال أمريكى[12]) . ولما جاء اسمندريدز Smyndyrides السيبارى فى زيارة لسكيون ليخطب ابنة كليستنيز ، كان معه ألف خادم[13] .

وسارت الأمور على أذلالها فى سيبارس حتى انزلقت إلى الحرب مع كروتونا المجاورة لها (٥١٠) . وتقول إحدى الروايات غير الموثوق بصحتها إن السيباريين ساروا إلى الحرب بجيش تبلغ عدته ثلثمائة ألف[15] . وتؤكد لنا هذه الرواية نفسها أن الكروتيين أحدثوا الاضطراب فى صفوف هـــذا الجيش بأن عزفوا النغمات التى علم السيباريون خيولهم أن يرقصوا عليها[16] . فلما سمعتها الخيل رقصت ، وأعمل الأعداء فيهم القتل ، ونهبوا مدينتهم ، وخربوها ، وأشعلوا فيها النيران ، حتى اختفت من التاريخ فى يوم واحد . ولما أن قام هيرودوت وغيره من الأثينيين بعد خمس وستين سنة من ذلك الوقت بالقرب من موقعها مستعمرة تورلى Thurli الجديدة ، لم يكادوا يجدون فى هذا الموضع أثراً لهذه الجالية التى كانت فى يوم من الأيام أكثر الجاليات اليونانية زهواً .

(*) ويقول أثنيوس إن الطهاة أو صانعى الحلوى الذين كانوا يبتدعون أصنافاً جديدة كان يسمح لهم بأن يسجلوها باسمهم ويحتكروها مدى عام[10] . وربما كان أثنيوس يخلط فى هذا القول بين الهزل والتاريخ .

الفصل الثاني

فيثاغورس الكروتوني

كان عمر كروتونا أطول من عمر سيبارس ؛ فقد أنشئت فى عام ٧١٠ ق . م ولا تزال حتى الآن تعج بالصناعة والتجارة بعد أن تغير اسمها إلى كروتون . وقد كان مرفؤها المرفأ الطبيعى الوحيد بين تاراس وصقلية ، ولم تكن تعفو عن السفن التى تفرغ بضائعها فى سيبارس . وقد بقى فيها من التجارة ما يكفى لكى يعيش أهلها عيشة هنيئة لينة ، كما أن هزيمتهم الموفقة فى الحرب ، وكساد تجارتهم زمناً طويلا ، وجو بلادهم المنعش ، ومزاجهم الدورى المتزمت بعض الشىء ، كل هذه الظروف مجتمعة قد جعلتهم يحتفظون بنشاطهم وقوتهم رغم ثرائهم العظيم . وفى هذه المدينة نشأ الرياضيون المشهورون أمثال ميلو Milo ، كما نشأت أعظم مدرسة طبية فى بلاد اليونان الكبرى (Magna Greca)(*) .

ولعل اشتهار كروتونا بأنها ملجأ صحى هو الذى حبب إلى فيثاغورس المجىء إليها . ومعنى فيثاغورس هو « الناطق الفيثى » بلسان مهبط الوحى فى دلفى ، وكان كثيرون من أتباعه يرون أنه هو أپلو نفسه ، ويدعى بعضهم أنه أبصر وميض فخذه الذهبية[١٧] . وتقول الروايات المتواترة إنه ولد فى ساموس حوالى عام ٥٨٠ ، وتتحدث عن جده فى صباه . وتعزو إليه أنه صرف ثلاثين عاماً فى الأسفار . ويقول عنه هرقليطس ، وهو الرجل الشديد الاقتصاد فى مدحه إن « فيثاغورس كان أكثر الباحثين مثابرة[١٨] » . ويروى عنه أنه زار بلاد العرب ، وسوريا ، وفينيقية ، وكلديا ، والهند ، وغالة ، وعاد يلقى على الرجالة حكمة عالية جديرة بالإعجاب هى قوله : إذا كنت مسافراً فى خارج بلادك فلا

(*) هذا هو الاسم الذى كان الرومان يطلقونه على المدن اليونانية فى جنوبى إيطاليا . (المترجم)

تلتفت وراءك إلى حدودها[١٩] » ، ويجب أن تكبح جماح نزواتك عند كل ثغر تدخل فيه . وما من شك فى أنه زار مصر حيث درس مع الكهنة ، وتعلم الكثير من علم الفلك والهندسة النظرية ، وربما تعــلم أيضاً قليلا من السخف[٢٠] . ولما عاد إلى ساموس ووجد أن طغيان پوليكراتيز يحد من طغيانه هو هجرها إلى كروتونا وكان قد جاوز الخمسين من العمر[٢١].

وهنا اشتغل بالتدريس ، وكانت هيبته ، وغزارة علمه ، واستعداده لقبول النساء والرجال فى مدرسته ، سبباً فى إقبال الناس عليها حتى بلغ عدد من فيها بضع مئين فى زمن قصير . وقد قال بمبدأ تكافؤ الفرص للذكور والإناث على السواء قبل أن ينادى بذلك أفلاطون بمائتى عام ، ولم يناد به فحسب بل نفذه عملياً . على أنه مع ذلك لم يكن ينكر أن بين الجنسين فوارق طبيعية من حيث وظائف كل منهما . وكان يعلم تلميذاته الشىء الكثير من الفلسفة والآداب ، ولكنه كان يعلمهن أيضاً فن الأمومة والتدبير المنزلى ، ومن أجل ذلك اشتهرت النساء الفيثاغوريات فى الزمن القديم بأنهن « أعلى نموذج فى الأنوثة أخرجته بلاد اليونان فى جميع العصور » .

وقد وضع فيثاغورس لطلابه بصفة عامة قواعد تكاد تحول مدرسته إلى دير للراهبات . فقد كان من يدخلونها يقسمون يمين الولاء للأستاذ ولبعضهم بعضاً . وتجمع الروايات المأثورة على أنهم كانوا يشتركون على قدم المساواة فى جميع طيبات الحياة ما داموا يعيشون فى هذه الجماعة الفيثاغورية[٢٢] . وكان اللحم والسمك والفول محرمة عليهم ، أما الخمر فلم تكن محرمة ؛ ولكنه كان يوصيهم بشرب الماء ، وتلك وصية شديدة الخطورة فى جنوبى إيطاليا فى هــذه الأيام . وربما كان تحريم اللحم لسبب دينى ذى صلة بعقيدة تقمص الأرواح ، فإن على الناس أن يحذروا أن يأكلوا أجدادهم . والراجح أنه كان يباح للطلاب أن يخرجوا على حرفية هذه القواعد من حين إلى حين . ويرى المؤرخون الإنجليز

بنوع خاص أن من غير المعقول أن يصبح المصارع ميلو الفيثاغورى أقوى رجل فى بلاد اليونان كلها دون أن يأكل لحم العجول[٢٤] ، — وإن كان العجل الذى أصبح بين ذراعيه ثوراً (*) قد شب على أكل الكلأ . وكان يحرم على أفراد هذه الجماعة أن يقتلوا أى حيوان لا يؤذى الإنسان أو أن يتلفوا شجرة مزروعة . وكان يطلب إليهم أن يلبسوا الثياب البسيطة وأن يطرحوا الكبرياء ، وألا « يندفعوا فى الضحك ، وألا يكونوا مع ذلك عابسين » . ولم يكن يباح لهم أن يقسموا بالآلهة لأن « من الواجب على كل إنسان أن يعيش عيشة تجعله خليقاً بأن يصدقه الناس دون أن يلجأ إلى القسم » . وكان محرماً عليهم أن يقدموا الضحايا قرباناً ، وكان فى وسعهم أن يتعبدوا أمام المذابح التى لم تلوثها الدماء . وكان عليهم أن يسألوا أنفسهم فى آخر كل يوم عما ارتكبوه من الذنوب ، وعما أهملوه من الواجبات ، وعما فعلوه من الخير[٢٥] .

وقد أخذ فيثاغورس نفسه بهذه القواعد وراعاها أشد مما راعاها أى تلميذ من تلاميذه اللهم إلا إن كان هو ممثلا من أبرع الممثلين . وما من شك فى أن أسلوب حياته قد أكسبه من احترام طلابه وسلطانه عليهم ما جعلهم كلهم يتحملون طغيانه بلا تذمر ، وما جعل الكلمة الفاصلة فى كل جدال أو نظرية هى : لقد قالها هو نفسه « Autos epha-ipsi dixit » . وقد نقل إلينا فى عبارة تنم عن التعظيم وتستثير الإعجاب أن المعلم نفسه لم يشرب الخمر بالنهار أبداً ، وأنه كان يعيش معظم أيامه على الخبز والعسل ، وأن حلواه كانت هى الخضر ، وأن ثوبه كان على الدوام ناصع البياض ، وأنه لم يُعرف عنه قط أنه أفرط فى الأكل ، أو عشق ، وأنه لم يغرق فى الضحك ، أو المزاح ، أو القصص ، ولم يعاقب إنساناً مطلقاً ولو كان عبداً [٢٦] . وكان تيمن الأثينى يظنه « مشعوذاً يخادع بقول الجد ، ويعمل على اصطياد الناس[٢٧] » ، وينقض هذا القول أن زوجته ثيانو Theano وابنته

(*) انظر الفصل الرابع من الباب التاسع من هذا الكتاب .

دامو Damo كانتا ن أشد أتباعه إخلاصاً له ، وقد كان فى وسعهما أن توازنا بين فلسفته وحياته . ويقول ديوچنيز ليرتس إنه « عهد بتعليقاته إلى دامو وأمرها ألا تذيعها لأى إنسان فى خارج البيت ، وإنها لم تفرط قط فى أحاديثه مع أنه كان فى وسعها أن تبيعها بالمال الكثير ، لأنها كانت ترى أن طاعة أوامر والدها أثمن من الذهب ، ويزيد فى فضلها أنها امرأة(٢٨) » .

وكان الانضمام إلى المجتمع الفيثاغورى يتطلب ، فضلا عن تطهير الجسم بالعفة وكبح الشهوات ، تطهير العقل بدراسة العلم . وكان ينتظر من الطالب الجديد أن يلتزم « الصمت الفيثاغورى » مدى خمس سنين — ولعل المقصود بالصمت الفيثاغورى أن يتقبل الأوامر من غير سؤال أو مناقشة — قبل أن يعترف به عضواً كاملا فى الجماعة ، وقبل أن يسمح له بأن « يرى » فيثاغورس(٢٩) أى أن يدرس عليه . وتنفيذاً لهذا النظام كان التلاميذ يقسمون إلى طلاب خارجيين وطلاب داخليين ، وكان الداخليون هم الذين يحق لهم أن يعرفوا الحكمة السرية للمعلم نفسه . وكان منهج الدراسة يتألف من أربعة موضوعات : الهندسة النظرية ، والحساب ، والفلك ، والموسيقى . وكان يبدأ بالرياضيات(*) ؛ ولكنها لم تكن العلم العملى الذى استحالت إليه على أيدى المصريين القدامى ، بل كانت علماً مجرداً نظرياً يبحث فى الكميات ، ومثلا أعلى فى التدريب المنطقى يجعل التفكير منظماً واضحاً بعرضه على محك الاستدلال الصارم والبرهان الواضح الملموس . وأضحت الهندسة النظرية من ذلك الوقت مجموعة من البدهيات ، والنظريات ، والبراهين . وكانت كل خطوة فى القضايا المنطقية المتتالية ترفع الطالب إلى مستوى أعلى من مستواه السابق — على حد قول الفيثاغوريين — يستطيع منه أن يطلع أكثر من ذى قبل على بناء العالم(٣١) . وتقول الرواية اليونانية المتواترة إن

(*) ويلوح أن الفيثاغوريين كانوا أول من استعمل كلمة ماثماطيقا Mathematike ، بمعنى الرياضيات ، فقد كانت قبل أيامهم تستخدم للدلالة على تعلم أى شىء(٣٠) مهما يكن نوعه !

فيثاغورس نفسه كشف كثيراً من النظريات الهندسية : وأهمها كلها أن مجموع الزوايا الداخلة فى أى مثلث يساوى قائمتين ، وأن المربع المقام على الضلع المقابل للزاوية القائمة فى المثلث القائم الزاوية يساوى مجموع المربعين القائمين على الضلعين الآخرين . ويقول أبلودورس Appollodorus إنه لما كشف المعلم هذه النظرية ضحى بمائة ذبيحة شكراً على هذا الكشف العظيم[٣٢] . فإن كان قد فعل ذلك حقاً فقد ناقض المبادئ الفيثاغورية مناقضة يندى لها الجبين . وانتقل فيثاغورس من الهندسة إلى الحساب — على عكس النظام المتبع فى هذه الأيام . ولم يكن يقصد بالحساب وقتئذ أن يكون فناً عملياً للتعـــداد والإحصاء ، بل كان نظرية مجردة للأعداد . ويلوح أن المدرسة الفيثاغورية هى أول من قسم الأعداد إلى فردية وزوجية ، وإلى أعداد صماء وأخرى قابلة للقسمة[٣٣] ، وقد صاغت نظرية النسبة ، واستطاعت بها و « بتطبيق المساحات » أن توجد الجبر الهندسى[٣٤] . ولعل دراسة النسبة هى التى أمكنت الفيثاغوريين من أن يحولوا الموسيقى إلى أعداد . ويروى أن فيثاغورس كان فى يوم من الأيام ماراً بحانوت حداد ، فاسترعت سمعه الفترات الصوتية الخارجة من ضربات السندان ، والتى بدت له كأنها فترات موسيقية منتظمة . ولمـــا عرف أن المطارق ذات أوزان مختلفة استنتج من ذلك أن النغمات تتوقف على نسب عددية . وتقول إحدى التجارب القلائل التى سمعنا بها فى علوم القدماء إنه أتى بوترين متساويين فى السمك وفى التوتر ، وتبين له أنه إذا كان طول أحدهما ضعفى طول الآخر أخرجا إذا جذبهما نغمة من الدرجة الأولى ؛ وإذا كان أحدهما قدر الآخر مرة ونصف مرة أخرجا خُمساً (دو — صول) ؛ وإذا كان أحدهما قدر الآخر مرة وثلث مرة ، أخرجا رُبعاً (دو ، فا[٣٥]) ؛ وبهذه الطريقة يمكن أن تقدر كل نغمة موسيقية تقديراً رياضياً ، وأن يعبر عنها تعبيراً رياضياً كذلك . وإذ كانت كل الأجسام التى تتحرك فى الفضاء تخرج أصواتاً ، تتوقف درجة ارتفاعها على حجم الجسم وسرعة

حركته ، فإن كل كوكب فى فلكه حول الأرض (كما يقول فيثاغورس) يحدث صوتاً يتناسب مع سرعة انتقاله ، وهذا الصوت يعلو أيضاً كلما بعد الكوكب عن الأرض ، ويتكون من هذه النغمات المختلفة ائتلاف فى الأصوات أو « موسيقى الأفلاك » وهى موسيقى لا نسمعها قط لأننا نسمعها على الدوام[٣٦] .

ويقول فيثاغورس إن العالم جرم كرى حىٌّ مركزه الأرض ، وإن الأرض هى الأخرى جرم كرى تدور ، كما تدور الكواكب ، من الغرب إلى الشرق . وقد قسم الأرض ، والعالم كله فى الحقيقة ، خمس مناطق — المنطقة الباردة الشمالية ، والباردة الجنوبية ، ومنطقة الصيف ، ومنطقة الشتاء ، والمنطقة الاستوائية ، وقال إن الجزء الذى نراه من القمر يكبر حجمه أو يصغر تبعاً للزاوية التى يواجه بها الأرضَ نصفُه المتجه نحو الشمس ، وإن خسوف القمر ينشأ من وجود الأرض أو أى جرم آخر بينه وبين الشمس[٣٧] . ويقول ديوجنيز لِيرتس إن فيثاغورس كان أول من قال إن الأرض مستديرة ، وأول من سمى العالم كوناً Kosmos «[٣٨] .

وقد عمل فيثاغورس بفضل بحوثه فى الرياضيات والفلك أكثر مما عمله أى عالم آخر لوضع أسس العلوم الطبيعية فى أوربا ، ولما أن تم له ذلك انتقل إلى الفلسفة . ويبدو أن لفظ الفلسفة نفسه من وضعه هو . وقد رفض أن يستخدم كلمة سوفيا Sophia أى الحكمة لأنها ادعاء عريض لا يرضاه ، ووصف سـعيه لإدراك الحقائق بأنها فلسفة Philosophia أى محبة الحكمة[٣٩] . وقد صارت كلمتا فيلسوف وفيثاغورى فى القرن السادس كلمتين مترادفتين[٤٠] . وبينا كان طاليس وغيره من الملطيين يبحثون عن أصل الأشياء جميعها فى المادة ، كان فيثاغورس يبحث عنه فى الشكل ، وبعد أن كشف ما فى الموسيقى من علاقات ونتائج متتالية عددية منتظمة ، وبعد أن افترض وجود هذه العلاقات والنتائج المتتالية فى الكواكب نفسها ، قفز قفزة الفلاسفة نحو الوحدة ، وأعلن أن هذه العلاقات والنتائج المتتالية العددية المنتظمة توجد فى كل مكان ، وأن العامل الجوهرى

الأساسى فى كل شىء هو العدد . وكما أن اسپنوزا قد قال فيها بعد(*) إن ثمة عالمين — أحدهما عالَم الأشياء أو عالَم الناس الذى يدركونه بالحواس والآخر عالم الفلاسفة ، أو عالم القوانين والثوابت الذى يدركه العقل — وإن العالم الثانى وحده هو العالم الحقيقى الدائم ، كذلك شعر فيثاغورس أن النواحى الأساسية الخالدة لأى شىء هى ما بين أجزائه من علاقة عددية(**) ، ولعله كان يرى أيضاً أن الصحة نفسها علاقة رياضية أو نسبة صالحة بين أجزاء الجسم أو عناصره ؛ أو أن النفس كانت هى الأخرى عدداً . وعند هذه النقطة انطلقت صوفية فيثاغورس التى استقاها من مصر وبلاد الشرق الأدنى حرة لا تلوى على شىء . فقال إن النفس تنقسم أقساماً ثلاثة : الشعور واللقانة والعقل ؛ فالشعور مركزه القلب ، واللقانة والعقل مركزهما المخ ؛ وإن الشعور واللقانة من صفات الحيوان والإنسان على السواء(†) ، أما العقل فيختص به الإنسان وحده ، وهو خالد لا يفنى(٤٢) . وتمر النفس بعد الموت بفترة من التطهير فى الجحيم Hades ، تعود بعدها إلى الأرض وتدخل فى جسم جديد ، ثم فى جسم آخر ، وتمر فى سلسلة من التناسخ لا تنتهى إلا إذا كان صاحبها قد حَيِي حياة فاضلة منزهة عن الرذائل بأجمعها .

وكان فيثاغورس يدخل السرور على أتباعه ، أو لعله كان يقوى عقيدتهم ، بقوله لهم إن روحه قد تقمصت مرة جسم عاهر ، ومرة أخرى جسم البطل يوفوربوس

(*) فى مقاله عن « تحسين العقل » .

(**) يحاول العلم أن يرجع الظواهر كلها إلى تقديرات كية رياضية قابلة للتحقيق . والكيمياء تتحدث عن الأشياء بلغة الرموز والأرقام ، وترتب العناصر ترتيباً رياضياً فى قوانين دورية ، وترجعها إلى حساب ذرى داخل من الكهارب ؛ وعلم الفلك رياضيات سماوية ، وعلماء الطبيعة يجدون فى البحث عن قانون رياضى ينطبق على الكهرباء ، والمغناطيسية والجاذبية ؛ ولقد حاول بعض مفكرى هذه الأيام أن يعبروا عن الفلسفة نفسها فى صورة رياضية .

(†) ومن واجبنا أن نلاحظ فى هذه المقام أن فيثاغورس قد سبق باستير بعض السبق فى إنكاره التوالد التلقائى ، وقال إن الحيوانات كلها تولد من حيوانات أخرى عن طريق « البذور » أو « الأصول » .

Euphorbus ؛ وإنه يذكر بوضوح مغامراته فى حصار طروادة ، وإنه قد تعرف فى هيكلها فى أرجوس على الدرع الذى كان يلبسه فى تلك الحياة القديمة[٤٣] . وسمع مرة عواء كلب مضروب فقام من فوره لإنقاذه ، وقال إنه قد عرف فى عوائه صوت صديق له ميت[٤٤] . وفى وسعنا أن نتبين شيئاً من الصلات الفكرية التى كانت تربط بلاد اليونان وأفريقية وآسية فى القرن السادس ، إذا ذكرنا أن فكرة التناسخ هذه كانت مستحوذة فى وقت واحد على خيال الهنود وعلى طقوس أورفيوس فى بلاد اليونان وعلى إحدى الطوائف الفلسفية فى إيطاليا .

ونحن نستشف نزعة التشاؤم الهندية تمتزج فى فلسفة فيثاغورس الأخلاقية بروح أفلاطون النيرة الصافية . والقصد من الحياة فى النظام الفيثاغورى أن تخلص من التقمص ، والسبيل إلى ذلك هى الفضيلة ، والفضيلة هى ائتلاف الروح مع نفسها ومع الله . ومن المستطاع كسب هذا التآلف بطريقة اصطناعية . وكان الفيثاغوريون يستخدمون الموسيقى كما كان يستخدمها كهنة اليونان وأطباؤهم لشفاء الاضطرابات العصبية . وكانوا يعتقدون أن أكثر ما تحصل به النفس على التآلف هو الحكمة ، وهى فهم الحقائق التى يقوم عليها هذا التآلف فهما هادئا ؛ وذلك لأن هذه الحكمة تعلم الإنسان التواضع والاعتدال ، والطريقة الوسطى الذهبية . أما الطريقة المضادة لهذه — أى طريقة التنازع والتطرف ، والخطيئة — فتؤدى حتما إلى المآسى والعقاب والعدالة « عـــدد مربع » ، وكل خطأ « سيربع » إن عاجلا أو آجلا بالعقوبة المكافئة له[٤٥] . هذا هو جوهر فلسفة أفلاطون وأرسطو الأخلاقية .

أما سياسة فيثاغورس فهى فلسفة أفلاطون حققها من قبل أن يدركها . ولقد كانت مدرسة فيثاغورس ، حسبما نفهمه من الروايات القديمة المتواترة ، أرستقراطية شيوعية : تطلب إلى الرجال والنساء أن يجمعوا كل ما لديهم من الطيبات ، وأن يتعلموا مجتمعين ، وأن يدربوا على الفضيلة والتفكير الراقى بطريق



العلوم الرياضية والموسيقى ، والفلسفة ، وأن يتقدموا من تلقاء أنفسهم ليكونوا حكام الدولة الحارسين لها . والحق أن الجهد الذى كان يبذله فيثاغورس ليجعل مجتمعه هو نفسه حكومة مدينته العقلية ، هو الذى أهلكه وأهلك أتباعه . فقد اندفع المبتدئون من أتباعه فى تيار السياسة . وانحازوا إلى جانب الأشراف انحيازاً أثار عليهم حزب الشعب فى كروتونا ، فاندفع أفراده فى ثورات غضبهم ، وأحرقوا البيت الذى كان الفيثاغوريون مجتمعين منه ، وقتلوا طائفة منهم ، وأخرجوا الباقين من المدينة . وتقول إحدى الروايات إن فيثاغورس نفسه قد قبض عليه وقتل حين أبى فى فراره أن يطأ بقدمه حقلا من الفول ؛ وتقول رواية أخرى إنه فر إلى متابنتم Metapontum حيث امتنع عن الطعام أربعين يوماً — ولعله كان يحس أنه يجب أن يكتفى من العمر بثمانين عاماً — وأمات نفسه جوعاً[٤٦] .

أما أثره فهو أثر خالد على مدى الأيام ؛ ولا يزال اسمه حتى اليوم طناناً رناناً ؛ كما عاش مجتمعه ثلثمائة عام فى صورة جماعات منتشرة فى بلاد اليونان ، يخرج منها علماء طبيعيون أمثال فيلولوس Philolaus الطيبى ، وحكام أمثال أركيتاس Archytas طاغية تاتاس Tatas وصديق أفلاطون . ولقد كان وردسورث Wordsworth فى أشهر قصائده كلها فيثاغوريا من غير أن يشعر . وكان أفلاطون نفسه يهيم بصورة فيثاغورس الغامضة ؛ وهو يأخذ عنه فى جميع نواحى نشاط الذهنى — فى سخريته من الدمقراطية ، وفى تلهفه على وجود أرستقراطية شيوعية من الحكام الفلاسفة ، وفى اعتقاده أن الفضيلة تآلف ، وفى نظرياته عن الطبيعة والنفس ، وفى شغفه بالهندسة ، وفى إيمانه بقوة الأعداد الخفية . وقصارى القول أن فيثاغورس — على قدر ما وصل إليه علمنا — هو واضع أساس العلوم الطبيعية والفلسفة فى أوربا ، وذلك عمل يكفى لتخليد اسم أى إنسان .

الفصل الثالث

زنوفانيز الإيلاثى

فى غرب كروتونا مكانُ لكرى Locri القديمة ، ويقول أرسطو إن هذه المستعمرة قد أسسها العبيد والزانون واللصوص الفارون من بلدة لكرى فى أرض اليونان القارية ؛ ولكن لعل الذى أنطق أرسطو بهذا القول هو احتقار العالم القديم للجديد . وساد بين المستعمرين الاضطراب الناشئ من أصلهم الأول ، فلجأوا إلى مهبط الوحى فى دلفى يطلبون النصيحة فقيل لهم إن عليهم أن يسنوا لأنفسهم قوانين . وربما كان زلوكوس هو الذى أنطق الوحى بما نطق به ، لأنه وضع للكرى فى عام ٦٦٤ قوانين قال إن أثينة أملتها عليه فى المنام . وكانت هذه أول قوانين مكتوبة فى بلاد اليونان كلها ، وإن لم تكن أولى القوانين التى هبطت من عند الآلهة . وبلغ من حب اللكريين إياها أن حتموا على كل من يريد أن يقترح قانوناً جديداً أن يتكلم وفى جيده حبل ، حتى إذا رفض اقتراحه شنقوه بأقل كلفة من الأموال العامة(*)(٧١) .

وبعد أن يطوف المسافر حول إصبع قدم إيطاليا ويتجه نحو الشمال يصل إلى رجيو Reggio ، وكانت مدينة مزدهرة أسسها أهل مسينا حوالى عام ٧٣٠ ق . م وسموها رجيون Rhegion وعرفها الرومان باسم رجيوم Rhegium ، فإذا اجتاز مضيق مسينا — ولعله هو الذى سمته الأوديسة « سلا وكربديس Scylla and Charybdis — وصل إلى المكان الذى وقف فيه لوس Laus ؛

(*) كان اليونان مولعين بهذه الخرافة ولعاً حملهم على أن يذكروها أيضاً عن قوانين كتانا Catana وثوريای Thurii ، وشغف ميشيل ده منتاى Michel de Montaigne بهذه الخطة ، ولعلها لم تبق بعد أن استنفدت غرضها .

ثم جاء بعدئذ إلى هيلي[١٤] Hyele القديمة وهى ڤليا Velia الرومانية ، المعروفة فى التاريخ باسم إليا Elea لأن أفلاطون كتبها بهذه الصورة ، ولأن فلاسفتها وحدهم هم الذين بقى ذكرهم . وهنا جاء زنوفانيز الكلوفونى حوالى ٥١٠ وأنشأ المدرسة الإليائية .

وكان ذا شخصية فذة لا تقل فى ذلك عن عدوه فيثاغورس المحبوب من أهل بلده . ذلك أنه كان جم النشاط لا يكل من العمل ، مبتكراً لا يهاب الابتداع ، ظل ستة وسبعين عاماً — على حد قوله هو نفسه — يطوف « فى أرض هيلاس من أقصاها إلى أقصاها » يجمع منها مشاهداته ويخلق لنفسه فيها أعداء أينما حل . وكان يكتب قصائد فلسفية ويتلوها على الناس ، ويندد بهومر ويعيب عليه سفاهته وعدم تقواه ، ويسخر من الخرافات ؛ وقد أنشأ ميناء فى إليا وأتم من العمر قرناً كاملا قبل أن يموت[٢٩] . ومن أقواله أن هومر وهزيود « يعزوان إلى الآلهة كل الأعمال التى تحط من قدر الآدميين وتجللهم بالعار — كالتلصص ، والزنا والغش[٥٠] . ولكنه هو لم يبلغ شأوا بعيداً فى التقى والصلاح كما يدل على ذلك قوله :

« لم يوجد فى العالم كله ، ولن يوجد فيه ، رجل ذو علم أكيد عن الآلهة . . . فالآدميون يتصورن أن الآلهة يولدون ، ويلبسون الثياب ، وأن لهم أصواتاً وصوراً كأصوات الآدميين وصورهم . ولو كان للثيران والآساد أيد مثلنا ، وكان فى وسعها أن ترسم وتصنع صوراً كما يفعل الآدميون ، لرسمت لآلهتها صوراً وصنعت لها تماثيل على صورتها هى ؛ ولو استطاعت الخيل لصورت آلهتها فى صورتها ، ولصورت الثيران آلهتها فى صورة الثيران . والأحباش يصورون آلهتهم سوداً فطس الأنوف ؛ والتراقيون يصورون آلهتهم زرق العيون حمر الشعر . . . ألا إن ثمة إلهاً واحداً يعلو على الآلهة والبشر ؛ لا يشبه الآدميين فى صورته ولا فى عقله .

فهو كله يرى ، وكله يفكر ، وكله يسمع . وهو يسيطر من غير تعب على الأشياء كلها بقوة عقله[٥١] .

ويقول ديوچنيز ليرتس[٥٢] إن زنوفانيز قد وحد بين هـــذا الإله والكون . وكان هذا الفيلسوف يعلم الناس أن الأشياء كلها ، بل والناس أيضاً ، مخلوقون من الطين والماء حسب قوانين طبيعية[٥٣] ، وأن الماء كان في يوم من الأيام يغطى الأرض بأجمعها لأنا نرى الحفريات البحرية في الأرض بعيدة عن شواطئ البحار وعلى رؤوس الجبال ، وأكبر الظن أن الماء سيغطى الأرض كلها يوماً ما في المستقبل[٥٤]. بيد أن كل ما يحدث في التاريخ من تغير ، وكل ما يحدث في الأشياء من فرقة وانقسام ، ليس إلا ظواهر سطحية ، وأن من تحت هذا الزحام ومن وراء ذلك الاختلاف في الصور والأشكال وحدة لا تتبدل أبداً هي حقيقة العلم الباطنة الداخلية .

ومن هذه البداية سار برمنيدس الإيليائى تلميذ زنوفانيز إلى الفلسفة المثالية التي كان لها أكبر الأثر في تشكيل تفكير أفلاطون والأفلاطونيين طوال العصر القديم ، وتفكير أوربا الذى دام إلى يومنا هذا .

الفصل الرابع

من إيطاليا إلى أسبانيا

على بعد عشرين ميلا إلى شمال إليا كانت تقوم مدينة پسدونيا - پستم Paestum الرومانية - التى أنشأها مستعمرون من سيباريس لتكون آخر محطة برية إيطالية لتجارة ميليتس . وفى وسع الإنسان أن يصل إليها اليوم بعد سفرة لطيفة من نابلى مخترقاً سالرنو Salerno ، وتظهر أمامه على حين غفلة ، على جانب الطريق ، وسط حقل مهجور ، ثلاثة تماثيل ، عظيمة حتى فى عزلتها . فلقد سد النهر فى هذا المكان مصبه بما يحمله من الغرين طوال القرون الماضية ، فاستحال هذا الوادى الذى كان من قبل وادياً صحياً طيباً مناقع ضارة بالصحة ؛ وحتى الأقوام الذين يحرثون سفوح جبل ڤيزوف ، والذين لا يبالون بما يصيبهم فى سبيل ذلك من أذى ، حتى هؤلاء قد فروا يائسين من هذه السهول الموبوءة بالملاريا . وقد أبقى الزمان على أجزاء من الجدران القديمة ، وأبقى كذلك بحالة أجود من حالة هذه الجدران - وكأن العزلة كانت من أسباب هذا البقاء - على الأضرحة التى شادها اليونان من حجر الجير المتوسط الصلابة ، ولكنها كاملة لم تكد تنال منها يد الزمان شيئاً . وقد أقام اليونان هذه الأضرحة لآلهة الحب والبحر وأغلب الظن أن أقدم هذه المبانى ، وهو البناء الذى سمى فيما بعد « الباسلكا Basilika » ، كان هيكلا لپوسيدن . وقد شاهده له الأقوام الذين يعتمدون فى طعامهم على فاكهة البحر المتوسط وتجارته حوالى منتصف هذا القرن السادس العجيب ، الذى خلق كل عظيم فى الفن والأدب والفلسفة بين إيطاليا وشانتنج Shantung . وقد بقيت من هذا الهيكل أعمدته الداخلية والخارجية شاهدة على شغف اليونان بإقامة العمد . وأقام الجيل الذى تلاه

هيكلا أصغر من هذا الهيكل شبهاً به فى بساطته وقوته الدوريتين . ونحن نسميه « هيكل سيريز Ceres » ولكننا لا نعرف أى الآلهة كان يشم رائحة قرابينه . وشاد جيل بعد هذا الجيل أيضاً ، قبيل الحرب الفارسية أو بعيدها[٥٥] ، أعظم الهياكل الثلاثة وأحسنها تناسباً ؛ وأكبر الظن أنه شيد لپوسيدن أيضاً — وهو من أجدر الهياكل بهذا الإله لأن فى وسع الإنسان أن يطل من أروقته على صفحة البحر الغدار الذى يغرى المطل عليه بركوبه . وأينما ولى الإنسان وجهه فى هذا الهيكل رأى عمداً : فنى الخارج رواق دورى قوى كامل البناء ، وفى الداخل رواق من العمد ذو طابقين كان يحمل أعلاها فيما مضى سقفاً . وذلك منظر من أعظم المناظر الإيطالية تأثيراً فى النفس ؛ ولا يكاد الإنسان يصدق أن هذا الهيكل التى احتفظ بكيانه أحسن مما احتفظ به أى هيكل شاده الرومان ، كان من عمل اليونان قبل ميلاد المسيح بخمسة قرون لا تكاد تنقص شيئاً . وفى وسعنا أن نستدل منه على ماكان للأقوام الذين شادوا أمثال هذا المركز لحياتهم الدينية من حيوية وولع بالجمال ، وما كانوا يستمتعون به من موارد ثراء ومن حسن ذوق . وفى وسعنا أن نتصور من بعد هذا صورة وواضحة جلية لما كانت عليه المدن الكبرى مثل ميليتس ، وساموس ، وإفسوس ، وكروتونا ، وسيباريس وسرقوسة من أبهة وثراء .

وعلى مسافة قليلة من الموضع الذى تقوم عليه نابلى الحديثة ، وإلى شمالها ، أقام بعض المغامرين من كولسيس ، وإرتريا ، وكيمى Cyme العوبية ، وجرايا Graia ، حوالى عام ٧٥٠ ثغر كومية العظيم أقدم المدائن اليونانية فى غرب بلادهم ، وسرعان ما أثرت كومية من استيرادها غلات بلاد اليونان الشرقية وبيعها فى أواسط إيطاليا ، وأعانها ذلك على استعمار رجيوم والسيطرة عليها ، كما سيطرت على مضيق مسينا وحرمت عبوره على سفن المدائن التى لم تعقد معها حلفاً تجاريا أو سمحت لها بالمرور بعد أداء رسوم باهظة فرضتها عليها[٥٦] . وانتشر الكوميود

جنوباً وأسسوا دسيآركيا Dicaearchia - وهى التى أصبحت فيما بعد ثغر بتيولى Puteoli (بتسيولى Pozzuoli) الرومانى - ونيبوليس Neapolis أو المدينة الجديدة وهى مدينة نابلى الحالية . ومن هذه المستعمرات انتقلت الأفكار اليونانية كما انتقلت المتاجر اليونانية إلى مدينة رومة الناشئة التى لم يكن لها وقتئذ شأن كبير بين المدن ، كما انتقلت شمالا إلى إترووريا . واختار الرومان من كومية عدداً من الآلهة اليونانية - وبخاصة أبلو ، وهرقليز ، وابتاعوا الملفات التى تنبأت فيها سيبيل الكومية - كاهنة أبلو العجوز - بمستقبل رومة بأكثر مما تستحقه من الثمن .

وقبل أوائل القرن السادس بقليل نزل فوقيُّو أيونيا على سواحل فرنسا الجنوبية وأسسوا مساليا (مرسيليا) ، ونقلوا غلات بلاد اليونان فى نهر الرون وروافده حتى أرليس Arles ونيمز Nimes . واتخذوا من الأهلين أصدقاء وأزواجاً ، وأدخلوا زراعة الزيتون والكروم هدية منهم إلى فرنسا ، كما أدخلوا الحضارة اليونانية إلى غالة الجنوبية ، ونشروها بين ربوعها إلى حد يسر لرومة فيما بعد أن تنشر فيها هى الأخرى فى أيام قيصر حضارتها الوثيقة الصلة بالحضارة اليونانية . وأسس الفوقيون فى اتجاه الشرق على طول الساحل مدن أنتيبوليس Antipolis (أنتيب Antipes الحديثة) ، ونيسية Nicaea (نيس الحالية) ومنوكوس Monoecus (موناكو) . أما فى الغرب فقد وصلوا إلى أسبانيا وأسسوا مدينة رودية Rhodae (روساس Rosas) وإمبوريوم (أمبورياس) وهمروسكوبيوم Hemoroscopium وميناكا Maenaca بالقرب من مالقة Malaga ، وأثرى اليونان فى أسپانيا وقتاماً باستغلالهم مناجم الفضة فى تارتسوس Tartessus ؛ ولكن القرطاجيين والإترووريين تألبوا عليهم فى عام ٥٣٥ ودمروا الأسطول الفوقى ، ومن ذلك الوقت أخذت قوة اليونان فى غرب البحر المتوسط تتضاءل ولم تقم لهم فيه بعدئذ قائمة .

الفصل الخامس

صقلية

لقد تركنا إلى آخر المطاف ، أو على الأصح إلى قبيل آخره ، أغنى الأصقاع التي استعمرها اليونان . ونقول أغناها لأن الطبيعة وهبت صقلية ما حرمت منه بلاد اليونان في القارة الأوربية — ونعني بذلك تربتها التي لا يكاد ينفد خصبها بفضل أمطارها وحمم بركانها — ، ولذلك كانت تنتج من القمح والحبوب الأخرى ما جعل أهلها يعتقدون أنها إن لم تكن مسقط رأس دمتر نفسها فلا أقل من أن تكون ملجأها المفضل المحبوب . لقد كان فيها بساتين وكروم ، وآجام من أشجار الزيتون مثقلة كلها بالثمار ؛ وكان فيها شهد لا يقل حلاوة ولذة عن جنى همتوس Hymettus ، وأزهار تتفتح طائفة بعد طائفة من بداية العام إلى نهايته . كان فيها سهول كلئة ترعى فيها الماشية والضأن ، وتنمو على منحدرات تلالها أشجار لا يحصيها عد ، وسمك البحار المحيطة بها يتوالد وينمو أسرع مما يستطيع أهل صقلية أن يأكلوه .

وازدهرت في هذه الجزيرة ثقافة من ثقافات العصر الحجري الجديد في الألف الثالث من السنين التي قبل ميلاد المسيح ، وأخرى من ثقافات العصر البرنزي في الألف الثاني منها ؛ وحتى في الأيام المينوية كانت التجارة الخارجية تربط الجزيرة بكريت وبلاد اليونان(٥٧) . وفي أواخر الألف الثاني من السنين تكسرت ثلاث أمواج من الهجرة على سواحل صقلية : وهي موجة السكانيين Sicans من أسبانيا ، وموجة الإليميين Elymi من آسية الصغرى ، وموجة الصقليين Sicels من إيطاليا(٥٨) . واستقر الفينيقيون حوالي عام ٨٠٠ ق . م في متيا Motya وبنورموس Panormus (پالرمو) في غربي الجزيرة . ثم تدفق

اليونان عليها من سنة ٧٣٥ وما بعدها(*) ، وسرعان ما أسسوا ناكسوس ، وسرقوسة ، وليونتيني Leontini ، ومسانا (مسينا) ، وقطانا Catana ، وجيلا ، وهميرا Himera ، وسلينس ، وأكروجاس . وكان أهل الجزيرة الأصليون فى جميع هذه الهجرات يُطردون من السواحل نحو الداخل بقوة السلاح . وقد انسحبت كثرتهم إلى الأصقاع الجبليـــة الداخلية تفلحها وتستغلها ، ومنهم أقلية أصبحت عبيداً للغزاة . وتزاوج عدد منهم مع الفاتحين بلغ من الكثرة حداً أصبح معه للدم والعادات والأخلاق اليونانية فى صقلية الغلبة على طباع الأهلين ، فاتصفوا بما كان يتصف به اليونان من ثورة عاطفية وانهماك فى العلاقات الجنسية(٥٩) . ولم يفتـــح اليونان الجزيرة فى وقت من الأوقات بالمعنى الصحيح للفظ الفتح ، بل بقى الفينيقيون والقرطاجنيون أصحاب السلطة العليا على ساحلها الغربى ، ودامت الحرب بينهم وبين اليونان خمسمائة عام ، رمزاً للكفاح بين اليونان والساميين ، وبين أوربا وأفريقية ، للاستيلاء على صقلية وبدأ هذا النزاع من جديد فى العصور الوسطى بين أهل الشمال (النورمان) والعرب بعد أن ظلت رومة مسيطرة على الجزيرة ثلاثة عشر قرناً من الزمان .

وامتازت قطانا بشرائعها ، كما اشتهرت جـــزائر ليبارى Lipari بشيوعيتها ، وميرا بشاعرها سيجستا Segesta وسلينس وأكروجاس بهياكلهما ، وسرقوسة بقوتها وثرائها . وأضحت الشرائع التى سنّها كارنداس Charondas لقطانا قبل صولون بجيل كامل أنموذجاً تحتذيه كثير من المدن فى صقلية وإيطاليا ، وكانت عاملا قوياً فى استتباب النظام العام وكبح الشهوات الجنسية فى مجتمعات لا تحميها التقاليد القديمة ولا السوابق المقدسة المرعية . ومن أقوال كارنداس فى هذا المعنى أن فى وسع الرجل أن يطلق زوجته ، كما أن فى مقـــدور الزوجة أن تطلق زوجها ، ولكن ينبغى للرجل ألا يتزوج أصغر من مطلقته كما أن عليها هى الأخرى

(*) أو لعل ذلك كان بعد جيل من ذلك الوقت . انظر هامش ص ٢٩٠ .

ألا تتزوج برجل أصغر ممن طلقها[٦٠] وتروى قصة يونانية الطابع نصادفها كثيراً فى القصص اليونانى أن كرنداس حرم على المواطنين أن يدخلوا الجمعية مسلحين . على أنه حدث فى يوم من الأيام أن جاء هو إلى اجتماع عام يحمل سيفه سهواً منه ، ولما أن لامه أحد الناخبين على مخالفته تشريعته أجاب بقوله : « سأؤيد هذا القانون » ثم قتل نفسه[٦١] .

وإذا شئنا أن نتصور ما كان يكتنف الحياة من صعاب فى هـذه المستعمرات التى نشأت عن طريق الفتح العنيف ، فما علينا إلا أن نستعرض النزعة الشيوعية العجيبة التى كانت تسود جزائر ليپارى (أى المجيدة) الواقعة إلى الشمال من شرق صقلية . فقد أقام فيها حوالى عام ٥٨٠ ق . م جماعة من المغامرين جاءوا من نيدس Cnidus جنة القراصنة . وكان هؤلاء يهاجمون المتاجر المارة حول المضيق ، ويأتون بغنائمهم إلى أوكارهم فى الجزيرة ويقتسمونها فيما بينهم قسمات تعد مضرب المثل فى العدالة . وكانت الأرض ملكاً للأهلين مجتمعين ، يخصصون عدداً منهم لفلحها ، ويوزعون غلتها على المواطنين توزيعاً عادلا خالياً من الظلم والإجحاف . بيد أن النزعة الفردية عادت إلى الظهور على مدى الأيام ، فقسمت الأرض أقساماً امتلكها الأفراد ، وعادت تجرى فى مجراها المألوف خالية من المساواة ، مليئة بالتنافس والتطاحن

وعلى ساحل صقلية الشمالى كانت تقوم مدينة هيمارا ، وقد شاءت الأقدار أن تجعل منها بلاثية فى الغرب ، وفيها صاغ استسكورس Stecichorus « صانع الأناشيد الجماعية » خرافات بنى جنسه فى صورة أغان جماعية فى الوقت الذى أخذ فيه اليونان يملون الملاحم الطوال ، وحتى هلن وأخيل نفسهما لم ينجوا من هذا التجديد القصير الأجل بل اكتسيا على يديهما بهذا « الثواب الجديد» . وكأنما أراد استسيكوروس أن يسد الثغرة بين الملحمة الميتة ، والرواية القصصية المقبلة ، فألف قصصاً شعرية ، روى فى إحداها كيف ماتت فتاة طاهرة لأن من أحبته لم

بستجيب لحبها ، وكان الأسلوب الذى روى به هذه القصة شبيهاً بأسلوب أغانى الحب البروڤنسالية Provençal فى فرنسا أو قصص العصر الفكتورى فى إنجلترا . هذا إلى أنه قد مهد فى الوقت نفسه الطريق أمام ثيوقريطس Theocritus بأن كتب قصيدة فى حياة الرعاة روى فيها موت الراعى دفنيس Daphnis الذى كان حبه لكلو Chloe موضوع الروايات اليونانية فى العصر الرومانى . وقد كتب استسيكوروس نفسه رواية غرامية كانت بطلتها هلن نفسها . ولما فقد ستسيكوروس بصره اعتقد أن هذه الكارثة لم تحل به إلا لأنه نقل إلى الخلف قصة خيانة هلن ، وأراد أن يكفر لها عن ذنبه (لأنها أصبحت وقتئذ إلهة) فألف قصيدة أخرى أنكر فيها ما قاله فى أغنيته الأولى ، وأكد للعالم أن هلن اختطفت من بيتها قوة واقتدارا ، وأنها لم تسلم نفسها قط لباريس ، ولم تذهب إلى طروادة ، بل بقيت سالمة فى مصر حتى جاء منلوس لينقذها من محنتها . وقد حظر الشاعر فى شيخوخته هيمرا من سلطة فلارس Phalaris الأكرجامى المطلقة(*) ، فلما أصم فلارس أذنيه عن سماع نصحه انتقل إلى قطانا ، حيث كان قبره الأثرى من المناظر الرائعة فى صقلية فى العصر الرومانى .

وإلى غرب هيمرا كانت سيجستا Segesta ، التى لم يبق منها إلا رواق ذو عمد دورية ناقصة تقوم الآن وسط ما يحيط بها من الأعشاب البرية . وإذا شئنا أن نتبين طراز فن العمارة الصقلية فى أحسن صوره ، كان علينا أن نخترق الجزيرة إلى الجنوب حيث كانت المدينتان العظيمتان سلينس وأكروجاس . فأما سلينس فقد شادت للآلهة الصامتة ، فى أثناء حياتها المحزنة منذ تأسيسها فى

(*) وقد صاغ هذا التحذير فى قالب خرافة فقال إن حصاناً قد ضايقه اقتحام وعل مرعاه ، فطلب إلى رجل أن يعينه على عقاب المعتدى ووعده الرجل أن يجيب طلبه إذا سمح له أن يركبه وحربته فى يده . فوافق الحصان على ذلك ، وهرب الوعل من الله حى غانماً مذعوراً ، ولكن الحصان وجد أنه قد أصبح عبداً للرجل .

عام ٦٥١ إلى أن دمرها القرطاجنيون عام ٤٠٩ ، سبعة هياكل دورية الطراز ، ضخمة ولكنها تعوزها الدقة وحسن الصناعة ، يغطيها الجص المزين بالرسوم وعليها نقوش بارزة فجة . وقد دمر شيطان الزلازل هذه الهياكل فى وقت غير معروف ، ولم يبق منها سوى أعمدة محطمة وتيجان ملقاة على الأرض .

وأما أكروجاس – أجرجنتم الرومانية – فقد كانت فى القرن السادس أكبر مدائن صقلية وأعظمها ثروة . وفى وسعنا أن نتخيلها ممتدة من أرصفتها الشديدة الحركة ، إلى سوقها الصاخبة ، وإلى بيوتها القائمة على جانب التل ، ثم إلى قلعتها الحصينة الفخمة التى تكاد أضرحتها لعلوها الشاهق أن ترفع المتعبدين فيها إلى السماء . وفى هذه المدينة رضى الأشراف ملاك الأراضى أن يسلموا زمام الحكم إلى دكتاتورية تمثل الطبقة الوسطى بنوع خاص ، شأنها فى هذا شأن معظم المدن اليونانية . وفى عام ٥٧٠ اغتصب فلارس زمام الحكم ، وخلد اسمه على مر الأزمان بأن شوى أعداءه فى داخل ثور من النحاس الأصفر ؛ ولقد سره بنوع خاص أن استطاع صانعو هذا الثور أن يستحدثوا فيه طريقة تجعل عويل الضحايا يخرج من طائفة من الأنابيب كأنه خوار الثور نفسه(١٢) . لكنه رغم هذا كان هو وطاغية آخر من بعده يدعى ثيرون Theron الرجلين الذين تمتعت المدينة فى عهدها بالنظام السياسى والاستقرار ، وبفضلهما قطعت شوطا بعيداً فى سبيل تقدمها الاقتصادى ، حتى أصبح تجار أكروجاس كما أصبح تجار سلينس ، وكرتونا ، وسيبارس أصحاب الملايين فى تلك الأيام ، وكان ذوو المال الأقل منهم شأنا فى بلاد اليونان القديمة ، يحسدونهم شرا على ثرائهم العظيم ، وينتقمون لأنفسهم منهم بازدرائهم ، ويقولون إن الأثرياء الجدد مولعون بالضخامة والمظهر ، ولكنهم يعوزهم الذوق وجمال الفن . وما من شك فى أن هيكل زيوس فى أكروجاس كان يمتاز بضخامته ، فقد وصفه پوليبيوس بأنه «لا يعلو عليه هيكل آخر فى حجمه أو تصميمه»(٦٣) ؛ وليس فى مقدورنا أن نقدر ما كان عليه من

جمال ، لأن الحروب والزلازل دمرته تدميراً ، ثم سادت أكروجاس بعد جيل من ذلك الوقت ، أى فى عصر بركليز ، هياكل أخرى أقل من هذا حجماً . وقد بقى أحدها وهو هيكل الوفاق Concord بكامل أجزائه تقريباً ، كما بقى من هيكل هيرا طائفة من العمد تؤثر فى النفس بروعتها . ويكفى ما بقى من المعبدين للدلالة على أن الذوق اليونانى لم يكن مقصوراً على أثينة وحدها ، وعلى أن الغرب التجارى نفسه قد أدرك أن « الرقى ليس فى الضخامة » . وفى أكروجاس ولد إمبدقليز العظيم ، ولا يبعد أن يكون قد مات فيها أيضاً لا فى فوهة بركان إتنا Etna .

وبدأت سرقوسة بالصورة التى هى عليها اليوم - قرية محتشدة على لسان ارتجيا Ortygia الجبلى الممتد فى البحر . وكانت كورنثة قد أرسلت فى القرن الثامن جماعة من المستعمرين مسلحين بأخلاق قوية وأسلحة متفوقة للاستيلاء على شبه الجزيرة الصغيرة . ولعلها كانت وقتئذ جزيرة ، فبنوا أو وسعوا الطريق الذى يصلها بأرض صقلية ، وطردوا معظم الصقليين إلى داخل الجزيرة . وازداد أبناؤهم كما يزداد أبناء الشعب القوى فى الأرض الكثيرة الموارد ، حتى أصبحت مدينتهم على مر الأيام أكبر المدن فى بلاد اليونان كلها ، فكان طول محيطها أربعة عشر ميلا ، وسكانها نصف مليون . وقام العامة من سكانها الذين لم يكن لهم ما لسائر الأهلين من حقوق سياسية ، ومعهم الصقليون المسترقون بثورة على الأشراف ملاك الأراضى واستولوا منهم على أزمة الحكم فى عام ٤٩٥ . ولكن الدمقراطيـــة الجديدة - إذا جاز لنا أن نصدق أرسطاطاليس[٦١] - ، عجزت عن أن تقيم مجتمعاً منظماً ، وما زالت كذلك حتى قام جيلون الجيلى Gelon of Gela فى عام ٤٨٥ واستبدل بها دكتاتورية مستعيناً على ذلك بخطة من القدر المستنير . وكان كالكثيرين من أمثاله حاكماً قديراً لا يرعى عهداً ولا ذمة ، يسخر من جميع المبادئ الأخلاقية والقيود السياسية ، جعل من أرتيجيا حصناً منيعاً لحكومته ، وفتح نكسوس ،

وليونتيني ، ومسانا ، وفرض الضرائب على شرق صقلية كله ليستعين بها على جعل سرقوسة أجمل العواصم اليونانية . ويقول عنه هيرودوت متحسراً : « وبهذه الطريقة أصبح جيلون ملكاً (*) عظيماً »(٦٥) .

ثم صلح حاله وصار باپايون صقلية المعبود ، حين بعث خشيارشاي أسطوله ليهاجم أثينة ، فسير القرطاجنيون عمارة بحرية يكاد عدد سفنها أن يساوي عدد مراكب الأسطول الفارسي ؛ لتنتزع جنة الجزائر كلها من أيدي اليونان . وكان مصير الجزيرة هو نفس المصير الذي لاقته بلاد اليونان حين واجه جيلون هملكار في هيمرا في نفس الشهر — أو في نفس اليوم كما تقول الرواية المتواترة — الذي واجه فيه ثمستكليز خشيارشاي في سلاميس .

(*) ويقول لوشيان Lucian : « ولقد كان جيلون السرقوسي أبخر ، ولكنه لم يعرف ذلك عن نفسه إلا بعد زمن طويل ، لأن أحداً من الناس لم يجرؤ على أن يطلع الطاغية المستبد على هذه الحقيقة حتى جرأت امرأة أجنبية كانت ذات صلة به على أن تطلعه عليها . فما كان منه إلا أن ذهب إلى زوجته وأنبها على سكوتها عن ذلك رغم ما لديها من الفرص الكثيرة التي كانت تمكنها من الإفضاء إليه بهذا السر . وكان دفاعها أنها كانت تظن أن الرجال كلهم على شاكلته لأنها لم تعرف الرجال عن قرب طوال حياتها ولم تقترب منهم قط(٦٦) » . وبذلك لم يجد لنفسه حيلة معها .

الفصل السادس

اليونان فى أفريقية

وكان من حق القرطاجنيين أن يوجسوا فى أنفسهم خيفة ، لأن اليونان شيدوا مدناً عامرة على ساحل أفريقية الشمالى نفسه وأخذوا يستولون على تجارته . فقد أرسل الدوريون أهل ثيرا منذ عام ٦٣٠ جالية كبيرة إلى قورين فى منتصف الطريق بين قرطاجنة ومصر . ووجدوا فيها على حافة الصحراء تربة خصبة ومطراً بلغ من غزارته أن قال عنه أهل البلاد إن فى السماء من فوقهم فرجة تنصب منها الأمطار . واستخدم اليونان بعض الأرض للرعى ، وأصدروا منها إلى الخارج الأصواف والجلود واستنبتوا من نبات الأنجدان تابلا كانت بلاد اليونان بأجمعها تحرص على شرائه ؛ وكانوا يبيعون غلات بلادهم إلى أفريقية ، وارتقوا بحرفهم البدوية إلى حد جعل المزهريات القورينية من أحسن مزهريات العالم .

وانتفعت المدينة بثروتها على خير وجه وأحكمه ، وازدانت بالحدائق الغناء ، وبأعظم الهياكل والتماثيل وحلبات الألعاب . وفيها ولد ارستپوس Aristippus أول فيلسوف أبيقورى ذائع الصيت ، وإليها عاد بعد تجوال طويل ليؤسس المدرسة القورينية .

وحط اليونان رحالهم فى مصر نفسها وهى المعروفة بكراهيتها لاستيطان الأجانب بها(*)، وأنشأوا لهم فيها آخر الأمر إمبراطورية . فقد أنشأ الميليتيون حوالى عام ٦٥٠ محطة تجارية عند نقراطيس على فرع النيل الكانوبى . وسمح

(*) هذا ما يؤيد التاريخ نقيضه فقد كانت مصر على الدوام كريمة مضيافة لنزلائها الأجانب الصالحين ينعمون بخيراتها كما ينعم بها أبناؤها .   (المترجم)

لهم أبسماتيك الأول فرعون مصر بإنشائها لأنهم يصلحون لأن يكونوا جنوداً مرتزقين ، ولأن تجارتهم كانت غنيمة طيبة له يحصل منها جباته على ضرائب جمركية عالية(٦٧) . ووهبهم أحمس الثانى قسطاً كبيرا من الحكم الذاتى ؛ وأصبحت نقراطيس مدينة صناعية أو كادت ، تنتج الفخار ، والقرميد ، والخزف الرقيق ؛ وأهم من هذا أنها أصبحت مستودعاً تجارياً عظيما ، يأتى إليها زيت بلاد اليونان وخمرها ، وترسل قمح مصر وتيلها ، وصوفها وعاج أفريقية وعطورها وذهبها . وانتقلت مع هذه المتاجر معارف مصر ، وطقوسها الدينية ، وعمارتها ، ونحتها ، وعلومها الطبيعية إلى بلاد اليونان ، كما دخلت مصر مع غلات اليونان ألفاظهم وأساليبهم فى الحياة ، فمهدت السبيل إلى سيطرة اليونان على مصر فى العصر الإسكندرى .

وإذا تصورنا مركباً يونانيا يسير من نقراطيس إلى أثينة ؛ أتممنا بذلك طوافنا حول العالم اليونانى . ولقد كان واجباً علينا أن نطوف هذا الطواف الطويل لكى ندرك مدى الحضارة الهيلينية ونشعر باختلاف مظاهرها . ولقد قص علينا أرسطاطاليس تاريخ النظام الدستورى فى ١٥٨ دولة من دول المدن اليونانية ، ولكنه أغفل تاريخ ألف مدينة غيرها . لقد كانت كل واحدة منها تضطلع بنصيبها فى تجارة البلاد التى نطلق عليها اسم بلاد اليونان ، وصناعتها ، وتفكيرها . وفى المستعمرات لا فى أرض اليونان الأصلية ولد فنا الشعر والنثر اليونانيان ونشأت علوم الرياضة وعلوم ما وراء الطبيعة ، والخطابة والتاريخ ، اليونانية . ولولا هذه المستعمرات وعشرات المئات من اللوامس الماصة التى بثتها فى العالم القديم تمتص بها ما فيه من علم وفن وثقافة ، ولولا هذه وتلك لما وُجدت الحضارة اليونانية وهى أثمن نتاج التاريخ بأجمعه ، وعن طريق هذه المستعمرات واللوامس انتقلت حضارة مصر والشرق إلى بلاد اليونان ، وانتشرت الثقافة اليونانية انتشاراً بطيئاً فى آسية وأفريقية وأوربا .

الباب الثامن

آلهة اليونان

الفصل الأول

أصل الشرك

إذا بحثنا عن العناصر الموحِّدة فى حضارة هذه المدائن المتفرقة وجدنا منها خمسة عناصر جوهرية : لغة مشتركة ذات لهجات محلية ؛ وحياة ذهنية مشتركة لا يعرف من رجالها فى الأدب والفلسفة والعلوم خارج حدود بلادهم السياسية إلا كبارهم ، وشغف مشترك بالألعاب الرياضية ينفسون به فى المباريات التى تقام بين الأفراد فى المدن نفسها أو بين الدول بعضها وبعض ، وحب للجمال تعبر عنه المدن بأشكال من الفن عامة بين الجماعات اليونانية كلها ، وطقوس وعقائد دينية موحدة بعض التوحيد .

وكان الدين عاملا فى التفرقة بين اليونان بقدر ما كان عاملا فى وحدتهم . فقد كان من وراء عبادة آلهة الأولمپس العامة البعيدة ، وهى العبادة التى كان فيها قسط كبير من الأدب والمجاملة ، عبادة أقوى منها للآلهة وللقوى التى تدين بالطاعة لزيوس . وكانت النزعة الانفصالية القبلية والسياسية تغذى الشرك وتجعل التوحيد مستحيلا . فقد كان لكل أسرة فى أيام اليونان القديمة إلهها الخاص ، توقد له فى البيت النار التى لا تنطفئ أبداً ، وتقرب له القربان من الطعام والخمر قبل كل وجبة . وكان هذا الاقتسام المقدس للطعام بين الآدميين والآلهة أول الأعمال الدينية الأساسية التى تعمل فى البيت . وكان المولد والزواج والموت تُخلع عليها هالة

من القداسة بالطقوس القديمة أمام النار المقدسة ، وبهذه الطريقة كان الدين عاملا فى خلق الشعر الصوفى وفى إكساب الحادثات الرئيسية فى الحياة البشرية مسحة من الوقار أعانت على استقرارها وثباتها . وكذلك كان لكل جماعة بطنا كانت أو عشيرة أو قبيلة أو مدينة إلهها الخاص بها ، فكانت مدينة أثينة تعبد الإلهة أثينا ؛ وإلوسيس تعبد دمتر ، وساموس تعبد هيرا ، وإفسوس تعبد أرتميز ، وپوسدونيا تعبد پوسيدن . وكان وسط المدينة وأعلى مكان فيها ضريح إلهها ، وكان الاشتراك فى عبادة إلهها رمز مواطنيها وميزتهم والواجب المفروض عليهم . وإذا ما خرجت المدينة للحرب حملت معها فى مقدمة جيوشها صورة إلهها وشعاره ، ولم تكن تخطو خطوة خطيرة إلا بعد استشارته بسؤاله عما يخبئه الغيب لها . وكان لها عليه فى نظير هذا أن يحارب فى صفها ، وكان يبدو لأهلها أحيانا أنه قد يتجلى لهم فى مقدمة الجيش أو فوق رماح الجنود . ولم يكن النصر مقصوراً على غلبة مدينة لمدينة بل كان يشمل فوق ذلك غلبة إله لإله . وكانت المدينة ، كما كانت الأسرة وكما كانت القبيلة ، تحتفظ على الدوام بنار مقدسة موقدة عند مذبح عام فى بهو المدينة ، ترمز لحياة منشئيها وأبطالها القوية الخالدة ؛ وكان مواطنوها يجتمعون فى مواسم معينة ليطعموا جميعاً أمام هذه النار . وكلما كان أب الأسرة هو أيضاً كاهنها ، كذلك كان حاكم المدينة الأكبر أو أركونها كبير كهنة فى دين الدولة ، وكان الإله يخلع على سلطانه وأعماله كلها ثوباً من القداسة . وهكذا استحال الإنسان بفضل تجنيد الآلهة على هذا النحو من صياد جوال إلى مواطن مستقر .

وحرر الاستقلال المحلى خيال اليونان الدينى من القيود فأخرج للعالم أساطير دينية موفورة ومجموعة كبيرة من الآلهة . فكان كل شىء وكل قوة فى الأرض أو السماء ، وكل نعمة أو نقمة ، وكل صفة — ولو كانت رذيلة — من صفات الإنسان ، تمثل إلهاً فى صورة بشرية عادة . وليس ثمة دين يقرب آلهته من

الآدميين قرب آلهة اليونان . وكان لكل حرفة ، ولكل مهنة ، ولكل فن ، إله خاص أو راع حارس ، بلغة هذه الأيام . وكان عند اليونان فضلا عن هذا شياطين ، ونساء مجنحة ، وآلهة انتقام ، وجن ، وأرباب بشعة المنظر ، وإلاهات ذوات صوت شجي يسلب العقول ، وحور عين في البحار والغاب لا يقل عديدهن عن سكان الأرض من الآدميين . وفي هذه البلاد بنوع خاص لا تبقى حاجة للسؤال القديم « هل الدين من وضع الكهنة ؟ » . ذلك أن من غير المعقول أن أية مؤامرة يدبرها رجال الدين الأولون تستطيع أن تخرج هذه الكثرة من الآلهة . وما من شك في أن من أكبر النعم التي ينعم بها هؤلاء الأقوام أن يكون لهم كل أولئك الآلهة ، وكل هاته القصص الفتانة الساحرة ، وكل هذه الأضرحة المقدسة والحفلات المهيبة المرحة . لقد فطر الإنسان على أن يعبد آلهة متعددة كما فطر على الزواج من نساء متعددات ، ولا يقل عمر فطرته الأولى عن فطرته الثانية ، لأنها توائم كل المواءمة ما في العالم من تيارات متعارضة . وإن مسيحية البحر المتوسط في هذه الأيام لا يعبد فيها الله بقدر ما يعبد فيها الأولياء والقديسون . ذلك أن الشرك هو الذي يوحي إلى حياة السذج بالأساطير وما فيها من خيال وسلوى ؛ ويهب النفس الذليلة المعونة والراحة واللتين لا تجرؤ على انتظارهما من كائن أعلى رهيب بعيد لا تستطيع الوصول إليه(*) .

وكان لكل إله من الآلهة أسطورة (Mythos) أي قصة ، متصلة به تشرح سبب وجوده في حياة المدينة ، أو تفسر الطقوس التي تقام تكريماً له .

(*) لا نوافق المؤلف على قوله إن الشرك فطرة فطر الناس عليها إلا إذا كان يقصد بالفطرة صفة الإنسان الجاهل الساذج صاحب العقل غير المستنير . ودليلنا على هذا نزعة الإنسان إلى الإيمان بوحدانية الله واقترابه من هذه الوحدانية بقدر استنارة عقله . كذلك لا نرى ما يراه من أن النفس البشرية لا تجد المعونة والراحة إلا في الأساطير وفي الشرك ، بل نعتقد أن في وسعها أن تجدهما في رعاية الله الرحمن الرحيم القريب من عباده المجيب لدعوة الداعي إذا دعاه .
(المترجم)

وقد أصبحت هذه الأساطير التى نشأت نشأة تلقائية مما فى المكان ومما لدى الناس من معارف ، أو كانت من وضع الشعراء الدوارين وزخرفهم ، أصبحت هذه الأساطير عقيدة اليونان الأولين ، وفلسفتهم ، وآدابهم ، وتاريخهم ، جميعاً . فمنها استمدوا الموضوعات التى زينوا بها مزهرياتهم ، وهى التى أوحت إلى الفنانين ما لا يحصى من الرسـوم ، والتماثيل ، والنقوش . وقد ظل الناس إلى آخر أيام الحضارة الهيلينية يخلقون الأساطير ، بل يخلقون الآلهة أنفسها ، رغم ما أنتجته بحوثهم الفلسفية ، ورغم محاولات عدد قليل منهم دعوة الناس إلى التوحيد . لقد كان فى وسع رجال من أمثال هرقليس أن يعدوا أمثال هذه الأساطير مجرد مجازات وتشابيه ، وفى وسع آخرين أمثال أفلاطون أن يعدلوها ويوفقوا بينها وبين ما تقبله العقول ، وفى مقدور رجال من أمثال زنوفانيز أن يندوا بها وينبذوها ؛ غير أن بوزنياس ، حين طاف ببلاد اليونان بعد خمسة قرون من عهد أفلاطون ، وجد الخرافات والأساطير التى كانت تثير الحمية فى قلوب الأهلين فى عصر هومر لا تزال حية قوية . ذلك أن عملية تشعير الأساطير ، وتشعير(*) الدين عملية طبيعية ، تحدث فى هذه الأيام كما كانت تحدث على الدوام فى العصور الخالية ؛ وثمة نسبة للوفيات ونسبة للمواليد بين الآلهة . فالألوهية كالطاقة تبقى كميتها مهما تغيرت صورتها لا تكاد تنقص أو تزيد خلال الأجيال المتعاقبة(**) .

(*) صياغتها شعراً . (المترجم)

(**) للآراء التى يعرضها المؤلف فى هذا الفصل مؤيدون ومعارضون . وقد آثرنا أن نضعها أمام القراء ونترك لهم معارضتها أو تأييدها . (المترجم)



الفصل الثانى

سجل الآلهة

فى وسعنا أن نلقى شيئاً من الترتيب والوضوح على هذا الحشد الكبير من الآلهة إذا نحن قسمناه تقسيما مصطنعا إلى سبع مجموعات : آلهة السماء ، وآلهة الأرض ، وآلهة الخصب ، والآلهة الحيوانية ، وآلهة ما تحت الأرض وآلهة الأسلاف أو الأبطال ، والآلهة الأولمبية . وأما « أسماؤها جميعاً فما يشق على الإنسان ذكرها » ، كما يقول هزيود[1] .

(١) وكان إله الغزاة اليونان فى بادئ الأمر ، على ما نستطيع أن نتبينه من الأساطير ، هو إله السماء العظيم المختلف الصور . ويشبه اليونان فى هذا الهنود القديين . ثم تطور هذا الإله شيئاً فشيئاً حتى أصبح هو أورانوس أو السماء نفسها ، ثم أضحى « مرسل السحاب » ، مسقط المطر ، جامع الرعد ، زيوس . وإذ كانت تلك البلاد تنال فوق كفايتها من ضوء الشمس ، ولكنها ظمآى للمطر ، فإن إله الشمس هليوس لم يكن له فيها شأن كبير ، ولذلك كان من الآلهة الصغرى . وقد صلى له أجممنون ودعاه لمعونته[2] ، وكان الاسپارطيون يضحون له بالخيل لتجر عربته الملتهبة فى قبة السماء[*] ، وكان أهل رودس حين اصطبغت بلادهم بالصبغة اليونانية يعظمون هليوس ، ويعدونه كبير آلهتهم ، ويلقون فى البحر كل عام أربعة جياد وعربة ليستخدمها فى تجواله ، وأقاموا الهيكل الضخم الذائع

(*) وطلب فيتون Phaëton (المتلألئ) ابن هليوس أن يسوق عربة الشمس فى عرض السماء . ولكنه اندفع يسوقها بتهور ، وكاد يشعل النار فى العالم كله فصعقه البرق ، وسقط فى البحر . ولعل اليونان ساقوا هذه القصة ، كما ساقوا قصة إكروس Icarus ، ليعظوا بها الشباب .

الصيت ، وكاد أنكسجرس يفقد حياته فى أثينة پركليز نفسها ، لأنه قال إن الشمس ليست إلها وإنما هى كرة من النار لا أكثر . ثم زالت عبادة الشمس شيئاً فشيئاً حتى لم يكد يبقى لها أثر فى تاريخ اليونان القديم ، وكان القمر أقل من الشمس شأناً ، والكواكب والنجوم أقل منه ومنها .

(٢) وكانت الأرض ، لا السماء ، موطن معظم الآلهة اليونانية . فكانت الأرض نفسها فى بادئ الأمر هى الإلهة جى Ge أو جيا Gaea الأم الصابرة السمحة الجزيلة العطاء ، التى حملت حين عانقها أورانوس — السماء — فنزل المطر . وكان يسكن الأرض نحو ألف إله آخر أقل من جى شأناً ، فى مائها وفى الهواء المحيط بها : منها أرواح الأشجار المقدسة ، وخاصة شجرة البلوط ، ومنها النريدات Nereids ، والنيادات Naiads ، والأوقيانوسيات فى الأنهار والبحيرات والبحار ، وكانت الآلهة تتفجر من الأرض عيونا ، أو تجرى جداول عظيمة مثل الميندر أو الاسپركيوس Sperchens ؛ وكان للريح آلهة مثل بورياس Boreas ، وزفر Zephyr ونوتس Notus ، ويوروس Eurus ، وسيدها إيوس ؛ وكان من آلهة الأرض پان العظيم ، ذو القرنين ، المشقوق القدمين ، الشبق ، المغذى ، البسام ، إله الرعاة والقطعان ، والغابات والحياة البرية ، الكامن فيها ، والذى تُسمع صفارته فى كل جدول وواد ، والذى تبعث صيحته الفزع (*) فى كل قطيع لا يعنى به ، والذى يقوم على خدمته جنيات الغاب والحراج ، وتلك الجنيات المعروفة بالسلينى Sileni وهى مخلوقات نصف جسمها معز ونصفه بشر . وكان فى كل مكان فى الطبيعة آلهة ، وكان الهواء غاصا بالأرواح الطيبة أو الخبيثة لا تكاد « تجد فيه شقا فارغا تستطيع أن تدفع فيه طرف ورقة نبات » كما قال شاعر غير معروف(٥) .

(٣) وإذ كانت أعجب قوى الطبيعة وأقواها هى قوة التكاثر ، فقد كان

(*) إن كلمة Panic أى الذعر مشتقة من الإله پان . (المترجم)

طبيعياً أن يعبد اليونان ، كما كان يعبد غيرهم من القدامى ، رمزى الإخصاب الرئيسين فى الرجل والمرأة إلى جانب عبادتهم خصب التربة . ولهذا كان قضيب الرجل وهو رمز الإنتاج يظهر فى طقوس دمتر ، وديونيسس ، وهرمس ، وحتى فى طقوس أرتميس الطاهرة[٦] . ويتكرر ظهور هذا الرمز فى النحت والتصوير فى أهم عصر من عصورهما تكراراً فاضحاً ، بل إن عيد ديونيشيا العظيم ، وهو الاحتفال الدينى الذى كانت تمثل فيه المسرحيات اليونانية ، كان يفتتح بموكب تحمل فيه رموز قضبان الرجال ترسل الكثير منها المستعمرات الأثينية شاهداً على صلاحها وتقواها[٧] . وما من شك فى أن هذه الحفلات كانت تثير الكثير من الفكاهات الجنسية البذيئة ، كما تدلنا على ذلك كتابات أرستفنيز ، ولكن كثرتها كانت خالية من هذه البذاءة ، ولعلها كانت تثير الشهوة الجنسية فى الرجال والنساء وتساعد على كثرة النسل[٨]

وكانت أحط ناحيـــة من نواحى مراسم الإخصاب تظهر فى العهود التى انتشرت فيها الحضارة اليونانية الصبغة والحضارة اليونانية ، والتى كان يعبد فيها بريابوس Priapus الذى ولد نتيجة لاتصال ديونيسس وأفروديتى ، والذى كان الفنانون يزينون بصورته المزهريات وجدران المبانى فى بمبى Pompeii . وكان أظرف من هذه المراسم وأعف فى موضوع التناسل نفسه إجلال الإلهات التى ترمز إلى الأمومة . فقد كانت أركاديا ، وأرجوس ، وإلوسيس ، وأثينة ، وإفسوس ، وغيرها من الأماكن تجل أعظم الإجلال إلهات معظمهن لا أزواج لهن ، كنّ فى أغلب الظن أثراً من آثار عصر ينسب الأبناء فيه إلى الأمهات قبل أن يحل عصر الزواج[٩] ؛ ولقد كان الاعتراف بسلطان زيوس الإله الأب على سائر الآلهة رمزاً لانتصار مبدأ سيطرة الآباء على الأمهات[*] . ولعل سبق النساء على

(*) على القارئ أن يلاحظ عدم وجود إلهات أمهات فى المجتمعات ذات السيطرة الأبوية القوية كالمجتمعات اليهودية والإسلامية والمسيحية والبروتستنتية (المؤلف) . يصعب علينا أن —

الاشتغال بالزراعة ، وهو السبق الذى يرجحه الكثيرون ، قد ساعد على إيجاد أعظم إلهة من هاته الإلهات الأمهات ، وهى دمتّر إلهة الحنطة أو الأرض المزرعة . ومن أجمل الأساطير اليونانية التى تقصها فى أحسن عبارة ترنيمة دمتّر وهى الترنيمة التى كانت تعزى فى وقت من الأوقات إلى هومر نفسه ، نقول إن من أجمل هذه الأساطير أسطورة تصف كيف اختطف بلوتو Pluto إله العالم السفلى برسفونى ابنة دمتّر ونزل بها إلى الجحيم ، وكيف أخذت أمها الحزينة تبحث عنها فى كل مكان حتى عثرت عليها وأقنعت بلوتو أن يسمح لابنتها بأن تعيش على ظهر الأرض تسعة أشهر فى كل عام — وذلك رمز ظريف لموات التربة السنوى وتجددها . وإذ كان أهل إلوسيس قد عطفوا على دمتّر المتنكرة وهى « جالسة فى الطريق فى أشد حالات الحزن والكرب » ، فقد علمتهم هم وأهل أتكا سرّ الزراعة ، وأرسلت تربتولموس Triptolemus ابن ملك إلوسيس لينشر هذا الفن بين بنى الإنسان . وهذه الأسطورة تفتق فى جوهرها وأسطورة إيزيس Isis وأوزيريس Osiris فى مصر ، وأسطورة تموز وإشتار فى بابل ، وأسطورة عشتروب وأدنيس فى سوريا ، وسيبيل وأتيس فى فريجيا . وقد بقيت طقوش الأمومة طوال عصر اليونان العظيم ، ثم عادت إلى الحياة من جديد فى صورة تقديس مريم أم الإله .

(٤) وكانت بعض الحيوانات فى تاريخ اليونان المبكر تعظّم وتتخذ أنصاف آلهة — إذا جاز هذا التعبير . وكان السبب فى أنها لم ترق إلى مرتبة الآلهة الكاملة أن الدين اليونانى كان فى العصر الذى ازدهر فيه فن النحت ديناً آدميا إلى حد لا يسمح بوجود آلهة حيوانية كثيرة بالصورة التى نجدها فى مصر والهند ؛ ولكن أثراً من آثار ما قبل هذا العصر الزاهر يبدو لنا فى كثرة الجمع بين الحيوان والإله فى بعض التماثيل . ولقد كان الثور حيواناً مقدساً لقوته وقدرته ، وكثيراً

— نفهم ما يرمى اليه المؤلف بقوله عدم وجود إلهات فى الإسلام وهو دين التوحيد الذى لا يعترف بالألوهية إلا لله وحده . (المترجم)

ما كان يوصف بأنه رفيق لزيوس وديونيسس ، أو صورة لها تنكرا فيها ، أو رمزاً لها ، وربما كان إلها قبلهما[١٠] ولعل « هيرا ذات العين البقرية » ، كانت هي أيضاً بقرة مقدسة[١١] . وكان الخنزير أيضاً مقدساً لكثرة تناسله ، وكان يجمع بينه وبين دمتر الظريفة . وكان القربان الظاهر الذى يقدم لها هي فى أحد أعيادها المعروف بعيد الثسموفوريا Thesmophorio خنزيرا ، أو لعل القربان كان يقدم إلى الخنزير نفسه[١٢] . وفى عيد الديازيا Diasia كان هذا القربان يقرب لزيوس فى الظاهر ، ولكنه فى الحقيقة كان يقرب إلى أفعى تسكن فى باطن الأرض تسمى وقتئذ باسمه تكريما لها[١٣] . وسواء أكان تقديس الأفعى لأنها فى ظنهم لا تموت ، أم لأنها ترمز إلى القدرة على التناسل والإنتاج ، فإنا نراها تنتقل فى صورة إلهة من أفعى كريت إلى أثينة القرن الخامس ؛ فقد كانت أفعى مقدسة تقيم فى هيكل أثينة على الأكروبوليس ، وكان يقدم إليها فى كل شهر كعكة مقدسة زلفى إليها واستدراراً لعطفها . وكثيراً ما نرى الأفعى فى الفن اليونانى حول تماثيل هرمس ، وأبلو ، وأسكلبيوس[١٥] ؛ وقد صوّر فيدياس أفعى ضخمة محاطة بإكليـــل من الزهر فى درع « أثيني پرثنوس » ، وتغطى الأفاعى الجزء الأكبر من تمثال أثينا الفرنزية[١٦] . وكثيراً ما كانت الأفعى تتخذ رمزاً للإله الحارس للهياكل والمنازل أو صورة لهذا الإله[١٧] ، وربما كانت كثرة وجودها حول المقابر سبباً فى اعتقاد الناس أنها روح الموتى[١٨] . ويعتقد بعضهم أن الألعاب الدلفية قد احتفل بها فى بادئ الأمر تكريما لأفعى دلفى الميتة .

(٥) وكانت أكثر الآلهة رهبة تعيش تحت الأرض . ففى المغارات والشقوق وأمثالها من الفتحات السفلى ، كانت تعيش تلك الآلهة الأرضية التى لم يكن اليونان يعبدونها بالنهار عبادة تنطوى على الحب والإجلال ، بل كانوا يعبدونها ليلا عبادة مصحوبة بأناشيد وطقوس تنم عن التوبة والهلع . وكانت هذه القوى غير البشرية هى المعبودات الحقيقية الأولى لبلاد اليونان ، وكانت أقدم من

معبودات الهيلينيين ، بل لعلها أقدم من معبودات الميسينيين الذين نقلوها فى أغلب الظن إلى بلاد اليونان نفسها . ولو أننا استطعنا أن نتتبعها إلى أصلها الأول لكان فى وسعنا أن نصل إلى أنها كانت فى بدايتها الأرواح المنتقمة للحيوانات التى طردها بنو الإنسان إلى الغابات أو إلى ما تحت الأرض فى أثناء تقدمهم وتكاثرهم . وكان أعظم هذه الآلهة الأرضية هو زيوس الأرضى ؛ وزيوس هنا اسم نكرة لايعنى أكثر من إله[١٩] . وكان يسمى أحيانا زيوس ميلكيوس Meilichios أى زيوس الخَيِّر ؛ ولكن الوصف هنا أيضاً وصف خادع يقصد به استرضاء هذا الإله الذى كان يصور فى صورة أفعى رهيبة . وكان هاديز Hades ربُّ ما تحت الأرض أخا لزيوس وعند أخذ اسمه . وأراد اليونان أن يسكنوا غضبه فسموه پلوتو أى واهب الوفرة ، لأنه كان فى مقدوره أن يبارك أو يبيد جذور كل ما ينبت على سطح الأرض(*) . وكان أشد من پلوتو روعة ورهبة الإلهة هكتى Hecate ، وهى روح خبيثة تخرج من العالم السفلى وتسبب البؤس والشقاء بعينها الحاسدة الشريرة لكل من تزوره من الخلائق . وكان القليلو العلم من اليونان يقربون لها الجراء ليبعدوها عنهم[٢١] .

(٦) وكان الموتى قبل عصر اليونان المجيد يعدون أرواحا قادرة على أن تفعل للناس الخير والشر ، وتسترضى بالقرابين والصلاة . ولم تكن هذه الأرواح آلهة بالمعنى الصحيح ، ولكن الأسرة اليونانية البدائية كانت تعظم موتاها تعظيما يفوق تعظيمها أى إله من الآلهة ، شأنها فى هذا شأن الأسرة الصينية[٢٢] . وكان اليونان فى عصرهم الزاهر يرهبون هذه الأشباح الغامضة أكثر مما يحبونها ، وكانوا يسترضونها بطقوس ومراسم يقصد بها إبعادها واتقاء شرها ، كما كانوا يفعلون

(*) وكان پلوتس Plutus إله الثروة صورة من پلوتو . وكانت الثروة عند اليونان الأولين تتخذ فى أكثر الأحيان صورة الحبوب مزروعة فى الأرض أو مخزونة فى جرار ، وكانت فى كلتا الحالتين تحت حماية پلوتو .

فى عيد أنشتريا Anthesteria . وكانت عبادة الأبطال امتداداً لعبادة الموتى ؛ فكان فى وسع الآلهة أن تهب العظيم أو الشريف ، أو الرجل الجميل أو المرأة الجميلة ، الحياة الخالدة فتجعله أو تجعلها من بين الآلهة الصغرى . وكذلك كان سكان أولمبيا يقربون القرابين فى كل عام إلى هپوداميا Hippodameia ؛ وكانت كسندرا Cassandra تعبد فى لوكترا Leuctra اللكونية Laconian ، وهلن فى اسپارطه ، وأوديب فى كولونوس Colonus وكان يحدث أحياناً أن ينزل الإله ويتقمص جسم إنسان ، فيستحيل هذا الإنسان إلها ، وقد يتصل الإله اتصالا جنسياً مع امرأة من الآدميين فتلد بطلا - إلها كما فعل زيوس مع أكينا فولدت هرقل . وكان كثير من المدن والجماعات ، وأبناء الحرف أنفسهم ، يصلون أنسابهم ببطل من أبناء الآلهة ؛ فكان أطباء اليونان مثلا يصلون نسبهم إلى أسكلپيوس . وكان الإله فى أول الأمر من الأسلاف أو الأبطال الموتى ، كما كان المعبد فى الأصل قبرا ، ولا تزال الكنيسة حتى الآن فى معظم البلاد مكانا تحفظ فيه آثار الموتى القديسين .

ويمكن القول بوجه عام إن اليونان لم يكونوا يفرقون بين الآدميين والآلهة بقدر ما نفرق نحن بينهم ؛ فقد كان كثير من آلهتهم لا يقلون فى آدميتهم عن القديسين عندنا ، اللهم إلا فى مولدهم ، وكانوا قريبين إلى عبادهم قرب القديسين إلينا ؛ وكان بعضهم مثل ديونيسس يموتون وإن سموا بالخالدين .

٢ - الآلهة الأولمبية

كانت هذه الآلهة كلها فى المرتبة الثانية من الشهرة بين آلهة اليونان وإن لم تكن حتما فى المرتبة الثانية من التعظيم . ترى لأى سبب لا نسمع فى شعر هومر عن هذه الآلهة إلا القليل ، ولأى سبب نسمع عن الآلهة الأولمبية الشىء الكثير ؟ أكبر الظن أن مرد هذا إلى أن آلهة أولمپس قد جاءت إلى البلاد مع الآخيين

والدوريين وزلزلت عروش الآلهة الميسينية والأرضية ، وغلبتها كما غلبت من كانوا يعبدونها . وفى وسعنا أن نشاهد ماحدث للآلهة الأولى فى دودونا Dodona ودلفى حيث حل زيوس فى المدينة الأولى محل جيا وحل أپلو محلها فى الحالة الثانية . على أن الآلهة المغلوبة لم تمح من الوجود محوا تاما بل بقيت خاضعة للآلهة الجديدة تأتمر بأمرها إذا صح أن نتحدث عن شئون الآلهة بمثل هذا الحديث ، فانزوت ذليلة تحت الأرض ولكنها ظلت موضع التبجيل من عامة الشعب ، بينما كانت الآلهة الأولمپية المنتصرة تتقبل وهى مستوية على عروشها فى أعلى الجبل صلوات عبادها الأشراف . وهذا هو السبب فى أن هومر الذى كان يكتب للصفوة المختارة لايكاد يحدثنا بشىء عن آلهة الأرض . وهكذا أعان هومر وهزيود والمثالون الفاتحين أصحاب السلطة السياسية العليا على نشر عبادة الآلهة الأولمپية . وقد حدث فى بعض الحالات أن اتحدت الآلهة الصغرى أو امتزجت بالكبرى ، وأصبحت من حاشيتها أو أتباعها ، كما كانت الدول الصغرى تنضم من حين إلى حين إلى الدول الأكبر منها أو تخضع لحكمها . وهكذا خضعت جنيات الآجام صغارها وكبارها لديونيس ، وخضعت حور البحار لپوسيدن كما خضعت الأرواح التى تقطن الغابات لأرتميس ، واختفت الطقوس والأساطير الهمجية شيئاً فشيئاً على مر الأيام ، وحلت محل الأساطير المضطربة التى كانت تصور الأرض ملأى بالشياطين حكومة للآلهة على شىء من النظام كانت فى واقع أمرها مرآة ينعكس عليها ما طرأ على العالم اليونانى من استقرار سياسى آخذ فى النماء .

وكان على رأس هذا النظام الإلهى الجديد رب الأرباب زيوس العظيم ؛ ولم يكن زيوس أول من وجد من الآلهة ، فقد سبقه كما رأينا من قبل أورانوس وكرونوس ، ولكنهما هما والجبابرة Titans قد ثلت عروشهم كما ثلت عروش جيش الشيطان Lucifer (*). وقسم زيوس وإخوته العالم ووزعوه فيما بينهم بطريق

(*) لقد أصبح النزاع الذى قام بين زيوس وأعوانه من جهة وبين الجبابرة من جهة —

القرعة ، فكانت السماء من نصيب زيوس ، وكسب پوسيدن البحار ، وكسب هيديز باطن الأرض . وليس فى أساطير اليونان ذكر لخلق العالم ؛ فقد وجدت الأرض قبل أن توجد الآلهة ولم تخلق الآلهة الإنسان من حمأ بل خلقته من تزاوج الذكور منها بالإناث ، أو بتزاوجها بأبنائها غير الخالدين ؛ والله فى دين اليونان ليس إلا والداً ، كما أن الآلهة الأولمپية ليست قادرة على كل شىء عارفة بكل شىء ، بل إن كل واحد منها يحدد سلطان الآخر ويعارضه أحياناً ، وكلها بما فيها زيوس نفسه يمكن أن يخدع ؛ غير أنها على بكرة أبيها تقر له بالسيادة عليها ، وتحشد فى بلاطه كما يحتشد الأتباع فى ساحة أمير إقطاعى ؛ وهو وإن استشارها فى بعض الشئون ، وعمل برأيها فى بعضها وإن خالفت رأيه[٢٣] ، كثيراً ما يزجرها ويلزمها أن تعرف قدر نفسها[٢٤] . وهو يبدأ بأن يكون إلهاً للسماء والجبال ، ومنزل المطر الذى لا غنى للناس عنه[*] ، وهو فى بعض صوره الأولى إله حرب كيهوه ، يجادل نفسه هل ينهى حصار طروادة أو « يجعل الحرب أكثر مما كانت وحشية وإراقة للدماء » ويأخذ بالرأى الثانى[٢٦] . ثم يصبح بالتدريج حاكم الآلهة والبشر ، الهادئ القوى الجالس فوق أولمپس ، الملتحى الوقور ، رأس النظام الأخلاقى ومصدره فى العالم كله ، يعاقب غير البررة من الأبناء ، ويحمى أملاك الأسرة ، ويوثق الأيمان ، يعاقب الخائنين ، ويحفظ الحدود ، والمساكن ، والمتضرعين ، والأضياف ، وهو أخيراً المصـــدر الأعلى للأحكام الذى نحت فدياس تمثاله لأولمپيا .

— أخرى فى نظر اليونان رمزاً لتغلب الحضارة والعقل على الهمجية والقوة الوحشية وقد استمد الفن منه كثيراً من موضوعاته .

(*) أكبر الظن أن لفظ زيوس ذو صلة بكلمة dies اللاتينية التى اشتقت منها كلمة day الإنجليزية ، وقد تكون مأخوذة من أصل هند - ورپى هو id ومعناه يلمع . وچوپتر عند الرومان هو زيو - پاتر Zeu-pater أى زيوس الأب ، ومنه اشتقت كلمة dios . وفى هذه الأيام سميت الأماكن وقمم الجبال التى كان يأوى إليها زيوس أو كانت حرماً مقدساً له باسم القديس إلياس من قديسى الكنيسة اليونانية ومنزل المطر للبلاد ، أو أصبحت حرماً مقدساً لهذا القديس[٢٥] .

وعيبه الوحيد هو ما يدفعه إليه نزق الشباب من استسلام سريع للحب ، وإذ لم يكن هو خالق النساء فإنه يعجب بهن ويراهن كائنات عجيبة تمجد الآلهة نفسُها فيهن موهبة الجمال والحنان ، وهما صفتان تسموان عن كل تقدير ؛ ويجد نفسَه عاجزاً عن مقاومة إغرائهن . ويذكر هزيود ثبتاً طويلا بمحبوبات الإله ، وبما أنجبن منه من أبناء عظام[٢٧] . وكانت حبيبته الأولى ديونى ، Dione ولكنه يغادرها فى أبيروس حين يهاجر إلى أولمبس فى تساليا ، وفيها تكون زوجته الأولى هى متيس Metis إلهة الكيل ، والعقل ، والحكمة ؛ ويترآى إليه أن أبناءها سينزلونه عن عرشه ، فيبتلعها ، ويأخذ منها صفاتها ، ويصبح هو نفسه إله الحكمة ؛ وتلد متيس أثينا فى جوفه ، وإذن فلا بد من قطع رأسه حتى تخرج إلى العالم ، ويحس هو بالوحدة والحاجة إلى المؤنس الجميل فيتزوج ثميس Themis وتلد له الساعات الاثنتى عشرة ؛ ثم يتزوج يورينوم وتلد له إلاهات اللطف الثلاث ؛ ثم يتزوج نموسينى Mnemosyne وتلد له ربات الشعر التسع ؛ ثم ليتو وينجب منها ولديه أبلو وأرتميس ؛ ثم أخته دمتر وينجب منها پرسفونى : فإذا ما صرف شبابه فى الملاذ على هذا النحو تزوج آخر الأمر أخته هيرا وأجلسها ملكة على أولمبس فتلد له هيبى Hebe ، وأريس Ares ، وهفستوف Hephaestus ، وأيليثيا Eileithyia ، ولكن الشقاق يقع بينه وبينها ، لأنها لا تقل عنـــه سناً ؛ وهى تلقى أكثر مما يلقى من التكريم فى كثير من الدول اليونانية ، وهى رعاية الزواج والأمومة ، وحامية الروابط الزوجية ؛ وهى ظريفة أنيقة ، وقورة ، فاضلة ، لا يعجبها عبثه ومداعباته ؛ وهى إلى هذا كله سليطة إلى أبعد حد . ويهم بأن يضربها[٢٨] ، ولكنه يرى أن أيسر من ضربها عنـــده أن يفرج عن كربه بزيجات جديدة . وكانت نيوبى أولى زوجاته من الآدميين ، وكانت آخرهن ألكمينا وهى من نسل نيوبى فى الجيل السادس

عشر(*) ، وهو يسير على سنة اليونان فى عدم التفريق بين الذكور والإناث ، فيحب جنميد الوسيم ، ويختطفه لكى يجعله ساقيه فوق أولمپس ،

وكان من الطبيعى أن يكون من بين أبناء هذا الأب المخصب بعض النجباء الممتازين . من ذلك أن أثينا حين ولدت كاملة النمو والسلاح من رأس زيوس ، أمدت أدب العالم بإحدى استعاراته التى ما زالت تتكرر حتى ملها الناس . وكانت أجدر الآلهات بأن تكون إلهة مدينة أثينة ، تفخر بأنها عذراء وتتخذ من هذا سبباً لمواساة فتياتها العذارى ، وتبعث فى نفوس رجالها الحماسة الحربية ، وتمثل لبركليز الحكمة التى هى خليقة بها لأنها ابنة متيس وزيوس . ولما حاول الجبار پلاس Pallas أن يغازلها قتلته وأضافت اسمه إلى اسمها ليكون ذلك نذيراً لغيره من خطابها . وقد خصتها مدينة أثينة بأجمل هياكلها وأفخم أعيادها .

وكانت عبادة أپلو الرسيم أوسع انتشاراً من عبادة أخته أثينا ، وكان أپلو إله الشمس المتلألئ ، راعى الموسيقى والشعر والفن ، منشئ المدن ، مشرع القوانين ، إله الشفاء ووالد أسكلپيوس ، إله الحرب الرامى بالنبال إلى أبعد مدى ، الذى خلف جيا وفوبى Phoebe(**) . فى دلفى ، وكان أقدس من ينزل الوحى فى بلاد اليونان ، وكان إله المحاصيل النامية ، وبهذه الصفة كان يتلقى العشور فى أيام الحصاد ، وكان فى نظير هذا يبعث بدفئه وضوئه الذهبيين من ديلوس ودلفى ليخصب التربة ويغنيها . وكان فى كل مكان يقترن بالنظام والاعتدال والجمال ، وبينما كانت عبادة غيره من الآلهة ومراسمها تتضمن كثيراً من عناصر الخوف والخرافات الغريبة ، كانت النغمة السائدة فى عبادة أپلو وفى أعياده العظيمة فى

(*) من واجبنا أن نضيف إلى هذا ، إنصافاً للموتى ، أن معظم هذه المغامرات كانت فى أغلب الظن من اختراع الشعراء أو القبائل التى كانت تحرص على أن تصل أنسابها بأعظم الآلهة كلها .

(**) ومن فوبى اشتق اسم فيبوس أى « الملهم » .

دلفى وديلوس هى التعبير عن ابتهاج الشعب المستنير بإله الصحة والحكمة والعقل والغناء ، وكانت أخته أرتميس (ديانا) . سعيدة مثله . وكانت أرتميس إلهة الصيد العذراء ، المنهمكة فى شئون الحيوانات ، وفى ملذات الغابات ، انهماكا لا يترك لها وقتاً لحب الرجال ، وكانت إلهة الطبيعة البرية ، والمراعي والغابات والتلال ، والغصن المقدس . وكما كان أبلو المثل الأعلى للشباب اليونانى ، كذلك كانت أرتميس المثل الأعلى للفتيات اليونانيات — كانت قوية الجسم ، رياضية رشيقة عفيفة ، وهذا فقد كانت راعية النساء فى الولادة ، وكن يدعونها لتخفف عنهن آلام الوضع . وكانت تحتفظ فى إفسوس بطبيعتها الأسيوية ، فكانت إلهة الأمومة والإخصاب ؛ وبهذه الطريقة اختلطت فكرتا العذراء والأم فى عبادتها ، وقد وجدت الكنيسة المسيحية فى القرن الخامس بعد الميلاد أن من الحكمة أن تضيف ما بقى من هذه الطقوس الدينية إلى مريم ، وأن تحول عيد الحصاد الذى كان يقام لأرتميس فى منتصف أغسطس إلى عيد انتقال العذراء إلى السماء[٢٩] . وبهذه الطريقة وأمثالها يحتفظ الجديد بالقديم ويتبدل كل شيء عدا الجوهر ذلك أن التاريخ كالحياة يجب أن يستمر أو يموت ؛ فقد تتبدل الأخلاق والأنظمة ولكنها تتبدل ببطء ؛ وإذا حال حائل قوى بينها وبين نمائها وتطورها نسيت الأمم نفسها وجن جنونها .

وكان من بين تلك الآلهة إله أشبه ما يكون بالآدميين ، هو الصانع الأولمبى الماهر هفستس الأعرج المعروف عند الرومان باسم فلكان Vulcan . ويبدو أن هذا الإله المهين المظلوم ، إله السماء الأول كان إلها سخيفاً خليقاً بالرثاء ، ولكنه فى آخر الأمر يستدر عطفنا أكثر مما تستدره الآلهة الماكرة التى لا ضمير لها ، والتى تسيء معاملته ، ولعله كان فى أيامه الأولى ، قبل أن يصير قريب الشبه بالأناس ، روح النار والكير . وهو فى قصص هومر الدينى ابن زيوس وهيرا ، ولكن أساطير غير أساطير هومر تؤكد لنا أن هيرا حسدت زيوس على مولده

لأثينا بلا معونة ، فولدت هى الأخرى هفستس من غير حاجة إلى ذكر . ولما رأته قبيح المنظر ضعيف الجسم ، ألقت به من فوق أولمپس ، ولكنه عرف طريق العودة إلى موطنه ، وشاد للآلهة القصور الكثيرة التى كانوا يسكنون فيها . وكان يكن لأمه كل شفقة وإجلال رغم ما لقيه على يديها من سوء المعاملة ، وقد دافع عنها دفاعا مجيداً فى نزاعها مع زيوس ، فما كان من إله أولمپس العظيم إلا أن أمسك بساقه وقذف به إلى الأرض . واستغرق هفستس فى ترولـه يوماً كاملا ، حتى استقر آخر الأمر على جزيرة لمنوس ، وجرح عقبه ، ويؤكد العارفون أنه أصبح من ذلك الحين شديد العرج يتألم كلما مشى (وإن كان هومر يقول إنه كان أعرج قبل هذه الحادثة) . وعاد مرة أخرى إلى أولمپس ، وصنع فى حانوته الكثير الضوضاء سنداناً ضخماً وضع فيه عشرين منفاخاً كبيراً ، وعمل دروع أخيل ، وتماثيل تتحرك من نفسها ، وعجائب أخرى كثيرة . وكان اليونان يعبدونه بوصفه إله جميع الصناعات المعدنية ، ثم أصبح عندهم إله جميع الصنائع اليدوية ، وكانوا يعتقدون أن البراكين هى مداخن حوانيته التى تحت الأرض . وكان من سوء حظه أن تزوج أفرديتى ووجد أن من أصعب الأمور أن تجتمع الفضيلة والجمال فى شخص واحد . ولما عرف هفستس بما كان بينها وبين أريس ، صنع للمحبين شركا وقع عليهما فى أثناء اجتماعهما . وهكذا انتقم الإله الأعرج لعرجه بأن عرض على زملائه الآلهة إلهى الحب والحرب مكبلين فى الأغلال ، وكان منظراً أثار ضحك الآلهة . وقال هرمس لأپلو — كما يحدثنا هومر :

« أى هرمس يابن زيوس ... هل يرضيك حقيقة أن تنام على فراش واحد بجانب الإلهة أفرديتى ، ولو كنت مكبلا بالأغلال الثقال ؟ » فأجابه الرسول(*) يقول : أيها الإله أپلو ؛ ليت هذا يكون ، وليتنى أكبل بثلاثة أمثال هذه الأغلال التى لا أجد منها خلاصا ، وأن تشاهدونى أنتم أيها الآلهة — نعم

(*) يقصد هرمس لأنه رسول الآلهة . (المترجم)

والإلهات كلها أيضاً — إن استطعت أن أنام إلى جوار أفروديتى الذهبية[٣٠] » .

حسبنا هذا عن هفستس ؛ أما إزيس (المريخ) فلم يكن يمتاز بالذكاء أو الدهاء ؛ وكانت صناعته الحرب ، وحتى سحر أفروديتى ومفاتنها لم تكن تثير فيه النشوة التي يثيرها التقبيل الذى كان شهوة وغريزة فيه . ويسميه هومر « نقمة صبت على البشر » ، ويصف لنا وهو مغتبط كيف ألقته أثينا على الأرض بضربة حجر ، ويقول إنه « وهو نائم قد غطى سبعة أفدنة[٣١]» . هذا أريس أما هرمس (ميركرى أو عطارد) فأكثر منه طرافة . فقد كان فى بادئ أمره حجراً ، وعبادته مستمدة من عبادة الحجارة المقدسة ؛ ولا تزال المراحل التى مر بها ظاهرة واضحة ، فقد صار فى المرحلة الثانية الحجر الطويل الذى يوضع فوق المقابر ، أو الروح (الديمون) الكامنة فى هذا الحجر ؛ ثم صار بعدئذ حجر الحدود أو إلهها ، يحدد الحقول ويحرسها ، وإذ كان عمله فيها فضلا عن تحديدها وحراستها هو توفير الخصب لها ، فقد صار قضيب الرجل رمزاً من رموزه . ثم أصبح فيما بعد العمود — ذا الرأس المنحوت ، والجسم غير المنحوت ، وعضو التذكير البارز — الذى كان يوضع أمام بيت كل أسرة ذات شأن فى أثينة[٣٢] . وسنرى كيف كان بتر هذه الأعمدة عشية الحملة على سرقوسة السبب المباشر لهلاك ألقبيادس وخراب أثينة . وهو إلى هذا كله إله المسافرين ، وحامى المنادين ، وعصبهم من أحب شعائره إليه . وقد أصبح بوصفه إله المسافرين إله الحظ ، والتجارة ، والدهاء ، والكسب ، ومن ثم أصبح مخترع المكاييل والموازين ، وحارسها ، كما أصبح الملاك الراعى للحانثين والمختلسين واللصوص[٣٣] . وهو نفسه بشير ونذير يحمل الرسائل والأوامر بين الآلهة الأولمبية أو بينها وبين البشر ، وهو يسير على خفين مجتمعين بسرعة الريح الغاضبة العاصفة ، وتكسبه هرولته ليناً ورشاقة ، وتهيئه لأن يتخذ الصورة التى يظهر بها فى تمثال پركستليز . وهو بوصفه شاباً سريع العدو قوى الجسم ، راعى الرياضيين ونصيرهم ، ونجد صورته التى تظهر

فيها رجولته كاملة مكانا لها فى كل مكان للتدريب العضلى[٣٤] . وإذ كان هو المنذر والمبشر فقد كان إله الفصاحة ، وإذ كان الشارح السماوى فقد أصبح رأس عدد كبير من الشراح والمفسرين . وتصف إحدى الترانيم « الهومرية » كيف مد أوتاراً على صدفة سلحفاة واخترع بذلك قيثارة . ثم يحين الوقت الذى يسترضى فيه أفروديتى فيستولدها ، كما يخبرنا القصاصون ، خنثى (هرمفرديتى Hermaphrodite) ناعم الجسم يرث منهما مفاتنهما ويشتق اسمه من اسميهما .

ومن الخصائص التى امتازت بها بلاد اليونان أن كان لها فضلا عن إلهه العفة والبكورة والأمومة ، إلهة للجمال والحب ، وما من شك فى أن أفروديتى كانت فى مواطنها الأولى بالشرق الأدنى ، وفى قبرص موطنها نصف الشرقى ، كانت فى هذه المواطن أول الأمر إلهة أمًّا ؛ ولقد ظلت طوال عهدها ذات صلة وثيقة بالتوالد والإخصاب فى الممالك النباتية والحيوانية والبشرية بأجمعها ، فلما أن تقدمت الحضارة وازداد الأمن ولم تعد للناس حاجة بكثرة المواليد ، تركت حاسة الجمال حرة طليقة تجد فى النساء فيما غير قيم التناسل الكثير ، ومن ثم لا تقتصر أفروديتى على أن تكون المثل الأعلى للجمال بل تصبح إلهة اللذائذ الجنسية بجميع أنواعها . وعبدها اليونان فى صور مختلفة : فهى فى صورة أفروديتى أورانيا — السماوية — ربة الحب العذرى أو المقدس ، وفى صورة أفروديتى بندموس Pandemos — الشعبية — إلهة الحب الدنس بكافة أنواعه ، وفى صورة أفروديتى كليبيجوس Kallipyges فينوس ذات الردفين الجميلين . وقد أقامت الموسات فى أثينة وكورنثة هياكل لها ، واتخذتها راعية لهن ونصيرة . وكانت بعض المدن فى بلاد اليونان تحتفل بالأفروديسيا عيدها العظيم فى أول شهر إبريل ، وفيه كانت تطلق حرية الاختلاط الجنسى لكل من شاء[٣٧] . وكانت هى إلهة الحب لأهل الجنوب ذوى الشهوات الجنسية والعواطف الثائرة ، وهى المنافسة القديمة لأرتميس إلهة الحب عند أهل الشمال الباردين الصيادين ، وقد جعلتها الأساطير

ـ التي لا تكاد تقل سخريتها عن سخرية التاريخ ـ زوجة هفستوس المقعد ، ولكنها تروح عن نفسها بالاتصال بأريس ، وهرمس ، وپوسيدن ، وديونيسس وبكثيرين من الآدميين مثل أنكيسيز وأدنيس(*) . وقد أهدى إليها پاريس في مباراة بينها وبين هيرا التفاحة الذهبية جائزة الجمال ، ولكن لعلها لم تكن جميلة بحق إلا بعد أن أعاد پركستليز تصويرها ، وخلع عليها ذلك الجمال الذي جعل بلاد اليونان تغفر لها جميع خطاياها .

ومن واجبنا أن نضيف إلى كبار الآلهة الأولمبية من أبناء زيوس الشرعيين نهم وغير الشرعيين أخته هيرا إلهة البيت ، وأخاه پوسيدن المشاكس . وكان هذا الإله يماثل عند اليونان نپتون عند الرومان يرى وهو آمن على نفسه في مملكته المائية أنه ند زيوس وقرينه ؛ وحتى الأمم التي تعيش في داخل القارة بعيدة عن البحر كانت تعبده لأنه لم يكن الحاكم المسيطر على البحر فحسب ، بل كان المسيطر أيضاً على الأنهار والعيون ، وكان هو الذي يهدي المجاري العجيبة التي تسير تحت الأرض إلى طرقها ، والذي يحدث الزلازل بأمواج المد[٣٩] . وكان الملاحون اليونان يقيمون له الصلوات ويشيدون الهياكل على ألسنة الأرض الخطرة الممتدة في البحار ليتقوا بها غضبه .

ويشيدون هناك آلهة أقل من هذه شأناً حتى على جبل أولمپس ، لأنه تجسيد المعاني المجردة لم يكن يقف عند حد . فمن هذه هستيا (وهي فستا عند الرومان) إلهة

(*) ليست أسطورة أدنيس إلا صورة أخرى من موضوع الإنبات الكثير الصور ، ونقصد بالإنبات موت التربة وبعثها في كل عام . وقد شغفت بهذا الشاب الوسيم كل من أفروديتي وپرسفوني إلهتي الحب والموت . وحسد أريس أرتميس على حظوته لدى أفروديتي فتنكر في صورة خنزير بري وقتله . وولدت من دم أدنيس شقائق النعمان ، ومن أحزان أفروديتي أنهار من الشعر ؛ وأقنع زيوس الإلهتين أن تقسما بينهما وقت أدنيس والتفاته ، فيبقى نصف العام مع پرسفوني في هاديز (الجحيم) ، ثم يعود إليها في النصف الثاني حياته الأرضية وحبه الدنيوي . وكان الفينيقيون والقبرصيون والأثينيون يحتفلون بموت أدنيس فيقيمون له عيد الأدونيا ، فكانت النساء يحملن صورة الرب ؛ (لأن هذا هو معنى لفظ أدنيس) . ويندبن موته بأعلى أصواتهن ثم يحتفلن احتفال النصر ببعثه[٣٨] .

الموقد وناره المقدسة ، ومنها إيريس Iris (قوس قزح) ورسول زيوس في بعض الأحيان ، ومنها هيبي Hebe إلهة الشباب ؛ وإيليثيا التي تعين النساء على الوضع ، ومنها ديكي Dike أو العدالة ، ومنها تيكي Tyche الفرصة ؛ وإيروس Eros الحب الذي جعله هزيود خالق العالم والذي سمته سافو « مذيب الأضلاع ، الحلو — المر ، الوحش الضاري العنيد »[٤٠] . وكان هيمنيوس Hymeneus ، نشيد الزواج ؛ وهپنوس Hypnos النوم ؛ وأنيروس Oneiros الأحلام ؛ وجيراس Geras الشيخوخة ؛ وليثى Lethe النسيان ؛ وثناتوس Thanatos الموت وغيرها وغيرها مما يخطئه الحصر . وكانت لهم تسع إلهات للفن تلهم الفنانين والشعراء : كليو Clio للتاريخ ، ويوتربى Euterpe للشعر الغنائي الذي يوقع على المزمار ؛ وثاليا Thalia للمسرحيات الهزلية وشعر الرعاة ؛ وملپوميني Melpomene للمآسي ؛ وترپسكوري Terpsichore للرقص المصحوب بالغناء وللغناء نفسه ، وإراتو Erato للشعر الغزلي والهزلي ؛ وپولمنيا Polymnia للترانيم ؛ وأورانيا Urania للفلك ، وكليوپي Calliope للملاحم الشعرية . وكانت لهم ثلاث إلهات للرحمة لها اثنا عشر تابعاً هي الساعات . وكان من هذه الآلهة الصغار نمسيس الذي يوزع الخير والشر على الناس ، ويرسل الدمار إلى كل من يرتكب جريمة الهبريس hybris — الزهو في أيام الرخاء . وكان منها الإرينيات Erinnyes إلهات الغضب الرهيبة التي لا تترك ظلماً إلا انتقمت له . وكان اليونان يطلقون عليها اسم اليومنيدات Eumenides أي مريدات الخير تجملا منهم لها ودرءاً لشرها . وآخر ما نذكر من آلهتهم الموير اي Moirai أي ربات الأقدار والحظوظ اللائي كن ينظمن شئون الحياة تنظيما لا مرد لحكمهن فيه ، ويتصرفن على حد قول البعض في حظوظ الآلهة والآدميين على السواء . وعند هذا الحد من التفكير يقف الدين اليوناني ثم ينتقل بعده إلى العلم الطبيعي وإلى القانون .

ولقد أبقينا إلى آخر هذا السجل أكثر الآلهة اليونانية إثارة للتعب ،

وأحبها إلى الشعب ، وهو إله يصعب علينا كل الصعوبة أن نحدد مكانه بين هاته الآلهة . ذلك هو ديونيسس الذى لم يقبل بين آلهة أولمپس إلا فى أخريات أيامه . ذلك أنه كان فى أول الأمر من آلهة تراقية ، قبل أن تهبه تلك البـلاد إلى اليونان . وكان فى موطنه الأصلى إله الشراب المعصور من الشعير ، وكان اسمه فيها سبزيوس Sabazius ، فلما جاء بلاد اليونان أصبح إله الخمر ، ومغذى الكروم وحارسها . وكان فى بادئ الأمر إلهاً للخصب ، ثم أصبح إله السُّكْر ، وانتهى أمره بأن صار ابن الله الذى مات لينجي البشر . واختلطت عدة صور وأقاصيص بعضها ببعض لتتكون منها أسطورته ، فكان اليونان يتخيلونه فى صورة زجريوس Zagreus أى « الطفل المقرن » ، الذى ولد لزيوس من أخته پرسفونى . وكان أحب أبناء زيوس إليه ، ويجلس إلى جواره على عرشه فى السماء . ولمـا حسدته هيرا على منزلته وأغرت الجبابرة بقتله ، بدله زيوس بماعز ثم بثور ليخفيه عن الأنظار . ولكن الجبابرة قبضوا عليه وهو فى هذه الصورة الثانية ، وقطعوا جسمه إرباً ، سلقوها فى قدر . وفعلت به أثينا فعل ترلونى Trelawnay ، فأنقذت قلبه وحملته إلى زيوس ؛ وأعطاه زيوس إلى سميلى Semele فحملت به وولدت الإله مرة أخرى وسمى بعد مولده ديونيسس(*) .

وكان الحزن على موت ديونيسس والاحتفال والسرور ببعثه أساس طقوس دينية واسعة الانتشار بين اليونان . فقد كانت النساء اليونانيات يصعدن التلال

(*) وقد فسر ديودور الصقلى من زمن بعيد يرجع إلى عام ٥٠ ق . م هذه القصة على أنها أسطورة من أساطير الإنبات فقال إن زجريوس ، الكرم ، هو ابن دمتر ، الأرض ، بعد أن لقحها زيوس ، المطر . ويقطع ، أى يشذب ، الكرم كما يتقطع الإله ليحيا حياة جديدة ، ويغلى عصير العنب ليكون نبيذاً . ويولد الكرم مولداً جديداً فى كل عام ، بعد أن يستمد غذاءه من المطر(٤١) وقد وجد هيرودوت بين أسطورتى ديونيسس وأوزيريس من أوجه الشبه الكثيرة ما جعله يجمع بين الإلهين فى مقاله الذى يعد من أول ما كتب من المقالات فى مقارنة الأديان(٤٥)

فى فصل الربيع حين تزهر الكروم ليقابلن الإله حين يولد من جديد . وكن يقضين يومين كاملين يحتسين فيهما الخمر بلا حساب وكن يرين كما يرى السكيرون غير المتدينين فى هذه الأيام أن قليلة العقل من لا تفقد عقلها من الشراب ، وكن يسرن فى موكب عجاج تقودهن ميندات Maends أو نساء ذاهلات العقل مشغوفات بديونيسس ؛ وكن يرهفن آذانهن لسماع قصته التى يعرفنها حق المعرفة ، وما لقيه إلههن من عذاب وموت وبعث ؛ وكن فى أثناء احتسائهن الخمر ورقصهن يهتجن اهتياجا يتحللن فيه من جميع القيود . وكان محور هـــذا الاحتفال وأهم ما فيه أن يمسك النساء بماعز أو ثور أو رجل فى بعض الأحيان (يرين أن الإله قد تقمصه) ويمزقنه إربا وهو على قيد الحياة ، إحياء لذكرى تمزيق ديونيسس ؛ ثم يشربن دمه ، ويأكلن لحمه يتخذنه عشاء ربانيا مقدسا ، معتقدات أن الإله سيدخل بهذه الطريقة إلى أجسامهن ويستحوذ على أرواحهن . وكن فى هذه الحماسة القدسية(*) يؤمن بأنهن سيصبحن هن والإله شيئاً واحدا ، وأنهن سيظفرن بالامتزاج معه امتزاجا صوفياً . ولهذا كن يتسمين باسمه فيطلقن على أنفسهن اسم البكوى Bacchoi ويعتقدن أنهن لن يمتن بعدئذ أبداً ، أو كن يسمين الحالة التى هن فيها الإكستسيز ecstases (النشوة) أى خروجهن من أرواحهن ليلاقين ديونيسس ويتحدن معه . وبهذا كن يشعرن بأنهن قد تحررن من أجسامهن ؛ وحصلن على قوة اختراق حجب الغيب فأصبحن قادرات على التنبؤ ، وصرن فى واقع الأمر إلهات . تلك هى الطقوس الانفعالية التى انتقلت من تراقية إلى بلاد اليونان كأنها وباء دينى شبيه بأوبئة العصور الوسطى ، ينتزع اقليما فى أثر إقليم من آلهة أولمبس الباردة الواضحة معبودات الدولة الرسمية ليُحِل محلها دناه طقوسا تشبع شهوة الاهتياج والتحرر من القيود ، والحنين إلى التحمس

(*) ولفظ الحماسة الإنجليزى enthusiasm مشتق من إنثيوس Entheos « إله فى الداخل » وكان هذا اللفظ يعنى فى أول الأمر تملك إله جسم إنسان .

والاستحواذ والتصوف والغموض . وقد حاولت دلفى أن تبعد عنها هذه الطقوس الدينية ، وحاول ذلك حكام أثينة أيضا ، ولكن دلفى عجزت عن إبعادها عجز حكام أثينة . وكل ماكان فى مقدورها ومقدورهم هو إدخال ديونيسس فى زمرة أرباب أولمپس ، وصبغه بالصبغة اليونانية والإنسانية ، والاحتفال بعيده احتفالا رسمياً ، وتبديل مرح عباده من نشوة الخمر الجنونية بين التلال إلى المواكب الفخمة والأغانى القوية والمسرحية ذات الروعة والجلال التى تمثل فى عيد ديونيزيا العظيم . وقد ضموا ديونيسس وقتاً ما إلى أپلو ، ولكن أپلو استسلم آخر الأمر لوارث ديونيسس وغالبه ألا وهو المسيح .



الفصل الثالث

أسرار خافية

لقد كان فى دين اليونان ثلاثة عناصر وثلاث مراحل رئيسية : عنصر أرضى ومرحلة أرضية ، وعنصر أولمبى ومرحلة أولمبية ، وعنصر صوفى ومرحلة صوفية . وأكبر الظن أن أول العناصر وأولى المراحل من أصل بلاسجى – ميسينى ، وأن ثانيهما وثانيتهما من أصل آخى – دورى ، وثالثهما وثالثتهما من أصل مصرى – أسيوى . وكانوا يعبدون فى المرحلة الأولى آلهة تحت الأرض وفى الثانية آلهة سماوية وفى الثالثة آلهة بعثت بعد الموت . وكانت العبادة الأولى أكثر انتشاراً بين الفقراء ، والثانية بين الأغنياء ، والثالثة بين الطبقة المتوسطة – الدنيا . وسادت العبادة الأولى قبل العصر الهومرى والثانية فى أثنائه والثالثة بعده . ولم يكد يحل عصر الاستنارة فى أيام بركليز حتى كان التخفى أقوى العناصر فى الدين اليونانى . والتخفى عند اليونان احتفال سرى يكشف فيه عن رموز مقدسة ، وتقام فيه طقوس رمزية ، لا يتعبد بها إلا المطلعون على أسرارها . وكانت هذه الطقوس فى العادة تمثل عذاب إله من الآلهة وموته وبعثه ، أو تحيى ذكرى هذا العذاب والبعث والموت بطريقة شبه مسرحية ، وتشير إلى موضوعات زراعية قديمة وإلى ضروب من السحر ، وتعِدُ أولئك المطلعين حياة أبدية خالدة .

وكانت أماكن كثيرة فى بلاد اليونان تمارس هذه الطقوس الخفية ، ولكن ما من مكان فيها كان يضارع إلوسيس من هذه الناحية . وكان ما فيها من الطقوس موروثاً من عهد ما قبل الآخيين ، ويبدو أنها كانت فى الأصل احتفالا فى الخريف بالحرث والزرع[٤٣] . فقد كان ثمة أسطورة تقول إن دمتر أرادت أن تكافئ أهل أتكا لعطفهم عليها فى تجوالها فأقامت فى إلوسيس أعظم هيكل من

هياكلها ، ثم هدم هذا الهيكل وأعيد بناؤه مراراً كثيرة خلال تاريخ اليونان . ودخل عيد دمتر فى أيام أثينة صولون وبيسستراتس وبركليز ، وازداد فيها عظمة وفخامة ، وكان طلاب الأسرار الصغرى التى تقام فى فصل الربيع بالقرب من أثينة يتطهرون أولا بأن يغمروا أنفسهم فى ماء إليسس Illisus ، فقد كان الطلاب وغيرهم من الناس يحجون سيراً على الأقدام فى وقار وجزل مدى أربعة عشر ميلا فى الطريق المقدس إلى إلوسيس ، يحملون فوق رؤوسهم صورة الإله الأرضى ياكوس Iacchus حتى إذا ما وصل الموكب إلى إلوسيس فى ضوء المشاكل ووضع صورة الإله فى الهيكل وسط مراسم التعظيم والإجلال ، قضوا ما بقى من اليوم فى الرقص والغناء المقدسين .

تلك هى الأسرار الصغرى ، أما الأسرار الكبرى فكانت تدوم أربعة أيام أخرى ، وتبدأ بإدخال من تطهروا فى الأسرار الصغرى بالاستحمام والصوم ، أما الذين مارسوا هذه الطقوس فى مثل ذلك الموعد من العام الماضى فكانوا يؤخذون إلى بهو الاندماج فى الجماعة السرية ، حيث يكون الاحتفال السرى . وهناك يفطر المبتدئون الصائمون بأن يتناولوا عشاء ربانيا مقدساً إحياء لذكرى دمتر ، ويشربوا مزيجاً مقدساً من دقيق الحنطة والماء ، ويأكلوا كعكا مقدساً . ولسنا نعلم أى طقوس خفية كانت تحدث فى ذلك المكان ، فذلك سر ظل خافياً خلال التاريخ القديم كله ، وكان محرماً على أى إنسان أن يبوح به وإلا تعرض للقتل . ولقد نجا إسكلس التقى نفسه من حكم الإعدام بأعجوبة لأنه كتب بضعة أسطر ظُن أنها قد تكشف السر . وكل ما نستطيع أن نقوله أن الاحتفال كان عبارة عن مسرحية رمزية لها أثر فى إحياء مسرحية ديونيسس ، وأكبر الظن أن موضوعها كان اختطاف بلوتو لبرسفونى ، وتجوال دمتر الحزينة وعودة الفتاة العذراء إلى الأرض ، والكشف لأتكا عن أسرار الزراعة . وكانت خلاصة الاحتفال هى زواج خفى بين كاهن يمثل زيوس وكاهنة تمثل دمتر ،

وكان هذا الزواج الرمزى يثمر ثمرته بسرعة سحرية عجيبة ، فقد كان يعقبه بعد قليل — على ما ينقله لنا المؤرخون — إعلان صريح بأن « سيدتنا قد وضعت غلاماً مقدساً » ، ثم تعرض على الناس سنبلة من الحب ترمز إلى الثمرة التى تمخضت عنها دمتر — نتاج الحقول ، ثم يؤخذ العابدون فى ضوء المشاعل الشاحب إلى كهوف مظلمة تحت الأرض تمثل الجحيم ، يرفعون بعدها إلى حجرة عليا تتلألأ فيها الأنوار وتمثل ، على ما يظهر ، مسكن الصالحين ؛ وفيها تعرض عليهم وسط مظاهر التعظيم والتكريم الآثار أو الصور والتماثيل المقدسة التى ظلت إلى تلك الساعة مخفية عنهم ، ويؤكد العارفون أن هؤلاء المبتدئين كانوا وهم فى نشوة هذا الإلهام المقدس يحسون بوحدتهم هم والإله ووحدة الإله والروح ، وأنهم قد انتشلوا من أوهام الفردية ، وأدركو طمأنينة الاندماج فى الألوهية(٤٤) .

وفى عصر بيسستراتس دخلت أسرار ديونيسس فى الطقوس الإلوسينية عن طريق عدوى دينية إذا صح هذا التعبير ، وذلك أن الإله باكوس قد وحد هو وديونيسس ، وقيل إنه هو ابن پرسفونى ، وطغت خرافة ديونيسس زجريوس على أسطورة دمتر(٤٥) . ولكن الفكرة الرئيسية فى هذه الطقوس نفسها ، وجوهر هـــذه الفكرة هو أن الموتى يمكن أن تتجدد حياتهم كما أن البذرة تولد مرة ثانية ، ولم يكن يقصد بحياتهم هذه حياة الأشباح النكدة فى الجحيم ، بل يقصد بها حياة ملؤها السعادة والطمأنينة . ولما زال كل ما عدا هذه الفكرة من الدين اليونانى ، ظل هذا الأمل يعمر القلوب وامتزج فى الإسكندرية بعقيدة الخلود المصرية التى هى أصل العقيدة اليونانية ، فكان هو السلاح الذى غزت به المسيحية العالم الغربى .

وجاءت إلى بلاد اليونان فى القرن السابع طقوس دينية صوفية أخرى من مصر وتراقية ، وتساليا ، وكانت هذه الطقوس أجل خطراً فى تاريخ اليونان من طقوس إلوسيس الخفية نفسها . ونجد فى بداية هذه الطقوس فى عصر ركاب

السفينة أرجوس شخصاً غامضاً ولكنه مع ذلك جذاب فتان ، ذلك هو أرفيوس التراقى الذى يصفه ديودور بأنه لم يكن يدانيه أحد ممن نعرف أسماءهم من الرجال فى الثقافة والموسيقى والشعر[٦] ، ونرجح كثيراً أن أرفيوس هذا كان شخصاً حقيقياً ، وإن كان كل ما نعرفه عنه يمت بسبب إلى الأساطير . فهم يصوررونه لنا فى صورة الرجل الظريف ، الشفيق ، المفكر ، العطوف ، وهو تارة موسيقى ، وتارة كاهن زاهد من كهنة ديونيسس . وكان بارعا فى العزف على القيثارة وفى الغناء عليها براعة افتتن بها سامعوه حتى كادوا أن يتخذوه إلها يعبدونه .

وكانت الوحوش إذا سمعت صوته خرجت عن طبيعتها واستأنست ، بل إن الأشجار والصخور كانت تغادر مواضعها لتستمع إلى نغمات قيثارته . وتزوج أرفيوس من يربديس الحسناء ، وكاد يجن حين قضت نحبها . فما كان منه إلا أن قفز إلى الجحيم وسحر پرسفونى بقيثارته ، وسمح له أن يعيد يربديس إلى الحياة على شريطة ألا ينظر إليها حتى يصلا إلى سطح الأرض . لكنه لم يطق صبراً على هـذا وخشى ألا تكون من ورائه ، فنظر إلى الوراء عند آخر حاجز بينـه وبين سطح الأرض ، فرآها تختطف مرة أخرى ويقذف بها إلى العالم السفلى . وحقدت عليه نساء تراقية لأنه أبى أن يسلى نفسه معهن فمزقنه إربا فى نشوة من نشواتهن الديونيسية . وكفر زيوس عن ذنبهن بأن جعل قيثارة أرفيوس كوكبة من نجوم السماء(*). ودفن رأســه وهو لا يزال يغنى فى لسبوس فى شق صار فيما بعد مهبط وحى . ويقولون إن البلابل فى هذا المكان كانت أرق وأحلى صوتاً منها فى أى مكان آخر[٧] .

وقيل فى العصور المتأخرة إنه خلف وراءه كثيراً من الأغانى الدينية ؛ وليس يبعيد أن يكون هذا صحيحاً ، وتقول الرواية اليونانية المتواترة إن عالماً يدعى أونومكريتوس Onomacritus نشر هذه الأغانى فى عام ٥٢٠ ، كما نشرت

(*) هى المعروفة فى الفلك بكوكبة النسر الواقع . (المترجم) .

القصائد الهومرية قبل ذلك بجيل من الزمان ؛ وفى القرن السادس أو قبله كانت هذه الأغانى قد أصبحت ذات طابع مقدس ، وقيل إنها قد أوحيت إلى صاحبها كما أضحت أساساً لطقوس دينية صوفية ذات صلة بطقوس ديونيسس ، ولكنها تعلو عليها كثيراً فيما تنطوى عليه من عقائد دينية وفى طقوسها وأثرها الخلقى . فأما العقائد الدينية فقد كانت فى جوهرها توكيداً لعذاب ديونيسس زجريوس الابن المقدس وموته وبعثه ، كما كانت تؤكد أيضاً أن الناس جميعاً سوف يبعثون فى حياة مستقبلة يثابون فيها على أعمالهم أو يعاقبون عليها . وإذ كان الاعتقاد السائد أن الجبابرة الذين قتلوا ديونيسس هم الذين تناسل منهم الآدميون ، فقد كانت البشرية كلها ملوثة بشىء من الخطيئة الأولى ، وكان عقابها على هذه الخطيئة أن الروح تسجن فى الجسم كأنها فى سجن أو قبر ، ولكن فى وسع بنى الإنسان أن يعزوا أنفسهم بأن يعرفوا أن الجبابرة قد أكلوا ديونيسس ، وأن كل إنسان ينطوى لهذا السبب فى روحه على جزء من الألوهية الخالدة ، وكان عباد أرفيوس يتناولون فى عشاء ربانى جماعى لحم ثور نيئاً ، يمثل فى اعتقادهم ديونيسس ، إحياء لذكرى قتل الإله وأكل لحمه وامتصاصاً للجوهر المقدس من جديد[٤٨] .

ويقول علم اللاهوت الأرفى إن الروح تذهب بعد الموت إلى الجحيم حيث يحاسبها آلهة العالم السفلى على أعمالها ، وكانت الترانيم والطقوس الأرفية ترشد المؤمنين إلى ما يجب أن يتبعوه فى هـــذا الحساب النهائى الشامل ، شأنها فى هذا شأن كتاب الموتى عنـــد قدماء المصريين . فإذا حكم على الميت بأنه مذنب عوقب عقاباً شديداً . فمن قول إن هـــذا العقاب أبدى[٤٩] وهو الذى أخذت منه فكرة النار فيما بعد ، وهناك فكرة أخرى تقول بالتناسخ أى أن الروح تولد مرة بعد مرة لتحيا حياة أســـعد من حياتها الأولى أو أشقى منها حسب طهارتها الأولى أو عدم طهارتها ، ويتكرر هذا المولد مرة بعد مرة حتى تتطهر الروح من ذنوبها تطهراً تاماً فيسمح لها بالدخول فى جزائر المنعمين[٥٠] . وهناك قول

ثالث يبعث الأمل فى قلوب الموتى وخلاصته أن العقاب الذى يلقاه الميت فى الجحيم قد ينتهى إذا كفر الإنسان عن ذنبه قبل موته أو كفر عنه أصدقاؤه بعد موته ، وبهذه الطريقة نشأت عقيدة التطهير وصكوك الغفران ؛ ويصف أفلاطون وهو مغضب غضباً لا يكاد يقل عن غضب لوثر Luther بيع هذه الصكوك فى أثينة فى القرن الرابع قبل الميلاد فيقول :

« يقرع المتنبئون المتسولون أبواب الأغنياء ويدخلون فى روعهم أنهم قد وهبوا القدرة على أن يكفروا لهم خطاياهم أو خطايا آبائهم بضروب من التضحية والرُّقى ... ثم يخرجون من حقائبهم مجموعة ضخمة من الكتب بخط موسيوس Musaeus أو أرفيوس ... يمارسون منها طقوسهم ، ويقنعون الأفراد ومدناً بأكملها أن التوبة من الذنوب والتكفير عنها يتمان بتقريب القرابين والقيام بضروب التسلية (الاحتفالات) التى يشغلون بها ساعات الفراغ والتى يتقدمون بها إلى الأحياء وإلى الموتى على السواء ، وهم يسمون العمل الأخير (الاحتفالات) طقوساً خفية ، ويدعون أنها تنجينا من عـــذاب النار ، فإذا أغفلناها فلا يعلم أحد ماذا يصيبنا من عذاب[٥١] » .

على أن الأرفية كان فيها بالرغم من هذا اتجاهات مثالية هى التى أدت إلى الفلسفة الأخلاقية والرهبنة فى المسيحية . ذلك أن ما كان يعزى إلى آلهة أولمبس من انحلال خلقى واستهتار قد حل محله قانون صارم للسلوك ؛ وثل عرش زيوس الجبار شيئاً فشيئاً وحلت محله شخصية أرفيوس الظريفة بنفس الطريقة التى ثل بها عرش يهوه ليحل محله المسيح فيما بعد . ودخلت فى التفكير اليونانى فكرة الخطيئة والضمير والنظرة الثنائية إلى الجسم والروح ، التى تقول إن الجسم خبيث وإن الروح مقدس ، وصار إخضاع الجسم أهم أغراض الدين كما صار شرطاً لخلاص الروح . ولم يكن لطائفة الإخوان الأرفيين نظام دينى أو حياة خاصة بمعزل عن حياة الناس ، وكل ما كان يميزهم من غيرهم ثيابهم البيضاء وامتناعهم عن أكل

اللحم ، وتقشفهم إلى درجة لم تكن مما يتفق عادة مع الحياة اليونانية ، وملاك القول أنهم كانوا يمثلون فى اليونان إصلاحاً كإصلاح المتطهرين من عدة وجوه .

وكان لهـذه الطائفة أثر بعيد طويل ؛ ولعل الفيثاغوريين قد أخذوا منها طعامهم ولباسهم ونظريتهم فى تقمص الأرواح . ومما هو جدير بالذكر أن أقدم ما لدينا من الوثائق الأرفية قد وجدت فى جنوبى إيطاليا(٥٢) . وكان أفلاطون يعتقد بنظريتها فى تعارض الجسم والروح ، وبنزعتها الزمتية ، وبأملها فى الخلود ، وفى وسعنا أن نرجع بعض ما فى الرواقية من زهد ومن وحدة الله والكون إلى أصل أرفى ، وقد كان فى حوزة رجال الأفلاطونية الجديدة بالإسكندرية مجموعة كبيرة من الكتابات الأرفية اتخذوها أساسا للاهوتهم وطقوسهم وتصوفهم . كذلك أثرت فكرة النار والمطهر والجنة ، وتعارض الجسم والروح ، والابن المقدس الذى قتل ثم ولد من جديد ، والعشاء الربانى وهو أكل جسم الإله ودمه وقدسيته ، أثرت هذه كلها من قرب أو من بعد فى المسيحية التى كانت هى نفسها دينا ذا طقوس ومراسم خفية ، فيها الكفارة والأمل والوحدة التصوفية وتحرر الروح ، ولا تزال الأفكار والعبـادات التى تشتمل عليها الديانة الأرفية منتشرة بيننا فى هذه الأيام .

الفصل الرابع

العبادات

لم تكن الطقوس الدينية اليونانية أقل تنوعا واختلافاً من الآلهة التى كانت تحتفل بها وتعظمها : فقد كان للآلهة الأرضية طقوس حزينة يُسَكَّن بها غضبها ويُتَّقى شرها ، وكان للآلهة الأولمبية طقوس سارة كلها ترحيب بها وثناء عليها . ولم تكن هذه أو تلك تحتاج إلى كهنة يقومون بها . فقد كان الأب يقوم مقام الكاهن فى الأسرة ، وكان الحاكم الأكبر يقوم مقامه فى الدولة . بيد أن الحيـــاة فى بلاد اليونان لم تكن حياة دنيوية كما يصفها المؤرخون ، بل كان للدين فيها شأن كبير فى كل مكان ، وكانت كل حكومة ترعى الطقوس الدينية الرسمية وترى أنها لا بد منها للنظام الاجتماعى والاستقرار السياسى . على أنه بينما كان الكهنـــة فى مصر وبلاد الشرق الأدنى يسيطرون على الدولة ، كانت الدولة فى بلاد اليونان هى التى تسيطر على الكهنة ، وكان لها الزعامة فى الشئون الدينية ، ولم يكن الكهنة سوى موظفين صغار فى الهياكل . كذلك كانت أملاك الكهنة ، عقاراً كانت أو نقوداً أو عبيداً ، يراجعها ويدير شئونها موظفون من قبل الدولة[٥٣] . ولم تكن هناك معاهد لتخريج الكهنة بل كان فى استطاعة أى إنسان أن يختار أو يعين كاهنا بلا جلبة أو مشقة إذا كان يعرف المراسم الدينية التى تتطلبها الآلهة ، وكان هذا المنصب فى كثير من الأحيان يتولاه من يؤدى له أكبر الأثمان[٥٤] . ولم تكن هناك طبقة كهان خاصة ، أو هيئة لهم جامعة ، ولم يكن بين كهنة أحد المعابد أو إحدى الدول وزملائهم فى معبد آخر أو دولة أخرى رابطة ما ، ولم يكن للدولة دين رسمى ، يستمسك به جميع أفرادها أو عقائد

ثابتة مقررة ؛ ولم يكن قوام الدين هو الإقرار بعقائد معينة ؛ بل كان قوامه الاشتراك فى الطقوس الرسمية[٥٦] ، وكان فى وسع أى إنسان أن يؤمن بما يشاء من العقائد على شريطة ألا يكفر بآلهة المدينة أو يسبها ، وملاك القول أن الدين والدولة كانا شيئاً واحداً فى بلاد اليونان .

ما مكان العبادة فيمكن أن يكون هو موقد الدار ، أو موقد البلدية القائم فى قاعة المدينة العامة ، ويمكن أن يكون شقاً فى الأرض يسكنه إله أرضى أو هيكلاً لإله أولمبى . وكان حرم الهيكل مكاناً مقدساً ، لا يعتدى عليه ، يجتمع فيه العابدون ، ويجد فيه اللاجئون مكاناً أميناً يحتمون فيه ولو كانوا ممن ارتكبوا أشنع الجرائم . ولم يكن الهيكل مكاناً لاجتماع المصلين بل كان بيت الإله ، ينصب فيه تمثاله ، ويوقد أمامه ضوء لا ينطفئ أبداً . وكثيراً ما كان الناس يعتقدون أن الإله هو التمثال نفسه ، ولذلك كانوا يعنون بغسله ، وكسوته ، وإحاطته بكثير من ضروب الرعاية ، وكانوا أحياناً يؤنبونه إذا أهمل أمرهم ، وكانوا يقصّون على من يستمع إليهم كيف تصبّب التمثال عرقا فى بعض الأحايين أو كيف بكى أو أغمض عينيه[٤٧] . وكان يحفظ فى سجلات الهيكل تاريخ أعياد الإله والحوادث الهامة فى حياة المدينة أو الجماعة التى تعبد الإله صاحب الهيكل ، وكان هذا التاريخ أول التواريخ اليونانية والمنبع الذى استمدت منه أولى أشكال الكتابات التاريخية .

وكان الاحتفال يتألف من موكب ، وأناشيد ، وقربان ، وأدعية ، يضاف إليها فى بعض الأحيان وجبة مقدسة ؛ وقد يشمل الموكب سحراً ، ومقنعات ، وجماهير من الممثلين يعملون مجتمعين ، ومسرحية تمثيلية . وكانت أهم أجزاء الطقوس فى معظم الأحيان تحددها العادات المألوفة ؛ وكانت كل حركة فيها ، وكل كلمة فى الترانيم أو الصلوات ، مدونة فى كتاب محفوظ عند الأسرة أو الدولة مقدس لديها ، لا يكاد يتغير فيه لفظ ، أو جزء من لفظ ، أو نغمة من النغمات

خشية ألا يحب الإله هذه البدعة أو ألا يفهمها . فقد تتغير اللهجات الحية ولكن لغة الطقوس تظل على حالها ، وقد لا يستطيع المتعبدون على مر الزمان أن يفهموا الألفاظ التي ينطقون بها[٥٨] ولكن النشوة التي يبعثها فيهم قدم العهد كانت تغنيهم عن الفهم . وكثيراً ما كان الاحتفال يبقى بعد أن ينمحي من ذاكرة المحتفلين كل شيء عنه ، ولا يبقى فيها حتى سبب هذا الاحتفال أو الباعث عليه . فإذا حدث هذا اخترعت أساطير جديدة تفسر قيامه ، فتتغير الأسطورة أو العقيدة وتبقى المراسم والطقوس ، وكانت الموسيقى عنصراً أساسياً لا غنى عنه في الاحتفال كله لأن الدين يشق على النفس من غير الموسيقى ، والموسيقى تنتج الدين كما ينتج الدين الموسيقى . ومن الهيكل وأناشيد الاحتفالات ، نشأ الشعر ، ونشأت القصائد التي ازدانت بها في الأيام الأخيرة عقائد أركلوكس القوية البذيئة ، وعواطف سافو الثائرة المستهترة ، وأشعار أنكريون الرقيقة الفاجرة .

وإذا ما وصل العابدون إلى المذبح — وكان موضعه عادة أمام الهيكل عملوا على اتقاء غضب الله أو كسب معونته بالتضحيات والصلوات . وكان في وسعهم أفراداً أن يقربوا إليه كل ما له قيمة لا يكاد يستثنى من ذلك شيء قط : — تماثيل ، أو نقوشاً ، أو أثاثاً ، أو أسلحة ، أو آنية ، أو مناضد ، أو ثياباً ، أو فخاراً ؛ فإذا لم يستطع الإله أن يستخدم هذه القرابين استخدمها الكهنة . أما الجيوش فقد كان في وسعها أن تهب الإله جزءاً من غنائمها ، كما فعل جنود أكسنوفون العشرة الآلاف في أثناء ارتدادهم[٥٩] . وكان في مقدور الجماعات أن تهبه ثمار الحقول أو الكروم أو الأشجار ؛ أو حيواناً يشتهي الإله طعمه وهو الكثير الحدوث ؛ وعند مسيس الحاجة كان يضحي بالآدميين أنفسهم ، فقد ضحى أجممنون مثلا بإفجينيا كي تهب الريح ؛ وذبح أخيل اثنى عشر من شباب طروادة على كومة حريق پتركلوس[٦٠] . وكان الضحايا الآدميون يقذف بهم من فوق صخور قبرص ولوكاس استرضاء لأپلو ، وآخرون يهدون إلى ديونيسس في

طشيوز وتندوس ؛ ويقال إن ثمستكليز ضحى ببعض أسرى الفرس يوم سلاميس[٦١] ؛ وكان الأسپارطيون يحتفلون بعيد أرتميس أورثيا Artemis Orthia بجلد بعض الشبان عند مذبحها جلداً كان يدوم فى بعض الأحيان حتى يقضى على المجلودين[٦٢] . وظل زيوس فى أركاديا يتقبل الضحايا البشرية حتى القرن الثانى بعد الميلاد[٦٣] . وكان إذا انتشر الوباء فى مساليا جىء بمواطن فقير وأطعم من بيت المال ، وألبس الثياب الكهنوتية ، وزين بالأغصان المقدسة ، وألقى من فوق صخرة ومن حوله يدعون أن يكفر بعقابه هذا عن سيئآت مواطنيه[٦٤] . وكان من عادة أهل أثينة إذا داهمهم القحط ، أو الطاعون ، أو غيرهما من الأزمات أن يقدموا للإله ، إما حقيقة وإما تمثيلا ، ضحية بشرية واحدة أو أكثر من واحدة تطهيراً للمدينة ؛ وكان يحدث مثل هذا فى كل عام فى عيد الثارجليا(*) Thargelia[٦٥] . وقد خففت هذه التضحيات البشرية على مر الزمن بأن قصر الضحايا على المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام ؛ وكانوا فوق هذا يخدرون بالخمور ، ثم استعيض عنهم آخر الأمر بالحيوانات . ولما أن رأى بلپيداس Belopidas القائد البثوتى فى الليلة السابقة لمعركة لوكترا (٣٧١ ق . م) حلماً ظن على أثره أنه يطلب إليه تضحية بشرية على المذبح تكون ثمناً للنصر ، نصحه بعض مشيريه أن يلبى الطلب ، وعارضه البعض الآخر وقالوا له : « إن هذا العمل الهمجى المجرد من كل معانى التقى والصلاح لا يمكن أن ترضى به الكائنات العليا أيا كانت ؛ وإن الجبابرة والمردة ليسوا هم حكام الأرض ، بل حاكمها هو أبو الآلهة والخلق عامة ، وإن من السخف أن يتصور الإنسان أرباباً وقوى عليا يسرها التقتيل والتضحية بالآدميين[٦٨] » .

(*) وكان هؤلاء الضحايا يسمون فارمكوى Pharmakoi فى أثينة وكان معنى هذا اللفظ فى أول الأمر « السحرة » . ومعنى فارمكون Pharmakon رقية سحرية ، ثم أصبح معناها عقارا شافيا[٦٦] . والعلماء مختلفون هل كان الفارمكوى يقتلون فى الواقع أو لا يقتلون ، غير أنا لا نكاد نشك فى أن القتل فى أول الأمر كان يحدث فعلا[٦٧] .

وإذن فقد كانت التضحية بالحيوان خطوة كبرى فى تطور الحضارة . وكانت الحيوانات التى سبقت غيرها فى هذا التطور فى بلاد اليونان هى الثيران والضأن والخنازير ، فكانت الجيوش المتحاربة تقدم قبل المعركة من الضحايا ما يتناسب مع رغبتها فى النصر ، وكان مكان انعقاد أية جمعية يطهر قبل انعقادها بالتضحية بخنزير . غير أن تقوى الناس لم تكن تقوى على طبيعتهم إذا حزبهم أمر خطير ، ولم يكن يصل من الضحية إلى الإله إلا عظامها وقليـــل من لحمها ملفوف بالدهن ، أما ما بقى منها فكان يترك للكهنة وللعابدين . وكان اليونان يبررون عملهم هذا بقولهم إن پروميثيوس Prometheus فى عصر الجبابرة قد لف ما يصلح للأكل من جسم الضحية فى جلدها ، ولف عظامها بالدهن وطلب إلى زيوس أن يختار ما يفضله منهما ، وإن زيوس اختار الدهن « بكلتا يديه » . نعم إن زيوس قد استشاط غضباً حين رأى أنه قد خدع ؛ ولكنه كان قد أتم الاختيار وكان عليه أن يرضى به ويصبر عليه إلى أبد الدهر(٦٩) . ولم تكن الضحية تقدم كلها لحمها وشحمها إلا للآلهة الأرضية ، وكان الحيوان كله فى هذه الحال يحرق فى محرقة عامة حتى يصير رمادا ؛ ذلك أن آلهة الأرض السفلى كان يخشى بأسها أكثر مما يخشى بأس الآلهة الأولمبية . ولم تكن وجبة عامة تعقب التضحية للإله الأرضى ، لأن هذا قد يغرى الإله بالخروج والاشتراك فى الوليمة . أما بعد التضحية للآلهة الأولمبية فقد كان العباد يأتون على الضحية كلها ، ولم يكونوا يفعلون هذا خوفا من الإله وتكفيراً عن ذنوبهم ، بل كانوا يفعلونه لأن من دواعى سرورهم أن يشتركوا فى الطعام مع الإله ، ويرجون أن تكون الصيغ السحرية التى ينطقون بها وقت الطعام قد نفثت فى الضحية حياة الإله وقوته ، وأن هاتين الحياة والقوة ستنتقلان بطريقة خفية إلى الآكلين معه .

وكذلك كان الخمر يصب فوق الضحية ، ويصب بعدئذ فى كؤوس العابدين ، فكأنهم بهذا كانوا يشربون مع الآلهة(٧٠) . وكانت فكرة الاشتراك المقدس

فى الوجبة الدينية هى الرابطة التى تربط هيئات الإخوان thiosol التى كان كثير من أصحاب الحرف والهيئات الاجتماعية يؤلفونها فى أثينة(٧١) .

وقد ظلت التضحية بالحيوانات منتشرة فى جميع أنحاء بلاد اليونان حتى قضت عليها المسيحية(٧٢) ، واستبدلت بها عن حكمة التضـحية الروحية والرمزية المعروفة بالقداس . وأصبحت الصلاة أيضاً إلى حد ما بديلا من التضحية حتى فى العصور الوثنية . وكان استبدال تسبيحات الحمد بالقرابين الدموية إصلاحا يشهد بالحذق لفاعليه ، فبهذه الوسيلة الهينة الرحيمة كان فى استطاعة الإنسان وهو المحوط بالمصادفات والمآسى فى كل خطواته أن يتأسى ويتقوى باستعانته بما فى العالم من قوى خفية .

الفصل الخامس

الخرافات

وكان بين قطبي الدين اليوناني العلوي والسفلي ، الأولمبي والأرضي ، بحر يزخر بالسحر والخرافات ، والأباطيل ؛ وكان من وراء العباقرة الذين سنشيد بذكرهم فيما يلي من صحائف هذا الكتاب ، كما كان من ورائهم ، جمهرة الشعب من الفقراء والسذج الذين لم يكن الدين في نظرهم إلا شراكا من الخوف لا سلما للآمال ؛ ولم يكن اليوناني العادي يكتفي بتصديق القصص التي تروي المعجزات كصعود منسيوس من بين الموتى ليحارب في مرثون ، أو تحويل الماء إلى خمر على يد ديونيسس[٧٣] ، ذلك أن أمثال هاتين القصتين تظهر عند جميع الشعوب ، وهي جزء من الشعر المباح المغتفر الذي ينير به الخيال دياجير الحياة العادية . بل إن في وسع الإنسان أن يذهب إلى أبعد من هـذا فيتغاضى عن حرص أثينة على أن تأوي فيها عظام ثسيوس ، وحرص اسپارطة على أن تستـرد من تيجيا Tegeo عظام أرستيز Orestes[٧٤] ، فقد يكون ما يعزوه الحكام لهذه الآثار من قدرة على فعل المعجزات جزءا من فن الحكم وأساليبه . أما الذي كان ينيخ بكلكله على اليوناني الصالح فهو الأرواح المحتشدة من حوله التي يعتقد أنها متأهبة على الدوام لأن تعرف مخبآته ، وأن تتدخل في شئونه وتلحق به الأذى ، وأن في مقدورها أن تفعل به هذا كله . وكانت هـذه الشياطين لا تنفك تعمل لأن تتقمصه ، وكان عليه أن يحذرها ويتقي أذاها على الدوام ، وأن يقيم الاحتفالات السحرية ليطردها بها .

وأوشكت هذه الخرافات أن تكون علماً من العلوم الطبيعية ، وكانت إلى حد ما سوابق لنظرية الجراثيم التي نعرفها اليوم . فقد كان معنى الأمراض جميعها عند اليوناني أن المريض قد حل فيه روح غريب ، وأن من يلمس الشخص

المريض يعدى بقذارته أو « يلبسه ذلك الروح الغريب نفسه » . وليست المكروبات والبكتريا إلا صوراً جديدة شائعة لما كان اليونان يسمونه كريس Keres أو الجن الصغيرة(٢٥) . ومن ثم كان الميت « نجسا » لأن الجنى قد استحوذ عليه كل الاستحواذ ؛ وكان اليونانى إذا خرج من بيت فيه ميت رش نفسه بالماء من إناء يوضع لهذا الغرض عند باب البيت ، وذلك لكي يطرد من جسمه الروح الذى غلب الميت على أمره(٢٦) . وقد امتدت هذه الفكرة عند اليونان إلى ميادين كثيرة لم يمتد إليها علمنا الحديث رغم ما ينتابنا من رهبة البكتريا وجزعنا منها . وكان الجماع من أسباب النجاسة ، كولادة الطفل أو القتل (ولو كان غير متعمد) ، وكان الطفل المولود نفسه نجساً . ولم يكن الجنون إلا حلول روح غريب فى جسم المصاب به ، وكان يقال إن المجنون قد « خرج عن نفسه » ، وكان لا بد فى هذه الحالات من القيام باحتفال يطهر فيه الشخص النجس . وكانت المنازل ، والهياكل ، والمدن بأجمعها فى بعض الأحيان ؛ تطهر بالمـــاء أو الدخان كما نطهرها نحن الآن(٢٧) ، وكان وعاء به ماء نظيف يوضع عند مدخل كل هيكل ، حتى يطهر به نفسه كل قادم للتعبد ، أو لعل هذا الوعاء كان رمزاً يوحى إلى الناس بضرورة التطهر . وكان الكاهن نفسه خبيراً بأصول التطهير ، وكان فى مقدوره أن يطرد الأرواح الشريرة من الأجسام بالضرب على إناء من البرنز ، أو بقراءة العزائم ، أو بالسحر أو الصلاة ؛ وحتى قاتل النفس عمداً كان يمكن تطهيره إذا أجريت له الطقوس والمراسم الملائمة . ولم تكن التوبة ضرورة محتومة فى مثل هذه الأحوال ، بل كل ما كان يحتاجه المتطهر هو أن يتخلص من الشيطان الشرير الذى تقمصه ؛ وذلك لأن الدين لم يكن أمر أخلاق بقدر ما كان فناً لمعالجة أمور الأرواح . غير أن كثرة المحرمات ومراسم التطهير قد أكسبت اليونانى المتدين مزاجاً عقلياً يشبه شبهاً عجيباً الشعور بالخطيئة عند طائفة المتطهرين المتزمتين (البيورتان) من الإنجليز . وإن القول بأن اليونان

كانوا مجردين من فكرتى الضمير والخطيئة لا يكاد يبقى له أثر عند من يقرأ كتب بندار وإسكلس ، وقد نشأت من اعتقاد اليونان بأنهم يعيشون فى جو من الأرواح مئات من الخرافات لخصها ثيوفراستوس Theophrastus خليفة أرسطو ، فى جزء من كتابه **الأخلاق** فقال :

يبدو أن الإيمان بالخرافات ضرب من الجبن وخور العزيمة أمام القوة الإلهية . . . إن الرجل الخرف لا يخرج من داره أول النهار إلا بعد أن يغسل يديه ويرش نفسه بالماء من العيون التسع ، ويضع فى فمه قطعة من ورقة شجرة فى معبد ، فإذا ما اعترضت طريقه قطة لم يواصل السير حتى يمر به إنسان آخر ، أو يقذف بثلاثة أحجار فى الشارع . وإذا أبصر أفعى فى بيته وكانت من النوع الأحمر استنجد بديونيسس ، أما إذا كانت أفعى مقدسة فإنه يقيم لها ضريحاً من فوره فى البقعة التى أبصرها فيها ؛ وإذا مر بأحد الحجارة الملساء المقامة فى مفترق الطرق صب عليه الزيت من قنينته ولم يواصل السير فى طريقه إلا بعد أن يركع له ويتعبد ، وإذا قرض فأر جعبة طعامه ، توجه إلى الساحر وسأله ماذا يفعل ، فإذا أشار عليه بأن « يرسل الجعبة إلى الإسكاف ليرقعها » ، عمل بهذه النصيحة ، وتخلص من النذير المشئوم بطقوس تمنع عنه الشر المرتقب . وإذا وقعت عينه على رجل مصاب بالجنون أو بالصرع ، ارتجف وبصق على صدره[٨٠] .

وكان اليونان السذج يؤمنون ، ويعلمون أطفالهم أن يؤمنوا ، بأنواع لاحصر لها من العفاريت . وكانت مدن بأكملها تروع بين الفينة والفينة بما تنذر به أحداث غريبة كمولد حيوانات مشوهة أو أناس مشوهين[٨١] . وكان الاعتقاد بوجود أيام مشئومة منتشراً إلى درجة تجعل من يؤمنون بهذه العقيدة لا يقدمون فى هذه الأيام على زواج ولا يعقدون فيها جمعية . ولا تجتمع فيها محكمة ، ولا يبدءون فيها مشروعاً خطيراً . وكانت عطسة ، أو عثرة قدم ، تكفى فى بعض الأحيان لحمل العاطس أو العاثر على العدول عن سفر أو عمل هام ، وكان خسوف جزئى يكفى

لوقف زحف الجيوش أو ردها على أعقابها ، وقد يؤدى إلى ختام الحرب بكارثة مدلهمة . يضاف إلى هذا الاعتقاد بأن بعض الناس قد وهبوا قدرة عجيبة على إنزال النقمة بمن يشاءون ، فالأب إذا أغضب قد يصب على من أغضبه ، والسائل إذا أهمل قد يصب على من أهمله ، لعنة لا تقوم لها بعدها قائمة . وكان بعض الناس مهرة فى فنون السحر ، فكان فى وسعهم أن يمزجوا شراباً للعشق أو دواء مقوياً للباه ، وكان فى وسعهم أن يضعفوا ببعض العقاقير السرية قدرة الرجل على الجماع أو يعقموا المرأة فلا تحمل أبداً(٨٢) . وقد رأى أفلاطون أن شرائعه لا تكمل إلا إذا تضمنت تشريعاً يعاقب من يؤذى الناس أو يقتلهم بسحره(٨٣) . فليست الساحرات إذن من اختراع العصور الوسطى ، فها هى ذى ميديا فى روايات يوربديز ، وسميثا Simaetha فى روايات ثيوكريتس وهما ساحرتان . وقصارى القول أن الخرافات من أقوى الظواهر الاجتماعية ، وأنها بقيت فى خلال أحقاب المدنية لا تكاد تتغير فى قواعدها وأصولها ولا فى صورها وأشكالها .

الفصل السادس

المتنبئون والمتنبآت

لقد خيل إلى أهل ذلك الوقت الذين كانوا يعيشون فى عالم ملىء بالقوى العليا غير الطبيعية أن حوادث الحياة رهينة بإرادة الشياطين والآلهة ، ولم يكن أمام اليونان الذين يريدون معرفة هذه الإرادة إلا أن يلجئوا إلى العرافين والمتنبئين يستشيرونهم فى أمرهم ، وكان هؤلاء ينبئون بالمستقبل بالنظر فى النجوم : وتأويل الأحلام ، وبحث أحشاء الحيوان ، وزجر الطيور ، وكان العرافون المحترفون يؤجرون أنفسهم للأسر والجيوش والدول[٨٤] ، من ذلك أن نسياس Nicias استخدم قبل أن يسير حملته على صقلية طائفة كبيرة من مقربى القرابين وزاجرى الطيور وقارئى الغيب[٨٥] . ولسنا نقول إن القواد لم يبلغوا كلهم من التقى ما بلغه هذا القائد مالك العبيد ؛ ولكنهم كلهم تقريباً لم يكونوا يقلون عنه إيماناً بالخرافات . وكان يظهر فى البلاد فى أوقات مختلفة رجال ونساء يدعون أنهم ممن يوحى إليهم أو ممن كشف الغطاء عن أبصارهم ، وكان فى أيونيا بنوع خاص نساء يسمين سيبيلات Sibyls (أى إرادة الله) يدعن نبوءات يصدقها ملايين اليونان[٨٦] ، ويقال إن واحدة من أولئك السيبيلات تدعى هرفيلا Herophila طافت ببلاد اليونان مبتدئة من إريثرا Erythra ثم استقرت فى كومى بإيطاليا حيث أصبحت أشهر سيبيلات زمانها ، وعاشت كما تقول الرواية المتواترة ألف عام ، وكان فى أثينة ، كما كان فى رومة ، عدد كبير من المتنبئين والمتنبآت ، وكانت الحكومة تحتفظ فى بهو البلدية الأكبر برجال يحذقون تأويل أقوالهم[٨٧] .

وكان فى كثير من الهياكل المنتشرة فى جميع أنحاء اليونان متنبئون محترمون ، ولكن أشهرهم وأجلهم قدراً فى الأيام القديمة متنبئ زيوس فى دودونا Dodone

كما كان أشهرهم فى العصور التاريخية متنبئ أبلو فى دلفى . وكان اليونان و « البرابرة » يستشيرون هذا المتنبئ ، وحتى رومة نفسها كانت ترسل الرسل ليعرفوا إرادة الإله أو يوحوا إليه بهذه الإرادة . وكانوا يظنون أن النساء أكثر استعداداً لتلقى الوحى من الرجال ، ولذلك كانت ثلاث كاهنات لا تقل سن كل منهن عن نصف قرن يدربن على تعرف إرادة أبلو وهن فى غيبوبة ، وكان غاز عجيب يخرج من فتحة فى الأرض تحت الهيكل ويعزوه الناس إلى تحلل الأفعى التى قتلها أبلو فى ذلك المكان . وكانت الكاهنة التى ستتلقى الوحى تجلس على نضد عال ذى ثلاث قوائم موضوع فوق الشق ، وتستنشق الرائحة الكريهة المقدسة ، وتمضغ أوراقاً من تاج من أوراق الشجر المخدر ، فتغيب عن وعيها ويتقاص جسمها ، ثم ينزل عليها الوحى وهى فى هذا الحال ، فتنطق بألفاظ متقطعة يترجمها الكهنة للشعب المستمع وكثيراً ما كان الجواب النهائى يحتمل تأويلات مختلفة بل متناقضة ، وبذلك تكون المتنبئة صادقة على الدوام مهما وقع من الحوادث[٨٨] . ولعل الكهنة هم والمتنبئة كانوا جميعاً ألعوبة فى أيدى غيرهم ، وكانوا فى بعض الأحيان يقبلون الرشا لينطقوا بما يحب الراشون أن ينطقوهم به[٨٩] ، وكان صوت المتنبئة يتفق فى أكثر الحالات مع صاحب النفوذ الأكبر فى بلاد اليونان[٩٠] . أما إذا لم تكن هناك سلطة خارجية ترغم الكهنة على أن ينطقوا بما ترغب فيه ، فإنهم كانوا يلقون على اليونان دروساً قيمة فى الاعتدال والحكمة السياسية ؛ فقد أعانوا على استقرار القانون وتثبيت دعائمه ، وكان لهم أثر كبير فى تحرير الرقيق ، وقد اشتروا عدداً كبيراً من الأرقاء لكى يحرروهم من الرق ؛ وإن كنا لا ننكر أنهم تغاضوا عن التضحيات البشرية بعد أن أخذ ضمير اليونان ينفر منها ، ولم يرفعوا صوتهم بالاحتجاج على ما كان يحدث فوق جبل أولمبس من فساد خلقى . ذلك بأنهم لم يكونوا متقدمين على التفكير اليونانى ، ولكنهم مع ذلك لم يقفوا فى سبيل هذا

التفكير ويعطلوه بالتعصب لمبادئ وآراء خاصة . وكانوا يخلعون على السياسة اليونانية التي تمليها على الحكام الضرورات الملحة ستاراً من رضاء القوى الإلهية ، وخلقوا شيئاً من الضمير الدولي والوحدة الأخلاقية بين مدن اليونان المبعثرة .

وبفضل هذا الأثر الموحِّد نشأ أقدم حلف بين الدويلات اليونانية ، وكانت جامعة المندوبين اليونان — الجامعة الأمفكتيونية Amphictyonic — في أول أمرها حلفاً دينياً مؤلفاً من « المقيمين حول » هيكل دمتر القريب من ممر ترموپيلي . وكانت أهم الدول التي تتألف منها هذه الجامعة تساليا ، ومجنيزيا ، وفثيوتس Phithotis ، ودوريس ، وفوسيس ، وبؤوتية ، وعوبية ، وآخية . وكان مندوبوها يجتمعون مرة كل ستة أشهر ، في الربيع في دلفي ، وفي الخريف في ترموپيلي ، وقد تعهدوا بألا يخرب بعضهم مدن بعض ، وألا يسمحوا بأن يقطع الماء عن أية واحدة منها ، وألا ينهبوا كنوز أپلو في دلفي أو يسمحوا بنهبها ، وأن يقاتلوا أية أمة لا تحترم هذه المواثيق . تلك مبادئ لعصبة أمم حال دون قيامها تغلب الثراء والسلطان بين الدول ، وما طبع عليه الأفراد والجماعات من تنافس وتحاسد ، فقد كونت تساليا جبهة من الدول الخاضعة لسلطانها ، وفرضت على هذه العصبة سيطرتها الدائمة(٩٢) . ونشأت عصب أخرى غيرها ، فكانت أثينة مثلا عضواً في عصبة كلوريا Calauria ؛ وكانت كل واحدة من هذه العصب المتنافسة تعمل لنشر السلام بين أعضائها . ولكنها أضحت على مر الزمن أداة لتدبير الدسائس وإثارة الحروب على غيرها من العصب .



الفصل السابع

الأعيـــاد

إن لم يكن فى مقدور الدين اليونانى أن يقضى على الحروب ، فإنه قد أفلح فى تخفيف متاعب الحياة الاقتصادية الرتيبة بما كان يقيمه من الأعياد الكثيرة التى قال فيها أرستوفانيز : « ألا ما أكثر ما يقــدم إلى الآلهة من ضحايا ؛ وما أكثر ما يقام لها من هياكل وتماثيل . . . ومواكب مقدسة ! إنا لنشهد فى كل ساعة من ساعات العام أعياداً دينية وضحايا عليها أكاليل من الزهر ، تقرب للآلهة »(٩٣) . وكانت نفقات هــذه الأعياد يقوم بها الأغنياء ، أما الدولة فكانت تقدم الأموال المقدسة theorika ، ومنها تؤدى للشعب رسوم الدخول لمشاهدة الألعاب أو المسرحيات التى كانت تمتاز بها هذه الأيام المقدسة .

وكان التقويم الأثينى تقويما دينياً فى جوهره ، وكانت شهور كثيرة تسمى بأسماء ما يقام فيها من أعياد دينية ، ففى الشهر الأول شهر هكتمبيون Hecatombaion (يوليه — أغسطس) يقام عيــد الكرونيا Cronia (المقابل لعيد الساتورناليا الرومانى) ، وفيه يجتمع السادة والعبيد فى وليمة بهجة طربة . وكان يقام فى هذا الشهر نفسه كل أربعة أعوام عيد الجامعة الأثينية ، وتعقد فيه مباريات ، وتقوم فيه ألعاب مختلفة الأنواع ، تدوم أربعة أيام ، يسير الأهلون جميعاً بعدها فى موكب عام وقور ، يحملون إلى كاهنة أثينة الثوب الفخم الموشى الذى كان يوضع فوق تمثال إلهة المدينة ؛ والعالم كله يعرف أن هذا هو الموضوع الذى اختاره فدياس ليزين به طنف البارثنون . وفى الشهر الثانى المتاجيتنيون Metageitnion كان يقام المتاجيتنيا وهو عيد صغير يقام تكريما لأپلو . وفى الشهر الثالث شهر بوذرميون Boedromion كانسكان أثينة يخرجون إلى إلوسيس لإقامة الطقوس ،

الكبرى الخفية . وفى الشهر الرابع شهر الپيانپسيون Pyanepsion كان يحتفل بأعياد الپيانپسيا والأسكوفوريا Oscophoria والثسموفوريا Thesmophoria . وكانت نساء أثينة فى هذا الشهر يعظمن دمتّر ثسموروس (المشرعة) بإقامة طقوس أرضية عجيبة يعرضن فيها رموزا لقضيب الرجل ويتبادلن فحش القول ، ويمثلن الذهاب إلى الجحيم والعودة منها ، ويبدو أن هذه الحفلات كانت رمزا للإخصاب فى الأرض وفى الآدميين(٩٤) . وكان شهر ميمكتريون Maimakterion هو الشهر الوحيد الخالى من الأعياد .

وفى شهر پوسيديون Poseideon كانت أثينة تقيم عيد الإتالوا Italoa عيد بواكير الفاكهة ، وفى شهر جمليون Gamelion تحتفل بعيد اللينيا Lenaea تكريما لديونيسس . وفى شهر أنثسترن Anthesterion كانت تقام ثلاثة احتفالات هامة ، الطقوس الخفية الصغرى أو التمهيدية ، والديازيا أو التضحية لزيوس ملكيوس ، والأنثستريا أو عيد الزهور ، وهو أهم الأعياد الثلاثة . وفى هذا العيد الربيعى الذى يقام تكريما لديونيسس ويدوم ثلاثة أيام كاملة كانت الخمر تجرى كالأنهار ، ولم تكن ترى إلا سكارى على درجات متفاوتة من السكر(٩٥) ؛ وكان الناس يتنافسون أيهم يفوق غيره فى كثرة الشراب ، والشوارع تعج بالحياة والمرح . وكانت زوجة كبير الأركونين تركب عربة بجوار تمثال ديونيسس وتتزوج به فى الهيكل رمزاً إلى اتحاد الإله بأثينا . وكان يسرى فى هذه الطقوس المرحة قليل من الرهبة والعمل على استرضاء الموتى وكف أذاهم ؛ وكان الأحياء يتناولون فى وقار وهدوء وجبة من الطعام إحياء لذكرى آبائهم ، ويتركون لهم آنية ملأى بالطعام والشراب ، فإذا انقضى العيد أخذ الناس يطردون أرواح الموتى من الدور بصيغة يتلونها ويقولون فيها : « أخرجى من الباب أيتها الأرواح ! لقد انتهى عيد أنثستريا » — وقد أصبحت هذه الألفاظ مثلا يقال عند ما يراد التخلص

من المتسولين الكثيرى الإلحاح(*) .

وفى الشهر التاسع شهر إلافيبوليون Elaphebolion يقع عيد ديونيزيا الكبير الذى أوجده بيسّتراتس فى عام ٥٣٤ . وفى ذلك العام جعل تسپيس المسرحية فى أثينة جزءاً من هذا الاحتفال . وكان ذلك فى أواخر شهر مايو والربيع مقبل والبحر هادئ صالح للملاحة ، فأقبل التجار والزائرون حتى ازدحمت بهم المدينة وتضاعف عدد من يشاهدون الحفلات والمسرحيات . وأوقفت جميع الأعمال ، وأغلقت دور القضاء ، وأطلق سراح المسجونين ليستطيعوا الاشتراك فى الحفلات . وخرج الأثينيون على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم فى أزهى الملابس ليشتركوا فى الركب الذى جاء بتمثال ديونيسس من إليوثيرا لوضعه فى مقره . فركب الأغنياء العربات ، وسار الفقراء راجلين ، ومن ورائهم قافلة طويلة من الحيوانات لتهدى إلى الآلهة . واشتركت فى هذا الموكب فرق من المغنين أقبلت من مدن أتكا تتبارى فى الغناء والرقص . وفى الشهر العاشر شهر منيكيون Munychion كانت أثينة تحتفل بعيد المنيكيا ، وكانت تحتفل كل خمسة سنين بعيد البروورونيا Brauronia تكريماً لأرتميس . وفى شهر ثراجليون يقع الثراجليا أى عيد حصاد الحب . وفى الشهر الثانى عشر شهر سكروفريون Skirophorion كان يحتفل بأعياد اسكروفوريا ، وأرتوفوريا Arretophoria ، وديپوليا Dipolia وبوفنيا Bouphonia . ولم تكن هذه الأعياد كلها أعياداً سنوية ، ولكنها ، حتى ما لم يكن يحتفل به منها إلا كل أربع سنين ، كانت تخفف كثيراً من كدح الحياة اليومية .

وكان لغير أثينة أيام مقدسة شبيهة بهذه الأيام ، وكان كل موسم من مواسم الزرع أو الحصاد فى الريف يستقبل بمظاهرة البهجة والمرح . وكان أعظم من هذه الأعياد كلها أعياد الجامعة الهيلينية ، والحفلات العامة الجامعة Panegyreis ،

(*) لا يزال الناس فى أنحاء كثيرة من أوربا يعتقدون أن الأرواح تعود إلى الأرض كل عام ، وأن عليهم أن يولموا لها وليمة فى « عيد جميع الأرواح(٩٦) » .

ومن هذه الأعياد عيد الجامعة الأيونية Panionia فى ميكالى Mycale وعيد أپلو فى ديلوس ، والعيد البيثى Pithian فى دلفى ، وعيد البرزخ Isthmiu فى كورنثة ، والعيد النميى Nemean فى أرجوس ، والعيد الأولمپى فى إليس . وكانت تقام فى هذه الأعياد مباريات رياضية بين الدول المختلفة ، ولكنها كانت فى أساسها أياما مقدسة . فقد كان من حسن حظ بلاد اليونان أن كان دينها من العناصر البشرية — وأن كان فيها فى آخر أيامها من العناصر الإنسانية الرحيمة — ما يكفى لاقترانه بالفن ، والشعر ، والموسيقى ، والألعاب ، واقترانه آخر الأمر بالأخلاق اقترانا جعله مصدر السرور والإبداع .

الفصل الثامن

الدين والأخلاق

يبدو لأول وهلة أن الدين اليونانى لم يكن ذا أثر كبير فى الأخلاق ، فقد كان فى أصله طائفة من قواعد السحر لا من قواعد الأخلاق القويمة ، وبقى إلى حد كبير على هذا النحو إلى آخر أيام اليونان . وكان لصحة المراسم والطقوس فى هذا الدين شأن أكبر مما للسلوك القويم ، ولم تكن الآلهة نفسها ، الأولمبية منها والأرضية ، مثلا طيباً فى الأمانة والعفاف ودماثة الأخلاق . وحتى الشعائر الإلوسينية الخفية ، كانت تجعل التطهير بالمراسم والطقوس لا طهارة النفس وكرم الأخلاق هو العامل الأكبر فى النجاة من العذاب وإن كنا لا ننكر أنها كانت تبعث فى النفوس آمالا كباراً . وفى ذلك يقول ديوچين الساخر : « سيكون اللص پتيكيون Pataikion بعد موته أسعد حالا من أجسلوس Agesilaus أو أپامينونداس لأن پتيكيون قد كرس فى إلوسيس» (٩٧) .

لكن الدين اليونانى ، رغم هذا ، كان عوناً خفياً للشعب وللدولة فى أكثر الشئون الأخلاقية حيوية . من ذلك أن مراسم التطهير وإن كانت كلها مظاهر خارجية كانت ترمز إلى الأخلاق القويمة . كذلك كانت الآلهة تعين على الفضيلة وإن كانت هذه المعونة عامة غير دقيقة ، وغامضة ، وغير مطردة . ذلك أنها كانت تغضب على الشرير وتنتقم من المتكبر ، وتحمى الغريب ، وتستجيب لمن يتوسل إليها ، وتحمى بجبروتها قدسية الأيمان . فهم يقولون لنا إن ديكى Dike كانت تعاقب على كل ظلم ، وإن يومنيدس Eumenides الرهيب كان يقتفى

أثر القاتل ، كما يفعل أرستيز ، حتى يجن أو يموت . وكان الدين يخلع القدسية والكرامة على أهم أحداث الحياة الإنسانية وأنظمتها — كالمولد ، والزواج ، والأسرة ، والعشيرة ، والدولة — ، وينتشلها من فوضى الشهوات العاجلة . وكانت عبادة الموتى وتكريمهم يربطان الأجيال المتعاقبة برباط من الواجبات المستقرة المتصلة . وبفضلهما لا تقتصر الأسرة على أن تكون زوجا وزوجة معهما أطفال ، أو مجموعة أبوية من الآباء والأطفال والأحفاد ، بل تصبح فضلا عن هـذا اتحاداً مقدساً وتتابعاً مستمراً للدم والنار ، ترجع أصولها إلى الماضى السحيق وتمتد أغصانها إلى المستقبل البعيد ، وتربط الموتى والأحياء ومن لم يخرجوا بعد إلى هـذا العالم برباط مقدس أقوى من رباط الدولة مهما قويت . وكان إنجاب الأطفال واجباً مقدساً حتى يفرضه الدين على الأحياء ، ثم لا يكتفى بهذا بل يشجع على النسل بأن يدخل فى روع من لا أبناء له أنه قد لا يجد من يوارى جسمه التراب أو يعنى بقبره بعد وفاته . وقد ظل اليونان يتناسلون بكثرة خيارهم وشرارهم على السواء طالما كان للدين أثر فى حياتهم ، وكان من نتيجة هذه الكثرة مضافاً إليها الانتخاب الطبيعى الصارم أن احتفظ اليونان بقوتهم ومميزاتهم . وكان الدين والوطنية تربطهما مئات من الطقوس الرهيبة المؤثرة ، فكان أكثر الآلهة والإلهات احتراماً فى الاحتفالات العامة بطل المدينة المؤله أو بطلتها المؤلهة ؛ وكان كل قانون وكل اجتماع للجمعية أو لدور القضاء ، وكل عمل خطير يقدم عليه الجيش أو الحكومة ؛ وكل مدرسة وجامعة ، وكل هيئة اقتصادية أو سياسية ، كانت هذه كلها تحيط بها الاحتفالات والتضرعات الدينية . وبهذه الوسائل كلها كان الدين اليونانى يستخدم لحماية المجتمع والشعب من أنانية الفرد الغريزية . وقوت الفنون والآداب والفلسفة هذا الأثر الدينى فى بادئ الأمر ، ثم عملت بعدئذ

على إضعافه ؛ فقد أخذ پندار ، وإسكلس ، وسفكليز ينفثون حماستهم الأخلاقية أو فطنتهم فى العقائد الأولمبية ؛ ورفع فدياس من مقام الآلهة بما خلعه عليها من جمال وجلال ؛ وجمع فيثاغورس وأفلاطون بين الفلسفة والدين ، وأيدا عقيدة الخلود ليجعلا منها باعثاً قوياً على حسن الخلق . لكن پروتجراس كان يشـك فى الآلهة ، وسقراط يتجاهلها ولا يأبه بها ، ودمقريطس يجحدها ، ويورپديز يسخر منها ، وانتهى الأمر بأن دكت الفلسفة اليونانية ، عن غير قصد منها ، قواعد الدين الذى صاغ الحياة الأخلاقية فى بلاد اليونان فى القالب الذى وجدت فيه .

الباب التاسع

الثقافة المشتركة لبلاد اليونان

فى عهدها المبكر

الفصل الأول

فردية الدولة

بلغت الثقافة الأوربية قمة مجدها فى بلدين : اليونان القديمة وإيطاليا فى عهد النهضة . ولم تكن تعتمد فى كلا العهدين على نظام سياسى أكبر من دويلات المدن : ويغلب على الظن أن الأحوال الجغرافية قد أعانت بلاد اليونان على أن تصل إلى هذه النتيجة . ذلك أن الجبال ومجارى المياه تعترض السائر فيها أينما ذهب ، وكانت القناطر فيها قليلة والطرق وعرة وغير معبدة . نعم إن البحر كان طريقا عاما مفتح الأبواب ، ولكنه كان يربط المدينة بأخواتها من المدن التجارية لا بما يجاورها من المدن . على أن الأحوال الجغرافية لا تفسر وحدها قيام دول المدن ، فقد كان هناك من أسباب الانفصال بين طيبة وبلاتية القائمتين على نفس السهل البوؤتى بقدر ما كان بين طيبة واسپارطة ، وكان بين سيباريس وكروتونا القائمتين على نفس الساحل الإيطالى من دواعى الانفصال أكثر مما كان بين سيباريس وسرقوســة . إن علينا أن نضم إلى العوامل الجغرافية عوامل أخرى كثيرة ، فاختلاف المصالح الاقتصادية والسياسية باعد بين المدن وجعلها يحارب بعضها بعضا

للحصول على الأسواق أو الحبوب ، أو تكون أحلافاً متنافسة للسيطرة على المسالك البحرية . ومن العوامل الأخرى التي ساعدت على هذا الانفصال اختلاف أصول السكان . نعم إن اليونان كانوا يرون أنهم كلهم من عنصر واحد ، ولكنهم كانوا شديدى الإحساس باختلاف القبائل التي ينتمون إليها — الإيولية ، والأيونية ، والآخية ، والدورية — ومن أجل ذلك كانت أثينة واسپارطة تحقد كلتاهما على الأخرى حقدا لا يقل عن حقد العناصر المختلفة فى هذه الأيام . وقوى اختلافُ الأديان الانقسامات السياسية ، كما زادت هذه الانقسامات ما بين الأديان من اختلاف ، فقد نشأ من الطقوس الدينية التي اختصت بها بعض الأماكن أو بعض القبائل أعياد خاصة ، وتقاويم خاصة ، وعادات ، وشرائع ، ومحاكم تختلف باختلاف المدن ، بل إن هذه الطقوس قد أقامت فى بعض الأحيان حدوداً بين المدن ، وذلك لأن أحجار التخوم كانت فاصلا بين ممالك الإله ، كما كانت فاصلا بين المجتمعات البشرية لأن من الواجب المحتوم أن يكون دين الإقليم هو دين حاكمه cūjus regio, ejus religio . وكانت هذه العوامل مجتمعة هي وعوامل أخرى كثيرة لا يتسع المجال لذكرها هي التي أوجدت دول المدن اليونانية .

ولم يكن هذا طرازاً جديداً من النظم الإدارية ، فلقد رأينا أنه كانت فى بلاد سومر ، وبابل ، وفينيقية ، وكريت ، دول مدن قبل هومر وپركليز بمئات السنين أو آلافها ، وكانت دولة المدينة من وجهة النظر التاريخية هي بعينها مجتمع القرية فى مرحلة من الامتزاج أو التطور أعلى من مرحلته القروية — وكان لها سوقها المشتركة ، ومكان اجتماعها ، ومجلس قضائها للفصل فى منازعات الأهلين الذين يحرثون ما يجاورها من أرض زراعية ، وكان أهلها من أصل واحد يعبدون إلها واحداً .

أما من الناحية السياسية فقد كانت دولة المدينة عند اليونان خير مايستطيعون

الوصول إليه من وسائل التوفيق بين العنصرين المتناقضين اللذين يتألف منهما المجتمع الإنسانى ، واللذين يتناوبان الغلبة عليه ، ونقصد بهما عنصر النظام ، وعنصر الحرية ، فالمجتمع الصغير لا يأمن على نفسه من الاعتداء ، والمجتمع الكبير يصبح مجتمعاً استبداديا . وكانت أكبر أمنية للفلاسفة أن تتكون بلاد اليونان من دول — مدن مستقلة ذات سيادة تتعاون كلها داخل نظام فيثاغورى مؤتلف منسجم . وكانت فكرة أرسطو عن الدولة أنها جماعة من الأحرار يخضعون لحكومة واحدة ، ويستطيعون الالتقاء فى جمعية واحدة ، وكان يرى أن الدولة إذا زاد عدد مواطنيها على عشرة آلاف تعجز عن إدارة شئونها . ومن أجل هذا كان لفظ واحد — بوليس Polis — يطلق على المدينة والدولة فى بلاد اليونان .

وما من أحد يجهل أن هذا التفتت السياسى قد جر على بلاد اليونان كثيرا من المآسى بسبب ما قام بين أهلها وهم إخوة من نزاع . فقد خضعت أيونيا لسيطرة الفرس لأنها عجزت عن أن تتحد للدفاع عن نفسها ؛ وضاعت فى آخر الأمر تلك الحرية التى كان اليونان يعتّزون بها ويقدسونها لأن بلاد اليونان لم تستطع الثبات متحدة فى وجه أعدائها رغم ما أقامته من أحلاف وعصب . ولكننا نعود فنقول إنه لولا دول — المدن لما كانت بلاد اليونان ؛ ولولا شعور اليونان بالفردية المدنية ، واعتّزازهم الشديد باستقلالهم ، ولولا ما كان بين أنظمتهم وعاداتهم وفنونهم ، وآلهتهم من تباين ، لما كان ما بينهم من تسابق وتنافس حافزا لهم على أن يحيوا حياة إنسانية كاملة فيها من الحماسة والإبداع ما لا نظير له فى أى مجتمع آخر . وهل فى وقتنا الحاضر نفسه رغم ما فيه من حيوية وتنوع ، وما يمتاز به من آلات ضخمة وقوى جبارة ، مجتمع فى حجم المجتمعات اليونانية أو فى عدد سكانها يستطيع أن يهب المدينة من النعم قدر ما وهبتها حرية اليونان المضطربة التى كانت هى والفوضى سواء ؟

الفصل الثاني

الكتابة والقراءة

على أنه كان فى حياة هذه الدول ، ذات النزعة الانفصالية القوية ، عدة عوامل مشتركة . منها أننا نجد فى شبه جزيرة اليونان كلها منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد لغة واحدة تنتمى إلى مجموعة اللغات « الهند — أوربية » التى تشمل الفارسية والسنسكريتية ، والسلافونية ، واللاتينية ، والألمانية ، والإنجليزية . وإنا لنجد لآلاف الكلمات التى تعبر عن العلاقات الأولية فى حياة الناس ، أو عن الأدوات التى كانوا يستخدمونها ، أصولا مشتركة فى هذه اللغات جميعها ، وهى لا تدل فقط على قدم مسميات هذه الكلمات وانتشارها فى البلاد التى تنطق بهذه اللغات ، بل تدل كذلك على ما بين الشعوب التى كانت تستخدم المسميات فى فجر التاريخ من قرابة أو رابطة(*) . نعم إن اللغة اليونانية قد تشعبت لهجات مختلفة — الإيولية ، والدورية ، والأيونية ، والأتكية ؛ ولكن الناطقين بهذه اللهجات المختلفة كان يفهم بعضهم بعضا ؛ ثم خضعت كلها فى القرنين الخامس والرابع إلى لهجة مشتركة koine dialektos انبعث معظمها من أثينة ، وكانت تنطق بها الطبقات المتعلمة كلها تقريبا فى العالم اليونانى بأجمعه . وكانت اللغة اليونانية الأتكية لغة جزلة ، قوية مرنة ، حلوة النغم ، فيها من الشذوذ مثل ما فى أى لغة حية ، ولكنها تقبل فى يسر كل التراكيب التى تجعلها صالحة للتعبير عن أغراضها ، وفيها التدرج والاختلاف الدقيق فى المعانى ، وفيها المدركات الفلسفية الدقيقة ؛

(*) قارن فى هذه اللغات المختلفة الألفاظ الآتية damas (منزل) فى السنسكريتية ، و domos فى اليونانية و domus فى اللاتينية ، و tim - ber الإنجليزية ؛ و davaras ، thyra ، fores ؛ و venas ، (f)oinos ، vinum ، urine ؛ و naus ، navis ، nave و akshas ، axon ، axis ، axis ؛ iugam ، zygon ، iugum yoke الخ .

وفيها جميع أنواع التعبيرات الأدبية السامية الرفيعة من شعر هومر الطنان الرنان إلى نثر أفلاطون الهادئ الواضح السلس(*) .

وتعزو الرواية اليونانية المتواترة إدخال الكتابة فى بلاد اليونان إلى الفينيقيين فى خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وليس لدينا ما ينقض هذه الرواية ، بل إن بين الكتابات اليونانية التى ترجع إلى القرنين الثامن والسابع وبين الحروف المنقوشة على حجر مؤاب فى القرن التاسع تشابها كبيراً[٣] . من ذلك أن النقوش اليونانية كتبت على الطريقة السامية من اليمين إلى اليسار ؛ وفى القرن السادس كانت (كالنقش الذى وجد فى جورتينا Gortyna) تنقش من اليمين إلى اليسار فى أحد السطور ثم من اليسار إلى اليمين فى السطر الذى يليه وهكذا دواليك ، ثم أصبحت بعد هذا تنقش من اليسار إلى اليمين على الدوام ، واستلزم هذا قلب وضع الحروف فصار حرفا 8 ، ɜ يكتبان هكذا B ، E . كذلك سميت الحروف بأسمائها السامية مع تعديلات طفيفة(**) ، ولكن اليونان أدخلوا على هذه الأسماء تغيرات أساسية ، أهمها أنهم أضافوا إليها حروفاً للحركة لا نجدها عند الساميين ، فاستخدموا بعض الحروف السامية الساكنة ، وحروف التنفس لتمثيل الحركات التى تدل عليها a ، e ، i ، o ، u وأضاف الأيونيون فيما بعد حروف المد إيتا eta (e الممدودة ، أوميجا o-mega (تمثل o الممدودة أو o المزدوجة). وأخذت عشر أبجديات يونانية مختلفة ينازع بعضها بعضاً ، فكان هذا النزاع

(*) لسنا نعرف كيف كان نطق الألفاظ اليونانية القديمة . وقلما كان اليونان فى عصرهم الزاهر يعنون بالنبرات التى تضايقنا كثيرا فى هذه الأيام ، ولكنها قد دخلت فى النصوص القديمة على يد أرسفنيز البيزنطى فى القرن الثالث قبل الميلاد . ولهذا يجب أن نغفل هذه النبرات حين نقرأ الشعر اليونانى

(**) قارن مثلا الحرف اليونانى ألفا والفينيقى ألف (الثور) ؛ وبيتا اليونانية وبت (خيمة) الفينيقية ، وجما اليونانية وجمل (جمل) الفينيقية ؛ ودلتا ودالت (باب ؛ إ - بسلون ، وهى he (نافذة) ، وزيتا وزين (حربة) وهيتا وخث (سياج وأيوتا ويد (يد) وهكذا .

جزءاً من الحروب القائمة بين دول — المدن ، وتغلبت الحروف الهجائية الأيونية فى بلاد اليونان ثم انتقلت منها إلى أوربا الشرقية وبقيت فيها إلى اليوم ، أما رومة فقد اتخذت الحروف الخلقيدية Chalcidian من كومى وهى التى أصبحت الحروف اللاتينية والحروف الإنجليزية . وكانت الأبجدية الخلقيدية ينقصها حرفا ال e وال o الممدودان ، ولكنها فعلت ما لم تفعله الأبجدية الأيونية فاستبقت vau الفينيقية حرفاً ساكناً (وهى ال v التى يقرب نطقها من نطق حرف w) ؛ ومن أجل هذا كان الأثينيون يسمون النبيذ oinos والخلقيديون يسمونه voinos والرومان يسمونه vinum والإنجليز يسمونه wine . كذلك استبقى الخلقيديون حرف koppa أو q وانتقل منهم إلى رومة ثم إلى اللغة الإنجليزية ، أما أيونيا فقد أهملته واكتفت بحرف k وكتبت أيونيا حرف *l* بهذه الصورة A ، أما كلسيز فقد كتبته *L* ؛ وعدلت رومة هذه الصورة الثانية فجعلتها معتدلة وانتقلت منها على هذا النحو إلى أوربا . وكتب الأيونيون حرف R كما نكتب نحن حرف P أما إيطاليا اليونانية فقد أضافت إلى P ذيلا فأصبحت R[٤] .

والراجح أن أولى الأغراض التى استخدمت فيها الكتابة فى بلاد اليونان كانت هى الأغراض التجارية أو الدينية ، ويبدو أن الرقى والتعاويذ التى كان يتلوها القساوسة هى مبدأ الشعر ، وأن ما يكتب فى أوراق شحن السفن كان بداية النثر . ثم انقسمت الكتابة نوعين مختلفين أحدهما دقيق منتظم للنقوش وما إليها ، والثانى هو الكتابة الدارجة التى تستخدم فى الأغراض اليومية العادية . ولم يكن فى كلا النوعين نبرات ، ولم يكن يترك بين الكلمات فراغ ، ولم تكن فيهما علامات ترقيم[٥] ؛ فإذا أريد الانتقال من موضوع إلى موضوع دلوا على ذلك بشرطة فاصلة أفقية يسمونها برجرافون paragraphon أى علامة « تكتب إلى ناحية » ، وكانت المواد التى تكتب عليها متنوعة

فكانت فى بادئ الأمر ، إذا جاز لنا أن نأخذ بقول پلنى ، أوراق الأشجار أو لحاءها[٦] ؛ فإذا أرادوا النقش استخدموا الحجارة أو البرنز أو الرصاص . وكانوا يستخدمون للكتابة العادية ألواح الطين كما كان يفعل أهل ما بين النهرين[*] ؛ ثم استخدموا ألواحاً من الخشب تغطيها طبقة من الشمع ، وكانت هذه شائعة بين التلاميذ قبل أيامهم[٧] ؛ فإذا أرادوا أن يكتبوا شيئاً يبقى أمداً طويلا استخدموا أوراقاً من البردى كان الفينيقيون يأتون بها من مصر ؛ وفى العهد الذى انتشرت فيه حضارة اليونان فى خارج بلادهم ، وفى العهد الرومانى ، استخدم الرق المصنوع من جلود المعز والضأن أو أغشيتها الرقيقة ، وكانوا يكتبون على ألواح الشمع بقلم معدنى ، وعلى ورق البردى والرق بقلم من الغاب يغمس فى الحبر ، وكانت الكتابة على الشمع تمحى بنهاية القلم المعدنى السميكة ، أما الحبر فكان يمحى بقطعة من الإسفنج ؛ ولذلك أرسل الشاعر ماريتال إلى صديق له قطعة من الإسفنج مع قصائده لكى يمحوها « بضربة واحدة[٨] » . وإن كثيراً من النقاد فى هذه الأيام ليحزنهم أن هذا الأدب الجم لم يبق له الآن وجود .

وليس ثمة ميدان وصلتنا منه الألفاظ القديمة بالكثرة التى وصلتنا من ميدان الكتابة . فكلمة ورق بالإنجليزية paper مأخوذة من اسم نبات البردى papyrus ، وقد أعادت دورة الفلك الطراز القديم لصنع هـــذه المادة من النبات المضغوط . وكان السطر من الكتابة يسمى باليونانية stichos أى صفا ، وكان اللاتين يسمونه versus أى عودة إلى الوراء ، ومنها اشتقت كلمة verse الإنجليزية . وكانوا يكتبون ما يريدون فى صورة أعمدة على قطعة من ورق البردى أو الرق طولها من عشرين قدماً إلى ثلاثين تلف حول عصا . وكانوا يسمون هذا الملف[**] بيلوس biblos ، وقد أخذوا هذا الاسم من المدينة الفينيقية المعروفة بهذا الاسم والتى

(*) وكانت كلمه Grapheia التى تترجها الآن بكلمة الكتابة تعنى أولا الحفر .

(**) وكان اللاتين يسمون الملف volumen — أى الملفوف .

كانت تمد بلاد اليونان بالورق المصنوع من نبات البردى . أما الملف الصغير فكان يسمى ببليون biblicn . وكان الكتاب المقدس (bible) يسمى فى أول الأمر biblia أى الملفات . فإذا كان الملف جزءاً من كتاب أكبر منه سمى tomos أى مقطعاً . وكان الجزء الأول من الملف يسمى بروتوكولون protocollon : أى الشريحة الأولى الملتفة بالعصا . وكان طرفا العصا يصقلان بحجر الخفاف ويلونان أحياناً ؛ وكان الملف يوضع أحيانا فى غشاء يسميه اليونان diphthera ويسميه اللاتين(*) vellum ، إذا استطاع مؤلفه أداء ما يلزم ذلك من النفقات ، أو كان ما كتب فيه ذا بال . وإذ كان من غير الميسور تداول الملف الكبير أو استخدامه فى المراجعة فقد كانت المؤلفات الأدبية تقسم عادة إلى عدة مؤلفات ؛ وكانت كلمة biblos تطلق على كل ملف أو جزء من كتاب كبير . وقلما كان المؤلف نفسه هو الذى يقسم كتابه هذا التقسيم . فقد كان الناشرون المتأخرون هم الذين قسموا تواريخ هيرودوت إلى تسعة كتب ، وكتاب توكيديدس فى حرب البلوبونيز إلى ثمانية ، وجمهورية أفلاطون إلى عشرة ، والإلياذة والأوذيسة إلى أربعة وعشرين جزءا . وإذ كان نبات البردى غالى الثمن ، وكانت كل نسخة من الكتاب تكتب باليد ، فقد كان عدد الكتب قليلا عند اليونان والرومان الأقدمين(**) . وكان التعلم فى تلك الأيام الخالية أيسر منه فى هذه الأيام ، وإن يكن كسب الذكاء فى الزمن القديم لا يقل صعوبة عن كسبه اليوم . ولم تكن معرفة القراءة ميزة عامة عند الأقدمين ، ولذلك كان معظم العلم يؤخذ بالتلقين من جيل إلى جيل أو من صانع إلى صانع ،

(*) وأسمها باللاتينية frontes ومنها جاءت forntispiece الإنجليزية ، ومعناها الصورة التى فى أول الكتاب .

(**) لقد استطاع العرب رغم هذه الظروف نفسها أن يكتبوا آلاف الكتب التى امتلأت بها المكتبات فى العواصم الإسلامية المختلفة ، وهى التى لم يفرغ العالم العربى والأوربى حتى الآن من طبعها ، وإن كان علينا ألا نغفل فى هذه المفاضلة فرق الزمن واتساع رقعة العالم الإسلامى . (المعرب)

وكان معظم الأدب يتلوه بصوت جهورى قراء مدربون على أشخاص يتعلمونه بالسماع(*) . ولم يكن فى بلاد اليونان قبل القرن السابع جمهور كبير من القارئين ، ولم تكن فى البلاد دور كتب قبل أن يجمع بوليكراتس Polycrates وبيستراتس مكتبتيهما فى القرن السادس(٩) . فلما كان القرن الخامس بدأنا نسمع عن وجود مكتبة خاصة ليوربديز وأخرى للأركون يوكليدز Eucleides ؛ ثم سمعنا فى القرن الرابع عن مكتبة أرسطاطاليس . ولم نسمع عن وجود مكتبة عامة قبل مكتبة الإسكندرية ، كما لم نسمع بوجود مكتبة فى أثينة قبل أيام هدريان(١٠) . ولعل عظمة اليونان فى أيام بركليز كان مرجعها إلى أن اليونان لم يكونوا يقرؤون كتبا كثيرة أو يقرؤون أى كتاب طويل .

(*) لا يزال الهدف المقصود من « الأسلوب » فى الكتابة ومن علامات الترقيم هو تيسير التنفس للقارئ وحسن وقع الصوت على الأذن ، وإن كنا قد أصبحنا نتلقى ثقافتنا وغذاءنا العقلى بعد انتشار الطباعة عن طريق العين ،وإن كانت الكتابة قلما تقرأ جهرة . وأكبر الظن أن الأجيال القادمة ستعود إلى ما كان عليه الأقدمون فتتلقى غذاءها العقلى مرة أخرى عن طريق الأذن .

الفصل الثالث

الأدب

لقد كان الأدب من أسباب فرقة بلاد اليونان كما كان من أسباب وحدتها ، شأنه من هذا شأن الدين سواء بسواء . ذلك أن الشعراء كانوا يغنون بلهجاتهم المحلية ، وكثيراً ما كانوا يصفون مناظر أقاليمهم ، ولكن هلاس كلها كانت تستمع إلى أكثر الأصوات فصاحة ، وكانت من حين إلى حين تستحثهم على أن يطرقوا موضوعات أعم وأوسع من تلك الموضوعات المحلية الضيقة . ولقد عدا الدهر كما عدت الأهواء الضيقة على هذا الشعر المبكر فأبادت أكثره حتى لم يعد فى وسعنا أن نحس بما فيه من ثراء ، وبما كان يطرقه من موضوعات ، وبما يعزى إليه من جزالة اللفظ وجمال الشكل ؛ ولكننا حين نطوف بجزائر اليونان ومدنهم فى القرن السادس قبل الميلاد لا يسعنا إلا أن نعجب بوفرة ما تطالعنا به هذه الجزائر والمدن من الأدب اليونانى قبل عصر پركليز ، وبجودة هذا الأدب . وإن الشعر الغنائى فى ذلك القرن لتنعكس فيه صورة مجتمع أرستقراطى كانت فيه المشاعر والأفكار والأخلاق حرة ما دامت تراعى واجبات الأدب وحسن التربية . وقد أخذ هذا الأسلوب من الشعر الحضرى المصقول يختفى شيئاً فشيئاً فى عهد الدمقراطية . وكان مختلف المبنى متعدد الأوزان ، ولكنه قلما كان يقيد نفسه بقيود القافية . ذلك أن معنى الشعر عند اليونان أن يحس الإنسان ويتخيل ويعبر عن إحساسه وخياله فى لغة موزونة(*) .

وبينا كان أصحاب الشعر الغنائى يتغنون بالحب وبالحرب ، كان الشعراء الجوالون ينشدون فى مجالس العظماء الملاحم فى وصف ما قام به اليونان من

(*) كان الشعر المقفى مقصوراً فى الغالب على أقوال المتنبئين وعلى النبوءات الدينية .

جلائل الأعمال . ولقد أنشأت جماعات المغنين على توالى الأجيال طائفة من القصائد الغنائية تدور كلها حول حصار طيبة وطروادة وعودة المحاربين إلى أوطانهم . وكانت الأغانى شائعة مشتركة بين هؤلاء الشعراء ، وكان كل واحد منهم يؤلف قصته من قطع متفرقة أقدم منها عهداً ، ولم يكن منهم من يدعى أنه هو الذى ألف سلسلة متتابعة من هذه القصص . وقد وجدت فى طشيوز جماعة من أولئك الشعراء أطلقوا على أنفسهم الهومريدى Homeridae ، وادعوا أنهم من نسل شاعر يدعى هومر ، وهو فى زعمهم مؤلف الملاحم التى كانوا ينشدونها فى شرق بلاد اليونان بأجمعه[١١] . وقد يكون هذا الشاعر الضرير لا وجود له فى الحقيقة بل كان أباً خيالياً لقبيلة أو طائفة من الناس ، شأنه فى هذا شأن هلن ، ودورس وأيون[١٢]. ولم يكن اليونان فى القرن السادس يعزون إلى هومر الإلياذة والأوذيسة فحسب ، بل كانوا يعزون إليه كذلك كل الملاحم المعروفة وقتئذ ، والقصائد الهومرية أقدم الملاحم المعروفة فى التاريخ ، لكن جودتها فى حد ذاتها وما فيها من إشارات كثيرة إلى شعراء سابقين ، لتوحيان إلينا بأن هذه الملاحم الباقية هى الحلقة الأخيرة من سلسلة طويلة بدأت بالقصائد البسيطة القصيرة ثم تطورت حتى وصلت إلى هذه الأغانى الطويلة « المحيطة » بعضها فى بعض . وألفت فى أثينة فى القرن السادس قبل الميلاد لجنة حكومية — قد تكون فى عهد صولون[١٣] ، وقد تكون وهو الأرجح فى عهد بيسستراتس — ، فانتقت الإلياذة والأوذيسة من بين الملاحم الأدبية الباقية من القرن الذى قبله ، أو لعلها جمعتهما بعد مقابلة النسخ الموجودة منها وقتئذ بعضها على بعض ، ثم عزتهما إلى هومر ، ثم نشرتهما — أو لعلها صاغتهما — فى صورة فى جوهرها صورتهما الحاضرة[١٤] .

ومن المعجزات الأدبية أن تصل قصيدتان مستمدتان من أصول متعددة مختلفة إلى هذه الدرجة الفنية العالية . ولسنا ننكر أن الإلياذة تقصر دون الغاية

فى مبناها وفى لغتها ، وأن الصور الإيولية والأيونية تختلط فيها اختلاطاً لا يقدر عليه إلا رجل من أهل أزمير يتكلم عدة لغات ، وأن أوزان شعرها مأخوذة من هذه اللهجة تارة ومن تلك اللهجة تارة أخرى ، وأن حبكتها قد أفسدها كثرة ما فيها من تناقض ، وتغيير فى الخطة ، وتوكيد أهمية حادثة ما فى بعض المواضع ثم الاستخفاف بشأنها فى البعض الآخر ، وتعارض فى أخلاق أشخاصها ، وأن أبطالها يقتلون هم أنفسهم مرتين أو ثلاث مرات قبل نهاية القصة ، وأن موضوعها الأصلى — وهو غضب أخيل ونتائجه — يقطعه ويطغى عليه عشرات القصص والحوادث المأخوذة على ما يظهر من قصائد أخرى أدمجت فى الملحمة فى أجزاء مختلفة منها ، لسنا ننكر شيئاً من هذا ولكن القصة فى مناحيها الكبرى قصيدة واحدة ، ولغتها جزلة قوية حية ، والقصيدة فى جملتها « أعظم ما افترت عنه شفاه بنى الإنسان[١٥] » ولم يكن مستطاعاً أن تبدأ هذه الملحمة إلا فى شباب اليونان الناضر النشيط ، أو أن تختتم إلا فى إبان نضوجهم الفنى . وأشخاص الملحمة يكادون أن يكونوا كلهم من المحاربين أو من نساء المحاربين ، وحتى الفلاسفة منهم أمثال نسطور يقاتلون بشجاعة يحسدون عليها . وكل شخصية من هذه الشخصيات كانت موضع تفكير وعطف من مصورها . ولعل أجمل ما فى الأدب اليونانى كله هو نزاهته التى تجعلنا نعطف على هكتور تارة وعلى أخيل تارة أخرى . فأخيل فى خيمته شخص قد تجرد من صفات البطولة ، غير محبب إلى النفوس ، يشكو إلى أمه أن حظه لا يتفق مع مقامه نصف الإلهى ، وأن أجممنون قد سرق منه بريسيز البائسة وهى أعز ما يمتلك ، ثم يترك اليونان يحصدهم الموت زمراً وهو غاضب فى سفينته أو خيمته يأكل وينام ، ويرسل پتركلوس ليلقى منيته دون أن يجد منه عوناً ، ثم يملأ الجو عويلا ونحيباً لا يليق بالرجال . وحين يذهب إلى المعركة آخر الأمر ، لا يذهب إليها مدفوعاً بوطنيته بل لأن حزنه على فقد صديقه قد سلبه عقله ، وينسيه غضبه جميع الصفات

الإنسانية فينحدر إلى الدرك الأسفل من القسوة الوحشية فى معاملة ليكاءون Lycaon وهكتور ؛ فهو فى حقيقته ذو عقل ناقص غير ناضج ، غير مستقر ولا متزن ، ولا سلطان له على نفسه ، تنغص عليه حياته نبوءات الموت . انظر إلى ما يقوله لليكاءون بعد أن سقط على الأرض وأخذ يسترحمه : « لا ، يا صديق ، مت كما مات غيرك ! ماذا يجديك بكاؤك الذى لا يرجى منه خير ؟ لقد مات بتركلوس وهو خير منك . انظر إلىّ ألستُ وسيما طويل القامة أنجبنى أب كريم ، وكانت أمى التى ولدتنى إلهة ؟ ولكن الموت رغم هذا يحوم حولى وتوشك المنية أن تنشب مخالبها فىّ . فنى فجر يوم من الأيام أو ظهره أو مسائه تختطفنى من بين الأحياء يد لا أعرفها »[١٦] . ثم يطعن ليكاءون فى عنقه دون أن يهم هذا بمقاومته ، ويقذف بجسمه فى النهر ثم يلقى خطبة من تلك الخطب الرنانة التى تزدان بها مذابح الإلياذة ، ويضع بها أساس البلاغة الخطابية عند اليونان . وقد ظل نصف بلاد اليونان يعبد أخيل ويتخذه إلها[١٧] ، أما نحن فنقبله على أنه طفل ونعفو عن ذنوبه بهذا الوصف ، ومهما يكن ما يقال فيه فإنه من أروع الصور التى أبدعها خيال الشعراء .

وليس الذى يحملنا على أن نواصل قراءة الإلياذة ، حين لا نضطر إلى دراستها أو ترجمتها ، مقصوراً على تلك الخصائص المتباينة التى يخطئها الحصر ، وليس هو أيضاً مقصورا على تسلسل القصة وصخبها وعجيجها ، بل هو جلال شعرها وتدفقه . ولسنا ننكر أن هومر يكرر أقواله ويشير إليها ، وأن من خطته أن يعيد بعض الصفات وبعض الأبيات كما يفعل المغنون ، فتراه يكرر قوله الحبيب إلى نفسه : « حين بدت بنت الصباح ، الفجر ذات الأصابع الوردية »[١٨] . فإذا كانت هذه عيوبا فإنها تختفى وسط جمال اللغة ووفرة ما تحتويه من الاستعارات والتشبيهات التى تصف جمال الحقول الهادئة فتبعث بذلك فى نفوسنا الطمأنينة والهدوء وسط ما يحيط بنا من عجيج الحروب وصخبها . انظر إلى هذه العبارة التى



تصف تجمع الجيوش اليونانية : « واحتشد اليونان ذوو الشعر الطويل فوق السهل كما تحتشد أسراب الذباب فى مذاود الرعاة زمن الربيع حين يملأ اللبن الحديد الدلاء » ، أو إلى العبارة الآتية :

« كما تشق النار العظيمة طريقها فى الأودية العميقة بين الجبال الجرداء ، فتحترق أمامها الأشجار الضخمة السميكة ، ويتمايل اللهب يمنة ويسرة حين تهب عليه الرياح من هذه الناحية أو تلك — هكذا كان ينتقل أخيل وهو غاضب ثائر من جانب إلى جانب فى ميدان القتال ، ويدرك ضحاياه أينما كانوا فلا يفلتون منه ، ويخضب الأرض بدمائهم »[٢٠] .

وتختلف الأوديسة عن هذا كله أشدالاختلاف حتى ليظن الإنسان لأول وهلة أن مؤلفها غير مؤلف الإلياذة ؛ وقد قال بهذا بعض علماء الإسكندرية أنفسهم ، ولم يكم أفواه المتجادلين إلا أرستاركوس Aristarchus وما له من سلطان قوى بين الناقدين[٢١] . وتتفق الأوديسة مع الإلياذة فى بعض العبارات القاسية « أثينة ذات العين الشبيهة بين البومة » « اليونان الطوال الشعر » « قاتم كلون النبيذ » « الفجر ذات الأصابع الوردية » — وهى ألفاظ يبدو أنها لم تستعمل إلا بعد جمع الإلياذة أو تأليفها[٢٢] . فنى الملحمة الثانية يتكرر ذكر الحديد على حين أن الأولى تتحدث عن البرنز ، كذلك تسمع فيها عن الكتابة ، وعن الملكية الخاصة للأرض ، وعن العبيد المحررين وتحرير العبيد ، وهذه كلها لا يذكر منها شىء فى الإلياذة ، بل إن الآلهة وأعمالهم ليختلفون فى إحداهما عنهم فى الأخرى[٢٣] . ووزن القصيدتين واحد وهو الوزن السداسى الأوتاد المكون كل وتد فيه من ثلاثة مقاطع وهو المتبع فى جميع الملاحم اليونانية ؛ ولكن أسلوب الملحمة وروحها ومادتها تختلف كلها عن نظائرها فى الإلياذة اختلافا لا يتيسر معه لشاعر واحد أن ينشئ الملحمتين إلا إذا بلغ الذروة فى التعقيد ، وكان صاحب السلطان الأعلى على جميع الأمزجة والحالات النفسية المتباينة . وما من شك فى أن كاتب القصيدة

الثانية أكثر تضلعا فى الأدب والفلسفة ، وأقل عنفا ونزعة حربية من كاتب الأولى ؛ وهو أكثر منه تفكيراً وإدراكا لذاتيته ، وأملك منه لوقته وأكثر منه حضارة ؛ وقد بلغ من رقته أن ظن بنتلى Bentley أن الأوذيسة إنما كتبت لفائدة النساء خاصة[٢٤] .

ترى هل الأوذيسة من قول شاعر واحد أو عدة شعراء ؟ ن الجواب عن هذا السؤال أصعب فى حالة الأوذيسة منه فى حالة الإلياذة . إن فيها هى الأخرى شواهد على الإضافة والتلفيق ، ولكن هذه الإضافات كانت من عمل كتاب أعظم حذقا من كتاب الملحمة القديمة ؛ فحبكتها ، وإن كانت كثيرة اللف والدوران ، متناسقة تناسقا عجيباً ، خالية من التناقض ، لا يستحى أن يكتبها كاتب قصصى حديث ، يلمح الإنسان من بدايتها خاتمتها ، وكل حادثة من حوادثها تقرب القارئ من هذه الخاتمة ، وهى تربط كتبها الأربعة فتؤلف منها وحدة كاملة . وأكبر الظن أن الملحمة قد بنيت على قصائد كانت معروفة من قبلها شأنها فى هذا شأن الإلياذة ، ولكن عملية التوحيد فيها أتم وأقوى منها فى الإلياذة . وفى وسعنا أن نحكم بشىء كثير من التردد والإحجام أن الأوذيسة أحدث من الإلياذة بقرن من الزمان ، وأن الجزء الأكبر منها من وضع رجل واحد .

أما شخصياتها فأقل قوة وأقل وضوحا من شخصيات الإلياذة ، فبنلپى شبح غير واضح ، ولا تبرز واضحة من خلف نسجها إلا فى آخر الملحمة ، حين تطوف بعقلها لحظة من لحظات الشك ، أو لعلها من لحظات الندم ، بعد عودة سيدها . أما هلن بطلة الإلياذة فأشد منها وضوحا ، وهى امرأة فذة منقطعة النظير ؛ فهذه المرأة التى من أجلها أقلعت ألف سفينة ولاقى الموت فى سبيلها عشرة آلاف من الرجال لا تزال « إلهة بين النساء » ، ناضجة الجمال فى سن الكهولة ، أرق أخلاقا وأهدأ طباعا مما كانت من قبل ، ولكنها لم تفقد شيئاً من كبريائها وزهوها ، وتتقبل فى لطف ورقة كل مظاهر الترحاب والتبجيل التى تحيط بربات التاج ،

وتعدها حقا لها تنعم بها دون سائر النساء[٣٥] . وإن تصوير نبسكا ليعد مقالة بديعة تنطق بمقـــدرة الذكور على فهم الإناث ؛ والحق أننا لم نكن نتوقع أن يرسم يونانى هذه الشخصية الرقيقة الروائية . ولم يصور تلمكس تصويراً قوياً واضحاً ، فهو مصاب بداء التردد كأن به مسا من هملت . أما صورة أوديسيس فهى أكمل صور الشعر اليونانى وأكثرها تعقيدا . وقصارى القول أن الأوذيسة رواية بديعة ساحرة فى قالب شعرى ، مليئة بالعواطف الرقيقة والمغامرات المفاجئة ، تستمتع بها النفس المسالمة التى فى سن الكهولة أكثر مما تستمتع بالإلياذة الفخمة التى يراق فيها الكثير من الدماء .

وقد أضحت هاتان القصيدتان — وهما كل ما بقى من سلسلة طويلة من الملاحم — أثمن العناصر فى تراث اليونان الأدبى كله . وبفضلهما صارت دراسة « هومر » العنصر الأساسى فى نظام التعليم اليونانى ، ومستودع الأساطير اليونانية ، ومنبع ألف من المسرحيات ، وأساس التدريب الخلقى ؛ وأعجب من هذا كله أنهما صارتا الكتاب المقدس الذى يستمد منه اليونان دينهم الصحيح .

وفى ذلك يقول هيرودوت — وأكبر الظن أن فى قوله بعض المبالغة — إن هومر وهزيود هما اللذان خلعا على الآلهة الأولمبية صورة الأناسى ، واللذان أدخلا النظام فى مملكة السماء الكهنوتية[٣٦] . وإنا لنجد فى آلهة هومر كثيراً من أسباب العظمة والفخامة ، ونحن نحبها لما نتبين فيها من نقائص ، ولكن العلماء قد تبينوا من زمن طويل فى الشعراء الذين صوروها تشككا ومرحا لا يليق وصفه فى كتاب يعد بحق كتاب اليونان القرمى المقدس . فتلك الآلهة تتنازع كما يتنازع الأقارب ، وتفسق كما تفسق البراغيث ، وتشترك مع بنى الإنسان فيما خيل إلى الإسكندر أنه وصمة البشرية — ونعنى بذلك حاجتها إلى الحب وإلى النوم ؛ ويجوز عليها كل ما يجوز على الآدميين إلا الجوع والموت . وليس فيها

كلها من يضارع أوديسيس فى ذكائه ، أو هكتور فى بطولته ، أو أندرمكا فى رقتها وحنانها ، أو نسطور فى مهابته . ولم يكن فى وسع إنسان أن يهزل بالآلهة هذا الهزل إلا شاعر فى القرن السادس قبل الميلاد ملم كل الإلمام بتشكك الأيونيين[٢٧] . ومن مضحكات التاريخ أن هاتين الملحمتين اللتين تخصان الآلهة الأولمبية بدور الهازلين ، وتجعلان هذا الدور أهم أدوارها ، إن من مضحكات التاريخ أن هاتين الملحمتين كانتا موضع الإجلال فى بلاد اليونان كلِّها ، وكانتا تعداد دعامة الخلق القويم والعقيدة المحترمة . ولكن هذا التناقض اتضح للناس آخر الأمر ، وقضى ما فيهما من هزل على ما توحيان به من عقيدة ، وثارت أخلق الناس بعد تطورها على أخلاق الآلهة وحلت محلها .

الفصل الرابع

الألعـــاب

إذا كان الدين قد عجز عن توحيد بلاد اليونان ، فإن الألعاب الرياضية الموسمية قد أفلحت فى توحيدها . ذلك أن الناس لم يكونوا يذهبون إلى أولمپيا ، ودلفى ، وكورنثة ، ونميا ليعظموا الآلهة — لأن الآلهة يمكن تعظيمها فى أى مكان — بقدر ما كانوا يذهبون ليشاهدوا مباريات البطولة بين الرياضيين المختارين ، والاجتماع العام لطوائف اليونان المختلفين . ومن الشواهد الدالة على أثر هذه المراكز فى تاريخ اليونان أن الإسكندر — وهو الذى كان فى وسعه أن يشاهد بلاد اليونان من خارجها — كان يعد أولمپيا عاصمة العالم اليونانى .

فى هذه الأماكن نجد دين اليونان الحقيقى تسيطر عليـــه قواعد الألعاب الرياضية وتعاليمها ، وهذا الدين هو عبادة الصحة والجمال ، والقوة . وفى ذلك يقول سمنيدس : « إن أحسن ما يستطيع الإنسان أن يتمتع به هو الصحة الجيدة ، ويأتى بعد الصحة جمال الشكل وحسن الطبع ، ثم تلى ذلك الثروة ينالها الإنسان من غير غش أو خداع ، ويأتى فى المرتبة الرابعة أن يكون الإنسان فى نضرة الشباب بين الأصدقاء والخلان »[٢٧] . وتقول الأوذيسة[٢٨] « ليس ثمة مجد يستطيع الإنسان أن يناله طوال حياته أعظم مما يناله بيديه وقدميه » . ولعله كان من أوجب الواجبات على شعب أرستقراطى يعيش بين جماعات من الرقيق أكثر منه عدداً ، ويُطلب إليه المرة بعد المرة أن يرد عن حماه المغيرين من أمم أكثر منه . نقول لعله كان من أوجب الواجبات على هذا الشعب أن يحافظ على قوته الجسمية ، ذلك أن الحرب فى الزمن القديم كانت تعتمد على القوة والمهارة ، ولقد كانت القوة والمهارة الغرض الأول من المباريات التى طبقت

شهرتها الآفاق فى جميع هيلاس . وإن من الخطأ أن نفكر فى الرجل اليونانى العادى على أنه طالب علم مولع بإسكلس أو أفلاطون ؛ ذلك أن هذا اليونانى العادى كان كالبريطانى أو الأمريكى العادى مولعا بالألعاب ، وكان أبطالها المحبون هم آلهته على هذه الأرض .

وكانت الألعاب اليونانية أنواعا مختلفة — منها ألعاب خاصة ، وألعاب محلية ، وألعاب بلدية ، وألعاب يونانية جامعة . وإن الآثار القديمة حتى المحطم منها لتكشف عن ثبت طويل ممتع من الألعاب الرياضية . ففى متحف أثينة حجر على أحد وجهيه نقش يصور مباراة فى المصارعة ، وعلى الوجه الآخر مباراة لعبة الهكى Hockey[١٩] . أما السباحة ، وركوب الخيل العارية الظهر ، ورمى القذائف واتقاؤها أثناء الركوب ، فكانت كلها من مستلزمات اليونانى المهذب أكثر منها ألعاباً ومباريات . كذلك أصبح الصيد من ضروب الرياضة بعد أن لم يعد من وسائل العيش الضرورية . ولم تكن ألعاب الكرة أقل تنوعا أو انتشاراً مما هى فى هذه الأيام . وكانت كلمتا شاب ولاعب كرة مترادفتين فى اسپارطة . وكانت تبنى فى ساحات التمرين حجرات خاصة بألعاب الكرة يسمونها اسفيرستيريا sphairisteria ، وكان معلموها يسمون اسفيرستاى Sphairistai . ونشاهد على نقش آخر رجالا ترتد إليهم الكرة من أرض الحجرة أو جدارها ، ثم يردونها هم براحة اليد[٢٠] ، ولسنا نعرف هل كان اللاعبون يفعلون ذلك بالتناوب كما نفعل نحن بكرة اليد فى هذه الأيام . وكان من بين ألعاب الكرة لعبة تشبه لعبة اللاكرس Lacrosse الكندية وهى ضرب من لعبة الهكى تلعب بالمضارب ويصفها پولكس Pollex ، وهو كاتب من كتاب القرن الثانى بعد الميلاد ، بعبارات كأنها من عبارات هذه الأيام فيقول :

« يجتمع بعض الشبان ويقسمون أنفسهم جماعتين متساويتين فى العدد ويتركون فى أرض منبسطة — أعدوها من قبل وقاسوها — كرة مصنوعة من

الجلد ، تقرب من حجم التفاحة ، ثم يهجمون عليها ، كأنها جائزة وضعت بينهم ، من نقط الابتـــداء المحددة لهم ، وفى يمين كل منهم مضرب rhabcon ... ينتهى بانحناء مستو وسطه نسيج من خيوط مأخوذة من أمعاء الحيوان ... مجدولة كالشبكة . وتحاول كلتا الطائفتين أن تدفع الكرة من جزء الساحة المخصص لها إلى طرف الجزء المقابل لها[٣١] » .

ويصف هذا المؤلف نفسه لعبة أخرى تحاول فيها فرقة من اللاعبين أن تقذف بالكرة من فوق رؤوس الفرقة المضادة لها أو من بين لاعبيها ، وتستمر فى هذا « حتى يرد أحد الطرفين الطرف الآخر إلى ما وراء خط مرماه » . ويصف أنتفانيز فى جذاذة ناقصة من القرن الرابع قبل الميلاد أحد مهرة اللاعبين الممتازين فيقول : « ولما أخذ الكرة سره أن يعطيها إلى أحد اللاعبين ، ثم تفادى لاعباً آخر ، ثم استولى عليها من لاعب وضربها واستحث لاعباً آخر بأصواته العالية . وها هى ذى خارج الملعب ، ثم رمية طويلة ، ثم تمر به من فوق رأسه ، ورمية قصيرة ... »[٣٢] .

ومن هذه الألعاب الخاصة نشأت ألعاب محلية ، وأخرى فى مناسبات معينة كما كان يحدث عقب وفاة بطل من الأبطال مثل بتركلوس أو نجاح مشروع عظيم كزحف رجال أكسانوفون العشرة الآلاف إلى البحر . ثم نشأت بعدئذ ألعاب البلديات التى يمثل فيها المتبارون أماكن أو طوائف مختلفة فى داخل إحدى دول المدن . أما ألعاب الجامعة الأثينية التى كانت تقام كل أربع سنين فهى أقرب ما تكون إلى الألعاب الدولية وإن لم ينطبق عليها هذا الوصف كل الانطباق . وقد أنشأها بيسستراتس فى عام ٥٦٦ ، وكانت كثرة المشتركين فيها من أتكا ، ولكن غير الأتكيين كان يرحب باشتراكهم فيها . وكانت تشمل ، فضلا عن الألعاب الرياضية المألوفة ، سباق العربات ، وسباق المشاعل ، وسباق التجذيف ، ومباريات موسيقية فى الغناء والعزف على القيثارة والمزمار والناى ، والرقص ،

وإلقاء أكثر ما يكون من شعر هومر . وكان يمثل كل قسم من أقسام أتكا العشرة أربعة وعشرون رجلا يختارون من بين أصح السكان أجساماً وأقواهم بنية وأجملهم منظراً ، وكانوا يعطون جائزة للأربعة والعشرين الذين يكون لهم فى النظارة أعظم الأثر ، وتسمى جائزة « الرجولة الباهرة »[٢٨] .

وإذ كانت الرياضة ضرورية للحرب ، ولكنها تنعدم إذا لم تعقد لها مباريات ، فقد أنشأت المدن اليونانية الألعاب اليونانية الجامعة لتكون أكبر حافز لليونان أجمعين على إتقان هذه الألعاب . وكانت أولى هذه المباريات الجامعة هى التى تقام بانتظام مرة كل أربع سنين فى أولمبيا ؛ وقد أقيمت للمرة الأولى فى عام ٧٧٦ . م وهو أول تاريخ محدد فى حياة اليونان بأجمعها . وكانت هذه الألعاب فى أول أمرها مقصورة على الإيليين Eleans ، وقبل أن يمضى قرن على بدايتها كان يشترك فيها لاعبون من جميع بلاد اليونان ؛ ولم يحل عام ٤٧٦ حتى كان ثبت الظافرين فيها يشمل لاعبين من جميع البقاع الممتدة من سينوب إلى مرسيلية ، وأصبح عيد زيوس على مر الزمن يوماً مقدساً دولياً ، وكان الشهر الذى يقع فيه هذا العيد شهراً حراما يتهادن فيه المحاربون فى جميع بلاد اليونان ، ويفرض فيه الإيليون غرامات على كل دولة يونانية يلحق فى أرضها أذى بأى قادم إلى هذه الألعاب . وقد أدى فليب المقدونى هذه الغرامة عن يد وهو صاغر لأن بعض جنوده سرقوا مال أثينى وهو فى طريقه إلى أولمبيا .

وفى وسعنا أن نتصور الحجاج واللاعبين يبدءون رحلتهم من المدن النائية قبل بدء المباريات بشهر كامل ، فإذا ما حان الموعد المحدد اجتمعوا كلهم فى صعيد واحد ؛ وكانت أيام المباريات سوقاً عامة وعيداً فى وقت واحد ، وكانت الخيام تنصب فى السهل لتقى الزائرين حر شمس يوليه اللافح ، وإلى جانبها المظلات يستظل بها البائعون ويعرضون تحتها بضاعتهم على اختلاف ألوانها ، من خمر وفاكهة وخيل وتماثيل ؛ وترى اللاعبين على الحبال والمشعوذين يعرضون

ألاعيبهم على الجماهير . فنهم من يقذف بالكرة فى الهواء ومنهم من يلعب ألعاباً تشهد بالخفة والمهارة ، ومنهم من يأكل النار أو يبتلع السيوف . ذلك أن ضروب التسلية ، كأنواع الخرافات ، قديمة العهد يخلع عليها هذا القدم ثوباً من التقديس والإجلال . وكان أشهر الخطباء أمثال جورجياس ، وأشهر السوفسطائيين أمثال هيپاس ، وربما كان أشهر الكتاب أمثال هيرودوت ، كان هؤلاء جميعاً يلقون خطبهم أو يتلون أقوالهم من أروقة هيكل زيوس . وكانت هذه الأيام أعياداً مقدسة للرجال خاصة لأن النساء المتزوجات لم يكن يسمح لهن بالحضور فى هذه الساحة ، بل كانت ألعاب خاصة تقوم فى عيد هيرا . وقد لخص منندر منظر هذه الألعاب فى خمس كلمات جامعة « زحام ، وسوق ، ولاعبون ، وتسلية ، ولصوص »[٣٤] .

ولم يكن يسمح لغير اليونان الأحرار بالاشتراك فى مباريات الألعاب الأولمپية ؛ وكان المتبارون (Athletes المشتقة من Athlos بمعنى مباراة) يختارون بعد اختبارات محلية وبلدية يستبعد بها غير اللائقين ، ثم يدربون بعدئذ عشرة شهور كاملة تدريباً صارماً على أيدى مدربين محترفين يسمون پيدترباى paidotribai (ومعناها اللغوى مدلكو الشبان) ورياضيين يدعون gymnastai (أى العراة) .

فإذا جاءوا إلى أولمپيا اختبرهم موظفون مخصوصون وأقسموا أن يراعوا جميع قوانين الألعاب . ولم يكن يحدث فى الألعاب غش أو خروج على السنن الصحيحة إلا القليل النادر ؛ منها ما قيل من أن يوپوليس Euopolis قد رشا الملاكمين حتى ينهزموا له[٣٥] ؛ ولكن ما كان يفرض على هؤلاء المخادعين من عقاب ، وما كان يلحقهم من مهانة ، كان كبيراً إلى حد يحول بينهم وبين الإقدام على مثل هذا العمل ؛ فإذا ما تم استعداد اللاعبين أخذوا إلى ميدان الألعاب ؛ فإذا دخلوه نادى مناد أسماءهم وأسماء المدن التى بعثت بهم . وكان المتبارون جميعاً ، أياً كانت سنهم ومنزلتهم ، يجردون من الثياب إلا من منطقة تحيط بالحقوين

فى بعض الأحيان[٣٦] . ولم يبق من هذا الملعب نفسه إلا الألواح الحجرية التى كانت توضع بين أصابع أرجل المتسابقين فى بداية السباق . وكان النظارة البالغ عددهم ٤٥٫٠٠٠ يحتفظون بأماكنهم فى الملعب طول النهار يقاسون الأمرّين من الحشرات والحر والظمأ ؛ ولم يكن يسمح لهم بلبس قبعاتهم ، وكان الماء الذى يسقون منه رديئاً غير صالح للشرب ، كما كان الذباب والبعوض يملأ جو المكان كما يملأ أمثاله فى هذه الأيام . وكانت القرابين تقرب مراراً وتكراراً إلى زيوس طارد الذباب[٣٧] .

وكانت أهم المباريات فى هذه الألعاب هى التى يطلقون عليها اسم المباريات الخمس (pentathlon)[*] . وأراد اليونان أن يكون اللاعبون متمكنين من هذه الألعاب جيعاً ، فكانوا يحتمون على من يتقدم للمباراة فى واحدة منها أن ينازل غيره فيها جيعاً ، ولا يعد اللاعب منتصراً إلا إذا فاز فى ثلاث لعبات من خمس . وكانت أولاها هى القفز الواسع ، فكان اللاعب يمسك بيديه ثقلين شبيهين بكتل الحديد المستديرة ويقفز بهما من وضع معين ، ويؤكد لنا الكتاب الأقدمون أن بعض القافزين كانوا يقفزون إلى مسافة خمسين قدما[٣٨] . ولكنا غير ملزمين بأن نصدق كل ما نقرأ . واللعبة الثانية هى قذف القرص وهو لوحة مستديرة من المعدن أو الحجر تزن نحو اثنى عشر رطلا ، ويقال إن أكبر القذفات كانت تصل مسافة مائة قدم[٣٩] . وكانت اللعبة الثالثة هى قذف الحربة أو الرمح بالاستعانة بِشَرعة من الجلد متصلة بوسط السهم . وكانت المباراة الرابعة هى الجرى مسافة قصيرة بأقصى سرعة فى الملعب نفسه ، وكانت هذه المسافة تبلغ نحو مائتى ميل فى الغالب . وكانت المباراة الخامسة هى المصارعة ، وهى من المباريات المحببة كثيراً إلى اليونان ، ومنها اشتق لفظ Palaistra نفسه ، وما أكثر ما يروى من القصص عن الأبطال المصارعين .

(*) وتشمل هذه المباريات المصارعة ، والقذف القرص ، وقذف الرمح ، والقفز ، والجرى

وكانت الملاكمة من الألعاب القديمة ، ونكاد نوقن أنها مأخوذة عن كريت المينوية وبلاد اليونان الميسينية . وكان المتبارون ينازل بعضهم بعضاً بكرات للكم معلقة بمحاذاة الرأس ومحشوة ببذور التين أو الدقيق أو الرمل ، وفى عصر اليونان الزاهر (أى فى القرنين الخامس والرابع) كان الملاكمون يلبسون « قفازات لينة » من جلد الثيران ، معالجة بالدهن ، وتكاد تصل إلى المرافق ، وكانت الضربات مقصورة على الرأس ولكنهم لم تكن لديهم قواعد تحرم ضرب اللاعب إذا وقع على الأرض . ولم تكن هناك أشواط أو فترات للراحة ، بل كان الملاكمان يواصلان اللعب حتى يستسلم أحدهما أو يعجز عن الملاكمة . ولم يكونوا يقسّمون حسب أوزانهم ، ومن كان فى مقدور أى إنسان مهما يكن وزنه أن يشترك فى المباريات . ومن ثم كان ثقل الجسم ذا نفع كبير لصاحبه ، وانحطت الملاكمة لهذا السبب فى بلاد اليونان وتحولت من مباراة فى المهارة إلى منازلة بالقوة العضلية .

وازدادت وحشية اللاعبين على مر الزمن فجمعوا المصارعة والملاكمة فى مباراة جديدة سموها لعبة القوى مجتمعة (pankration) . وكان يسمح فى هذه اللعبة بكل شىء عدا العض وفقأ العين ، وحتى الركل فى البطن كان مسموحاً به أيضاً[٣٩] . وقد وصلت إلينا أسماء ثلاثة من أبطال هذه المباراة هزموا من نازلوهم لأنهم كسروا أصابعهم[٤٠] ، وكال أحدهم لغريمه ضربات وحشية بأصابعه الممدودة وأظافره الطويلة القوية التى اخترق بها جلده وانتزع بها أمعاءه من بطنه[٤١] . لكن ميلو الكروتونى كان ملاكماً أظرف من هؤلاء وأحب إلى النفوس ، ويروى عنه أنه نمى قوة جسمه بحمل عجل صغير فى كل يوم من حياته حتى كبر هـــذا العجل وأصبح ثوراً كامل النمو . وكان الناس يحبونه لحيله ودهائه ، فقد كان يمسك فى يده رمانة ويقبض عليها بقوة لا يستطيع معها أى إنسان أن ينتزعها منه ، ومع ذلك كانت الرمانة تبقى سليمة لا ينالها أذى ؛ وكان يقف على قرص من الحديد مدهون بالزيت ويقاوم كل ما يبذل من الجهد لزحزحته عن مكانه ؛

ويربط حبلا حول جبهته ثم يقطع الحبل بوقف تنفسه ودفع الدم إلى رأسه . وقضت عليه مواهبه هذه آخر الأمر ؛ « ذلك أنه التقى مصادفة بشجرة ذابلة ، كما يقول بوزنياس » دقت فيها أوتاد لتفصل خشبها بعضه عن بعض ، فخيل إليه أن يفصل هذا الخشب بيديه ، ولكن الأوتاد انخلعت من الشجرة وانطبق خشبها عليه ، وافترسته الذئاب[٤٣] .

وكانت الألعاب تشمل فضلا عن السباق السريع القصير المدى مسابقات أخرى فى العدو ، منها مسابقة طولها أربعون ياردة ، وأخرى طولها أربعة وعشرون شوطاً (*) أو ميلان وثلثا ميل ، ومنها سباق مسلح يحمل كل عداء فيه ترساً ، وليس لدينا ما نستدل منه على الأرقام القياسية فى هـــذه المسابقات . وكان الشوط يختلف باختلاف المدن ، ولم يكن لدى اليونان آلات يقيسون بها أجزاء الزمن الصغيرة . وتحدثنا الأقاصيص عن عداء يونانى كان يسبق الأرنب ، وعن آخر سابق جواداً من كرونيا إلى طيبة (حوالى عشرين ميلا) وسبقه ، وعن فيدپديس Pheidippides الذى جرى من أثينة إلى اسپارطة ١٥٠ ميلا - فى يومين[٤٤] ، ونقل إلى أثينة بشرى النصر فى مرثون التى تبعد عنها أربعة وعشرين ميلا ، ثم مات متأثراً بما عاناه من التعب . ولكن بلاد اليونان لم تكن فيها « مسابقات مرثونية » .

وقد أنشأت أولمپيا فى السهل الواقع فى أسفل الملعب مضماراً لسباق الخيل خاصة . وكان للنساء والرجال على السواء أن يتقدموا بخيولهم إلى هذا السباق ، وكانت الجائزة فى ذلك الوقت تعطى لصاحب الجواد - كما هى الحال فى وقتنا هذا - لا لراكبه ، وإن كان الجواد فى بعض الأحيان يجازى بأن يقام له تمثال[٤٥] ، وكانت آخر المباريات هى مباراة المركبات ، وكان يجر كل مركبة

(*) الشوط مقياس يونانى طوله عادة ٦٠٠ قدم يونانية أو ٥٨٢ قدما إنجليزية ، ولكنه كان يختلف باختلاف المدن . (المترجم)

جوادان أو أربعة جياد تسير جنباً إلى جنب. وكثيراً ما كان يشترك فى المباراة الواحدة عشر مركبات فى كل منها أربعة جياد ، وكان على كل مركبة أن تدور حول الأنصاب المقامة فى الحلبة ثلاثاً وعشرين دورة فى آخر السباق ، ولذلك فإن حوادث خطيرة كانت تحدث وقتئذ ، وكانت هذه الحوادث أهم ما يثير المشاعر فى الألعاب . وقد حدث فى سباق منها بدأ بأربعين مركبة أن لم تتمه إلا مركبة واحدة . وفى وسعنا أن نتصور اهتياج النظارة وجدلهم حول من يناصرون ، وأسفهم وهم منفعلون حينما يطوف الظافرون آخر طواف لهم حول الأنصاب.

فإذا انتهت هذه المباريات المجهدة بعد خمسة أيام كاملة ، نالوا جوائزهم ، ولف كل منهم عصابة من الصوف حول رأسه ، ثم وضع المحكمون على هذه العصابة إكليلا من أوراق الزيتون البرى وأغصانه ، ونادى مناد أسماء الظافرين وأسماء مدنهم . وكان هذا الإكليل النباتى هو الجائزة الوحيدة التى تعطى فى الألعاب الأولمبية . ولكنه مع ذلك كان الشرف الذى يبذل المتبارون بلاد اليونان أقصى جهودهم ليظفروا به . وقد بلغ من أهمية هذه الألعاب وحرص اليونان عليها أن الغزو الفارسى نفسه لم يحل بينهم وبين إقامتها ، فبينا كانت حفنة من اليونان تقف فى وجه خشيار شاى فى ترموپيلى كانت آلاف مؤلفة منهم تشهد كعادتها ثيچنيس Theagenese الثاسوسى ، فى اليوم الذى دارت فيه المعركة ، يظفر بإكليل ألعاب القوى المجتمعة . وصاح جندى فارسى فى وجه قائده يقول : « رباه ! أى صنف من البشر أولئك الأقوام الذين أتيت بنا لنقاتلهم ؟ — إنهم رجال لا يقاتل بعضهم بعضا من أجل المال بل من أجل الشرف !(٩٦) » . وما من شك فى أن هذا الجندى الفارسى أو اليونانى الذى اخترع القصة ، قد جاوز الحد فى الثناء على اليونان بقوله هذا ، وليس ذلك لأنه كان من واجبهم أن يكونوا فى ذلك اليوم فى ترموپيلى بدل أن يكونوا فى أولمپيا فحسب ، بل لهذا السبب ولغيره من الأسباب ، ذلك أن الظافرين كانوا يحصلون على جوائز أخرى كبيرة من طريق غير مباشر

وإن كانت الجائزة المباشرة التي ينالونها في الألعاب نفسها كانت قليلة لا تسمن ولا تغنى من جوع. لقد كانت مدن كثيرة تمنح الظافرين جوائز مالية كبيرة بعد أن يعودوا من الألعاب الأولمبية ، وكان بعضها يعينهم قواداً لجيوشه ، وكانت الجماهير تقدسهم تقديساً يحسدهم عليه الفلاسفة ويشكون منه[٤٧] . وكان بعض الظافرين أو أنصارهم يستأجرون شعراء مثل سمنيدس أو بندار لينشئوا القصائد في مدحهم وتكريمهم ، وكانت هذه الأشعار تغنيها جماعات من الغلمان في الموكب الذي يخرج لاستقبالهم ؛ وكانت الأموال تدفع للمثالين ليخلدوا ذكراهم بالتماثيل البرنزية أو الحجرية ، وكانوا في بعض الأحيان يطعمون بلا ثمن في ردهة المدينة . وفي وسعنا أن نقدر ما يتكلفه هذا الطعام إذا عرفنا — من مصدر مشكوك في دقته — أن ميلو أكل عجلة بنت أربع سنوات ، وأن ثيچنيس أكل ثوراً ، في يوم واحد[٤٨] .

وكان القرن السادس هو العهد الذي بلغت فيه الألعاب الرياضية أعظم روعتها وتغلغل حبها في قلوب الشعب إلى أبعد حد . ففي عام ٥٨٢ أنشأ الحلف الاثنا عشرى الألعاب الفيثية في دلفي تكريماً لأپلو . وفي تلك السنة نفسها أنشئت ألعاب البرزخ في كورنثة تكريماً لپوسيدن ، وبعد ست سنوات من ذلك الوقت أنشئت الألعاب النيمية تكريماً لزيوس النيمي ، وأضحت هذه المواسم كلها أعياداً يحتفل بها اليونان على بكرة أبيهم . وقد نشأت منها ومن الألعاب الاولمبية دورة (Periodos) ، وكان أعظم ما يطمع فيه اليوناني الرياضي أن ينال أكاليل فيها جميعاً . وقد أضيفت مباريات في الموسيقى والشعر إلى المباريات الجسمية في الألعاب الفيثية ، والحق أن هذه المباريات الموسيقية كانت تقام في دلفي قبل إنشاء الألعاب الرياضية فيها بزمن طويل . وكان موضوع المباريات في بادئ الأمر أنشودة يخلد بها انتصار أپلو على الأفعى الدلفية ؛ ثم أضيفت إليها في عام ٥٨٢ مباريات في الغناء وفي العزف على القيثارة والنفخ في الناى . وكانت مباريات

موسيقية مثلها تقام فى كورنثة ، ونيميا ، وديلوس ، وغيرها من المدن ؛ وذلك لأن اليونان كانوا يعتقدون أنهم يستطيعون بهذه المباريات العامة أن ينموا مقدرة العازفين وذوق الجماهير فى وقت واحد. وكانوا يسيرون على هذا المبدإ نفسه فى كل فن من الفنون تقريباً ــ كصناعة الخزف ، والشعر ، والنحت ، والتصوير ، والغناء الجماعى ، والخطابة ، والتمثيل[٤٩]. وبهذه الطريقة وغيرها من الطرق أصبح للألعاب أكبر الأثر فى الفنون ، والآداب ، بل كان لها أيضاً أعمق الأثر فى كتابة التاريخ نفسه ؛ وذلك لأن أهم طريقة لحساب السنين فى كتب التاريخ المتأخرة كانت هى التأريخ بالفترات الأولمبية ، وكانت كل فترة تميز باسم الظافر فى سباق الجرى شوطاً واحداً . وكان الكمال الجسمى الذى بلغه الرياضيون البارعون فى الألعاب جميعها فى القرن السادس قبل الميلاد هو الذى أوحى إلى اليونان بالمثل الأعلى فى نحت التماثيل ، وهو المثل الذى بلغ غايته على يدى ميرون Meiron وبليكليتوس . وقد أتاحت ألعاب العراة فى مضامير الألعاب وفى أثناء الأعياد للمثال فرصاً لدراسة جسم الإنسان فى جميع أشكاله وأوضاعه ، فأضحت الأمة هى نفسها نماذج لفنانيها على غير علم منها ، وتعاونت الألعاب الرياضية اليونانية مع الدين اليونانى على إيجاد الفن اليونانى .

الفصل الخامس

الفنون

لقد وصلنا الآن إلى أكمل نتاج الحضارة اليونانية ، ولكننا مع الأسف الشديد لا نجد من بقايا هذا النتاج العظيم إلا النزر اليسير . ذلك أن التدمير الذى عاناه الأدب اليونانى من جراء عدوان الزمان وتحكم ذوى العقول الضيقة الجاهلة ، وتغير الأنماط والأهواء العقلية ، لا يعد شيئاً مذكوراً إذا قيس إلى ما وقع على الفن اليونانى من تدمير . ولقد بقى لدينا من عصر الفنون الزاهر قطعة برنزية واحدة هى راكب العربة فى دلفى ، وتمثال واحد من الرخام هو تمثال هرمس من صنع المثال پركستيليز ، أما الهياكل فلم يصل إلينا منها هيكل واحد — ولا هيكل التسيوم نفسه — بالشكل أو باللون الذى كان عليه فى بلاد اليونان القديمة . كذلك لم يكد يبقى لدينا شىء من النقوش اليونانية على المنسوجات ، أو الخشب ، أو العاج ، أو الفضة ، أو الذهب ، ذلك أن هذه المواد كانت أضعف أو أثمن من أن تنجو من أيدى الناهبين أو عبث الأيام . لذى كان علينا أن نعيد تصوير هذه الفنون مستعينين على ذلك بما بقى لدينا من آثارها المحطمة القليلة .

وكانت الأسباب التى أدت إلى نشأة الفن اليونانى هى الرغبة فى تصوير الأجسام وتزيينها ، والنزعة البشرية فى الديانة اليونانية ، والروح الرياضية ، والمُثُل العليا للرياضيين . ولما ارتقى اليونانى البدائى عن المرحلة التى اعتاد أن يضحى فيها بالآدميين لكى يصحبوا الموتى ويقوموا على خدمتهم ، استبدل بهم التماثيل المنحوتة أو الصور كما فعل غيره من البدائيين . ووضع بعد ذلك صوراً لآبائه فى بيته ، أو وضع فى المعابد صوراً وتماثيل شبيهة به أو بمن يحب ؛ اعتقاداً منه أن هذه الصور والتماثيل ستتمكن بقوة سحرية من بسط حماية الإله ورعايته على

من مثله . لقد كان الدين المينوى ، والدين الميسينى ، وكانت طقوس اليونان الأرضية نفسها ، عبارات غامضة مبهمة غير شخصية ، وكان فيها أحياناً من الرهبة والسخف ما ينأى بها عن جمال التصوير ؛ ولكن الخصائص البشرية الصريحة التى كان يتصف بها آلهة أولمبس ، وحاجتهم إلى مواطن وهياكل تقيم فيها على سطح الأرض ، كل هـــذه قد فتحت أمام اليونان آفاقا واسعة للنحت والعمارة ولعشرات العشرات من الفنون المتصلة بهما . ولسنا نجد دينا غير هذا الدين — مع جواز استثناء الديانة المسيحية الكاثوليكية — شجع الآداب والفنون ، وأثر فيهما ، كما شجعهما وأثر فيهما الدين اليونانى . ولا نكاد نجد فيما لدينا من آثار اليونان الأقدمين كتابا ، أو مسرحية ، أو تمثالا ، أو بناء ، أو مزهرية لا يمت إلى الدين بصلة فى موضوعه ، أو غرضه ، أو الإلهام به .

ولكن الإلهام وحده لم يكن ليرفع من شأن الفن اليونانى إلى الدرجة التى ارتفع إليها ، فقد كان هذا يحتاج إلى البراعة الفنية العالية التى تنشأ من الصلات الثقافية ، وإلى تطور الصناعات اليدوية وانتقالها من طور إلى طور . والحق أن الفن لم يكن عند الرجل اليونانى إلا نوعا من الصناعة اليدوية ، وارتقى الفنان من الصانع الماهر ارتقاء طبيعياً تدريجياً حتى لم يكن اليونان يميزون أحدهما من الآخر تمييزاً دقيقاً . لقد كان الفنانون فى حاجة إلى العلم بجسم الإنسان لأن نموه الصحى السليم هو الذى يكسبه تناسباً وتناسقاً وجمالا ؛ وكانوا فى حاجة إلى حب للجمال عاطفى قوى جنسى يهون معه كل صعب إذا ما أدى إلى تخليد لحظة من لحظاته الحية ، وصورها فى صورة تبقى على مر الزمان . وكانت نساء اسپارطة يضعن فى حجرات نومهن صوراً لأپلو ، ونارسس ، وهياسنثس ، أو أى إله آخر وسيم حتى يلدن بذلك أطفالا جمالا[٥٠] . وأقام سپسلوس Cypselus مباراة فى الجمال بين النساء من زمن بعيد يرجع إلى القرن السابع قبل الميلاد ، ويقول أثينيوس إن هذه المباراة الدورية استمرت إلى العهد المسيحى[٥١] . ومن أقوال ثيوفراستوس

Theophrastus فى هذا المعنى « إن مباريات تقام » فى بعض الأماكن « بين النساء فى الخفر ، وحسن التدبير ... كما تقام مباريات فى الجمال ، كالمباريات التى تقام ... فى تندوس ولسبوس »[٥٢] .

١ — المزهريات

من الأقاصيص الطريفة الشائعة فى بلاد اليونان أن أول قدح للشراب قد شكل فوق ثدى هلن[٥٣] ، فإذا كان هذا صحيحا فإن القالب الذى صنع على هذا الطراز قد ضاع عقب الغزو الدورى ، لأن ما وصل إلينا من الآنية الفخارية من العهود اليونانية القديمة لا يذكرنا قط بهلن ؛ وما من شك فى أن هذا الغزو قد أثر أسوأ الأثر فى تطور هذا الفن ، وأفقر الصناع ، وشتت المدارس ، وقضى إلى حين على انتقال أصوله ؛ ذلك بأن المزهريات اليونانية تبدأ من بعد هذا الغزو بسيطة بدائية فجة ؛ كأن كريت لم تسم بصناعة الفخار فتجعلها فناً جميلا .

ويغلب على الظن أن مزاج الفاتحين الدوريين الذى كانت تغلب عليه الخشونة هو الذى أخرج مما بقى من قواعد الفن المينوى الميسينى ذلك الطراز الهندسى الذى كانت له السيطرة على أقدم الفخار اليونانى بعد العصر الهومرى . لقد محى من هذا الفخار ما كانت تزدان به الآنية الكريتية من رسوم الأزهار والمناظر الطبيعية ، والنباتات ؛ وكانت النزعة الصارمة التى أقامت مجد الهياكل الدورية هى التى قضت على صناعة الفخار اليونانية . وليس فى الجرار الضخمة التى يمتاز بها هذا العصر ما يمت بصلة إلى الجمال ، فقد كان الغرض من صنعها حفظ الخمر أو الزيت أو الحبوب ، ولم يكن يقصد بها أن تكون متعة للفنان الخبير بصناعة الخزف . ويكاد نقشها كله أن يكون وحدات من مثلثات أو دوائر ، أو سلاسل ، أو خطوط متقاطعة ، ومعينات ، وصلبان ، أو خطوط أفقية متوازية بسيطة تتكرر مرة بعد مرة . وحتى الرسوم الآدمية التى تتخلل هذه الأشكال

كانت رسوماً هندسية ، فجذع التمثال العلوى كان مثلث الشكل ، وفخذاه وساقاه كانت مخروطية . وانتشر هذا الطراز الهين من الزينة فى جميع بلاد اليونان ، وكان هو الذى حدد صورة المزهريات الديپلونية Dipylon(*) فى أثينة . ولكن الآنية الضخمة (التى كانت تصنع فى العادة لتوضع فيها جثث الموتى) كانت ترسم عليها بين خطوط الأشكال الهندسية صور جانبية لوجوه النائحين ، وعربات ، وحيوانات غاية فى السماجة . فلما آذن القرن الثامن بالانتهاء رسمت على الفخار اليونانى صور حية أكثر من الصور السابقة ، واستعمل لونان لأرضية الصور ، واستبدلت الدوائر بالخطوط المستقيمة ، وظهر على الصلصال سعف النخل ، والأزورد ، والجياد القافزة ، والآساد المصيدة ، وحلت الزخارف الشرقية محل الطراز الهندسى الساذج .

وأعقب ذلك العصر عصر ملىء بالتجارب غمرت فيه ميليتس السوق بمزهرياتها الحمراء ، وساموس بمصنوعاتها المرمرية ، ولسبوس بآنيتها السوداء ، ورودس بآنيتها الحمراء ، وكلزمينى Clezomenae بآنيتها الرمادية اللون ، وأصدرت فيه نقراطس الخزف الدقيق الملون والزجاج نصف الشفاف . واشتهرت إريثرا Erythra برقة مزهرياتها ، وكلسيس Chalcis ببريقها وحسن صقلها ، وسكيون Sicyon وكورنثه بقوارير الرائحة الدقيقة الصنع ، والأباريق ذات الرسوم المتقنة الأنيقة الشبيهة بمزهريات شيجى Chigi فى رومة . وقامت بين صناع الخزف فى المدن المختلفة منافسة قوية ، وكانت هذه المدينة أو تلك تجد مشترين لخزفها فى كل ثغر من ثغور البحر المتوسط ، وفى الروسيا ، وإيطاليا ، وبلاد غالة . وخيل إلى مدينة كورنثة فى القرن السابع أنها فازت على منافساتها فى هذه الحرب الخزفية ، فقد كانت مصنوعاتها فى كل مكان وفى يد كل إنسان ، وكان صناع الفخار فيها قد كشفوا طرقاً جديدة للحفر والتلوين ، وابتكروا كثيراً من الأشكال الجديدة ؛

(*) سميت كذلك لأن الجزء الأكبر منها عثر عليه قرب باب المدينة المزدوج .

لكن سادة حى الخزافين فى خارج أثينة برزوا إلى الأمام حوالى عام ٥٥٠ ق . م وألقوا عن كاهلهم عبء النفوذ الشرقى ، واستولوا بمصنوعاتهم ذات الرسوم السوداء على أسواق البحر الأسود ، وقبرص ، ومصر ، وإترووريا ، وأسبانيا . وأخذ النابغون من صناع الخزف من ذلك الحين يهاجرون إلى أثينة إن لم يكونوا قد ولدوا فيها ؛ ونشأت فيها مدرسة عظيمة وتقاليد ثابتة لأن الأبناء أخذوا يرثون فن الآباء ، وأصبحت صناعة الخزف الجميل إحدى الصناعات الكبرى فى المدينة ، ثم أمست إحدى الصناعات التى تحتكرها أتكا وتقر لها غيرها من الأقاليم بهذا الاحتكار .

وتحمل المزهريات نفسها من حين إلى حين صورا لحوانيت الخزافين ، ويرى فيها الصانع يعمل مع صبيانه أو يراقبهم وهم يقومون بالعمليات المختلفة : يخلطون الألوان والطين ، ويشكلون العجينة ؛ ويلونون الأرضية ، ويحفرون الصور ، ويحرقون الآنية ، ويحسون بالسعادة التى يحس بها من يرون صور الجمال تظهر على أيديهم . ونحن نعرف أكثر من مائة من هؤلاء الخزافين أهل أتكا ، ولكن الدهر قد عدا على آيانهم الفنية فحطمها ولم يبق لنا إلا أسماء مبدعيها . ونحن نقرأ الآن على كأس الشراب قول الصانع مفتخراً بصنعه Nikosthenes me poiesen » صنعنى نكستنيز «[١٤٣] وكان أجزسياس Execias أعظم من نكستنيز هذا وأجل قدراً . وفى متحف الفاتيكان قارورة فخمة ذات مقبضين من صنعه ، وكان واحداً من طائفة كبيرة من الفنانين يشجعهم أنصار الفن فى عهد بيسستراتس وأبنائه وينعمون بعهد السلم الذى ساد البلاد وقتئذ . ومن أيدى كلتياس Clitias وإرجتموس Erogotimus خرجت مزهرية فرنسوا الذائعة الصيت التى عثر عليها فى إتروريا عام ١٥٦٠ فرنسى يحمل هذا الاسم ، وهى الآن ضمن كنوز متحف الآثار بفلورنس — وهى إناء كبير عليه صفوف من الأشكال والمناظر مستمدة من الأساطير اليونانية يعلو بعضها بعضاً[٥٤] . وكان هذان



الصانعان أشهر صناع طراز الرسوم السوداء فى أثينا فى القرن السادس . ولا حاجة بنا إلى المبالغة فى جودة صنع الإناء ، فهو لا يضارع فى فكرته ولا فى إخراجها خير الأوانى الباقية من عهد أسرة تانج أو سونج الصينيتين ؛ غير أن الفنان الصينى كان له غرض يختلف عن غرض الفنان الشرقى ، فلم يكن همه الأول هو الألوان بل الخطوط ، ولا النقش بل الشكل . ولذلك كانت الرسوم التى على الآنية اليونانية رسوماً صورها العرف ، وثبت طرازها فجعلها ضخمة ضخامة غير عادية فى الكتفين دقيقة فى الساقين . وإذا كان هذا الطراز قد ظل سائداً طوال عهد اليونان الزاهر فن واجبنا أن نفترض أن الخزاف اليونانى لم يكن يفكر قط فى الدقة الواقعية ، فكأنه فى فنه هذا يقرض الشعر لا يكتب النثر ، ويخاطب الخيال لا العين ، ولهذا السبب عينه لم يتوسع فيما يستخدمه من المواد أو الألوان . فقد استخدم صلصال السرمكوس Ceramicus الأحمر اللطيف ، وهدأ لونه باللون الأصفر ، وصغر الرسوم بعناية ، وملأ ما بين الخطوط باللون الأسود الزجاجى البراق ، فاستحال الطين على يديه آنية موفورة العدد تقترن فيها المنفعة بالجمال ، منها أباريق ماء وقوارير ذات مقبضين ، ودنان خمر وأقداح ، وآنية خلط ، وقنينات عطر . وكان هو الذى فكر فى التجارب ، وابتكر الموضوعات ، وابتدع الأعمال الفنية التى أخذها عنه صانعو البرنز ، والمثالون ، والرسامون . وهو الذى قام بالتجارب الأولى فى رسم المناظر فنياً كما تبدو بحجمها الطبيعى للعين ، وفى فن المنظور ، وتوزيع الظلال ، وعمل النماذج[٥٥] . وقد مهد السبيل لنحت التماثيل بأن صنع من الطين المحروق صوراً لما لا يحصى من الموضوعات والأشكال ، وحرر فنه من الرسوم الهندسية الدورية ومن المغالاة الشرقية ، وجعل صور الآدميين مصدر حياته ومحورها الذى تدور عليه .

ومل الخزاف الأثينى قبيل الربع الأخير من القرن السادس الرسوم السوداء على الأرضية الحمراء ، فعكس الوضع وابتدع طراز الرسوم الحمراء الذى

ظلت له السيادة فى إقليم البحر المتوسط مائتى عام . وكانت الصور لاتزال جامدة ذات زوايا ، والأجسام مصورة من جانبها ، والعين فى مواجهة الناظر تماما ، ولكنه كان يستمتع فى نطاق هذه الحدود بحرية جديدة ومجال أوسع فى التفكير والتنفيذ ، وكان يخدش الخطوط الخارجية للصورة خدشاً خفيفاً بسن رفيع ، ويرسم تفاصيلها بعدئذ بالقلم ، ويملأ خلفيتها باللون الأسود ، ثم يضيف إليها لمساتها الصغرى بمادة زجاجية ملونة . وفى هذا المجال أيضاً خلد بعض كبار الفنانين أسماءهم ؛ من ذلك أن قارورة ذات أذنين قد كتب عليها : « رسم صورها يوثيميدس Euthymides بن پلياس Pallias رسماً لم يستطعه يفرنيوس Euphronius[٦٥] » . وكان هذا تحدياً ليفرنيوس ودعوة له أن يصنع مثلها ، لكن يفرنيوس هذا ظل يوصف بأنه أعظم الخزافين فى عصره . ويظن بعضهم أنه هو صاحب الخابية التى صور فيها هرقل يصارع أنتيوس . وتعزى إلى معاصره سسياس Sosias زهرية من أشهر المزهريات اليونانية صور عليها أخيل يضمد جرحاً فى ذراع پترکلوس . وقد أبرز فى هذه الصورة جميع دقائقها ، وأفاض عليها الكثير من حبه وعطفه ، ولم تستطع القرون الطوال أن تنال من منظر الألم الصامت وهو يبدو على ملامح الفتى المحارب . ونحن مدينون إلى أولئك الرجال وغيرهم ممن لا تعرف أسماءهم الآن بكثير من الروائع الفنية أمثال الكأس التى نرى فى داخلها صورة إلهة الفجر تندب ولدها المتوفى ، وإبريق الماء المحفوظ فى متحف الفن بنيويورك والذى رسم عليه جندى يونانى ، قد يكون أخيل يطعن بالحربة امرأة من المحاربات جميلة ذات ثديين . وكان إناء من أمثال هذه الأوانى هو الذى وقف أمامه جون كيتس John Keats فى يوم من الأيام صامتاً مذهولا حتى أطلقت خياله « تلك النشوة الجامحة » و « الدفعة الهائجة » فأنطقتا لسانه بقصيدة أعظم شأناً من أية قارورة يونانية .

٢ — النحت

كان من أثر استيطان اليونان غربي آسية وفتح مصر للتجارة اليونانية حوالى عام ٦٦٠ ق . م أن دخلت أشكال الشرق الأدنى ومصر وأساليبهما إلى أيونيا وبلاد اليونان الأوربية . ذلك أن مثالين كريتيين هما ديبوئينوس Dippoenus واسكيلوس Scyllus استدعيا حوالى عام ٥٨٠ إلى سكيون وأرجوس ليقوما فيهما بمهمة فنية . ولما أن غادراها لم يتركا فيهما تماثيل فحسب بل تركا فيهما تلاميذ أيضاً . ونشأت من ذلك الحين مدرسة للنحت قوية في بلاد البلوبونيز . وكان لهذا الفن أهداف كثيرة ، فكان أولا يخلد الموتى بالأعمدة البسيطة ، ثم بروؤس تماثيل قائمة على قواعد ، ثم بتماثيل كاملة أو لوحات جنازية منقوشة . وكانت التماثيل تصنع للفائزين في الألعاب الرياضية ، فكانوا أولا ينحتون نماذج لتماثيل هؤلاء الفائزين ، ثم صاروا ينحتون تماثيل لأشخاص هؤلاء الفائزين . وكان خيال اليونان الحي الخصيب من أسباب تشجيع هذا الفن ، فقد جعلهم يصنعون للآلهة تماثيل يخطئها الحصر .

وكان الخشب هو المادة التي تصنع منها أكثر التحف حتى القرن السادس قبل الميلاد ، وشاهد ذلك ما نسمعه كثيراً عن صندوق سيبسلوس طاغية كورنثة ؛ ويقول بوزنياس إنه صنع من خشب الأرز المطعم بالعاج والذهب ، وزين بالنقوش المعقدة المحفورة . ولما زاد الثراء كانت التماثيل الخشبية تغطى كلها أو بعضها بالمواد الثمينة . وبهذه الطريقة صنع فيدياس تماثيله الذهبية والعاجية لأثينة بارثنوس ولزيوس الأولمبي . وظل البرنز ينافس الحجر في صنع التماثيل إلى آخر عصر اليونان الزاهر .

وقد صهر العدد الأكبر من هذه التماثيل البرنزية ولم يبق منها إلا القليل ، ولكن في وسعنا أن نستدل من تمثال سائق العربة الخاضع الذليل المحفوظ في

متحف دلفي (حوالى ٤٩٠ ق . م) على ما بلغته صناعة التماثيل المجوفة من الإتقان الذى يقرب من الكمال مذ أدخلها ريكوس Rhoecus وثيودورس الساموسيان فى بلاد اليونان . وقد صبت مجموعة التماثيل الأثينية للطاغيتين (هرموديوس Harmodius وأرستوجيتون Aristogeiton) ، وهى المجموعة الذائعة الصيت ، من البرنز على يد أنتنور Antenor فى أثينة بعد قليل من طرد هيپاس . وكان مثالو أثينة يستخدمون أنواعاً كثيرة من الحجارة اللينة قبل أن يعمد مثالو اليونان إلى تشكيل الحجارة الصلبة المختلفة الأنواع باستخدام المطرقة والأزميل ، فلما أن عرفوا كيف يستخدمون هاتين الأداتين كادوا يأتون على كل ما فى نكسوس وپاروس من رخام . وكثيراً ما كانت التماثيل فى العهد القديم (١١٠٠ — ٤٩٠) تطلى بالألوان ، ولكنهم وجدوا فى آخر سنى ذلك العهد أن ترك الرخام المصقول من غير طلاء اصطناعى أوقع فى النفس وأدنى إلى تمثيل بشرة النساء الرقيقة .

وكان يونان أيونيا أول من عرفوا فوائد جعل الثياب عنصراً من عناصر صناعة النحت . ذلك أن الفنانين فى مصر والشرق الأدنى كانوا يجعلون الأثواب جامدة ملتصقة بالجسم ، ولم تكن تزيد على مئزر حجرى كبير يخفى الجسم الحى ، ولكن المثالين اليونان فى القرن السادس أدخلوا الثنايا فى الأقمشة ، واستخدموا الثياب للكشف عن مصدر الجمال الأول وطرازه وهو الجسم البشرى الصحيح السليم . غير أن أثر المصريين والأسيويين فى الفن اليونانى ظل له من القوة ما جعل التماثيل فى كثير من آثار النحت اليونانية العتيقة ثقيلة جامدة خالية من الرشاقة ، وجعل الساقين مشدودتين حتى فى حالة الراحة ، والذراعين مسترخيتين متدليتين على الجانبين ، والعينين لوزيتى الشكل مائلتين أحياناً كعيون معظم الشرقيين ، والوجه ذا شكل ثابت لا يتغير فى جميع التماثيل خالياً من الحركة والعاطفة . وكانت التماثيل اليونانية فى ذلك العهد تتبع القاعدة التى جرى عليها المصريون فى صنع تماثيلهم ، وهى أن يصنعوها على الدوام متجهة بوجوهها نحو

الناظر إليها ، ومتناسبة الجانبين أدق التناسب ، حتى لو أنك رسمت خطا عموديا فى وسطها لمر هذا الخط فى منتصف الأنف ، والفم ، والسرة ، وأعضاء التناسل لا يحيد عن ذلك قيد شعرة إلى اليمين واليسار ، ولا يتأثر موضعه بحركة الجسم أو سكونه . ولعل العرف هو سبب هذا الجمود المقبض الممل ، فقد كان قانون الألعاب اليونانية يحرم على الفائز فيها أن يصنع له تمثال أو يرسم له صورة إلا إذا كان قد فاز فى جميع المباريات ذات الألعاب الخمس ، ويقولون إن الفائز فيها جميعاً هو وحده الذى يستمتع بالنمو الجثمانى المتناسق الخليق بأن يكون أنموذجا للجسم البشرى السليم(٥٧) .

وهذا السبب مضافا إليه فى أغلب الظن أن العرف الدينى قبل القرن الخامس كان هو المسيطر على تمثيل الآلهة فى اليونان ، كما كان مسيطراً عليه مصر ، هو الذى جعل المثال اليونانى يقتصر على عدد قليل من الأوضاع والأنماط ، ويصرف كل جهوده ومواهبه فى إتقانها .

وكان أهمّ ما صرف فيه جهوده وأتقن دراسته نمطان من التصوير هما تصوير الشباب العارى إلا من قليل الذى لا يستحق الذكر من الملابس « ذى اليدين المقبوضتين والوجه الهادئ الصارم » وتصوير العذراء المصففة الشعر ذات الوقفة والثياب المتواضعة ، تمسك ثوبها بإحدى يديها ، وتقرب القربان للآلهة باليد الأخرى . وقد ظل المؤرخون إلى عهد قريب يسمون التماثيل الأولى « أبلو » ؛ ولكنها كانت فى أغلب الظن تماثيل للرياضيين أو تماثيل جنازية ، وأشهر هذا النوع هو أبلو تينيه Tenea ، وأكبرها حجماً تمثال أبلو سونيوم Sunium ، وأدلها على التفاخر عرش أبلو فى أمكلى Amyclae قرب اسپارطة ، ومن أجملها كلها تمثال أبلو استرانج فورد Strangford المحفوظ فى المتحف البريطانى ، وأجمل منه أبلو شوازول جوفييه Choiseul Gouffier ، وهو صورة رومانية مأخوذة عن التمثال الأصلى الذى صنع فى القرن الخامس(٥٨) . وتماثيل العذارى أوقع فى عين الذكور

على الأقل من تماثيل الرجال : فأجسامهن رشيقة هيفاء ، ووجوههن تعلوها ابتسامة ظريفة أشبه بابتسامة صورة مونا ليز Mona Lisa ، وثيابهن قد بدأت تتحرر من الجمود العرفى . وبعض التماثيل المحفوظة فى متحف أثينة خليق بأن يعد من روائع الفن فى أى قطر آخر من أقطار العالم(٥٩) . ومنها تمثال نستطيع أن نسميه عذراء طشيوز(*) ، وهو يعد آية فنية فى بلاد اليونان نفسها ، وإن ما فى هذه التماثيل من مسة أيونية شهوانية لينفى عنها بعض ما بها من جمود مصرى وصرامة دورية كالتى نشاهدها فى تماثيل « أپلو » . وقد ابتدع أركرموس Archermus الطشيوزى طراز آخر من التماثيل ، أو لعله أعاد إلى الوجود طرازاً منسياً منها ، فى تمثال النصر المقام فى ديلوس . ومن هذا الطراز نشأ فيما بعد طراز تماثيل النصر الجميلة التى صنعها پثنيوس Poeonius فى أولمپيا ، وتماثيل النصر المجنحة المقامة فى سمثريس Samothrace ، وصور الملائكة المجنحة فى الفن المسيحى (٦٠) . وقد نحت مثالون مجهولون بالقرب من ميليتس طائفة من تماثيل النساء المكسوة الجالسة لتوضع فى هيكل البرنشيدى Branchidae ، وهى تماثيل قوية ، لكنها فجّة ، مهيبة لكنها ثقيلة ، عميقة لكنها ميتة(**) .

وقد بلغت صناعة الحفر درجة من القدم يسرت لإحدى القصص الظريفة أن تصف منشأها . وتقول هذه القصة إن فتاة من كورنثة رسمت على جدار الخطوط الخارجية ظل رأس حبيبها الذى يلقيه ضوء مصباح على جدار . ثم جاء أبوها بوتاديس Butades وهو فخرانى فملأ ما بين هذه الخطوط بالصلصال ، وضغطه حتى جمد ، ثم رفعه ، وحرقه ، ويؤكد لنا پلنى أن هذه هى الطريقة التى نشأ بها النقش القليل البروز(٦١) . وأصبح هذا الفن أكثر أهمية من صناعة التماثيل فى

(*) هو التمثال رقم ٦٨٢ فى المتحف الأهلى بأثينة .

(**) وهو الآن فى المتحف البريطانى ، وتوجد نماذج منه فى المتحف الفنى بنيويورك . والبرنشيدى هم كهنة الهيكل الذين يتوارثون مناصبهم فيه .

تزيين الهياكل والقبور ، وقد صنع أرسطاطاليس نقشاً جنازياً لأرستيون فى عام ٥٢٠ ق . م وهو تحفة من التحف الثمينة الكثيرة المحفوظة فى متحف أثينة .

وإذ كانت هذه النقوش البارزة تلون على الدوام تقريباً ، فقد كانت فنون النحت والنقش والتصوير وثيقة الاتصال بعضها ببعض ، وكانت كلها تستخدم فى العمارة ، وكان معظم الفنانين مهرة فى هذه الفنون جميعها ، وكانت بروز الهياكل وأطنافها ، وما بين هذه الأطناف ، وما وراء القواصر — كانت هذه كلها تطلى عادة بالألوان ، على حين أن البناء الرئيسى كان يترك عادة بلون الحجارة الطبيعى . أما الرسم الملون بوصفه فناً مستقلا فليس لدينا من آثاره فى البلاد اليونانية إلا القليل الذى لا يستحق الذكر ؛ ولكننا نعرف من بعض أقوال الشعراء أن التصوير على الخشب بالألوان الممزوجة فى الشمع السائح كان من الفنون التى مارسها اليونان من عهد أنكريون(٦٢) . وكان هذا الفن آخر ما ازدهر من الفنون فى بلاد اليونان وآخر ما اندثر منها .

وجملة القول أن القرن السادس لم يبلغ فيه أى فن من فنون اليونان ، إذا استثنينا فن العمارة ، ما بلغته الفلسفة اليونانية وما بلغه الشعر اليونانى فى هذا القرن نفسه من جرأة فى التفكير وكمال التصوير . ولعل مناصرة الفنون كانت بطيئة النشأة بين أرستقراطية كانت لا تزال ريفية فقيرة ، أو بين طبقة رجال الأعمال التى كانت لا تزال ناشئة لم يخلق فيها الثراء حاسة الذوق . ومع هذا فقد كان عهد الطغاة فترة تحفز وتحسين فى كل فن من الفنون اليونانية — وبخاصة فى عهد بيسستراتس وهپياس فى أثينة . وفى أواخر هذا العهد بدأ الجمود القديم الذى كان يلازم فن النحت يزول شيئاً فشيئاً ، وقُضى على القاعدة القديمة قاعدة نحت التماثيل مواجهة لناظرها ، وأخذت الساقان تتحركان ، والذراعان تبتعدان عن الجانبين ، واليدان تنفتحان ، والوجه ينم عن الإحساس والأخلاق ، والجسم ينثنى ويتخذ أوضاعا مختلفة تكشف عن دراسات جديدة فى التشريح والحركة . وكان هذا

الانقلاب العظيم فى فن النحت ، وما بعثه فى الحجارة من حياة حادثاً خطيراً فى تاريخ اليونان ، كما كان التحرر من المواجهة فى التماثيل من أجل أعمال اليونان الفنية . ومن ذلك الحين نبذ الفن اليونانى تأثير المصريين والشرقيين ، وأصبح فناً يونانياً خالصاً .

٣ ـ العمارة

استعاد فن البناء على مهل ما خسره بسبب الغزو الدورى ، ورفع اسم الدوريين إلى أكثر مما يستحق . وانتقلت أسس العمارة الميسينية إلى بلاد اليونان خلال العصور المظلمة القديمة الممتدة من عهد أجممنون إلى ترپندر ، فاحتفظت روائع الفن اليونانى بطراز البناء المستطيل القائم الزوايا ، وباستخدام العمد فى داخل البناء وخارجه ، وبجسم العمود المستدير وتاجه المربع البسيط ، وبالأروقة المعمدة ، والوجهات ذات الحزوز . غير أن العمارة الميسينية كانت عمارة مدنية غير دينية ، منصرفة كلها إلى تشييد القصور والدور ، أما العمارة اليونانية فى عصر اليونان الزاهر فتكاد تكون كلها دينية ، فقد استحال القصر الملكى معبداً مدنياً بعد أن اضمحلت الملكية ، وعمل الدين والدمقراطية على توجيه عواطف اليونان إلى تعظيم المدينة فى شخص إلهها .

وشيدت أقدم الهياكل اليونانية من الخشب أو اللبن ، وهما أنسب المادتين إلى العصر المظلم الفقير ؛ ولما أن صار الحجر المادة الأصلية فى تشييد الهياكل ، بقيت المظاهر المعمارية كما كانت فى عهد البناء بالخشب ؛ وظل جسم المعبد الأصلى المستطيل ، والعمد المستديرة ، « والعارضية الرئيسية » المركبة على العمد ، والحزوز الثلاثية فى طرف العارضة ، والسقف ذو « الجملون » بقيت هذه كلها شاهدة على الأصل الخشبى الذى استمدت منه شكلها الأول . بل إن الشكل اللولبى الأيونى كان كما يبدو من صورته رسوماً لنباتات وأزهار على كتلة من الخشب(٦٣) ، وكثر استعمال الحجارة بازدياد ثراء اليونان وكثرة أسفارهم ، وكان الانتقال أسرع

ما يكون بعد أن فتحت مصر أبوابها للتجارة اليونانية حوالى عام ٦٠٠ ق . م ، وكان حجر الجير المادة الشائعة الاستعمال فى أنماط البناء الجديدة قبل القرن السادس ، ثم بدأ استعمال الرخام حوالى عام ٥٨٠ ، وكان يستخدم أول الأمر فى الأجزاء التى يزين بها الهيكل ، ثم استخدم بعدئذ فى تشييد واجهته ، واستخدم آخر الأمر فى بناء الهيكل كله من قاعدته إلى سقفه .

وفى بلاد اليونان نشأت « مراتب » العمارة الدورية ، والأيونية ، ثم الكورنثية فى القرن الرابع قبل الميلاد . وإذ كان داخل الهيكل مخصصاً للإله والكهنة القائمين على خدمته ، وكانت العبادات كلها تؤدى فى خارجه ، فقد استخدمت « المراتب » الثلاث كلها فى تجميل الهيكل من خارجه وجعله ذا روعة ومهابة . وكان ذلك التجميل يبدأ من الأرض نفسها ، وهى عادة مكان مرتفع ، فيبنى الأساس من طبقتين أو ثلاث طبقات من الحجارة كل منها أقل مساحة من التى تحتها ، وفوق الطبقة العليا مباشرة يقوم العمود الدورى دون أن تكون له قاعدة خاصة — ويزدان بحزوز ضحلة ، محدودة الجوانب ، ثم يتسع العمود اتساعاً ظاهراً فى وسطه ويتكون منه ما يسميه اليونان « امتداداً » له . ثم تقل سعة العمود الدورى بعض الشىء كلما قرب من قمته ، فيكون أشبه بالشجرة ومناقضاً للطراز المينوى — الميسينى (وجسم العمود الذى لا تنقص سعته — وأسوأ منه الذى يضيق كلما اتجه إلى أسفل — يبدو ثقيلا فى أعلاه غير جميل فى منظره ، على حين أن القاعدة المتسعة ، تزيد شعور الإنسان باستقرار العمود ، وهو الشعور الذى يجب أن تبعثه فى النفس جميع العمائر . على أن العمود الدورى قد يكون مفرطاً فى الثقل ، مفرطاً فى سمكه بالنسب إلى ارتفاعه ، مغرقاً فى الصلابة والقوة إغراقاً يدل على البلاهة) ، وفى أعلى العمود الدورى يقوم تاجه البسيط القوى ويتكون من « عنق » أو رباط مستدير ، وبروز دائرى محدب كأنه

وسادة يرتكز عليها التاج ، وفى أعلاه التاج المربع نفسه وقد اتسع ليقوى العمود على تحمل العارضة .

وبينما كان هذا الطراز من البناء ينمو ويتطور على أيدى الدوريين ، ويتكيف فى أغلب الظن بأبهاء العمد التى فى الدير البحرى وبنى حسن المتقدمة على العصر الدورى ، كان اليونان الأيونيون يبدلون هذا الشكل الأساسى نفسه بتأثير الطرز الأسيوية ، ونشأ من هذا التطور طراز أيونى يقوم فيه عمود رفيع على قاعدة له خاصة ، ويبدأ من أسفله كما ينتهى فى أعلاه بطوق ضيق ، وكان فى العادة أكثر ارتفاعاً وأصغر قطراً من جسم العمود الدورى ، وكان ما فيه من نقص فى سمكه من أسفل إلى أعلى قليلا لا تكاد العين تدركه . أما الحزوز فكانت غائرة ، نصف دائرية تفصلها بعضها عن بعض أطراف منبسطة ، وكان رأس تاج العمود الأيونى يتكون من وسادة محدبة ضيقة ، ويعلوها تاج أضيق منها ، وبينهما تبرز تلفيفة لولبية مزدوجة تكاد تخفيهما عن العين كأنها ملف مطبوق نحو الداخل . وذلك عنصر مأخوذ عن الأشكال الحثية ، والأشورية ، وغيرهما من الأشكال الشرقية(٦٤) . وهذه الخواص إذا أضيفت إليها النقوش البديعة المحكمة التى فى الأروقه لا يستبين منها الرائى طرازاً فى العمارة فحسب بل يستبين منها كذلك خواص صنف من الناس . فهى تمثل فى الحجارة ما يمتاز به الأيونيون من وضوح ، ودماثة ، وقوة عاطفة ، ورشاقة ، وولع بالتفاصيل الدقيقة ؛ كما أن الطراز الدورى يعبر عن تحفظ الدوريين ، وكبريائهم ، وضخامتهم وقوتهم ، وبساطتهم الصارمة ؛ ولقد كانت تماثيل الجماعات اليونانية المتنافسة ، وآدبها ، وموسيقاها ، وأخلاقها ، وثيابها ، تختلف لتنسجم مع أنماط عمارتها ؛ فالعمارة الدورية رياضـــة ، والعمارة والأيونية شعر ، وكلتاهما تنشد الخلود فى الحجارة ؛ والأولى « نوردية » أما الثانية فشرقية ، وهما معاً تكونان الذكورة والأنوثة فى صورة متناسقة منسجمة فى جوهرها .

وتمتاز العمارة اليونانية بأنها قد تطور فيها العمود حتى صار من عناصر الجمال كما صار دعامة يستند إليها البناء ، وكان العمل الأساسى للعمد هو حمل طنف السقف وإراحة جدران المعبد الداخلى من قوة دفع السقف ذى « الجمالون » إلى الخارج . وفوق العمد يقوم الرواق أى الطابق العلوى من البناء . وفيه أيضاً ، كما فى الأجزاء الساندة ، كان فن العمارة اليونانى يحرص على إظهار الفوارق بين العناصر اليونانية كما يحرص على إظهار الصلات الواضحة بينها . فقد كانت العارضة – أى الحجر الكبير الذى يصل تيجان الأعمدة بعضها ببعض – فى الطراز الدورى بسيطة أو كانت تحمل فوقها طنفاً بسيطاً ملوناً ، أما فى الطراز الأيونى فكانت تتكون من ثلاث طبقات تبرز كل منها تحت ما فوقها ، وكان فى أعلاها حلية من الرخام مقسمة فلقا بينها نقوش كبيرة مختلفة الأنواع . وإذ كانت الكتل المائلة التى يتكون منها إطار السقف فى الطراز الدورى تنحدر إلى أسفل ، وكان ما يمسكها هو الكتل الأفقية التى عند الطنف ، فإن أطراف الكتل الثلاث مجتمعة كان يتكون منها – فى الخشب أولا ثم فى الحجر المقلد للخشب بعدئذ – سطح مقسم ثلاثة أقسام ، وقد ترك بين كل قسم والذى يليه فراغ تتكون منه نافذة مفتوحة إذا كان السقف من الخشب أو من قطع القرميد المحروق ؛ فإذا ما استعملت فيه قطع مسطحة من الرخام فإن هذه « النوافذ » كانت تغطى بألواح من الرخام منقوشة نقشاً قليل البروز ، وفى الطراز الأيونى كانت هناك حلقة أو طنف من النقوش البارزة حول الجدران الخارجية العليا لجسم المعبد ، وكثيراً ما كان النوعان من النقوش – نقوش « النوافذ » ونقوش الطنف – يستخدمان فى البناء الواحد فى القرن الخامس قبل الميلاد ، كما نشاهد فى بناء البارثنون . وقد وجد المثال فى القواصر – وهى المثلثات المكونة من السقف ذى « الجمالون » من الأمام ومن الخلف – أحسن الفرص لإظهار فنه . وكان فى وسعه أن ينقش فيها الصور نقشاً كبير البروز ، وتكبر بحيث يستطيع

أن يراها من يقف فى أسفل البناء ؛ وكانت الأركان المتجمعة — أو الطبول عند المعماريين — وسيلة تختبر بها مهارة الفنان العظيمة . وكان فى الاستطاعة أن يجعل السقف نفسه تحفة فنية بجماله قطع القرميد الزاهية الألوان والمثقفات التى تستخدم لتصريف مياه الأمطار ، وتتخذ فى الوقت نفسه قواعد للتماثيل العليا ترتفع من زوايا القواصر . وقصارى القول أنه كان فى الهيكل اليونانى ، وبين العمد ، وعلى الجدران ، وفى داخل البناء نفسه ، ما يزيد على الحاجة من التماثيل والنقوش . وكانت للرسام أيضاً يد فى زينتها : فقد كان الهيكل يطلى كله أو بعضه بما فيه من تماثيل وبروز ونقوش . ولعلنا فى هذه الأيام نغالى فى الإكبار من شأن اليونان بعد أن محت الأيام الطلاء عن معابدهم وآلهتهم وخلفت أكاسيد الحديد على الرخام ألواناً طبيعية لا يحصى عديدها تظهر بريق الحجارة تحت سماء اليونان الصافية . ومن حقنا أن نتوقع أن يصبح الفن الحديث نفسه وبالطريقة عينها جميلا فى يوم من الأيام .

وازدهر الطرازان المتنافسان ازدهاراً عظيما فى القرن السادس وبلغا ذروة الكمال فى القرن الخامس . وقد قسما بلاد اليونان من الناحية الجغرافية قسمة ضيزى . فكان للفن الأيونى السيادة فى بلاد آسية اليونانية وفى بحر إيجة ، وكان للفن الدورى السيادة فى أرض اليونان نفسها وفى غربها . وكان أعظم ما أبدعه الفن الأيونى فى القرن السادس هو معبد أرتميس فى إفسوس ، ومعبد هيرا فى ساموس ، وتماثيل البرنشيدى بالقرب من ميليتس . ولكن جميع العمائر الأيونية التى أنشئت قبل مرثون قد عــدا عليها الزمان فلم يبق منها إلا أنقاضها . وأجمل المبانى الباقية من القرن السادس معابد پستوم Paestum وصقلية القديمة وكلها من الطراز الدورى . وقد بقى من الهيكل العظيم الذى شيد فى دلفى بين عامى ٥٤٨ ، ٥١٢ تصميم قاعدته نعرفه من رسوم المهندس اسپنثاروس Spintharus الكورنثى ، ما الهيكل نفسه فقد دمره زلزال وقع فى عام ٣٧٣ ، ثم أعيد بناؤه بالنظام

عينه ؛ وكان لا يزال قائماً بهذه الصورة حينما طاف پوزنياس ببلاد اليونان ، وتكاد العمارة الأثينية فى هذه الفترة أن تكون كلها دورية الطراز . وبه بدأ پيسستراتس حوالى عام ٥٣٠ معبد زيوس الأولمبى الضخم فى السهل القائم عند أسفل الأكرپوليس . وهاجر مئات من الفنانين الأيونيين إلى أتكا بعد أن فتح الفرس أيونيا فى عام ٥٤٦ ، وأدخلوا فى أثينة طراز العمارة الأيونية أوعملوا على إنمائه . وقبل أن ينصرم هذا القرن كان المهندسون الأثينيون يستخدمون الطرازين وكانوا قد وضعوا جميع الأسس الفنية لعصر پركليز .

٤ – الموسيقى والرقص

كان معنى لفظ Mousike عند اليونان أول الأمر هو الولاء لأية إلهة من إلاهات الفن Muse ؛ وكان مجمع أفلاطون العلمى يسمى Museion أى متحف Museun ، ومعناه مكان مخصص لربات الفن Muses وأوجه النشاط الثقافى الكثيرة التى تناصرها . وكان متحف الإسكندرية جامعة تجرى فيها ضروب النشاط الأدبى والعلمى ولم تكن مكاناً تجمع فيه التحف . وكانت الموسيقى بمعناها الضيق الحديث منتشرة بين اليونان بقدر انتشارها بيننا فى هـــذه الأيام إن لم تكن أكثر انتشاراً . وكان الأحرار جميعاً فى أركاديا يواصلون دراسة الموسيقى إلى أن يبلغوا الثلاثين من عمرهم ، وكان كل واحد منهم يعرف استعمال آلة من الآلات ، وكان العجز عن الغناء يجلل العاجز العار[٦٥] . وقد سمى الشعر الغنائى بهذا الاسم فى بلاد اليونان لأنه كان يقرض ليتغنى به على القيثارة اليونانية والصنج والناى ؛ وكان الشاعر عادة يقول الشعر ويلحنه ويغنى أشعاره ؛ ولهذا كان قرض الشعر الغنائى فى بلاد اليونان أصعب كثيراً من قرض الشعر لقراءته قراءة صامتة فى عزلة كما يحدث فى هذه الأيام . وقلما كان هنالك أدب يونانى قبل القرن السادس الميلادى غير متصل بالموسيقى ، فقد كان التعليم والأدب

والدين ، والحرب ، ووثيقة الاتصال بالموسيقى ، وكان للنغمات الحربية شأن عظيم فى التدريب العسكرى ، وكان كل ما يحفظ أو جله يلقن شعراً وقبل أن يحل القرن الثامن قبل الميلاد كانت الموسيقى اليونانية قد أصبحت من الفنون القديمة وأصبح لها مئات الأنواع والأشكال .

أما آلاتها فكانت بسيطة ، وكانت الأسس التى تقوم عليها هى بعينها الأسس التى تقوم عليها فى هذه الأيام : القرع ، والنفخ ، والأوتار . فأما القرع فلم تكن آلاته واسعة الانتشار . وقد ظل الناى شائع الاستعمال فى أثينة حتى سخر ألقبيادس من خدى معلمه المنتفخين وأبى أن يستخدم هذه الآلة السمجة ، وتزعم حركة مقاومتها بين شباب اليونان . (وهذا إلى أن البوأوتيين ، كما يزعم الأثينيون كانوا أبرع منهم فى استخدام الناى ، ولهذا كانوا يعدون هذا الفن من الفنون المرذولة)[٦٦] . وكان الناى البسيط قصبة من الغاب ، أو الخشب المثقوب ، ذات مبسم منفصل عنها ، ومثقوبة بثقوب للأصابع يتراوح عددها بين اثنين وسبعة ، يمكن أن توضع فيها غمازات تعدل درجة الصوت . وكان بعض الموسيقيين يستخدمون الناى المزدوج — ويتكون من ناى « ذكر » أو غليظ النغمة فى اليد اليمنى وناى « أنثى » أو رفيع النغمة فى اليسرى ، يرتبط كلاهما بالفم برباط حول الخدين ، وينفخ فيهما معاً فى توافق بسيط . ثم أوصل اليونان الناى بكيس قابل للتمدد فأوجدوا بذلك موسيقى القرب ، وجمعوا عدداً منها وكونوا منه ما يعرف بأنبوبة پان ، ثم أطالوا طرف الناى وسدوا ثقوب الأصابع فكان البوق[٦٧] . ويقول پوزنياس إن موسيقى الناى كانت فى العادة مقبضة ، وكانت تستخدم على الدوام فى ترانيم الدفن والمراثى ، ولكننا لا نظن أن الأولتردای Auletredai أو الفتيات اليونانيات المسامرات النافخات فى الناى كن مبعث الكآبة والانقباض . أما الآلات الوترية فكان العزف عليها مقصوراً على شد الأوتار بالإصبع أو المنقر ، ولم يكن العازف ينحنى

فى أثناء العزف . وكان ثمة أنواع مختلفة من القيثارات صغيرة وكبيرة ولكنها كانت فى جوهرها شيئاً واحداً ، فكانت كلها تتكون من أربعة أوتار أو خمسة مصنوعة من أمعاء الضأن ومشدودة على قنطرة فوق جسم رنان من المعدن أو صدفة سلحفاة . وكانت القيثارة صنجاً (كنجاً) صغيراً يستخدم أثناء غناء الشعر القصصى ، وكانت القيثارة اليونانية الصغيرة تستخدم مع الشعر الغنائى والأغانى بوجه عام .

ويروى اليونان قصصاً عجيبة عن كيفية اختراع الآلهة هرمس ، وأپلو ، وأثينا ، لهذه الآلات ، وكيف تحدى أپلو بقيثارته أبواق مارسياس (وهو كاهن الإلهة الفريچية سيبيل) ونايه وغلبه — بطريقة غير شريفة فى ظن مارسياس — بأن أضاف صوته إلى صوت الآلة ، وختم المباراة بأن أمر بسلخ جلد مارسياس حيا ؛ وعلى هذا النحو تمثل الأساطير غلبة القيثارة على الناى . وثمة قصص أظرف من هذه القصة تحدث عن الموسيقيين الأقدمين الذين أوجدوا فن الموسيقى أو عملوا على تقدمه : عن أولمپس تلميذ مارسياس الذى اخترع السلم ذا المسافات القصيرة(*) حوالى عام ٧٣٠ ق . م ، وعن لينوس Linus معلم هرقل الذى اخترع العلامات الموسيقية اليونانية وأوجد بعض « الدرجات[٧٠] » ، وتحدثنا عن أرفيوس التراقى كاهن ديونيسس ، وعن تلميذه موسيوس Mausaeus الذى قال إن « الغناء من أحلى الأشياء للآدميين[٧١] » . وتوحى هذه القصص بأن الموسيقى اليونانية استمدت أشكالها فى أغلب الظن من ليديا ، وفريجيا[٧٢] ، وتراقية (**) .

(*) وهو سلم يحتوى على أرباع نغمات هى : مى مى فالا سى سى دوى ، والشرطة التى فوق العلامة تدل على أنها ربع نغمة .

(**) لقد كان لموسيقى هيلاس سلالم مختلفة أكثر عدداً وأشد تعقيداً من موسيقانا . ذلك أن سلمنا الموسيقى لا يحتوى على أصغر من نصف نغمة ، ويكون اثنا عشر نصفاً من أنصاف النغمات الحلقة السلمية عندنا ؛ أما اليونان فقد كان لديهم أربع نغمات ، وكان لهم —

وكانت الموسيقى من مستلزمات الحياة اليونانية لاتكاد تخلو منها ناحية من نواحيها ، فكانت لديهم ابتهالات لديونيسس ، وتهاليل لأپلو ، وترانيم لكل إله من آلهتهم . وكانت لديهم مدائح للأغنياء ، وأغانى نصر لأبطال الرياضة ، وأناشيد تغنى على الطعام والشراب ، والحب ، والزواج ، والحزن ، والدفن . وكان للرعاة ، والحاصدين ، وعاصرى الخمور ، والغزالين والنساجين ، هم أيضاً أغانيهم ، وأكبر الظن أن الرجل فى السوق أو فى النادى ، وأن السيدة فى بيتها والمرأة فى الطرقات ، كل هؤلاء كانوا يغنون أغانى لم يكن حظها

= خمسة وأربعون سلماً ، فى كل منها ثمانى عشرة نغمة(٧٣) . وكان يتألف من هذه السلالم ثلاث مجموعات : مجموعة السلالم المتصلة النغمات وأساسها الأربعة الأصوات : مى ، رى دو ، سى ؛ والسلالم القائمة على مى دو ، والسلم النارغمى ، والسلالم ذات المسافات القصيرة وأساسها مى دو دو سى . وقد نشأت السلالم الكنسية فى العصور الوسطى من السلالم اليونانية بتوسطها ، ومن هذه السلالم الكنسية نشأت السلالم الموسيقية الحالية .

وقد وجدت فى داخل السلم المتصل النغمات ذى الأربعة الأصوات سبع درجات ، وذلك بتعديل الأوتار لتغيير موضع أنصاف النغمات فى الحلقة السلمية ، وأهم هذه الدرجات هى الدرجات الدورية : مى رى دو سى لاصول فاى ، وهى النغمات الحربية الرصينة وإن كانت من طبقة صغرى ، والليدية (دو سى لا صول فاى رى دو) الرقيقة الحزينة وإن كانت من طبقة صغرى كذلك ، والفريجية (رى دو سى لا صول فاى رى) وهى من طبقة صغرى وصبغتها الفعالية قوية(٧٤) ؛ ومن الطريف الممتع أن يقرأ الإنسان ما دار من الجدل العنيف حول ما يعزوه اليونان — وخاصة فلاسفتهم — لأنصاف النغمات من أثر نافع أو ضار فى الموسيقى والأخلاق والطب . فهم يقولون لنا إن الموسيقى الدورية تبعث فى الرجال الشجاعة والمهابة ، وإن الليدية تجعلهم عاطفيين شهوانيين ، والفريجية سريعى التهيج معاندين . أما أفلاطون فيرى أن معظم الموسيقى تبعث على الترف المخنث والفساد الخلقى المطلق ، ويجب أن يخرج جميع الموسيقى الآلية من دولته المثالية(٧٥). غير أن ثيوفراستوس لا يعدم كلمة طيبة يقولها عن جميع أنواع الموسيقى حتى الموسيقى الفريجية ؛ فهو يقول مثلا إن الأمراض المستعصية تزول آلامها بعزف نغمة فريجية بالقرب من الجزء العليل .

ولم تكن العلامات الموسيقية اليونانية دوائر وذيولا تكتب على مجموعة من السطور ، بل كانت هى الحروف الهجائية اليونانية مقلوبة أو مستعرضة أو مزيدة عليها نقط أو شرط لتجعل منها أربعاً وستين علامة توضع فوق ألفاظ الأغنية . ولقد وصلت إلينا قطع صغيرة من هذه العلامات نتعزى بها عن الكثير الذى فقدناه منها ؛ وهى تنبئ عن أنغام أقرب إلى الموسيقى الشرقية منها إلى الأوربية ، تطيقها آذان الهنود ، أو الصينيون ، أو اليابانيون أكثر ما تطيقها آذان الغربيين البليدة التى لم تتعود أرباع النغمات .

من العلم كحفظ أغانى سمنيدس ؛ وما من شك فى أن الأغانى الخليعة والأغانى الراقية قد جاءت كلتاهما إلينا من أقدم العصور .

وكانت أرقى أنواع الموسيقى فى اعتقاد اليونان وفى حياتهم العملية الغناء الجماعى ؛ وقد أكسبوا هذا النوع من الغناء عمق الفلسفة ، وتعقيد التركيب ، وهما الصفتان اللتان أخذتا تجدان لهما مكاناً فى السمفونية والمقطوعات الموسيقية ، وكان فى كل احتفال — سواء أكان احتفالا بحصاد ، أم بنصر ، أم بزواج ، أم بيوم مقدس ، مكان لجوقة غنائية ؛ وكانت المدن والجماعات المختلفة تقيم من حين إلى حين مباريات فى الغناء الجماعى تعد له العدة فى معظم الأحيان قبل موعده بزمن طويل ، فيعين مؤلف لكتابة الألفاظ والموسيقى ، ويطلب إلى رجل مثر أن يتكفل بالنفقات ، ويستأجر المغنون المحترفون ، ويعنى كل العناية بتدريب الجوقة . وكان المغنون كلهم يغنون نغمة واحدة ، كما نشاهد الآن فى موسيقى الكنيسة اليونانية ، ولم يكن هناك « صوت منفرد » فى الفرقة سوى ما حدث فى القرون المتأخرة من ارتفاع صوت المصاحب خُمساً فوق الصوت ، أو انخفاض عنه بهذا القدر ، أو من معارضته . ويبدو أن هذا هو أقرب ما وصل إليه اليونان فى التوافق والألحان التوافقية البسيطة[٧٨] .

أما الرقص فى أرقى صوره فقد مزج بالغناء الجماعى حتى صارا فناً واحداً ، كما أن كثيراً من أنواع الموسيقى الحديثة ومصطلحاتها كانت فيما مضى متصلة بالرقص[*] ، ولم يكن الرقص يقل فى قدمه وانتشاره عن الموسيقى عند اليونان . ولما عجز لوسيان عن تتبع نشأته على سطح الأرض حاول أن يجدها فى حركة النجوم المنتظمة[٨٠] . ولا يكتفى هومر بأن يحدثنا عن المرقص الذى صنعه ديدلوس

(*) من ذلك أن الكلمة الإنجليزية toot المقابلة للوتد فى الشعر مأخوذة فى الأصل من الرقص المصاحب للموسيقى[٧٩] ؛ وكان اليونان يفهمون من لفظ أركسترا طوراً الرقص على هيئة مسرح فى العادة .

Daedalus لأدرياني Adrians ، بل يحدثنا أيضاً عن راقص ماهر بين المحاربين اليونان أمام طروادة يدعى مريونيس Mereiones ، كان يرقص وهو يحارب فكانت الحراب لهذا السبب تعجز عن إصابته[٨١] . ويصف أفلاطون الرقص (orchesia) بأنه « الرغبـــة الفطرية فى شرح الألفاظ بحركات الجسم كله » — وهو ما تفسره به بعض اللغات الحديثة . وخير من هذا ما وصفه به أرسطاطاليس إذ قال إن الرقص « تقليد الأعمال ، والأخلاق ، والعواطف ، بطريق أوضاع الجسم والحركات الإيقاعية[٨٢] » . وكان سقراط نفسه يرقص ، وهو يمدح هذا الفن لأنه يهب الصحة لكل جزء من أجزاء الجسم[٨٣] ، وهو يقصد الرقص اليونانى بطبيعة الحال .

ذلك أن هذا الرقص كان يختلف عن الرقص عندنا ، فهو ، وإن كان فى بعض أشكاله يثير الغريزة الجنسية ، قلما كان يجعل الرجال يلتصقون بالنساء ، بل كان رياضة فنية ، لا عناقاً فى أثناء المشى ، وكان كالرقص الشرقى تستخدم فيه الذراعان واليدان ، كما تستخدم الساقان والقدمان . وكانت أنماطه لا تقل اختلافاً عن أنماط الشعر والغناء ، وقد ذكر الثقات الأقدمون مائتين من هذه الأنماط ، من بينها رقصات دينية كالتى كان يقوم بها عباد ديونيسس ، ورقصات رياضية كرقصات الاسپارطيين فى احتفال الشباب العرايا ، ورقصات حربية كالرقص الپيرى يتعلمه الأطفال فيما يتعلمون من التدريب العسكرى ؛ ومنها الهيپرشيما Hyporchema الفخمة أى الترنيم أو اللعب الذى يقوم به اثنان من المغنين أحدهما يغنى ثم يرقص وثانيهما يرقص ثم يغنى ؛ ثم يتناوب الاثنان بعد هذا الرقص والغناء ؛ ومنها الرقصات الشعبية التى ترقص عند كل حادثة هامة من حوادث الحياة وكل فصل أو عيد من فصول السنة أو أعيادها . وكانت لديهم مباريات فى الرقص ، كما كانت لديهم مباريات فى كل شىء سواه ، تشمل فى العادة أغانى جماعية .

وكانت هذه الفنون كلها — الشعر الغنائى ، والأغانى ، والموسيقى الآلية ،

الرقص - وثيقة الصلة بعضها ببعض عند اليونان الأولين ، وكانت تؤلف في كثير من مظاهرها فناً واحداً ، ثم دخل فيها التفرع والتخصص المهني على توالي الزمن ، وبدأ ذلك في القرن السابع ، فترك الشعراء الجوالون الأغاني واستبدلوا بها التلاوة ، وفضلوا الشعر القصصي عن الموسيقى [٨٦] . وكان أرشلوقوس Archilochus يغني أشعاره دون أن يستعين بآلات موسيقية [٨٧] ؛ وبدأ ذلك التدهور الطويل الأمد الذي نزل بالشعر آخر الأمر فجعله أشبه بملك صامت حبيس سقط من السماء . ثم تفرع الرقص ذو الغناء الجماعي فكان منه غناء من غير رقص ، ورقص من غير غناء ، لأن « الحركات العنيفة تسبب قصر النفس ، ولذلك أثر سيئ في الغناء » كما يقول لوسيان[٨٨] . وظهر بهذه الطريقة عينها موسيقيون لا يغنون ، نالوا إعجاب مستمعيهم بمحافظتهم الدقيقة على أرباع النغمات[٨٩] . وقد غالى بعض مشهوري الموسيقين وقتئذ ، كما يغالي أمثالهم الآن ، في أجورهم . من ذلك أن أميبوس Amoebeus المغني والعازف على القيثارة كان يتقاضى وزنة (تالنتا) أي نحو ٦٠٠٠ ريال أمريكي عن كل حفلة[٩٠] . وما من شك في أن الموسيقى العادي لم يكن ينال من الأجر إلا ما يسد به رمقه ، وذلك لأن الموسيقيّ ، كغيره من الفنانين ، ينتمي إلى مهنة كان لها شرف القضاء على أهلها جوعاً في كل جيل من الأجيال .

وأما الذين نالوا أوسع الشهرة فهم أمثال ترپندر ، وآريون ، وألكمان ، واستسيكورس ، الذين برعوا في جميع أنواع الموسيقى ، والذين مزجوا الغناء الجماعي ، والموسيقى الآلية ، والرقص ، فجعلوا منها فناً واحداً معقداً متوافقاً ، لعله كان أجمل وأجلب للسرور من التمثيلات الغنائية والفرق الموسيقية في هذه الأيام . وكان أريون أشهر أولئك الأساتذة كلهم . ويروي عنه اليونان أنه كان يقوم برحلة من تاراس Taras إلى كورنثة ، فسرق منه الملاحون نقوده ، ثم خيروه بين القتل طعناً أو غرقاً . فما كان منه إلا أن غنى أغنية أخيرة

ثم ألقى بنفسه فى البحر ، فحمله د لفين على ظهره (ولعل الذى حملة هو عوده) وأوصله إلى البر . وهو الذى جعل من أناشيد المغنين السكارى ، الذين كانوا يرتجلون الأغانى الخمرية الديونيسية ، أغانى جماعية مدربة غير مخمورة ، تتألف من خمسين صوتا ، تغنى على أحد جانبى المسرح وترد عليها فرقة أخرى على الجانب الآخر . وكان موضوع الأغنية فى العادة ما لاقاه ديونيسس من العذاب والموت ، وكان المغنون يتنكرون فى العادة فى زى جن الحراج القريبة الشبه بشكل المعز تكريماً لخدم الإله كما تصورهم القصص المتواترة . ومن هذه الأغانى والحفلات نشأت المآسى اليونانية باسمها ومعناها .

٥ – نشأة التمثيل

امتاز القرن السادس بما ازدهر فيه من أسباب العظمة المتعددة التى انتشرت فى كثير من البلاد . وكان تاج مميزاته كلها أن وضع فيه أساس التمثيل . لقد كان هذا القرن من فترات الإبداع الخلاقة فى التاريخ . ومبلغ علمنا أن الناس قبله لم ينتقلوا من المسرحية الصامتة التى تعتمد على الإشارة ، أو من الطقوس الدينية ، إلى المسرحية الناطقة الدنيوية .

ويقول أرسطاطاليس إن الملهاة قد « تطورت من أولئك الذين كانوا يقودون موكب عضو التذكير » . ذلك أن جماعة من الناس يحملون عضو تذكير مقدس وينشدون أناشيد لديونيسس أو لغيره من آلهة الزرع ، كان يطلق عليهم فى اللغة اليونانية اسم كوموس أو الطرب . وكان رمز الصلات الجنسية من مستلزمات هذا الموكب لأنه كان ينتهى بزواج رمزى يهدف إلى تشجيع الإنبات بوسائل سحرية[٩٢] . ومن ثم كان الزواج والتناسل المرتقب هو الخاتمة الطبيعية للملهاة اليونانية القديمة ، كما هو خاتمة معظم الملاهى والروايا القصصية الحديثة . وقد ظلت الملاهى اليونانية إلى آخر أيام مننذر Menander بذيئة فاحشة لأن نشأتها



كانت الصلات الجنسية الصريحة ، ولانها كانت فى بدايتها احتفالا مرحا بقوى التناسل ، فكان القائمون بها يتحللون من كثير من القيود الأخلاقية فى المسائل الجنسية ، وكانت قواعد الآداب وقوانينها يقف العمل بها فى يوم الاحتفال ، فتباح حرية الكلام بأفحش الألفاظ Parrhasia[٩٣] . وكان كثير من المحتفلين يتزيون بزى جنيات الحراج الديونيسية ، ويضعون فى ثيابهم ذيل ماعز وعضو تذكير اصطناعى طويل من الجلد الأحمر . ثم أصبح هذا هو اللباس التقليدى على المسارح التى تمثل الملاهى ، وكان فى عهد أرستفنيز عادة دينية لا يمكن التحلل منها . والحق أن عضو التذكير ظل رمزاً ملازماً للمهرج فى الملهاة حتى القرن الخامس فى أوربا الغربية ، وحتى آخر أيام الإمبراطورية البيزنطية فى أوربا الشرقية[٩٤] . وكان يصحب عضو التذكير فى الملهاة القديمة ذلك الرقص الفاحش الخليع المعروف برقص الكرداكس[٩٥] Kordax .

ومن أغرب الأشياء أن تحَوُّل مرح الإنبات الريفى إلى الملهاة التمثيلية قد حدث أولا فى صقلية . ذلك أن رجلا يدعى سوزريون Susarion من أهل مجارا هبليا Megara Hyblaea القريبة من سرقوسة هو الذى حول موكب الطرب إلى مسرحيات قصيرة مليئة بالهجاء الفاحش واللهو[٩٦] . ثم انتقل هذا الفن الجديد من صقلية إلى البلوبونيز ومنها إلى أتكا . وكان الممثلون المتنقلون ، أو الهواة المطبون ، يمثلون الملاهى فى القرى . ومر قرن كامل قبل أن يعنى ولاة الأمور — على حد قول أرسطاطاليس[٩٧] — بالملهاة عناية جدية فيبيحوا تمثيلها فى الأعياد الرسمية (٤٦٥ ق . م) .

ونشأت المأساة — Tragoidia أو أغنية الماعز — بالطريقة عينها من محاكاة المحتفلين رقصاً وغناء بعيد ديونيسس ، المتشبهين بجنيات الغابات ، والمرتدين جلود المعز[٩٨] . وقد ظلت هذه المحاكاة جزءاً أساسياً من المسرحيات الديونيسية إلى أيام يوربديز ، فكان ينتظر من كل مؤلف للمأساة من ثلاثة فصول أن يراعى

العادة القديمة فيضيف إليها فصلا رابعاً هو عبارة عن مسرحية قصيرة تعرض فيها جنيات الغاب تكريماً لديونيسس . وفى هذا يقول أرسطاطاليس(٩٩) : « وإذ كانت المأساة قد تطورت عن مسرحية جن الغابات فإنها لم ترتفع من الحبكات القصيرة ، والعبارات المضحكة ، إلى مكانتها الرفيعة الكاملة إلا فى زمن متأخر جداً » . وما من شك فى أن عوامل أخرى كان لها شأن فى نشأة المأساة ، وأن هذه العوامل قد قويت وظهر أثرها فى ذلك الوقت ؛ ولعلها قد استمدت شيئاً من عبادة الموتى واسترضائهم(١٠٠) ، ولكن أهم ما استمدت منه منذ نشأتها هو الحفلات الدينية الرمزية كتمثيل مولد زيوس فى كريت أو أرجوس أو ساموس ، وكزواجه الرمزى بهيرا ؛ أو حفلات دمتر وپرسفونى فى إليوسيس وغيرها ، وأهم من هذا كله ما كان يحدث فى البلوپونيز وأتكا من حزن ومرح لموت ديونيسس وبعثه ، وكان يطلق على هذه المحاكاة اسم Dromena — أى أشياء تعمل ، ولفظ دراما Drama ذو صلة بهذا الاسم ومعناه — أو ما يجب أن يكون معناه — « العمل » . وقد ظلت فرق الغناء فى سكيون حتى أيام الطاغية كليستنيز تحيي ذكرى « عذاب أدراستوس Adrastus » ملكها القديم . وفى إيكاريا Icaria التى شب فيها ثسبيس كان يضحى بعنز لديونيسس ؛ ولعل « أغنية العنز » الذى اشتق منها اسم المأساة اليونانى كانت أغنية تغنى حين تقطيع هذا الرمز أو هذا التجسيد للإله الثمل(١٠١) . وقصارى القول أن المسرحية اليونانية كالمسرحية الإنجليزية استمدت أصلها من الطقوس الدينية .

ويرى من هذا أن المسرحية الأثينية ، مأساة كانت أو ملهاة ، كانت تمثل على أنها جزء من حفلات ديونيسس بإشراف الكهنة فى دار للتمثيل تسمى باسمه ، وعلى يد ممثلين يسمون « الفنانين الديونيسيين » . وكان يؤتى بتمثال ديونيسس إلى مكان التمثيل ، ويوضع أمام المسرح لكى يستمتع بمشاهدة التمثيل ؛ وقبل البدء به يضحى بحيوان للإله . وكان لدار التمثيل ما للمعبد من قداسة . فإذا

ارتكبت فيها جريمــة عوقب مقترفها لأنه ارتكب خطيئة دينية أكثر مما ارتكب جريمة مدنية . وكما أن الملهاة كان لها مقام الشرف على مسرح مدينة ديونيسيا ، كذلك كان للملهاة المكانة الأولى فى الاحتفال بعيد لينيا ، ولكن هذا الاحتفال نفسه كان احتفالا ديونيسيا فى صبغته . ولعل موضوع التمثيل كان فى بادئ الأمر كالعشاء الربانى عنــد المسيحيين ، أى عذاب الإله وموته ؛ ثم أذن للشعراء على توالى الأيام أن يستبدلوا بعذاب الإله عذاب بطل من أبطال الأساطير اليونانية . وربما كانت المأساة فى صورتها الأولى مراسم سحرية تهدف إلى الوقاية من المآسى التى تمثلها أو إلى تطهير المستمعين من الشرور تطهيراً أكثر مما يفهم من هــذا اللفظ عند أرسطاطاليس ؛ وذلك بتمثيل هــذه الشرور كأنها قد نشأت وانتهت على المسرح[١٠٢] ، ولقد كانت هذه النشأة الدينية للمأساة اليونانية من الأسباب التى وضعتها فى مستوى أرقى من مســتوى المأساة الإنجليزية فى عصر الملكة إلزبث .

وأضحت فرقة المغنين والراقصين ، التى جعلها أريون فرقة من المقلدين والمحاكين ، أساس الحركات التمثيلية ، وظلت جزءاً أساسياً من المأساة اليونانية حتى آخر مسرحيات يوريبديز . وكان الممثلون الأولون يسمون بالراقصين لأنهم جعلوا مسرحياتهم رقصاً جماعياً قبل كل شىء ؛ وكانوا فى واقع الأمر معامى رقص[١٠٣] . ولم يكن هذا التمثيل الرقصى والغنائى الجماعى ليحتاج لأكثر من شىء واحد ليصبح مسرحية بالمعنى الصحيح ، ذلك هو وجود ممثل يقابل هــذه الجماعة ، ويقوم أمامها بأعمال ، أو يتحدث إليها بأحاديث . وقد خطرت هذه الفكرة لواحد من معلمى الرقص ومدربى المغنين هو ثسبيس Thesbis الإبكارياوى — من أيكاريا Icaria وهى بلدة قريبة من مجارا البلوپونيز حيث كانت تمثل فى كل عام طقوس دمتر ، وپرسفونى ، وديونيسس زجريوس . وقد انفصل ثسپيس هذا من فرقة الراقصين والمغنين ، مدفوعاً إلى هذا من غير شك بتأثير

الأنانية التى تحرك العالم وتعمل على تقدمه ، ووضع لنفسه عبارات يقولها بمفرده ، وأوجد فكرة المقابلة والنزاع مع سائر الفرقة ، وقدم للتاريخ المسرحية بمعناها الدقيق ، وقام بأدوار مختلفة من هـذا القبيل أصابه التوفيق فيها تارة والإخفاق تارة أخرى ؛ ولما أن مثّلت فرقته فى أثينة غضب صولون أشد الغضب على ما أظنه خداعاً للجمهور ، وندد بهـذه البدعة الفنية ، وسماها فساداً خلقياً [١٠٤] — وتلك تهمة طالما اتهم بها التمثيل فى كل جيل . وكان بيستراتس أوسع من صولون خيالا ، وشجع المباريات التمثيلية فى عيد ديونيسس ؛ وقد فاز تسبيس فى إحدى هـذه المباريات . وتطورت المسرحية فى شكلها الجديد تطوراً سريعاً استطاع معه كوريلوس Choerilus بعد جيل واحد أن يمثل مائة وستين مسرحية . ولما أن عاد إسكيلوس ، وعادت أثينة ، ظافرين من معركة سلاميس بعد خمسين سنة من حياة تسبيس ، كان المسرح قد تهيأ لاستقبال العصر المجيد فى تاريخ المسرحية اليونانية .

الفصل السادس

نظرة إلى الماضي

إذا عدنا بتفكيرنا إلى الحضارة المتعددة النواحي التي صورنا بعض قممها في الصفحات الماضية، بدأنا ندرك ما كان اليونان يدافعون عنه في مرثون. ذلك أن بحر إيجة يبدو كثول من النحل اليوناني العامل، المتنازع، اليقظ، المبتدع، يستقر معانداً في كل ثغر، وينتقل باقتصاده من الحرث والزرع إلى الصناعة ثم إلى التجارة، ويبتدع كل ذي روعة من الأدب والفلسفة والفن. ومما يثير الدهشة والإعجاب أن تنضج هذه الثقافة الجديدة بهذه السرعة وتنتشر هذا الانتشار الواسع، وأن تضع في القرن السادس جميع الأسس التي قامت عليها أعمال القرن الخامس المجيدة. ولقد كانت هذه الحضارة من بعض نواحيها أجمل وأرق من حضارة عصر بركليز — فقد كانت أرقى منها في شعر الملاحم والشعر الغنائي، ينعشها ويزينها ما كان للنساء من حرية أوسع ونشاط ذهني أعمق مما كان لهن في عصر بركليز. ولقد كان هذا العصر المتقدم أحسن حكما من بعض الوجوه من العصر المتأخر الذي كان أكثر منه دمقراطية، بل إن أسس الدمقراطية نفسها قد وضعت في ذلك القرن؛ ذلك أنه قبل أن ينتهي كان حكم الطغاة قد علم اليونان من النظام ما يكفي لجعل الحرية اليونانية مستطاعة الوجود.

وكان تحقيق الحكم الذاتي حدثاً جديداً في العالم، لأن الحياة من غير الملوك لم تكن قد جرؤ عليها مجتمع كبير في العالم قبل ذلك الوقت. ونشأ من هذا المعنى الجليل، معنى الاستقلال الفردي والجماعي، حافز قوي لجميع مغامرات اليونان. وكانت حريتهم هي التي ألهمتهم ما أبدعوه في الفنون والآداب،

والعلوم والفلسفة ، من روائع لا يكاد يصدقها العقل . ولسنا ننكر أن جزءاً كبيراً من عامة الشعب، كان يؤمن بالخرافات ، والأوهام ، والمعتقدات الخفية الغامضة ، والأساطير ، ويعشقها كما يؤمن بها الناس ويعشقونها على الدوام . ولكن الحياة اليونانية قد أصبحت على الرغم من هذا حياة دنيوية إلى حد لم يسبق له مثيل فى التاريخ ؛ وانفصلت السياسة ، والشرائع ، والآداب ، والبحوث ، واحدة بعد واحدة من السلطة الدينية ، وتحررت من سلطانها ، وبدأت الفلسفة تفسر العالم والإنسان ، جسمه وروحه ، تفسيراً مستنداً إلى أسس طبيعية ، ووضع العلم ، الذى لم يكد يكون له من قبل(*) وجود . وقوانينه الأولى الجريئة ، فوضعت قواعد الهندسة الإقليدية ، وأضحى وضوح التفكير وتنظيمه ، وصدقه ، المثل الأعلى الذى تنشده أقلية من الرجال هى التى أخرجت العالم من ظلمات الجهل إلى نور العلم . وبذلت جهود جسمية وروحية جبارة للمحافظة على هذه المثل وما تبعثه من آمال ، وإنقاذها من أيدى الاستبداد الأجنبى المميت ، ومن الضياع فى دياجير الغموض والتصوف القديم ، فكسبت للحضارة الأوربية ما تستمتع به من ميزة الحرية التى كلفتها الشىء الكثير .

(*) لعل المؤلف قد نسى ما قاله من قبل عن علوم الأمم القديمة كالمصريين والبابليين ، أو لعل فى قوله « لم يكد » إشارة إلى هذه العلوم . (المترجم)

الباب العاشر

الكفاح فى سبيل الحرية

الفصل الأول

مرثون

يقول هيرودوت : « فى أثناء حكم دارا وخشيارشاى وأرتخشر لاقت بلاد اليونان من الأهوال مالم تلقه فى العشرين جيلا السابقة على هذا العهد[1] » وكان لابد أن يلقى أهلها جزاء نمائهم وتقدمهم . ذلك أن انتشارهم فى كل مكان لابد أن يؤدى عاجلا أو آجلا إلى قيام النزاع بينهم وبين إحدى الدول العظمى . وإذ كان اليونان يتخذون البحر مطية لهم ، فقد أنشأوا فيه طريقاً تجارياً يمتد من شاطئ أسپانيا الشرق غرباً إلى أقصى ثغور البحر الأسود شرقاً . وأخذ الطريق المائى الأوربى – الذى يخترق بلاد اليونان وإيطاليا وصقلية – ينافس الطريق الشرقى البرى والبحرى – الذى يخترق الهند وفارس وفينيقية – ويفوقه فى الأهمية على مر الأيام ، ونشأ من هذه المنافسة نزاع شديد لم يخمد أواره قط كان لا بد أن يؤدى إلى ما أدى إليه كل نزاع سابق فى تاريخ البشر ، ألا وهو الحرب السافرة التى لم تكن معارك لادى Lade ، ومرثون ، وپلاتية ، وهيميرا Hymera ، ومكالى Mycale ، ويوريمدون Eurymedon ، وغرانيقوس وإسوس ، وأربيلا ، وكانى ، وزاما إلا حادثات منها صغيرة ، وانتصر الأوربيون على الشرقيين فى هذا الصراع لأسباب عدة ، منها أن النقل البحرى أقل نفقة من النقل البرى ،

ومنها أن من القوانين التي تكاد تتحكم في التاريخ أن الشمال الخشن ذا النزعة الحربية ، ينتصر دائماً على الجنوب اللين السهل مبدع الفنون .

في عام ٥١٢ قبل الميلاد عبر دارا الأول ملك الفرس مضيق البسفور وغزا سكوذيا ، ثم زحف غرباً وفتح تراقية ومقدونية ، ولم يعد إلى عواصم ملكه إلا بعد أن وسع رقعة إمبراطوريته حتى شملت فارس ، وبلاد الأفغان ، وشمالي الهند ، والتركستان ، وأرض الجزيرة ، وشمالي بلاد العرب ، ومصر ، وقبرص ، وفلسطين ، وسوريا ، وآسية الصغرى ، وشرقي بحر إيجه وتراقية ، ومقدونية . وكانت نتيجة هذه الفتوح أن أعظم الإمبراطوريات التي شهدها العالم حتى ذلك الوقت قد وسعت رقعتها أكثر مما يجب عليها أن توسعها ، حتى ضمت إليها فاتحيها في المستقبل وأيقظتهم من سباتهم ، ولم يبق من الأمم الكبرى في خارج هذا النظام الشامل من نظم الحكم والتجارة إلا أمة واحدة هي أمة اليونان ، التي لم يكد دارا يسمع شيئاً عنها خارج أيونيا قبل عام ٥١٠ ق . م ؛ وقد سأل مرة عن « الأثينيين — من هم[٢] ؟ » . وحدث في عام ٥٠٦ أن قامت ثورة في أثينة انتهت بخلع الطاغية هپياس ؛ ففر إلى المرزبان الفارسي في سرديس وتوسل إليه أن يعينه على استرداد سلطانه ، وعرض عليه إذا استرده أن يتولى حكم أتكا من قبل الفرس .

وكان ذلك إغراء قوياً زاده قوة تحرش مؤقت . ذلك أن المدن اليونانية التي ظلت خاضعة لسلطان الفرس نحو خمسين عاماً ثارت فجاءة على ولاتها من قبل الفرس ، وطردتهم منها وأعلنت استقلالها . وذهب أرستجراس الميليتي إلى اسپارطة يستمد منها العون ، ولكنه لم يفلح في بغيته ، فجاء إلى أثينة ، وهي المدينة الأصلية التي نشأ منها كثير من المدن الأيونية ، وما زال يلح عليها حتى أقنعها بأن ترسل عمارة بحرية مؤلفة من عشرين سفينة لمساعدة الثوار . وكان الأيونيون في هذه الأثناء يعملون بعنف وبغير نظام هما من خصائص اليونان

فى كل زمان ومكان ، فكانت كل مدينة ثائرة تجيش جيوشها ولكنها تسبقها تحت قيادة مستقلة . وزحف الجيش الميليتى ، ولدى قيادته من الشجاعة أكثر مما لديه من الحكمة ، حتى وصل إلى سرديس ، وأحرق المدينة العظيمة ودكها دكا . ونظم الحلف الأيونى أسطولا متحداً ، ولكن سفن ساموس عقدت صلحاً سرياً منفرداً مع المرزبان الفارسى ، فلما أن التمت العمارة البحرية الفارسية بالعمارة الأيونيه عند لادى فى عام ٤٩٤ ، ودارت بينهما معركة من أشد المعارك البحرية فى التاريخ ، انسحبت سفن ساموس الخمسين دون أن تشترك فى القتال ، وحذت حذوها كثير من أقسام الأسطول الأيونى[٣] . وهُزم الأيونيون هزيمة منكرة ، ولم تفق الحضارة الأيونية بعدئذ إفاقة كاملة من هذه الكارثة المادية والروحية ، وحاصر الفرس ميليتس ، واستولوا عليها ، وقتلوا رجالها ، وسبوا نساءها وأطفالها ، وأعملوا فيها السلب والنهب ، حتى صارت منذ ذلك اليوم بلدة قليلة الشأن . وبسطوا سلطانهم مرة أخرى على أيونيا ، وغضب دارا لتدخل أثينة فى شئون ملكه ، فصمم على فتح بلاد اليونان ، وألفت أثينة الصغيرة نفسها ، جزاء لها على مساعدتها الكريمة لبناتها من المدن الأيونية ، وجهاً لوجه أمام إمبراطورية أكبر مائة مرة من أتكا .

وفى عام ٤٩١ خاض أسطول فارسى قوامه ستمائة سفينة بقيادة داتيس Datis عباب بحر إيجة من جزيرة ساموس ، ووقف فى طريقه ليخضع جزائر سكلديس ، ووصل إلى ساحل عوبية يحمل مائتى ألف محارب . واستسلمت عوبية بعد مقاومة قصيرة عبر الفرس بعدها الخليج الذى يفصلها عن أتكا ، وعسكر هؤلاء الجنود عند مرثون لأن هپياس قد نصحهم بأن فى وسعهم أن يستخدموا فى هذا السهل فرسانهم ، وهم من هذه الناحية يفوقون اليونان كثيراً[٤] .

واضطربت بلاد اليونان أشد الاضطراب لهذه الأنباء ، ذلك أن الجيوش الفارسية لم تكن قد غلبت قط قبل هذا الغزو ، ولم تكن أمة من الأمم قد

استطاعت أن تصد زحف جيوش الإمبراطورية . فهل فى مقدور أمة ضعيفة ، مشتتة ، لم تألف من قبل الاتحاد لغرض عام ، أن تقف فى وجه تيار الغزو الجارف ؟ وترددت دول اليونان الشمالية فى الوقوف فى وجه هذه الجيوش الجرارة ، واستعدت اسپارطة استعداداً يشوبه كثير من التردد ، وأجازت للخرافات أن تؤخر التعبئة العامة ؛ أما بلاتية الصغيرة فلم تتوان عن العمل السريع وبعثت بقسم كبير من أهلها يستحثون السير إلى مرثون . وحرر ملتيادس العبيد فى أثينة وضمهم إلى الجيش مع الأحرار ، وزحف بهم إلى ميدان القتال من فوق الجبال . ولما التقى الأعداء كان عدد الجيش اليونانى حوالى مائة ألف مقاتل ، أما جيوش الفرس فكانت عدتها فى أغلب الظن حوالى مائة ألف[٥] . ولم يكن الفرس تعوزهم الشجاعة ، ولكنهم كانوا يألفون أن يحاربوا فرادى ، ولم يكونوا مدربين على أساليب اليونان فى الدفاع والهجوم الجماعيين بصفوفهم المتراصة . وجمع اليونان بين النظام والشجاعة . وقد نجوا من الهزيمة الماحقة بالمثل الذى ضربه لهم أرستيديس Aristides إذ نزل عن القيادة لملتيادس ، وإن كانوا قد ارتكبوا ذلك الخطأ الشنيع الدال على الحمق وهو توزيع القيادة العليا بين عشرة قواد يتولاها كل واحد يوماً[٦] . واستطاعت القوة اليونانية الصغيرة بفضل حنكة هذا الجندى القوى الخشن الطباع أن توقع بالجحافل الفارسية الجرارة هزيمة منكرة . ولم تكن هذه المعركة من معارك التاريخ الفاصلة فحسب ، بل كانت فوق ذلك من أعظم الانتصارات التى لا يصدقها العقل . وإذا جاز لنا أن نأخذ بأقوال اليونان عنها ، فإن الفرس قد خسروا فى مرثون ٦٫٤٠٠ من رجالهم ، ولم يخسر اليونان إلا ١٩٢ . ووصل الاسپارطيون إلى الميدان بعد انتهاء المعركة ، وندموا على تباطؤهم ، وأثنوا على الفائزين .

الفصل الثاني

أرستيديز وثمستكليز

إن سيرة ملتيادس وأرستيديز بعد معركة مرثون لتوضح ما فى أخلاق اليونان وما فى تاريخهم من مزيج عجيب يجمع بين النبل والقسوة ، والمثالية والانحطاط . ولنتحدث أولا عن ملتيادس فنقول إنه قد غره ثناء بلاد اليونان كلها عليه فطلب إلى الأثينيين أن يعدوا أسطولا من سبعين سفينة يتولى قيادته هو وحده لا ينازعه فى ذلك منازع . ولما أن أعدت السفن سار بها إلى پاروس وطلب إلى أهلها مائة وزنة (نحو ٦٠٠٠٠٠ ريال أمريكى) وإلا أفناهم عن آخرهم . ولكن الأثينيين استدعوه وفرضوا عليه غرامة قدرها خمسون وزنة ، ولما مات بعد استدعائه بقليل أدى الغرامة ابنه سيمون Cimon الذى صار فيما بعد منافس پركليز[٨] .

وعاش الرجل الذى تخلى لملتيادس عن مكانه فى مرثون ونجا من المزالق التى توجد عادة فى طريق الظافرين . ذلك أن أرستيديز كان فى حياته وأخلاقه اسپارطياً يعيش فى أثينة ؛ وقد استحق بخلقه الهادئ الرزين ، وبساطته ، وتواضعه ، وأمانته التى لا تنال منها الأحداث ، استحق بهذه الصفات لقب العادل ، ولما أن تليت على المسرح العبارة الآتية أثناء تمثيل إحدى مسرحيات إيسكلوس :

« فهو لا يتظاهر بالعدالة ولكن العدالة طبيعية فيه ، وهى هدفه فى أعماله ؛ ومن عقله تنفجر ينابيع الحكمة والفطنة » .

لما أن تليت هذه العبارة التفت المستمعون كلهم ناحية أرستيديز ، لأنهم رأوا فيه الأنموذج الحى لهذه الصفات[٩] . ولما أن استولى اليونان على معسكر الفرس فى مرثون ، ووجدوا فى خيامهم ثروة طائلة ، عهدوا إلى أرستيديز المحافظة

عليها ، فلم يأخذ منها شيئاً لنفسه ، ولم يسمح لأحد بأن يغتال منها شيئاً[١٠] ، ولما أن طلب إلى حلفاء أثينة بعد الحرب أن يسهموا فى أداء جزية سنوية إلى خزانة الحلف فى ديلوس ليستعان بها فى الدفاع عن بلاد اليونان عامة ، اختير أرستيديز ليقرر ما تؤديه كل مدينة ، ولم يعترض أحد على قراراته . لكن إعجاب الناس به كان رغم هذا كله أكثر من حبهم إياه . وكان صديقاً حميا لكليستنيز الذى وسع نطاق الدمقراطية إلى حد بعيد ، ولكنه كان يرى أنها ذهبت إلى أبعد حد مأمون ، وأنه إذا ما زيدت سلطة الجمعية إلى أكثر مما كان لها ، أدى ذلك إلى فساد الإدارة وإلى اضطراب النظام . وكان يندد بالفساد أينما وجده ، وخلق بذلك لنفسه كثيراً من الأعداء . واتخذ الحزب الدمقراطى الذى يرأسه ثمستكليز نظام نفى عدم المخلصين للحكومة ، وكان قد تقرر حديثاً ، للتخلص من أرستيديز ؛ وفى عام ٤٨٢ نفى الرجل الوحيد فى تاريخ أثينة كله الذى جمع بين الشهرة والأمانة ، وكان نفيه فى أوج مجده . والعالم كله يعرف القصة التى تقول — وقد تكون هى الأخرى خرافة لا ظل لها من الحقيقة — إن أرستيديز نقش اسمه على اللوحة التى يكتب عليها اسم من يراد نفيه (الأستراكون) حين طلب إليه ذلك رجل أمى لا يعرفه ولكنه لم يعد يطيق سماع لقب العادل يطلق عليه ، فحقد عليه لهذا السبب كما يحقد أوساط الناس عادة على العظماء . ولما أن عرف أرستيديز أن الجمعية قررت نفيه قال إنه يرجو ألا يأتى اليوم الذى تذكره[١١] فيه أثينة(*) .

ولا يسع المؤرخ إلا أن يعترف أن المتصرفين فى الشئون العامة فى أثينة كانوا يتصفون بما يتصف به رجال الحكم أحياناً من موت الضمير . لقد كان ثمستكليز

(*) ولعله كان يقول مع الشاعر العربى :

سيذكرنى قومى إذا جد جدهم وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

(المترجم)

شعلة من الذكاء والمقدرة لا يقل فى ذلك عن ألقبيادس الذى عاش فى عصر متأخر عنه . ويقول فيه توكيديدس(١٢) وهو المعروف دائماً باعتداله : « إنه خليق بأن نعجب به إعجاباً خارقاً للعادة منقطع النظير » . وقد أنقذ أثينة كما أنقذها ملتيادس ، ولكنه لم يستطع إنقاذ نفسه ، وكان فى مقدوره أن يقهر إمبراطورية عظيمة ، ولكنه لم يكن فى وسعه أن يقهر ما فى نفسه من شهوة السلطان ، « وكان يتلقى بمضض وعدم عناية » ، كما يقول أفلوطرخس ، ما يسدى إليه من النصح لتقويم المعوج من أخلاقه وسلوكه ، ولا يقبل أن يعلمه أحد شيئاً من الرقة والمجاملة للناس ؛ لكنه حتى بعد أن تقدمت به السن كان يعنى بكل ما يقال له إذا كان يهدف إلى إصلاح عقله ، أو يزيد من قدرته على تصريف شئون الدولة ، وهو واثق من قدرته الطبيعية فى هذه الأمور(١٣) » . وكان من سوء حظ أثينة أن ثمستكليز وأرستيديز قد أحبا معاً فتاة واحدة هى استسلوس الكيوسية Stesilaus of Coes ، وأن ما ولده هذا الحب من حقد كل منهما على الآخر لم يزُل بعد أن زال الجمال الذى أشعل النار فى قلبيهما(١٤) . بيد أن ثمستكليز كان هو الذى أعد العدة للنصر فى سلاميس وأحرز هذا النصر بما أوتى من همة وفراسة . وكانت موقعة سلاميس أهم الوقائع الحاسمة فى تاريخ اليونان كله . ذلك أنه قد أعد منذ عام ٤٩٣ مشروع إنشاء مرفأ جديد لأثينة فى بيريه ، وشرع فى إنشائه بالفعل ؛ وفى عام ٤٨٢ أقنع الأثينيين بأن ينزلوا عن نصيبهم فى مال كان سيوزع عليهم من محصول مناجم الفضة فى لوريوم Leurium ، وأن يخصصوا المال لإنشاء مائة سفينة حربية من ذوات الثلاثة الصفوف من المجاذيف . ولو لم ينشئ الأثينيون هذه السفن لما استطاعوا مقاومة خشيارشاى .

الفصل الثالث

خشيارشاى أو أخشويرش(*)

توفى دارا الأول فى عام ٤٨٥ وخلفه خشيارشاى الأول . وكان الوالد والولد رجلين يمتازان بالمقدرة العالية والثقافة الرفيعة ، ولهذا يخطئ من يظن أن الحرب اليونانية الفارسية كانت نزاعاً بين الحضارة والهمجية . وحسبنا دليلا على هذا تلك الحادثة التى وقعت حين أرسل دارا رسله إلى أثينة واسپارطة قبل أن يغزو بلاد اليونان ، يطلب إليهما أن ترسلا إليه التراب والماء رمزاً لخضوعهما لسلطانه ، فما كان من المدينتين كلتيهما إلا أن قتلتا الرسل . وتوالت نذر الشؤم على اسپارطة فخشيت عاقبة فعلتها . وندمت على خرقها التقاليد الدولية المرعية ، وطلبت إلى أهلها أن يتقدم منهم اثنان يذهبان إلى فارس وأن يقبلا أى عقاب يفرضه عليهما الملك العظيم ليكفرا به عن غدر مواطنيهما . وتطوع اسپرثياس Sperthias ، وبوليس Bulis من أبناء الأسر الغنية القديمة فى المدينة ، للقيام بهذه المهمة ، وسارا إلى خيمة خشيارشاى وعرضا عليه أن يقتلهما ليكفرا عن مقتل رسله ، ويقول هيردوت إن خشيارشاى « أجابهما جواب الشهم الكريم وقال إنه لا يفعل ما فعله اللسدمونيون ، حين قتلوا رسله واعتدوا بعملهم هذا على القوانين التى يشترك الناس كلهم فى التقيد بها . وإذا كان قد لامهم على فعلهم هذا فإنه لا يفعل مثل ما فعلوه ولا يرتكب من الإثم ما ارتكبوه » .

وأخذ خشيارشاى يستعد لهجومه الثانى على اليونان استعداداً كاملا بطيئاً . فقضى أربع سنين يحشد الجند ويجمع العتاد والزاد من جميع الولايات الخاضعة لسلطانه ؛ ولما أن بدأ الزحف أخيراً فى عام ٤٨١ كان جيشه فى أغلب الظن

(*) أو زركسيز كما يسميه اليونان .

أكبر جيش فى التاريخ كله قبل هذا القرن الذى نعيش فيه . ويقدره هيرودوت تقديراً بعيداً عن الاعتـدال فيقول إنه كان مؤلفاً من ٢٫٦٤١٫٠٠٠ مقاتل ، ومثلهم من المهندسين والأرقاء ، والتجار ، ورجال التموين والعاهرات . ويقول — ولعله هو نفسه لم يكن مؤمنا بقوله — إن جيش خشيارشاى كان إذا ورد الماء ليشرب جفت أنهار برمتها[16] . وكان هذا الجيش بطبيعة الحال خليطاً من أمم مختلفة الأجناس والمشارب ، وكان تأليفه على هذا النحو شديد الخطورة عليه . كان فيه فرس ، وميديون ، وبابليون ، وأفغـان ، وهنود ، وبكتريون ، وسيجديون ، وساكيون ، وأشوريون ، وأرمن ، وكلشيون ، وسكوذيون ، وپيونيون ، وميسيون ، وپفلجونيون ، وفريجيون ، وتراقيون ، وتساليون ، ولكريون ، وبؤوتيون ، وإيوليون ، وأيونيون ، وليديون ، وكاريون ، وكليكيون ، وقبصريون ، وفينيقيون ، وسوريون ، وعرب ، ومصريون ، وأحباش ، وليبيون وأجناس أخرى كثيرة . وكان منهم المشاة ، والفرسان ، وراكبو العربات ، والفيلة ، ومعهم أسطول من سفن النقل والسفن الحربية يبلغ عددها حسب رواية هيرودوت ألفا ومائتى سفينة وسبع سفن . ولما قبض الفرس فى معسكرهم على جواسيس يونان ، وأمر القائد بقتلهم ، نقض خشيارشاى أمره وعفا عن الجواسيس ، وأمر أن يحرسوا أثناء مرورهم بين قواته ، ثم أطلق سراحهم معتقداً أنهم إذا نقلوا إلى أثينة واسپارطة مدى استعداده ، فإن ما بقى من بلاد اليونان سوف يستسلم له[17] .

ووصل هذا الجيش العظيم إلى الهلسپنت (الدردنيل) فى عام ٤٨٠ وكان مهندسوه المصريون والفينيقيون قد أقاموا عليه جسراً يعد من أعظم أعمال القدماء الهندسية ، وأكثرها إثارة للإعجاب ، وإذا جاز لنا مرة أخرى أن نصدق هيرودوت قلنا إن ٦٧٤ سفينة من ذوات الصفوف الثلاثة من المجاذيف ، أو من ذوات الخمسين مجذافاً ، قد صفت صفين فى عرض المضيق ، ووجهت كل سفينة عكس التيار ، وثبتت فى مكانها بهلب ثقيل . ثم مد الصناع حبالا من الكتان

أو نبات البردى فوق كل صف من السفن من أحد الشاطئين إلى الشاطئ الذى يقابله ، وربطوا هذه الحبال من كل سفينة من السفن ، وشدوها إلى روافع على البر . وقطعت أشجار ونشرت ألواحاً وضعت فوق الحبال وبعكس اتجاهها وربطت بهذه الحبال كما ربط بعضها ببعض . وغطيت الألواح بالحسك ؛ ثم غطى الحسك بالتراب ، ثم عبد هذا كله حتى يكون شبيهاً بالطريق الممهد ، وأقيم حاجز على كلا الجانبين يبلغ من الارتفاع حداً يمنع الحيوانات من أن يدخلها الخوف إذا أبصرت البحر[١٨] . ولكن كثيراً من الحيوانات والآدميين كان لا بد من ضربها بالسياط قبل أن تجرؤ على اجتيازه . واحتملها الجسر أحسن احتمال ، ولم تمض إلا سبع ليال وسبعة أيام حتى كان الجيش كله قد مر عليه بسلام . ورأى أحد الأهلين هذا المنظر العجيب فأيقن أن خشيارشاى هو زيوس بعينه ، وسأل كيف يكلف رب الآلهة والبشر نفسه عناء فتح بلاد اليونان الصغيرة ، وهو الذى يستطيع أن يدمر هذه الأمة المتعاظمة بصاعقة واحدة[١٩] .

وزحف الجيش سرا مجتازا تراقية ثم نزل إلى مقدونية وتساليا بينا كان الأسطول الفارسى يلازم الساحل يتجنب عواطف بحر إيجة بالسير جنوبا مجتازا قناة حفرها رجال مسخرون ، ثم قطع من برزخ جبل أثوس مسافة يبلغ طولها ميلا وربع ميل . ومن القصص المتواترة أنه كلما أكل الجيش وجبتين حل الخراب التام بالمدينة التى تطعمه ، وأنفقت ثاسوس أربعمائة وزنة من الفضة (أى نحو ثلاثين مليون ريال أمريكى) لإطعام جيش خشيارشاى يوماً واحداً[٢٠] . واستسلمت مدن اليونان الشمالية الممتدة إلى حدود أتكا إما خوفا من الغزاة وإما طمعاً فى الرشا الضخمة التى كانوا يوزعونها على الأعداء ، وانضمت جيوشها إلى جحافل خشيارشاى ، ولم تستعد للقتال من مدن الشمال إلا پلاتيا وثسپيا .

الفصل الرابع

سلاميس

كيف نستطيع أن نتصور في هذه الأيام ما استولى على اليونان الجنوب من هول وفزع حينما اقترب منهم هذا السيل الجارف المتبابل الألسنة الذي لا يبقى ولا يذر ؟ لقد بدا لهم أن مقاومته حمق وجنون ، لأن الدول التي ظلت موالية للقضية اليونانية لم يكن في وسعها أن تحشد معشار قوة خشيارشاى ؛ وعملت أثينة واسپارطة للمرة الأولى معا وتعاونتا معاونة صادقة ، وأرسلتا الوفود مسرعة إلى كل مدينة في البلوپونيز تتلمس العتاد والرجال ، وأجابتها معظم الدول إلى ما طلبت ؛ ولكن أرجوس رفضت الرجاء ورضيت بما أصابها من مذلة . وجهزت أثينة أسطولا اتجه إلى الشمال للقاء العمارة الفارسية الضخمة ، وأرسلت اسپارطة قوة صغيرة بقيادة الملك ليونداس لتعطل تقدم خشيارشاى عند ترموپيلي . والتقى الأسطولان عند أرتمزيوم Artisium بالقرب من ساحل عوبية الشمالي . ولما رأى قواد الأسطول اليوناني ضخامة الأسطول الفارسي فكروا في الانسحاب ، ولكن العوبيين خشوا أن ينزل الفرس في بلادهم ، فأرسلوا إلى تمستكليز قائد القسم الأثيني رشوة قدرها ثلاثون وزنة (نحو ١٨٠,٠٠٠ ريال أمريكي) على شريطة أن يقنع قواد اليونان بقتال الأعداء . ونجح تمستكليز في إقناعهم بعد أن اقتسم المال معهم[٢١] . ثم هداه ما يمتاز به من دهاء إلى وسيلة أخرى ظن فيها فائدة ، فأرسل بعض البحارة لينقشوا على الصخور رسائل إلى اليونان المنضمين إلى الأسطول الفارسي يرجونهم فيها أن يفروا من هذا الأسطول ، فإن كبر عليهم هذا فلا أقل من أن يمتنعوا عن قتال أهلهم وبلادهم . وكان يأمل أن يتأثر الأيونيون بهذه الرسائل إذا رأوها ، وألا يجرؤ خشيارشاى إذا قرأها وأدرك معناها على استخدام

الهيلينيين فى المعركة . ودار القتال بين الأسطولين المتمادين طوال النهار ، فلما جن الليل وقف القتال قبل أن يعقد لواء النصر لأحد الفريقين ، وارتد اليونان إلى أرتمزيوم والفرس إلى أفيتى Aphetae . وإذا ما ذكرنا اختلاف القوتين فى عدد السفن رأينا أن اليونان كانوا على حق حين حسبوا نتيجة المعركة نصرا لهم على أعدائهم . ولما جاءتهم الأنباء بكارثة ترموپيلى أبحر الجزء الباقى من الأسطول اليونانى نحو الجنوب إلى سلاميس ليصد الغزاة عن أثينة .

وكان فى هذه الأثناء قد غلب على أمره عند « الأبواب الحارة » رغم ما أبداه من المقاومة الشديدة التى تعد أروع مقاومة فى التاريخ كله . ولم ينتصر عليه أعداؤه بفضل شجاعتهم ، بل انتصروا عليه بخيانة اليونان أنفسهم . ذلك أن بعض اليونان من أهل تراكيس Trachis لم يكتفوا بأن يدلوا خشيارشاى على طريق ملتو طويل فوق الجبال ، بل فعلوا ما هو أدهى من ذلك وأمر ، إذ قادوا الجيش الفارسى من هذا الطريق ليهاجموا الاسپارطيين من الخلف . وقتل فى المعركة التى نشبت وقتئذ ليونداس والثلثمائة الكبار الذين كانوا معه إلا رجلين ؛ ونقول الكبار لأنه لم يختر معه إلا من كان لهم أبناء حتى لا يكون موتهم سببا فى انقراض أية أسرة اسپارطية . أما الرجلان اللذان لم يقتلا فقد سقط أحدهما فى معركة پلاتية ، وشنق الثانى نفسه اعتقادا منه أن نجاته تجلله العار[٢٢] . ويؤكد المؤرخون اليونان أن الفرس خسروا فى المعركة عشرين ألفا ، وأن خسارة اليونان لم تزد على ثلثمائة[٢٣] . وكتب على قبر أولئك الأبطال تلك القبرية الذائعة الصيت : « اذهب أيها الغريب ونبئ اللسدمونيين أنا نحيا هنا إطاعة لشرائعهم[٢٤] » .

ولما عرف الأثينيون أنه لم يبق أمام الفرس ما يصدهم عن أثينة أعلنوا فى المدينة أن من واجب كل أثينى أن يعمل على نجاة أسرته بخير وسيلة يراها . فمنهم من فر إلى إيجينا ، ومنهم من فر إلى سلاميس ، ومنهم من خرج إلى تروزين Troezen ،

وانضم بعض الرجال إلى بحارة الأسطول العائد من أرتمزيوم . ويصور لنا أفلوطرخس[٢٥] صورة رائعة مؤثرة للحيوانات المستأنسة فى المدينة وهى تسير خلف أصحابها إلى شاطئ البحر ، حتى إذا ما امتلأت السفن بالرجال ولم يبق فيها مكان للحيوانات ملأت الجو بأصواتها . وكان من بينها كلب يملكه أكسانثپوس Xanthippus والد پركليز ، قفز إلى البحر وأخذ يسبح إلى جانب السفينة حتى إذا ما وصل إلى سلاميس مات من فرط الإعياء[٢٦] . وفى وسعنا أن ندرك ما كان يسود تلك الأيام من اهتياج وانفعال ، حتى نذكر أن رجلا من الأثينيين وقف فى الجمعية الوطنية يشير بالاستسلام ، فما كان من مواطنيه إلا أن قتلوه فى التوّ والساعة ، وأن جماعة من النساء ذهبن إلى بيته ورجمن زوجته وأطفاله بالحجارة حتى يهلكوا[٢٧] . ولما أقبل خشيارشاى على المدينة ألفاها خاوية إلى عروشها أو تكاد ، فأعمل فيها السلب والنهب وأشعل فيها النار

وبعد قليل دخل الأسطول الفارسى المؤلف من اثنى عشرة سفينة خليج سلاميس ، واستعدت للقائه ثلثمائة سفينة يونانية من ذات الصفوف الثلاثة من المجذفين ، وكانت لا تزال ألويتها معقودة لقواد مختلفين ، وكانت كثرة هؤلاء القواد تعارض فى المخاطرة بالاشتباك مع الأسطول الفارسى فى معركة فاصلة . وأراد ثمستكليز أن يضطر اليونان إلى القتال اضطراراً ، فلجأ إلى حيلة لو أنها انتهت بفوز الفرس لكان جزاؤه الموت لا محالة . ذلك أنه أرسل إلى خشيارشاى عبداً يثق به يقول له إن اليونان يعتزمون الفرار فى أثناء الليل ، وإن الفرس لا يستطيعون منع هذا الفرار إلا إذا أحاطوا بالأسطول اليونانى ، وعمل خشيارشاى بالنصيحة . ووجد اليونان فى صباح اليوم الثانى أن المسالك كلها قد سدت فى وجوههم ، فلم يروا بداً من القتال . وجلس خشيارشاى فى أبهة وجلال عند سفح جبل إجليوس Aegaleus على شاطئ أتكا المقابل لخليج سلاميس يرقب سير القتال ، ويدون أسماء من يبدون من رجاله شجاعة ممتازة . وانتهت

الواقعة بفوز اليونان بفضل براعتهم فى أساليب الكر والفر ، وفى ركوب البحار ، وبسبب ما أحدثه فى صفوفهم من الخلل واضطراب اختلاف اللغات والعقول ، وكثرة ما لديهم من السفن التى عاقتهم عن سرعة الحركة . ويقول ديودور إن الغزاة خسروا مائتى سفينة مقابل أربعين خسرها المدافعون ، ولكننا لا نعرف ما يقوله الفرس أنفسهم عن النتيجة . ولم يقتل من اليونان إلا عدد قليل حتى من رجال السفن التى خسروها ؛ فقد كانوا كلهم بارعين فى السباحة ، ولذلك خاضوا الماء حتى وصلوا إلى البر حينما غرقت سفائنهم[٢٨] . وفرت المراكب الباقية من الأسطول الفارسى إلى مضيق الهلسپنت (الدردنيل) ، وأرسل الداهية ثمستكليز عبده مرة أخرى إلى خشيارشاى ليقول له إنه قد أقنع اليونان بعدم اقتفاء أثر الأسطول الفارسى . وترك خشيارشاى ثلثمائة ألف من رجاله بقيادة مردنيوس ، وعاد مع بقية الجيش ذليلا كسير القلب إلى سرديس ، فوصلها بعد أن مات فى الطريق جزء كبير من قوته بالأوبئة والزحار .

وفى العام الذى انتصر فيه اليونان فى سلاميس ، نشب القتال بين يونان صقلية والقرطاجنيين فى هيميرا Himera — وقد يكون ذلك فى نفس اليوم الذى دارت فيه رحى القتال فى سلاميس (٢٣ سبتمبر سنة ٤٨٠ ق . م) إذا صدقنا ما يقوله اليونان أنفسهم . ولسنا نعرف هل كان فينيقيو أفريقية يعملون بالاتفاق مع من كانوا يؤيدون منهم خشيارشاى ومن أمدوا سفنه بكثير من الرجال ؛ وربما كان من المصادفات المحضة أن يجد اليونان أنفسهم يهاجمهم أعداؤهم من الشرق ومن الغرب فى وقت واحد[٢٩] . وتقول الرواية المتواترة إن هملكار قائد العمارة القرطاجنية وصل إلى پنورموس Panormus على رأس ثلاثة آلاف سفينة وثلثمائة جندى ، ومنها سارة لمحاصرة هيميرا ، وهناك قابله جيلون Gelon السرقوسى ومعه خمسة وخمسون ألف مقاتل . ووقف هملكار بعيداً عن مكان المعركة كعادة قواد الفينيقيين ، وأخذ يحرق القرابين للآلهة ورحى الحرب دائرة ،



ولما تبين أنه مهزوم لا محالة ، ألقى بنفسه فى النار . وأقيم له قبر فى تلك البقعة نفسها ، وفيها قَتل حفيده هملكون Himilcon بعد سبعين عاما من ذلك الوقت ثلاثة آلاف يونانى انتقاماً منهم لجنده[٣٠] .

وبعد عام واحد (أغسطس سنة ٤٧٩) تم تحرير بلاد اليونان على أثر معركتين إحداهما بحرية والأخرى برية حدثتا فى وقت واحد تقريباً . ذلك أن جيش مردنيوس – وكان يعيش مطمئناً من خيرات البلاد – كان قد ضرب خيامه قرب پلاتيه فى سهول بوئتيه . وهناك اشتبكت معه قوة يونانية قوامها ١١٠٫٠٠٠ رجل بقيادة پوزنياس ملك اسپارطة ، بعد أن ظلت أسبوعين فى انتظار فأل طيب يبشر بالنصر . ودارت بينهما معركة كانت أعظم المعارك البرية فى هذه الحرب . ولم يكن الجنود الأجانب فى جيش الفرس متحمسين للقتال ، وما كادوا يرون الفرقة الفارسة التى تلقت الضربة الأولى من ضربات المهاجمين تتزلزل أقدامها ، حتى ولوا الأدبار ، وانتصر اليونان على الفرس انتصاراً مؤزراً لم يخسروا فيه (حسب أقوال مؤرخيهم) سوى ١٥٩ رجلا ، بينما كان عـــدد القتلى من الجيش الفارسى ٢٦٠٫٠٠٠[*] . وفى اليوم نفسه – كما يؤكد اليونان – التقت عمارة بحرية يونانية بقسم من الأسطول الفارسى أمام شاطئ ميكالى وسط الجزائر الأيونية كلها وملتقى مسالكها ، ونشبت بين الأسطولين معركة تحطم فيها الأسطول الفارسى ، وتحررت المدن الأيونية من نير الفرس ، واستعاد اليونان سيطرتهم على الهلسپنت والبسفور ، كما استعادوا هذه السيطرة من طروادة قبل ذلك الوقت بسبعمائة عام .

(*) لا حاجة إلى القول بأن هذه الأرقام التى يذكرها هيرودوت إنما أملتها عليه فورة من فورات الخيال الوطنى . وحاول أفلوطرخس أن يكون نزيهاً فى إيراده الحوادث فرفع خسارة اليونان إلى ١٣٦٠ ، ونزل ديودور الصقلى – وهو الرجل الكريم على الدوام فيما يذكر من الأرقام – بخسارة الفرس إلى ١٠٠٫٠٠٠[٣٢] . ولكن أفلوطرخس وديودور نفسهما كانا من اليونان .

لقد كانت الحرب اليونانية الفارسية أهم حوادث الصراع فى تاريخ أوربا ، ولولاها لما قامت لأوربا قائمة . فهى التى أتاحت للحضارة الأوربية الفرصة التى أمكنتها من أن تثبت قواعد حياتها الاقتصادية لا تبهظ كاهلها جزية أو ضرائب أجنبية ، وأن تنمى نظمها السياسية ، محررة من سيطرة ملوك الشرق . وبفضلها شقت بلاد اليونان لنفسها الطريق لأولى التجارب العظيمة فى الحرية ، وحفظت العقل اليونانى ثلثمائة عام كاملة من تصوف الشرق الموهن ومذاهب الباطنية ، وضمنت للمغامرات اليونانية حرية البحار . ونهض الأسطول الأثينى أو جزؤه الذى بقى بعد معركة سلاميس ففتح جميع مرافئ البحر المتوسط للتجارة اليونانية ؛ وهذا التوسع التجارى الذى أصبح بهذه الطريقة ميسراً مأموناً ، أمد أثينة بالثروة التى أمكنتها من أن تتفرغ لنشاطها الثقافى من عهد بركليز . يضاف إلى هذا أن انتصار هيلاس الصغيرة على جيوش الفرس الجرارة قد بعث العزة فى نفس أهلها وسما بروحهم المعنوية ، فأحسوا بأن الداعى يدعوهم للقيام بجلائل الأعمال اعترافاً منهم بالنعمة التى أنعم عليهم بها . وهكذا دخلت اليونان بعد مئات السنين من الاستعداد والتضحية فى عصرها الذهبى المجيد .

(انتهى الجزء الأول)

مقـــدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم على توفيقك ونصلى ونسلم على نبيك الكريم وعلى جميع أنبيائك ورسلك . وبعد فهذا هو الجزء الأول من المجلد الثانى من مجلدات قصة الحضارة التى يصدرها الكاتب الأمريكى ول ديورانت . وهذا المجلد الثانى هو المعروف « بحياة اليونان » ، وقد تمت ترجمته بعون الله ، وسيصدر تباعاً فى ثلاثة أجزاء . وقد تمت كذلك ترجمة المجلد الثالث الخاص بحضارة الرومان ، والذى سماه المؤلف « قيصر والمسيح » ، وسيصدر إن شاء الله بعد الفراغ من نشر المجلد الثانى . ولقد بدأنا منذ بضعة شهور ترجمة المجلد الرابع من هذه السلسلة العظيمة ، وهو الذى سماه المؤلف « عصر الإيمان » ، والذى يصل بالقصة إلى العصور الوسطى . ونرجو أن نفرغ من هذه الترجمة قبل أن ينشر المؤلف المجلد الخامس الخاص بعصر النهضة ، والذى يقول إنه سيصدر فى عام ١٩٥٥ . فإذا ما مد الله فى حياتنا ورزقنا صحة الجسم وراحة البال ، بدأنا ترجمة هذا المجلد عقب صدوره ، فلا يبقى بعد هذا لكى تتم القصـــة إلا المجلد السادس « عصر العقل » الذى سيصدر بالإنجليزية فى عام ١٩٦٠ . فإذا ما ترجمناه هو الآخر فاعتقادنا أننا نكون قد دينا لهذا الوطن العزيز واللغة العربية حقهما علينا ونكون قد آن لنا وللمؤلف كما يقول عن نفسه أن نستريح .

هذا والفضل كل الفضل فيما صدر من قبل من هذا الكتاب الجليل الشأن وما سيصدر بعد من مجلداته الستة إلى الإدارة الثقافية فى جامعـــة

الدول العربية فبمعونتها وثقتها ترجمنا ما ترجمناه منها ، ثم إلى لجنة التأليف والترجمة والنشر التي تولت أعمال الطبع والنشر وتحملت نفقاتهما ، ثم إلى القراء في مصر وسائر البلاد العربية الذين أقبلوا على أجزاء المجلد الأول الخمسة إقبالا كان له أكبر الأثر في تشجيعنا على بذل ما يتطلبه هذا العمل الضخم من جهد ، وتحمل ما يسببه من عناء .

ولقد كانت طريقتنا في الترجمة هي بعينها الطريقة التي اتبعناها في كل ما ترجمناه من قبل ، وهي التقيد التام بالأصل المترجم لم نشذ عنه في شيء ، فلم ننقص منه ولم نزد عليه ، اللهم إلا شروحاً وتعليقات قليلة في هوامش الصفحات .

أما تعريب الأعلام فقد اتبعنا فيه نطقها الذي ثبته المؤلف في آخر الكتاب ، عدا أسماء قليلة نطق بها العرب على غير ما ينطق بها الأوربيون ، كأفلاطون وأرسطو ، وسقراط ، وأسماء أخرى ورد ذكرها في كتب العرب الأقدمين ، وإذا كان قد فاتنا شيء منها في هذا الجزء فرجاؤنا ألا يفوتنا في الجزأين التاليين ، وزيادة في الدقة قد رأينا أن نثبت أسماء الأشخاص والأماكن حين يرد ذكرها أول مرة بالحروف الإنجليزية حتى يسهل النطق بها على الوجه الصحيح ، وإنا لنرحب بكل تنبيه لما عساه أن يكون قد خفي علينا من هذه الأسماء ، ونعد بالاستفادة منه في الأجزاء التالية مع خالص الشكر لأصحابه ، ونرجو ألا يطول انتظار القراء لهذه الأجزاء .

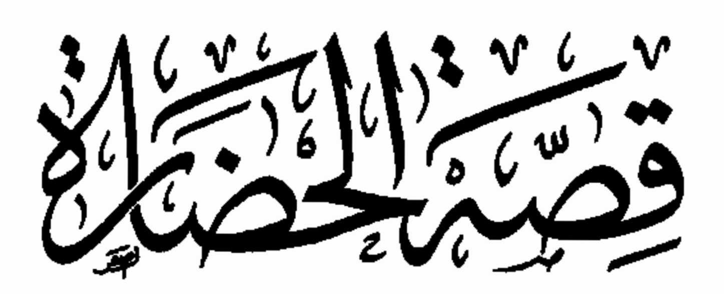
في شهر مارس من عام ١٩٥٣ — محمد بدران

فهرس الجزء الأول من المجلد الثانى

الكتاب الثانى ـ نهضة بلاد اليونان

الموضوع | الصفحة

فهرس الأشكال والصور



ول وايريل ديورانت

حياة اليونان

ترجمة

محمد بدران

الجزء الثاني من المجلد الثاني





تونس



بيروت

الكتاب الثالث

العصر الذهبي

من ٤٨٠ إلى ٣٩٩ ق. م.

أهم الحوادث فى الكتاب الثالث

مرتبة حسب تواريخها

ق . م .

— ٤٧٨ بندار الطيبى ، الشاعر .

٤٧٨ — ٤٦٧ هيرون الأول طاغية فى سراقوصة .

— ٤٧٨ فيثاغورس الرجيوى ، المثال

— ٤٧٧ تأليف حلف ديلوس .

— ٤٧٢ بولجنوتوس المصور ؛ برسو لإسكلس .

— ٤٦٩ مولد سقراط .

— ٤٦٨ سيمون يهزم الفرس فى أدريمنون ، المباراة الأولى بين إسكلس وسفكليز .

— ٤٦٧ بكيليدز الكيوسى الشاعر ، سبعة ضد طيبة لإسكلس .

٤٦٤ — ٤٥٤ ثورة الأرقاء (الهيلوت) ؛ حصار إيثوم .

٤٦٣ — ٤٣١ بركليز فى الحياة العامة .

— ٤٦٢ إفيلتيز يحدد اختصاصات مجلس الأريوبجس ، ويقرر أجوراً للقضاة
أنكساغوراس فى أثينة .

— ٤٦١ سيمون ينفى ؛ إفيلتيز يقتل .

— ٤٦٠ أنباذوقليس الأكرجاسى ، الفيلسوف ؛ بروميثيوس المقيد لإسكلس .

٤٥٩ — ٤٥٤ إخفاق حملة أثينة على مصر .

— ٤٥٨ أرستيا لإسكلس ؛ الأسوار الطويلة .

— ٤٥٦ هيكل زيوس فى أولمبيا ، بيونيوس المندى ، المثال .

— ٤٥٤ خزانة حلف ديلوس تنقل إلى أثينة .

— ٤٥٠ زينون الإيلى ، الفيلسوف ، أبقراط الطيوزى الرياضى ؛ كلمكوس
يوطد أركان النظام الكورنثى ؛ فيلولوس الطيبى ، الفلكى .

— ٤٤٨ صلح كلياس مع فارس .

٤٤٧ — ٤٣١ البارثنون .

— ٤٤٥ ليوسبس الأبدرى ، الفيلسوف .

— ٤٤٣ هيرودوت الهليكرنسى ، المؤرخ ، ينضم إلى المستعمرين الذين أسسوا
ثوريای فى إيطاليا ؛ جورجياس الليونتينى ، السوفسطائى .

— ٤٤٢ أنتيجون لسفكليز ، ميرون الإليوثيرى المثال .

— ٤٤٠ بروتجوراس الأبدرى ، السوفسطائى .

— ٤٣٨ أثينة برثنوس لفدياس ، ألسستس ليوربيديز .

ق.م.

- — ٤٣٧ البروبيليا .
- ٤٣٥ — ٤٣٤ الحرب بين كورنثة وكرثيرا .
- — ٤٣٣ حلف أثينة وكرثيرا .
- — ٤٣٢ ثورة بوتيديا ، محاكمة أسباسيا ، وفدياس ، وأنكساغوراس .
- ٤٣٠ — ٤٠٤ حرب البلوبونيز .
- ٤٣٠ — ٤٢٤ ظهور روايات ميديا ، أندروماكي ، وهكيبا ليوربيديز ، والكترا لسفكليز .
- — ٤٣٠ الطاعون في أثينة ، محاكمة بركليز .
- — ٤٢٩ موت بركليز ، كليون يعول السلطة ، أوديب الملك لسفكليز .
- — ٤٢٨ ثورة متليني ، يوربديز يكتب هيوليتوس : موت أنكساغوراس .
- — ٤٢٧ قدوم جورجياس إلى أثينة ؛ بروذكوس ، وهبياس السوفسطائيان .
- — ٤٢٥ حصار اسفكتيريا ؛ سفكليز يكتب « الأكرنيون » .
- — ٤٢٤ برسيداس يستولي على أمفيبولس ؛ نفي توكيديدس المؤرخ ، أرستفنيز يكتب رواية « الفرسان » .
- — ٤٢٣ أرستفنيز يكتب رواية « السحب » ؛ زيوكسيس الهرقلي ؛ وبرهسيوس الإفسوسي المثالان .
- — ٤٢٢ رواية « الزنابير » لسفكليز ؛ موت كليون وبراسيداس .
- — ٤٢١ صلح نيشياس ؛ رواية « السلام » لأرستفنيز .
- — ٤٢٠ أبقراط الكوسي ؛ الطبيب ؛ ديموقريطس الأبديري ؛ الفيلسوف بوليقليطس السكيوني ، المثال .
- ٤٢٠ — ٤٠٤ الإركثيوم .
- — ٤١٩ لسياس الخطيب .
- — ٤١٨ انتصار اسبارطة في مانتينية ؛ رواية « أيون » ليوربيديز .
- — ٤١٦ مذبحة ميلوس ؛ رواية « إلكترا » ليوربيديز (؟) .
- ٤١٥ — ٤١٣ حملة أثينة على سراقوصه .
- — ٤١٥ بتر الهرما ؛ سقوط ألسبيديز ؛ « الطرواديات » ليوربيديز .
- — ٤١٤ حصار سراقوصه ؛ رواية « الطيور » لأرستفنيز .
- — ٤١٣ هزيمة أثينة في سراقوصه ؛ رواية إفجينيا في طوريس ليوربيديز .
- — ٤١٢ مسرحيتا هلن وأندرمدا ليوربيديز .
- — ٤١١ ثورة الأربعمائة ؛ روايتا « ليسستراتا » و « تسموفوريا زوسا » لأرستفنيز .
- — ٤١٠ عودة الدمقراطية ؛ انتصار ألسبيديز في سذيكوس .
- — ٤٠٨ تيموثيوس الملطي الشاعر والموسيقي ؛ رواية « أورستيز » ليوربيديز .

ق . م .

— ٤٠٦ انتصار أثينة فى أرجنوسى ؛ موت يوريپديز ، وسفكليز ؛ مسرحيتا « الباكين » و « إفيجينيا فى أوليس » ليوريپديز .

٤٠٥ — ٣٦٧ ديونيسيوس الأول طاغية فى سرقوصة .

— ٤٠٥ انتصار اسپارطة فى إيجسپوتامى ؛ مسرحية « الضفادع » لأرستفانيز .

— ٤٠٤ نهاية حرب البلوپونيز ، حكم الثلاثين فى أثينة .

— ٤٠٣ عودة الدمقراطية .

— ٤٠١ هزيمة قورش الثانى فى كوناكسا ، ارتداد العشرة الآلاف أتباع زنوفون ؛ مسرحية أوديب فى كولونوس لسفكليز .

— ٣٩٩ محاكمة سقراط وموته .

الباب الحادى عشر

بركليز والتجربة الدمقراطية

الفصل الأول

نهضة أثينة

يقول شلى Shelley إن « الفترة الواقعة بين مولد بركليز وموت أرسطو تعد بلاشك أهم فترة فى تاريخ العالم كله ، سواء نظرنا إليها من حيث هى ذاتها أو من حيث أثرها فى مصائر الإنسان المتحضر من بعدها » . وكانت أثينة هى المسيطرة على هذه الفترة ، وقد نالت ولاء معظم المدن الإيجية فأمدتها هذه المدن بالأموال لأنها تزعمتها فى إنقاذ بلاد اليونان من الغزو الأجنبى ، ولأن أيونيا بعد هذه الحرب قد حلت بها الفاقة ، واسپارطة قد اضطربت أحوالها بسبب تسريح جيوشها وما حدث فيها من زلازل وفتن ؛ ولأن الأسطول الأثينى قد نال من النصر فى العالم التجارى ما لا يقل عن نصره الحربى فى أرتميزيوم سلاميس :

ولسنا نقصد أن الحرب كانت قد وضعت أوزارها نهائيا ؛ فقد استمر النزاع بين الفرس واليونان من عهد أن فتح قورش أيونيا إلى أن هزم الإسكندر دارا الثالث . وقد طرد الفرس من أيونيا فى عام ٤٧٩ ومن البحر الأسود عام ٤٧٨ ومن تراقيا سنة ٤٧٦ ، وفى عام ٤٦٨ انتصر أسطول يونانى بقيادة سيمون الأثينى نصراً مؤزراً على الفرس فى البر وفى البحر عند مصب نهر يوريمدون Eurymedon(*) ؛ وفى ذلك الوقت ألفت المدن

(*) نهر فى بمفليا فى جنوبى آسيا الصغرى .

اليونانية فى آسية وبحر إيجة اتحاد ديلوس بزعامة أثينة وتبرعت كلها بمقدار من المال أودع فى هيكل أبلو فى ديلوس . وأمدت أثينة هذا الاتحاد بالسفن بدل المال فلم تلبث لهذا السبب أن أصبحت لها الزعامة عليه بفضل قوتها البحرية ، ولم يلبث اتحاد الأنداد أن استحال إلى إمبراطورية أثينة .

وانضم كبار الساسة الأثينيون جميعهم ومنهم الرجل الفاضل أرستيديز والرجل المنزه الطاهر بركليز إلى ثمستكليز الذى لا ضمير له فى هذه السياسة الجديدة ، سياسة التوسع الاستعمارى . ولم تكن أثينة مدينة لإنسان مّا بمثل ما كانت مدينة به لثمستكليز ، ولم يكن أحد من رجالها أكثر منه تصميما على أن ينال جزاء ما قدمه لها ، فلما أن اجتمع زعماء اليونان ليقترحوا مكافأة لأولئك الرجال الذين أظهروا كفاية ممتازة فى الدفاع عن البلاد اقترح كل منهم لنفسه أولا ولثمستكليز ثانياً ؛ وكان هو الذى سير تاريخ اليونان فى المجرى الذى سار فيه بعدئذ ، وذلك بأن أقنع أثينة أن البحر لا البر والتجارة لا الحرب هما سبيل السيطرة والسيادة ، ومن أجل هذا أخذ يفاوض بلاد الفرس ويسعى إلى وضع حـــد للنزاع القائم بين الإمبراطورية الهرمة والإمبراطورية الفتية حتى تزول العقبات القائمة فى سبيل الاتجار مع آسية ويعم الرخاء أثينة . وقد حشد رجال أثينة — بل ونساءها وأطفالها — لإقامة ســـور حول المدينة وسور آخر حول ثغرى بيرية Piraeus ومنيشيه Muniychia ، ووضع الخطة التى نفذها بركليز لإقامة أرصفة عظيمة ، ومخازن ، ومصانق فى بيرية تسهيلا للتجارة البحرية . وكان يعرف أن هذه السياسة ستثير الغيرة والحسد فى نفس إسپارطة ، وقد تؤدى إلى نشوب الحرب بين الدول المتنافسة ، ولكنه كان يسعى لرقى أثينة وتقدمها ، وكان هذا الأمل ووثوقه بقوة الأسطول الأثينى يدفعانه إلى العمل دفعاً .

وكان فى أهدافه من العظمة بقدر ما فى وسائله من الانحطاط ، فقد استخدم الأسطول لإرغام جزائر سكلديس على أداء الجزية له بحجة أن هذه

الجزائر استسلمت للفرس أسرع مما ينبغي لها أن تستسلم ، وأنها أمدت خشيارشاى بالجند ؛ ويلوح أنه أعفى بعض المدن من هذه الجزية بعد أن قدمت له الرشا[٢] . ولهذه الاعتبارات عينها أعد العدة لاستدعاء بعض المنفيين ، ويقول تيموقريون Timocreon إنه كان يحتفظ بما يقدم له من الرشا وإن لم يفلح فى إعادتهم[٣] إلى أوطانهم . ولما عهد إلى أرستيديز الإشراف على الأموال العامة وجد أن من كانوا يشرفون عليها قد اختلسوا الكثير منها ، وأن ثمستكليز لم يكن أقلهم اختلاساً[٤] وتبديداً لها ، وأصدر الأثينيون حوالى عام ٤٧١ قراراً بنفيه من البلاد لأنهم كانوا يخشون مقدرته وفساد ضميره فخرج منها يريد البقاء فى أرجوس . ولكن وثائق ذات بال لم تلبث أن وقعت فى يد الإسپارطيين تثبت على ما يظهر أن ثمستكليز دارت بينه وبين پوزنياس نائب الملك عندهم ، وكانوا قد أماتوه جوعاً لأنه اتصل بالفرس فى مفاوضات تثبت عليه الخيانة لبلاده . وانتهزت اسپارطة هذه الفرصة لإسقاط عدوها ، فأطلعت أثينة على هذه الوثائق وأرسلت أثينة من فورها أمراً بالقبض على ثمستكليز ؛ فما كان منه إلا أن فر إلى كرسيرا Corcyra ، وأبت هـذه أن تحميه ، فلجأ إلى پيروس حيث أقام زمناً قصيراً ، ثم أبحر منها سراً إلى آسية ، وطلب إلى خليفة خشيارشاى أن يكافئه على منعه اليونان من تعقب آثار الأسطول الفارسى بعد سلاميس ، وانخدع أرتخشتر (أزدشير) بما وعده به ثمستكليز من مساعدة على إخضاع بلاد اليونان[٥] فضمه إلى مستشاريه وخصه بموارد بعض المدن الخاضعة لحكمه .. وقبل أن يستطيع ثمستكليز إنفاذ الخطة التى أقضت مضجعه عاجلته المنية فى مجنيزيا عام ٤٤٩ وهو فى سن الخامسة والستين ، بعد أن نال إعجاب بلاد البحر الأبيض المتوسط كلها واكتسب كراهيتها .

وآلت زعامة الحزب الدمقراطى فى أثينة بعد ثمستكليز وأستيديز إلى إفيلتز ، كما آلت زعامة الحزب الألجاركى أو حزب المحافظين إلى سيمون بن

ملتياس . وكان سيمون متصفاً بمعظم الفضائل التى تنقص ثمستكليز ، ولكنه كانت تعوزه الكياسة والمقدرة اللتان لا بد منهما للنجاح فى الحكم والسياسة . ولما ضاق ذرعاً بما كان يحاك فى المدينة من دسائس تولى قيادة الأسطول ، وثبت دعائم الحرية فى بلاد اليونان بما ناله من النصر فى يوريميدون ، وعاد إلى أثينة ظافراً ولكنه فقد حب الشعب له حين أشار بتسوية النزاع مع اسپارطة . ووافقت الجمعية على كره منها أن تعهد إليه قيادة قوة أثينة لمساعدة الإسپارطيين على إخضاع الميلوتيين فى إثومى ، ولكن الإسپارطيين لم يأمنوا للأثينيين وارتابوا فيهم حتى وهم يريدون لهم الخير . وبلغ من سوء ظنهم بجنود سيمون أن عادوا إلى أثينة غاضبين ، كما عاد سيمون يجلله الخزى والعار ، وسقطت مكانته بين مواطنيه . وفى عام ٤٦١ صدر قرار الجمعية بنفيه بتحريض پركليز ، وسقطت بسقوطه منزلة الحزب الألجركى إلى الحضيض ، لقد ظلت الحكومة مدى جيلين فى قبضـــة الدمقراطيين ؛ وبعد أربع سنين من سقوطه استصدر پركليز من الجمعية قراراً باستدعائه مدفوعاً إلى ذلك بندمه على فعلته (أو لعشق إلپنيس Elpenice أخت سيمون كما تقول الشائعات) ، ومات سيمون ميتة شريفة فى معركة بحرية فى جزيرة قبرص .

وآلت زعامة الحزب الدمقراطى وقتئذ إلى رجل قد يدهش القارئ إذا قلنا إنا لا نعرف عنه إلا القليل ، مع أن نشاطه هو الذى غير مجرى تاريخ أثينة ، والرجل الذى نعنيه بقولنا هذا هو إفيلتيز . وكان إفيلتيز هذا رجلاً فقيراً ولكنه طاهر اليد ، ولم يعش طويلا بعد أن هدأت نار الأحقاد السياسية فى أثينة . وكانت الحرب قد زادت من قوة حزب الشعب لأن المواطنين الأحرار نسوا إلى حين ما كان بين طبقاتهم من شقاق وانقسام ، ولأن الجيش ـــ الذى كان يسيطر عليه الأشراف ـــ لم يكن هو الذى كسب معركة سلاميس ، بل كسبها الأسطول ، وكان رجاله من فقراء المواطنين كما

كانت قيادته فى أيدى طبقة التجار الوسطى . وحاول الحزب الأرجركى أن يحتفظ بامتيازاته بتركيز السلطة العليا فى الأريوبجوس (مجلس الشيوخ) المحافظ ، فكان جواب إفيلتز إلى أن قام بهجوم(*) عنيف على مجلس الشيوخ القديم ، ووجه تهماً شنيعة إلى الكثيرين من أعضائه ، وأمر بإعدام بعضهم[٧] ، وحمل الجمعية على أن توافق على إلغاء ما كان باقياً للأريوبجوس من سلطة إلغاء يكاد يكون تاماً . وأثنى أرسطاطاليس الأرستقراطى النزعة فيما بعد على هذه السياسة المتطرفة بحجة أن « انتقال السلطات القضائية التى كانت من قبل من اختصاص مجلس الشيوخ إلى أيدى العامة كان فيما يبدو عظيم النفع لأن إرشاد العدد القليل من الناس أيسر من إرشاد العدد الكبير منهم[٨] » . غير أن المحافظين من أهل ذلك الوقت لم يؤمنوا بهذه النتيجة وهم هادئون . ولما عجزوا عن شراء ضمير إفيلتز سلطوا عليه من اغتاله فى عام ٤٦١[٩] ، وانتقلت بعد موته زعامة الحزب الدمقراطى التى تعرض من يتولاها لأشد الأخطار إلى پركليز الأرستقراطى .

(*) إن ما يقوله جروت Grote فى عام ١٨٥٠ م عن الأريوبجوس ليذكرنا ببعض ما وجه من النقد للمحكمة العليا فى الولايات المتحدة عام ١٩٣٧ . قال : « لقد كان الأريوبجوس وحده هو الذى تستمر سلطة أعضائه مدى الحياة ، ويبدو أنه لهذا السبب كان ذا سلطان واسع لا حد له ، وأن طول الأمد ودوام هذا السلطان قد خلعا عليه ثوبا من القدامة ، وجعلا له فى قلوب الناس إجلالا دينيا ... يضاف إلى هذا أن الأريوبجوس كان له حق الإشراف على الجمعية الشعبية : وكان يحرص على ألا تخرق شرائع البلاد بشىء من إجراءاتها . وكانت هذه سلطات واسعة مطلقة غير مقيدة ، لم يمنحه إياها الشعب بقرار رسمى منه »[٦] .

الفصل الثاني

بركليز

ولد قبل مرثون بثلاث سنين رجل أصبح فيا بعد صاحب السلطة العليا على جميع قوى أثينة المادية والروحية فى خلال عصر عظمتها ومجدها : وكان والده زنثپوس Xanthippus ممن حاربوا فى سلاميس ، وقد تولى قيادة الأسطول الأثيني فى معركة ميكالى ، واسترد مضيق الهلسپنت لبلاد اليونان ؛ وكانت أجرستى Agariste أم بركليز حفيدة المصلح كليستنيز ، ولهذا فإن نسبه من جهة أمه يتصل بأسرة الألقميونيين القديمة . وفى ذلك يقول فلوطرخس : « ولما قرب يوم مولده رأت أمه فى منامها أنها ولدت أسداً ، وبعد بضعة أيام ولدت بركليز — وكان جسمه كاملا سوياً فى كل شيء ما عدا رأسه ، فقد كان طويلا بعض الطول غير متناسب مع جسمه[١٠] » وكثيراً ما سخر نقاده من طوله . وتعلم الموسيقى على دامون Damon أشهر معلميها فى زمانه ، وعلمه فيثاغورس الموسيقى والأدب ، واستمع إلى محاضرات زينون الإيلى فى أثينة ، وأصبح صديقاً وتلميذاً للفيلسوف أنكساغوراس . وتثقف فى أثناء نموه بثقافة عصره السريعة النماء ، وجمع فى ذهنه واستخدم فى سياسته جميع نواحى الحضارة الأثينية — الاقتصادية ، والعسكرية ، والأدبية ، والفنية ، والفلسفية . ومبلغ علمنا أنه كان أكمل إنسان أنجبته بلاد اليونان جميعها .

ولما رأى أن مبادئ الحزب الأجركى لا تتمشى مع روح العصر انضم من بداية حياته العامة إلى حزب « الديموس » (الشعب) أى سكان أثينة الأحرار . وكانت كلمة « الشعب » وقتئذ ، كما كانت فى أمريكا إلى أيام چفرسن ، تفترض ليمن تطلق عليه بعض القيود الخاصة بالملكية : وكان حين

ينزل ميدان السياسة بوجه عام وحين يقدم على أى عمل سياسى بوجه خاص ، يستعد له أكمل استعداد ، فلا يتردد فى أن يمضى فى أى عمل تفرضه عليه قواعد التربية الحقة ، لا يتكلم إلا قليلا ، ولا يطيل الكلام ، ويدعو الآلهة أن تمسك لسانه فلا ينطق بأية كلمة لا تمت بصلة قوية للموضوع الذى يتكلم فيه . وكان الناس كلهم ومنهم الشعراء الهزليون الذين يحقدون عليه ، يسمونه « الأولمبى » الفصيح اللسن الذى لم تسمع أثينة قبله مثل فصاحته فى قوتها وعظيم تأثيرها ، ومع هذا فالمؤرخون كلهم مجمعون على أن خطبه كانت خالية من الانفعال ، تتأثر بها العقول المستنيرة . ولم يكن نفوذه مستمداً من ذكائه فحسب ، بل كان مستمداً كذلك من صلاحه واستقامته ، ولم يكن يستنكف أن يستعين بالرشا ليحصل للدولة على أغراضها ، أما هو نفسه فكان « بلا جدال مبرأ من جميع ضروب الفساد وأكبر من أن يهتم بالمال[١١] » . ويحدثنا المؤرخون أن پركليز لم يضف طوال حياته العامة شيئاً ما إلى ما ورثه من أبيه ، على حين أن ثمستكليز تولى المناصب العامة وهو فقير وخرج منها وهو واسع الثراء[١٢] . ومما يدل على فطنة الأثينيين وحكمتهم فى ذلك العهد أنهم ظلوا خلال ثلاثين عاماً أو نحوها بين ٤٦٧ و ٤٢٨ ينتخبونه ويجددون انتخابه — ما عدا فترات قصيرة — ليكون واحداً من الاستراتجوى أى القادة العشرة ، وكان بقاؤه فى منصبه هذه المدة الطويلة نسبياً مما جعله صاحب السلطة العليا فى المجلس العسكرى ، وأمكنه أن يجعل منصب الاستراتجوس أوتوكراتور أى القائد صاحب السلطة أعلى المناصب الحكومية شأناً وأعظمها سلطاناً . وحصلت أثينة فى أيامه على فوائد الحكم الأرستقراطى والدكتاتورى ، وإن كانت قد استمتعت أيضاً بجميع مزايا الدمقراطية . فقد بقى لها ما كان يزدان به عهد پيستراتس من حكم صالح وعمل على نشر الثقافة وتشجيعها ، واجتمع لها ما كان فى عهد پيستراتس من حسن توجيه ، وفرط ذكاء ، وسرعة البت فى الشئون العامة ، مضافة إلى رضاء المواطنين الأحرار رضاء كاملا يظهرونه عاماً بعد

عام . وكان وجوده برهاناً يثبت به التاريخ المبدأ القائل إن خير وسيلة لتنفيذ الإصلاحات القائمة على أسس الحرية وأضمن الطرق لتثبيت هذه الإصلاحات وتقوية دعائمها هي أن يتولاها زعيم حلو معتدل ، يستمتع بتأييد الشعب ؛ ومن أجل ذلك بلغت الحضارة اليونانية أعلى درجاتها حين نمت الدمقراطية نمواً يكفي لأن يكسبها قوة وتعدداً في نواحي نشاطها ، وبقي فيها من الأرستقراطية ما يكسبها حسن النظام وسلامة الذوق .

وأدت إصلاحات بركليز إلى زيادة سلطة الشعب زيادة عظيمة . ذلك أن عدم أداء أجور للقضاة نظير عملهم في المحاكم كان قد أكسب الطبقات الثرية سلطاناً عظيما فيها وإن كانت سلطتهم قد زادت من قبل في عهد صولون وكليسثنيز وإفيلتيز . وأدرك بركليز هــذا ، فقرر في عام ٤٥١ أبولتين obols أي ما يعادل ٢٤/١٠٠ من الريال الأمريكي لكل قاض عن كل يوم يجلس فيه للقضاء ، ثم رفع هذا الأجر بعدئذ إلى ثلاث أبولات ، وكان هذا الأجر في كلتا الحالتين يعادل وقتئذ نصف ما يكسبه الأثيني العادي من عمله اليومي[١٣] . ولسنا نستطيع أن نحمل محمل الجد قول بعضهم : إن هذه الأجور القليلة أضعفت قوة أثينة وأفسدت أخلاق أهلها ، لأن هذا لو صح لقضي من وقت بعيد على كل دولة تؤجر قضاتها أو محلفيها . ويلوح أن بركليز قرر كذلك مكافأة قليلة لمن ينخرطون في سلك الخدمة العسكرية . وقد توج كرمه الذي يعيبه عليه بعض الناس بأن خصص من مال الدولة أبولتين في العام لكل مواطن من مواطنيها يؤديهما أجراً لدخوله لمشاهدة ما يعرض من المسرحيات والألعاب في الأعياد العامة ، وحجته في هذا أن هذه المسرحيات والألعاب يجب ألا تكون ترفاً تختص به الطبقات العليا والوسطى ، بل يجب أن تهدف إلى رفع مستوى الناخبين العقلي على بكرة أبيهم . على أننا يجب أن نذكر في هذا المقام أن أفلاطون ، وأرسطاطاليس ، وفلوطرخس — وهم جميعاً محافظون — مجمعون على أن هذه الأجور أضرت بأخلاق الأثينيين[١٤] .

وواصل بركليز عمل إفيلتيز فنقل إلى المحاكم الشعبية ما كان للأركونيز وكبار الموظفين من اختصاصات قضائية ، فأصبحت الأركونية من ذلك الحين منصباً إدارياً أكثر منها منصباً يوجه سياسة الدولة ، أو يفصل فى القضايا أو يصدر الأحكام والأوامر . وفى عام ٤٥٧ وسع حق الانتخاب للأركونية حتى شمل الطبقة الثالثة من الأهلين ، الزوجتاى Zeugitai ، وكان من قبل مقصوراً على الطبقات الغنية ، ولم تلبث أحط الطبقات منزلة وهى طبقة الثيتين أن حصلت على حق الانتخاب لهذا المنصب من غير حاجة إلى إجراءات شكلية ، وذلك بأن غالت فى تقدير دخلها ، وتغاضت سائر الطبقات عن هذا الخداع والتزوير لما كان لهذه الطبقة الدنيا من شأن عظيم فى الدفاع عن أثينة[١٥] . ثم اختط بركليز إلى أجل قصير خطة مغايرة لخطته السالفة الذكر فأقنع الجمعية فى عام ٤٥١ بأن تقصر حق الانتخاب على الأبناء الشرعيين الذين يولدون من آباء أثينيين وأمهات أثينيات . وحرم عقد زواج شرعى بين مواطن وغير مواطن . وكان يقصد بهذا الإجراء عدم تشجيع الزواج بين الأثينيين والأجانب والإقلال من عدد الأبناء غير الشرعيين ، ولعله كان يريد أيضاً أن يحتفظ لأهل مدينة أثينة الحريصين على حقوقهم بما يعود عليهم من هذه الحقوق الوطنية والإمبراطورية من مزايا . ولكن بركليز لم يلبث أن وجد من الأسباب ما جعله يندم على هذا التشريع الضيق المانع .

وأدرك بركليز أن أى أنواع الحكم يبدو فى أعين الناس صالحاً إذا عاد عليهم بالرخاء ، وأن أحسن أنواعه يبدو لهم سيئاً إذا لم يعد عليهم به ، فوجه عنايته إلى سياسة البلاد الاقتصادية بعد أن ثبت دعائم مركزه السياسى ، فعمل على تقليل ضغط السكان على موارد أتكا الضئيلة بإسكان جاليات من فقراء الموظفين الأثينيين فى البلاد الأجنبية ، وهيأ العمل للمتعطلين[١٦] بأن جعل الدولة تستخدم من الأهلين عدداً كبيراً لم يكن له نظير فى بلاد اليونان من قبل : فزاد

عـــدد سفن الأسطول ، وأنشأوا دور الصنعة ، وبنى فى بيريه مصنعاً عظيماً لتجارة الحبوب .

وأراد أن يحمى أثينة حماية قوية من خطر الغزو عن طريق البر ، وأن يهيئ فى الوقت نفسه عملا جديداً للمتعطلين ، فأقنع الجمعية بأن توافق على صرف الأموال اللازمة لبناء أسوار لا يقل طولها عن ثمانية أميال سميت « الأسوار الطويلة » ، تصل أثينة بيبريه وفالروم Phalerum . وقد جعلت هذه الأسوار مدينة أثينة ومرفأيها كتفاً واحداً حصيناً لا يتوصل إليه فى وقت الحرب إلا من طريق البحر — الذى يسيطر عليه الأسطول . ونظرت اسپارطة غير المسورة إلى هذا البرنامج الواسع من برامج التسليح نظرة عدائية ، ورأى الحزب الألجركى فى هذا العداء فرصة تتيح له الاستيلاء على زمام السلطة السياسية ، فأرسل رسله إلى الاسپارطيين يدعونهم لغزو أتكا ، وتعهدوا لهم بأن يوقدوا فى أثناء الغزو نار الفتنة فى المدينة ، فيقضوا بذلك على الحكومة الدمقراطية ، كما تعهدوا أيضاً بهدم « الأسوار الطويلة » . ووافق الاسپارطيون على هذه الخطة ، وسيروا على أثينة جيشاً هزم الأثينيين عند تنجارا Tangara (٤٥٧) ، ولكن الألجركيين عجزوا على القيام بثورتهم ، وعاد الاسپارطيون إلى البلوپونيز بخفى حنين ، ينتظرون على مضض أن تتاح لهم فرصة أحسن من هذه الفرصة يقضون بها على منافستهم المزدهرة التى أخذت تنتزع منهم زعامتهم التقليدية على بلاد اليونان .

وقاوم پركليز ما حدثته به نفسه من الانتقام من إسپارطة ، ووجه جهوده كلها بدلا من هذا إلى تجميل أثينة ، فوضع منهاجاً ضخما يهدف إلى الانتفاع بجهود جميع عباقرة الفن الأثينيين ومن بقى فيها من المتعطلين فى تزيين الأكروپوليس ، وكان يرجو من وراء ذلك أن يجعل المدينة مركز هلاس الثقافى ، وأن يعيد بناء الهياكل القديمة — التى خربها الفرس — على نطاق واسع فخم يبعث العزة والفخار فى نفس كل مواطن فى المدينة ويقول فلوطرخس فى هذا : « ولقد كانت رغبته وغايته ألا يحرم جمهور الصناع غير

المهذبين من نصيبهم فى الأموال العامة على ألا ينالوا نصيبهم هـذا وهم متعطلون لا يفعلون شيئاً ، ومن أجل هذا وضع البرنامج الضخم للمنشآت العامة »[١٧] : أما المال اللازم لهذه المشروعات فقد حصل عليه بأن اقترح نقل ما تجمع من الأموال فى خزانة حلف ديلوس من هذه البلدة غير المأمونة بعد أن ظل فيها زمناً طويلا لا ينتفع منه بشىء ، وأن يستخدم ما لا يحتاج إليه منه للدفاع المشترك عن البلاد اليونانية فى تجميل المدينة التى يرى بركليز أنها هى العاصمة الشرعية للإمبراطورية الصالحة الخيرة .

وكان نقل خزانة حلف ديلوس إلى أثينة عملا صالحاً فى نظر الأثينيين جميعاً بما فيهم الألجركيون . ولكن الناخبين ترددوا فى السماح بإنفاق أى قدر كبير من الأموال لتجميل المدينة — وقد يكون الباعث لهم على هذا عدم ارتياح ضمائرهم إلى هذا العمل ، أو أنهم كان يخالجهم أمل خفى فى أن يحصلوا بطريقة أقرب من طريقة بركليز وأيسر منها على هذه الأموال لينفقوها فى قضاء حاجاتهم وفى ملذاتهم . وكان زعماء الحزب الألجركى مهرة فى الاستفادة من هذا الشعور . فلما أن اقترب اليوم الذى سيعرض فيه هذا الأمر على الجمعية لتقترع عليه بدا أنها سترفضه لا محالة .

ويحدثنا فلوطرخس عن الطريقة الماكرة التى حول بها بركليز هذا التيار إلى صالحه فيقول : « وقال بركليز : حسن جداً ، فلتذهب نفقات هذه المنشآت إلى جيبى أنا لا إلى جيوبكم ، ولينقش عليها اسمى لا اسمكم ، فلما سمعوا قوله هذا نادوه بأعلى أصواتهم أن ينفق المال . . . وألا يقف عن الإنفاق حتى ينفذ عن آخره ، ولسنا نعرف أكان هذا لأنهم دهشوا من عظمته النفسية أم لأنهم أرادوا أن يكون لهم فضل القيام بهذه الأعمال » .

« بينا كانت هذه الأعمال قائمة على قدم وساق ، وكان بركليز يبسط معونته وحمايته لفدياس ، وإكتنوس Ictinus ، ونسكليز Mnesclies وغيرهم من الفنانين الذين كانوا يكدحون لتحقيق أحلامه ، كان هو يناصر الأدب والفلسفة ،

وبينا كان الشقاق بين الأحزاب في سائر المدن اليونانية يستنفد جهود المواطنين ، وغصن الأدب يلوى ويذبل ، كانت الثروة المتزايدة في أثينة والحرية الديمقراطية تتعاونان مع الزعامة الحكيمة المثقفة على خلق عصرها الذهبي المجيد . وبينا كان بركليز ، وأسبازيا ، وفدياس ، وانكساغوراس ، وسقراط يشاهدون مسرحيات يوربيديز في ملهى ديونيسس ، كان في وسع أثينة أن تشهد هي الأخرى ذروة مجد الحياة في بلاد اليونان وكمال وحدتها — من سياسة ، وفن ، وعلم ، وفلسفة ، وأدب ، ودين ، وأخلاق ، تشهد هذه كلها وليس لكل ناحية منها حياة منفصلة عن الأخرى في صحف المؤرخين ، بل تراها وقد اندمجت بعضها ببعض فتكون منها صرح متعدد الألوان هو مفخرة تاريخ هذه الأمة .

وترددت عواطف بركليز بين الفن والفلسفة ، ولعله كان يصعب عليه أن يقول أي الرجلين يحب أكثر من الآخر : فدياس أو أنكساغوراس ؛ ولعله أيضاً قد ولى وجهه شطر أسبازيا لكي يوفق بين رغبته في الجمال وفي الفلسفة معاً . ويقال لنا إنه « كان يكن لأنكساغوراس منتهى الإجلال والإعجاب »[١٨] . ويقول أفلاطون[١٩] إن الفيلسوف هو الذي دفع بركليز إلى شئون السياسة والحكم ، ويعتقد فلوطرخس أن اتصال بركليز الطويل الأمد بأنكساغوراس هو الذي أفاد منه سمو القصد وقوة اللغة التي سمت كثيراً فوق بلاغة الغوغاء وما فيها من سخف حقير دنيء ، هذا فضلا عما أفاده من هدوء واطمئنان ووقار في جميع حركاته ، وثبات لا يتزعزع قط مهما يحدث حوله في أثناء خطبه » . ولما تقدمت بأنكساغوراس السن وانهمك بركليز في الشئون العامة نسي رجل الحكم رجل الفلسفة فلم يعد له مكان ما في حياته زمناً ما ، ولكنه لما سمع فيما بعد أن أنكساغوراس يعاني مرارة الجوع والحرمان بادر إلى معونته ، وقبل منه في تواضع ما وجهه إليه من اللوم يقول : « إن من يحتاجون يوماً ما إلى مصباح ، يمدونه بالزيت »[٢٠] .

وقد لا يصدق الإنسان لأول وهلة أن هذا « الأولمبي » الصارم كان مرهف

الحس بمفاتن النساء ، وإن كان لا يرى بعد أن يعيد التفكير أن ذلك من الأمور الطبيعية التي لا غبار عليها : ذلك أن سيطرته على نفسه كانت تدفعه إلى مقاومة حساسيته الرقيقة ، على حين أن متاعب المنصب قد قوت بلا ريب حنينه الشديد السوى إلى رقة الأنوثة . وكان حين التقى بأسپاز قد مضى على زواجه زمن طويل ، وكانت هي من ذلك الطراز الذي كنت تحاول خلقه في بلاد اليونان ، طراز المؤنسات اللاتي أصبح لهن بعد قليل شأن كبير في الحياة الأثينية . كانت أسپازيا امرأة تأبى العزلة التي يفرضها الزواج على النساء في أثينة ، وكانت تفضل أن تعيش معيشة الاختلاط الجنسي غير المشروع بل الاختلاط الجنسي المطلق إلى حد ما إذا كان هذا يمكنها من أن تستمتع بحرية الحركة وبالحرية الخلقية اللتين يستمتع بهما الرجال ، وأن تشترك معهم في الأعمال الثقافية . وليس لدينا من الأدلة ما نستند إليه إذا شئنا أن نقدر جمال أسپازيا ، وإن كان الكتاب القدامى يتحدثون عن « قدمها الصغيرة المقوسة إلى أعلى » وعن « صوتها الفضي » وشعرها الذهبي[٢١] ، وإن كان أرستفنيز ، وهو عدو سياسي لدود لپركليز ، لا يؤنبه ضميره لتوجيه أية تهمة له ، يصفها بأنها عاهر من ميليطس ، أنشأت بيتاً فخماً للدعارة في مجارا ، ثم جاءت في ذلك الوقت ببعض فتياتها إلى أثينة . ويشير كاتب الملاهي العظيم من طرف خفي إلى أن النزاع الذي قام بين أثينة ومجارا والذي عجل إشعال نار حرب الپلوپونيز كان سببه أن أسپازيا أقنعت پركليز بأن يثأر لها من المجاريين الذين اختطفوا بعض فتياتها[٢٢] . لكن أرستفنيز لم يكن مؤرخاً ، ولا يصح أن يوثق به إلا فيما لا يتصل بشخصه هو .

ولما وصلت أسپازيا إلى أثينة في عام ٤٥٠ افتتحت فيها مدرسة لتعليم البلاغة والفلسفة ، وأخذت تشجع بجرأة عظيمة خروج النساء من عزلتهن ، واختلاطهن بالرجال ، وتربيتهم تربية عالية . والتحقت بمدرستها كثيرات من فتيات الطبقات العليا ، وأرسل كثيرون من الأزواج زوجاتهم ليدرسن معها[٢٣] .

وكان الرجال أيضاً يستمعون إلى محاضراتها ، ومن بينهم بركليز وسقراط ، وأكبر الظن أن أنكساغوراس نفسه ، ويوربيديز ، وألسيبيديز ، وفدياس كانوا يستمعون إليها . ويقول سقراط إنه تعلم منها فن البلاغة[٢٤] ، ويؤكد بعض قدماء النمامين الثرثارين أن رجل الحكم قد ورثها من الفيلسوف[٢٥](*). ووجد بركليز وقتئذ أن الفرصة الطيبة قد واتته إذ أحبت زوجته رجلاً آخر ، فلم يكن منه إلا أن عرض عليها أن تستمتع بحريتها نظير استمتاعه هو بحريته ، فرضيت بذلك ، واتخذت لها زوجاً ثالثاً[٢٦] ، وجاء بركليز بأسپازيا إلى بيته . غير أن قانونه الذى سنه فى عام ٤٥١ لم يكن يبيح له أن يتخذها زوجة له لأنها من مواليد ميليطس ، وإذا ولد له منها طفل كان هذا الطفل بمقتضى هذا القانون نفسه طفلاً غير شرعى ، لا يستطيع أن ينال حق المواطنية الأثينية . ويلوح أنه كان شديد الحب والإخلاص لها ، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إنه كان يهيم بها هياماً شديداً ، فلا يغادر بيته ولا يعود إليه دون أن يقبلها ، ثم أوصى آخر الأمر بكل ما يملك إلى ولدها منه ؛ وانقطع من ذلك الوقت عن الحياة الاجتماعية كلها خارج بيته ، وقلما كان يغادره إلى أى مكان غير ساحة المدينة ، أو قاعة المجلس ، حتى أخذ أهل أثينة يشكون بعده عنهم . أما أسپازيا نفسها فقد جعلت بيته أشبه بالندوات الفرنسية فى عهد الاستنارة تناقش فيه الفنون ، والعلوم ، والآداب ، والفلسفة ، وشئون الحكم والسياسة فى أثينة ، مناقشة تجمع بين هذه النواحى المختلفة وتؤثر كل منها فى الأخرى . وكان سقراط يعجب بفصاحتها ويدهش منها ، ويعزو إليها فضل إنشاء الخطبة الجنازية التى ألقاها بركليز بعد الخسائر الأولى فى حرب البلوپونيز . وما لبثت أسبازيا أن أصبحت ملكة أثينة غير المتوجة ، تشيع فيها آخر أنماط الحياة الاجتماعية ، وعنها تأخذ نساء المدينة « مُثُل الحرية العقلية والأخلاقية التى يتطلعن لها والتى تثير حماستهن » ؛

(*) يريد : رجل الحكم : كليز ، وبالفيلسوف سقراط . (المترجم)

وكان هذا كله صدمة قوية لمشاعر المحافظين من الأهلين ، فأخذوا يندِّدون بپركليز لأنه يدفع اليونان لحرب اليونان كما حـدث فى إيجينا وساموس ، ثم اتهموه بأنه يبدد الأموال العامة ، ثم سلطوا عليه الممثلين الهزليين فأساؤوا استخدام حرية الكلام التى سادت أثينة فى عهده ، فاتهمه هؤلاء بأنه جعل داره بيتاً من بيوت الفساد السيئة السمعة ، وبأن بينه وبين زوجة ابنه علاقة غير شريفة[٢٨] . وإذ كانوا لا يجرؤون على عرض تهمة من هذه التهم علنا أمام القضاء أخذوا يهاجمونه بالكيد لأصدقائه . فاتهموا فدياس باختلاس بعض الذى عهد إليه لصنع تمثال أثينة الذهبى العاجى ، ويلوح أنهم أفلحوا فى إثبات التهمة عليـه . ووجهوا إلى أنكساغوراس تهمة تتعلق بالدين ، ففر الفيلسوف إلى خارج البلاد اتباعاً لمشورة پركليز . ووجهوا تهمة دينية أخرى إلى أسبازيا مضمونها أنها لا تخضع لأوامر الدين ، وأنها جهرت بعدم تعظيمها آلهة اليونان[٢٩] . وهجاها الشعراء الهزليون هجاء قاسياً ووصفوها بأنها ديانيرا Dejaneira التى أهلكت پركليز(*) وأطلقوا عليها بلغة يونانية صريحة اسم العاهر ، واتهمها واحد منهم يدعى هرمبوس Hermippus بأنها تعمل لكسب المال من طريق غير شريف ، وذلك بأنها قوادة لپركليز ، تأتى إليه بالحرائر ليستمتع بهن[٣٠] ؛ وقدمت للمحاكمة ونظرت قضيتها أمام ألف وخمسمائة من القضاة ، ودافع عنها پركليز دفاعاً مجيداً استخدم فيه كل ما وهب من بلاغة ، بل إنه استخدم فيه دموعه نفسها ، ورفضت الدعوى . وبدأ پركليز من ذلك الوقت (٤٣٢) يفقد سيطرته على الشعب الأثينى ، ولما وافته منيته بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت كان قد أصبح رجلا مهدما كسير القلب والجسم .

(*) ديانيرا هى زوجة هرقل ، التى تسببت فى موته بأن قدمت له ثوبا مسموما . انظر رواية سفكليز « النساء التراكيليات » .

الفصل الثالث

الدمقراطية الأثينية

١ — المناقشات

حسبنا هذه التهم العجيبة شاهداً على أن الدمقراطية الضيقة التى كانت قائمة تحت سلطان دكتاتورية بركليز المزعومة كانت دمقراطية حقة . ومن واجبنا أن ندرس هذه الدمقراطية بعناية لأنها تجربة من أبرز التجارب فى تاريخ الحكم . ولقد كان يحد منها أولا أن أقلية صغيرة من الأهلين كانت هى التى تستطيع القراءة ، ويحد منها من الوجهة الطبيعية صعوبة الوصول إلى أثينة من المدن القاصية فى أتكا . هذا إلى أن حق الانتخاب كان مقصوراً على من ولد من أبوين أثينيين حرين ، وبلغ الحادية والعشرين من العمر . وكان هؤلاء وأسرهم دون غيرهم هم الذين يستمتعون بالحقوق المدنية أو يتحملون مباشرة أعباء الدولة الحربية والمالية . وفى داخل محيط هذه الدائرة التى تضم ٤٣٫٠٠٠ من المواطنين يحرصون على ألا تشمل غيرهم من سكان أتكا البالغين ٣١٥٫٠٠٠ ، كانت السلطة السياسية فى عصر بركليز موزعة من الناحية الشكلية توزيعاً متكافئاً ، فكان كل مواطن يستمتع ، ويصر على أن يستمتع ، بكل ما يستمتع به غيره من حقوق أمام القانون وفى الجمعية الوطنية ، ولم يكن « المواطن » فى نظر الأثينى هو الذى يقترع فحسب ، بل كان هو الذى يشغل بالقرعة إذا جاء دوره على مر الأيام منصب الحاكم أو القاضى ، ويجب أن يكون حراً ، مستعداً لخدمة الدولة حين تناد به ، وقادراً على خدمتها . ولا يخفى أنه ليس فى مقدور إنسان خاضع لغيره ، أو مضطر إلى الكدح ليحصل على قوته ، أن يجد من الوقت أو من المقدرة ما يمكنه من

أداء هذه الخدمات ، ومن أجل هذا كان يبدو لمعظم الأثينيين أن الذى يعمل بيديه غير صالح لأن يكون مواطناً أثينياً ، وإن كانت هذه الكثرة تناقض نفسها فتعترف بهذا الحق للفلاح الذى يزرع أرضه . وكان أرقاء أتكا جميعهم البالغ عددهم ١١٥٫٠٠٠ ، وجميع النساء ، وجميع العمال ، وجميع المستوطنين الغرباء البالغ عددهم ٢٨٫٠٠٠ ، وعدد كبير من طبقة التجار ، كان هؤلاء كلهم تبعاً لهذا محرومين من الحقوق السياسية(*) . أما من كان لهم هذا الحق فلم يكونوا يجتمعون فى أحزاب سياسية ، بل كانوا يقسمون تقسيماً غير دقيق إلى أنصار الألجركية أو أنصار الدمقراطية على أساس ميلهم إلى توسيع الحقوق السياسية أو تضييقها ، ونظرتهم إلى سيطرة الجمعية ، وإعانة الحكومة للفقراء من أموال الأغنياء . وكان أنشط الأعضاء فى كلتا الجماعتين ينتظمون فى نواد تسمى مجتمعات الرفقاء hetaireiai وكان فى أثينة نواد من جميع الأنواع — نواد سياسية ، ونواد للأقرباء ، ونواد عسكرية ، ونواد للصناع ، ونواد للممثلين ، ونود دينية ، ونواد تجهر بأن همها هو الأكل والشرب . وكانت أقوى هذه النوادى هى النوادى الألجركية التى يتعهد أعضاؤها بأن يساعد بعضهم بعضاً فى الشئون السياسية والقانونية ، وتربطهم بعضهم ببعض رابطة العداوة المشتركة الشديدة للطبقات الدنيا التى نالت حقوقها السياسية ، والتى أخذت تنافس طبقتى الأشراف ملاك الأراضى والتجار أصحاب المال[٣١] . وفى وجه هذا الحزب الألجركى يقف الحزب الدمقراطى إلى حدما حزب صغار رجال الأعمال ، والمواطنين الذين أصبحوا أجراء ، وأولئك الرجال الذين يعملون بحارة على ظهور السفن التجارية والأسطول الأثينى . وكان

(*) هذه الأرقام منقولة عن كتاب ا . و. جم «سكان أثينة فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد The Populaton of Athens in the Fifth & Fourth Centuries B.C. ص ٢١ ، ٢٦ ، ٤٧ . وهى بلا ريب أرقام ظنية . ومجموع السكان يشمل زوجات " اطنين وأبناءهم .

هؤلاء كلهم يبغضون ترف الأغنياء وامتيازاتهم ، ويرفعون إلى مصاف الزعامة فى أثينة رجالا من أمثال كليون Cleon دابغ الجلود ، ولسكليز Lysicles بائع الأغنام ، ويكراتيز Eoerates بائع حبال السفن ، وكليوفون Cleopehon صانع القيثارات ، وهيربولس صانع المصابيح . وأفلح بركليز مدى جيل كامل فى إبعاد هذا الحزب عن الحكم بسياسته التى كانت مزيجا من الدمقراطية والأرستقراطية ، فلما مات ورث الحزب الحكم واستمتع كل الاستمتاع بمستلزماته . وظل النزاع المرير قائماً بين الألجركيين والدمقراطيين من أيام صولون إلى أيام الفتح الرومانى عن طريق الخطابة والاقتراع والنفى والاغتيال والحرب الأهلية الداخلية .

وكان كل ناخب يعد بهذا الوصف عضواً فى الهيئة الحاكمة الأساسية — وهى الإكلزيا أو الجمعية . وعند هذا الحد من الحكم لم تكن هناك حكومة نيابية . وإذ كان الانتقال فوق تلال أتكا من أشق الأمور فلم يكن يحضر أى اجتماع من اجتماعاتها إلا عدد قليل من أعضائها ، قلما كان يزيد على ألفين أو ثلاثة آلاف ، وكان المواطنون الذين يعيشون فى أثينة أو فى ثغر بيرية يحضرون وكأنهم مصممون على أن يكون موطنهم هو المسيطر على الجمعية ؛ وكان الدمقراطيون بهذه الطريقة يتفوقون على المحافظين لأن كثرة هؤلاء كانت مشتتة فى مزارع أتكا وضياعها . وكانت الجمعية تعقد جلساتها أربع مرات فى الشهر ، تعقدها فى المناسبات الهامة فى السوق العامة ، أو فى ملهى ديونيسس ، أو فى ثغر بيرية . أما الجلسات العادية فكانت تعقد فى مكان نصف دائرى يدعى البنيكس Pnyx على منحدر تل غرب الأربوبجوس ؛ وكان الأعضاء فى هذه الحالات كلها يجلسون على مقاعد مكشوفة للسماء وتبدأ الجلسات عند مطلع الفجر ، ويفتتح كل دور اجتماع بالتضحية بخنزير إلى زيوس . وقد جرت العادة أن تؤجل الجلسات على الفور إذا ثارت عاصفة أو حدث زلزال أو خسوف أو كسوف ، لأن هذه الظواهر كانت فى رأيهم أدلة على غضب الآلهة . ولم يكن

يصبح عرض تشريعات جديدة إلا فى الجلسة الأولى فى كل شهر ؛ وكان العضو الذى يقترحها هو الذى يعمل على قبولها . فإذا تبين بعدئذ أن هذه الشرائع شديدة الضرر كان من حق أى عضو آخر أن يلجأ خلال عام من قبولها إلى ما يسمى عدم الشرعية graphe paranomon ، فيطلب أن تفرض على صاحب التشريع غرامة أو أن يحرم من حقوقه السياسية أو يعدم . وكانت هذه هى الطريقة التى تتبعها أثينة لمنع العجلة فى التشريع . وكان لقرار عدم الشرعية هذا صيغة أخرى تجعل من حق الجمعية أن تعرض أى تشريع جديد قبل البت فيه على إحدى المحاكم لتبحثه من الناحية الدستورية ، أى من ناحية اتفاقه مع القوانين القائمة المعمول بها فى البلاد[٣٢] . هذا إلى أنه كان على الجمعية قبل النظر فى مشروع قانون أن تعرضه عن مجلس الخمسمائة ليبحثه أولا ، كما يعرض أى مشروع قانون يقدم إلى مجلس الأمة الأمريكى فى هذه الأيام قبل بحثه فى المجلس على لجنة يفترض فيها أنها ذات علم خاص بموضوع المشروع وكفاية خاصة لبحثه . ولم يكن من حق مجلس الخمسمائة أن يرفض الاقتراح رفضاً باتاً ، بل كان كل ما يستطيعه أن يقدم تقريراً عنه مصحوباً بتوصية بقبوله أو غير مصحوب بها .

وكان المعتاد أن يفتتح رئيس الجمعية دور انعقادها بعرض تقرير عن مشروع مقدم لها . وكانت الجمعية تستمع إلى من يطلبون الكلام حسب سنهم ؛ ولكن كان يجوز حرمان أى عضو من مخاطبة الجمعية إذا ثبت أنه لا يملك أرضاً ، أو أنه غير متزوج زواجاً شرعياً ، أو أهمل فى القيام بواجبه نحو أبويه ، أو أساء إلى الأخلاق العامة ، أو تهرب من القيام بالواجبات العسكرية ، أو ألقى درعه فى إحدى المعارك الحربية ، أو أنه مدين للدولة بضريبة أو غيرها من المال[٣٣] . غير أن الخطباء المدربين وحدهم هم الذين كانوا يستخدمون حق الكلام لأنه لم يكن من السهل حمل الجمعية على الإصغاء للمتكلمين . فقد كانت تضحك من الخطأ فى نطق الألفاظ ، وتحتج بصوت عال على الخروج

عن موضوع النقاش ، وتعبر عن موافقتها بالصراخ الشديد ، والصفير ، والتصفيق باليدين ، وعن عدم موافقتها التامة بإحداث جلبة شديدة تضطر المتكلم إلى النزول عن المنصة[٣٤] . وكان يحدد لكل متكلم وقت معين لا يتجاوزه يقاس مداه بساعة مائية[٣٥] . وكانت طريقة الاقتراع هي رفع الأيدى : إلا إذا كان للاقتراح المعروض أثر خاص مباشر فى شخص ما ، وفى هذه الحال يكون الاقتراع سرياً . وكان من حق المقترع أن يؤيد تقرير المجلس على المشروع المعروض أو يعارضه أو يطلب تعديله ، وكان قرار الجمعية فى هذا نهائياً . وكانت القرارات التى توجب العمل العاجل ، وهى التى تختلف عن القوانين ، تمر أسرع من القوانين الجديدة ، ولكن هذه القرارات كان يمكن أيضاً إلغاؤها بمثل هذه السرعة نفسها ، فلا تتضمنها كتب القوانين الأثينية .

وكانت هناك هيئة أعظم من الجمعية منزلة ولكنها أقل منها سلطاناً ، وهى هيئة المجلس المعروف باسم البول Boule . وكان البول فى أصله مجلساً أعلى شبيهاً بمجالس الشيوخ فى الحكومات النيابية . ولكن منزلته انحطت قبل عصر بركليز حتى أصبح لجنة تشريعية تابعة للإكليزيا . وكان أعضاؤه يختارون بالقرعة وبالدور من سجل المواطنين ، على أن يختار خمسون منهم عن كل قبيلة من القبائل العشر ، وألا تطول مدة خدمتهم أكثر من سنة واحدة ، وكان العضو فى القرن الرابع يتقاضى خمس أبولات فى كل يوم من أيام انعقاد المجلس . وإذ كان من المقرر ألا يعاد انتخاب أى عضو إلا بعد أن تتاح لكل عضو آخر صالح للانتخاب فرصة العمل فى المجلس ، فإن كل مواطن فى الظروف العادية ، كان يجلس فى البول دورة على الأقل فى أثناء حياته ؛ وكان يعقد جلساته فى قاعة المجلس (البولتريون Bouleuterion) فى الجهة الجنوبية من ساحة المدينة ، وكانت جلساته العادية علنيــة واختصاصاته تشريعية ، وتنفيذية ، واستشارية : فكان يفحص عن مشروعات القوانين

المعروضة على الجمعية ويعدل صياغتها ، ويشرف على أعمال موظفى المدينة الدينيين والإداريين ، ويراقب حساباتهم ، ويشرف على الأموال والمشروعات والمبانى العامة ، ويصدر مراسيم تنفيذية حين يتطلب العمل إصدارها وتكون الجمعية غير منعقدة ، ويسيطر على شئون الدولة الخارجية ، على أن تراجع الجمعية أعماله من هذه الناحية فيما بعد .

ولكى يؤدى المجلس هذه الواجبات المختلفة كان يقسم نفسه إلى عشر لجان تتألف كل منها من خمسين عضواً ، وترأس كل لجنة المجلس والجمعية شهراً طوله ستة وثلاثون يوماً . وكانت هذه اللجنة صاحبة الرياسة تختار فى كل صباح عضواً من أعضائها ليكون رئيساً لها وللمجلس فى ذلك اليوم ، ومن ثم كان هذا المنصب وهو أعلى منصب فى الدولة مفتوحاً أمام كل مواطن حين يأتى دوره فى القرعة ، وكان لأثينة ثلثمائة من هؤلاء الرؤساء فى العام : وكانت القرعة هى التى تحدد فى آخر لحظة أية لجنة ترأس المجلس فى أثناء الشهر ، وأى عضو فى اللجنة يرأسه فى أثناء اليوم . وكان الأثينيون الفاسدون المرتشون يرجون أن يستطيعوا بهذه الطريقة أن يقللوا تطرق الفساد إلى العدالة إلى أصغر حد تستطيع الأخلاق البشرية أن تصل إليه . وكانت اللجنة ذات الرياسة تعد جدول الأعمال ، وتدعو المجلس إلى الانعقاد ، وتصوغ القرارات التى يصدرها المجلس فى أثناء اليوم . وعلى هذا النحو كانت الدمقراطية الأثينية تؤدى وظائفها التشريعية عن طريق الجمعية والمجلس واللجنة . أما الأريوبجوس فكانت اختصاصاته فى القرن الخامس مقصورة على النظر فى قضايا الحريق العمد ، والاغتصاب المتعمد ، والتسميم والقتل مع سبق الإصرار . وتغيرت شرائع اليونان تغيراً بطيئاً من شرائع مفروضة إلى شرائع تعاقدية ، ومن هوى فرد واحد أو أمر طبقة من الناس ضيقة محدودة العدد إلى اتفاق بين مواطنين أحرار يسبقه جدل ونقاش .

٢ — القوانين

يبدو أن القوانين كانت فى نظر اليونان الأقدمين عادات مقدسة ارتضتها الآلهة وأوحت بها ، وكانت لفظة ثميس themis(*) فى لغتهم تطلق على هذه العادات وعلى الآلهة التى يتمثل فيها نظام العالم الأخلاقى وائتلافه (كما يتمثل فى الدو أو التين الصينى ، وفى ريتا الهندية) . وكان القانون عندهم جزءاً من الدين . وشاهد ذلك أن أقدم قوانين الملكية عند اليونان كانت ممتزجة بالطقوس الدينية وبقوانين المعابد[٣٦] .

ولعل القواعد التى قررتها مراسيم شيوخ القبائل أو الملوك ، والتى بدأت بوصفها أوامر تفرضها القوة وانتهت بأن صارت على توالى الأيام تعاقداً وتراضياً بين الحاكمين والمحكومين ، نقول لعل هذه القواعد كانت هى الأخرى قديمة قدم هذه القوانين القديمة .

وكانت المرحلة الثانية من مراحل تاريخ التشريع اليونانى هى جمع العادات المقدسة وتنسيقها على يد مشترعين thesmothetai أمثال زلولسوس zaleucus وكروندلس chronodas ودراكون drako وصولون. ولما أن دون هؤلاء الرجال وأمثالهم قوانينهم الجديدة أصبحت العادات المقدسة thesmoi قوانين من وضع الإنسان nomoi(**) . وفى هذه الكتب القانونية تحرر القانون من سيطرة الدين وازدادت على توالى الأيام صبغته الدنيوية ، وأصبحت نية الفاعل ذات شأن

(*) ومعناها « ما يوضع أو يقرر » وهى مشتقة من ti-thepai أى أضع . قارن هذا أيضاً بكلمة doom الإنجليزية التى كان معناها فى الأصل قانون وكلمة duma الروسية .

(**) وكان لفظ تسمثتاى Thesmothetai يطلق فى أثينة أيام پركليز على الستة الأركونين الصغار الذين كانوا يسجلون القوانين ، ويفسرونها ، ويلزمون الناس باتباعها . وكانوا فى أيام أرسطاطاليس يتولون رياسة المحاكم الشعبية .

كبير فى الحكم على فعله ، وحلت التبعة الفردية محل الالتزامات العائلية ، واستبدل بالانتقام الفردى العقاب القانونى على يد الدولة[٣٧] .

وكانت الخطوة الثالثة فى تطور التشريع اليونانى هى نمو الشرائع المطرد وتجمعها . ذلك أن اليونانى إذا تحدث فى أيام بركليز عن قوانين أثينة كان يقصد بهذه القوانين شرائع دراكون وصولون والقرارات التى أصدرتها الجمعية والمجلس ولم تبلغ بعد صدورها ، وإذا تعارض قانون جديد مع قانون قديم ، استلزم هذا إلغاء القانون القديم . ولكن البحث عن هذا التناقض وتقصى القوانين المتعارضة قلما كانا بحثاً وتقصياً كاملين ، ومن أجل هذا نجد فى بعض الأحيان قانونين متعارضين تعارضاً مضحكاً . وكان يحدث فى أوقات الارتباكات التشريعية الشاذة أن تختار بطريق القرعة من المحاكم الشعبية لجنة من مقررى القوانين nomethetai لتقرر أى القوانين يجب الإبقاء عليها وأيها يجب إلغاؤها . ويعين فى هذه الحال محامون ليدافعوا عن القوانين القديمة ضد من يقترحون إلغاءها . وقد نقشت شرائع أثينة بإشراف أولئك المقررين على ألواح من الحجارة فى « باب الملك » بعد أن صيغت فى عبارات بسيطة سهلة الفهم ، وبهذه الطريقة لم يكن يسمح لأى حاكم أن يفصل فى مسألة بالاستناد إلى قانون غير مكتوب .

والتشريع الأثينى لا يفرق بين القانون المدنى والقانون الجنائى إلا فى أنه يحتفظ للأريوبجوس بحق الفصل فى جرائم القتل ، وفى أنه يترك للمدعى فى القضايا المدنية أن يتولى بنفسه تنفيذ قرار المحكمة . فلا تتقدم الدولة لمعونته إلا إذا لقى فى هذا التنفيذ مقاومة[٣٨] . وكان القتل قليل الحدوث لأنه يعد خطيئة دينية وجريمة قانونية فى وقت واحد ، ولأن الخوف من الانتقام يظل قائماً إذا عجز القانون عن الاقتصاص من القاتل . وقد بقى القصاص المباشر حتى القرن الخامس قبل الميلاد مباحا فى أحوال خاصة ، من ذلك أن الرجل إذا وجد أمه أو زوجته ، أو محظيته ، أو أخته أو ابنته ترتكب الفحشاء كان من حقه أن يقتل من

يرتكبها معها من الرجال على الفور[٣٩] . وكان يجب التكفير عن جريمة القتل سواء ارتكبت بقصد أو بغير قصد لأنها عندهم تدنيس لأرض المدينة ؛ وكانت . اسم التطهير معقدة صارمة صرامة مؤلمة . وإذا ما عفا القتيل بعد موته عن قاتله ، لم يكن يجوز تقديم القاتل للقضاء . وكانت هناك تحت الأريوبجوس ثلاث محاكم للنظر فى جرائم القتل ، تختلف باختلاف طبقة القتيل وأصله ، واختلاف نوع الجريمة ، هل كانت متعمدة أو غير متعمدة ، وهل هى مما يجوز التسامح فيه أو لا يجوز . وكانت محكمة رابعة تنعقد فى فريتس phrcattys على الساحل لتحاكم الذين نفوا من قبل لارتكابهم جريمة القتل خطأ ؛ ثم اتهموا بعدئذ بجريمة القتل المتعمد . ذلك أنهم وقد دُنِّسوا بارتكاب الجريمة الأولى لا يسمح لهم بأن تطأ أقدامهم أرض أتكا ، ولهذا يدافع المدافعون عنهم وهم فى قارب بجوار شاطىء البحر .

وقانون الملكية صارم لا هوادة فيه ، فالتعاقد واجب التنفيذ ؛ وكان يطلب إلى القضاة أن يقسموا بأنهم « لن يطلبوا إلغاء الديون الخاصة ، أو توزيع الأراضى أو المساكن التى يملكها الأثينيون » . وكان كبير الأركونين حين يتولى منصبه فى كل عام يكلف منادياً بأن يؤذن فى الناس أن « كل مالك سيبقى له ما يملك وسيظل صاحبه المطلق التصرف فيه »[٤١] . وكان حق الوصية لا يزال مقيداً بقيود شديدة ، فإذا كان للمالك أبناء ذكور ؛ فإن الفكرة الدينية القديمة عن الملك ، والتى تربطها بتسلسل الأسرة وبالعناية بأرواح السلف ، تتطلب أن ينتقل هـــذا الملك من تلقاء نفسه إلى الأبناء الذكور ؛ ذلك أن الوالد إنما كان يحتفظ بالملك وديعة لديه للأموات من الأسرة والأحياء منها ولمن يولدون من أبنائها . وكان الملك فى أثينة يقسم بين الورثة الذكور ، كما هى الحال فى فرنسا إلى حد كبير ، وكان أكبرهم سناً ينال نصيبا أكبر بعض الشىء من سائر الورثة[٤٢] ، ولم يكن الأثينيون كالإسبارطيين القدماء والإنجليز فى هذه الأيام يقفون الملك من غير تقسيم ويعطونه أكبر الأبناء الذكور . ونرى الزارع من عهد هزيود وبعده يحدد

عدد أبنائه كما يفعل الفرنسيون فى هذه الأيام حتى لا تنقسم أملاكه بين أبنائه انقساماً يقضى عليها آخر الأمر[٤٣] ؛ ولم تكن للأرملة أن ترث ملك زوجها ، بل كان كل ما تناله من هذا الملك هو أن تسترد بائنتها . وكانت الوصايا معقدة فى أيام پركليز تعقدها فى أيامنا هذه ، وكانت تصاغ فى لغة شبيهة إلى حد كبير بلغة هذه الأيام[٤٤] ؛ والتشريع اليونانى فى هذا كما هو غيره من المسائل ، أساس التشريع الرومانى الذى أصبح فيما بعد الأساس القانونى للمجتمع الغربى .

٣ – القضاء

إصلاح القضاء آخر ما تفعله الدمقراطية ، ولقد كان أعظم إصلاح قام به إفيلتيز وپركليز هو نقل الحقوق القضائية التى كان يمارسها الأركونون والأريوبجوس إلى الهيلية أى المحاكم الشعبية . وكان إنشاء هــذه المحاكم هو الذى وهب أثينة ذلك النظام القضائى الذى أخذت عنه أوربا نظام المحلفين والذى عاد عليها بالخير العميم . وكان الهيلية(*) تتألف من ستة آلاف محلف يختارون بالقرعة من سجل المواطنين . وكان هؤلاء الآلاف الستة يوزعون على عشرة سجلات يحتوى كل سجل على خمسمائة اسم تقريباً ، ويترك الباقون للمناصب التى تخلو أو للظروف العاجلة الطارئة . وكانت القضايا الصغرى أو المحلية يفصل فيها ثلاثون محلفا يزورون مقاطعات أتكا فى مواسم معينة . وإذ كان كل محلف لا يبقى فى منصبه أكثر من عام واحد فى كل مرة ، وكان الانتخاب لهذه المناصب بالدور ، فقد كان كل مواطن تتاح له الفرصة فى الغالب لأن يكون محلفاً مرة فى كل ثلاث سنين : ولم يكن مفروضاً عليه أن يؤدى هذا العمل ، ولكن الأجر المقرر له وهو أوبلتان — ثم ثلاث أوبلات فيما بعد — كل يوم كان يجتذب

(*) الهيلية بمعناها الدقيق هى اسم المكان الذى كانت تجتمع فيه المحاكم ، وقد سميت بهذا الاسم (المشتق من هيليوس أى الشمس) لأن الجلسات كانت تعقد فى الهواء الطلق .

نحو مائتى محلف أو ثلثمائة فى كل دور . أما القضايا الهامة كقضية سقراط مثلا ، فكانت تنظرها محاكم ضخمة مؤلفة من ألف ومائتى رجل . ولكى ينقص الأثينيون الرشوة والفساد فى القضاء إلى الحد الأدنى كان أعضاء المحكمة الذين يوكل إليهم النظر فى قضية ما يختارون بطريق القرعة فى آخر لحظة ، وإذ كانت معظم القضايا لا يطول النظر فيها أكثر من يوم واحد ، فإنا لا نسمع كثيراً عن الرشوة فى المحاكم ، ذلك أن الأثينيين أنفسهم كانوا يجدون صعوبة فى إرشاء ثلثمائة رجل فى لحظة واحدة .

وكانت القضايا تتراكم فى أثينة على الرغم من سرعة إجراءاتها ، شأنها فى هذا شأن المحاكم فى جميع أنحاء العالم ، وسبب ذلك أن الأثينيين كانوا كثيرى التقاضى ولكى يقللوا من هذه الحمى كانوا يختارون محكمين بطريق القرعة من بين سجلات أسماء المواطنين الذين بلغوا سن الستين ، وكانوا الطرفان المتنازعان يعرضان نزاعهما وأوجه دفاعهما على أحد هؤلاء المحكمين ، يختار كالقضاة بطريق القرعة فى اللحظة الأخيرة . وكان كل طرف يؤدى إليه أجراً قليلا ، فإذا عجز عن الصلح بينهما فصل فى النزاع بعد أن يحلف اليمين . وكان لكلا الطرفين بعدئذ أن يستأنف الحكم إلى المحاكم ، ولكنها كانت ترفض عادة القضايا الصغرى التى عرضت للتحكيم . فإذا قبلت المحكمة أن تنظر فى القضية كتب كلا الطرفين حجته وأقسم اليمين على صحتها ، وكتب الشهود شهادتهم وأقسموا بأنهم صادقون ، ثم تقدم كل هذه الأقوال مكتوبة إلى المحكمة . وكانت توضع فى صندوق خاص وتختم ، ويفتح الصندوق بعد وقت ما وتبحث القضية ، وتصدر الحكم فيها هيئة تختار بالقرعة . ولم يكن عند الأثينيين مدع عمومى ، فقد كانت الحكومة تعتمد على المواطنين أن يتهموا أمام المحاكم كل من يرتكب جريمة خطيرة ضد الأخلاق العامة أو الدولة . ومن هنا نشأت طائفة من « النمامين » ديدنهم وعملهم اتهام الناس ، وقد تطورت مهنتهم هذه على أيديهم حتى أصبحت فناً من فنون اغتصاب اموال الناس لكف الأذى

عنهم . وكانوا فى القرن الرابع يكسبون المال الكثير برفع القضايا — أو على الأصح بالتهـــديد برفعها — على الأغنياء لاعتقادهم أن المحاكم الشعبية لا تميل إلى تبرئة من يستطيعون أداء الغرامات الكبيرة(*) . وكانت نفقات المحاكم تغطيها فى الغالب الغرامات التى تفرض على من يدانون من المتقاضين . كذلك كان يحكم بالغرامة على من يعجزون من المدعين عن إثبات ما يوجهون من التهم إلى خصومهم ، فإذا لم ينالوا خمسة على الأقل من أصوات القضاة كانوا عرضة لأن يحكم عليهم بالضرب بالسياط أو بغرامة كبيرة تبلغ ألف درخمة (نحو ألف ريال أمريكى) . وكان كل طرف من المتقاضين يدافع بنفسه عن قضيته ، وكان عليه أن يعرض بنفسه قضيته للمرة الأولى . فلما أن تعقدت الإجراءات القضائية ، وتبين المتقاضون تأثر القضاة بعض الشىء ببلاغة الألفاظ ، نشأت عادة استخدام خطيب أو رجل بليغ متضلع فى القانون ، يؤيد المدعى أو المدعى عليه ، أو يحضر باسم من يستخدمه وبالنيابة عنه خطبة يستطيع المتقاضى نفسه أن يقرأها أمام المحكمة ومن هؤلاء المدافعين البلغاء نشأ المحامون . وفى وسعنا أن نتبين قدم المحاماة فى بلاد اليونان من عبارة فى أقوال ديوجين ليرتيوس Diogenes Laertius وهى أن باياس Bias ، حكيم بريني Priene كان محامياً بليغاً فى القضايا ، وأنه كان على الدوام يحتفظ بمواهبه لمن كان الحق فى جانبه . وكانت المحاكم تستخدم بعض هؤلاء المحامين ليشرحوا لها القانون exegetai ، وذلك لأن الكثيرين من القضاة لم يكونوا أكثر علماً بالقوانين من المتقاضين أنفسهم .

وكانت الأدلة تقدم عادة مكتوبة ، ولكن كان على الشاهد أن يحضر بنفسه ويقسم بأن ما يشهد به صحيح دقيق حين يتلو كاتب الجلسة أو الجراماتيوس

(*) اتخذ شكا كريتو Crito أحد أصدقاء سقراط الأغنياء من أن الذى يرغب فى أن يعيش عيشة هادئة مسالمة فى أثينة يلقى فى ذلك عناء كبيراً ، ويقول : « يوجد فى هذا الوقت بالذات أناس يرفعون قضايا على ، وليس ذلك لأنى ظلمتهم ، بل لأنهم يظنون أنى أفضل أداء مبلغ من المال لهم من تحمل عناء الإجراءات القانونية »(49) .

grammateus شهادته على القضاة : ولم يكن الشهود يناقشون ، وكانت شهادات الزور كثيرة إلى حد يجعل المحكمة فى بعض الأحيان تقضى بما يناقض الشهادة التى أقسم الشاهد على صدقها . ولم تكن شهادة النساء والقاصرين تقبل إلا فى قضايا القتل ، أما الأرقاء فلم تكن تقبل شهادتهم إلا إذا انتزعت منهم بالتعذيب ، فقد كان من المسلم به عند الأثينيين أنهم سيكذبون إذا نجوا من التعذيب : وتلك وصمة فى جبين الشرائع اليونانية ووحشية شاءت الأقدار أن تزداد قسوة فى السجون الرومانية ، وفى حجرات محاكم التفتيش ، ولعلها لا تقل عما يحدث فى الحجرات السرية التابعة لمحاكم الشرطة فى وقتنا الحاضر؛ وكان تعذيب المواطنين محرماً فى عصر بركليز ، وكان كثيرون من ملاك الرقيق لا يسمحون أن يستخدم أرقاؤهم شهوداً فى القضايا ولو كانت قضاياهم هم أنفسهم ، وكان الحكم فيها لمصلحتهم موقوفاً على أداء شهادتهم . وكانوا يلزمون من يتسبب فى إحداث عاهة مستديمة لأحد الأرقاء بتعويضه عنها[46] .

وكانت العقوبات المقررة هى الضرب ، والغرامة ، والحرمان من الحقوق السياسية ، والكى بالنار ، ومصادرة الأموال ، والنفى ، والإعدام ، وقلما كان المذنبون يعاقبون بالسجن ، وكان من المبادئ المقررة فى القانون اليونانى أن يعاقب العبد فى جسمه ، وأن يعاقب الحر فى ماله . ونرى فى رسم على إحدى المزهريات عبداً معلقاً من ذراعيه وساقيه يضرب بالسياط ضرباً خالياً من الرحمة[47] . وكانت الغرامات هى العقوبة التى تفرض عادة على المواطنين . وكانت تقدر بدرجات تعرض الدمقراطية الأثينية لأن تتهم بأنها كانت تملأ خزائنها بالمال عن طريق الأحكام الظالمة . على أنه كان يسمح فى كثير من الحالات للمحكوم عليه هو وصاحب الحق أن يقدرا بأنفسهما الغرامة أو العقوبة اللتين يريان أنهما عادلتان، ثم تختار المحكمة إحدى العقوبتين المقترحتين ؛ وكان القتل ، وانتهاك حرمة المعابد ، وخيانة الوطن ، وبعض الجرائم التى تبدو فى نظرنا جرائم صغيرة ،

يعاقب عليها بمصادرة الأموال والإعدام معاً ؛ ولكن كان من المستطاع عادة تجنب الحكم بالإعدام قبل صدوره ، بالنفى الاختيارى وترك الأملاك . وإذا رأى المتهم أن الهرب يزرى به ، وكان مواطناً ، نفذ فيه الإعدام بأقل الوسائل إيلاما له ، وذلك بأن يقدم له عصير الشوكران ، وهو العقار الذى يخدر الجسم تدريجيا ابتداء من القدمين إلى أعلى أجزاء الجسم ، ثم يقضى على من يتعاطاه حين يصل إلى قلبه . أما الأرقاء فقد كانت عقوبة الإعدام تنفذ فيهم أحيانا بالضرب الوحشى[٤٨] . وكان يحدث أحياناً أن يلقى المحكوم عليه قبل إعدامه أو بعده من فوق صخرة عالية إلى حفرة تعرف عندهم باسم البرثرون barathron . وإذا ما صدر الحكم بإعدام قاتل نفذ بحضور أقارب المقتول استجابة لعادة الانتقام القديمة فى مظهرها وروحها .

ولم تبلغ الشرائع الأثينية ما كنا نتوقعه لها من الاستنارة ، وهى لا تسمو كثيراً عن شرائع حورابى ؛ وعيبها الأساسى أنها تقصر الحقوق القانونية على الأحرار الذين لا يكادون يتجاوزون سبع السكان ، وحتى النساء والأطفال كانوا خارجين عن نطاق المواطنين أصحاب الحقوق . ولم يكن فى وسع النزلاء ، أو الأجانب ، أو الأرقاء أن يرفعوا الدعاوى إلى المحاكم إلا عن طريق مواطن يأخذهم فى كنفه . وكان ابتزاز المال بطريق الإرهاب ، وتعذيب العبيد المتكرر ، والحكم بالإعدام فى كثير من الجرائم الصغرى ، والشتائم الشخصية فى المناقشات القضائية ، وتشتت التبعة القضائية وإضعافها بسبب هذا التشتت ، وتأثر المحلفين بالبلاغة الخطابية ، وعجزهم عن الحد من انفعال الساعة بعلمهم بماضى القضية وتقديرهم الحكيم لنتائجها المقبلة ، كان هذا كله وصمة لنظام أثينة القضائى ، الذى كانت تحسدها عليه سائر بلاد اليونان للينه وعدالته إذا قيس إلى غيره من النظم القضائية ، والذى كان نظاماً عمليا موثوقا به إلى حد أمكنه أن يبسط حمايته على الحياة وعلى الأملاك ، وهى الحماية التى لا غنى عنها للنشاط الاقتصادى والرقى الأخلاقى . وفى وسعنا أن نقدر ما كان للقانون الأثينى من شأن عظيم إذا عرفنا

ما كان يشعر به كل أثينى تقريباً من احترام عظيم له ، فقد كان القانون فى اعتقاده هو روح المدينة ، ومصدر سعادتها وقوتها . وخير ما نحكم به على شرائع أثينة هو تهافت غيرها من دول اليونان على استعارة الجزء الأكبر منها ، وفى ذلك يقول إيسقراط Iscorates : « ليس ثمة من ينكر أن شرائعنا مصدر كثير من الخير العظيم فى حياة البشرية »(٤٩) . ففى أثينة نجد للمرة الأولى فى التاريخ حكم القوانين لا حكم الناس .

وقد ظل القانون الأثينى منتشراً فى جميع أنحاء الإمبراطورية الأثينية التى يبلغ عامرها مليونين من الأنفس ما دامت هذه الإمبراطورية قائمة ، أما فى خارج دائرة هذه الإمبراطورية فلم يكن لبلاد اليونان نظام قضائى واحد تخضع بأله جمعها . وإن الصورة التى تنطبع فى أذهاننا عن القانون الدولى فى أثينة القرن الخامس لتبلغ من الضعف ما تبلغه صورة هذا القانون فى عالم هذه الأيام . لكن التجارة الخارجية تتطلب بعض الأنظمة القانونية . ويقول دمستين إن المعاهدات التجارية قد بلغت فى أيامه درجة من الكثرة أصبحت معها القوانين التى تخضع لها المنازعات التجارية « واحدة فى كل مكان »(٥٠) ؛ وكانت هذه المعاهدات تنص على التمثيل القنصلى ، وتضمن تنفيذ العقود ، وتجعل الأحكام الصادرة فى إحدى الدول الموقعة على المعاهدة فى سائر الدول الموقعة عليها(٥١) . على أن هذا لم يقض على القرصنة ، فقد كانت تنتشر إذا ما ضعف الأسطول المسيطر على البحار ، أو تراخى فى مراقبتها . ولقد كانت هذه اليقظة الخارجية الثمن الذى يشترى به الأهلون الأمن والنظام والحرية جميعاً ؛ وكانت الفوضى رابضة كالذئب حول كل دولة مستقرة ، تتربص بها ، وتترقب ثغرة من الضعف تنفذ منها إليها . وكانت بعض الدول اليونانية ترى أن من حق المدينة أن توجه الحملات لتنهب أملاك غيرها من المدن وأهلها ، إذا لم تكن ثمة معاهدة تنص صراحة عن تحريم هذه الحملات(٥٢) ؛ وقد أفلح الدين فى تحريم الاعتداء على الهياكل ما لم تتخذ قواعد حربية ، وفى

لحماية الوفود والحجاج الذاهبين إلى مشاهدة الأعياد اليونانية الجامعة ، وفى فرض صدور إعلان رسمى بالحرب قبل بدء القتال ، وفى قبول المدنة إذا طلبها أحد الطرفين المتقاتلين لإعادة من يقتلون فى المعارك إلى بلادهم ودفنهم . وكانت الأسلحة المسمومة لا تستعمل بحكم العادة المألوفة ، وكان الأسرى عادة يتبادلون أو يفتدون ، وكان الفداء المعترف به ميناءين — ثم أصبح ميناء واحدة (نحو مائة ريال أمريكى) — لكل أسير[٥٣] . وكانت المعاهدات كثيرة العدد ، وكان المتعاهدون يقسمون الأيمان المغلظة على احترام نصوصها ، ولكنها كانت تخرق على الدوام تقريباً . وكانت المحالفات كثيرة ، وكانت تؤدى أحياناً إلى إيجـــاد أحلاف دائمة كحلف دلفى الاثنى عشرى (الأمفكتيونى) فى القرن السادس وكالحلفين الآخى والإيتولى فى القرن الثالث . وكانت مدينتان فى بعض الأحيان تجامل كلتاهما الأخرى بأن تمنح أحرار أختها حقوق المواطنين فيها . وكان التحكيم الدولى يحدث أحياناً ، ولكن كان فى وسع الطرفين المحتكمين أن يرفضا نتيجته أو يتجاهلاها . ولم يكن اليونانى يشعر بأى التزام أدبى نحو الأجانب أو بأى التزام قانونى إلا إذا كان بلداهما مرتبطين بمعاهدة ، وكان هؤلاء فى عرفه برابرة (brrbaroi)[*] . ولم يكن اليونان يقصدون بذلك أنهم « همج » barbarian, بالمعنى الذى نفهمه نحن من هذا اللفظ بالضبط ، بل كانوا يفهمون منه « الأجانب » — أو الغرباء الذين يتكلمون لغة غريبة غير مألوفة . ولم ترق بلاد اليونان الرقى الذى تدرك به وجود قانون أخلاقى يشمل الجنس البشرى بأكمله إلا على يد الفلاسفة الرواقيين فى العصر الذى اصطبغت فيه بلاد الشرق الأدنى بالصبغة اليونانية العالمية .

(*) هذه الكلمة وثيقة الصلة بكلمة بربرة barbara السنسكريتية وكلمة بلبوس balbus اللاتينية ، وكلتاهما تعنى التمتمة أو التلعثم فى النطق . قارن أيضاً لفظ babble الإنجليزى . وكان اليونان يفهمون من لفظ بربروس barbaros غرابة الحديث أكثر مما يفهمون منه نقص الحضارة ، ويستعملون لفظ بربرزموس barbarismos فى المعنى الذى نستعمل فيه نحن تقليداً لهم لفظ barbarism أى تشويه الأجنبى أو نصف الأجنبى لمصطلحات اللغوية عند إحدى الأمم .

٤ ـ النظام الإدارى

حلت القرعة منذ عام ٤٨٧ أو قبله محل الانتخاب فى اختيار الأركونين ، ذلك أنه كان لا بد من إيجاد طريقة ما لمنع الأغنياء من أن يجدوا سبيلهم إلى هذا المنصب بالمال ، ومنع السفلة أن يصلوا إليه بالملق والدهان . وأرادوا مع هذا ألا يجعلوا الاختيار وليد المصادفة المحضة ، فكانوا يفرضون على جميع من تقع عليهم القرعة أن يجتازوا قبل القيام بواجباتهم اختباراً صارماً فى الأخلاق (Dokimasia) أمام المجلس أو المحاكم . فكان على الطالب أن يثبت أنه من أبوين أثينيين ، وأنه سليم من العيوب الجسمية والخلقية ، يكرم أسلافه ويقوم بواجباته العسكرية ، ويؤدى الضرائب كاملة . وكانت حياته كلها فى هذه المناسبة عرضة للاتهام من أى مواطن . وما من شك فى أن التعرض لهذين الفحص والاتهام كان يرهب أدنياء الناس غير الجديرين بهذا المنصب . فإذا اجتاز الأركون هذا الاختبار كان عليه أن يقسم بأنه سيضطلع بأعباء منصبه على خير وجه ، وبأنه سيقدم للآلهة تمثالا من الذهب بالحجم الطبيعى إذا قبل هدية أو رشوة[٥٤] من أحد . على أن ما كان للمصادفة من أثر كبير فى اختيار الأركونين التسعة ليدل على ما آل إليه هذا المنصب من الصغار بعد أيام صولون ، فقد أصبحت اختصاصاته فى الوقت الذى نتحدث عنه لا تعدو العمل الإدارى الرتيب ، ولم يكن الأركون باسليوس الذى يحمل لقب الملك من غير أن يؤدى عمله أكثر من كبير الموظفين الدينيين فى المدينة . وكان على الأركون أن يحصل على اقتراع بالثقة من الجمعية ، وكان فى وسع أى إنسان أن يعرض أعماله ويستأنف أحكامه إلى البول أو الهيلية ؛ وكان فى مقدور أى مواطن أن يتهمه بسوء استخدام سلطته ، وإذا انتهت مدة توليه منصبه بحثت أعماله الرسمية ، وحساباته ، ووثائقه ، بلجنة من المحاسبين مسئولة أمام المجلس ، وكان معرضاً لأشد العقاب ، الذى كان يصل

أحياناً إلى الإعدام ، إذا تبين أنه أساء العمل أيام توليه منصبه . أما إذا نجا من هذا الإرهاب الدمقراطى فإنه يصبح بعد انتهاء العام الذى تولى فيه منصبه عضوا فى الأريوبجوس ، ولكن هذه العضوية أضحت فى القرن الخامس منصباً فخرياً عديم القيمة لأن هذه الهيئة فقدت وقتئذ كل ما كان لها من سلطان .

ولم يكن الأركونون إلا هيئة من هيئات كثيرة تشترك كلها فى تصريف شئون المدينة الإدارية تحت إشراف الجمعية والمجلس والمحاكم . ويذكر أرسطاليس خمسا وعشرين من هذه الهيئات المختلفة ، ويقدر عدد الموظفين الإداريين فى المدينة بسبعمائة موظف. وكان هؤلاء كلهم تقريباً يختارون كل عام بطريق القرعة ، ولم يكن فى وسع أى إنسان أن يكون عضوا فى لجنة بعينها أكثر من مرة واحدة ، ولذلك كان كل مواطن يأمل أن يشغل منصباً كبيراً فى المدينة عاماً على الأقل فى أثناء حياته ؛ ذلك أن أثينة لم تكن تؤمن بطريقة الحكم على أيدى الخبراء الإخصائيين .

وكانت المناصب العسكرية أكثر أهمية فى نظرهم من المناصب المدنية ، ولذلك لم يكن القواد Strategoi العشرة يختارون بالقرعة بل كانوا ينتخبون انتخاباً علنياً فى الجمعية، وإن كانوا هم أيضاً لا يبقون فى مناصبهم أكثر من عام واحد وإن كانوا عرضة لأن يفحص عن أعمالهم وأن يعزلوا من مناصبهم فى أى وقت من الأوقات. وكانت الكفاية لا حب الشعب هى السبيل إلى التقدم والرقى فى هذه المناصب. وقد برهنت الإكلزيا فى القرن الرابع على حسن إدراكها للأمور باختيارها فوشيون Phocion قائداً خمسا وأربعين مرة ، على الرغم من أنه كان أبغض الناس للجمهور الأثينى ، وأنه لم يكن يخفى احتقاره للجماهير . وزادت مهام القواد بازدياد العلاقات الدولية ، حتى أصبحوا فى أوائل القرن الخامس لا يشرفون على شئون الجيش والأسطول فحسب ، بل صاروا هم الذين يفاوضون الدول الأجنبية ويشرفون على إيرادات المدينة ونفقاتها . ومن أجل هذا كان

القائد الأعلى المعروف باسم الاسترتجوس أوتوكراتور Strategos Autokrator أقوى رجال الحكومة ؛ وإذ كان من المستطاع انتخابه لهذا المنصب أعواماً متتالية ، فقد كان فى وسعه أن يخلع على سياســة الدولة استمراراً فى الأهداف لم يكن دستورها يمكنها منه لولا هذا المنصب الدائم . وبفضله استطاع بركليز أن يجعل أثينة مدى جيل كامل ملكية دمقراطية ، حتى استطاع توكيديس أن يقول عن السياسة الأثينية إنها دمقراطية بالاسم ولكنها حكومة يسيطر عليها أعظم مواطن فى المدينة .

وكانت الخدمة فى الجيش ملازمة لحق الانتخاب ، فقد كان على كل مواطن أن يعمل فى الجيش ، وكان معرضاً حتى يبلغ الستين من عمره لأن يجند للقتال فى أية حرب تستعر نارها . ولكن الحياة الأثينية لم تكن حياة عسكرية ، فلم يكن هناك تدريب عسكرى يستحق الذكر بعد الفترة الأولى التى يقضيها الشاب فى هذا التدريب ، ولم يكن فيها اختيال بالحلل الرسمية أو تدخل من قبل الجند فى أعمال السكان المدنيين . وكان الجيش فى الميدان يتألف من فرق المشاة الخفيفة ، وكانت كثرتهم من المواطنين الفقراء يحملون الرماح والمقاليع ، وفرق المشاة الثقيلة أو الهپليت ، وتتألف من المواطنين الأغنياء الذين تمكنهم مواردهم من شراء الدروع والتروس والحراب ؛ ومن فرق الفرسان وتتألف من كبار الأغنياء ذوى الدروع والخوذ ، حملة الرماح والسيوف ، وكان اليونان يفوقون الأسيويين فى النظام العسكرى ، ولعل ما أحرزوه من انتصارات عسكرية مجيدة يرجع إلى أنهم جمعوا إلى الطاعة فى الميدان محافظتهم الشديدة على استقلالهم فى الشئون المدنية . غير أنه لم يكن عندهم مثل إپامينانداس وفليب ما تستطيع أن تسميه علم حرب ، أو معرفة بفنونها وحركاتها العسكرية . وكانت مدنهم مسورة فى العادة ، وكان الدفاع عند اليونان — كما هو عندنا اليوم — أعظم أثراً من الهجوم ؛ ولولا هذا لما كانت للإنسان حضارة يستطيع تسجيلها . وكانت الجيوش المحاصرة تأتى بكتل خشبية ضخمة معلقة بسلاسل ، يشدون بها الكتل إلى الوراء ثم يدفعونها نحو

السور ، وهذا هو كل ما حدث من التطور فى آلات الحصار قبل عصر أرخميدس . أما الأسطول فكانت طريقة الاحتفاظ به أن يختار فى كل عام أربعمائة من الأغنياء امتيازهم الخاص أن يجنلوا بحارة السفن ، ويهيئوا السفينة ذات الثلاثة الصفوف من المجاديف بما يلزمها من أدوات تقدمها لهم الدولة ، على أن يؤدوا هم نفقات بنائها وإنزالها فى البحر والمحافظة عليها من العطب. وبهذه الطريقة كانت أثينة تحتفظ وقت السلم بأسطول مؤلف من نحو ستين سفينة[٥٥].

وكانت نفقات الجيش والأسطول تستنفد الجزء الأكبر من مصروفات الدولة . وكانت مصادر الإيراد هى المكوس ، وعوائد المرافئ ، وضريبة مقدارها اثنان فى المائة على الواردات والصادرات ، وضريبة الفرضة ومقدارها اثنتا عشرة درخمة على كل فرد من الأجانب ، ونصف درخمة على كل معتوق ورقيق ، وضريبة العاهرات ، وضريبة البيوع ، والرخص ، والغرامات ، والأملاك المصادرة ، والجزية التى تؤديها الولايات . وقد ألغت الدمقراطية الضريبة التى كانت مفروضة من قبل على الحاصلات الزراعية والتى استمدت منها أثينة مواردها فى أيام بيسستراتس لأنها رأت أن هذه الضريبة تحط من كرامة الزراعة . وكانت جباية معظم الضرائب يناط بها الملتزمون يجمعونها لحساب الدولة ويحتفظون لأنفسهم بنصيب منها . وكانت الدولة تحصل على إيراد كبير من استغلال موارد البلاد المعدنية . وكانت فى أثناء الأزمات تجبى ضريبة على رؤوس الأموال تختلف نسبتها باختلاف الأملاك . وقد جمع الأثينيون بهذه الطريقة فى عام ٤٢٨ مثلا مائتى وزنة (تالنت) تبلغ قيمتها بنقود هذه الأيام مليون ريال أمريكى ومائتى ألف ريال لتسد بها نفقات حصار متليني . كذلك كان الأغنياء يدعون لأداء بعض الخدمات العامة Leiturgiai كتقديم ما يلزم من المعدات للسفراء الذاهبين فى مهام إلى خارج البلاد ، وإعداد بعض السفن للأسطول ، أو أداء نفقات المسرحيات ، أو المباريات الموسيقية ، والألعاب ، وكان بعض الأغنياء يتطوعون لأداء هذه

« الخدمات » ، ويلزم الرأى العام غيرهم بأدائها . وكان مما يضاعف متاعب الأغنياء أن كان فى وسع أى مواطن يطلب إليه أداء إحدى هذه الخدمات العامة أن يفرضها هو نفسه على أى مواطن آخر أو أن يستبدل بها فريضته إذا أثبت أن هذا المواطن الآخر أغنى منه . وكان الحزب الدمقراطى كلما قوى سلطانه يجد مناسبات وأسباباً مطردة الزيادة لاستخدام هذه الوسيلة ؛ وكان الماليون ، والتجار ، والصناع ، وملاك الأراضى فى أتكا نظير هذا جادين فى البحث عن أحسن الطرق لإخفاء ثروتهم والوقوف فى وجه الجباة ، وتدبير الثورات .

وقد بلغت إيرادات أثينة فى أيام پركليز نحو أربعمائة وزنة (٢٫٤٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) فى العام لا تدخل فيها هذه الهدايا والفرائض ، ويضاف إليها ستمائة وزنة ترد من البلاد الخاضعة لها ومن أحلافها . وكان هذا الإيراد ينفق من غير أن توضع له ميزانية توزع بنوده وتخصصها لأبواب النفقات المختلفة . وقد زاد المتجمع فى خزانة الدولة من الفرق بين الإيرادات والنفقات فى أيام پركليز ، وبفضل إدارته الاقتصادية الحكيمة ، وبالرغم من نفقات الدولة الكثيرة التى لم يسبق لها مثيل ، زاد هذا المتجمع زيادة مطردة حتى بلغ فى عام ٤٤٠ ق . م ٩٧٠٠ وزنة (نحو ٥٨٫٢٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) وهو احتياطى يعد ضخما فى أية مدينة فى أى عصر من العصور ، كما يعد وجوده فى بلاد اليونان نفسها أمراً عجيباً لأنا لا نكاد نجد فيها ولا نجد فى البلوپونيز كلها مدينة أخرى تزيد فيها إيراداتها على نفقاتها[٥٦] .

وكانت المدن القليلة التى يتجمع فيها هذا الاحتياطى تودعه عادة فى هيكل إله المدينة ، فكانت أثينة بعد عام ٤٣٤ تودعه فى البارثنون . وكان للدولة حق الانتفاع بهذا الاحتياطى وبذهب التماثيل التى تقيمها لإلهها . وقد بلغ مقدار هـذا الذهب فى تمثال أثينة پرثنوس أربعين وزنة (٢٤٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) ؛ وقد وضع فى التمثال بحيث يستطاع إزالته

عنه[٥٧] . وكانت المدينة تحتفظ فى الهيكل أيضاً بالمال الذى تؤديه للمواطنين ليشاهدوا به المسرحيات والألعاب المقدسة .

تلك هى الدمقراطية الأثينية — أضيق الدمقراطيات وأكملها فى التاريخ. لقد كانت أضيقها لقلة عدد من يشتركون فى امتيازاتها ، وأكملها لأنها تتيح لجميع المواطنين على قدم المساواة فرصة السيطرة بأنفسهم على التشريع وتصريف الشئون الإدارية . وتتكشف عيوب هذا النظام واضحة على مر الأيام ، بل إن الناس قد أخذوا يتحدثون بها فى أيام أرسطوفان . وكان من أظهر هذه العيوب التى كفرت عنها أثينة بخضوعها لاسبارطة ، وفيليب ، والإسكندر ، ورومة ، أن قامت فيها جمعية لا تسأل عما تفعل ، تدفعها عواطفها ، فتقرر أمرا ما فى أحد الأيام ، لا يعوقها عائق من سابقة أو مراجعة ، ثم تعود فى اليوم الثانى فتندم أشد الندم على ما فعلت ؛ وهى بندمها هذا لا تعاقب نفسها بل تعاقب من أضلوها ؛ ومنها قصر السلطة التشريعية على الذين يستطيعون حضور الإكليزيا ، وتشجيع الزعماء المهرجين ، ونفى القادرين من الرجال نفياً أفقد المدينة عدداً كبيراً من خيرة كبرائها ، وملء المناصب العامة بالقرعة والدور ، وتغيير الموظفين فى كل عام ، وإشاعة الفوضى فى الأداة الحكومية ، ومنها نزاع الأحزاب الذى لم ينفك يحدث الارتباك فى توجيه أعمال الدولة وشئونها الإدارية .

ولكن ما من حكومة إلا وهى ناقصة ، منهكة ، مقضى عليها آخر الأمر . وليس لدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأن الملكية أو الأرستقراطية كانت تستطيع أن تحكم أثينة خيراً من حكومتها هذه ، أو أن تحفظ عليها حياتها أطول مما حفظتها الدمقراطية ؛ ولعل هذه الدمقراطية المختلة النظام ، دون غيرها من أنواع الحكم ، هى التى استطاعت أن تطلق تلك الطاقة التى رفعت أثينة إلى أسمى مقام بلغته أمة أخرى فى التاريخ . ذلك أن الحياة السياسية ، داخل نطاق المواطنية ، لم تبلغ قبل ذلك العهد أو بعده ،

ما بلغته فيه من القوة والابتكار . وأقل ما يقال فى هذه الدمقراطية الفاسدة العاجزة أنها كانت مدرسة : لقد كان المقترع فى الجمعية يستمع إلى أقدر الرجال فى أثينة ، وكان ذهن القاضى فى المحكمة يشحذ باطلاعه على الأدلة ووزنها واستخراج ثمينها من غثها ، وكان الموظف يصوغه ويشكله ما يلقى عليه من تبعة وما يكسبه من تجارب ، فينضج عقله وفهمه وقدرته على الحكم . وفى هذا يقول سمنيدس « إن المدينة معلمة الرجال »(٤٨) . ولعل هذه الأسباب هى التى جعلت أثينة تقدر رجالا من طراز إسكلس ، ويوربيديز ، وسقراط ، وأفلاطون . لقد كان تقديرها لرجل من هذا الطراز هو الذى أوجدهم فيها ؛ وفى الجمعية ودور القضاء تكوّن نظارة دور التمثيل ، وكانت هذه الدور على استعداد لاستقبال خير هؤلاء النظارة . ولم تكن هذه الدمقراطية الأرستقراطية نظاما يفسح الطريق لكل إنسان ليفعل ما يحلو له كما أنها لم تكن رقيباً عتيداً على الأملاك والنظام فحسب ، بل كانت تشجع بالمال المسرحيات اليونانية وتشيد البارثنون ، وتعمل لرفاهية الشعب وتقدمه ، وتهيئ له الفرص التى لا تمكنه « من أن يعيش فحسب ، بل تمكنه من أن يعيش على خير وجه » . ومن أجل هذا فإن التاريخ لا يجد حرجا من أن يصفح عن جميع خطاياها .

الباب الثاني عشر

العمل والثروة فى أثينــــة

الفصل الأول

الأرض والطعام

كان الأساس الذى يقوم عليه صرح هذه الدمقراطية وهذه الثقافة هو إنتاج الطعام والثروة وتوزيعهما بين الناس . ذلك أن من يقومون من الناس بحكم الدول ، والبحث عن الحقيقة ، وتأليف الألحان الموسيقية ، ونحت التماثيل ، وإبداع الصور ، وتأليف الكتب ، وتعليم الأطفال ، وخدمة الآلهة ، إنما يستطيعون هذا لأن غيرهم يكدحون لإنتاج الطعام ، ونسج الثياب ، وبناء المساكن ، واستخراج المعادن ، وصنع الأدوات النافعة ، ونقل البضائع ، واستبدال غيرها بها ، أو تقديم الأموال اللازمة لإنتاجها أو نقلها . هذا هو أساس الدمقراطية والثقافة فى كل مكان .

وعماد المجتمع هو الفلاح أفقر الناس فيه وألزمهم له . ولقد كان الفلاح فى أتكا يستمتع على الأقل بحقوقه السياسية ، ذلك أن المواطنين وحدهم هم الذين كانوا يحق لهم أن يمتلكوا الأرض وكان الفلاحون جميعهم تقريباً يمتلكون الأرض التى يفلحونها ؛ وكان نظام امتلاك العشيرة كلها للأرض قد اختفى ، واستقر نظام الملكية الفردية وتوطدت أركانه . وكانت هذه الطبقة من صغار الملاك فى أتكا ، كما هى الآن فى فرنسا وأمريكا ، قوة محافظة تعمل على الاستقرار

فى الدمقراطية ، على حين أن سكان المدن الذين لا ملك لهم كانوا يدفعون الدولة على الدوام نحو الإصلاح والتغيير . وكانت نار الحرب القديمة العهد بين الريف والمدينة — بين الذين يريدون أثماناً عالية للغلات الزراعية وأثماناً منخفضة للسلع المصنوعة ، وبين الذين يطلبون أثماناً منخفضة للسلع المصنوعة وأجورا عالية أو أرباحاً كبيرة فى مجال الصناعة — كانت نار هذه الحرب شديدة الاستعار فى أتكا بنوع خاص . وبينا كانت الصناعة والتجارة تعدان من أعمال العامة التى تزرى بصاحبها فى نظر المواطن الأثينى ، كانت الأعمال الزراعية فى اعتقاده مشرفة للمشتغل بها لأنها أساس الاقتصاد القومى ، والخلق الشخصى القويم وقوة البلاد الحربية ؛ وكان أهل الريف ينزعون إلى احتقار سكان المدن ويرون أنهم إما طفيليون مستضعفون أو عبيد أدنياء[1] .

وتربة أتكا غير خصيبة : فثلث مساحتها البالغ قدرها ٦٣٠٫٠٠٠ فدان إنجليزى غير صالح للزراعة ، والثلثان الباقيان قد أفقر تربتهما تقطيع الغابات ، وانحباس الأمطار ، وسرعة اكتساح فيضانات الشتاء للطبقة الخصبة السطحية . ولم يكن الفلاحون فى أتكا يدخرون جهداً — يبذلونه هم أو أرقاؤهم — للتغلب على هذا الحظ النكد ، فكانوا يدخرون ما زاد من الماء على حاجتهم فى خزانات ويقيمون الجسور حول المجارى المائية للسيطرة على فيضانها ، ويجففون المستنقعات ويستصلحون أرضها الطيبة ، ويحفرون الآلاف من قنوات الرى لتحمل إلى حقولهم الظمآى قطرات الماء من النهيرات ، ولا يملون من نقل النبات من بيئة إلى بيئة ليحسنوا نوعه ويزيدوا حجمه ، ويتركون الأرض بورا مرة كل سنتين لتستعيد قدرتها على الإنتاج ، ويجعلون التربة قلوية بإضافة بعض الأملاح إليها مثل كربونات الجير ، ويسمدونها بنترات البوتاسيوم ، والرماد ، وفضلات الآدميين[2] . وكانت الحدائق والغياض المحيطة بأثينة تستفيد أكبر الفائدة من مجارى المدينة التى كانت

تصب كلها فى مجرى كبير متصل بخزان عام خارج ديبليون Dipylon ، ثم ينتقل ماؤها من هذا الخزان فى قناة مبنية بالآجر إلى وادى نهر سفسوس Cephisus[٣] . وكانوا يخلطون أنواعاً مختلفة من التربة بعضها ببعض ليفيد كل نوع منها من الآخر ، وكانوا يحرثون الأرض وبعض الخضر البقولية مزهرة فيها لكى تتغذى منها التربة ؛ وكانت الأعمال المتصلة بحرث الأرض وتمهيدها ، وبذر البذور أو غرس النبات ، تجرى كلها فى فترة الخريف القصيرة ، وكان موسم جنى الحبوب يحل فى شهر مايو ، وأما فصل الصيف الجاف فكان موسم الاستعداد والراحة . ومع هذه العناية كلها فإن أرض أتكا لم تكن تنتج إلا ٦٥٧٫٠٠٠ بشل من الحبوب فى كل عام لاتكاد تكفى ربع سكانها ؛ ولولا الطعام المستورد من الخارج لهلكت أثينة پركليز جوعاً ؛ وكان هذا هو الذى دفعها إلى الاستعمار وأوجب عليها أن تنشئ لها أسطولا قوياً تسيطر به على البحار .

وحاول الريف أن يستعيض عن محصوله الضئيل من الحبوب بمحصول موفور من الزيتون والعنب . فدُرِّجت جوانب التلال وأجريت لها المياه ، وكانت الحُمُر تشجع على قرض أغصان الكروم بأنيابها لتزيد بذلك ثمارها[٤] . وكانت أشجار الزيتون تغطى كثيرا من الأراضى فى بلاد اليونان فى أيام پركليز ، ولكن الفضل فى نقل أشجار الزيتون إلى هذه البلاد يعود إلى پيسستراتس وصولون . ذلك أن شجرة الزيتون لا تؤتى أكلها إلا بعد ستة عشر عاماً من زرعها ، ولا يكتمل نموها إلا بعد أربعين ؛ ولولا ما أمد به پيسستراتس الزراع من إعانات لما نمت تلك الشجرة فى أرض أتكا . ولقد كان إتلاف بساتين الزيتون فى حرب الپلوپونيز من الأسباب التى أدت إلى اضمحلال أثينة . والزيتون ذو فوائد كثيرة لليونانى ، فعصرته الأولى تمده بالزيت يأكله ، والثانية تمـده بالزيت يدهن به ، والثالثة تعطيه زيتاً يضىء به بيته ؛ وما بقى منه بعدئذ يتخذ وقودا[٥] . وكان الزيتون

أثمن غلات أتكا فى عصر بركليز ، وقد بلغ من عظم شأنه أن احتكرت الدولة تصديره ، وأن ابتاعت به وبالنبيذ ما كانت تضطر إلى استيراده من الحبوب :

وكانت تحرم تصدير التين تحريما باتا ، لأن التين من أهم مصادر القوة والنشاط لأهل البلاد . وشجرة التين تنمو وتترعرع حتى فى التربة الجدباء ، وجذورها الكثيرة الانتشار تمتص كل ما عساه أن يوجد فى التربة من ماء ، وأوراقها القليلة الصغيرة لا تعرضها للبخر الكثير . وفضلا عن هذا فإن زارع شجر التين قد تعلم من بلاد الشرق سر إنضاج ثماره بالتلقيح ؛ فكان يعلق أغصان شجرة التين البرية الذكر ، بين أغصان الشجرة الأنثى المزروعة ، ويترك للحشرات نقل الطلع من الذكر إلى ثمار الأنثى فتزيد فى الحجم والحلاوة .

وكانت هذه الغلات الزراعية من الحبوب ، وزيت الزيتون ، والتين ، والعنب ، والنبيذ ، أهم المواد الغذائية فى أتكا . ولم تكن تربية الماشية موردا للطعام خليقا بالذكر ؛ وكانت الخيول تربى لتستخدم فى السباق ، والأغنام لتؤخذ منها الأصواف ، والمعز للبن ، والحمير ، والبغال ، والبقر ، والثيران للنقل ؛ أما الخنازير فكانت تربى بكثرة ليؤكل لحمها ؛ وكانوا يعنون بتربية النحل للانتفاع بعسله فى عالم خلو من السكر . وكان اللحم من مواد الترف ، لا يطعمه الفقراء إلا فى أيام الأعياد ، وقد اختفت فى العهد الذى نتحدث عنه مآدب الأبطال التى كانت تقام فى العصر الهومرى. أما السمك فكان طعاما عاديا ومتعة فى آن واحد ؛ كان الفقير يبتاعه مملحا ومجففا ، والغنى يستمتع بلحم « القرش » « وثعبان البحر » طازجا[٦] . وكانت الحبوب تطعم سليقة ، وخبزا ، وكعكا ، وكثيرا ما كانت تخلط بعسل النحل . وقلما كان الخبز والكعك يسويان فى المنزل ؛ بل كان كلاهما يشترى من بائعات جائلات أو من حوانيت صغيرة ، وكانوا يضيفون إليهما البيض ، والخضر — وخاصة الفاصوليا ، والبسلة ، والكرنب ، والعدس ،

والخس ، والبصل ، والثوم . وكانت الفاكهة قليلة ؛ ولم يكن البرتقال والليمون من الفاكهة المعروفة . وكان النُّقل من الأصناف المعروفة والتوابل كثيرة الانتشار ، وكان الملح يجمع من ملاحات البحر ويشترى به العبيد من داخل البلاد ؛ وكانوا يصفون العبد الرخيص بأنه « مملح » والعبد الطيب بأنه « جدير بملحه » . وكان كل شيء تقريبا يطهى ويجهز بتاز زيت الزيتون وهو بديل ممتاز للبترول . وإذا كان من الصعب الاحتفاظ بالزبد طويلا في بلاد البحر الأبيض المتوسط فإن زيت الزيتون كان يستخدم بدلا منه . وكان يتفكه بعد الأكل بالعسل ، والحلوى والجبن . وبلغ من حبهم للكعك المحشو بالجبن أن دبجوا كثيرا من الرسائل القيمة في وصف هذا الفن الحلوي[٧] . وكان الماء شرابهم العادي ، ولكن ما من دار كانت تخلو من النبيذ ، لأنه ما من مدينة أطاقت الحياة من غير المخدرات أو المنبهات . وكانوا يحتفظون في الأرض بالثلج والجليد الطبيعيين ليبردوا بهما النبيذ في أشهر القيظ[٨] ، وكانوا يعرفون الجعة في عصر بركليز ولكنهم كانوا يحتقرونها . واليوناني بوجه عام مقتصد في طعامه يقتنع بوجبتين في اليوم ، ويقول أبقراط : « ومع هذا فثمة كثيرون يستطيعون أن يطيقوا ثلاث وجبات كاملة في اليوم إذا تعودوا هذا[٩] » .

الفصل الثاني

الصـــناعة

كانت أرض أتكا تنتج المعادن والوقود كما تنتج الطعام ، وكان الأهلون يضيئون بيوتهم بمصابيح جميلة المنظر ، ومشاعل يستخدمون فيها زيت الزيتون المكرر أو الراتينج — أو بالشموع . وكانوا يدفّئون بالخشب الجاف أو الفحم الخشبي ، يحرقونه في مواقد متنقلة . وقد عريت الغابات والتلال القريبة من المدن لكثرة ما قطع من أشجارها للوقود والبناء ، حتى أضحت البلاد في القرن الخامس قبل الميلاد تستورد الخشب الذي تحتاجه لبناء البيوت والسفن وصنع الأثاث . أما الفحم الحجري فلم يكن له وجود .

ولم يكن الغرض من التعدين في بلاد اليونان الحصـــول على الوقود ، بل كان غرضه استخراج المعادن ، وكانت أرض أتكا غنية بالرخام ، والحديد ، والخارصين ، والفضة ، والرصاص . وكانت مناجم لوريوم القريبة من الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة « فوارة تندفع منها الفضة ، لأثينة » كما يقول إسكلس . وكانت هـــذه المناجم أكبر ما تعتمد عليه الحكومة ، فكانت تحتفظ لنفسها بملكية كل ما تحت التربة ، وتؤجر المناجم إلى من يستغلها من الأفراد نظير أجر محدد قدره وزنة (تالنت أي ٦٠٠٠ ريال أمريكي) وجزء من أربعة وعشرين جزءاً من غلتها في العام[11] . ولما اكتشفت أولى العروق المربحة في لوريوم عام ٤٨٣ هرع الناس إلى إقليم المناجم لاستخراج الفضة . ولم يكن يسمح لغير المواطنين بأن يستأجروا تلك المناجم ، ولم يكن يقوم بالعمل فيها سوى العبيد . وكان نيشياس Nicias التقي ، الذي ساعد بخرافاته على خراب أثينة ، يكسب ما يعادل

مائة وسبعين ريالا أمريكياً فى اليوم الواحد بتأجير ألف عبد إلى مستغلى المناجم بما لا يزيد على أبولة واحدة (١٧/١٠٠ من الريال الأمريكى) لكل منهم فى اليوم ؛ وما أكثر الثروات التى جمعها الأثينيون بهـــذه الطريقة ، أو بإقراض الأموال اللازمة لهذا الاستغلال . وكان عدد العبيد فى المنجم يبلغ أحياناً عشرين ألفاً ، وكان منهم المشرفون عليهم والمهندسون . وكانوا يعملون فى نوبات تطول كل منها إلى عشر ساعات ، ولم يكن العمل ينقطع ليلا أو نهاراً ؛ فإذا ما تباطأ العبد أو استراح ألهب المشرف عليه ظهره بالسوط ، وإن حاول الهرب صفد بأغلال من حديد ، وإذا هرب وألقى القبض عليه كويت جبهته بالحديد المحمى[١٢] . ولم يكن عرض المنجم يزيد على قدمين ، ولم يكن ارتفاعه يتجاوز ثلاث أقدام ، وكان العبيد يعملون فيه بالمنقب أو الإزميل والمطرقة ، وهم جاثون على ركبهم ، أو منبطحون على بطونهم ، أو مستلقون على ظهورهم[١٣] . وكانت الخامات بعد تكسيرها تنقل فى سلال أو أكياس يتناولها رجل من رجل ؛ لأن الممرات لشدة ضيقها لا تسمح لاثنين أن يمر أحدهما بالآخر بسهولة . وكانت الأرباح التى تجنى من هذه المناجم غاية فى الضخامة . وحسبنا دليلا على هذا أن إتاوة الحكومة منها بلغت فى عام ٤٨٣ مائة وزنة (نحو ٦٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى) — وهى ثروة رزقتها أثينة من حيث لا تحتسب واستطاعت أن تنشئ بها أسطولا تنقذ به بلاد اليونان كلها عند سلاميس . ولقد عاد هذا العمل بالخير والشر معاً حتى على غير العبيد ؛ فقد أصبحت خزانة أثينة بسببه تعتمد كل الاعتماد على المناجم ؛ فلما أن استولى الإسپارطيون على لوريوم فى حرب البلوپونيز ، اضطربت أحوال أثينة الاقتصادية من أولها إلى آخرها ، ولما نضب معين المناجم فى القرن الرابع كان نضوبها أحد العوامل الكثيرة فى اضمحلال أثينة ، وذلك لأن أرض أتكا ليس فيها معدن ثمين غير الفضة .

وصناعة التعدين تتقدم بتقدم استخراجها . فكانت الخامات المستخرجة من مناجم لوريوم تدق فى مهارس ضخمة بمدقات ثقيلة من الحديد يحركها العبيد ، ثم تنقل بعدئذ إلى مطاحن تطحنها بين حجرين دوارين شديدى الصلابة ، ثم تغربل ويؤخذ ما ينزل من ثقوب الغربال إلى حيث يغسل ، فيوضع على مناضد مائلة مستطيلة الشكل مصنوعة من الحجر ومغطاة بطبقة رفيعة ملساء من الأسمنت الصلب ويسلط عليه شؤبوب ماء من حوض . ويندفع تيار الماء ثم ينثنى بزوايا حادة عندها فجوات تلتقط جزيئات المعدن . ثم يؤخذ ما يتجمع منه فيها ويلقى فى أفران الصهر مجهزة بمنافيخ ترفع حرارتها . وفى قاع كل فرن فتحات ينزل منها المعدن المصهور . ويفصل الرصاص من الفضة برفع حرارة المعدن المصهور فوق بواتق مصنوعة من مادة مسامية وتعريضه بعد ذاك للهواء . وبهذه الطريقة السهلة يتحول الرصاص إلى أكسيد الرصاص وتخلص الفضة . وقد برع العمال فى عمليتى الصهر والتنقية ، كما تشهد بذلك العملة الفضية الأثينية ، فإن فضتها نقية إلى درجة ٩٨ فى المائة . ولقد أدت لوريوم ثمن ما أنتجته من الثروة ، لأن صناعة التعدين تجلب فى أعقابها أضراراً تذهب بكثير من أرباحها . فالنبات يموت والناس يهلكون بتأثير الدخان المنبعث من الأفران ، والأماكن المجاورة للمصانع تصبح قفراء جدباء يغطيها التراب والرماد[١٤] .

أما غير هذه الصناعة فلا يكلف من الجهد ما تكلفه ، وفى أتكا الآن كثير من هذه الصناعات غير المجهدة ، وهى وإن كانت صغيرة فى حجمها دقيقة شديدة التخصص فى نوعها ، فقد كانت تستخرج الرخام وغيره من الحجارة من محاجرها ، وتصنع آلافاً من أشكال الآنية الخزفية ، وكانت تدبغ الجلود فى مدابغ كبيرة كالتى يمتلكها كليون منافس بركليز وأنيتس الذى وجه التهمة إلى سقراط . وكان من أهلها فوق ذلك صانعو العربات ، وبناءو السفن وصانعو السروج وسائر عدد الخيل ،

والحذاءون ، وكان من صانعى السروج من لا يصنعون إلا الأعنة ومن الحذائين من اختصوا بصنع أحذية الرجال أو النساء[١٥] . وكان من المشتغلين بحرف البناء نجارون وصانعون للقوالب ، وقاطعون للأحجار ، ومشتغلون بالمعادن ، ومصورون ، وطالون للجدران والأخشاب . وكان فيها حدادون وصانعون للأسياف والدروع ، والمصابيح ، والقيثارات ، والطحانون ، والخبازون ، والوزامون ، والسماكون — وجملة القول أنها كانت تحتوى على كل ما تطلبه الحياة الاقتصادية الكثيرة العمل المتنوعة الأشكال ، غير الآلية أو المملة . وكانت المنسوجات العادية لا تزال حتى ذلك الوقت تنسج فى المنازل ، ففيها كان النساء ينسجن ، ويصلحن ثياب الأسرة وفراشها ، ومنهن من يمشطن الصوف أو يدرن عجلة الغزل ، ومنهن من يتعهدن الأنوال ومن ينحنين أمام إطار التطريز . أما المنسوجات الخاصة فكانت تشترى من المصانع أو تستورد من خارج البلاد — فالأقمشة التيلية الرقيقة كانت ترد من مصر ، وأمرجوس Amorgos ، وتارنتم ؛ والأقمشة الصوفية المصبوغة من سراقوصة ، والبطاطين ، من كورنثة ، والطنافس من الشرق الأدنى وقرطاجنة ، وأغطية الفراش الملونة من قبرص ؛ وتعلمت نساء كوس فى أواخر القرن الرابع حل شرانق دود القز وغزل خيوط الحرير[١٦] . وأتقنت النساء فى بعض المنازل فنون النسيج إتقاناً أمكنهن أن ينتجن أكثر من حاجة أسرهن ، فكن يبعن ما زاد على حاجتهن إلى المستهلكين فى بادئ الأمر ، ثم إلى الوسطاء ؛ وكن يستعن بمن يساعدهن من المعاتيق أو الأرقاء ، ونشأت على هذا النحو صناعة منزلية كانت هى الخطوة الأولى فى سبيل نظام المصانع .

بدأ هذا النظام يتشكل فى عصر پركليز ، وكان پركليز نفسه ، كما كان ألسيبيديز ، يمتلك مصنعاً[١٧] ، ولم تكن هناك آلات ، ولكن كان فى الاستطاعة الحصول على كثير من العبيد ؛ وكان رخص القوة العضلية سبباً فى انعدام الحافز

إلى صنع الآلات ؛ ولهذا كانت دور الصناعة فى أثينة « حوانيت صناعة » لا مصانع ، ولم يكن فى أكبرها ، وهو حانوت صنع الدروع الذى يمتلكه سفالوس Cephalus ، سوى مائة وعشرين عاملا ، وكان فى دار صنع الأحذية التى يمتلكها تمركوس Timarchus عشرة عمال ، وفى مصنع دمستين للأساس عشرون ؛ وفى مصنعه للعدد الحربية ثلاثون[١٨] . ولم تكن هذه الحوانيت فى بادئ الأمر تنتج إلا لمن يطلب الإنتاج ، ثم صارت فيا بعد تنتج للسوق ، ثم للتصدير فى آخر الأمر ؛ وكان حلول النقود محل المقايضة ، وانتشار هذه النقود انتشاراً واسعاً ، مما يسر عليها أعمالها . ولم تكن فى البلاد منظمات صناعية ، بل كان كل مصنع وحدة مستقلة بذاتها يمتلكها رجل أو رجلان ، وكان صاحبه يعمل فى كثير من الأحيان إلى جانب عبيده . ولم تكن لديهم علامات تجارية ، وكانت الحرف يأخذها الأبناء من الآباء ، أو يتعلمها الصبيان عن الرؤساء ؛ وكان القانون يعفى الأثينيين من رعاية آبائهم فى شيخوختهم إذا لم يعلمهم أولئك الآباء حرفة يشتغلون بها[١٩] . وكانت ساعات العمل كثيرة ، ولكنهم كانوا يعملون على مهل ، فكان صاحب المصنع وعماله يعملون من مطلع الفجر إلى ما بعد غروب الشمس ، مع إغفاءة قصيرة فى وقت الظهيرة صيفاً . ولم تكن هناك إجازات ولكنهم كانت لهم فى كل عام ستون عيداً ينقطعون فيها عن العمل .

الفصل الثالث

التجارة والمـــال

إذا أنتج الفرد ، أو الأسرة ، أو المدينة أكثر من حاجته أو حاجتها ، نشأت التجارة : وكانت أولى الصعاب التى واجهت أتكا أن وسائل النقل فيها كثيرة النفقة غير متيسرة ، وأن البحر شراك ليس من السهل على سفنها أن تفلت منه . وكانت أحسن طرقها البرية هى الطريق المقدسة الممتدة من أثينة إلى إليوسيس ؛ وإن لم تكن أكثر من طين ، وإن كانت أضيق من أن تتسع لمرور المركبات . أما القناطر فلم تكن أكثر من معابر غير مأمونة مقامة من حواجز من الطين كثيراً ما تجرفها الفيضانات . وكان حيوان الجر المألوف هو الثور وهو حيوان أوتى من الفلسفة أكثر مما يسمح له بأن يغنى التاجر الذى يعتمد عليه فى نقل متاجره . وكانت العربات هشة تتحطم على الدوام أو تتعطل عن السير فى الوحل وكان أفضل منها لديه أن ينقل بضاعته على ظهور البغال ، لأنها أسرع من العربات قليلا ، ولأنها لا تشغل ما تشغله تلك العربات من الطريق . ولم يكن فى بلاد اليونان نظام للبريد ؛ وحتى الحكومات نفسها لم يكن لها مثل هذا النظام ، بل كانت تقنع بالعدائين ؛ وكانت الرسائل الخاصة تنتظر إلى أن يتاح لها من ينقلها منهم . وكانت الأخبار الهامة ترســـل بالإشارات النارية يتلقفها تل من تل أو بالحمام الزاجل[٢٠] ، وكانت فى أماكن متفرقة من الطرق نزل ، ولكنها كانت مأوى محببة للصوص والحشرات ؛ وحتى الإله ديونيسس فى إحدى مسرحيات أرسطوفان يسأل هرقل عن « بيوت الأكل ودور الضيافة التى هى أقل من غيرها بقا[٢١] » .

وكان النقل البحرى أقل كلفة من النقل البرى وبخاصة إذا اقتصر على أشهر الصيف الساكنة الريح ، وكان هذا النقل فى العادة مقصوراً على تلك الشهور . وكانت أجور السفر قليلة ، فكان فى وسع الأسرة أن تنتقل من بيريه إلى مصر وإلى البحر الأسود نظير درختين (أى ريالين أمريكيين[٢٢]) ، ولكن السفن لم تكن تعنى بنقل المسافرين لأنها صنعت قبل كل شىء لنقل البضائع أو لشن الحرب أو لهذا الغرض أو ذاك كما تقضى الضرورة . وكانت أهم القوى المحركة هى قوة الريح تملأ الشراع ، ولكن العبيد كانوا يسيرون السفن بالمجاديف إذا سكنت الريح أو هبت فى عكس اتجاه السفن . وكانت أصغر سفن البحار التجارية يسيرها ثلاثون مجدافاً ، ومنها ما كان له خمسون : وأنزل أهل كورنثة فى البحر منذ عام ٧٠٠ قبل الميلاد أول السفن ذات الثلاثة الصفوف من المجاديف يعمل بها مائتان من الرجال . وقبل أن يستهل القرن الخامس كانت هذه السفن بمقدمها الطويل السامق قد بلغ وزنها ٢٥٦ طناً ، وبلغت حمولتها سبعة آلاف بشل من الحبوب ، وأصبحت حديث جميع القاطنين على شواطئ البحر الأبيض المتوسط لأن سرعتها بلغت ثمانية أميال فى الساعة[٢٣] .

وكانت ثانى مشاكل التجارة هى العثور على واسطة للتبادل يثق الناس بها ، فقد كان لكل مدينة نظامها الخاص فى الموازين والمقاييس ، وعملتها التى لا تشاركها فيها مدينة أخرى . وكان على الإنسان عندما يصل إلى أحد التخوم التى تكاد تبلغ المائة عداً أن يبدل نقوده وأن يكون على حذر فى هذا التبديل لأن كل حكومة يونانية ، عدا حكومة أثينة ، كانت تسلب الأجانب عنها أموالهم بتخفيض قيمة نقدها[٢٤] . وفى ذلك يقول يونانى لم يشأ أن يُعرف اسمُه « كان التجار فى معظم المدن يضطرون أن ينقلوا على سفنهم بضائع وهم عائدون إلى مدنهم لأنهم لم يكن فى وسعهم أن يحصلوا على نقود ذات نفع

لم فى أى مكان آخر[٢٥] » . وكانت بعض المدن تسك نقوداً من خليط من الذهب والفضة ، وينافس بعضها بعضاً فى إنقاص ما فى هذا الخليط من الذهب . أما الحكومة الأثينية منذ أيام صولون فقد أخذت على نفسها تشجيع التجارة إلى أقصى حد بإيجاد عملة موثوق بها طبعت عليها بومة أثينة ؛ وكان قولهم : « يأخذ البوم إلى أثينة » هو المثل اليونانى المقابل لقول الإنجليز « يحمل الفحم إلى[*] نيوكاسل[٢٦] » وإذا كانت أثينة قد أبت خلال صروف الدهر أن تخفيض من قيمة درخماتها الفضية ، فقد كانت سائر بلاد البحر الأبيض المتوسط تقبل وهى راضية هذه « البومات » التى أخذت تحل شيئاً فشيئاً محل العملة المحلية فى جزائر بحر إيجه ، وكان الذهب فى هذه المرحلة لا يزال سلعة تجارية تباع بالوزن ، ولم يكن وسيلة يستعان بها على الاتجار ؛ ولم تكن أثينة تسكه عملة إلا فى حالات الضرورة النادرة ، وكانت النسبة المعتادة بينه وبين الفضة كنسبة ١٤ إلى ١[٢٧] . وكانت أصغر النقود الأثينية تسك من النحاس ، وكانت ثمان قطع منها تكون أبولة — وهى عملة من الحديد أو البرنز سميت بهذا الاسم لمشابهتها للأظافر أو للسفود . وكانت ست أبولات تكون الدرخمة أى الحفنة ؛ والدرخمتان تكونان استاتر Statar والمائة درخمة تكون مينا Mina ، وستون مينا تكون وزنة Talent . وكانت الدرخمة فى النصف الأول من القرن الخامس يبتاع بها بشل Bushel من الحبوب كما يبتاع الريال الأمريكى فى القرن[**] العشرين[٢٨] . ولم يكن فى أثينة عملة ورقية ، ولا صكوك حكومية ، ولا شركات محاصة ، ولا مصفق للأسهم والسندات .

(*) والمقابل المثل العربى القائل « كبائع التمر إلى هجر » . (المترجم)

(**) احتسبنا الأبولة فى هذا المجلد مساوية فى قوتها الشرائية لسبعة عشر جزءا من مائة جزء من ريال الولايات المتحدة فى عام ١٩٣٨ ، واحتسبنا قيمة الدرخمة ريالا وقيمة الوزنة ٦٠٠٠ ريال . وذلك كله تقريبى بطبيعة الحال لأن الأثمان كانت مطردة الارتفاع طوال التاريخ اليونانى . انظر الفصل الخامس من هذا الباب .

لكن أثينة كان فيها مصارف مالية لاقت صعاباً شديدة فى توطيد دعائمها لأن الذين لم تكن بهم حاجة إلى القروض يندون بالربا ويرونه جريمة(*) ، ويتفق معهم الفلاسفة فى هذا الحكم . وكان الأثينى العادى فى القرن الخامس ممن يكنزون المال ، فكان إذا ادخر شيئاً منه آثر أن يخبئه بدل أن يودعه فى المصارف . وكان بعض الناس يقرضون مدخراتهم نظير فائدة تتراوح بين ١٦ ، ١٨ فى المائة ، ومنهم من يقرضونها من غير رهون بفائدة إلى أصدقائهم ، أو يودعونها فى خزائن الهياكل . وكانت الهياكل تعمل عمل المصارف فتقرض المال إلى الأفراد والحكومات بفائدة معتدلة ، وكان هيكل أبلو فى دلفى إلى حد ما مصرفاً دولياً لجميع بلاد اليونان . ولم تكن الحكومات تقترض من الأفراد ، ولكن الدول كانت فى بعض الأحيان يقرض بعضها بعضاً . وفى القرن الخامس بدأ مبدل النقود الجالس أمام منضدته (طربيزته Trapeza) يقبل المال وديعة لديه ، ويقرضه للتجار بفوائد يتراوح سعرها بين ١٢ ، و ٣٠ فى المائة حسب ما تتعرض له من الأخطار . وبهذه الطريقة أصبح ذلك الصراف مصرفياً ، وإن كان قد احتفظ إلى آخر تاريخ اليونان باسمه الأول (صاحب المنضدة trapezite) . وقد أخذ أساليبه عن بلاد الشرق الأدنى ، وحسنها ، ونقلها إلى رومة فأسلمتها هذه إلى أوربا الحديثة . وما كادت الحرب الفارسية تضع أوزارها حتى أودع ثمستكليز سبعين وزنة (٤٢٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) عند فيلوستفانوس المصرفى ، بنفس الطريقة التى يعمل بها المغامرون السياسيون لدنياهم فى هذه الأيام ، وهذه أول إشارة معروفة للأعمال المصرفية خارج المعابد فى

(*) ليس الفلاسفة والذين لا يحتاجون إلى القروض هم وحدهم الذين يعدون الربا جريمة ، بل إن كثيرين من علماء الاقتصاد فى هذه الأيام يرون فيه أضراراً كثيرة تزيد على منافعه وهم يؤيدون برأيهم هذا ما جاءت به الأديان السماوية . (المترجم)

تاريخ اليونان . ولما آذن هـــذا القرن بالانتهاء أنشأ أنتستنيز Antisthenes وأرخستراتس المؤسسة التي أصبحت في عهد باسيون Pasion أشهر المصارف اليونانية التي يملكها الأفراد ، وعن طريق هؤلاء الصيارفة كانت الأموال تتداول بحرية وسرعة أكثر من تداولها قبل وجود هذا النظام ، وكانت لهذا تيسر من الأعمـــال أكثر مما كانت تيسره قبل وجودهم . وبفضل هذا التيسير راجت التجارة الأثينية واتسعت أسواقها ونشطت أكثر من ذي قبل .

وكانت التجارة ، لا الصناعة ولا الأعمال المالية ، روح الاقتصاد الأثيني . ذلك أنه وإن ظل الكثيرون من المنتجين حتى ذلك الوقت يبيعون منتجاتهم إلى المستهلك مباشرة ، فإن عدداً متزايداً منهم كان في حاجة إلى وساطة السوق التي كانت وظيفتها شراء السلع وخزنها حتى يستعد المستهلك لشرائها . وبهذه الطريقة نشأت طبقة من بائعي التجزئة يعرضون بضائعهم في شوارع المدن ، أو في مؤخرة الجيوش ، أو في الأعياد والاحتفالات العامة ، أو يعرضونها للبيع في حوانيت أو « أكشاك » في الأماكن المزدحمة أو غير المزدحمة في المدن . وكان الأحرار والغرباء والأرقاء يذهبون إلى هذه الأماكن ليساوموا التجار ويبتاعوا ما تحتاجه البيوت . وكان من أقسى القيود المفروضة على النساء والحرائر ، في أثينة أن العادات لم تكن تبيح لهن أن يخرجن إلى الأسواق ليشترين منها حاجتهن .

وتقدمت التجارة الخارجية لبلاد اليونان أسرع من تقـــدم التجارة الداخلية نفسها ، لأن الدول اليونانية أدركت مزايا توزيع العمل بين بعضها والبعض الآخر فتخصصت كل منها في إنتاج نوع من المنتجات . فصانع الدروع مثلا لم يعد ينتقل من مدينة إلى مدينة تلبية لطلب من يحتاجه ، بل أخذ يصنع دروعه في حانوته ويبعث بها إلى أسواق العالم القديم . وهكذا انتقلت أثينة في قرن واحد من الاقتصاد المنزلي — الذي يصنع فيه كل منزل

جميع ما يحتاجه تقريباً — إلى الاقتصاد الحضرى — الذى تصنع فيه كل مدينة جميع ما تحتاجه تقريباً — ثم إلى الاقتصاد الدولى — الذى تعتمد فيه كل دولة على ما تستورده من غيرها ، والذى لا بد لها فيه أن تصدر من السلع ما تؤدى به أثمان وارداتها . واستطاع الأسطول الأثينى مدى جيلين من الزمان أن يجعل البحر مطهراً من القراصنة ، ولهذا ازدهرت التجارة من عام ٤٨٠ إلى ٤٣٠ كما لم تزدهر فى المستقبل إلا بعد أن قضى پمپى على القرصنة فى عام ٦٧ . وكانت أرصفة پيرية ، ومخازنها ، وأسواقها ومصارفها تقدم للتجارة كل ما تستطيعه من أسباب التيسير . وسرعان ما أضحى هذا الثغر النشيط العامل أهم مراكز التصدير وإعادة الشحن للتجارة المتبادلة بين الشرق والغرب. وفى ذلك يقول إسقراط : « لقد كان من اليسير أن يبتاع الإنسان فى أثينة جميع ما يصعب عليه أن يجده إلا فى أماكن متفرقة سلعة منه فى هذه المدينة وسلعة فى تلك »[3] . ويقول توكيديدس « إن عظمة مدينتنا تجذب غلات العالم كله إلى مرفئنا ، حتى أصبحت ثمار البلاد الأخرى من مواد الترف المألوفة للأثينى كثمار بلده نفسه »[31] . وكان التجار يحملون من پيرية ما تنتجه حقول أتكا وحوانيتها من الخمور ، والزيت ، والصوف ، والمعادن ، والرخام ، والخزف والأسلحة ، ومواد الترف ، والكتب ، والتحف الفنية ؛ ويأتون إلى پيرية بالحبوب من بيزنطية ، وسوريا ، ومصر ، وإيطاليا ، وصقلية ؛ وبالفاكهة والجبن من صقلية وفينيقية ، وباللحوم من فينيقية وإيطالية ؛ والسمك من البحر الأسود ؛ والنُّقل من بفلاجونيا ؛ والنحاس من قبرص ؛ والقصدير من إنجلترا ؛ والحديد من شواطئ بحر البنتس ؛ والذهب من ثاسوس وتراقية ؛ والخشب من تراقية وقبرص ؛ والأقمشة المطرزة من بلاد الشرق الأدنى ؛ والصدف والكتان ، والأصباغ من فينيقية ، والتوابل من قورينة ؛ والسيوف من خلقيديا ؛ والزجاج من مصر ؛ والقرميد من كورنثة ؛ والأسرة من طشيوز ومِيليطس ؛ والأحذية

والبرونز من إترووريا ، والعاج من بلاد الحبشة ، والعطور والأدهان من بلاد العرب ، والرقيق من ليديا ، وسوريا ، وسكوذيا . ولم تكن المستعمرات أسواقاً فحسب ، بل كانت فوق ذلك وكالات شحن ترسل البضائع الأثينية إلى الداخل ، ومع أن مدائن أيونيا قد اضمحلت فى القرن الخامس قبل الميلاد لأن التجارة التى كانت تمر بها من قبل تحولت إلى البروپنتس وكاريا أيام الحرب الفارسية وبعدها ، فإن إيطاليا وصقلية قد حلتا محلها وأصبحت بلادهما ثغوراً لتصدير ما زاد على الحاجة من غلات بلاد اليونان الأصلية وسكانها ، وفى وسعنا أن نقدر قيمة تجارة بحر إيجة الخارجية إذا عرفنا أن حصيلة ضريبة الخمسة فى المائة المفروضة على صادرات مدن الإمبراطورية الأثينية ووارداتها قد بلغت فى عام ٤١٣ ألفاً ومائتى وزنة ، ومعنى هذا أن التجارة قد بلغت قيمتها ١٤٤٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى فى ذلك العام .

وكان الخطر الكامن وراء هذا الرخاء هو اعتماد أثينة اعتماداً متزايداً على الحبوب المستوردة من خارجها ؛ ومن ثم كان حرصها على السيطرة على مضيق الهلسپنت والبحر الأسود ، وإصرارها على استعمار السواحل والجزائر الواقعة فى طريقها إلى المضايق ، وحملتها المشئومة على مصر فى عام ٤٥٩ ، وعلى صقلية فى عام ٤١٥ . واعتمادها هذا هو الذى أغراها بتحويل حلف ديلوس إلى إمبراطورية أثينية ؛ ولما أن دمر الإسپارطيون الأسطول الأثينى فى مضيق الهلسپنت عام ٤٠٥ ، كان لا بد أن تعانى أثينة آلام الجوع وأن تستسلم نتيجة لهذا التدمير . غير أن هذه التجارة هى التى جلبت الثراء لأثينة ، وكانت مع خراج إمبراطوريتها عماد رقيها الثقافى ، ذلك أن التجار الذين كانوا ينتقلون مع بضائعهم إلى جميع بقاع البحر الأبيض المتوسط كانوا يعودون إليها بنظرات إلى

الحياة تختلف عن نظراتهم قبل خروجهم من بلدهم ، وبعقول متيقظة متفتحة ، وكانوا يأتون معهم بأفكار وأساليب جديدة ، يحطمون بها القيود القديمة والخمول القديم ، ويستبدلون بالتحفظ الأسرى الذى هو من طابع الأرستقراطية الريفية نزعة فردية تقدمية هى طابع الحضارة التجارية . وفى أثينة التقى الشرق بالغرب وبفضل هذا الالتقاء خرج كلاهما من أساليبه المألوفة العتيدة ، وفقدت الأساطير القديمة سيطرتها على نفوس الناس ، وزاد الفراغ ، وشجع البحث ، ونشأ العلم والفلسفة ، وأضحت أثينة أكثر مدن زمانها حيوية ونشاطاً .

الفصل الرابع

الأحرار والعبيد

ومنذا الذى كان يقوم بهذا العمل كله ؟ لقد كان يقوم به فى الريف المواطنون : أسرهم وعمال أحرار مأجورون ؛ أما فى أثينة نفسها فكان يؤدى بعضه المواطنون ، وبعضه العتقاء ، ويؤدى الكثير منه الغرباء المهاجرون ، ويؤدى معظمه الأرقاء . ويكاد أصحاب الحوانيت ، والصناع ، والتجار ، ورجال المصارف ، أن يكونوا كلهم من الطبقات التى ليس لها حق الانتخاب ، وكان أهل المدينة ينظرون بعين الاحتقار إلى العمل اليدوى ، ولا يؤدون منه إلا القليل الذى لابد لهم من أدائه ، لأن العمل لكسب العيش كان فى اعتقادهم يحط من قدر صاحبه ، بل إن الأعمال المهنية ، وتعليم الموسيقى ، والنحت ، والتصوير ، كان فى نظر الكثيرين من اليونان « مهنة دنيئة(*) » . وهاهو ذا زنوفون يتحدث فى زهو وفى غير مجاملة بوصفه واحداً من طبقة الفرسان فيقول :

« إن الجماعات المتمدينة ترى أن ما يسمونه بالفنون الآلية الحقيرة تزرى بصاحبها .... وهى محقة فى نظرته هذه ؛ ذلك بأن العمل فيها يهلك أجسام القائمين به ، سواء فيهم العمال ومن يشرفون عليهم ، فهى تضطرهم إلى أن يقضوا وقتهم جالسين فى نور ضئيل أو جاثمين أياماً طوالا أمام الأفران .

(*) بركليز تأليف فلوطرخس ؛ ويرى زمرمان فى كتابه « عصورة الأمم اليونانية The Greek Commonwealth » ص ٢٧٢ وفرجسون Ferguson فى كتاب « الاستعمار اليونانى » أن احتقار الأثينيين للأعمال اليدوية قد بولغ فى وصفه كثيرا ؛ ولكن جلتز Glotz فى كتابه « بلاد اليونان القديمة تعمل Ancient Greece at Work » ص ١٦٠ يقول خلاف هذا .

وهذا الضعف الجسمي يصحبه على الدوام ضعف نفساني ؛ وفوق هذا وذاك فإن ما تتطلبه هذه الفنون الآلية الحقيرة من الوقت لا يترك للمشتغلين بها فراغاً ينفقونه في مطالب الصداقة أو الدولة(٣٣) » :

وكان ينظر إلى التجارة هـــذه النظرة نفسها ، فكان اليوناني الأرستقراطي النزعة أو الفيلسوف لا يعدها إلا وسيلة لجمع المال مع إلحاق الأذى بمن يجمع منهم ؛ وهي في رأي هذا وذاك لا تبتغي خلق السلع ، بل كل ما تبغيه هو شراؤها رخيصة وبيعها غالية ؛ ولهذا فما من مواطن خليق بالاحترام يرضى أن يعمل فيها وإن كان لا يستنكف أن يستثمر فيها ماله ويربح من هذا الاستثمار ما دام يترك لغيره أن يقوم بالعمل . ويقول اليوناني إن الحر يجب أن يتحرر من الواجبات الاقتصادية ، وإن عليه أن يستخدم العبيد وغيرهم من الناس ليعتنوا بشئونه المادية ، بما في ذلك ، إن استطاع ، العناية بأملاكه وأمواله . وهذا التحرر وحده هو الذي يترك له الوقت الكافي للقيام بأعباء الحكم ، والحرب ، والأدب والفلسفة . فإذا لم توجد هذه الطبقة المتفرغة لهذه الشئون لم يوجد ، كما يرى اليوناني ، ذوقٌ راق ، ولن يكون في البلاد من يشجع الفنون ، ولن تقوم للحضارة قائمة على الإطلاق ؛ ذلك أن من يعمـــل مسرعاً لا يمكن أن يكون متمديناً بحق .

وكان الغرباء الأحرار ، الذين ولدوا في بلاد أجنبية واتخذوا أثينة موطناً لهم ولكنهم لا يعدون من مواطنيها ، كان هؤلاء الغرباء هم الذين يؤدون في أثينة معظم الأعمال ذات الصلة التاريخية بالطبقة الوسطى ، فكان منهم رجال المهن ، والتجار ، والمقاولون ، والصناع ، والمديرون للأعمال التجارية والصناعية ، وأصحاب الحوانيت ، وأرباب الحرف ، والفنانون ، وقد استقر هؤلاء في أثينة لأنهم وجدوا فيها ، بعد تجوالهم في البلاد الأخرى ، ما ينشدونه من الحرية الاقتصادية وفرص الحياة والحافز على العمل وبذل

الجهود ، وهذه أهم فى نظرهم من حق الانتخاب . ولهذا كانت أهم الأعمال الصناعية — خارج نطاق التعدين — ملكاً لهؤلاء الغرباء الأحرار ، فصناعة الخزف بأكملها كانت فى أيديهم ، وكانوا يوجدون كلما استطاع الوسطاء أن يحشروا أنفسهم بين المنتج والمستهلك . وكانت شرائع البلد تضايقهم وتحميهم ، فكانت تفرض عليهم من الضرائب ما تفرضه على المواطنين ، وتلزمهم بأن يؤدوا خدمات شخصية للدولة ، وتجندهم للخدمة العسكرية ، وكانوا يؤدون لها ضريبة الفرضة ، ولكنها كانت تحرم عليهم امتلاك الأرض والزواج من أسر المواطنين ، ولا تسمح لهم بالانضمام إلى الهيئات الدينية أو الالتجاء بأنفسهم إلى المحاكم . ولكنها كانت ترحب بهم فى حياتها الاقتصادية ، وتقدر لهم جدهم وحذقهم ، وتنفذ لهم عقودهم ، وتترك لهم حريتهم الدينية ، وتحمى أموالهم من الثورات العنيفة . وكان منهم من يباهون بثروتهم مباهاة سمجة ، ولكن كان منهم أيضاً من يشتغلون بالعلوم ، والآداب ، والفنون ، ويمارسون مهنة الطب أو القانون ، أو ينشئون مدارس لتعليم البلاغة والفلسفة ، وهم الذين أمدوا بالمال مؤلفى المسرحيات الهزلية فى القرن الرابع ، وكانوا هم موضوع هذه المسرحيات ، وأصبحوا فى القرن الثالث هم المثال المحتذى فى آداب المجتمع المتلسن . وكان حرمانهم من حقوق المواطنية يؤلمهم ويحز فى نفوسهم ، ولكنهم كانوا يحبون أثينة ويفخرون بانتسابهم إليها ، ويؤدون على مضض كثيراً من الأموال التى تحتاجها للدفاع عن نفسها ضد أعدائها . ومن مال هذه الطبقة استمد الأسطول معظم حاجته ، وكانت هى عماد الإمبراطورية الأثينية ، وبفضلها احتفظت أثينة بتفوقها التجارى على سائر بلاد اليونان .

وكان يشارك الغرباء فى الحرمان من بعض الحقوق السياسية ، وفيما يتاح لهم من الفرص الاقتصادية ، العتقاء ، أى الذين كانوا من قبل عبيداً . ذلك أن الأمل فى الحرية حافز اقتصادى قوى للعبد الشاب وإن لم يكن من السهل المألوف أن يعتق العبد لأن عبداً آخر يجب أن يحل فى العادة محله ؛ لكن كثيرين من اليونان

كانوا إذا قربت منيتهم يكافئون أشد عبيدهم إخلاصاً بعتقهم . كذلك كان العبد يعتق إذا افتداه أهله أو أصدقاؤه كما حدث لأفلاطون ، أو افتدته الدولة نفسها من سيده نظير خدماته لها فى الحرب ؛ وقد يبتاع هو نفسه حريته بما يدخره من الأبولات . وكان العبد المحرر يعمل ، كما يعمل الغريب السالف الذكر ، فى الصناعة والتجارة والشئون المالية . وكان أقل ما يقوم به من الأعمال شأناً هو أداء عمل العبد نظير أجر ؛ وكان أعظم ما يبلغه هو أن يكون صاحب إحدى الصناعات . فقد كان ميلياس Mylias مثلا هو المشرف على مصنع الأسلحة الذى يمتلكه دموستين ؛ وأصبح پاسيون ، وفورميو أغنى رجال المصارف فى أثينة . وكان أهم الأعمال التى تظهر قيمة العبد المحرر هى الأعمال التنفيذية ، وذلك لأن أقسى الناس على العبيد هو الذى نشأ فى ظل العبودية ولم يعرف طول حياته إلا الظلم والاستبداد .

وكان من تحت هذه الطبقات الثلاث — طبقات المواطنين والغرباء والمعاتيق — عبيد أتكا البالغ عددهم ١١٥٫٠٠٠ عبد(*) . وهؤلاء العبيد إما أسرى حرب ، أو ضحايا غارات الاسترقاق ، أو أطفال أنقذوا وهم معرضون فى العراء ، أو أطفال مهملون ، أو مجرمون . وكانت قلة منهم فى بلاد اليونان يونانية الأصل ؛ وكان الهلينى يرى أن الأجانب عبيد بطبعهم لأنهم يبادرون بالخضوع إلى الملوك ، ولهذا لم يكن يرى فى استعباد اليونان لهؤلاء الأجانب ما لا يتفق مع

(*) ومرجعنا فى هذا الرقم هو جم Gomme . وربما كان عددهم أكبر من هذا كثيرا : فسويداس Suidas يقدر عدد العبيد الذكور وحدهم بمائة وخمسين ألفا (٣٤). معتمدا فى تقديره هذا على خطبة معزوة إلى هيپريدس ألقيت فى عام ٣٣٨ ، وإن لم تكن نسبتها إليه موثوقا بصحتها . ويقول أثنيوس ، وهو من لا يعتمد كثيرا على أقوالهم ، إن تعداد سكان أتكا الذى أجراه دمتريوس فاليريوس حوالى عام ٣١٧ يقدر المواطنين بواحد وعشرين ألفا ، والغرباء بعشرة آلاف ، والمحررين والأرقاء بأربعمائة ألف . ويقدر تيميوس حوالى عام ٣٠٠ عبيد كورنثة بأربعمائة وستين ألفا ، ويقدر أرسطو حوالى عام ٣٤٠ عبيد إيجينا بأربعمائة وسبعين ألفا(٣٥) . ولعل السبب فى ضخامة هذه الأعداد أنها تشمل العبيد الذين كانوا يعرضون للبيع عرضاً مؤقتا فى أسواق الرقيق القائمة فى كورنثة ، وإيجينا وأثينة .

العقل ؛ لكنه كان يغضبه أن يُسترق يونانى . وكان التجار اليونان يشترون العبيد كما يشترون أية سلعة من السلع ، ويعرضونهم للبيع ، فى طشيوز ، وديلوس ، وكورنثه ، وإيجينا ، وأثينة ، وفى كل مكان يجدون فيه من يشتريهم . وكان النخاسون فى أثينة من أغنى سكانها الغرباء ؛ ولم يكن من غير المألوف فى ديلوس أن يباع ألف من العبيد فى اليوم الواحد ؛ وعرض سيمون بعد معركة يوريملون عشرين ألفاً من الأسرى فى سوق الرقيق[٣٦] . وكان فى أثينة سوق يقف فيه العبيد متأهبين لأن يفحص عنهم وهم مجردون من الثياب ، وأن يساوم على شرائهم فى أى وقت من الأوقات . وكان ثمنهم يختلف من نصف مينا إلى عشر مينات (من ٥٠ ريالا أمريكيا إلى ألف ريال) . وكانوا يشترون إما لاستخدامهم فى العمل مباشرة ، أو لاستثمارهم ؛ فقد كان أهل أثينة الرجال منهم والنساء يجدون من الأعمال المربحة أن يبتاعوا العبيد ثم يؤجروهم للعمل فى البيوت أو المصانع ، أو المناجم . وكانت أرباحهم من هذا تصل إلى ٣٣ فى المائة[٣٧] . وكان أفقر المواطنين يمتلك عبداً أو عبدين ؛ ويبرهن إسكنيز Aeschines على فقره بالشكوى من أن أسرته لا تمتلك إلا سبعة عبيد ؛ وكان عددهم فى بيوت الأغنياء يصل أحياناً إلى خمسين[٣٨] ، وكانت الحكومة الأثينية تستخدم عدداً منهم فى الأعمال الكتابية وفى خدمة الموظفين ، وفى المناصب الصغرى ، وكان منهم بعض رجال الشرطة . وكان كثيرون من هؤلاء يحصلون من الدولة على الملابس ، وعلى « مكافأة » يومية مقدارها نصف درخمة ، وكان يؤذن أن يسكنوا حيث يشاءون .

أما فى الريف فكان العبيد قليلى العدد ، وكانت كثرة الرقيق من النساء الخادمات فى البيوت . ولم يكن الأهلون فى شمالى بلاد اليونان وفى معظم البلوبونيز فى حاجة إلى العبيد لاستغنائهم عنهم برقيق الأرض . وكان العبيد فى كورنثة ، ومجارا ، وأثينة ، يؤدون معظم الأعمال اليدوية الشاقة ، كما كانت الجوارى يقمن بمعظم الأعمال المنزلية المجهدة . ولكن العبيد كانوا فوق ذلك يقومون

بجزء كبير من الأعمال الكتابية وبمعظم الأعمال التنفيذية فى الصناعة ، والتجارة ، والشئون المالية . أما الأعمال التى تحتاج إلى الخدمة فكان يقوم بها الأحرار والمحررون ، والغرباء ، ولم يكن هناك عبيد علماء كما ترى فيما بعد فى العصر الهلنستى وفى رومة ، وقلما كان يسمح للعبد بأن يكون له أبناء لأن شراء العبد كان أرخص من تربيته . وكان العبد إذا أساء الأدب ضرب بالسوط ، وإذا طلب للشهادة عذب ، وإذا ضربه حر لم يكن له أن يدافع عن نفسه ، لكنه إذا تعرض للقسوة الشديدة كان له أن يفر إلى أحد الهياكل ، ثم يلزم سيده ببيعه ، ولم يكن يحق لسيده بأية حال أن يقتله ، وكان يلقى من الضمانات ، ما دام يعمل ، ما لا يلقاه كثيرون ممن لا يسمون عبيداً فى بعض الحضارات الأخرى . فكان إذا مرض ، أو تقدمت به السن ، أو لم يجد عملا يقوم به ، لا يلقى به سيده إلى الإعانات العامة ، بل كان يستمر فى رعايته . وإذا كان وفياً عومل معاملة الخادم المخلص الأمين التى تكاد تضارع معاملة أى فرد من أفراد الأسرة ، وكثيراً ما كان يسمح له بأن يقوم بعمل خارجى على شريطة أن يؤدى لسيده بعض ما يكسب من هذا العمل . وكان يعفى من الضرائب ومن الخدمة العسكرية ؛ ولم يكن شىء فى ثيابه يميزه من الحر فى أثينة خلال القرن الخامس قبل الميلاد . وهاهو ذا « الألجركى القديم » يشكو فى نشرة له عن نظام الأثينيين من أن العبد لا يفسح الطريق فى الشارع للمواطنين ، ومن أنه يتكلم بحرية ، ويتصرف فى كل صغيرة وكبيرة كأنه كفء للمواطن[٣٩] . واشتهرت أثينة بحسن معاملة عبيدها ، وكان من المعروف أن العبيد فى أثينة الدمقراطية أحسن حالا من الأحرار الفقراء فى الدويلات الألجركية[٤٠] ، وكانت ثورات العبيد نادرة فى أتكا وإن كانت مما يخشى وقوعه القائمون بالأمر فيها[٤١] .

ومع هذا فإن ضمائر الأثينيين لم تكن ترتاح إلى وجود الرق فى بلدهم ، وإن الفلاسفة الذين يدافعون عن هذا النظام ليظهرون فى وضوح لا يكاد

يقل عن وضوح من يندون به . أن ما طرأ على الأمة من تطور أخلاق قد جعلها أرق من نعمها الاجتماعية . فهاهو ذا أفلاطون يندد باستعباد اليونان لليونان ، ولكنه فيا عدا هذا يقر الاسترقاق بحجة أن لبعض الناس عقولا غير ممتازة[٤٢] . وينظر أرسطو إلى العبد على أنه آلة بشرية ، ويظن أن الاسترقاق سيبقى فى صورة ما حتى يحل اليوم الذى تؤدى فيه الآلات التى تدور بنفسها جميع الأعمال الحقيرة[٤٣] . وليس لدى اليونانى العادى فكرة ما عن الطريقة التى يمكن بها أن تسير أعمال المجتمع المثقف من غير الرق ، وإن كان هذا اليونانى رحيما بعبيده ؛ فهو يشعر بأنه إذا أريد إلغاء الرق ، وجب إلغاء أثينة من الوجود . أما غيره فأكثر تطرفاً فى آرائهم ، فالفلاسفة الكلبيون يحكمون على الرق أسوأ حكم ، ومثلهم فى هذا خلفاؤهم الرواقيون وإن كانوا أقل عنفاً فى حكمهم عليه . وكثيراً ما يثير يوربديز عطف مستمعيه بما يصوره لهم من حال أسرى الحرب . ويطوف السيد ماس السوفسطائى بلاد اليونان يبشر فيها بعقائد روسو فى ألفاظ تكاد تكون ألفاظ روسو بعينها دون أن يتعرض له أحد بسوء : « لقد بعث الله الناس فى العالم أحراراً ، ولم تجعل الطبيعة أحد الناس عبداً[٤٤] » . لكن الاسترقاق ظل قائماً رغم هذا كله ؛

الفصل الخامس

حرب الطبقات

كان استغلال الإنسان للإنسان فى أثينة وطيبة أقل قسوة منه فى اسبارطة وروما ، ولكنه كان على أية حال استغلالا يؤدى الغرض المقصود منه . فلم يكن بين الأحرار فى أثينة طوائف ممتازة وأخرى غير ممتازة ، وكان فى مقدور الرجل أن يرقى بجهوده وحدها إلى أية مرتبة فى الحياة ، ولم يكن فيها تمييز طائفى شديد بين العامل وصاحب العمل ، اللهم إلا فى المناجم ؛ أما فى غيرها فكان صاحب العمل يشتغل إلى جوار عماله ، وكان التعارف الشخصى بين الاثنين يفل من حدة سلاح الاستغلال ، وكان أجر الصناع جميعاً ، إلا القليل النادر منهم ، أيا كانت طبقتهم ، هو درخمة للرجل فى كل يوم من أيام العمل[٤٥] ، أما العمال غير الحاذقين فقد تنخفض أجور الواحد منهم إلى ثلاث أبولات فى اليوم (نصف ريال أمريكى[٤٦]) . ولما نما نظام المصانع أخذ الأجر بالقطعة يحل محل المياومة وبدأت الأجور تختلف اختلافاً كبيراً ، وكان فى وسع المقاول أن يستأجر العبيد من سادتهم بأجر يتراوح بين أبولة واحدة وأربع أبولات فى اليوم[٤٧] . وفى وسعنا أن نقدر القوة الشرائية لهذه الأجور إذا وازنا الأثمان فى بلاد اليونان بأمثالها فى بلادنا[*] ؛ لقد كان البيت والضيعة فى عام ٤١٤ يباعان معاً بألف ومائتى درخمة ، وكان المنمدوس Mendimmus أى البشل والنصف من الشعير يباع بدرخمة واحدة فى القرن السادس ، وبخمس درخمات فى أيام الإسكندر ، وكان الخروف يباع بدرخمـــة فى أيام صولون ، وبعشر درخمات أو عشرين فى القرن

(*) يريد فى أمريكا . (المترجم)

الخامس[٤٨] . وكانت النقود المتداولة فى أثينة كغيرها من المدن تزيد أسرع مما تزيد البضائع ، ولهذا كانت الأثمان ترتفع ؛ فكانت أثمان السلع فى آخر القرن الرابع خمسة أمثال ما كانت فى بداية القرن السادس ؛ وقد تضاعفت هذه الأثمان ضعفين من عام ٤٨٠ إلى ٤٠٤ ثم تضاعفت مرة أخرى من ٤٠٤ إلى ٣٣٠[٤٩] .

وكان فى وسع الرجل الفرد أن يعيش عيشة راضية بمائة وعشرين درخمة (١٢٠ ريال أمريكى) فى الشهر[٥٠] ؛ ومن هذا نستطيع أن نحكم على حال العامل الذى كان يكسب ثلاثين درخمة فى الشهر ويعول أسرة . ولسنا ننكر أن الدولة كانت تبادر إلى معونته فى الأزمات الشديدة فتمده بالحبوب بثمن احمى ؛ ولكنه كان يشاهد أن ربة الحرية ليست صديقة لربة المساواة ، وأن الشرائع الحرة فى أثينة كانت تمكن القوى من أن يزداد قوة ، والغنى من أن يزداد غنى ، أما الفقير فكان يبقى فى ظلها[*] فقيراً[٥١] .

ومن الحقائق المعروفة أن الفردية تحفز القادرين إلى العمل ، وتنزل بالسذج ، وأنها تنشئ الثروات الضخمة ، وتركزها تركيزاً وخيم العاقبة ؛ ولذلك كان المهرة الحاذقون فى أثينة ، كما كانوا فى غيرها من الدول ، يحصلون من الثروة كل ما يستطيعون تحصيله ، ثم يحصل أوساط الناس ما يتبقى من هؤلاء . وكان مالك الأرض يفيد من ارتفاع ثمن أرضه المطرد ؛ وكان التاجر لا يدخر جهداً ، رغم ما فرض عليه من القيود التى لا تحصى لاحتكار الأصناف أو ابتياع كل ما هو معروض منها فى الأسواق ثم التحكم فى أثمانها على هواه . وكان المضارب ينال حصة الأسد من أرباح الصناعة

(*) ولا حاجة إلى القول بأن الثروات العظيمة عند اليونان الأقدمين تعد متواضعة إذا دورت بمعايير هذه الأيام ، . فقد قيل إن كلياس أغنى أغنياء الأثينيين كان يمتلك مائتى وزنة (١٢٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى) وإن نيشياس كان يملك مائة وزنة [٥٢] .

والتجارة بفرض سعر مرتفع لفائدة القروض التى يقدمها لأصحاب الصناعات والتجار . وقام زعماء الجماهير المحترفون يبينون للفقراء ما فى توزيع الثروة بين الناس من غبن ، ويخفون عنهم عدم المساواة فى كفاياتهم من الناحية الاقتصادية ، وأخذ الفقير بعد أن أبصر بعينيه ثراء المثرين يحس بفقره ويطيل التفكير فى ميزاته التى لا يجزى عليها الجزاء الأوفى ، ويحلم بقيام الدول المثالية . ومن ثم كانت الحرب بين طبقة وطبقة ، وهى الحرب التى استعرت نارها فى جميع الدول اليونانية ، والتى كانت أشد هولا من الحرب بين اليونان والفرس ، أو بين أثينة وإسپارطة .

وبدأت هذه الحرب فى أتكا بالنزاع بين الأغنياء المحدثين والأشراف أصحاب الأراضى الزراعية : ذلك أن الأسر الغنية كانت لا تزال تحب الأرض ، وتحب أن تقضى معظم حياتها فى ضياعها ، وكان تقسيم الأرض بين الأبناء وأبناء الأبناء خلال الأجيال الطويلة قد قلل مساحة ما يملكه كل واحد منها[٥١] . (فلم يكن ألسبيديز الثرى مثلا يملك أكثر من سبعين فداناً) . وكان مالك الأرض فى معظم الأحوال يعمل بنفسه فى أرضه أو يشرف على إدارة أملاكه ، وكان هذا الشريف فخوراً بنفسه وأصله . وإن لم يكن غنياً بماله ، فكان يضيف اسم أبيه إلى اسمه ليكون ذلك من ألقاب الشرف له ، ويبتعد قدر استطاعته عن طبقة التجار الوسطى التى كانت تستحوذ شيئاً فشيئاً على ثروة أثينة التجارية الآخذة فى النماء . غير أن زوجته كانت تلح عليه أن يكون له بيت فى المدينة لتستمتع بما فى العاصمة من الحياة المتنوعة وبما تتيحه من فرص ، وكانت بناته يرغبن فى أن يعشن فى أثينة ، ليتصيدن لهن أزواجاً أثرياء ، وكان أبناؤه يرجون أن يجدوا فيها الخليلات ويقيموا المآدب المرحة كما يفعل الأغنياء المحدثون . وإذ لم يكن فى مقدور الأشراف ملاك الأراضى أن ينافسوا التجار والصناع فى ترفهم فقد رضوا بهم أو بأبنائهم أزواجاً لأولادهم وبناتهم ، وكان هؤلاء التجار والصناع راغبين فى أن يتسنموا ذرى

المجد مستعدين للبذل . وكانت نتيجة هذا اتحاد الأغنياء بأرضهم مع الأغنياء عالمهم وتكوين طبقة عليا أرستقراطية ، يحسدها الفقراء ويحقدون عليها ، ويغضبها الإفراط فى الدمقراطية وتخشى على نفسها من الثورة .

وكان صلف الأثرياء الجدد هو الذى أدى إلى المرحلة الثانية من مراحل حرب الطبقات — أى نزاع المواطنين الفقراء مع الأغنياء . ذلك أن كثيرين من أفراد الطبقات الوسطى الرأسمالية أخذوا يباهون مثل ألسبيديز بثرائهم وإن لم يكن من بينهم إلا القليلون الذين يستطيعون أن يسخروا « جمهرة الكادحين » بجرأتهم الروائية ورشاقة مظهرهم ورقة حديثهم . وقام الشبان الذين أحسوا بما وهبوا من كفايات يحول فقرهم دون إبرازها والإفادة منها ، فنقلوا حاجتهم الشخصية إلى الفرص والمكانة السامية من دائرتهم الخاصة إلى نداء عام بالثورة ، وتكفل المتعلمون الذين يرحبون بالآراء الجديدة ويستهويهم هتاف المظلومين بصياغة أغراض ثورتهم إليهم[٥٤] . ولم يكونوا ينادون باشتراكية التجارة والصناعة ، بل كانوا يطلبون إلغاء الديون وإعادة توزيع الأراضى على المواطنين ، ونقول على المواطنين لأن الحركة المتطرفة التى قامت فى أثينة فى القرن الخامس لم يشترك فيها إلا من لهم حق الانتخاب من الفقراء ، ولم تكن تحلم فى هذه المرحلة بتحرير العبيد ، أو إعطاء الغرباء نصيباً من الأرض التى تطالب بإعادة توزيعها . وكان الزعماء يتحدثون عن الماضى الذهبى حين كان الناس جميعاً متساوين فيما يملكون ، ولكنهم لم يكونوا يريدون أن تؤخذ أقوالهم بنصها حين يتحدثون عن عودة هذا الفردوس المفقود ، بل كانت الصورة المرسومة فى أذهانهم صورة مجتمع اشتراكى أرستقراطى — لا ينطوى على تأميم الأرض بل ينطوى على توزيعها بالتساوى بين المواطنين . وكانوا يشيرون إلى أن المساواة فى الحقوق السياسية ستكون بلا ريب مساواة غير حقيقية مع وجود تلك الفوارق الاقتصادية.

المطَّردة الزيادة ، ولكنهم كانوا مصممين على استخدام ما للمواطنين الفقراء من سلطان سياسي لحمل الجمعية على أن تضع فى جيوب المحتاجين — بالغرامات ، والتكاليف ، والمصادرة ، والأشغال العامة[٥٥] — بعض الثروة المركزة لدى الأغنياء[٥٦] . واتخذوا اللون الأحمر رمزاً لثورتهم فضربوا بذلك المثل للثائرين فى مستقبل الأيام[٥٧] ؛

وواجه الأغنياء هذا التهديد فألفوا من بينهم هيئات سرية تعهدوا فيها أن يعملوا مجتمعين لمقاومة ما يسميه أفلاطون — رغم نزعته الشيوعية — « الوحش الضاري » الكامن فى نفوس الغوغاء المستنفرين الجياع[٥٨] . وانتظم العمال الأحرار أيضاً — وكانوا قد انتظموا منذ أيام صولون إن لم يكن قبله — فى نواد (إرانوى ، ثياسوى eranoi, thiasoi) للبنائين ، وقاطعى الرخام ، وعمال الخشب ، والعاملين فى العاج أو الفخار ، والسباكين ، والممثلين ومن إليهم من الجماعات . وكان سقراط نفسه عضوا فى نادى المثالين[٥٩](*) . بيد أن هذه الجماعات لم تكن نقابات عمال بقدر ما كانت جماعات لتبادل المنفعة ؛ فكان أعضاؤها يجتمعون فى أماكن لهم يسمونها مجامع مقدسة ، يقيمون فيها المآدب والألعاب ، ويعبدون فيهم رباً يحميهم ، ويقدمون المال للمرضى من الأعضاء ، ويتعاقدون مجتمعين على القيام بمشروع خاص ، ولكنهم لم يشتركوا اشتراكاً ملحوظاً فى حرب الطبقات الأثينية . ودارت المعركة فى ميدانى الأدب والسياسة ؛ فشرع مصدرو النشرات أمثال « الأجركي القديم » يصدرون النشرات يندِّدون فيها بالدمقراطية أو يدافعون عنها . وإذ كانت مسرحيات الشعراء المدليين تطالب أ ل الأغنياء

(*) النظم المثالون والمهندسون المهاريون فى بلاد اليونان و ... لم هى طائفة البنائين كانت لها شعائرها الدينية الخلقية الخاصة بها ، وكانوا هم أسلاف جماعة البنائين الأحرار (الماسون) التى قامت فى أوروبا فيما بعد .

لإخراجها ، فقد انضم هؤلاء إلى جانب ذوى المال ، . وشرعوا يصبون قوارص سخرياتهم على الزعماء المتطرفين وعلى دولهم المثالية . فترى أرسطوفان يقدم لنا فى مسرحية الإكلزيازوسى Ecclesiazusae (٣٩٢) السيدة بركساغورا Praxagora الشيوعية تلقى خطبه تقول فيها : « أريد أن يكون لكل الناس نصيب فى كل شىء ، وأن يكون كل الملك مشاعاً ؛ فلن يكون بعد اليوم أغنياء أو فقراء ؛ ولن نرى بعد الآن رجلاً واحداً يجنى محصول مساحات واسعة من الأرض وإلى جانبه رجل آخر لا يجد منها ما يتسع لدفنه . . . . وسأعمل على ألا يكون فى الحياة إلا ظروف واحدة يشترك فيها جميع الناس على السواء . . . . وسأبدأ بأن أجعل الأرض والمال وكل ما هو ملك خاص مشاعاً بين الناس أجمعين . . . . وستكون النساء ملكاً مشتركاً للرجال » . ويسأل بليبروس Blepyrus : « ولكن العمل من يقوم به » فتجيبه بقولها : « العبيد » . وفى ملهاة أخرى هى ملهاة بلوتوس Plutus (٤٠٨) يجيز أرسطوفان للملكية المهددة بالانقراض أن تدافع عن نفسها بقولها إنها هى الحافز الذى لا بد منه للكدح البشرى والمغامرة . « أنا السبب الوحيد فى كل ما بكم من نعمة ، وإن سلامتكم لتعتمد على دون غيرى . . . . ومن ذا الذى يجب أن يطرق الحديد ويبنى السفن ، ويخيط الثياب ، ويخرط الخشب ، ويقطع الجلد ، ويحرق الآجر ، ويبيض التيل ، ويدبغ الجلود ، ويشق الأرض بالمحراث ، ويجنى ثمار دمتر إذا كان فى وسعه أن يعيش بغير عمل محرراً من كل هذه المشاق . . . ؟ فإذا ما طبق نظامك (الشيوعية) . . . فلن تستطيعى أن تنامى فى سرير ، لأن الأسرة فى هذه الحال لن يصنع منها شىء بعد ، ولن تنسج بسط ، وهل فى الناس من يرضى أن ينسجها إذا كانت لديه الذهب ؟[٦٠] » .

وكانت إصلاحات إفيلتيز وبركليز باكورة ثمار الثورة الديمقراطية . وكان بركليز

رجلا متزناً فى أحكامه معتدلا فى أغراضه ؛ فهو لم يكن يبغى القضاء على الأغنياء ، بل كان يريد أن يحتفظ بهم وبإقدامهم على الأعمال النافعة بتخفيف عبء الحياة عن الطبقات الفقيرة ؛ فلما مات فى عام ٤٢٩ جرف تيار التطرف الدمقراطية الأثينية إلى حد لم يسع الحزب الألجركى معه إلا أن يأتمر مرة أخرى مع اسپارطة ، وأن يدفع الأغنياء إلى الثورة مرة فى عام ٤١١ ومرة أخرى فى عام ٤٠٤ . بيد أن الثروة فى أثينة كانت عظيمة ، وكان خوف المواطنين من ثورة الأرقاء سبباً فى وقف تيار ثورتهم إلى حين ؛ ولهذا كانت حرب الطبقات فى أثينة أهدأ منها فى غيرها من الدول اليونانية ، حيث لم يكن للطبقات الوسطى من القوة ما يمكنها من أن تتوسط بين الأغنياء والفقراء ، وسرعان ما وجدت الطبقات فى أثينة أساساً صالحاً تقيم عليه أساس التراضى فيما بينهما . ففى ساموس استولى المتطرفون على زمام الحكم فى عام ٤١٢ ، وأعدموا مائتين من الأشراف ، ونفوا أربعمائة آخرين ، وقسموا الأرض والبيوت فيما بينهم(٦٦) ، وأقاموا مجتمعاً آخر شبيهاً بالمجتمع الذى قضوا عليه . وفى ليونتينى طرد العامة فى عام ٤٢٢ الأقلية المثرية الحاكمة ، ولكنهم سرعان ما لاذوا هم أنفسهم بالفرار . وفى كورسيرا اغتالت الأقلية المثرية الحاكمة ستين من زعماء حزب الشعب ، واستولى الدمقراطيون على أزمة الحكم ، وزجوا بأربعمائة من الأشراف فى السجون ، وساقوا خمسين منهم إلى المحاكمة أمام هيئة نستطيع أن نسميها « لجنة الأمن العام » ، وأعدموا الخمسين كلهم فى التو والساعة ؛ ولما رأى المسجونون الأحياء ما حل بزملائهم قتل بعضهم بعضاً ، وقتل بعضهم أنفسهم ، وحوصر الباقون منهم فى هيكل المدينة الذى لجأوا إليه حتى هلكوا من الجوع . ويصف توكيديدس حرب الطبقات فى بلاد اليونان وصفاً ينطبق على حروب الطبقات فى جميع الأوقات يقول فيه :

« ظل أهل كرسيرا سبعة أيام طوال يذبحون من مواطنيهم من يرون أنهم

أعداء لهم ، ومع أن الجريمة المعزوة إليهم كانت أنهم حاولوا القضاء على الدمقراطية ، فإن منهم من قتل بسبب الكراهية الشخصية ، ومنهم من قتلهم المدينون لهم ليتخلصوا بقتلهم من ديونهم . وهكذا انتشر الموت فى البلد بجميع أشكاله ، وحدث فى هذا الوقت ما يحدث فى أمثاله فلم يقف العنف عند حد . كان الآباء يقتلون أبناءهم ، وكان اللاجئون بالهيكل يسحبون على وجوههم من فوق مذبح القربان أو يقتلون . . . وهكذا جرت الثورة فى مجراها متنقلة من مدينة إلى مدينة ، وسارت الأماكن التى وصلت إليها فى آخر الشوط فيما اخترعته من وسائل العنف وفيما ارتكبته من الفظائع فى انتقامها من خصومها إلى أبعد مما سارت إليه الأماكن التى تقدمتها بعد أن سمعت بما كان يجرى فى هذه الأماكن السابقة . . ، وضربت كرسيرا لسائر المدن المثل الأول فى تلك الجرائم ، . . . وفى حروب الانتقام التى لجأ إليها المحكومون . . . الذين لم ينعموا فى حياتهم بالعدالة فى المعاملة . . . بل لم يلاقوا من حكامهم شيئاً سوى العنف ، وذلك حين جاء دورهم وتولوا هم شئون الحكم . كذلك ضربت كرسيرا لسائر المدن المثل الأول فى الحقد الظالم الذى تنطوى عليه صدور الذين يريدون أن يتخلصوا مما ألفوه من فقر وتمتلئ صدورهم طمعاً فيما فى أيدى جيرانهم من نعم ، وضربت المثل أكثر من هذا وذاك للإفراط فى الوحشية والقسوة التى اندفع إليها بعواطفهم الثائرة رجال لم يبدأوا الكفاح بروح طائفية بل بروح حزبية ... وفى غمار هذه الفوضى التى تردت فيها الحياة فى المدن كشفت الطبيعة البشرية ، التى تثور دائماً على القانون والتى أصبحت الآن سيدة القانون ، عن عدم قدرتها على ضبط عواطفها ، وعن أنها لا تقيم وزناً للعدالة ، وعن عدائها لكل سلطة عليا ... وأصبحت الجرأة والوقاحة فى نظر الناس شجاعة تُرتضَى من حليف وفى ، كما أصبح التردد الحكيم جبناً مموهاً ، وأضحى الاعتدال

فى نظر الناس ستاراً يخفى وراءه خور العزيمة ، والقدرة على رؤية جميع نواحى مسألة من المسائل عجزاً عن العمل فى واحدة منها . . .

وكان مصدر هذه الشرور كلها هو الجرى وراء السلطان المنبعث من الشره والطمع . . . واندفع الزعماء فى المدن يطلبون لأنفسهم الجزء الأوفى من المنافع العامة التى يتظاهرون بالحرص عليها مستعينين على ذلك بأجمل العبارات التى يلقونها فى الآذان ، يدعون فيها إلى المساواة السياسية بين الناس تارة ، وبضرورة قيام أرستقراطية معتدلة تارة أخرى : ولم يكن هؤلاء يترددون فى استخدام أية وسيلة توصلهم إلى السلطان ، فكانوا لذلك يرتكبون أشنع الجرائم . . . ولم تكن شيعة من الطائفتين المقتتلتين توقر الدين ، وكان استخدام العبارات المنمقة للوصول بها إلى الغايات الإجرامية هو الوسيلة المحببة لسائر الناس . . . وكانت البساطة القديمة التى كان للشرف فيها أكبر نصيب موضع السخرية ، ومن أجل هذا لم يعد لها وجود ، وانقسم المجتمع إلى معسكرين لا يثق فيهما واحد من الناس بزميله . . . وقضى بين هذين المعسكرين على الشيعة المعتدلة من المواطنين لأنها لم تشترك فى الكفاح أو لأن الحسد كان يمنعها أن تفر من الميدان . . . وقصارى القول أن العالم الهلنى كله قد زلزلت قواعده وتصدعت أركانه(٦٤) .

ولم تقض هذه الاضطرابات على أثينة لأن كل أثينى كان فى قرارة نفسه فردى النزعة يحب الملكية الخاصة ، ولأن الحكومة الأثينية قد وجدت فى تنظيم الثروة والأعمال التجارية والصناعية تنظيما معتدلا طريقة عملية وسطاً بين النزعتين : الاشتراكية والفردية . ولم تخش الحكومة الإقدام على هذا التنظيم ووضع القواعد والقيود ، فوضعت حداً أعلى لبائنات العرائس ، ونفقات الجنائز ، وملابس النساء(٦٥) . وفرضت الضرائب على التجارة وأخضعتها لإشرافها ، ووضعت أنظمة عادلة للمقاييس والموازين . وألزمت الناس مراعاة واجب الأمانة والشرف على قدر ما تستطيع الحكومات أن تحد من دناءة

الطبيعة البشرية[٦٦] . وحددت الحكومة مقادير الصادرات ، وسنت قوانين صارمة للحد من جشع التجار والصناع ومعاقبتهم على ما يرتكبون ، وفرضت رقابة شديدة على تجارة الحبوب ، وأصدرت قوانين صارمة لمنع تخزين السلع والتحكم فى الأسواق ، فحرمت شراء أكثر من خمسة وعشرين بُشِلاً من القمح دفعة واحدة وأجازت الحكم بالإعدام على من يرتكب هـذه الجريمة . ومنعت إقراض المال على البضائع الخارجة من البلاد إلا إذا حملت السفن فى عودتها حبوباً إلى ثغر بيرية ، وأوجبت على السفن المملوكة لأهل أثينة والمشحونة بالحبوب أن تأتى بحمولتها إلى بيرية ؛ ومنعت تصدير أكثر من ثلث الحبوب التى تصل إلى هذا الثغر[٦٧] . وحرصت أثينة أشد الحرص على ألا ترتفع أثمان الخبز فوق طاقة المستهلكين ، وألا يثرى الناس إثراء فاحشاً من جراء جوع الشعب ، وألا يموت أحد من الأثينيين جوعاً ، وكانت وسيلتها إلى هذا الاحتفاظ برصيد كاف من الحبوب فى مخازن تملكها الدولة ، وإغراق السوق بهذه الحبوب المخزونة حين ترتفع الأثمان ارتفاعاً سريعاً[٦٨] . ووضعت الدولة قواعد تنظم بها الثروة عن طريق الضرائب والخدمات العامة ، وأقنعت الأغنياء أو ألزمتهم أن يتبرعوا بالمال إلى الأسطول وإلى دور التمثيل ، وأن يقدموا للدولة المال الذى تساعد به الفقراء من الوجهة النظرية على مشاهدة المسرحيات والألعاب . وفيما عدا هذا كانت أثينة تحمى حرية التجارة ، والملكية الفردية ، وفُرَص الكسب ، لاعتقادها أنها هى الأدوات الضرورية للحرية الإنسانية ، وأنها أقوى حافز على النشاط الصناعى والتجارى ، وأكبر عامل على ازدياد الرخاء .

وبفضل هذا النظام ذى النزعة الاقتصادية الفردية ، تخفف من حدتها

النظم الاشتراكية ، ازدادت الثروة في أثينة وانتشرت فيها انتشاراً يحول بينها وبين الثورة المتطرفة ، وبذلك ظلت الملكية الفردية آمنة في أثينة إلى آخر أيامها . وتضاعف فيها بين عامي ٤٨٠ و ٤٣١ عدد المواطنين ذوي الدخل الذي يمكنهم من العيش الرضي[٦٩] ؛ وزادت إيرادات الدولة ، وارتفعت نفقاتها ، ولكن خزانتها ظلت عامرة أكثر مما كانت في أي عهد سابق من تاريخ اليونان ، ووضعت الدعامة الاقتصادية لحرية أثينة ، ونشاطها الصناعي والتجاري ، والفني ، والفكري ، واستطاعت أن تتحمل كل ما ساد العصر الذهبي من إسراف دون أن تنوء به إذا استثنينا من هذا التعميم الحرب التي خربت بلاد اليونان بقضها وقضيضها .

الباب الثالث عشر

أخلاق الأثينيين وآدابهم

الفصل الأول

الطفـــولة

كان ينتظر من كل مواطن أثيني أن يكون له أبناء ، وقد اجتمعت تقوى الدين ، والملكية ، والدولة ، كلها لمقاومة العقم . فإذا لم يكن للأسرة أبناء من نسلها كان التبني هو العادة المتبعة ، وكانت تؤدى مبالغ طائلة للحصول على الأبناء الأيتام ، لكن القانون والرأى العام كانا فى الوقت نفسه يبيحان قتل الأطفال ويريان فيه وسيلة مشروعة للحد من زيادة النسل ومنع تقسيم الأرض الزراعية تقسيما يؤدى إلى الفاقة ، فكان فى وسع كل أب أن يعرض طفله للموت بحجة أنه يشك فى صحة انتسابه إليـــه أو أنه ضعيف أو مشوه . وقلما كان يسمح لأبناء الأرقاء أن يعيشوا ، وكانت البنات أكثر تعريضاً للموت من الأولاد ؛ لأن البنت يجب أن تعدلها بائنة ، ولأنها إذا تزوجت انتقلت من بيت اللذين ربوها ومن خدمتهم إلى خدمة من لم تكن لهم فى تربيتها يد . وكانت الوسيلة المتبعة لتعريض الطفل للموت أن يترك فى إناء من الفخار بجوار هيكل أو مكان آخر حيث يستطاع إنقاذه بعد وقت قليل من تركه إذا رغب أحد فى تبنيه . وكان حق الآباء فى تعريض أبنائهم للموت سبباً فى غلظة قلوب اليونان ، وكان هو والانتخاب الطبيعى الصارم عن طريق المنافسة ومعاناة صعاب الحياة ، كان هذا وذاك من الوسائل التى جعلت اليونان شعباً سليما قوياً ؛ ويكاد فلاسفة

اليونان يجمعون على تحبيذ تحديد النسل : فأفلاطون ينادى بتعريض جميع الأطفال الضعفاء ومن يولدون من أبوين منحطين أو طاعنين فى السن[1] إلى الجو القارسى ، وأرسطاطاليس يدافع عن الإجهاض بحجة أنه أفضل من قتل الأطفال بعد أن يولدوا[2]. ولم يكن قانون أبقراط الطبى يسمح للطبيب أن يجهض الحامل ، ولكن القابلة اليونانية كانت تحلق هذه العملية ، ولا نجد قانوناً يحول بينها وبين(*) ممارستها[3] .

وكان الطفل يقبل فى دائرة الأسرة رسمياً فى اليوم العاشر بعد مولده أو قبله ، ويقام لذلك احتفال دينى خاص فى البيت حول موقد النار ، يتلقى فيه الهدايا ويسمى باسمه . ولم يكن لليونانى عادة إلا اسم واحد مثل سقراط أو أرخميدس ؛ ولكن كان من عادتهم أن يسموا أكبر الأبناء باسم جده لأبيه ، ولهذا كثر تكرار الأسماء ، واختلط التاريخ اليونانى لكثرة ما ورد فيه من أسماء زنوفون ، وإسكنيز ، وتوكيديدز ، وديوجين ، وزينون ، فكانوا يحاولون التغلب على ما فيها من غموض بإضافة اسم الأب أو اسم مسقط الرأس إلى الشخص فيقولون « كيمون ملتيادو » أى كيمون بن ملتيادس ، أو ديودورس صقلوس Diodorus Siculus أى ديودور الصقلى ، أو يحلون المشكلة بإضافة أحد ألقاب السخرية المضحكة مثل كَلِميدون Callimedon أى السرطان .

فإذا ما قبل الشخص فى الأسرة بهذه الطريقة لم يكن القانون يجد تعريضه للجو ، بل كان يربى محوطا بكل ما يحيط به الآباء أبناءهم من العناية فى جميع العصور ، فنرى ثمستكليز مثلا يصف ابنه بأنه حاكم أثينة الحقيقى ، لأنه (ثمستكليز) وهو أعظم رجال أثينة نفوذا تحكمه زوجته ، وهذه الزوجة يحكمها ولدهما[6] . وفى وسعنا أن نستدل على هذا الحب الأبوى من كثير من المقطوعات الشعرية ذات المغزى الأدبى فى دواوين الشعراء .

« لقد بكيت حين ماتت ثيونو Theonoe ، ولكن الآمال التى كنت أعلقها

(*) وليس لدينا شواهد على أن اليونان كانوا يلجأون إلى وسائل لمنع الحمل[4].

على طفلنا خففت أحزانى ، ثم أبت الأقدار الحسودة إلا أن تحرمنى من هذا الوالد أيضاً ، فواحسرتا ! لقد سُلبت منى يا ولدى ، وأنت كل ما كان باقياً لى من سلوى.، ألا فاستمعى يا پرسفونى إلى النداء المنبعث من قلب أب حزين ، وضعى الطفل فوق صدر أمه الميتة[٧] .

وكانت الألعاب كثيرة تخفف مآسى المراهقة ، وسوف تبقى هذه الألعاب بعد أن ينسى الناس بلاد اليونان ، فترى على وعاء عطر صنع لكى يوضع فى قبر طفل ، صورة ولد صغير يأخذ عربته الصغيرة معه إلى الدار الآخرة . وكان للأطفال الرضع خشاخش من الطين المحروق فى داخلها عدد من الحصا ؛ وكان للبنات دمى يحتفظن بها فى البيت ، وكان الغلمان ينازلون جنوداً وقواداً من الطين فى مواقع عظيمة؛ وكانت المربيات يؤرجحن الأطفال على الأراجيح؛ وكان الأولاد والبنات يدفعون الأطواق ، ويطيرون الطائرات ، ويديرون الخذروف الخشبى ، ويلعبون لعبة الاستخفاء أو الغميضاء ، أو شد الحبل ، أو يتبارون فى مئات الأنواع من المباريات بالحصا . والبندق ، والنقود والكرات . أما « بلى » العصر الذهبى فكان هو الفول الجاف يدفع بالأصابع أو الحجارة الملساء تطلق مسافات بعيدة أو تقذف فى داخل دائرة لتزحزح حجارة العدو من أماكنها وتستقر فى أقرب وضع مستطاع إلى مركز الدائرة . فإذا اقترب من الأطفال من « سن العقل » — أى السنة السابعة أو الثامنة من عمرهم — لعبوا لعبة النرد ولذلك يرى الكعاب (Astragali) المربعة ، وتعد أعلى رمية لست كعاب أحسن لعبة[٩] . ألا إن ألعاب الصغار قديمة قدم خطايا آبائهم .

الفصل الثانى

التعليم

أنشأت أثينة ساحات للألعاب ومدارس للرياضة البدنية ، وكان لها بعض الإشراف القليل على المدرسين ، ولكن المدينة لم يكن فيها مدارس عامة أو جامعة تديرها الدولة ، بل ظل التعليم فيهـــا فى أيدى الأفراد ونادى أفلاطون بأن تنشئ الدولة مدارس[١٠] ، ولكن يلوح أن أثينة كانت تعتقد أن المنافسة حتى فى التعليم نفسه كفيلة بأن تثمر أحسن الثمرات . وكان المدرسون المحترفون ينشئون مدارسهم الخاصة يرسل إليها أبناء الأحرار فى سن السادسة . ولم يكن لفظ بيدجوجوس Paidagogos يطلق عندهم على المعلم ، بل كان يسمى به العبد الذى يصاحب الغلام كل يوم فى ذهابه إلى المدرسة والعودة منها ، ولم نسمع قط عن وجود مدارس داخلية . وكان التلميذ يبقى فى المدرسة حتى يبلغ الرابعة عشرة أو السادسة عشرة من عمره ، وإلى ما بعد السادسة عشرة إن كان من أبناء الأغنياء[١١] . ولم يكن فى المدارس أدراج بل كان يكتفى فيها بالمقاعد ؛ فكان التلميذ يضع على ركبتيه الملف الذى يقرأ منه ، أو الصحيفة ، أيا كانت مادتها ، التى يكتب عليها ؛ وكانت بعض المدارس تزدان بتماثيل لأبطال اليونان وآلهتهم ، وهى عادة انتشرت فيما بعد انتشاراً واسعاً ؛ وكان عدد قليل منها يمتاز بأثاثه الظريف . وكان المدرس يدرس كل المواد ، ويعنى بالأخلاق كما يعنى بالعقول ويستخدم النعال للتأديب(*)[١٢] ؛

(*) نرى فى إحدى الصور المنقوشة على جدران بمبى ، ولعلها منقولة عن صورة يونانية ، تلميذاً محمولا على كتفى تلميذ آخر ، ويمسكه تلميذ ثالث من عقبيه ، والمدرس ينهال عليه ضربا[١٣].

وكان منهج الدراسة ينقسم ثلاثة أقسام — الكتابة ، والموسيقى ، والألعاب الرياضية ؛ وأضاف المجددون الحريصون على التجديد فى أيام أرسطو إلى هذا المنهج الرسم والتصوير[١٤] . وكانت الكتابة تشمل القراءة والحساب ، وكانوا يستخدمون فيها الحروف لا الأرقام . وكان كل تلميذ يتعلم العزف على القيثارة ، وكان الكثير من مواد الدراســة يصاغ فى عبارات شعرية وموسيقية[١٥] . ولم يكونوا يضيعون شيئاً من الوقت فى تعليم أية لغة أجنبية ، بله اللغات الميتة ، ولكنهم كانوا شديدى العناية بتعلم اللغة الوطنية واستخدامها على أصح وجه . وكانت الألعاب الرياضية تعلم أكثر ما تعلم فى مدارس الألعاب ، ولم يكن أثيني يعد متعلماً إذا لم يتقن المصارعة والسباحة واستعمال القوس والمقلاع .

أما البنات فكن يدرسن فى منازلهن وكان تعليمهن يقتصر فى الغالب على علم « تدبير المنزل » ، ولم يكن للبنات فى غير اسپارطة حظ من الألعاب الرياضية العامة . وكانت أمهاتهن يعلمنهن القراءة والكتابة والحساب ، والغزل والنسيج والتطريز ، والرقص والغناء ، والعزف على بعض الآلات الموسيقية ؛ ومن النساء اليونانيات عدد قليل تعلمن تعليما عاليا ، ولكنهن فى فى الغالب من المؤنسات ، أما النساء المحترمات فلم يكن تعليمهن يتجاوز المرحلة الإبتدائية حتى أغرت أسپازيا Aspasia عدداً قليلا منهن على تعلم فنون البلاغة والفلسفة . وكان الرجال يتعلمون التعليم العالى على يد علماء البلاغة والسوفسطائيين ، يلقنونهم فن الخطابة ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة والتاريخ . وكان هؤلاء المدرسون المستقلون يستأجرون قاعات للمحاضرات بالقرب من مدارس الألعاب الرياضية ، وكان يتألف منهم ومن قاعاتهم هذه فى أثينة قبل أفلاطون جامعة متفرقة . وكان ذوو الثراء وحدهم هم الذين يتعلمون على أيديهم ، لأنهم كانوا يتقاضون أجوراً عالية ، ولكن ذوى الطموح من الشبان غير ذوى اليسار كانوا يعملون ليلا فى المصانع أو الحقول حتى يستطيعوا أن يحضروا فى النهار دروس هؤلاء المعلمين المتنقلين .

فإذا بلغ الأولاد السادسة عشرة من عمرهم ، كان ينتظر منهم أن يحتنوا عناية خاصة بالتربية البدنية التي تعدهم بعض الإعداد إلى الأعمال الحربية ، وكانت ألعابهم العادية نفسها تعدهم من طريق غير مباشر لهذا الغرض عينه ؛ فقد كانوا يدربون على العدو ، والقفز ، والمصارعة ، والصيد ، وسوق المركبات ، وقذف الحراب . وإذا بلغوا الثامنة عشرة من عمرهم بدءوا المرحلة الرابعة من مراحل الحياة الأثينية (الطفولة ، والشباب ، والرجولة ، والكهولة pais ، ephebos ، auer ، Geron) ، وفيها ينخرطون فى صفوف شبان أثينة المجندين المعروفة بمنظمات الشباب epheboi[*] . وكانوا فى هذه المرحلة يدربون مدى عامين على أيدى « مدربين » ، يختارهم لهم زعماء قبائلهم ، على القيام بالواجبات الوطنية والعسكرية . فكانوا يعيشون ويأكلون مجتمعين ، ويلبسون حللا رسمية ذات روعة وبهاء ، ويخضعون بالليل والنهار لرقابة خلقية . وكانوا ينظمون أنفسهم تنظيما دمقراطياً على نمط نظام المدينة ، فيجتمعون فى جمعية وطنية ، ويصدرون قرارات ، ويسنون قوانين يتقيدون بها ، ويكون لهم منهم حكام ، وزعماء ، وقضاة[١٦] . وكانوا فى السنة الأولى يخضعون لنظام صارم من التدريب الرياضى ، ويتلقون محاضرات فى الآداب ، والموسيقى ، والهندسة النظرية ، وعلوم البلاغة[١٧] . وفى التاسعة عشرة من عمرهم يرسلون لحماية الحدود ويعهد إليهم مدى عامين حماية المدينة من الغزو الخارجى والاضطراب الداخلى . وكانوا فى هذه المرحلة يقسمون أمام مجلس الخمسمائة ، وأيديهم ممتدة فوق مذبح الهيكل فى أرجولوس Argaulos ، يميناً مغلظة هى يمين الشباب الأثينى :

« لن أجلل بالعار الأسلحة المقدسة ، ولن أتخلى عن الرجل الذى إلى جانبى

(*) ليس فى وسعنا مع هذا أن نرجع بتاريخ هذه المنظمات إلى ما قبل عام ٣٣٦ ق . م

أيا كان ، وسأقدم المعونة إلى طقوس المدينة ، وإلى الواجبات المقدسة ، بمفردى ومع الكثيرين غيرى . ولن تكون بلادى حين أسلمها إلى من يأتى بعدى أقل مما كانت حين تسلمتها ، بل ستكون أكبر وأحسن مما كانت وقتئذ . وسأطيع من يتولون القضاء حيناً بعد حين ، وأخضع للقوانين المسنونة ، ولكل ما يضعه الأهلون من أنظمة ؛ وإذا ما حاول أحد أن يفسد هذه القوانين ، فلن أسمح له بذلك العمل ، بل أدفعه بمفردى وبمعونة الجميع ؛ وسأكرم دين السلف »[١٨] .

وكان للشباب مكان خاص فى دار التمثيل ، وكان لهم شأن ظاهر فى مواكب المدينة الدينية ؛ ولعل هؤلاء الشبان هم الذين نرى صورهم الجميلة منقوشة على طنف البارثنون يمتطون صهوة الجياد . وكانوا فى أوقات معينة يعرضون ما يتحلون به من صفات فى مباريات عامة ، وبخاصة فى سباق التتابع بالمشاعل من بيريه إلى أثينة . وكانت المدينة على بكرة أبيها تخرج لمشاهدة هذا المنظر الجميل ، فيصطف أهلها على طول الطريق البالغ أربعة أميال ونصف ميل . ويجرى السباق ليلا ، والطريق غير مضاء ، فلا يرى الناس من العدائين إلا أنوار المشاعل التى يحملونها وتقفز من يد إلى يد على طول الطريق . وبعد أن يتم تدريب الشباب فى الحادية والعشرين من عمرهم ، يتحررون من سلطان الآباء ، وينتظمون رسمياً فى سلك مواطنية المدينة الكاملة .

هذه هى التربية التى تنشئ المواطن الأثينى ، أساسها الدروس التى تلقاها فى المنزل وفى الطريق . وهى مزيج صالح جميل من التدريب الجسمى ، والعقلى ، يقوى فى الشاب حاسة الجمال ، ويفرض الرقابة فى سن الشباب ، ويعطيه حريته إذا ما نضج . وقد أخرجت فى أحسن عهودها شباناً لا يفوقهم شبان آخرون فى التاريخ كله . فلما انقضى عصر بركليز كثرت النظريات حتى طغت على الناحية العملية فى هذه التربية ، فاحتدم النقاش بين الفلاسفة حول

أهداف التربية ووسائلها ؛ هل يوجه المدارس أكبر همه إلى التربية العقلية أو الخليقة ، وهل يعنى أكبر العناية بتنمية الكفاية العملية ، أو بتعليم العلوم النظرية البحتة . لكنهم مجمعون على أن مكانة التربية هى أسمى مكانة فى البلاد ، ولما أن سئل أرستبس Aristippus بماذا يمتاز المتعلم عن الجاهل أجاب : « بما يمتاز به الجواد المروض على الجواد الجموح » ، وأجاب أرسطاطاليس عن هذا السؤال نفسه بقوله : « يمتاز به الحى على الميت » ، ويضيف أرستبس إلى قوله السابق : « حسب التعليم فضلا على التلميذ أنه حين يشهد التمثيل لن يكون حجراً فوق حجر »(١٩) .

الفصل الثالث

المظهر الخارجى

كان مواطنو أثينة فى القرن الخامس رجالا متوسطى القامة ، أقوياء البنية ، ملتحين ؛ ولم يكونوا كلهم من الوسامة كما صورهم فدياس فى فرسانه . وكانت النساء كما تراهن على المزهريات رشيقات الجسم ، وتظهرهن صورهن على الألواح الحجرية حسانا ذوات وقار ، وهن فى التماثيل بارعات الجمال . أما نساء أثينة فى حقيقة أمرهن فكن يضارعن فى الجمال أخواتهن من نساء الشرق الأدنى ولا يفقنهن قط ، وقد كانت عزلتهن التى تكاد تشبه عزلة النساء الشرقيات سببا فى نقص نموهن العقلى . واليونان يعجبون بالجمال أكثر مما تعجب به سائر الأمم ، ولكن هذا الجمال لا يتمثل قط فيهن بأكمل معانيه ، وكانت نساؤهم كغيرهن من النساء يرين أنهن لم يبلغن حد الكمال فى هذه الناحية ، ولهذا تراهن يزدن طولهن بنعال عالية من الفلين ، ويصلحن ما فى أجسامهن من العيوب بالحشايا ، ويضغطن ما زاد فيها بالأربطة ، ويرفعن ثداءهن بحاملات من القماش(*)(٢٠)

وشعر اليونان أسود عادة والشعر الأشقر نادر وإذا وجد كان موضع الإعجاب . وكانت كثيرات من النساء يصبغن شعرهن ليكسبنه هذه الشقرة أو ليخفين شيبهن إذا كبرن ، وكان بعض الرجال يحذون حذوهن فى هذا(٢٢) . وكانوا جميعاً رجالا ونساء يدهنون رؤوسهم بالزيت ، يستعينون به على نماء شعرهم ووقايته من تأثير الشمس ، وكانت النساء يخلطن الزيت ببعض العطور

(*) يقص بلوطرخس قصة طريفة يقول فيها إن موجة من الانتحار سرت بين نساء ميليطس ، ولكن هذه الموجة قضى عليها قضاء تاما فجائيا أمر أصدرته الحكومة يقضى بأن تحمل من تنتحر عارية الجسم إلى قبرها مارة بالسوق العامة (٢١) .

ويقلدهن فى ذلك بعض الرجال[٢٣] . وكانوا جميعاً رجالا ونساء فى القرن السادس قبل الميلاد يطيلون شعرهم ويجدلونه غدائر حول الرأس أو خلفها ، فلما كان القرن الخامس أخذت النساء يصففن شعرهن ويعقصنه وراء رقابهن ، أو يتركنه ينوس على أكتافهن ، أو يطوينه حول الأعناق وفوق الصدور . وكان النساء يحببن ربط شعرهن بأشرطة رمادية اللون تزدان بجوهرة فوق الجبهة[٢٤] ثم أخذ الرجال بعد مرثون يقصون شعرهم ، كما أخذوا بعد الإسكندر يحلقون شواربهم ولحاهم بأمواس من الحديد على شكل المنجل . ولم يكن اليونانى يطيل شاربه من غير أن يطيل لحيته ، وكان يعنى بتسوية لحيته حتى تنتهى عادة بطرف رفيع . ولم يكن عمل الحلاق مقصوراً على قص الشعر أو حلق اللحية أو تسويتها ، بل كان يعنى إلى ذلك بتدريم الأظافر وتجميل من يتقدم إليه فى أعين الناس ، وكان إذا فرغ من عمله قدم إليه مرآة كما يفعل الحلاقون فى هذه الأيام[٢٥] . وكان للحلاق حانوته ، وكان هذا الحانوت « مجمعاً لغير المخمورين » (كما يسميهم ثيوفراسطس) يتناقلون فيه أخبار الناس ومعايبهم ، ولكنه كان فى كثير من الأحيان يقوم بعمله خارج حانوته فى العراء . وكان الحلاق ثرثاراً بحكم مهنته ، ويروى أن حلاقاً سأل الملك أركلوس كيف يحب أن يقص شعره فأجابه الملك « فى صمت »[٢٦] . وكانت النساء أيضا يحلقن الشعر من بعض أجزاء جسمهن ، ويستخدمن فى هذا أمواسا أو أدهانا مصنوعة من الزرنيخ والجير .

وكانت العطور — المصنوعة من الأزهار مخلوطة بالزيت — تعد بالمئات ، ويشكو سقراط من كثرة استعمال الرجال لهذه العقاقير[٢٧] . وكان لكل سيدة راقية عدة كبيرة من المرايا ، والدبابيس العادية والإنجليزية ، ودبابيس الشعر ، والملاقط ، والأمشاط ، وقنينات العطور ، وأوانى الأصباغ الحمراء ؛

والأدهان . وكن يصبغن خدودهن ، وشفاههن بعصى من السلقون وجلوْر الشنجار(*). أما الحواجب فكانت تصبغ بسناج المصابيح أو بمسحوق الإثمد ، وتلون الجفون بالإثمد ، وتسود الرموش ثم تطلى بمزيج من زلال البيض والأشّق(**) . وكانت الأدهان وعاليل الغسل تستخدم لإزالة التجاعيد والنمش والبقع من الوجه والجسم ، وكانت بعض الأدهان المؤلمة تبقى على الجسم ساعات طوالا لكي تظهر المرأة فى أعين الناس جميلة إن لم تكن جميلة بطبيعتها . وكان زيت المصطكى يستخدم لمنع العرق ، وكانت مراهم معطرة خاصة توضع على أجزاء مختلفة من الجسم . وكانت المرأة ذات الشأن تدهن وجهها وصدرها بزيت النخيل وحاجبيها وشعرها بالبردقوش ، وعنقها ، وركبتيها بخلاصة الصّعتر ، وذراعيها بخلاصة النعناع ، وساقيها وقدميها بالمُر[٢٨] . وكان الرجال يحتجون على هـــذه الأسلحة المغرية ، ولكن احتجاجهم لم يكن له من النتائج أكثر من احتجاج أمثالهم فى أى عصر من العصور . من ذلك أن إحدى الشخصيات فى مسلاة أثينية تعير سيدة بتعداد ما تستخدمه من الأدهان والأصباغ الكثيرة فتقول : « إذا خرجت فى الصيف تحدر من عينيك خطان أسودان ، وجرى نهر أحمر من خديك إلى عنقك . وإذا مس شعرُك وجهك أبيض من الرصاص الأبيض »[٢٩] . إن النساء كما هن لأن الرجال لا يتغيرون .

وكانت المياه قليلة فكانت النظافة تتطلب وسائل أخرى غير المياه ، فأما الأغنياء فكانوا يستحمون مرة أو مرتين فى اليوم ، ويستخدمون فى استحمامهم صابونا مصنوعا من زيت الزيتون معجوناً بمادة قلوية ، ثم يتعطرون . .

(*) الشّنجار بالكسر معرب شنكار وهو عس الحمار ويسمى الكحلاء ، والحميراء ، ورجل الحمامة ، وهو نبات لاصق بالأرض مشوك له أصل فى غلظ إصبع ، أحمر كالدم يصبغ اليد إذا مس ، منبته الأرض الطيبة التربة (المحيط) ، واسمه بالإنجليزية alkanet . (المترجم)

(**) الأشق كسكر ويقال : وشق وأشج صمغ نبات كالقثاء شكلا gum Ammoniac عن المحيط . (المترجم)

وكان البيت الراقى يشتمل على حمام مبلط ، به حوض كبير من الرخام يحمل إليه الماء عادة باليد ، وكانت المياه أحيانا تنقل فى أنابيب وقنوات إلى البيت مخترقة جدران الحمام ، ثم تندفع من صنبور معدنى فى صورة رأس حيوان ، وتسقط على أرض الحمام الرشاش وتجرى بعدئذ إلى الحديقة(٣٠) .

وأما الكثيرون من الأهلين الذين لا تتوافر لديهم المياه للاستحمام فكانوا يدلكون أجسامهم بالزيت ثم يزيلونه بمكشط هلالى الشكل كما نرى ذلك فى تمثال أپكسيمنس Apoxyomeonl للمثال ليسبس Lysippus ولم يكن اليونانى شديد الحرص على النظافة ، ولم تكن أهم وسائله للمحافظة على صحته هى العناية بها داخل المنزل ؛ بل كان أهمها الاقتصاد فى المأكل والحياة الخارجية النشيطة . وكان يندر أن يجلس داخل الدور والملاهى والمعابد والأبهاء المغلقة الأبواب ، وقلما كان يعمل فى المصانع أو الحوانيت المقفلة . وكانت مسرحياته وعباداته ، وحتى حكومته فى ضوء الشمس ؛ وكان فى وسعه أن يخلع عن جسمه ملابسه البسيطة التى يصل منها الهواء إلى جميع أجرائه ، ولا يكلفه خلعها أكثر من التلويح بذراعه ، للقيام بجولة مصارعة ، أو التمتع بحمام شمس .

وكانت ملابس اليونانى تتكون من قطعتين مربعتين من القماش ملفوفتين فى غير إحكام حول الجسم ، وقلما كانتا تفصلان لتوائما لابسا بعينه . وكانتا تختلفان فى بعض تفاصيلهما الصغرى فى المدن المختلفة ، ولكنهما ظلتا بحالهما عدة أجيال . وكان أهم رداء للرجال فى أثينة هو القباء Tunic ، وأهمه للنساء هو المئزر peplos ، المصنوعين من الصوف . فإذا كان الجو يتطلب التدفئة غطيا بعباءة أو برنس معلق مثلهما من الكتفين يتدلى فى غير كلفة فى تلك الثنايا الطبيعية التى تسر العين حين تقع عليها فى التماثيل اليونانية . وكانت الملابس فى القرن الخامس بيضاء اللون فى العادة ، غير أن النساء ، وأغنياء من الرجال ، والشبان المتأنقين ، كانوا يعمدون إلى تلوينها ، ولم يكونوا يستنكفون من لبس الثياب القرمزية أو الحمراء الداكنة ، أو ذات الخطوط

المختلفة الألوان والحواشي المطرزة . وكانت النساء فى بعض الأحيان يتمنطقن بمناطق ملونة . ولم تكن القبعات مرغوباً فيها لأنها كانت فى رأيهم تمنع رطوبة الجو عن الشعر فيشيب قبل الأوان[٣١] ، ولم يكن الرأس يغطى إلا فى أثناء السفر ، والقتال ، أو العمل فى أشعة الشمس الحارة . وكانت النساء فى بعض الأحيان يغطين رؤوسهن بمناديل أو عصابات ملونة ، وكان العمال فى بعض الأوقات يغطون رؤوسهم بقلنسوات ويتركون سائر الجسم عاريا[٣٢] . أما الأحذية فكانت أخفافا (صنادل) ، ونعالا طويلة أو قصيرة تصنع عادة من الجلد ، سوداء اللون للرجال وملونة للنساء . ويقول دسياركس Dicaerchus إن نساء طيبة يحتذين أحذية قصيرة أرجوانية ذات شرائط تظهر منها القدم العارية[٣٣] . وكان معظم الأطفال والعمال لا يحتذون شيئاً مطلقاً ، ولم يكن أحد يعنى بلبس الجوارب[٣٤] .

وكان الأهلون ، رجالا ونساء ، يخفون دخلهم أو يعلنونه للناس بالحلى والجواهر ، فكان الرجل يلبس عدة خواتم[٣٥] . وكانت عصى الرجال تنتهى فى أعلاها بكريات من الفضة أو الذهب . وكانت النساء يتحلين بالأساور ، والقلائد والأكاليل من الجواهر ، والأقراط ، ودبابيس الصدر ، والعقود ، والمشابك ذات الجواهر ؛ وكان لهن فى بعض الأحيان أربطة محلاة بالجواهر حول أعقابهن أو سواعدهن . وكانت الطبقات التى تسرف فى الترف فى هذه البلاد هى الحديثة الثراء كما تفعل أمثالها فى جميع البلاد التى تسودها الثقافات التجارية . وكانت اسپارطه تحدد أنواع أغطية الرأس لنسائها ، كما كانت أثينة تحرم على النساء أن يأخذن معهن فى أسفارهن أكثر من ثلاث مجموعات من الثياب[٣٦] . غير أن النساء كن يسخرن من هذه القيود ، ويتهربن منها دون أن يستعن على ذلك الهرب بالمحامين . ذلك أنهن كن يعرفن أن قيمة المرأة عند معظم الرجال وعند النساء إنما تقدر بملابسها ؛ وكان مسلكهن فى هذه الناحية يكشف عن حكمة تجمعت لهن فى خلال آلاف من القرون الطوال .

الفصل الرابع

المبادئ الأخلاقية

لم يكن الأثينيون فى القرن الخامس مثلا طيباً فى حسن الخلق ، وذلك لأن ارتقاء عقولهم قد أحل الكثيرين منهم من تقاليدهم الأخلاقية ، وجعل منهم أفراداً يكادون يكونون لا خلاق لهم . نعم إنهم قد اشتهروا بعدلهم القضائى ، ولكنا قلما نراهم يؤثرون على أنفسهم أحداً غير أبنائهم ، وقلما يشعرون بوخز الضمير ، أو يفكرون قط فى أن يحبوا جيرانهم كما يحبون أنفسهم . وتختلف آدابهم باختلاف طبقاتهم ، ففى محاورات أفلاطون نرى الحياة تجملها الرقة الخلابة أما فى ملاهى أرسطوفان فالآداب لا وجود لها قط ؛ وفى الخطب العامة نرى السباب الشخصى هو روح البلاغة . ولقد كان « البرابرة » الذين هذبهم الدهر فى مصر وفارس وبابل أرقى من اليونان كثيراً فى هذه الناحية . وكانت التحيات عند الالتقاء ودية قلبية ولكنها بسيطة ، فلم يكن فيها انحناءات لأن هذا كان يبدو للمواطنين بقية من بقايا الملكية البائدة . وكان السلام باليد مقصوراً على الحلف أو الوداع ؛ أما التحية العادية فلم تكن تزيد على قولهم « ابتهج » (Chaire) تتبعها كما تتبعها عند غيرهم إشارة طريفة إلى الجو[٢٧] .

وقل إكرام الضيوف بعد أيام هومر لأن الأسفار أصبحت آمن بعض الشيء مما كانت فى ذلك الوقت ، ولأن النزل كانت تقدم الطعام والمأوى للمسافرين ؛ غير أن كرم الضيافة ظل مع ذلك من فضائل الأثينيين البارزة . وكانوا يرحبون بالغرباء ولو لم يقدمهم إليهم أحد ؛ فإذا جاء الغريب بخطاب من صديق له ولمن جاء إليه ، قدم له الطعام والمأوى ، وربما قدمت له عند رحيله بعض الهدايا . وكان من حق الضيف المدعو إلى طعام أن يصحب

معه ضيفاً غير مدعو . وكانت حرية الدخول إلى منازل الغير سبباً فى قيام طائفة من الطفيليين على مر الأيام . وكانت الكلمة المستعملة فى هـذا المعنى paraisitoi تطلق فى الأصل على الكهنة الذين يأكلون « الحب الباقى » من مقررات المعابد . وكان الأغنياء أسخياء فى عطائهم الخاص والعام . وكانت عادة العطف على الإنسانية عادة اليونان فعلا واسماً ، واللفظ الذى يطلق عليها philanthropy من أصل يونانى . وكان التصدق — Charitas أى الحب — من طباعهم ، وكان لديهم هيئات للعناية بالغرباء والمرضى ، والفقراء ، والطاعنين فى السن[٣٨] . وكانت الحكومة تقرر معاشات للجرحى من الجنود وتربى أيتام الحرب على نفقة الدولة ؛ ولما حل القرن الرابع قبل الميلاد قررت مرتبات للعمال العاجزين عن العمل[٣٩] . وكانت الدولة تدفع فى أوقات الجدب والحرب ، وغيرهما من الأزمات إعانة يومية قدرها أبولتان ($\frac{1}{3}$ من الريال الأمريكى) للمحتاجين، تضاف إلى ما كانت تعطيه كلا منهم لحضور جلسات الجمعية ، والحاكم ، ومشاهدة التمثيل . ولم تكن هذه الإعانات تخلو من الفضائح المعتادة ، فها هو ذا ليسياس يذكر فى خطبة له رجلا يتقاضى إعانة من الأموال العامة ، مع أن له أصدقاء من الأغنياء ، ويكسب مالا من عمله اليدوى ، ويركب الخيل للرياضة[٤٠].

ولعلك كنت إذا سألت اليونانى قال لك : إن الأمانة أحسن سياسة ، ولكنه كان فى حياته العملية يجرب كل الوسائل الأخرى أولا . فترى المغنين فى مسرحية فلكتيتس Philoctetes لسفكل يظهرون أعظم العطف على الجندى الجريح الذى تخلى عنه رفقاؤه ، ثم ينتهزون فرصة غفوته فيشيرون على نيوپتلموس Neoptolemus أن يغدر به ويسرق سلاحه ، ويتركه بعدئذ لمصيره . وكان كل الناس يشكون من أن بائع الأشتات الأثينى يغش بضاعته ، ويخسر الكيل والميزان ، وينقص ما بقى للمشترى من نقود على الرغم

من مفتشي الحكومة ، ويحول مرتكز الميزان نحو الكفة التي بها الموزون[٤٠] ! ، ويكذب كلما سنحت له الفرصة ؛ وهو متهم بأخذ الوذم(*) من الكلاب[٤١] . ويطلق كاتب مسرحي هزلي على بائعي السمك اسم « السفاحين » ويسميهم كاتب أرحم بهم منه « لصوصا »[٤٢] . ولم يكن رجال السياسة خيرا من هؤلاء كثيراً ؛ فلا نكاد نرى رجلا ذا شأن في الحياة الأثينية العامة لم يتهم بالالتواء[٤٣] ، وإذا وجد فيهم رجل شريف مثل أرستيديز عد من خوارق الطبيعة يكاد يبلغ حد البشاعة ، وحتى ديوجين نفسه بمصباحه الذي يسير به في النهار يعجز عن أن يعثر على رجل آخر شريف . ويقول توكيديديز إن الرجال كانوا أكثر حرصاً على أن يوصفوا بالحلق من أن يوصفوا بالأمانة ، ويظنون أن الأمانة هي السذاجة[٤٤] . وكان من أيسر الأمور أن تجد اليونان يخونون وطنهم . وفي ذلك يقول پوزنياس : « لم يكن ينقص بلاد اليونان في أي وقت من الأوقات رجال مصابون بهذا الداء داء الخيانة[٤٥] » . وكانت الرشوة هي السبيل المألوفة للرقي ، ولفرار المجرمين من العقاب ، ولنيل المطالب الدپلوماسية . وحصل پركليز على مبالغ طائلة من المال للخدمات السرية ، وأكبر الظن أنه استخدمها لتيسير أسباب المفاوضات الدولية . وكانت المبادئ الأخلاقية قبلية الطابع إلى أقصى حد ، وينصح زنوفون في رسالة له في التربية بالالتجاء الصريح إلى الكذب والسرقة في معاملة أعداء البلاد[٤٦] . ويدافع الرسل الأثينيون الذين وفدوا إلى اسپارطة في عام ٤٣٢ عن إمبراطوريتهم بتلك العبارات الصريحة : « لقد كان القانون السائد على الدوام أن يخضع القوي للضعيف . . . ولم يسمح أحد بأن تقف المطالبة بالعدالة في سبيل المطامع إذا لاحت للتخلص فرصة كسب شيء ما قوة

(*) الوذم الحزة من الكرش والمصارين المقطوعة تمقد وتلوى ثم ترى في القدر والجمع أوذم ووذوم ، وهي الوذمة وجمعها وذام . (المخصص) . وقد استعملنا هذا « اللفظ به (السبق) . (المترجم) .

واقتدراً(٤٧) » . ولا يبعد أن تكون هذه الفقرة هى وخطب الزعماء الأثينيين فى ميلوس(٤٨) من خيال توكيديدز الفلسفى أثارتها أقوال بعض السوفسطائيين الساخرة ؛ ومن أجل هذا فإن الحكم على اليونان من أخلاق جورجياس ، وكلكليز Callicles ، وثرازيماكوس Thrasymachus التى تخالف العرف المألوف لا يكون فيه من العدالة أكثر مما فى وصف الأوربيين المحدثين بالاستناد إلى أقوال مكيفلى ، ورشفوكول ، ونتشة ، واسترنر Stirner الشاذة الغريبة . ولسنا نحب أن نقول ماذا فى هذا الحكم من عدالة . ومما يدل على أن اليونان يروون أنهم أرقى من أن يتقيدوا بهذه القيود الأخلاقية أن الاسپارطيين لا يترددون فى موافقة الأثينيين على هذه الطائفة من نقط الخلاف الأخلاقية . ولما أن استولى فويداس Phoebidas اللسديمونى على قلعة طيبة غدراً وخيانة على الرغم من معاهدة الصلح المعقودة مع الطيبيين ، وسئل أجسلوس Agesilus ملك اسپارطة عما فى هذا العمل من العدالة أجاب بقوله : « ليس لك إلا أن تسأل هل هو نافع أو غير نافع ، لأن العمل النافع لبلدنا هو العمل الصالح » ؛ وكثيراً ما كانت تخرق شروط الهدنة ، وتنقض العهود الصريحة ، وتقتل الوفود(٤٩) ؛ على أننا نعود فنقول : إن اليونان قد لا يختلفون عنا إلا فى صراحتهم لا فى مسلكهم ، ذلك أن تفوقنا عنهم فى الرقة يجعلنا نستنكف أن ندعو جهرة إلى ما نفعل .

ولم يكن للعادة والدين إلا أثر قليل فى كبح جماح المنتصرين فى الحرب . لقد كان من الأمور المألوفة ، حتى الحروب الأهلية ، أن تنهب المدن المفتوحة ، وأن يقتل جميع الجرحى ، وأن يذبح جميع أسرى الحرب أو من يقبض عليهم من غير المحاربين ، أو أن يتخذوا عبيداً إذا لم يقتلوا ، وأن تحرق البيوت ، وأشجار الفاكهة ، والمحصولات الزراعية ، وأن تباد الحيوانات ، وتتلف البذور لكيلا تزرع فى المستقبل(٥٠) . وقد ذبح الاسبارطيون فى بداية حرب البلوپونيز كل من وجدوهم من اليونان فى البحر

وعاملوهم معاملة الأعداء ، سواء كانوا من أحلاف أثينة أو من المحايدين[٥١] ، وقتل الأسپارطيون فى معركة إجسبوتامى Aegospotami التى انتهت بها هذه الحرب ، ثلاثة آلاف من الأسرى الأثينيين[٥٢] — ويكاد هؤلاء أن يكونوا صفوة المواطنين الأثينيين الذين قضت الحرب على الكثيرين منهم . وكانت الحرب من نوع ما — حرب مدينة ضد مدينة ، أو طبقة ضد طبقة — هى الحالة المألوفة العادية فى بلاد اليونان . وعلى هذا النحو أخذت هذه البلاد التى هزمت ملك الملوك يقاتل بعضها بعضاً ، فيلقى اليونانى فى ألف موقعة ، ولم يكد يمضى قرن واحد على معركة مرثون حتى أخذت الحضارة اليونانية ، وهى أزهى حضارات التاريخ على الإطلاق ، تفنى نفسها بهذا الانتحار القومى الطويل الأمد .

الفصل الخامس

الطباع

إذا كان هؤلاء الأقوام المتخاصمون الطائشون لا يزالون يخلبون عقولنا ويستدرون عطفنا ، فما ذلك إلا لأنهم يسترون خطاياهم وعيوبهم المكشوفة بما طبعوا عليه من قوة المغامرة والذكاء التي تبعث البهجة في النفوس . لقد كان قرب البحر من الأثينيين ، وما أتاحه لهم هذا القرب من فرص تجارية نادرة ، وحرصهم على الحرية في حياتهم الاقتصادية والسياسية ، مما جعل الأثيني إنساناً مرن العقل والطبع ، سريع التهيج والحساسية إلى أقصى حد . ألا ما أعظم ما يتبينه الإنسان من تغير الطباع حين ينتقل من الشرق إلى أوربا ، فهو ينتقل من الأصقاع الجنوبية الوسنانة إلى أقاليم وسطى في شتائها من البرودة ما يكفي لبعث النشاط دون ركود ، وفي صيفها من الدفء ما يطلق القوى دون أن يضعف الجسم والروح . هنا يكون الإيمان بالحيـــاة وبالإنسان ، والتحمس للحياة تحمساً لا نجد له نظيراً قبل عصر النهضة .

من هذا الوسط المنبه المنشط تنبعث الشجاعة وتنبعث الثورة العاطفية البعيدة كل البعد عن فضيلة ضبط النفس (Saphrosyne) التي يدعو إليها الفلاسفة دون جدوى ، وعن الرصانة التي يعزوها الشاب ونكلمان Winckelmann والشيخ جوته إلى اليونان العاطفيين القلقين . ليست المثل العليا لأية أمة من الأمم عادة إلا ستاراً يخفي عن الأعين الفاحصة حقيقة أمرها ، ولذلك فإن الواجب يقضي بألا تعد من الحقائق التاريخية . إن الشجاعة والاعتدال — أو الرجولة (Andreia) وعدم الإفراط في شيء ما (Meden agan) إذا شئت الألفاظ التي نقشت على جدران معبد دلفي — شعار اليوناني ؛ وهو يحقق أولها في كثير

من الأحوال أما ثانيهما فلا يحققه من اليونان إلا الفلاحون ، والفلاسفة ، والقديسون . أما الأثيني العادى فهو رجل شهوانى ولكنه رجل ذو ضمير حى ، ولا يرى خطيئة فى ملاذ الجسم ويجد فيها الجواب العاجل للتشاؤم الذى يخيم عليه فى فترات تفكيره ، وهو مغرم بالخمر ولا يستحى أن يسكر منها بين الفينة والفينة ، ويحب النساء حباً جثمانياً لا يكاد يشعر بأن فيه خطيئة ما ، ولا يجد حرجاً فى أن يعفو عن نفسه بعد أن يرتكب خطيئة الاختلاط الجنسى الشاذ ، ولا يرى أن تنكب طريق الفضيلة كارثة لا يمكن النجاة منها . ولكنه رغم هذا يخفف الخمر بإضافة ثلاثة أقداح من الماء لكل قدحين منها ، ويرى أن تكرار السكر مخالف لمقتضيات الذوق السليم ، وهو يعظم الاعتدال بل يعبده مخلصاً فى عبادته إياه ، ولكنه قلما يسير عليه فى حياته العملية ، ويصوغ مبدأ السيطرة على النفس صياغة لا تجاريها فى الوضوح صياغة أى شعب آخر فى التاريخ لهذا المبدأ السامى .

إن الأثينيين أذكى من أن يكونوا صالحين ويسخرون من البلاهة أكثر مما يمقتون الرذيلة ، وليسوا كلهم حكماء ، وليس لنا أن نتصور أن نساءهم كلهن حسان مثل نسكا Nausica ، أو أن فيهن من أسباب الجلال ما فى هلن ، كما لا يحق لنا أن نتصور أن رجالهم يجمعون بين شجاعة أجاكس وحكمة نسطور : لقد حفظ لنا التاريخ أسماء عباقرة اليونان وغفل عن ذكر بلهائهم (عدا نيشياس Nicias) ، وقد يبدو عصرنا نفسه عظيماً حين ينسى معظمنا ؛ ولا ينجوا من هذا النسيان إلا الشوامخ منا . وإذا أخرجنا . من حسابنا ما يبعثه قدم العهد فى القلوب من عطف وحنان على الأقدمين ، بقى أن نقول إن الأثيني العادى لا يقل دهاء عن الشرقى ، ولا يقل شغفاً بالجدة عن الأمريكى ، متشوف طلعة على الدوام ، لا ينقطع عن الحركة والانتقال ، ولا ينفك ينادى بالهدوء البرمنيدى(*) ، ولكنه مضطرب مهتاج مثل هرقليطس . ولم يكن لشعب قبل الأثينيين ما كان لهم من قوة الخيال أو

(*) نسبة إلى الفيلسوف برمنيدس الإيلى (القرن السادس قبل الميلاد) . (المترجم)

فصاحة اللسان ؛ ولقد كان التفكير الواضح والتعبير الخالى من الغموض يبدوان للأثيني من الصفات القدسية ، فلم يكن يطيق التشويش والارتباك العلمى ، ويرى أن الحديث الدقيق القائم على المعرفة والذكاء أرق متع الحضارة . ولقد كان سبب ما امتاز به التفكير وما امتازت به الحيـــاة من غزارة وقوة ، أن اليونانى كان يرى أن الإنسان هو المقياس الذى تقدر به الأشياء جميعها ؛ فالأثينى المتعلم يعشق العقل ، وقلما كان يشك فى قدرته على إدراك العالم وتصويره ؛ وكان حب المعرفة والرغبة فى الفهم أنبل عواطفه وأعظم مشتهاته ؛ وكان شغفه بهما شغفاً مسرفاً قوياً كشغفه بغيرهما . ولقد كشف فيما بعد أن للعقل الإنسانى والجهود البشرية حدوداً يقفان عندها ولا يتخطيانها ، وكان من الطبيعى أن يكون رد الفعل المترتب على هذا الكشف أن تنتابه حالة من التشاؤم عجيبة لا تتفق قط مع بهجته ومرحه ، وحتى فى العصر الذى بلغ فيه إنتاجه الفكرى غايته ، كانت آراء أعمق مفكريه — وهم كتاب المسرحيات لا الفلاسـفة — تشوبها عقيدته فى أن بهجة الحياة خداعة قصيرة الأجل ، وأن الموت رابض له متربص به .

وكانت روح البحث هى التى أنشأت علوم اليونان ، كما كان الحرص على الاستحواذ منشأ حياتهم الاقتصادية والعامل المسيطر عليها . وفى هذا المعنى الأخير يقول أفلاطون مبالغاً كعادة علماء الأخلاق : « إن حب الثراء يستحوذ كل الاستحواذ على قلوب الرجال ، فلا يفكرون إلا فى أملاكهم الخاصة ، التى تتعلق بها نفس كل مواطن »[٥٣] . فالأثينيون فى حقيقة أمرهم حيوانات متنافسة ، وبهذه المنافسة القاتلة التى لا هوادة فيها ولا رحمة ، يحفز بعضهم بعض . وهم على جانب كبير من الذكاء ، ولا يقلون دهاء واحتيالا عن الساميين ، وهم صلاب الرأى صلابة العبرانيين كما وصفتهم التوراة ، وهم مثلهم مشاكسون ، معاندون ، متكبرون ، كثيرو اللجاج والمساومة

فى البيع والشراء ، لايتركون نقطة فى حديثهم من غير جدل ومناقشة ؛ إذا عجزوا عن محاربة غيرهم من الأمم تحاربوا فيما بينهم . وليسوا على جانب كبير من رقة العواطف ، يعيبون على يوربديز دموعه فى مسرحياته ، يشفقون على الحيوان ويقسون على الإنسان : فهم يعذبون العبيد دون ذنب ، ويخيل إلى من براهم أنهم ينامون ملء جفونهم بعد أن يلبحوا جميع من فى المدينة من غير المحاربين ، ولكنهم مع ذلك يكرمون العاجز والفقير ، ودليلنا على ذلك أنه لما علمت الجمعية أن حفيدة أرستجيتون Aristogeition قاتل الطغاة تعيش فى لمنوس فقيرة معدمة ، أمدتها بالمال ليكون لها بائنة ولتحصل به على زوج لها . وكان المظلومون المضطهدون من المدن الأخرى يجدون فى أثينة ملجأ يحميهم ويعطف عليهم .

والحق أن الأثينى لم يكن يفكر فى الأخلاق كما نفكر فيها نحن الآن ، فهو لا يأمل أن يكون له ما للصالحين من أفراد الطبقة الوسطى من ضمير ، أو ما للأشراف من شعور بالشرف ، بل يرى أن أحسن الحياة هى الحياة الكاملة ، المليئة بالصحة ،والقوة ، والجمال ،والانفعال ، والثراء ،والمغامرة ، والتفكير . والفضيلة عنده هى الرجولة ((Arete) — أو الحربية كما كان معنى اللفظ فى بادئ الأمر — والتفوق (Ares أى المريخ) ، وهى تقابل بالضبط كلمة viritus عند الرومان ومعناها الرجولة . والرجل المثالى عند الأثينيين هو الكلوجاثوس Kalogathos أى الذى يجمع بين الجمال والعدالة فى فن من فنون العيش الراقية ، والذى يقدر فى صراحة قيمة الكفاية ، والشهرة ، والثراء ، والصداقة ، كما يقدر الفضيلة وحب الإنسانية . ويرى الأثينى كما يرى جوته أن ترقية النفس هى كل شىء . ويختلط بهذا المبدأ عنده قدر من الغرور لا نستسيغه نحن لصراحته : فاليونان لا يملون الإعجاب بأنفسهم ، ويعلنون فى كل مقام تفوقهم على غيرهم من المحاربين ، والكتاب ، والفنانين ، والشعوب بأسرها . وإذا شئنا أن نعرف الفرق بين اليونان والرومان فما علينا إلا أن نوازن بين الفرنسيين والإنجليز ، وإذا أحببنا أن نحس بالروح

الإسپارطية وندرك الفرق بينها وبين الروح الأثينية فما علينا إلا أن نفكر فى روح الألمان وروح الفرنسيين .

وقد اجتمعت صفات الأثينيين كلها لتقيم دولة — المدينـة ، ففيها ولدت قوتهم وشجاعتهم ، وحدة ذكائهم وألمعيتهم ، وشقشقة لسانهم ، وشدة مراسهم ، ومحبتهم للكسب ، وشدة غرورهم ، ووطنيتهم ، وعبادتهم للجمال والحرية ، وفى دولة المدينة اجتمعت هذه الصفات كلها وبلغت غايتها . وهم سريعو الانفعال ولكنهم لا يميلون كثيراً مع الهوى . ويجيزون التعصب الدينى من آن إلى آن ، غير أنهم لا يتخذونه وسيلة للحد من حرية الفكر ، بل يتخذونه سلاحاً من أسلحة السياسة الحزبية ، ورباطاً لتجاربهم الأخلاقية . أما فيما عدا هاتين الحالتين ، فهم يستمسكون بقدر من الحرية ، يندهش منه زوارهم الشرقيون ويبدو فى نظرهم الفوضى بعينها ، ولكن حريتهم هذه ، وكون كل منصب من مناصب الدولة ميسراً لكل مواطن ، وكون كل مواطن محكوماً تارة وحاكماً تارة أخرى ، لكن هذه الأمور هى التى جعلتهم يخصصون نصف حياتهم لخدمة دولتهم . ولم يكن بينهم إلا المكان الذى ينامون فيه ، أما حياتهم فكانوا يقضونها فى السوق العامة ، وفى الجمعية ، والمجلس ، والمحاكم ، وساحات الأعياد الكبرى والمباريات ، وفى مشاهدة المسرحيات التى يمجدون بها مدينتهم وآلهتها . وهم يعترفون بحق الدولة فى أن تجندهم وتستولى على أموالهم متى احتاجت إليهم وإليها . وهم يعفون عن إرهاقها إياهم واستيلائها على أموالهم ، لأن عملها هذا يتيح لهم فرصة النماء الإنسانى أكبر مما عرفه الإنسان فى أى عصر من العصور السابقة ، وهم يحاربون دفاعاً عن مدينتهم لأنها مهد حرياتهم وحارستها . وفى ذلك يقول هيرودوت : « وبهذا زاد الأثينيون قوتهم ، ويتضح كل الوضوح ، من هذا ومن شواهد أخرى كثيرة ، أن الحرية من أعظم النعم : ألست ترى أن الأثينيين ، وهم خاضعون لحكم الطغاة ، لم يكونوا يفوقون جيرانهم فى الشجاعة أدنى تفوق ، ولكن لم يكادوا يتحررون من نير الطغاة حتى صاروا أشجع الشجعان بلامنازع »(٥٤) .

الفصل السادس

العلاقات الجنسية قبل الزواج

تبدو أثينة إبان مجدها شرقية أكثر منها أوربية فى أخلاق أهلها ، كما تبدو كذلك فى حروفها الهجائية ، وفى مقاييسها وموازينها ، وسكتها . وملابسها ، وموسيقاها ، وفلكها ، وطقوسها الصوفية : ففى الأخلاق يعترف الرجال والنساء اعترافا صريحا بأن العلاقة الجنسية هى أساس الحب ، ولذلك لم يكن شراب العشاق الذى تعصره السيدات المشتاقات يقدم للرجال المهملين لأغراض أفلاطونية خالصة . لقد كانوا يطلبون إلى النساء المحترمات أن يكن عفيفات قبل الزواج ، أما الرجال غير المتزوجين فلم تكن تفرض على شهواتهم الجنسية ، بعد أن يبلغوا الحلم ، إلا القليل من القيود الخلقية . وقد كانت الأعياد الكبرى ، وهى دينية فى أصلها ، صمامات الأمان لما طبعت عليه البشرية من شهوة جنسية مختلطة ؛ فكانوا فى هذه المناسبات يتغاضون عن التحرر من القيود فى العلاقات الجنسية لاعتقادهم أن هذا ييسر لهم فيما بقى من العام أن يقتصر كل منهم على زوجته الوحيدة . ولم يكن الأثينيون يرون أن فى اتصال الشبان بالخليلات من آن إلى آن شيئاً من العار ، ولقد كان فى وسع المتزوجين أنفسهم أن يبسطوا حمايتهم على تلك الخليلات ، ولا ينالهم لهذا السبب عقاب أخلاقى أكثر من تأنيب زوجاتهم فى بيوتهم وشىء قليل من سوء السمعة فى المدينة(٥٨) . وكانت أثينة تعترف بالبغاء رسميا وتفرض ضريبة على البغايا .

وأصبح العهر فى أثينة ، كما أصبح فى معظم مدن اليونان ، مهنة كثيرة الرواد ، ذات فروع مختلفة لكل فرع إخصائيات . وكانت السبيل ميسرة أمام ذات الكفاية للترقى فى هذه المهنة كما كانت ميسرة للترقى فى غيرها من

المهن فى تلك المدينة . وكانت أسفل طبقة من العاهرات هى طبقة البرناى pornai، ويسكن معظم افرادها فى بيرية فى مواخير عامة يسهل على الجمهور الاستدلال عليها بصورة قضيب بريابوس المعلقة عليها . وكان رسم الدخول فى هذه المواخير أوبلة واحدة ، وكان الداخل يجد فيها البنات فى أثواب لا تكاد تستر منهن شيئاً ، ولذلك يسمين الجمناى (أى العاريات) ، وكن يجزن لمن يرون ابتياعهن أن يختبروهن كما تختبر الكلاب فى بيوتها . وكان فى وسع الرجل أن يعقد الصفقة التى يريدها الزمن الذى يبتغيه ، ويتفق مع ربة البيت على أن يستأجر منها بنتا تعاشره أسبوعا ، أو شهرا ، أو سنة . وكانت البنت أحيانا تؤجر بهذه الطريقة لرجلين أو أكثر من رجلين فى وقت واحد توزع وقتها بينهم حسب مواردهم المالية(٦١) . وتلى هذه الطبقة عند الأثينيين طبقة العازفات على القيثارة ، وأولئك يستخدمن ، كما تستخدم المسامرات فى اليابان ، فى الليالى « الحمراء » يمرحن ويعزفن ، ويرقصن رقصا فنيا أو خليعا مثيرا للشهوات ، ثم يبتن مع من يريدهن من الرجال (٦٢) . وكانت قليلات من عجائز العاهرات يدرأن عن أنفسهن شر الفاقة بإنشاء مدارس لتدريب تلك البنات العازفات ، يعلمنهن كيف يجملن أنفسهن ، ويسترن عيوب أجسامهن ، ويسلين الرجال بالعزف على الآلات الموسيقية ، كما يعلمنهن كيف يتصنعن الحب والدلال . وقد حرصت الروايات المتواترة على أن تحتفظ العاهرات جيلا بعد جيل ، احتفاظ الإنسان بأثمن تراث ، بالطرق التى يلهين بها القلوب ، كالتظاهر بالحب بعقل وروية ، وإطالة أمده بتصنع الدلال والإباء ، والحصول به على أكبر أجر مستطاع (٦٣) . لكن بعض العازفات ، إذا صدقنا ما قاله عنهن لوشيان بعد ذلك العصر ، كانت لهن قلوب رحيمة رقيقة ، وكن يعرفن الحب الحقيقى ، ويضحين بأنفسهن من أجل عشاقهن كما ضحت بنفسها كامى Camille . إن قصة العاهر الشريفة قصة قديمة شاب قرناها وخلع عليها طول الزمن شيئاً من الجلال والتبجيل .

وكانت ارق طبقات العاهرات الأثينيات هي طبقة الهتايراى hetairai ومعناها الحرفى الرفيقيات . ولم تكن هؤلاء الرفيقات مثل طبقة اليورناى تتكون فى الغالب من نساء شرقيات المولد ، بل كانت تتألف فى العادة من بنات المواطنين اللاتى سقطن لسبب من الأسباب ، أو فررن من العزلة المفروضة على العذارى والنساء الأثينيات . وكن يعشن مستقلات بأنفسهن ويستقبلن فى بيوتهن من يغوين من العشاق . وكانت كثرتهن سمراوات بطبيعتهن ، ولكنهن كن يصبغن شعرهن باللون الأصــفر لاعتقادهن أن الأثينيين يفضلون الشقراوات ، وكن يميزن أنفسهن بلبس أثواب منقوشة بالورد ، ولعل هذه الثياب كان يفرضها عليهن القانون(٦٤) . وكان بعضهن يحصلن على قدر لا بأس به من التعليم بالقراءة المستقلة من حين إلى حين ، وبالاستماع إلى المحاضرات ، وكن يسلين روادهن المثقفين بحديثهن المنطوى على قدر من العلم والثقافة . وقد اشتهرت منهن تاييس Thais وديوتيما Diotima وثارجليا Thargelia ، وليونتيوم Leontium ، كما اشتهرت أسبازيا ، بمناقشاتهن الفلسفية ، واشتهرن أحياناً بأساوبهن الأدبى المصقول(٦٥). وذاعت شهرة الكثيرات منهن بفكاهاتهن الحــلوة ، وفى الآداب الأثينية لهن مجموعة من المقطوعات الشعريه الفكهة(٦٦). وكانت العاهرات على اختلاف طبقاتهن محرومات من الحقوق المدنية ، لا يجوز لهن أن يدخلن هيكلا من الهياكل عدا هيكل إلاههن أفروديتى بندموس Aphrodite Pondenos ، ولكن قلة مصطفاة من الهتايراى كانت لهن منزلة عالية فى مجالس الرجال الاجتماعية فى أثينة ، ولم يكن أحد من الرجال يستحى أن يُرى فى صحبتهن ، وكان الفلاسفة يتبارون فى كسب ودهن ، ومن المؤرخين من يروى تاريخهن بنفس الخشوع والإجلال الذى يرويه به فلوطرخس(٦٧) .

وبهذه الطرق خلدت بعضهن أسماءهن . فمن هؤلاء كلبسدرا التى سميت كذلك لأنها كانت تخرج عشاقها من عندها بعد ساعات محددة تحصيها بساعة

رملية ؛ ومنهن ثرجيليا Thargelia متا هارى Mata Hari(*) زمانها ، التي خدمت الفرس بأن ضاجعت أكبر عدد مستطاع من ساسة أثينة (٦٨) ؛ وثيوريس Theoris التي خففت عن سفكليز متاعب شيخوخته ، وأرشبي Archippe التي خلفتها في هذا العمل حوالى العقد التاسع من حياة هذا الكاتب المسرحي(٦٩) ؛ ومنهن أركيانسا Archeanassa التي كانت تسلي أفلاطون(٧٠) ، ودانى Danae وليونتيوم Leontium اللتين علمتا أبيقور فلسفة اللذة ؛ ومنهن تمستونوئى Themistonoe التي ظلت تمارس مهنتها حتى فقدت آخر سن من أسنانها وآخر خصلة من شعرها ؛ ومنهن ناثينا Gnathaena التي كانت تطلب ألف درخمة (ألف ريال أمريكى) ثمناً لمضاجعة ابنتها ليلة واحدة ، لأنها قضت وقتاً طويلا في تدريبها وإعدادها لمهنتها(٧١) . وكان جمال فرينى Phryne حديث أثينة كلها في القرن الرابع ، وذلك لأنها لم تكن تظهر أمام الناس إلا وهى محجبة من رأسها إلى قدمها ، ولكنها في عيدى إلوزيا وبسدونيا تخلع ثيابها أمام الناس كلهم وتسدل شعرها على جسمها وتنزل البحر لتستحم(٧٢) ، وقد عشقت بركستيليز المثال ، ووقفت أمامه لينحت على صورتها تماثيل أفرديتى . وعلى صورتها أيضاً نحت أبليز تمثال أفرديتى أناديومونى Aphrodite Anadyomene (٧٣) . وأثرت فرينى من عشاقها إثراء أمكنها من أن تعرض استعدادها لإعادة بناء أسوار طيبة إذا وافق الطيبيون على نقش اسمها على هـــذه الأسوار ، ولكنهم أصروا على رفض هذا الغرض . ولعلها تغالت فيما طلبته إلى يوثياس Euthias من أجر لها ، فثأر لنفسه منها باتهامها بالإلحاد ؛ ولكن أحد أعضاء المحكمة كان من زبائنها ، كما كان هيبريدز الخطيب من عشاقها المفتونين بها ، ودافع عنها هيبريدز ولم يستخدم في هذا الدفاع بلاغته فحسب بل شق أمام المحكمة جلبابها وكشف عن صدرها . ونظر القضاة إلى جمالها وبروزها من تهمة الإلحاد في الدين(٧٤) . ويقول أثينيوس

(*) جاسوسة في الحرب العالمية الأولى . (المترجم)

« يبدو أن لئيس Lais الكورنثية كانت أجمل من أية امرأة وقعت عليها العين »[٧٥] . وتتنازع شرف مولدها مدن لا تقل فى عددها عن المدن التى تتنازع شرف انتساب هومر إليها . ويتوسل إليها المثالون والرسامون أن تقف أمامهم لينحتوا تمثالها أو يصوروها ، ولكنها تتمنع حياء وخجلا ، ثم يتغلب عليها ميرون Myron العظيم فى شيخوخته فتقبل طلبه ؛ حتى إذا خلعت ثيابها نسى وقار شعره الأبيض ولحيته وعرض عليها أن ينزل لها عن كل ما يملك إذا أقامت معه ليلة واحدة ، فتبسمت ضاحكة من قوله ، وهزت كتفيها المستديرتين ، وتركته دون أن ينحت التمثال . وفى صباح اليوم الثانى اشتد به الوجد ، وعادت إليه نشوة المراهقة ، فصفف شعره ، وحلق لحيته ، وارتدى ثوباً رمزى اللون ، وتمنطق بمنطقة ذهبية ، وتقلد قلادة ذهبية ، وتختم فى جميع أصابعه ، وحمر خديه ، وعطر ثيابه وجسمه ، ثم ذهب وهو على هذه الصورة يطلب لئيس ويعلن إليها أنه متيم بها . فنظرت إلى صورته الممسوخة وعرفت من هو ، ثم أجابته بقولها : « أيها الصديق المسكين ، إنك تطلب ما أبيته على أبيك بالأمس »[٧٦] . وجمعت لئيس من مهنتها ثروة طائلة ، ولكنها لم تكن تمنع نفسها عن فقراء العاشقين من ذوى الجمال ؛ وقد أعادت دمستين القبيح الصورة إلى الفضيلة ، بأن طلبت إليه عشرة آلاف درخمة أجر ليلة واحدة[٧٧] . واكتسبت من أرستبس الثرى من المال ما أفزع خادمه[٧٨] ، أما ديجين المعدم فكانت تسلم نفسها إليه بأقل أجر ، لأنها يسرها أن يجثو الفلاسفة أمام قدميها . وقد أنفقت ثروتها فى سخاء فى تشييد المعابد والمبانى العامة ، وعلى الأصدقاء ، ثم عادت آخر الأمر ، كما يعود معظم من على شاكلتها ، فقيرة كما كانت أيام شبابها ، وأخذت تمارس مهنتها صابرة إلى آخر أيام حياتها ، فلما قضت نحبها أقيم لها قبر فخم تكريماً لها ، لأنها كانت أعظم غازية منتصرة عرفها اليونان طول تاريخهم[٧٩] .

الفصل السابع

الصداقة اليونانية

وأعجب من هذا الوفاق بين البغاء والفلسفة اعتراف اليونانيين فى غير حياء بالانحراف الجنسى . فلقد كان أكبر من ينافس العاهرات هم غلمان أثينة ، وكانت العاهرات اللائى يسربلهن العار من قمة رءوسهن إلى أخمص أقدامهن لا يفتأن يندددن بما فى عشق الذكور للذكور من فساد خلقى شنيع . ولقد كان التجار يستوردون الغلمان الحسان ليبيعوهم لمن يدفع فيهم أغلى الأثمان ، وكان هؤلاء يستخدمونهم فى أول الأمر لقضاء شهواتهم ثم يتخذونهم فيما بعد أرقاء[٨٠] . ولم يكن من بين الذكور فى المدينة إلا أقلية ضئيلة تعتقد أن ثمة عيباً فى أن يثير الشباب المخنثون أبناء الأشراف فى المدينة شهوة شيوخها ويشبعوا هذه الشهوة . ولم تكن اسپارطة أقل استهتاراً من أثينة فى هذا الشذوذ الجنسى ، وشاهد ذلك أن ألكمان حين أراد أن يثنى على بعض الفتيات سماهن « أصدقاءه — الغلمان الإناث[٨١] » . وكانت الشرائع الأثينية تحرم من يمارس رذيلة اللواط من الحقوق السياسية[٨٢] ، ولكن الرأى العام كان يتغاضى عن هذه العادة ويجيزها وهو هازل فكه ؛ ولم يكن أهل اسپارطة أو كريت ينظرون إليها نظرة الاستنكار[٨٣] . وكان أهل طيبة يرون أنها معين لا ينضب للشجاعة وحسن النظام العسكرى . وكان هرمديوس وأرستجيتون ، وهما أعظم بطلين تعتز أثينة بذكراهما ، من قتلة الطغاة وعشاق الغلمان وكان ألسبيديز أحب الناس إلى الشعب الأثينى فى أيامه ، وكان يفتخر بكثرة من عشقه من الرجال . ولقد ظل « العشاق اليونان » إلى أيام أرسطاطاليس يعلنون ولاءهم لمعشوقيهم عند قبر أيولوس رفيق هرقل[٨٤] ؛ ويصف أرستپس زنوفون قائد الجيوش الذى اشتهر

بأنه من أشـــد رجال العلم صلابة وعناداً ، بأنه مشغوف بحب الفتى كلينياس Cleinias[٨٥] . وتمثل علاقة الرجل بالغلام ، أو الغلام بغلام مثله فى بلاد اليونان ، جميع مظاهر الغرام الروائى — من عاطفـــة جياشة ، وحب عذرى ، ونشوة ، وغيرة وعزف وغناء تحت نوافذ المعشوقين ، وطول تفكير ، وتوجع وأنين ، وسهاد طويل[٨٦] . وإذا تكلم أفلاطون فى الفدروس Phaedrus عن الحب الإنسانى ، فإنما يتكلم عن الحب الجنسى بين الذكران ، ويتفق المجادلون فى محاوراته فى نقطة واحدة — هى أن حب الرجل للرجل أنبل وأكثر روحانية من حب الرجل للمرأة[٨٧] . ونرى هذا الشذوذ نفسه بين النساء ، ونراه أحياناً بين أرقاهن مثل سوفو Sopho ، وكثير بين العاهرات ؛ فالعاهرات المسامرات مثلا يحب بعضهن بعضاً أكثر من حبهن من يعشن فى كنفهم من الرجال ، وعاهرات المواخير تروى عنهن أعجب القصص فى عشق بعضهن بعضا[٨٨].

نرى كيف يفسر الإنسان انتشار هذا الشذوذ الجنسى فى بلاد اليونان ؟ فأما أرسطاطاليس فيفسره بخوفهم أن تزدحم بلادهم بالسكان[٨٩] ، وقد يكون هذا سبباً من أسباب هذه الظاهرة ، ولكن لا جدال فى أن ثمة علاقة بين انتشار اللواط والدعارة فى أثينة من جهة وعزلة النساء من جهة أخرى ، فقد كان الأولاد فى أثينة فى عصر بركليز يؤخذون من أجنحة الحريم فى البيوت حيث تقضى النساء المحصنات حياتهن ، وينشئون عادة فى صحبة أولاد مثلهم أو رجال ، وقلما تتاح لهم فرصة فى طور تكوينهم وفى الفترة التى لم يشعروا فيها بعد برجولتهم ، يدركون فيها جاذبية الحنو النسوى . كذلك كانت حياة الغلمان الجامعة فى اسبارطة ، واشتراكهم فى الطعام ، واجتماعهم فى الأسواق العامة ، والملاعب الرياضية ، وفى مدارس الألعاب فى أثينة ، وحياة منظمات الشباب ، كانت هذه كلها لا يرى فيها الشبان إلا صور الذكور . وحتى الفن نفسه لا يكشف عن الجمال النسوى قبل عهد بركستليز . وقلما كان

الرجال فى حياتهم الزوجية يجدون فى البيوت رفقة عقلية ، ذلك بأن عدم انتشار التعليم بين النساء يحدث ثغرة بين الجنسين فيضطر الرجال إلى البحث فى خارج البيوت عن أسباب المتعــة التى حرموا أزواجهم من الحصول عليها . ولم يكن البيت للمواطن الأثينى حصنه وملجأه ، بل كان مكان نومه . وكان فى كثير من الحالات يقضى النهار كله من مطلع الشمس إلى مغيبها فى المدينة ، وقل أن تكون بينه وبين النساء المحترمات عدا زوجه وبناته أية صلات اجتماعية . لهذا كان المجتمع اليونانى مقصوراً على أحد الجنسين ، يعوزه الحيوية ، والظروف ، والمجاملة ، والاستثارة ، وهى الصفات التى اكتسبتها من روح النساء وسحرهن إيطاليا فى عهد النهضة وفرنسا فى عهد الاستنارة .

الفصل الثامن

الحب والزواج

الحب الروائى موجود بين اليونان ولكنه قلما يكون سبب الزواج ؛ ولسنا نجد إلا القليل منه فى شعر هومر حيث يذكر أجمنون وأخيل كريسيس Chryseis ، وبريسيس Briseis ، ويذكران أيضاً كسندرا التى لا تستجيب لحبهما فى عبارات تنم عن الشهوة الجسمية ؛ لكن فى قصة نسكا ما يحذرنا من أن نعمم هذا الحكم ، ودليلنا على هذا ما نجده من القصص التى لا تقل فى قدمها عن عصر هومر نفسه مثل قصة هرقليط وأيولا ، وقصة أورفيوس ويورديس . كذلك يتحدث الشعراء الغنائيون حديثاً طويلا عن الحب ، ويعنون به فى العادة الرغبة فى إشباع الشهوة ؛ والقصص التى تروى أخبار فتيات يمتن من فرط الوجد ، كالقصة التى يرويها استسكورس ، نادرة أو تكاد تكون معدومة ، ولكننا حين نرى ثينو Theano زوجة فيثاغورس تصف الحب بأنه « مرض النفس المشتاقة[٩١] » نحس بقوة الحب الروائى الحقيقية . ولما زادت مشاعر اليونان رقة وأحلت الشعر مكان حرارة الجسم ، كثر ذكر العواطف الشعرية الرقيقة ، وأصبح طول الفترة التى تضعها الحضارة بين الرغبة وإشباعها مما يتيح للخيال فرصة يخلع فيها المحاسن على الحبيب المأمول . وقد ظل إيسكلس نفسه هومرى النزعة فى معاملته للنساء ، ولكننا نستمع فى سفكل عن « الحب الذى

يحكم الآلهة بإرادتها(*) »(٩٢) ، وفى شعر يوربيديز مقطوعات كثيرة فى وصف قوة إيروس Eros إله الحب . وكثيراً ما يصف المتأخرون من كتاب المسرحيات شاباً يهيم بحب فتاة(٩٣) ، ونستشف من أقوال أرسطاطاليس الصفة الحقيقية للعشق الروائى حين يقول « إن المحبين ينظرون إلى أعين أحبائهم ، حيث يستكن الخفر(٩٤) » .

وكانت هذه الشئون وأمثالها فى عصر اليونان الزاهر تؤدى إلى صلات الجنسين قبل الزواج أكثر مما تؤدى إلى الزواج نفسه . ذلك بأن اليونان كانوا يعدون الحب الروائى صورة من « تقمص الشيطان للجسم » أو من الجنون ، وكانوا يسخرون إذا ذكر لهم إنسان أنه وسيلة يهتدى بها إلى اختيار الزوج الصالح أو الصالحة(٩٥) . وكان الزواج عادة يتفق عليه والدا الزوجين كما كان يحصل على الدوام فى فرنسا القديمة ، أو بين خطاب محترفين(٩٦) ، أكبر ما يهتمون به فيه البائنات لا الحب . فقد كان ينتظر من والد الفتاة أن يهيئ لابنته بائنة من المال ، والثياب ، والجواهر ، ومن العبيد فى بعض الأحيان(٩٧) .

(*) قارن هذا بما ورد فى أنتيجون :

إذا اشتبك الحب فى نزاع

كسب المعركة لا محالة ،

والحب يسلب الأغنياء متاعهم !

وهو يبيت سهران طول الليل

بخديه الناعمين على وسادة العذراء ،

يبحث عن فريسته على متن البحار ،

وينقب عنها بين ملاجئ الرعاة ،

وليس فى وسع الآلهة أن تفر من سلطانه ،

وهى التى وهبت الخلود ،

فكيف بنا نحن الذين لا تطول حياتهم أكثر من يوم

فما أجن العقل الذى ينطوى عليه (٩٢) !

وكانت هذه البائنة تبقى على الدوام ملكا للزوجة ، وتعود إليها إذا افترقت عن زوجها — وهو نظام يقلل من احتمال طلاقها منه . فإذا لم يكن للبنت بائنة فقلما تجد لها زوجا ، ومن أجل هذا كان أقاربها يجتمعون ليعدوها لها إذا عجز الوالد نفسه عن إعدادها . وبهذه الطريقة انقلب الزواج بالشراء الذى كان كثير الحدوث فى أيام هومر ، فصارت المرأة فى عهد پركليز هى التى تشترى زوجها ؛ ومن هـــذا الوضع تشكو ميديا فى إحدى مسرحيات يوربيديز . فلم يكن اليونانى إذن يتزوج لأنه يحب ، ولا لأنه يرغب فى الزواج (فهو كثير التحدث عن متاعبه) ، بل ليحافظ على نفسه وعلى الدولة عن طريق زوج جاءته ببائنة مناسبة ، وأبناء يردون عن روحه الشرور التى تصيبها إذا لم تجد من يعنى بها . ولقد كان رغم هذه المغريات كلها يتجنب الزواج ما دام يستطيع تجنبه . ولقد كانت حرفية القانون تحرم عليه أن يبقى عزباً ؛ ولكن القانون لم يكن ينفذ دائماً فى أيام پركليز ؛ ولما انقضى عهده زاد عدد العزاب حتى صار مشكلة من المشاكل الأساسية فى أثينة[٩٩] . ألا ما أكثر الأمور التى تدهش الإنسان فى بلاد اليونان ! وكان الذين يرضون بالزواج من الرجال يتزوجون متأخرين ، فى سن الثلاثين عادة ، ثم يصرون على الزواج من فتيات لا تزيد سنهن على خمسة عشر عاما[١٠٠] . وفى ذلك تقول إحدى الشخصيات فى مسرحية ليوربيديز : « إن زواج الشاب من زوجة شابة شر مستطير(*) ، وسبب ذلك أن قوة الرجل تبقى طويلا ، أما نضرة الجمال فسرعان ما تفارق صورة المرأة »[١٠١] .

فإذا تم اختيار الزوجة ، واتفق على بائنتها ، تمت خطبتها رسمياً فى بيت والدها ؛ ويجب أن يحضر هذه الخطبة شهود ، ولكن حضور الفتاة نفسها لم يكن ضرورياً . فإذا لم تتم هذه الخطبة الرسمية ، لم يعترف القانون الأثينى

(*) لعله يريد أن الرجل يجب ألا يتزوج صغيرا . (المترجم)

بالزواج ، فكانت هذه الخطبة والحالة هذه هي العمل الأول فى مراسم الزواج المعقد . وكانت الخطوة الثانية التى تتبع هذه الخطوة الأولى بعد أيام قلائل هى إقامة وليمة بهذه المناسبة فى بيت الفتاة ؛ وكان الزوج والزوجة قبل أن يحضرا هذه الوليمة يستحمان كل منهما فى بيته استحماما يتطهران به رسمياً ، ثم تقام الوليمة ويجلس رجال الأسرتين فى جانب من جوانب الحجرة ، نساؤها فى جانب آخر ، ثم يأكل الجميع كعكة العرس ويشربون الكثير من الخمر ، ثم يأخذ العريس بيد عروسه المحجبة ذات الثوب الأبيض — ولعله لم يكن قد رأى وجهها من قبل — ويسير بها إلى عربة تقلها معه إلى بيت أمه فى موكب من الأصدقاء ومن الفتيات العازفات على القيثارة ، ويضاء لها الطريق بالمشاعل ، وتنشد لها أناشيد الزواج . فإذا وصلا إلى البيت حملها وتخطى بها عتبة الدار ، كأنه يمثل بذلك أسرها فى العهد القديم ، ويحيي أبوا الزوج الفتاة ، ويستقبلانها استقبالا دينياً ويدخلانها فى دائرة الأسرة وفى عباد آلهتها ؛ ولم يكن للكاهن دور ما فى مراسم الزواج كلها . ثم يرافق الضيوف الزوجين إلى حجرتهما ، وهم ينشدون أنشودة غرفة الزواج ، ويتلكؤون صاخبين عند بابها حتى يعلن لهم العريس أنه قد جنى ثمرة الزواج .

وكان فى وسع الرجل أن يتخذ له فضلا عن زوجته خليلة يعاشرها معاشرة الأزواج . وفى ذلك يقول دمستين : « إنا نتخـذ العاهرات للذة ، والخليلات لصحة أجسامنا اليومية ، والأزواج ليلدن لنا الأبناء الشرعيين ويعنين ببيوتنا عناية تنطوى على الأمانة والإخلاص »[١٠٢] ، وفى هذه الجملة الواحدة العجيبة جمع دمستين رأى اليونان فى المرأة إبان عصرهم الذهبي . وتبيح قوانين دراكون التسرى ، ولما أن قضت الحروب على العدد الكبير من المواطنين بعد الحملة التى سيرت على صقلية سنة ٤١٥ ق . م ، ولم تجد كثيرات من البنات أزواجاً لهن ، أباح

القانون صراحة الزوج باثنتين ، وكان سقراط ويوربيديز من بين من استجابوا لهذا الواجب الوطنى[١٠٣] . وكانت الزوجة عادة تقبل التسرى وتصبر عليه صبر الشرقيات ، لأنها تعرف أن « الزوجة الثانية » متى فارقتها فتنة جمالها أصبحت فى واقع الأمر جارية فى المنزل ، وأن أبناء الزوجة الأولى دون غيرهم هم الذين يعدون أبناء شرعيين . ولم يكن الزنى يؤدى إلى الطلاق إلا إذا ارتكبته الزوجة ، وكان الزوج فى هذه الحال يوصف بأنه يحمـــل قرنين Keroesses[*] ، وكان من واجبه بحكم العادة أن يخرج زوجته من بيته[١٠٤] . وكان القانون يعاقب الزانية ، والرجل إذا زنى بامرأة متزوجة ، بالإعدام ؛ ولكن اليونان بلغوا من التساهل فى الأمور الجنسية حداً يمنعهم من التشدد فى تنفيذ حكم هذا القانون ؛ فكان عادة يترك للزوج المعتدى عليه أن يأخذ بحقه من الزانى بالطريقة التى يختارها — فتارة يقتله فى حالة التلبس ، وتارة يرسل له عبداً يقتله ، وتارة يكتفى بأن يأخذ منه تعويضاً[١٠٥] .

وكان من السهل على الرجل أن يطلق زوجته ، وكان فى وســـعه أن يطردها من بيته متى جاء من غير أن يبدى لذلك سبباً . وكانوا يرون عقم الزوجة سبباً كافياً لطلاقها ، لأن الغرض من الزواج عندهم هو إنجاب الأبناء . أما إذا كان الرجل نفسه عقيماً فقد كان القانون يجيز ، والرأى العام يحبذ ، أن يستعين الزوج فى هذه المهمة بأحد أقربائه . وكان الطفل الذى يولد نتيجة لهذا الاتصال ينسب للزوج نفسه ، وعليه أن يعنى بروحه بعد وفاته . ولم يكن يباح للزوجة أن تترك زوجها متى شاءت ، ولكن كان فى وسعها أن تطلب إلى الأركون أن يطلقها من زوجها إذا قسا عليها أو

(*) وهذا المعنى نفسه موجود فى اللغة العربية فالقرنان عندهم هو الديوث ، وإن كانت المعاجم العربية تقول إن اللفظ مأخوذ من القرونة لا من القرن ، ويقولون فى الإنجليزية to grow horns (المترجم)

تجاوز حد الاعتدال فى شئونه[١٠٦] ، وكان الطلاق يباح أيضاً إذا تراضى الزوجان ؛ وكان هذا التراضى يعبر عنه عادة بإعلانه رسمياً إلى الأركون . وإذا افترق الزوجان بقى الأطفال مع أبيهم حتى إذا ثبت الزنى عليه[١٠٧] . وجملة القول أن العادات والشريعة الأثينية فيما يختص بالعلاقات بين الرجال والنساء كانت كلها من صنع الرجال ، وهى تمثل النكوص عن المستوى الذى وصل إليه المجتمع فى مصر وكريت وبلاد اليونان نفسها فى عصر هومر ، وتميل بالمجتمع الأثينى ناحية الشرق .

الفصل التاسع

المــــرأة

من الأمور التي لا تقل دهشة الإنسان منها عن دهشته من أي شيء آخر في هذه الحضارة ، أنها ازدهرت من غير أن يكون لها عون أو حافز من المرأة . لقد قام عصر الأبطال ، بفضل معونة النساء ، بجلائل الأعمال وبهذه المعونة أنتج عصر الطغاة روائع الشعر الغنائي ، ثم اختفت النساء المتزوجات من تاريخ اليونان بين يوم وليلة ، كأن الأقدار قد أرادت أن تدحض حجة القائلين بأن ثمة ارتباطاً بين مستوى الحضارة في بلد ما ومركز المرأة فيه . فبينا نرى المرأة في تاريخ هيرودوت في كل مكان ، إذ لا نراها في تاريخ توكيديدز في أي مكان ، ونرى الأدب اليوناني من سمنيدز الأمرجوسي Semonides of Amorgos إلى لوشان يكرر أخطاء النساء تكريراً تشمئز منه النفس ، وفي آخر هذا العصر يكرر فلوطارخس الرحيم نفسه قول توكيديدز[١٠٨] : « يجب أن يحبس اسم السيدة المصونة في البيت كما يحبس فيه جسمها[١٠٩] » .

وهذه العزلة النسائية لا وجود لها عند الدوريين ، وأكبر الظن أنها جاءت من الشرق الأدنى إلى أيونيا ، ثم انتقلت من أيونيا إلى أتكا ، فهي جزء من تقاليد آسية . ولعل لاختفاء نظام التوارث عن طريق الأم ، ونشأة الطبقات الوسطى ، وسيطرة النظرة التجارية إلى الحياة ، لعل لهذه الأمور أثرها في هذا التغيير : ذلك أن الرجال في هذه الأحوال ينظرون إلى النساء نظرة نفعية ، فيجعلون أكثر فائدة لهن في البيت . وتتفق الصبغة الشرقية التي اصطبغ بها الزواج اليوناني مع نظام العزلة الأتكية(Attic) ، فهذا الزواج

يقطع الصلة بين العروس وأقاربها ، فتذهب لتعيش عيشة لا تكاد تختلف عن عيشة الخدم في بيت غير بيتها ، تعبد فيه آلهة غير آلهتها . ولم يكن في مقدورها أن تتعاقد على شيء أو أن تستدين أكثر من مبلغ تافه أو أن ترفع قضايا أمام المحاكم . ومن شرائع صولون أن العمل الذى يقوم به إنسان تحت تأثير المرأة عمل باطل قانوناً(١٦٠) ؛ وإذا مات الزوج لم ترث زوجته شيئاً من ماله . وحتى العيب الفسيولوجي في أمور التناسل يعد سبباً مشروعاً لإخضاعها للرجل ؛ فبينا كان جهل الرجل في الأزمنة البدائية بدوره في أمور التناسل يؤدى إلى رفع شأن المرأة ، نرى النظرية السائدة في عصر اليونان الزاهر ترفع من شأن الرجل بتقريرها أن قوة التناسل يختص بها الرجل وحده ، وأن المرأة لا تعدو أن تكون حاملا للطفل ومرضعاً له(١٦١) . وكان كبر سن الرجل عن المرأة وقت الزواج من أسباب خضوع المرأة ، فقد كانت سنه في ذلك الوقت ضعفي سنها ، وكان في وسعه إلى حد ما أن يشكل عقلها حسب آرائه وفلسفته في الحياة . وما من شك في أن الرجل كان يعرف ما يتمتع به الرجال من حرية في المسائل الجنسية في أثينة معرفة تمنعه أن يجازف بإطلاق الحرية لزوجته أو ابنته ، فهو يختار الحرية لنفسه على أن يكون ثمنها عزلة زوجته أو ابنته . ولقد كان في وسعها إذا تحجبت الحجاب اللائق بها ، وصحبها من يوثق به ، أن تزور أقاربها وأخصاءها ، وأن تشترك في الاحتفالات الدينية ومنها مشاهدة التمثيل ؛ أما فيما عدا هذا فقد كان ينتظر منها أن تقبع في منزلها وألا تسمح لأحد أن يراها من النافذة . وكانت تقضى معظم وقتها في جناح النساء القائم في مؤخرة الدار ، ولم يكن يسمح لزائر من الرجال أن يدخ[له] ، كما لم يكن يسمح لها بالظهور إذا كان مع زوجها زائر .

وكانت وهي في البيت تكرم وتطاع في كل ما لا يتعارض مع سلطة زو[جها] الأبوية . فهي تدبر شئون البيت أو تشرف على تدبيرها ؛ وهي ت[...]

الطعـــام ، وتمشط الصوف وتغزله ، وتخيط ثياب الأسرة وتصنع فراشها . ويكاد تعليمها أن يكون مقصوراً على الفنون المنزلية ، لأن اليونان كانوا يعتقدون مثل يوربديز أن ذكاء المرأة يعوقها عن أداء واجباتها[١١٢]. وكانت نتيجة ذلك أن نساء أثينة المحصنات كن أكثر تواضعاً ، وأكثر « فتنة » لأزواجهن من مثيلاتهن فى اسپارطة ، ولكنهن كن فى الوقت نفسه أقل منهن ظرفاً ونضوجاً ، عاجزات عن أن يكن رفيقات لأزواجهن ، لأن عقول هؤلاء الأزواج قد امتلأت وانصقلت بتجاريب الحياة المختلفة ، ومن أجل هذا أفاد الأدب اليونانى كثيراً من اليونانيات فى القرن السادس ولم يفد شيئاً من نساء أثينة فى عصر بركليز .

وقامت فى أواخر هذا العصر حركة تهدف إلى تحرير المرأة . فنرى يوربديز يدافع عن النساء فى خطب جريئة وغمزات خفيفة ، أما أرسطوفان فيسخر منهن بألفاظ وقحة صاخبة . وتنزل النساء إلى الميدان فى حركة التحرير ويخترن أقوى سلاح فيبدأن ينافسن الهيتاميراى ويجملن أنفسهن بكل ما يمدهن به تقدم الكيمياء من معونة . وشاهد ذلك سؤال تسأله كليونيكا Cleonica فى مسرحية ليسستراتا Lysistrata لأرسطوفان : « أى شىء معقول نستطيع أن نقوم به نحن النساء ؟ إنا لا نستطيع أن نفعل أكثر من أن نجلس جماعات بأدهاننا ، وأصباغ شفاهنا ، وأثوابنا الشفافة وما إلى ذلك »[١١٣] . وتصبح أدوار النساء من عام ٤١١ أكثر شأناً فى المسرحيات الأثينية مما كانت من قبل ، وهى تكشف عن خروج المرأة شيئاً فشيئاً من العزلة التى كانت مفروضة عليها .

على أن سلطان المرأة الحقيقى على الرجل يظل قائماً فى خلال هذا التغير كله ، ويجعل خضوعها للرجل خضوعاً غير حقيقى إلى حد كبير . إن اشتياق الرجل للمرأة أكثر من اشتياق المرأة للرجل يكسب المرأة فى اليونان كما يكسبها فى غيرها من البلاد ميزة كبرى عليه . وفى ذلك يقول صمويل چنسن : « سيدى ؛ لقد وهبت الطبيعة المرأة من القوة ما لا تستطيع الشرائع أن تزيد عليه شيئاً »[١١٤]

وقد يضاعف من هذه السيادة الطبيعية أحياناً باثنتها الكبيرة ، أو لسانها السليط ، أو حب زوجها لها حباً يجعله خاضعاً ذليلا لها . وأكثر ما يقوم عليه سلطانها وجمالها ، أو إنجاب الأبناء الظرفاء وتربيتهم ، أو انصهار روحها وروح زوجها فى بوتقة التجارب والواجبات المشتركة ، إلا أن عصراً يستطيع أن يصور شخصيات ظريفة مثل أنتجونى ، والسستيس ، وإفجينيا ، وأندرمكى ، ويصور بطلات مثل هكيبا ، وكسندرا ، وميديا ، إن عصراً يستطيع أن يفعل هذا لا يمكن أن يجهل أسمى ما فى المرأة وأعمق ما فيها . لقد كان الأثينى العادى يحب زوجته ، ولم يكن على الدوام يحاول أن يستر هذا الحب ، وإن الألواح الجنازية لتكشف عن حنو الزوج على زوجته وحنو الآباء على أبنائهن فى داخل جدران المنزل ، وهو فى كلتا الحالين حنو يثير الدهشـــة . وفى دواوين الشعر اليونانية كثير من الشعر الغزلى الواضح الصريح ، ولكن فيه أيضاً كثيراً من المقطوعات الشعرية المؤثرة التى تخاطب بها الرفيقة المحبوبة ! . انظر مثلا إلى هذه القبرية : « فى هذا الحجر وارى مرثونيز Marethonis نيقوپوليس Nieopolis ، وروى صندوقها الرخامى بعبراته ، ولكن هذا لم يجده نفعاً . وهل ثمة فائدة تعود على رجل فارقته زوجته ، وبقى هو وحيداً على ظهر الأرض ؟ »[١١٥]

الفصل العاشر

المـــنزل

وكانت الأسرة اليونانية ، كالأسر الهندوسية بوجه عام ، تتكون من الأب والأم ، « الزوجة الثانيـــة » أحياناً ، ومن بناتهما غير المتزوجات ، وأبنائهما ، وعبيدهما ، وزوجات أبنائهما وأطفالهم ، وعبيدهم . وقد بقيت هذه الأسرة إلى آخر تاريخ اليونان أقوى الأنظمه في الحضارة اليونانية ، لأنها كانت وحدة الإنتاج الاقتصادى وأداته في الزراعة والصناعة على السواء . وكان للأب في أتكا سلطان واسع في أسرته ، ولكنه كان أقل من سلطان الأب في رومة ؛ فقد كان في وسعه أن يعرض الطفل الحديث الولادة للموت ، ويبيع عمـــل أبنائه القاصرين وبناته غير المتزوجات ، ويزوج بناته لمن يشاء ، ويختار زوجاً آخر لأرملته بعد وفاته في بعض الظروف المعينة[١٢٦] . ولكن القانون الأثيني لم يكن يجيز له أن يبيع أبناءه أنفسهم ، وكان كل ولد من أولاده إذا تزوج يخرج عن سلطان أبيه ، وينشئ لنفسه بيتاً خاصاً ويصبح عضواً مستقلا في العشيرة .

ولم يكن البيت اليونانى على شيء من الفخامة . فقلما كان بناؤه الخارجى يزيد على سور سميك خال من الزينة ذى مدخل ضيق ، وهو شهادة صامتة على ما كان يكتنف الحيـــاة اليونانية من أخطار . وكانت مادة البناء هى الستّوق Stucco ، واللبن في معظم الأحيان . وكانت بيوت المدينة تتجمع في شوارع ضيقة ، وترتفع في الغالب طابقين ، وتكون أحياناً مساكن مستقلة لعدة أسر ، ولكن كل مواطن كان يمتلك في الغالب بيتاً مستقلا . وظلت المساكن صغيرة في أثينة حتى ضرب ألسبيديز لأهلها مثلا في الفخامة ؛ ذلك

أن النزعة الدمقراطية ، يقويها الحذر الأرستقراطى ، كانت تحول بين الأهلين وبين التفاهم والتظاهر ، وكان تعود الأثينى قضاء أكثر وقته فى الهواء الطلق يصرفه عن أن يكون للبيت نفسه من المعنى ومن الإعزاز ما له فى المناطق الباردة . وكان لبيت الأثينى الغنى فى بعض الأحيان مدخل ذو عمد مواجه للشارع ، ولكن هذا كان من المظاهر الشاذة النادرة . كذلك كانت النوافذ ترفاً نادر الوجود ، وإذا وجدت اقتصرت على الطابق الأعلى ، ولم تكن لها ألواح زجاجية ، ولكنها كانت تغلق بمصاريع خشبية ، أو تكون مشبكة لتحجب أشعة الشمس . وكان الباب الخارجى يتكون عادة من مصراعين يدوران على محورين ينفذان فى إسكفة الباب وعتبته . وكانت أبواب الكثير من بيوت الأغنياء مطرقة معدنية تتخذ فى أغلب الأحيان صورة حلقة فى فم أسد(١١٧) . وكان يمتد من مدخل الدار — إلا فى دور الفقراء — ممشى يؤدى إلى فناء مكشوف يسمى الأول Aule يرصف عادة بالحجارة ، ويحيط به أحياناً رواق وعمد ، وقد يكون فى وسطه مذبح أو حوض أو كلاهما ، مزدان أحياناً بالعمـــد ، ومرصوفة أرضيته بالفسيفساء . ويدخل أكثر الهواء وضوء الشمس إلى البيت من هذا الفناء ، لأن الأبواب جميع حجراته تفتح فيه ، وكان لا بد لمن يريد الدخول من حجرة إلى حجرة أن يدخل الرواق أو الفناء . وكانت الأسرة تقضى معظم حياتها ، وتقوم بأكثر أعمالها ، فى ظلال الرواق والفناء وخلوتهما .

وكانت الحدائق نادرة فى المدينة ، وتقتصر على مساحات صغيرة فى فناء البيت أو خلفه ، أما حدائق الريف فكانت أكثر من حدائق المدينة عدداً وأوسع رقعة ؛ ولكن قلة الأمطار فى الصيف وتكاليف الإرواء قد جعلا الحدائق فى أتكا ترفاً لا يستمتع به إلا القليلون . ولم يكن اليونانى العادى مرهف الحسى بالطبيعة كروسو Rousseau ، وكانت جبال بلاده لا تزال من أسباب متاعبه ، ولهذا لم تكن فى نظره جذابة جميلة ، وإن كان شعراء اليونان

ينظمون القصائد التى يتغنون فيها بجمال البحر رغم أخطاره الشديدة . ولم تكن الطبيعة تثير عواطفه ، بقدر ما كان يتخيله فيها من كائنات روحية ، فهو يملأ الغابات ومجارى المياه فى بلاده بالآلهة والأشباح ، وإذا فكر فى الطبيعة لم يكن تفكيره فى جمال مناظرها ، بل فى أنها مكان تتنعم فيه أرواح الأبطال الذين قتلوا فى الميدان . وهو يطلق على جباله وأنهاره أسماء الأرباب الذين يسكنونها ، ولا يرسم الطبيعة ذاتها بل يرسم بدلا منها صوراً رمزية للآلهة التى تبعث فيها الحياة حسب ما تحدثه ديانته الشعرية ، أو ينحت لها تماثيل ترمز إلى هذه الآلهة . ولم ينشئ اليونانى لنفسه حديقة أو « جنة » ينعم بها ، وظل كذلك حتى عادت إليه جيوش الإسكندر بأساليب الفرس وذهبهم . ومع هذا فقد كانت الأزهار محبوبة فى بلاد اليونان كما كانت محبوبة فى غيرها من البلاد ، وكانت الحدائق تنبتها ، وبائعات الأزهار تمدهم بها ، طوال العام . فكانت الفتيات البائعات يتنقلن من بيت إلى بيت يبعن الورد ، والبنفسج ، والزنبق والنرجس ، والسوسن والآس ، والليلق ، والزعفران ، وشقائق النعمان . وكانت النساء يزين شعرهن بالأزهار ، والشبان المتأنقون يضعونها خلف آذانهم ؛ وكان الرجال والنساء يخرجون فى الأعياد وحول رقابهم عقود من الأزهار(١١٨) .

وكان البيت من داخله غاية فى البساطة . فأما الفقراء فكانت أرض بيوتهم طيناً جف وتصلب ، فلما زاد دخل هؤلاء أخذوا يغطون هذه الطبقة الأرضية بالحصباء أو يرصفونها بحجارة مستوية ، أو بقطع منها صغيرة فى أرضية من الأسمنت . كما كان أهل الشرق الأدنى يفعلون من أقدم الأزمان . وكانوا أحياناً يغطون هذا بالحصر أو الأبسطة . وكانت الجدران المقامة من الآجر تطلى بالجص أو بالجير . وكانوا يدفئون أنفسهم على مواقد من نحاس يخرج دخانها من أبواب الحجرات إلى فناء الدار ، ولم يكونوا يحتاجون إلى هذه التدفئة أكثر من ثلاثة أشهر فى العام . وتكاد البيوت أن تكون خالية من

الزينة ، لكن الأغنياء فى أواخر القرن الخامس أخذوا يزينون بيوتهم بالأبهاء ذات العمد ، وجدرانهم بقطع من الرخام أو بطلاء يجعلها شبيهة بألواح الرخام ، ويعلقون على هذه الجدران صوراً ملونة أو قطعاً من القماش المزركش ، ويحلون سقفها بنقوش على الطراز العربى . وكان الأثاث قليلا فى البيوت العادية — فلم يكن يزيد على بضعة كراسى وصناديق ، وقليل من النضد ، وسرير . وكانت الوسائد توضع على الكراسى بدل المقاعد المنجدة ، ولكن كراسى الأغنياء كانت تزين فى بعض الأحيان بنقوش محفورة فيها بعناية فائقة ، أو تطعم بالذهب أو بأصداف السلاحف ، أو العاج . وكانت الصناديق تتخذ أصونة ومقاعد معاً ، وكانت النضد صغيرة ، تقف عادة على ثلاث أرجل ، وهذا هو سبب تسميتها « بالطرابيزات » أى ذات الأرجل الثلاث . وكان يؤتى بها مع الطعام ثم ترفع بعده ، وقلما كانت تستخدم فى غير هذا الغرض ، فقد كانوا يكتبون على ركبهم . وكانت الأرائك والأسرة من وسائل الزينة المحبوبة ، وكانوا يعنون كثيرا بحفرها وتطعيمها وكانت لها حشايا ووسائد وأغطية للفرش مطرزة ووسائد للرأس مرتفعة وكانت المصابيح تعلق من السقف أو توضع على قواعد ، أو تتخذ شكل مشاعل جميلة النقش .

وكان المطبخ مجهزاً بكثير من الأوانى المختلفة المصنوعة من الحديد ، والبرنز ، والخزف . أما الزجاج فكان من مواد الترف النادرة . ولم يكن يصنع فى بلاد اليونان . وكان الطعام يطهى فوق نار فى العراء ، أما المواقد فكانت بدعة اخترعت فى البلاد التى اصطبغت بالصبغة اليونانية . وكانت الوجبات الأثينية بسيطة . مثلها فى ذلك مثل الوجبات الاسپارطية ، وتختلف كثيراً عن الوجبات البؤونية ، والكورنثية ، والصقلية ؛ فإذا كان الأثينيون ينتظرون قدوم ضيف يريدون تكريمه استخدموا فى العادة طاهياً محترفاً ، وكان دائماً من الرجال . وكان الطهو فناً راقياً ألفت فيه

كثير من الكتب واشتهر به كثير من الأبطال ، فن الطهاة اليونان من لا تقل شهرتهم لدينا عن شهرة آخر الأبطال الفائزين فى الألعاب الألمپية . وكان الأثينيون يعدون من يأكل منهم بمفرده جلفا غير مهذب ، وكانت آداب المائدة عندهم دليلا على ارتقاء الحضارة . وكان الأولاد والنساء يجلسون حول موائد صغيرة ، أما الرجال فكانوا يتكئون على آرائك تتسع الواحدة لرجلين . وكانت الأسرة تأكل مجتمعة إذا لم يكن عندها غرباء ؛ فإذا كان لديها ضيوف من الرجال انسحبت نساء الأسرة إلى جناح الحريم . وكان الخدم يخلعون نعال الضيوف أو يغسلون لهم أقدامهم قبل أن يتكئوا على الأرائك ويقدمون لهم الماء ليغسلوا به أيديهم ؛ وكانوا فى بعض الأحيان يدهنون لهم رءوسهم بالزيوت المعطرة ؛ ولم يكونوا يستخدمون السكاكين أو الشوك ، ولكنهم كانوا يستخدمون الملاعق ، ويتناولون الطعام بالأصابع . وكانوا فى أثناء الطعام ينظفون أصابعهم بلقيمات من الخبز ، ويغسلونها بعدئذ بالماء . وكان الخدم يملئون قدح كل ضيف قبل تناول الحلوى من آنية تحتوى على خمر مخفف بالماء . وكانت الصحاف من الخزف ، ثم ظهرت الصحاف الفضية فى آخر القرن الرابع ؛ وبدأ المتأنقون فى الطعام والشراب يزداد عددهم فى القرن الرابع ؛ ومن هؤلاء رجل يدعى بيثلس Pithyllus صنع للسانه وأصابعه أغطية يستطيع بها أن يأكل الطعام مهما كانت حرارته(١١٩) . وكان منهم بعض من يقتصرون على الخضر ، وكان ضيوف هؤلاء يسخرون منهم ويشكون كعادة الضيوف مع أمثالهم . من ذلك قول أحدهم : « إنه هرب من وليمة لا تقدم فيها إلا الخضر خشية أن تكون حلواها هى الدريس »(١٢٠) .

ولم يكن الشراب أقل شأنا عندهم من الطعام ، فكان الغذاء (الديپنون deipnon) يتلوه الشراب الجماعى symposion . وكان فى اسپارطة وأثينة

أندية للشراب تتوثق العلاقة بين أعضائها توثقا تصبح معه هذه الأندية أدوات سياسية عظيمة القوة .

وكانت الإجراءات التي تتبع في الولائم كثيرة التعقيد ، وكان الفلاسفة أمثال زنوكراتس Xenocrates وأرسطاطاليس يرون أنه يحسن بهم أن يضعوا لها قوانين[١٢١] .

وكانت الأرض التي يلقى عليها ما لا يؤكل من الطعام تنظف بعد الانتهاء من تناوله ، ويطوف عليهم الخدم بالروائح العطرية والخمر الكثير . ثم يرقص الضيوف إذا شاءوا ، ولكنهم لم يكونوا يرقصون أزواجاً أو مع النساء (لأن الرجال وحدهم هم الذين كانوا يدعون عادة إلى الولائم) بل جماعات ، أو كانوا يلعبون ألعاباً كالكتوموس[*] ، أو يتقارضون الشعر ، أو يتبادلون الملح ، أو الألغاز ، أو يشاهدون ألعاباً يقوم بها رجال محترفون ونساء محترفات ، كالبهلوانة التي يحدثنا عنها زنوفون « مقالاته الدورية » ، والتي تقذف اثني عشر طوقاً دفعة واحدة ثم ترقص رقصة الانقلاب في الهواء في داخل طوق ، « أحيط من جميع جوانبه بالسيوف القائمة »[١٢٥] . وكان يحدث أحياناً أن تظهر أمام الضيوف بنات يعزفن على القيثارات ، ويغنين ، ويرقصن ، ويغازلن غزلا دبر أمره من قبل . وكان الأثينيون المتعلمون يفضلون عن هذا أن يجتمعوا ليتناقشوا نقاشا ينظمه لهم رئيس منهم يختارونه بقذف النرد . وكان الضيوف يحرصون على ألا ينقسم المجلس إلى طوائف صغيرة ، لأن معنى هذا الانقسام في العادة أن كل طائفة تتحدث مستقلة ، بل كانوا يحرصون على أن يكون الحديث عاما ،

(*) وكانت هذه اللعبة تتكون من قذف السائل من قدح بحيث يصيب جسما صغيرا على بعد منه .

وكانوا يصغون إلى كل متحدث إذا جاء دوره بالأدب والعطف الذى يسمح به ما هم فيه من مرح . وما من شك فى أن الحديث الظريف الذى يقصه علينا أفلاطون من نسيج خيال هذا الفيلسوف النابه ، ولكن أكبر الظن أن أثينة قد شهدت محاورات لا تقل حيوية عن محاورات أفلاطون ، وسواء كان ذلك أو لم يكن فإن المجتمع الأثينى هو الذى أوحى إلى أفلاطون بمحاوراته ، وهذا المجتمع هو مرجعها وموضوعها . وفى وسط هذا الجو المنعش المنبه جو التابهين الأحرار تكونت العقلية الأثينية .

الفصل الحادى عشر

الشيخوخة

لقد كان اليونانى يحب الحياة ويكره الشيخوخة ويندبها . على أن هذه الشيخوخة نفسها كان فيها ما يذهب ببعض أحزانها ، فقد كان يعزى الشيخ الهرم أن يرى قبل أن يبلى جسمه حياته الجديدة فى صورة أبنائه وأحفاده فيخدع نفسه ويظنه مخلدا ، كأنه درهم بال عاد إلى دار الضرب ليصهر ويسك من جديد . لسنا ننكر أن فى تاريخ اليونان أمثلة من إهمال الشباب للشيوخ أو إساءة معاملتهم إهمالا وإساءة مبعثهما الأثرة الممقوتة ، وسبب ذلك أن المجتمع الأثينى مجتمع تجارى ، فردى النزعة ، مجدد غير محافظ ؛ وكل هذه عوامل تجعله ينزع إلى عدم الشفقة على الشيوخ ، لأن احترامهم من خصائص المجتمع الدينى المحافظ مثل مجتمع اسپارطة ؛ أما الدمقراطية فإن ما فيها من حرية يحل عرى الصلات ، ويركز اهتمام الناس بالشباب ، ويفضل الجديد على القديم . ولهذا نجد فى تاريخ الأثينيين أمثلة عدة لأبناء يستولون على ملك آبائهم فى حياتهم ، وإن لم يثبت العته على هؤلاء الآباء[١٢٣] ، ولكن سفكليز ينجى نفسه من هذا المصير ، ولا يكلفه هذا أكثر من أن يقرأ للمحكمة أن تنظر فى أمره فقرات من آخر مسرحية له . غير أن الشرائع الأثينية تأمر الأبناء أن يعولوا آباءهم العجزة أو الطاعنين فى السن[١٢٤] ، والرأى العام ، الذى يخشاه الناس على الدوام أكثر مما يخشون القانون ، يفرض على الشباب أن يبجلوا الكبار ويتواضعوا أمامهم . ويروى أفلاطون أن من الأمور المسلم بها أن يظل الشباب الحسن التربية صامتاً فى حضرة الكبار إلا إذا طلب إليه الكلام[١٢٥] : وفى الآداب الأثينية صور كثيرة للشباب المتواضع ، منها المحاورات الأولى لأفلاطون

ومنها مقالات زنوفون الدورية ، وفى هذا الأدب قصص مؤثرة عن وفاء الأبناء للآباء ، كوفاء أرمنتيز لأجمنون ووفاء أنتجونى لأوديب .

فإذا حانت منية الشيخ حرص الأحياء أشد الحرص على أن يجنبوا روحه كل ما يستطيعون أن يجنبوها من الآلام . فالجسم يجب أن يدفن أو يحرق ، وإلا فإن الروح تهيم قلقة مضطربة حول العالم ، وتثأر لنفسها من أبناء الشيخ المهملين . فقد تظهر مثلا فى صورة طيف ، وتصيب النبات والإنسان بالأمراض والكوارث . وكان إحراق الموتى أكثر انتشاراً فى عصر الأبطال ودفنهم أكثر انتشاراً فى العصر الذهبى . والدفن عادة مأخوذة عن الميسينيين وقد بقيت إلى العصر المسيحى ، ويبدو أن عادة إحراقهم جاءت إلى بلاد اليونان مع الآخيين والدوريين . لأن عاداتهم البدوية لا تمكنهم من أن يعنوا العناية الواجبة بالقبور . وجملة القول أن الدفن أو الإحراق واجب يلزم به الأثينيون ، وقد بلغ من حرصهم عليه أن القواد المنتصرين فى أرجنوسى قد أعدم[illegible] عاصفة حالت بينهم وبين استعادة جثث موتاهم ودفنها .

وأبقت عادات الدفن اليونانية الأساليب القديمة إلى ما بعد عصرها بزمن طويل . من ذلك أن الجثة كانت تغسل بالماء ، وتدهن بالعطور ، وتكلل بالأزهار ، وتلبس أحسن ما تستطيع الأسرة أن تبتاعه لها من الثياب ، ثم توضع أبلة بين أسنانها لتؤديها أجراً لكارون صاحب القارب الأسطورى الذى ينقل الموتى فى نهر أستيكس إلى مقرهم الأخير(*) . وتوضع الجثة فى تابوت من الفخار أو الخشب . وكان من أمثال اليونان الأقدمين قولهم « إن إحدى قدمى الشخص فى التابوت » ويعنون بذلك ما نعنيه نحن بهذا المثل

(*) لقد كان من عادة اليونان أن يصلوا الفكة فى أفواههم .

نفسه(*) . ويتخذ الحزن على الموتى عدة مظاهر مقررة : منها لبس الثياب السود ، وقص الشعر كله أو بعضه ليقدم هدية للميت . وفى اليوم الثالث بعد الموت تحمل الجثة فى نعش ويطوف موكب الجنازة بشوارع المدينة ، والنساء من خلف الجثة يبكين ، ويضربن صدورهن ، وقد تستأجر نادبات محترفات يندبن الميت ؛ وتصب الخمر على التراب الذى يغطى القبر لتروى به روح الميت غليلها ، وقد تذبح بعض الحيوانات لتكون طعاماً لها . ويضع مشيعو الجنازة على القبر أكاليل من الأزهار أو ورق السرو[١٢٧] ، ثم يعودون إلى منزل الميت ليحتفلوا بالجنازة . وإذ كان من معتقداتهم أن روح الميت تشهد هذا الاحتفال ، فقد كان من عاداتهم المقدسة « ألا يذكروا عن الميت إلا الخير(**) » . وقد كانت هذه العادة منشأ قانون قديم يفرض على الأحياء ألا يذكروا إلا محاسن الموتى ؛ ولعلها هى أيضاً منشأ ما يكتب على شواهد القبور من مديح . وكان أبناء الميت يزورون قبور أسلافهم فى مواسم معينة ، ويقدمون لهم الطعام والشراب ؛ وقد تعهد أهل بلاتية بعد المعركة المسماة باسم مدينتهم والتى قتل فيها عدد من اليونان من مختلف المدن ، تعهدوا أن يقيموا لجميع الأموات وليمة سنوية ، وكانوا لا يزالون يوفون بوعدهم هذا بعد أن مضت على المعركة ستة قرون كاملة .

وكانت الروح تنفصل من الجسم بعد الموت وتصبح طيفاً غير مادى يسكن فى الجحيم . ويستفاد من أقوال هومر أن الأرواح التى ارتكبت ذنوباً شنيعة أو مرقت من الدين هى وحدها التى تعذب فى تلك الدار ، أما سائر الأرواح

(*) ويقابل هذا قول عامة مصر « إن رجله فى القبر » .

(**) قارن هذا بقولنا : « اذكروا محاسن موتاكم » . (المترجم)

بعدئذ ، سواء كانت أرواح قديسين أو مذنبين ، فكان مصيرها كلها أن تطوف إلى أبد الدهر حول مملكة بلوتو المظلمة . وقد نشأ فى التاريخ اليونانى على تعاقب الأيام اعتقاد جديد بين الطبقات الفقيرة مضمونة أن الجحيم مكان يكفر فيه المذنبون عن ذنوبهم ؛ ويصور إسكلس زيوس وهو يحاسب الموتى فى ذلك المكان ، فيعاقب المذنبين ، وإن كان لا يذكر كلمة واحدة عن إثابة الصالحين[١٢٩] . ولسنا نسمع إلا القليل عن الجزائر المباركة أو الحقول الإليزية مواطن السعادة الأبدية التى ينعم فيها عدد قليل من أرواح الأبطال . فالتفكير فيما ينتظر جميع الأموات من مصير محزن نكد يخيم على الأدب اليونانى ويجعل الحياة اليونانية أقل بهجة وانشراحاً مما يجب أن تكون عليه الحياة تحت هذه السماء الصافية .

الباب الرابع عشر

الفن اليونانى فى عصر بركليز

الفصل الأول

زينة الحياة الدنيا

تقول إحدى الشخصيات فى كتاب « الاقتصاد » لزنوفون : « جميل أن ترى الأحذية مرتبة فى صف حسب أنواعها ؛ وجميل أن ترى الثياب والأغطية مقسمة حسب منافعها ؛ وجميل أيضاً أن ترى أوانى الطبخ مرتبة بذوق وتنسيق ، وإن سخر من ذلك الثرثارون المتفيهقون . أجل إن الأشياء جميعها بلا استثناء يزداد جمالها إذا نسقت وصفت بانتظام . فهذه الأوانى كلها تبدو حينئذ كأنها مجموعة متناسقة يكمل بعضها بعضا ومركزها المتكون منها جميعاً يخلق فيها جمالا يزيده بُعد القطع الأخرى من المجموعة .

هذه الفقرة التى كتبها قائد حربى تكشف عن مدى إحساس اليونان بالجمال ، وعن بساطة هذا الإحساس وقوته . وهذا الإحساس بأهمية الشكل والتناسق ، وبالدقة والوضوح ، وبالتناسب والنظام ، هو العامل الأساسى فى الثقافة اليونانية ؛ وتراه واضحاً فى شكل كل وعاء ومزهرية ونقشهما ، وفى كل مؤلف يونانى فى العلم والفلسفة . إن الفن اليونانى هو العقل مجسما واضحاً والتصـــوير اليونانى هو منطق الخطوط ، والنحت اليونانى هو عبادة التناسب ، والعمارة اليونانية هى الهندسة الرخامية . ليس فى الفن

البركليزى مغالاة فى العواطف ، ولا شذوذ فى الشكل أو محاولة تهدف إلى التجديد عن طريق الغريب غير المألوف(*) ؛ وليس الغرض الذى يرمى إليه هو تمثيل ما فى الحقائق الواقعية من الخلط وعدم التناسق ، بل الغرض من هذا الفن هو الاستحواذ على جوهر الأشياء الذى ينيرها ، وتصوير إمكانيات الناس المثالية . ولقد استحوذ السعى للحصول على الثراء والجمال والمعرفة على عقول الأثينيين فشغلهم عن التفكير فى التقى والصلاح ، وفى ذلك يقول أحد المدعوين إلى وليمة عند زنوفون : « قسما بالآلهة جميعهم أنى لو أعطيت كل ما لملك الفرس من سلطان لفضلت عليه الجمال »[٣] .

ولم يكن اليونانى ، مهما تكن الصـــورة التى يرسمها له الروائيون فى العصور التى هى أقل من عصره رجولة ، عابداً مخنثاً للجمال ، أو إنساناً يستخفه الطرب ويتغنى بأسرار الفن حباً فى الفن ، بل كان يُخضع الفن فى فكره للحياة ، ويفكر فى الحياة على أنها أعظم الفنون على الإطلاق . وكان ذا نزعة نفعية تميل به عن الجمال الذى لا نفع فيه ، وكان النافع والجميل والطيب مرتبة كلها فى تفكيره ارتباطها فى فلسفة سقراط(**) ، وكان يرى أن الفن هو قبل كل شىء تجميل طرق الحياة ووسائلها . فكان يتطلب أن تكون آنيته ومصابيحه ، وصناديقه ونضده ، وسرره وكراسيه نافعة وجميلة معاً ، وألا تبلغ من الرشاقة والجمال حداً يفقدها صلابتها . وكان وضوح « إدراكه للدولة » يوحد بينه وبين قوة المدينة وعظمتها ، فاستخدم من ثم آلاف الفنانين لتجميل أماكنها العامة ، وتعظيم أعيادها ، وإحياء تاريخها . وأهم من هـــذا كله أنه كان يحرص على أن يكرم آلهته ، ويستجلب عطفهم ورضاهم ، ويعبر عن شكره لهم لمـــا وهبوه من حياة أو نصر . وكان يهدى إليهم النذور من الصور والتماثيل ، ويهب الهياكل الشىء

(*) يقول توكيديدز على لسان بركليز : « نحب الجمال دون إسراف »[٢] .

(**) يقول استندال Stendhal : « ليس الشىء الجميل عند الأقدمين إلا صورة رائعة الشىء النافع »[٤] .

الكثير من ماله ، ويستأجر الفنانين لينحتوا صور آلهته أو موتاه فى الحجارة . ومن أجل هذا لم ينشأ الفن اليونانى ليوضع فى المتاحف فيتردد عليها الناس ليتأملوه فى اللحظات القليلة التى يشعرون فيها بالرغبة فى إشباع حاسة الجمال ، لكنه نشأ لكى يخدم مصالح الناس ومشروعاتهم الحقيقية ؛ ولم يكن ما صاغه من تماثيل لأپلو قطعاً متينة من الرخام تصف فى معرض للفن ، بل كانت صوراً تمثل أرباباً محبوبة ؛ ولم تكن المعابد أماكن يعجب بها الزائرون ، بل كانت مواطن لهذه الأرباب الحية ، ولم يكن الفنان فى المجتمع الأثينى ناسكا يعتزل الناس مفلساً عاكفاً فى مرسمه ، يعبر عما فى نفسه بلغة لا يفهمها المواطن العادى ؛ بل كان فى حقيقة أمره صانعاً ماهراً ، يشتغل مع عمال من جميع الدرجات بعمل عام يفهمه جميع الناس . وقد جمعت أثينة من جميع أنحاء اليونان طائفة من الفنانين ، ومن الفلاسفة والشعراء ، أكبر مما جمعته أية مدينة أخرى فى العالم إذا استثنينا رومة فى عهد النهضة . وكان هؤلاء الناس يتنافسون أشد التنافس ويتعاونون فيما بينهم فى ظل حكم مستنير ، وبفضـــل هذين التنافس والتعاون حققوا إلى حد كبير أحلام بركليز .

والفن يبدأ فى المنزل وبشخص الفنان . فالناس يصورون أنفسهم قبل أن يصوروا شيئاً آخر ، ويزينون أجسامهم قبل أن يزينوا بيوتهم ؛ فالحلى ، كأدهان الزينة ، قديمة العهد قدم التاريخ نفسه . ولقد برع اليونانى فى قطع الجواهر ونقشها ، وكان يستخدم فى هذا العمل آلات بسيطة من البرنز ، كالمثاقب البسيطة والأنبوبية ، وحجر الجلخ ، ومادة للصقل مكونة من (الصنفرة) والزيت[٥] . ولكن عمله مع هذا كان يبلغ من الدقة والإتقان درجة يحتاج إنجاز دقائقها ، فى أكبر الظن ، إلى منظار مكبر ، وإلى هذا المنظار بلا ريب لتتبع هذه الدقائق[٦] . ولم تكن النقود على درجة كبيرة من الجمال فى أثينة حيث كانت صورة البومة الكثيبة هى التى تنقش على معظم النقود ؛

وكانت إليس صاحبة الزعامة على جميع مدن اليونان الأصلية فى هذا الميدان ، ثم أصدرت سرقوسة فى أواخر القرن الخامس قطعة ذات عشر درخمات لم تفقها قط قطعة أخرى فى جمالها الفنى . وقد احتفظ فنانو كلسيس بزعامة المدن اليونانية فى النقش على المعادن ، وكانت كل مدينة فى حوض البحر الأبيض المتوسط تعمل للحصول على أدواتها الحديدية ، والنحاسية ، والفضية . وكانت المرايا اليونانية أبعث للسرور مما تستطيعه معظم المرايا بطبيعتها ؛ ذلك أن الإنسان وإن لم يكن فى وسعه أن يرى خياله واضحاً كل الوضوح فى سطح من البرنز المصقول ، فإن المرايا نفسها كانت على أشكال مختلفة جذابة ، وكثيراً ما كانت منقوشة نقشاً متقناً بديعاً ، وكانت تحملها تماثيل الأبطال ، أو النساء الحسان ، أو الآلهة .

وظل الفخرانيون يمارسون صنع الأشكال ويتبعون الأساليب التى كانت لديهم فى القرن السادس محتفظين بهزلهم ومنافساتهم التقليدية . وكانوا أحياناً ينقشون على الآنية قبل إحراقها كلمة حب يوجهونها إلى غلام ؛ وقد جرى فدياس نفسه على هذه العادة حين حفر على إصبع الصورة التى صنعها لزيوس : « إن بنتاركس جميل » . وفى النصف الأول من القرن الخامس وصل طراز الصور الحمراء ذروته فى مزهرية أخيل وبنثيسيليا ، وكأس إيسوب والثعلب المحفوظ فى متحف الفاتيكان ، وصورة أرفيوس بين التراقيين المحفوظة فى متحف برلين . وأجمل من هذه كلها قوارير الدهن البيضاء التى صنعت فى منتصف ذلك القرن . وكانت هذه القوارير الرفيعة تصنع لأغراض خاصة وتدفن معهم عادة ، أو تلقى فوق كومة الحطب التى تحرق عليها أجسامهم حتى يمتزج ما فيها من الزيت المعطر بلهب الحطب . وحاول ناقشو المزهريات أن يخرجوا مستقلين فرديين فى عملهم ، وكانوا أحياناً ينقشون على الآنية قبل إحراقها موضوعات لو رآها فنانو العصر القديم المحافظون لأثارت دهشتهم . من ذلك أن مزهرية رسمت عليها صورة شبان يعانقون بعض عشيقاتهم بلا حياء ، ورسم على مزهرية أخرى

رجال يتقايئون وهم خارجون من وليمة ؛ وعلى مزهريات غير هذه وتلك صور تمثل كل ما يستطاع عمله في شئون التربية الجنسية[٨]. وقد ترك صناع المزهريات في عصر بركليز — بريجوس Brygus . وسوتاذيز ، وميدياس — الأساطير القديمة واختاروا لهم مناظر من حياة الناس في عصرهم ، وأكثر ما كانوا يسرون منه حركات النساء الرشيقة ، ولعب الأطفال الطبيعي . وكانوا أصدق في رسمهم من سابقيهم : فكانوا يظهرون من الجسم منظره الجانبي أو يظهرون ثلاثة أرباع منظره الكامل ، وكانوا يبينون الضوء والظل باستعمال محلول للطلاء الزجاجي خفيف أو غليظ ، ويرسمون الصور بحيث تبين الخطوط الخارجية والعمق وثنايا أثواب السيدات . وكانت كورنثة وصقلية مركزين لطلاء المزهريات الدقيقة التي كانت تصنع في ذلك العهد ، ولكن أحداً لم يكن يشك في تفوق الأثينيين على كل من عداهم في هذه الناحية . ولم يكن الذي انتزع السيادة من فخراني السرمكس (حي الفخرانيين في ضواحي أثينة) هو منافسة غيرهم من الفخرانيين ، بل كان قيام فن النقش المنافس لفنهم هذا . وحاول رسامو المزهريات أن يردوا هذا الهجوم بتقليد موضوعات الناقشين على الجدران وطرزهم ، ولكن أذواق العصر لم تكن معهم ، وأخذ فن الفخراني يتحول شيئاً فشيئاً في خلال القرن الرابع من فن جميل إلى صناعة تسد حاجة الناس .

الفصل الثانى

نشأة فن التصوير

اجتاز تاريخ التصور اليونانى خمس مراحل ، ففى القرن السادس كان معظمه يهدف إلى تزيين الخزف وبخاصة المزهريات ؛ وفى القرن الخامس كان أهم ما يعنى به العمارة وبخاصة طلاء المبانى العامة والتماثيل بالألوان المختلفة ؛ وفى القرن الرابع كان يحوم حول المنازل والأفراد فيزين المساكن ويرسم الصور ؛ وفى العصر الذى اصطبغت فيه البلاد الخارجية بالصبغة اليونانية كان معظمه فردياً يخرج صوراً تباع لمن يرغب فيها من الأفراد . وقد بدأ فن التصوير حين تفرع من الرسم العادى وبقى إلى آخر مراحله رسماً وتخطيطاً فى أساسه وجوهره ، وقد استخدم فى تطوره ثلاث طرق : طريقة المظلمات أو التصوير على الجص الطرى ، وطريقة الطلاء المائى أو التصوير على الأقمشة أو الألواح المبللة بألوان ممزوجة بزلال البيض ، وطريقة تثبيت الرسوم بالحرارة وذلك بمزج الألوان بالشمع المذاب ؛ وكانت هذه الطريقة الأخيرة أقرب ما صل إليه الأقدمون إلى طريقة التصوير بالزيت . ويؤكد لنا پلنى — وهو الذى لا يقل أحياناً عن هيرودوت رغبة فى تصديق كل ما يسمع — أن فن التصوير قد تقدم فى القرن الثامن تقدما جعل كندولس Candaules ملك ليديه يبتاع صــورة من صنع بولاركس Bularchus بمثل وزنها ذهباً[٩] . لكن بداية كل الأشياء غامضة . وفى وسعنا أن ندرك ما كان لهذا الفن من الشهرة فى بلاد اليونان إذا علمنا أن پلنى قد خصه من صفحاته بأكثر مما خص به النحت . ويبدو أن الرسوم الجيدة التى أنتجها عصر اليونان الذهبى كانت موضع النقاش من النقاد وموضع

الإجلال من الشعب وأنها لم تكن تقل فى هذين عن أعظم نماذج فنى العمارة والنحت[١٠] .

ولم يكن پولجنوتس Polygnotus الثاسوسى أقل شهرة فى بلاد اليونان فى القرن الخامس من إنكتينس Inctinus أو فدياس . ونجد هذا المصور فى أثينة فى عام ٤٧٢ ؛ ولعل سيمون الثرى هو الذى توسط له فكلف بتزيين عدة مبان عامة ورسم صور على جدرانها(*) . وقد صور فى ذلك العهد على الاستوا Stoa ، التى سميت من ذلك الحين البوسيلى Boecile أو الرواق المصور ، والتى اشتق منها بعد ثلاثة قرون اسم فلسفة زينون(**) ، صور عليها منظر نهب طروادة — ولم يكن ذلك المنظر منظر المذبحة الرهيبة التى حدثت فى ليلة النصر ، بل كان منظر السكون الرهيب الذى ساد المدينة فى صباح اليوم الثانى ، والمنتصرون قد هدأ من سورتهم ما يحيط بهم من الخراب ، والمغلوبون ملقون على الأرض هادئين . وقد رسم على هيكل الديسكوريين صورة اغتصاب اللوسيبيديات . وكان تصويره النساء فى أثواب شفافة سابقة احتذاها من جاء بعـــده من الفنانين . ولم تثر هذه البدعة ثائرة المجلس الأمفكتيونى ، بل إن هذا المجلس دعا پولجنوتس إلى دلفى حيث صور فى اللسكى Lesche أو ردهة الاستراحة صورة أوديسيوس فى الجحيم وصورة أخرى لانتهاب طروادة . وكانت هذه الصور كلها مظلات كبيرة خالية من المناظر الطبيعية أو الخلفيات ، مزدحمة بصور الأشخاص إلى حد كان لا بد معه أن يستعان بعدد كبير من المساعدين ليرسموا بالألوان ما بين الخطوط الخارجية التى خططها المصور بعناية فائقة . أما الصورة الجدارية التى تمثل طروادة فكان فيها بحارة متلوس على أهبة الإبحار عائدين إلى بلاد اليونان ؛ وكانت هلن تجلس فى وسط الملاحين ، ومعها كثيرات غيرها من النساء ولكنهن كن جميعاً يبهرهن جمالها الفتان ،

(*) وقد جازى سيمون على عمله هذا بأن أحب أخته الپنيس ورسم صورة لها تمثل لوديسيا بين الطرواديات[١١] .

(**) لفظة stoi أى رواق مشتقة من stoa كما اشتقت اللفظة العربية من رواق .

ووقفت أندرمكى فى إحدى الزوايا محتضنة أستياناكس ، ووقف فى زاوية أخرى غلام صغير يتعلق بمذبح من شدة الخوف ، وعلى بعد من البحارة كان جواد يتمرغ على رمال الشاطئ[١٢] . فى هذه الصورة كانت مسرحية « الطرواديات » قبل أن يكتبها يوربديز بخمسين عاماً . وأبى پولجنوتس أن يتقاضى أجراً على عمله هذا ، ووهب الصور لأثينة ودلفى كرماً منه وثقة بقدرته ومواهبه . وأعجبت بلاد اليونان كلها بعمـــله ، ومنحته أثينة مواطنيتها . وقرر المجلس الأمفكتيونى أن يحل ضيفاً على حساب الدولة فى كل مدينة يونانية ينزل بها (كما كان يريد سقراط لنفســـه) ، ولم يبق من آثاره كلها إلا قطعة صغيرة من اللون على جدار فى دلفى تذكرنا بأن الخلود الفنى ليس إلا لحظة عابرة فى حساب الأزمنة الجيولوجية .

وفى عام ٤٧٠ ق . م أقامت دلفى وكورنثة مباريات دورية فى التصوير تعقد كل أربع سنين لتكون جزءاً من الألعاب البيثية والبرزخية . وتقدم الفن وقتئذ تقدماً أمكن پانينس شقيق فدياس (أو ابن أخيه) أن يرسم صوراً لقواد الأثينيين والفرس فى واقعة مرثون يمكن تمييز أشخاصهم فيها . ولكنه كان حتى ذلك الوقت لا يزال يضع الأشخاص المصوَّرين جميعهم فى مستوى ويجعل طول قامتهم كلهم واحداً ، ولم يكن يمثل البعد بتصغير حجم الأشخاص شيئاً فشيئاً وبتنظيم الضوء والظل ، بل كان يمثله بالخطوط المنحنية التى تمثل الأرض الواقفين عليها . ثم تقدم الفن فى عام ٤٤٠ خطوة هامة . ذلك أن أجاثاركس Agatharchus ، الذى استخدمه إسكلس وسفكليز ليرسم مناظر مسرحياتهما تبين أن ثمة علاقة بين الضوء والظل من جهة والبعد من جهة أخرى . وكتب رسالة فى فن المنظور بوصفه وسيلة لإيجاد الخداع المسرحى . وعالج أنكساغوراس ودمقريطس الفكرة من الناحية العلمية ، فلما أوشك القرن على نهايته اشتهر أپلودورس Apollodorus الأثينى باسم اسكياجرافوس Skiagraphos أى مصور الظلال ، لأنه رسم صوراً استخدم

فيها الضوء والظل ، ولذلك قال عنه پلنى إنه كان « أول من رسم الأشياء كما تبدو حقاً »[١٤] .

على أن المصورين اليونان لم يفيدوا من هذه الاستكشافات فائدة تامة ؛ فكما أن صولون كان يسخر من الفن المسرحى ويعتقد أنه خداع ، فكذلك يبدو أن الفنانين كانوا يرون أنه لا يليق بهم وأنه يحط من كرامتهم أن يظهروا السطح المستوى بمظهر الجسم ذى الثلاثة الأبعاد . ولكن فن المنظور وتوزيع الضوء والظل هما اللذان رفعا من شأن زكسيس Zeuxis تلميذ أپلودورس وجعلاه أعظم المصورين فى القرن الخامس . وقد قدم زكسيس من هرقلية (پنتيكا ؟ Pontica) إلى أثينة حوالى ٤٢٤ ق . م ، وعد مجيؤه إليها حادثاً تاريخياً خطيراً رغم ضجيج الحرب القائمة وقتئذ . وكان « شخصاً » جريئاً مغروراً بنفسه ، يصور تصوير المغرورين . وكان فى الألعاب الأولمبية يتبختر فى قباء ذى مربعات طرز عليه اسمه بالذهب ؛ وكان فى مقدوره أن يكون له مثل هــذه القباء لأنه كان وقتئذ قد جمع « من عمله ثروة طائلة »[١٥] . ولكنه كان يعمل بعناية الفنان العظيم وإخلاصه ، ولما أن أخذ اجثاركس Agatharchus يزدهى بسرعته فى التصوير رد عليه زكسيس فى هدوء : « إنى أحتاج إلى وقت طويل » . وتخلى عن عدد كبير من روائع صوره بحجة أنها لا تقدر بثمن مهما عظم ، وكان الملوك يعدون أنفسهم ســعداء حين يحصلون عليها ، ولم تكن المدن أقل حرصاً على اقتنائها من الملوك .

ولم يكن فى جيله إلا منافس واحد هو پرهسيوس Parrhassius الإفسوسى الذى لا يكاد يقل عنه فى عظمته ، ولم يكن بالتأكيد أقل منه عجباً بنفسه . وكان پرهسيوس يضع على رأسه تاجاً من الذهب ويلقب نفسه « أمير المصورين » ، ويقول إنه أوصل الفن إلى درجة الكمال[١٧] . وكان يعمل هذا كله فى مرح ومزاح ويغنى وهو يرسم[١٨] . وتقول الشائعات إنه اشترى عبداً وعذبه لكى يدرس عليه ما يبدو على وجهه من مظاهر الألم فيستطيع أن يرسم صورة پروميثيوس[١٩] . وما أكثر القصص التى يتناقلها الناس عن الفنانين . وكان

پرهسيوس واقعياً مثل زكسيس . وقد بلغ من صدق صورة العداء وإتقانها أن الناظرين إليها كانوا يتوقعون أن يروا العرق يتصبب من الصورة ، وأن يروا العداء نفسه يسقط من فرط الإعياء . ومن صوره صورة كبرى على جدار ، هي صورة أهل أثينة يمثلهم فيها قساة ورحماء ، متكبرين وأذلاء ، متوحشين وجبناء ، متقلبين وكرماء ؛ ويبلغ من أمانته في هذه الصورة أن الجمهور الأثيني — على ما تقول الرواية — أدرك لأول مرة ما في طباعه من تعقيد وتناقض[٣٠] .

وأدى التنافس الشديد بينه وبين زكسيس Zeuxis إلى اشتراك الرجلين في مباراة عامة . ذلك أن زكسيس رسم بعض عناقيد العنب رسماً بلغ من إتقانه ومشابهته للعنب الطبيعي أن الطيور حاولت أكله . وأعجب المحكمون أشد الإعجاب بهذه الصورة ، ووثق زكسيس من الفوز وثوقاً جعله يأمر پرهسيوس أن يزيح الستار الذي يخفي وراءه الصورة التي رسمها الفنان الإفسوسي ؛ فلما تبين أن الستار جزء من الصورة ، وأن زكسيس نفسه قد خدع اعترف في غير حقد بهزيمته . ولم يفقد زكسيس بهذا شيئاً من شهرته ، فقد اتفق في كرتونا على أن يرسم صورة لهلن توضع في معبد هيرا اللسينية Lacinian Hera ، على شريطة أن تقف أمامه عاريات أجمل خمس نساء في المدينة ، ليختار من كل واحدة منهن أجمل ما فيها ، ثم يجمع مما أخذه منهن صورة ثانية لربة الجمال[٣١] . وحييت بنلپي بفضل تصويره حياة جديدة ، ولكن أكثر ما كان يعجب به من صُوَره صورةُ رياضي كتب تحتها يقول إن الناس يجدون نقده أيسر عليهم من مجاراته . وكانت بلاد اليونان كلها تسر من غروره وتتحدث عنه بقدر ما تتحدث عن أي كاتب مسرحي ، أو حاكم سياسي ، أو قائد حربي . ولم يكن أحد أوسع منه شهرة إلا المتبارون لنيل الجوائز الرياضية .

الفصل الثالث

أساتذة النحت

١ - أساليبهم

على أن التصوير بقى رغم هذا التفوق غريباً على العبقرية اليونانية التي كانت تحب الشكل أكثر مما تحب اللون ، والتي جعلت تصوير العصر الذهبي (إذا حكمنا عليه بأقوال الناس فيه) دراسة فى الجهاد للخطوط والتصميم لا إدراكاً حسياً لألوان الحياة . أما ما كان يولع به الرجل اليوناني ويسر منه فهو منتجات النحت ، ولذلك كان يملأ بيته ، وهياكله ، وقبوره ، بتماثيل صغيرة من الطين المحروق ، ويعبد آلهته بتصويرها فى الحجارة ، ويقيم على قبور موتاه ألواحاً منقوشة تعد من أكثر منتجات الفن اليوناني وأوقعها فى النفس . وكان العمال الذين ينقشون هذه الألواح من الصناع غير ذوى الحذق ، ينقشون ما حفظوه عن ظهر قلب ، ويكررون ألف مرة الموضوع المألوف ؛ موضوع فراق الأحياء للأموات فراقاً هادئاً وأيدى الأحياء مقبوضة . غير أننا يجدر بنا أن نذكر أن فى هذا الموضوع من النبل ما يحتمل التكرار . لأنه يظهر ما اتصف به خلائق العصر الذهبي من ضبط للنفس فى أحسن صوره ، ويعلم النفس المرهفة الحس أن الشعور يبلغ أقصى قوته حين يعبر عن نفسه بصوت هادئ منخفض . وتظهر هذه الألواح الموتى ، أكثر ما تظهرهم ، يعملون عملا من أعمال الحياة الدنيا - كطفل يلعب بالطوق ، وبنت تحمل إبريقاً ؛ ومحارب يعجب بعدته الحربية ، وفتاة تفخر بحليها ، وغلام يقرأ كتابه وكلبه راقد تحت مقعده.

راض بموضعه ولكنه يرقب سيده . وتظهر هذه الألواح الموت مظهر الحادث الطبيعي ، وهو لذلك عندهم شيء يمكن العفو عنه ، وعدم الحقد عليه .

وأكثر من هذه الألواح تعقيداً ما خلفه هذا العصر من نقوش محفورة هي أرق ما وجد من نوعها ؛ ويمثل أحدها أرفيوس يلقى نظرة وداع طويلة على يورديس Eurydice التي استردها هرمس إلى العالم السفلى[٢٣] . وفى نقش ثان نرى دمتر تعطى ترپتولموس الحبة الذهبية التي يستحدث بها فن الزراعة فى بلاد اليونان ؛ ولا يزال بعض اللون فى هذا النقش لاصقاً بالحجر ، يوحى بما كان عليه النقش اليونانى فى العصر الذهبى من روعة وصدق تعبير[٢٢] . وأجمل من هذين النقشين مولد أفرديتى الذى حفره على أحد أوجه « عرش لدڤيزى »(*) حفار غير معروف لعله تدرب على فنه فى أيونيا . وترى فيه إلهتان ترفعان أفرديتى من البحر ، وثوبها الرقيق المبلل ملتصق بجسمها ، يظهر كل ما فيه من روعة الأنوثة الناضجة . ورأسها شبيه بعض الشبه برءوس الأسيويات ، ولكن أثواب من يرافقنها من الإلهات ووقفتهن الرشـيقة الجميلة عليهما طابع العين واليد اليونانيتين الحساستين . وعلى جانب آخر من جوانب العرش نقشت فتاة عارية تعزف على القيثارة المزدوجة ، وعلى جانب ثالث امرأة مقنعة تعد مصباحها لتضيء به ظلمة المساء ؛ ولعل وجه هذه المرأة وأثوابها أقرب إلى الكمال مما على الجانب الرئيسى للعرش .

ويدهش الإنسان حين يرى رقى مثالى القرن الخامس عن أسلافهم . ففى هذا القرن لم يعد المثالون يظهرون المنظر الأمامى ، وفيه يصبح فن المنظور عظيم الأثر إذ يمثل الأشياء كأنها بارزة نحو الناظر إليها ؛ وتحل فيه الحركة محل

(*) هى كتلة من الرخام عثر عليها فى رومة حين هدم قصر لدڤيزى الصغير . والحجر الأصل فى متحف ترمى Muse delle Terme برومة ، وتوجد نسخة جيدة منه فى متحف الفن بنيويورك .

السكون ، والحياة محل الجمود . والحق أن المثال اليونانى حين يخرج على العرف القديم ويصور الإنسان يتحرك إنما يحدث ثورة فى الفن . ذلك أننا قلما نعثر قبل ذلك العهد ، فى مصر أو فى الشرق الأدنى أو فى بلاد اليونان نفسها قبل مرثون ، على مثال ينحت إنساناً يتحرك . وكان من أهم أسباب هذا التطور ما امتازت به الحياة اليونانية بعد سلاميس ... حيوية جديدة ونشاط لم يكن لها من قبل ، ولكن أكبر الفضل فيه إنما يرجع إلى دراسة الفنان وتلاميذه للتشريح الحركى فى صبر وأناة أجيالا طوالا .

انظر إلى سؤال سقراط المثال الفيلسوف : « أليس الذى يجعلك تظهر تماثيلك كأنها أشخاص حية هو أنك تنحتها على مثال الكائنات الحية نفسها ؟ . . . وإذا كانت مواقفنا المختلفة تؤثر فى بعض عضلات أجسامنا فيرتفع بعضها وينخفض البعض الآخر ، وبذلك ينقبض بعضها وينبسط البعض ، وتلتوى هذه وترتخى تلك ، إذ كان هذا يحدث أليس تعبيرك عن هذه الجهود هو الذى يجعلك تظهر ما تنحته صادق التعبير عن الحقيقة »[٢٤] .

لقد كان المثال فى عهد بركليز عظيم الاهتمام بكل جارحة من جوارح الجسم لا تقل عنايته بالبطن عن عنايته بالوجه ، يعبر أدق تعبير عن حركات اللحم المرن على الهيكل العظمى المتحرك ، وعن انتفاخ العضلات ، والأوتار ، والأوعية ، وعما فى تركيب اليدين والأذنين والقدمين من عجائب تجل عن الحصر ، ويفتتن بما يلقى من الصعاب فى تمثيل أطراف الجسم . ولم يكن فى غالب الأحيان يستخدم نماذج حية تقف أمامه فى منحته ، بل كان يكتفى فى أكثر الأوقات بملاحظة الرجال عارين نشطين فى مدارس الألعاب وميادينها ، وملاحظة النساء يمشين فى وقار فى المواكب الدينية أو ينهمكن انهماكاً طبيعياً فى أعمالهن المنزلية . ولهذا السبب ، لا لحيائه ، نراه يركز دراسته للتشريح على الرجال دون النساء ، ونراه فى تصويره للنساء يستبدل بدقة التشريح الجسمى تمثيل دقائق الثياب أحسن

عثيل — وإن كان يجعل الملابس شفافة إلى أبعد حد تمكنه منه جرأته . وكأن هذا الفنان قد مل رؤية أنصاف الثياب السفلى الجامدة التى يشاهدها على تماثيل مصر واليونان فى عهدهم الأقدم ، فتاقت نفسه إلى إظهار ملابس النساء يلعب بها النسيم لأنه فى هذا الوضع أيضاً قد أدرك خصائص الحركة والحياة .

وهو لا يكاد يترك أية مادة تقع فى يده ويستطيع استخدامها فى ذهنه إلا استخدمها — من خشب ، وعاج ، وطين محروق ، وحجر جيرى ، ورخام ، وفضة ، وذهب . وهو يستخدم أحياناً الذهب لصنع الثياب ، والعاج لصنع الجسم ، كما فعل فدياس فى تماثيله الذهبية العاجية . وكان البرنز هو المادة المحببة لمثال البلوبونيز ، لأنه يعجب بألوانها القاتمة التى تصلح كل الصلاحية لتمثيل أجسام الرجال الذين لوحتهم الشمس وهم عراة ، وكان لجهله بجشع الإنسان يظن أنه أبقى على الدهر من الحجارة . أما فى أيونيا وأتكا فكان يفضل الرخام ، لأن ما يلقاه فيه من صعوبة يستثير همته ، ولأن ما فيه من صلابة يمكنه من أن ينحته بإزميله وهو آمن ، وكأن نعومته ونصف شفافيته قد خلقا لتمثيل لون النســاء الوردى ورقة أجسامهن . وقد كشف المثال بقرب أثينة رخام جبل پنتلكس Pentelicus ، ولاحظ أن ما فيه من حديد ينضجه طول الزمان والعوامل الجوية فيبدو للرائى وكأنه عرق من الذ . ، يتلألأ وسط الحجر ، وأفلح بفضل ما وهب من الصبر ، وهو نصف العبقرية ، فى أن ينحت على مهل من المحاجر تماثيل حية . ومثال القرن الخامس حين يعمل فى البرنز يستخدم طريقة الصب الأجوف بالعملية المعروفة بعملية الشمع المفقود cire perdu ، وذلك بصنع نماذج من الجبس أو الصلصال للتمثال الذى يريد صبه ، ثم يغطيه بطبقة رقيقة من الشمع ، ويغطى هذا كله بعدئذ بقالب من الجبس أو الصلصال مسنن فى عدة مواضع ، ويضعه فى تنور تذيب حرارته الشمع فيخرج من الثقوب ، ثم يصب ذوب البرنز فى القالب من أعلاه حتى يملأ المعدن جميع المسافة التى كان يشغلها الشمع قبل

أن يذوب : ثم يبرد الشكل كله ويزيل عنه القالب الخارجي ، ويبرده ويصقله ، ثم يطلى البرنز بالك أو يلونه أو يذهبه حتى يتخذ صورته النهائية .
فإذا فصل الرخام بدأ بالكتلة غير المشكلة ، غير مستعين بأى نظام من نظم التوجيه(*) ، ويعمل من غير قواعد موضوعة ، مسترشداً فى أكثر الأحيان بعينه لا بالآلات (٢٠) ؛ ويزيل من الحجر بضرباته المتتالية ما لا حاجة له به ، ويوالى هذه الضربات حتى تتشكل من الحجر الفكرة الكاملة التى صورها لنفسه فى ذهنه ، وحتى تصبح المادة غير المنتظمة صورة وشكلا على حد قول أرسطاطاليس .

أما موضوعاته فتختلف من الآلهة إلى الحيوانات ، ولكن أيا كان الموضوع ، فإنه يجب أن يكون من حيث الجسم خليقاً بالإعجاب ، ولم يكن الضعفاء أو العقليون ، أو الأصناف الشاذة غير السوية ، أو العجائز أو الشيوخ ، لم يكن هؤلاء يجدون لهم مكاناً عنده ؛ وكان يجيد نحت تماثيل الخيل ، ولكنه لم يكن شديد العناية بغيرها من الحيوان ، وكان أكثر إجادة فى نحت تماثيل النساء ؛ ومن آياته الفنية التى لا تمثل نساء بعينهن كتمثال الفتاة المستغرقة فى أفكارها والممسكة بثوبها فوق ثديها المحفوظ بمتحف أثينة ، ما يبلغ درجة من الجمال الهادئ تعجز اللغة عن وصفه . وخير ما يجيده على الإطلاق تماثيل اللاعبين الرياضيين ، لأنه يعجب بهؤلاء إعجاباً لا حد له ، ولأنه لم يكن يحول بينه وبين مراقبتهم حائل . وكنت تراه من حين إلى حين يبالغ فى إظهار قوتهم ، ويصور على بطونهم عضـــلات لا وجود لها عليها ، ولكنه كان يســـعه رغم هذا الخطأ أن يصب تماثيل من البرنز كالتمثال الذى وجد فى البحر قرب أنتيسثرا Anticythera والذى يقال إنه تمثال إفبوس Ephebos تارة وتارة يقال إنه تمثال پرسيوس Perseus الذى أمسك

(*) المراد بالتوجيه هنا بيان العمق الذى يجب أن يصل إليه النحات فى قطع الكتلة الحجرية التى يريد صناعتها قبل أن يبدأ الفنان عمله فيها . وكان بدء استخدام هذه الطريقة فى البلاد التى اصطبغت بالصبغة اليونانية (٢٥) .

بيده فى وقت ما رأس ملوزا Medusa وشعره المكون من الأفاعى . وكان فى بعض الأحيان يصوره شاباً أو فتاة منهمكة فى عمل بسيط تقوم به من تلقاء نفسها ، كتمثال الغلام الذى يخرج شوكة من قدمه(*) ؛ غير أن أساطير بلاده كانت أهم ما يوحى إليه بموضوعات فنه . ولم يكن ذلك النزاع الرهيب الذى قام بين الفلسفة والدين ، والذى يبدو فى تفكير القرن الخامس كله ، نقول لم يكن ذلك النزاع قد بدا على الآثار بعد ، فهنا كانت الآلهة لا تزال صاحبة السيادة العليا ؛ وحتى لو كانت قد أخذت فى الاضمحلال فقد كانت تنتقل أنبل انتقال وأعظمه إلى شعر الفن . ترى هل كان المثال الذى يشكل فى البرنز زيوس أرتمزيوم القوى يعتقد بحق أن يصور شريعة العالم(**) ؟ وهل كان الفنان الذى ينحت تمثال ديونيسس الظريف الحزين المحفوظ فى متحف دلفى ، هل كان هذا الفنان يعرف فى أعماق إدراكه الذى لا تعبر عنه الألفاظ أن ديونيسس قد طعنته سهام الفلسفة طعنة نجلاء ، وأن الملامح المتواترة للمسيح خليفة ديونيسس قد وجدت فى هذا الرأس من قبل أن يولد المسيح .

٢ — المدارس

إذا كان فن النحت اليونانى قد أخرج هذا القدر كله فى القرن الخامس ، فقد كان من أسباب ذلك أن كل مثال كان ينتمى إلى مدرسة بعينها ، وأن له مكاناً فى ثبت طويل من الأساتذة والطلاب ، يتوارثون حذق فنهم هذا ، ويقاومون تطرف الفردية المستقلة ، ويشجعون مواهبهم الخاصة ، ويسيطرون عليها ويهذبونها بالتضلع فى فنون الماضى وما أخرجته من بدائع ،

(*) فى متحف الكبتولين بروما ؛ وأكبر الظن أنه صورة من تمثال يونانى أصل نحت فى القرن الخامس .

(**) فى متحف أثينة ، وهناك صورة منه فى المتحف الفنى بنيويورك .

وتشكيلها بتفاعل هذه الأعمال مع القواعد الجديدة حتى أصبحت فناً أعظم مما تبتدعه فى العادة العبقرية المنعزلة المتحررة من القواعد والقوانين . إن الفنانين العظام يكونون فى الغالب نتاجاً لتسامى التقاليد الماضية وارتقائها إلى ذروتها أكثر مما يكونون نتيجة للخروج عليها . ومع أن الثائرين على التقاليد الماضية يكونون بطبيعتهم منشقين على تاريخ الفن الطبيعى ، فإن أسلوبهم الجديد لا ينتج شخصيات فذة سامية إلا بعد أن تثبته الوراثة ويطهره الزمن .

وقد قامت بهذا العمل خمس مدارس فى بلاد اليونان فى عهد بركليز : مدارس رجيوم ، وسكيون ، وأرجوس ، وإيجينا ، وأتكا . وفى عام ٤٩٦ أو حواليه استقر فى رجيوم فيثاغورس آخر من ساموس وصب تمثالا لفلكتيتس أذاع شهرته فى بلاد البحر الأبيض المتوسط . وقد أظهر فى وجوه تماثيله من علائم الانفعال ، والألم ، والشيخوخة ما هز مشاعر المثالين اليونان بأجمعهم حتى قرر المثالون فى العصر الذى انتشرت فيه الحضارة اليونانية خارج بلادهم الأصلية أن يحاكوه فى تماثيلهم . وفى سكيون واصل كناكس Canackus وأخوه أرسطكليز Aristocles العمل الذى بدأه قبلهما بمائة عام ديونس Dipoenus وسليس Scilis من فنانى كريت . ورفع كلوون Calloin وأناتس Onatas مقام إيجينيا بين المدن اليونانية بما أظهرا من حذق فى صب البرنز ، ولعلهما هما اللذان صنعا قواصر إيجينيا . وفى أرجوس نظم أجلداس مراحل انتقال فن النحت فى مدرسته وبلغت ذروة مجدها على يد پليكليتس .

جاء پليكليتس من أرجوس وذاعت شهرته فيها حين وضع حوالى عام ٤٧٢ تصميما لتمثال من الذهب والعاج لهيرا إلهة المدينة ليوضع فى معبدها ؛ وكان العصر الذى صنع فيه يرى أنه لا يفوقه فى دقته غير تماثيل فدياس الضخمة العاجية الذهبية(*) .

(*) ولعلنا نجد صدى لعظمة التماثيل فى رأس جونو العظيم المحفوظ فى المتحف البريطانى ، والذى يقال عنه إنه مصنوع على مثال رؤوس تماثيل پليكليتس .

واشترك فى إفسوس فى مباراة مع فدياس ، وكرسلاس Cresilas وفردمون Phradmon لصنع تمثال لامرأة محاربة يوضع فى هيكل أرتميز . وعين الفنانون الأربعة قضاة للحكم فى هذه المباراة . وتقول الرواية المتواترة إن كلا منهم حكم بأن تمثاله خير التماثيل جميعها ، وأن تمثال بليكليتس ثانيها ، وبناء على هذا الحكم منح الفنان السكيونى الجائزة(*)(٢٧) . لكن بليكليتس كان يحب الرياضيين أكثر مما يحب النساء أو الآلهة ؛ ولما أراد أن ينحت تمثاله الشهير لديادمنوس Diadumenos (وهو الذى توجد أحسن نسخة منه فى متحف أثينة) مثّل هذا الظافر فى اللحظة الذى كان يربط حول رأسه العصابة التى يضع القضاة فوقها إكليل الغار . ويرى الناظر إلى صدر التمثال وبطنه عضلات أكثر وأضخم مما يصدقه العقل ، ولكن الجسم يرتكز ارتكازاً واضحاً على قدم واحدة ، وملامح التمثال تعبر عما امتاز به العصر الذهبى من تناسق أصدق تعبير . لقد كان بليكليتس يهيم بهذا التناسق بل يكاد يعبده ، وكان همه فى حياته أن يضع قانوناً أو قاعدة لتحديد النسبة الصحيحة بين كل جزء وجزء فى التمثال ؛ فكان والحالة هذه هو فيثاغورس النحت ، ينشد الرياضة القدسية فى التناسب والشكل ؛ وكان يظن أن أبعاد أى جزء من أجزاء الجسم الكامل يجب أن تتناسب تناسباً محدداً معروفاً مع أبعاد أى جزء آخر كالسبابة مثلا . وكان قانون بليكليتس هذا يستدعى أن يكون الرأس مستديراً ، والكتفان عريضتين ، والجذع ممتلئاً قصيراً ، والعجيزتان واسعتين ، والساقان قصيرتين ، وكل هذه تجعل التمثال مظهراً للقوة لا للرشاقة . وأولع الفنان بقانونه ولعاً حمله على أن يؤلف رسالة يشرحه فيها وأن يوضحه بتمثال من صنعه : ولعل هذا التمثال هو تمثال الدوريفوروس Doryphoros أو حامل الرمح الذى توجد نسخة رومانية منه فى متحف نابلى . وفيه يرى مرة أخرى الرأس القصير

(*) لعل تمثال المحاربة المحفوظ فى الفاتيكان نسخة رومانية من هذا التمثال .

العريض الجمجمة ، والكتفان القويتان ، والجذع القصير ، والعضلات المتغضنة المسدولة على الحقو . وأجمل من هـذا تمثال إفبوس Ephebos المحفوظ فى المتحف البريطانى ، وفيه تظهر أحاسيس الغلام كما تظهر عضلاته، ويبدو أنه منهمك فى تفكير هادئ لطيف فى شيء آخر غير قوته . وأضحت قواعد بليكليتس بفضل هذه التماثيل القانون الذى يتقيد به المثالون فى البلوبونيز ؛ وقد تأثر به فدياس نفسه ، وظلت له السيادة على النحاتين حتى قضى عليه بركسيتس وأحل محله ذلك القانون الآخر المناقض له والذى يجعل الجسم طويلا ، نحيلا ، رشيقاً ، وقد بقى هذا القانون الأخير ظاهر الأثر فى التماثيل الرومانية فى أوربا المسيحية .

وكان ميرون Myron يمثل المرحلة الوسطى بين المدرستين البلوبونيزية والأتكية . وقد ولد هـذا المثال فى إلوثيرا Eleuthera ، وعاش فى أثينة ، ودرس وقتاً ما (كما يقول بلنى[٢٨]) مع أجلاداس Ageladas ؛ فتعلم كيف يجمع بين الرجولة البلوبونيزية والرشاقة الأيونية . وكان ما أضافه إلى مدارس الفن جميعها هو الحركة : فهو لم ير اللاعب الرياضى كما يراه بليكليتس قبل المباراة أو بعدها ، بل يراه فى أثنائها ، وقد حقق ما رآه فى البرنز تحقيقاً فاق به كل مثال آخر حاول تصوير جسم الرجل فى أثناء العمل . وصب حوالى عام ٤٧٠ أشهر تماثيل صنعها للاعبين وهى تماثيل رماة القرص (disocobolo)[*٢] . وفيها بلغت عجائب أجسام الرجال غايتها ! فقد درس الجسم دراسة دقيقة فى جميع حركات المفاصل ، والأوتار ، والعظام ، التى يتطلبها القيام بعمل ما ، وانحنت الساقان والذراعان وانحنى

(*) فى متحف ت ى Musco dell Terme جذع رخامى هو نسخة من هذا التمثال صنعته يد فنان رومانى وفى معهد الأحياء المائية بميونخ نسخة برنزية من هذا التمثال صنعت فى عصر متأخر ، وفى المعهد الفنى بنيويورك نسخة تجمع بين جذع كاللى فى متحف الفاتيكان ورأس كالرأس الذى فى قصر لانسلتى Lancelotti .

الجذع لكي تكسب الرمية أعظم قوتها ؛ ولم يتلو الوجه ويشوه بسبب ما يبذله الرامي من جهد ، بل ظل منبسطاً ، والرامي هادئ واثق من قدرته ؛ وليس الرأس ثقيلا أو وحشياً ، بل هو رأس رجل من لحم ودم ورقة وتهذيب ، في وسعه أن يؤلف الكتب إذا نزل إلى مستوى من يكتبونها . ولم تكن هذه الآية الفنية إلا عملا واحداً من أعمال ميرون الكثيرة ، وقد أعجب بها مواطنوه ، ولكنهم أعجبوا أكثر من ذلك بتمثال أثينة ومرسياس(*) وتمثال لاداس . وتمثال أثينة هذا أجمل مما يتطلبه الغرض الذي صنع من أجله ، فليس في مقدور أي إنسان ينظر إليه أن يظن أن هذه العذراء المحتشمة ترقب وهي هادئة راضية صاحب الناي يسلخ . أما تمثال مرسياس فأشبه بتمثال لبرنارد شو أدركه الفنان في وضع معيب ولكنه مفصح بليغ . ويصور هذا التمثال عازف القيثارة وقد عزف عليها آخر مرة ، وأدركه الموت ولكنه يأبى أن يموت من غير أن يتكلم . ولم يكن لاداس لاعباً رياضياً خارت قواه لأن النصر أنهك جسمه ، بل إن ميرون قد صوره تصويراً بلغ من واقعيته أن صاح يوناني قديم حين رآه : « لقد صاغك لاداس من النحاس بالصورة التي كنت عليها في الحياة ، تخرج روحك اللاهثة من صدرك مع أنفاسك ، وأسبغ على جسمك كله حرصك على تاج النصر » ، وقال اليونان عن عجلة ميرون إنها تستطيع أن تفعل كل شيء عدا الخوار[30] .

وأضافت المدرسة الأتكية أو الأثينية إلى البلوبونيزيين وإلى ميرون ما تهبه النساء للرجال : جمالا ، ورقة ، ورشاقة ، وظرفاً ؛ وكانت وهي تفعل هذا تحتفظ من عناصر الرجولة بالقوة . فقد وصلت إلى مستوى عال قد لا يصل إليه المثالون مرة أخرى . وكان كلميس Calamis لا يزال وقتئذ محتفظاً ببعض الشيء بطابعه العتيق ، ولم يكن نسيوتيز Nesiotes وكريتيوس Critius وهما يصبان طائفة أخرى من تماثيل قتلة الطغاة قد تحررا من البساطة الجامدة

(*) في متحف نيويورك الفني نسخة جميلة من النسخة اللاترانية .

التى كانت تسود تماثيل القرن السادس . وقد حذر لوشان الخطباء من أن يكون مسلكهم كسلك هذه التماثيل العديمة الحياة . فلما أن نحت بيونيوس Paeonius من أهل مندى Mende المقدونية للمسينيين تمثال النصر بعد أن درس فن النحت فى أثينة أظهر فيه من الرقة والرشاقة والجمال ما لم يظهره أحد غيره من الفنانين اليونان إلى عهد بركستيليز ؛ وحتى بركستيليز نفسه لم يفقه فى تمثيل طيات الثياب المنسدلة على الجسم أو فى تمثيل نشوة هذه الحركة(*) .

٣ – فدياس

كان فدياس وأعوانه بين عامى ٤٤٧ ، ٤٣٨ منهمكين فى نحت تماثيل البرتنون وحفر نقوشه . وكما كان أفلاطون كاتباً مسرحياً قبل أن يصير فيلسوفاً مسرحيا ، كذلك كان فدياس فى أول الأمر مصوراً ، تتلمذ بعض الوقت على پولجنوتس . ويلوح أنه أخذ عنه أساليب التصميم والتأليف بين الوحدات المختلفة والجمع بين الأشكال لإحداث الأثر الكلى للصورة . ولعله أخذ عنه أيضاً ذلك « النمط العظيم » الذى جعله أعظم مثال فى بلاد اليونان بأجمعها . ولكنه لم يجد فى التصوير ما يشبع كفايته لأنه كان فى حاجة إلى أبعاد أوسع ، فاتجه إلى النحت ، ولعله درس فن أجلاداس فى صب البرنز وظل يمارسه فى صبر وأناة حتى برع فى كل فرع من فروعه .

وكان حين فرغ من نحت تمثال أثينة پارثنون فى عام ٤٣٨ قد أصبح شيخاً طاعناً فى السن ؛ وشاهد ذلك أنه صور نفسه على درعه شيخاً أصلع به طائف

(*) لقد صمت أجزاء هذا التمثال بعد أن عثر عليها الألمان فى أولمپيا عام ١٨٩٠ ، وهو الآن فى متحف أولمپيا . ولا تكاد تقل عنه جمالا تماثيل حور البحر التى عثر عليها من غير رؤوس بين أنقاض أحد الأبنية القديمة فى زنثوس الليشية Lycian Xanthus وهى الآن فى المتحف البريطانى . لقد نقلت الروح اليونانية إلى آنية غير اليونانية .

الحزن . ولم يكن أحد ينتظر منه أن ينحت بيديه مئات التماثيل التى امتلأ بها فضاء البارثنون ، وإفريزه ، وقواصره ، وكان حسبه أن يشرف على جميع أبنية بركليز ويضع خططا يزينها من التماثيل ، ثم يعهد إلى تلاميذه ، وخاصة إلى الكيمنيز ، أن يقوموا هم بتنفيذها . على أنه هو نفسه قد نحت ثلاثة تماثيل لإلهة المدينة تقام فى الأكربوليس . وقد كلفه بنحت واحد منها المستعمرون الأثينيون فى لمنوس ، وكان هذا التمثال من البرنز أكبر قليلا من الحجم الطبيعى ، وبلغ من دقته أن كان النقاد اليونان يعدون تمثال أثينة اللمنوسية أجمل تماثيل فدياس كلها بلا استثناء(*)[٣٠] ، وثانى هذه التماثيل تمثال أثينة بروماكوس وهو تمثال برنزى ضخم يمثل الإلهة فى صورة المدافعة الحربية عن المدينة . وقد أقيم بين البروبليا Propylaea والإركتيوم Erechtheum ، وكان ارتفاعه هو وقاعدته سبعين قدماً ، وكان دليلا للملاحين وتحذيراً لأعداء المدينة(**) . وأشهر هذه التماثيل الثلاثة تمثال أثينة بارثنوس ويبلغ ارتفاعه . ثمانى أقدام وثلاثين قدماً ، وكان مقاما فى داخل البارثنون ويمثل أثينة العذراء إلهة الحكمة والعفة . وكان فدياس يريد أن ينحت هذا التمثال الأخير من الرخام ، ولكن الشعب أبى إلا أن يكون من العاج والذهب . فاستخدم الفنان العاج للأجزاء الظاهرة من الجسم كما استخدم أربعين وزنة (٢٥٤٥ رطلا) من الذهب لصنع الثياب[٣٢] ، ثم زينه بالمعادن الثمينة والنقوش المتقنة البديعة على الخوذة ، والخلاخيل ، والدروع . وقد وضع هذا التمثال بحيث تقع أشعة الشمس مباشرة فى يوم عيد أثينة على الثياب الجميلة وعلى وجه العذراء الشاحب بعد

(*) لم تبق منه نسخة صادقة .

(**) وقد نقل هذا التمثال إلى القسطنطينية حوالى عام ٣٣٠ م ، ويلوح أنه دمر فى أثناء شغب قام فيها عام ١٢٠٣[٣١] .

خولها من أبواب المعبد العظيمة(*) .

ولم يكن إتمام هذا التمثال من أسباب سعادة فدياس ، لأن بعض ما قدم له من الذهب والعاج لصنعه قد اختفى من مُحْتَرَفه ولم تعرف أسباب اختفائه . وانتهز أعداء بركليز هذه الفرصة السانحة : فاتهموا فدياس بسرقة الذهب والعاج وأدانوه(**) . ولكن أهل أولمبيا شفعوا له وأدوا الكفالة المطلوبة منه وقدرها أربعون ؟ وزنة على شريطة أن يذهب إلى أولمبيا ويصنع فيها تمثالا من الذهب والعاج لمعبد زيوس(٣٤) . وسرهم أن يقدموا له من العاج والذهب أكثر مما قدم له قبل . وبنوا له ولمساعديه مصنعاً خاصاً بجوار حرم الهيكل ، وكلف أخوه پانينوس Panaenus أن يزين بالصور العرش الذى يجلس عليه التمثال وجدران الهيكل(٣٥) . وإذا كان فدياس مولعا بالضخامة ، فقد جعل ارتفاع تمثال زيوس الجالس ستين قدما ، ولما أن وضع فى مكانه فى الهيكل شكا النقاد من أن الإله سيخترق سقفه إذا ما بدا له أن يقوم واقفا . ووضع فدياس على « جبينى » الإله الراعد « القاتمين » و « غدائره المعطرة » تاجا من الذهب فى صورة أغصان شجر الزيتون وأوراقه . ووضع فى يد الإله اليمنى تمثالا للنصر صغيراً مصنوعاً من الذهب والعاج ، وفى يده اليسرى صولجاناً مطعماً بالأحجار الكريمة ، وألبسه ثوبا ذهبياً نقشت عليه الأزهار ، ووضع فى قدميه خفين من الذهب المصمت . أما عرشه فكان من الذهب ، والأبنوس ، والعاج . وكان عند قاعدته تماثيل صغيرة للنصر ، لأپلو ، وأرتميز ، ونيوبى ، ولصبيان من طيبة اختطفهم أبو الهول(٣٧) . وكان الأثر الذى يبعثه فى النفس هذا التمثال وتوابعه رائعاً قوياً

(*) لو أننا حكمنا على هــذا التمثال من أنموذجى « لنورمانت Lenormant » و « ڤارڤاكا Varvaka » المحفوظين فى متحف أثينة لما عنينا كثيراً به . فأول هذين الأنموذجين ضخم منتفخ الوجه ، وصدر الثانى تزحف عليه كثير من الأفاعى المقدسة .

(**) حوالى ٤٣٨ ؛ وهذا التاريخ مشكوك فيه كثيراً . ومثل هذا يقال عن تتابع الحوادث فى السنين الأخيرة من حياة فدياس .

إلى حد جعل الناس ينسجون حوله كثيراً من الخرافات والأساطير . فمن قائل إنه عندما أتمه فدياس طلب أن تطلع عليه السماء آية تدل على رضائها عن عمله ، فأرسلت صاعقة نزلت على الأرض غير بعيد عن قاعدة التمثال - وهى آية كمعظم الآيات السماوية تقبل عدة تفاسير مختلفة(*) ، وعد التمثال من عجائب الدنيا السبع ، وكان يحج إليه كل من استطاع الحج ليشاهد الإله المتجسد فيه . ولما فتح إيميليوس پولس Aemilus Paulius القائد الرومانى بلاد اليونان ورأى هذا التمثال الضخم استولى عليه الرعب ، واعترف أن ما شاهده بعينه قد فاق كل ما كان يصوره له خياله[٣٨]. ووصفه ديوكريسوتوم Dio Chrysotom بأنه أجمل تمثال على وجه الأرض، وأضاف إلى قوله هذا ما قاله بيتهوفن فى الموسيقى : « إذا وقف أمام هذا التمثال إنسان قد تراكمت عليه الهموم ، وتجرع فى حياته كأس المصائب والأحزان حتى الثمالة ، وطار النوم الحلو من أجفانه ، نسى كل ما يصيب الإنسان فى حياته من متاعب وأحزان[٣٩] » . وقال فيه كونتليان Quintilian : « إن جمال التمثال قد أضاف بعض الشىء إلى دين البلاد ؛ ولقد كان جلاله خليقاً بالإله الذى يمثله[٤٠] » .

ولسنا نعرف عن أواخر أيام فدياس شيئاً موثوقاً به . فمن القصص ما يرى أنه عاد إلى أثينة حيث قضى نحبه فى السجن[٤١] ؛ ومنها ما يقول إنه أقام فى إليس Elis ، وإن هذه المدينة نفسها قد قتلته فى عام ٤٣٢[٤٢]. وليست إحدى هاتين القصتين اللتين تتحدثان عن خاتمة فدياس أصدق من أختها ، وواصل تلاميذه عمله ، وبرهنوا على نجاحه معلماً بما أخرجوه من آيات فنية لا تكاد تقل روعة عن آياته هو . فقد نحت أجركريتس Agoracritus أحب تلاميذه إليه تمثالا لنمسيز Nemesis طبقت شهرته الآفاق

(*) لم يبق من تمثال زيوس هذا إلا قطع صغيرة من قاعدته .

ونحت الكنيز تمثالا لأفرديتى إلهة الحدائق كان لوشان يضعه فى مصاف أرقى ما أخرجه المثالون من آيات(*) فنية(٤٣) . وكانت خاتمة مدرسة فدياس فى نهاية القرن الخامس ، لكنها تركت فن النحت اليونانى أرقى كثيراً مما كان حين بدأت حياتها الفنية ؛ فقد أشرف الفن بفضل فدياس وأتباعه على الكمال فى اللحظة التى بدأت فيها حرب البلوبونيز تنزل بأثينة الخراب . لقد أتقنت هذه المدرسة أصول الفن وقواعده ، وفهمت تشريح الجسم ، وصبت الحياة والحركة والرشاقة فى البرنز والحجر صباً ؛ ولكن العمل الجليل الذى يميز فدياس من غيره من المثالين هو ما أخرجه من طراز فى النحت جديد عبر عنه أصدق تعبير ، ذلك الطراز السامى أو « الطراز العظيم » كما يسميه ونكلمان . وهو طراز يجمع بين القوة والجمال ، والتهور والإحجام ، والحركة والسكون ، واللحم والعظم مع الروح والعقل . وفى هذا الطراز تمثل الفنانون على الأقل بعد ما بذلوا من جهود دامت خمسة قرون ذلك « الصفاء » الذائع الصيت الذى يعزوه المؤرخين بخيالهم إلى اليونان ، وكان فى وسع الأثينيين ذوو العاطفة الثائرة الجياشة إذا ما تدبروا تماثيل فدياس أن يروا كيف يقترب الآدميون من الآلهة ، وإن يكن ذلك فيما أبدعوا من تماثيل فحسب .

(*) وقد يكون تمثال فينوس المكسورة المحفوظ فى متحف اللوفر نسخة من هذا التمثال

الفصل الرابع

البنـــاءون

١ – ارتقاء فن العمارة

تمت سيطرة الطراز الدورى فى العمارة على بلاد اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد ؛ ولم يبق إلى الآن من الهياكل اليونانية التى شيدت فى ذلك العصر الزاهر إلا قليل من الأضرحة الأيونية وأهمها الإركثيوم وهيكل نيكى أپتروس Nike Opteros المقام على الأكربولس . وبقيت أتكا فى ذلك العهد محافظة على الطراز الدورى ، فلم تخضع للطراز الأيونى إلا حين كانت تستخدمه فى العمد الداخلية للبروپيليا ، وفى صنع إفريز حول التسيوم والپارثنون . ولعل ما يشاهد من نزعة ذلك العصر إلى إطالة العمود وتقليل سمكه عما كان من قبل يدل على أثر آخر من آثار الطراز الأيونى .

وفى آسية الصغرى أشرب اليونان حب الشرقيين للتحلية الدقيقة وعبروا عن هذا الحب بتنميق الدعامات الأيونيـــة المرتكزة على العمد تنميقاً فيه كثير من التعقيد ، وبإيجاد طراز جديد من هذه الدعامات أكثر زخرفاً من الطراز الأيونى يعرف بالطراز الكورنثى . وحدث حوالى عام ٤٣٠ (حسب رواية ڤتروڤيوس Vitruvius) أن استلفتت نظر مثال أيونى يدعى كلمكس Callimachus ، سلة لتقديم النذور مغطاة بقرميدة ، تركتها مربية على قبر سيدتها ؛ وقد نبتت شجيرة أكنتوس(*) حول السلة والقرميدة . وأعجب المثال بالصورة الطبيعية التى أوحت بها إليه السلة وما حولها فعدل

(*) جنس من الأعشاب الأوربية تعرف أيضاً بالكتكر ، وطابة الشوك ، وشوكة اليهود . (المترجم)

تيجان العمد الأيونية في هيكل كان يشيده في كورنثة بأن أضاف أوراق الأكنتوس إلى الحلى اللولبية[٤٤] . ونحن نرجح أن هذه القصة خرافة لا أصل لها ، وأن سلة المربية كان أثرها في نشأة الطراز الكورنثي أقل من أثر تيجان العمد المصرية المحلاة بسعف النخل وأوراق البردي . ولكننا نستطيع أن نقول واثقين إن الطراز الجديد لم ينتشر انتشاراً واسعاً في بلاد اليونان في عصرها الذهبي ، وإن كان إكتينس قد استخدمه في عمود منفرد في ساحة هيكل أيوني في فيجاليا Phigalea ، وإن كان قد استخدم أيضاً حوالى آخر القرن الرابع في هيكل أقيم تخليداً لذكرى لسكارتيز Lysicartes . ولم يبلغ هذا الطراز الدقيق أرقى صورة له إلا على يد الرومان المتأنقين في عهد الإمبراطورية .

وكان العالم اليوناني كله يشيد الهياكل في ذلك العهد ، وأوشكت المدن أن تفلس في تنافسها لإقامة أجمل التماثيل وأكبر الأضرحة ، وأضافت أيونيا إلى مبانيها الضخمة في ساموس وإفسوس هياكل أيونية جديدة في مجنزيا ، وتيوس وبريني ، وأقام المستعمرون اليونان في أسوس Assus من أعمال بلاد اليونان الطروادية مزاراً لأثينة لا يكاد طرازه يختلف في شيء عن الطراز الدوري العتيق ، وشادت كروتونا في الطرف الآخر من بلاد هلاس حوالى عام ٤٨٠ ق . م بيتاً دورياً واسعاً لهيرا ظل باقياً إلى عام ١٦٠٠ م حين ظن أحد الأساقفة أن في مقدوره أن يستخدم حجارته في غرض أنفع من الغرض الذي كانت تستخدمه فيه[٤٥] . وأقيمت في القرن الخامس أعظم هياكل بسلونيا (بستم Paestum) ، وسجستا Segesta ، وسلينس ، وأكرجاس ؛ وفيه أيضاً أقيم معبد أسكلبيوس Asclepius في إبدورس . ولا تزال تشاهد في سرقوسة عمد هيكل شاده جيلون الأول Gelon I لأثينة ، وقد بقي بعض هذا الهيكل لأنه حول إلى كنيسة مسيحية ؛

واختط إكتينس فى باسيا بالقرب من فيجاليا من أعمال البلوبونيز هيكلا لأبلو يختلف اختلافاً عجيباً عن البارثنون آيته الفنية الأخرى . ذلك أن صفوف الأعمدة الدورية تحيط بفضاء يشغله محراب صغير وبهو مكشوف كبير تحيط به أعمدة أيونية . وحول هذا البهو الداخل فى مقابل الوجه الداخلى للعمد الأيونية يمتد إفريز لا يقل فى رشاقته عن إفريز البارثنون نفسه ، ويمتاز عنه فى أنه ظاهر تراه العين(*) :

وشاد ليبون Libon المهندس الإيلى فى أولمبيا قبل أن يشاد البارثنون بجيل من الزمان مزاراً لزيوس دورى الطراز يضارع البارثنون نفسه . وقد أقيمت فى كل طرف من أطرافه ستة أعمدة ، وثلاثة عشر عموداً فى كل جانب من جانبيه ، ولعلها قد بلغت من الضخامة حداً لا يتفق مع جمال الشكل ، كما أن المادة التى صنعت منها كانت غير خليقة بهذا الأثر الجليل — فهى من الحجر الخشن المطلى بالمصيص ؛ أما السقف فقد صنع من القرميد البنتيلى Pentelic(**) . ويحدثنا پوسنياس[٤٦] أن بيونيوس Paeonius وألكمنيز قد نحتا للقواصر أشكالا قوية(†) تمثل على الجانب الشرقى من السقف سباق المركبات بين بليبس وإينوماوُس Aenomaus ، وعلى الجانب الغربى منه صراع اللپيثين والقناطرة(††) . واللپيثيون ، كما تروى الخرافات اليونانية قبيلة جبلية تقيم فى تساليا ؛ ولما أن تزوج ملكها پرثوس Pirithous بهپوداميا Hippodameia ابنة إينوماوُس ملك بيزا إحدى مدائن إليس Elis ، دعا القنطرة إلى وليمة العرس . وكانت القناطرة تسكن الجبال المحيطة ببليون ويصورها الفن اليونانى مخلوقات نصفها خيل ونصفها آدميون ، ولعلهم

(*) ولا تزال ثمانية وثلاثون عموداً من أعمدته وجدران محرابه وأجزاء من العمد الداخلية باقية إلى الآن . وفى المتحف البريطانى قطع من الإفريز .

(**) وصف لرخام وجد فى جبل بنتلكس Pentelicus بالقرب من أثينة .

(†) وهى الآن فى متحف أولمبيا .

(††) جمع قنطورس Centaur وهو حيوان خرافى يونانى نصفه حصان ونصفه ثور —

أرادوا بهذا أن يدلوا الناس على طبيعة أولئك الأقوام الوحشيـــة غير المروضة أو يوحوا بأن القناطرة كانوا فرساناً مهرة إلى حد يخيل معه إلى من رآهم أن الفارس هو وفرسه حيوان واحد . وسكر أولئك الفرسان فى أثناء الوليمة وحاولوا أن يختطفوا النساء اللبيثيات ، لكن اللبيثيين دافعوا عن نسائهم دفاع الأبطال وهزموا القناطرة (ولم يمل الفنانون اليونان تصوير هذه القصة ، ولعلهم كانوا يرمزون بها إلى تنظيف الغابات من الحيوانات البرية وإلى الكفاح القائم بين طبيعتى البشر الإنسانية والحيوانية) .

والأشكال المصورة على القوصرة الشرقية عتيقة الطراز جامدة ساكنة أما التى على القوصرة الغربية فإن من أصعب الأمور أن يعتقد الإنسان أنها عملت فى نفس هذا العصر ، ذلك بأنها نشيطة تنبض بالحياة ، وتدل على تمكن ناضج من التأليف بين المجاميع . وإن كان بعضها فجا ، وإن كان الشَّعر قد مثل على النمط الذى جرى به العرف فى الزمن القديم . أما العروس فذات جمال بارع يثير الدهشة ، فهى امرأة نحيفة فى غير ضعف ، كاملة النمو ، جميلة المحيا ، جمالا لا نعجب إذا قامت بسببه الحرب بين الطائفتين المتقاتلتين . ونرى قنطروساً ملتحياً يطوق خصرها بذراعه ، ويضع إحدى يديه على صدرها ، ويوشك أن يختطفها من دار عرسها ، ولكن الفنان مع هذا يصورها هادئة الملامح ساكنة سكوناً يظن الإنسان معه أنه قد قرأ لسنج Lessing أو ونكلمان ، أو أنها ككل الغوانى يغرها الثناء عليها والرغبة فيها .

وأقل من هذه الصور شأناً وأصغر منها حجما ، وإن كانت أحسن منها صقلا ، الأجزاء الباقية من جبهة الهيكل ، وهى التى تروى بعض أعمال هرقل الأسطورى ، فتصور بعضها هرقل يرفع العالم الأطلس . وقد أجاد الفنان فى هذا كل الإجادة ، فليس هرقل هنا جباراً شاذاً مخالفاً للمألوف ، مفتول العضلات المحيطة بجسمه كأنها قدت من الحجر الصلد ، بل هو رجل كامل النمو ، متناسق الجسم ، وقد وقف أمامه أطلس له رأس لو أنه وضع على كتفى أفلاطون لزانهما .

وإلى يسارها وقفت إحدى بنات أطلس مكتملة النمو بارعة الجمال الطبيعي الذي أكسبتها إياه صحتها وكمال أنوثتها .

ولعل المصور كان يرمز إلى صورة مرسومة فى ذهنه حين صورها تساعد فى رقة وظرف الرجل القوى على حمل العالم . إن فى مقدور الفنان الإخصائى أن يعثر على بعض أغلاط فى التنفيذ وفى التفاصيل الدقيقة عندما يتأمل هذه الجبهة نصف المخربة ، لكن الملاحظ الهاوى إذا نظر إلى العروس . وإلى هرقل ، وابنة أطلس ، يرى أن هذه المجموعة تقرب من الكمال قرب أية مجموعة أخرى فى تاريخ النحت البارز .

٢٠ - إعادة بناء أثينة

تفوق أتكا سائر بلاد اليونان فى كثرة ما أقيم فيها من أبنية فى القرن الخامس ، وفى حسن هذه الأبنية . فهنا نرى الطراز الدورى ، الذى يبدو فى غيرها منتفخاً ضخماً ، قد اكتسب الكثير من الرشاقة والانسجام الأيونيين ، وأضيف اللون إلى الخطوط ، والتحلية إلى التناسب . ولقد أقام الذين خاطروا بركوب البحر معبد الپسيدن على رأس شـــديد الخطر عند سنيوم Sunium ، بقى منه الآن أحد عشر عموداً . واختط إكتينس فى إلوسيس هيكلا رحباً للسِّر وقدمت أثينة بناء على نصيحة پركليز ما يلزمه من المال لجعل هذا المعبد خليقاً بالحفلات الإلوسيسية . وفى أثينة نفسها شجع الفنانين على مواصلة عملهم وجود الرخام الجيد بالقرب منها فى جبل بنتلكس وفى پاروس ، لأنه أجمل مواد البناء على الإطلاق . وقلما استطاعت الدمقراطية أو رغبت فى عهد من العهود ، قبل حلول الكارثات الاقتصادية فى أيامنا هذه أن تنفق المال بمثل هذا السخاء على إقامة المبانى العامة . فلقد تكلف البارثنون سبعمائة وزنة (٤٫٢٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) ، وتكلف تمثال أثينة پارثنوس (وقد كان تمثالا ومستودعاً للذهب فى آن واحد) ما قيمته

٦٠٠٠ر٠٠٠ر٦ ريال ، وتكلف هيكل البروبليا ٤٠٠ر٠٠٠ر٢ ريال ، وأنفقت ١٨٠٠٠ر٠٠٠ر١٨ ريال على مبانى أصغر من هذه أقامها بركليز فى أثينة وبيرية ، و ٢٠٠ر٠٠٠ر١٦ ريال فى إقامة تماثيل وما إليها من أسباب الزينة . وجملة القول أن أثينة خصصت من مواردها فى الستة عشر عاماً الواقعة بين ٤٤٧ ، ٤٣١ نحو ٥٧٠٠٠ر٠٠٠ر٥٧ ريال أمريكى للمنشآت العامة والتماثيل والتصوير[١٧] ؛ وكان توزيع هذا المبلغ الضخم بين الصناع ، والفنانين ، والمنفذين لأعمالهم ، والأرقاء ، أثر كبير فى الرخاء الذى عم أثينة فى عهد بركليز .

وفى وسعنا أن نرسم فى مخيلتنا صورة غامضة للعوامل التى كانت تستند إليها هذه المغامرة الفنية الجريئة . ذلك أن الأثينيين ، بعد أن عادوا من سلاميس ، وجدوا أن الفرس لم يكادوا يبقون على شىء من المدينة فى أثناء احتلالهم إياها ، فقد أحرقوا كل بناء ذى قيمة فيها ، وتلك كارثة ، إذ لم تقض على السكان كما تقضى على المدينة ، تزيد السكان قوة وصلابة ؛ كما أن هذه النيران تطهر المدينة من الأحياء القذرة والمبانى غير الصالحة للسكنى ، وبذلك تعمل المصادفات ما يحول عناد الإنسان دون عمله ؛ وإذا ما وجد الأهلون الطعام فى خلال هذه الأزمنة استطاعوا بجهودهم وعبقريتهم أن ينشئوا مدينة أجمل من المدينة المخربة . ولقد كان الأثينيون بعد الحرب الفارسية أغنياء بجهودهم وعبقريتهم ، وضاعفت روح النصر من قوة إرادتهم ومن رغبتهم فى الإقدام على جلائل الأعمال ، فلم يمض جيل واحد حتى أعيد بناء أثينة ، فأقيم فيها بناء جديد لمجلسها ، وشيدت فيها دار جديدة للبلدية ، ومنازل جديدة ، وأروقة جديدة ذات أعمدة ، وأسوار جديدة لصد المغيرين ، وأقيمت أرصفة ومخازن فى مرفأ لها جديد . ذلك أن هبودامس Hippodamus الملطى أشهر من خططوا المدائن فى الزمن القديم وضع أساس فرضة جديدة مكان بيرية ، ووضع هذا الأساس على طراز جديد ، فقد استبدل بالحواضر القديمة وبالأزقة الملتوية التى كانت تشق فى المدينة على

غير نظام شوارع واسعة مستقيمة تتقاطع متعامدة . وشاد فنانون مجهولون على ربوة تبعد عن الأكروپوليس بميل واحد ذلك البارثنون الأصغر المعروف بالثسيوم أو هيكل ثسيوس(*) . وملأ المثالون قواصر البناء ووجهاته بالنقوش المحفورة . وأنشئوا له إفريزاً فوق الأعمدة الداخلية القائمة على جانبيه . وطلى الرسامون (الكرانيش) والحزوز ، والواجهات والإفريز ، كما طلوا بالألوان الزاهية الجدران من الداخل التى لا يدخل إليها إلا قليل من الضوء ينفذ فى المربعات الرخامية(**) .

وكان خير ما قام به البناؤون فى عصر پركليز هو الأكروپوليس ، الحاضرة القديمة لحكومة المدينة ودينها ؛ وقد بدأ ثمستكليز تجديده ، فاختط هيكلا طوله مائة قدم سمى لهذا السبب « ذا المائة قدم » Hecatompedon . فلما سقط ثمستكليز وقف العمل فى بنائه لمعارضة الحزب الألجركى فى ذلك ، بحجة أنه إذا أريد إقامة بيت للإلهة أثينة لا يكون شؤماً على المدينة وجب أن يقام هذا البيت فى موضع الهيكل القديم هيكل أثينة پولياس (أثينة المدينة) الذى دمره الفرس . لكن پركليز ، الذى لم يكن من طبعه أن يعنى بهذه الأوهام ، رأى أن يقيم البارثنون فى موضع الهكتمپدون وسار فى العمل وفقاً لهذه الخطة رغم احتجاج الكهنة . وشاد فنانوه على منحدر تل الأكروپوليس الجنوبى الغربى بهواً للموسيقى (أوديوم Odeum) يمتاز عن جميع أبهاء أثينة

(*) وهذه التسمية خاطئة لأن هذا الهيكل الذى أقيم فى عام ٤٢٥ لا يمكن أن يكون هو الثسيوم الذى جاء إليه سيمون فى عام ٤٦٩ بعظام ثسيوس المزعومة ؛ لكن الزمن يضفى القداسة على الخطأ كما يضفيها على السرقة ، ولهذا بقيت هذه التسمية التقليدية متداولة لأننا تعوزنا التسمية المؤكدة الصحيحة .

(**) والثسيوم هو خير ما احتفظ به من المبانى اليونانية القديمة ، ولكنه رغم العناية به تنقصه مربعاته الرخامية ، وما كان على جدرانه من الصور وبداخله من التماثيل ، وعلى قواصره من نقوش ، كما تنقصه جميع ألوانه الخارجية تقريباً . وقد لحقت أضرار كثيرة بواجهاته جعلت تميز النقوش فى حكم المستحيل .

بقبته المخروطية الشكل . وقد أتاح هذا البناء لهجائى بركليز المستمسكين بالقديم فرصة اغتنموها فأخذوا من ذلك الحين يسمون رأس بركليز المخروطى « أودينه Odeion أى بهو غنائه » وأقيم معظم الأوديوم من الخشب فلم يلبث إلا قليلا حتى عدا عليه الدهر . وكانت تقام فيه الحفلات الموسيقية ، ويتدرب فيه الممثلون على تمثيل مسرحيات ديونيسس ، وتجرى فيه كل عام المباريات التى أنشأها بركليز فى الموسيقى الصوتية والوترية . وكثيراً ما كان هذا السياسى الذى نبغ فى كثير من الأعمال يقوم بالحكم فى هذه المباريات .

وكان الطريق الموصل إلى قمة التل فى الأيام القديمة ملتوياً متدرجا ، على جانبيه تماثيل وقرابين الشكر للآلهة . وكان بالقرب من قمة التل مجموعة من الدرج الرخامية العريضة الفخمة تستند إلى بروج على كلا الجانبين . وشاد كلكراتيز فوق البرج الجنوبى أنموذجا مصغرا لهيكل أيونى لأثينة فى صورة نيكى أبتروس Nike Apteros أو النصر غير ذى الجناح(*) . وكانت نقوش جميلة (لايزال بعضها محفوظا فى متحف أثينة) تزين الحاجز ذا العمد الصغيرة هى وطائفة من التماثيل تمثل النصر المجنح وتحمل لأثينة الغنائم التى جاءت بها من أماكن قاصية . وقد صنعت هذه التماثيل على صورة أجمل تماثيل فدياس ، وهى أقل قوة وعنفا من تماثيل الإلهيات الضخمة التى فى البارثنون ، ولكنها أكثر منها رشاقة فى حركتها ، وأرق منها وأقرب إلى الطبيعة فى شكل ملابسها ؛ وتمثال النصر الذى يربط خفيه خليق باسمه لأنه نصر حق للفن اليونانى .

وأقام نسكليز Mnesicles فى أعلى سلم الأكربوليس مدخلا ذا خمس

(*) كثيراً ما كانت تماثيل نصر تصنع من غير أجنحة حتى لا تستطيع مغادرة المدينة. وقد هدم الأتراك هذا المعبد فى عام ١٦٨٧ م ليقيموا مكانه حصنا . واستطاع لورد إلجين Lord Elgin أن ينتشل من العطب بعض قطع من الإفريز ويرسلها إلى المتحف البريطانى وفى عام ١٨٣٠ أعيدت أحجار الهيكل وأعيد بناؤه فى مكانه الأصلى ، ووضعت قوالب من الصلصال المحروق فى موضع الأماكن المفقودة من الإفريز التى أصابه كثير من الدمار .

فتحات أمام كل واحدة منها رواق ذو عمد دورية من طراز الأبواب الميسينية ، ولكنها أكثر منها إحكاماً . ومن هذه العمد أخذ الاسم الذى أطلق على البناء كله فيما بعد وهو البروپليا Propylaea أى ما أمام الأبواب . وكان لكل رواق إفريز ذو واجهة مخرزة ، من فوقه قوصرة . وكان فى داخل الممشى طائفة من العمد الأيونية لم يتحرج من شادوها أن يضعوها داخل هذا المحيط الدورى . وزين داخل الجناح الشمالى برسوم من صنع پولجنوتس وغيره من الفنانين ، ووضعت فيه لوحات نذور من الأحمر أو الرخام ، ومن أجل ذلك سميت الپناكثكا Pinakotheka أى بهو الرخام . وبقى جناح صغير فى الجهة الجنوبية ناقصاً ، فقد تعطل العمل فيه بسبب الحرب أو بسبب الانقضاض على پركليز ، فترك مدخل الپارثنون مجموعة مشوهة من القطع الصغيرة المتفرقة الجميلة .

وكان إلى يسار الداخل من هذه الأبواب مزار الإركثيوم ذو الطراز الشرق العجيب . وهذا أيضاً قد أدركته الحرب فلم يتم أكثر من نصفه حين وقعت أثينة فى مخالب الفوضى والفاقة على أثر نكبة إيجسپتاى Aegospotamai . وقد بدئ العمل فيه بعد موت پركليز بإيعاز المحافظين الذين كانوا يخشون أن يعاقب البطلان القديمان إركثيوس Erectheus وسكرپس Cecrops هما وأثينة ساكنة الضريح القديم ، والأفاعى المقدسة التى كانت تأوى إلى هذا المكان ، نقول كانوا يخشون أن تعاقب هـذه كلها مدينة أثينة لأنها شادت الپارثنون فى مكان غير مكانه الأول . وكانت الأغراض المختلفة التى شيد من أجلها البناء هى التى عينت شكله ، وقضت على وحدته . فقد خصص أحد أجنحته لأثينة پولياس (أثينة المدينة) ، ووضعت فيه صورتها القديمة ، وخصص جناح آخر لإركثيوس وپسيدن ، ولم يكن يحيط بالمحراب أو جسم المعبد رواق بين أعمدة يضم أجزاءه المتفرقة ، بل كان يستند إلى ثلاثة أروقة متفرقة . وكان المدخلان الشمالى والشرق تسندهما عمد أيونية رفيعة لا تفوقها

فى جمالها أية عمد أخرى من نوعها(*) . وكان المدخل الشمالى بابا كامل البناء مزيناً بأزهار محفورة فى الرخام . ووضع فى المحراب تمثال أثينة الخشبى البدائى الذى هبط ، فى اعتقاد الصالحين ، من السماء . وهناك أيضاً كان المصباح العظيم الذى لا تنطفئ ناره أبداً ، والذى صاغه كلمكس ، سلينى Cellinus زمانه ، من الذهب المصفى وزينه بأوراق الأكنثوس كتيجان الأعمدة الكورنثية . وكان المدخـل الجنوبى هو باب العذارى أو الكَرْيَتِيدات Caryatids(**) الذائع الصيت . وأكبر الظن أن تلك النساء الصابرات كن من نسل حاملات السلال الشرقيات . وفى تراليس Tralles من أعمال آسية الصغرى عمود قديم فى صورة امرأة لا يترك مجالا للشك فى أن هذا الطراز من العمد شرقى الأصل ، وأكبر الظن أنه بابلى . والثياب التى تغطى أجسام العذارى فاخرة ، ويدل انحناء الركبة عن أنهن مستريحات فى وقفتهن ، ولكن أولئك الفتيات أنفسهن لا يشعرن الإنسان بأن فيهن من القوة ما يعينهن على حمل ذلك البناء ، كما يشعر الإنسان حين ينظر إلى أجمل أنواع الأبنية . لقد كان هذا انحرافاً فى الذوق أكبر ظننا أن فدياس لم يكن يجيزه قط .

(*) لقد كانت هذه العمد ، لا عمد البارثنون ، هى التى أقيمت على مثالها العمد التى أنشئت فيما بعد . وكان أسفل كل عمود يتصل بصف الأعمدة « بقاعدة أتكية » مكونة من ثلاثة أجزاء مربوطة بعصابات شبكية أو أربطة . ويتدرج أعلى العمود حتى يصل إلى تاجه الولبى برباط من الأزهار . وكانت الدعامة المرتكزة على العمود حلية عليها نقوش ، وإفريز من الحجر الأسود ؛ ومن تحت السقف طائفة من النقوش البارزة . ولم تكن عناية الفنانين بعض الحليات المكونة من أزهار البياضية ، والقنات ، والياسمين البرى ، أقل من عنايتهم بالتماثيل نفسها . وقد نال الفنانون على كل قدم من هذه الحليات مثل ما نالوه من الأجر على كل صورة فى الإفريز .

(**) كان المهندس الرومانى فتروفيوس Vitruvius هو الذى أطلق هذا الاسم على هذه الأشكال ، وقد أخذه من الأسم الذى كان يطلق على كاهنات أرتميس فى مدينة كرية Caryae من أعمال لكونيا Loconia . أما الأثينيون فلم يسموهم بأكثر من كوراى Korai أى العذارى .

٣ – البارثنون

فى عام ٤٤٧ بدأ إكتنوس ينشئ هيكلا جديداً لأثينة بارثنوس يساعده ذلك العمل كالكراتيز Callicrates ويشرف عليها فدياس وبركليز إشرافاً عاماً . وأنشأ فى الطرف الغربى من البناء حجرة لكاهناتها العذارى سماها حجرة « العذارى » ton parthenos ، ثم استعير هذا الاسم على توالى الزمن فأطلق على البناء كله ؛ واختار إكتنوس لبناء الهيكل رخام جبل بنتكلوس الأبيض المشوب بحبيبات حديدية ، ولم يستخدم فى بنائه ملاطا ، بل نحتت كتل الحجارة وصقلت بحيث تمسك كل كتلة فى التى تليها كأن الاثنتين كتلة واحدة ، وثقبت صفحات الأعمدة ووضعت فى ثقب الصفحة قطعة من خشب الزيتون تصل كلا منها بالأخرى وتدور على التى تحتها حتى سوى السطحان المتقابلان ويصقلان فلا يكاد يرى فارق بينهما[٤٩] . وكان طراز البناء دوريا خالصا وبسيطا بساطة أبنية العصر الذهبى ؛ أما شكله فكان رباعياً لأن اليونان لم تكن تعجبهم الأشكال المستديرة أو المخروطية ، ومن أجل هذا لم تكن فى العمارة اليونانية عقود وإن يكن المهندسون اليونان على علم بها من غير شك . ولم تكن أبعاد البناء كبيرة فهى ٢٢٨ × ١٠١ × ٦٥ قدما ، وأكبر الظن أنه كان يسود البناء كله تناسب معين كالتناسب التى يفرضه قانون بليكليتس ، فكانت جميع مقاييسه تتناسب تناسبا معينا مع قطر العمود[٥٠] . فى بسدونيا كان ارتفاع العمود أربعة أمثال قطره ، أما هنا فكان الارتفاع خمسة أمثال القطر ؛ وكان هذا الطراز الجديد وسطا بين المتانة الاسبارطية والرشاقة الأتكية . وكان قطر كل عمود يزداد قليلا من قاعدته إلى وسطه (نحو ثلاثة أرباع البوصة) ثم ينقص كلما علا ؛ ويميل نحو مركز بهو الأعمدة . وكان سمك كل عمود فى ركن البناء يزيد قليلا على سمك سائر الأعمدة ، وكل خط أفقى من قاعدة كل صف ومن الدعامة

المرتكزة عليه ينحنى إلى أعلى نحو وسط حتى إذا نظر إليه الإنسان من أحد طرفى هذا الخط الذى يظنه مستقيما لم يستطع رؤية طرفه الثانى البعيد عنه . ولم تكن واجهات البنــاء كاملة التربيع ، ولكنها خططت بحيث تظهر لمن ينظر إليها من أسفل كأنها مربعة . ولم تكن هذه الانحناءات كلها إلا تصحيحا دقيقا للخداع البصرى ، ولولاها لبدت قواعد صفوف الأعمدة منخفضة فى وسطها مائلة نحو الخارج . وما من شك فى أن هذا الضبط يتطلب قدراً كبيرا من العلم بالرياضيات والبصريات ، وأنه كان من المظاهر الهندسية الآلية التى جعلت الهيكل صرحا يجمع بين العلم والفن . فقد كان كل خط مستقيم فى البارثنون ، كما هو فى علم الطبيعة ، خطا منحنيا ، وكان كل جزء من البناء ينسحب نحو الوسط ، كما هو الشأن فى التصوير ، انسحابا دقيقا بارعا . وقد نشأ من هذا كله نوع من المرونة والرشاقة يخيل إلى الإنسان معه أنه يخلع على الحجارة نفسها حياة وحرية .

وكان فوق العارضة البسيطة (العارضة الراكزة على الأعمدة) سلسلة من الحزوز والأجنبة (ما بين الحزوز) تلى كلتاهما الأخرى . وقد نقشت على الأجنبة الاثنين والتسعين نقوش بارزة تقص مرة أخرى كفاح « الحضارة » و « الوحشية » فى حروب اليونان والطرواديين ، واليونان والأمزونيات ، واللبيثيين والقناطره (Centaurs) ، والجبابرة والآلهة . ولا شك فى أن هذه الألواح من صنع فنانين آخرين يختلفون فى مهارتهم ، فهى لا تعادل النقوش البديعــة التى على إفريز المراب وإن كانت بعض رؤوس القناطرة لا تقل دقة وجمالا عن صور رمبرانت Rembrandt ، وإن كانت هذه الرؤوس قد صنعت من الحجارة . وكان فى قواصر السقف المرمى طائفة من التماثيل المقامة من حجارة منحوتة كبيرة الحجم ، وفى القوصرة الشرقية المقامة فوق المدخل . كان يسمح للزائر أن يشهد مولد أثينة

من رأس زيوس . وفى هذا المكان يشاهد تمثالا متكئا لثسيوس(*) قوى الجسم جباراً ، قادراً على تفكير الفلاسفة وسكون المتحضرين ، وتمثالا جميلا لإيريس Iris (وهى هرمس فى صورة نسوية) فى ثياب ملتصقة بجسمه ولكنها تلعب بها الريح ، لأن فدياس كان يرى أن الريح التى لا تلعب بالثياب نذير سوء .

وهناك أيضا كان تمثال فخم لهبى Hebe إلهة الشباب التى كانت تصب الرحيق فى كؤوس الآلهة الأولمبية ، وثلاثة تماثيل رائعة « للأقدار » . وكان فى الركن الأيسر أربعة رؤوس جياد — تبرق أعينها ، وتنخر مناخيرها ، وتزبد أفواهها وهى مسرعة فى عدوها ، تعلن شروق الشمس . وكان الركن الأيمن يسوق القمر للمغيب عربته ذات الجياد الأربعة والرؤوس الثمانية أجمل رؤوس الخيل فى تاريخ النحت كله . وفى القوصرة الغربية نرى أثينة تنازع بسيدن السيادة على أتكا . وهناك أيضا كانت خيول ، كأنها وضعت لتكفر عن سخافات الإنسان الكثيرة ، وكانت هناك تماثيل لأناس متكئين تمثل فى فخامتها غير الواقعية نهيرات أثينة الصغيرة . ولعل تماثيل الرجال كانت كثيرة العضلات فوق ما يجب ، ولعل تماثيل النساء كانت أكبر مما ينبغى ، ولكننا نشاهد تماثيل قد تجمعت بحالتها الطبيعية التى تجمعت بها هنا ، وقلما نرى تماثيل بهذه الكثرة قد نسقت فى ذلك المكان الضيق من قوصرة البناء . ويصفها كنوفا Canova وصفاً لا نشك أنه قد غالى فيه فيقول : « إن سائر التماثيل من حجارة أما هذه فمن لحم ودم » .

وأجمل من هذه وأكثر منها جاذبية صور الرجال والنساء التى فى الإفريز ، فهنا نشاهد أشهر النقوش كلها على الإطلاق تمتد إلى مدى ٥٢٥ قدما فى أحد الجدران الخارجية للمحراب ، وفى داخل الرواق . وأكبر الظن أن هذه

(*) إن الأسماء التى نطلقها على التماثيل القائمة فى البارثنون ظنية فى أكثر الأحيان .

النقوش تمثل فتيان أتكا وفتياتها يقدمن الهدايا وفروض الطاعة للإلهة أثينة فى يوم الاحتفال بألعاب الجامعة الأثينية ، فترى جزءاً من الموكب يتحرك بمحاذاة الجانبين الغربى والشمالى ، وجزءاً آخر يتحرك بمحاذاة الجانب الجنوبى ، ثم يلتقيان فى الواجهة الشرقية أمام الآلهة ، وهى تقدم فى فخر وكبرياء هدايا المدينة وجزءاً من مغانمها إلى زيوس وغيره من الآلهة الأولمبية . وهناك أيضاً فرسان حسان تتمثل فيهم المهابة والرشاقة فوق خيول أجمل منهم ، وعربات تقل طائفة من كبراء المدينة تتبعهم جماعات من العامة تبدو عليهم مظاهر السعادة وهم يسيرون فى الموكب رجالا . ونرى فتيات حساناً ، وشيوخاً هادئين يحملون أغصان الزيتون وصحاف الكعك ، ونرى الخدم وعلى أكتافهم أباريق من الخمر المقدسة ، ونساء موقرات يحملن إلى الإلهة الأثواب الخارجية التى نسجنها وطرزنها استعداداً لهذا اليوم المقدس وقبل أن يحل بزمن طويل . وترى الأضحية تمشى لتلاقى مصيرها وهى صابرة كالأثوار أو غاضبة عارفة بما ينتظرها من بلاء ، وعذارى الطبقات الراقية يأتين بآنية الطقوس والتضحية ، وموسيقيين يعزفون على القيثارات أناشيد خالدة لا تسمع لها نغماً . وقلما نرى حيوانات أو أناسى قد بذل فى تكريمها من الفن مثل ما بذل فى هذه النقوش ، فقد استطاع المثالون بما رسموا وظللوا فيما لا يزيد على بوصتين ونصف بوصة من النقش البارز أن يخدعوا العين فيخيل إليها أن جواداً أو فارساً بعيداً عن آخر ، وإن كان أقربها لا يرتفع عن خلفية الصورة أكثر من سائر النقوش(٥١) . ولربما كان من الخطأ أن يكون هذا النقش البديع عاليا لا يستطيع الناظر إليه أن يتأمله فى يسر وراحة ويستوعب كل ما فيه من رونق وجمال ، وما من شك فى أن فدياس كان يتعلل عن هذا وهو يغمز بعينيه بحجة أن الآلهة كانت تستطيع رؤيته ، ولكن الآلهة كانت تحتضر وهو ينقش هذه النقوش .

وكان مدخل الهيكل الداخلى تحت الآلهة الجالسة المنقوشة فى الإفريز . وكان داخل هذا الهيكل صغيراً نسبياً لأن معظم الفراغ كانت تشغله صفوف من الأعمدة الدورية التى تحمل السقف وتقسم المحراب إلى صحن ومسيين ، وفى الطرف الغربى كان سنا أثواب أثينة الذهبية يذهب بأبصار عبادها ، وكان رمحها ودروعها وأفاعيها توقع الرعب فى قلوبهم . وكان من خلفها حجرة العذارى تزينها أربعة أعمدة دورية الطراز . وكان فى الألواح الرخامية التى تغطى السقف من الصفاء ما يسمح بنفاذ بعض الضوء إلى صحن المحراب ، ومن العتمة ما يكفى لمنع الحرارة عنه ، هذا إلى أن التق ، كالحب ، يصد عن المتقين حر الشمس . وكانت الطنف منقوشة نقشاً دقيقاً بذل فيه كثير من العناية ، وكانت تعلوها وقايات من الآجر ركبت فيها ميازيب لإزالة مياه الأمطار . وكانت أجزاء كثيرة من الهيكل مطلية بالألوان الزاهية الصفراء والزرقاء والحمراء . فأما الرخام فقد طلى باللونين الزعفرانى واللبنى ، وكانت الحروز وبعض النقوش زرقاء ، وكذلك كانت أرضية الإفريز . أما الواجهة فكانت حمراء ، وكان كل ما فيها من الصور ملوناً (٥٢) . وقد فضل اليونان الألوان الناصعة على الألوان الهادئة لأنهم شعب اعتاد جو البحر الأبيض المتوسط ولأن فى طاقته أن يتحمل الألوان البراقة ، بل هو يفضلها عن الألوان الخفيفة الهادئة التى توائم جو شمال أوربا القاتم . والآن وقد تجرد البارثنون من ألوانه فإنه يبدو أجمل ما يكون فى الليل حين تظهر من الفراغ الذى بين العمد مناظر السماء المتغيرة ، أو منظر القمر معبود الأقدمين ، أو أضواء المدينة النائمة مختلطة بتلألأ النجوم(*) .

(*) لقد كان الذى أبقى على البارثنون ، كما أبقى على الإركثيوم والثسيوم ، هو أن هذه الهياكل حولت إلى كنائس ؛ ولم تكن هذه المبانى تحتاج فى هذا التحويل إلى تغيير كبير فى أسمائها . لأنها فى كلتا الحالتين مخصصة للعذراء . وحول البارثنون بعد أن احتل الترك البلاد فى عام ١٤٥٦ إلى مسجد وأقيمت فيه مئذنة . ولما حاصر البنادقة مدينة أثينة فى عام ١٦٨٧ استخدم الأتراك الهيكل ليختزنوا فيه كل يوم ما تحتاجه مدافعهم من البارود . ولما أبلغ هذا —

لقد كان الفن اليونانى أعظم ما أبدعه اليونان ؛ ذلك أن روائعه ، وإن لم تقو على مقاومة عوادى الأيام ، قد بقى من صورتها وروحها ما يكفى لأن يجعلها نبراسا تهتدى به كثير من الفنون ، ووحيا يلهمها مدى كثير من الأجيال وفى كثير من البلدان . ولقد كان فى هذا الفن أخطاء ، شأنه فى هذا شأن كل عمل يعمله الإنسان ؛ ولقد كانت التماثيل تعنى بالجسم فوق ما يجب أن تعنى به ، وقلما كانت تنفذ إلى الروح ؛ فهى تحملنا على الإعجاب بكمالها ، لا بالشعور بما فيها من حياة . وكان شكل المبانى وطرازها محصورين فى حدود ضيقة ، وظلت هذه المبانى مدى ألف شكل منشبثة بالشكل الرباعى البسيط الذى أخذته عن المبانى الميسينية(*) ، ولم تكن تبتدع شيئاً فى غير ميدان الدين ؛ ولم تحاول إلا طرق البناء السهلة ، وتجنبت الأساليب الصعبة كالأقواس والقباب ، ولعلهم لو أقدموا عليها لوجدوا فيها

— الخبر لقائد البنادقة أمر بأن تطلق نيران مدافعه على البارثنون ، واخترقت قذيفة سقف الهيكل ونسف البارود وخربت نصف البناء . ولما استولى مروسينى Morosini على المدينة حاول أن ينهب تماثيل الفواصر ، ولكنها سقطت من عماله وهم ينزلونها من أماكنها وتحطمت . وفى عام ١٨٠٠ م حصل لورد إلجين ، سفير بريطانيا فى تركيا ، على إذن من الباب العالى بأن ينقل بعض التماثيل والنقوش إلى المتحف البريطانى حيث تكون ، على حد قوله ، أكثر أماناً من تقلبات الجو وخطر الحروب . وكان من بين ما غنمه بهذه الطريقة اثنا عشر تمثالا ، وخمسون لوحة من لوحات الواجهة ، وست وخمسون قطعة من الإفريز . وأشار خبير الفحت فى المتحف البريطانى بعدم شراء هذه الآثار ، ولم يوافق المتحف على أداء ١٧٥٫٠٠٠ ريال أمريكى ثمناً لها إلا بعد مفاوضات دامت عشر سنين . وكان هذا المبلغ أقل من نصف ما أنفقه لورد إلجين فى الحصول عليها ونقلها(٥٣) . إلى إنجلترا ؛ وأطلقت المدافع مرتين على الأكربوليس فى أثناء حرب الاستقلال اليونانية (١٨٢١ – ١٨٣٠) بعد بضع سنين من ذلك الوقت ودمر بذلك جزء كبير من هيكل الإركثيوم(٥٤) ولا تزال بعض أجزاء من جبهة البارثنون فى أماكنها ، وبعض ألواح من الإفريز فى متحف أثينة ، وعد قليل غيرها فى متحف اللوفر . ولقد شاد سكان ناشفيل ، وتنسى ، نماذج البارثنون بأبعاده الأصلية ومن نفس المواد التى استخدمت فى بنائه ؛ ومبلغ علمنا أنها زينت ولونت بنفس الزينات والألوان . ويحتوى المتحف الفنى بنيويورك على أنموذج ثان لداخل الهيكل .

(*) وفى مقدور الإنسان أن يلحظ أيضاً عدم النظام فى الأبنية المقامة على الأكربوليس وفى الأفنية المقدسة بألمپيا . ولكن يصعب عليه أن يحكم هل كان عدم النظام هذا ناشئاً من فساد فى الذوق أو أنه كان مصادفة من مصادفات التاريخ .

حيادين للعمل واسعة . وكانوا يقيمون سقفهم بالطريقة غير الجميلة طريقة العمد الداخلية المقامة بعضها فوق بعض . وكانوا يزحمون داخل هياكلهم بالتماثيل التي لا يتناسب حجمها مع حجم البناء الكلي ، وكانت زينتها تنقصها البساطة والتحفظ اللذين يتوقع الإنسان وجودهما فى طراز أبنية العصر الذهبي .

على أنه مهما تكن أغلاط ذلك الفن فإنها لا ترجع تلك الحقيقة الماثلة فى الأذهان ، وهي أن الفن اليونانى قد خلق على طراز أبنية العصر الذهبي . وجوهر هذا الطراز — إذا سمح لنا أن نذكر مرة أخرى موضوع هذا الفصل قبل أن نختمه — من حيث نظامه وشكله هو : التوسط والاعتدال فى التخطيط والتصميم والتغيير . والتزيين ، والتناسب بين الأجزاء ، والوحدة التي تشمله كله ، وعلو سلطان العقل دون أن يقضى بذلك على الشعور ، والكمال المادىء الذي يقنع بالبساطة ، والسمو الذي لا يدين بشيء إلى انضمامه . ولم يكن لطراز من الأبنية اللهم إلا الطراز القوطى ، من الأثر مثل ما كان لهذا الطراز ، والحق أن التماثيل اليونانية لاتزال هي المثل الأعلى فى فنها ، وقد ظلت العمد اليونانية حتى الأمس القريب هي المسيطرة على فنون العمارة تحول دون قيام طرز أخرى أجمل منها وأوقع فى النفس . وإن من الخير أنا قد أخذنا نتحرر من سيطرة الفن اليونانى لأن كل شيء ، حتى الكمال نفسه ، يصبح ثقيلا بغيضاً إذا لم يتغير . ولكننا بعد أن يتم تحررنا بزمن طويل سنجد علما وحافزاً فى هذا الفن الذي كان حياة العقل ممثلة فى ذلك الطراز ، وهو خير ما أهدته بلاد اليونان إلى بنى الإنسان .

الباب الخامس عشر

تقدم العلوم

لقد ظهر النشاط الثقافى فى عصر پركليز فى ثلاثة أشكال رئيسية — هى الفن والتمثيل والفلسفة : وكان الدين الملهم لأولها ، وميدان القتال الملهم لثانيها ، والتضحية هى الملهمة لثالثها . وإذ كان تنظيم الجماعة الدينية يتطلب وجود عقيدة مشتركة مستقرة ، لأن كل دين لا بد أن يتعارض عاجلا أو آجلا مع تيار التفكير الدنيوي السائد المتبدل الذى نطلق عليه بحق اسم تقدم المعرفة . ولم يكن هذا التعارض فى أثينة ظاهراً للعين على الدوام ، ولم يؤثر فى جمهرة الشعب تأثيراً مباشراً ، فقد كان العلماء والفلاسفة يواصلون عملهم دون أن يهاجموا العقائد الدينية للشعب مهاجمة صريحة ، وكثيراً ما كانوا يخففون من حدة النزاع باتخاذ المصطلحات الدينية القديمة رموزاً أو استعارات لعقائدهم الجديدة ، ولم يظهر هذا النزاع سافراً ويصبح مسألة حياة أو موت إلا فى فترات متفرقة كما حدث حين وجهت التهم إلى أنكساغوراس ، وأسبازيا ، وديُجراس الميلوسى Diogaras of Melos ويوربديز ، وسقراط . ولكن النزاع رغم خفائه كان موجوداً بحق ، وكان تياره يسرى فى عصر پركليز ، وكان من الموضوعات الكبرى التى تشغل الأذهان ؛ كما كان يظهر فى صور وأشكال مختلفة قوياً تارة وضعيفا تارة أخرى . وأوضح ما كان يسمع فى أحاديث السوفسطائيين المتشككة ، وفى آراء دمقريطس المادية ، وكانت أصداؤه الخفية تتردد فى آراء إسكلس الصالحة التقية ، وفى زندقة يوربديز وحتى فى أقوال أرسطوفان المحافظ المليئة بالهزل وقلة الاحتشام . وظهرت مرة أخرى قوية فى محاكمة سقراط وموته . ذلك هو الموضوع الذى تدور حوله الحياة العقلية لأثينة فى عصر پركليز .

الفصل الأول

علماء الرياضة

كان العلم الخالص فى بلاد اليونان فى القرن الخامس لا يزال يسير فى ركاب الفلسفة ، وكان يدرسه ويعمل على ترقيته رجال فلاسفة أكثر منهم علماء . ولم تكن علوم الرياضة العليا فى نظر اليونان أداة عملية بل كانت منطقية ، تهدف إلى التركيب الذهنى للعالم المعنوى أكثر مما تهدف إلى السيطرة على البيئة المادية الطبيعية .

ويكاد علم الحساب المتداول بين جمهرة اليونان قبل عصر بركليز أن يكون علماً بدائياً لم يدخل عليه إلا القليل من الصقل والتهذيب(*) ، فكان يرمز لرقم ١ بشرطة عمودية ولرقم ٢ بشرطتين ، وبثلاث شرط لرقم ٣ وبأربع لرقم ٤ ، وكانت الأعداد ٥ ، ١٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠٠٠ يرمز لها بالحروف الأولى من الكلمات اليونانية التى تسمى بها هذه الأعداد وهى : بنتى pente ، وديكا deka ، وهكتون hekaton ، وكليوى chilioi ، مريوى myrioi . ولم يضع علماء الحساب اليونان رمزاً للصفر . ومما يدل على أن علم الحساب اليونانى كعلم الحساب عندنا ، مصدره بلاد الشرق أنه أخذ عن المصريين النظام العشرى فكان اليونان يعدون بالعشرات ، وأنه أخذ عن البابليين فى علمى الفلك وتقويم البلدان الطريقة الاثنى عشرية والستينية فكانوا يعدون فى هذين العلمين بالاثنى عشرات والستينات ، ولا نزال نحن نستخدم هذه الطريقة فى الساعات وعلى الكرات الأرضية والخرائط

(*) إذا أراد القارئ أن يعرف ما بقة كتابة الأرقام الحسابية بعد ذلك العهد فليقر الفصل الأول من الباب الثامن والعشرين (ولعل ما جاء به ينطبق على عصر بركليز أيضاً)

الجغرافية . ولعل العامة كانوا يستعينون بمعداد لإجراء عمليات الحساب السهلة . أما الكسور الاعتيادية فكانت تسبب لهم عناء شديداً ، فكانوا إذا أجروا عملية حسابية تحتوى على كسر اعتيادى بسطه أكبر من ١ حولوا هذا الكسر إلى عدة كسور بسطها كلها ١ فالكسر الاعتيادى ٤٣/٤٨ مثلا كان يقسم

١/٢ + ١/٨ + ١/١٦ + ١/٣٣ (٢)(*)

وليست لدينا معلومات مدونة عن الجبر عند اليونان قبل التاريخ المسيحى . أما الهندسة النظرية ، فكانت من الدراسات المحببة إلى الفلاسفة ، ولم تكن تدرس لفائدتها العملية بقدر ما كانت تدرس لفائدتها اللحتية النظرية وما فيها من استدلال منطقى خلاب ، وما فيها من دقة ووضوح ، وتفكير متتابع ينبنى بعضه على بعض : وكانت ثلاث مسائل بوجه خاص تسترعى انتباه هؤلاء العلماء الرياضـــيين الباحثين فيما وراء الطبيعة ، ومما يدل على ما أصبح للمشكلة الأولى من شأن عندهم أن شخصية من شخصيات مسرحية الطيور لأرسطوفان تمثل ميتون Meton تأتى إلى المسرح بمسطرة وفرجار وتعلن أنها ستُرى النظارة كيف « تحول الدائرة إلى مربع » أى كيف يُرسم مربع مساحته تساوى مساحة دائرة معلومة . ولعل هذه المسائل وأمثالها هى التى جعلت الفيثاغوريين المتأخرين يضعون قواعد الأعداد الصماء والكميات غير المتناسبة(**) . كذلك كانت دراسات الفيثاغوريين القطع المكافئ ، والقطع الزائد ، والقطع الناقص هى التى مهـــدت السبيل إلى مؤلف

(*) لقد كان كتبة الدوائر الزراعية إلى عهد قريب يقولون مثلا « قصف وربع وثمن » بدل ٧/٨ وفى « سورة الفدان » أمثلة كثيرة من هذه الطريقة .   (المترجم)

(**) الأعداد الصماء هى الأعداد التى لا يمكن التعبير عنها بعدد كامل ، أو كسر من عدد كالجذر التربيعى للعدد ، والكميتان غير المتناسبتين هما الكميتان اللتان لا يمكن إيجاد كمية ثالثة بينها وبينهما نسبة يمكن التعبير عنها بعدد غير أصم ، كضلع المستطيل وقطره ، ونصف قطر الدائرة ومحيطها .

أپولونيوس البرجى Appolonius of Perga فى القطاعات المخروطية ، وهو المؤلف الذى كان عظيم الشأن فى تاريخ العلوم الرياضية(٢). وفى عام ٤٤٠ ق.م. نشر أبقراط الطشيوزى (وهو غير أبقراط الطبيب) أول كتاب معروف فى الهندسة النظرية وحل مشكلة تربيع المساحة الكائنة بين قوسين متقاطعين(*) . وفى عام ٤٢٠ أفلح هيلياس الإلياثى Hippias sf Elia فى تقسيم الزاوية ثلاثة أقسام متساوية بالاستعانة بالمنحنى ، وحوالى عام ٤١٠ أعلن دمقريطس الأبدرى على الملأ قوله : «لم يفقنى أحد قط ولا المصريون أنفسهم فى رسم خطوط حسب شروط معلومة »(٤) ؛ وكاد يفلح فى تبرير هذا الازدهاء بتأليف أربعة كتب فى الهندسة النظرية ، ووضع قوانين لمعرفة مساحتى المخروط والهرم(٥) . وملاك القول أن براعة اليونان فى الهندسة قد بلغت من العظمة ما بلغه ضعفهم فى الحساب . وكان للهندسة شأن عظيم فى جميع نواحى نشاطهم ، وحتى فنونهم نفسها قد تدخلت فيها فوضعت أشكالا كثيرة للحلى المنقوشة على خزفهم وأبنيتهم ، وحددت النسب بين أجزاء الپارثنون ومنحنياته .

(*) هو شكل هلال يحدث من تقاطع قوسى دائرتين .

الفصل الثاني

أنكساغوراس

كان من مظاهر النزاع القائم بين الدين والعلم أن حرمت الشرائع الأثينية دراسة علم الفلك في الوقت الذي بلغ فيه عصر بركليز أعلى درجاته[٦] . وكان هذا العلم قد خطا خطوته الأولى في بلاد اليونان حين أعلن أنبادوقليس في أكرجاس أن الضوء يستغرق بعض الوقت في انتقاله من نقطة إلى أخرى[٧] . ثم خطا خطوة ثانية حين أعلن بارمنيدس في إيليا Elea أن الأرض كرية الشكل ، ثم قسم هذا الكوكب الأرضي إلى خمس مناطق ؛ وعرف أن القمر يواجه الشمس بجزئه المنير على الدوام[٨] . ثم قام فيلولوس Philolaus الفيثاغوري في طيبة فخلع الأرض عن عرشها في مركز الكون وأنزلها منزلة كوكب من الكواكب الكثيرة التي تطوف حول « نار تتوسطها » جميعاً[٩] : وجاء لوقيبوس Leucippus تلميذ فيلولوس.فقال إن النجوم قد نشأت من الاحتراق المتوهج لمواد « تندفع في مجرى الحركة العالمية للدوامة الدائرية » ومن تجمع هـذه المواد وتركزها[١٠] . وقام في أبديرا دمقريطس تلميذ لوقيبوس بعد أن درس العلوم البابلية ، فوصف المجرة بأنها مكونة من عدد لا يحصى من النجوم الصغرى ، ولخص التاريخ الفلكي بقوله إنه تصادم دوري وتحطم لعدد لا يحصى من العوالم[١١] . وفي طشيوز كشف إينوبيديز انحراف منطقة البروج[١٢] وجملة القول أن القرن الخامس كان في جميع المستعمرات اليونانية عصر تطور علمي عجيب في زمن يكاد يكون خلواً من الآلات العلمية .

فلما حاول أنكساغوراس أن يقوم بمثل هذه الأعمال في أثينة وجد أن مزاج الأهلين ومزاج الجمعية معاديان للبحث الحر بقدر ما كانت صـداقة بركليز

مشجعه له . وكان أنكساغوراس قد أقبل على أثينة من كلزمينى Chlazomenae حوالى عام ٤٨٠ ق . م . وهو فى الخامسة والعشرين من عمره . وحبب إليه أنكسيانس Anaximenes دراسة النجوم إلى حد جعله يقول جواباً عن سؤال وجهه إليـــه بعضهم عن الغرض من الحياة : « هو البحث عن حقيقة الشمس والقمر والسماء[١٢] » . وأهمل العناية بالثروة التى خلفها له والده وصرف وقته فى رسم خريطة للأرض والسماء ، وحلت به الفاقة فى الوقت الذى رحبت فيه الطبقات فى أثينة بكتابه فى الطبيعة وعدته أعظم الكتب العلمية التى ظهرت فى ذلك القرن .

وكان هذا الكتاب حلقة من سلسلة البحوث العلمية التى قامت بها المدرسة الأيونية ، وفيه يقول أنكساغوراس إن العالم كان فى بادئ الأمر فوضى أو عماء مكونا من بذور مختلفة الأنواع (spermata) ، يسرى فيها فكر (nous) أو عقل مادى ، لطيف ، قوى الصلة بأصل الحياة والحركة فى الآدميين ، وكما أن العقل يصدر الأوامر إلى الفوضى التى تسود أعمالنا ، فكذلك أصدر العقل العالمى أمره إلى البذور الأولية فبعث فيها دوامة رحوية(*) ، وهداها إلى طريق نشأة الأشكال العضوية[١٣] . وقسم هذا الدوران البذور إلى الأركان أو العناصر الأربعة — النار ، والهواء ، والماء ، والأرض — وقسم العالم طبقتين دوارتين طبقة خارجية مكونة من « الأثير » وأخرى داخلية مكونة من الهواء . وبسبب هذه الحركة الدوارة العنيفة انتزع الأثير النارى الملتف حول الأرض حجارة من الأرض وأضاءها فكانت نجوماً[١٤] » . والشمس والنجوم فى رأيه كتلة من الصخور حمراء متوهجة أكبر من البلوبونيز مراراً كثيرة[١٥] » . وحين تضعف حركتها الدائرية تسقط أحجار الطبقة الخارجية على الأرض فتكون شهبا[١٦] .

(*) هذه هى الدوامة التى يسخر منها أرسطوفان فى كتابه « السحب » سخرية لاذعة ويقول إن سقراط قد استبدل بها زيوس .

والقمر جسم صلب متوهج ، فى سطحه سهول وجبال وأخاديد[١٧] ، يستمد ضوءه من الشمس ، وهو أقرب الأجرام السماوية إلى الأرض[١٨] . « ويخسف القمر إذا توسطت الأرض بينه وبين الشمس كما تكسف الشمس إذا توسط القمر بينها وبين كالأرض[١٩] » . وربما كانت بعض الأجرام السماوية مسكونة عليها خلائق الأرض ؛ وعليها « يتكون أناس وتتكون حيوانات أخرى ذات حياة ؛ ويسكن الناس المدن ، ويزرعون الأرض كما نزرعها نحن[٢٠] » . وقد نشأ من التكثف المتتابع للطبقة الداخلية أو الغازية من طبقتى كوكبنا سحب ، وماء ، وتراب ، وحجارة . وتنشأ الرياح من رقة الجو الناشئة من حرارة الشمس كما « ينشأ الرعد من تصادم السحب والبرقُ من احتكاكها[٢١] » وكمية المادة ثابتة لا تتغير ، ولكن الأشكال جميعها تبدأ ثم تزول ، وستصبح الجبال فى مستقبل الأيام بحاراً[٢٢] . وينشأ كل ما فى العالم من أشياء وأشكال بتجمع أجزاء متماثلة homoiomeria وفقاً للنظام يزداد تحديداً على مدى الأيام[٢٣] . وقد ولدت جميع الكائنات العضوية فى بادئ الأمر من التراب ، والرطوبة ، والحرارة ، وبذلك نشأ بعضها من البعض الآخر[٢٤] . وقد تطور الإنسان أكثر مما تطورت سائر الحيوانات لأن قامته المعتدلة أطلقت يديه فاستطاع بهما أن يمسك الأشياء[٢٥] ..

وأصبح أنكساغوراس بفضل ما حققه من النتائج وهى وصفه أساس علم الظواهر الجوية ، وتفسير الكسوف والخسوف تفسيراً علمياً صحيحاً ، ووضع فرض معقول لتكوين الكواكب السيارة ، وإدراكه أن القمر يستمد نوره من الشمس ، وقوله بتطور الحياة الحيوانية والبشرية — أصبح بفضل هذه النتائج كوبرنيق ذلك العصر وداروته معاً . ولعل الأثينيين كانوا يعفون عن هذه الآراء لو أن أنكساغوراس لم يهمل تفسير منشأ عقله ومواهبه فيما فسر من حادثات طبيعية وتاريخيـــة ؛ ولعلهم ظنوا أنه

لجأ إلى هذا الصمت ، كما ... يديز فى إحدى تمثيلياته إلى « آلة إسقاط الآلهة من السماء » لينجو بها من غضب مواطنيه . ويقول عنه أرسطاطاليس إنه كان يبحث عن العلل الطبيعية لكل شىء . من ذلك أنه جىء لبركليز بكبش ذى قرن واحد فى وسط جبهته وقال أحد العرافين إنه نذير من نذر الآلهة ، فأمر أنكساغوراس بفتح رأس الحيوان وأظهر للحاضرين أن مخه قد نما فى مقدم الجبهة بدل أن يملأ جانبى الجمجمة كلها ، فنشأ من نموه على هذا النحو قرن الكبش الوحيد(٢٧) . وقد أثار أنكساغوراس مشاعر السذج بتفسير سقوط الشهب على أساس القوانين الطبيعية ، وأرجع كثيراً من الشخوص الأسطورية إلى تجسيم المجردات العقلية(٢٨) .

وصبر عليه الأثينيون وداروه إلى حين ، وكل ما فعلوه به أن أطلقوا عليه لفظ nous (الفكر - العقل(٢٩)) . فلما لم يجد كليون Cleon الذى كان يناقش بركليز فى تزعم الشعب وسيلة أخرى يضعف بها خصمه اتهم أنكساغوراس بالإلحاد لأنه وصف الشمس (وكانت لا تزال فى نظر الشعب إلهاً من الآلهة) بأنها كتلة من الحجارة المحترقة ، ولم يترك وسيلة يستعين بها على تأييد دعواه إلا اتبعها . وأدين أنكساغوراس رغم دفاع بركليز المجيد عنه(*) . ولم يكن أنكساغوراس راغباً فى تعاطى عصير الشوكران السام ، ففر إلى لمبسكوس Lampasacus على مضيق الهلسبنت ، وأخذ يكسب عيشه بتدريس الفلسفة(**) . ولما تراءى إليه أن الأثينيين حكموا عليه بالإعدام قال : « لقد قضت الطبيعة عليهم وعلىَّ بهذا الحكم من زمن بعيد(٢٣) » . ومات بعد بضع سنين من ذلك الوقت فى الثالثة والسبعين من عمره .

(*) حوالى ٤٣٤(٣٠) . وفى رواية أخرى أن المحاكمة حدثت فى عام ٤٥٠(٣١) .

(**) وفى رواية أخرى أنه سجن فى أثينة ، وظل ينتظر أن يسقى كأس السم ولكن بركليز دبر له أمر هروبه

ويُرى تأخر الأثينيين فى علم الفلك واضحاً فى تقويمهم ، ذلك أنه لم يكن لليونان تقويم عام بل كان لكل دولة تقويم خاص بها ، وكانت كل نقطة من النقاط الأربع التى يصح اتخاذها بداية للسنة الجديدة متبعة فى مكان ما من بلاد اليونان ، وحتى الشهور نفسها كانت تتغير أسماؤها فى الدويلات المختلفة ، فكان تقويم أتكا يحسب الشهور بمنازل القمر والسنين بأبراج الشمس[٣٤] . وإذ كان فى كل اثنى عشر شهراً قمرياً ٣٦٠ يوماً (*) فقط ، فقد كانوا يزيدون شهراً على كل سنتين لكى يتفق حساب السنة مع حساب الشمس والفصول[٣٥] . وهذا الحساب نفسه يجعل السنة تطول عشرة أيام فوق ما يجب أن تكون ، ولذلك وضع صولون النظام الذى يقضى بأن تكون أيام الشهور القمرية ٣٠ يوماً و ٢٩ بالتناوب مقسمة إلى ثلاثة أسابيع (ديكادوى) فى كل أسبوع عشرة أيام (أو تسعة فى بعض الأحيان)[٣٦] . وتبقى بعد هذا أربعة أيام صححها اليونان بحذف شهر من كل ثمان سنين ؛ وبهذه الطريقة الملتوية التى لا يكاد يدركها العقل وصل اليونان آخر الأمر إلى احتساب السنة ٣٦٥ يوماً وربع يوم(**) .

وحدث فى هذه الأثناء تقدم قليل فى علم الجغرافية . فقد فسر أنكساغوراس فيضان النيل السنوى تفسيراً صحيحاً بقوله إنه ينشأ من ذوبان جليد بلاد الحبشة فى فصل الربيع ومن سقوط الأمطار فيها[٣٨] . وفسر علماء طبقات الأرض اليونان وجود مضيق جبل طارق بأنه نتيجة لتشقق الأرض من أثر زلزال ، كما فسروا وجود جزائر بحر إيجه بأنه ناشئ من انخفاض قاع البحر[٩] . وقال زنثوس الليدى Zanthus of Lydia حوالى ٤٩٥ إن البحرين الأبيض المتوسط والأحمر كانا فى الزمن القديم متصلين أحدهما بالآخر عند السويس ، وسجل إسكلس ما كان

(*) ليست السنة القمرية ٣٦٠ يوماً بل هى حوالى حوالى ٣٥٤ . (المترجم) .

(**) يشير هيرودوت إلى فضل التقويم المصرى على التقويم اليونانى . وقد أخذ اليونان من المصريين المزولة وأخذوا من آسية الساعة المائية واتخذوهما وسيلتين لحساب الزمن .

يعتقده أهل زمانه من أن صقلية قد انفصلت من إيطاليا نتيجة لاضطراب في القشرة الأرضية[٤٠] . وارتاد إسكيلاكس الكارى **Scylax of Caria** (٥٢١ — ٤٨٥ ق . م) جميع شواطئ البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود . ويبدو أن أحداً من اليونان لم يجازف بالقيام برحلة استكشافية كالرحلة التي قام بها هنو Hanno القرطاجي بأسطول مؤلف من ستين سفينة ، اخترق به مضيق جبل طارق وسار به نحو ٢٦٠٠ ميل بإزاء الساحل الغربي لإفريقية (حوالى ٤٩٠ ق . م) . وكانت خرائط عالم البحر الأبيض المتوسط منتشرة في أثينة في أواخر القرن الخامس . أما الطبيعة فبلغ علمنا أنها لم تتقدم على أيدي اليونان وإن كانت منحنيات البرثنون تدل على أنهم كانوا يعرفون الكثير عن البصريات . غير أن الفيثاغوريين أعلنوا حوالى عام ٤٥٠ أبقى الفروض العلمية اليونانية ، وهو التركيب الذرى للمادة . كذلك وضع أنبادوقليس وغيره من العلماء نظرية نشوء الإنسان وارتقائه من صور للحياة أدنى منه ، ووصفوا رقيه البطيء من الهمجية إلى الحضارة[٤١] .

الفصل الثالث

أبقـــراط

لقد كان أهم الحوادث فى تاريخ العلوم اليونانية فى عصر بركليز نهضة الطب القائم على العقل لا على الخرافة . ذلك أن الطب اليونانى قبل ذلك الوقت حتى فى القرن الخامس نفسه كان وثيق الارتباط بالدين إلى حد كبير ، وكان كهنة هيكل أسكليبوس Asclepius لا يزالون يقومون بعلاج المرضى . وكان العلاج فى هـــذا الهيكل يقوم على خليط من الأدوية التجريبية ، والطقوس المؤثرة الرهيبة ، والرقى السحرية التى تؤثر فى خيال المريض وتطلقه من عقاله ، وليس ببعيد أنهم كانوا يلجأون أيضاً إلى التنويم المغنطيسى وإلى بعض المخدرات[٤٢] . وكان الطب الدنيوى ينافس الطب الدينى ويحاول أن يتغلب عليه . وكان أنصار هذا وذاك يعزون منشأ علمهم إلى أسكليبوس ، ولكن الأسكليبيسيين غير الدينيين كانوا يرفضون الاستعانة بالدين فى علمهم ، ولا يدعون أنهم يعالجون المرضى بالمعجزات ، وقد أفلحوا شيئاً فشيئاً فى إقامة الطب على قواعد العقل .

وتطور الطب الدنيوى فى بلاد اليونان أثناء القرن الخامس فى أربع مدارس كبرى : فى كوس ونيدس من مدن آسية الصغرى ؛ وفى كرتونا بإيطاليا ، وفى صقلية . وفى أكرجاس اقتسم أنبادوقليس — وهو نصف فيلسوف ونصف رجل معجزات — مفاخر الطب مع أكرون Acron الطبيب المفكر المنطقى[٤٣] . وقد وصلت إلينا أنباء مدونة ترجع إلى عام ٥٢٠ عن طبيب يدعى دمسديز Democedes ولد فى كرتونا ، ومارس مهنة الطب فى إيجينا ، وساموس ، وسوسة ، وعالج دارا والملكة أتسا Atossa ، ثم عاد ليقضى آخر أيامه فى مسقط رأسه[٤٤] . وفى كرتونا أيضاً أخرجت المدرسة الفيثاغورية أوسع أطباء اليونان شهرة قبل أبقراط ،

ونعنى به ألقميون Alcmaeon الذى يلقبونه الأب الحق للطب اليونانى[٤٥] . ولكنه لم يكن فى واقع الأمر إلا اسماً متأخراً فى ثبت طويل من أسماء الأطباء غير الديفيين ضاعت أسماؤهم فيما وراء أفق التاريخ . وقد نشر هذا الطبيب فى أوائل القرن الخامس كتاباً فى الطبيعة Peri physeos — وكان ذلك هو العنوان المألوف فى بلاد اليونان لأى بحث عام فى العلوم الطبيعية . ومبلغ علمنا أنه كان أول من حدد من اليونان موضع العصب البصرى وقناة أستاخيو(*) ، وشرح الحيوانات ، وفسر فسلجة النوم ، وقرر أن المخ هو العضو الرئيسى فى عملية التفكير ، وعرف الصحة تعريفاً فيثاغوريا فقال إنها التوافق بين أجزاء الجسم المختلفة[٤٦] . وكان أكبر رجال الطب فى نيدس هو يوريفرون Euryphron الذى كتب فى الطب خلاصة موجزة تعرف باسم الجمل النيدية Cnidian Sentences ، وقال عن التهاب البلورا إنه مرض من أمراض الرئتين ، وإن الإمساك منشأ الكثير من الأمراض ؛ وذاع صيته لنجاحه فى عمليات التوليد[٤٧] . وقامت حرب مشئومة بين مدرستى كوس ونيدس لأن النيديين لم يكونوا يحبون ولع أبقراط فى أن يقوم « التشخيص » على معرفة طبائع الأمراض ، ومن ثم أصروا على وجوب العناية بتصنيف الأمراض كلها تصنيفاً دقيقاً ، وعلاج كل مرض منها بطريقته الخاصة . وتسرب فى آخر الأمر ، بنوع من العدالة الفلسفية ، كثير من الكتابات النيدية إلى المجموعات الطبية الأبقراطية .

ويبدو أبقراط ، كما تراه فى سيرته الموجزة التى كتبها سويداس Suidas ، أعظم أطباء زمانه بلا منازع . وقد ولد فى جزيرة كوس فى السنة التى ولد فيها دمقريطس ، وأصبح الرجلان صديقين حميمين بالرغم من بعد موطنيهما ، ولربما كان « للفيلسوف الضاحك » نصيب فى توجيه الطب وجهة دنيوية . وكان

(*) الموصلة من الطبلة إلى البلعوم . (المترجم)

أبقراط ابن طبيب ونشأ ومارس صناعته بين آلاف المرضى والسياح الذين وفدوا على كوس « لأخذ الماء من عيونها الساخنة » . ووضع له معلمه هيرودكس السلمبرى Herodicus of Selymbria الأساس الذى بنى عليه فنه بتعويده الاعتماد على نظام التغذية وعلى الرياضة الجسمية أكثر من اعتماده على الأدوية . وذاعت شهرة أبقراط حتى كان من بين مرضاه حكام مثل بردكاس Perdiccas ملك مقدونية ، وأردشير الأول ملك الفرس ؛ وفى عام ٤٣٠ ق . م . استدعته أثينة ليحاول وقف انتشار الطاعون فيها وأخجله صديقه دمقريطس بأن عاش من العمر مائة عام كاملة ، على حين أن الطبيب العظيم مات فى الثالثة والثمانين من عمره .

وليس فى كل ما كتب فى الطب وفى كل ما يمكن أن يكتب فيه ما هو أكثر اختلافاً وأقل تجانسا من مجموعة الرسائل التى كانت تعزى فى القديم إلى أبقراط . ففيها كتب مدرسية للأطباء ، ونصائح لغير رجال الطب ، ومحاضرات للطلبة ، وتقريرات ، وبحوث ، وملاحظات ، وتسجيلات سريرية (كلينيكية)(*) لحالات طريفة ، ومقالات كتبها سوفسطائيون ممن يهتمون بالناحيتين العلمية والفلسفية فى الطب . وكانت الاثنان والأربعون سجلا سريرياً هى السجلات الوحيدة من نوعها فى السبعة عشر قرناً التى أعقبت ذلك العهد ، وكانت أعلى الأمثلة فى الأمانة باعترافها أن المرض أو العلاج قد أعقبه الموت فى ستين فى المائة من الحالات[٤٨] . وأربعة لا أكثر من هذه المؤلفات هى التى انعقد إجماع المؤرخين على أنها من كتابات أبقراط : وهى « الحكم » و « الأدلة » و « تنظيم التغذية والعوائد فى الأمراض الحادة » ، ورسالته « فى جروح الرأس » أما ما عدا هذه الأربعة من المؤلفات المعزوة إلى أبقراط فمن وضع مؤلفين مختلفين عاشوا فى

(*) مأخوذة على سرير المريض . (المترجم)

أوقات مختلفة بين القرنين الخامس والثانى قبل الميلاد[٤٩]. وفى هذه المجموعة قدر غير قليل من السخف والهذيان ، ولكن أكبر الظن أنه ليس أكثر مما سيجده علماء المستقبل فى رسائل هـــذه الأيام وتواريخها . وكثير من المعلومات التى فى هذه الكتب والرسائل شذرات متفرقة ، موضوعة فى صورة حكم وقواعد مفككة تقترب بين الفينة والفينة من الغموض الذى يلازم كتابات الفيلسوف هرقليطس . ومن بين « حكم أبقراط » تلك العبارة الذائعة الصيت : « الفن طويل ، ولكن الوقت يمر مر السحاب »[٥٠].

وأكبر فضل لأبقراط وخلفائه أنهم حرروا الطب من الدين والفلسفة . نعم إنهم يشيرون فى بعض الأحيان بأن يستعين المريض بالصلاة والدعاء ، كما نرى ذلك فى كتاب « التنظيم » ولكن النغمة السارية فى صفحات المجموعة كلها هى وجوب الاعتماد الكلى على العلاج الطبى . وتهاجم رسالة « المرض المقدس » صراحة النظرية القائلة بأن الأمراض ترسلها الآلهة ، ويقول مؤلفها إن للأمراض جميعها عللا طبيعية بما فى ذلك الصراع نفسه الذى يفسره الناس بأنه تقمص الشيطان جسم المريض : « وما زال الناس يعتقدون بأنه من عند الآلهة ، لعجزهم عن فهمه . . ويتورى المشعوذون والدجالون وراء الخرافات ويلجأون إليها لأنهم لا يجدون علاجاً ناجعاً لهذا الداء ، ومن أجل هذا يطلقون عليه اسم المريض المقدس حتى لا ينكشف للناس جهلهم الفاضح[٥١] » . وكانت روح العصر البركليزى تتمثل أوضح تمثيل فى عقلية أبقراط . فقد كان واسع الخيال ولكنه واقعى ، يكره الخفاء ، ولا يطيق الأساطير ، يعترف بقيمة الدين ولكنه يكافح لفهم العالم على أساس العقل والمنطق . وإنا لنحس بأثر السوفسطائيين فى الحركة التى تهدف إلى تحرير الطب ، والحق أن الفلســفة قد أثرت فى طرق العلاج اليونانية تأثيراً بلغ من قوته أن قام النزاع بين العلم والفلسفة كما قام بينه وبين العقبات التى يضعها الدين فى سبيله . ويقول أبقراط ، ويصر

على قوله ، إن النظريات .ىنسفية لا شأن لها بالطب ولا موضع لها فيه ، وإن العلاج يجب أن يقوم على شدة العناية بالملاحظة[٣٥] وعلى تسجيل كل حالة من الحالات وكل حقيقة من الحقائق تسجيلا دقيقاً ، ولسنا ننكر أنه لم يدرك كل الإدراك قيمة التجارب العلمية ، ولكنه كان يصر على أن يهتدى فى جميع أعماله بالخبرة والتجربة العملية .

وفى وسعنا أن نتبين ما تلوث به الطب الأبقراطى فى منشئه من عدوى الفلسفة بالنظر إلى عقيدة « الأخلاط » المشهورة . يقول أبقراط : إن البدن يتكون من الدم ، والبلغم ، والصفراء ، والصفراء السوداء ، وإن الإنسان يستمتع بالصحة الكاملة إذا امتزجت فيه هذه الأركان (العناصر) بنسبها الصحيحة ، وإن الألم ينشأ من نقص بعض هـــذه « الأخلاط » أو زيادتها أو انفصالها عن الأخلاط الأخرى[٥٣] . وقد بقيت هـــذه النظرية وعاشت بعد زوال جميع الفروض الطبية القديمة ، ولم يتخلى عنها الناس إلا فى القرن الماضى ، ولعلها لا تزال باقية فى صورة أخرى هى عقيدة الأنوار (الهرمونات) أو إفراز الغدد ، التى يقول بها الأطباء فى هذه الأيام . إذ كان اليونان يعتقدون أن سير هـــذه الأخلاط يتأثر بالجو والطعام ، وإذ كانت أكثر الأمراض انتشاراً فى بلاد اليونان هى أمراض البرد ، وذات الرئة ، والملاريا ، فقد كتب أبقراط (؟) رسالة موجزة فى « الأهوية ، والمياه ، والأماكن » وعلاقتها بالصحة ، وفيها يقول « فى وسع الإنسان أن يعرض نفسه للبرد وهو واثق من أنه لن يصيبه منه سوء ، إلا إذا فعل ذلك بعد الأكل أو الرياضة . . وليس من الخير للجسم ألا يتعرض لبرد الشتاء[٥٤] » . وليس لنا أن نستخف بأقوال أبقراط وأتباعه هذه لأن من واجب الطبيب العلمى ، أياً كان مستقره ، أن يدرس الرياح والفصول ، وموارد ماء الشرب ، وطبيعة الأرض ، وأثر هذه العوامل كلها فى السكان .

والتشخيص أضعف النقط فى طب أبقراط . فقد يبدو أنه لم يكن يعنى

بقياس النبض ، وكانت الحمى تعرف باللمس البسيط كما كان الاستماع يحدث بالأذن مباشرة . وكان يؤمن بالعدوى فى أحوال الجرب ، والرمد ، والسل[٥٥] وفى كتابه عن (الجسم Corpus) صور إكلينيكية كثيرة للصرع ، والتهاب الغدة النكفية الوبائى ، وحمى النفاس ، والحمى اليومية ، وحمى الثلث ، وحمى الربع . ولم يرد فى المجموعة ذكر للجدرى أو الحصباء ، أو الخناق (الدفتريا) أو الحمى القرمزية أو الزهرى ، كما لم يرد فيه ذكر صريح للتيفود[٥٦] . وتنزع رسائل : « التنظيم » نحو الطب الوقائى بدعوتها إلى دراسة أحوال الداء فى أول ظهوره — وهى محاولة لمعرفة أولى علامات المرض والقضاء عليه قبل أن يستفحل[٥٧] . وكان أبقراط شديد الولع بمعرفة العواقب فى الطب ويرى أن الطبيب الماهر يعرف بتجاربه نتائج أحوال الجسم المختلفة ، وفى مقدوره أن يتنبأ بسير المرض من مراحله الأولى . ويقول إن معظم الأمراض تصل إلى مرحلة يقضى فيها إما عليها وإما على المريض ذاته ، وإن تقديره الحسابى — الذى يكاد يبلغ فى دقته الحساب الفيثاغورى — الذى يصل فيه المرض إلى أشد حالاته لمن أخص خصائص النظرية الأبقراطية . وهو يقول فى هذا المعنى إنه إذا استطاعت حرارة الجسم فى هذه الأزمات أن تتغلب على سبب العلة وتطرده من الجسم شفى المريض . ويقول إن الطبيعة — أى قوى الجسم وبنيته — هى أهم علاج لكل مرض أيا كان نوعه وإن كل ما يستطيع الطبيب أن يفعله هو أن يقلل أو يزيل العقبات القائمة فى طريق هذين الدفاع والشفاء الطبيعيين . ولهذا فإن الطريقة الأبقراطية لا تستخدم العقاقير فى العلاج إلا قليلا ، وأكثر ما تعتمد عليه هو الهواء النقى ، والمقيئات ، والأقماع ، والحقن الشرجية ، والحجامة ، والإدماء ، والكمادات ، والمراهم ، والتدليك ، والمياه المعدنية . ومن أجل ذلك كان دستور الأدوية اليونانى جد صغير يتكون معظمه من المسهلات . وكانت أمراض الجـــلد تعالج بالحمامات الكبريتية ، وبالتدليك يدهن كبد

الدلفين(٥٨) ويسدى أبقراط للناس هذه النصيحة : « عش عيشة صحية تنج من الأمراض إلا إذا انتشر فى البلد وباء أو أصابتك حادثة . وإذا مرضت ثم اتبعت نظاماً صالحاً فى الأكل والحياة أتاح لك ذلك أحسن الفرص للشفاء(٥٩) » . وكثيراً ما كان يوحى بالصوم إذا سمحت بذلك قوة المريض لأنا « كلما أكثرنا من تغذية الأجسام المريضة زدنا بذلك تعريضها للأذى(٦٠) » . ويمكن القول بوجه عام إن « الإنسان يجب الا يتناول إلا وجبة واحدة من الطعام فى اليوم إذا كانت معدته شديدة الجفاف(٦١) » .

وكان تقدم علمى التشريح ووظائف الأعضاء فى بلاد اليونان بطيئاً ، وكان أكبر العوامل فيما أحرزاه من تقدم هو الفحص عن أحشاء الحيوانات فى عمليات العرافة . وفى المجموعة الأبقراطية كراسة صغيرة « فى القلب » تصف البطينين ، والأوعية الكبرى ، وصماماتها . وكتب سينيسيس Syennesis القبرصى وديوجين الكريتى يصفان الجهاز الدموى ، وعرف ديوجين أهمية النبض(٦٢) . كذلك عرف أنبادوقليس أن القلب مركز الجهاز الدموى ، ووصفه بأنه العضو الذى « يحمل النيوما Pneuma أو الهواء الحيوى (الأكسجين ؟) من الأوعية الدموية إلى جميع أجزاء الجسم(٦٣) . وفى كتاب الجسم Corpus يحذو أبقراط حذو القميون فيجعل المخ مركز الشعور والتفكير ويقول : « وبه نفكر ، ونبصر ، ونسمع ، ونميز القبيح من الجميل والغث من الثمين »(٦٤) .

أما الجراحة فكانت لا تزال فى معظم الأحوال عملا لا يتخصص فيه الطلاب ، ويشتغل به كبار الأطباء ، وإن كان من الموظفين فى الجيوش جراحون(٦٥) . وتصف مؤلفات أبقراط عمليات التربنة ، والطريقة التى تصفها لعلاج انخلاع الكتف أو الفك « حديثة » فى كل شىء عدا استخدام المخدرات(٦٦) .

وقد وجدت فى هيكل إسكلبيوس بأثينة لوحة نذور نقشت عليها علبة تحتوى مباضع ذات أشكال مختلفة(٦٧) . ويحتفظ متحف أثينة الصغير بعدد من

الملاقط ، والمساير ، والمباضع والقناطر ، والنظارات الطبية القديمة لا تختلف فى جوهرها عن أمثالها المستحدثة فى هذه الأيام . ويبدو أن بعض ما هنالك من تماثيل هى نماذج أعدت لشرح الوسائل التى تتبع لرد الخلع فى مفاصل العجز[٦٨] . وفى رسالة أبقراط « فى الطب » تعليمات مفصلة لتحضير حجرة العمليات الجراحية وتنظيم ما فيها من ضوء طبيعى وصناعى ، وتنظيف اليدين ، والعناية بآلات الجراحة وطريقة استخدامها ، وموضع المريض ، وتضميد الجروح وما إلى ذلك[٦٩] .

ويتضح من هذه الفقرات وغيرها أن الطب اليونانى فى عهد أبقراط قد تقدم تقدماً عظيماً من الناحيتين الفنية والاجتماعية . لقد كان الأطباء اليونان قبل أيامه ينتقلون من مدينة إلى أخرى كلما دعتهم الحاجة إلى هذا الانتقال ، شأنهم فى هذا شأن السوفسطائين فى أيامهم والوعاظ فى أيامنا نحن . أما فى عهده فقد استقروا فى مدنهم وافتتحوا مكاتب أو « أمكنة العلاج iatreia» يعالجون فيها المرضى تارة ويعالجونهم فى منازلهم[٧٠] تارة أخرى . وكثرت عندهم الطبيبات ، وكن يستخدمن عادة فى علاج أمراض النساء ؛ وقد كتب بعضهن رسائل فى العناية بالجلد والشعر تعد حجة فى موضوعاتها[٧١] . ولم تكن الدولة تحتم على من يريد ممارسة الطب أن يؤدى امتحاناً عاماً ؛ ولكنها كانت تطلب إليه أن يقدم لها أدلة مقنعة على أنه قد تمرن أو تتلمذ على طبيب معترف به[٧٢] . ووقفت حكومات المدن بين الطب المأجور والطب الخاص باستخدام أطباء للعناية بالصحة العامة ، ولعلاج الفقراء . وكان أكبر أطباء الدولة هؤلاء ، أمثال دموسيدز Democedes يتقاضون وزنتين (١٢٫٠٠٠ ريال أمريكى) فى العام[٧٣] . وكان عندهم بطبيعة الحال دجالون كثيرون ، كما كان عندهم عدد لا يحصى من الهواة الذين يدعون العلم بكل شىء فى الطب ، وهؤلاء موجودون فى كل زمان ومكان . ولقد قاست المهنة فى تلك الأيام ، كما تقاسى فى كل جيل من الأجيال ، الأمرين من أعمال أقلية فيها تخربة الذمة ، عاجزة عن القيام

يواجها (٧٤) ، وثار اليونان لأنفسهم ، كما ثار غيرهم من الأمم ، من عدم علم وثوقهم بأطبائهم بما كالوه لهم من السخرية والفكاهة اللاذعة ، التى لا تقل عن سخرياتهم من الزواج .

وقد رفع أبقراط من شأن هذه المهنة بتوكيده شأن الأخلاق فى الطب ، ذلك أنه لم يكن طبيباً فحسب بل كان طبيباً ومدرساً معاً ، وربما كان القسم الشهير الذى يعزى إليه قد وضع لضمان ولاء طالب الطب لأستاذه(*) .

قسم أبقراط

أقسم بأپلو الطبيب ، وبأسكليپيوس ، وبهجيائيا Hygiaea وپاناسيا Panacea وبجميع الآلهة والإلهات ، وأشهدها جميعاً على ، أن أنفذ هذا القسم وأوفى بهذا العهد بقدر ما تتسع له قدرتى وحكمتى ، وأن أضع معلمى فى هذا الفن فى منزلة مساوية لأبوى ، وأن أشركه فى مالى الذى أعيش منه ؛ فإذا احتاج إلى المال اقتسمت مالى معه ، وأقسم أن أعد أسرته إخوة لى ، وأن أعلمهم هذا الفن إذا رغبوا فى تعلمه ، من غير أن أتقاضى منهم أجراً أو ألزمهم باتفاق ، وأن ألقن الوصايا والتعاليم الشفوية وسائر التعاليم الأخرى لأبنائى ، ولأبناء أستاذى ، وللتلاميذ المتعاقدين الذين أقسموا يمين الطبيب ، ولا ألقنها لأحد سواهم . وسوف أستخدم العلاج لأساعد المرضى حسب مقدرتى وحكمتى ، ولكن لا أستخدمه للأذى أو لفعل الشر . ولن أسقى أحداً السم إذا طلب إلىّ أن أفعل هذا ، أو أشير بسلوك هذه السبيل ، كذلك لن أعطى امرأة صوفة لإسقاط جنينها ؛ ولكنى سأحتفظ بحياتى وفنى كليهما طاهرين مقدسين ، ولن أستعمل المبضع ولو كنت محقاً فى استعماله ، لمن يشكو حصاة ، بل أتخلى عن مكانى لمن يحذقون

(*) يقولون القسم من وضع المدرسة الأبقراطية لا من وضع أبقراط نفسه ؛ ولكن إروتيان Erotian الذى كتب فى القرن الأول بعد الميلاد يعزوه إلى أبقراط(٥٧).

هذا الفن . وإذا دخلت بيت إنسان أياً كان ، فسأدخله لمساعدة المرضى ، وسأمتنع عن كل إساءة مقصودة أو أذى معتمد ، وسأمتنع بوجه خاص عن تشويه جسم أى رجل أو أية امرأة ، سواء كانا من الأحرار أو من الأرقاء . ومهما رأيت أو سمعت فى أثناء قيامى بفروض مهنتى ، وفى خارج مهنتى فى خلال حديثى مع الناس ، إذا كان مما لا تجب إذاعته ، فلن أفشيه ، وسأعد أمثال هذه الأشياء أسراراً مقدسة . فإذا ما ألزمت نفسى بإطاعة هذا القسم ولم أحنث فيه ، فإنى أرجو أن أشتهر مدى الدهر بين الناس جميعاً بحياتى وبفنى ؛ أما إذا نقضت العهد وحنثت بالقسم فليحل بى عكس هذا »[٧٦] .

ويضيف أبقراط إلى هذا أن من واجب الطبيب أن يحتفظ بحسن مظهره الخارجى وأن ينظف جسمه ويتأنق فى ملبسه . ويجب عليه أن يكون هادئاً على الدوام ، وأن يكون سلوكه بحيث يبعث الثقة والاطمئنان فى نفس المريض[٧٧] ويجب عليه :

« أن يعنى بمراقبة نفسه ، و . . . . وألا يقول إلا ما هو ضرورى . . . ؛ » وإذا دخلت حجرة مريض فتذكر طريقة جلوسك ، وكن متحفظاً فى كلامك ، معتنياً بهندامك ، صريحاً حاسماً فى أقوالك ، موجزاً فى حديثك ، هادئاً . . . ؛ ولا تنس ما يجب أن تكون عليه أخلاقك وأنت إلى جانب فراش المريض . . . . واضبط أعصابك ، وازجر من يقلقك ، وكن على استعداد لفعل ما يجب أن يُفعل . . . . وأوصيك ألا تقسو على أهل المريض ، وأن تراعى بعناية حال مريضك المالية ، وعليك أيضاً أن تقدم خدماتك من غير أجر ؛ وإذا لاحت لك فرصة لأن تؤدى خدمة لإنسان غريب ضاقت به الحال ، فقدم له معونتك كاملة ؛ ذلك أنه حيث يوجد حب الناس يوجد أيضاً حب الفن »[٧٨] .

وإذا أضاف الطبيب إلى هذا دراسة الفلسفة والعمل بها ، كان هو المثل الأعلى لأبناء مهنته لأن « الطبيب الذى يحب الحكمة لا يقل عن الآلهة فى شىء »[٧٩] .

وبعد فإن الطب اليونانى لا يرقى رقيا جوهريا عما كانت تعرفه مصر عن الطب وعن الجراحة قبل عصر آباء الطب المختلقين بألف عام ، وإذا ما نظرنا إلى التخصص بدا لنا أن ما وصل إليه اليونان فيـــه أقل مما وصل إليه المصريون . على أننا يجب من الناحية الأخرى أن نجل اليونان ولا نبخسهم حقهم ، لأن الطب من ناحيته النظرية والعملية قد بقى حتى القرن التاسع عشر عند الحد الذى أوصـــله إليه اليونان . وجملة القول أن العلوم اليونانية قد بلغت الدرجة التى ينتظر الإنسان أن يبلغها علم من العلوم من غير الاستعانة بآلات دقيقة للرصد والملاحظة ، ومن غير التجارب العلمية . ولولا العقبات التى أقامها فى طريقه الدين والفلسفة لكان له شأن أعظم من شأنه هـــذا ، فقد حدث فى الوقت الذى كان فيه كثيرون من الشبان فى أثينة يتحمسون لدراسة الفلك والتشريح المقارن ، أن حالت التشريعات الرجعيـــة الجاهلة دون تقدم العلوم ، وكانت سبباً فى اضطهاد أنكساغوراس ، وأسپازيا ، وسقراط . وكذلك كان « تحول » سقراط والسوفسطائيين عن دراسة العالم الخارجى إلى دراسة العالم الداخلى ، ومن الطبيعة إلى علم الأخلاق ، كان هذا التحول سبباً فى تحويل التفكير اليونانى من مشاكل الطبيعة والنشوء والتطور إلى مشاكل ما وراء الطبيعة والأخلاق . وظل العلم واقفاً لا يتحرك مائة عام كاملة خضع فيها اليونان لسحر الفلسفة ومفاتنها .

الباب السادس عشر

النزاع بين الفلسفة والدين

الفصل الأول

المثـاليون

كان عصر بركليز شبيهاً بعصرنا هذا فى تنوع أفكاره واضطرابها ، وفى تحديه لجميع المعايير والعقائد التقليدية القديمة ؛ ولكن ما من عصر من العصور يضارع عصر بركليز فى كثرة آرائه الفلسفية وعظمتها أو فى غزارتها وفى القوة التى كانت تناقش بها . فقد كانت كل المسائل التى يضطرب بها العالم اليوم تدور على ألسنة الناس فى أثينة القديمة ، يناقشها الناس بحرارة وحماسة روعت جميع اليونان ما عدا شبابهم . وقد حرمت كثير من المدن — وخاصة اسپارطة — أن يبحث الجمهور المسائل الفلسفية بسبب ما كانت تثيره من « حقد ، ونزاع ، وجدل عقيم » ، على حد قول أثنيوس . ولكن « بهجة » الفلسفة « العزيزة » كانت تستحوذ على خيال الطبقات المتعلمة فى أثينة ، فكان أغنياء المدينة يفتحون أبواب بيوتهم وأبهائهم للباحثين كما كان يحدث فى عهد الاستنارة فى فرنسا ، وكانت الولائم تولم للفلاسفة ، والبحوث الطريفة يصعق لها كما يصفق للضربات القوية فى الألعاب الأولمبية .

ولما أن أضيفت حرب السيوف إلى حرب الألفاظ فى عام ٤٣٢ ، استحال هياج العقول الأثينية إلى حمى احترق فيها كل ما كانت تتصف به تلك العقول من اعتدال وحكمة . وخبت نار هذه الحمى بعض الوقت بعد استشهاد سقراط

أو بالأحرى توزعت من أثينة على غيرها من مراكز الحياة اليونانية . وحتى أفلاطون نفسه الذى عرف ما بلغته هذه الحمى وما أدت إليه من أزمات استُنفِدت قواه بعد أن دامت هذه الحال الجديدة ستين عاماً كاملة ، وكان يحسد مصر على إيمانها الدينى واستقرار أفكارها وهدوئها . ولم يشهد عصر من العصور المقبلة إلى أن حل عصر النهضة ما شهده هذا العصر من حماسة فى التفكير وقوة فى النقاش .

وكان أفلاطون يمثل أعلى منزلة وصلت إليها الحركة التى بدأت ببارمنيدس ، وكان لها بمثابة هجل Hegel لكانت Kant ؛ ومع أنه لم يكن يتورع عن التنديد بآراء الفلاسفة ، فإنه لم ينقطع يوما ما عن تعظيم أبيه الميتافيزيقى . وفى بلدة إيليا الصغيرة القائمة على ساحل إيطاليا الغربى نشأت فى عام ٤٥٠ ق . م . الفلسفة المثالية التى أثارت فى كل قرن من القرون المقبلة حرباً شعواء على المادية(*) ؛ وقلبت فى بوتقة التفكير الأوربى مشكلة المعرفة الغامضة العجيبة ، ومشكلة الفرق بين الظاهر من جهة وما لا يعرف ولا يمكن أن يعرف من جهة أخرى ، وبين الحقيقى غير المنظور والمنظور غير الحقيقى ، وظلت هذه الأفكار تغلى أو تغطمط طوال تاريخ اليونان القديم وفى أثناء العصور الوسطى حتى انفجرت مرة أخرى فى عصر « كانت » وعلى يديه وأضحت ثورة فكرية عارمة .

وكما أن هيوم « Hume » أيقظ « كانت » كذلك كان أكسانوفان Xenophanes هو الذى دفع بارمنيدس إلى الاشتغال بالفلسفة ؛ ولعل عقل بارمنيدس كان واحداً من عقول كثيرة أثارها قول أكسانوفان إن الآلهة ليست إلا أساطير ، وإنه لا توجد إلا حقيقة واحدة هى العالم والله جميعاً . كذلك درس بارمنيدس مع الفيثاغوريين وسرى فيه شغفهم بعلم الفلك ، ولكنه لم يضل فى بيداء النجوم ،

(*) ولقد راجه المفرد هذه المشكلة قبل ذلك بزمن طويل ، وبقوا بارمنهديين إلى آخر عهودهم ، ولعل نزعة اليوبانوشاد Upanishads المضادة للمادية قد تسربت إلى بارمنيدس من طريق أيونيا أو فيثاغورس .

بل كان كمعظم فلاسفة اليونان يهتم بالشئون الحية ومنها شئون الدولة . وقد كلفته إيليا أن يضع لها قوانينها ، فلما وضعها أعجبت به إعجابا جعلها تطلب إلى جميع قضاتها أن يحكموا فى جميع القضايا بمقتضاها[٣] . ولعله أراد أن يرفه عن نفسه فى حياته المفعمة بالعمل فأنشأ قصيدة فلسفية فى الطبيعة بقى منها إلى الآن نحو مائة وستين بيتاً تكفى لأن تجعلنا نأسف لأن پارمنيدس لم يكتب نثرا . وفى القصيدة يعلن الشاعر ، وهو يغمز بعينه ، أن إلهة قد أوحت إليه أن الأشياء جميعها وحدة ، وأن الحركة ، والتغير ، والنمو ، أشياء غير حقيقة ، فهى خيالات لمشاعر سطحية ، متعارضة تافهة ؛ وأن من وراء هذه المظاهر وحدة ، متجانسة لا تتبدل ، ولا تنقسم ، ولا تتحلل ولا تتحرك ، وهى وحدة الكائنات ، والحقيقة التى لا حقيقة سواها ، والإله الذى لا إله غيره . لقد كان هرقليطس يقول إن كل شىء يتغير Panta rei أما پارمنيدس فيقول إن الأشياء بأجمعها كل واحد أبدا Hen ta panta . وهو فى بعض الأحيان يقول كما يقول أكسانوفان إن هذا الواحد هو الكون ، ويصفه بأنه شبه كرى ومحدود ؛ وكان فى بعض الأحيان حين ينظر إليه نظرة فكرية مجردة يرى أن هذا الكائن هو الفكر ويقول : « إن الفكر والكون شىء واحد[٤] » . وكأنه يريد بهذا أن يفهمنا أن الأشياء لا وجود لها فى إدراكنا ؛ وأن البداية والنهاية ، والمولد والموت ، والتكوين والتدمير ، لا تصيب إلا الأشكال والصور ، أما الواحد الحق فلا بداية له ولا نهاية ، وليس ثمة صيرورة ، وليس ثمة إلا وجود ، وأن الحركة أيضاً غير حقيقية لأنها تفترض انتقال شىء من المكان الذى هو فيه إلى مكان لا يوجد فيه شىء أى إلى الفراغ ؛ ولكن الفراغ الذى هو غير كائن لا يمكن أن يكون ، إذ ليس ثمة فراغ قط ، لأن الواحد يملأ كل ركن وكل شق فى العالم ، وهو ساكن سكوناً سرمدياً[*] .

(*) إن هذه الأقوال مجهدة للخيال ، ولكننا نكاد نفعل ما فعله پارمنيدس حين نقول إن منضدة ما فى حالة سكون مع أنها (كما يقولون) تتكون من « كهارب » (الكترونات)—

ولم يكن ينتظر بطبيعة الحال أن يستمع الناس إلى هذه الأقوال كلها وهم صابرون ، ويبدو أن السكون البارمنيدى كان الهدف الذى صوبت إليه مئات من الهجمات الميتافيزيقية . وترجع أهمية زينون الإيلياتى الحصيف تلميذ پارمنيدس إلى محاولته إثبات أن فكرتى التعدد والحركة كانتا من الوجهة النظرية على الأقل مستحيلتين كاستحالة واحد پارمنيدس الثابت القديم الحركة — وأراد زينون أن يدرب نفسه على الضلال والمشاكسة ، وأن يسلى شبابه فى الوقت نفسه ، فألف كتاباً فى المتناقضات وصلت إلينا تسع منها ، حسبنا أن نورد منها ثلاثاً : وأولى هذه المتناقضات كما يقول زينون أن الجسم لكى يتحرك إلى نقطة أ لا بد أن يصل إلى ب وهى منتصف طريقه إلى أ ؛ ولكى يصل إلى ب يجب أن يصل أولا إلى حـ منتصف طريقه إلى ب ؛ وهكذا إلى ما لا نهاية . وإذ كانت هذه السلسلة التى لا نهاية لها من الحركات تتطلب قدراً لا نهاية له من الزمن ، فإن تحرك أى جسم إلى أية نقطة فى زمن محدد أمر مستحيل . والثانية وهى صورة أخرى من الأولى أن أخيل السريع العدو لا يستطيع أن يدرك السلحفاة البطيئة . وذلك لأنه كلما وصل إلى النقطة التى كانت فيها السلحفاة ، تكون السلحفاة فى هذه اللحظة نفسها قد انتقلت من هذه النقطة . والثالثة أن السهم الطائر فى الهواء هو فى الحقيقة ساكن غير متحرك ، لأن فى كل لحظة من طيرانه لا يكون إلا فى نقطة واحدة فى الفضاء ، أى أنه يكون ساكناً ، وحركته منطقياً وميتافيزيقياً غير حقيقية مهما بدا للحواس أنها واقعة فعلا(٥)(*) .

— دائمة الحركة . وقد كان پارمنيدس يرى العالم كما نرى نحن المنضدة ، ولو قدر للكهرب أن يرى العالم لرآه كما نراها نحن .

(*) وقد انتقل البحث فى هذه المتناقضات من أفلاطون(٦) إلى برتراند رسل(٧) ، وقد يستمر مادام الناس يعتقدون خطأ أن الأسماء هى المسميات . والذى يجعل هذه الألغاز عديمة القيمة هى الافتراض واصفها أن « غير محدود » شىء وليس كلمة تدل على عجز العقل عن أن يدرك النهاية المطلقة ، وأن الزمان والمكان والحركة كلها أشياء غير متصلة أى أنها تتكون من نقط أو أجزاء منفصلة بعضها عن بعض .

وجاء زينون إلى أثينة حوالى عام ٤٥٠ ق . م . ولعله جاء إليها مع پارمنيدس وأثار ثائرة المدينة السريعة التأثر بقدرته على تحويل أى نوع من أنواع النظريات الفلسفية إلى سخافات غير معقولة . وقد وصف تيمون الفليوس Timon of Phlius « لسان زينون ذى الحدين الذى يستطيع أن يبرهن على أن كل قوله يقول الإنسان غير حقيقى »[٨] .

ومن هذه النعرة قبل السقراطية (ونحن نسميها نعرة لأن جهلنا بالماضى يضطرنا إلى تسمية هذه المعانى بتلك الأسماء) كانت بداية علم المنطق كما كان پارمنيدس بالنسبة لأوروبا هو واضع علم ما وراء الطبيعة . ولقد حاكى سقراط طريقة زينون الجدلية[٩] محاكاة شديدة وإن كان قد ندد بها وشنع عليها ، وبلغ من تحمسه لهذه الطريقة أن اضطر قومه إلى قتله لكى يريحوا عقولهم من جدله . ولقد كان أثر زينون فى السوفسطائيين المتشككين حاسماً قوياً ، وكان لتشككه آخر الأمر الغلبـــة فى پيرون Purrho وقرنيادس Carneades . وقد أصبح فى شيخوخته رجلا « ذا حكمة عظيمة وعلم غزير[١٠] » فأخذ يشكو من أن الفلاسفة قد حملوا مزاحه العقلى فى أيام شبابه محمل الجد . وكان انقلابه الأخير سبب القضاء عليه . ذلك أنه اشترك فى حركة تهدف إلى خلع الطاغية نيارقيس Nearches فى إيليا ولكنه أخفق فى محاولته ، وقبض عليه ، وعذب ، وقتل[١١] ، وصبر الفيلسوف على عذابه صبر الأبطال ، وكأنما أراد بذلك أن ينضم اسمه بعد قليل من الزمن إلى أسماء أصحاب الفلسفة الرواقية .

الفصل الثانى

الماديون

لقد كان إنكار بارمنيدس للحركة والتغير بمثابة ثورة على ميتافيزيقية هرقليطس الذائعة المزعزعة ، وكذلك كانت عقيدة وحدة الكون ثورة عنيفة على عقائد الفيثاغوريين المتأخرين . ذلك أن هؤلاء الفلاسفة قد حولوا نظرية الأعداد التى قال بها كبيرهم إلى المبدأ القائل بأن الأشياء جميعها تتكون من أعداد أى من وحدات غير قابلة للانقسام(١٢) . ولما أن أضاف فيلولوس الطيبى إلى هذا المبدأ أن « الأشياء جميعها تحدث بالضرورة والتوافق »(١٣) كان كل شيء قد أعد لظهور المذهب الذرى أو مذهب الجوهر الفرد فى الفلسفة اليونانية .

ففى عام ٤٣٥ جاء لوقيبوس الملطى إلى إيليا وتلقى العلم على زينون ؛ ولعله قد سمع هناك بالذرية العددية التى يقول بها الفيثاغوريون ، ذلك أن زينون كان قد وجه بعض متناقضاته الدقيقة إلى عقيدة التعدد(١٤) . واستقر لوقيبوس آخر الأمر فى أبدرا وهى مستعمرة أيونية مزدهرة فى تراقية . وقد ضاعت تعاليمه المباشرة فلم يبق منها إلا هنامة صغيرة هى قوله : « لا شيء يحدث من غير علة ، بل إن الأشياء كلها تحدث لعلة ، وبالضرورة »(١٥) .

ولعل لوقيبوس قد أوجد فكرة الفراغ ليرد بها على أقوال زينون وپرمنيدس ، وكان يأمل بهذه الطريقة أن يجعل الحركة مستطاعة من الوجهة النظرية كما هى واقعية من الناحية الحسية . ويقول : إن العالم يحتوى على جواهر فردية وعلى فراغ ولا شيء غيرهما ، وإن هذه الجواهر التى تتساقط فى دوامة كبرى تسقط بالضرورة إلى الصور الأولية للأشياء جميعها ، وينضم كل شيء

إلى مثيله ؛ وبهذه الطريقة وجدت الكواكب والنجوم[١٦] ؛ والأشياء جميعها بما فيها النفس البشرية مكونة من جواهر فردية (ذرات) .

وكان دمقريطس تلميذ لوقيبوس أو زميله فى تحويل فلسفة الجوهر الفرد إلى نظرية مادية كاملة . وكان والده من ذوى المكانة الملحوظة والثراء العظيم فى أثينة[١٧] ؛ ويقال إنه ورث منه مائة وزنة من المال (٨٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكى) أنفق معظمها فى الأسفار[١٨] . وتقول بعض الروايات التى لا نجد ما يؤيدها إنه سافر إلى مصر وبلاد الحبشة وبابل وفارس والهند[١٩] ، ويقول هو نفسه فى ذلك : « لقد طفت بين معاصرى فى أكبر جزء من الأرض للبحث عن أبعد الأشياء ، ورأيت أكثر الجواء والأقطار ، وسمعت إلى أكبر عدد من المفكرين[٢٠] »(*) . وأقام فى بؤوتية الطيبية زمنا يكفى لتشبعه بنظرية فيلولوس فى الذرية العددية[٢٢] ؛ ولما فرغت منه نقوده لجأ إلى الفلسفة ، واخشوشن فى معيشته ، ووجه جهوده كلها إلى الدرس والتفكير ، وقال : « إن الكشف عن برهان واحد (فى الهندسة) خير لى من الحصول على عرش فارس[٢٣] » . وكان على شىء من التواضع لأنه كان يبتعد عن الجدل والنقاش ؛ ولم يوجد مدرسة خاصة ، وأقام فى أثينة من غير أن يتعرف إلى أحد من فلاسفتها[٢٤] . وقد ذكر ديوجين ليرتيوس Diogenese Laertius (ديوجانس) ثبتا طويلا من كتبه فى علوم الرياضة والطبيعة والفلك والملاحة ، والجغرافية ، والتشريح ، ووظائف الأعضاء ، وعلم النفس ، والعلاج النفسانى ، والطب ، والفلسفة ، والموسيقى[٢٥] . ويسميه ثراسيلس Thrasyllus صاحب التمارين الخمسة فى الفلسفة ، ويطلق عليه بعض معاصريه اسم الحكمة (Sophia) نفسها[٢٦] . وقد بلغت معارفه من السعة والتعدد ما بلغته معارف أرسطاليس

(*) ومن أقواله : « إن الأرض كلها وطن الرجل الحكيم الصالح »[٢١] .

نفسه ، ونال أسلوبه من الإعجاب ما ناله أفلاطون[٢٧] ، ووصفه فرانسس بيكن Francis Bacan فى ساعة تخلى فيها عن عناده بأنه أعظم الفلاسفة الأقدمين على بكرة أبيهم[٢٨] .

وهو يبدأ كما يبدأ بارمنيدس ببحث تحليلى فى الحواس فيقول إنه لا بأس علينا من الوثوق بها فى الأغراض العملية ؛ ولكننا لا نكاد نحلل ما تمدنا به من المعلومات حتى نجد أنفسنا ننتزع من العالم الخارجى طبقة بعد طبقة مما تضفيه عليه الحواس من اللون ، والحرارة ، والطعم ، والنكهة ، والحلاوة ، والمرارة ، والصوت . وهذه « الصفات الثانوية » كائنة فينا نحن أو فى عملية الإدراك الكلية ، لا فى الشىء الموضوعى ، وفى العالم الخالى من الآذان لا تُحدث الغابة الساقطة صوتاً ، ولا يكون لماء البحر مهما غضب هدير ، والعرف (Nomos) هو الذى يجعل الحلو حلواً والمر مراً ، والحار حاراً ، والبارد بارداً ؛ أما الحقيقة فهى أنه لا وجود إلا للجواهر الفردية (الذرات) والفراغ[٢٩] » . ومن ثم فإن الحواس لا تمدنا إلا بالمعلومات أو الآراء العامة ؛ أما المعرفة الحقة فلا سبيل إليها إلا البحث والتفكير » . والواقع أننا لا نعرف شيئاً ؛ فالحق مدفون على بعد منا عظيم . . . ولسنا نعرف شيئاً معرفة أكيدة ، بل كل ما نعرفه هو ما يحدث فى جسمنا من تغيرات بتأثير القوى التى تصطدم به[٣٠] » . وكل الأحاسيس ناشئة من الجواهر الفردية التى يقذف بها الجسم الخارجى فتقع على أعضاء الحواس[٣١] ، وليست الحواس كلها إلا أشكالا من اللمس[٣٢] .

وتختلف الجواهر الفردية التى يتكون منها العالم فى شكلها وحجمها ووزنها ؛ وكلها تنزع إلى السقوط إلى أسفل ، وتنتج من هذا حركة دائرية تتحد فيها الجواهر المتماثلة بعضها ببعض فتنتج من اتحادها الكواكب والنجوم . وهذه الجواهر لا يقودها فكر (Nous) أو ذكاء ، ولا يرتبها «حب» أو « كراهية » كما يقول أنبادوقليس ، بل إن الضرورة — أى الأثر الطبيعى للعلل الكامنة فيها هى التى تسيطر عليها جميعاً[٣٣] . وليس ثمة مصادفة ، بل المصادفة

خرافة اخترعت لتبرير جهلنا[٣٤] ، وكمية المادة تبقى على حالها ، لا يضاف إليها شيء جديد ، ولا يفنى منها شيء[٣٥] ، وكل الذى يحدث هو تغير فى اتحاد الجواهر الفردية . لكن صور الأشياء مع هذا لاحصر لها ، وحتى العوالم نفسها يوجد منها فى أكبر الظن عدد « غير محدود » وهى تنشأ وتزول فى موكب لا نهاية له[٣٦] . وقد نشأت الكائنات العضوية فى مبدأ أمرها من التراب المبلل[٣٧] ، وكل شيء فى الإنسان مصنوع من جواهر فردية ، والروح نفسها مكونة من جواهر جد صغيرة ملساء مستديرة كجواهر النار ؛ والعقل ، والنفس ، والحرارة الحيوية ، والمبدأ الحيوى ، كلها شيء واحد ، لا يختص بها الإنسان أو الحيوان بل هى منتشرة فى العالم كله موزعة عليه ، والجواهر الفردية العقلية الكائنة فى الإنسان وغيره من الحيوانات التى بها نفكر فى جميع أجزاء الجسم[٣٨](*) .

بيد أن هذه الجواهر الفردية الدقيقة التى تتكون منها النفس هى أكثر أجزاء الجسم نبلا وأعظمها إثارة للدهشة . والرجل العاقل ينمى فكره ؛ ويحرر نفسه من الانفعالات ، والخرافات ، والمخاوف ، ويبحث بالتأمل والإدراك عن السعادة العقلية التى فى متناول الحياة البشرية . والسعادة لا تنشأ من الطيبات الخارجية ، بل ينبغى للإنسان أن يتعود على أن يجد فى داخل نفسه مصادر متعته وسعادته[٤٢] » . والثقافة خير من الغنى . . . ولا تستطيع قوة أو ثروة أن ترجح اتساع دائرة العلم[٤٣] » . والسعادة تأتى متقطعة ، و « اللذائذ المادية لا تشبع صاحبها إلا زمناً قصيراً » ؛ لكن الإنسان ينال سروراً أدوم إذا حصل على سلام النفس وصفائها (أتاركسيا ataraxia) وعلى البهجة (euthumia) . والاعتدال (metriotes) قدر من النظام والتناسب فى الحياة (biou symmetria) . وفى وسعنا أن نتعلم الشيء الكثير من الحيوانات —

(*) يعزو لكرتيوس Lucretius إلى « دمقريطس العظيم » القول بوجود نوع من الموازاة النفسية الجسمية ، فقد « قال (دمقريطس) إن جواهر الجسم وجواهر العقل توضع أزواجا كل منها بجوار الآخر ؛ وبهذا تربط هيكل الجسم بعضه ببعض » .

« الغزل من العنكبوت ، والبناء من العصفور ، والغناء من العندليب والتم[48] » ؛ و « قوة الجسم لا تكون من أسباب النبل إلا فى دواب النقل أما قوة الخُلق فهى سبب النبل فى الإنسان[49] » . وهكذا يفعل دمقريطس ما فعله من بعده الضالون فى إنجلترا فى عصر الملكة فكتوريا فيقيم على ميتافيزيقاه الشائنة صرحاً من المبادئ الخلقية الخلابة الظاهر . « والأعمال الحسية يجب أن تصدر عن عقيدة لا عن قسر ، ويجب أن يفعلها الإنسان للرغبة فيها لا أملا فيما يناله عليها من جزاء . . . . » ومن واجب الإنسان أن يشعر بالعار أمام نفسه إذا فعل الشر أكثر مما يشعر به أمام العالم كله[47] » .

وقد أوضح حكمته ، ولعله برر أيضاً نصائحه ، بأن عاش حتى بلغ من السن مائة عام وتسعة أعوام ، أو تسعين عاماً كما يقول بعضهم[48] . ويروى ديوجين ليرتيوس أنه لما قرأ دمقريطس على الجماهير أهم مؤلفاته كلها وصور كتاب العالم الأكبر Megas diakosmos أهدت إليه مدينة أبدرا مائة وزنة (٦٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى) ، ولكن لعل أبدرا كانت وقتئذ قد خفضت قيمة نقدها . ولما سأله بعضهم عن سر عمره الطويل أجاب بأنه كان يأكل عسل النحل فى كل يوم وأنه كان يستحم بالزيت[49] ولما رأى آخر الأمر أنه قد عاش من العمر ما يشتهى أخذ يقلل من طعامه يوماً عن يوم يريد بذلك أن يميت نفسه جوعاً شيئاً فشيئاً[50] ؛ ويقول ديوجين « إنه بلغ أرذل العمر[51] وإنه خيل إلى الناس أنه يحتضر ؛ وحزنت أخته لأنه سيموت فى أثناء عيد ثزموفوريا Thesmophori فيحول موته دون قيامها بما يجب عليها نحو الإلهة ، فما كان منه إلا أن أمرها بأن تخفف من لوعتها ، وأن تأتيه كل يوم بضعة أرغفة من الخبز الساخن (أو بقليل من عسل النحل[52]) . وأخذ يضع هذا

الطعام فوق منخريه ، واستطاع بذلك أن يطيل حياته خلال أيام العيد . فلما أن انقضت ثلاثة أيام العيد لفظ آخر أنفاسه دون أى ألم ، كما يؤكد لنا هباركس وذلك بعد أن عاش مائة عام وتسعة أعوام » ؛

واحتفلت مدينته بجنازته احتفالا عاماً ، وأثنى عليـــه تيمن الأثيني Timon of Athens . ولم ينشئ دمقريطس مدرسة خاصة ، ولكنه صاغ أهم فرض من الفروض العلمية وأوجد للفلسفة نظاماً بقى بعـــد أن عفا الزمان على غيره من النظم التى ظلت تندد به ، ولا يزال يظهر فى العالم جيلا بعد جيل .

الفصل الثالث

أنبادوقليس

المثالية تضايق الحواس ، والمادية تكدر النفس ، لأن أولاهما تفسر كل شيء ما عدا العالم ، والأخرى تفسر كل شيء ما عدا الحياة ؛ وإذا أريد مزج هذين النصفين من أنصاف الحقائق فلا بد من العثور على مبدأ محرك دافع يتوسط بين التركيب والنماء ، وبين الأشياء والأفكار ؛ وقد حاول أنكساغوراس أن يبحث عن هـذا المبدأ فى العقل الكونى ، وحاول أنبادوقليس أن يبحث عنـه فى القوى الكامنة التى تنزع إلى الثورة والانقلاب .

وكان مولد هذا الأكرغاسى الشبيه بليونارد Leonarda فى عام مرثون ، من أسرة غنية كانت مولعة بسباق الخيل ولعاً لم يكن يرجى معه أن ينبغ أحد أبنائها فى الفلسفة . وقد درس بعض الوقت مع الفيثاغوريين ، فلما نضج عقله أخذ يفشى بعض عقائدهم السرية فطرد من زمرتهم[٥٤] . وأولع أشد الولع بعقيدة تناسخ الأرواح ، وأعلن بخيال الشعراء وعواطفهم أنه كان « فى سالف الأيام شاباً ، وفتاة ، وغصناً مزهراً ، وطائراً ، وسمكة تسبح صامتة فى البحر العميق »[٥٥] . وذم أكل الطعام الحيوانى ووصفه بأنه لا يخرج عن أن يكون صورة من أكل اللحوم البشرية ، أليست هـذه الحيوانات تجسيداً جديداً لبعض الآدميين[٥٦] ؟ وكان يعتقـد أن الناس جميعاً كانوا من قبل آلهة ، ولكنهم خسروا مكانهم فى السماء لارتكابهم شـيئاً من الدنس أو العنف ، ويقول إنه واثق بأنه يشعر فى قرارة نفسـه بما يوحى إليه بألوهيته قبل مولده . « وأى مجد عظيم وأية سعادة ليس فوقها سعادة قد تدهورتُ منهما الآن ، وأصبحت أطوف الأرض مع

الآدميين ![٥٧] » . وإذا كان واثقاً من هـــذا الأصل الإلهى فقد احتذى حذاءين من الذهب ، ولبس ثوبين أرجوانيين ، ووضع على رأسه إكليلا من الغار ؛ وقال لأبناء وطنه متواضعاً إنه محبوب أبلو ، ولم يعترف لغير أصدقائه بأنه إله . وادعى أن لها قوى فوق قوى البشر ، ومارس بعض لقوس السحر . وحاول بطريق العزائم والرقى أن ينتزع من العالم الآخر أسرار مصير الإنسانية . وعرض على الناس أن يشفى مرضاهم بسحر الألفاظ ، وشفى كثيرين منهم حتى كاد الناس يصـــدقون دعواه . أما الحق فإنه كان طبيباً نطاسيا ذا آراء كثيرة فى علم الطب ، ومتمكناً من سيكولوجية الفن ؛ وكان فوق ذلك خطيباً مصقعاً ، « اخترع » كما يقول أرسطاطاليس ، أصول البلاغة وعلمها غورغياس ، فعرضها هذا للبيع فى أثينة ؛ وكان مهندسا أنجى سلينس من الوباء بتجفيف المستنقعات وتحويل مجارى الأنهار[٥٩] . وكان سياسياً شجاعاً تزعم ، وهو أرستقراطى الأصل ، ثورة على الأرستقراطية الضيقة ، وأبى أن يكون حاكماً بأمره ؛ وأقام حكماً دمقراطياً معتدلا . وكان شاعراً كتب فى الطبيعة وفى التطهير شعراً بديعاً اضطر أرسطاطاليس وشيشرون إلى أن يضعاه فى مصاف الشعراء المجيدين ، وأظهر لكريشيوس إعجابه به بمحاكاته . وقال فيه ديوجين ليرتيوس : « وإذا ذهب إلى الألعاب الألمبية استلفت جميع الأنظار ، حتى لم يكن يذكر إنسان آخر بمثل ما يذكر به هو[٦١] » ، ولعله كان كما يقول إلهاً :

ولم يبق لنا من أشعاره إلا ٤٧٠ بيتا لا نجد فيها إلا إشارات منقطعة لفلسفته ، فنرى منها أنه كان يختار مبادئه من فلسفات مختلفة ، ويرى فى كل طريقة من طرائقها شيئاً من الحكمة ، ولا يوافق پارمنيدس على رفض جميع ما يجيء إلينا من المعلومات عن طريق الحواس ، بل يثنى على كل حاسة ويرى أنها « طريقا موصلا للإدراك[٦٣] » . وعنده أن الحس ينشأ من انبعاث جزيئات تنتقل من الجسم الخارجى ، وتقع على « مسام » (poroi) الحواس ،

ومن أجل هذا يحتاج الضوء إلى بعض الوقت لكى يصل إلينا من الشمس(٦٤)، وينشأ الليل من اعتراض الأرض لأشعة الشمس(٦٥) ، والأشياء كلها تتكون من عناصر(*) أربعة : الهواء ، والنار ، والماء ، والتراب ، وتعمل فى هذه العناصر قوتان رئيسيتان هما الجذب والطرد ، أو قوتا الحب والبغض .

وينتج من اجتماع العناصر وتفرقها بفعل هاتين القوتين اجتماعا وتفرقا لا آخر لهما عالم الأشياء والتاريخ . فإذا كانت الغلبة للحب أى النزعة إلى الاتحاد تحولت المادة إلى نبات ، واتخذت الكائنات العضوية أشكالا مطردة الرقى . وكما أن تناسخ الأرواح يؤلف من الأنفس كلها سيرة واحدة ، كذلك لا يوجد فى الطبيعة فرق واضح بين جنس وجنس ، أو بين نوع ونوع . ألا ترى مثلا أن « الشّعر ، وأوراق الشجر ، وريش الطيور السميك والحراشف التى تتكون على الأعضاء الصلبة ، كلها من نوع واحد(٦٨) ؟ » . والطبيعة تنتج كل نوع من أنواع الأعضاء والأشكال ، والحب يؤلف بينها ، فيجعل منها تارة هولات غريبة تهلك لعدم قدرتها على التكيف لتلائم البيئة المحيطة بها ، وتارة أخرى يجعل منها كائنات عضوية قادرة على التكاثر ومواءمة ظروف الحياة(٦٩) والأشـكال العليا كلها تنشأ من الأشياء السفلى(٧٠) ، وقد كانت الذكورة والأنوثة فى بادئ الأمر مجتمعتين فى جسم واحد ، ثم انفصلتا وظلت كلتاهما تتوق إلى الاتحاد مع الأخرى(**)(٧١) . ويوجد فى مقابل عملية التطور هذه عملية الانحلال ، يمزق فيها الكره ، أو قوة التقسيم ، البنيان المعقد الذى أقامه الحب ، فتعود الكائنات العضوية والنباتات عوداً بطيئاً إلى صورة تزداد بدائية يوماً بعد يوم ، ويظل هذا يحدث حتى تختلط الأشياء جميعها مرة أخرى فى كتلة فطيرة غير محددة الشكل(٧٢)

(*) أو أركان كما كان العرب يسمونها . (المترجم)

(**) لعل أفلاطون قد استمد من هذا خطبة أرسطوفان فى « معرض آرائه » .

وهاتان العمليتان المتبادلتان عملية التطور وعملية الانحلال مستمرتان إلى أبد الدهر فى كل جزء على حدة وفى الكل مجتمعا ؛ وتتنازع القوتان قوة الائتلاف وقوة التفرقة ، قوة الحب وقوة الكره ، قوة الخير وقوة الشر ، وتتوازنان فى نظام عالمى شامل هو نظام الحياة والموت . ألا ما أقدم فلسفة هربرت اسپنسر !(٧٣) .

ومكان الله فى هذه العملية غير واضح ، وذلك لأن من الصعب أن نفرق بين الحقيقة والمجاز أو بين الفلسفة والشعر فى أقوال أنبادوقليس ؛ فهو فى بعض الأحيان يوحد بين الإله وبين الكون نفسه ، وفى بعضها الآخر يوحد بينه وبين حياة كل حى أو عقل كل عاقل ؛ ولكنه يدرك أننا لن نستطيع قط أن نكون فكرة صحيحة عن القوة الخالقة الأساسية الأصلية . انظر مثلا إلى قوله : « لن نستطيع أن نقرب الله منا قربا يمكننا من أن ندركه بأعيننا ، ونمسكه بأيدينا . . . ذلك أنه ليس له رأس بشرى ملتصق بأعضاء جسمه ، وليس له ذراعان متفرعتان تتدليان من كتفيه ، وليس له قدمان ولا ركبتان ولا أعضاء مكسوة بالشعر . إنه كله عقل لا غير ، عقل مقدس لا ينطبق عليه وصف ، يومض فى طيات العالم كله وميض الفكر الخاطف »(٧٤) . ويختم أنبادوقليس حديثه هذا بنصيحة الشيخوخة التى أنطقته بها الحكمة والكلالة : « ما أضعف وما أضيق القوى المودعة فى أعضـــاء الإنسان ؛ وما أكثر المصائب التى تثلم حد التفكير ، وما أقصر الحياة التى يكدح فيها الناس والتى تنتهى بالموت . فإذا حل بهم زالوا من الوجود وتلاشوا كما يتلاشى الدخان وصاروا هواء ، يعرفون أن ما يعلمون به ليس إلا الصغائر التى عثر عليها كل واحد منهم أثناء تجواله فى هذا العالم . ومع هذا تراهم جميعاً يفخرون بأنهم عرفوا كل شىء . ألا ما أشد حمقهم وأكثر غرورهم ! ذلك أن هذا الكلى الذى يفخرون بمعرفته لم تره عين ولم تسمعه أذن ، ولا يمكن أن يدركه عقل إنسان »(٧٥) .

واستحال فى آخر سن من حياته واعظا دينيا أكثر مما كان من قبل ،

منهمكاً فى نظرية التجسيد ، وأخذ يتوسل إلى بنى جنسه أن يتطهروا من الخطيئة التى طردوا بسببها من السموات ، ويدعو الجنس البشرى ، بما أوتى من حكمة بوذا وفيثاغورس ، وشوبنهور ، أن يمتنع عن الزواج ، والتناسل[٧٦]. ولما حاصر الأثينيون سرقوصة فى عام ٤١٥ ، بذل أنبادوقليس كل ما فى وسعه لتأييد المقاومين وأغضب بذلك أكرجاس ، التى كانت تحقد على سرقوصة بكل ما فى قلوب الأقارب من حقد دفين ، ونفى من بلده ، فذهب إلى أرض اليونان القارية حيث وافاه الأجل فى ميغارا كما تقول بعض الروايات[٧٨] . ولكن ديوجين ليرتيوس يروى عن هپوبوتس Hippobotus أن أنبادوقليس بعد أن أعاد إلى الحياة الكاملة امرأة اعتقد الناس أنها قضت نحبها غادر الوليمة التى أقيمت احتفاء بشفائها ، واختفى فلم ير بعد ذلك أبداً . وتقول بعض الأساطير إنه ألقى بنفسه فى فوهة بركان إتنا الثائر لكى يموت من غير أن يخلف وراءه أثراً ، فيؤيد بذلك دعواه أنه إله . ولكن النار العنصرية غدرت به ، فقذفت بخفيه النحاسيين ، وتركتهما على حافة كأس البركان ، كأنهما رمزان ثقيلان للفناء[٩٠] .

الفصل الرابع

السوفسطائيون

إن الذين يقولون إن بلاد اليونان هى أثينة يكذبهم أن أحداً من كبار المفكرين اليونان قبل سقراط لم يكن من أهل تلك المدينة ، وأنه لم يعقبه مفكر من أهلها حتى جاء أفلاطون . وإن المصير الذى لاقاه أنكساغوراس وسقراط ليدل على أن الجمود الدينى كان فى أثينة أقوى منه فى المستعمرات ، وذلك لأن انفصال هذه المستعمرات من الناحية الجغرافية قد حطم بعض قيود التقاليد القديمة . ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن أثينة كانت تبقى مدينة غير متسامحة إلى حد السخف والغباء ولا مجال فيها للتفكير الحر لو لم تقم فيها طبقة دولية من التجار ، ولم يفد إليها جماعة السوفسطائيين .

وقد كانت المناقشات التى تدور فى الجمعية ، والمحاكمات التى تجرى أمام الهيليا ، والحاجة المتزايدة إلى القدرة على التفكير تفكيراً منطقى الظاهر ، وإلى التعبير عن الأفكار تعبيراً واضحاً مقنعاً ، لقد كانت هذه كلها مضافة إلى ثراء المجتمع الإمبراطورى وتشوفه عاملا فى إشعار الناس بالحاجة إلى شىء لم يكن معروفاً فى أثينة قبل پركليز ، ونعنى بذلك الدراسة العليا المنظمة للآداب ، والخطابة ، والعلوم ، والفلسفة ، وأساليب الحكم ، والسياسة ، ولم تقابل هذه الحاجة فى بادئ الأمر بتنظيم الجامعات ، بل قوبلت بوجود طائفة العلماء الجوالين يستأجرون قاعات المحاضرات ، ويدرّسون فيها ما يضعونه للتعليم من مناهج ، ثم ينتقلون إلى مدن أخرى ليعيدوا فيها هذه الدراسة . وكان بعض هؤلاء المعلمين ، ومنهم پروتاغوراس Protagoras ، يطلقون على أنفسهم لقب سوفسطاى أى معلمو الحكمة(٨١) ، وكان الناس يفهمون من هذا اللفظ ما نفهمه نحن من لفظ « أستاذ جامعى » ، ولم يكن

له معنى محط بالكرامة حتى قام النزاع بين الدين والفلسفة فأدى إلى هجوم المحافظين على السوفسطائيين ؛ وأثارت نزعة بعضهم التجارية أفلاطون إلى تسويء سمعتهم بأن عزا إليهم تهمة « السفسطة » بغية المكسب ، وهى الوصف الذى ظل لاصقاً بهم إلى يومنا هذا . ولعل الجمهور كان يشعر نحو هؤلاء بشىء من الكره الخفى من بدء ظهورهم ، لأن ما كانوا يتقاضونه من باهظ الأجر نظير تدريس المنطق والبلاغة لم يكن يطيقه إلا الأغنياء الذين أفادوا من علمهم هذا فى دور القضاء[٨٢] . ولسنا ننكر أن المشهورين من السوفسطائيين كانوا يتقاضون ممن يعلمونهم أكثر ما يرضى هؤلاء أن يؤدوه إليهم من الأجور ، وذلك هو قانون الأثمان فى كل مكان ... فكان پروتاغوراس ، وغورغياس ، كما يقول الرواة ، يطلبان عشرة آلاف درخمة (١٠،٠٠٠ ريال أمريكى) أجرا لتعليم تلميذ واحد . غير أن من كانوا أقل من هذين شأناً كانوا يقنعون بأجور معتدلة ؛ فكان پرودكس Prodicus مثلا — وهو الذى ذاع صيته فى جميع أنحاء بلاد اليونان — يطلب ما بين درخمة وخمسين أجراً للاشتراك فى مناهجه[٨٣] .

وقد ولد پروتاغوراس أشهر السوفسطائيين جميعهم فى أبدرا قبل مولد دمقريطس بجيل من الزمان . وكان فى أثناء حياته أشهر الرجلين وأعظمهما نفوذاً ؛ وفى وسعنا أن نستدل على ما كان له من شهرة واسعة بما أحدثته زياراته لأثينة من حماسة بالغة(*)[٨٤] واهتياج فيها كبير ؛ وحتى أفلاطون نفسه — وهو الذى لم يقل كلمة طيبة فى السوفسطائيين عن قصد — كان يجله ويصفه بأنه على خلق عظيم . وفى الحوار الأفلاطونى الذى سمى باسمه نرى پروتاغوراس أحسن مظهراً من سقراط الشاب الكثير الجدل ؛ فسقراط فى هذا الحوار

(*) أكبر الظن أن هذه الزيارات كانت فى الأعوام الآتية : ٤٥١ — ٤٤٠، ٤٣٢ ، ٤٢٣ ، ٤١٥[٨٥]

هو الذى يتحدث كما يتحدث السوفسطائيون . وبروتاغوراس هو الذى يسلك مسلك الرجل المهذب والفيلسوف ، فلا يغضب أو يثور ، ولا يحقد على أحد لما يبديه من دلائل الفطنة والذكاء ، ولا يُحَمِّل حجج مناظريه من الجدل أكثر مما تحتمله ، ولا يهتم قط بأن يتكلم . ويعترف بأنه أخذ على نفسه أن يعلم تلاميذه التبصر والحذر فى الشئون الخاصة والعامة ، وحسن تنظيم المنزل والأسرة ، وفنون البلاغة أو الكلام المقنع والقدرة على فهم شئون الدولة وحسن إدارتها[٨٦] .. وهو يبرر ما يأخذه من أجور عالية بقوله إن من عادته ، إذا عارض تلميذ فيما يطلبه من أجر ، أن يقبل منه أى أجر يراه التلميذ عادلا على شريطة أن يؤكد ذلك فى خشوع أمام مزار مقدس[٨٧] — وتلك لعمرى خطة حمقاء من معلم يشك فى وجود الآلهة . ويتهمه ديوجين ليرتس بأنه « أول من سلح المجادلين بسلاح المغالطات المنطقية » وهى تهمة يسر منها سقراط بلا ريب ، ولكن ديوجين يضيف إلى ذلك قوله : « كان بالإضافة إلى هذا أول من اخترع ذلك النوع من الجدل الذى يسمونه الجدل السقراطى[٨٨] » — وهى تسمية قد لا يرتاح لها سقراط .

وكان من أفضاله الكثيرة أنه وضع أساس النحو وفقه اللغة الأوربيين ، ويقول عنه أفلاطون إنه بحث فى الطريقة الصحيحة لاستعمال الألفاظ ، وإنه كان أول من قسم الأسماء إلى مذكرة ومؤنثة وغير مذكرة ولا مؤنثة ، وأول من ذكر أزمان الأفعال وحالاتها (إخبارية أو شرطية الخ[٩٠]) ؛ ولكن أهم ما يعنينا من أمره أن به ، لا بسقراط ، تبدأ النظرة الذاتية فى الفلسفة . فقد كان على عكس الأيونيين يعنى بالأفكار أكثر ما يعنى بالأشياء ونعنى بالأفكار عملية الإحساس ، والإدراك ، والفهم والتعبير بأكملها ؛ فبينا كان بارمنيدس يرى أن الإحساس لا يهدى إلى الحقيقة ، كان بروتاغوراس يرى كما يرى لُك Locke أنه السبيل الوحيدة إلى المعرفة ، ويأبى أن يعترف بوجود أية حقيقة تعلو على العقل ولا تدركها الحواس . ومن

أقوال بروتاغوراس أن الحقيقة المطلقة لا وجود لها ، وأن كل ما يوجد هو الحقائق التي يعتنقها بعض الناس في ظروف خاصة ، وقد تكون الأقوال المتناقضة حقائق متساوية القيمة في اعتقاد أشخاص مختلفين أو في أزمنة مختلفة(٩١) . والحقيقة كلها والخير والجمال ، أمور نسبية وشخصية ؛ « والإنسان هو المقياس الذي تقاس به جميع الأشياء فهو الذي يقرر أن الأشياء الكائنة كائنة ، وأن الأشياء غير الكائنة غير كائنة(٩٢) » . ولقد يخيل إلى المؤرخ أن العالم كله قد بدأ يرتجف ويتزعزع كيانه حين أعلن بروتاغوراس هذا المبدأ البسيط من مبادئ الإنسانية والنسبية ، وأن الحقائق المقررة والمبادئ المقدسة جميعها أخذت تتصدع وتنهار ؛ وأن الفردية قد وجدت صوتاً ينادي بها وفلسفة تؤيدها ، وأن الأسس فوق الطبيعية للنظام الاجتماعي قد تعرضت كلها لخطر الزوال .

ولولا أن بروتاغوراس قد طبق في وقت من الأوقات هذا التشكك البعيد الأثر ، والذي يتضمنه هذا القول الذائع الصيت ، على شئون الدين لبقي قولا نظرياً مأمون العاقبة . ذلك أن بروتاغوراس قرأه على جماعة من كبار المفكرين في بيت يوربديز الملحد الحر التفكير البغيض إلى الشعب . وقد أثارت أول جملة في هذه الرسالة ثائرة الناس في أثينة وكانت الجملة الأولى فيها هي : « أما من حيث الآلهة فلست أدري أهي موجودة أم غير موجودة كما لا أعلم لها شبهاً . وثمة أشياء كثيرة تقف في سبيل هذه المعرفة : فالموضوع غامض ، وحياتنا الفانية قصيرة الأجل(٩٣) » . وارتاعت الجمعية الأثينية من هـــذه الكلمة الافتتاحية التي تنذر بشر مستطير فقررت نفي بروتاغوراس ، وأمر الأثينيون على بكرة أبيهم أن يسلموا كل ما عساه أن يكون لديهم من كتاباته ، وأحرقت كتبه في السوق العامة . وفر بروتاغوراس إلى صقلية ولكنه ؛ على ما ترويه القصة ؛ غرق في الطريق(٩٤) .

وواصل غورغياس الليونتيني Gorgias of Leontini هذه الثورة التشككية ، ولكنه أوتى من الحكمة ما جعله يقضى معظم حياته فى خارج أثينة . وكانت سيرته أنموذجاً لسير الرجال الذين يجمعون بين الفلسفة والسياسة فى بلاد اليونان . وقد ولد فى عام ٤٨٣ ، ودرس الفلسفة والبلاغة مع أنبادوقليس ، وبلغ من شهرته فى الخطابة وفى تدريسها أن أرسلته ليونتينى فى عام ٤٢٧ سفيراً لها فى أثينة . واستحوذ فى الألعاب الأولمبية التى أقيمت فى عام ٤٠٨ على قلوب حشد كبير من الناس بخطاب له طلب فيه إلى اليونان المتحاربين أن يعقدوا الصلح فيما بينهم لكى يواجهوا وهم متحدون واثقون من الفوز قوة بلاد الفرس الآخذة فى الانتعاش ، وأخذ ينتقل من مدينة إلى مدينة ويشرح أينما حل آراءه بأسلوب خطابى طلى ، وألفاظ ممتعة وعبارات منسقة فى معناها ومبناها ، متزنة اتزاناً دقيقاً بين الشعر والنثر ، لم يجد معها أية صعوبة فى جذب الطلاب إليه يعرضون عليه مائة مينا نظير منهجه الدراسى . وقد حاول فى كتابه فى الطبيعة أن يثبت ثلاث قضايا مدهشة مروعة هى أنه : (١) لا وجود لشىء ما . (٢) ولو أن شيئاً وجد لكانت معرفته غير ممكنة . (٣) ولو أن شيئاً كانت معرفته ممكنة لما أمكن نقل هذه المعرفة من شخص إلى آخر(*)[٩٥] . ولم يبق من كتابات غورغياس غير هذه القضايا . وبعد أن استمتع بكرم كثير من الدول وأجورها التى عصا التسيار فى تساليا وهدته حكمته إلى استهلاك معظم ثروته الطائلة قبل وفاته[٩٦] . ويؤكد لنا كل من أرخوا له أنه عاش حتى يبلغ من العمر مائة وسنة وخمس سنين على أقل تقدير ، ويقول لنا كاتب قديم إن غورغياس ، وإن بلغ من

(*) ومعنى هذه القضايا التى يقصد بها الحط من فلسفة المشائين التى يقول بها بارمنيدس : (١) أن لا وجود لشىء خارج الحواس . (٢) وأنه لو وجد شىء خارج الحواس لما أمكن معرفته لأن المعرفة جميعها تصل إلينا عن طريق الحواس . (٣) ولو أن شيئاً خارج دائرة الحواس أمكن معرفته فإن معرفته لا يستطاع نقلها من شخص إلى آخر لأن كل انتقال للمعرفة لا يكون إلا عن طريق الحواس .

العمر مائة سنة وثمان سنين ، لم يضعف جسمه من طول العمر ، بل ظل إلى آخر حياته فى جيد الصحة لا تقل قوة حواســه عن قوة حواس الشباب[٩٧] .

وإذا كان السوفسطائيون مجتمعين قد كونوا مدرسة متفرقة ، فإن هيبياس الإليسى (Elis) كان مدرسة بمفرده ، وكان أنموذجاً للرجل المتعدد المعارف فى عالم لم تكن المعرفة فيه قد بلغت من الاتساع حداً يجعلها فى غير متناول عقل واحد . فقد كان يعلم الفلك والرياضيات ، وكانت له بحوث مبتكرة فى الهندسة وكان شاعراً ، وموسيقياً ، وخطيباً . وكان يلقى محاضرات فى الأدب ، والأخلاق والسياسة ، وكان مؤرخاً ، وضع أساس التأريخ اليونانى وتقويمه وتسلسله بأن جمع ثبتاً من أسماء الفائزين فى الألعاب الأولمبية ؛ وأرسلته إليس مبعوثاً لها لدى دول أخرى ، وكان يعرف من الفنون والحرف عدداً كبيراً أمكنه به أن يصنع ملابسه وأدوات زينته[٩٨] . وكان عمله فى الفلسفة صغيراً ولكنه خطير ؛ فقد كان يعترض على حياة المدن المصطنعة المؤدية إلى الانحلال ، ويوضح الفرق بين الطبيعة والقانون ، ويقول : ان القانون ظالم مستبد بالخلق[٩٩] . وواصل برودكس ألكيوس عمل بروتاغوراس فى النحو ، وحدد أجزاء الكلام ، وأدخل السرور على الشيوخ بوضعه قصة خرافية يصف فيها هرقل وهو يختار الفضيلة المجهدة بدل الوذيلة الهينة[١٠٠] . ولم يكن غيره من السوفسطائيين أتقياء مثله : وكان منهم أنتيفون الأثينى الذى حذا حذو دمقريطس فى ماديته وإنكاره الآلهة ، والذى عرف العدالة تعريفاً يجعلها هى الطريقة الملائمة للظروف الموصلة إلى الغاية المطلوبة ، ومنهم ثرازيماكس الخلقدونى Thrasymachus of Chalcedon الذى قال إن الحق هو القوة (إذا أخذنا بما يقوله عنه أفلاطون) وإن نجاح الأوغاد ليبعث فى نفوسنا الشك فى وجود الآلهة[١٠١] .

والسوفسطائيين فى مجموعهم يعدون من العوامل التى كان لها أعظم الأثر

فى تاريخ اليونان ؛ فهم الذين اخترعوا لأوربا النحو والمنطق ؛ وهم الذين رقو فن الجدل ، وحللوا أشـكال الحوار ، وعلموا الناس كيف يكشفون الخطأ المنطقى وكيف يمارسونه ؛ وبفضل ما بعثوه فى اليونان من حافز قوى وما ضربوه بأشخاصهم من أمثلة شغف مواطنوهم بالمناظرة والاستدلال ؛ وهم الذين استخدموا المنطق فى اللغة فزادوا الأفكار وضوحاً ودقة ، ويسروا انتقال المعرفة انتقالا صحيحاً دقيقاً . وهم الذين جعلوا للنثر صورة من صور الأدب والشعر ووسيلة للتعبير عن الفلسفة ؛ وطبقوا التحليل على كل شيء ؛ وأبوا أن يعظموا التقاليد المتواترة التى لا تؤيدها شواهد الحس أو منطق العقل ؛ وكان لهم شأن كبير فى الحركة العقلية التى حطمت آخر الأمر دين اليونان القديم عند طبقات الذهنيين . وفى ذلك يقول أفلاطون : إن « الرأى السائد » فى زمنه هو أن « العالم وكل ما فيه من حيوان ونبات . . . وجماد نشأ من علة تلقائية غير مدركة » ولا عاقلة . ويحدثنا ليسياس Lysias عن وجود مجتمع يكفر بالآلهة يطلق على نفسه اسم « نادى الشياطين kadodaimoniotai كان أعضاؤه يتعمدون أن يجتمعوا ليطعموا فى الأيام المقدسة التى كان الصيام مقرراً فيها[١٠٣] . وكان پندار فى بداية القرن الخامس يقبل ما ينطق به الوحى فى دلفى قبول الأتقياء الصالحين ؛ وكان إسكلس يدافع دفاع السياسيين ؛ وفى عام ٤٥٠ انتقده هيرودوت وهو خائف وجل ، وكفر به توكيديدس صهره فى آخر ذلك القرن ؛ وشكا أو طيفرون Euthyphro من أن الناس كانوا يسخرون منه إذا تحدث عن النبوءات فى الجمعية ، ويعدونه من البلهاء الذين دالت دولتهم[١٠٤] .

وليس من حقنا أن نعزو الفضل فى هـذا كله إلى السوفسطائيين أو أن نلومهم عليه ؛ فقد كان الكثير منه فى الجو الذى يحيط بهم ، وكان نتيجة طبيعية لازدياد الثراء ، والفراغ ، والأسفار ، والبحث والتفكير . وكذلك كان نصيبهم فى تدهور الأخلاق أنهم اشتركوا فى هـذا التدهور

مع غيرهم ، ولم يكونوا العامل الأساسى فيه ، ذلك أن الثراء فى حد ذاته ، إذا لم تقترن به الفلسـفة ، يقضى على التزمت وعلى الرواقية . ولكن السوفسطائيين عجلوا ، فى نطاق هذه الحدود الضيقة وعلى غير علم منهم ، سير حركة الانحلال . لقـد كان معظمهم إذا غضضنا النظر عن حبهم الجم للمال وهو حب متأصل فى طبائع البشر ، من ذوى الأخلاق الطيبة والحياة المحتشمة المهذبة ، ولكنهم لم ينقلوا إلى تلاميذهم التقاليد أو الحكمة التى جعلتهم أو أبقتهم فضلاء رغم علمهم أن المبادئ الخلقية قد نشأت بين بنى الإنسان ولم تنزل عليهم من آلهة السماء ، وأنها تختلف باختلاف الزمان والمكان . ولعل نشأتهم فى المستعمرات لافى بلاد اليونان الأصلية قد جعلتهم يستخفون بقوة العادة ، بوصفها بديلا سلميا للقوة أو القانون ، فى المحافظة على النظام والأخلاق . ولقد كان تعريفهم للأخلاق أو لقيمة الإنسان تعريفاً قائماً على أساس المعرفة، كما فعل بروتاغوراس قبل سقراط بجيل من الزمان(١٠٨) ، كان هـذا التعريف باعثاً قوياً على التفكير ، ولكنه كان ضربة زلزلت قواعد الأخلاق نفسها ؛ كذلك كان توكيد المعرفة وتعظيم شأنها من الأسباب التى رفعت مستوى اليونان العلمى والثقافى ؛ ولكنه لم يقو من ذكائهم بنفس السرعة التى حرر بها عقولهم . ولم يكن قولهم إن المعرفة شىء نسبى سبباً فى حمل الناس على التواضع كما يجب أن يكون ، بل إنه أغرى كل إنسان بأن يتخذ من نفسه معياراً يقدر به جميع الأشياء ، فأصبح كل شاب نابه يحس بأنه خليق بأن يحكم على القانون الأخلاقى الذى يسـير عليه بنو وطنه ، وأن يرفضه إذا لم يفهمه أو يعجبه ، ثم يصبح بعدئذ حراً فى أن يبرر رغباته حسب ما يراه هو بعقله ، ويقول إنها فضائل النفس التى تحررت من رق القانون . وكانت التفرقة بين « الطبيعة » والعرف ، وميل صغار السوفسطائيين إلى القول بأنه ما تبيحه « الطبيعة » خير فى ذاته على الرغم

من حكم العادة أو القانون ، كان هذا الميل وتلك التفرقة عاملا فى تقويض الدعائم القديمة للأخلاق اليونانية ، ومشجعاً للناس على القيام بكثير من التجارب فى أساليب العيش . وأخذ الشيوخ يأسفون لانقضاء ما كان يسود المنزل من بساطة وإخلاص ، ولانهماك الناس فى السعى وراء اللذة وجمع المال متحللين فى ذلك من قيود الدين[١٠٦] . ويحدثنا أفلاطون وتوكيديدس عن المفكرين والقادة الذين يقولون إن الأخلاق وهم خرافة ، والذين لا يعترفون بأى حق غير حق القوة . وهذه الفردية العارمة التى لا قيد لها من الضمير هى التى جعلت منطق السوفسطائيين وبلاغتهم وسيلة للاحتيال لقانونى والتهريج السياسى ، وحطت من قيمة نزعتهم العالمية الواسعة الأفق فجعلتها مجرد إحجام وحذر عن الدفاع عن بلادهم أو استعداد لبيعها لمن يؤدى فيها أغلى الأثمان ، دون أن يشعروا بشىء من وخز الضمير . وأخذ الزراع المتدينون والأشراف المحافظون يرون ما يراه عامة المواطنين من أهل الحواضر الدمقراطيين وهو أن الفلسفة قد أصبحت خطراً تهدد كيان الدولة وينذرها بشر مستطير .

واشترك بعض الفلاسفة أنفسهم فى مهاجمة السوفسطائيين ، فاتهمهم سقراط (كما اتهم أرسطوفان سقراط من بعد) بأنهم يموهون الخطأ بزخرف المنطق ويقنعونه بقوة البلاغة ، وكان يحتقرهم لأنهم يتقاضون من الناس أجوراً[١٠٧] ويبرر جهله بالنحو بأنه لم يكن يستطيع حضور منهج برودكس الذى يكلف خمسين درخمة ، ويقول إن كل ما كان فى وسعه أن يحضر منهج الدرخمة الواحدة الذى يقتصر على المبادئ الأوليه[١٠٨] . وكتب فى ساعة مشئومة تلك المقارنة القاسية يكشف فيها عن أمرهم :

« إنا لنعتقد يا أنتيفون أن فى وسعنا أن نتصرف فى الجمال أو فى الحكمة تصرفاً شريفاً أو غير شريف ، فالشخص إذا باع جماله بالمال إلى كل راغب

فى شرائه ، سماه الناس « عاهراً » ذكراً ؛ أما إذا صادق إنسان شخصاً يعرف أنه إنسان شريف جليل القدر يعجب به حسبناه رجلا فطنا حصيفا . والذين يبيعون الحكمة بالمال لكل من يتقدم لشرائها يسميهم الناس سوفسطائيين أو عاهرى الحكمة إذا صح هذا التعبير . أما من يصاحب شخصاً يعرف أنه جدير بصحبته ، ويعلمه كل ما يعرف من الخير فإنا نصفه بأنه يضطلع بالعمل الذى يليق بالمواطن الشريف[١٠٩] » ولم ير أفلاطون حرجاً فى أن يوافق على هذا الرأى لأنه كان من الأثرياء . وبدأ إسقراط Isocrates حياته بخطبة ضد السوفسطائيين ، ثم صار أستاذاً ناجحا للبلاغة ، يتقاضى ألف درخمة (ألف ريال أمريكى) عن المنهج الواحد[١١٠] . وواصل أرسطاطاليس هجومه عليهم وعرف السوفسطائى بأنه الرجل « الذى لا يحرص إلا على أن يثرى من وراء التظاهر بالحكمة[١١١] » ، واتهم بروتاغوراس بأنه « يعد الناس بجعل أسوأ الأسباب يبدو كأنه أحسنها[١١٢] » .

وكان شر ما فى هذه المأساة أن كلتا الطائفتين كانت على حق . فالشكوى من الأجور كانت غير عادلة . ذلك أنه لم تكن ثمة وسيلة غيرها يستطاع بها الإنفاق على التعليم العالى إلا إذا أمدته الدولة بالمال ؛ وإذا ما انتقد السوفسطائيون التقاليد والأخلاق السائدة فى عصرهم فلم يكن ذلك بطبيعة الحال عن سوء قصد فقد كانوا يظنون أنهم بعملهم هذا يحررون الناس من رق العقول ، وكانوا بهذا الوصف وهم الطبقة الراجحة العقل فى زمانهم يتصفون بما يتصف به أهل ذلك الجيل من شغف بالحرية العقلية ، وقد فعلوا ما فعله علماء الموسوعات فى عصر الاستنارة فى فرنسا إذ انقضوا على الماضى الميت انقضاضا جديرا بالإعجاب فاكتسحوه أمامهم دفعة واحدة . ولم يطل عمرهم ، أو لم يكونوا بعيدى النظر فى تفكيرهم ، حتى يقيموا نظماً جديدة بدل النظم التى قوضها العقل بعد انطلاقه من عقاله . ولا بد فى كل حضارة أن يحين الوقت

الذى يتحتم فيه بحث الأساليب القديمة من جديد إذا أريد أن تكيف الحضارة نفسها لكى توائم التغيرات الاقتصادية التى لا تستطاع مقاومتها . ولقد كان السوفسطائيون أداة هذا البحث الجديد ، ولكنهم عجزوا عن أن يضعوا السياسة المؤدية إلى هذا التكيف . وكفاهم فخراً أنهم كانوا حافزا قوياً لطلب المعرفة ، وأنهم جعلوا التفكير سنة العصر ، وأنهم جاءوا من كافة أركان العالم اليونانى إلى أثينة بأفكار جديدة وأسباب للتفكير جديدة ، وأيقظوا فيها الوعى الفلسفى والنضوج الذهنى . ولولاهم لما وجد سقراط أو أفلاطون أو أرسطاطاليس .

———

الفصل الخامس

سقراط

١ — قناع سيلينس Silenus

مما يغتبط له الإنسان أن يقف آخر الأمر وجهاً لوجه أمام شخصية تبدو في ظاهر أمرها واقعية كشخصية سقراط . ونقول في ظاهر أمرها لأننا إذا تدبرنا المصدرين اللذين لا مناص لنا من الاعتماد عليهما في كل ما نعرفه عن سقراط ، وجدنا أن أحدهما وهو أفلاطون يكتب مسرحيات خيالية ، وأن الآخر وهو أكسانوفون يكتب روايات تاريخية ، وهذه وتلك لا يمكن أن تعدلا من التاريخ الصادق الصحيح . وقد كتب ديوچين ليرتيوس في ذلك يقول : « يقولون إن سقراط حين سمع أفلاطون يقرأ الليسيس Lysis صاح قائلا : أي هرقل ! ما أكثر الأكاذيب التي قالها عني هذا الشاب ! ذلك بأن أفلاطون قد أنطق سقراط بأشياء كثيرة لم ينطق هو بشيء منها[١١٣] » .

والحق أن أفلاطون لا يدعي بأنه يقصر أقواله على الحقائق ؛ وأكبر الظن أنه لم يدر بخلده قط أن المستقبل قد يعدم الوسائل التي يفرق بها بين ما هو سيرة حقة وما هو من نسج الخيال في كتابه . ولكن أفلاطون يرسم في المحاورات صورة منسقة لأستاذه من أيام شباب سقراط الوجل في البارمنيدس وثرثرته الوقحة في البروتاغوراس إلى تقواه المكبوتة واستسلامه في الفيدون ، لا يسع الإنسان معها إلا أن يعتقد أنه إذا لم يكن هذا سقراط بحق فإن أفلاطون يعد من أكبر مبتدعي الشخصيات في الأدب بأجمعه . ويعتقد أرسطاطاليس أن الآراء المعزوة إلى سقراط في البروتاغوراس هي آروه بحق[١١٤] . وقد كشفت

حديثاً هتامات من كتاب عن ألقبيادس كتبها إسكنيز الاسفتوزى Aeschines of Sphettos أحد تلاميذ سقراط نفسه ترجح تأييد الصورة التى رسمها له أفلاطون فى الأجزاء الأولى من محاوراته كما ترجح تأييد قصة العلاقة الوثيقة التى كانت بين الفيلسوف وبين ألقبيادس(١١٥). غير أن أرسطاطاليس من جهة أخرى يعد الذكريات Memorapilia والمائدة Banquet من القصص الموضوعة أى الأحاديث الخيالية التى يردد سقراط فى أكثرها آراء أكسانوفون(*) نفسه(١١٦) وإذا كان أكسانوفون قد صدق فيما نقله عن سقراط صدق إكرمان Eckerman فيما نقله عن جيته ، فإن كل ما نستطيع أن نقوله فى هذه الحال أنه عنى بجمع سخافات المعلم التى لا ضرر منها ، وأنه ليس من المعقول أن "رجلا أوتى من الفضائل ما أوتى سقراط حسب ا وصفه به أكسانوفون يستطيع أن يقلب الحضارة القائمة رأساً على عقب.
على أن غير أكسانوفون من الكتاب الأقدمين لم يصوروا الحكيم القديم فى صورة القديسين الصالحين كما صوره أكسانوفون . من ذلك أن أرسطوقسانيس التارنتى Aristoxenus of Tarentum ينقل عن أبيه — الذى يدعى أنه كان يعرف سقراط شخصياً — حوالى عام ٣١٨ أن الفيلسوف كان شخصاً مجرداً من التعليم « جاهلا فاجراً(١١٧) » ، وأن يوبوليس Eupolis الشاعر الهزلى فاق منافسه أرسطوفان فى الافتراء على المشاء العظيم(١١٨). وإذا أسقطنا من حسابنا ما يجر إليه الجدل من قسوة فى اللفظ اتضح لنا على الأقل أن سقراط كان رجلا نال من كره الناس وحبهم أكثر مما ناله أى إنسان آخر فى عصره .

وكان أبوه مثالا ، ويقال إنه هو نفسه نحت تمثالا لهرمس ، وآخر لربات القدر الثلاث أقيم قرب مدخل الأكربوليس(١١٩). أما أمه فكانت قابلة ، وكان من الفكاهات التى لا ينفك ينطق بها عن نفسه أنه لم يفعل أكثر من

(*) وفى الكتاب الثالث من الذكريات ينطق أفلاطون سقراط بشرح الأساليب والحيل الحربية .

مواصلة حرفة أمه ، ولكنه نقلها إلى دائرة الأفكار ، فكان يساعد غيره على أن يخرجوا للعالم آراءهم . وتقول إحدى الروايات إنه ابن أحد الأرقاء[١٢٠] ، ولكننا نرجح بطلان هذه الرواية لأنه عمل هيليتا أى جنديا فى فرق المشاه الثقيلة (وذلك واجب لا يضطلع به إلا المواطنون[١٢١]) ، وأنه ورث عن أبيه بيتا ، وكان عنده من المال سبعون مينا (٧٠٠٠ ريال أمريكى) ، يستثمرها له صديقه أقريطون[١٢١] ؛ أما فيما عدا هذا فإنه يصور لنا على أنه رجل فقير[١٢٢] . وقد عنى عناية كبيرة بصحة جسمه ، وكان غالب أيامه قوى البنية جيد الصحة ، واكتسب شهرة فائقة فى الجندية أثناء حرب البلوبونيز ؛ وحارب فى بوتيدياPotidaea عام ٤٣٢ ، وفى ديليوم Delium عام ٤٢٤ ، وفى أمفيبوليس عام ٤٢٢ . وفى بوتيديا أنقذ حياة الشاب ألقبيادس وسلاحه ، ونزل عن جائزة الشجاعة إكراما لخاطر هذا الشاب ، وفى ديليوم كان آخر من تقهقر من الأثينيين أمام الاسبارطيين ، ويلوح أنه أنجى نفسه بالتحديق فى العدو ، فخافه الاسبارطيون وهم قوم لا يخافون . ويقال إنه فى هذه الوقائع كلها بز جميع أقرانه فى قوة الاحتمال وفى الشجاعة ، وإنه كان يصبر على الجوع والتعب والبرد فلا يشكو ولا يتململ[١٢٤] . أما فى بلده ، إذا طاوعته نفسه على الإقامة فيه ، فكان يشتغل بقطع الأحجار ونحت التماثيل ؛ ولم يكن مولعا بالأسفار ، وقلما كان يخرج من المدينة ومرفئها . وتزوج من إكسانثبى Xanthippe التى كانت تعيب عليه إهماله شئون أسرته ؛ فكان يعترف بعدالة شكواها[١٢٥] ، ويثنى على كرم أخلاقها وحسن معاملتها لابنه وأصدقائه . ولم يكن الزواج يضايقه قط فقد يبدو أنه اتخذ لنفسه زوجة ثانية حين أباح القانون تعدد الزوجات مدة قصيرة لكثرة من قتل فى الحروب من الذكور[١٢٨] .

والعالم كله يعرف وجه سقراط وملامحه ..وإذا حكمنا عليه من تمثاله النصفى المحفوظ فى متحف ترمى Museo dell Terme بروما،وذلك حكم لا يستند إلى

أساس قوى ، قلنا إنه إنه لم يكن أنموذجاً صادقاً للوجه اليونانى[١٢٩] . ذلك أن سعة وجهه ، وأنفه الأفطس العريض ، وشفتيه الغليظتين ، ولحيته الكثة ، كلها توحى بأنه ينتمى إلى أرض السهوب التى جاء منها أناكارسيس Anacharsis صديق صولون ، أو ذلك السكوذى الحديث تولستوى . وقد كتب عنه ألقبيادس فى إصرار عجيب ، حتى فى الوقت الذى يجهر فيه بحبه يقول : « أقول إن سقراط يشبه كل الشبه أقنعة سيلينس ، التى يمكن رؤيتها فى حوانيت التماثيل ، وفى أفواهها مزامير وصفارات ، وتنفتح فى أوساطها فترى فى داخلها صور الآلهة . وأقول أيضاً إنه يشبه مارسياس Marsyas الكائن الخرافى الذى يتكون نصفه الأعلى من إنسان ونصفه الأسفل من ماعز (satyr) ، ولست أعتقد أنك يا سقراط تنكر أن وجهك هو وجه ذلك المخلوق الخرافى[١٣٠] » . ولم يعترض سقراط على هذا القول ، بل إنه فعل ما هو شر من هذا فقد اعترف بأن له كرشاً مفرطة فى الكبر وأنه يرجو أن ينقصها بالرقص[١٣١] .

ويتفق أفلاطون وأكسانوفون فى وصفهم عاداته وأخلاقه . من هذه أنه كان يقنع بثوب بسيط رث يلبسه طول السنة ، ويفضل الحفاء على الأحذية أو الأخفاف[١٣٢] . وقد تحرر إلى حد لا يصدقه العقل من داء التملك الوبيل المصاب به الجنس البشرى ، ويقال إنه أبصر ذات مرة كثرة البضائع المعروضة للبيع فقال : « ما أكثر الأشياء التى لا أحتاجها[١٣٣] ! » وكان يشعر بأنه غنى فى فقره . وكان مضرب المثل فى الاعتدال وضبط النفس ، ولكنه ، كان أبعد الناس عن حياة القديسين . وكان فى وسعه أن يشرب كما يشرب أى رجل مهذب مثقف ، ولم يكن فى حاجة إلى الزهد لكى يحتفظ باستقامة خلقه(*) . ولم يكن ناسكاً يعتزل الناس ؛ بل كان

(*) يقول أكسانوفون على لسان سقراط : « إذا سألتنى عن الشراب قلت لك إن الخمر ترطب النفس ، وتسكن الأحزان ... ولكنى أظن أن أجسام الناس كأجسام النبات. ... وأن الله إذا غمر النبات بالماء ليرتوى منه لم يقو على الوقوف معتدلا ، ولم يمكن النسيم من —

يحب الرفقة الطيبة ، وكان لا يأبى أن يدعى إلى ولائم الأغنياء من حين إلى حين ، ولكنه لم يخضع لهم أو ينحنى امتثالا لأمرهم ؛ وكان فى وسعه أن يعيش أحسن العيش دون معونتهم ، وكان يرفض هدايا الكبراء والملوك وولائمهم[١٣٥] . وجملة القول أنه كان رجلا محظوظاً يعيش من غير كد ، ويقرأ من غير ،ب يكتب ، ويعلم من غير أن يلتزم خطة رتيبة ، ويشرب دون أن يدور رأسه ، ثم يموت قبل أن يدركه وهن الشيخوخة ، وكان موته بلا ألم .

وكانت أخلاقه أحسن الأخلاق الملائمة لعصره ، ولكنها أخلاق يصعب أن يرضى بها كل الرجال الصالحين الذين يثنون عليه . فقد « سرت نار » الحب فى جسمه حين رأى كرميلس Charmides ، ولكنه ضبط عواطفه بأن سأل نفسه هل لهذا الفتى هو الآخر « نفس نبيلة[١٣٦] ؟ » . ويصف أفلاطون سقراط وألقبيادس بأنهما عاشقان ، ويقول عن الفيلسوف إنه « يطارد الفتى الوسيم[١٣٧] » ؛ والشيخ وإن كان يبدو أنه قد جعل حبه فى الغالب حباً أفلاطونياً ، لم يستنكف أن يقدم النصح للاطين والسرارى عن خير الوسائل لاصطياد المحبين . وقد دفعته شهامته إلى أن يعد الحظية ثيودورا بمعونته ، وقد جازته على هـــذه المعونة بدعوتها إياه أن « يتردد عليها ليزورها[١٣٩] » . ولم تكن تفارقه دعابته ورقة حاشيته ، ومن أجل هذا فإن الذين يطيقون آراءه السياسية يجدون من السهل عليهم أن يحتملوا أخلاقه . ولما قضى نحبه قال عنه أكسانوفون إنه بلغ من إنصافه أنه لم يتظلم إنساناً حتى فى أتفه الأمور . . . ؛ وبلغ من عدالته أنه لم يفضل فى وقت من الأوقات اللذة عن الفضيلة ؛ وبلغ من حكمته أنه لم يخطئ قط فى تمييز الخبيث من الطيب ؛ ومن قدرته على تبين أخلاق الناس ومن حضهم على اتباع سبيل الفضيلة

— أن يسرى فى شلاله ، ولكنه إذا لم يشرب إلا بالقدر الذى يكفيه لأن يستمتع به نما واستوى على سوقه وأثمر أكل الثمار وآوة ها .

والشرف أن بدا أنه بلغ أحسن ما يأمله أحسن الناس وأسعدهم[١٤٠] » : وقد عبر أفلاطون عن هذا المعنى نفسه ببساطة خلابة فقال إنه «كان بحق أعقل ، وأعدل ، وأحسن من عرفت من الناس فى حياتى كلها[١٤١] » ٥

٢ — صورة ذبابة الخيل

وإذا كان سقراط طلعة محباً للجدل فقد عمد إلى دراسة الفلسفة وأعجب وقتاً ما بالسوفسطائيين الذين غزوا أثينة فى أيام شبابه . وليس لدينا شاهد على أن أفلاطون قد اخترع نبأ التقاء سقراط ببارمنيدس ، وبروتاغوراس ، وغورغياس ، وبرودكس ، وهيبياس ، وثرازمكس ، وما دار فى لقائه بهم من الأحاديث ؛ وليس ببعيد أيضاً أن يكون قد رأى زينون حين وفد هذا إلى أثينة حوالى عام ٤٥٠ ق . م وأنه تأثر بجدله تأثراً لم يفاوقه طول حياته[١٤٣] . وأكبر الظن أنه عرف أنكساغورس بشخصه إن لم يكن عن طريق مبادئه ، وذلك لأن أركلوس الملطى تلميذ أنكساغورس كان فى وقت ما معلم سقراط . وقد بدأ أركلوس هذا حياته العلمية عالماً فى الطبيعة ثم اختتمها بأن كان دارساً لعلم الأخلاق ، وقد فسر هذا العلم وأساسه على قواعد العقل ، ولعله هو الذى حول سقراط من الطبيعة إلى علم الأخلاق . ومن هذه الطرق كلها وصل سقراط إلى الفلسفة ، ومذ تم له ذلك وجد « الخير أعظم الخير فى حديثى كل يوم عن الفضيلة ، وفحصى عن نفسى وعن غيرى ، لأن الحياة التى لا يفحص عنها غير خليقة بالرجال »(*) . وهكذا أخذ يطوف بمعتقدات الناس ، يخزهم بالأسئلة ، ويطلب إليهم إجابات دقيقة محددة وآراء منسقة غير متناقضة ، ويلقى الرعب فى قلب كل من لا يستطيع أن يتحدث حديثاً واضحاً ، وحتى فى الجحيم نفسه يعرض أن يكون مشاء طلعة

(*) ص ٢٧ Apology. أفلاطون De anexetastos bios ou biotos anthropo.

« يعرف مَن من الناس حكيم ومن منهم يدعى الحكمة وهو من غـير أهلها[١٤٤] » وقد حمى نفسه من التعرض لأسئلة الناس ومناقشتهم إياه بمثل ما يناقشهم هو بأن أعلن أنه لا يعرف شيئاً . . وأنه يعلم الأسئلة جميعاً ولكنه لا يعلم شـيئاً من أجوبتها ؛ وقال عن نفسه متواضعاً إنه من « هواة الفلسفة[١٤٥] » . ولعل الذى يقصده بقوله هذا أنه ليس واثقاً من شىء غير تعرض الإنسان للخطأ ، وأنه ليس لديه طائفة من العقائد والمبادىء المقررة الجامدة : ولما أن أجاب مهبط الوحى فى دلفى جوابه المزعوم عن سؤال كريفون Chaerephon المزعوم : « هل فى الناس من هو أعقل من سقراط » وهو : « لا أحد[١٤٦] » ، عزا سقراط هذا الجواب إلى اعترافه هو بجهله ، وشرع من تلك اللحظة يقوم بذلك الواجب العملى واجب الحصول على أفكار واضحة ، وقال عن نفسه : « إنه سيتحدث عن حين إلى حين عما يهم الجنس البشرى ، فيبحث عن الصالح وغير الصالح ، والعادل وغير العادل ، وما يتفق مع العقل وما لا يتفق معه ، وعما يعد شجاعة وما يعد جبناً ، وعن ماهية الحكومة التى تسيطر على الناس ، وعن صفات الرجل البارع فى حكمهم ، ثم يستطرد إلى موضوعات أخرى . . . يرى أن من يجهلونها يعدون بحق طبقة العبيد[١٤٧] » . وكان إذا صادف فكرة غامضة . أو تعميما هيناً غير قائم على الحقائق ، أو هوى خامر المتحدث إليه على غير علم منه ؛ تحدى محدثه بقوله : « ما هو » ؟ ثم سأله أن يحدد ما يقول تحديداً دقيقاً . وأصبح من عادته أن يصحو مبكراً ؛ ويذهب إلى السوق العامة ، أو ساحات الألعاب أو مدارسها أو إلى حوانيت الصناع ، ويأخذ فى مجادلة أى إنسان يتوسم فيه الذكاء الحافز أو الغباء المسلى ، وكان يسأل : « ألم يمهل الطريق إلى أثينة لكى يتحدث الناس فيه[١٤٨] » ، وكانت الطريقة التى يتبعها سهلة خالية من التعقيد : كان يطلب إلى من يحدثه أن يعرّف فكرة عامة شاملة ، ثم يبحث هذا التعريف ليكشف

فى العادة عما فيه من نقص ، و تناقض ، أو ضعف وبطلان ؛ ثم يستدرج محدثه بأسئلته المتعاقبة إلى تعريف أتم وأصح لا يقوله هو أبداً . وكان ينتقل أحياناً إلى فكرة عامة أو عرض فكرة أخرى جديدة ببحث سلسلة طويلة من الحالات المفردة الخاصة مكنته من أن يدخل قدراً من طريقة الاستقراء فى المنطق اليونانى ؛ وكان فى بعض الأحيان يكشف بطريقة التهكم السقراطى المشهور عن النتائج المضحكة السخيفة التى تترتب على التعريف أو الرأى الذى يريد أن يهدمه . وكان مولعاً بالتفكير المنظم شغوفا به ، يحب أن يصنف الأشياء المفردة حسب جنسها ، ونوعها ، وما بينها من فوارق معينة ، وبذلك مهد السبيل إلى طريقة أرسطاطاليس فى التعريف ، وإلى نظرية أفلاطون فى الأفكار . وكان يصف الجدل بأنه فن التمييز بين الأشياء بعناية ، وأثار دياجير المنطق المظلمة بفكاهته التى قدر عليها ألا يطول أجلها فى تاريخ الفلسفة .

وكان معارضوه يعيبون عليه أنه يهدم ولا يبنى ، وأنه يرفض كل جواب ولا يجيب هو بشىء من عنده ، وأنه بهذا أفسد الأخلاق وشل التفكير ، وأنه فى كثير من الحالات ترك الفكرة التى أراد أن يوضحها وهى أكثر غموضاً من ذى قبل . وكان إذا حاول شخص حازم مثل أقريتياس Critias أن يسأله حول جوابه إلى سؤال آخر فأصبحت له من فوره ميزة على سائله . نعم إنا نراه فى البروتاغوراس يعرض أن يجيب عن الأسئلة لا أن يسأل ؛ ولكن هذه النية الطيبة لا تدوم إلا لحظة قصيرة ، وعندئذ ينسحب بروتاغوراس ، وهو الذى تمرس فى المنطق من زمن طويل ، من ميدان الجدل بهدوء[١٢٩] . ويستشيط هيبياس غضباً من تملص سقراط وهروبه من الإجابة عما يوجه إليه من أسئلة ، ويرفع عقيرته بقوله : « قسما بزيوس إنك لن تسمع (جوابى) حتى تعلن أنت ما ترى أنه العدالة ؛ لأنه لا يكفى أن تسخر من الناس ، وأن تسأل كل إنسان وتربكه ، ثم تأبى أن تفصح

عن سبب لأى إنسان ، أو أن تعلن عن رأيك فى موضوع ما[١٥٠] » . وقد أجاب سقراط عن هذا التقريع وأمثاله بقوله إنه ليس إلا قابلة كأمه ؛ « إن اللوم الذى يوجه إلىّ كثيرا ، وهو أنى أسأل الناس أسئلة وأن ليس لدى من العقل ما أستطيع به أن أجيب عنها ، لوم عادل لا اعتراض لى عليه ، وسببه أن الله أرغمنى على أن أكون قابلة ، ونهانى عن أن ألد[١٥١] » ، وذلك لعمرى هروب واضح ما أخلقه بصديقه يوريپديز .

وهو يشبه السوفسطائيين من وجوه كثيرة ، ولم يكن الأثينيون يترددون فى أن يطلقوا عليه هذا الاسم ، على أنهم لم يكونوا يقصدون بهذا أن يعيبوه أو ينقصوا من قدره[١٥٢] . والحق أنه كان سوفسطائيا بالمعنى الحديث لهذا اللفظ أى أنه كان بارعاً فى المراوغات الماكرة ، والحيل الجدلية ، يبدل مجال الألفاظ أو معانيها بحذق ودهاء ، ويغرق المسألة التى يجادل فيها بالتشبيهات والاستعارات المفككة ، ويماحك ويغالط كما يغالط صبيان المدارس ، ويحارب بالألفاظ حرب الأبطال ولكن إلى غير غاية[١٥٣] . وقد يعفو الإنسان عمن جرعوه السم لأنا لا نرى أن ثمة آفة شرا من المنطق العارف بقوة منطقه . وكان يختلف عن السوفسطائيين فى أربعة أمور : كان يكره البلاغة ، وكان يرغب فى تقوية الأخلاق ، ولم يكن يدعى أنه يعلم أكثر من فن بحث الأفكار ، وكان يأبى أن يأخذ أجراً على تعليمه — وإن كان يبدو أنه قبل فى بعض الأحيان عونا من بعض الأغنياء من أصدقائه[١٥٤] . وكان تلاميذه يحبونه أشد الحب رغم عيوبه التى كانت تضايقهم ، وقد قال مرة لواحد منهم : « ربما استطعت أن أساعدك فى السعى لنيل الشرف والفضيلة ، لأن كلامنا يميل إلى حب صاحبه ، وأنا إذا أحببت الناس من كل قلبى وبادلونى هم حبهم من كل قلوبهم ، يسوءنى غيابهم عنى كما يسوءهم غيابى عنهم ، وأتوق لصحبتهم كما يتوقون لصحبتى[١٥٥] » .

ويمثل أرسطوفان فى رواية السحب تلاميذ سقراط بأنهم قد أنشأوا مدرسة ذات مكان معين يجتمعون فيه ، وفى أكسانوفون فقرة تؤيد هذه الفكرة بعض التأييد(١٥٦) ، ولكنه يصوّر لنا عادة بأنه يعلم فى أى مكان يجد فيه من يعلمه ، أو من يستمع إليه ، غير أننا لا نجد عقيدة خاصة أو مبدأ خاصاً يجمع عليه أتباعه ، فقد كانوا يختلفون فيما بينهم اختلافاً بلغ من شدته أن أصبحوا زعماء لأشد المدارس اختلافاً فى بلاد اليونان — الأفلاطونية ، والكلبية ، والرواقية والأبيقورية ، والتشككية . فكان منهم انتسان Antisthenes الفخور الذليل الذى أخذ عن أستاذه مبدأ البساطة فى الحياة وحاجاتها ، وأسس المدرسة الكلبية . ولعله كان حاضراً حين قال سقراط لأنتيفون : « يبدو أنك تظن أن السعادة فى الترف والإسراف ؛ أما أنا فأرى أنك إذا لم تكن فى حاجة إلى شىء كنت شبيهاً بالآلهة ، وأنك إذا أقللت من حاجاتك قدر استطاعتك أصبحت أقرب ما تكون إلى الآلهة(١٥٧) » . وكان منهم أيضاً أرستبوس الذى بنى على اعتراف سقراط بأن « فى اللذة خيراً » العقيدة التى نشرها بعدئذ فى قورينى Cyrene والتى دعا إليها أبيقور أثينة فيما بعد . ومنهم إقليدس الميغارى الذى جعل من الجدلية السقراطية تشككية تنكر المقدرة على كل معرفة حقة . وكان منهم الشاب فيدون الذى كان قد انحط إلى طبقة العبيد ثم افتداه قريطون Crito بإيعاز سقراط ، وأحب سقراط هذا الشاب و « جعله فيلسوفاً » . وكان منهم أكسانوفون القلق المضطرب الذى تخلى عن الفلسفة ليكون جنديا ، ولكنه أثبت أن « لا شىء أعظم نفعا من صحبة سقراط ، والتحدث إليه فى أية مناسبة وفى أى موضوع مهما يكن شأنه(١٥٩) » . ومنهم أفلاطون الذى تأثر خياله القوى بالفيلسوف الحكيم تأثراً لم يفارقه طول حياته حتى امتزج العقلان وصارا فى تاريخ الفلسفة عقلا واحداً . ومنهم أقريطون الثرى ، الذى كان يهيم حباً بسقراط ، والذى كان يحرص أشد الحرص على ألا يكون الفيلسوف الكبير فى حاجة إلى

شيء ما[١٦٠] » . وكان منهم الشاب ألقيبادس المتهور الجرىء الذى أساء بعدم وفائه إلى معلمه ، وعرضه للأخطار فى مستقبل الأيام ، ولكنه كان فى الوقت الذى نتحدث عنه يحب سقراط ويهيم به هيام الواله المتيم ، والذى يقول فيه :

« إنا إذا سمعنا متحدثا غيرك ، وإن كان من أحسن الناس حديثاً ، لم يكن لألفاظه أثر قط إذا قورنت بألفاظك ؛ أما نتف ألفاظك أنت يا سقراط ، ولو لم نسمعها منك أنت بل نقلت إلينا عنك مهما أخطأ فيها الناقلون ، أما هذه النتف فإنها تخلب الألباب وتستحوذ على نفس كل رجل أو امرأة وكل طفل يستمع إليها . . . وإنى لأعرف أنى إذا لم أصم أذنى عن سماع أقواله وأفر من صوته الذى يسلب العقل للازمته حتى بلغ سن الشيخوخة وبقيت جالسا تحت قدميه . . . ولقد أحسست فى نفسى أو قلبى . . . بذلك الألم الشديد الذى هو أشد إيلاما لنفس الشاب الشريف من أنياب الأفاعى ألا وهو ألم الفلسفة . . وأنت يا فيدروس وأنت يا أغاثون ، وأنت يا إركسماكوس ، وأنت يا پوزنياس ، وأنت يا أرسطوديمس وأنت ياأرسطوفان ، أنتم كلكم ، ولا حاجة لى بأن أضم إليكم سقراط نفسه ، قد طافت بكم هذه التجربة نفسها وشغفتم بالفلسفة شغفى أنا بها[١٦١] .

وكان منهم الزعيم الألجركى كرتياس الذى يستمتع بتهكم سقراط على الدمقراطية والذى كانت له يد فى إدانته بأن كتب مسرحية وصف فيها الآلهة بأنها من ابتداع مهرة الصناع الذين يستخدمونها كما يستخدم خفراء الليل ليرهبوا بها الناس ويرغموهم على حسن الأدب[١٦٢] . وكان منهم أيضاً ابن الزعيم الدمقراطى أنيتوس Anytus وهو شاب آثر أن يستمع إلى حديث سقراط عن العناية بعمله وهو الاتجار فى الجلود . وشكا أنيتوس من أن سقراط قد أفسد عقل الغلام بما بث فيه من تشكك ، فلم يعد يبجل أبويه أو يعظم الآلهة ؛

هذا إلى أن أنيتوس كان يشمئز من نقد سقراط للدمقراطية(*)(١٦٣) ويقول : « أى سقراط ! إنى أظنك مفرطاً فى استعدادك لأن تتحدث بالشر عن الناس ، فإذا قبلت نصحى أشرت عليك أن تصطنع الحذر ؛ ولعله لا توجد قط مدينة ليس إيذاء الناس فيها أيسر من عمل الخير لهم ؛ وتلك بلاشك حال أثينة نفسها(١٦٤) » وأخذ أنيتوس يتربص به الدوائر .

٣ — فلسفة سقراط

وكان من وراء هذه الطريقة فلسفة مراوغة ، تجريبية ، تجرى على غير نظام ، ولكنها فلسفة بلغ من جديتها وحقيقتها أن مات الرجل فى واقع الأمر من أجلها . وقد يبدو لأول وهلة أن ليست هناك فلسفة سقراطية ، ولكن أكبر السبب فى هذا أن سقراط قبل نزعة بروتاغوراس النسبية فرفض النزعة التحكمية ولم يكن واثقاً إلا من جهله .

وقد حكم على سقراط لأنه لا يؤمن بالدين ، ولكنه مع هذا كان يعبد آلهة المدينة بلسانه إن لم يعبدها بقلبه ، ويشترك فى احتفالاتها الدينية ، ولم يعرف عنه أنه نطق مرة بكلمة تدل على عدم تقواه(١٦٦) . وكان يعترف بأنه يتبع فى جميع قراراته الهامة السلبية روحاً Diamonion داخلياً كان يصفه بأنه إشارة من السماء ، ومن يدرى فلعل هذا الروح كان هو الآخر سخرية من سخريات سقراط وتهكماته ؛ فإن كان كذلك فإن سقراط لم يكن ينفك يؤكد دعواه هذه تأكيداً عجيباً ؛ ولم تكن هذه الدعوى إلا مثلا من أمثلة عدة لالتجاء سقراط إلى النبوءات والأحلام وقوله إنها وحى من عند الآلهة(١٦٧) . وكان يقول إن فى الكون من الأمثلة الدالة على التناسق المدهش العجيب ، ومن الخطة الواضحة المرسومة ، ما لا يصح معه

(*) ولعل أنيتوس ، كما يؤكد لنا فاوطرخس وأثينيوس ، كان يعشق ألقبيادس ولكن ألقبيادس لم يبادله الحب وفضل عليه سقراط(١٦٤) .

أن يعزى وجود العالم إلى الصدفة المحضة أو إلى أية علة غير عاقلة ، أما الخلود فلم يكن واثقا منه مثل هذه الثقة أو قاطعا فى أمره هذا القطع ؛ فهو يستمسك به ويدافع عنه فى الفيدون Phaedo أما فى الأپولوجيا Apology فهو يقول: « إذا جاز لى أن أدعى بأنى أكثر حكمة من غيرى فسبب ذلك أنى لا أعتقد أن عندى كثيراً من العلم بالدار الآخرة ، وأنا فى واقع الأمر لا علم لى بها على الإطلاق »(١٦٨) . ويطبق هذه النزعة اللاأدرية نفسها على الآلهة فى كتابه الكراتلس فيقول : « أما الآلهة فلسنا نعرف عنها شيئا »(١٦٩) . وكان ينصح أتباعه بألا يجادلوا فى مثل هذه الأمور ، يسألهم كما يسأل كنفوشيوس أتباعه هل عرفوا شئون البشر حق المعرفة فأصبحوا بعدئذ على استعداد لأن يتدخلوا فى شئون السماء(١٠٧) ؟ وكان يحس أن خير ما نفعله فى هذه الناحية أن نقر بجهلنا ، وأن نطيع فى الوقت نفسه وحى دلفى حين سئل كيف يعبد الإنسان الآلهة فأجاب : « حسب قانون بلادكم »(١٧١) .

وكان يطبق هذا التشكك نفسه تطبيقاً أشد من هذا صراحة فى العلوم الطبيعية فيقول إن من واجب الإنسان ألا يزيد فى دراستها على القدر الذى يهتدى به فى حياته ؛ أما فيما عدا هذا فإن هذه العلوم بيداء يضل فيها العقل ؛ يكشف كل لغز غامض فيها حين يحل عن لغز آخر أشد منه غموضاً(١٧٢) . وكان فى شبابه قد درس العلوم الطبيعية مع أركلوس Archelaus ، فلما كبر ونضج عقله تركها وهو يعتقد أنها أسطورة خداعة إلى حد ما ، ولم يعد يهتم بالحقائق أو بأصول الأشياء بل وجه اهتمامه إلى القيم والغايات . وفى ذلك يقول أكسانوفون« إنه كان على الدوام يتحدث فى البشرية(١٧٤) . وكان السوفسطائيون أيضاً قد حولوا اهتمامهم من العلوم الطبيعية إلى الإنسان ، وبدءوا يدرسون الإحساس ، والإدراك والمعرفة ، ولكن سقراط تعمق أكثر من هذا فى داخل الإنسان وأخذ يدرس الأخلاق والأغراض البشرية : « قل لى يا يوثيديموس ،

هل ذهبت فى حياتك إلى دلفى ؟ » : وهل لاحظت ما هو مكتوب على جدار الهيكل — أعرف نفسك ؟ » نعم لاحظته » . « وهل لم تفكر فى هذه الكتابة ، أو هل عنيت بها ، وحاولت أن تفحص عن نفسك وتعرف عن يقين أخلاقك ؟ »(١٧٥) .

فلم تكن الفلسفة إذن عند سقراط هى الدين ، أو ما وراء الطبيعة ، أو الطبيعة نفسها ، بل كانت علم الأخلاق والسياسية ، مدخلها والوسيلة إليها المنطق ، وإذ كان قد عاش فى ختام عصر السوفسطائيين فقد أدرك أن هذه الطائفة قد أوجدت حالة من أشد الحالات خطورة فى تاريخ أية ثقافة من الثقافات وتلك هى إضعاف أحد الأسس التى تقوم عليها الأخلاق ونعنى به خوارق الطبيعة . وبعد أن أدرك هذا لم يعد خائفاً مرتاعاً إلى الإيمان بالدين بل سلك السبيل إلى أعمق الأسئلة فى علم الأخلاق : هل يستطاع وجود علم للأخلاق قائم على أساس من الطبيعة ؟ أى يمكن أن تبقى الأخلاق من غير الاعتقاد بخوارق الطبيعة ؟ وهل فى مقدور الفلسفة إذا صاغت قانوناً قوياً أخلاقياً دنيوياً غير دينى أن تنقذ الحضارة التى تهددها حريتها الفكرية بالانهيار والزوال ؟ وحين يقول سقراط فى الأوطيفرون أن ليس الخير خيراً لأن الآلهة ترضى عنه ، بل إن الآلهة ترضى عن الخير لأنه خير ، حين يقول هذا يعرض فى واقع الأمر ثورة فلسفته ولم تكن فكرته عن الخير فكرة دينية ، بل كانت فكرة دنيوية إلى حد يجعلها نفعية . فهو يرى أن الصلاح ليس فكرة عامة مجردة ، ولكنها فكرة خاصة عملية فالصالح صالح لشىء ما » ، والصلاح والجمال شكلان من أشكال المنفعة والفائدة البشرية ؛ وحتى السلة من الروث تكون جميلة إذا أحسن إعدادها للغرض الذى تؤديه(١٧٦) . وإذ لم يكن ثمة (فى رأى سقراط) شىء غير المعرفة يعادلها فى نفعها ، فإن المعرفة هى أسمى الفضائل والرذيلة جميعها هى الجهل (١٨٧) ، وإن كان المقصود بالفضيلة (arete) هنا هو التفوق لا البراءة من الذنوب . والعمل الصالح غير مستطاع بغير المعرفة الحقة ، وبالمعرفة الحقة يكون العمل الصالح أمراً محتوماً لا مفر منه ،

والناس لا يفعلون قط ما يعرفون أنه خطأ — أى مضاد للعقل ، ضار بهم . وأسمى أنواع الخير والسعادة ، وخير سبيل للوصول إليها هى سبيل المعرفة أو الذكاء .

ويقول سقراط إنه إذا كانت المعرفة هى أسمى الفضائل كانت الأرستقراطية خير أشكال الحكم ، وكانت الدمقراطية سخفاً وعبثاً . وفى ذلك يقول أكسانوفون على لسان سقراط : « من السخف أن نختار الحكام بالقرعة على حين أن أحداً لا يفكر قط فى أن يختار بالقرعة مرشد السفن أو البناء أو النافخ فى الناى ، أو أى صانع على الإطلاق ، مع أن عيوب هؤلاء أقل ضرراً من عيوب أولئك الذين يفسدون حكوماتنا »[١٧٩] . وهو يعيب على الأثينيين حبهم للتقاضى ، وتحاسدهم الصاخب ، ومرارة أحقادهم ومنازعاتهم السياسية ؛ ويقول ذلك : « ولهذه الأسباب ترانى على الدوام أخشى أشد خشية أن يحل بالدولة شر تنوء به وتعجز عن تحمله »[١٨٠] . وكان يظن أن لا شىء ينجى أثينة إلا حكم أصحاب المعرفة والكفاية ، وليست السبيل إلى هذا الحكم هى الاقتراع ، كما أن الاقتراع لا يصلح سبيلا لتقدير كفاية مرشد السفن أو الموسيقى أو الطبيب أو النجار . كذلك يجب ألا يختار موظفو الدولة على أساس جاههم أو ثرائهم ؛ ذلك أن الاستبداد وسلطان المال لا يقل شرهما عن شر الدمقراطية . والسبيل الوسطى المعقولة هى النظام الأرستقراطى الذى تقصر فيه المناصب على الذين تؤهلهم لها عقولهم والذين يدربون على القيام بما تتطلبه من الواجبات[١٨١] . على أن سقراط كان يعترف بما للدمقراطية الأثينية من مزايا رغم ما يوجهه إليها من نقد ، ويقدر ما أسدته إليه من حريات وما أتاحته له من فرص . وكان يبتسم ساخراً من ميل بعض أتباعه للدعوة إلى « العودة إلى الطبيعة » ، وقد وقف من أنستانس ومن الكلبيين نفس الموقف الذى وقفه فلتير من روسو فيما بعد — وهو أن الحضارة ، رغم عيوبها الكثيرة ، كنز ثمين لا يصح أن تتخلى عنه لتستبدل به البساطة الأولية[١٨٢] .

ومع هذا كله فقد كان الأثينيون ينظرون إليه نظرة الريبة والسخط ؛ فأما

المتمسكون منهم بالدين فقد كانوا يرونه أشد السوفسطائيين خطورة ؛ لأنه وإن راعى ما فى الدين القديم من أسباب المتعة والمسرة ، رفض التقاليد المرعية ، وأراد أن يخضع كل قاعدة من قواعده إلى حكم العقل بعد تقص وفحص ، وأن يقيم قواعد الأخلاق على أساس ضمير الأفراد لا على أساس خير المجتمع أو أوامر الآلهة ؛ وانتهى به الأمر إلى تشكك ترك العقل فى حال من الاضطراب زعزعت كيان كل عادة وكل عقيدة . وكان الذين يمجدون الأيام الخوالى أمثال أرسطوفان يعزون إليــه كما يعزون إلى بروتاغوراس ويوربديز زعزعة أركان الدين ، وقلة احترام الصغار للكبار ، والانحلال الخلقى عند الطبقات المتعلمة ، وفوضى العزوبة التى كانت تقوض أركان الحياة الأثينية . ولقد كان الكثيرون من زعماء الحزب الأبلجركى من تلاميذ سقراط أو من أصدقائه ، وإن كان هو نفسه قد أبى أن يؤيد هــذا الحزب ؛ ولما أن قام رجل منهم يدعى أقريتياس وقاد الأبلجركيين فى ثورة بسطوا خلالها عهــداً من الإرهاب الوحشى ، اتهم الدمقراطيون أمثال أنيتوس ، وملاتوس سقراط بأنه العقل المحرك للرجعية الأبلجركية ، وأجمعوا أمرهم على إبعاده عن مجرى الحياة الأثينية .

وأفلحوا فيما أجمعوا أمرهم عليه ، ولكنهم لم يفلحوا فى القضاء على ما كان من نفوذ لا حد لقوته . ذلك أن الطريقة الجدلية التى تلقاها عن زينون انتقلت منه عن طريق أفلاطون إلى أرسطاطاليس فحولها هذا إلى نظام منطق بلغ من الكمال درجة استطاعت بها أن تبقى دون أن يطرأ عليها تغيير ما تسعة عشر قرناً كاملة . أما العلم فقد كان له فيه أثر ضار ؛ ذلك أنه حول الطلاب من البحث فى العلوم الطبيعية ، كما أن نظرية الغرض الخارجى لم تكن من العوامل المشجعة للتحليل العلمى . وربما كان لنزعة سقراط الفردية والذهنية فى علم الأخلاق بعض الأثر فيما أصاب الأخلاق فى أثينة من انحلال ، ولكن رفعها من شأن الضمير ، وقولها إنه أعلى من القانون ، أصبحا من العقائد الجوهرية فى الديانة المسيحية . وقد انتقل الكثير

من آرائه على أيدى تلاميذه فأصبح مادة جميع الفلسفة الكبرى فى القرنين التاليين . وكان أقوى أسباب نفوذه هو المثل الذى ضربه للناس بحياته وأخلاقه ، فقد أضحى فى التاريخ اليونانى شهيداً وقديساً ؛ حتى لقد كان كل جيل يبحث عن مثل أعلى للحياة البسيطة والتفكير الجرىء يعود إلى الماضى ليستمد من ذكرى سقراط غــذاء لمثله العليا ، وفى ذلك يقول أكسانوفون : « كلما فكرت فى حكمة الرجل ونبل أخلاقه رأيت أن ليس فى مقدورى أن أنساه أبداً . أو أن أحاجز نفسى عن الثناء عليه حين أذكره ؛ وإذا كان من بين أولئك الذين جعلوا الفضيلة غايتهم إنسان قد اتصل بشخص أكثر معونة له فى هذا الغرض النبيل من سقراط ، فإنى أرى أن هذا الرجل خليق بأن يعد أسعد الناس على الإطلاق »[١٨٣] .

الباب السابع عشر

أدب العصر الذهبي

الفصل الأول

بندار

إن فلسفة عصر من العصور تصبح فى الأحوال العادية أدب العصر الذى يليه ؛ ذلك أن الآراء والمسائل التى يتجادل فيها الناس فى ميدان البحث والتفكير تكون فى الجيل التالى أساس مسرحياته وقصصه وشعره . لكن الأدب فى بلاد اليونان لم يتأخر عن ركب الفلسفة ، لأن الشعراء كانوا هم أنفسهم فلاسفة ، يفكرون لأنفسهم ، وكانوا فى مقدمة أرباب العقل والتفكير فى أزمانهم . ولذلك فإن النزاع الذى قام بين التحفظ والتطرف والذى اضطرب به دين اليونان وعلومهم وفلسفتهم قد تردد صداه أيضاً فى الشعر والتمثيل بل وفى كتابة التاريخ نفسه . وإذ كانت براعة الصورة الفنية قد اجتمعت فى الأدب اليونانى إلى عمق التفكير ، فقد وصل أدب العصر الذهبى إلى درجة من الرقى لم يصل إليها الأدب فى العالم كله مرة أخرى إلا فى عصر شيكسبير ومنتانى .

وبسبب هذا العبء الثقيل من الأفكار وانعدام وجود طبقة من الملوك أو الأشراف يناصرون الأدب ويشجعون الأدباء ، كان القرن الخامس أقل غناء من السادس فى الشعر الغنائى بوصفه فناً مستقلا . وكان بندار أداة الانتقال بين العصرين ، فقد ورث الصيغة الغنائية من العصر الذى قبله ولكنه ملأها

بالفخامة المسرحية ، ولم يلبث الشعر من بعـــده أن تخطى حدوده التقليدية وجمع فى المسرحيات الديونيشية بين الدين ، والموسيقى ، والرقص لكى يصبح أداة أعظم من الأدوات السابقة للتعبير عن فخامة العصر الذهبى وعواطفه الجياشة .

وكان بندار ينتمى إلى أسرة طيبية تعود بأصلها إلى أبعد العصور البدائية ، وتدعى أنها تضم الكثيرين من الأبطال القدامى الذين خلد ذكرهم فى شعره . وقد أورثه عمه ، وهو موسيقى يجيد النفخ فى الناى ، كثيراً من حب الموسيقى ، وشيئاً من براعته فيها ، وأرسله أبوه إلى أثينة ليستزيد من هذا الفن ، وفيها علمه لاسوس Lasus ، وأجثكليز Agathocles تآليفه الغنائية الجماعية . ثم عاد إلى طيبة قبل أن يتم العقد الثانى من عمره أى قبل عام ٥٠٢ ق ، م ، وأخذ يلرس مع الشاعرة كورنا Corinna . وقد تبارى معها خمس مرات فى الغناء أمام الجماهير وتغلبت عليه فى المرات الخمس : ولكن كورنا كانت جميلة تسر الناظرين ، والمحكمين كانوا رجالا[1] . وكان بندار يسميها خنزيرة ، ويسمى سمنيدس غراباً ، ويسمى نفسه نسراً . لكن شهرته رغم عيبه هذا قد ازدادت إلى حد جعل أبناء بلدته يخترعون قصة يقولون فيها إنه بينا كان الشاعر نائماً فى الحقل يوماً إذ حطت بضع نحلات على شفتيه وخلفت عليهما شهدها[2] . ولم يلبث أن كلف بإنشاء قصائد ، يكافأ عليها بسخاء ، فى مدح الأمراء والأثرياء ، واستضافته الأسر النبيلة فى رودس ، وتندوس ، وكورنثة ، وأثينة ، وأقام وقتاً ما فى بلاط الإسكندر الأول المقدونى ، وتيرون الأكرغاسى ، وهيرون الأول ملك سرقوصة ، وكان فيها كلها شاعر هؤلاء الملوك . وكان عادة يؤجر على أغانيه مقدماً ؛ كما لو أن مدينة فى أيامنا هذه قد كلفت مؤلفاً موسيقياً أن يكرمها بتأليف قطعة غنائية تنشدها إحدى الفرق ويرقص على أنغامها الراقصون ، ويتولى هو تنظيم الغناء والرقص . ولما أن عاد بندرا إلى طيبة حوالى السنة الرابعة والأربعين من عمره ، حيته المدينة وعدته أعظم هدية أهدتها بؤوتية إلى بلاد اليونان .

وأخذ يعمل بجد فى تلحين كل قصيدة من قصائده ، وكثيراً ما كان يدرب المغنين على غنائها . وكتب ترانيم وأناشيد نصر للآلهة ، وأغانى خمرية تغنى فى أعياد ديونيشس ، وأناشيد للعذراى تغنيها الفتيات ، ومديحا للمشهورين من العظماء ، وأغانى للموائد ، ومراثى للجنائز ، وأغانى للنصر ينشدها الفائزون فى المباريات الأثينية الجامعة . ولم يبق من هذه كلها إلا خمس وأربعون أغنية سميت باسم الألعاب التى تتغنى بمديح أبطالها . وليس لدينا من هذه الأغانى الخمس والأربعين إلا ألفاظها ، أما موسيقاها فلم يبق منها أثر . ونحن إذا شئنا أن نحكم عليها كنا فى وضع شبيه بوضع مؤرخ فى مستقبل الزمان لديه نصوص مسرحيات فجنر التلحينية وليس لديه شىء من موسيقاها فحكم بأن فجنر هذا شاعر وليس مؤلفا موسيقيا ، ثم قدره مستنداً إلى الألفاظ التى كانت فى وقت ما تصاحب ألحانه . أو كان عالماً صينياً لا يعرف شيئاً عن القصص المسيحى يقرأ ذات مساء فى ترجمة عرجاء عشر تراتيل من وضع باخ Bach نزعت عنها موسيقاها ومراسمها الدينية . على هذا النحو يكون حكما على پندار من آثاره ، فنحن إذا قرأنا أغانيه اليوم ، أغنية بعد أغنية فى سكون حجرة المكتب حكمنا أنه لا يماثلها شعر آخر فى عصر اليونان الذهبى فى بعث السآمة والكآبة .

وليس فى وسعنا أن نشرح تكوين هذه القصائد إلا بتشبيه كل منها بقطعة موسيقية ، فلقد كان پندار يرى ما يراه سمنيدس وبكليدس Bacchylites وهو أن القالب الذى تصب فيه أغنية النصر قالب محتوم لا مفر منه شأنه فى هذا شأن النغم الموسيقى الذى يوضع لمغن واحد ولآلة موسيقية واحدة فى الأغانى الأوربية الحديثة . وكان يبدأ أولا بإيراد موضوع الأغنية — وهو اسم اللاعب الذى نال الجائزة وقصته ، أو اسم الشريف الذى فازت جياده فى مباراة جر العربات . ويشيد پندار فى العادة « بحكمة الإنسان ، وجماله ، واتساع شهرته[٤] » . فهو فى واقع الأمر لم يكن يهتم كثيراً بالموضوع الأصيل

الذى يعرض له ؛ بل كان يتغنى بمدح العدائين والمحاظي والملوك ؛ ولم يكن يتردد فى الرضاء بأن يتخذ أى طاغية يهبه المال مسرعاً نصيراً له وقديساً[٥] إذا ما أعانه على ذلك خياله الخصيب وشعره المعقد الذى كان موضعاً لزهوه. ولم يكن يستنكف أن يتخذ أى شيء موضوعاً لقصائده سواء كان سباق البغال أو مجد الحضارة اليونانية على اختلاف أنواعها وفى كل مكان انتشرت فيه. وكان وفياً لطيبة ، ولم يكن أكثر إلماماً وتوفيقاً من وحى دلفى حين دافع عن حيادها فى الحرب الفارسية ؛ ثم استحى فيما بعد من غلطته هذه ؛ وخرج عن مألوف عادته ، وأثنى على زعيمة الدفاع اليونانى ووصفها بأنها «أثينة الذائعة الصيت ، الغنية ، المتوجة بالنفسج ، الجديرة بأن يتغنى بمدحها الشعراء ، حصن هلاس الحصين ، والمدينة التى تحميها الآلهة[٦]». ويقال إن الأثينيين وهبوه خمسة آلاف درخمة (١٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) مكافأة له على القصيدة التى وردت فيها هذه الأبيات[٧] ؛ وتقول رواية أخرى أقل جدارة بالثقة من هذه إن طيبة فرضت عليه غرامة جزاء له على ما فيها من تعنيف خفى ، وإن أثينة أدت عنه هذه الغرامة[٨].

والجزء الثانى من أغانى پندار يتكون من مختارات من الأساطير اليونانية وفى هذا أسرف پندار إسرافاً لا يشجع الإنسان على متابعة قراءته. وقد شكا من ذلك كورنا Corinna فقال إنه : «كان يَبْذُر بالزكيبة لا باليد[٩]». وقد كانت للآلهة عنده مكانة عالية ، فكان يعظمها ويستمد منها معظم موضوعاته. وكان الشاعر المحبب لكهنة دلفى ، وقد حصل منهم فى حياته على مزايا كثيرة ولما مات كرمت روحه بأن دعيت إلى أن تنال نصيبها من باكورة الفاكهة التى تقدم فى ضريح أپلو[١٠]. وكان آخر من دافع عن الدين القويم ، وإن إسكلس على تقواه ، ليبدو إذا قورن به رجلا زنديقاً. ولو أن پندار اطلع على قصيدة پروميثيوس المحرر ورأى ما فيها من تجديف فى حق الآلهة لروعه هذا أشد الترويع. وهو يسمو أحياناً فى فكرته عن زيوس إلى ما يقرب من التوحيد كقوله فيه :

المسيطر على كل شيء والمطلع على كل شيء[١١] » . وهو يؤمن بالطقوس الغامضة الخفية ويرجو كما يرجو أورفيوس أن يكون مقره الجنة . وينادى بأن الروح البشرية من أصل إلهى وأن مآلها إلهى[١٢] . وقد وصف يوم الحساب ، والجنة ، والنار وصفاً يعد من أقدم أوصافها فقال : « وبعد الموت مباشرة تعاقب الروح الخارجة على القانون ، وينظر فى الخطايا التى ارتكبت فى مملكة زيوس واحدٌ يصدر فيها أحكامه الصارمة التى لاتنقض » .

وفى ضياء الشمس الجميل يقيم المتقون لا فرق بين أيامهم ولياليهم فى بهجتها وبهائها ، ولا يفعلون ماكانوا يفعلونه فى الأيام الخالية ، يكدحون كدحاً كنوداً فى حرث الأرض وإثارتها ليحصلوا على حاجاتهم الباطلة ؛ أو يخضون بسفنهم عباب البحار بل يقيمون فى نعيم دائم مع الآلهة العظام ويقضون معهم حياة خالية من الأحزان ، يستمتعون فيها بسرور جزاء لهم على ما حفظوا من عهودهم وهم على ظهر الأرض . وعلى بعد منهم نرى فريقاً آخر يقاسون ألوان العذاب ويقبعون فى دياجير مظلمة لا ينفذ فيها البصر[١٣] » .

وكان القسم الثالث والأخير فى أغانى پندار يتألف عادة من نصيحة خلقية . وليس من حقنا أن ننتظر منه فى هذا القسم فلسفة عميقة ؛ وذلك أن پندار لم يكن من أبناء أثينة . وأكبر الظن أنه لم يلق فى حياته سوفسطائياً ، ولم يقرأ لأحد من السوفسطائيين شيئاً ، بل كان يوجه قواه العقلية بأجمعها إلى فنه ، فلم تبق لديه قدرة على التفكير المبتكر الأصيل ؛ وكان يكتفى بأن يستحث الرياضيين الفائزين ، أو الأمراء الحاكمين ، على أن يكونوا متواضعين يجلون الآلهة ، ويوقرون بنى جنسهم ، ويحترمون أنفسهم . وكان ما بين الحين والحين يمزج اللوم بالمديح ، وبلغ من الجرأة أن حذر هيرن Hieron ذات مرة عاقبة الشره[١٤] . ولكنه لم يحاجز نفسه عن أن يقول كلمة طيبة فى حق المال أخبث الطيبات كلها وأحبها إلى قلوب الناس وكان يمقت الثوريين الصقليين ، وقد حذرهم من عاقبة أمرهم بألفاظ

لا تكاد تختلف عن ألفاظ كنفوشيوس : « إن من أسهل الأشياء حتى على الضعفاء أن يقوضوا مدينة من أساسها ؛ أما إعادتها إلى مكانها بعد تدميرها فتتطلب جهوداً مضنية وكفاحاً مريراً [١٥] » . وكان يحب في أثينة دمقراطيتها المعتدلة بعد سلاميس ، ولكنه كان يعتقد مخلصاً أن الأرستقراطية أقل أنواع الحكم ضرراً . ذلك بأنه كان يرى أن الكفاية متأصلة في الدم ، لا تكتسب بالتعليم ، وتنزع إلى الظهور في الأسر التي ظهرت فيها من قبل . والدم الطيب وحده هو الذي يهيئ الخلق إلى القيام بالأعمال النادرة التي يجعل الحياة الكريمة جديرة بأن يحياها الإنسان . « ما أقصر الحياة ! أي شيء نكونه وأي شيء لا نكونه ؟ الإنسان حلم يحوم حول خيال ؛ أما إذا نزل عليه بهاء من قبل أحد الأرباب فإن هالة من المجد تحيط به وتصبح حياته حلوة ممتعة [١٦] » .

ولم يكن پندار محبباً إلى الجماهير في أثناء حياته ، وسيظل بضعة قرون يستمتع بما يستمتع به من خلود لا حياة فيه أولئك الكتاب الذين يشيد الناس كلهم بذكرهم ، ولا يقرأ أحد كتابتهم . لقد كان يطلب إلى العالم أن يقف عن الحركة في الوقت الذي كان يتحرك فيه إلى الأمام ، ومن أجل هذا خلفه العالم وراءه ، حتى ليبدو أكبر سناً من ألكمان وإن كان أصغر من إسكلس . وقد كتب شعراً متقناً محبوكاً ، معقداً ملتوياً ، لا يقل في هذه الصفات كلها عن نثر تاستوس Tacitus ، وكتبه بلهجة له خاصة مصطنعة تعمد أن يجعلها كلغة الأقدمين ، وبأوزان متقنة دقيقة إلى درجة لم يعن معها أحد الشعراء بأن يحذو حذوه (*) ، ومتنوعة تنوعاً لا تجد معه إلا أغنيتين اثنتين من بين أغانيه الأربع والخمسين ذواتي وزن واحد . وشعره غامض المعنى رغم سذاجة تفكيره ، وقد بلغ هذا الغموض حداً يضطر معه النحاة إلى قضاء حياتهم كلها يحاولون حل تراكيبه

(*) ويستثنى من هذا التعميم شاعر عظيم هو دريدن Dryden في قصيدته وليمة الإسكندر Alexander's Fe .

الشبيهة بتراكيب اللغات التيوتونية ، ثم لا يجدون بعد هذا العناء إلا عبارات طنانة جوفاء . وإذا كان بعض الطلعة من العلماء لا يزالون يقبلون على قراءة شعره رغم هذه العيوب ، ورغم جموده وتمسكه الشديد بالشكليات واصطناعه التشبيهات المنتفخة ، وإثقال هذا الشعر بالأساطير المملة ، إذا كان بعضهم لا يزالون يقبلون على قراءته رغم هذا كله فما ذلك إلا لما فيه من قصص واضح تتتابع حوادثه سراعا ، ولإخلاصه فى مبادئه الأخلاقية ، ولروعة لغته التى ترفع أنفه الموضوعات إلى سماء العظمة ، وإن كانت لا تحتفظ بمكانها فيها إلا زمنا قصيراً .

وعاش بندار حتى بلغ الثمانين من العمر ، متحصنا فى طيبة من اضطراب التفكير الأثينى ، وقد تغنى بذلك فى شعره فقال : « ما أحب موطن الإنسان إلى قلبه ، وما أعز فاقه ، وأقاربه ، يعيش بينهم قانعا راضيا ؛ أما الحمقى فيحبون الأشياء الفائتة[17] » . ويقال إنه قبل أن ينصرم أجله بعشرة أيام (٤٤٢) أرسل إلى مهبط وحى أمون يسأله : « ما أحسن الأشياء للإنسان ؟ » فكان جواب الوحى فى مصر كجواب الوحى فى بلاد اليونان « الموت[18] » . وأقامت أثينة تمثالا له أنفقت عليه من الأموال العامة ، ونقش أهل رودس أغنيته الأولمبية السابعة — التى يمدح فيها جزيرتهم — بحروف من ذهب على جدار هيكل من هياكل الجزيرة . ولما أن أمر الإسكندر الأكبر بإحراق طيبة الثائرة ودك أبنيتها فى عام ٣٣٥ ، حذر جنوده أن يمسوا بسوء البيت الذى عاش فيه بندار ولّى فيه ربه .

الفصل الثانى

ملهى ديونيشس

ورد فى معجم سويداس The Lexicon of Suidas أنه حدث فى أثناء تمثيل مسرحية من تأليف براتينــاس Pratinas حوالى ٥٠٠ ق . م أن سقطت المقاعد الخشبية التى كان النظارة يجلسون عليها ، وأن أصيب بعضهم بجروح ، وأن استولى الذعر عليهم ، وأن الأثينيين شادوا بعد هذا الحادث ملهى من الحجر على المنحدر الجنوبى للأكربوليس وهبوه للإله ديونيشس(*) . ثم شيدت ملاه أخرى عكى غراره فى المائتى عام التالية فى إرتريا Eretria ، وإبدورس ، وأرغوس ، ومنتينيا Mantinea ، ودلفى ، وتورومينيوم Tauromenium (تورومينا Tauromina) ؛ وسرقوصة ، وغيرها من المدائن فى مختلف أنحاء العالم اليونانى . ولكن مسرح ديونيشس هو الذى مثلت عليه المآسى والمسالى الكبرى فى أول الأمر ، وهو الذى ناضل أشد النضال فى المعركة التى احتدمت بين الدين القديم والفلسفة الحديثة ، والتى ربطت أجزاء التاريخ الفكرى لعصر بركليز ، وجعلته عملية كبيرة واسعة النطاق من عمليات التفكير والتغيير .

ولا حاجة بنا إلى القول بأن الملهى العظيم كان مكشوفاً للسماء . وأن مقاعده الخمسة عشر ألف كانت ترتفع على شكل نصف دائرة كالمروحة ، مشيدة من

(*) ليس هذا هو ملهى ديونيشس الذى يزوره السياح اليوم ، بل إن هذا الملهى الباق إلى اليوم قد شيده وزير المالية عام ٣٣٨ بأمر من ليقورغ ، ويظن أن أجزاء منه يرجع تاريخها إلى ٤٢١ ، ويبدو أن أجزاء أخرى قد أضيفت إليها فى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد .

القرميــد مطلة على البارثنون ، ومتجهة نحو جبل هيمتس Hymettus والبحر . ومن أجل هذا فإن أشخاص المسرحية حين ينادون الشمس والنجوم والبحار ، كانوا ينادون حقائق واقعية يستطيع معظم النظارة ، وهم يستمعون إلى الحديث أو الغناء ، أن يروها ويشعروا بوجودها . وقد صنعت المقاعد من الخشب أولا ، ثم من الحجارة بعدئذ ، ولم تكن لها مساند خلفية ؛ وكان كثيرون من النظارة يأتون معهم بوسائد يجلسون عليها ، ولكنهم كانوا يحضرون خمس مسرحيات فى اليوم الواحد دون أن يسندوا ظهورهم إلى شىء معروف لنا غير ركب من خلفهم من النظارة ، وهى بلا ريب مساند غير مريحة . وكان فى الصفوف الأمامية عدد قليل من المقاعد الرخامية ذات الظهور يجلس عليها كبار كهنة ديونيشس المحليين وموظفو المدينة(*) . وكان عند قاعدة منصة الخطابة مكان للرقص وللمغنين ، وكان من خلفها بناء خشبى صغير يسمى الاسكينى skene أو المنظر ، يتخذ تارة لتمثيل قصر ، وتارة لتمثيل معبد ، أو بيت خاص ؛ وأكبر الظن أنه كان يستخدم فوق هــذا لجلوس الممثلين حين لا يكونون على المسرح يمثلون أدوارهم(**) . وهناك معدات بسيطة « كمذابح » القرابين ، والأثاث وما إليها مما قد تحتاجه المسرحية ؛ وأخرى كالمناظر والملابس يؤتى بها عنــد تمثيل مسرحية لأرسطوفان[٢٠] وقد صور أجاثاركس الساموسى عدة مناظر تصويراً توهم الرائى بوجود مسافات بينها . وكانت هناك عدة وسائل آلية تساعد على تغيير مجرى الحوادث أو مكانها(†) . من ذلك أنه إذا أريد إظهار انتباه

(*) هذا الوصف وما يليه من وصف المسرح يفترض فيهما أن الملهى الذى شاده ليقورغ قد شيد على غرار الملهى القديم الذى حل محله .

(**) لسنا نعلم علم اليقين أكانت الحوادث تقع على سقف المسرح أم على مقدمته ، وربما كانت الحوادث تتحرك عليه من مستوى إلى مستوى آخر كلما تغيرت الأمكنة فى القصة .

(†) كانت ستارة تسقط من أعلى تستخدم فى العهد الرومانى فتتدلى فى فجوة فى بداية المنظر وترفع فى نهايته . ولكن المرحيات الباقية لدينا من القرن الخامس ليس فيها شواهد على هذا ، ويلوح أنها كانت تعتمد على أناشيد ترتل بين الفصول لتؤدى الغرض الذى يؤديه إنزال الستار .

حادثة من الحوادث داخل المنظر دار سطح خشبي (ekkyklema) على عجل إلى خارج المسرح وصنعت عليه صور بشرية بطريقة تعبر أمام النظارة ما حدث ، وقد توضع عليه جثة ومن حولها القتلة بأيديهم أسلحتهم ملوثة بالدماء ، ولم يكن من تقاليد التمثيل اليوناني أن تمثيل الحوادث العنيفة على المسرح مباشرة . وكان على جانبي صدر المسرح لوحة كبيرة منشورية الشكل مثلثة تتحرك على محور لها ، وقد رسم على كل وجه من أوجه المنشور منظر يخالف ما على الوجه الآخر ، فإذا أديرت هذه الأوجه تغير المنظر فى لمح البشر : وكان أعجب من هذا جهاز آخر يتكون من آلة رافعة ذات بكرة وأثقال توضع على يسار المسرح وتستخدم فى إنزال الآلهة أو الأبطال من « السماء » إلى المسرح أو إعادتهم إلى « السماء » أو إظهارهم معلقين فى الهواء بين السماء والأرض . وكان يوربديز بنوع خاص مولعاً باستخدام هذه الآلة لإنزال إله يحل بتقواه ما فى مسرحياته اللاأدريه من تعقيد .

ولم تكن المأساة فى أثينة من الشئون الدنيوية أو الأعمال التى تتكرر طول العام ، بل كانت جزءاً من الأحتفال السنوى بعيد ديونيس(*) . وكانت تعرض على الأركون بهـــذه المناسبة عدة مسرحيات يختار منها عدداً قليلا يمثل فى هذا العيد . وكانت كل قبيلة من القبائل العشر فى أتكا تختار واحداً من مواطنيها الأثرياء يشرف على جوقة المرتلين . وكان من امتيازاته أن يؤدى نفقات تدريب المغنين ، والراقصين ، والممثلين ، وما إلى ذلك من النفقات التى يتطلبها تمثيل إحدى المسرحيات . وكان المشرف ينفق فى بعض الأحيان مبالغ طائلة على إعداد المناظر والملابس وتدريب الممثلين . وبهـــذه الطريقة كانت كل مسرحية ينفق عليها نيسياس تنال جائزة[21] . وكان بعض المشرفين الآخرين يقتصدون فى

(*) وكانت المسرحيات تمثل أيضاً فى الديونيشيا الصغرى أو اليليا Lenaea التى تقام عادة فى بيرية ، وتمثل كذلك من حين إلى حين فى الملاهى المحلية بمدن أتكا .

هذه النفقات باستئجار ملابس مستعملة من باعة ملابس التمثيل[٢٢] . وكان واضع المسرحية هو الذى يقوم عادة بتدريب جوقة المرتلين .

وكانت هذه الجوقة أهم عناصر التمثيل وأكثرها نفقة من عدة وجوه . وكثيراً ما كانت المسرحية تسمى باسمها ؛ وعن طريقها كان الشاعر فى أكثر الأحيان يعبر عن آرائه فى الدين والفلسفة . وتاريخ التمثيل اليونانى كفاح خاسر تقوم به جوقة المرتلين للسيطرة على المسرحية . ولقد كانت هى فى بادئ الأمر كل شىء فيها ؛ ثم نقص شأنها فى تسپيس وإسكلس ، كلما زاد عدد الممثلين ؛ ثم اختفت نهائياً فى مسرحيات القرن الثالث. ولم تكن الجوقة تتألف عادة من مغنين محترفين ، بل كانت تتألف من هواة يختارون من الكشوف المحتوية على أسماء أبناء القبيلة المدنيين . وكانوا جميعاً من الرجال ، وكان عددهم بعد إسكلس خمسة عشر رجلا ، وكانوا يقومون بالرقص والغناء معاً ويسيرون فى موكب مهيب فوق المسرح الطويل العتيق ؛ يشرحون بحركاتهم الموزونة ألفاظ المسرحية ومواقفها .

وكان للموسيقى فى المسرحيات اليونانية شأن لا يعلو عليه إلا شأن الشعر والتمثيل نفسه ، وكان المؤلف هو الذى يضع عادة الموسيقى المسرحية كما يضع ألفاظها[٢٣] . وكان معظم الحوار يلقى بشكل أحاديث أو خطب حماسية ، وكان بعضه ينشد ؛ ولكن الأدوار الهامة كانت تحتوى على قطع غنائية يغنيها شخص واحد أو شخصان أو ثلاثة أشخاص معاً ، أو تنشد مع النشيد الجماعى أو تتعاقب معه[٢٤] . وكان الغناء بسيطاً غير مقسم إلى أدوار أو ألحان متوافقة . وكان يصحبه فى العادة نفخ فى الناى يوافق أنغام المغنين نغمة بعد نغمة . وبهذه الطريقة كان فى وسع النظارة أن يتابعوا ألفاظ القصيدة دون أن تضيع فى نغمات الغناء ؛ وليس فى وسعنا أن نحكم على هذه المسرحيات بقراءتها قراءة صامتة ، ذلك أن الألفاظ

عند اليونان لم تكن إلا صورة فنية معقدة ينسج منها الشعر ، والموسيقى ، والتمثيل ، والرقص وتتألف منها كلها وحدة عميقة متحركة(*) .

ولكن المسرحية رغم هذا هي أهم شيء ، والجائزة تمنح لها أكثر مما تمنح للموسيقى ، وتمنح للتمثيل أكثر مما تمنح للمسرحية ؛ وكان في وسع الممثل الماهر أن يرفع من شأن مسرحية متوسطة فتفوز هي بالجائزة(٣٦) . ولم يكن الممثل — وهو دائماً من الذكور — شخصاً محتقراً كما كانت الحال في روما ؛ بل كان يكرم أعظم التكريم ، فيعفى من الخدمة العسكرية ، ويمر آمناً بين صفوف الجند في زمن الحرب . وكان يلقب هيكريتس hypokrites ، وكان معنى هذا اللفظ عندهم هو المجيب ، أي المجيب على النشيد الجماعي . ولم يؤد الدور الذي يقوم به الممثل من انتحال شخصية إنسان آخر إلى تغيير معنى هذه الكلمة فيصبح معناها « المنافق » إلا بعد ذلك بعد . وكان الممثلون يؤلفون لهم طائفة أو نقابة قوية تسمى نقابة « الفنانين الديونيشيين » ، انتشر أعضاؤها في جميع بلاد اليونان ؛ وكانت جماعات من ممثلين تنتقل من مدينة إلى أخرى ، يؤلفون مسرحياتهم ويلحنون موسيقاها ، ويصنعون ملابسهم ، ويقيمون مسارحهم . وكان دخل كبار الممثلين عظيماً كما هو شأنهم في جميع الأوقات ، أما المتوسطون منهم فكان دخلهم قليلا مزعزعاً(٣٧) ؛ وكانت أخلاقهم هي الأخلاق التي يتوقع الإنسان وجودها في أقوام يتنقلون من مكان إلى مكان ، وتختلف معيشتهم بين الترف والفقر ، يمنعهم توتر أعصابهم من أن يحيوا حياة سوية مستقرة .

(*) ولقد ظلت الموسيقى ذات شأن هام في ثقافة عصر اليونان الزاهر (٤٨٠ — ٣٢٣) واشتهر من مؤلفيها في القرن الخامس تيموثيوس الملطي **Timotheus of Miletus** وكتب مقطوعات كانت الموسيقى فيها تطغى على الشعر ، وكانت عبارة عن قصة ذات حوادث صالحة التمثيل . وقد زاد أوتار القيثارة اليونانية فجعلها أحد عشر وتراً ، وقام بتجارب في الأساليب المعقدة المحكمة ، فأثار بهذا جماعة المحافظين في أثينة وظلوا يندرون به حتى هم بالانتحار ، ولكن يوربديز هدأ ثورته واشترك معه في عمله ، وتنبأ بأن بلاد اليونان ستخر ساجدة له ، وقد صدقت نبوءته.

وكان الممثل فى المآسى والمسالى على السواء يلبس على وجهه قناعا ، ركب فيه عند فمه مبسم من الشبهان . وكانت طريقة تنظيم الصوت فى الملهى اليونانى ، ووضع المسرح بحيث يراه الجالس فى أى مقعد من المقاعد ، طريقة فذة مدهشة . على أن اليونان مع هذا رأوا أنه يحسن بهم أن يقووا صوت الممثل ، وأن يساعدوا عين الناظر البعيد على تميز مختلف أشخاص الرواية ، وكانوا يضحون فى سبيل هذا بكل مميزات الصوت وتعبيراتهما : فإذا كانوا يمثلون على المسرح أشخاصاً حقيقيين مثل يوريبديز فى مسرحية إكلزيازوسى ، وسقراط فى مسرحية السحب ، فإن الأقنعة كانت تحاكى ملامحهم الحقيقية ، وتحاكيها فى الغالب محاكاة هزلية .

وقد جاءت الأقنعة إلى المسرحيات من طريق التمثيل الدينى ، وكانت فيها من وسائل الإرهاب أو الفكاهة . وقد ظلت تسير على هذه السنة فى المسالى ، وكان فيها من القبح ، وغرابة الشكل ، والإسراف فى هذا كل ما يستطيع خيال اليونان أن يبتدعه . وكانت الوسائد والمساند تزيد من أجسام الممثلين ، والقلانس العالية والأحذية ذات النعال السميكة تزيد من أطوالهم ، كما كانت الأقنعة تقوى أصواتهم وتزيد فى حجم وجوههم . وقصارى القول أن الممثل القديم كان ، كما يقول لوشيان ، شخصاً ذا «منظر بشع مفزع[٢٨]» .

وليس النظارة أقل جدارة باهتمامنا من المسرحية نفسها . لقد كان الدخول لمشاهدة التمثيل مباحا لجميع الرجال والنساء من كافة الطبقات[٢٩] . وكان جميع المواطنين بعد عام ٤٢٠ ق . م . يعطون من الدولة الأبلتين اللتين يؤديها أجراً للدخول إذا كانوا فى حاجة إليهما . وكان النساء يجلسن بمعزل عن الرجال كما كان للسرارى مكان خاص بهن ، وقد جرت العادة أن تمنع النساء الساقطات من حضور المسرحيات إلا إذا كانت المسرحية مسلاة[٣٠] .

وكان النظارة جماعة مرحين ليسوا أحسن ولا أسوأ أخلاقا من أمثالهم فى غير بلاد اليونان . وكانوا وهم يشاهدون التمثيل ويستمعون إليه يأكلون البندق والفاكهة ويشربون الخمر . وكان أرسطاطاليس يقترح أن تقدر قيمة إخفاق المسرحية بمقدار ما يؤكل من الطعام فى أثناء تمثيلها . وكانوا يتنازعون المقاعد ، ويصفقون ويصرخون لمن يحبون من الممثلين ، ويصفرون ويزمجرون حين يغضبون ؛ فإذا رأوا ما يدعو إلى احتجاج أقوى من هذا ، دفعوا المقاعد بأقدامهم إلى الأرض ، وإذا ثاروا أخرجوا الممثل عن المسرح بالزيتون أو التين أو الحجارة[٣١] . وكاد إسكنيز أن يلقى حتفه رجما بالحجارة عقابا له على وضع مسرحية بغيضة ، وكاد إسكلس أن يقتل لأن النظارة اعتقدوا أنه أفشى بعض أسرار الطقوس الإليوزينية الغامضة . وقد حدث أن استعار موسيقى كمية من الحجارة ليبنى بها بيتا ، ووعد من استعارها منه أن يردها إليه مما سيجمعه من عمله فى المسرحية التالية[٣٢] . وكان الممثلون فى بعض الأحيان يستأجرون جماعة من المصفقين ، لكى يطغى تصفيقهم على ما يخشونه من صفير النظارة ، وكان بعض الممثلين الهزليين يلقون بالبندق إلى النظارة يرشونهم به لكى يظلوا هادئين[٣٣] . وكان النظارة يستطيعون إذا شاءوا أن يحولوا دون إتمام التمثيل بما يحدثونه من ضجة متعمدة ، ويحتمون تمثيل المسرحية الثانية[٣٤] ، وبهذه الطريقة كان يمكن اختصار البرنامج التمثيلى إلى الحد الذى يطيقونه .

وكان التمثيل فى مدينة ديونيشيا يدوم ثلاثة أيام ، تمثل فى كل منها خمس مسرحيات — ثلاث مآس ومسرحية خرافية يكتبها شاعر ، وملهاة يكتبها شاعر آخر[٣٣] . وكان التمثيل يبدأ فى الصباح الباكر ويستمر إلى ما بعد الغروب ؛ ولم تكن مسرحية ما تمثل مرتين فى ملهى ديونيشس إلا فى أحوال نادرة ،

فإذا لم يشاهدها بعضهم فى ملهى هذه المدينة استطاع أن يشاهدها فى ملاهى غيرها من المدن اليونانية ، أو أن يشاهدها ممثلة تمثيلا أقل روعة على مسرح قروى فى أتكا . وبلغ عدد المسرحيات الجديدة التى مثلت فى أثينة بين عامى ٤٨٠ ، ٣٨٠ نحو ألفى مسرحية[٣٦] . وكانت الجائزة التى تمنح لأحسن المآسى الثلاث عنزة ، والتى تمنح لأحسن مسلاة سلة ملأى بالتين وزقا من الخمر ؛ أما فى العصر الذهبى فكانت الجوائز الثلاث التى تمنح للمأساة ، والجائزة الوحيدة التى تمنح للمسلاة ، بدرة من المال تقدمها الدولة . وكان المحكمون العشرة يختارون بالقرعة فى الملهى نفسه فى صباح اليوم الأول من أيام المباراة ، وكانوا يختارون من بين ثبت طويل يحتوى أسماء من يرشحهم المجلس لهذا الغرض ، فإذا انتهت المسرحية الثالثة كتب كل قاض على لوحة ما يختاره من المسرحيات لنيل الجوائز الأولى والثانية والثالثة ، ثم وضعت اللوحات جميعاً فى قارورة ليختار الأركون خمساً منها حيثما اتفق . وهذه الأحكام الخمسة مجتمعة تنال الجائزة النهائية ، أما الخمسة الثانية فتتلف دون أن تقرأ . ولهذا فإن أحداً من الناس لم يكن يعرف مقدماً من هم القضاة ، أو أيهم سيكون الحكم فعلا . على أنه كان يحدث فى بعض الأحيان ورغم هذه الاحتياطات أن تقدم الرشا للمحكمين أو أن يرهبوا لكى يحكموا لشخص بعينه . ويشكو أفلاطون من أن القضاة لخوفهم من الجماهير كانوا فى كل مرة تقريباً يقضون حسب ما يوحى به تصفيق الجماهير ، ويقول إن هذا « الحكم المسرحى » يفسد المؤلفين والنظارة جميعاً[٣٨] : فإذا انتهت المباراة توج الشاعر الفائز ومنظم فرقة المنشدين بالحلباب[*] ، وكان الفائزون فى بعض الأحيان يقيمون نصباً كالنصب الذى أقيم لليسكراتس Lysicrates ، ليخلدوا به فوزهم ؛ وكان الملوك أنفسهم يتبارون لنيل هذا التاج .

(*) ١٢٧ نقلا عن معجم الدكتور شرف . (المترجم)

ويقرر حجم الملهى وتقاليد الاحتفال طبيعة المسرحيات اليونانية إلى حد بعيد ، وإذ كان من غير المستطاع إظهار الفروق الضعيفة بين الشخصيات بملامح الوجه أو تغيير نبرات الصوت ، فقد كانت الدقة فى تصوير شخصيات المسرحية قليلة الوجود فى الملهى الديونيشى . لقد كانت المسرحيات اليونانية دراسة للأقدار أى للإنسان فى كفاحه مع الآلهة ، أما المسرحيات التى كتبت،فى عصر الملكة إلزابث فكانت دراسة فى تتابع الحادثات أى دراسة للإنسان فى صراعه مع أخيه الأنسان ، وكانت الجيدة منها دراسة فى الأخلاق أى دراسة للإنسان فى صراعه مع نفسه . وكان النظارة اليونان يعرفون مقدماً مصير كل شخصية من الشخصيات الممثلة ، كما يعرفون نتيجة كل حادثة من حوادث التمثيل ؛ ذلك بأن العادات الدينية كان لا يزال لها فى القرن الخامس من القوة ما يكفى لتحديد موضوع المسرحيات الديونيشية بحيث لا يخرج عن قصة من الأساطير والخرافات الشائعة عند اليونان الأولين(*) . ولم يكن فى المسرحية شىء من ترقب النتائج غير المعروفة أو من المفاجآت ، بل كان فيها بدلا من هذا لذة الشعور السابق بالنتائج المرتقبة ومعرفة ما سيكون قبل وقوعها . وكان مؤلفو المسرحيات جيلا بعد جيل يقصون على النظارة أنفسهم القصة بعينها ؛ ولم يكن بينهم اختلاف إلا فى الشعر ، والموسيقى ، والتفسير ، والفلسفة . وحتى الفلسفة نفسها كانت

(*) ولقد كانت هناك مسرحيات قليلة مأخوذة من تاريخ اليونان بعد عهد الأساطير . ولم يبق من هذه المسرحيات الأخيرة حتى الآن إلا مسرحية « المرأة الفارسية » لإسكلس . وقد مثل فرنكس Phrynichus فى عام ٤٩٣ « سقوط مليطس » ، ولكن اليونان كانوا يحزنون أشد الحزن حين يذكرون استيلاء الفرس على مدينتهم الجديدة ، ولهذا فإنهم فرضوا على فرنكس غرامة قدرها ألف درخمة لهذه البدعة الجديدة التى أدخلها فى التأليف المسرحى وحرموا إعادة تمثيل مسرحيته(٣٩) . ولدينا من الشواهد ما يدل على أن ثمستكليز كان يدبر فى السر تمثيل هذه المسرحية ليتخذها وسيلة لإثارة حمية الأثينيين ودفعهم إلى محاربة الفرس(٤٠) .

تحددها التقاليد إلى حد كبير : فنرى الموضوع الرئيسى فى مسرحيات إسكلس وسفكليز هو العقاب الذى تفرضه الآلهة الحاسدة أو الأقدار اللاشخصية جزاء على التعاظم الوقح والتكبر عليها وعدم تعظيمها ؛ والمغزى الذى يتكرر على الدوام هو ما فى إطاعة صوت الضمير والشرف ، وما فى الاعتدال المتواضع ، من حكمة بالغة . وإن اجتماع الفلسفة بالشعر ، وبتتابع الحوادث ، والموسيقى ، والغناء ، والرقص هو الذى جعل المسرحيات اليونانية من طراز جديد فى تاريخ الأدب . وهو الذى جعلها ترقى منذ نشأتها تقريباً إلى درجة من العظمة والفخامة لم ترق إلى مثلها فيما بعد :

الفصل الثالث

إسكلس

ونقول تقريباً عامدين ، فكما أن وجود عدد كبير من ذوى المواهب المتوارثة والمتتابعة يمهد السبيل إلى ظهور العباقرة ، فإن كاتباً مسرحياً ، لا نرى خيراً من أن ننسى اسمه وأن نكرمه رغم هـذا النسيان ، قد عاش بلاريب بين ثسبيس وإسكلس . ولعل وقوف أثينة الموفق فى وجه الفرس هو الذى بعث فيها العزة والقوة الدافعة اللتين لا بد منهما لوجـود عصر المسرحيات الكبرى ، كما أن الثروة التى أتت بها التجارة والإمبراطورية فى أعقاب الحرب قد أعانت على قيام المباريات الديونيشية فى الأغانى والمسرحيات الغنائية . وكان إسكلس يحس فى قرارة نفسه بهاتين العزة والقوة الدافعة ، فكان ككثيرين غيره من كتاب اليونان فى القرن الخامس يكتب ويستمتع بالحياة ، ويعرف كيف يعمل وكيف يتكلم ، وأخرج فى عام ٤٩٩ وهو فى السادسة والعشرين من عمره مسرحيته الأولى ؛ وفى عام ٤٩٠ حارب هو وأخواه فى واقعة مرثون وأظهروا من الشجاعة ما جعل أثينة تأمر بعمل صورة تخلد بها بطولتهم ؛ وفى عام ٤٨٤ نال جائزته الأولى فى العيد الديونيشى ؛ وفى عام ٤٨٠ حارب فى أرتميزيوم وسلاميس ، وفى ٤٧٩ فى بلاتيه ؛ وفى ٤٧٦ ؛ ٤٧٠ زار سرقوصة واستقبل بمظاهر التكريم فى بلاط هيرون الأول ؛ وفى ٤٦٨ انتزع منه سفكليز الشاب الناشئ الجائزة الأولى للمسرحية بعد أن ظل هو مسيطراً على الأدب الأثينى جيلا كاملا ؛ وفى عام ٤٦٧ عاد إلى مكانته العليا على أثر ظهور مسرحيته « سبعة ضد طيبة » ، وفى عام ٤٥٨ نال آخر انتصاراته وأعظمها بإخراج أورستيا مسرحيته الثلاثية ؛ وفى عام ٤٥٦ عاد إلى صقلية ، حيث وافته منيته فى تلك السنة نفسها.

وكانت الحاجة ماسة إلى رجل بهذه الهمة ليصوغ المسرحية اليونانية فى صورتها النهائية ؛ فقد كان إسكلس هو الذى أضاف ممثلا ثانيا إلى الممثل الأول الذى أخرجه تسپيس من بين فرقة المغنين ، وأتم بذلك نقل الترتيلات الديونيشية من قصيدة دينية غنائية إلى مسرحية[*] ، وكتب سبعين (ويقول بعضهم تسعين) مسرحية ، لم يبق منها إلا سبع . وليست الثلاث الأولى من هذه المسرحيات ذات شأن كبير[**] ؛ وأشهرها كلها مسرحية بروميثيوس المقيد وأعظمها هى التى تتكون منها مسرحية أورستيا الثلاثية .

وقد تكون مسرحية بروميثيوس المقيد هى الأخرى جزءاً من مسرحية ثلاثية وإن لم نجد مؤرخاً قديماً يؤيد هذا الظن . فنحن نسمع عن مسرحية دينية تدعى بروميثيوس جالب النار ، ولكنها كانت تمثل مستقلة عن مسرحية بروميثيوس المقيد وفى مجموعة أخرى من المسرحيات[١] . ولدينا قطع صغيرة باقية من مسرحية بروميثيوس الطليق من تأليف إسكلس ، وتكاد هذه القطع أن تكون خالية من المعانى ، ولكن العلماء الحريصين يؤكدون لنا أننا لو حصلنا على نص المسرحية كاملا لوجدنا إسكلس يجيب إجابة مقنعة على جميع الضلالات التى تنطق بها المسرحية الحالية بطلها . وحتى لو أخذنا بهذا الرأى فإنا لا يسعنا إلا أن نعجب كيف يطيق النظارة الأثينيون الاستماع إلى تجديف هذا الجبار فى حق

(*) لم يكن عدد الممثلين فى مسرحيات إسكلس يزيد على اثنين ، ولكن الأدوار التى يمثلانها فى أية مسرحية لم يكن يحددها إلا أن شخصيتين من أشخاص المسرحية لا أكثر يمكن أن يظهرا على المسرح فى وقت واحد . وكان رئيس فرقة المرتلين يمثل أحيانا ممثلا ثالثاً ، ولم يكن صغار الشخصيات كالخدم والجند وأمثالهم يعدون من الممثلين .

(**) «مسرحية «المرأة المتوسلة» ضئيلة الشأن ، وللمرتلين فيها المكانة العليا . ومثل هذا يقال عن مسرحية «المرأة الفارسية» فهى غنائية قبل كل شىء ، وتصف وصفاً واضحاً معركة سلاميس . أما «مسرحية ضد طيبة» فكانت القسم الثالث من مسرحية ثلاثية تروى قصة الملك لايوس Laius وزوجته الملكة جوكستا Jocasta ، وكيف قتل ابنهما أوديب أباه وتزوج أمه ، ثم تصف النزاع الذى قام بين أبناء أوديب من أجل عرش طيبة .

الآلهة فى عيد دينى . ونجد بروميثيوس فى مستهل المسرحية مشدوداً إلى صخرة فى جبال القوقاز شده إليها هفستس Hephaestus بأمر زيوس حين غضب على بروميثيوس لأنه علم الآدميين فن النار ويقول هفستس :

يا ابن ثميس يا حصيف الرأى يا حكيم !
لقد كتب عليك أن تشد بالأغلال
إلى هذه الصخرة العالية التى لا يرقاها إنسان
ولا تسمع فيها صوت آدمى
أو ترى وجه أحد ممن كنت تحبهم ؛ وحيث تذبل زهرة جمالك
محترقة فى حر الشمس اللافح الصافى
وسيقبل الليل مزدانا بالنجوم
وتنسلى بظلاله ، فإذا طلعت الشمس
بددت بأشعتها صقيع الصباح ؛
ولكن شعورك ببلواك الحاضرة يقض مضجعك
مهما يكن ما تتعرض له من أخطار ، لأن أحد لا يمد يده
لحل وثاقك . إن هذا هو الذى تجنيه من حبك لبنى الإنسان ،
لأن زيوس شديد صارم ، ولأن الملوك المحدثين قساة غلاظ الأكباد(٤٩)

ويتحدى بروميثيوس ، وهو معلق فى الصخرة لا حول له ولا طول ، رب أولمبس ، ويعد فى زهو وكبرياء الخطوات التى نقل بها الحضارة إلى الخلائق الأولين الذين كانوا حتى ذلك الوقت :

يعيشون كالنمل الأخرق تحت الثرى فى الكهوف الخاوية التى لا تدخلها أشعة الشمس ، ولا تصل إليها دلائل على حلول الشتاء ، ولا يعطرها شذى أزهار الربيع ، ولا ثمارها فاكهة الصيف ، ولكنهم كانوا يعملون كل شىء وهم عمى البصائر لا يخضعون لقانون ، حتى علمتُهم كيف تشرق النجوم وتغرب

فى أماكن خافية على عقولهم ، واخترعت لهم العدد باعث الفلسفة ، وعلمتهم تركيب الحروف ، ووهبت لهم الذاكرة صانعة كل شىء ، وأم التفكير الحلو الجميل . وكنتُ أول من ذلل الحيوان لخدمة الإنسان ... وأنا دون سواى الذى ابتدعت السفن . . . وأنا الذى اخترعت كل هذه الفنون لبنى الإنسان لا أجد الآن وسيلة أنجى بها نفسى »(٤٣) .

وتحزن الأرض كلها لحزنه ، « فإذا تلاطمت أمواج البحر صرخت ، وخرج من أعماق البحار أنين حزين ، وانبعث من كهوف الموتى عويل » ؛ وترسل الأمم كلها تعازيها إلى هذا السجين السياسى ، وتأمره أن يذكر أن الألم يطوف بكل الخلائق ، « فالحزن يسير فى الأرض ، ويجلس عند قدمى المخلوقات واحداً بعد واحد » ، ولكنهم لا يفعلون شيئاً لإنقاذه . ويشير عليه « أقيانوس » بالخضوع لزيوس « لأن الذى يحكم ، يحكم بالقسوة لا بالحق » ؛ وتعجب الأقيونوسات بنات البحر ولا تدرى هل الإنسانية جديرة بأن يعذب أحد من أجلها فيصلب على هذا النحو ؛ « لقد كانت تضحيتك هذه أيها الحبيب تضحية لا جدوى منها . ألم تر الجنس البشرى ضعيفاً فى جهده ونشاطه ، يتألف من حالمين خياليين مكبلين بالأغلال ؟ »(٤٤) . ومع هذا فإن تلك البنات يعجبن به إعجاباً يحملهن على البقاء إلى جانبه حين يهدده زيوس بإلقائه إلى طرطروس Tartarus ليواجهن معه الصاعقة التى تقذف به وبهن إلى الهاوية . غير أن بروميثيوس تُمنع عنه راحة الموت لأنه من الآلهـــة ومن أجل ذلك يرفع فى الخاتمة المفقودة للرواية الثلاثية من طرطروس ليشد مرة أخرى إلى صخرة جبلية ، ويرسل زيوس نسراً ينخر قلب المارد الجبار . لكن القلب ينمو بالليل بنفس السرعة التى ينخره بها النسر بالنهار ، وبهذه الطريقة يقاسى بروميثيوس العذاب مدى ثلاثة عشر جيلا من أجيال الآدميين . ثم يقتل الجبارُ الرحيمُ هرقلُ النسرَ ويُقنع زيوس بفك أغلال

بروميثيوس ، ويندم هذا على فعلته ويصطلح مع زيوس القادر على كل شيء ، ويضع فى إصبعه الخاتم الحديدى رمز الضرورة .

وفى هذه المسرحية الثلاثية القوية يقرر إسكلس موضوع المسرحيات اليونانية — وهو كفاح الإرادة البشرية ضد القدر المحتوم — ، وموضوع حياة بلاد اليونان فى القرن الخامس — وهو الصراع بين الفكر الثائر والإيمان التقليدى . والنتيجة التى يستخلصها نتيجة غير صريحة ، ولكنه يدرك قضية الثائر ويحبوها بعطفه كله ؛ ولسنا نجد حتى فى مسرحيات يوربيديز مثل ما نجده هنا من النظرة الانتقادية لرب أولمپس ، وما أشبه هذه المسرحية بالفردوس المفقود يحتل فيها المَلَك الساقط مكان بطل القصة رغم ما يتصف به الشاعر من تقى وصلاح . والراجح أن ملتن كان كثيراً ما يذكر بروميثيوس وهو يؤلف الخطب البليغة التى ينطق بها الشيطان . وكان جوته مولعاً بهذه المسرحية ، واتخذ بروميثيوس أداة يعبر بها عن نزعة الشباب الجامح ؛ أما بيْرُن فقد اتخذه نموذجا ينسج على منواله طول حياته ؛ وأعاد شلى Shelley ؛ وهو الذى كان على الدوام هدفاً لنوب الدهر ، القصة إلى الحياة فى قصيدته المشهورة بروميثيوس الطليق التى لا يخضع فيها الجبار الثائر قط . وتنطوى هذه الخرافة على عدد كبير من الاستعارات والتشبيهات : منها أن العذاب هو ثمرة شجرة المعرفة ، ومنها أن معرفة المستقبل تحطم قلب الإنسان كمدا ؛ وأن العـذاب والصاب هما جزاء المخلص على الدوام ، وأن الإنسان مضطر فى آخر الأمر أن يرضى بالقيود man muss enslagen ، وأن عليه أن يحقق غايته داخل نطاق طبيعة الأشياء . وذلك لعمرى موضوع جليـل ، يمكن إسكلس بفضل لغته الجزلة من أن يجعل من بروميثيوس مأساة من الطراز العظيم » . ولم نر قط أن الكفاح بين العلم والخرافة ، أو بين الاستنارة والجهل ، أو بين العبقرية والتحكم ، قد صور بأقوى مما صور به هنا ، أو سما فى الرمزية أو فى الصراحة إلى أسمى مما سما به فى هذه المأساة . ويقول شلجل

Schlegel فى هذا : « إن المآسى الأخرى التى أنتجها المؤلفون اليونان مآس عادية أما هذه فهى المأساة الحقة[٤٥] » .

ومع هذا فإن أرستيا أعظم منها — وهى بإجماع الآراء أجمل المسرحيات اليونانية على الإطلاق ، ولعلها أجمل المسرحيات فى العالم كله[٤٦] . وقد مثلت فى عام ٤٥٨ ، وأكبر الظن أن تمثيلها حدث بعد عامين من تمثيل مسرحية پروميثيوس المقيد وقبل أن يموت مؤلفهما بعامين . وموضوع المسرحية هو نشأة العنف من العنف ، والجزاء المحتوم الذى لا بد أن يؤدى إليه الكبرياء والطرف المصحوبان بالعتو والصلف . ونحن نسمى القصة خرافة ، ولكن اليونان كانوا يسمونها تاريخاً ، ولعلهم كانوا على حق فى هذه التسمية . وهذه القصة كما يرويها اثنان من كبار كتاب المسرحيات اليونان يمكن أن تسمى أطفال تانتلوس لأن هذا الملك الفريجى المستهتر الفخور بثرائه هو الذى بدأ سلسلة الجرائم الطويلة ، واستنزل غضب ربات الانتقام جزاء له على سرقة شراب الآلهة وطعامها ، وتقديم الطعام المقدس لابنه پلويس ؛ وفى كل عصر من العصور يجمع بعض الناس من الثروة أكثر مما يليق بالإنسان ، ويستخدمونها لإفساد أبنائهم . وفى هذه القصة ترى كيف استطاع پلويس أن يستحوذ على عرش إليس Elis بشر الوسائل ، وكيف اغتال بعدئذ شريكه فى جرمه ، وتزوج ابنة الملك الذى خدعه وقتله ، ثم رزق من هيوداميا Hippodamia بثلاثة أبناء : ثيستيز Theyestes وإيروپى Aerope وأتروس Atreus . وفسق ثيستيز بإيروپى ؛ وانتقم أتروس لأخته بأن أطعم أخاه أبنا لحمة ؛ فما كان من إيجستس Aegisthus بن ثيستيز من أخته إلا أن أقسم لينتقمن من أتروس وأبنائه . وكان لأتروس ولدان هما أجممنون ومنلوس ، وتزوج أجممنون كليتمنسترا ورزق منها ابنتين هما إفجينيا وإلكترا وولداً واحداً هو أرستيز . ولما أن سكنت الريح ووقفت سفن أجممنون عند أويس وهى فى طريقها إلى طروادة ، روعت كليتمنسترا حين ضحى أجممنون بابنته إفجينيا لكى تهب الريح ، وبينا كاد أجممنون يحاصر

طروادة أخذ إيجستس يغازل زوجته الحزينة ، فالت له وائتمرت معه على قتل الملك . ومن هذه النقطة يبدأ إسكلس قصته .

وجاءت الأنباء إلى أرجوس بأن الحرب قد وضعت أوزارها ، ونزل أجممنون الفخور على شواطئ البلوبونيز « مسربلا بدروع من الصلب وترتعد الجيوش فرقاً إذا غضب » ، واقترب من ميسيني ، ويظهر جماعة من الكبراء أمام قصر الملك وينشدون نشيداً يعيد إلى الأذهان تضحية أجممنون بإفجينيا .

« وتسلح على مهل بما لا بد من التسلح به ، وتحركت فى صدره ريح عجيبة هزته هزا ، ريح من الأفكار السود ، نجسة ، دنسة ؛ فقام وقد امتلأ قلبه جرأة ، لأن الناس تقوى قلوبهم إذا عميت بصائرهم ؛ وهم بتنفيذ رغبته الدنيئة التى أورثته الحزن فيما بعد ؛ بل إنها هى الحزن بعينه . وهكذا تحجر قلب هذا الرجل فقتل ابنته لكى يستطيع بهذا القتل أن يثأر لنفسه من ضحكة ضحكتها امرأة وأن يعين سفائنه على السير . . .

« وألقت بقميصها الزعفرانى اللون على الأرض بقوة وغضب مكبوت لم تنطق به ؛ ونفذت فى قلب كل رجل من أولئك الرجال المحاربين القتلة سهام الرأفة التى أطلقتها الفتاة من عينيها ، وارتسمت فى عقولهم صورة وجه يحاول بقوة ما أعجبها أن يستدر الرحمة من القلوب ، وجه الفتاة الصغيرة التى كانت ترقص إلى جانب سفينة أبيها . ولم يؤثر ذلك الصوت البرىء فى قلب الأب حين انضم إلى صوته بعد أن صبت الكأس الثالثة »[٤٧] .

ويدخل رسول أجممنون ليعلن قدوم الملك . ويدرك إسكلس بخياله الرقيق ما يهتز به قلب الجندى البسيط من نشوة السرور وهو يطأ بقدمه أرض بلاده بعد غيابه الطويل ؛ فينطق الجندى بقوله : « إنى الآن مستعد للموت إذا أراد الله أن أموت » : ويصف الجندى لفرقة المرتلين أهوال الحرب وأقذارها «

والمطر الذى تنفذ مياهه إلى العظام ، والحشرات التى تضاعفت فى الشعر ، وحرارة الصيف الخانقة فى إليون ، وبرد الشتاء القارس الذى تساقطت منه الطيور جميعها موتى . وتخرج كلتيمنسترا من القصر كئيبة متهيجة الأعصاب ، ولكنها مع ذلك ذات كبرياء ، وتأمر أن تنثر فى طريق أجممنون السجف الثمينة . ويقبل الملك فى عربته الملكية ، يحف به جنده ، منتصب القامة فخوراً بما أحرزه من نصر ، ومن خلفه عربة أخرى تحمل كسندرا الجميلة السمراء ، وهى الأميرة والمتنبئة الطروادية ، جارية أجممنون ومشبعة شهوته رغم أنفها ، وهى التى تتنبأ وقلبها غاضب حاقد بأنه سوف يلقى جزاءه ، كما تتنبأ فى حزنها بموتها . وتصف كلتيمنسترا للملك بلسان زلق شوقها لعودته خلال السنين الطوال : « لقد نضبت من أجلك ينابيع دموع عينى الفياضة ، فلم تبق فيها قطرة واحدة ، ولكنك تستطيع أن ترى فيهما كيف أضناهما سهرى ، وأنا أترقب فى حزن بشائر نصرك المبطئة ، وكيف كنت أقوم مسرعة من نومى المضطرب إذا هزت البعوضة جناحها لأنى كنت أحلم بمتاعبك المضنية الطويلة ، وقد تجمعت كلها أثناء نومى القصير[٤٨] » . ويرتاب أجممنون فى إخلاصها ويلومها أشد اللوم على إسرافها فى فرش السجف المطرزة تحت سنابك خيله ، ولكنه يتبعها إلى القصر وتصحبه كسندرا مذعنة مستسلمة . وتردد فرقة المرتلين بصوت منخفض فى خلال فترة الراحة الطويلة أغنية تنذر بشر مستطير . ثم تنبعث من الداخل صرخة كان كل سطر من أسطر المأساة يهيئ الآذان لسماعها ، صرخة أجممنون حين يغتاله إيجستس وكلتيمنسترا . وتفتح الأبواب ، وتظهر كلتيمنسترا والبلطة فى يدها والدم يلوث جبهتها ، وقد وقفت منتصرة فوق جثتى كسندرا والملك ، وترتل الفرقة خاتمة المسرحية :

« ألا ليت الله يمن على بأن يعاجلنى الموت فجاءة دون ألم أشد ، ومن غير

انتظار مؤلم طويل ، فأقضى نحبى وأنام النوم الأبدى الذى لا صحوة منه .
ليت الله يمن على بهذا بعد أن لاقى الردى من كان يرعانى حبه[٤٩] » .

والمسرحية الثانية من هذه الثلاث المسرحيات المجتمعة هى الكثفورى Choephoroe أو حاملات قربان الخمر . واسمها مشتق من جماعة النساء اللائى يأتين بالقرابين إلى قبر الملك . وكانت كلتيمنسترا قد أرسلت أرستيز ابنها الصغير ليربىَ فى فوسيس Pyocis القاصية عساه أن ينسى مقتل أبيه ، ولكن شيوخ تلك الجزيرة يعلمونه قانون الثأر القديم : « إن نقطة الدم المراقة تتطلب دماً جديداً » ، وكانت الدولة فى تلك الأيام المظلمة تترك عقاب القتل لأولياء القتيل ، وكان الناس يعتقدون أن روحه لا تجد الراحة حتى يثأر له . واستحوذت فكرة الانتقام على أرستيز وأقضت مضجعه ، وكانت توحى إليه أن يقتل أمه وإيجستس . وتحقيقاً لهذا الغرض يأتى سراً إلى أرجوس مع رفيقه بيلديز Pylodes ، ويبحث عن قبر أبيه ، ويضع عليه خصلة من شعره . ويسمع الشابان وقع أقدام ساكبى قربان الخمر على القبر فيبتعدان عنه ويصغيان فى ذهول إلى إلكترا أخت أرستيز الحزينة وقد أقبلتْ مع جماعة من النساء ، ووقفت عند القبر ، وأخذت تناجى روح أجممنون وتدعوه لأن يثير أرستيز فيأخذ بثأر أبيه . وهنا يكشف أرستيز عن نفسه ، فتصب من قلبها المثقل بالهموم فى عقله الساذج أن عليه أن يقتل أمه ، ويذهب الشابان إلى قصر الملك فى زى تاجرين ، وترحب بهما كلتيمنسترا وتكرمهما فيرق لها قلباهما ، ولكن أرستيز يخبرها بقوله إن الغلام الذى أرسلته إلى فوسيس قد مات ، ويستولى عليه الفزع حين يرى البهجة بادية فى حزنها . وتستدعى إيجستس يستمع معها إلى أن الفتى الذى يخشيان انتقامه قد قضى نحبه ، فيقتله أرستيز ويدفع أمه إلى القصر ، ثم يخرج بعد هنيهة وقد جن جنونه أو كاد لشعوره بأنه قتل أمه ويقول :

« وقبل أن يذهب عقلى أعلن فى هذا المكان إلى كل من يحبنى ، وأعترف أنى قتلت أمى(٥٠) » .

وفى المسرحية الثالثة نرى الشاعر يصور أرستيز تطارده ربات الانتقام المكلفة بعقاب المجرمين ، وتشتق المسرحية اسمها من اسم هذه الإلهات الملطَّف « اليومنيديات Eumenides » أى « الراجيات الخير » . ويصبح أرستيز طريداً مهدر الدم ، يتجنبه سائر الناس ؛ تتعقبه ربات الانتقام أينما ذهب، وتحوم حوله فى صورة أشباح سود تنادى بسفك دمه . ويلقى الفتى بنفسه فوق مذبح أبلو فى دلفى فيهدئ الإله روعه ، ولكن شبح كلتيمنسترا يقوم من تحت الثرى ويوعز إلى ربات الانتقام ألا تتوانى عن تعذيب ولدها . ويسافر أرستيز إلى أثينة ويخر راكعاً أمام ضريح الإلهة أثينا ويتوسل إليها أن تنحيه . وتسمع أثينا نداءه وتصفه بالذى « كله العذاب » . وتحتج ربات الانتقام عليها فتدعوهن أن يعرضن قصة أرستيز على مجلس الأريبجس ؛ ويمثل المشهد الأخير هذه المحاكمة العجيبة التى ترمز إلى استبدال حكم القانون بالقصاص وسفك الدماء . وتتولى أثينا ربة المدينة رياسة المجلس ، وتعرض ربات الانتقام حجتهن فى طلب الانتقام من أرستيز ، ويدافع عنه أبلو . وتنقسم المحكمة على نفسها وتتساوى الأصوات ، وترجح أثينا رئيسة المجلس الجانب الذى يريد تبرئة أرستيز ، وتعلن براءته ، وتقرر من ذلك الوقت رسمياً أن مجلس الأريبجس هو المحكمة العليا فى أتكا ، وأن حكمه السريع على القاتل سيطهر البلاد من المنازعات ، وأن حكمته ستهدى الدولة إلى طريق النجاة مما يحيط بالشعب من أخطار . وتهدئ الإلهة بألفاظها العذبة ثائرة ربات الانتقام ، وتكسب قلوبهن ، وتقول زعيمتهن إن « نظاماً جديداً قد ولد فى ذلك اليوم » .

وتعد الأرستيا أروع آيات الأدب اليونانى بعد الإلياذة والأوذيسة ، ففيها تظهر سعة الإدراك،وزحدة التفكير والتنفيد ، وقوة الترقى المسرحى ، والقدرة

على فهم أخلاق الناس ، وروعة الأسلوب وهى مميزات لا نراها مجتمعة مرة أخرى إلا فى شيكسبير ، والمسرحية الثلاثية محبوكة حبكاً قوياً كأن أجزاءها ثلاثة فصول فى مسرحية حديثة ، فكل جزء منها يمهد للجزء الذى يليه ويستدعيه فى تتابع منطقى محتوم لا مفر منه ، وكلما أعقبت إحدى مسرحيات المجموعة المسرحية التى قبلها تزداد رهبة الموضوع ، ويبدأ الإنسان يدرك كيف كانت هذه القصة تثير أحاسيس اليونان . ولسنا ننكر أن الرواية مثقلة بالكلام الكثير الذى لا يبرره مقتل أربعة أشخاص ، وأن ما فيها من أغان كثيراً ما يكون غامضاً عسير الفهم ، وأن ما فى هذه الأغانى من تشبيهات واستعارات قد بولغ فيه كثيراً ، وأن لغتها فى بعض الأحيان ثقيلة خشنة متكلفة . لكن هذه الأغانى مع ذلك لا يفوقها شىء من نوعها ، فهى مليئة بالعظمة والحنو ، بليغة فيما تدعو إليه من دين جديد هو دين العفو والمغفرة ، ومن فضائل النظام السياسى الذى كان يؤذن بالزوال .

ذلك أن الأرستيا تبلغ من التحفظ ما تبلغه پروميثيوس من التطرف وإن لم يكن بينهما إلا فترة من الزمان لا تزيد على سنتين . لقد جرد إفيلتيز الأريبجس من اختصاصه فى عام ٤٦٢ ، وفى عام ٤٦١ قتل ، وفى عام ٤٥٨ عرض إسكلس فى الأرستيا دفاعاً عن هذا المجلس قال فيه إنه أحكم هيئة فى حكومة أثينة . وكان الشاعر فى ذلك الوقت قد طال أجله وضرسته السنون ، وكان فى وسعه أن يفهم الشيوخ أكثر مما يفهم الشبان ، وكان مثل أرسطوفان يتوق لأن يتحلى بفضائل رجال مرثون . ويريد أثنيوس منا أن نعتقد أنه كان سكيراً[٥١] ولكننا نراه فى الأرستيا رجلا متزمتاً يعظ الناس من فوق المسرح ، ويحذرهم من الخطيئة وما يتبعها من عقاب ، ويبين لهم ما يعقب الألم من حكمة ، ويشرح قانون العتو والانتقام ، وهو مبدأ آخر من مبادئ الخطيئة الأولى ، ويقول إن كل عمل غير صالح سينكشف يوماً ما ويعاقب مقترفه فى إحدى حيواته : وبهذا حاول التفكير

اليونانى أن يوفق بين الشر والله ، فيقول إن العذاب كله ناشئ من الخطيئة ، ولو كانت خطيئة جيل من الأجيال البائدة . ولم يكن مؤلف بروميثيوس تقيا ساذجا ، ودليلنا على ذلك أن فى مسرحياته ، ومنها الأرستيا ، كثيراً من العبارات الدالة على الإلحاد ، وقد اتهم بالكشف عن أسرار الطقوس الدينية ولم ينجه إلا شفاعة أخيه أمينياس الذى كشف عما أصيب به من جروح فى سلاميس[٥٣] . ولكن إسكلس كان يعتقد واثقاً أن الأخلاق الصالحة لا بد لها أن تعتمد على قوى غير قوى البشر لكى تصمد لقوة الغرائز المضرة بالهيئة الاجتماعية ، وكان يرجو :

« أن يكون هناك واحد يستمع إلى الناس من عرشه الأعلى ، بان أوزيوس أو أبلو ، مطلع على الخلق ، يعاقب على خرق القانون بالغضب ويتعقب من خرقه ، وهو يقصد بهذا « تعذيب الضمير والجزاء الحق »

ومن أجل هذا تراه يجل الدين ويحاول أن يسمو عن الشرك ، ويفكر فى التوحيد .

« أى زيوس ، زيوس أينما يكون ، إذا كان يحب أن يسمع هذا الاسم فسوف أدعوه به . أنقب فى البر والبحر والهواء ، فلا أجد فى مكان ما ملجأ إلا إليه وحده ، إذا نبذ عقلى ، قبل موته ، عبء هذا الغرور[٥٤] » .

وهو يرى أن زيوس هو طبيعة الأشياء مجسدة ، وهو قانون العالم أو علته ، وأن « القانون الذى هو القدر والأب الذى يدرك كل شىء يلتقيان هنا ويصبحان شيئاً واحداً[٥٥] » .

وربما كانت هذه الأبيات الختامية آخر ما نطق به من الشعر . ويعود بعد عامين من إخراج أرستيا إلى صقلية . ويعتقد البعض أن النظارة ، وهم فى العادة أكثر تطرفاً من القضاة ، لم تعجبهم هذه المسرحية الثلاثية ، ولكن يصعب التوفيق بين هذا الاعتقاد وبين ما قرره الأثينيون بعد بضع سنين ،

وعلى خلاف العادة ، من إعادة تمثيل مسرحياته فى ملهى ديونيشيس . وقد أقبل على هذا كثيرون وظل إسكلس ينال الجوائز بعد وفاته . وبينا كان هذا يحدث إذ قتله نسر فى صقلية ، على ما تقول إحدى القصص القديمة ، بأن ألقى سلحفاة على رأسه الأصلع لأنه حسبه حجراً[٥٦] . وفيها دفن إسكلس ونقش على شاهد قبره تلك العبارة التى كتبها بنفسه والتى يدهشنا أنها لم تذكر شيئاً عن مسرحياته ، والتى يفخر فيها بندوب جراحه .

تحت هذا الحجر يرقد إسكلس ، الذى تحدثنا عن بسالته أيكة مرثون أو ملك الفرس ذو الشعر الطويل الذى يعرفه حق المعرفة .

الفصل الرابع

سفكليز

في عام ٤٦٨ انتزع الجائزة الأولى للمأساة من إسكلس قادم حديث في سن السابعة والعشرين يسمى سفكليز (سوفكل) أي العاقل المكرم: وكان سفكليز هذا أسعد الناس حظاً ويكاد أن يكون أشدهم تشاؤماً. وكان موطنه الأصلي ضاحية كولونس إحدى ضواحي أثينة، وكان ابن صانع سيوف، ومن أجل هذا فإن الحرب الفارسية والبلوبونيزية التي أفقرت الأثينيين كلهم تقريباً جاءت لهذا الكاتب المسرحي بثروة طائلة[٥٧]. وكان فضلا عن ثرائه رجلا عبقرياً وسيما جيد الصحة، نال جائزتي المصارعة والموسيقى — فجمع بذلك بين كفايتين لو شهدهما أفلاطون لاغتبط أشد الاغتباط بوجودهما في رجل واحد. وقد أمكنته مهارته في لعب الكرة وفي العزف على القيثارة من أن يقيم حفلات عامة في الفنين؛ وكان هو الذي اختارته المدينة بعد واقعة سلاميس ليقود شبان أثينة العراة في رقصة النصر ونشيده[٥٨]. وقد ظل محتفظا ببهاء طلعته إلى أواخر أيامه، ويظهره تمثاله المحفوظ في متحف لاتران Lateran شيخاً ملتحياً بديناً ولكنه قوي طويل القامة. وقد نشأ في أسعد عهود أثينة، وكان صديقاً لبركليز وشغل في عهده أعلى مناصب الدولة؛ فكان في عام ٤٤٣ أمين بيت المال الإمبراطوري؛ وفي عام ٤٤٠ كان أحد القواد الذين تولوا قيادة قوات أثينة في الحملة التي سيرها بركليز على ساموس، وإن كان من واجبنا أن نضيف إلى هذا أن بركليز كان معجب بشعره أكثر من إعجابه بخططه الحربية. وعين بعد الكارثة التي حلت بأثينة في سرقوصة عضواً في لجنة الأمن العام[٥٩]، وانترع

يحكم منصبه هذا على عودة الدستور الألجركى فى عام ٤١١ . وكان الشعب يعجب بأخلاقه أكثر من إعجابه بسياسته ، فقد كان ظريفا ، لبقا ، متواضعا ، محبا للهو ، وهب من قوة الجاذبية ما يكفر عن جميع أخطائه . وكان يحب المال[٦٠] والغلمان[٦١] ، حتى إذا ما دانٍ من الشيخوخة تحول حبه هذا نحو السراری[٦٢] ، وكان شديد الصدح ، وقد شغل مراراً منصب الكاهن[٦٣] .

وكتب سفكليز ١١٣ مسرحية ، لم يبق منها إلا سبع لا نعرف الترتيب الذى خرجت به . وقد نال الجائزة الأولى فى الحفلات الديونيشية ثمانى عشرة مرة ، ونالها مرتين فى الحفلات اللينيائية Lenaean ، وحصل على أولى جوائزه فى سن الخامسة والعشرين وعلى آخرها وهو فى الخامسة والثمانين ، وظل يسيطر على المسرح الأثينى ثلاثين عاما ، وكان له عليه من السلطان أكثر مما كان لمعاصره پركليز على الحكومة الأثينية . وهو الذى زاد عدد الممثلين إلى ثلاثة ، وظل يقوم ببعض الأدوار حتى فقد صوته . وقد غير نظام المسرحية الثلاثية الذى كان يتبعه إسكلس وفضل أن يدخل المباريات بثلاث مسرحيات مستقلة كل منها عن الأخرى (وحذا حذوه يوريپديز من بعده) .

وكان إسكلس مولعا بالموضوعات الكونية التى تطغى على أشخاص مسرحياته ، أما سفكليز فكان مولعا بالأخلاق ، ويكاد أن يكون حديث النزعة فى إدراكه للآثار النفسانية . ومسرحية « المرأة التراقينية » فى ظاهرها مسرحيـــة غنائية عاطفية ؛ وخلاصتها : أن ديانيرا Deianeira تتملكها الغيرة من حب زوجها هرقل لأيولا Iola فتبعث إليه على غير علم منها بثوب مسمم يقضى عليه فتقتل هى نفسها . وليس الذى يعنى به سفكليز فى هذه القصة هو العقاب الذى يحل بهرقل — أى العقاب الذى كان يبدو لإسكلس أنه أهم ما فى المسرحية — وليس هو عاطفة الحب القوية نفسها ، — وهى التى كانت تبدو أهم ما فيها فى نظر يوريپديز — بل الذى يعنى به هو سيكولوجية الغيرة . وفى مسرحية

أجاكس لا يعنى المؤلف بأعمال القوة التى يقوم بها بطل المسرحية ، بل إن الذى يعنى به هو دراسة رجل ذهب عقله . ولا نكاد نرى فى فلكتيتس حادثة ما ، بل الذى نراه هو تحليل سافر للسذاجة التى أوذيت والخيانة الدبلوماسية . والقصة فى مسرحية إلكترا قليلة الشأن قديمة ، ولقد كان إسكلس يفتتن بما تثيره القصة من مشاكل أخلاقية ، أما سفكليز فيكاد يغفل هذه المشاكل فى حرصه على دراسة كراهية الفتاة لأمها دراسة تحليلية نفسانية لا أثر للعاطفة أو للشفقة فيها . وقد اشتق من اسم هذه المسرحية اسم لنوع من الاضطراب العصبى كان موضوع البحث فى يوم من الأيام ، كما اشتق من مسرحية أوديب الملك اسم لنوع آخر من هذا الاضطراب .

وأشهر المسرحيات اليونانية بأجمعها مسرحية أوديپ تيرانس ، والفصل الأول من فصولها قوى الأثر : ترى فيه خليطاً من الرجال ، والنساء ، والغلمان ، والبنات ، والأطفال جالسين أمام قصر الملك فى طيبة يحملون أغصان الغار والزيتون رمزاً لأنهم جاءوا راجين متوسلين . ذلك أن وباء قد اجتاح المدينة فاجتمع الشعب يطلب إلى الملك أوديب أن يقرب للآلهة قرباناً يسترضيها به . وتعلن إحدى النبوءات أن الطاعون سيذهب عن طيبة إذا خرج القاتل غير المعروف الذى اغتال ملكها السابق . ويلعن أوديب هذا القاتل أياً كان لعنة شديدة ، لأن جريمته قد سببت هذا الشقاء كله للمدينة ، وبداية المسرحية على هذا النحو خير مثل لتلك الطريقة التى يشير بها هوارس طريقة الاندفاع فى وسط الأشياء in medias res أى مفاجأة النظارة بالمشكلة أولا على أن يأتى شرحها فيما بعد . لكن النظارة فى هذه المسرحية كانوا يعرفون مجرى الحوادث بطبيعة الحال لأن قصة ليوس Laius وأوديب وأبى الهول كانت جزءاً من القصص الشعبى اليونانى . وتقول الرواية المأثورة إن لعنة قد حلت بليوس وأبنائه لأنه أدخل إلى هلاس رذيلة غير طبيعية[٦٤] ، وكانت نتائج هذه الخطيئة التى أهلكت الناس

جيلا بعد جيل موضوعاً شائعاً للمآسى اليونانية ، وقد قال الوحى إن ليوس وزوجته جكستا Jocasta سيرزقان ولداً يقتل أباه ويتزوج أمه ، وكانت نتيجة هذه النبوءة أن وجد فى العالم للمرة الأولى زوجان يريدان أن يكون أول أبنائهما بنتاً ؛ ولكنهما رزقا ولداً ، وأرادا ألا تتحقق النبوءة فعرضاه للموت على أحد التلال ، حيث وجده راع وسماه أوديب لتورم قدميه ، وأهداه إلى ملك كورنثة وملكتها فتبنياه وربياه . ولما كبر أوديب عرف من مهبط الوحى أيضاً أنه قد كتب عليه أن يقتل أباه ويتزوج أمه . واعتقد أن ملك كورنثة وملكتها هما أبوه وأمه ، ففر من المدينة واتخذ طريقه إلى طيبة . والتقى فى الطريق بشيخ طاعن فى السن فتشاجر معه وقتله وهو لا يعرف أن هذا الشيخ أبوه . ولما اقترب من طيبة التقى بأبى الهول ، وهو مخلوق له وجه امرأة ، وذنب أسد ، وجناحا طائر . وقد سأل أبو الهول أوديب أن يجيب عن ذلك اللغز المشهور : « ما قولك فى مخلوق ذى أربع أقدام ، وثلاث أقدام ، وقدمين؟ » . وكان أبو الهول يقتل كل من لا يعرف الجواب الصحيح عن هذا السؤال ؛ واستولى الهلع على أهل طيبة واشتدت رغبتهم فى تطهير طريق مدينتهم من هذا الخلق المهول ، فنذروا أن يكون ملكهم الثانى هو الرجل الذى يحل هذا اللغز ، وذلك لأن أبا الهول قد قرر أن ينتحر إذا عرف إنسان الجواب الصحيح . وأجابه أوديب بقوله : « هو الإنسان ؛ لأن الطفل الرضيع يحبو أولا على أربع أقدام ، فإذا كبر مشى على قدمين ، وإذا هرم استعان بعصا » . وكانت إجابة عرجاء ، ولكن أبا الهول رضى بها ووفى بوعده فقتل نفسه . ورحب الطيبيون بأوديب وعدوه منقذاً لهم ، ولما لم يعد ليوس إلى المدينة اختاروا هذا القادم الجديد ملكاً عليهم . واتبع أوديب العادة المألوفة فى المدينة فتزوج الملكة ورزق منها أربعة أبناء : أنتجونى ، وپولينيسيز Polynices ، وإتيكليز Éteocles ، وإزمينى Ismene ».

وفى المنظر الثانى فى مسرحية سفكليز — وهو أقوى منظر فى المسرحيات

اليونانية بأجمعها — يأمر أوديب كاهناً من كبار الكهنة بأن يكشف إذا استطاع عمن قتل ليوس فيقول إن القاتل هو أوديب نفسه . وليس فى الفجائع كلها فجيعة أشد وقعاً أو أعظم هولا من إدراك الملك على الرغم منه أنه هو قاتل أبيه وزوج أمه . وتأبى جوكستا أن تصدق هذا النبأ وتقول إنه حلم فرويدى Freudian (*) ، وتؤكد لأوديب « أن كثيرين من الناس حلموا أنهم ضاجعوا أمهاتهم ، ولكن الذى يرى أن هذه أضغاث أحلام يعيش طول حياته مستريح البال[٦٨] » . ثم تعرف الحقيقة كاملة فتشنق نفسها ، ويجن أوديب من شدة الندم فيفقأ عينيه ويغادر طيبة منفياً عنها ، وليس معه من يعينه فى منفاه غير أنتجونى .

وفى مسرحية أوديب فى كولونس(**) وهى الجزء الثانى من مسرحية ثلاثية غير مقصودة ، نرى الملك السابق طريداً ، أشيب الشعر ، متكئاً على ذراع ابنته يطوف بالمدن يستجدى الناس الخبز ، ويصل فى طوافه إلى كولونس الظليلة ، وينتهز سفكليز هذه الفرصة فينشد لقريته التى ولد فيها ، ولزيتونها ، أغنية من أحسن الأبيات اليونانية لا تستطاع ترجمتها ترجمة تظهر جمالها يقول فيها :

« أيها الغريب ، إنك تنزل الآن فى هذه الأرض ، أرض الجهاد والفرسان ؛ تلك أرض لا كثلها أرض سواها ؛ ها هى ذى كولونس البيضاء تتلألأ . كم من مرة غنى العندليب بصوته الشجى وهو عائد إلى عشه تحت الأيك الخضر ، يروى قصته الحلوة الحزينة ... وترى النرجس فى كل يوم يرتشف رضاب الندى فيتفتح ، وتعلوه أول عناقيد من التيجان البيض !

(*) أى من أحلام فرويد العالم النفسانى الشهير ، ووصف الحلم بأنه « فرويدى » من عند المؤلف بطبيعة الحال . (المترجم)

(**) ثالث مسرحيات أوديب الملك ، وأوديب فى كولونس ، وأنتجونى تمثل كل منها بمفردها مستقلة عن الأخرى .

« وهنا تخرج الأرض عشباً عجيباً لم يتغن أحد بمثله فى جزيرة بلبس Pelops الدورية القريبة ، ولم ينبت قط فى أرض آسية البعيدة ، وهو نبات متجدد النضارة على الدوام ، يجدد نفسه ، ويتوالد بنفسه ، يلقى الرعب فى قلوب أعدائها المسلحين : فهو لا يبلغ فى غير هذه البلدة ما يبلغه فيها من جمال وازدهار ، بأوراقه الريشية الملساء ذات الزرقة السنجابية البراقة كالفضة ، والذى يغذى البلدة بعصير زيتونه . ولن تستطيع قوة أو يد مخربة أن تخرب المدينة سواء كانت قوة الشباب الأهوج أو حكمة الشيخوخة المجربة لأن قرص زيوس السماء يرعاها هو والضياء الأزرق المنبعث من عين أثينا » .

وكانت نبوءة قد سمعت بأن أوديب سيموت بجوار اليمنيديات ، فلما عرف أنه الآن فى أيكتهن المقدسة بكولونس أيقن هذا الشيخ الذى لم يجد فى الحياة جمالا أن الموت يحلو فى ذلك المكان ، وينادى لثسيوس ملك أثينة بأبيات كأنه يخترق بها حجب الغيب ويجمع فيها القوى التى كانت تعمل على إضعاف بلاد اليونان وهى فقر التربة ، وقلة الإيمان وضعف الأخلاق والرجال :

« إن آلهة السماء وحدها هى التى لا تصل إليها الشيخوخة ولا الموت لأى سبب من الأسباب ، وكل ما عداها يعدو عليه الزمان المسيطر على كل شىء ، فتذهب قوة الأرض ، وتذبل زهرة الرجولة ، وينعدم الإيمان ، ويزدهر الإلحاد ازدهار الزهرة ، ومنذا الذى يستطيع أن يجد فى شوارع الناس المفتوحة ، أو فى مكنون حبه الخفى ريحاً تهب صادقة إلى أبد الدهر ؟(٦٧) » .

ثم يبدو كأن أوديب يسمع نداء إله من الآلهة فيودع أنتجونى وإزمينى وداعا رقيقاً ، ويسير إلى الأيكة المظلمة وليس معه إلا ثسيوس وحده .

« وسرنا قليلا ثم التفتنا فإذا الرجل قد اختفى ، ولم يبق إلا الملك(*) ، وقد رفع إحدى يديه ليظلل بها عينيه ، كما يفعل الإنسان إذا تراءت له رؤية

(*) ثسيوس .

رهيبة مروعة لا تقوى عيناه على التطلع إليها . . . وما من أحد غير ثسيوس يعرف كيف قضى نحبه . . . فلعل إنساناً أرسلته الآلهة ليهدى خطاه ، أو لعل الأرض قد أشفقت عليه ففغرت فاها وابتلعته حتى لا يصيبه ألم ؛ وهكذا اختفى الرجل ولم يخلف وراءه شيئاً نحزن لأجله — لم يترك العالم بعد أن ينهكه المرض والألم ؛ بل اختتم حياته ، إن كان قد اختتمها ، ختاماً عجيباً (٦٨) .

وفى المسرحية الثالثة فى ترتيب الحوادث ، والظاهر أنها هى أول ما كتب من المسرحيات الثلاث ، توارى أنتجونى الوفية فى قبرها . فقد سمعت أن أخويها پولينيسز وإتيكليز يتنازعان عرش المملكة ، فعادت مسرعة إلى طيبة ترجو أن توفق بينهما ، ولكنهما لا يصغيان إليها ، ويواصلان الحرب حتى يقضى عليهما ويستولى كريون Creon حليف إتكليز على العرش ، ويأمر ألا تدفن جثة پولينيسز عقابا له على ثورته . ولكن أنتجونى تعصى هذا الأمر وتدفن جثة أخيها لأنها تعتقد ، كما يعتقد سائر اليونان ، أن روح الميت لا تفتأ تعذب ما دامت جثته لم تدفن . وفى هذا المقام تغنى فرقة المرتلين أغنية تعد من أشهر أغانى سفكليز :

« ما أكثر العجائب فى هذا العالم ، ولكن لا شىء أعجب من الإنسان ؛ فهو يشق طريقه المحفوف بالأخطار خلال المضيق ذى الماء المزبد فوق متن البحار الصاخبة ، تدفعه ريح الجنوب الهوجاء . والأرض أقدم الآلهة التى لا يعتريها نصب ولا وهن يفلحها ويقلبها سنة بعد سنة بمحراثه ونيره المطلق على رقاب جياده .

« ويصيد بفخاخه المنسوجة طيور الهواء الحمقاء ، ووحوش الغاب والفلوات ، وسمك البحار المالحة . ألا ما أشد مكره . فهو يذلل بحيله التى لا آخر لها الثور الوحشى والأيل الذى يمرح حراً فى الجبال ، ويخضع للجامه الجواد الأشعث ذا اللبد . أما الكلام وإسداء النصح العاجل والذكاء فقد عرفها كلها بنفسه ،

وعرف كيف يسقط المطر السريع وكيف تهب الريح العاتية الطليقة التى تتجمد تحت سماء الشتاء . وهو مستغد لكل ما يصادفه ، فقد عرف كيف يتحمل الوباء الوخيم ، وكيف ينجو من كل ما يصيبه ، ولكنه مع هذا كله لم يجد دواء يرد عنه الموت[٦٩] » .

ويحكم كريون أن تدفن أنتجونى حية ، ويحتج ابنها هيمون على هذا الحكم الظالم الرهيب ، فلا يفيد احتجاجه فيقسم لأبيه « إنك لن ترى وجهى بعد الآن » . وهنا لأول مرة يحدث الحب أثره فى مأساة سفكليز وينشد الشاعر لإله الحب نشيداً ظل الأقدمون يذكرونه عهداً طويلا :

« أيها الحب ، يا من لا يقوى على صدك شىء فى الكفاح ، كل الناس يخضعون إذا ألقيت عليهم نظرة من عينيك . الحب يرقد طول الليل على خد العذراء ، ويطوى الربا والقفار ، ويشق عباب البحار . أيها الحب يا من يقع الآلهة فى أسرك ، هل يقوى الآدميون على النجاة من قبضتك ؟ [٧٠] » .

ويختفى هيمون ، ويجد كريون فى البحث عنه ويأمر جنوده بأن يفتحوا الكهف الذى دفنت فيه أنتجونى ، فيجدها ميتة ، وإلى جانبها هيمون قد وطد العزم على الموت .

« ونظرنا ، وفى قبوة الكهف المظلم رأيت الفتاة مخنوقة هناك ، وقد لف حبل من التيل وعقد حول عنقها ، وإلى جانبها حبيبها ممسك بجثتها الهامدة يندب عروسه الميتة . . . فلما أن رآه الملك صرخ صرخة مروعة واتجه نحوه وهو يصيح : « أى ولدى ، ماذا فعلت بنفسك ؟ وماذا يؤلمك ؟ وأية كارثة حلت بك فسلبت عقلك ؟ أقبل يا ولدى أقبل ، إن أباك يتوسل إليك » . ولكن ابنه أحدق فيه بعينين كعينى النمر ، وبصق فى وجهه ، ثم استل سيفه ذا المقبضين دون أن ينبس ببنت شفة وضرب ؛ غير أن أباه تراجع إلى الوراء فأخطأته الضربة . وغضب الغلام الداعر البائس من نفسه ، فسقط على حد سيفه ،

فنفذ السيف فى جنبه، وقبل أن تخمد أنفاسه أمسك الفتاة بذراعيه المسترخيتين ، وقد اصطبغ خدها المصفر بشهيقه . وهكذا قضى الاثنان نحبهما ، وأصبحا جثتين هامدتين وحَّد بينهما الموت(٧١) .

وأهم ما تمتاز به هذه المسرحيات صفتان لم يذهب بروعتهما مر الزمان ولا عبث المترجمين وهما جمال الأسلوب وسمو الفن . ففيها النموذج الحق لعبارات العصر الذهبي المصقولة ، الهادئة ، الرصينة ، القوية فى غير إسراف ، الجزلة الرشيقة ، التى تجمع بين قوة فدياس ورقة برلستيليز . ولا يقل السياق نفسه سمواً عن الألفاظ ، فكل سطر قد وضع فى الموضع اللائق به ، وكل سطر يستحوذ على فكرك ويسير بك إلى تلك اللحظة التى تصل فيها الحوادث إلى غايتها ومغزاها . وقد بنيت كل مسرحية من هذه المسرحيات كما تبنى المعابد يصقل كل جزء منها على حدة ، ولكنه يوضع فى مكانه اللائق به من البناء كله ، إذا استثنينا فيها عيباً واحداً هو أن المؤلف فى مسرحية فلكتيتس يقبل فى غير جهد فكرة إنزال الآلهة بالآلات (وهى فكاهة من فكاهات يوربديز) ويعدها حلا جدياً للعقدة المستعصية على الحل . وأهم النقاط البارزة فى حبكة هذه المسرحيات ، وفى مسرحيات إسكلس ، هي أولا انتقام لغطرسة شديدة وسفاهة فى أحد الفصول (كلعنة أوديب للقاتل المجهول) ، ثم معرفة فجائية لحقيقة كانت قبل غامضة ، ثم تعثر الحظ ، ثم الانتقام الإلهي والعقاب المحتوم . وكان أرسطاطاليس يتخذ « أوديب الملك » مثلا للمسرحية الكاملة البناء الخالية من النقص ، وإن مسرحيتى أوديب الأخريين لتوضحان أتم الوضوح تعريف أرسطو للمسرحية ، وقوله إنها تطهير للرحمة والفزع بعرضهما عرضاً موضوعياً . والشخصيات هنا مصورة تصويراً أوضح من شخصيات إسكلس وإن لم تبلغ واقعيتها مبلغ شخصيات يوربديز . وفى ذلك يقول سفكليز نفسه : « إنى أصور الرجال كما يجب أن يكونوا ، أما يوربديز فيصورهم كما هم(٧٢) » ،

وكأنه يعنى بهذا أن التمثيل يجب أن يتجه إلى حد ما نحو المثل العليا ، وأن الفن يجب ألا يكون تصويراً حسياً . ولكن أثر يوربيديز يظهر واضحاً فى النقاش الذى يدور فى الحوار ، وفى استغلال العواطف فى بعض الأحيان ، وشاهد ذلك أنا نرى أوديب يغفل صفاته الملكية ويحاج تيرسياس Teiresias ، ونراه حين يفقد بصره يتحسس أوجه بناته تحسساً يبعث الحسرة فى النفس ؛ أما إسكلس فلو أنه كان فى هذا الموقف نفسه لنسى البنات وأخذ يفكر فى قانون من القوانين الخالدة .

وسفكليز أيضاً فيلسوف وواعظ ، ولكن نصائحه لا تعتمد على رضاء الآلهة بالقدر الذى تعتمد به عليها نصائح إسكلس . وسبب ذلك أنه قد مسته روح السوفسطائيين ، وهو وإن كان يستمسك بأصول الدين يظهر فى مسرحياته أنه لولا أن الحظ قد واتاه لكان هو ويوربيديز سواء . ولكن حساسيته الشاعرية الشديدة تمنعه أن يتلمس المعاذير لما يصيب الناس من ضر لا يستحقونه فى أغلب الأحيان . انظر مثلا إلى قول ليلس Lyllus أمام جسم هرقل وهو يتلوى من شدة الألم :

« نحن لم نقترف ذنباً ، ولكننا نقر بأن قلوب الآلهة خالية من الرحمة ، فهم يلدون الأبناء ، ويطلبون أن يعبدوا باسم الآباء ، ولكنهم ينظرون إلى أبنائهم نظرة مليئة بالأحقاد[٧٣] » .

وهو ينطق جوكستا بالسخرية من النبوءات ، مع أن مسرحياته تدور حول هذه النبوءات نفسها وتبدو فيها واضحة ، وترى كريون يندد بالمتنبئين ويقول عنهم إنهم « طائفة لا هم لها إلا جمع المال » ، ويسأل فلكتيتس السؤال القديم « كيف نبرر تصرفات السماء إذا كنا نجد السماء ظالمة ؟[٧٤] » ويجيب سفكليز عن هذا السؤال إجابة تبعث الأمل فى النفس فيقول

إن النظام الأخلاقى فى العالم أدق من أن تفهمه عقولنا ، ولكنه نظام قائم بالفعل ، وستكون الغلبة فيه للحق فى آخر الأمر[٧٥] . وهو يغلو حذو إسكلس فيرى أن زيوس هو نفسه النظام الأخلاقى ، وهو يقترب من الوحدانية أكثر مما يقترب منها إسكلس نفسه . ويشبه الصالحين من الإنجليز فى عصر الملكة فكتوريا ، فتراه قوياً فى إيمانه بالأخلاق الفاضلة وإن كان غير واثق كل الثقة من دينه ، ويرى أن أرق أنواع الحكمة أن تعرف القانون الذى هو زيوس ، المرشد الأخلاقى لهذا العالم ، وأن نتبعه متى عرفناه .

« ألا ليت قدمى الثابتتين لا تعجزان عن السير فى طريق الحق والصلاح . وليتنى أقضى حياتى مبرأً من الخطايا فى القول والفعل ، مستمسكا بتلك القوانين الأزلية التى تسمو على الدوام إلى أبراج السماء الأثيرية النقية التى نشأت فيها : ذلك أن موطنها الوحيد هو أولمبس ، ولم تكن هى وليدة حكمة البشر ؛ ومهما غفل عنها الناس فإنها مستيقظة لا تنام عيناها أبدا[٧٦] » .

ذلك قلم سفكليز ولكنه صوت إسكلس ، أو هو الإيمان يقف وقفته الأخيرة فى وجه الكفر . وكأنا نشهد فى هذا الموقف ، موقف التقى والاستسلام للقضاء ، أيوب يندم على ما فرط منه ويرضى بما كتب له ، ولكننا نلمح بين السطور شيئاً من إلمام يوربديز قبل أن يوجد يوربديز نفسه .

ويرى سفكليز ، كما يرى صولون ، أن أسعد الناس هو الذى لم يولد ، ويليه فى هذه السعادة من يموت فى طفولته . ولقد وجد أحد المتشائمين المحدثين بعض اللذة فى ترجمة الأبيات المحزنة فى النشيد الجنازى الذى أنشد عند موت أوديب ، وهى أبيات يظهر فيها الملل من العالم الناشئ من آلام الشيخوخة ، ومن حرب البلوبونيز حيث يقتتل الإخوة ويفتك بعضهم ببعض :

« أى رجل ذاك الذى يتوق إلى طول الأجل ؟ إن عينى ترى الحماقة

تكتنف كل أساليبه ، وكلما مرت بك السنون تبدلت حياتك سوءاً بعد سوء . سوف يقترب منك الحزن ، ويمتنع عن عينيك السرور .. هذا هو الجزاء الذى يناله من يطول أجلهم .

« وخير الناس في نظرى هو الذى لم يولد(*) ؛ ويليه فى هذا من يولد ثم يموت لساعته . إن الشباب ليجيء للإنسان بالحماقات التى هى أخف وزناً من الريش ، ثم تجتمع الشرور كلها فلا ينقصها شر : من غضب ، وحسد ، وشقاق ، ونزاع ، وسيف يتعقب الحياة . وتختم هذه المتاعب كلها باقتراب الشيخوخة التى توهن الجسم فيفر من الأصدقاء والأقارب ، الشيخوخة التى يتضاعف فيها كل ما تحت قبة السماء من أحزان .

« والذى يتحرر من الكدح ، تنعقد أواصر الصداقة بينه وبين غيره من الناس ، ولا تصحبه عروس ولا أهل عروس ، ولا يسمع صوت الدفوف والغناء لأن الموت يقضى على ذلك كله » .

ويعرف كل من درس حياة سفكليز أنه كان يتسلى فى شيخوخته مع حظيته ثيوريس Theoris ، وأنه رزق منها بطفل[78] ، وأن أيوفون Iophon ابنه الشرعى أقام دعوى على أبيه يتهمه فيها بالسفه ، ولعل الدافع له إلى هذا خوفه أن يترك الشاعر ثروته لابنه من ثيوريس . ودافع سفكليز عن نفسه وقدم دليلا على تمتعه بكامل قواه بعض مقطوعات قرأها على المحكمة من مسرحية كان يكتبها ، ولعلها كانت مسرحية « أوديپ فى كولونس » ؛ ولم يكتف القضاة بتبرئته من التهمة بل ساروا يحفون به إلى بيته[70] . ومع أنه قد ولد قبل يوربديز بزمن طويل فقد عاش حتى لبس عليه الحداد ، ثم مات فى السنة التى مات فيها هذا الكاتب سنة ٤٠٦ . ومن الخرافات الشائعة أنه لما حاصر الاسپارطيون

(*) تذكرنا هذه العبارة والعبارة التى فى مستهل الفقرة السابقة بقول أبى العلاء المعرى : « تعب كلها الحياة » و « هذا جناه أبى على » : (المترجم)

أثينة ، تجلى ديونيشس إله التمثيل للمتحاربين وشفع لأصدقاء سفكليز ، فحصل لهم على ممر أمين ، وأمكنهم بذلك أن يدفنوه فى مقبرة آبائه فى ديسيليا Deceleia ، وأجله اليونان وكرموه كما يكرمون آلهتهم ، وكتب له الشاعر سمياس Simmias قبرية هائلة قال فيها :

تسلق بلطف أيها اللبلاب إلى حيث يرقد سفكليز فى راحته الهادئة ، وأرسل غدائرك الصفراء المخضرة على قبره الرخامى ، الذى يتفتح حوله الورد الأرجوانى . ولتتدل حوله عناقيد الورد المكتنزة ، وتلتف حول الحجر أعناقها الصغيرة الجميلة ، جزاء وفاقا له على حكمته الحلوة التى هو منشؤها والتى تدعى ربات الشعر وثالوث الجمال أنها أغانيها

الفصل الخامس

يوربديز

١ – المسرحيات

كما شق جيتو Giotto الطريق الوعر للتصوير الإيطالى فى بداية عهده ، ثم أوصله بروحه الهادئة إلى كماله الفنى ، وأتم ميكل أنجلو تطوره بأعماله التى صدرت عن عبقريته المعذبة ؛ وكما شق باخ Bach بجهوده الجبارة الطريق الرحب إلى الموسيقى الحديثة ، وأبلغها موزار ببساطتها العذبة الرخيمة إلى أرقى الدرجات ، ثم أتم بتهوفن تطورها بمؤلفاته التى لا يدانيها شىء فى فخامتها وجلالها ؛ كذلك شق إسكلس بشعره القوى وفلسفته الصارمة الطريق الذى سارت فيه المسرحيات اليونانية ، وحدد أشكالها ، ثم هذب سفكليز هذا الفن بموسيقاه المتزنة وحكمته الهادئة ، وأتم يوربديز تطوره بمؤلفاته التى تفيض بالشعور الجائش والشك القوى . لقد كان إسكلس في مسرحياته واعظا لا يكاد يقل صراحة عن أنبياء بنى إسرائيل ، وكان سفكليز فناناً سامياً يتشبث بإيمان مزعزع موشك على الانهيار ، وكان يوربديز شاعراً عاطفياً إبداعياً لا يستطيع أن يكتب مسرحية كاملة لأن الفلسفة شتتت قواه . وكان هؤلاء هم إشعيا وأيوب والجامعة فى كتاب اليونان المقدس .

ولد يوربديز فى عام سلاميس ، ويقول بعضهم إنه ولد فى يوم سلاميس بالذات ، وأكبر الظن أن مسقط رأسه هو تلك الجزيرة التى يقال إن أبويه فرا إليها هرباً من الغزاة الميديين[٨٠] . وكان أبوه رجلا من أصحاب المال والسلطان فى مدينة فيلا Phyla الأتكية ، وكانت أمه تنحدر من أسرة شريفة[٨١] ،

وإن كان منافسه أرسطوفان يصر على أنها كانت تدير حانوت بقال ، وتبيع الفاكهة والأزهار فى الطرقات . وقضى يوربيديز أيامه الأخيرة فى سلاميس ، مولعاً بعزلة تلالها ، وجمال مناظرها ، وزرقة بحارها ؛ وكما أراد أفلاطون أن يكون كاتباً مسرحيا فكان فيلسوفا ، كذلك أراد يوربيديز أن يكون فيلسوفاً فكان كاتباً مسرحيا . ويقول استرابون[٨٢] إنه « تلقى منهج أنكساغورس كله ، ودرس بعض الوقت على پرودكس ، وكان صديقاً حميا لسقراط ، وبلغ من صلته به أن بعض الناس يظنون أن قد كان للفيلسوف يد فى مسرحيات الشاعر[٨٣] . وكان للحركة السوفسطائية كلها أثر كبير فى تعليمه ، واستحوذت عن طريقه على المسرح الديونيشى ، فكان هو فلتير عصر الاستنارة اليونانى ، يعبد العقل ويلمح إلى هذه العبادة فى ثنايا مسرحياته التى كانت تمثل لتمجيد إليه من الآلهة تلميحاً أفسدها وكان له أسوأ الأثر فيها .

وتعزو إليه سجلات المسرح الديونيشى فضل تأليف خمس وسبعين مسرحية ، بدأت ببنات بلياس فى عام ٤٥٥ واختتمت بالباخية Bacchae فى عام ٤٠٦ ، ووصلت إلينا منها ثمانى عشرة كاملة وختامات مختلفة من باقى المسرحيات(*) . ومادتها هى أساطير اليونان الأولين ، تتخللها إشارات من التشكك تبـــدو أولا فى حذر ثم تظهر سافرة جريئة بين السطور . ونرى فى مسرحية أيون Ion أبا القبائل الأيونية المزعوم وقد وقع فى ورطة حرجة : فقد جاء على لسان وحى أپلو أن أباه هو أكسوثوس Xuthus ، ولكن أيون يكشف أنه ابن أپلو الذى أغوى أمه ثم خلعها على أكسوثوس ، ويسأل أيون نفسه أيمكن أن يكون الإله النبيل كاذباً ؟ وفى مسرحيتى هرقل والسستيز Alcestis نرى الفتى القوى ابن

(*) ظهرت المسرحيات الكبرى بالترتيب الآتى أو ما يقرب منه : السستيز ٤٣٨ ، ميديا ٤٣١ ، هپوليتس ٤٢٨ ، أندرمكى ٤٥٧ ، هكيبا ، حوالى ٤٢٥ ، المرأة الطروادية ٤١٥ ، إلبجنيا فى طوريس حوالى ٤١٢ ، أرستيز ٤٠٨ ، إلبجنيا فى أوليس ٤٠٦ ، الباخية ٤٠٦ .

زيوس وألكمينا فى صورة إنسان سكير طيب القلب ، له نهم جارجنتوا Gargantua وعقل لويس السادس عشر . وتقص مسرحية ألسستيز القصة المنفرة فتصف كيف اشترطت الآلهة نظير إطالة عمر أدمياس Admetus (ملك فيرى Pherae فى تساليا) أن يرضى إنسان ما أن يموت بدلا منه . وتعرض زوجته أن تفتديه بحياتها ، وتودعه بقصيدة من مائة بيت يستمع إليها فى صبر ونبل ، وتُحمل ألسستيز باعتقاد أنها قد ماتت ولكن هرقل يخرج من مجلس الخمر والولائم ، ويجادل الموت ، وينهره ، ويرغمه على ترك ألسستيز ، ويعيد إليها حياتها . ولا يمكن فهم المسرحية إلا على أنها محاولة خبيثة لتسخيف هذه الخرافة(*) .

وتستخدم مسرحية هيبوليتس Hippolytus هذه الطريقة عينها طريقة إقامة البرهان بنقض نقيضه ، ولكن بطريقة أظرف وأكثر دهاء . فالبطل الوسيم هنا شاب صياد يقسم لأرتميس Artemis العذراء إلهة الصيد أن يكون على الدوام وفياً لها ، وأن يتجنب النساء طول حياته ، وأن يجد أعظم لذته فى الأدغال . وتغضب أفروديتى لهذه العزوبة المهينة فتصب فى قلب فدرا Phaedra زوجة ثسيوس هياماً جنونياً بهيوليتس بن ثسيوس من أنتيوبى Antiope زوجته المحاربة . وهـــذه هى أولى مآسى العشق فيما لدينا من كتابات أدبية ، وفيها نجد من بداية الأمر جميع أعراض الحب فى أعقد أزماتها وأقوى درجاتها ، وذلك حين يصد هيوليتس عن فدرا فيتحطم قلبها ، ويذوى غصنها ، وتكاد تقضى من فرط الأسى . وتصبح مربيتها فيلسوفة

(*) وقد مثلت فى عام ٤٣٨ ، مع ثلاث مسرحيات أخرى بقلم يوربديز ؛ ولعل المقصود منها أن تكون مسرحية نصف خرافية ونصف جدية ، لا مسرحية بين المأساة والملهاة ؛ وقد أخذ براوننج Browning فى قصيدته Balaustion's Adventure هذه المسرحية على ظاهرها مدفوعا إلى هذا بسذاجته وكرم نفسه .

على غير انتظار فتأخذ فى التفكير فى الحياة بعد الموت ، وتظهر فى تفكيرها هذا من الشك فى هذه الحياة ما لا يقل عن شك هملت فيها :

« ومع هذا فحياة الإنسان كلها ألم وكدر ، وليس ثمة راحة على ظهر هذه الأرض ، وإذا كانت هناك حالة بعيدة أحب إلى الموتى من الحياة فإن يد « الظلماء » تقبض عليها وتحجبها فى ظلمات من فوقها ومن أسفل منها : ومن الناس من يرغبون فى الحياة ويتعلقون بالبقاء على هذه الأرض بهذا الشىء البراق الذى لا أعرف ماذا أسميه ، وذلك لأن الحياة الأخرى نبع مختوم مغلق ، والأعماق التى من تحتنا لم تكشف لنا ، ونحن تتقاذفنا الخرافات والأوهام إلى أبد الدهر[٨٤] » .

وتحمل المربية رسالة إلى هيوليتس تقول إن فدرا ترحب به فى فراشها ، ويرتاع هو لهذه الرسالة لأنه يعرف أن التى تدعوه إلى فراشها زوجة أبيه ، وينطلق لسانه بإحدى الفقرات التى اشتهر من أجلها يوريبديز بأنه عدو النساء :

« رباه ! لم وضعت فى سبيلنا هذا الشرك البراق ، تلك النساء اللاتى يتعقبن خطانا على ظهر هذه الأرض السعيدة ؟ هل إرادتك هى التى اقتضت أن يولد الإنسان عن طريق الحب والمرأة ؟[٨٥] » .

ثم تموت فدرا ، ويجد زوجها فى يدها رسالة كتب فيها أن هيوليتس أغواها ، ويستشيط ثسيوس غضباً ، ويدعو پوسيدن أن يقتل هيوليتس ، ويحتج الشاب بأنه برىء ولكن أحداً لا يصدقه ؛ ويخرجه ثسيوس من البلاد . وبينا كانت عربته تمر فى سيرها بشاطئ البحر إذ يخرج من الموج أسد بحر ويطارده ؛ ويجفل جواداه ويقلبان العربة ويجران هيوليتس (بعد أن مزقه الجوادان) فوق الصخور حيث يموت شر ميتة . وترفع فرقة المنشدين صوتها بهذه الأبيات التى أدهشت أثينة وأزعجتها بلا ريب :

« أيتها الآلهة ، يا من أوقعته فى الشرك ، إنى أقذف فى وجهك كرهى واحتقارى » .

وفى مسرحية ميديا ينسى يوربيديز إلى حين غضبه على الآلهة ويصوغ من قصة ركاب السفينة أرجوس أقوى مسرحياته على الإطلاق . فعند ما يصل جيسن Jason إلى كلشيز ، تهيم الأميرة ميديا بحبه ، وتساعده على أخذ الجزة الذهبية ، وفى دفاعها عنه تخدع أباها وتقتل أخاها . ويقسم جيسن أن يحبها حباً أبدياً ويأخذها معه إلى أيولكس Iolcus . وهناك تدس ميديا الوحشية الطباع السم إلى الملك پلياس Pelas لكى تجلس جيسن على العرش الذى وعد به ، وإذ كانت شريعة تساليا تحرم الزواج من الأجنبيات فإن جيسن يعيش مع ميديا عيشة العاشقين بغير زواج وتلد له طفلين . ولكنه لا يلبث أن يضيق ذرعاً بشهوتها الوحشية ، ويتطلع حوله باحثاً عن زوجة شرعية ووارث لملكه ، ويعرض أن يتزوج ابنة كريون ملك كورنثة . ويوافق كريون على هذا الزواج وينفى ميديا من البلاد ، وتفكر ميديا فيما ارتكبته من أخطاء ، وتنطق بفقرة من أشهر فقرات يوربيديز التى يدافع فيها عن النساء :

« لم أر بين جميع الأشياء التى تنمو ويسيل منها الدم ، شيئاً تهشم كما تهشمت المرأة . إن علينا أن نقدم كل ما جمعناه من الذهب وادخرناه لهذا اليوم الوحيد ، لنبتاع به حب رجل ، ولكننا نبتاع به سيداً ليتصرف فى أجسامنا ! وهذا لعمرى أشد ما يؤلمنا فى هـــذا العمل المشين ولا نعرف بعد ذلك هل سيكون هذا السيد إنساناً خيراً أو شريراً ، وذلك هو خطر يتهددنا طوال حياتنا . . . إن بيتها لم يعلمها أحسن وسيلة تهدى بها ذلك الشىء الذى ينام بجانبها سبل السلام . وإن التى تجد بعد جهودها المضنية الطويلة وسيلة تجعله يحسب لها حسابها ، فلا ينفض عن ظهره عبأها بعنف ، تعد نفسها سعيدة . أما التى تعجز من النساء عن العثور على تلك الوسيلة فلتتمن الموت . إن زوجها إذا مل رؤية وجهها فى داخل المنزل

غادره ، وذهب إلى مكان أروح من المنزل وأحب منه إلى قلبه ؛ أما هي فقد كتب عليها البقاء حيث هي ، لا تقع عيناها إلا على نفس واحدة . ثم يقولون بعدئذ إنهم هم الذين يلبون نداء الحرب ، على حين أننا نجلس في عقر دورنا وفي حمايتها بعيدات عن كل خطر ! إن هذا لسخرية وبهتان ! ولأن أنزل ثلاث مرات إلى ميدان القتال ، أخوض المعارك وترسى في يدى لأحب إلى من أن أحمل طفلاً واحداً (٨٦) .

ثم تتبع هذا قصة انتقامها الرهيب ، فترسل إلى منافستها مجموعة من الأثواب الثمينة متظاهرة بأنها تريد بذلك أن تسترضيها . وتلبس الأميرة الكورنثية أحد هذه الأثواب فتحترق بالنار ؛ ويحاول كريون أن ينجيها فيحترق هو أيضاً ويموت . وتقتل ميديا أطفالها ، وتخرج بجثثهم على مرأى من چيسن ، وتنشد فرقة المرتلين هذه الخاتمة الفلسفية :

« لزيوس في السماء ردهات ملأى بالكنوز يفرق منها على بني الإنسان مصائرهم القريبة من خير وشر لم يكونوا يرجونه أو يرهبونه . فأما الغاية التي كانوا يتطلعون إليها فلا ينالونها ؛ فهناك طريق لم يفكر أحد فيه ! ذلك ما حدث في هذا المكان » .

وتدور سائر المسرحيات في الغالب حول قصة طروادة . ففي مسرحية هلن نرى القصة كما رواها استسكورس Stesichorus وهيرودوت(٨٧) ؛ فلكة اسپارطة حسب هذه الرواية لا تفر مع باريس إلى طروادة ، بل تنقل رغم إرادتها إلى مصر ، حيث تنتظر مجيء زوجها دون أن يعتدى أحد على عفافها ؛ ويقول يوريديز إن بلاد اليونان كلها قد خدعتها خرافة هلن في طروادة . وفي مسرحية إفجينيا في أوليس يغمر يوريديز قصة تضحية أجممنون بفيض من العواطف لم تعهد من قبل في المسرحيات اليونانية ، وبطائفة من أشنع الجرائم التي دفع الناس إليها دينُهم القديم . وكان إسكلس وسفكليز قد كتبا أيضاً في هذا الموضوع ، ولكن

مسرحياتهما لم تلبث أن نسيت وطغى عليها سناً من المسرحيات الحديثة :
وفى هذه المسرحية ينظر يوريديز إلى قدوم كليتمنسترا وابنتها نظرة
عطف وحنان ، ويظهر أرستيز « وهو لا يزال بعد طفلا رضيعاً لا يستطيع
الكلام » ليشهد خرافة القتل التى تقرر مصيره فيما بعد . وترى الفتاة يجللها
الخفر وتغمرها السعادة وهى تهرول لتحيي الملك :

إفچينيا : ما أشد شوقى يا أبتاه إلى أن أرتمى على صدرك بعد هذا
الغياب الطويل ؟ وأرجو ألا يغضبك أننى قد سبقت غيرى
إليك — لأنى مشتاقة إلى طلعتك . . . . ولأنك يسرك كل
السرور أن ترانى . ولكن لم أراك مهموماً محزوناً ؟

أجممنون : إن الملوك والقادة كثيرو الهموم .

إفچينيا : لتكن هذه الساعة لى — هذه الساعة لا أكثر . لا تستسلم
للهموم ! .

أجممنون : سأكون كلى لك ؛ فلا تتشتتى يا أفكارى . . .

إفچينيا : ومع هذا — ومع هذا — فإنى أرى الدموع تترقرق فى عينيك !

أجممنون : نعم ، لأن الغياب فى المستقبل سيطول .

إفچينيا : لست أعرف ، لست أعرف ، يا أبتِ العزيز ماذا تقصد ؟

أجممنون : إن فطنتك الرشيدة تضاعف أحزانى .

إفچينيا : سأنطق إذن بالسخف لأدخل السرور على قلبك(٨٨) .

وحين يقبل أخيل تتبين أنه لا يعرف شيئاً عن زواجهما المزعوم ،
بل تعرف بدل هذا أن الجيش قد طال انتظاره للتضحية بها ، فتلقى
بنفسها على قدمى أجممنون وتتوسل إليه أن يبقى على حياتها :

لقد كنت أولى أبنائك — وأولى من قال لك يا أبت ، وأولى من جلس
على ركبتيك من أطفالك ؛ وتبادلت وإياك الحديث فى مسرات الحياة . وهذا

ما كنت تقوله لى: « أى بنيتى العزيزة ، هل يقدر لى أن أن أراك ممتعة سعيدة فى بيت سيدك وزوجك الخليق بك ؟ » واحتضنت لحيتك التى أمسك بها الآن متوسلة ، وأجبتك بقولى : « وأنا الأخرى سأرحب بك يا أبت ، حين يبيض شعرك من طول السنين ، فى داخل بيتى الحلو الجميل ، وسأجزيك على حبك إعزازاً وتكريماً » . هذا ما كنا نتحدث به ، أذكره جيداً ، ولكنى أراك تنساه وتريد أن تقضى على حياتى(٨٩) » .

وتندد كليتمنسترا باستسلام أجممنون لهذه الطقوس الوحشية ، وتتوعده بعبارات تحتوى على كثير من المآسى — : « لا تضطرنى إلى الغدر بك » ، وتشجع أخيل على ما يبذله من الجهد لإنقاذ الفتاة ، ولكن إفجينيا تغير رأيها وتأبى أن تهرب :

استمعى يا أماه إلى ما خطر ببالى وأنا أقلب الفكر فى أمرى :

لقد اعتزمت أن أموت ، ويسرنى أن أموت هذه الميتة المجيدة — وأن أبعد عنى جميع الأفكار الدنيئة ... إن هلاس العظيمة كلها تتطلع إلى ، وما من أحد غيرى يستطيع أن يمد إليها يداً ويسدى إليها تلك النعم : فتسير سفنها ، وتهزم فريجيا عدوتها ، وتنقذ بناتها من البرابرة فى أيامها المقبلة ، حتى لا يستطيع الناهبون أن يختطفوهن من بيوتهن ويقضوا بذلك على سعادتهن ، بعد أن يعاقب باريس على اعتدائه وهلن على ما جللت به نفسها من عار : كل هذا الخير ستناله البلاد بموتى ، وسيكون اسمى مباركا محوطاً بالإجلال لأنى وهبت الحرية لهلاس(٩٠) .

وحين يقبل الجنود ليأخذوها تأمرهم بألا يمسوها بأيديهم وتسير طائعة مختارة إلى كومة وقود التضحية .

وفى مسرحية هكيبا تضع الحرب أوزارها ، ويستولى اليونان على طروادة ، ويقتسم المنتصرون الأسلاب . وترسل هكيبا زوجة پريام پوليدورس

أصغر أبنائها ومعه كنز من الذهب إلى پولمنستر Polymnestor ملك تراقيا وصديق پريام . لكن پولمنستر يطمع فى الذهب فيقتل الغلام ويلقى بجثته فى البحر ، فتقذفها الأمواج فوق ساحل إليون ، وتحمل إلى هكيبا . وفى هذه الأثناء يمنع شبح أخيل الميت الريح من أن تدفع الأسطول اليونانى إلى بلاده ، حتى يضحى له بپولكسينا Polyxena أجمل بنات پريام : ويأتى تلثيبوس Talthybius رسول اليونان إلى هكيبا ليأخذ منها الفتاة ، فيجدها ملقاة على الأرض منفوشة الشعر ذاهلة ، وقد كانت منذ قليل ملكة مكرمة ، وينشد أبياتاً من الشعر تدل على تشكك يوريپديز :

ماذا أقول يا زيوس ؟ — أأقول إنك تنظر إلى الخلق ؟ أم إلى قولنا إن هناك جيلا من الآلهة ليس إلا وهما وخداعاً كاذباً نستمسك به ولا يجدينا نفعاً وإن المصادفة دون غيرها هى التى تسيطر على جميع مصائر البشر؟[٩١] .

والفصل التالى فى المسرحية المركبة هو المرأة الطروادية . وقد مثلت هذه المسرحية الجزئية فى عام ٤١٥ ، بعد أن دمر الأثينيون ميلوس فى عام ٤٠٦ بزمن قليل ، وقبيل الحملة التى سيرت إلى صقلية للاستيلاء عليها وضمها إلى الإمبراطورية الأثينية . وكانت هذه هى اللحظة التى روع فيها يوريپديز بالمذبحة التى وقعت فى ميلوس ، وبالنزعة الاستعمارية الوحشية التى دفعت الأثينيين إلى مهاجمة سرقوصة ، فجرؤ على الجهر بدعوة حارة إلى السلم ، صور فيها ما حدث تصويراً جريئاً على أنه انتصار من وجهة نظر المغلوبين ، وكان تصويره هـــذا « أعظم تشهير بالحرب فى الأدب القديم[٩٢] » . وهو يبدأ حيث ينتهى هومر — بعد الاستيلاء على طروادة . فالطرواديون ملقون على الأرض بعد مذبحة جامعة ، ونساؤهم قد ذهب الروع بعقولهن ، وهن يخرجن من مدينتهن الخربة ليكن سبايا للغالبين . وتقبل هكيبا مع ابنتها أندرمكى وكسندرا بعد أن ضحى بحياة پولكسينا ، ويأتى تلثيبوس ليأخذ كسندرا إلى خيمة أجممنون . وتسقط هكيبا على الأرض

من فرط الحزن ، وتحاول أندرمكي أن تواسيها ، ولكنها هي الأخرى يغلب عليها الجزع حين تضم الأمير الصغير أستياناكس Astyanax إلى صدرها وتذكر أباه الميت .

أندرمكي . . . . ولقد شددت وتر قوسي من زمن بعيد وصوبت سهمي نحو حسن سمعتي ، وأدركت أن سهمي قد أصاب هدفه ، ومن أجل هذا فأنا بعيدة كل البعد عن السلام . لقد أحببت من أجل هكتور كل ما يثني عليه الرجال فينا ، وبذلت جهدي في الوصول إليه . لقد عرفت أن التجوال في خارج البلاد يسئ إلى سمعة المرأة سواء أصابها شر في هذا التجوال أو عادت منه بريئة طاهرة ، ومن أجل هذا قمعت في نفسي هذه الرغبة ، وكان تجوالي في حديقة بيتي ، ولم تدخل قط من باب داري ألفاظ النساء المستهترة أو أحاديثهن المرحة . وتحدثت إلى قلبي ، ولم أكن أبغي ذلك الحديث ، فسعدت به . وكثيراً ما لزمت الصمت وأسبلت العين حين كان هكتور يجيبني ، وحرصت كل الحرص على أساليب الحياة الطيبة وعرفت أين أرشد ، وأين أطيع . . .

ولقد قال الناس إن ليلة واحدة تذلل المرأة وتلقيها في احضان الرجل . فيا للعار ، يا للعار ! أي شفتين هاتين اللتين توردان المرأة موارد الهلكة وتسمحان للغريب أن يقبلهما ؟ . إن أنثى الحيوان الأعجم ، إن المهرة ، لا تجري خالية من الهموم إذا كان رفيقها بعيداً عنها . . .

أي هكتور ! يا أحب الناس إليّ ، لقد كنت زوجي ، وكنت كل شيء لي ، كنت أميري ، وحكيمي ، يا أشجع الشجعان ! إن رجلاً ما لم يمسني أو يقترب مني من يوم أن أخذتني من دار أبي وجعلتني زوجة لك . . . وها أنت ذا قد مِتَّ وقذفت بي الحرب إلى الرق وعيش المذلة في هلاس وراء البحار الكريهة ! .

وتفكر هكيبا في يوم انتقام بعيد فتأمر أندرمكي أن ترضى بسيدها

الحديد لعله يسمح لها أن تربى استياناكاس ، حتى يستطيع فى يوم من الأيام أن يعيد بيت پريام ومجد طروادة . غير أن اليونان كانوا قد فكروا هم أيضاً فى هذا ، ويقبل تلثيبوس ليعلن أن استياناكاس لا بد أن يموت : « لقد قرروا أن يلقى ولدك من فوق سور طروادة العالى ذى الأبراج » . وينتزع الطفل من بين ذراعى أمه ، وتتشبث به أندرمكى إلى آخر لحظة وتودعه وداعاً حاراً وعقلها مشتت مضطرب :

الق الموت يا أحب الناس إلىّ وأعزهم علىّ ، بأيدى رجال عساة غلاظ الكباد ، واتركنى وحيدة فى هذا المكان ؛ لقد كان أبوك شجاعاً مقداماً ، ومن أجل هذا يقتلونك . . . ولا تجد من يرحمك ! . . . ألا أيها المخلوق الصغير الذى تتلوى بين ذراعى ، ما أزكى هذه الرائحة التى تنبعث من حول عنقك ! أيها الحبيب أعبثاً ضمك هذا الصدر وغذاك ، وهل إلى غير غاية قضيت الليالى قلقة أسهر عليك فى مرضك حتى أضنانى السهر ؟ قبلنى قبلة واحدة لن تتكرر بعد ذلك أبداً . أمدد ذراعيك وارفع نفسك حول عنقى ، قبلنى الآن وضع شفتيك فوق شفتى . . . آه أيها اليونان الظرفاء ، لقد عثرتم على نوع من العذاب لم يعرف مثله الشرق من قبل ! . . . أسرعوا خذوه ، جروه ، ألقوه من فوق الأسوار ، إن كنتم تريدون أن تلقوه من فوقها ! مزقوه أيها الوحوش ، عجلوا ! لقد خارت عزيمتى فلست أقوى على رفع يدى لأنجى طفلى من الهلاك .

ثم تأخذ فى الهذيان ، ويغشى عليها ، ويخرج بها الجند ، وحينئذ يظهر مناوس ، ويأمر جنوده أن يأتوه بهلن ، وكان قد أقسم ليقتلنها ، وترتاح هكيبا حين تفكر أن هلن ستلقى آخر الأمر جزاءها :

أباركك يا منلوس ، أباركك إن أنت قتلتها ! ولكن حذار أن تنظر إلى وجهها لئلا تأسرك فتخر صريعاً !

وتدخل هلن ، لم يمسسها أحد بسوء . ولا تخشى أن تمس بسوء ، تزهو إذ تشعر بأنها جميلة .

هكيبا : هل أتيت الآن مزدانة الصدر والجبين ، وهل تتنفسين مع سيدك ما يتنفسه من هواء ، أنت يا ذات القلب الخبيث ، فليطأطأ رأسك ، ولينفش شعرك ، ولتمزق أثوابك ، فلن يكون من تحتها شيء يرفع من شأنك بل سيكون من داخلها ما يجللك العار لما ارتكبت من الآثام . كن صادق العزم أيها الملك ، وضع على جبين هلاس تاج العدالة ، اقتل هذه المرأة . . .

منلوس : صه ، أيها العجوز صه . . . (ثم يلتفت إلى الجند) :

أعدوا لها سفينة كبيرة متعددة الحجرات تجوب فيها البحار . . .

هكيبا : إن من أحب مرة سيظل محباً على الدوام .

وحين تخرج هلن ويخرج منلوس يعود تلثيبوس يحمل جثة أستيانا كس القتيل !

تلثيبوس : لقد سحرت أندرمكى . . . هذه الدموع فى عينى وهى تبكى بلادها من وراء البحار . لقد نظرت إلينا ، وأخذت تتحدث إلى قبر هكتور ، وترجو أياً كان ما نفعله به ألا نغفل المراسم المرعية فى دفن هذا الطفل . . . وأمرتنى أن ألفه فى أربطة الموت وأثوابه وأن أضعه بين يديك . . . (تأخذ هكيبا الطفل) .

هكيبا : آه ! أى موت لاقيت أيها الصغير ! . . . أيتها الذراعان الرقيقان ، إن صورتكما العزيزة لدى بعينها صورة ذراعيه . . . ويا أيتها الشفتان اللتان يشع منهما الكبرياء ، لقد انطبقتا إلى أبد الدهر ! ماذا كانت تلك الكلمات الكاذبة التى نطقت بها وأنت تحبو إلى فراشى ؟ لقد ناديتنى بأسماء رقيقة وقلت لى : أى جدتى ، سأقص شعرى حين تموتين وأركب على رأس القواد إلى قبرك » . لم خدعتنى هذا الخداع ؟ وها أنذا ، العجوز ، الطريدة ، الثكلى ، أبكيك بالدمع الغزير ، أبكى طفولتك وأبكى ميتتك التعسة . أى إلهى ! وأبكى خطاك حين تجىء لترحب بى ، وأبكى جلوسك فى حجرى ، وأبكى رقادنا معاً ! لقد ذهب كل هذا ولن يعود . وكيف يستطيع شاعر أن ينحت شاهد قبرك ليقص قصتك صادقة ؟

« هنا يثوى طفل خافه اليونان ، فقتلوه لأنهم خافوه » . نعم ، وستبارك بلاد اليونان بأجمعها القصة التى يقصها ذلك الشاهد .

ألا ما أشد غرور الإنسان ، إنه يتباهى بمسراته ولا يخاف شيئاً ، ومن حوله صروف الزمان ترقص رقص البلهاء فى الريح ! . . . (تلف الطفل فى أكفانه) .

إن أحسن الثياب الفريجية التى كنت أحتفظ بها ليوم زواجك بإحدى ملكات الشرق بعد أن جبت البلاد القاصية للبحث عنها ، إن هذه الثياب تلفك الآن إلى أبد الدهر (٩٨) . .

وفى مسرحية إلكترا نرى الموضوع القديم قد خطا خطوات إلى الأمام فأجممنون قد مات ، وأرستيز فى فوسيس ، وإلكترا قد زوجتها أمها بفلاح يخلص لها إخلاصاً ساذجاً ، ويرهب أصلها الملكى أشد رهبة ؛ ولا يؤثر فى إخلاصه لها ورهبته إياها طول تفكيرها فى أمرها وإهمالها شئونه . وبينا هى تفكر هل يعثر عليها أرستيز ويأتى إليها إذ يأمره أپلو نفسه (ويؤكد يوريپديز هذه النقطة ويحرص على إبرازها) بأن يثأر لموت أجممنون . وتستفزه إلكترا ، وتقول إنه إذا لم يقتل السفاح فستقتله هى ، ويبحث الصبى عن إيجستس ويقتله ثم ينقلب على أمه . وتبدو كليتمنسترا هنا عجوزا شمطاء ، ذليلة ، منهوكة القوى ، ويؤنبها ضميرها على جرائمها ، يتنازع قلبها خوف الأطفال الذين يكرهونها وحبها إياهم فى نفس الوقت ، وتطلب الرحمة فى غير توسل ، وترضى إلى حد ما بما جوزيت به على ذنوبها . وحين ينتهى القتل يرتاع أرستيز من هول ما حدث ويقول :

شقيقتى هل لمستها مرة أخرى ، واحسرتاه غطى جسدها ، وضمى عليه ثوبها الجميل ، وسدى هذا الجرح الأحمر المميت . أى أماه ، هل كانت نتيجة آلامك أن ولدت قاتلك (٩٩) ؟ .

ويسمى يوريپديز الفصل الخامس من فصول المسرحية إفچينيا فى توريس

أو إفچينيا بين التوريين . وفيه يبدو أن أرتميس قد وضعت على كومة الحريق فى أوليس غزالة بدل ابنة أجممنون ، واختطفت الفتاة من اللهب ، وجعلتها كاهنة فى معبد أرتميس بين التوريين أنصاف الهمج سكان القرم . وكانت عادة التوريين أن يضحوا للآلهة بكل غريب تطأ قدمه بلادهم ، وتقوم إفچينيا بدور العاملة البائسة الشقية التى تقدم الضحايا . وكانت الثمان عشرة سنة المليئة بالأحزان التى قضتها خارج بلاد اليونان قد بلدت ذهنها . وكان أپلو قد وعد أرستيز على لسان الوحى أن ينزل السكينة على قلبه إذا انتزع من التوريين صورة أرتميس المقدسة وجاء بها إلى أتكا . ويبحر أرستيز وپيلاديز ويصلان آخر الأمر إلى أرض التوريين ، ويقبلهما هؤلاء الناس ويرونهما هدية طيبة أهداها البحر إلى أرتميس ، ويسرعون بهما ليذبحوهما على مذبحها . وتنتاب أرستيز نوبة عصبية يخر على أثرها مغشياً عليه عند قدمى إفچينيا ، وهى ، وإن كانت لا تعرفه ، تأخذها الشفقة عليه حين ترى رفيقين فى نضرة الشباب يساقان إلى الموت :

إفچينيا : إن أحداً من الناس لم يعط علم بداية أحزانه أو نهايتها ؛ ذلك أن الله خفى ، وأساليبه كلها تخفيها المصادفات العمياء عنا فلا نعرفها : ألا أيها الرجلان الشقيان ، من أين جئتما ؟ . . . ومن أمكما . . . ؟ ومن أبوكما ؟ أفصحا أيها الغريبان ، ومن هى أختكما إن كانت لكما أخت ؟ ولم تركانها من غير أخوة وكلا كما فى ميعة الصبا ونضرة الشباب وشجاعته . . . ؟

أرستيز : ألا ليت يد أختى تسبل عينى وأنا مسجى على فراش الموت !

إفچينيا : وا أسفاه ، إنها تعيش تحت سماوات بعيدة ، ودعاؤك أيها الشقى لا يجديك نفعاً . ولكنك من أرجوس ، ومن أجل هذا فسأقدم لك كل ما فى وسعى من عناية ، ولن أضن عليك بشىء منها . سآتيك بثياب ثمينة تدفن فيها ، وبزيت يبرد كومة حريقك حين يلفها اللهب الذهبى ، وسألقى عليها الشهد الذى جمعه النحل الطنان من آلاف الأزهار الجبلية لكى يفنى معك فى وسط العبير .

وتعدهما بأن تنجيهما إذا حملا معها إلى أرجوس رسالة تأمرهما بأن ينقشاها فى ذاكرتهما .

إفچينيا : قولا « لأرستيز بن أجممنون إن التى قتلت فى أوليس ، والتى قتلتها بلاد اليونان ولكنها لا تزال حية ، إن إفچينيا تبعث إليه السلام » .

أرستيز . إفچينيا ! أين هى ؟ أعادت من بين الأموات ؟

إفچينيا أنا هى ! ولكن لا تتكلم حتى لا تفسد علىّ تدبيرى . « خلنى يا أخى إلى أرجوس قبل أن أموت » .

ويريد أرستيز أن يضمها بين ذراعيه ، ولكن الحراس يمنعونه ، لأن كاهنة أرتميس لا يصح أن يمسها إنسان . ويعلن أنه أرستيز ، ولكنها لا تصدقه فيقنعها بأن يذكر لها القصص التى روتها لها إلكترا .

إفچينيا : أهذا هو الطفل الذى عرفته ، الطفل الصغير قد انتقل خفيفاً كما ينتقل الطير ؟ . أى أرض أرجوس ، أيها الموقد ، أيها اللهب المقدس الذى أشعلك سكلويس الشيخ ، إنى أباركك لأنه عاش ، ولأنه نما ، وصار ضياء وقوة ، أخى وابن أبى ، إنى أبارك اسمك إلى أبد الدهر[٩٥] .

ويعرضان عليها أن ينجياها من أسرها ، وتساعدهما هى على أن يأخذا صورة أرتميس . ويستطيعان بحيلتها الماهرة أن يصلا آمنين إلى سفينتهما ، ويحملان التمثال إلى برورون Brauron . وفيها تصير إفچينيا كاهنة ، وتصبح بعد موتها إلهة معبودة . ويتخلص أرستيز من ربات الانتقام ، وينعم بالطمأنينة والسلام بضع سنين ، وتروى الآلهة غليلها وتتم مسرحية أطفال تنتالوس .

٢ — يوريبديز الكاتب المسرحى

لا مناص لنا من أن نوافق أرسطاطاليس عن أن هذه المسرحيات ، إذا نظرنا إليها من ناحية الفن المسرحى ، لا تصل إلى المستوى الذى وضعه له إسكلس

وسفكليز[٩٦] . نعم إن مسرحيات ميديا ، وهيوليتس ، والباخيات قد رسمت لها خطة محكمة ، ولكن هذه المسرحيات نفسها لا يمكن مع ذلك أن توازن من حيث سلامة التركيب والبناء بمسرحية أرستيا ، أو من ناحية الوحدة المعقدة بمسرحية أوديب الملك . ذلك أن يوربديز لا يثب دفعة واحدة إلى الحادثة الهامة فى المسرحية فيعرضها ثم يفسر بعدئذ مقدماتها تفسيراً تدريجياً طبيعياً فى سياق القصة ، بل نراه يستخدم الوسيلة المصطنعة وسيلة المقدمة التمهيدية ؛ بل يفعل ما هو أسوأ من هذا فيضعها على لسان إله من الآلهة . وهو لا يظهر لنا هذه الحادثة من بادئ الأمر كما يقضى بذلك فن التمثيل ، بل نراه يأتى فى كثير من الأحيان برسول يصفها وإن لم يكن فيها شىء من العنف . يضاف إلى هذا أنه لا يجعل الغناء الجماعى جزءاً من الحوادث التى تمثل ، بل يحوله إلى عمل فرعى ثانوى ، ويستخدمه لوقف تطور حوادث المسرحية بما يتضمنه من أغان جميلة على الدوام ، ولكنها كثيراً ما تكون عديمة الصلة بتلك الحوادث . وهو لا يعرض ما يريد من آراء عن طريق الحادثات التى تتضمنها المسرحية ؛ بل يعمد إلى استبدال الأفكار بالحادثات ويجعل المسرح مدرسة للتأمل والبلاغة والجدل . وما أكثر ما تعتمد حبكات مسرحياته على المصادفات « والذكريات » — وإن كانت الأفكار هنا حسنة التنظيم ومعروضة عرضاً مسرحياً صادقاً . وتختتم معظم مسرحيات يوربديز بإله ينزل من آلة (كما كان يفعل بعض الكتاب من قبله) ، وتلك وسيلة لا يمكن أن نغتفرها له إلا إذا افترضنا أن المسرحية الحقيقية قد اختتمت قبل هذه الحيلة الدينية . وأن الإله لم ينزل إلا لكى يختتم التمثيل بخاتمة فاضلة لولاها لكان فى نظرهم شائناً فاضحاً[٩٧] . وقد استطاع عظماء الكتاب الإنسانيين دون غيرهم أن يعرضوا بهذه الوسيلة مروقهم وإلحادهم على المسرح :

أما مادة المسرحية فهى ، كصيغتها وشكلها ، خليط من العبقرية والصناعة ، وسبب ذلك أن أهم ما يمتاز به يوربديز هو الإحساس المرهف كما يجب أن

يكون سائر الشعراء . وهو يحس بمشاكل الجنس البشرى إحساساً قوياً ويعبر عنها تعبيراً مؤثراً عظيم الوقع فى النفوس ؛ ومآسيه أشد المآسى فجائع وهو أعظم كتابها إنسانية ، ولكن إحساسه يكون فى أغلب الأحيان مفرطاً فى الحنو أو متكلفاً له ؛ و « إذرافه الدمع السخين(٩٨) » أيسر مما يجب أن يكون ؛ وهو لا يدع فرصة تفلت منه ويستطيع أن يظهر فيها أماً تفارق طفلها ، وينتزع كل ما يستطيع انتزاعه من العواطف من كل موقف من المواقف : وتلك المناظر دائمة الحركة ، وهو يصفها فى بعض الأحيان بقوة لا تعادلها قوة أى وصف من المآسى قبله أو بعده ، ولكنها تنحط أحياناً إلى التمثيل الشجوى الغنائى وتتخم بالعنف والرعب كما ترى فى خاتمة مسرحية ميديا . وقصارى القول أن يوربديز فى بلاد اليونان هو بيرن ، وشلى ، وهوجو ، مجتمعين ، وهو بمفرده حركة إبداعية كاملة .

وهو يفوق منافسيه فى تصوير الشخصيات ، ويحل عنده التحليل النفسى ، أكثر مما يحل عند سفكليز نفسه ، محل تصاريف القضاء . وهو لا يمل من تقصى القوانين الأخلاقية والبواعث التى تحدد سلوك بنى الإنسان . ويدرس أنواعاً مختلفة من الرجال : من زوج إلكترا الفلاح إلى ملوك بلاد اليونان وطروادة ؛ ولسنا نجد كاتبا مسرحيا غيره قد صور مثل ما صور هو من أصناف النساء المختلفة ، أو صورها بمثل ما صورها هو من العطف عليها ؛ فقد كان كل لون من ألوان الرذيلة أو الفضيلة يهمه ويسترعى انتباهه ، فيصوره تصويراً واقعياً . وهو فى هذا يختلف عن إسكلس وسفكليز ؛ فقد كان هذان الكاتبان مستغرقين فيما هو عام وأبدى استغراقاً عجزا معه عن رؤية ما هو فردى ومؤقت سريع الزوال ؛ وقد خلقا بذلك أصنافاً من الشخصيات عميقة غير عادية ، أما يوربديز فقد صور أفراداً أحياء ، وحسبنا شاهداً على هذا أن أحداً ممن عاش قبله لم يتصور إلكترا بمثل الوضوح الذى تصورها هو به . وفى هذه المسرحيات نرى المسرحيات التى تمثل الصراع مع الأقدار تتخلى عن مكانها شيئاً فشيئاً إلى المسرحيات التى

تمثل المواقف والأخلاق ، وهى تمهد السبيل للمسلاة الخلقية التى استحوذت فى القرن التالى على المسرح اليونانى على أيدى فلمون Philemon ، ومنندر Menander .

٣ — يوربديز الفيلسوف

لكن من السخف أن يكون أهم ما نقدر به يوربديز هو مسرحياته ، ذلك أن أهم ما يعنى به لم يكن الفن المسرحى ، بل كان البحث الفلسفى والإصلاح السياسى ، فهو وليد السوفسطائيين ، وشاعر الاستنارة ، وممثل الشباب المتطرف الذى كان يسخر من الأساطير القديمة ، ويرنو بطرف إلى الاشتراكية ، ويدعو إلى نظام اجتماعى جديد يقل فيه استغلال الرجال للرجال والرجال للنساء ، واستغلال الدولة لهؤلاء وأولئك ، وهذه النفوس الثائرة هى التى كان يكتب لها يوربديز ، وهى التى كان من أجلها يضيف إلى مسرحياته تلك الغمزات المتشككة ، ويحشر مئات الضلالات بين سطور مسرحياته الدينية المزعومة ، وهو يغطى هذه وتلك بفقرات مليئة بعبارات التقى والصلاح وبالأغانى الوطنية . وكان يعرض الأساطير المقدسة بحرفيتها فيبدو ما فيها من سخافات وأباطيل واضحاً جلياً ، ومع ذلك فإن أحداً لا يستطيع أن يتهمه بالمروق من الدين ، وهو يدعو فى مسرحياته بوجه عام إلى التشكك فى الآلهة والدين ، ولكنه يوجه ألفاظها الأولى والأخيرة إلى الآلهة . ويرجع بعض ما يمتاز به من الدهاء والذكاء ، كما يرجع دهاء رجال دوائر المعارف الفرنسيين وذكاؤهم ، إلى أنه قد أرغم على أن يفصح عن آرائه وهو يحاول إنقاذ حياته . ولقد كان شعاره هو شعار لكريشيوس :

Tantum religio potuit suader emelorum . ما أكثر الشرور التى يدفع إليها الدين : نبوءات تولد العنف فى أثر العنف ، وأساطير ترفع من شأن الفساد الخلقى بما تضربه من أمثلة قدسية ، وما تعلنه من رضا الآلهة عن الخيانة

والزنا والتلصص ، والتضحية بالآدميين ، والحروب . وهو يصف العراف بأنه « رجل ينطق بقليل من الحقائق وكثير من الأباطيل[٩٩] » ؛ ويقول ، إن « من البلاهة المحضة » تعرف المستقبل بالفحص عن أحشاء الطير[١٠٠] ؛ ويندد بجميع الوسائل التي تستخدم لمعرفة الغيب واستنزال الوحي[١٠١] ؛ وأهم من هـــذا كله أنه يستنكر أشد الاستنكار ما تؤدى إليه الخرافات الرائجة من نشر الفساد ويقول :

سيدرك الناس أن لا وجود لآلهة ، وأن لا ضوء في السماء ، إذا كان الباطل سيغلب الحق في آخر الأمر . . . لا تقل إن في السماء زانياً وزانية ، وآلهة مسجونين وآلهة سجانين : لقد أحس قلبي من زمن بعيد أن هـــذه خسة ودناءة ، ولن أتحول قط عن هذا الإحساس . . . إنما هـــذه كلها أقاصيص كاذبة ، شأنها شأن الحفلات الهمجية التي تقام لتنتالوس ، وللآلهة التي تمزق أجساد الأطفال . إن هذه الأرض أرض السفاحين قد خلعت على الآلهة ما تتصف به هي من جشع وشهوانية . والشر ليس مقره السماء . . . وهذه كلها أقاصيص ميتة آثمة من اختراع المغنين[١٠٢] .

وتراه أحياناً يقلل من حدة هذه الفقرات بترانيم لديونيشس أو مزامير دينية للآلهة مجتمعة ، ولكنه في بعض الأحيان ينطق إحدى شخصياته بتشككه في الآلهة جميعاً :

هل في الناس من يقول إن في السماء آلهة ؟ كلا ! ليس في السماء آلهة ، ليس فيها آلهة ، لا تسمحوا لأحد هؤلاء الحمقى الذين غرتهم هذه الخرافات الباطلة أن يخدعكم ويضللكم هـــذا الضلال . انظروا إلى الحقائق في ذاتها ، ولا تثقوا بكلماتي أكثر مما تستحق أن يوثق بها ؛ إني أصارحكم أن الملوك يقتلون ، وينهبون ، ويحنثون في أيمانهم ، ويخربون المدن زوراً وغدراً ، ولكنهم رغم هذه الآثام أسعد حالا من الذين يحيون حياة هادئة ملؤها التقى والصلاح[١٠٣]

وهو يبدأ مسرحيةميلانبي المفقودةبهذين البيتين اللذين يثيران أعظم الدهشة :

أى زيوس ، إن كان ثمة زيوس ، لأنى لاأعرف عنه إلا ما يقوله الناس فيه .

ويقال إن النظارة حين سمعوا هذا القول هبوا واقفين احتجاجاً عليه ، وهو يختم هذه المسرحية بقوله :

والآلهة الذين يعدهم البشر حكماء ، ليسوا أكثر وضوحاً من أحلام مجنحة ، ولا تختلف أساليبهم عن أساليب الآدميين ، فهي كلها فوضى واضطراب يتلوه اضطراب . ومن أراد أن يكون أقل الناس عذابا ، وألا تعمى بصيرته كما يعمى الكهنة بصائر البلهاء ، يمضى إلى الموت الذى يعرفه من يعرفونه(١٠٤) .

وهو يعتقد أن مصائر الناس نتيجة لأسباب طبيعية ، أو للمصادفات العمياء ، وليست من تدبير قوى عاقلة مفكرة تتصف بها كائنات تسمو على الكائنات البشرية(١٠٥) ، ويفسر بعض ما يظنه الناس معجزات تفسيراً يستند إلى العقل والمنطق : فيقول مثلا إن ألسستيز لم تمت حقاً ، بل أخذت لكى تدفن حية ، ولكن هرقل أدركها قبل أن تموت(١٠٦) وهو لايقول لنا صراحة ما يعتقده هو نفسه فى هذا ، ولعل منشأ ذلك هو شعوره بأن ما يورده من الشواهد لايؤدى إلى الاعتقاد الواضح ؛ لكن عباراته التى هى أكثر ما يمتاز بها عن غيره هى العبارات الدالة على الإيمان بوحدة الوجود ، وعلى العقيدة التى أخذت من ذلك الوقت تحل عند المتعلمين من اليونان محل عقيدة الشرك القديمة :

« ياصاحب الأساس العميق الذى يقوم عليه العالم ، وياذا العرش الرفيع الذى يعلو على العالم ، أيا كنت ، يا من لا نعرفك ويصعب علينا أن نتصورك ، يا منسق الموجودات ، ويا عقل عقولنا ؛ إليك يا الله أرفع صوتى بالثناء ، لأنى أرى فيك السبيل الصامتة التى تأتى بالعدالة ، قبل أن يصل إلى نهاية أجله كل من يحيا ويموت(١٠٧) .

والعدالة الاجتماعية هي النغمة الصغرى في أغانيه ؛ وهو يتمنى ، كما يتمنى جميع من امتلأت قلوبهم عطفاً على الخلق ، أن يحين الوقت الذي يكون فيه الأقوياء أكثر مما هم عطفاً على الضعفاء ، والذي يقضى فيه على أسباب البؤس والنزاع(١٠٨) ؛ وتراه حتى في أيام الحرب ، وما تستلزمه من إثارة الروح الوطنية والحماسة للقتال ، يصف مصائب الحرب وأهوالها وصفاً واقعياً لا يخفى فيه شيئاً هذه الأهوال :

كيف تعمى عيونكم يا من تدكون المدن ، وتخربون المعابد ، وتدمرون القبور ، تلك الأجداث المحرمة التي يثوى فيها الموتى القدامى ؟ ألا تعلمون أنكم عما قريب ستموتون(١٠٩) ؟ :

ويمتلئ قلبه حسرة حين يرى الأثينيين يقاتلون الاسپارطيين ، وتدوم الحرب بينهم خمسين عاماً ، يستعبد فيها بعضهم بعضاً ، ويهلك فيها خير رجالهم ؛ ويدعو في إحدى مسرحياته المتأخرة دعوة حارة مؤثرة إلى السلام :

« أيتها السلم ؛ إنك تفيضين بالخير العميم كأنك تأتين به من نبع عميق ؛ ليس في العالم كله جمال كجمالك ، بل إنا لا نرى له مثيلا حتى بين الآلهة الأخيار . إن قلبي يكاد يتفطر لطول غيابك ، لقد وهن العظم مني ولم تعودي ؛ وهل تكل عيناي قبل أن تريا زهرتك وجمالك ؟ وهل يقضي على المشيب والأحزان قبل أن تسمع أذناي مرة أخرى أغاني الراقصين الشجية ووقع أقدام من تطوق رؤوسهم أكاليل الزهر ؟ ألا عودي إلى مدينتنا أيتها الحبيبة المقدسة ولا تقيمي بعيدة عنا يا من تطفئين الحقد . إن العداوات والأحقاد ستفارقنا إذا أقمت معنا وسيخرج من أبوابنا الجنون وظبا السيوف(١٠٩) .

ويكاد ينفرد من بين كتاب عصره العظام بالجرأة على مهاجمة الرق . ذلك أنه قد اتضح له في أثناء حرب البلوبونيز أن معظم الأرقاء لم يكونوا كذلك بطبيعتهم ، بل إنهم قد ساقتهم إلى هذه الحال ظروف الحياة وحدها ؛

وهو لا يعترف بوجود أرستقراطية طبيعية ، ويرى أن البيئة لا الوراثة هي التي تخلق الرجال . والأرقاء في مسرحياته يضطلعون بأدوار هامة ، وكثيراً ما ينطقون بأجمل أشعاره . وهو حين يبحث حال النساء يعطف عليهن عطف الشاعر الواسع الخيال ؛ فهو يعرف أغلاطهن ويعرضها عرضاً واقعياً جعل أرسطوفان يتهمه بأنه يكره النساء ؛ ولكنه في الحقيقة قد عرض قضية المرأة أحسن مما عرضها أي شاعر قديم آخر أيد حركة تحريرها التي كانت وقتئذ في بداية عهدها . وتكاد بعض مسرحياته أن تكون حديثة الطابع ، تحتوى على دراسات في مشاكل الجنس البشرى كالدراسات التي نشأت بعد أيام إبسن Ibsen بل إنها تحتوى على دراسات في الشذوذ الجنسى نفسه[١١٠] . وهو يصف الرجال وصفاً واقعياً ، أما النساء فوصفه إياهن ينطوى على كثير من الشهامة ، وتنال ميديا الرهيبة من عطفه أكثر مما يناله جيسن البطل غير الوفي ، وهو أول كاتب مسرحي جعل المسرحية تدور حول الحب ؛ حتى لقد كان آلاف من شباب اليونان يتغنون بأغنيته إلى إيروس إله الحب في مسرحية إندرمدا التي لم تصل إلينا :

« أيها الحب ، إلهنا ، ملك الآلهة والبشر ! هلا امتنعت عن تعليمنا ما هو الحب ؟ أو ساعدت المحبين المساكين ، الذين تشكلهم كما تشكل الطين ، كي يصلوا بكدحهم وجدهم إلى غاية موفقة سعيدة[١١١] » .

ويوربديز بطبيعته متشائم ، لأن كل من يروى قصص الحب يصبح متشائماً حين تصطدم الحقيقة بالخيال ، وفي ذلك يقول هوراس ولبول Heraces Walpole « إن الحياة مسلاة عند من يفكرون ، ومأساة عند من يحسون[١١٢] » : ويقول شاعرنا :

لقد نظرت من أمد بعيد إلى حياة الإنسان فلم أجد إلا خيالا أشمط . وفي وسعي أن أؤكد أيضاً أن الذين يعدون من بين الناس حكماء ، شديدى الذكاء ، مبتدعين لأعظم الخطط ، يجزون على هذا شر الجزاء . وهل

أبصرت عين الله مذ بدأت الحياة رجلا واحداً سعيداً[١١٣] ؟ .

وهو يعجب من جشع الإنسان وقسوته ، ومن الشريرين وسعة حيلتهم ، ومن اختطاف الموت للناس اختطافاً دنيئاً خبط عشواء . وهو ينطق الموت فى بداية مسرحية ألسيس بقوله : « أليست مهمتى أن أقبض أرواح المقضى عليهم ؟ » ؛ ويجيبه أبلو بقوله : « لا ؛ بل مهمتك أن تقبض من نضجوا ووصلوا إلى الشيخوخة الكاملة » . ومن رأيه أن الموت إذا جاء بعد أن يحيا الإنسان حياته كاملة كان أمراً طبيعياً ، لا يصح أن يغضب أحد منه : « لو أن كل جيل من الناس جاء فى أثر الجيل الذى قبله ، وازدهر ثم ذبل ، ثم انقضى أجله ، كما يأتى الحصاد بعد الحصاد على مر السنين ، لو أن هذا حدث لما بكينا صروف الزمان وما تصيبنا به الأقدار : إن هذا هو الذى تجرى به سنن الطبيعة ، ومن واجبنا ألا نبتئس بما تجعله قوانينها أمراً محتوما لا مفر منه[١١٤] » . وينتهى أمره إلى الرواقية : « اصبر كما يجب أن يصبر الرجال ، ولا تضجر[١١٥] » . وتراه من حين إلى حين يحلو حذو أنكسيانس Anaximenes ويستبق فلسفة الرواقيين فيواسى نفسه بالتفكير فى أن روح الإنسان جزء من الهواء المقدس ، النيوما Pneuma ؛ وفى أنها ستبقى بعد الموت جزءاً من روح العالم[١١٦] .

من يدرى ؟ لعل هذا الذى نسميه موتا هو حياة ، ولعل ما نسميه حياة هو الموت ؟ وكل ما هنالك من فرق أن الناس وهم أحياء يقاسون مرارة الأحزان ، فإذا ما أســاموا الروح ، لم تبق لديهم أحزان ، ومن ثم لا يحزنون[١١٧] .

٤ – يوربيديز الطريد

إن الرجل الذى نصوره من مسرحياته هذا التصوير ليشبه تمثاله الجالس فى متحف اللوفر ، وتماثيله النصفية فى نابلى ، شبهاً يحملنا على الاعتقاد بأن هذه التماثيل منقولة نقلا أميناً عن أصول يونانية حقيقية . فوجهه الملتحى وسيم ، ولكنه أضناه التفكير ، ورققه الحزن الحنون ، ويتفق أصدقاؤه وأعداؤه على أنه كان مكتئب الطبع يكاد أن يكون نكداً ، لا يميل إلى المرح أو الضحك ، وأنه قضى سنيه الأخيرة فى عزلة فى أرض الجزيرة التى ولد فيها . وكان له ثلاثة أبناء ذكور كانت طفولتهم سبباً فيما استمتع به من سعادة قليلة[١١٨] . وكان يجد سلواه فى الكتب ، ومبلغ علمنا أنه كان أول مواطن فرد فى بلاد اليونان جمع لنفسه مكتبة كبيرة(*)[١١٩] . وكان له أصدقاء أخيار ، منهم بروتاغوراس ومنهم سقراط ؛ ولم يكن ثانيهم يهتم بالمسرحيات ولكنه كان يقول إنه لا يتردد فى أن يسير إلى بيريه مشياً على قدميه ليشهد مسرحية من مسرحيات يوربيديز ، وذلك لعمرى قول خطير لصدوره من فيلسوف كبير . وكان الجيل الناشئ ممن تحررت عقولهم ، من أسر التقاليد يعدونه زعيما لهم ، ولكنه كان له من الأعداء أكثر مما كان لأى كاتب آخر فى تاريخ اليونان . وقد اقتصر القضاة الذين كانوا فيما نظن يرون

(*) لقد كانت فى بلاد اليونان على الدوام دور كتب تقتنيها الدولة أو الملوك كما رأينا فى خلال هذه القصة ؛ ويمكن تتبع هذه المجموعات فى مصر إلى أيام الأسرة الرابعة . وكانت المكتبة اليونانية تتألف من ملفات مرتبة فى عيون صوان . وكان نشر الكتاب عندهم يعنى أن مؤلفه أباح نسخ مخطوطة ونشر النسخ المنقولة عنه . فإذا حدث هذا جاز بعد ذلك كتابة عدة نسخ من المخطوط من غير حاجة إلى إذن المؤلف أو الحصول منه على « حق النشر » . وكانت النسخ المنقولة من المؤلفات الشعبية المتداولة كثيرة العدد ولم تكن كثيرة التكاليف . ويحدثنا أفلاطون فى الأبولوجيا أن رسالة أنكسغوراس فى الطبيعة يمكن شراؤها بدرخمة واحدة (أى ريال أمريكى) ، وقد أصبحت أثينة فى عصر بركليز مركز تجارة الكتب فى بلاد اليونان .

أن واجبهم يقضى عليهم بأن يحموا الدين والأخلاق من سهام تشككه ، اقتصر هؤلاء القضاة على تتويج خمس من مسرحياته بتاج النصر ، ولقد كان الأركون المشرف على شئون الدين سخياً غاية السخاء حين قبل هذا العدد من مسرحيات يوريپديز ضمن المسرحيات التى يجيز تمثيلها الدين . وكان المحافظون على اختلاف نزعاتهم يلقون عليه هو وسقراط تبعة انتصار نزعة الكفر بالآلهة بين شباب أثينة . وحاربه أرسطوفان من بادئ الأمر فى مسرحية الأركانيين ، وهجاه وصـــوره تصويراً هزلياً مرحاً فى مسرحية الشموفريازوسى ؛ وفى السنة التالية لموت الشاعر واصل هجومه عليه فى مسرحية الضفادع . على أنه يقال لنا رغم هذا إن الكاتبين كاتب المآسى وكاتب المسالى ، ظلا صديقين إلى النهاية[١٢٠] . أما النظارة فكانوا يندون بإلحاده ويهرعون إلى مشاهدة مسرحياته . ولما أن نطق الصياد الشاب فى السطر ٦١٢ من مسرحية هپوليتس بقوله « لقد أقسم لسانى ، ولكن عقلى لا يزال طليقاً » احتج الجمهور احتجاجاً قوياً على ما ظنه انتهاكاً شديداً لحرمة الآداب والدين حتى اضطر يوريپديز أن يقف فى مكانه ويهدئ ثائرتهم بأن يؤكد لهم أن هپوليتس سيجرى على قوله هذا الجزاء الأوفى قبل انتهاء القصة - وهو وعـــد مأمون العاقبة يكاد يصدق على كل شخصية فى المأساة اليونانية .

ووجهت إليه حوالى عام ٤١٠ تهمة المروق من الدين ، ولم يمض بعدئذ إلا قليل من الوقت حتى وجه إليه هجيانون Hygianon تهمة أخرى ، تتصل بالجزء الأكبر من ثروته ، واستدل على خيانة يوريپديز بالبيت الذى نطق به هپوليتس . وبرئ الشاعر من التهمتين ، ولكن موجة السخط التى قوبلت بها مسرحية المرأة الطروادية أشعرت يوريپديز أنه لم يكد يبقى له صديق واحد فى أثينة . ويقال إن زوجته نفسها قد انقلبت عليه لأنه لم

يشترك فى حفلات الزواج الحماسية فى المدينة ، وما وافت سنة ٤٠٨ ، وكان قد بلغ الثانية والسبعين من العمر ، حتى قبل دعوة وجهها إليه الملك أرخلوس Archelaus لينزل ضيفا عليه فى عاصمة مقدونية . ووجد يوربيديز فى مدينة پلا Pella تحت حماية هذا الفردريك(*) — ولم يكن كذلك بروسيا يخشى منه على عقائد شعبه — وجد فى هذه المدينة الطمأنينة والراحة ، وفيها كتب مسرحية إفجينيا فى أوليس التى تكاد تكون كلها من قصائد الرعاة ، ومسرحية الباخيات الدينية العميقة . ومات بعد ثمانية عشر شهرا من قدومه إلى تلك المدينة ، ويقول أشقياء اليونان إن موته كان نتيجة لهجوم كلاب الملك وتمزيقها جسده .

وبعد سنة من موته عرض ابنه المسرحيتين فى احتفال المدينة بعيد الديونيشيا ومنحهما القضاة الجائزة الأولى . ويظن النقاد ، ومنهم العلماء المحدثون أنفسهم ، أن مسرحية الباخيات كانت ترضية قدمها يوربيديز للدين اليونانى[١٢٢] . على أنه ليس ببعيد أن يكون قد قصد بالمسرحية أن تكون قصة رمزية لما لقيه يوربيديز من معاملة على أيدى الشعب فى أثينة .

وتقص المسرحية كيف مزقت جماعة من النساء المتظاهرات فى الحفلات الديونيشية تقودهن أجيف Agave أم پنثيوس Pentheus ملك طيبة ، تقول كيف مزقت أولئك النسوة جسم هذا الملك لأنه طعن خرافتهن الباطلة الهمجية وتدخل من غير حق فى شئون حفلاتهن .

ولم تكن هذه الفكرة جديدة ؛ فإن القصة من الأساطير الدينية المأثورة . وكانت أسطورة التضحية بحيوان أو تمزيق جسم إنسان إذا جرؤ على حضور هذه المواكب جزءا من الطقوس الديونيشية . وقد ربطت هذه المسرحية

(*) يقصد أرخلوس نفسه الذى استضاف يوربيديز كما استضاف فردريك الأكبر ملك بروسيا فلتير . (المترجم)

القوية بين المأساة اليونانية فى عنوان قوتها وبين المأساة اليونانية فى بداية نشأتها ، وذلك بعودتها إلى استمداد حنكتها من قصة ديونيشس . وقد ألف الشاعر هذه المسرحية بين جبال مقدونيا التى تصفها فى أشعار لا تضعف قوتها ، ولعله كان يقصد أن تمثل فى بلاد حيث كانت عبادة باخوس Bacchus ذات قوة عظيمة . وهى تدل على علم مدهش غزير بالطقوس الدينية ونشوتها ؛ وفيها ينطق عباد باخوس بمزامير تدل على الخشوع والصلاح ليس ببعيد أن يكون الشاعر قد تجاوز فيها حدود العقلية ، وأدرك وقتئذ ضعف العقل ، وأن العواطف والمشاعر لا بد منها للنساء والرجال على السواء . ولكن القصة تحيي من طرف خفى الدين الديونيشى ، وموضوعها هى الأخرى هو ما قد ينشأ من العقائد الخرافية من شرور .

وتفصيل ذلك أن الإله ديونيشس يزور طيبة متخفيا فى صورة باخوس أو متجسداً ويدعو إلى عبادة ديونيشس . وترفض بنات كدمس رسالته فيسلبهن وعيهن ويبث فيهن نشوة دينية قوية ، فيذهبن إلى التلال ليعبدنه بالرقص الهمجى العنيف ، ويرتدين جلود الحيوان . ويتمنطقن بالأفاعى ، ويضعن على رؤوسهن أكاليل من اللبلاب ، ويرضعن صغار الذئاب والظباء ، ويقاوم ملك طيبة هذه الطقوس ويقول إنها تناقض العقل والأخلاق والنظام ، ويسجن الداعى إليها فيصبر على العقاب صبر المسيحيين الأولين . ولكن الإله الذى فيه يتجلى ويفتح جدران السجن ويستعين بقوته الإلهية على تخدير الحاكم الشاب . ويلبس بنثيوس تحت هذا التأثير ثياب امرأة ، ويتسلق التلال وينضم إلى جماعة المحتفلات وتتبين النسوة أنه رجل ، فيمزق جسمه إرباً . وتحمل أمه ، التى تملكتها « النشوة » ، فأفقدتها وعيها ، رأسه

المفصول في يديها ظناً منها أنه رأس أسد ، وتغنى عليه أغنية نصر . ثم تفيق فتدرك أنها تمسك برأس ابنها ، وتشمئز من تلك الطقوس التي أسكرتها وأفقدتها وعيها ، ويقول لها ديونيشس إنها سخرت منه وهو إله ، وإن ذلك هو جزاؤها على هذه السخرية ، فتجيبه بقولها وهل يليق بالإله أن يشبه بالرجل المتكبر في نوبة غضبه ؟ والدرس الأخير الذي يلقيه علينا يوربديز في هذه المسرحية هو بعينه الذي يلقيه علينا في أولى مسرحياته ، ولقد كان يوربديز في مسرحيته التي وضعها وهو يحتضر هو بعينه يوربديز الذي عهدناه في أيامه الأولى .

وذاع صيته وأحبه الناس بعد موته حتى في أثينة نفسها ، وأصبحت الفكرة التي جاهد من أجلها هي الآراء المسيطرة على العقول في القرون التالية . ولما انتشرت الحضارة اليونانية خارج بلاد اليونان نفسها أخذ المتحضرون الجدد يعدونه هو وسقراط أعظم من عرفتهم بلاد اليونان من أصحاب العقول الملهمة الحافزة . ذلك أن يوربديز كان يعالج المسائل الحية لا أقاصيص الشعر الميتة ، ولقد ظل العالم يذكره ولم ينسه إلا بعد زمن طويل . فقد خيم النسيان على مسرحيات من سبقوه من المؤلفين ؛ أما مسرحياته فكان تمثيلها يتكرر في كل عام ، وفي كل مكان أنشئ فيه مسرح يوناني . ولما أخفقت الحملة التي وجهت إلى سرقوصة (٤١٥) والتي تنبأ يوربديز بإخفاقها في مسرحية المرأة الطروادية ، وواجه الأسرى الأثينيون الموت أحياء وهم يعملون عبيداً مصفدين بالأغلال في محاجر صقلية ، ولما حدث هذا أطلق سراح كل من استطاع أن ينشد فقرات من مسرحيات يوربديز (كما يحدثنا بذلك فلوطرخس[١٢٣]) . وقد صيغت الملهاة الجديدة على غرار مسرحياته ، وتطورت منها ؛ وفي ذلك يقول أحد زعماء هذه الملهاة : « لو أنني كنت واثقاً من أن الموتى عقولا تدرك لشنقت نفسي لكي

أرى يوربيديز[١٢٤]. وكان إحياء فلسفة التشكك ، والحرية العقلية ، والنزعة الإنسانية ، فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، كان هذا الإحياء سبباً فى بعث يوربيديز إلى الوجود وجعله أكثر اندماجاً فى ذلك العهد من شيكسبير . وجملة القول أن شيكسبير وحده هو الذى كان يضارع يوربيديز ، وإن كان جيته يستكثر هذا على شيكسبير نفسه . ومن الأسئلة التى يوجهها جيته إلى إكرمان : «هل أنجبت أم الأرض بعد يوربيديز كاتباً مسرحياً جديراً بأن يخلفه ؟»[١٢٥] . والجواب على هذا أنها لم تنجب أكثر من كاتب واحد[*] .

(*) يريد شيكسبير . (المترجم)

الفصل السادس

أرسطوفان

---

١ - أرسطوفان والحرب

المأساة اليونانية أشد قتاما من المآسى الإنجليزية فى عصر الملكة إليزابث لأنها قلما تستخدم مبدأ الترفيه التهكمى الذى يتخلل المأساة فيزيد قدرة السامع على احتمال ما فيها من فواجع . والكاتب اليونانى المسرحى لم يكن يلجأ إلى هذه الطريقة لأنه كان يفضل أن تكون مأساته عالية المستوى من بدايتها إلى نهايتها ، ولذلك ترك المسلاة إلى كتاب المسرحيات الهزلية الخالية من المغزى والتى تهدئ عواطف النظارة المهتاجة بما تهيئه لهم من الفكاهة والراحة . وقد انفصلت المسلاة على مر الزمن من المأساة واستقلت عنها ، وأفرد لها يوم خاص فى الحفلات الديونيشية اقتصر منهج الاحتفال فيه على ثلاثة مسال أو أربع يكتبها مؤلفون مختلفون وتمثل واحدة بعد واحدة لتحصل كل منها على جائزة مستقلة .

وازدهرت المسلاة اليونانية كما ازدهرت الخطابة ، فى صقلية أول الأمر . ذلك أنه قدم إلى سرقوصة من كوس فى عام ٤٨٤ فيلسوف ، شاعر ، طبيب ، كاتب مسرحى يدعى إبكارمس Epicharmus أخذ يعرف الناس بفيثاغورس وهرقليطس ومبادئ العقليين فى خمس وثلاثين مسلاة لم يبق منها إلا عبارات متفرقة منقولة عنها ، وبعد اثنى عشرة سنة من قدوم إبكارمس إلى صقلية أجاز الأركون الأثينى لفرقتها أن تمثل مسلاة ؛ وسرعان ما نما الفن الجديد وتطور بتأثير الدمقراطية والحرية حتى أصبح أهم وسائل الهجو الأخلاقى والسياسى فى أثينة ؛ وكانت حرية التعبير الواسعة المسموح بها فى المسلاة تقليد يرجع إلى المواكب الديونيشية التى كانت تحمل عضو التناسل فى الذكور . ولما أسيء استعمال هذه

الحرية سن فى عام ٤٤٠ ق . قانون يحرم التهجم على الأشخاص فى المسلاة ، لكن هذا الحظر ألغى بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت وظل الكتاب يستمتعون بحرية الكلام وحرية السباب كاملتين حتى أيام حرب البلوپونيز ، فكانت المسلاة اليونانية والحالة هذه تؤدى واجب الصحافة الحرة فى الدمقراطيات الحديثة ، أعنى بذلك واجب النقد السياسى .

ونحن نسمع عن كثيرين من كتاب المسالى قبل أرسطوفان ، بل إن أرسطوفان نفسه — وهو ربيبه العهد العظيم ، قد نزل من عليائه فأثنى على بعضهم بعد أن انقشع عجاج المعارك التى احتدمت بينه وبينهم . ومن هؤلاء الكتاب أقراطينوس Cratinus لسان سيمون Cimon الناطق ، والذى أثار حرباً شعواء على بركليز ولقبه « الإله القادر ذا الراس الشبيه ببصل الفأر(*) »[١٣٦] . ولقد أنجانا الزمان الرحيم من قراءة مسرحيات هذا الكاتب . . ومن هؤلاء السباقين أيضا فركراتس الذى هجا فى مسرحية الرجال الهمج التى كتبها حوالى ٤٢٠ ق م الأثينيين الذين يعلنون أنهم يمقتون الحضارة ويتمنون العودة إلى الطبيعة . ألا ما أقدم البدع التى يبتدعها الناس فى شبابهم ! على أن أقدر منافسى أرسطوفان هو يوپوليس Eupolis ، قد تعاونا أولا فى العمل ثم تنازعا وافترقا ، وأخذ كلاهما يهجو صاحبه أقذع الهجاء ، ولكنهما مع ذلك اتفقا فى حملتهما على الحزب الدمقراطى . وإذا كانت المسلاة قد عادت الدمقراطية طوال القرن الخامس فقد كان من أسباب هذا العداء أن الشعراء يحبون المال ، وأن الأشراف كانوا أغنياء ، لكن أكبر أسبابه أن وظيفة المسلاة اليونانية كانت تسلية الجماهير عن طريق النقد ، وأن الحزب الدمقراطى كان وقتئذ صاحب السلطان . وإذ كان بركليز زعيم الدمقراطية يعطف على الأفكار الجديدة كتحرير المرأة والنزعة العقلية فى الفلسفة فإن كتاب المسالى قد اتفقوا جميعا ، اتفاقا يبعث على الريبة فى مصدره ، على مقاومة التطرف فى جميع

(*) نبات بصل يسمى أيضا العنصل والسقيل squill . (المترجم)

أشكاله ، وأخذوا يدعون إلى العودة إلى أساليب ، « رجال مرثون » وما كان يعزى إليهم من مبادئ أخلاقية . وكان أرسطوفان لسان هـذه الرجعية ومردد صداها ، كما كان سقراط ويوربيديز رائدى الآراء الجديدة . وهكذا استحوذ النزاع بين الدين والفلسفة على مسرح التمثيل الهزلى .

وكان لدى أرسطوفان من الأسباب ما يبرر حبه للأرستقراطية ، فقد كان ينتمى إلى أسرة مثقفة غنية ، ويبدو أنه كان يمتلك أرضاً فى إجينيا ، بل إن اسمه نفسه ليدل على أنه من النبلاء لأن معناه « الأفضل يظهر » . وكان مولده حوالى عام ٤٥٠ ق . م ، وإذن فقد كان فى عنفوان الشباب حين دارت بين أثينة واسپارطة تلك الحرب العوان التى أضحت فيما بعد موضوعاً مشئوماً لمسرحياته . وقد اضطره غزو اسپارطة لأتكا إلى مغادرة مزرعته فى الريف والسكنى فى أثينة ، وكان يكره حياة المدن ، وأظهر شديد استيائه حين طلب إليه فجأة أن يكره الميغاريين ، والكورنثيين ، والإسپارطيين ، وأخذ يندد بهذا التطاحن الذى يقتل فيه اليونانى أخاه ، ويدعو فى كل مسرحية يكتبها إلى السلم .

وانتقلت السلطة العليا فى أثينة بعد موت پركليز فى عام ٤٢٩ إلى يدى كليون Cleon دابغ الجلد الغنى ممثل المصالح التجارية التى تدعو إلى القضاء قضاء مبرماً على اسپارطة منافسة أثينة فى السيادة على بلاد اليونان . وقد سخر أرسطوفان فى مسرحية له مفقودة تدعى « البابليين » (٤٢٦) سخرية لاذعة من كليون وأسـاليبه السياسية قدم بسببها إلى المحاكمة بتهمة الخيانة وحكم عليه بغرامة . وثأر أرسطوفان لنفسه بعد عامين من هذا الحكم بإخراج مسرحية الفرسان The Knights ، وكانت أهم شخصية فى هذه المسرحية هى شخصية ديموس Demos (أى الشعب) ؛ وكان لديموس هذا رئيس خدم يدعى « الدباغ » . ولم يكن أحد يجهل من المقصود بهذه الألقاب حتى كليون نفسه الذى كان ممن شاهدوا المسرحية . وكان ما فيها من هجو لاذعاً شديداً إلى حد امتنع منه الممثلون جميعاً عن تمثيل دور الدباغ خوفاً

من العقاب السياسى الصارم ، فلم يجد أرسطوفان بداً من أن يمثل بنفسه هذا الدورون هذه المسرحية يعلن نيشياس Nicias (وهو اسم الزعيم المحترف رئيس الحزب الأحركى) أن الوحى أنبأه بأن الحاكم الثانى الذى سيتولى الأمر فى بيت ديموس سيكون بائع وزم ، ويُقْبِل هذا البائع الدوار ويحييه العبيد ويلقبونه « زعيم المستقبل فى أثينتنا المجيدة ! » ويخاطبه بائع الوزم بقوله : « أرجو أن تسمح لى بأن أذهب لأغسل سقطى . . . إنك تسخر منى » . ولكن رجلا يدعى دمستين يؤكد له أنه يتصف بالصفات التى تؤهله لأن يحكم الشعب — أليس هو وغداً منحطاً ، مجرداً من العلم على اختلاف أنواعه ؟ ويخشى الدباغ أن يفقد مركزه فيؤكد ولاءه لديموس واستعداده لخدمته ، ويقول إن أحداً غيره لم يخدم ديموس كما خدمه هو إلا العاهرات . وتحوى المسرحية المجون الذى اعتاد أرسطوفان : فالوزام يضرب الدباغ بالسقط ويستعد لمباراة خطابيـــة فى الجمعية بأكل مقدار من الثوم ، ويعقب هذا تنافس فى الملق والدهان ليعرف مَن من المتنافسين يستطيع أن يسرف فى مديح ديموس أكثر من سواه ، فيكون بذلك « أكثر استحقاقاً لرضاء ديموس وبطنه » . ويحضر المتنافسون قدراً عظيما من الطيبات ، يبسطونها أمام ديموس قبل الانتخاب لتكون وعداً منهم بما سوف يقدمونه له بعدها . ويقترح الوزام أن يختبر شرفهم وأمانتهم بأن تفتش خزانة كل مرشح ، فيعثر فى خزانة الدباغ على كومة من المأكولات الشهية الطرية ، أهمها كعكة ضخمة لم يقطع منها لديموس إلا قطعة جد صغيرة (وكان ذلك إشارة إلى تهمة رائجة فى ذلك الوقت تقول إن كليون قد سرق قدراً كبيراً من أموال الدولة) . وعلى أثر هذا يفصل الدباغ من عمله ويصبح الوزام حاكم بيت ديموس .

وتواصل مسرحية الزنابير السخرية من الدمقراطية سخرية أخف من السخرية السابقة . ففيها يظهر جماعة من المواطنين المتعطلين — على هيئة زنابير — يسعون إلى كسب أبلة أو أبلتين فى كل يوم بأن يكونوا قضاة ، حتى

يستطيعوا بالاستماع إلى « المزلفين » وجباية الضرائب الباهظة أن يستولوا على أموال الأغنياء ويضعونها فى خزانة الدولة وفى جيوب الفقراء .

ولكن أكثر ما يهتم به أرسطوفان فى هذه المسرحيات الأولى هو السخرية من الحرب والدعوة إلى السلم . فبطل مسرحية الآكارنيين (٤٢٥) رجل يسمى دسيوپوليس Dicaeopoles « المواطن الشريف » وهو مزارع يشكو من أن الجيوش قد أتلفت أرضه حتى لم يعد يستطيع العيش بعصير النبيذ من كرومه . وهو لا يجـــد ما يدعو إلى الحرب ، ويؤمن بأنه ليس بينه وبين الاسپارطيين سبب للخصام . ويطول انتظاره لأن يعقد القواد السياسيون الصلح ، فيوقع هو معاهدة شخصية مع اللسديمونيين ، ويشهر به جماعة من جيرانه الوطنيين دعاة الحرب فيجبهم بقوله :

إنى أشك كثيراً هل الاسپارطيون هم الملومون وحدهم فى جميع الأحوال .

الجيران : أتقول إنهم غير ملومين فى جميع الأحوال ؟ يالك من وغد أفاق !

كيف تجرؤ على النطق بهذه الخيانة الوطنية أمامنا ، ثم تظن أنك ستنجو منا ؟

ويوافق على أن يسمح لهم بقتله إذا عجز عن البرهنة على أن أثينة يقع عليها من اللوم فى إشعال نار الحرب بقدر ما يقع على اسپارطة . ويوضع رأسه على وضم ، ويبدأ فى الإدلاء بحجته . وفى هذه اللحظة يدخل قائد أثينى ، مهزوم ، متبجح ، منتهك لحرمة الآلهة ، يشمئز منه الحاضرون ، فيخلو سبيل ديسيوپوليس ، ويدخل السرور على قلب كل إنسان بأن يبيع لهم خمراً يسمى السلم . وكانت هذه المسرحية غاية فى الجرأة ولا يجيزها إلا شعب تعود أن يستمع إلى ما يقال ضده . وقد استفاد أرسطوفان من عادة الاستطراد التى كانت تجيز لكاتب الملهاة أن يخاطب النظارة على لسان فرقة المنشدين أو إحدى شخصيات المسرحية ، فأخذ يشرح للجمهور الغرض الذى يهدف له بوصفه رجلا دوارا فكها بين الاثينيين ينقب عن عيوبهم ويكشفها لهم .

« لم يعمد شاعرنا منذ كتب المسالى إلى إطراء نفسه على المسرح . . . ولكنه

يعتقد أنه فعل لكم الخير الكثير . وإذا لم تقبلوا بعد الآن أن يسرف الغرباء فى خداعكم ، أو يغروكم بالملق والدهان ، وإذا لم تكونوا فى السياسية إمعات كما كنتم من قبل ، فالفضل فى ذلك راجع إليه . وقد كنتم من قبل إذا أرادت وفود المدن الأخرى أن تخدعكم لا تطلب ذلك منهم إلا أن يصفوكم بأنكم « الشعب المتوج بالبنفسج » . فلا تكادون تسمعون لفظ بنفسج حتى تعتدلوا فى جلستكم على أطراف أعجازكم . وإذا أراد أحد أن يستثير غروركم وتحدث عن «أثينة الغنية الناعمة نال كل ما يبغيه منكم لأنه يتحدث عنكم كما يتحدث عن السردين فى الزيت . ولقد أحسن الشاعر إليكم كل الإحسان حين حذركم من هذه الحيل الخادعة(١٢٧) » .

ولقد نال الشاعر أعظم النصر فى مسرحية السلم التى أخرجها عام ٤٢١ . ففى ذلك الوقت كان كليون قد مات ، وأوشك نيشياس أن يوقع مع اسپارطة معاهدة سلام وصداقة تدوم خمسين عاما . ولكن الحرب اشتعلت نارها مرة أخرى بعد بضع سنين ، وخاب أمل أرسطوفان فى بنى وطنه فدعا نساء اليونان فى عام ٤١١ أن يعملن لحقن الدماء . وتبدأ مسرحية ليسستراتا باجتماع نساء أثينة ، فى مطلع الفجر ورجالهن نائمون فى مجلس حربى قرب الأكربولس ويتفقن على أن يمتنعن عن أزواجهن جميع متع الحب حتى يعقدوا الصلح مع العدو ، ثم يرسلن رسولا إلى نساء اسپارطة يدعونهن إلى معاونتهن فى حملة السلم الجديدة . ثم يستيقظ الرجال آخر الأمر من نومهم فيدعون النساء أن يعدن إلى بيوتهم ، وتأبى النساء العودة فيحاصرهن الرجال بدلاء ملأى بالماء الساخن وبسيل من الكلاء ؛ وتلقى ليسسترا (منقذة أثينة) على الرجال درساً تقول فيه :

لقد صبرنا عليكم كثيراً فى الحروب الماضية . . . ولكننا كنا نفرض عليكم رقابة شديدة ، وكثيراً ما كنا نسمع ، ونحن فى منازلنا ، أنكم قد

أخطأتم فى تقرير أمر من الأمور . فإذا سألنا عنه قال الرجال : « وما شأنكن أنتن والمسألة عن هذا ؟ اصمتن » . وسألنا « كيف يحدث يا زوجى أن تسير الأمور بهذه السخف على أيدى الرجال ؟ » . ويجيب زعيم الرجال بقوله إن النساء يجب أن يبتعدن عن شئون الدولة ، لأنهن عاجزات عن تصريف شئون الخزانة العامة . (وتتسلل بعض النساء فى أثناء هذه النقاش إلى أزواجهن وهن يتمتمن بحجج من نوع حجج أرسطوفان) . وترد ليسسترا على ذلك بقولها : « وكيف لا يستطعن ؟ فطالما دبرت الزوجات شئون أزواجهن المالية لخيرهم ولخيرهن » . ونبدى من الحجج القوية ما يقنع الرجال آخر الأمر بعقد مؤتمر من الدول المحاربة ، ويجتمع مندوبو هذه الدول ، وتهيئ لهم ليسسترا كل ما يستطيعون أن يشربوه من الخمر . وسرعان ما تلعب الخمر برؤوسهم فيوقعون المعاهدة التى طال انتظارها ويختم المنشدون المسرحية بنشيد مدح السلم .

٢ - أرسطوفان والمتطرفون

يرى أرسطوفان أن انحلال الحياة الأثينية العامة يرجع إلى شرين أساسيين هما الدمقراطية والخروج على الدين . وهو يتفق مع سقراط فى أن سيادة الأمة قد انقلبت فأصبحت سيادة السياسيين ، ولكنه كان واثقا من أن تشكك سقراط ، وأنكساغورس والسوفسطائيين قد ساعد على انحلال عرى الروابط الخلقية التى كانت فى الزمن القديم عاملا قويا فى تدعيم النظام الاجتماعى والاستقامة الفردية . وقد سخر أشد السخرية من الفلسفة الجديدة فى مسرحية السحب . وخلاصتها أن رجلا من الطراز القديم يدعى استربسياديز Stripsiades كان يبحث عن حجة يبرر بها التنصل من ديونه ، فيغتبط إذ يسمع أن سقراط يدير متجرا للتفكير ، يستطيع كل إنسان أن يتعلم فيه كيف يثبت كل ما يريد إثباته ولو كان خاطئاً . ويتخذ الرجل طريقة إلى مدرسة « المفكرين الأشداء » ، ويرى

فى وسط حجرة الدرس سقراط معلقا من السقف فى سلة ، ومنهمكا فى التفكير كما يرى بعض الطلاب منحنين متجهين بأنوفهم نحو الأرض :

استربسياديز : ماذا يفعل هؤلاء الناس الذين ينحنون هذا الانحناء العجيب ؟

الطالب : إنهم يفحصون عن الأسرار العميقة عمق ترتروس .

استربسياديز : ولكن لم — عفوا ولكن — أجزاءهم الخلفية — لم أراهم مثبتين فى الهواء على هذا النحو العجيب ؟

الطالب : ان أطرافهم الأخرى تدرس الفلك

يطلب استربسياديز إلى سقراط أن يعلمه بعض الدروس

سقراط : وبأى الآلهة تقسمون ، لأن الآلهة ليست من العملة الرائجة عندنا ؟ .

ويشير إلى فرقة المرتلين فى مسرحية السحب

إن هؤلاء هم الآلهة الحقيقيون .

استربسياديز : لكن قل لى ، ألا تؤمن بزيوس ؟ .

سقراط : ليس لزيوس وجود :

استربسياديز : ومن الذى ينزل المطر إذن ؟ .

سقراط : هذه السحب ، فهل رأيت مطرا ينزل من غير سحاب ؟ ولو أن زيوس كان هو الذى ينزل المطر لأنزله فى الجو الصحو وحين تظهر السحب . . . .

استربسياديز : ولكن قل لى من الذى يرسل الرعد ؟ إن جسمى ليرتجف منه

سقراط : إن هذه السحب فى اندفاعها تحدث الرعد .

استربسياديز : كيف ؟

سقراط : إذا امتلأت بالماء واندفعت فى سيرها تساقطت بقوة عنيفة بعضها على بعض وأحدثت هذه القعقعة .

استربسياديز : ولكن من الذى يسوقها ؟ أليس هو زيوس ؟

سقراط : كلا ؛ إن الدوامة الأثيرية هى التى تسوقها .

استربسياديز : إذن فأعظم الآلهة كلها هى الدوامة . ولكن ما الذى يحدث قعقعة الرعد ؟

سقراط : سأعلمك من حالتك أنت نفسك . ألم يحدث لك مرة ما أن امتلأت بالطعام فى إحدى الولائم ، ثم اضطربت معدتك فحدثت فى داخلك كركرة ؟

وفى منظر آخر يلتقى فيدبيديز Pheidippides بن استربسياديز بالحجة الصحيحة والحجة الباطلة مجتمعتين . وتخبره أولاهما بأن عليه أن يقلد الفضائل الرواقية التى كان يتصف بها رجال مرثون ، ولكن الأخرى تشير عليه بأن يتخلق بالأخلاق الحديثة . وتسأله الحجة الباطلة : هل فى الناس من نال شيئاً بالعدالة أو الفضيلة أو الاعتدال ؟ وتقول : إنه إذا وجد رجل شريف ناجح وجد معه على الدوام عشرة رجال خونة ناجحين معظمين . وتضيف إلى ذلك قولها : انظر إلى الآلهة نفسها . لقد كذبت ، وسرقت ، وقتلت ، وزنت . وها هى ذى يعبدها اليونان جميعهم . وحين تشك الحجة الصحيحة فى أن معظم الناجحين كانوا خونة ، تسألها الحجة الباطلة :

من أية طبقة من الناس يخرج رجال القانون عندنا ؟

الحجة الصحيحة : من بين السفهاء .

الحجـــة الباطلة : هذا حق . ومن أى صنف يخرج شعراؤنا كتاب المآسى ؟

الحجة الصحيحة : من بين السفهاء .

الحجـــة الباطلة : وخطباؤنا العموميون ؟

الحجة الصحيحة : كلهم سفهاء :

الحجـــة الباطلة : انظرى الآن إلى من حولك ؛

تلتفت وتشير إلى النظارة

أية طبقة من الطبقات تنتمى إليها الكثرة الغالبة من أصدقائنا الحاضرين هنا ؟ .

وتفحص الحجة الصحيحة عين النظارة فى جد ووقار

الحجة الصحيحة : إن الكثرة الغالبة منهم سفهاء .

وفيدپديز تلميذ للحجة الباطلة يأتمر بأمرها ويبلغ من طاعته إياها أن يضرب أباه بحجة أنه يقوى على ضربه وأنه يستمتع بهذا الضرب ، ويسأل فوق ذلك : « ألم تضربنى وأنا غلام ؟ » ويستحلفه استربسياديز بزيوس أن يرحمه ولكن فيدپديز يرد عليه بقوله إن زيوس لم يعد له وجود ، لأن الدوامة قد حلت محله . ويستشيط الوالد غضباً ، ويهيم فى الطرقات ، ويدعو جميع المواطنين الصالحين إلى القضاء على هذه الفلسفة الجديدة ، فيهاجمون متجر التفكير ويحرقونه ولا ينجو سقراط بحياته إلا بعد جهد شديد .

ولسنا نعرف ماذا كان لهذه المسلاة من أثر فى مأساة سقراط . وكل الذى نعرفه أنها مثلت فى عام ٤٢٣ قبل المحاكمة الشهيرة بأربع وعشرين سنة ؛ ويبدو أن ما فيها من فكاهة طيبة لم يغضب الفيلسوف ، بل يقال إنه ظل واقفاً طوال التمثيل(١٢٨) ليمكن أعداءه من أن يروه أوضح رؤية . ويصور أفلاطون سقراط وأرسطوفان فى صورة الصديقين بعد التمثيل ، وقد أوصى أفلاطون نفسه ديونيشيوس الأول ملك صقلية بهذه الأعجوبة المسلية ؛ وظل محتفظاً بصداقته لأرسطوفان حتى بعـــد أن مات أستاذه (١٢٩) . وقد كان ملاتوس أحد الثلاثة الذين اتهموا سقراط فى عام ٣٩٩ طفلا

حين مثلت المسلاة ، وكان ثانيهما وهو أنيتس على وفاق مع سقراط بعد أن مثلت[١٣٠] ، وأكبر الظن أن انتشار المسرحية بعدئذ بوصفها قطعة أدبية أضر بالفيلسوف أكثر مما أضر به تمثيلها الأول . ولقد أشار سقراط فى دفاعه عن نفسه — كما يرويه أفلاطون — إلى هذه المسرحية وقال عنها إنها من أكبر الأسباب التى سوأت سمعته وألبت القضاة عليه .

وكان فى أثينة هدف آخر وجه إليه أرسطوفان سهام هجائه ، وقد وجهها هذه المرة سهام عداوة لا تنطفئ نارها . ذلك أنه لم يكن يثق بتشكك السوفسطائيين ، أو بالفردية الأخلاقية ، والاقتصادية ، والسياسية التى كانت تنخر فى عظام الدولة ، أو بالدعوة النسائية العاطفية التى ترمى إلى مساواة النساء بالرجال ، والتى كانت تثير ثائرة النساء ، أو بالاشتراكية التى كانت تعمل عملها بين الأرقاء . لقد رأى هذه المبادئ كلها واضحة أجلى وضوح فى يوربديز ، واعتزم أن يقضى بالضحك والسخرية على ما كان للكاتب المسرحى الكبير من أثر فى العقلية اليونانية .

وبدأ يعمل لهذه الغاية فى عام ٤١١ بمسرحية أسماها السموفريزوسيات Thesmophoriazusae . وقد اشتق هذا اللفظ من اسم النساء اللائى كن يحتفلن بعيد دمتر وپروسفونى عن طريق الامتناع الجنسى . وفيه يجتمع عبادهما ليناقش آخر ما سخر به يوربديز من بنات جنسهن ، ويدبرن أمر الانتقام منه . وتتراءى أنباء هذه الخطة إلى يوربديز فيشير على نسيلكس Mnesilochus والد زوجته بأن يلبس ثياب النساء ويدخل الاجتماع ليدافع عنه . وتشكو أولاهن من أن الكاتب المسرحى قد حرمها من وسيلة كسب عيشها ، فقد كانت من قبل تصنع أكاليل الزهور للهياكل ، فلما أن قال يوربديز إنه لا وجود للآلهة ، كسدت تجارتها . ويدافع نسيلكس عن يوربديز بقوله إن أسوأ ما قاله عن النساء حق لا مراء ، فيه ، وإنه أخف مما تعرفه النساء أنفسهن من أخطائهن . وترتاب النساء فى أن هذا

الطعن فى النساء صادر عن امرأة ، فيمزقن ثياب نسيلكس ، ولا يستطيع النجاة من تمزيق جسمه إرباً إلا بأن يختطف طفلا رضيعاً من بين ذراعى امرأة ، ويتلدهن بأنه سيقتله إذا مسسنه هو بسوء . ولكنهن لا يعبأن بهذا التهديد ويهجمن عليه ، فيخلع عن الطفل لفافاته ، فيجد أنه زق خمر قد لف فى ملابس طفل هربا من أداء ضريبة الإيراد . ويقول إنه رغم هذا سيقطع عنقه وتحزن لهــذا صاحبة الزق وتصيح قائلة : « سألتك ألا تتلف زقى العزيز ، فإن كنت لا بد فاعلا فجئ بجفنة تتلقى فيها دماءه » . ويحل نسيلكس المشكلة بأن يشرب الخمر ، ويرسل فى الوقت نفسه دعوة إلى يوريپديز بأن يخف لإنقاذه من ورطته . وخليق بنا أن نقول بهذه المناسبة إن يوريپديز يظهر فى أجزاء مختلفة من مسرحياته — فى صورة منلوس ، أو پرسيوس ، أو إكو Echo . وفى هذه المرة يفلح أخيرا فى تمكين نسيلكس من الهرب .

ويعود فى مسرحية الضفادع إلى مهاجمة يوريپديز رغم موته : ذلك أننا نرى ديونيشس إله المسرحية غاضباً على من بقى حيا فى أثينة من كتاب المسرحيات ، فينزل إلى الجحيم ليعود بيوريپديز . وتلتقى به وهو ينتقل فى قارب إلى العالم السفلى طائفة من الضفادع فتحييه بنقيقها تحية لا نشك فى أن شباب أثينة ظل يتندر بها شهراً كاملا . ولا ينسى أرسطوفان أيضاً أن يسخر من ديونيشس ولا يخشى من تمثيل طقوس إلوسيز تمثيلا ساخراً . ذلك أن الإله حين يصل إلى العالم السفلى يجد يوريپديز يحاول خلع إسكلس عن زعامة كتاب المسرحيات جميعهم . ويتهم إسكلس يوريپديز بأنه يعمل على نشر التشكك ، والحيل القانونية الخطرة ، وعلى إفساد أخلاق نساء أثينة وشبابها . ويقول إن من سيدات الطبقة العليا من قتلن أنفسهن لأنهن لم يطقن سماع بذاءة يوريپديز . ثم يؤتى بميزان ويلقى كل شاعر فى إحدى كفتيه أبياتاً من مسرحياته . وترجح عبارة قوية من عبارات إسكلس على اثنتى عشرة عبارة من عبارات يوريپديز (وهذا هجاء فى الشاعر الشيخ

نفسه) . ويعرض إسكلس آخر الأمر أن يقفز الشاعر الشاب إلى إحدى الكفتين ومعه زوجه ، وأبناؤه ، ومتاعه ، ويقول إنه يؤكد أن بيتاً واحداً من الشعر يرجح عليهم جميعاً . ويخسر المتشكك العظيم فى آخر الأمر المباراة ، ويعود إسكلس إلى أثينة منتصراً(*) . وقد منح القضاة هذه المقالة الأولى فى النقد الأدبى الجائزة الأولى ، وبلغ من سرور النظارة بها أن أعيد تمثيلها مرة أخرى بعد بضعة أيام .

وكذلك وجه أرسطوفان سخريته إلى الحركة المتطرفة بوجه عام فى مسرحية متوسطة القدر تدعى الإكليزيازوسيات **The Ecclesiazusae** أى نساء الجمعية (٣٩٣) . وموضوعها أن نساء أثينة يتخفين فى زى الرجال ، ويملأن مقاعد الجمعية ، وترجح أصواتهن على أصوات أزواجهن ، وإخوتهن ، وأبنائهن ، ويختار منهن حكام الدولة : وتتزعم هذه الحركة امرأة تدعى پراكساغورا **Praxagora** شديدة التحمس لنيل النساء حقوقهن السياسية ، وتتهم بنات جنسها بالغفلة لأنهن يرضين بأن يحكمهن الرجال البلهاء . وتقترح أن تقسم الثروة بالتساوى بين المواطنين على أن يترك الأرقاء من غير أن يفسدهن الذهب . ويتخذ الهجوم على « المدينة الفاضلة » صورة أخف من هذه وأرحم فى مسرحية الطيور أرق مسرحيات أرسطوفان جميعها (٤١٤) . ومضمونها أن اثنين من مواطنى أثينة يستولى عليهما اليأس ، فيتسللان إلى مسكن الطيور ، يأملان أن يجدا فيه الحياة المثالية التى ينشدانها . ويستعينان بالطيور على بناء مدينة فاضلة بين الأرض والسماء تدعى نفلوككسيچيا **Nepheloccygia** أى « أرض وَقُوقَ السحاب » . وتوجه الطيور مجتمعة خطابها إلى الآدميين فى نشيد لا يفوقه أى نشيد آخر وضعه شعراء المآسى تقول فيه :

(*) ربما كان هذا إشارة إلى تكرار تمثيل مسرحيات إسكلس .

أى بنى الإنسان ، يا قصار الأجل ، ويا من تملأ الأحزان حياتكم يوماً بعد يوم ، يا عراة ، يا منزوعى الريش ، يا ضعاف الأجسام ، يا كثيرى النزاع ، يامرضى ، يا من تتنابكم النوائب ، يا من خلقتم من طين ! استمعوا إلى أقوال السادة الطيور ، الخالدة ، مالكة الهواء ، التى تشرف من عل بأعينها الرحيمة ، على ما بينكم من نزاع ، وشقاء وكدح ، وقلق .

وتضع الطيور خطة لمنع كل الاتصال بين الآلهة والبشر ، ولا تسمح بأن تصعد القرابين إلى السماء . وتقول المصلحة منها إن الآلهة القدامى لن تلبث أن تموت جوعاً فتسود الطيور . ثم تخترع آلهة جدد على صورة الطير ، وتنزل الآلهة التى صورت فى صورة الآدميين عن عروشها ، ثم يأتى آخر الأمر وفد من أولمبس يسعى لعقد هدنة ، ويقبل زعيم الطير أن يتزوج من خادمة زيوس ، وتختتم المسرحية بهذا الزواج الموفق .

٣ — الفنان والمفكر

أرسطوفان مزيج من الجمال والحكمة والقذارة لا تستطيع أن تحدد الصنف الذى ينتمى إليه من الناس . كان فى وسعه إذا اعتدل مزاجه أن يكتب أغانى من الشعر اليونانى الخالص الرصين ، لم يستطع مترجم حتى الآن أن ينقله بروعته إلى لغة غير لغته الأصلية . وحواره هو الحياة نفسها ، أو لعله أكثر سرعة ، وأعظم طلاوة ، وأشد قوة مما تجرؤ أن تكون عليه الحياة ، وهو يشبه ربليه Rabelais وشيكسپير ، وذكنز ، فى قوة أسلوبه وحيويته ، وشخصياته كشخصياتهم أصدق تصويراً للعصر الذى عاش فيه من جميع ما ألفه المؤرخون فى ذلك العصر ، ويفوح منها شذاه أقوى مما يفوح من هذه المؤلفات كلها مجتمعة ؛ وليس فى وسع أحد أن يعرف الأثينيين حق المعرفة إذا لم يكن قد قرأ مسرحيات أرسطوفان . ومع هذا فإن حبكات مسرحياته هزأة سخيفة ، جمع أطرافها بإهمال يكاد أن

يكون مرتجلا . وتراه فى بعض الأحيان يستنفد موضوع المسرحية الرئيسى قبل أن يبلغ منتصفها ، ويتعارج ما بقى منها على عكازتى المجون والهزل حتى يصل إلى نهايتها . والفكاهة فى العادة من النوع الدنىء ، مثقلة بالجناس السهل الساذج ، وتطول حتى لا يطيق الإنسان طولها ، وكثيراً ما تستعار عباراتها من عمليات الهضم ، والتكاثر ، والتبرز . ففى مسرحية الأركانيين تسمع عن شخص لا ينقطع ساعة عن التبرز طيلة ثمانية أشهر(١٣١) . وفى السحب نرى فضلات الإنسان الكبيرة تمتزج بالفلسفة العليا(١٣٢) ، ولا تمر صفحة إلا تجد فى التى تليها أردافاً ، وصدراً ، وغدداً تناسلية ، وسفاداً ، ولواطاً ، واستمناء ، كل ذلك يعرض علينا(١٣٣) ؛ ثم نراه يتهم منافسه الشيخ أقراطينوس Cratinus بسيأ البول ليلا(١٣٤) . وهو بهذا كله أكثر الشعراء القدامى شبهاً بأهل هذه الأيام لأن الإسفاف والبذاء لا يختص بهما عصر من العصور . وإذا ما تحدثنا عنه بعد حديثنا عن مؤلف يونانى سواه — وبخاصة بعد حديثنا عن يوربديز — بدا لنا مسفاً إلى حد تشمئز منه النفس وتنقبض ، حتى ليصعب علينا أن نتصور أن النظارة الذين يستمعون إلى أحدهم هم بعينهم الذين يستمعون إلى الآخر .

وإذ كنا محافظين صادقين أطلقنا هذا كله ، وحجتنا فى ذلك أن أرسطوفان يهاجم التطرف بكافة أشكاله ، ويستمسك مخلصاً بالفضائل والرذائل القديمة أياً كان نوعها . وهو على ما نعلم أحط الكتاب اليونان جميعهم خلقاً ، ولكنه يأمل أن يعوض هذا النقص بمهاجمة الفساد الخلقى ، ونراه دائماً إلى جانب الأغنياء ، ولكنه يشتهر بالجبن ؛ ويكذب كذباً يوسف على يوربديز حياً وميتا ، ولكنه يهاجم الغدر والخيانة ؛ ويصف نساء أثينة بالفظاظة إلى حد غير معقول ، ولكنه يشهر بيوربديز لأنه يفترى ويسخر بالآلهة سخرية جريئة(*) . وإذا وازنا بينه وبين سقراط التقى لم نجد بداً من أن نصوره

(*) وقد ورد فى أقواله : إن بعض الآلهة تقيم المواخير فى السماء .

كافراً مهزاراً ، لكنه رغم هذا يدعو بقوة إلى الدين ويتهم الفلاسفة بأنهم يعملون للقضاء على الآلهة . لكن تصوير كليون ذى السلطان القوى تصويراً هزليا ، وكشف عيوب ديموس أمام ديموس نفسه يتطلبان شجاعة حقة ؛ وتبين الخطر الشديد الذى يتهدد حياة أثينة من جراء اتجاه الدين والأخلاق من التشكك السوفسطائى إلى الفردية الأبيقورية ، نقول إن تبين هذا الخطر يتطلب كثيرا من الفطنة ونفاذ البصيرة . ولعل أثينة كان يصلح حالها لو أنها عملت ببعض نصائحه ، ولم تشتط فى نزعتها الاستعمارية ، وعقدت صلحا مبكراً مع اسپارطة ، وخففت بزعامة أرستقراطية ما فشا فى الدمقراطية التى قامت بعد عصر پركليز من فوضى وفساد .

ولقد أخفق أرسطوفان لأنه لم يكن جاداً فى نصائحه إلى الحد الذى يحمله على العمل بها . وكان إسرافه فى تمثيل الدعارة وفى الشتائم من الأسباب التى أدت إلى تحريم الهجو الشخصى ؛ ومع أن القانون الذى صدر بهذا التحريم قد ألغى بعد قليل من الوقت ، فإن « الملهاة القديمة » ذات النقد السياسى قد ماتت قبل موت أرسطوفان (٣٨٥) ، وحلت محلها فى مسرحياته الأخيرة نفسها « الملهاة الوسطى » ملهاة الأخلاق والغرام . لكن الحيوية التى كانت تمتاز بها الملهاة اليونانية قد اختفت باختفاء ما كان فيها من إسرف ووحشية ، وظهر فليمون ومناندر واختفيا وعفا ذكرهما ، أما أرسطوفان فقد ظل باقيا رغم تبدل المبادئ الأخلاقية والأنماط الأدبية ، حتى وصل إلى عصرنا هذا ومعه إحدى عشرة مسرحية من مسرحياته الاثنتين والأربعين كاملة لم ينقص منها شىء . ولا يزال إلى هذا اليوم حيا فى هذه المسرحيات رغم ما يعترض فهمها وترجمتها من صعاب . وإذا ما استطعنا أن نسد أنوفنا حتى لا يؤذيها فحشه وبذاءته استطعنا أن نقرأ مسرحياته بكثير من البهجة الدنسة .

الفصل السابع

المؤرخون

لم ينس اليونان النثر كل النسيان فى نشوة الشعر المسرحى ، فقد أولعوا أشد الولع بالخطابة مدفوعين إلى هذا بنزاعهم القضائى ونظامهم الدمقراطى. وإذا رجعنا إلى ذلك التاريخ البعيد — عام ٤٦٦ ق . م — رأينا كوراكس Corax السرقوصى يكتب رسالة يسميها تكنى لوجون Techne Logon (فن الكلمات) يرشد بها المواطنين الذين يريدون أن يخاطبوا الجمعية أو القضاة ، ونجد فيها منذ ذلك العهد تقسيم الخطبة إلى ديباجة ، وقصة ، ونقاش ، وملاحظات ثانوية ، ومسك الختام . ونقل غورغياس هذا الفن إلى أثينة ، واستخدم أنتيفون Antiphon الأسلوب المنمق فى الخطب والنشرات التى خصها بالدعاوة الأبلجركية ، ثم أضحت الخطابة اليونانية على يد ليسياس أكثر وضوحاً وأقرب إلى الأسلوب الطبيعى ؛ غير أن الخطب التى كانت تلقى على الجماهير لم تتخلص من خداع الألفاظ ، ولم تثبت ما للأسلوب الحديث البسيط من قوة الأثر ، إلا عند أعظم الساسة والحكام أمثال ثمستكليز وبركليز . وشحذ السوفسطائيون هذا السلاح الجديد واستغله تلاميذهم استغلالا بلغ من قوته أن حرم الحزب الأبلجركى تعليم فنون البلاغة بعد استيلائه على مقاليد الحكم فى عام ٤٠٤[١٣٦] .

وكان التاريخ أعظم ما أنتجه النثر فى عصر بركليز ، ونستطيع أن نقول إن القرن الخامس هو الذى كشف عن الماضى وبحث عن علاقة الإنسان بالزمن . ويمتاز فن التأريخ عند هيرودوت بكل ما فى الشباب من مصر وقوة ، فإذا ما وصلنا إلى توكيديدز بعد خمسين عاماً من عصر هيرودوت رأيناه قد بلغ حداً من النضوج لم يفقه فيه أى عهد من العهود التى أعقبته ، وكانت

الفلسفة السوفسطائية هى التى فصلت بين هذين المؤرخين وميزت كلا منهما من الآخر فقد كان هيرودوت أكثر بساطة من صاحبه ، ولعله كان أكثر منه رأفة ، وما من شك فى أنه كان أبهج منه روحاً . وقد ولد فى هليكرنسس Halicarnassus حوالى عام ٤٨٤ ، من أسرة بلغت من رفيع المنزلة درجة أمكنتها أن تشترك فى الدسائس السياسية . ونفى من بلده وهو فى الثانية والثلاثين من عمره بسبب مغامرات عمله السياسية . فبدأ من ذلك الوقت تلك الرحلات البعيدة التى كان لها أكبر الأثر فى تواريخه . وقد مر بفينيقية فى طريقه إلى مصر وتوغل فيها حتى وصل إلى جزيرة إلفنتين ، ووصل فى ترحاله غربا إلى قورينة وشرقا إلى السوس وشمالا إلى المدن اليونانية القائمة على شاطئ البحر الأسود . وكان حيثما ذهب يلاحظ ، ويبحث بعين العالم وتطلع الطفل ، ولما ألقى عصا التسيار فى أثينة حوالى عام ٤٤٧ كان فى جعبته مقدار ضخم من المذكرات المختلفة عن جغرافية الدول المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط ، وتاريخها وعادات أهلها . وقد استعان بهذه المذكرات وسرقات قليلة من هكتيوس Hecataeus وغيره من المؤرخين السابقين على تأليف أشهر الكتب التاريخية على الإطلاق . وقد وصف فى كتابه هذا حياة الناس فى مصر ، والشرق الأدنى ، وبلاد اليونان ، وسجل فيه تاريخ هذه البلاد كلها ، من بدايته الخرافية إلى نهاية الحرب الفارسية . وتقول إحدى القصص القديمة إنه قرأ أجزاء من كتابه هذا على الجمهور فى أثينة ، وإن الأثينيين أعجبوا أشد الإعجاب بما ورد فيه من وصف الحرب وما قاموا به فيها من أعمال مجيدة ، فقرروا له اثنتى عشرة وزنة (تالنت) أى ما يعادل ستين ألف ريال أمريكى — وهو مبلغ يرى أى مؤرخ أنه يبلغ من الضخامة حداً يجعله غير معقول . ويعلن هيرودوت فى مقدمة الكتاب بأسلوب رائع الغرض من وضعه فيقول :

« هذا عرض لبحوث (Historia) هيرودوت الهليكرنسى يقصد به

ألا يمحو الزمان ما قام به الهلينيون والبرابرة من أعمال مجيدة عجيبة ، ويقصد بنوع خاص ألا تنسى الأسباب التى من أجلها شنوا الحرب بعضهم على بعض » :

والكتاب إلى حد ما « تاريخ عالمى » لأنه يتناول قصة جميع الأمم التى تسكن فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وهو أوسع فى مجال بحثه من الموضوع الضيق الذى شمله كتاب ثوكيديدز ، وتسرى فى الكتاب روح الوحدة غير المقصودة بما يتضمنه من باب الفرق بين حكم البرابرة المطلق والدمقراطية اليونانية ، ثم ينتقل بخطى وئيدة واستطرادات مضطربة إلى الخاتمة الروائية المتوقعة فى سلاميس . والغرض من الكتاب كما يقول المؤلف هو تسجيل « الأعمال العجيبة والحروب »[١٣٨] ، والحق أن القصة فى بعض مواضعها تعيد إلى الذاكرة سوء فهم جبن Gibbon للتاريخ حين يقول إنه « لا يعدو أن يكون سجلا لجرائم البشرية وحماقاتها ومصائبها »[١٣٩] . على أن هيرودوت رغم هذا يتسع له المجال لإيراد حقائق طريفة لا تحصى عن ملابس الجماعات التى يصفها ، وعاداتها ، وأحلامها ، ومعتقداتها . وهو يذكر لنا كيف يستطيع المصريون أن يقفزوا إلى النار ، وكيف يسكر أهل الداتوب من رائحة الخمر ، وكيف بنيت أسوار بابل ، وكيف يأكل المساجيتى Massagetee آباءهم ، وكيف كانت لكاهنة أثينا فى بداسس Pedasus لحية ضخمة . وهو لا يقتصر على تصوير الملوك والملكات ، بل يصور كذلك الرجال من جميع الطبقات ، ويبعث الحياة فى صحفه بذكر النساء اللاتى لا يجدن لهن مكانا فى كتاب ثوكيديدز ، ويصف أحذيتهن ، وجمالهن ، وقسوتهن ، وفتنتهن .

وفى « هيرودوت كثير من الهراء » كما يقول استرابون[١٤٠] ، ولكن المجال الذى يبحث فيه مؤرخنا واسع سعة مجال أرسطاطاليس ، وفيه فرص كثيرة للزلل ، وجهله لا يقل سعة عن علمه ، كما لا تقل سذاجته وسرعة

تصديقه لكل ما يروى عن حكمته ؛ فهو يعتقد أن نطفة الأحباش سوداء[١٤١]، ويصدق الخرافة القائلة إن اللسدمونيين قد نالوا النصر لأنهم جاءوا بعظام أرستيز إلى اسپارطة[١٤٢] ، وينقل أعداداً ضخمة عن جيوش خشيارشاى ، وعن قتلى الفرس وعن انتصارات اليونان الذين لم يكادوا يصابون فيها بجروح . وتسرى فى قصته روح الوطنية ولكنها ليست بعيدة عن الإنصاف ، فهو يعطى قسطاً من العناية لكلا الطرفين فى معظم المنازعات السياسية(*) . ويمجد بطولة الغزاة ، ويعترف بما كان يتصف به الفرس من شرف وشهامة ، وهو يقع فى أشنع أخطائه حين يعتمد على ما يحدثه به الأجانب ؛ فهو يظن أن نبوخذ نصر امرأة ، وأن جبال الألب نهر ، وأن كيوپس عاش بعد رمسيس الثالث ، لكنه حين يبحث فى أشياء أتيحت له الفرصة لمشاهدتها بنفسه ، يكون أدعى للثقة به ، وكلما ازداد علمنا بالتاريخ ازدادت أقواله ثباتا .

وهو لا يتردد فى قبول الكثير من الخرافات والأوهام ، ويسجل الكثير من المعجزات ، ويرى النبوءات فى خشوع الأتقياء ، ويسود صحفه بالتفاؤل والتطير ، ويحدد تواريخ سميلى Semele ، وديونيشس ، وهرقل ؛ ويعرض التاريخ كله ، كما يعرضه بوسيه Bossuet كأنه مسرحية من وضع القوة الإلهية المدبرة لشئون العالم ، تثاب فيها الفضائل ، وتعاقب الخطايا والجرائم ، وطغيانُ الناس إذا استغنوا . لكن عقله تكون له الغلبة أحياناً ؛ ولعل سبب ذلك أنه يستمع للسوفسطائيين فى آخر حياته . فهو يشير إلى أن هومر وهزيود هما اللذان وضعا أسماء آلهة أولمپس وخلعا عليها صورها ، وأن أديان الناس وليدة عاداتهم ، وأن ما يعرفه إنسان ما عن الآلهة يعادل ما يعرفه غيره[١٤٣] . وهو يرى أن العناية الإلهية هى الحكم الذى لا معقب لحكمه فى تاريخ العالم ، لكنه يهمل بعد ذلك أمرها

(*) قارن بحثه الخيالى البارع فى الملكية ، والأرستقراطية ، والديمقراطية فى الكتاب الثالث ص ٨٠ — ٨٢)

ويبحث عن الأسباب الطبيعية للحادثات ، ويوازن بين شخصيات ديونيشس وأوزيريس ، وأساطيرهما موازنة العالم المحقق ، ويبتسم ابتسامة المتسامح مما يروى عن تدخـــل الآلهة في حوادث العالم ، ويعرض لتفسيرها أسبابا طبيعية[١٤٤] ؛ ويكشف لنا عن خطته العامة ويغمز بطرف عينه حين يقول : « إني مضطر إلى أن أقص ما ينقل إلي ، ولكني غير ملزم بتصديقه ، وأحب أن يصدق هذا القول على كل قصة أرويها في هذا التاريخ »[١٤٥] ، وهو أول من وصلت إلينا مؤلفاتهم من المؤرخين اليونان ، وعلى هذا الاعتبار لا نلوم شيشرون على وصفه إياه بأنه أبو التاريخ . ويضعه لوشيان ، كما يضعه معظم الأقدمين ، في منزلة أرقى من منزلة توكيديدز[١٤٦] .

ومع هذا كله فإن الفرق بين عقل هيرودوت وعقل توكيديدز كالفرق بين المراهقة والنضوج ، ذلك أن توكيديدز ظاهرة من ظواهر عصر الاستنارة اليوناني ، وهو من سلالة السوفسطائيين ، كما كان جبن من الناحية الروحية من سلالة بايل Bayle وفولتير . وكان والده من أثرياء الأثينيين يمتلك مناجم للذهب في تراقية ، وكانت أمه تراقية من أسرة عريقة . وقد تلقى كل ما كان في أثينة في أيامه من تعليم ، ونشأ في جو التشكك الفلسفي ، ولما شبت نار حرب البلوبونيز أخذ يسجل حوادثها يوما فيوما ، ثم مرض بالطاعون في عام ٤٣٠ ، وفي عام ٤٢٤ اختير وهو في سن السادسة والثلاثين (أو الأربعين) أحد قائدين توليا قيادة حملة بحرية سيرت إلى تراقية ، ولما أن عجز عن قيادة قواته إلى أمفيوليس Amphipolis ليفك عنها الحصار في الوقت المناسب — نفاه الأثينيون ، فقضى العشرين سنة التالية من عمره يتنقل من بلد إلى بلد وبخاصة في إقليم البلوبونيز . وإلى هذا العلم المباشر بأحوال العدو يرجع بعض ما يمتاز به كتابه من نزاهة ذات أثر كبير في النفس . ولما شبت الثورة الأبلجركية في عام ٤٠٤ انتهى أجل نفيه فعاد إلى أثينة . ومات — ويقول بعضهم انه اغتيل — في عام ٣٩٦ أو قبله قبل أن يتم تاريخ

حرب البلوبونيز . وهو يبدأ ذلك التاريخ بهذه العبارة البسيطة :

كتب توكيديدز – وهو رجل أثيني – تاريخ الحرب التي دارت رحاها بين البلوبونيز والأثينيين ، من ساعة أن اشتعلت نارها . وكان يعتقد أنها حرب خطيرة الشأن ، أجدر بالرواية من أية حرب سبقتها .

ويبدأ قصته الافتتاحية من النقطة التي انتهى إليها هيرودوت في ختام حرب الفرس . ومما يؤسف له أن عبقرية أعظم المؤرخين اليونان لاترى في الحياة اليونانية شيئا أجدر بالتسجيل من حروبها . لقد كان هيرودوت يكتب وهو يستهدف تسلية القارئ المتعلم ، أما توكيديدز فيكتب ليمد مؤرخي المستقبل بالمعلومات ، ويسجل السوابق ليسترشد بها الحكام في المستقبل . وكان هيرودوت يكتب بأسلوب سهل مهلهل غير متماسك ، ولعل الذي أوحى إليه بهذا الأسلوب هو ملاحم هومر الجوالة الدائمة . أما توكيديديز فيكتب كما يكتب من استمع إلى الفلاسفة ، والخطباء ، والكتاب المسرحيين ، بأسلوب يكثر فيه التعقيد والغموض ، لأنه يحاول أن يجمع فيه بين الإيجاز والدقة والعمق ، أسلوب تفسده في بعض الأحيان بلاغة غورغياس وزخرفها ، ولكنه في بعض الأحيان لا يقل عن أسلوب تاستس وضوحا وإحكام سبك ، ويسمو في اللحظات الحاسمة إلى العبارات المسرحية التي تبلغ من القوة ما تبلغه أية عبارة من عبارات يوربديز . ولسنا نجد في المسرحيات اليونانية ما هو أروع من الصفحات التي يصف فيها حملة سرقوصة ، أو تردد نيشياس ، أو ما أعقب الهزيمة من فزع وروع . ولنعد مرة أخرى إلى الموازنة بين هيرودوت وتوكيديدز فنقول إن هيرودوت ينتقل من مكان إلى مكان ، ومن عصر إلى عصر ؛ أما توكيديدز فيضغط قصته في إطار جامد من الفصول والسنين ، مضحيا في ذلك بتسلسلها . وكان هيرودوت يكتب عن الأشخاص أكثر مما يكتب عن مجرى الحوادث لأنه يحس أن الشخصيات هي التي تجري الحادثات ، أما توكيديدز فهو وإن كان يعترف بما للأفراد غير

العاديين من خطر فى التاريخ ، وإن كان يخفف من أعباء موضوعه بما يبثه فيه من صورة بركليز ، وألقبيادس ، ونيشياس وأمثالهم ، يجنح لتدوين الحادثات أكثر مما يجنح لذكر الأشخاص ، ويبحث فى علل الحوادث وتطوراتها ، ونتائجها . وكان هيرودوت يكتب عن حوادث جد بعيدة عنه نقلت إليه أخبارها معنعنة مرتين أو ثلاث مرات فى معظم الحالات ، أما توكيديديز فكثيراً ما يحدثنا عما شاهده بعينيه ، أو عما سمعه ممن شاهدوا بعيونهم ، أو اطلعوا على وثائقه الأصلية ، وكثيراً ما يثبت الوثائق التى يتحدث عنها . وهو شديد الحرص على الدقة ، وحتى وصفه الجغرافى نفسه قد ثبتت صحة تفاصيله . وقلما يصدر أحكاماً أخلاقية على الرجال أو الحادثات، ويطلق العنان لسخريته الأرستقراطية من الدمقراطية الأثينية فتغلب عليه وهو يصور كليون ؛ ولكنه فى أكثر الأحيان يبعد شخصيته عن قصته ، ويروى الحقائق بنزاهة لا يتحيز لأحد الطرفين ، ويقص قصة حياته توكيديدز العسكرية القصيرة وكأنه لم يعرف ذلك الرجل قط ، دع عنك أنه هو الرجل الذى يقص قصته . وهو مبتدع الطريقة العلمية فى التاريخ ، ويفخر بما بذله فى تأليفه من الجد والعناية . ويقول وهو يشير من طرف خفى إلى هيرودوت :

وإنى عتقد أن النتائج التى وصلت إليها من الأدلة التى ذكرتها هنا يمكن أن يوثق بها ويعتمد عليها . وما من شك فى أنها لن تؤثر فيها قصص شاعر يعرض ما فى صناعته من مبالغات ، ولا تآليف الإخباريين التى يضحى فيها بالحقائق فى سبيل الطرافة والجاذبية لأن الموضوعات التى يعالجونها خارجة عن نطاق الأدلة والبراهين ، ولأن قدم عهدها قد سلبها قيمتها التاريخية ورفعها إلى مقام الخرافات . أما نحن فلم نلجأ إلى هذه الطريقة أو تلك ، ولا ريب عندنا فى أننا قد اعتمدنا على أصح المعلومات وأكثرها وضـوحاً ، وأننا قد وصلنا إلى نتائج تبلغ من الدقة أقصى ما ينتظره الإنسان فى أمثال هذه المسائل الموغلة فى القدم . . . وإنى لأخشى أن يفقد كتابى بعض ما يجب أن يحتويه من طرافة ومتعة بسبب خلوه

من القصص الخيالية المثيرة للعواطف ، ولكن إذا رأى الباحثون الذين يرغبون فى الوصول إلى حقائق الماضى الصحيحة ليستعينوا بها على تفسير حوادث المستقبل — وهى التى تشبه بلاريب حوادث الماضى ، إن لم تكن صورة مطابقة لها — إذا رأى هؤلاء الباحثون أن فيه فائدة لهم ، فإنى أرضى بهذا وأقنع به . وملاك القول أنى لم أكتب كتابى هذا ليكون مقالة يكسب بها تصفيق الناس وثناؤهم لحظة قصيرة ، بل كتبته ليكون ملكا لجميع العصور(١٤٧) .

لكنه مع هذا يضحى بالدقة فى سبيل الطرافة فى حالة واحدة معينة ، فهو مولع بأنه ينطق شخصياته بالخطب الطنانة ، ويعترف صراحة بأن معظم هذه الخطب من نسج الخيال ، ولكنها مع ذلك تساعده على توضيح الشخصيات والأفكار والحوادث وإنعاشها . وهو يدعى بأن كل خطبة من هذه الخطب تتضمن خلاصة خطبة حقيقية ألقيت فعلا فى الوقت الذى يتحدث عنه . فإذا كان هذا صحيحاً فإن جميع رجال الحكم وقواد الجيش من اليونان قد درسوا بلا ريب فنون البلاغة مع غورغياس ، والفلسفة مع السوفسطائيين ، وعلم الأخلاق مع ثرازمكس . يضاف إلى هذا أن الخطب جميعها واحدة فى أسلوبها وفى مراوغتها ودهائها ، ونظرتها الواقعية إلى الأمور . وهى تجعل الاسپارطى صاحب الرد الموجز المسكت مراوغاً كأى أثينى تربى بين السوفسطائيين ، وتنطق الدبلوماسيين بحجج أبعد ما تكون عن الدبلوماسية(*) وتضفى على عبارات قادة الجند أمانة صارمة لا قبل لهم بها . وليست « خطبة پركليز الجنازية » إلا مقالا بديعاً فى فضائل أثينة ، كتبها بأسلوب رشيق رجل مطرود من بلده ، مع أن پركليز قد اشتهر ببساطة خطبه وبعدها من فنون البلاغة ، هذا إلى أن فلوطرخس يفسد على توكيديدز دعواه الخيالية الروائية بقوله إن پركليز لم يخلف وراءه شيئاً مكتوباً ، وإن أقواله لا يكاد يبقى منها شىء على الإطلاق(١٤٨) .

(*) خطب أقبيادس فى اسپارطة ، المجلد الرابع (ص ٢٠ ، ٩٨) .

ولثوكيديدز من العيوب ما يعادل فضائله ، فهو صارم كصرامة التراقى ، وتنقصه روح المرح والفكاهة الأثينية ، ولذلك يخلو كتابه من الفكاهة أياً كانت ، وتراه منهمكا على الدوام فى : « هذه الحرب التى يؤرخها توكيديدز » (وهى عبارة يكررها فى كثير من الفخر) إنهماكا يصرفه عن كل شىء عدا الحوادث السياسية والحربية . وهو يملأ صفحاته بالتفاصيل العسكرية ، ولا يذكر قط فناناً واحداً ولا عملا من أعمال الفن . وهو دائم البحث عن علل الأشياء ، ولكنه قلما يتعمق إلى العوامل الاقتصادية التى تكمن وراء العوامل السياسية وتحدد مجرى الحادثات ؛ وهو وإن كان يكتب للأجيال المقبلة ، لا يحدثنا بشىء عن دساتير الدول اليونانية أو عن حياة المدن ، أو نظم المجتمعات . وهو يتجنب التحدث عن النساء بقدر تجنبه التحدث عن الآلهة ، ويأبى أن يكون لهن موضع فى قصته ، وهو ينطق پركليز صاحب الشهامة والمروءة الذى عرض حياته للخطر من أجل عطلية تطالب بحرية المرأة ، ينطقه بقوله : « إن سمعة المرأة إنما تقوم على امتناع الرجال عن ذكرها بالخير أو بالشر قدر المستطاع(١٤٩) » . وهو وإن عاش فى عصر يعد أعظم عصور التاريخ ثقافة ، يضل فى بيداء الانتصارات والهزائم العسكرية المتعاقبة التى تقوض قواعد المنطق من أساسها ، ولا يتغنى بالحياة العقلية الأثينية التى تهز المشاعر هزاً ، بل يبقى قائداً عسكرياً بعد أن يصبح مؤرخا .

على أننا رغم هذا كله مدينون له بالشىء الكثير ، وليس من حقنا أن نعيبه فوق ما يستحق لأنه لم يكتب ما لم يتكفل بكتابته ، فهاهنا نجد فى القليل طريقة لكتابة التاريخ منظمة ، واحتراماً للحقائق ، ودقة فى الملاحظة ، ونزاهة فى الحكم ، وجزالة فى اللفظ لم تبق بعده طويلا ، وسحراً فى الأسلوب ، وعقلا قويا سديدا عميقا ، تصلح واقعيته الصارمة لأن تكون دعامة لأرواحنا الروائية الخيالية بفطرتها . ولسنا نجد فى كتابه شيئا من

القصص الخرافية ، أو الأساطير ، أو المعجزات . وهو يقبل قصص البطولة ، ولكنه يحاول أن يفسرها بالاستناد إلى العلل الطبيعية ؛ ويغفل ذكر الآلهة إغفالا تاما ، ولا يجعل لها موضعا فى كتابه ، ويسخر من النبوءات والوحى ومن غموضها الذى يجعلها فى مأمن من الخطأ[١٥٠] ، ويندد فى سخرية بغباء نيشياس إذ يركن إلى النبوءات بدل أن يركن إلى المعرفة الحقة . وهو لا يعترف بوجود قوة عليا مدبرة مرشدة ، أو خطة إلهية موضوعة محكمة ، بل إنه لا يعترف حتى « بالتقدم » نفسه ؛ وهو ينظر إلى الحياة والتاريخ نظرته إلى مسرحية دنيئة ونبيلة معا ، يرفع من شأنها بين الفينة والفينة عظماء الرجال ، ولكنها تهوى على الدوام إلى وهدة الخرافة ، والحرب . وفى شخصه يحسم النزاع بين الدين والفلسفة وتنتصر الفلسفة ؛

وبعد ، فإن فلوطرخس وأثنيوس يشيران فى كتبهما إلى مئات من المؤرخين اليونان ، ولكن الذين عاشوا منهم فى العصر الذهبى ، عدا هيرودوت وثوكيديدز قد عدا الدهر عليهم كلهم تقريبا فعفت آثارهم ، ومن جاء بعدهم من المؤرخين لم يبق من كتبهم إلا فقرات متفرقة . وقد حدث هذا بعينه لمختلف الآداب اليونانية الأخرى ؛ فليس لدينا من آثار كتاب المآسى المسرحية الذين يعدون بالمئات والذين نالوا الجوائز فى حفلات ديونيشيا إلا عدد قليل من المسرحيات كتبها ثلاثة من الشعراء ، أما كتاب المسالى الكثيرون فلم يبق إلا أثر لواحد منهم ، ولم يبق من فلسفة ذلك العصر إلا آثار رجلين اثنين . وفى وسعنا أن نقول بوجه عام إنه لم يبق من الآداب اليونانية التى يعزوها النقاد إلى القرن الخامس قبل الميلاد أكثر من جزء واحد من عشرين جزءا من نتاج ذلك القرن ، وإنه لم يبق من آثار القرون التى سبقته أو تلته إلا أقل من هذا القليل[١٥١] . والكثرة الغالبة مما بقى لنا قد جاءتنا من أثينة ؛ ولقد أنبتت المدن الأخرى ، كما نستدل من عدد الفلاسفة اللذين بعثت بهم إلى أثينة ، عدداً كبيرا من العباقرة ؛ ولكن البربرية التى طغت عليها من خارجها ومن أسفل منها

قد ابتلعت ثقافتها أسرع مما ابتلعت ثقافة أثينة ، فضاعت مخطوطاتها فى فوضى الثورات والحروب ، وليس فى وسعنا إلا أن نحكم على الكل من هتامات الجزء .

لكن تراث هذه الحضارة رغم هذا كله تراث عظيم ، عظيم فى شكله بلا ريب إن لم يكن فى مقداره (ومنذ الذى استطاع أن يستوعبه كله ؟) ؛ والشكل والنظام هما جوهر أسلوب العصر الذهبي فى الأدب وفى الفن على السواء ؛ فالكاتب اليونانى ، كالفنان اليونانى الذى يعد أنموذجا لذلك العصر ، لا يقنع بمجرد التعبير عما يريد ، بل يتوق إلى أن يكسب مادته شكلا وجمالا . وهو يعمد إلى مادته فيقصها من أطرافها ويشذبها ، ويعيد تنظيمها لتكون واضحة جلية ، ويحولها إلى صورة من البساطة المعقدة ؛ وهو دائماً واضح يسلك أقصر الطرق إلى قصده ، وقلما يلجأ إلى الدوران أو الغموض ، يتجنب المبالغة والتحيز ، وإذا ما لجأ إلى الخيال فى مشاعره حاول أن يكون منطقياً فى تفكيره . وهذا الجهد الدائم الذى لا ينفك يبذله لإخضاع الخيال للعقل ، هو الصفة الغالبة المسيطرة على العقل اليونانى ، لا بل على الشعر اليونانى نفسه . ومن أجل هذا كان الأدب اليونانى أدباً « حديثاً » بل قل أدباً معاصراً ؛ فإنا ليصعب علينا أن نفهم دانتى أو ملتن ، أما يوربيديز ، وثوكيديدز ، فهما شديدا القرب من عقولنا وينتميان إلى عصرنا . وسبب ذلك أن العقل يبقى من غير تغيير وإن تغيرت الأساطير ، وأن حياة العقل تؤاخى بين أنصارها ومحبيها فى كل زمان ومكان .

الباب الثامن عشر

انتحار بلاد اليونان

الفصل الأول

العالم اليونانى فى عهد بركليز

خليق بنا قبل أن نواجه منظر حرب البلوبونيز المحزنة أن نلقى نظرة على العالم اليونانى خارج أتكا . ولكن معلوماتنا عن الدولة الواقعة فى هذا العالم ضئيلة إلى حد لا يسعنا معه إلا أن نفترض ما لا تستطيع أن نقيم عليه الدليل ، وهو أنها كانت تشترك مع أثينة فى الازدهار الثقافى الذى امتاز به العصر الذهبى وإن لم تبلغ مبلغ أثينة نفسها فى هذا الازدهار .

فى عام ٤٥٩ سير بركليز أسطولا ضخماً ليطرد الفرس من مصر حرصاً منه على أن يضمن لبلاده قمحها . وأخفقت الحملة فى غرضها ، وسار بركليز من ذلك الحين على السياسة التى كان يسير عليها تمستكليز ، وهى أن يكسب العالم بالتجـــارة لا بالحرب . من أجل ذلك ظلت مصر وقبرص طوال القرن الخامس خاضعتين لحكم الفرس ، واحتفظت رودس بحريتها ، ثم انضمت مدنها الثلاث وأصبحت مدينة واحدة عام ٤٠٨ فتهيأت بذلك إلى أن تكون فى العهد الذى اصطبغ فيه العالم المعروف بالصبغة اليونانية مركزاً من أغنى المراكز التجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط . واحتفظت المدن اليونانية فى آسية باستقلالها الذى ظفرت به فى ميكالى عام ٤٧٩ حتى أضحت بعد تدمير الإمبراطورية الأثينية

ضعيفة عاجزة عن مقاومة جباة الملك العظيم(*) . وازدهرت المستعمرات اليونانية فى تراقية وعلى شواطئ الهلسپنت والپروپنتس واليوكسين(**) تحت السيطرة الأثينية ، ولكن الحرب الپلوپونيزية أكلت فيها الأخضر واليابس ، وخرجت مقدونية تحت حكم أرخلوس Archelaus من غمار الهمجية وأضحت إحدى الدول الكبرى فى العالم اليونانى . فأنشئت فيها الطرق الصالحة ، وصار لها جيش حسن النظام والتدريب من رجال الجبال الأشداء ، وبنيت لها عاصمة جديدة جميلة فى پلا ، ورحب بلاطها بكثيرين من عباقرة اليونان أمثال تموثيوس Timotheus ، وزيوكسيز Zeuxis ، ويورپديز ، وضربت بلاد اليونان فى الحلف البؤونى مثلا طيباً لم تنتفع به لحياة الدول حرة مستقلة فى ظلال السلم والتعاون الدولى .

وفى إيطاليا عانت المدن اليونانية أشد البلاء من جراء الحروب المتكررة ومن تفوق أثينة فى مجال التجارة البحرية . وأرسل پركليز فى عام ٤٤٣ جماعة من الهلينيين جمعهم من عدة دول لينشئوا بالقرب من سيبارس مستعمرة ثورياى Thurii الجديدة لتكون تجربة فى سبيل الوحدة الهلينية الجامعة ؛ ووضع پروتاغوراس قانوناً عاماً للمدينة ، وخطط هپودامس المهندس المعمارى شوارعها على نظام مربع حذت كثير من المدن الأخرى حذوه فى القرون التالية . ولكن لم تمض على تلك التجربة إلا بضع سنين حتى انقسمت المستعمرات أحزاباً وشيعاً حسب أصولها ، وحتى عاد معظم الأثينيين ، وأكبر الظن أن هيرودوت كان منهم ، إلى أثينة ،

وظلت صقلية — وهى التى كانت دائماً مضطربة ولكنها كانت دائماً غنية — تنمو ثروتها وتزداد ثقافتها . وشادت سلينس وأقراغاس معابد ضخمة

(*) يريد ملك الفرس . (المترجم)

(**) أى الدردنيل وبحر مرمرة والبحر الأسود . (المترجم) .

وبلغت أقراغاس فى عهد ثيرون درجة من الغنى قال فيها أنبادوقليس : « ينغمس رجال أقراغاس فى الترف كأنهم يموتون غداً ، ولكنهم يوثثون بيوتهم كأنهم يعيشون أبداً[1] » . وترك چيلون الأول بعد موته فى عام ٤٧٨ لسرقوصة نظاماً إدارياً لا يكاد يقل إحكاماً عن النظام الذى خلفه ناپليون لأوربا الحديثة . وأضحت المدينة فى عهد أخيه هيرون الأول الذى جلس على العرش من بعده مركزاً للأدب والعلم والفن فضلا عن التجارة والثروة . وفيها أيضاً بلغ الترف غايته . فكانت المآدب السرقوصية مضرب المثل فى البذخ ، وكثرت « البنات الكورنثيات » فى المدينة حتى كان الرجل الذى ينام فى منزله يعد من القديسين ؛ وكان الأهلون سريعى البديهة حداد الألسنة ، يستمتعون بالخطب البليغة إلى حد أفسد عليهم أمورهم ، ويتزاحمون فى الملهى الفخم ذى الهواء الطلق ليستمعوا إلى مسالى إيكارمس ومآسى إسكلس[*] .

وكان هيرون هذا ملكاً مستبداً غليظ القلب حسن القصد ، قاسياً على أعدائه ، مكرماً لأصدقائه . فتح بابه وخزائنه لسمونيديز ، وبكليديز ، وپندار ، وإسكلس ، واستعان بهم على جعل سرقوصة إلى وقت ما عاصمة اليونان العقلية ؛

لكن الناس لا يعيشون على الفن وحده ؛ وكان السرقوصيون يتوقون إلى نعمة الحرية ، فلما توفى هيرون خلعوا أخاه وأقاموا حكومة دمقراطية مقيدة ، وشجع هذا مدن الجزيرة الأخرى ، فحذت حذو سرقوصة وطردت الطغاة الحاكمين ، وقضت على الأشراف ملاك الأراضى وأنشأت دمقراطيات تجارية تقوم على نظام من الاسترقاق القاسى الشديد . وقضت الحرب بعد سنتين

(*) وأكبر الظن أن هذا الملهى قد بنى فى عهد هيرون الأول (٤٧٠ — ٤٦٨) ثم أعيد بناؤه فى عهد هيرون الثانى (٢٧٠ — ٢١٦) . وقد بقى منه جزء كبير . ومثلت فيه فى هذا القرن كثير من المسرحيات اليونانية القديمة .

سنة من ذلك الوقت على هذه الفترة من فترات الحرية كما قضت من قبل على فترة أخرى مماثلة لها عن يد چيـلون الأول . وفى عام ٤٠٩ غزا القرطاجيون صقلية بأسطول ضخم مؤلف من ألف وخمسمائة سفينة وعشرين ألف رجل بقيادة هنيبال حفيد هملكار ؛ وذلك بعد أن ظلوا ثلاثة أجيال محتفظين بذكرى هزيمة هملكار فى هيمرا Himera . وحاصر هنيبال سلينس وكانت قد جنحت إلى السلم بعد أن عمها الرخاء ، وأهملت معاقلها فلم تصلح شأنها . فلما أن باغت العدو المدينة استغاثت بأقراغاس وسرقوصة ، وتباطأ أهلهما المنعمون فى إغاثتها تباطؤ الاسپارطيين ، حتى استولى العدو على سلينس ، وذبح كل من بقى حيا من أهلها وقطع أوصالهم ، وأصبحت المدينة جزءاً من الإمبراطورية القرطاجية . وواصل هنيبال زحفه على هيمرا ، واستولى عليها دون عناء ؛ وعذب وقتل ثلاثة آلاف من أهلها ، ليرضى بذلك شبح جده المهزوم . ثم فشا الطاعون بين جنوده فأهلك أكثرهم ، ومات به هنيبال نفسه فى أثناء حصار أقراغاس ، غير أن القائد الذى خلفه سكن غضب آلهة قرطاجة بأن حرق ابنه زلفى لهذه الآلهة . واستولى القرطاجيون على المدينة ، وعلى چيلا Gela وكمرينا Camarina وزحفوا على سرقوصة . وبوغت السرقوصيون وهم منهمكون فى ولائمهم ، فأسلموا زمام السلطة المطلقة لديونيشس أعظم قائد فى بلدهم ، ولكن ديونيشس عقد الصلح مع القرطاجيين وترك لهم القسم الجنوبى من صقلية بأجمعه واستخدم جنوده فى إقامة الدكتاتورية ثانية (٤٠٥) . ولم يكن ذلك كله غدرا منه وخيانة لبلاده ، فقد كان يعرف أن المقاومة غير مجدية ، فنزل للعدو عن كل شىء عدا مدينته وجيشه ، واعتزم أن ينهض بالمدينة والجيش حتى يستطيع أن يفعل ما فعله چيلون من قبله فيطرد الغزاة من صقلية .

الفصل الثانى

كيف شبت نار الحرب الكبرى

لا يستطيع المواطن الساذج إلا أن يعتقد أن سبب كل الحروب هو على الدوام سبب شخصى — بل شخص واحد فى العادة ، كما لا تستطيع النفس الساذجة إلا أن تصور إلهها فى صورة إنسان . وحتى أرسطوفان نفسه قد فعل ما فعله الثرثارون النمامون من رجال عصره فادعى أن پركليز هو الذى أوقد نار الحرب البلوبونيزية بهجومه على ميغارا لأن ميغارا أساءت إلى إسپانيا[٣] ،

والراجح أن پركليز الذى لم يتردد فى الاستيلاء على أيجينا ، كان يأمل أن تستحوذ أثينة على التجارة اليونانية بأجمعها ، وذلك بسيطرتها على ميغارا وعلى كورنثة أيضاً ؛ ولقد كان مركز كورنثة بالنسبة لبلاد اليونان كمركز اسطنبول فى شرق البحر الأبيض المتوسط فى وقتنا الحاضر — كانت باباً ومفتاحاً لتجـــارة نصف قارة . لكن سبب الحرب الجوهرى هو نمو الإمبراطورية الأثينية ، وازدياد سيطرة أثينة على الحياة التجارية والسياسية فى بحر إيجة . لقد كانت أثينة تترك التجارة حرة فى هذا البحر وقت السلم ، لكنها لم تكن تفعل ذلك إلا إذا أجازته هى وسمحت به مصالحها الإمبراطورية ؛ ولم يكن فى مقدور أية سفينة أن تمخر عباب هذا البحر إلا برضاها ، وكان رجال أثينيون موكلون منها يحددون مستقر كل سفينة تغادر ثغور الحبوب فى البلاد الشمالية ؛ ولما أن كاد الجدب يهلك ميثونى Methone لم تستطع أن تستورد القليل من الحبوب إلا بعد استئذان أثينة[٤] . وكانت تلك المدينة تدافع عن هـــذه السيطرة لأنها تراها أمراً حيوياً لا بد منه لبقائها ، فقد كانت تعتمد فى طعامها على ما تستورده من خارج بلادها ، وقد أجمعت أمرها على أن تحرس الطرق التى يصل منها هذا

الطعام إليها ؛ على أنها بحراستها طرق التجارة الدولية كانت تؤدى خدمة حقة للسلم والرخاء فى بحر إيجة ، ولكن الطريقة التى سارت عليها فى أداء هذه الخدمة ازدادت إيلاماً للمدن الخاضعة لها وجرحاً لكبريائها كلما زاد ثراء هذه المدن وقوى إحساسها بعزتها القومية . وكانت أثينة قد أخذت تنفق الأموال التى تبرعت بها هـــذه المدن لتصد بها غارات الفرس عنها فى تجميلها ، بل لقد بلغ منها أن أخذت تنفقها فى شن الحرب على غيرها من مدن اليونان(٥) . وكانت الأحوال المفروضة على تلك المدن تزداد عاماً بعد عام حتى بلغت فى عام ٤٣٢ ق . م ٤٦٠ وزنة (٠٠٠ر٣٠٠ر٢ ريال أمريكى) فى العام . وكانت أثينة قد قصرت على المحاكم الأثينية حق النظر فى جميع القضايا التى تنشأ فى داخل الحلف إذا كان أحد طرفى النزاع مواطناً أثينياً أو كانت القضايا تشمل جرائم كبرى . فإذا ما وقفت مدينة فى وجه أثينة أخضعتها بالقوة ، وعلى هذا النحو أخمد پركليز بسرعة ومهارة الفتن التى ثار نقعها فى إيچينا (٤٥٧) ، وعوبية (٤٤٦) ، وساموس ٤٤٠ .

وإذا جاز لنا أن نصدق قول توكيديدز فإن زعماء الدمقراطية الأثينية كانوا يعترفون أن حلف المدن الحرة قد أصبح إمبراطورية تقوم على القوة ، وإن كانوا قد اتخذوا الحرية الغرض الأسمى لسياستهم فى داخل أثينة نفسها . وفى ذلك يقول توكيديدز على لسان كليون مخاطباً الجمعية فى عام ٤٢٧ : « عليكم أن تذكروا أن إمبراطوريتكم ليست إلا طغياناً تفرضونه على أقوام خاضعين لسلطانكم رغم أنوفهم ، وأنهم لا ينفكون يأتمرون بكم ، وهم لا يطيعونكم نظير خير تقدمونه لهم وتضرون به أنفسكم لتنفعوهم فتؤثروهم بذلك على أنفسكم ، بل يطيعونكم لأنكم سادتهم ، وهم يحبونكم مرغمين، ولكنهم لا يخضعون لكم إلا بالقوة »(٦) ، وقد أدى هذا التناقض الأساسى بين عبادة الحرية ، وطغيان الإمبراطورية منضما إلى النزعة الفردية المتأصلة

فى الدول اليونانية أدى هـذا وذاك إلى القضاء على العصر الذهبى فى بلاد اليونان .

وشرعت مدن اليونان جميعها تقريباً تقاوم سياسة أثينة(٧) ، فقاومت بؤوتية فى كورونيا (٤٤٧) ما بذلته أثينة من جهود لضمها إلى الإمبراطورية . واستغاثت بعض المدن الخاضعة لأثينة وبعضها الآخر الذى يخشى الخضوع لها باسپارطة ، وطلبت إليها أن تقف فى وجه أثينة . ولم يكن الإسپارطيون متحمسين للحرب راغبين فيها ، لعلمهم بقوة الأسطول الأثينى وشجاعة رجاله ، ولكن الكراهة العنصرية القديمة بين الدوريين والأيونيين أشعلت نار البغضاء فى قلوبهم ، وبدا للألجركية الإسپارطية مالكة الأراضى أن الخطة التى جرت عليها أثينة وهى إقامة حكومة دمقراطية تستمد سلطتها من الإمبراطورية فى كل مدينة من المدن الخاضعة لها ، نقول بدا لهذه الألجركية أن تلك الخطة تهدد كيان الحكومات الأرستقراطية أينما كانت ، واكتفى الأسپارطيون حيناً من الدهر بتقديم المعونة للطبقات العليـا فى كل مدينة من هذه المدن ، وأخذوا يعملون على مهل فى تكوين جبهة متحدة ضد أثينة .

ورأى پركليز نفسه يحيط به الأعداء من داخل أثينا وخارجها ، فأخذ يعمل للسلم ويستعد للحرب . وهداه تفكيره إلى أن فى مقدور الجيش أن يدافع عن أتكا ، أو عن جميع سكان أتكا إذا اجتمعوا داخل أسوار أثينة ، وأن فى مقدور الأسطول أن يحمى الطرق التى تسلكها السفن المحملة بالحبوب من بلاد اليوكسين أو مصر إلى ثغر أثينـة المسور ويبقيها مفتوحة . وكان يعتقد أنه لا يستطيع النزول عن شىء لأعدائه دون أن يعرض للخطر موارد الطعام الذى تعتمد عليه أثينة ؛ وبدا له كما يبدو لإنجلترا فى هذه الأيام ، أنه أمام واحدة من اثنتين إما الإمبراطورية أو الموت جوعاً ولا وسط بينهما . ولكنه مع هذا أرسل الرسل إلى جميع الدول اليونانية يدعوها إلى عقد مؤتمر هلينى للبحث عن حل للمشاكل التى تدفع

اليونان للحرب . فرفضت اسپارطة الدعوة ، إذ أحست أن قبولها إياها سيفسر بأنه اعتراف منها بزعامة أثينة ، وحذت كثير من الدول الأخرى حذوها بوحى منها[٨] ، وبذلك فشل مشروع بركليز . وفى هذا يقول توكيديدز قالة تفسر كثيراً من الحقائق التاريخية : « لقد كانت البلوپونيز وأثينة مملوءتين بالشباب تدفعهم نقص تجربتهم إلى الرغبة فى امتشاق الحسام[٩] » .

كانت هذه العوامل الأساسية تعمل عملها ، ولم يكن قيام الحرب يتطلب أكثر من حادث يستفز النفوس . وقد وقع هذا الحادث فى عام ٤٣٥ . وذلك أن كرسيرا Corcyra إحدى المستعمرات الكورنثية أعلنت استقلالها عن كورنثة وانضمت إلى الحلف الأثينى ليحميها من تلك المدينة . وأرسلت كورنثة عمارة بحرية لإخضاع الجزيرة . واستغاث الدمقراطيون المنتصرون فى كرسيرا بأثينة فسيرت أسطولا لإغاثتهم . وحدثت معركة غير حاسمة بين أهل كرسيرا وأثينة من جهة ، وأهل ميغارا وكورنثة من جهة أخرى . وفى عام ٤٣٢ حاولت بوتيديا Potidaea وهى مدينة فى جزائر خلقيدية تؤدى الجزية لأثينة ولكن أهلها من عنصر كورنثى ، حاولت هذه المدينة أن تخلع النير الأثينى عن كاهلها ، فسير عليها بركليز جيشاً يحاصرها ، ولكنها ظلت تقاومه سنتين كاملتين استنفدت فى خلالها موارد أثينة العسكرية وأضعفت هيبتها . ولما أن مدت ميغارا يدها مرة أخرى بالمعونة إلى كورنثة أمر بركليز بمنع كل محصولاتها من دخول أسواق أتكا والإمبراطورية . واستغاثت ميغارا وكورنثة باسپارطة ، فعرضت على أثينة أن تلغى قرار التحريم ، ووافق بركليز على شريطة أن تسمح اسپارطة للدول الأجنبية بأن تتجر مع لكونيا ، فرفضت اسپارطة هـــذا الشرط ، واشترطت من جانبها للصلح أن تعترف أثينة باستقلال جميع المدن اليونانية استقلالا تاما ، أى أن تنزل أثينة عن إمبراطوريتها . وأقنع بركليز الأثينيين أن يرفضوا هذا الطلب ، فما كان من اسپارطة إلا أن أعلنت الحرب[١٠] .

الفصل الثالث

من الوباء إلى السلم

وانضمت بلاد اليونان كلها إلى هذا الطرف أو ذاك من الطرفين المتنازعين فانضمت دول البلوبونيز ما عدا أرغوس إلى اسپارطة ، وحذت حذوها كورنثة ، وميغارا وبؤونية ، ولكريس ، وفوسيس . أما أثينة فقد قدمت لها المدائن الأيونية والبكسينية ، والجزائر الإيجية فى بادئ الأمر بعض معونتها . وكانت المرحلة الأولى من مراحل تلك الحرب كالمرحلة الأولى من الحرب العالمية الكبرى فى هذه الأيام(*) صراعاً بين القوتين البحرية والبرية ، فقد ضرب الأسطول الأثينى مدن البلوبونيز الساحلية ، وأما الجيش الاسپارطى فغزا أتكا واستولى على غلاتها وأتلف تربتها . ودعا پركليز سكان أتكا إلى الاعتصام داخل أسوار أثينة ، وأبى أن يخرج جيوشه للقتال ، ونصح الأثينيين الذين هاج هائجهم بأن يصبروا ويصابروا حتى ينتصر أسطولهم .

وقد كان هذا تدبيراً سديدا من الناحية العسكرية الفنية ، ولكنه غفل من عامل كاد أن يحسم النزاع . فقد كان ازدحام أثينة بأهل أتكا سبباً فى تفشى وباء فيها — لعله الملاريا[11] — فى عام ٤٣٠ دام قرابة ثلاث سنين ، وأهلك ربع جنودها ، وعددا كبيرا من أهلها المدنيين(**) . واستولى اليأس على قلوب الأهلين لما لحقهم من العذاب بسبب الوباء والحرب فاتهموه بأنه أصل كليهما . وتقدم كليون وغيره للقضاة متهمين پركليز بأنه أساء التصرف

(*) يريد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) . (المترجم)

(**) انظر وصف لكريشس القوى لهذا الوباء فى ص ١١٣٠ — ١٢٨٦ من الجزء الرابع من De Rerum Natura .

فى الأموال العامة ؛ وإذا كان قد استخدم أموال الدولة كما يبدو فى إرشاء ملوك اسپارطة لعقد الصلح فقد عجز عن أن يقدم حساباً مقنعاً عما تصرف فيه من الأموال ، وثبتت عليه التهمة ، وأخرج من منصبه ، وفرضت عليه غرامة باهظة مقدارها خمسون وزنة (٣٠٠،٠٠٠ ريال أمريكى) . وفى ذلك الوقت عينه أو حواليه ماتت أخته ومات اثنان من أبنائه الشرعيين بالوباء ، لكن الأثينيين لم يجدوا لهم زعيما يخلفه فأعادوه إلى منصبه (٤٢٩) ؛ وأرادوا أن يظهروا تقديرهم له وعطفهم عليه فى محنته ، فخرقوا قانونا كان هو واضعه ، ومنحوا ابناً له من اسپازيا حقوق المواطنية الأثينية . ولكن الأثينى الطاعن فى السن كان هو نفسه قد أصيب بالوباء ، ووهنت قواه يوماً بعد يوم ومات بعد بضعة أشهر من عودته إلى منصبه . ولقد وصلت أثينة فى عهده إلى ذروة مجدها ، وصلت إليها بفضل الثروة التى أفاءها عليها خلف كاره من جهة ، وبفضل القوة التى أوغرت عليها صدور الدول جميعاً من جهة أخرى ، ولهذا فإن القواعد التى رست عليها دعائم العصر الذهبى لم تكن سليمة ، وكان لا بد أن تتقوض حين عجزت السياسة الأثينية عن تسيير دفة الحكم فى زمن السلم .

ولعل أثينة ، كما يشير توكيديدز ، كانت تستطيع أن تظفر بالنصر رغم هذا العجز ، لو أنها ظلت تسير على خطة فابيوس Fabius التى وضعها بركليز . ولكن خلفاءه تعجلوا فى تنفيذ منهاج كان يتطلب كثيراً من ضبط النفس . فقد كان زعماء الحزب الدمقراطى الجدد تجاراً من نمط كليون تاجر الجلود ، ويكراتيز Eucrates بائع الحبال ، وهيربولس Hyperbolus صانع المصابيح . وكان هؤلاء الرجال يدعون إلى مواصلة الحرب فى البر والبحر ، وكان كليون أقدرهم جميعاً وأعظمهم كفاية ، وأفصحهم لساناً ، وأكثرهم استهتاراً بالمبادئ الأخلاقية ، وأشدهم فساداً . ويصفه فلوطرخس بأنه « أول خطيب من الأثينيين خلع رداءه وضرب على فخذه وهو يخاطب الجماهير[١٢] » ؛ ويقول أرسطاطاليس إن كليون كان شديد الحرص على الظهور على المنصة فى ثياب العمال[١٣] . وكان على رأس

عدد كبير من الزعماء الشعبيين حكموا أثينة منذ مات بركليز إلى أن فقد الأثينيون استقلالهم يوم قيرونة Chaeronea (٣٣٥) .

وأثبت كليون كفايته عام ٤٢٥ حين حاصر الأسطول الأثيني جيشاً اسبارطياً في جزيرة اسفكتيريا Sphacteria القريبة من پيلس Pylus المسينية . ولاح أنه لا يوجد قائد بحرى يستطيع الاستيلاء على الحصن ، فلما أن عهدت الجمعية إلى كليون الإشراف على الحصار (وكانت ترجو بعض الرجاء أن يقتل في الهجوم عليه) ، أدهش الناس كلهم بتوجيه الهجوم بمهارة وشجاعة أجبرتا اللسدمونيين على الاستسلام على غير عادتهم . وأذل هذا الاستسلام اسبارطة فطلبت الصلح والتحالف مع أثينة نظير الإفراج عن أسراها ، ولكن كليون استطاع بفصاحته الخطابية أن يقنع الجمعية بأن ترفض هذا العرض وأن تواصل الحرب . وقويت سيطرته على الجماهير بعد أن عرض على الجمعية اقتراحاً أجازته من فورها يعفى الأثينيين فيما بعد من أداء الضرائب التي تتطلبها مواصلة الحرب ، على أن يؤخذ ما يلزمها من المال بزيادة الخراج الذي تؤديه المدن الداخلة في نطاق الإمبراطورية (٤٢٤) . وكانت السياسة التي يسير عليها كليون في هذه المدن ، كالسياسة التي يسير عليها في أثينة ، هي أن يستولى من الأغنياء على أكبر قدر يجده عندهم من المال . ولما أن ثارت الطبقات العليا في متليني ، ونبذت الحكم الدمقراطي ، وأعلنت تحرر لسبوس من ولائها لأثينة (٤٢٩) ، اقترح كليون أن يقتل جميع الذكور البالغين من سكان المدينة العاصية . ووافقت الجمعية على هذا الاقتراح — ولعل الذين حضروا هذه الجلسة لم يكونوا سوى العدد القانوني الذي يصح أن تعقد بحضوره — وأرسلت سفينة تحمل أوامره بتنفيذه إلى پاكيز Paches القائد الأثيني الذي قمع الثورة . ولما أن ذاع نبأ هذا الأمر الوحشي في أثينة دعا العقلاء المعتدلون إلى عقد اجتماع ثان للجمعية ، واستصدروا منها قراراً بإلغاء القرار السابق ، وأرسلوا سفينة أخرى أدركت پاكيز قبيل تنفيذ أمر

المذبحة . وبعث باكيز إلى أثينة ألفاً من زعماء الثوار ، قتلوا عن آخرهم إجابة لاقتراح كليون وجرياً على سنة ذلك العصر[١٤] . وكفر كليون عن ذنبه بأن مات في الميدان وهو يحارب البطل الاسپارطى براسيداس Brasidas الذى كان يستولى على المدن فى شمال بلاد اليونان الأصلية والخاضعة لأثينة أو المتحالفة معها مدينة فى إثر مدينة . وهذه الحرب هى التى خسر فيها توكيديدز منصبه البحرى ومسكنه فى أثينة من جراء تباطؤه فى إنقاذ أمفپوليس المدينة التى كانت تتحكم فى مناجم الذهب فى تراقية . وقتل براسيداس فى هذه الحرب نفسها ، فلم تجد اسپارطة زعيماً يستطيع مواجهة الهيلوتيين الذين كانوا يهددونها بالثورة ففرضت الصلح مرة أخرى على أثينة ، وانصاعت أثينة للمرة الأولى لنصيحة الزعيم الأجركى فوقعت صلح نيشياس (٤٢١) . ولم تكتف المدن المتحاربة بأن تعلن انتهاء الحرب ، بل وقعت شروط حلف يستمر خمسين عاماً ، وتعهدت أثينة أن تخف لمساعدة اسپارطة إذا ما ثار عليها الهيلوتيون[١٥] .

الفصل الرابع

ألقبيادس

واجتمعت ثلاثة عوامل حولت هذا العهد الذى أخذته المدن اليونانية على نفسها بأن تدوم المودة بينها خمسين عاماً كاملة إلى هدنة موقتة لم تدم إلا ست سنين. وهذه العوامل الثلاثة هي: الفساد الذى طرأ على السلم فجعله «حرباً بوسائل أخرى»؛ وقيام ألقبيادس على رأس حزب ينادى بامتشاق الحسام؛ ومحاولة أثينة الاستيلاء على المستعمرات الدورية فى صقلية، ورفض حلفاء اسپارطة أن يوقعوا شروط الاتفاق مع أثينة، وانشقوا عليها بعد أن ذهبت قوتها، وحولوا ولاءهم إلى أثينة، واحتفظ ألقبيادس فى أثينة بالسلم رسمياً، ولكنه كان فى واقع الأمر يعد العدة لمحاربة اسپارطة، وحشد المدن اليونانية الموالية لأثينة فى واقعة دارت رحاها عند منتينيا Mantinea (٤١٨). وانتصرت اسپارطة فى المعركة، وعقدت المدن اليونانية هدنة أخرى على الرغم منها.

وفى هذه الأثناء سيرت أثينة أسطولا إلى جزيرة ميلوس الدورية تطلب إليها أن تكون دولة خاضعة لسلطان الإمبراطورية الأثينية (٤١٦)، ويقول توكيديدز — وأكبر الظن أن المؤرخ الذى فيه يخضع للفيلسوف السوفسطائى أو الطريد المنتقم — إن الرسل الأثينيين لم يبرروا اعتداءهم بأكثر من قولهم إن القوة هى الحق: «لقد أملت علينا الآلهة وعلمنا الناس أن هؤلاء وأولئك يحكمون أينما استطاعوا وفقاً لقانون محتوم متأصل فى طبيعتهم، ولسنا نحن أول من سن هذا القانون أو عمل به؛ لقد وجدناه قائماً من قبلنا؛ وسنتركه قائماً سرمدياً من بعدنا؛ وكل ما نستطيع أن نفعله أن نسير على سننه، لأنا نعرف أنكم أنتم وكل من عداكم من الناس ستفعلون فعلنا إذا أوتيتم ما أوتينا من قوة»[١٦]. وأبى أهل

ميلوس أن يخضعوا وأعلنوا أنهم سيفوضون أمرهم إلى الآلهة ويضعون فيها ثقتهم . ولما أن وصلت بعدئذ إلى الأسطول الأثيني إمدادات لا قبل لهم بها استسلموا للغزاة الفاتحين بلا شرط ولا قيد . وأعدم الأثينيون كل من وقع فى أيديهم من الذكور البالغين ، وباعوا النساء والأطفال بيع الرقيق ، وأقطعوا الجزيرة لحسالة من المستعمرين الأثينيين . وابتهجت أثينة بهذا الفتح المبين ، وشرعت من ذلك الحين تبرهن ، بما مثل بين جدرانها من مآس حية ، على ذلك المبدأ الذى مثله كتابها على المسرح ، وهو أن الانتقام الإلهى يتعقب الانتصار الوقح .

وكان ألقبيادس ممن أيدوا فى الجمعية القرار القاضى بإعدام الذكور من أهل ميلوس[١٧] . وكان تأييده لكل اقتراح أيا كان نوعه يكفى فى الغالب لإقراره ، لأنه كان وقتئذ أقوى رجل فى أثينة ، تعجب به لفصاحة لسانه ، وبهاء طلعته ، وعبقريته المتعددة الكفايات ، بل تعجب به أيضاً لعيوبه وجرائمه . وكان أبوه أقلينياس Cleinias الثرى قد قتل فى واقعة كورونيا Coronea ، وكانت أمه وهى القيمونية Alemaeomid تمت بالقرابة إلى بركليز ، قد أقنعت ذلك السياسى أن يربى ألقبيادس فى منزله . وكان الغلام مشاكساً ، ولكنه ذكى شجاع ، حارب وهو فى سن العشرين بجانب سقراط فى بوتيديا Potidaea ، وحارب فى السادسة والعشرين من عمره فى واقعة دليوم Delium (٤٢٤) . ويبدو أن الفيلسوف كان يحس بعطف قوى على الغلام ، وأنه رده إلى الفضيلة ، كما يقول فلوطرخس ، بألفاظ ، « بلغ من تأثيرها فى ألقبيادس أن استدرت الدمع من عينيه ، وأقلقت باله ، ولكنه مع ذلك كان يسلم نفسه أحياناً للمتلقفين ، حين كانوا يعرضون عليه ألواناً من الملاذ ، فيهجر سقراط ، ويأخذ الفيلسوف فى مطاردته كأنه عبد آبق »[١٨] .

وكانت بديهة الشاب الوقادة ومجونه حديث الناس فى أثينة وموضع دهشتهم وإعجابهم . ولما أن عاب عليه بركليز تكبره واستبداده برأيه بقوله إنه لم يفعل فعله هو مع أنه هو الأخر كان زلق اللسان فى صباه ، رد عليه ألقبيادس

بقوله : « أشد ما آسف له أنى لم أعرفك حين كان عقلك فى عنفوانه »[١٩] .
وأراد مرة أن يرد على تحدى أحد رفاقه المتهورين الصخابين فصفع رجلا من أغنى الأثينيين وأشدهم بطشاً يدعى هپونكس Hipponicus على وجهه ، ثم دخل فى اليوم الثانى بيت ذلك العظيم ، وخلع ملابسه ، ورجا هپونكس أن يضربه بالسوط عقاباً له على فعلته . وتأثر الشيخ بفعل الشاب فزوجه بابنته هپريتى ومهرها بعشر وزنات ، وأقنعه ألقبيادس بأن يضاعف المهر وأنفق معظمه على نفسه ، وعاش عيشة بلغت من الترف درجة لم تعرف أثينة مثلها من قبل . فقد ملأ بيته بالأثاث الثمين ، واستخدم الفنانين فى رسم الصور على الجدران ، وجمع طائفة من جياد السباق ، فاز بها مراراً فى سباق المركبات فى أولمپيا . وقد فازت خيله فى إحدى هذه المباريات بالجوائز الأولى والثانية والرابعة فما كان منه إلا أن أولم وليمة لجميع أعضاء الجمعية[٢٠] .
وكان فى بعض الأحيان يعد السفن ويؤدى نفقات الممثلين من ماله الخاص ، وإذا ما طلبت الدولة تبرعات للحرب من أبنائها كان هو أكبر المتبرعين .

ولم يكن ألقبيادس يتقيد بواعز من ضمير أو عرف أو بخوف ، ولهذا كان يعبث فى صباه وكهولته عبثاً بهيمياً ، وكأن أثينة بقضها وقضيضها كانت تستمتع معه بسعادته . وكان يلعثم قليلا فى نطقه تلعثما بلغ من سحره أن أصبح التلعثم الطراز الشائع بين شباب أثينة العصريين ، واحتذى مرة طرازاً جديداً من الأحذية ، فلم يلبث شباب المدينة الأثرياء المتأنقون أن لبسوا أحذية ألقبيادس ؛ وقد خرج على مائة قانون ، وأساء إلى مائة رجل ، ولكن أحداً لم يجرؤ على مقاضاته . وقد بلغ من حب السرارى له أنه نقش على درعه الذهبى صورة لإله الحب وإلى جانبه صاعقة كأنه يعلن بذلك انتصاراته فى الحب[٢١] ، وصبرت زوجته على خياناته صبر الكرام ، فلما تمادى فيها عادت إلى منزل أبيها وأخذت تستعد لمقاضاته طلباً للطلاق ، ولما ظهرت أمام الأركون ، احتضنها ألقبيادس ، وسار بها إلى منزله مخترقاً السوق

العامة دون أن يجرؤ إنسان على اعتراضه فلم يسعها والحالة هذه إلا أن تطلق له العنان ، وأن تقنع منه بفتات حبه ، ولكن موتها المبكر يوحى بأنها ماتت كسيرة القلب بسبب خياناته الزوجية .

ولما أن دخل ميدان السياسة بعد موت بركليز لم يجد فيه إلا منافساً واحداً له ، هو نيشياس الثرى التقى . ولكن نيشياس كان ضالعاً مع طبقة الأشراف جانحاً للسلم ، ومن أجل هذا شرع ألقبيادس يخص بعطفه طبقات التجار ، ويدعو إلى النزعة الاستعمارية دعوة أثارت كبرياء الأثينيين . وكان صلح نيشياس مشيناً فى نظره لأنه يحمل اسم منافسه . ولما اختير فى عام ٤٢٠ قائداً من عشرة قواد بدأ يضع تلك الخطط الطموحة التى قذفت بأثينة مرة أخرى فى معمعان القتال ، ولما أن هتفت له الجمعية ابتهج لهتافها تيمن Timon كاره المجتمع وتنبأ بما سوف يحل بها من الفواجع(٢٢).

الفصل الخامس

المغامرة الصقلية

كان خيال ألقبيادس هو الذى أفسد عمل پركليز . ذلك أن أثينة قد انتعشت بعد ما حل بها من كوارث الحرب ، وأخذت التجارة تدر عليها ثروة جزائر بحر إيجة . لكن القانون الطبيعى الذى يخضع له كل كائن حى هو قانون النماء الذاتى ؛ فأما المطامع والإمبراطوريات فلا تقنع أبداً بما تبلغ ؛ ولا تقف أبداً عند حد . وكان ألقبيادس يطمع فى أن يبنى لأثينة إمبراطورية جديدة فى مدائن إيطاليا وصقلية الغنية ، حيث تستطيع أن تجد الغلال ، والمواد ، والرجال ، وحيث تستطيع أن تسيطر على موارد الطعام البلوپونيز ، وتضاعف الخراج الذى كان يوشك أن يجعلها أعظم المدن اليونانية : ولم يكن فى وسع أية مدينة أن تنافسها غير سرقوصة ، ولم تكن هى تطيق التفكير فى هذه المنافسة ، وكانت ترى أنها إن استولت على سرقوصة خضع لسلطانها جميع حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى ، ونالت أثينة من المجد ما لم يحلم به پركليز نفسه :

وحدث فى عام ٤٢٧ أن حذت صقلية حذو بلاد اليونان الأصلية فانقسمت إلى معسكرين متنازعين ، تتزعم أحدهما سرقوصة الدورية ، وتتزعم الأخرى ليونتينى Leontini الأيونية . وأرسلت ليونتينى غورغياس إلى أثينة يستنجدها ، ولكن أثينة كانت وقتئذ أضعف من أن تغيث مستغيثاً .

وفى عام ٤١٦ أرسلت سجستا رسلا إلى أثينة يبلغونها أن سرقوصة تعد العدة لتخضع صقلية كلها ، وتفرض عليها حكومة دُورية ، وتمد اسپارطة بالمؤن والأموال إذا ما تجددت الحرب الكبرى. واغتنم ألقبيادس هذه الفرصة السانحة وقال إن اليونان فى صقلية متقسمون على أنفسهم انقساماً لا يرجى من ورائه لهم

خير ، وإن كل مدينة فيها منقسمة على نفسها ، وإن من أيسر الأمور وبقليل من الشجاعة أن تضم الجزيرة كلها إلى الإمبراطورية ، وإن من أوجب الواجبات أن تظل الإمبراطورية تتسع رقعتها ، وإلا فلا مناص لها من أن تبدأ فى الاضمحلال ، وأن الشعب الذى يريد أن تكون له إمبراطورية فى حاجة إلى مناوشة من آن إلى آن لتدريبه على أساليب حكم الشعوب(٢٣) .
وقام نيشياس فى الجمعية يعارضه ويطلب إليها ألا تستمع لرجل يغريه بلخه بالإقدام على مشروعات التوسع الخيالية ، ولكن بلاغة ألقبيادس وخيال شعب تحلل الآن تحللا خطيراً من المبادئ الأخلاقية تغلبا على حجج نيشياس ، وأعلنت الجمعية الحرب على سرقوصة ووافقت على الأموال اللازمة لإعداد أسطول ضخم لغزوها ، وكأنما أرادت أن تجعل هزيمة أثينة مؤكدة فوزعت القيادة بين ألقبيادس ونيشياس .

وسارت الاستعدادات على قدم وساق مدفوعة بالحماسة الشديدة التى هى من أخص خصائص الحرب ، وأخذ الأهلون ينتظرون سفر الأسطول ليحتفلوا به احتفالا وطنياً عظيما . ولكن حدث قبل اليوم المحدد لسفره بأيام قلائل حادث عجيب هز مشاعر المدينة التى كانت قد فقدت كثيراً من تقواها وإن لم تفقد شيئاً من خرافاتها وأوهامها . وتفصيل ذلك أن أشخاصا مجهولين تسللوا فى جنح الظلام وحطموا أنوف تماثيل الإله هرمس ، وآذانها ، وأعضاء تذكيرها . وكانت هذه التماثيل قائمة أمام المبانى العامة وكثير من المساكن الخاصة رمزاً للإخصاب ووقاية لها من كل سوء . وجاء باحث متحمس يفضى إلى القوم بشهادة لا سند لها منقولة عن جماعة من الغرباء والأرقاء يقولون فيها إن هذا العبث من فعل طائفة من أنصار ألقبيادس السكارى بزعامة ألقبيادس نفسه . واحتج القائد الشاب على هذا القول وحاول أن يبرئ نفسه منه ، وطلب أن يقدم إلى المحاكمة على الفور ، حتى يدان أو يبرأ قبل سفر الأسطول . ولكن أعداءه الذين كانوا يتوقعون صدور الحكم ببراءته ، أفلحوا فى تأجيل المحاكمة : وعلى هذا أبحر الأسطول

العظيم فى عام ٤١٥ وقد عقد لواؤه لداعية من دعاة السلم خوار القلب يبغض الحرب ، ورجل جرىء من أنصار الحرب ، يقف توزيع القيادة وخشية البحارة أن يكون قد استحق غضب الآلهة ، حائلا بين عبقريته وبين الجهود التى لا بد من بذلها لنيل النصر . ولم تكد تمضى على سفر الأسطول بضعة أيام حتى وردت أدلة كالأدلة السابقة لا سند لها يؤيدها ولا يمكن الوثوق بها تقول إن ألقبيادس وأصدقاءه قد اشتركوا فى تمثيل الطقوس الإلوريتية الخفية تمثيلا هزليا ساخراً . وأسرعت الجمعية تدفعها الجماهير الهائجة الغاضبة ، فأرسلت السفينة السريعة سلامينيا Salaminia للحاق بألقبيادس وإعادته إلى أثينة ليقدم فيها للمحاكمة . وقبل ألقبيادس الدعوة ، وانتقل إلى سلامينيا ؛ ولما أن رست السفينة عند ثورباى نزل إلى البر خفية وفر هاربا . فلما أن غلبت الجمعية الأثينية على أمرها أصدرت حكمها بنفيه ومصادرة جميع أملاكه ، وإعدامه إذا ما استطاع الأثينيون القبض عليه . واستولى عليه الحزن إذ رأى أن مشروعاته التى تهدف إلى مجد أثينة وتوطيد دعائم إمبراطوريتها قد قضى عليها من جراء حكم لا يزال يعـــده ظالما ، فلجأ إلى البلوبونيز ، وحضر إحدى جلسات الجمعية الاسپارطية ، وعرض أن يساعد إسبارطة على هزيمة أثينة وإقامة حكومة أرستقراطية فيها . ويقول توكيديدز على لسانه : « أما الدمقراطية فإن العقلاء منا يعرفون حقيقة أمرها ، ولست أنا أقل علما بذلك من أى واحد منهم ، لأن عندى من أسباب الشكوى منها أكثر مما عندهم ، ولكنى لا أجد شيئاً جديداً أذكره عن هذا السخف المتأصل فيها »[٢٤] . وأشار على الاسپارطيين أن يسيروا أسطولا لمساعدة سرقوصة ، وجيشا للاستيلاء على دسيليا Deceleia -- وهى مدينة فى أتكا إذا استولت عليها اسپارطة تحكمت عسكرياً فى أتكا بأجمعها ما عدا أثينة ، فتمنع بذلك مناجم الفضة فى لوريوم أن تمد أثينة بالأموال التى تمكنها من مقاومة الغزو ، حتى إذا

رأت المدن الخاضعة لأثينة أن هزيمتها محققة امتنعت عن أداء الجزية . وعملت اسپارطة بهذه النصيحة .

وظهرت قوة عزيمته حين نبذ ما تعوده فى حياة الترف وعاش كما يعيش الاسپارطيون متقشفاً ، مقتصداً ، متحفظاً ، يأكل غليظ الطعام ، ويلبس خشن الثياب ، ويسير حافى القدمين ، ويستحم فى نهر اليوروتاس Eurotas صيفاً وشتاء ، ويطيع قوانين لسدمونيا وعاداتها عن وفاء وإخلاص . لكن طلعته البهية ، وجاذبيته رغم هذا كله أفسدتا عليه خططه ، فقد هامت الملكة بحبه ، وحملت منه بولد ، وأسرّت إلى أصدقائها فى زهو وفخار أنه أبوه . واعتذر هو لأصدقائه عن فعلته هذه بأنه لم يستطع أن يقاوم رغبته فى أن يكون ملوك لكونيا من نسله . وجاء الملك أجيس إلى بلده ، وكان متغيباً عنه مع جيشه . وعلم ألقبيادس بذلك فحصل على منصب فى قسم من أسطول اسپارطة كان مسافراً إلى آسية . وتبرأ الملك من الطفل ؛ وبعث بأوامر سرية تقضى باغتيال ألقبيادس ، ولكن أصدقاءه حذروه من هذا ، ففر وانضم لطشفرن Tissaphernes قائد الأسطول الفارسى فى سرديس .

وكان نيشياس يواجه فى الطرف الآخر من ميدان القتال مقاومة لا يستطيع الغلب عليها إلا عبقرية ألقبيادس العسكرية ومهارته فى حبك الدسائس وتدبير المؤامرات . ذلك أن صقلية بأجمعها تقريباً خفت لمساعدة سرقوصة . وفى عام ٤١٤ استطاع أسطول صقلية بمساعدة أسطول اسپارطى يقوده جيلبس Gylippus أن يحصر السفن الأثينية الحربية فى ميناء سرقوصة ويمنع عنها الطعام . وفقدت هذه السفن آخر فرصة أتيحت لها للخروج من هذا المأزق حين خسف القمر فارتاع لذلك نيشياس وكثيرون من جنوده وحملهم هذا الروع على أن ينتظروا فرصة أخرى أكثر من هذه إرضاء للآلهة ، ، لكنهم فى اليوم الثانى وجدوا أنفسهم يحيط بهم أعداؤهم فاضطروا كارهين

أن يخوضوا المعركة ، ومنوا بالهزيمة في البحر أولا ثم في البر بعدئذ .
وحارب نيشياس رغم ضعفه ومرضه ببسالة ، ولكنه أسلم نفسه آخر الأمر لرحمة السرقوصيين ، فلم يكن منهم إلا أن أعدموه ، ثم أرسل من بقي على قيد الحياة من الأثينيين ، وكانوا كلهم من طبقة المواطنين ، إلى العمل في مناجم صقلية ، حيث ذاقوا طعم الحياة التي ظل يحياها عدة أجيال أولئك الذين ظلوا عدة قرون يكدحون في استخراج الفضة من مناجم لوريوم وهلكوا فيها كما هلك هؤلاء .

الفصل السادس

انتصار اسبارطة

وقضت هذه الكارثة على روح أثينة المعنوية ، فقد هلك أو استرق فيها نصف مواطنيها تقريباً ، وترمل نصف هذه الطبقة من النساء ، وتيتم نصف الأطفال . ولم يكد يبقى لها شيء من الأموال التي جمعها بركليز في خزائنها ، وكان عام آخر كفيلا باستنفاد كل درهم فيها . وحسبت المدن الخاضعة لأثينة أنها ساقطة لا محالة فامتنعت عن أداء الجزية ، وتخلف عنها معظم حليفاتها وانضمت الكثيرات منهن إلى اسبارطة . وفي عام ٤١٣ ادعت اسبارطة أن أثينة قد خرجت أكثر من مرة شروط صلح « الخمسين عاماً » فأعلنت إليها الحرب من جديد ، واستولى اللسديمونيون في هذه المرة على ديسيليا ، وحاولوا دون وصول الطعام إليها من عوبية والفضة من لوريوم . وتمرد الأرقاء الذين كانوا يعملون في هذه المناجم ، وانضموا بكامل عددهم البالغ عشرين ألف رجل إلى الاسپارطيين . وبعثت سرقوصة جيشاً لينضم إلى المهاجمين ، ورأى ملك الفرس الفرصة سانحة ليثأر لنفسه من هزيمة مرثون وسلاميس ، فأمد بالمال الأسطول الاسپارطي الناشئ ، بعد أن اتفق مع اسپارطة ذلك الاتفاق المشين ، وهو أن تساعد الفرس على أن يستعيدوا سيادتهم على مدائن أيونيا اليونانية[٢٥] .

ومما يدل على شجاعة الدمقراطية الأثينية وما كان فيها من حيوية أن أثينة استطاعت أن تقاوم أعداءها عشر سنين أخرى ، فقد نظمت حكومتها تنظيما راعت فيه قواعد الاقتصاد ، وجدت في جمع الضرائب وفرض الإعانات لبناء أسطول جديد ، فلم تكد تمضى سنة على هزيمتها في سرقوصة

حتى أصبحت متأهبة لأن تنازع اسپارطة سيادتها الجديدة على البحار . ولما كاد انتعاش أثينة يبدو أمراً مؤكداً نظم الحزب الألجركى ثورة فى البلاد ، واستولى على أزمة الحكم وأنشأ مجلساً أعلى قوامه أربعمائة ألف (٤١١) . ولم يكن أعضاء هذا الحزب فى يوم من الأيام فى جانب الحرب ، بل إنهم كانوا فى واقع الأمر يودون لو انتصرت اسپارطة على أثينة لتنتعش فيها الأرستقراطية : واستولى الرعب على الجمعية بعد أن اغتيل كثيرون من زعماء الدمقراطية فاقترعت على أن تكفى نفسها بنفسها . وناصر الأغنياء الثورة لأنهم رأوا فيها الوسيلة الوحيدة للقضاء على حرب الطبقات التى وحدت صفوف الطبقات المتماثلة فى أثينة واسپارطة ، كما وحد كفاح الطبقات الوسطى ضد الأرستقراطية أحزاب الأحرار فى إنجلترا وأمريكا إبان الثورة الأمريكية . وما كاد الألجركيون يستولون على أزمة الحكم حتى أرسلوا الرسل لعقد الصلح مع اسپارطة ، وأخذوا يمهدون السبيل سراً لدخول الجيش الإسپارطى فى أثينة . وفى هذا الوقت تولى ثرمنيز ، وهو زعيم حزب وسط من الأرستقراط المعتدلين ، ثورة مضادة للثورة السالفة الذكر ، واستبدل بمجلس الأربعمائة الذى تولى الحكم نحو أربعة أشهر مجلساً آخر من خمسمائة عضو (٤١١) ، واستمتعت أثينة فترة قصيرة بحكم دمقراطى أرستقراطى مشترك كان فى نظر توكيديدز وأرسطاطاليس[٣٦] (وكلاهما من الأشراف) خير ما رأته أثينة بعد عهد صولون من أنظمة الحكم وأكثرها عدلا . ولكن الثورة الثانية نسيت ، كما نسيت الثورة الأولى ، أن طعام أثينة وحياتها نفسها يعتمدان على أسطولها ، الذى حرمت الثورتان رجاله عدا قليلين من زعمائهم من حقوقهم السياسية . وثارت ثائرة البحارة حين سمعوا هذا الخبر ، فأعلنوا أنهم سيحاصرون أثينة إن لم تعد إليها حكومتها الدمقراطية . وانتظر الألجركيون قدوم الجيش الاسپارطى ولكن الاسپارطيين تباطأوا شأنهم فى كل مرة ، وولى الحكام الجدد الأدبار ، وأعاد الدمقراطيون المنتصرون الدستور القديم (٤١١) .

وكان ألقبيادس قد أيد الثورة الأجركية سراً ، وكان يرجو أن تمهد السبيل لعودته إلى أثينة ، فلما عادت الدمقراطية إلى سابق عهدها استدعته إليها ووعدته بالعفو عنه ؛ ولعلها كانت تجهل دسائسه ، ولكنها كانت تعرف بلا ريب سيئات الحكومات التي توالت عليها بعد نفيه منها . غير أن ألقبيادس أرجأ عودته ظافراً إلى أثينة ، وتولى قيادة الأسطول المرابط عند ساموس ، وأقدم على العمل بسرعة ونجاح سعدت بهما أثينة فترة قصيرة من الزمان . فقد اجتاز الهلسبنت مسرعا ، والتقى بأسطول اسپارطي عند سزكس Cyzicus ودمره تدميراً تاماً تاماً (٤١٠) . ثم حاصر خلقيدون وبيزنطية حصاراً دام عاما كاملا استولى بعده عليهما وأعاد بذلك إلى أثينة سيطرتها على مواد الطعام المارة بالبسفور . ثم عاد بأسطوله نحو الجنوب فالتقى بعمارة اسپارطة أخرى قرب جزيرة أندروس وهزمها دون عناء . ورجع بعدئذ إلى أثينة (٤٠٧) ، فحياه أهلها على بكرة أبيهم أحسن تحية واستقبلوه أحسن استقبال . لقد نسوا وقتئذ ذنوبه ولم يذكروا إلا عبقريته وحاجة أثينة الشديدة إلى قائد قدير مثله[٢٧] . ولكن أثينة وهي تحتفل بانتصاراته لم ترسل إليه المال الذي يؤدى به رواتب بحارة أسطوله . وهنا أيضا قضى على ألقبياس عدم استمساكه بالمبادئ الأخلاقية الكريمة . ذلك أنه ترك الجزء الأكبر من أسطوله عند نوتيوم Notium (قرب إفسوس) تحت إمرة رجل يدعى أنتيكس Antiochus ، وأمره أن يبقى في الميناء وألا يشتبك في القتال مهما تكن الأسباب ، ثم سار هو ومعه عدد قليل من السفن إلى كاريا Caria ليجمع منها المال إلى رجاله بأساليب لا يرضى عنها القانون . وطمع أنتيكس في الشهرة فغادر الميناء ، وتحدى أسطولا اسپارطيا صغيراً بقيادة ليسندر Lysander فقبل هذا القائد التحدي ، وقتل أنتيكس بيده وأغرق معظم سفائن الأسطول الأثيني أو استولى عليها (٤٠٧) . ولما علمت أثينة بهذه الفاجعة ، وكان لها في الجمعية رد فعل سريع ، فقد اجتمعت من فورها ووجهت اللوم إلى ألقبيادس

لتركه أسطوله وعزلته من قيادته . وأصبح ألقبيادس يخشى أثينة واسبارطة على السواء ، فلم ير بدأ من الالتجاء إلى بيثينيا Bithynia .

وأمرت أثينة فى يأسها أن يصهر ما فى التماثيل والقرابين القائمة على الأكربوليس من ذهب وفضة ، وأن ينفق هذا كله فى بناء أسطول جديد من مائة وخمسين سفينة ذات ثلاث صفوف من المجاديف ، ثم قررت أن تعتق الأرقاء ، وتمنح حقوق المواطنية للغرباء ، الذين يدافعون عن المدينة ، وهزم الأسطول الجديد عمارة اسپارطية بالقرب من جزائر أرجنوسى Arginusae (جنوب لسبوس) فى عام ٤٠٦ ، واهتزت مشاعر أثينة مرة أخرى بنشوة الظفر ، ولكن الجمعية استشاطت غضباً حين سمعت أن قوادها(*) قد تركوا بحارة خمس وعشرين سفينة من السفن التى أغرقها العدو يموتون غرقاً على أثر عاصفة بحرية . ونادى المتحمسون أن أرواح هؤلاء الغرقى الذين لم يدفنوا طبقاً للمراسم المرعية ، ستطوف قلقة حوالى العالم ؛ واتهموا الباقين على قيد الحياة بإهمالهم إنقاذ الغرقى ، واقترحوا أن يحكم بالقتل على ثمانية من القواد المنتصرين (ومنهم ابن پركليز من أسبازيا) . وتصادف أن كان سقراط عضواً فى لجنة الرياسة فى ذلك اليوم فأبى أن يعرض هذا الاقتراح على الجمعية . ولكنه عرض ووافقت عليه على الرغم منه ، ونفذ الحكم بنفس السرعة التى صودق بها عليه . وما هى إلا أيام قلائل حتى ندمت الجمعية على فعلتها ، وحكمت بالإعدام على من أقنعوها بقتل القواد . وفى هذه الأثناء عرض الاسبارطيون ، بعد أن أوهنتهم الهزيمة ، أن يعقدوا الصلح مرة أخرى ، ولكن الجمعية الأثينية رفضت هذا العرض متأثرة ببلاغة كليوفون المخمور(٢٨) .

واتجه الأسطول الأثينى بعدئذ نحو الشمال ، تحت إمرة قواد من الطبقة

(*) كان لفظ استراتجوس Strategos يطلق على قواد الجيش والأسطول على السواء .

الثانية ، ليلاقى الاسپارطيين بقيادة ليسندر فى بحر مرمرة . ورأى ألقبيادس من مخبئه بين التلال أن السفن الأثينية قد اتخذت لها موضعاً شديد الخطورة عند إيجسپتاى Aegospotami قرب لمپسكس Lampascus ، فما كان منه إلا أن خاطر بحياته ونزل إلى الشاطئ على ظهر جواده ، ونصح أمراء البحر الأثينيين أن يبحثوا لهم عن موضع أقل تعرضاً للخطر من موضعهم ؛ ولكنهم لم يثقوا بنصحه ولم يعملوا به ، وذكروه بأنه لم يعد له شأن بالقيادة . وفى اليوم الثانى حدثت المعركة الفاصلة ، وأغرقت فيها مائتان من سفن الأسطول الأثينى المائتين والثمان ، أو استولى عليها العدو ، وأمر ليسند بقتل ثلاثة آلاف من الأسرى الأثينيين[٢٩] . وترامى إلى ألقبيادس أن ليسندر قد أمر بقتله ، ففر إلى فريجيا مع القائد الفارسى فرنبزوس Pharnapazus الذى وهبه قصراً وحظية . ولكن ملك فارس أمر فرنبزوس بأن يقتل ضيفه عملا بنصيحة ليسندر . وحاصر اثنان من القتلة ألقبيادس فى قصره ، وأشعلا النار فيه ، فخرج منه عاريا يائسا ، يريد أن يقاتل دفاعا عن حياته ، ولكن سهام مهاجميه وحربتيهما اخترقت جسمه قبل أن يمسهما سيفه فقضى نحبه فى السادسة والأربعين من عمره ؛ وكان أعظم العباقرة فى تاريخ اليونان العسكرى ، كما كان إخفاقه أعظم الفواجع فى هذا التاريخ .

وأصبح ليسندر بعدئذ صاحب السلطان المطلق فى بحر إيجة ، فأخذ ينتقل بأسطوله من مدينة إلى مدينة ، يقضى على الدمقراطيات ويقيم مكانها حكومات أجركية خاضعة لاسپارطة ، ثم دخل ثغر بيرية من غير أن يلقى مقاومة ، وضرب الحصار على أثينة ، وقاومه الأثينيون ببسالتهم المعهودة ، ولكن ما كان لديهم من الطعام لم يكفهم أكثر من ثلاثة أشهر ، وامتلأت طرقات المدينة بالموتى أو المحتضرين . وعرض ليسندر على أثينة شروطاً للصلح مذلة ولكنها رحيمة . فقد قال إنه لا يريد أن يخرب مدينة أدت فى الماضى خدمات مشرفة إلى بلاد اليونان ، ولن يريد فوق ذلك أن يستعبد أهلها ،

ولكنه طلب دك الأسوار الطويلة واستدعاء الألجركيين المنفيين ، وتسليم جميع ما كان باقياً من أسطولها عدا ثمان سفن ، وأن تقطع على نفسها عهداً بأن تساعد اسپارطة مساعدة جدية فى كل حرب تخوض غمارها فى المستقبل . واحتجت أثينة على هذه الشروط ولكنها قبلتها صاغرة .

واستولى الألجركيون العائدون بزعامة أقرتياس وثرمنيز على أزمة الحكم بتأييد ليسندر ، وألفوا مجلساً من ثلاثين عضواً ليحكم أثينة (٤٠٤) . ولم يفد هؤلاء العائدون من دروس الماضى شيئاً ، كما لم يفد منها آل بربون Bourbon بعد أن عادوا إلى حكم فرنسا . فقد صادروا أموال كثيرين من أغنياء التجار ، وأوغروا عليهم صدورهم . ونهبوا أموال الهياكل ، وباعوا بثلاث وزنات أرصفة پيرية التى كلفت أثينة ألف وزنة[٣٠] ، ونفوا من المدينة خمسة آلاف من الدمقراطيين ، وأعدموا ألفاً وخمسمائة آخرين ؛ وقتلوا جميع الأثينيين الذين لم يكونوا هم راضين عنهم لأسباب سياسية أو شخصية ؛ وقضوا على حرية التعليم والاجتماع ، والكلام ؛ وحرم أقريتياس على سقراط ، وقد كان يوماً ما تلميذ هذا الفيلسوف ، أن يواصل أحاديثه العامة . وأراد الثلاثون أن يعرضوا الفيلسوف للشبهات ويضموه إلى قضيتهم فأمروه هو وأربعة غيره أن يقبضوا على ليون Leon الدمقراطى ، فأطاع الأربعة أمرهم ورفضه سقراط .

وازدادت جرائم الألجركيين وتضاعفت إلى حد أنسى الأثينيين أوزار الدمقراطية ، فأخذ عدد من يريدون التخلص من هذا الطغيان الدموى ، ومن بينهم كثيرون من ذوى اليسار ، يزداد يوماً بعد يوم ، ولما أن اقترب من پيرية ألف من الدمقراطيين المدججين بالسلاح بقيادة ثرازيبولس Thrasypulus لم يكد الثلاثون يجدون من يدافع عنهم غير شيعتهم الأقربين . ونظم أقريتياس جيشاً صغيراً ، وخرج هو إلى ميدان القتال فهزم وقتل . ودخل ثرازيبولس

أثينة وأعاد إليها الحكم الدمقراطى (٤٠٣) . وسارت الجمعية بإرشاده سيراً معتدلا لم تألفه من قبل ، فلم تحكم بالإعدام إلا على أكابر من بقوا على قيد الحياة من زعماء الثورة ، وسمحت لهم بالنجاة من هذا الحكم بالخروج من المدينة ؛ ثم أعلنت العفو العام عن جميع من ساعد الألجركيين من غير هؤلاء الزعماء ، بل إنها ردت إلى اسپارطة المائة الوزنة التى أعارها حكامها إلى الثلاثين[٣١] . وأعادت هذه الأعمال المنطوية على كثير من الإنسانية وحسن السياسة إلى أثينة ذلك السلام الذى حرمت منه جيل من الزمان .

الفصل السابع

موت سقراط

من أغرب الأشياء أن العمل القاسي الوحيد الذي ارتكبته الدمقراطية بعد عودتها ، قد ارتكبته مع فيلسوف طاعن في السن تحول سنوه السبعون بينه وبين القيام بأي عمل يضر الدولة . ولكن كان بين زعماء الحزب المنتصر ذاك الأنيتوس Anytus الذي هدد قبل عدة سنين من ذلك الوقت بأن ينتقم لنفسه من سقراط لبعض إهانات لحقته من جدله ، ولأن الفيلسوف « أفسد » ابنه . وكان أنيتوس هذا رجلا صالحاً ، حارب ببسالة تحت إمرة ثرازيبولس ، وأنقذ حياة بعض من أسرهم جنوده من الأجركيين . وكانت له يد في إصدار العفو العام ؛ وسمح للذين ابتاعوا أملاكهم ، بعد أن صادر الثلاثون الأملاك ، أن يتبقوها لأنفسهم لا ينازعهم فيها منازع . ولكنه لم يحتفظ بهذه الصفات الكريمة في معاملته لسقراط . فهو لم ينس أن ابنه بقي مع سقراط وصار سكيراً عربيداً بعد أن ذهب هو إلى منفاه[٣٢] ؛ ولم يخفف من حقده على الفيلسوف أن سقراط أبى أن يطيع الثلاثين وأعلن أن أقريتياس حاكم ظالم (هذا إذا كان لنا أن نصدق رواية أكسانوفون عن هذا الحادث[١٣]) . فقد بدا لأنيتوس أن تأثير سقراط في الأخلاق وفي السياسة أسوأ من تأثير أي سوفسطائي آخر ، وأنه يقوض دعائم العقيدة الدينية التي كانت تستند إليها الأخلاق ، وأن انتقاداته الدائمة كانت تضعف إيمان الأثينيين المتعلمين في الأنظمة الدمقراطية(*) . وبدا لأنيتوس أن من الخير أن يخرج سقراط من أثينة أو أن يموت .

(*) لقد انقطع أقريتياس وألقبيادس عن سقراط في أوائل عهده بالتدريس لأنهما لم يقبلا القيود التي كان يدعو إليها .

ووجّه الاتهام إلى سقراط أنيتوس ، وملاتوس ، وليقون فى عام ٣٩٩ وكان نصه : « أن سقراط مذنب عام لأنه لا يعترف بالآلهة التى تعترف بها الدولة ، بل يدخل فيها كائنات شيطانية » (الديمونيون السقراطية) ؛ « وأنه مذنب كذلك لأنه أفسد الشباب(*)[٣٥] » . وجرت المحاكمة أمام محكمة شعبية (ديكاستريون Dikasterion) مؤلفة من حوالى خمسمائة من المواطنين معظمهم ممن لم ينالوا قسطاً كبيراً من التعليم . وليس لدينا وسيلة نعرف بها ما فى رواية أفلاطون وأكسانوفون الخاصة بدفاع سقراط عن نفسه من دقة ، وكل ما نعرفه محققاً أن أفلاطون شهد المحاكمة بنفسه[٣٧] ، وأن روايته عن اعتذار سقراط تتفق فى كثير من المواضع مع رواية أكسانوفون . يقول أفلاطون إن سقراط قد أكد أنه يؤمن بألوهية الشمس والقمر نفسيهما . « تقولون أولا إنى لا أومن بالآلهة ثم تقولون بعدئذ إنى أومن بإنصاف الآلهة... إن مثلكم فى هذا كمثل من يؤكد وجـــود البغال ثم ينكر وجود الخيل والحمير[٣٨] » ثم أشار وهو مكتئب حزين إلى ما كان لهجاء أرسطوفان من أثر فعال :

« لقد اتهمنى كثيرون ، اتهمونى فى الزمن القديم ، وظلت تهمهم الكاذبة تطاردنى كثيراً من السنين ، وأنا أخشاهم أكثر مما أخشى أنيتوس ورفاقه . . . لأنهم بدءوا يتهموننى وأنتم أطفال ، واستحوذوا بأكاذيبهم على عقولكم ، إذ حدثوكم عن شخص يسمى سقراط ، وهو رجل حكيم ، يفكر فى السموات العلا ، ويفحص عن الأرض من تحتنا ، ويجعل أسوأ الأسباب تبدو للعين كأنها أحسنها . أولئك هم المتهمون الذين أخشى بأسهم ، لأنهم هم الذين ينشرون

(*) يعتقد كروازيه Croiset أن سبب الاتهام الحقيق هو عداء زراع أتكا لكل من يثير الشك فى آلهة الدولة . فقد كان من أشهر أسواق الماشية سوق تقام ليشترى منها الأتقياء الصالحون ما يقربونه للآلهة من الماشية . وكان أى نقص فى العقيدة الدينية يسبب الكساد لهذه السوق ، وكان أرسطوفان وهو يعلل العداء على هـــذا النحو إنما ينطق بلسان أولئك الزراع الذين تعرض عليهم مسرحياته إذ نجحت مراراً كثيرة[٣٦]

هذه الشائعة ، وسرعان ما يخيل إلى المستمعين ليهم أن من يفكر هذا التفكير لا يؤمن بالآلهة . وما أكثر هؤلاء ، وما أقدم التهم التي يوجهونها إليّ ، وقد كانوا يوجهونها أثناء طفولتكم التي ينطبع فيها كل شيء قوياً في عقولكم ، أو لعلهم وجهوها إليّ في أثناء شبابكم ، وسواء كان هذا أو ذاك فإن التهمة إذا وجهت ولم تجد من يفندها ثبتت في العقول . وأصعب ما في الأمر كله أني لا أستطيع ذكر أسمائهم لأنني أجهلها ، اللهم إلا اسم واحد عرفته مصادفة وهو شاعر هزلي . . . تلك هي حقيقة التهم الموجهة إليّ ، وهذا هو الذي رأيتموه بأعينكم في مسلاة أرسطوفان(٣٩) » .

وهو يقول إنه مكلف برسالة إلهية هي أن يهدي الناس إلى الحياة الصالحة البسيطة ، وإنه لن يمتنع عن إبلاغ الناس هذه الرسالة أياً كان ما يهدد به .

« ولو فعلت لكان مسلكي عجيباً بحق . أي رجال أثينة ، إذا كنت وأنا تحت إمرة القواد الذين اخترتموهم رؤساء عليّ في پوتيديا ، وأمفيپوليس ، ودپليوم قد ثبت حيث أمروني بالثبات ، وواجهت الموت كما واجهه كل رجل آخر — وإذا كنت الآن ، وأنا أعتقد وأتصور أن الله يأمرني بأن أؤدي رسالة الفيلسوف فأفحص عن نفسي وعن غيري من الناس ، إذا كنت أنا أتخلى عن مهمتي خشية الموت . . . ، وإذا ما قلتم لي : يا سقراط إنا سنعفو عنك الآن ولا نشترط عليك إلا أن تكف من هذه الساعة عن البحث والتفكير على هذا النحو . . . أجبتكم : أي رجال أثينة ، إني أجلكم وأحبكم ، ولكني سأطيع الله ولا أطيعكم ، ولن أمتنع ، ما دمت حياً وما دامت لدي قوة ، عن ممارسة الفلسفة أو تعليمها للناس ، أعظ كل من ألقاه على طريقتي الخاصة ، وأقنعه ، وأقول له ؛ أي صديقي ، لم تعنى كل هذه العناية كلها بادخار أكبر قدر مستطاع من المال والشرف والسمعة الطيبة ولا تدخر إلا النزر اليسير من الحكمة والحقيقـة وأنت مواطن في مدينة أثينة العظيمة ، القوية ، الحكيمة ؟ وأهيب بكم يا رجال

أثينة أن تفعلوا ما يأمركم به أنيتوس ، برئونى أو لا تبرئونى ، ولكن أيا كان ما تفعلونه بى ، فلتعلموا أنى لن أبدل طرائق ، ولو مت مرات كثيرة[٤٠] .

ويبدو أن القضاة قد قاطعوه عند هذه النقطة ، وأمروه ألا يسترسل فيما بدا لهم أنه وقاحة ، ولكنه واصل دفاعه بكبرياء أشد من ذى قبل :

أحب أن تعرفوا أنكم إذا قتلتم رجلا مثلى ، أسأتم إلى أنفسكم أكثر مما تسيئون إلىّ ... لأنكم إن قتلتمونى لن يسهل عليكم أن تجدوا رجلا آخر مثلى ، فأنا ، إذا سمح لى أن ألجأ إلى هذا التشبيه المضحك السخيف ، كذبابة بعثها الله إلى الدولة ، والدولة شبيهة بجواد عظيم كريم ، بطىء الحركة لضخامة جسمه ، فى حاجة إلى ما يبث فيه الحياة ... وإذ كنتم لن تجدوا غيرى رجلا مثلى ، فإنى أنصحكم أن تبقوا علىّ[٤١] .

وصدر الحكم بإدانته بأغلبية ضئيلة لا تزيد على ستين صوتا ، ولو أن دفاعه كان أقل حدة وأكثر استرضاء للقضاة لكان من الجائز أن يبرأ . وكان من حقه أن يقترح عقابا آخر بدل الإعدام ، ولكنه أبى فى أول الأمر أن يطلب هذا الطلب ؛ فلما ألح عليه أفلاطون وغيره من الأصدقاء ، عرض أن يؤدى غرامة قدرها مائة مينا (٣٠٠٠ ريال أمريكى) . وضمنه أفلاطون وهؤلاء الأصدقاء فى تعهده . فلما أخذ الرأى للمرة الثانية زاد عدد أصوات الذين حكموا بإعدامه ثمانين صوتا على عددهم فى المرة الأولى[٤٢] .

وقد كان فى استطاعته بعدئذ أن يفر من السجن ، وقد مهد له أقريطون وغيره من الأصدقاء (إذا جاز لنا أن نصدق أفلاطون) بالرشا سبيل الفرار[٤٥] ، والراجح أن أنيتوس كان يأمل أن ينتهى الأمر على هذا النحو . ولكن سقراط بقى كما هو إلى آخر يوم من حياته : فقد كان يحس أنه لن تطول حياته أكثر من بضع سنين وأنه « لن يلقى عن كاهله إلا أبهظ جزء من الحياة ؛ وهو الجزء الذى يشعر فيه الناس كلهم أن قواهم العقلية آخذة فى النقصان[٤٦] »

لهذا لم يقبل اقتراح أقريطون ، بل أخذ يبحثه من وجهة النظر الأخلاقية ، ويناقشه على الطريقة الجدلية ، ويطبق عليه المنطق إلى النهاية[٤٧] . ولم ينقطع تلاميذه عن زيارته فى سجنه كل يوم خلال الشهر الذى انقضى بين إدانته وتنفيذ الحكم فيه ، ويبدو أنه ظل يتحدث إليهم وهو هادئ حتى الساعة الأخيرة من حياته . ويحدثنا أفلاطون أنه أخذ يعبث بشعر فيدون Phaedo ويقول : « يخيل إلى يافيدون أن هذه الغدائر الجميلة ستقص غداً » — حزناً على . وجاءته زانثپى باكية وبين ذراعيها أصغر أطفالها ؛ فأخذ يواسيها ، وطلب إلى أقريطون أن يصحبها إلى دارها . وقال له أحد تلاميذه المتحمسين : « إنك لا تستحق هذه الميتة » فأجابه سقراط بقوله : « هل تريد إذن أن أستحقها[٤٩] ؟ » .

ويقول ديودور الصقلى[٥٠] . إن الأثينيين ندموا على فعلتهم بعد موته وأعدموا من اتهموه . ويقول سويداس إن ملاتوس مات رجماً بالحجارة[٥١] ، ولكن فلوطرخس يروى رواية أخرى فيقول إن الشعب غضب على متهميه غضباً بلغ من شدته أنهم لم يجدوا مواطناً يوقد لهم النار ، أو يجيب لهم عن سؤال ، أو يستحم فى ماء استحموا هم فيه ، فلم يسعهم آخر الأمر إلا أن يقتلوا أنفسهم[٥٢] . ويروى ديوجانس ليرتيوس أن ملاتوس أعدم ، وأن أنيتوس نفى ، وأن تمثالا من البرنز أقيم فى أثينة تخليداً لذكرى الفيلسوف[٥٣] . ولكنا لا نعرف ما فى هذه القصص من الصدق أو الكذب(*) .

وانتهى العصر الذهبى بموت سقراط . فقد خارت قوى أثينة المادية والمعنوية ، ولم يكن ثمة ما يستطاع به تعليل القسوة المتناهية التى عاملت بها ميلوس ، والحكم الوحشى الذى أصدرته على متلينى ، وإعدام قواد أرجنوسى ،

(*) أما جروت[٥٤] . فيشك فيها ، وما يبعث فى نفوسنا نحن الشك فى صدقها مايبذله أفلاطون وأكسانوفون من الجهد فى الدفاع عن سمعة سقراط . ولكن هذه الروايات كان يقبلها الناس بوجه عام فى الزمن القديم (كان يقبلها مثلا ترتليان وأوغسطين[٥٥]) ، وهى تتفق كل الاتفاق مع عادات الأثينيين .

والتضحية بسقراط على مذبح الدين المحتضر ، لم يكن ثمة ما يستطاع به تعليل هذا كله إلا ما أصاب الأخلاق فيها من تدهور بسبب الحروب الطوال التي خاضت غمارها وما جرته على أهلها من عذاب وآلام . لقد تصدعت جميع الدعائم التي تستند إليها الحياة الأثينية : فأقفرت تربة أتكا من جراء الغارات الاسپارطية ، وأحرقت أشجار الزيتون البطيئة النمو ، ودمر الأسطول الأثيني فلم تستطع أثينة بعد تدميره أن تسيطر على الطرق التجارية وتضمن ما يلزمها من الطعام ، وأقفرت خزائنها من المال ، وفرض على الثروات الخاصة من الضرائب الباهظة ما كاد يذهب بها كلها ، وقتل نحو ثلثي مواطنيها . وكان ما أصاب بلاد اليونان من الضرر بسبب غزوة الفرس أقل مما أصابها بسبب حروب البلوپونيز . لقد تركت موقعتا سلاميس وپلاتيا بلاد اليونان فقيرة ولكنها مرفوعة الرأس تملأ نفوس أهلها العزة وتعمر قلوبهم الشجاعة ، أما الآن فقد افتقرت بلاد اليونان مرة أخرى ، وأثخنت أثينة بجراح في روحها مستنسرة لا يرجى لها برء :

ولم يكن يحفظ عليها حياتها إلا شيئان : عودة الديمقراطية على أيدي رجال من ذوي الحكمة والاعتدال ، وشعورها بأنها في خلال الستين سنة الأخيرة ، وحتى في خلال الحرب نفسها ، قد أخرجت إلى العالم فناً وأدباً لا يدانيهما نتاج أي عصر آخر في تاريخ البشر . نعم إن أنكساغورس قد نفي ، وأن سقراط قد أعدم ، ولكن القوة التي بعثاها في الفلسفة كانت تكفي لأن تجعل أثينة من ذلك الحين ، وعلى الرغم منها ، مركز التفكير اليوناني الذي بلغ فيها ذروته . فقد نضجت فيها تلك الآراء التي كانت من قبل أفكاراً تجريبية لم تتشكل بعد وأضحت نظماً عظيمة مستقرة ظلت مصدر الحركة في الحياة الفكرية الأوربية عدة قرون ؛ وحلت محل نظم التربية العالية المضطربة التي لا تخضع لقاعدة والتي كان يتولى أمرها السوفسطائيون ، حلت محلها أولى الجامعات التي عرفها التاريخ — وهي الجامعات التي جعلت أثينة في

مستقبل الأيام « مدرسة هلاس » كما تعجل وسماها سيديدز قبل اكتمالها .
ولم تقض الحروب وما أزيق فيها من دماء وما أحدثته من فوضى واضطراب على مقومات الفن وتقاليده قضاء تاماً ، بل ظل المثالون والمهندسون اليونان عدة قرون بعد ذلك الوقت ينحتون ويشيدون لجميع بلاد البحر الأبيض المتوسط ؛ ولقد انتعشت أثينة من اليأس الذى دب فيها بعد هزيمتها ، وعادت إليها حيويتها عودا يثير الدهشة ، فتجددت ثروتها ، وثقافتها ، وقوتها ، وازدهر خريف حياتها وأثمر أحسن الثمار .

الكتاب الرابع

اضمحلال الحرية اليونانية وسقوطها

من ٣٩٩ الى ٣٢٢ ق . م

ثبت مسلسل للحوادث التاريخية

فى الكتاب الرابع

ق . م .

٣٩٩ — ٦٠ أجلسوس ملك اسپارطة .

— ٣٩٧ الحرب بين سراقوصة وقرطاجنة .

— ٣٩٦ أرستيپوس فى سيرينى وأنتستانس فى أثينه ، فيلسوفان .

— ٣٩٥ أثينة تعيد بناء الأسوار الطويلة .

— ٣٩٤ واقعتا كورونيا وثيدس .

— ٣٩٣ أپولوچية أفلاطون ؛ ومرابلية أكسانوفون ، وإكلازوسية أرسطوفان .

٣٩٠ — ٣٨٧ ديونيشيوس يخضع إيطاليا الجنوبية .

— ٣٩١ إسقراط يفتتح مدرسته .

— ٣٩٠ إفوراس يصبغ قبرص بالصبغة اليونانية .

— ٣٨٧ صلح أنتلسداس ، أو صلح الملك ؛ أفلاطون يزور أرقطياس التاراسى العالم الرياضى ، وديونيشيوس الأول .

— ٣٨٦ أفلاطون ينشئ المجمع العلمى (الأكاديمية) .

— ٣٨٣ الاسپارطيون يحتلون كدمية عند طيبة .

— ٣٨٠ پنيجركس لإسقراط .

— ٣٧٩ پلپيداس وميلون يحرران طيبة .

٣٧٨ — ٥٤ الإمبراطورية الأثينية الثانية .

— ٣٧٥ ثياتيتس ، العالم الرياضى .

— ٣٧٢ ديچين السنوبى ، الفيلسوف .

— ٣٧١ أپامينداس ينتصر عند لكترا .

— ٣٧٠ ديوقلس العربى عالم الأجنة ، ويودكسس النيدى الفلكى .

٣٦٧ — ٥٧ ديونيشيوس الثانى طاغية فى سراقوصة ، ديون يضع خططاً للإصلاح .

— ٣٦٧ أفلاطون يزور ديونيشيوس الثانى .

— ٣٦٢ أپامينداس ينتصر ويموت عند منتينيا .

— ٣٦١ زيارة أفلاطون الثالثة لسراقوصة .

ق . م .

— ٣٦٠ پركستليز الأثينى ، واسكوپاس الپاروسى المثالان ؛ إفورس السومى وثيوپمپس الطشيوزى المؤرخان .

— ٣٥٩ فليپ الثانى نائب الملك فى مقدونية .

٣٥٧ — ٤٦ الحرب بين أثينة ومقدونية .

٣٥٧ — ٤٦ نفى ديونيشيوس الثانى .

٣٥٦ — ٤٦ الحرب المقدسة الثانية .

— ٣٥٦ مولد الإسكندر الأكبر ؛ حرق الهيكل الثانى فى إفسوس ، مسرحية « فى السلم » لإسقراط .

— ٣٥٥ مسرحية أريبجستس لسقراط .

— ٣٥٤ اغتيال ديون .

٣٥٣ — ٤٩ تابوت هليكرنسس .

— ٣٥١ « فليپ الأول » تأليف دمستين .

— ٣٤٩ فليپ يهاجم أولنثس ، دمستين يكتب « أولنثياكس الأول والثانى » .

— ٣٤٨ هرقليدس الپنتوسى الفلكى ، اسپوسيپوس يخلف أفلاطون فى رياسة المجمع العلمى .

— ٣٤٦ « فى السلم » تأليف دمستين ؛ « رسالة لفليپ » لإسقراط .

— ٣٤٤ تيمليون ينقذ سرقوصة ؛ « فليپ الثانى » تأليف دمستين .

— ٣٤٣ محاكمة إسكنيز وتبرئته .

٣٤٣ — ٣٨ أرسطاطاليس معلم الإسكندر .

— ٣٤٠ تيمليون يهزم القرطاجيين .

— ٣٣٨ فليپ يهزم الأثينيين فى كيرونية ؛ موت إسقراط .

— ٣٣٦ اغتيال فليپ ، ارتقاء الإسكندر ودارا الثالث عرشى بلادهما .

— ٣٣٥ الإسكندر يحرق طيبة ويبدأ الحملة الفارسية .

— ٣٣٤ أرسطاطاليس يفتتح اللوقيون ، واقعة نهر غرنيقوس ؛ نصب تذكارى ليسقراطس .

— ٣٣٣ واقعة إسوس .

— ٣٣٢ حصار صور والاستيلاء عليها ؛ تسليم أورشليم ؛ تأسيس الإسكندرية .

— ٣٣١ واقعة جوجميلا (أربيلا) ؛ الإسكندر فى بابل والسوس .

ق . م .

– ٣٣٠ أبليز الفيلسوف المصور ، ليسيوس الأرجوسي المثال ، مسرحية « شبه تسيفون » لإسكنيز ، ومسرحية « على التاج » لدمستين .

٣٢٩ – ٢٨ الإسكندر يغزو آسية الوسطى .

– ٣٢٧ موت كليتس وكلستنيز .

٣٢٧ – ٢٥ الإسكندر في الهند .

– ٣٢٥ رحلة نيركس .

– ٣٢٤ نفي دمستين .

– ٣٢٣ موت الإسكندر ، الحرب اللامية .

– ٣٢٢ موت أرسطاطاليس ، ودمستين ، وديجين .

الباب التاسع عشر

فليب

الفصل الأول

إمبراطورية اسبارطة

بسطت اسپارطة الآن سيادتها البحرية على بلاد اليونان ، ودامت لها هذه السيادة فترة قصيرة من الزمان مثلت فى التاريخ مرة أخرى مأساة من مآسى النجاح يذل صاحبه الكبرياء . فهى لم تمنح المدن التى كانت من قبل خاضعة لأثينة ما وعدتها به من حرية ، بل فرضت عليها بدلا من هذا جزية سنوية مقدارها ألف وزنة ٦٠٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) ، وأقامت فى كل منها حكماً أرستقراطياً يشرف عليه حاكم لسدمونى تؤيده حامية اسپارطية . ولم تكن هذه الحكومات مسئولة إلا أمام الحكام الاسپارطيين البعيدين عنها ، فأوغلت فى الفساد والظلم إيغالا لم يلبث أن أوغر الصدور على الحكومة الجديدة أكثر مما كانت موغرة على الحكومة القديمة .

وفى اسپارطة نفسها كان سيل المال والهدايا المنهمر من المدائن الخاضعة لاستبدادها والأجركيين الأذلاء سبباً فى تقوية العوامل الداخلية التى كانت تدفع المدينة دفعاً إلى الانهيار . فلم يستهل القرن الرابع حتى تعلمت الطبقة الحاكمة كيف تجمع بين الترف فى الحياة الخاضعة والبساطة فى الحياة العامة ، وحتى الحكام أنفسهم لم يعودوا يتأدبون بأدب ليتورغ إلا فى

المظهر الخارجى دون غيره . وانتقل الكثير من الأراضى عن طريق البائنات والوصايا إلى النساء ؛ وهذه الثروة المكدسة جعلت النساء الاسپارطيات — وهن اللائى لم يكن يتحملن عبء تربية الذكور من الأبناء — يحيين حياة مريحة متحللة من القيود الأخلاقية لا توائم الأنوثة بحال من الأحوال . هذا إلى أن ما تعاقب على بعض الضياع من تقسيم فى إثر تقسيم قد أفقر بعض الأسر فقراً عجزت معه عن تقديم نصيبها من الطعام العام ، ففقدت بذلك ما كان لها من حقوق المواطنية ، على حين أن تضخم بعض الثروات الأخرى عن طريق الزواج والوصايا قد أوجد لدى العدد القليل من « الأنداد » الباقين ثراوت كبيرة مركزة أثارت الغيرة والحسد فى القلوب(*) . وفى ذلك يقول أرسطاطاليس : « من الاسپارطيين من يمتلك ضياعاً واسعة ، ومنهم من لا يكادون يمتلكون شيئا على الإطلاق ، فالأرض بأجمعها فى أيدى عدد قليل منهم[٣] » . وتكون من الطبقات العليا التى فقدت حقوقها السياسية ومن البريسيين المحرومين من هذه الحقوق ، والهيلوتيين الحانقين ، مجموعة من الأهلين يضطرب فى نفوسها من القلق والعداء ما لا يسمح للحكومة أن تقدم على شئ من المغامرات العسكرية الخارجية التى يتطلبها الحكم الإمبراطورى إقداما يشغلها زمناً طويلا فى أماكن واسعة .

وكانت الحرب الأهلية القائمة فى بلاد الفرس وقتئذ تشكل مصائر بلاد اليونان ؛ فقد ثار قورش الأصغر فى عام ٤٠١ على أخيه أرتخشتر الثانى ، واستعان عليه باسپارطة ، وجند جيشا من آلاف اليونان وغيرهم من الجنود المرتزقة الذين أصبحوا ولا عمل لهم فى آسية على أثر انتهاء حرب البلوپونيز الفجائى . والتقى الأخوان المتقاتلان فى كونكسا بين دجلة والفرات وقرب ملتقاهما . وهزم قورش فى هذه الواقعة وقتل أو أسر جيشه كله أو أبيد عدا فرقة مؤلفة من اثنى عشر ألفاً من اليونان استعانوا بسرعة بديهتهم وإقدامهم

(*) كان عدد المدويوى Homoioi أو « الأنداد » ثمانية آلاف فى عام ٤٨٠ ، وألفين فى عام ٣٧١ وسبعمائة فى عام ٢٤١ .

على الهرب إلى داخـل بلاد بابل . وطاردتهم قوات الملك فاختاروا على طريقتهم الدمقراطية الساذجة ثلاثة قواد يهدونهم سبيل السلامة . وكان من بين هؤلاء القواد أكسانوفون الذى كان فى يوم من الأيام تلميذاً لسقراط ، والذى كان وقتئذ جندياً شاباً مغامراً ، قدر له أن يخلد اسمه على الأخص بمؤلفه المعروف بالأناباسيس Anabasis أو الصعود الذى وصف فيه وصفاً بسيطا رائعاً « ارتداد العشرة الآلاف » الطويل متتبعين مجرى نهر الفرات نحو منبعه وفوق تلال كردستان وأرمينية إلى البحر الأسود . وكان هذا الارتداد من أعظم المغامرات فى تاريخ البشر . وإنا لتدهشنا أشد الدهشة بسالة هؤلاء اليونان وهم يشقون طريقهم سيراً على أقدامهم يوما بعد يوم خمسة شهور كاملة ، قطعوا فى أثنائها ألفى ميل كاملة فى بلاد معادية لهم ، واجتازوا سهولا قائظة لا يجدون فيها طعاما ، وطرقا وعرة خطرة فوق الجبال تتراكم فيها الثلوج إلى عمق ثمان أقدام ، يتعرضون فيها لهجمات الجيوش والعصابات المسلحة من خلفهم وأمامهم ، وعن أيمانهم وشمائلهم ، ولا يترك أهل البلاد وسيلة إلا اتبعوها لقتلهم أو إضلالهم أو سد الطريق فى وجوههم . ونحن حين نقرأ هذه القصة الرائعة ، التى شوهها فى شبابنا إرغامنا على ترجمتها ، ندرك أن أهم سلاح تحتاجه الجيوش هو سلاح الطعام ، وأن مهارة القائد فى تدبير المؤن لجيشه لا تقل أهمية عن مهارته فى تدبير الفوز فى المعركة . وقد هلك من هؤلاء اليونان من التعرض للعوامل الجوية أكثر ممن هلك منهم فى الوقائع الحربية ، وإن كانت هذه الوقائع لم تنقطع يوماً واحداً . ولما أن وقعت عيون الباقين منهم أحياء ، وكانت عدتهم ٨٫٦٠٠ ، على بحر اليوكسين عند تريبزى (طربزون) غمرت قلوبهم موجة من السرور ؟

« ولم تكد مقدمتهم تصل إلى قمة الجبل حتى علت فى الجو صيحة شديدة سمعها أكسانوفون ومن فى المؤخرة فخيل إليهم أن أعداء آخرين يهاجمون المقدمة لأن الأعداء كانوا يقتفون آثارهم من خلفهم . . . فاستحثوا الخطى إلى

الأمام ليساعدوا رفاقهم ، وسرعان ما سمعوا الجنود يصيحون « البحر! البحر! » والصيحة تنتقل من صف إلى صف . وحينئذ هرول جنود المؤخرة جميعهم ، وأخذت دواب الحمل تتسابق إلى الأمام . . . ولما صعدوا جميعاً إلى قمة الجبل أخذ كل منهم يعانق زميله ، لا فرق بين الجنود والضباط والقواد ، والدموع تترقرق فى أعينهم من فرط السرور[٤] » .

ذلك أن هذا البحر بحر يونانى وأن مدينة ترابيزى مدينة يونانية ، فهاهم أولاء قد وصلوا سالمين ، وفى وسعهم أن يستريحوا ولا يخشوا أن يفاجئهم الموت فى سكون الليل . وترددت أصداء جهودهم المضنية فى طول بلاد هلاس القديمة وعرضها ، وشجعت فليب بعد مائتى عام من ذلك الوقت على الاعتقاد بأن قوة يونانية حسنة التدريب خليقة بأن يركن إليها فى هزيمة جيش فارسى يفوقها فى العدد أضعافاً مضاعفة . وهكذا مهد أكسانوفون على غير علم منه السبيل إلى الإسكندر .

ولعل أجسلوس الذى اعتلى عرش اسپارطة فى عام ٣٩٩ قد شعر بهذا الأثر . فلقد كان فى الاستطاعة إقناع بلاد الفرس أن تغفر لاسپارطة إقدامها على معونة قورش ، لكن هذا الملك ، وهو أقدر ملوك اسپارطة على الإطلاق ، لم يكن ينظر إلى حرب الفرس أكثر من نظرته إلى مغامرة ممتعة ، ولذلك سار على رأس قوة صغيرة ليحرر جميع بلاد آسية اليونانية من حكمهم(*) . ولما علم أرتخشتر الثانى أن أجسلوس لم يكن يلقى عناء فى تشتيت شمل جميع الجيوش الفارسية التى أرسلت لصده ، بعث الرسل يحملون كميات كبيرة من الذهب إلى أثينة وطيبة ليرشوا بها هاتين المدينتين كى تعلنا الحرب على اسپارطة[٦] . وسرعان ما أفلح هؤلاء الرسل فى مهمتهم ، وتجددت الحرب بين اسپارطة وأثينة بعد أن دامت السلم بينهما تسعة أعوام . واستدعى أجسلوس من آسية ليواجه جيوش أثينة وطيبة مجتمعة عند

(*) وقال وقوله : « فى أى شىء يعلو على ملك الفرس ، إلا إذا كان أكثر منى استقامة وأشد منى كبحاً لجماح نفسه ؟[٥] » .

كرونيا . واستطاع أن يهزمها بشق الأنفس ؛ ولكن أسطولى أثينة وفارس مجتمعين بقيادة كونون Conon دمرا الأسطول الاسپارطى قرب نيدس بعد شهر واحد من ذلك الوقت وقضيا بذلك على ما كان لاسپارطة من سيادة بحرية قصيرة الأجل . وابتهجت أثينة بهذا النصر المؤزر وأخذت تعمل بجد ستعينة بما أمدتها به فارس من المال لإعادة بناء أسوارها الطويلة . ودافعت اسپارطة عن نفسها بأن أرسلت رسولا يدعى أنتلسداس Antalcidas إلى الملك العظيم يعرض عليه أن تسلمه المدن اليونانية فى آسية ليحكمها الفرس إذا فرضت فارس على مدن اليونان الأصلية صلحاً يحمى اسپارطة من العدوان . ووافق الملك العظيم على هذا الشرط ، وامتنع عن مساعدة أثينة وطيبة بالمال ، وأرغم المتنازعين جميعاً على أن يوقعوا فى سرديس (٣٨٧) « صلح أنتلسداس » أو « صلح الملك » وأعطيت بمقتضى هذا الصلح لمنوس ، وأمبروس ، وسيروس إلى أثينة ، وضمن الاستقلال للدول اليونانية الكبرى ؛ ولكنه أعلن أن جميع المدائن اليونانية فى آسية ، وجزيرة قبرص ، قد أضحت للملك العظيم . ووقعت أثينة على شروط الصلح بعد أن احتجت عليها لعلمها أن هذه كانت أكثر الحوادث إذلالا لها فى تاريخ اليونان كله . وهكذا ضاعت ثمار نصر مرثون كلها ، وظلت أثينة ضائعة جيلا كاملا ، وبقيت دول اليونان الأصلية حرة بالاسم ، أما فى واقع الأمر قد ابتلعتها قوة الفرس . ونظرت بلاد اليونان بأجمعها إلى اسپارطة نظرتها إلى الخائن الغادر ، وأخذت تنتظر على أحر من الجمر أن تقوم أمة من الأمم تهلكها وتدمرها .

الفصل الثانى

إبامينونداس

وكأنما أرادت اسپارطة أن تقوى هذا الحقد فى صدور الدول اليونانية الأخرى ، فادعت لنفسها حق تفسير شروط « صلح الملك » وإرغام هذه الدول على الخضوع لها . وأرادت أن تضعف قوة طيبة فأصرت على أن الحلف البؤوتى لايتفق مع الشرط القاضى باستقلال الدول اليونانية الكبرى وحتمت حله . وتذرعت اسپارطة بهذه الحجة فأقامت فى كثير من المدن البؤوتية حكومات ألجركية موالية لها ، تؤيدها فى كثير من الحالات حاميات اسپارطية ، ولما احتجت طيبة على هذا العمل استولت قوة لسديمونية على كدميا Cadmeia معقلها الحصين ، وأقامت فيها حكومة ألجركية خاضعة لسيطرة اسپارطة . وأثارت هذه الأزمة فى نفس طيبة بطولة لا عهد لها بها . فاغتال پلپداس Plopidas وستة من رفاقه طغاة طيبة الأربعة صنائع اسپارطة ، وأعادوا إلى المدينة حريتها واستقلالها . وأعيد تنظيم الحلف واختير پلپداس زعيما له ، واستدعى پلپداس لمعونته صديقه وحبيبه إپامينندس ، فدرب الجيش الذى أعاد اسپارطة إلى عزلتها القديمة ، وقاده بنفسه فى المعارك التى انتهت بهذه النتيجة .

وكان إپامينندس من أسرة عريقة أخنى عليها الدهر تفخر بأن ترجع بأصولها إلى أنياب الحولة التى زرعها كدمس قبل مولده بألف عام : وكان رجلا هادئاً قيل عنه إنه ليس بين الناس من هو أقل منه كلاماً أو أكثر منه معرفة(٧) ، وقد حببه إلى أهل طيبة ، على الرغم من النظام العسكرى الذى أخذهم به ، تواضعه واستقامته ، وحياته التى لا تكاد تفترق فى شىء عن حياة الزهاد ، وإخلاصه لأصدقائه ، وسداد رأيه إذا استنصح ، وشجاعته

المصحوبة بالتؤدة ، ضبط النفس وقت العمل : ولم يكن يحب الحرب ولكنه كان يعتقد أنه لا توجد أمة على ظهر الأرض تستطيع الاحتفاظ بحريتها إذا فقدت روحها وعاداتها الحربية . ولما اختير المرة بعد المرة رئيساً للحلف البؤوتى حذر الذين أرادوا أن يعطوه أصواتهم بقوله : « فكروا فى الأمر مرة أخرى لأنى إذا وليتمونى قيادتكم سأضطركم إلى الخدمة فى جيشى »[٨] . ودرب الطيبيون المتراخون تحت قيادته حتى صاروا جنوداً بواسل ، وحتى العشاق اليونان الذين كثر عددهم فى المدينة ألّف منهم بلپداس « عصبة مقدسة » تبلغ عدتها ثلثمائة من المحاربين قطع كل منهم على نفسه عهداً بأن يقف فى المعركة إلى جانب صديقه حتى يموت .

ولما غزا بؤوتية جيش اسپارطى عدته عشرة آلاف جندى يقوده الملك كليمبروتس ، التقى به إپامينونداس عند لكترا بالقرب من پلاتية ومعه ستة آلاف رجل وانتصر عليه نصراً كان له أعظم الأثر فى تاريخ اليونان كله وفى أساليب أوربا العسكرية . وكان هو أول يونانى وجه عنايته إلى دراسة الحركات العسكرية ، وكان يقدر على الدوام أنه سيواجه فى كل معركة عدواً يفوقه فى عدد الرجال ، فكان يركز نخبة مقاتليه ليهاجم بهم أحد جناحى العدو ، ثم يأمر بقية الجيش أن تلتزم خطة الدفاع ، فإذا تقدم العدو فى القلب أمكن تشتيت شمله بهجوم على جناحه الأيسر . ولما تم له النصر فى واقعة لكترا زحف هو وبلپداس إلى البلوپونيز وحررا مسينيا من تبعيتها لإسپارطة التى دامت قرناً من الزمان ، وأسسا مدينة مغالوپوليس لتكون معقلا لجميع الأركاديين . ونزل الجيش الطيبى إلى لكونيا نفسها ؛ وتلك حادثة لم يكن لها مثيل منذ مئات من السنين ، ولم تستفق اسپارطة قط مما لحق بها من الخسارة فى هذه الحملة : « فلم تستطع » على حد قول أرسطاطاليس « أن تفيق من هزيمة واحدة ، وقضى عليها قلة عدد مواطنيها »[٩] .

ولما أقبل فصل الشتاء انسحب الطيبيون إلى بؤوتية . واغتر إپامينونداس

بالنصر كما كان يغتر به سائر قواد اليونان المنتصرون ، فبدأ يفكر فى إنشاء إمبراطورية طيبية تحل محل الوحدة التى أفاءتها زعامة أثينة أو اسپارطة من قبل على بلاد اليونان ، وقد جرته هذه الخطة إلى محاربة الأثينيين ، وأرادت اسپارطة أن تسترد مكانتها السابقة فتحالفت مع أثينة ، والتقت جيوش الأعداء عند منتينيا عام ٣٦٢ ق : م ، وانتصر إپامينونداس فى هذه المعركة ، ولكنه قتل فى أثنائها بيد جرلس Gryllus بن أكسانوفون . ولم تجن هلاس خيراً دائماً من زعامة طيبة القصيرة . نعم إنها حررت بلاد اليونان من طغيان اسپارطة ، ولكنها عجزت ، كما عجز من قبلها ، عن أن توجد خارج نطاق بؤوتة وحدة متجانسة متماسكة ، وكان من أثر النزاع الذى خلقته فى بلاد اليونان أن أضحت الدول اليونانية من أثره مضطربة ضعيفة عاجزة عن لقاء فليب حينما انقض عليها من الشمال .

الفصل الثالث

الإمبراطورية الأثينية الثانية

وحاولت أثينة للمرة الأخيرة أن تؤلف هذه الوحدة : واستطاعت بفضل أسوارها الطويلة ، وأساطيلها التي جددت بناءها ، وماليتها الثابتة الموثوق بها ، وما تيسر لها من زمن بعيد من الوسائل المالية والتجارية ، استطاعت بفضل هذا كله أن تستعيد ما كان لها من سيادة تجارية في بحر إيجة . وكانت الدول التي خضعت لها من قبل والدول المتحالفة معها قد علمتها الحروبُ التي دامت خمسين عاماً كاملة أنها في مسيس الحاجة إلى سلامة أعظم مما تهيؤه لها السيادة الفردية ، ولهذا اتحدت معظم هذه الدول مرة أخرى في عام ٣٧٨ بزعامة أثينة ، ولم يحل عام ٣٧٠ حتى كانت هذه المدينة مرة أخرى أقوى الدول سلطاناً في شرق البحر الأبيض المتوسط .

وكانت الصناعة والتجارة هما وقتئذ عماد حياتها الاقتصادية . ذلك أن أرض أتكا لم تكن في يوم من الأيام مما يوائم الزراعة الجماعية . نعم إن العمل الشاق الطويل قد جعلها أرضاً مثمرة بفضل عناية الأهلين بأشجار التوت وبالكروم ، ولكن الإسپارطيين كانوا قد دمروا هذه الغروس ، وقلما كان من المزارعين من يستطيع الصبر نصف جيل حتى تثمر بساتين الزيتون الجديدة ثمارها . وكان معظم الزراع الذين عاشوا قبل الحروب قد قضوا نحبهم ، وكان معظم من بقى من الزراع قد دب اليـــأس في نفوسهم فمنعهم أن يعودوا إلى أملاكهم المخربة فباعوها بأبخس الأثمان لملاك يستغلونها وهم بعيدون عنها ، وفي وسعهم أن يستثمروا أموالهم فيها استثماراً طويل الأجل . وبهذه الطريقة ، وبانتزاع ملكية الأراضي الزراعية المثقلة بالدين ، انتقلت هذه الأراضي في أتكا إلى أيدي عدد قليل من الأسر كانت

تستغل كثيراً من المزارع الواسعة بجهود الأرقاء[10] . وأعيد فتح مناجم لوريوم ، وأرسل إلى الحفر ضحايا جدد ، وتكونت ثروات جديدة من الفضة الغفل ومن الدماء البشرية ؛ وعرض أكسانوفون[11] طريقة ظريفة تستطيع بها أثينة أن تملأ خزائنها بالمال ، ولا تكلفها أكثر من أن تشترى مائة ألف من الأرقاء تؤجرهم إلى المقاولين فى لاريوم . وأثمرت هذه الطريقة ثمرتها المرجوة فاستخرجت من الفضة مقادير تفوق ما كان ينتج من السلع ، فارتفعت الأثمان أسرع من ارتفاع الأجور ، ووقع عبء هذا الانقلاب على كاهل الفقراء :

وازدهرت الصناعة وتلقت محاجر پنتلكس مصانع الفخار فى السرمكس طلبات من عالم بحر إيجة كله . وجمع بعضهم ثروات طائلة بشراء منتجات الصناع اليدويين أو المصانع الصغيرة بأثمان بخسة وبيعها بعدئذ بأغلى الأثمان فى الأسواق المحلية أو الخارجية . وسرعان ما تضاعف عدد المصارف المالية فى أثينة تبعاً لنمو التجارة وتجمع الثروة النقدية بدل الثروة العقارية . وتلقت هذه المصارف كثيراً عن النقود أو الذخائر القيمة لحفظها لديها ، ولكن يلوح أنها لم تكن تؤدى فوائد من هذه الودائع . وسرعان ما وجد أصحاب المصارف أن هذه الودائع لا تسترد كلها فى وقت واحد فى الظروف العادية ، فشرعوا يقرضون المال بفوائد عالية ، وقتصروا فى بادئ الأمر على إقراض المال دون الاشتغال بوسائل الائتمان الأخرى ، فكانت تضمن عملاءها ، وتحصل لهم مطلوباتهم ، وتقرض النقود بضمان العقار أو النفائس ، وتمد السفن التى تنقل البضائع بحاجتها من المال . وكان فى وسع التاجر ، بفضل هذه المصارف وأكثر من هذا بفضل القروض التى يقدمها الأفراد مجازفة منهم ومضاربة بلحق الأرباح الطائلة ، أن يستأجر سفينة ينقل عليها بضاعته إلى إحدى الأسواق الأجنبية ، ويشترى منها بدل هذه البضاعة شحنة أخرى ، إذا وصلت إلى پيرية بقيت فيها ملكاً لأصحاب الديون حتى يستردوا ديونهم[12] ؛ ولما تصرم بعض القرن الرابع نشأ نظام من نظم الائتمان الحقيق : فشرع

أصحاب المصارف يصدرون خطابات الاعتماد ، والأذون المالية ، والتحاويل المصرفية بدل أن يقدموا النقود ؛ وبهذه الطريقة أصبحت الثروة تنتقل من عميل إلى عميل بتدوينها فى سجلات المصارف لا غير[١٣] . وكان رجال الأعمال أو أصحاب المصارف يصدرون السندات للحصول على القروض التجارية ، حتى صارت هذه السندات جزءاً كبيراً من كل شركة . وكان لبعضهم — كالمعتوق پاسيون مثلا — صلات مالية متشعبة ، واشتهروا بين الناس بأمانتهم ونزاهتهم فوثقوا بهم ، وكانت سنداتهم موضع الثقة فى جميع بلاد اليونان : وكان لمصرف پاسيون Pasion أقسام متعددة يعمل فيها عدد كبير من الموظفين معظمهم من الأرقاء ، ويحتفظ بطائفة كبيرة من السجلات المختلفة الأنواع تدون فيها كل عملية مالية بعناية فائقة جعلت فى المحاكم أدلة لا يقبل الطعن فيها . ولم يكن إفلاس المصارف أمراً غير مألوف ، ويحدثنا المؤرخون عما كان يحدث من « ذعر » مالى يغلق فيه مصرف بعد مصرف أبوابه[١٤] . وكانت توجه أحياناً إلى المصارف ، ومنها أعظمها نفوذاً ، تهم خطيرة من سوء استعمال ما آل إليها من سلطان ، وكان الناس ينظرون إلى رجال المصارف نظرة يجتمع فيها من الحسد والإعجاب ، والكراهية مثل ما يجتمع فى نظرة الفقراء إلى الأغنياء فى جميع العصور[١٥]

وأنتج تبدل الثروة من عقارية إلى منقولة كفاحاً شديداً للحصول على المال ، وكان لا بد للغة اليونانية من أن تخترع لفظاً تعبر به عن هذه الشهوة الجامحة للحصول على « أكثر فأكثر » من المال ، فأطلقت عليها لفظ « بليونكسيا Pleonexia » ولفظاً آخر يعبر عن الانهماك فى طلب الثراء « كرماتستيكى Chrematistike » . وأخذت السلع والخدمات من ذلك الوقت تقدر قيمتها بالمال ، بل إن الناس أنفسهم أصبحوا يقدرون به وبما يمتلكون منه ، وأصبحت الثروات تتكون ثم تزول بسرعة لا عهد للناس بها ، وتنفق فى مظاهر من البذخ لو شهدتها أثينة فى عصر پركليز لارتاعت واهتزت منها مشاعرها . فأخذ « الأثرياء المحدثون » (وكان له

عند اليونان اسم خاص هو نيوبلوتوى neoplutoi) يشيدون البيوت الكثيرة الزخرف ، ويزينون نساءهم بالملابس والجواهر الغالية ، ويفسدونهن بكثرة الخدم ، وأصبح تقديم أغلى أصناف المآكل والمشرب للضيوف دون غيرها من المأكوت والمشروبات هو القاعدة المقررة المألوفة[١٦] .

وانتشر الفقر وسط هذه الثروة الطائلة ، ذلك بأن حرية التبادل وأنواعه المختلفة اللتين أمكنتا مهرة الناس من جمع المال جعلتا السذج منهم يفقدونه أسرع مما كانوا يفقدونه من قبل ، فكان الفقراء فى نظام الاقتصاد التجارى الجديد أفقر نسبيا مما كانوا فى أيام استرقاقهم فى أملاك الإقطاعيين ؛ فكان الفلاحون فى الريف يكدحون ليحصلوا بكدحهم وعرقهم على قليل من الزيت أو الخمر ؛ وفى الحواضر ظلت أجور العمال الأحرار منخفضة المستوى بسبب منافسة الأرقاء ؛ وكان مئات من المواطنين يعتمدون فى معيشتهم على الأجور التى ينالونها نظير حضور جلسات الجمعية أو المحاكم ؛ ولم يكن آلاف من الناس يجدون طعاما إلا ما تقدمه لهم المعابد أو الدولة ، ولا يملكون شيئاً . وفى عام ٤٣١ وبلغ عدد من لا يملكون شيئاً قط من الناخبين (دع عنك عدد السكان بوجه عام) خمسة وأربعين فى المائة من مجموعهم الكلى ، فلما حلت سنة ٣٣٥ ارتفعت هذه النسبة إلى سبعين وخمسين فى المائة[١٧] . ونقدت الطبقات الوسطى ، التى كانت لكثرة عددها وسلطانها تحفظ التوازن بين الأشراف والعامة ، جزءاً كبيراً من ثروتها ، ولم يعد فى وسعها أن تتوسط بين الأغنياء والفقراء ، بين المتحفظين الشـديدى العناد والخياليين المتطرفين ، وبذلك انقسم المجتمع الأثينى إلى « مدينتى » أفلاطون — « إحداهما مدينة الفقراء والأخرى مدينة الأغنياء ، وكتاهما فى حرب مع الأخرى »[١٨] . وأخذ الفقراء يضعون الخطط لسلب مال الأغنياء بالتشريع أو الثورة ، كما أخذ الأغنياء ينظمون أنفسهم جماعات لاتقاء شر الفقراء . ويقول أرسطاطاليس إن المنتمين إلى بعض النوادي الحركية كان كل منهم يقسم بأن « أكون عدو الشـعب »

(أى العامة) « وأن أوذيهم فى المجلس بكل ما أستطيع من الأذى »[١٩] .
وقد كتب إسقراط حوالى عام ٣٦٦ يقول : « لقد أصبح الأغنياء ينفرون من سائر الطبقات الأخرى نفوراً يفضلون معه أن يلقوا بثروتهم فى البحر عن أن يعينوا بشىء منها المحتاجين على حين أن الرقيق الحال يسرهم أن ينتهبوا أموال الأغنياء أكثر مما يسرهم العثور على كنز ثمين »[٢٠] .

وانحاز عدد متزايد من أفراد الطبقات المتعلمة إلى جانب الفقراء[٢١] . ذلك بأنهم كانوا يحتقرون التجار ورجال المصارف لما بدا لهم من أن ثروتهم تتناسب تناسبا عكسا مع ثقافتهم وأذواقهم . وحتى الأغنياء من هؤلاء العلماء أخذت تدور بخلدهم أفكار شيوعية . وكان پركليز قد اتخذ من الاستعمار صمام أمان ليقلل به حدة النزاع بين الطبقات[٢٢] ؛ ولكن ديونيشيوس كان يسيطر على الغرب ، ومقدونية كانت تمد أملاكها فى الشمال ، فأخذت الصعاب تزداد فى سبيل فتح أثينة بلاداً جديدة والاستقرار فيها . واستحوذ الفقراء فى آخر الأمر على جميع السلطة فى الجمعية وشرعوا يقررون مصادرة أموال الأغنياء ويحولونها إلى خزائن الدولة ، لتوزعها من جديد على المحتاجين والناخبين عن طريق المشروعات الحكومية والأجور[٢٣] . وأخذ رجال السياسة يبذلون كل ما فى وسعهم من جهود ويستخدمون كل ما وهبوا من ذكاء ليكشفوا عن موارد جديدة لزيادة إيراد الدولة ، فضاعفوا الضرائب غير المقررة ، والضرائب الجمركية على الواردات والصادرات ، وضريبة الواحد فى المائة على نقل الملكية العقارية ، وظلوا فى وقت السلم يجبون الضرائب غير الاعتيادية التى قررت زمن الحرب ، وأخذوا يطالبون بالتبرعات « الاختيارية » ، وفرضوا على الأغنياء « فروضا » أو « خدمات » جديدة متزايدة لتمويل المشروعات العامة من أموالهم الخاصة . وكانوا يلجأون بين الفينة والفينة إلى مصادرة الأموال ونزع الملكيات ، ووسعوا نطاق ضريبة الإيراد حتى شملت مستويات من الثروة أدنى مما كانت تشملها من قبل[٢٤] .

وكان فى وسع كل من يلقى عليه عبء إحدى الخدمات العامة أن يستعين بالقانون لكى يرغم غيره على أدائها إذا استطاع أن يثبت أن هذا الممول الثانى أكثر منه ثروة ، وأنه لم تفرض عليه خدمة ما فى خلال سنتين . وعملوا على تسهيل جبيع الإيراد بتقسيم دافعى الضرائب إلى مائة جماعة من الشركاء . فكان يطلب إلى أغنى الأعضاء فى كل جماعة أن يؤدوا فى بداية كل سنة ضرائبية جميع الضريبة المفروضة على هذه الجماعة طوال السنة ، ثم يترك لهم بعدئذ أن يجبوا فى خــلال السنة ما يخص غيرهم من الأعضاء بما يرونه من الوسائل .

وكانت نتيجة هذه الفروض أن أخذت الجماعات والأفراد تخفى ثروتها وإيرادها إخفاء تاماً ، وانتشر التهرب من الضرائب بين الناس جميعاً ، وتفننوا فى أساليبه تفنن الدولة فى فرضها وجبايتها . وفى عام ٣٥٥ عين أندروتيون Androtion على رأس فرقة من رجال الشرطة مهمتها البحث عن الإيرادات المخبوءة ، وجباية الضرائب المتأخرة ، وحبس الذين يفرون من الضرائب ، فكانت تكبس البيوت وتصادر الأمتعة ، ويلقى الرجال فى السجون . ولكن الثروة مع ذلك ظلت تختفى أو تذوب . وقال إسقراط الشيخ الغنى الغاضب فى عام ٣٥٣ يشكو مما فرض عليه من خدمات : « لما كنت فى صباى ، كانت الثروة تعد من الأشياء المأمونة التى يعجب بها الناس ، حتى كان الواحد منا يتظاهر بأن لديه أكثر مما يملك فعلا . . . أما الآن فقد أصبح من واجب كل إنسان أن يدفع عن نفسه تهمة الغنى ، كأن هذا أشنع الجرائم »[٢٥] . ولم تكن الطريقة التى اتبعت فى غير أثينة لمنع تركيز الثروة تستند إلى القانون كما كانت تستند إليه فيها . من ذلك أن المدينين فى متلينى قتلوا دائنيهم جملة بحجة أنهم جياع ، وأن الدمقراطيين فى أرغوس (٣٧٠) انقضوا فجاءة على الأغنياء وقتلوا منهم ألفا ومائتين ، وصادروا أملاكهم ، وعقدت الأسر الغنية فى غير هذه من الدول التى كان العداء قائماً بينها لغير هذا من الأسباب حلفاً سرياً تعهدت فيه أن يساعد بعضها بعضاً إذا قامت

فى إحداها ثورات شعبية . وأخـــذت الطبقات الوسطى تحذو حذو الطبقات العليا فى عدم الثقة بالدمقراطية وترى أنها حسد أتيح له السلطان ، كما أخذ الفقراء يفقدون ثقتهم فيها ويرونها مساواة زائفة بين الناخبين تنقضها الفروق الهائلة بين الثروات . وقد تركت هذه الأحقاد المريرة بين الطبقات بلاد اليونان منقسمة على نفسها داخلياً ودولياً حين انقض عليها فليب ، حتى لقد رحب بقدومه كثيرون من الأغنياء فى المدن اليونانية ، ورأوا أنه لولاه لما كان هناك مفر من اندلاع لهيب الثورة فى أرجائها[٣٦] .

وسار الانهيار الخلقى مع ازدياد الترف واستنارة العقل جنباً إلى جنب ، واعتزت العامة بخرافاتها واستمسكت بأساطيرها ، فقد كانت آلهة الأولمبس تلفظ أنفاسها الأخيرة ولكن آلهة أخرى كانت تولد ، فكانت أرباب غريبة مثل إيزيس وأمون ، وأتيس ، وبنديس ، وسبيل ، وأدنيس تستورد من مصر وآسية ، وجمع انتشار الأرفية عباداً جدد للديونشس فى كل يوم . ولم يكن للدين التقليدى القديم فائدة تذكر لطبقة الملاك الوسطى النصف الأجنبية الآخذ شأنها فى الارتفاع ، فلم تكن آلهة المدينة التى ترعاها تنال من هذه الطبقة إلا الاحترام الصورى الرسمى ، ولم تعد توحى إلى أفرادها بالمبادئ الخلقية أو الإخلاص للدولة والولاء لها(*) . وكافحت الفلسفة لكى تجد فى الولاء السياسى ومبادئ الأخلاق الطبيعة بديلا من الأوامر الإلهية ، أو أن تتخذ منها رباً يرقب الناس من علٍ ، ولكن قل من المواطنين من كان يهمه أن يعيش عيشة البساطة السقراطية أو عيشة رجل سقراط السامى « ذى العقل العظيم » .

ولما فقد دين الدولة سلطانه على الطبقات المتعلمة زاد بالتدريج تحرر الأفراد

(*) يقول أفلاطون (فى القوانين صفحة ٩٤٨) : « والآن وفى الناس طائفة لا تؤمن قط بوجود الآلهة ... أصبح الواجب وضع شرائع تستند إلى العقل وتضع حداً للأيمان التى تقسمها كلتا الطائفتين » .

من القيود الأخلاقية القديمة – فتحرر الابن من سلطان أبويه ، وتحرر الذكور من الزواج ، وتحررت المرأة من الأمومة ، وتحرر المواطن من التبعة السياسية . وما من شك فى أن أرسطوفان قد بالغ فى وصفه لهذه التطورات ، وإذا كان أفلاطون ، وأكسانوفون ، وإسقراط كلهم يتفقون معه فى رأيه ، فإنهم كانوا جميعاً من المحافظين الذين ترتعد فرائصهم من مثال الجيل الناشئ الجديد . وتحسنت أخلاق الناس فى الجانب خلال القرن الرابع ، وجاءت موجة من الإنسانية المستنيرة أعقاب تعاليم يوربديز وسقراط والمثل الذى ضربه للناس أجسلوس[٢٧] . ولكن الآداب والجنسية السياسية ظلت سائرة فى طريق الانهيار ، وزاد عدد العزاب والسرارى وأصبحت الصلات بين هؤلاء وأولئك هى الطراز الحديث الذى يهواه الناس ، كما أن الاتصال الحر بين الرجال والنساء أصبحت له الغلبة على الزواج الشرعى[٢٨] . انظر مثلا إلى هذا السؤال الذى يسأله أحد الأشخاص فى مسلاة ألفت فى القرن الرابع : « أليست الخليلة مرغوباً فيها أكثر من الزوجة ؟ ولم لا ؟ إن إحداهما فى جانبها القانون الذى يرغمنا على الاحتفاظ بها ، مهما نكن كارهين لها ، أما الأخرى فهى تعلم أن من واجبها أن تتسلط على الرجل بحسن سلوكها ، وإلا فإن عليها أن تبحث لها عن رجل غيره[٢٩] » وعلى هذا النحو عاشر بركسثليز ومن بعده هيبريديز Hypereides فرينى Phryne ، وعاشر أرستبوس لئيس Lais ، وعاشر أستلبو Stilpo نكريتى Nikasete ، وعاشر ليسياس متيرا Metaneira ، وعاشر إسقراط الصارم لجسكيوم Lagiscium[٣٠] . وفى ذلك يقول ثيوبمبس مبالغاً فى قوله كعادة رجال الأخلاق : « لقد كان الشبان يقضون كل أوقاتهم بين السرارى والقيان ، أما الذين هم أكبر من هؤلاء قليلا فكانوا منهمكين فى الميسر والفسق ، وكان الناس كلهم ينفقون على المآدب العامة والملاهى أكثر مما ينفقونه على الأعمال اللازمة لحفظ كيان الدولة ورعاية مصالحها[٣١] »

وأصبح تحديد عدد أفراد الأسرة تحديداً اختيارياً هو الطراز العصرى فى ذلك الوقت ؛ وكانوا يصلون إلى هـذا الغرض بمنع الحمل ، أو الإجهاض ، أو قتل الأطفال : ويقول أرسطاطاليس إن بعض النساء كن يمنعن الحمل بطلاء جزء الرحم الذى يسقط عليه منى الرجل بزيت شجر الأرز ، أو بمرهم الرصاص . أو الكندر الممزوج بزيت الزيتون(*) »[٣٢]. وكانت الأسر القديمة سائرة فى طريق الانقراض فلم تكن توجد ، على حد قول إسقراط ، إلا فى قبورها ؛ وأخذت الطبقات الدنيا يتضاعف عدد أفرادها ، أما طبقة المواطنين فى أتكا فقد نقص عددها من ٤٣٫٠٠٠ فى عام ٤٣١ إلى ٢٢٫٠٠٠ فى عام ٤٠٠ وإلى ٢١٫٠٠٠ فى عام ٣١٣[٣٣] . ويقابل هذا نقص فى عدد المواطنين الذين كانوا يجندون للخدمة العسكرية ؛ ويرجع بعض هذا النقص إلى مذابح الحرب ، وبعضه إلى قلة من لهم فى الدولة أملاك يتحتم عليهم الدفاع عنها ، وبعضه إلى رغبة الناس عن الخدمة العسكرية . ذلك أن حياة الدعة والانصراف إلى العناية بالشئون المنزلية ، والانهماك فى الأعمال التجارية والصناعية ، وطلب العلم ، كل ذلك قد حل محل حياة الرياضة البدنية ، والتربية العسكرية ، والعناية بالشئون العامة ، وهى الحياة التى كان يألفها الناس فى عهد بركليز[٣٤] . فأما الرياضة فقد أصبحت حرفة ، وصار المواطنون الذين كانوا فى القرن السادس يملأون مدارس التدريب الرياضية يقنعون الآن بأن يجهد غيرهم أنفسهم بالنيابة عنهم ، وحسبهم هم أن يشاهدوا استعراض المحترفين . وكان بعض الشبان يتلقون بعض الدروس فى فن الحرب ، ولكن الكبار كانوا يجدون عشرات من الطرق للهرب من الخدمة العسكرية . وأضحت الحرب نفسها مهنة بسبب ما دخل عليها من التعقيدات الفنية ، تحتاج إلى رجال مدربين

(*) إذا شاء القارئ أن يعرف استعمال زيت الزيتون لهذا الغرض ذاته فى الوقت الحاضر فليطلع على كتاب التاريخ الطبى لمنع الحمل **Medical History of Contraception** تأليف هيمز **Himes** ص ٨٠ .

لها تدريباً خاصاً يستغرق وقتهم كله ؛ وكان لا بد من استبدال الجنود المرتزقة بالمحاربين المواطنين ، وكان هذا نذيراً بأن زعامة بلاد اليونان لن تلبث أن تنتقل من رجال السياسة إلى رجال الحرب . وبينا كان أفلاطون يتحدث عن الملوك الفلاسفة ، كان الملوك العسكريون ينشئون تحت سمعه وبصره . وكان مرتزقة اليونان يبيعون أنفسهم إلى القواد سواء كانوا من اليونان أو « البرابرة » بلا تفريق بين هؤلاء وأولئك ؛ ولقد حاربوا فى الجيوش التى غزت بلاد اليونان بقدر ما حاربوا دفاعاً عنها ، وشاهد ذلك أن الجيوش الفارسية التى واجهها الإسكندر كانت ملأى باليونان؛ فلم يكن الجنود وقتئذ يسفكون دماءهم دفاعا عن بلادهم ، بل كانوا يسفكونها فى سبيل من يؤدى لهم أكبر الأجور .

وظل الفساد السياسى والاضطراب اللذان أعقبا موت بركليز سائرين فى طريقهما خلال القرن الرابع ، إذا استثنينا من ذلك حكم يكلديز الطاهر النزيه (٤٠٣) ، وإدارة ليقورغ المالية (٣٣٨ — ٣٢١) . فالرشوة مثلا كان يعاقب عليها ، حسب نص القانون ، بالإعدام ؛ لكن إسقراط يقول إن المرتشى كان يجزى على ارتشائه بالترقى فى المنصب العسكرية والسياسية . ولم يجد الفرس أية صعوبة فى إرشاء ساسة اليونان وحملهم على أن يشنوا الحرب على الدول اليونانية أو على مقدونية ، وحتى دمستين نفسه أصبح فى آخر الأمر مرآة تنعكس عليها أخلاق أهل زمانه . لقد كان من أنبل الأفراد فى جماعة من أحط الجماعات فى أثينة — أعنى جماعة الخطباء المأجورين الذين صاروا فى ذلك القرن محامين وساسة محترفين . ومن هؤلاء الناس من كانوا مثل ليقورغ شرفاء معقولين ، ومنهم من كانوا مثل هيردين ذوى شهامة ومروءة ، ومنهم من لم يكونوا خيراً مما وجب عليهم أن يكونوه ؛ وإذا جاز لنا أن نصدق ما يقوله عنهم أرسطاطاليس فقد كان منهم من تخصص فى إبطال نصوص الوصايا(٣٦) . وجمع الكثيرون منهم ثروات طائلة بانتهاز الفرص السياسية وبالتهريج والخطابة فى الجماهير .

واقسم الخطباء المأجورون أحزاباً ،نومزقوا الهواء بحملاتهم ، ونظم كل حزب لنفسه لجانا ، ووضع له كلمات سر ، وعين له وكلاء ، وجمع له مالا. وكان الذين يؤدون نفقات هذه الأعمال كلها يعترفون صراحة بأنهم «سيستردونها ضعفين»[٣٧] .

وكانت الروح الوطنية تضعف كلما زادت السياسية قوة واستنفدت مرارة الانقسام كل الجهود العامة والوفاء للوطن ، فلم تترك للمدينة من هذه الجهود وذلك الإخلاص إلا القليل الذى لا يغنى ، وكان دستور كليستنيز ، والنزعة الفردية التى أثارتها التجارة والفلسفة ، قد زعزعا كيان الأسرة ، وحررا الفرد ؛ وكأنما أراد الفرد الحر وقتئذ أن يثأر للأسرة مما أصابها من انحلال فهوى بمعوله على الدولة يقوض أركانها .

وأراد الدمقراطيون المنتصرون فى عام ٤٠٠ ق. م أو حواليه أن يضمنوا حضور المواطنين الفقراء فى الإكليزيا ، وأن يمنعوا بذلك ذوى الأملاك أن تكون لهم السيطرة عليها ، فجعلوا حضور الجمعية هو الآخر عملا من الأعمال التى يؤجر الناس عليها . وكان كل مواطن فى بادئ الأمر يؤجر على حضور الجلسة أبلة (١٧/٦ من الريال الأمريكى) ، ولما زادت نفقات المعيشة زيد هذا الأجر إلى أبلتين ، ثم إلى ثلاث أبلات ، وظل يزداد حتى كان فى زمن أرسطاطاليس درخمة (أى ريالا أمريكيا) عن اليوم الواحد[٣٨] . ولقد كان هذا فى حد ذاته تدبيرا معقولا لا غبار عليه ، لأن المواطن العادى كان يكسب فى أواخر القرن الرابع درخمة فى كل يوم ؛ ولم يكن ينتظر منه أن يترك عمله دون أن يعوض عن تركه . وما لبثت هذه الخطة أن جعلت للفقراء الأغلبية فى الجمعية ، ويئس الأغنياء من الانتصار فيها . فزاد إعراضهم عنها تدريجاً ، وامتنعوا عن حضور جلساتها . وعدل الدستور فى عام ٤٠٣ وقصر حق التشريع على هيئة مكونة من خمسة مشترعين nomothetei يختارون من بين المواطنين الذين انتخبوا بالقرعة ليكونوا

غضاة ، ولكن هذا التعديل لم تكن له أقل فائدة فى الحد من طغيان الطبقات الدنيا . ذلك أن هذه الهيئة الجديدة انحازت هى الأخرى إلى جانب العامة ، والانتقاص من سلطانه . ويبدو أن مستوى الذكاء فى الجمعية قد نقص فى القرن الرابع ، ولعل منشأ هذا النقص هو أداء الأجور على حضور جلسات الجمعية . نقول هذا ببعض التحفظ لأن الذين نعتمد عليهم فى هذا القول هم الرجعيون المتحيزون أمثال أرسطوفان وأفلاطون[٣٩] . ويقول إسقراط إن أعداء أثينة هم الذين يجب عليهم أن يؤدوا الأجور لحضور جلسات الجمعية حتى يكثر اجتماعها ، وذلك لكثرة ما ترتكبه من الأغلاط[٤٠] فى أعمالها .

وخسرت أثينة بسبب هذه الأغلاط إمبراطوريتها وحريتها جميعاً . ذلك أن الحرص الشديد على المال والسلطان الذى قوض أركان الحلف الأولى قد دك وقتئذ قواعد الحلف الثانى أيضاً ، فقد شعرت أثينة بعد سقوط اسپارطة فى لكترا أن فى وسعها الآن أن توسع أملاكها ، وكانت وهى تنظم إمبراطوريتها الجديدة قد قطعت على نفسها عهداً ألا تسمح للرعايا الأثينيين بامتلاك أرضين خارج حدود أتكا[٤١] . ولكنها بعد أن فتحت ساموس ، والكرسنيز التراقية ، ومدائن پدنا ، وپوتيديا ، وميتونى على سواحل مقدونية وتراقية استعمرتها على أيدى المواطنين الأثينيين . واحتجت على ذلك الدول المتحالفة معها وانسحب الكثير منها الحلف . واستخدمت أثينة وسائل القسر والعقاب التى استخدمتها من قبل فى القرن الخامس ، ولكنها لم تجن من ورائها فائدة فى هذه المرة كما لم تجن منها فائدة فى المرة السابقة . وكانت النتيجة أن أعلنت طشيوز ، وكوس ، ودرس ، وبيزنطية فى عام ٣٥٧ « حرب » عصيان « اجتماعية » : ولما أن رفض تموثيوس Timotheus وأفكراتيز ، وهما قائدان من أعظم القواد الأثنيين كفاية ، أن يهاجما الأسطول الثائر فى الهلسپنت أثناء عاصفة هوجاء ، اتهمتهم الجمعية

بالجبن ، وفرضت على تموثيوس غرامة باهظة لا قبل لأحد بأدائها قدرها مائة وزنة (٦٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكى) . فلم يجـد أمامه سبيلا إلا الفرار من البلاد ، وبرئ إفكرتيز ولكنه لم يقم لأثينة بخدمة ما فيما بقى من حياته . وأحبط الثوار كل ما بذلته من محاولات لإخضاعهم ، فاضطرت فى عام ٣٥٥ إلى أن توقع صلحا تعترف فيه باستقلال بلادهم ، وأضحت المدينة العظيمة بلا أحلاف ، ولا زعماء ، ولا مال ، ولا أصدقاء .

ولعل عوامل أخرى أدق وأخفى من العوامل السابقة كان لها أثر فى إضعاف أثينة . ذلك أن حياة الفكر تعرض للخطر كل حضارة تزدان بهذه الحياة . ففى المراحل الأولى من تاريخ الأمة قل أن يكون للتفكير وجود ، بل الذى يسود وينتشر هو العمل ، ويكون الناس فى هذه المرحلة صريحين ، محررين من عوامل الكبت جريئين فى مشاكساتهم وصلاتهم الجنسية . وكلما أرتقوا فى مدارج الحضارة وفرضت عليهم العادات ، والأنظمة ، والشرائع ، وقواعد الآداب والأخلاق ، قيودا تزداد على مر الأيام كبتاً للغرائز ، حل التفكير محل العمل ، والخيال محل الإقدام ، والاحتيال محل الصراحة ، والخفاء محل التعبير الصادق ، والعطف محل القسوة ، والشك محل اليقين ، وزالت الوحدة الأخلاقية التى يشترك فيها الإنسان البدائى مع الحيوان ، وأصبح السلوك مجزءا طابعه التردد ، والإدراك ، وتقدير العواقب ، وضعفت الرغبة فى القتال ، واستحالت ميلا إلى الجدل الذى لا يقف عند حد . وما أقل الأمم التى استطاعت أن تصل إلى الرقى العقلى والإحساس القوى بالجمال من غير أن تضحى فى سبيل ذلك بالقدر الكثير من رجولة أبنائها ووحدتها ، فلم تستطع صد الاقوام الهمج المعدمين الطامعين فى ثروتها : فحول كل رومة يحوم الغاليون ، وحول كل أثينة يحوم المقدونيون .

الفصل الرابع

نهضة سراقوصة

كانت سراقوصة طوال القرن الرابع من أكبر المدن اليونانية ثروة وأعظمها قوة ، رغم ما كان ينتابها من الاضطرابات السياسية الكثيرة . وكان ملكها ديونيشيوس الأول مجرداً من الضمير ، خائنا غدارا ، مختالا مغروراً ، ولكنه كان أقدر رجال زمانه فى الشئون الإدارية . حول هذا الرجل جزيرة أرتيجيا Ortygia إلى قلعة حصينة اتخذها مسكنا له ، وسور الطريق الذى يوصلها بأرض القارة ، فأصبح مركزه فيها أمنع من عقاب الجو ، ثم ضاعف أجور جنده ، وقادهم بنفسه إلى انتصارات هينة ، فحبب نفسه إليهم وكسب ولاءهم ؛ فاستطاع البقاء على العرش ثمانية وثلاثين عاما . ولما أن ثبت قواعد حكمه استبدل بسياسة القسوة التى نهجها فى بداية أمره سياسة رحيمة استرضى بها الأهلين ، وبسط على البلاد حكماً استبدادياً طابعة العدالة والمساواة(*) ، وأقطع ضباطه وأصدقاءه أجزاء من أحسن الأراضى وأعظمها خصبا ، وخص جنوده بجميع المساكن فى أرتيجيا والطريق الموصل إليها إلا القليل النادر منها ؛ ووزع كل ما بقى من أرض سراقوصة وما حولها على سكان المدينة الأحرار منهم والأرقاء من غير تمييز بينهم . وبهديه وإرشاده ازدهرت سراقوصة ، وإن كان قد فرض عليها من الضرائب ما لا يكاد

(*) ولما حكم على فنتياس Phintias (المسمى خطأ بيثياس Pythias) الفيثاغورى بالإعدام لاشتراكه فى إحدى المؤامرات ، استأذن فنتياس فى أن يذهب إلى منزله يقضى فيه يوما ينظم فيه شئونه . وعرض صديقه دامون Damon (وهو غير دامون معلم الموسيقى لبركليز وسقراط) أن يكون رهينة له حتى يعود ، وعرض أن يعدم إذا لم يعد فنتياس . ولكن فنتياس عاد ودهش ديونيشوس كما دهش تايلون فيما بعد من أن يبلغ الإخلاص بين الأصدقاء هذا المبلغ ، فعفا عن فنتايس ، ورجاه أن يكون هو زميلا لهما فى هذه الصداقة المتينة .

يقل عما فرضته الجمعية على الأثينيين . ولما أن أسرفت نساء المدينة فى زينتهن أعلن أن دمتر قد جاءته فى الحلم وأمرته أن يجمع حلى النساء كلها ويودعها فى معبدها . وصدع الملك بأمر الإلهة ، وصدعت به كذلك معظم النساء ؛ ثم ما لبث أن « اقترض » الحلى من دمتر ليمول بها حروبه(٤٣) .

ذلك أن خططه كلها كانت تهدف إلى إخراج القرطاجيين من صقلية . وقد آلمه وحز فى نفسه أن يستطيع هنيبال استخدام آلات التدمير القوية فى حصار سيلينس ، فجمع فى خدمته خيرة الصناع والمهندسين من بلاد اليونان القريبة ؛ وطلب إليهم أن يعملوا على تحسين عدد الحرب . وكان من بين ما اخترعه هؤلاء الرجال من آلات الهجوم والدفاع الجديدة المنجنيق الذى يقذف الحجارة الثقيلة وغيرها من القذائف ، وانتقل هذا الاختراع وغيره من المخترعات العسكرية من صقلية إلى بلاد اليونان واستخدمه فليب المقدونى . وأرسل يدعو لخدمته جنودا مرتزقة ، وأخذت دور الصنعة فى سراقوصة تخرج مقادير لا عهد للناس بها من الأسلحة والدروع تتفق مع عادات كل طائفة من طوائف الجند المختلفة ومع حذقها فى القتال . وكان المشاة قبل هذا الوقت هم الذين يقاتلون فى المعارك البرية لكن ديونيشيوس نظم فيالق كبيرة من الفرسان ، وأفاد من هذا أيضاً فليب والإسكندر . وأخذ فى الوقت نفسه يصب المال صبا لبناء مائتى سفينة معظمها من ذات الأربعة الصفوف أو الخمسة ، فأنشأ بذلك أسطولا ضخما لم تر له بلاد اليونان قبل ذلك الوقت مثيلا فى سرعته أو قوته .

ولم يحل عام ٣٩٧ حتى كان كل شىء على أهبة الاستعداد ، وأرسل ديونيشيوس بعثة إلى قرطاجة يطلب إليها أن تحرر جميع المدن اليونانية فى صقلية من سيطرة القرطاجيين ، وتوقع ألا يجاب إلى طلبه فدعا هذه المدن إلى خلع نير الحكم الأجنبى ، فاستجابت إلى دعوته ، وكانت لاتزال حاقدة على القرطاجيين ولم تنس ما ارتكبه فيها هنيبال من المذابح ، فأعدمت جميع من وقع فى

أيديهم منهم بعد أن أذاقتهم من ألوان العذاب ما لم يعذبه اليونان أحداً غيرهم من قبل ، ولم يدخر ديونيشيوس جهداً فى الحيلولة بينهم وبين هذا التعذيب لأنه كان يريد أن يبيع أسرى القرطاجيين فى أسواق الرقيق . ونقلت قرطاجة جيشاً كبيراً بقيادة هملكون Himilcon بطريق البحر ، ودارت الحرب بين الأمتين فى فترات متقطعة خلال أعوام ٣٩٧ ، ٣٩٢ ، ٣٨٣ ، ٣٦٨ . وانتهت هذه الحرب بأن استردت قرطبة كل ما استولى عليه ديونيشيوس من أملاكها ، وعادت الأمور بعد الدم المهراق كله إلى ما كانت عليه من قبل .

وكان ديونيشيوس فى هذه الأثناء قد وجه قوته الحربية لإخضاع المدن اليونانية فى الجزيرة ، وربما كان مدفوعا إلى هذا بحب السلطان ، أو بما كان يحس به من أنه لاسبيل إلى القضاء على سطان قرطاجة فى صقلية إلا إذا اتحدت كلها تحت حكومة واحدة . فلما تم له إخضاعها ، عبر الجزيرة إلى إيطاليا ، وأخضع رجيوم Rhegium وفرض سلطانه على جميع إيطاليا الجنوبية . ثم هاجم إترووريا واستولى على ألف وزنة من هيكلها القائم فى أجلا Agylla ، ووضع الخطط لنهب ضريح أبلو فى دلفى ، ولكن الأيام وقفت فى سبيله فلم تمكنه من تنفيذ خططه . فقد وأدت بلاد اليونان فى نفس ذلك العام (٣٨٧) حريتها فى الغرب ، ثم باعتها « بصلح الملك » إلى الفرس فى لشرق . وكان برنس Brennus والغاليون قد وقفوا ظافرين أمام أبواب رومة يدقونها دقاً ، وكان البرابرة المحيطون بالعالم اليونانى يزدادون قوة فى كل مكان ، وكان ما حل بإيطاليا الجنوبية من التدمير على يد ديونيشيوس قد مهد السبيل للأهلين القاطنين حول المستعمرات أولا ، ثم للرومان أنصاف البرابرة بعدئذ ، لغزو هذه المستعمرات والاستيلاء عليها . وقام الخطيب ليسياس فى الدورة التالية من دورات الألعاب الأولمبية يدعو بلاد اليونان إلى الخروج على الطاغية الجديد ، فهاجت الجماهير الثائرة خيام رسل ديونيشيوس وأصمت آذانها عن الاستماع إلى أشعاره .

وهذه الطاعة الذى عرض على أهل رجيوم بعد أن تم له الاستيلاء عليها حريتهم إذا آتوه بكل ما يدخرونه من مال فدية لهم ، فلما جاؤوه به باعهم بيع الرقيق ، هذا الطاغية نفسه كان رجلا واسع الثقافة من أرباب السيف والقلم ، ولم يك فخره بقلمه أقل من فخره بسيفه . ولما أن طلب إلى الشاعر فلكينس رأيه فى شعره وأجاب بأنه غث لا قيمة له حكم عليه بالأشغال الشاقة فى المحاجر(٤٤) . على أن ديونيشيوس ، كان يناصر الآداب والفنون على الرغم من هذه الأعمال المثبطة ، وقد استضاف أفلاطون أثناء أسفاره فى صقلية وسره أن يستمتع لحظة بهذا الفيلسوف (٣٨٧) . وهناك قصة ذائعة نقلها ديوجانس ليرتيوس تقول إن الفيلسوف أخذ يطعن فى حكم الطغاة فرد عليه ديونيشيوس بقوله : « إن أقوالك أقوال عجوز مخرّف » ، فأجابه أفلاطون قائلا : « إن هذه اللغة هى لغة الطغاة » . ويقال إن ديونيشيوس باع أفلاطون فى سوق الرقيق ولكن أنسريز القيرونى لم يلبث أن افتداه(٤٥) .

ولم يقض على حياة الفيلسوف واحد من القتلة السفاحين الذين كان يخشى بأسهم بل قضى عليها شعره نفسه . وتفصيل ذلك أن مأساته افتداء هكتر نالت الجائزة الأولى فى عيد لينيا الأثينى عام ٣٦٧ . وسر ديونيشيوس من هذا الفوز سروراً جعله يحتفل بأصدقائه ويفرط فى الشراب ، فيصاب بالحمى ويموت .

وقبلت المدينة المغتاظة التى كانت قد ارتضته بديلا من الخضوع لقرطاجة ، قبلت أن يخلفه ابنه على العرش راجية الخير على يديه . وكان ديونيشيوس الثانى وقتئذ شاباً فى الخامسة والعشرين من عمره ، ضعيف الجسم والعقل ، فظن السراقوصيون الماكرون أنه لهذا السبب سيحكمهم حكماً رحيما يترك لهم فيه الحبل على الغارب . وكان له من عمه ديون Dion والمؤرخ فلستيوس مستشاران قديران . فأما ديون فكان رجلا واسع الثراء ولكنه جمع إلى ثرائه حبه للآداب والفلسفة ، وكان من أوفى تلاميذ أفلاطون وألصقهم به . وأصبح عضواً

فى المجمع العلمى وعاش فى داخل بيته وخارجه عيشة البساطة الفلسفية . وخطر بياله أن الطاغية الجديد الشاب اللدن العود سوف يتيح له الفرصة لأن يقيم على الأقل حكماً دستورياً يستطاع به توحيد صقلية بأجمعها وتمكينها بسبب هذه الوحدة من القضاء على سلطان القرطاجيين فيها ، هذا إذا لم يتمكن من أن يجعل منها « المدينة الفاضلة » التى وصفها له أفلاطون .

ودعا ديونيشيوس الثانى بناء على اقتراح ديون ، أفلاطون إلى بلاطه ، فلما قبل أفلاطون الدعوة تتلمذ عليه ديونيشيوس وصار من أتباعه . ومما لا شك فيه أن الشاب الطاغية أراد أن يظهر للفيلسوف خير طباعه ، فأخفى عليه إدمانه الخمر والعهر[٤٧] ، الذى جعل أباه يتنبأ أن الأسرة ستنقرض بموت ولده . وانخدع أفلاطون برغبة الشاب الظاهرة فى الفلسفة فقاده إليها من أصعب السبل — من سبيل العلوم الرياضية والفضيلة . وعلّم الحاكم ، كما علم كنفوشيوس دوق لو ، أن المبدأ الأول من مبادئ الحكم هو القدوة الصالحة ، وأنه إذا أراد أن يصلح شعبه ، فعليه أن يجعل نفسه أنموذجاً لهم فى الذكاء والنية الحسنة ، وشرعت الحاشية كلها تدرس الهندسة ، وتقف مذهولة سياسياً أمام خطوط مرسومة فى الرمل . ورأى فلستيوس أن مقام أفلاطون أصبح أعلى من مقامه ، فهمس فى أذن الطاغية أن ذلك كله لم يكن إلا مؤامرة أراد بها الأثينيون ، الذين عجزوا عن فتح سراقوصة بقوة الجيش والأسطول ، أن يستولوا عليها بعمل رجل واحد ، وأن أفلاطون بعد أن استولى على القلعة المنيعة بالرسوم والحوار ، سينزل ديونيشيوس عن عرشه ، ويجلس ديون مكانه . ووجد ديونيشيوس فى هذا الهمس فرصة قيمة للنجاة من متاعب الهندسة ، فنفى ديون ، وصادر أملاكه ، ووهب زوجته لرجل من رجال البلاط كانت ترهبه ، وغادر أفلاطون سراقوصة ، رغم تأكيد الطاغية له بأنه يحبه أشد الحب ، وانضم إلى ديون فى أثينة . وبعد ست سنين من ذلك الوقت عاد إلى سراقوصة استجابة لطلب الملك نفسه ، وألح عليه فى أن يستدعى ديون ولما

رفض ديونيشيوس رجاءه اعتزله أفلاطون وآوى إلى المجمع العلمى[٤٨] .

وفى عام ٣٥٧ جند ديون من بلاد اليونان القارِّية ، وكان وقتئذ فقيراً فى المال غنيًّا فى الأصدقاء ، قوة مؤلفة من ثمانمائة رجل أبحر بهم إلى سراقوصة ، ودخل فيها سراً فألفى الأهلين شديدى الرغبة فى تأييده . وكانت معركة واحدة نال فيها النصر ببسالته ، مع أنه كان وقتئذ فى سن الخمسين ، كافية لهزيمة جيش ديونيشيوس ، ودب الرعب من هولها فى قلب الملك الشاب فآثر الفرار إلى إيطاليا . وفى هذا الوقت عزلت الجمعية السراقوصية ديون من القيادة ، وكان هو الذى دعاه إلى الاجتماع ، خشية أن ينصب نفسه حاكماً بأمره . وكانت فى عملها هذا تجرى على ما طبع عليه اليونان من الاندفاع وعدم التبصر فى العواقب . وانسحب ديون فى سلام إلى اليونتينى ؛ ولكن جيوش ديونيشيوس شجعها تقلب الأحداث فهاجمت الجيش الوطنى على حين غفلة ، وبددت شمله . وأرسل الزعماء الذين كانوا قد عزلوا ديون من القيادة يطلبون إليه أن يعود مسرعاً ويتولى قيادة جيش الشعب ، فاستجاب إلى دعوتهم ؛ وانتصر على أعدائه مرة أخرى ، وعفا عن الذين قاوموه ، وأعلن قيام دكتاتورية مؤقتة قال إنها ضرورية لعودة النظام إلى البلاد ، وأبى أن يكون له حرس خاص مخالفا بذلك نصيحة أصدقائه ، وقال إنه « يفضل أن يموت على أن يعيش على حذر دائم من أصدقائه وأعدائه على السواء »[٤٩] . واحتفظ بدلا من هذا الحرس بحياته المتواضعة المعتدلة رغم ما كان يحيط به من الثراء وقوة السلطان .

ويقول فلوطرخس « إنه ، وإن كان قد نال ما يشتهيه من النجاح ، لم يكن يرغب فى أن ينال فائدة عاجلة أتاحها له حظه الطيب . . . فاكتفى بقليل معتدل من الثراء راعى فيه جانب الاقتصاد ، وأدهش بذلك الناس جميعاً . وبينما كانت صقلية وقرطاجة وبلاد اليونان بأجمعها ترى أنه قد بلغ أعلى مراتب النعيم والثراء ، وأن ليس بين الأحياء جميعاً من هو أعظم منه ، أو بين القواد

من هو أوسع منه شهرة فى البسالة والظفر ، كان يبلو فى حرسه ، وحاشيته ، وعلى مائدته ، أنه يشترك مع أفلاطون فى المجمع العلمى . ولا يعيش بين ضباطه المأجورين وجنوده المرتزقة الذين يجدون فى ملء بطونهم بلذيذ المآكل والمشرب والاستمتاع بلذائذ الحيـــاة عزاء لهم عن كدحهم المتواصل وما يتعرضون له من الأخطار »[٥٠]

وإذا أخذنا بقول أفلاطون فإن ديون كان يبغى إقامة ملكية دستورية ، وإلى إصلاح حياة السراقوصيين وأخلاقهم على مثال الحياة والأخلاق الإسپارطية ، وأن يعيد بناء المدن اليونانية المستعبدة أو المخربة فى صقلية ، وينشىء منها دولة موحدة ، حتى إذا تم له ذلك أخرج القرطاجيين من الجزيرة . ولكن السراقوصيين كانوا يحرصون أشد الحرص على النظام الدمقراطى . ولم يكونوا يتوقون إلى الفضيلة أكثر مما يتوق إليها ديونيشيوس الأول أو الثانى . فاغتال ديون صديق له ، وانطلقت على أثر اغتياله الفوضى من عقالها ، وأسرع ديونيشيوس بالعودة إلى سراقوصة ، واستولى مرة أخرى على اوتيجيا وعلى أزمة الحكم ، وسار فيه بالقسوة والفظاعة التى ينتظرها الإنسان من طاغية خلع عن عرشه ثم استرده .

وبعد ، فإن الأقدار تصيب أحياناً من لا يستحقها من الأفراد ، ولكنها قلما تفعل ذلك بالأمم . لقد استغاث السراقوصيون بأمهم كورنثة . وجاءت الاستغاثة فى وقت كان فيه كورنثى نبيل نبلا لا يكاد يصدقه العقل ينتظر أن تتاح له فرصة يظهر فيها بطولته. لقد كان تيمليون رجلا من الأشراف ، بلغ من حبه للحرية أنه لم يتردد فى قتل أخيه تموفانيز حين أراد هذا الرجل أن يقيم نفسه حاكماً مستبداً فى كورنثة . واستنزلت أمه اللعنة عليه عقاباً له على عمله هذا ، وأنبه عليه ضميره ، فاعتزل هذا القاتل الناس وآوى إلى الغابات ، ولكنه سمع وهو فى مأواه بحاجة سراقوصة إلى النجدة ؛ فخرج من ملجئه ، ونظم قوة من المتطوعين ، وأبحر بها إلى صقلية ؛ وقاد شرذمته

القليلة بمهارة لم يرجيش الملك معها بدأ من الاستسلام ، بعد أن ذاق البلاء من جراء براعته فى القيادة ، ومن غير أن يقتل من رجاله رجل واحد ، ومنح تيمليون الطاغية الذليل من المال ما يمكنه من العودة إلى كورنثة حيث قضى ما بقى من حياته يعلم فى المدرسة ويسأل الناس القوت فى بعض الأحيان(٥١) .

وأعاد تيمليون الدمقراطية ، وهدم الحصون التى جعلت أرتيجيا معقلا حصيناً للاستبداد ، ورد عنها غارة شنها القرطاجيون ، وأعاد الحرية والدمقراطية إلى المدن اليونانية . وبفضله ساد السلام وعم الرخاء صقلية جيلا من الزمان ، هرع إليها فى خلاله مستوطنون جدد من جميع أنحاء العالم اليونانى . وأبى مع ذلك أن يتولى منصباً عاماً ؛ بل اعتزل الحياة السياسية وفضل عليها الحياة الخاصة ؛ ولكن الدمقراطيات القائمة فى الجزيرة كانت تعرض عليه كل شئونها الكبرى تستنصحه وتعمل برأيه إيماناً منها بحكمته واستقامته . ولما اتهمه اثنان من « المرشدين » بسوء استخدام سلطته أصر على الرغم من احتجاج الشعب وإعلانه شكره له واعترافه بجميله ، أن يحاكم من غير محاباة حسب قانون البلاد ، وحمد الآلهة على أن عادت إلى صقلية حرية الكلام والمساواة أمام القانون . ولما مات فى عام ٣٣٧ حزنت عليه بلاد اليونان كلها وعدته من أعظم عظماء أبنائها .

الفصل الخامس

تقدم مقدونية

بينا كان تيمليون يعيد إلى الديمقراطية أنفاسها الأخيرة فى صقلية القديمة ، كان فليب يقضى عليها فى أرض اليونان القارية . لقد كانت مقدونية حين اعتلى فليبُ العرش ٣٥٩ لا تزال فى الأغلب الأعم بلاداً همجية يسكنها أقوام أشداء جبليون وذلك رغم كرم أركلوس وثقافته العالية ، والحق أنها وإن استخدمت اليونانية لغة رسمية لها لم تفد الحياة اليونانية طوال تاريخها بمؤلف أو فنان أو فيلسوف واحد .

وكان فليب قد أقام ثلاث سنين مع أقارب إياميننداس طيبة فاستقى منهم قدراً متوسطاً من الثقافة وقدراً عظيما من الأفكار الحربية . وكان يتصف بجميع الفضائل عدا فضائل الحضارة ، كان قوى الجسم والإرادة ، مولعاً بالرياضة البدنية ، وسيما ، وبجملة القول أنه كان حيواناً عظيما ، يحاول بين الفينة والفينة أن يكون أثينيا مهذباً . وكان كابنه الشهير ذا مزاج حاد عنيف وكرم فائق ، مولعا بالحرب إلى حد كبير وبالشراب إلى حد أكبر . وكان يختلف عن الإسكندر فى مرحه وميله إلى الضحك ، ولى أحد الأرقاء منصباً كبيراً لأنه أدخل على قلبه السرور .. وكان يحب الغلمان كثيراً ، ولكنه يحب النساء أكثر منهم ، وتزوج أكبر عدد استطاعه منهن ، وحاول وقتاً ما أن يقتصر على زوجة واحدة هى أولمبياس الأميرة المولوسية Molossian الجميلة التى كانت تعيش على الفطرة والتى ولدت له الإسكندر ، ولكنه لم يلبث أن مال إلى غيرها ، فأخذت أولمبياس تدبر الانتقام منه إلى نفسها وكان أحب الناس إليه أشداء الرجال الذين يجازفون بأرواحهم طوال النهار ، ويقامرون معه وينادمونه على الشراب إلى نصف الليل . وكان (إلى ما قبل

الإسكندر) أشجع الشجعان بلا منازع ، وخلف جزءاً من نفسه فى كل ميدان من ميادين القتال . وقد أعجب به دمستين وقال فيه : « يا له من رجل ! لقد خسر فى سبيل القوة والسلطان عيناً فقئت ، وكتفاً كسرت ، وذراعا وساقا أصيبتا بالشلل[٥٣] » . وكان ذا قريحة وقادة ، قادراً على أن ينتظر فرصته متربصاً ، وعلى أن يسير بعزم ثابت إلى هدفه مجتازاً فى سبيله كل ما يعترضه من صعاب . وكان فى سياسته لطيفا غدارا ؛ لا يبالى بأن يحنث فى وعده ، ويجدد هذا الوعد لساعته ؛ لا يعترف فى الحكم بالمبادئ الأخلاقية ، ويرى أن الكذب والرشوة بديلين رحيمين من القتل وسفك الدماء . ولكنه كان رحيما فى انتصاره وكان من عادته أن يعرض على اليونان المنهزمين شروطا أحسن مما يعرضها بعضهم على بعض . وقد أحبه كل من التقى به ، عدا دمستين العنيد ، ووصفوه بأنه أقوى رجال زمانه وأكثرهم طرافة .

وكانت حكومته ملكية أرستقراطية يدوم سلطان الملك فيها ما دام متفوقا فى قواه الجسمية أو العقلية ، وما دام أشراف البلاد راغبين فى معونته . وكان ثمانمائة من أمراء الإقطاع يكونون « صحابة الملك » وكان هؤلاء الصحابة من كبار الملاك الذين يحتقرون حياة الحواضر والزحام والكتب فإذا ما أعلن الملك الحرب برضاهم خرجوا من ضياعهم وهم أقوياء الأجسام صناديد ليوث غاب . وكانوا فى الجيش يؤلفون فرقة الفرسان ويمتطون صهوة الجياد المقدونية والتراقية القوية الشكيمة ، وقد دربهم فليب على أن يحاربوا جماعات متراصة يستطيعون إذا صدر إليهم أمر قائدهم أن يبدلوا حركاتهم العسكرية من فورهم كأنهم رجل واحد . وكان إلى جانب هؤلاء الفرسان مشاة من الصيادين والفلاحين الشعث منظمون فى « فيالق » ، يصوب ستة عشر صفا منهم رماحهم فوق رؤوس الصفوف التى أمامهم — ويضعونها فوق أكتافهم — وبذلك يكون كل فلق أشبه بجدار من الحديد . وكان طول الرمح إحدى وعشرين قدما ،

وكان متزناً من مؤخرته فإذا شرعه صاحبه برز إلى الأمام خمس عشرة قدماً. ولما كان كل صف من الجند يتقدم ثلاث أقدام عن الذى يليه ، فإن رماح الخمسة الصفوف الأولى كانت تبرز أمام الفيلق كله ، وكانت رماح الثلاثة الصفوف الأولى تبرز أمام الفليق أطول من حراب أقرب المشاة اليونان التى لا تزيد على ست أقدام . وكان الجندى المقدونى بعد أن يقذف عدوه برمحه يحارب بسيف قصير ويقى رأسه ببيضة من نحاس ، وجسمه بدرع ، وساقيه بجرموقين ، وصدره بترس خفيف . ويأتى من وراء هـذا الفليق فرقه من الرماة على الطراز القديم يصوبون سهامهم فوق رؤوس حملة الرماح ، ومن وراء هؤلاء فرق الحصار بمناجيقها وكباشها المدمرة . ودرب فليب فى صبر وعزيمة هـذا الجيش المكون من عشرة آلاف جندى حتى جعله أعظم قوة محاربة شهدتها أوربا حتى ذلك الوقت ، وأعده للإسكندر كما أعد فردرك وليم جيشه لابنه فردرك الأكبر .

واعتزم أن يستخدم هذه القوة لتوحيد بلاد اليونان وإخضاعها لحكمه حتى إذا تم له ذلك استعان ببلاد هيلاس جميعها وعبر الهلسپنت وطرد الفرس من آسية اليونانية . ولكنه كان فى كل خطوة يخطوها نحو هذه الغاية يجد نفسه يعمل ضد حب اليونان للحرية ، وكان وهو يحاول أن يتغلب على هذه النزعة ينسى الغاية التى يعمل لها بهذه الوسيلة . ووقف فى حركته الأولى وجهاً لوجه أمام أثينة لأنه أراد أن يستولى على المدن التى ضمتها إلى أملاكها على ساحل مقدونية وتراقية . ولم تكن هـذه المدن تسد طريقه إلى آسية وحسب ، بل كانت فوق هذا تحتوى مناجم غنية من الذهب ، وكانت ذات تجارة رائجة فى مقدوره أن يفرض عليها الضرائب . وبينا كانت أثينة منهمكة فى « الحرب الاجتماعية » التى انتهت بها إمبراطوريتها الثانية ، استولى فليب على أمفپوليس (٣٥٧) ، وپدنا ، وپوتيديا (٣٥٦) ؛ ولما احتجت أثينة على هذا العمل العدوانى أجابها بالثناء على آدابها وفنونها ، وفى عام ٣٥٥ استولت على ميثونى ، وفقد عينه فى

حصارها ، وفى عام ٣٤٧ استولى على أولنثس بعد حرب طويلة استعين فيها بضروب كثيرة من البسالة والخداع . وتمت بهذه الأعمال السيطرة على الشاطئ الأوربى لبحر إيجة الشمالى ، ودخل خزائنه فى كل عام ألف وزنة من مناجم تراقية[٥٣]، واستطاع أن يوجه تفكيره نحو اكتساب معونة بلاد اليونان .

وكان فليب قد حصل على المال الذى أنفقه فى حروبه ببيع آلاف من الأسرى فى أسواق الرقيق ، وكان من بينهم كثيرون من الأثينيين ، فنفرت منه قلوب الهلينيين ، وكان من حسن حظه أن المدن اليونانية كانت فى خلال هذه السنين تنهك قواها فى « حرب مقدسة » ثانية (٣٥٦—٣٤٦) سببها انتهاب الفوسيين كنوز دلفى . وأيد الاسپارطيون والأثينيون الفوسيين ، وحاربت العصبة الأمفكتيونية : بؤوتية ، ولكريس ، ودوريس ، وتساليا ، ضدهم. ولما دارت الدائرة على هذه العصبة استغاث مجلسها بفليب ، ووجد الفرصة ملائمة له فجاء مسرعا مخترقاً الطرق الجبلية المفتوحة أمامه ، وأخذ الفوسيين على غرة (٣٤٦) ، وضُم إلى الحلف الأمفكتيونى الدلفى ، ونودى به حاميا للضريح المقدس ، وقبل الدعوة التى وجهت إليه لرياسةاليونان جميعا فى الألعاب البيثية . وهنا امتد بصره إلى دول البلوپونيز المنقسمة على نفسها ، وأحس أن فى استطاعته أن يحملها جميعاً ، عدا اسپارطة الضعيفة ، على أن ترتضيه زعيما لحلف يونانى فى مقدوره أن يحرر جميع اليونان فى الشرق والغرب . ولكن أثينة استمعت إلى أقوال دمستين فلم تر فى فليب محرراً لها ، بل رأته ساعياً لا ستعبادها ، وقررت أن تحارب لتحتفظ للمدن اليونانية بالسيادة التى كانت تحرص عليها ، وبالدمقراطية الحرة التى جعلتها نور العالم الوضاء .

الفصل السادس

دمستين (دمستنيز)

إن تمثال الخطيب العظيم القائم فى متحف الفاتيكان ليعد من الروائع الفنية الواقعية التى أخرجها العصر الذى انتشرت فيه الحضارة اليونانية خارج بلاد اليونان الأصلية ؛ فوجهه يبدو عليه الهم والقلق ، كأن كل نصر أحرزه فليب قد أحدث غضناً جديداً فى جبهته ؛ والجسم نحيل منهوك ، ومظهره مظهر الرجل الذى يوشك أن يدعو الناس للأخذ بيده للدفاع عن قضية يرى أنه قد خسرها . وتكشف العينان عن حياة قلقة ، وتتنبئان بموت مدبر .

وكان أبوه صانع سيوف وأسرّة ، ترك له تجارة تبلغ قيمتها أربع عشرة وزنة (٨٤٫٠٠٠ ريال أمريكى) . واختار الوالد ثلاثة من الرجال ليديروا هذه الأملاك لصالح الغلام ، ولكنهم أنفقوها على أنفسهم بسخاء ، اضطر معه دمستين حين بلغ سن العشرين (٣٦٣) أن يقاضى الأوصياء عليه لكى يستعيد ما بقى من ميراثه . وأنفق معظم ما آل إليه فى تجهيز سفينة ذات ثلاثة صفوف من المجاديف وهبها للأسطول الأثينى ، ثم أخذ يعمل لكسب عيشه بكتابة الخطب للمتقاضين ؛ وكان أقدر على الكتابة منه على الكلام ، لأنه كان ضعيف الجسم عىّ اللسان . ويقول فلوطرخس إنه كان فى بعض الأحيان يعد دفاعاً لكلا الطرفين المتنازعين . وكان يعمل فى هذه الأثناء للتغلب على ما فيه من نقص طبيعى ، فكان يخاطب البحر وفمه مملوء بالحصباء ، أو يخطب وهو يصعد فوق الجبل . وكان مجداً فى عمله لا يشغله عنه إلا السرارى والغلمان . وقال أمين سره يشكو أمره : « ماذا عسى أن يفعل الإنسان بدمستين ؟ إن الشىء الذى قضى عاماً

كاملا يفكر فيه لتربكة امرأة واحدة فى ليلة واحدة[٥٤] » . وأصبح الرجل بعد جهود مضنية دامت عدة سنين أغنى المحامين فى أثينة ، يعرف دقائق هذا الفن ويقنع المستمعين إلى خطبه ، ولا يتقيد كثيراً بقواعد الأخلاق . وشاهد ذلك أنه دافع عن المصرفى فورميو طالباً تبرئته من تهم وجهها هو بعينها إلى الأوصياء عليه ، وكان يتناول أجوراً عالية من الأفراد نظير تقديم بعض القوانين للجمعية والدفاع عنها ، ولم يدفع عن نفسه التهمة التى وجهها إليه زميله هيبريديز وهى أنه كان يتلقى المال من ملك الفرس ليشعل نار الحرب على فليب[٥٥] . وبلغت ثروته فى ذروة مجده عشرة أضعاف ما خلفه له أبوه .

لكنه رغم هذا بلغ من النزاهة درجة رضى معها بالتعذيب والموت فى سبيل الآراء التى استؤجر للدفاع عنها . ذلك أنه أخذ يندد باعتماد أثينة على الجنود المرتزقة ، وأصر على أن المواطنين الذين يتقاضون أجوراً من « الرصيد » المخصص لإعانة من يحضرون ألعاب الحفلات الدينية ويشاهدون المسرحيات ، يجب أن يكسبوها بالخدمة فى الجيش ؛ وبلغ من شجاعته أن طالب بألا يؤدى هذا المال أجوراً لهؤلاء المواطنين ، بل يجب أن ينفق فى إعداد قوة حربية للدفاع عن الدولة أحسن من القوة التى لديها(*) . وقال للأثينيين إنهم قوم كسالى منحلون فقدوا ما كان يتصف به آباؤهم من فضائل حربية ، وأبى أن يصدق أن دولة المدينة قد وهنت قواها بالانقسامات الحزبية والحروب ، وأن الوقت قد آن لتوحيد بلاد اليونان . وأنذر الأثينيين بأن هذه الوحدة ليست إلا أقوالا تخفى وراءها خضوع

(*) لقد توسعت الدولة فى رصيد « المناظر » هذا (theoric fund) حتى صار يستخدم فى كثير من الاحتفالات بدرجة كاد معها أن يجعل جزءاً كبيراً من المواطنين فى عداد من يتلقون إعانات من الدولة . وفى ذلك يقول جلوتز Glotz : « إن الجمهورية الأثينية قد أصبحت جمعية تعاونية خيرية تأخذ المال من إحدى الطبقات لتنفقه على طبقة أخرى[٥٦] » . وكانت الجمعية قد جعلت الإعدام جزاء كل من يقترح تحويل هـذا المال لأغراض غير الغرض الذى رصد له .

بلاد اليونان جميعها لرجل واحد . ولقد تبين أطماع فليب من أعراضها الأولى وتوسل إلى الأثينيين أن يحاربوا للاحتفاظ بأحلافهم ومستعمراتهم فى الشمال .

وكان ، اسكنيز وفوشيون وحزب السلم يعارضون دمستين وهيبريديزو حزب الحرب . وليس ببعيد أن كلتا الطائفتين كانت مرتشية الثانية من قبل الفرس والأولى من قبل فليب[٥٧] ، وإن الاثنتين كانت تعملان بإخلاص للوصول إلى أغراضها تدفعهما الحماسة التى أثارتها كلتاهما فى قلوب أتباعها . وقد أجمع أهل ذلك العصر على أن فوشيون كان أشرف رجال السياسة فى أيامه — كان رواقيا قبل أن يؤسس زينون الرواقية ، وفيلسوفا من خريجى مجمع أفلاطون العلمى ، وخطيبا يحتقر الجمعية احتقارا يستطيع القارئ أن يتبينه إذا ذكرنا له أنها حين صفقت له التفت إلى أحد أصدقائه وسأله : « ألم أرتكب خطأ فى قولى من حيث لا أدرى ؟ »[٥٨] . وقد اختير قائدا (Strategos) خمسا وأربعين مرة ففاق فى هذا بركليز نفسه ، وتولى مراراً كثيرة قيادة الجيش وأظهر فى كل مرة كفاية عظيمة ، ولكنه قضى معظم حياته يدعو إلى السلم . ولم يكن رفيقه إسكنيز رواقيا فى معيشته ، بل كان رجلا ارتقى من الفقر المدقع إلى الثراء الواسع ، اشتغل فى صباه بالتدريس والتمثيل فأعانه ذلك على أن يكون خطيبا مصقعا ، وأول خطيب يونانى — على ما يقول المؤرخون — يرتجل الخطب ارتجالا وينجح فى ذلك أعظم نجاح[٥٩] ، بينا كان منافسوه يعدون خطبهم ويكتبونها قبل إلقائها . واشترك مع فوشيون فى عدة وقائع حربية ، فأخذ عنه سياسة التراضى مع فليب بدل الاشتباك معه فى الحرب ؛ ولما أن كافأه فليب على جهوده استحال تحمسه للسلم ولاء له وإخلاصا .

واتهم دمستين اسكنيز مرتين بأنه يرتشى بالذهب من مقدونية ، ولكنه فى كلتا المرتين عجز عن إثبات التهمة . على أن فصاحة دمستين الحربية وتقدم فليب نحو الجنوب أقنعا الاثنين آخر الأمر أن يمتنعوا وقتا ما عن توزيع رصيد المناظر وأن يستخدموه فى الاستعداد للحرب . فى عام ٣٣٨ نظموا على عجل

قوة زحفوا بها إلى الشمال لملاقاة فيالق فليب عند قيرونيا البؤوتية . وأبت اسپارطة أن تقدم معونتها لأثينة ، ولكن طيبة أحست بقبضة فليب تطبق على عنقها فأرسلت فرقتها المقدسة لتحارب إلى جانب الأثينيين ، وقتل الثلثمائة جندى الذين تتألف منهم هذه الفرقة فى الميدان ؛ وحارب الأثينيون بهذه الشجاعة نفسها أو بما يقرب منها ، ولكنهم كانوا قد تباطأوا فوق الحد المباح ، ولم يعدوا العدة لملاقاة جيش المقدونيين المسلح على أحدث طراز . فكانت النتيجة أن منوا بهزيمة شتتت شملهم ففروا أمام بحر الرماح الزاحفة عليهم وفرسعهم دمستين . وكان الإسكندر بن فليب يبلغ وقتئذ الثامنة عشرة من عمره ، وكان يقود فرقة الفرسان المقدونية بشجاعة تبلغ درجة التهور أنالته شرف الانتصار فى هذه المعركة الحامية الوطيس .

وكان فليب كريماً فى انتصاره كرماً تمليه عليه خطته السياسية التى رسمها . نعم إنه أعدم بعض زعماء طيبة المعادين للمقدونيين ، وأقام فى تلك المدينة حكومة ألجركية من أشياعه ، ولكنه أطلق سراح الألفى أثينى الذين وقعوا أسرى فى يديه ، وأرسل الإسكندر الظريف وأنپاتر Antipater العاقل الحكيم ليعرضا الصلح على أثينة على شريطة أن تعترف به قائداً عاماً لبلاد اليونان. كلها ضد عدوها المشترك . وكانت أثينة تتوقع شروطاً أقسى من ذلك كثيراً ، ولهذا فإنها لم تقبل هذا الشرط فحسب ، بل أصدرت فوق ذلك قرارات تكيل فيها الثناء لهذا الأجممنون الجديد . وعقد فليب فى كورنثة جمعية (سندريون Synderion) من الدول اليونانية ، وألف منها جميعاً (عدا اسپارطة) حلفاً على نظام الحلف البؤوتى ، ورسم الخطوط الرئيسية لخططه التى تهدف إلى تحرير آسية . واختير بالإجماع قائداً عاماً لهذه المغامرة الكبرى ، وتعهدت كل دولة أن تمده بالرجال والسلاح ، ووعدته ألا يحارب يونانى من أى بلد كان فى صفوف أعدائه . وكانت هذه التضحيات كفارة رخيصة للعداء الذى أظهرته هذه المدن من قبل .

ولم تقف النتائج التى تمخضت عنها قيرونيا عند حد . فقد تحققت بها الوحدة التى عجزت عن تحقيقها بلاد اليونان من قبل ، وإن كانت لم تتحقق إلا على ظبا سيف رجل يكاد أن يكون أجنبياً عنها . وكانت الحرب البلوپونيزية قد أثبتت عجز أثينة عن تنظيم هلاس ، وأثبتت الحوادث التى أعقبت هذه الحرب عجز اسبارطة عن هذا التنظيم وعجزت طيبة عن بسط سيادتها على البلاد ، وأنهكت حرب الجيوش والطبقات قوى دول المدائن ، وتركتها ضعيفة عاجزة عن الدفاع عن نفسها . لهذا كان من حسن حظها أن تجد لها فى هذه الظروف فاتحا معقولا يعرض عليها أن ينسحب من ميدان النصر ويترك للمغلوبين قسطا كبيرا من الحرية . والحق أن فليب ومن بعده الإسكندر كانا يحيطان استقلال الدول المتحالفة بحمايتهما ووقايتهما ، حتى لا تضم إحدى هذه الدول غيرها إليها فيكون لها من القوة ماتستطيع به أن تحل بينها محل مقدونية . بيد أن فليب قد سلبها نوعاً غالياً من الحرية — ونعنى به حق الثورة . فقد كان محافظا صريحا ، يرى أن استقرار الملكية حافز لا غنى عنه للإقدام والنشاط ، ودعامة لا بد منها للحكم . ومن أجل هذا حمل المجمع المقدس فى كورنثة على أن يضع بين مواد الحلف عهداً يقطعه المتحالفون على ألا يدخلوا فى الدستور تغييراً ما ، وألا يبدلوا النظم الاجتماعية بحال من الأحوال ، ولا يتورطوا فى الانتقامات السياسية . وكان فى كل ولاية يؤيد بنفوذه المدافعين عن الملكية ، وقضى قضاء تاما على الضرائب الفادحة التى تبلغ درجة مصادرة الأملاك .

وكان قد أحكم وضع خططه كلها إلا ما يختص منها بزوجته أولمبياس Olympias ، ولهذا فإن الذى قرر مصيره آخر الأمر لم يكن هو انتصاره فى ميدان القتال ، بل كان عجزه عن الانتصار على زوجته . ولم يكن يرهب منها أخلاقها وحدة طباعها فحسب ، بل كان يرهب فوق ذلك اشتراكها فى الطقوس الديونيشية الهمجية . وقد وجد فى ذات ليلة أفعى إلى جانبها فى

السرير فارتاع ولم يذهب عنه روعه حتى بعد أن قيل له إن الأفعى إله من الآلهة . وأسوأ من هذا أن أولمبياس أخبرته ذات مرة أنه لم يكن والد الإسكندر الحقيقى ، بل إن صاعقة قد انقضت عليها ليلة زفافهما وأشعلت فيها النار ، وأن الإله العظيم زيوس — أمون هو الذى حملت منه بالأمير المقدام . ونفرت هذه المنافسات المختلفة فليب منها فولى وجهه شطر غيرها من النساء ، وشرعت أولمبياس تثأر لنفسها منه فأخبرت الإسكندر بسر أبوته الإلهية[١٠] . وزاد الطين بلة أن قائداً من قواد فليب يدعى أتلس Atallus طلب أن يشرب نخب ولد فليب المرتقب من زوجة أخرى وقال إنه الوارث « الشرعى » (أى المقدونى لحما ودما) لعرش البلاد . فما كان من الإسكندر إلا أن ضربه بالكأس فى رأسه وصاح قائلا : « وهل أنا إذن ابن زنى ؟ » . واستل فليب سيفه يريد أن يقتل به ولده ولكنه كان ثملا لا يستطيع الوقوف . فضحك منه الإسكندر وقال : « ها هو ذا رجل يستعد للانتقال من أوربا إلى آسية وهو لا يستطيع أن يخطو آمنا من مقعد إلى مقعد » . وبعد بضعة أشهر من ذلك طلب ضابط من ضباط فليب يدعى بوسنياس أن يأخذ له الملك بحقه من أتلس لإهانة لحقت به منه ، فلما لم يجبه الملك إلى طلبه اغتاله (٣٣٦) . وكان الإسكندر محبوباً من الجيش حبا يقرب من العبادة ، وكانت أولمبياس تؤيده(*) فاستولى على أزمة الملك ، وتغلب على كل ما لقيه من مقاومة ، وأخذ يعد العدة لفتح العالم .

(*) وكان يظن أنها هى التى حرضت بوسنياس على قتل فليب .

الباب العشرون

الآداب والفنون فى القرن الرابع

الفصل الأول

الخطباء

كانت الآداب فى أثناء هذا الاضطراب كله ينعكس عليها ما انتاب بلاد اليونان من اضمحلال فى الأخلاق وضعف فى صفات الرجولة . فلم يكن الشعر كما كان من قبل تعبيراً عاطفياً إبداعياً يبتكره الأفراد ، بل أصبح تدريباً ظريفاً وثمرة من نتاج العقول فى الندوات ، وصدى للواجبات والتمارين المدرسية . . نعم إن تموثيوس الملطى كتب ملحمة شعرية ، ولكنها لم تكن توائم عصر الجدل والنقاش ، وظلت بعيدة عن الشعب بُعد موسيقاه فى عهدها الباكر ؛ وظلت المسرحيات تمثل ولكن تمثيلها كان أضعف وأضيق نطاقا من ذى قبل . ذلك إن إقفار خزانة الدولة من المال وضعف الروح الوطنية عند الأثرياء من الأفراد قللا من أقدار الممثلين وأفقداهم ما كان لهم من شأن فى ماضى الأيام . واكتفى كتاب المسرحيات شيئاً فشيئاً بالمقطوعات الموسيقية التى تعزف بين الفصول ولا صلة لها بالمسرحية بدل الأغانى التى تكون جزءاً منها ، واختفى اسم رئيس فرقة المرتلين فلم يعد مما يهتم به النظارة ، ثم اختفى بعدئذ اسم الشاعر نفسه ، ولم يبق إلا اسم الممثل . وبعدت المسرحية بالتدريج عن القصيدة وأضحت شيئاً فشيئاً عرضاً للحوادث التاريخية ، وأصبح العصر كله عصر كبار الممثلين وصغار الكتاب المسرحيين . ذلك أن المأساة اليونانية قد قامت على الدين والأساطير ،

وكانت تتطلب شيئاً من التقى والإيمان عند المستمعين ، ومن أجل هذا كان لا بد أن يضمحل شأنها حين أوشكت شمس الآلهة على الأفول .

وازدهرت الملهاة فى الوقت الذى اضمحلت فيه المأساة ، وانتقل إليها بعض ما كان يتصف به مسرح يوربديز من براعة ، وظرف ، ومادة طيبة ؛ وفقدت هذه الملهاة الوسطى (٤٠٠ — ٣٢٣) حبها للهجاء السياسى وتشجيعها له ، وقت أن كانت السياسة تتطلب « الصديق الصريح » ؛ وليس ببعيد أن يكون هذا الهجاء قد حُرِّم أو أن النظارة قد سئموا السياسة بعد أن أصبح حكام أثينة رجالا من الطراز الثانى . وكان اعتزال الرجل اليونانى بوجه عام الحياة العامة إلى الحياة الخاصة فى القرن الرابع سبباً فى توجيه اهتمامه إلى شئون منزله وقلبه وإغفاله شئون الدولة . وظهرت فى ذلك الوقت الملهاة الأخلاقية ، وأخذ الحب يسيطر على مناظرها ؛ ولم يكن يسيطر عليها دائماً عن طريق الفضيلة ، بل كانت العاهرات يظهرن على خشبة المسرح مع بائعات السمك ، والطهاة والفلاسفة الحيارى . — وإن كان زواج الممثل والكاتب ينقذ شرفهما فى آخر التمثيل : خلت هذه المسرحيات من فحش أرسطوفان ومجونه اللذين كانا سبباً فى خشونة المسرحيات وخلوها من الصقل الجميل ، ولكنها خلت أيضاً من حيويته وخصب خياله . ولدينا أسماء تسعة وثلاثين شاعراً من كتاب الملهاة الوسطى ، وإن لم يكن لدينا شيء من مسرحياتهم ، ولكنا نستطيع أن نحكم من القطع الباقية لدينا أنهم لم يكتبوا شيئاً جديراً بالخلود . وقد كتب ألكسيس الثوريائى (of Thuril) ٢٤٥ مسرحية ، وكتب أنتفانيز Antiphanes ٢٦٠ . لقد ذاع صيتهم فى زمانهم فلما انقضى ذلك العهد أفل نجمهم .

أما الخطباء فكان هذا زمانهم . ذلك أن نهضة الصناعة والتجارة قد حولت عقول الناس إلى الحياة الواقعية والعملية ؛ وأخذت المدارس التى كانت قبل تعلم أشعار هومر تدرب تلاميذها الآن على أساليب البلاغة . ولقد كان

إسيوس (Isaeus ، وليقورغ ، وهيبريديز ، ودمديز Demades ، ودينارکس Deinarchus ، وإسكنيز ، ودمستين كلهم خطباء سياسين ، يتزعمون أحزاباً سياسية ، ويسيطرون ببلاغتهم على عقول الجماهير. وظهر رجال فى سراقوصة فى الفترات التى ساد فيها الحكم الدمقراطى ، أما الدول الدمقراطية فلم تكن تطيقهم ، وكانت لغة الخطباء الأثينيين تمتاز بالوضوح والقوة ، والبعد عن المحسنات اللفظية وكانت تسمو بين الفينة والفينة إلى مراق الوطنية النبيلة ، وتسف إلى المهاترات المنحطة والشتائم القذرة التى لا يسمح بها حتى فى المنازعات الحديثة . وكان ما تتصف به الجمعية الأثينية والمحاكم الشعبية من عدم التجانس فى أعضائها سبباً فى انحطاط فن الخطابة اليونانية ، وحافزاً لها فى الوقت عينه ، وانتقل هذا الأثر بنوعيه عن طريق الخطابة إلى الأدب اليونانى بوجه عام ، فقد كان سرور المواطن الأثينى من سماع الشتائم فى خطب الخطباء لا يكاد يقل عن سروره من مشاهدة مباراة لنيل جائزة ، وإذا عُرف أن مبارزة لفظية ستقوم بين محاربين بالألفاظ مثل إسكنيز ، ودمستين أقبل الناس لسماعهما من القرى النائية والدول الأجنبية ؛ وكان أكثر ما يستثيره الخطباء هو غريزة الكبرياء والهوى . وقد عرّف أفلاطون البلاغة ، وكان يكره الخطابة ويصفها بأنها السم القاتل للدمقراطية ، عرفها بأنها فن حكم الناس باستثارة مشاعرهم وعواطفهم .

وحتى دمستين نفسه ، رغم حيويته وقوة أعصابه ، وسموه فى كثير من الأحيان إلى فقرات تفيض بالحماسة الوطنية ، ورغم هجومه الشديد على الأشخاص هجوماً أخذ يضعف على مر الزمان ، ومهارته فى تعاقب القصص والجدل فى خطبه تعاقباً يريح الأذن ويطرد السآمة ، وما فى لغته من انسجام وتوازن كان يعنى بهما كل العناية ، ورغم تدفقه فى خطبه كالسـيل الجارف ، نقول إن دمستين نفسه رغم هذا كله يبدو لنا أقل قليلا من الخطيب العظيم . وكان يرى أن التمثيل هو سر العظمة الخطابية ، وبلغ من إيمانه بهذا المبدأ أن كان يعيد خطبه مرارا فى كثير من الأناة

ويتلوها على نفسه أمام مرآة ، واحتفر لنفسه كهفاً كان يعيش فيه عدة أشهر ، لايكاد يعلم به أحد. وكان فى مثل هذه الفترات يحلق نصف وجهه ويبقى على النصف الآخر حتى لا تحدثه نفسه بالخروج من مأواه[١] . وكان إذا وقف على منصة الخطابة اتجه بوجهه نحو تمثاله ، ودار يمنة ويسرة ، ووضع يده على جبهته كأنه يفكر ، ورفع صوته فى أغلب الأحيان إلى حد الصراخ[٢] . ويقول فلوطرخس إن هـذا كله «كان يسر العامة كل السرور ، أما المتعلمون أمثال دمتروس الفاليرى (Demetrius of Phalerum) فكانوا يظنون هذا عملاً حقيراً ، مهيناً ، لا يتفق مع الرجولة الحقة» . وإنا لنسر من حركات دمستين المسرحية ، ونعجب بتقديره لنفسه واعتزازه بها ، وتحيرنا استطراداته وتروعنا بذاءته . وليس فى خطبه إلا القليل من الفكاهة والقليل من الفلسفة . ولولا حماسته الوطنية ، وما يبدو من إخلاص فى دعوته الحارة اليائسة إلى الحرية ، لما كان له شأن كبير .

وبلغت الخطابة اليونانية أرقى درجاتها فى عام ٣٣٠ . وكان تسفون Ctesiphon قبل ذلك العام بست سنين قد اقترح على المجلس مبدئياً أن يهدى دمستين تاجاً أو إكليلا من الزهر اعترافاً منه بحسن سياسته ، وبما قدمه للدولة من منح مالية كثيرة . ووافق المجلس على هذا الاقتراح . وأراد إسكنيز أن يحول بين منافسه وبين هذا الشرف العظيم فاتهم تسفون بأنه عرض على المجلس اقتراحاً غير دستورى (وهو اتهام صحيح من الناحية الشكلية) وأجلت القضية المرة بعد المرة ، ثم عرضت أخيراً على هيئة القضاء المؤلفة من خمسمائة من المواطنين . وكانت هذه بطبيعة الحال قضية من أشهر القضايا شهدها كل من استطاع الحضور إلى أثينة مهما بعد موطنه ، ذلك بأن أعظم خطباء أثينة فى ذلك الوقت كان فى واقع الأمر يدافع فيها عن سمعته وعن حياته السياسية . ولم يضع إسكنيز فى مهاجمة تسفون إلا قليلا من الوقت ولكنه وجه هجومه إلى أخلاق دمستين

وسيرته ، ورد عليه دمستين فى خطبة من نوع خطبته هى خطبته الشهيرة المعروفة باسم « فى سبيل التاج » . ونزال نحس فى كل سطر من أسطر الخطبتين بما كان يضطرم فى صدر صاحبيهما من اهتياج شديد ، وحقد فى قلب عدوين التقيا وجهاً لوجه فى ميدان القتال . وكان دمستين يعرف أن الهجوم أفضـــل من الدفاع ، فقال إن فليب قد اختار بوقا له فى أثينة أحط خطبائها وأشدهم فساداً ، ثم أخذ يرسم صورة لحياة إسكنيز يتجلى فيها الحقد بأوضح معانيه فقال :

لا بد لى أن أدلكم على حقيقة هـــذا الرجل الذى يطلق لسانه بالشتائم المقذعة . . . وإلى أى الآباء ينتسب . الفضيلة أيها الوغد الخائن ! . . . ما شأنك أنت أو أسرتك بالفضيلة ؟ ... وبأى حق تتحدث عن التربية والتعليم ؟ . . . هل أقص على الناس كيف كان أبوك عبداً يدير مدرسة أولية قرب هيكل ثسيوس ، وكيف كان مصفداً بالحديد فى ساقه ، وكيف كان حول عنقه طوق من الخشـــب ، وكيف كانت أمك تقيم حفلات الزواج فى مرافق بيت فى وضح النهار ؟ ... لقد كنت تساعد أباك فى كدحه فى مدرسة صغيرة ، تطحن له الخبز ، وتنظف المقاعد بالإسفنج ، وتكنس الحجرة ، وتقوم بعمل الخادم ... ثم سجلت اسمك فى سجل أبرشيتك — وليس فى مقدور أحد أن يعرف كيف استطعت أن تفعل ذلك ، ولكن ما علينا من هذا . — لقد اخترت لنفسك مهنة خليقة بأشرف الرجال المهذبين فكنت كاتباً وموصل رسائل لصغار الموظفين . وبعد أن ارتكبت جميع الجرائم التى تعير غيرك من الناس ، أعفيت من هـــذا العمل . . . والتحقت بخدمة الممثلين الشهيرين سميلس Simylus وسقراط المشهورين باسم « المدمدمين » . ومثلت أدواراً صغيرة تحت إشرافهم ، فكنت تلتقط التين والعنب والزيتون وتعيش على هذه القذائف خيراً مما تعيش من جميع الوقائع التى كنت تخوضها للنجاة من الموت . إن الحرب التى كانت قائمة بينك وبين النظارة لم تكن فيها هدنة أو وقف للقتال ...

وازن إذن يا إسكنيز بين حياتك وحياتى . لقد كنت تعلم مبادئ القراءة وكنت أنا طالباً فى المدرسة ، وكنت أنت راقصاً وكنت أنا رئيس الممثلين ... وكنت كاتباً عمومياً ، وكنت أنا خطيباً عاماً . وكنت ممثلا من الدرجة الثالثة وكنت أنا ممن يشهدون التمثيل . وأخفقت أنت فى تمثيل دورك وسخرت أنا منك بالصفير[٣] .

وكانت هذه خطبة عنيفة ، ولم تكن نموذجاً للترتيب والأدب ولكنها كانت فصيحة اللفظ شديدة الانفعال إلى حد حملت القضاة على أن يبرئوا تسفون بأغلبية خمسة أصوات ضد صوت واحد . وفى العام التالى منحت الجمعية دمستين التاج المتنازع . ولما عجز إسكنيز عن أداء الغرامة التى تفرض حتما على من يعجز عن إثبات جريمة يتهم بها أحد المواطنين ، فر إلى رودس ، حيث أخذ يكسب الكفاف من العيش بتعليم البلاغة . وتقول إحدى الروايات إن دمستين كان يرسل إليه المال ليخفف عنه آلام الفاقة .

الفصل الثاني

إسقراط

وكانت هذه المبارزة فى الخطابة من الموضوعات التى يمجدها ويعنى بدراستها كل جيل من الأجيال اللاحقة، ولكنها فى واقع الأمر تمثل الدرك الأسفل من الانحطاط الذى هوت إليه السياسة الأثينية . ولسنا نرى شيئاً من النبل أو الكرامة فى هذا التنابذ بالشتائم ، وهذا الكفاح الحقير لنيل الثناء من الجماهير ، بين رجلين كان كلاهما يتلقى الذهب الأجنبي فى الخفاء . أما إسقراط فكان أكثر منهما جاذبية إلى حد ما وينتقل فيه إلى القرن الرابع بعض عظمة القرن الخامس . ولد إسقراط فى عام ٤٣٦ ، وعاش حتى عام ٣٣٨ ، ومات حين ماتت الحرية اليونانية . وكان أبوه قد جمع ثروة كبيرة بصنع آلات الناى الموسيقية ، وأتاح لابنه جميع الفرص التعليمية ، ولم يبخل عليه بإرساله لدراسة البلاغة على غورغياس فى تساليا . وقضت حرب البلوبونيز وخطة ألقبيادس على صناعة الناى وذهبتا بثروة الأسرة ؛ فاضطر إسقراط إلى كسب قوته بعرق قلمه . فبدأ بكتابة الخطب لغيره ، وفكر فى أن يكون هو خطيبا ، ولكنه كان خجولا ، ضعيف الصوت ، شديد البغض لسفالة الحياة السياسية ؛ وكان يمقت أشد المقت الزعماء المهرجين الذين سيطروا على الجمعية ، وانزوى وقتا ما فى حياة التعليم الهادئة .

فافتتح فى عام ٣٩١ أعظم مدارس البلاغة نجاحا فى أثينة ، وهرع الطلاب إليها من جميع أنحاء العالم اليونانى ؛ ولعل اختلاف أصولهم ونظراتهم إلى الحياة قد ساعد على تكوين فلسفته الهلينية الجامعة . وكان يظن أن من عداه من المدرسين يسيرون كلهم فى غير الطريق السوى . وقد ندد فى نشرة له ضد السوفسطائيين بالذين يرفعون كل أخرق مأفون إلى فيلسوف نظير دريهمات

معدودة ، والذين يرجون ، كما يرجو أفلاطون ، أن يعدوا الناس لتولى الحكم بتدريبهم فى علوم الطبيعة وما وراء الطبيعة . أما هو فكان يقر بأنه لا يستطيع أن يحصل من الطالب على نتائج طيبة إلا إذا كان هذا الطالب ذا موهبة طبيعية . ولم يكن فى وسعه أن يدرس العلوم الطبيعة أو ما وراء الطبيعة لأنها ، كما يقول ، بحوث لا يرجى منها خير ، فى أمور غامضة لا يمكن الكشف عن خفاياها . ولكنه رغم هذا كان يطلق اسم الفلسفة على ما يعلمه فى مدرسته . وكان منهاج الدراسة يدور حول فنى الكتابة والكلام ، ولكنه كان يدرسهما من حيث صلتهما بالأدب والسياسة[٥] ؛ وكان يدرس للطلاب منهجا ثقافياً ، على حد تعبير هذه الأيام ، يخالف المنهج الرياضى الذى كان يدرس فى مجمع أفلاطون العلمى . وكان الهدف الذى يريد الوصول إليه هو فن الخطابة ، وقد كان هذا الفن فى ذلك الوقت وسيلة التقدم فى الحياة العامة ، لأن الجدل هو الذى كان وقتئذ يحكم الدولة الأثينية . ومن أجل ذلك كان إسقراط يعلم تلاميذه طريقة استعمال الألفاظ ، كيف يضعونها فى أوضح ترتيب ، وفى تتابع منسجم ولكنه غير موزون ، وفى عبارات مصقولة ولكنها غير مزخرفة ، وكيف ينتقل بالأصوات والأفكار انتقالا هادئاً سلساً (*) ، وكيف تكون الجمل متزنة والوقفات كثيرة . وكان من رأيه أن هذا النثر يسر الأذن المهذبة بقدر ما يسرها الشعر . وتخرج فى هذه المدرسة كثيرون من الزعماء فى عصر دمستين : تموثيوس القائد ، وإفورس وثيوبومس المؤرخان ، وإسيوس ، وليقورغ ، وهيبريديز ، وإسكنيز الخطباء ، وإسبيوس خليفة أفلاطون ، وأرسطاطاليس نفسه فى رأى بعضهم[٦] .

(*) مثال ذلك أن إسقراط — وحذا حذوه فى ذلك معظم من جاء بعده من كتاب اليونان — كان يرى أن من الخطأ أن تختتم كلمة بأحد الحروف المتحركة ، ثم تبدأ الكلمة التى تليها بحرف متحرك أيضا .

ولم يكن إسقراط يقنع بتكوين عظماء الرجال ، بل كان يرغب فى أن تكون له يد فى تصريف شئون عصره . وإذ كان عاجزاً عن أن يكون خطيباً أو سياسياً فقد أخذ يؤلف النشرات . فكان يوجه خطباً طويلة لجمهور الأثينيين ، وللزعماء أمثال فليب ، أو لليونان المحتشدين فى ساحات الألعاب اليونانية الجامعة ؛ ولم يكن يلقى هذه الخطب ، بل كان ينشرها ، فابتدع بذلك على غير علم منه المقالة بوصفها فنا من فنون الأدب . وقد بقيت لنا تسع وعشرون من خطبه تعد من أكثر ما بقى من الأدب القديم إمتاعا . وكانت خطبته الأولى العظيمة المعرفة باسم الجمعية العامة أو البانيجركس Panegyricus(*) مفتاح تفكيره كله ، والهدف الذى كان يبتغيه معلمه القديم غورغياس ، وهو دعوة بلاد اليونان إلى نسيان سيادتها الصغيرة والاندماج فى دولة واحدة . وكان إسقراط أثينيا فخورا بموطنه ... « لقد فاقت مدينتنا سائر بلاد العالم فى أفكارها وخطبها حتى أصبح تلاميذها معلمى الدنيا بأجمعها » ، لكنه كان يفخر بيونانيته أكثر من فخره بأثينيته ؛ ولم يكن معنى الهلينستية عنده(**) ، كما لم يكن معناها عند رجال العصر الهلينستى ، هو الانتساب إلى جنس بعينه ، بل كان معناها الاشتراك فى ثقافة بعينها ؛ وكان يشعر بأن هذه الثقافة هى أرقى ثقافة ابتدعها الإنسان فى أى بلد من بلاد العالم(٧) ؛ وكان « البرابرة » يحيطون بهذه الثقافة من جميع الجهات — فى إيطاليا ، وصقلية ، وإفريقية ، وآسية ، والبلاد المعروفة لنا الآن باسم بلاد البلقان » وكان يحزنه ويقض مضجعه أن يرى هؤلاء البرابرة يزيدون كل يوم قوة ، وأن يرى بلاد الفرس تقوى سيطرتها على أيونية ، على حين أن الدولة اليونانية كانت تقضى على نفسها بحروبها الداخلية .

(*) سميت كذلك لأنها كانت موجهة إلى البانيجيريس أو الجمعية العامة (بان - أجورا Pan-agora) اليونانية فى الدورة الأولمبية المائة .

(**) الهلينستية هى الاصطباغ بالصبغة اليونانية فى غير بلاد اليونان الأصلية . (المترجم)

« ما أكثر الشرور التي تلازم الطبيعة البشرية ؛ ولكننا نحن قد اخترعنا من أكثر الشرور التي تفرضها علينا الطبيعة ، بإثارة الحروب والانقسامات الداخلية . . . ولم يقم أحد قط بمقارنة هذه الشرور ، والناس لا يستحيون أن يبكوا من الكوارث التي اصطنعها الشعراء ، على حين أنهم ينظرون بعين الرضا إلى ما تؤدى إليه الحرب القائمة بيننا من آلام حقه ، وكوارث لاحصر لها . وهم لا يشفقون منها ، بل إنهم ليبتهجون مما يصيب غيرهم من الأحزان أكثر من ابتهاجهم بما ينالون من النعم »[8] .

وكان يقول إنه إذا كان لا بد لليونان أن يقاتلوا فلم لا يقاتلون عدوا حقيقيا ؟ لم لا يطردون الفرس إلى هضابهم ؟ ويتنبأ بأن شرذمة قليلة من اليونان تستطيع أن تهزم جيشا كبيراً من الفرس[9] ، وقد توحد حرب مقدسة من هذا النوع بلاد اليونان فى آخر الأمر ، ولم يكن أمام اليونان إلا واحدة من اثنتين فإما وحدة اليونان وإما انتصار البرابرة ولا ثالثة لها .

واعتزم إسقراط أن يحقق نظريته هذه عمليا ، فأخذ يطوف ببحر إيجه بعد عامين من نشر هذه الدعوة (٣٧٨) وبصحبته تلميــذه السابق تموثيوس ، وساعد على وضع شروط الحلف الأثينى الثانى . وكان ما تعاقب على هذا الأمل الجديد فى الوحدة من قوة تارة وخيبة تارة أخرى من أشد الآلام الكثيرة التى منى بها فى حياته الطويلة . فأخذ يقرع أثينة فى نشرته القوية الجريئة « فى السلم » لأنها أفسدت الحلف مرة أخرى فحولته إلى إمبراطورية ، وأهاب بها أن توقع صلحا يؤمن كل دولة يونانية من أن تعتدى عليها أثينة مرة أخرى : « إن ما تسميه إمبراطورية لهو فى الحقيقة كارثة ، لأنها بطبيعة تكوينها تفسد كل من له صلة بها[10] » . ومن أقواله أن الاستعمار قد قضى على الدمقراطية لأنه علم الأثينيين أن يعيشوا على الجزية الأجنبية ، فلما خسروا هذه الجزية أرادوا أن يعيشوا على

الإعانات التى تقدمها لهم الدولة ، ورفعوا إلى أعلى المناصب من وعدوهم بأكبر معونة

« إنكم حين تتناقشون فى أعمال الدولة ترتابون فى أصحاب الذكاء الفائق ولا تحبونهم ، وترفعون بدلا منهم أخطر من يتقدم إليكم من الخطباء . . . إنكم تفضلون السكارى عمن لا يتعاطون الخمر ، ومن لا عقل لهم عن الحكماء ، ومن يبددون أموال الدولة عمن يؤدون الخدمات العامة وينفقون عليها من مالهم الخاص [١١] » .

وكان أخف من هذا وطأة على الدمقراطية فى خطابه الثانى المسمى الأريوبجستس . ويقول فى إحدى فقراته التى تصدق على كل زمان : « إنا لنجتمع فى حوانيتنا نندد بالنظام الحاضر ، ولكننا نرى أن الدمقراطيات الفاسدة النظام نفسها تسبب من الكوارث أقل مما تسببه الألجركية [١٢] » ؛ ويتساءل ، ألم تكن سيادة اسپارطة على بلاد اليونان أسوأ من سيادة أثينة ؟ « ألم نصبح نحن جميعاً بفضل جنون « الثلاثين » أشد تحمساً للديمقراطية من من الذين احتلوا فيلى(*) ؟ » [١٣] ولكن أثينة قد قضت على نفسها بتجاوز الحد فى الأخذ بمبدأ الحرية والمساواة ، و « بتدريب المواطنين تدريباً يجعلهم يعدون الوقاحة دمقراطية ، والخروج على القانون حرية ، والسفاهة فى القول مساواة ، وقدرتهم على أن يفعلوا كل ما يشاءون سعادة » [١٤] . « ليس الناس كلهم أكفاء ، ويجب ألا يكونوا كلهم أكفاء ، فى تولى المناصب العامة » . وكان يشعر أن نظام القرعة قد نزل بمستوى الحكم الأثينى إلى الدرك الأسفل ، وأدى إلى أوخم العواقب . ويقول إن خيراً من « حكم الغوغاء » هذا « حكم الملاك » الذى كان يدعو إليه صولون وكليسثنيز لأن الجهل المحبب للناس ، والفصاحة التى تبتاع بالمال ، تقل أمامهما فرص

(*) ثرازيبولس ، وأنيتوس ، وغيرهما عن أعادوا الدمقراطية فى عام ٤٠٤ .

الارتقاء إلى مراتب الزعامة ؛ ولأن القادرين من الناس يرقون رقياً طبيعياً إلى أعلى المناصب ، فإذا تلقفهم الأريوبجس بعد فترة توليهم مناصبهم ، أصبحوا من تلقاء أنفسهم عقل الدولة الناضج .

ولما عقدت أثينة الصلح مع فليب فى عام ٣٤٦ ، وكان إسقراط وقتئذ فى سن التسعين ، وجه إلى الملك المقدونى خطاباً مفتوحاً . وقد هداه تفكيره إلى أن فليب سيفرض سيادته على بلاد اليونان فتوسل إليه ألا يستخدم سلطانه كما يستخدم المستبدون سلطانهم ، بل يستعين به على جمع شمل اليونان المستقلين وتوجيههم إلى حرب يحررون بها بلادهم من « صلح الملك » ، وتحرير أيونيا من حكم الفرس ، وأخذ حزب الحرب يطعن فى هذا الخطاب ويصفه بأنه استسلام للطغيان ، وظل إسقراط سبع سنين ممسكا بقلمه يرد به على هذه التهمة . ثم كتب خطبة أخرى فى عام ٣٣٩ موجهاً الخطاب إلى اليونان الذين اجتمعوا لمشاهدة الألعاب الأثينية الجامعة . وكانت « الخطبة الأثينيه الجامعة (اليان أثنيكس Panathenaicus تكراراً ضعيفاً مسهباً لخطبة الجمعية العامة . فنحن نحس أسلوبها يرتجف فى يد الشيخ الطاعن فى السن ، ولكنها مع ذلك عمل عجيب من رجل لا تنقص سنه عن قرن كامل إلا ثلاث سنين . وفى عام ٣٣٨ دارت معركة قيرونية وهزمت فيها أثينة ، ولكن ما كان يحلم به إسقراط من وحدة بلاد اليونان أوشك أن يتحقق . وتقول إحدى الروايات اليونانية التى ذاعت بعدئذ إنه لما بلغه الخبر لم يفكر فى فليب أو فى الوحدة ، بل كان تفكيره كله فى مدينته التى ذلت ، وفى أيام مجدها التى ولت ؛ وإنه بعد أن بلغ ثمانية وتسعين عاماً وبلغ من العمر كفايته أمات نفسه جوعاً[١٥] . ولسنا نعرف هل هذه القصة صادقة أو كاذبة ، ولكن أرسطاطاليس يحدثنا بأن إسقراط مات قبل أن تمضى على قيرونية خمسة أيام .

الفصل الثالث

أكسانوفون

إذا كان أثر « الشيخ الفصيح » فى ساسة عصره قابلا للشك ، فإن أثره فى الأدب كان أثراً عاجلا وخالداً(*) . وكان المؤرخون أول من أحسوا به ، فلقد قلده أكسانوفون وغيره من المؤرخين فى الصورة التى رسمها لإفجروس Evagoras(**) ، وأصبحت السير من بعده فناً شائعاً من فنون الأدب اليونانى ، بلغت غايتها فى روائع فلوطرخس الثرثارة . وقد عهد إسقراط إلى تلميذ من تلاميذه يدعى إفورس Ephorus أن يضع تاريخاً عاماً لبلاد اليونان — لا يؤرخ حوادث دولة واحدة من دوله بل يؤرخ لبلاد اليونان بوجه عام . وقام إفورس بما عهد إليه خير قيام وأجاده إجادة حملت معاصريه على أن يضعوا كتابه « التاريخ العام » فى مستوى كتاب هيرودوت . وخص إسقراط تلميذاً آخر هو ثيوبمبس الطشيوزى بتأريخ الحوادث القريبة العهد ، فصدع ثيوبمبس بالأمر ووصف هذه الحوادث فى كتابيه الهلينيكا والفليبيكا وهما مؤلفان رائعان يمتازان بحيويتهما وعباراتهما اللاذعة ، وحازا إعجاب معاصريه . وكتب دسياركس Dicaearchus المسانى (of Messana) حوالى عام ٣٤٠ تاريخاً للحضارة اليونانية عنوانه حياة اليونان (Bios Hellados) ألا ما أقدم هذه المغامرة التى أقدمنا نحن عليها ، وما أعظم الشبه بين ذلك العمل القديم وعملنا هذا الذى يتفق معه حتى فى الاسم .

ولم يخلد من مؤرخى القرن الرابع أحد غير أكسانوفون . ويصفه ديوجانس ليرتيوس فى شبابه بقوله :

(*) لقد بنى شيشرون وملتن ، وماسيون ، وجرمى تيلر ، وإدمند بيرك أسلوبهم النثرى على الجمل المتزنة الطويلة التى هى من خصائص أسلوب إسقراط .

(**) الطاغية المستنير الذى أدخل الثقافة اليونانية فى قبرص ٤١٠ — ٣٨٧ .

كان أكسانوفون رجلا شديد التواضع ، وسيما كأعظم ما يتصور الإنسان الوسامة ؛ ويقال إن سقراط التقى به فى حارة ضيقة فسد عليه مدخلها بعصاه ، ومنعه أن يخرج منها ، وأخذ يسأله عن الأماكن التى تباع فيها كثير من ضرورات الحياة . فلما أجابه أكسانوفون عن أسئلته سأله من جديد أين يصنع الرجال الطيبون الأفاضل ؟ ولما عجز أكسانوفون عن الإجابة قال له سقراط : « اتبعنى إذن وتعلم منى » وأصبح أكسانوفون من ذلك الوقت أحد أتباع سقراط(١٧) .

وكان أشد تلاميذه ميلا إلى الفلسفة العملية ، وكان يعجبه فى سقراط قوة حيلته الجدلية ويرى أنه قديس فيلسوف . ولكنه كان يعجب بالعمل كما يعجب بالتفكير ، ولذلك صار جندياً مغامراً على حين أن غيره من رجال العلم كانوا كما يقول فيهم أرسطوفان مستهزئاً « يقيسون الهواء »(١٨)

وخدم وهو فى سن الثلاثين أو ما يقرب منها فى جيش قورش الأصغر وحارب فى كونكسا وقاد العشرة الآلاف إلى النجاة . وفى بيزنطية انضم إلى الاسپارطيين فى حربهم ضد الفرس وأسَر ميدياً غنيا ، وقبل مبلغاً كبيراً من المال فدية له ، وعاش من هذا المال بقية أيام حياته ، وأصبح بعد تلك الحرب صديقاً لأجسلوس ملك اسپارطة ، وأعجب به ، وترجم له ترجمة تدل على هذا الإعجاب ، وعاد إلى بلاد اليونان مع أجسلوس بعد أن أعلنت أثينة الحرب على اسپارطة ، وآثر الولاء له على الولاء لمدينته ؛ فلم يكن من أثينة إلا أن أعلنت نفيه وصادرت أملاكه ؛ وحارب فى صفوف اللسديمونيين فى قورونية وكوفئ على هذا بضيعة فى سلس Scilus من أعمال إيليس Elis ، وكانت وقتئذ تحت سيطرة اسپارطة ، وقضى فيها عشرين عاماً يعيش عيشة سادات الريف ، يزرع ويصطاد ، ويكتب ، ويربى أولاده تربية صارمة على الطريقة الاسپارطية(١٩) :

ونحن مدينون بنفيه إلى كتبه المختلفة التى رفعته إلى المقام الأول بين المؤلفين فى زمانه . وكان يكتب ، إذا حلت له الكتابة ، فى تذليل الكلاب ، وترويض

الخيـــل ، وتدريب الزوجة ، وتربية الأمراء ، والحرب إلى جانب أجسلوس ، أو جباية المال لأثينة . وقد قص فى الآباباسيس بأسلوبه العذب السائغ أسلوب الرجل الذى شاهد الأعمال التى يصفها أو اشترك بنفسه فيها ، قص فى هذا الكتاب قصة مسير العشرة الآلاف إلى البحر ، وهى القصة المثيرة التى لا سند لها غيره . وفى كتابه الهلينيكا واصل قصة بلاد اليونان من حيث انتهى توكيديدس ، إلى واقعة منتينيا التى قتل فيها ولده جريس وهو يحارب ببسالة بعد أن قتل بيده أپامينونداس . والكتاب فى حد ذاته سرد ممل للحوادث يدل على أن كاتبه يفهم التاريخ على أنه سلسلة لا نهاية لها من الوقائع الحربية ، وسرد الانتصارات والهزائم ، ومحاولة غير مجدية لتعليلها منطقياً . والأسلوب قوى ، والشخصيات واضحة ، لكن الحوادث قد أحسن اختيارها لكى تثبت تفوق الأساليب الاسپارطة . وفى كتاب أكسانوفون تعود الخرافات التى كانت قد اختفت من التاريخ فى كتاب توكيديدز ، وهو يستند إلى القوى غير الطبيعية ليفسر بها سير الحوادث . ويمثل السذاجة و هذا النفاق تحيل الموراپيليا سقراط إنساناً كاملا إلى حد لا يصدقه عقل سليم ، فهو مستمسك بالدين القويم ، والأخلاق الفاضلة ، والحب العذرى ؛ وقصارى القول أنه مكمل فى كل شىء إذا استثنينا احتقاره للدمقراطية ، ذلك الاحتقار الذى حببه إلى قلب أكسانوفون الطريد . وكتابه « المائدة » أقل من هذا الكتاب الأخير جدارة بالثقة . وهو ينقل حديثاً يزعم أنه دار حين كان لا يزال أكسانوفون طفلا .

أما فى الإكونمكس Oeconomicus فإن أكسانوفون يتحدث فى الميدان الذى يحق له أن يتحدث فيه ، ويكشف عن نزعته التحفظية بصراحة تسحر عقولنا على الرغم منا . لقد كان أكسانوفون خبيراً فى الزراعة ، وشاهد ذلك أنه لما طلب إلى سقراط أن يعلم فنونها أقر فى كثير من التواضع بجهله ، ولكنه ذكر نصيحة المالك الثرى إسكوماكس Ischomachus والمثل الذى ضربه للناس بنفسه . ويجهر إسكوماكس هذا باحتقار أكسانوفون لكل عمل

هذا الزراعة والحرب ، ولا يكتفى بشرح أسرار النجاح فى الأعمال الزراعية ، بل يشرح معها فن إدارة الرجل أملاكه وأملاك زوجته . ويحدثنا إسكوماكس فى أسلوب لا يكاد يقل رشاقة عن أسلوب أفلاطون كيف علم عروسه أن تعنى بمنزلها ، وتضع كل شىء فى مكانه ، وتسوس خدمها بالرفق من غير أن تختلط بهم وتفقد منزلتها فى أعينهم ، وتشتهر بين الناس لا بجمالها المصطنع ، بل بإخلاصها فى أداء واجباتها بوصف كونها زوجة ، وأما ، وصديقة . والزواج فى رأى إسكوماكس — أكسانوفون رابطة اقتصادية وجسمية معاً ، وهو يضمحل حين يقوم الشريك الصامت بالعمل كله . ولعل حديثه عن استعداد الزوجة الشابة لقبول هذا كله لا يعدو أن يكون أمنية يتمناها ذلك القائد الذى لم ينل نصراً ما فى ميدان البيت ؛ ولكننا لا يمنعنا مانع من أن نصدق كل شىء فى القصة إلا أن إسكوماكس قد استطاع فى لحظة وجيزة أن يقنع زوجته بترك المساحيق والأصباغ الحمراء[٢٠] .

وبعد أن شرح أكسانوفون فن الزواج أخذ يصف فى القيروبيديا (أى تربية قورش) مثله العليا فى التعليم والحكم ، كأنه يرد بها على آراء أفلاطون فى الجمهورية . وكان أكسانوفون بارعاً فى تكييف السير الخرافية لخدمة الفلسفة ، فأخذ يروى قصة خيالية عن تعليم قورش الأكبر ، وحياته ، ونظامه الإدارى ؛ وهو يجعل القصة شخصية مسرحية ، ويبعث فيها الحياة بحواره ، ويجملها بما يدخله فيها من أقدم قصص الحب فى الآداب التى كانت موجودة فى زمانه . ويكاد يغفل فى كتابه التربية الثقافية ، ويركز اهتمامه فى كيفية جعل الغلام صحيح الجسم ، قادراً ، شريفاً ؛ فالصبى يتعلم الألعاب الرياضية الخلقية بالرجال ، وفنون الحرب ، وعادة الصمت والطاعة ، ويتعلم أخيراً كيف يسيطر على مرؤوسيه سيطرة قوية قائمة على الإقناع . ويرى أكسانوفون أن خير أنواع الحكم هو الحكم الملكى المستنير الذى تؤيده وتحد منه أرستقراطية متخصصة فى الأعمال الزراعية والشئون الحربية . وهو يعجب بقوانين الفرس التى تقضى بمكافأة المحسن وعقاب المسىء[٢١] ،

ويقول لليونان ذوى النزعة الفردية: إن من المستطاع ضم كثير من المدن والدول فى إمبراطورية واحدة تستمتع بالنظام والسلم فى الداخل ، ويضرب لهم بلاد الفرس مثلا . ولقد بدأ أكسانوفون كما بدأ فليب وهو يحلم بالفتح وبسطة الملك ، وينتهى كما انتهى الإسكندر أسير حب الشعوب التى فكر فى التغلب عليها .

وهو قصاص بارع ، ولكنه فيلسوف وسط . وهو هاو فى كل شىء عدا الحرب ، يبحث فى مائة موضوع وموضوع ، ولكنه يبحث فيها على الدوام بعقلية العسكرى . وهو يبالغ فى مزايا النظام ، ولا يجد كلمة يقولها عن الحرية ؛ وفى مقدورنا أن نستدل من هذا على مقدار ما بلغه الاضطراب فى أثينة . وإذا كان القدماء قد وضعوه فى مرتبة هيرودوت وثوكيديديز ، فذلك راجع من غير شك إلى أسلوبه الذى يمتاز بصفائه الأتكى الساحر الطلى ، ونثره السلس المتدفق المنسجم الذى وصفه شيشرون بأنه « أحلى من الشهد[23] » ، وإلى اللمحات الشخصية التى تكسب الموضوع حياة وإنسانية ، وإلى لغته ذات البساطة والقافة التى تمكن القارئ أن يرى من خلال هذا الوسط الصافى الرأى أو الموضوع الذى يعالجه الكاتب . وإن الصلة التى بين أكسانوفون وأفلاطون من جهة وثوكيديدس وسقراط من جهة أخرى لشبيهة كل الشبه بالصلة التى بين أبليز وبركستليز من ناحية وپلجنوتس من الناحية الأخرى ... فقد بلغت أناقة الأسلوب والمهارة الفنية على أيديهما أعلى منزلتهما بعد عصر من الابتكار فى التفكير وقوة الأسلوب *

الفصل الرابع

أبليز

إن الذى بلغ فيه القرن الرابع إلى الذروة لم يكن الأدب بل الفلسفة والفن ؛ ذلك أن الفرد قد تحرر فيه ؛ كما تحرر فى السياسة ، من المعبد ومن الدولة ، ومن التقاليد ومن المدرسة . فلما أن حل الولاء الفردى محل الإخلاص الوطنى ، نزل فن العمارة إلى الدرجة الوسطى ، وازداد طابعه الدنيوى شيئاً فشيئاً ، واضمحل شأن تمثيليات الموسيقى والرقص وحل محلها تمثيل يقوم به أفراد محترفون ، وظل التصوير والنحت يزينان المبانى العامة بصور طرز من الآلهة أو النبلاء ، ولكنهما فى الوقت ذاته دخلا فى خدمة الأفراد الأحياء وشرعا يصورانهم حتى أصبح هذا طابع العصر الذى أعقب ذلك القرن . وإذا كانت بعض المدن قد ظلت تناصر الفن مناصرة قومية واسعة النطاق ، فما ذلك إلا لأنها كانت كمدائن تيدس ، وهليكرنسس ، وإفسوس لم تجتحها الحرب اجتياحاً تاماً ؛ أو كسراقوصة قد وجدت فى مواردها الطبيعية ونظام حكمها وسائل الانتعاش العاجل .

وأما فن العمارة فى أرض اليونان الأصلية فقد كان فى ذلك الوقت واقفاً يترقب لا يتقدم ولا يتأخر وإن كانت قد شيدت فيه بعض العمائر . من ذلك أن ليقورغ جدد فى عام ٣٣٨ بناء ملهى ديونيشيوس ، وساحة الألعاب ، واللوقيون ، وشاد فيلون بإشرافه دار صنعة كبيرة رائعة فى بيرية . ولما أن ازداد ميل الناس إلى الرقة والدقة فى البناء فقد الطراز الدورى جدته وانصرف الناس عنه ، لأن بساطته الصارمة لم تعد تستجيب لها النفس ، وارتفع شأن الطراز الأيونى وازداد انتشاراً ، وكان هذا فى الفن يقابل طرف بركستليز فى النحت وسحر أفلاطون فى الأدب . وأنشئ على الطراز الكورنثى « برج الرياح »

والنصب التذكارى للتمثيل فى لسكرتيز Lysicartes : وشاد أسكوپاس Scopas فى تيجيا Tegea الأركادية هيكلا لأثينا جمع فيه بين الطرز الثلاثة، فكانت فيه مجموعة من العمد الدورية ، وأخرى أيونية ، وثالثة كورنثية[٢٣] ، ثم جمله بالتماثيل نحتها بيده الصناع العضلية .

وكان التمثال الثالث المقام لأرتميس فى إفسوس أكبر من هذا وأعظم شهرة ؛ وكان التمثال الثانى قد احترق يوم ولد الإسكندر فى عام ٣٥٦ ؛ وتلك مصادفة يقول عنها فلوطرخس بظرفه المعهود إلى هجسياس المغنيزى Hegesias of Magnesia « اتخذها سبباً لغرور بلغ من البرودة حداً يكفى لإخماد النار[٢٤] » . وسرعان ما بدئ بإقامة البناء الثانى ، ولم ينته ذلك القرن حتى كان البناء قد تم . وعرض الإسكندر أن يتحمل جميع نفقات المبنى كلها إذا نقش اسمه على هذا الصرح ، وقيل إنه أقيم من ماله ؛ ولكن يونان إفسوس أبت عليهم عزة نفسهم أن يقبلوا هذا العرض ، وكانت حجتهم فى رفضه حجة لا تستطاع مقاومتها (أو لعلهم أرادوا بها هجو الإسكندر والسخرية منه) وهى أنه « لا يليق أن ينشئ إله هيكلا لإله آخر[٢٥] » . غير أن الذى حدث رغم هذا أن مهندس الإسكندر المقرب إليه هو الذى رسم مبنى الهيكل وجعله أكبر هياكل هلاس على الإطلاق . وقام عدد من المثالين بعمل النقوش القليلة البروز على ستة وثلاثين عموداً ، وكان من بينهم اسكوپاس الذى نرى له نقوشاً فى كل مكان فى بلاد اليونان . وفى المتحف البريطانى صفحة من أحد هذه العمد ، نحتت عليها تماثيل ، وكأنها قد قاومت عوادى الزمان لكى تثبت بها عليها من تصوير للثياب دون غيره أن فن النحت اليونانى لا يزال قريباً جداً من ذروته . وليست رؤوس التماثيل جامدة نحتت على غرار طرز حددتها التقاليد والأجيال الطوال ، ولكنها تمثل وجوها لأفراد تنبض بالشعور والمميزات الخلقية — وتبشر بالواقعية الهلنستية .

وفى الأحجام الصغيرة امتاز القرن الرابع بالتماثيل الصغيرة المصنوعة من

الأجر المحروق . وقد أضحى اسم تنجارا البؤوتية Boeotiam Tangara مرادفاً للتماثيل الصغيرة المصنوعة من الصلصال المحروق غير المزجج المصبوب على غرار طرز عامة ، ولكنه يُشكل ويلون باليد فتخرج منه آلاف من الصور الفردية التى تنبعث فيها ألوان الحياة العامة على اختلاف أشكالها . وكان يلجأ إلى التصوير فى هذا القرن كما كان يلجأ إليه فى القرون السابقة له لمساعدة غيره من الفنون . غير أنه قد أصبحت له وقتئذ كرامة ومنزلة مستقلة ، وأضحى أساتذته يستدعون لأداء أعمال فنية فى جميع أنحاء العالم اليونانى . وكان بمفيلس الأمفبلوسى Pamphilus Amphipolis معلم أپلیز يرفض أى تلميذ لا يبقى عنده اثنتى عشرة سنة كاملة ، وكان يطلب ما يعادل ستة آلاف ريال أمريكى لتدريس المنهج . وقد أدى ناسونMnason طاغية إلاتيه اللكرية Locrian Elatea عشر مينات أجراً عن كل صورة من المائة الصورة فى منظر واقعة حربية رسمه أرستيديز الطيبى ، وبذلك حصل هذا الرسام على مائة ألف ريال أمريكى أجراً لرسم منظر واحد وهذا الطاغية المتحمس نفسه وهب اسكلپيودورس ما يعادل ٣٦٠٫٠٠٠ ريال أمريكى أجراً للوحة صور عليها الاثنا عشر الكبار من الآلهة الأولمبية . ودفع ما يعادل ١٢٫٠٠٠ ريال أمريكى ثمناً لنسخة ثانية من الصور الملونة التى رسمها پوسياس السشيونى لجلسيرا عشيقة مناندر[٢٦] . ويقول پلنى إن صورة من عمل أپليز كانت تباع بثمن يعادل ما فى خزائن مدائن بأجمعها[٢٧]

ويقول هذا الهاوى المتحمس نفسه أن « أپليز القوسى فاق كل من عداه من المصورين السابقين واللاحقين ، فإنه بمفرده أفاد فن التصوير كما لم يفده جميع المصورين مجتمعين[٢٨] » . وما من شك فى أن أپليز كان أعظم أهل فنه وأهل زمانه ، ولولا ذلك لما استطاع أن يسرف هذا الإسراف النادر فى مدح غيره من المصورين ؛ من ذلك أنه لما علم أن پروتجنيز أكبر منافسيه يعيش فى فقر مدقع ، سافر إلى رودس لزيارته . ولم يكن پروتجنيز فى مرسمه حين أقبل أپليز

لأن أحداً لم ينبئه بهذه الزيارة . وقابلت الزائر خادم عجوز وسألته عن اسمه لتبلغه إلى سيدها بعد أن يعود . فما كان جواب أپليز إلا أن أخذ فرشاة ورسم على لوحة إطارا غاية في الدقة بجرة واحدة . ولما عاد پروتجنيز وأخبرته الخادم العجوز أنها تأسف لأنها لا تستطيع أن تخبره باسم زائره ، ثم اطلع على الأطار وشاهد دقته ، صاح قائلا : « إن أحداً لا يستطيع رسم هذا الإطار إلا أپليز » . ثم رسم في داخله إطاراً أدق منه وأمر المرأة أن تطلع عليه الزائر الغريب إذا عاد ، وعاد أپليز فعلا ودهش من حذق پروتجنيز الغائب ؛ ولكنه رسم بين الإطارين إطاراً ثالثاً بلغ من الرقة والرشاقة حداً لم يسع پروتجنيز معه حين رآه إلا أن يعترف أن منافسه قد غلبه ، ثم أسرع إلى الميناء ليستبقي أپليز ويرحب به . وانتقلت هذه الآية الفنية من جيل إلى جيل حتى اشتراها يوليوس قيصر ، ثم احترقت في النار التي دمرت قصره القائم على تل البلاتين . وتاقت نفس أپليز إلى أن يوقظ في العالم اليوناني الاهتمام بپروتجنيز وتقدير قيمته فسأله أن يخبره كم من المال يطلب ثمناً لبعض رسومه ؛ ولما طلب پروتجنيز مبلغاً متواضعاً عرض عليه أپليز بدلا منه خمسين وزنة (٣٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكي) ، ثم أذاع أنه سيبيع هذه الرسوم زاعماً أنها من صنع يده . وكان هذا الإعلان سبباً في أن أهل رودس قدروا عمل فنانهم خيراً من ذي قبل فدفعوا إلى پروتجنيز أكثر مما عرضه عليه أپليز واحتفظوا بالصور بين كنوز مدينتهم[٢٩].

وكان أپليز في هذه الأثناء قد نال إعجاب العالم اليوناني كله بصورة أفرديتي أنديوميني Aphrodite Anadyomene أي أفروديتي الخارجة من البحر . وأرسل الإسكندر في طلبه وعرض عليه أن يرسمه في مواقف كثيرة . ولم تعجب الشاب الفاتح صورة لجواده بسفالس Bucephalies في أحد هذه الرسوم ، وأمر بأن يقرب الجواد من الصورة ليوازن بينه وبينها ، فلما نظر الجواد إلى صورته صهل ، فقال أپليز للإسكندر « يلوح أن جواد

جلالتك يعرف عن التصوير أكثر مما تعرف »[٣٠] . وكان الملك فى مرة أخرى يتحدث عن الفن فى رسم أبليز ، فرجاه الفنان أن ينتقل إلى موضوع آخر حتى لا يسخر منه الغلمان الذين يسحقون الألوان ، ولم يغضب الإسكندر من هذا القول . ولما أن استخدم الفنان فى تصوير حظيته المحبوبة ، وشغف بها أبليز أهداها إليه الملك[٣١] . وكان أبليز يغطى صوره بعد الفراغ منها بطبقة رقيقة من الطلاء ، تحفظ الألوان ، وتخفف من بريقها ولكنها تجعلها أكثر بهجة وإمتاعاً من ذى قبل . وظل أبليز يعمل إلى آخر أيامه ووافته المنية وهو يعمل مرة أخرى فى تخطيط صورة أفروديتى الخالدة .

الفصل الخامس

پركستليز

وكانت خير آيات النحت فى ذلك العصر وأعظمها روعة هى الضريح الذى أقيم لموسولوس Mausolus ملك هليكرنسس. وكان موسولوس مرزبانا من مرازبة الفرس بالاسم ، ولكنه بسط سلطانه على كاريا Caria وأجزاء من أيونيا وليشيا Lyocia، واستخدم موارده الكثيرة فى إنشاء أسطوله وتجميل عاصمته . ولما مات (٣٥٣) أقامت أخته وهى أيضا زوجته مباراة شهيرة فى الخطابة تكريما له ، واستدعت أشهر الفنانين اليونان ليشتركوا فى إقامة ضريح يكون تذكاراً جديراً بعبقريته . وكانت ملكة بطبعها كما كانت بزواجها . ولما أن اغتنم أهل رودس فرصة موت الملك وغزوا كاريا غلبتهم بحيلها واستولت على أسطولهم وعاصمة بلادهم ، وما لبثت أن أملت شروطها على أولئك التجار الأثرياء[٣٢] . ولكن حزنها على وفاة موسولوس هد ركنها فلم تعش بعده أكثر من عامين ، قبل أن يتم الضريح الذى صار فيما بعد حديث الناس كلهم فى بلاد الغرب . وكان اسكوپاس ، وليوكاريز Leochares ، وبريكسيس Bryaxis ، وتمثيوس يعملون فى جد وأناة لإقامة ضريح رباعى الشكل من ألواح من الرخام الأبيض فوق قاعدة من الآجر ، ويغطونه بسقف هرمى ، ويزينونه بستة وثلاثين عموداً ، وبطائفة كبيرة من التماثيل الصغيرة والنقوش . وقد عثر الإنجليز فى خرائب هليكرنسس عام ١٨٥٧ على تمثال لموسولوس يمثل مرة أخرى كفاح اليونان مع المحاربات الخرافيات الأمزونيات . وبعد هذا النقش وما فيه من رجال

(*) وهما الآن المتحف البريطانى .

ونساء وجياد من أعظم روائع العالم كله فى النقش القليل البروز وليست الأمزونيات التى به نساء مسترجلات خلقن للحرب ، بل هن نساء ذوات جمال شهوانى ، ما أخلقهن بأن يثرن فى اليونان عواطف أرق من عاطفة الحرب. وقد أضحى هذا الضريح هو وهيكل إفسوس الثالث من عجائب العالم السبع .

وبلغ فن النحت وقتئذ ذروة مجده من نواح كثيرة . نعم إنه كان ينقصه الحافز الدينى ، ولم يبلغ ما بلغته قواصر البرثنون من جلال وقوة ، ولكنه استمد إلهاما جديدا من الرشاقة النسوية ، وبلغ من الجمال ما لم يبلغه ذلك الفن قبل هذا الوقت أو بعده . لقد صور القرن الخامس رجالا عراة ، ونساء مكتسيات ، أما القرن الرابع فقد آثر أن ينحت نساء عاريات ورجالا مكتسين ؛ وجعل القرن الخامس نماذجه مثلا عليا يحتذى الفنانون حذوها ولا يحيدون عنها ، وصبوا أو نحتوا حياة الإنسان الشقية فى صورة خلائق مجردين من العواطف يستريحون من عناء تلك الحياة وشئونها ؛ أما القرن الرابع فقد حاول فنانوه أن يمثلوا فى الحجر شيئاً من الفردية والإحساسات البشرية . وأضحت للرأس والوجه فى صور الرجال أهمية أكثر مما كان لها من قبل ، وقلت أهمية الجسم نفسه ، وحلت دراسة الأخلاق محل عبادة القوة العضلية ، وتسابق كل من كان ذا مال على أن تكون له صورة من حجر ؛ وتحرر الجسم من وضعه الجامد المعتدل ، وصار يتكئ مستريحا على عصا أو شجرة ؛ ومُثل فيه التفاعل الحى للضوء والظل . وقد بلغ من حرص ليسستراتس السكيونى على أن يكون واقعياً إلى أقصى حد ، أن كان يعمل غلافا من الجص فوق وجه الشخص المراد تصويره ، ويصب فيه القالب المبدئى ، ولعله كان أول من فعل هذا من اليونان(٣٣) .

وبلغ تمثيل جمال الجسم ورشاقته حد الكمال على يدى پركستليز . والعالم كله يعرف أنه أحب فريني Phyrene ، وأنه صور جمالها تصويراً مخلداً ، لكن أحداً من الناس لا يعرف متى ولد هذا الفنان أو متى توفى . وكان

ابنا وأبا لمثالين يعرفان باسم سفسدوتس Cephissdotus ، ولذا يحق لنا أن نقول إنه يمثل أعظم ما بلغته تقاليد أسرة من الفنانين المجدين الصابرين . وكان يعمل فى البرنز والرخام على حد سواء ، وبلغ من شهرته أن كانت اثنتا عشرة مدينة تتنافس للحصول على خدماته ؛ منها كوس التى عهدت إليه فى عام ٣٦٠ أن ينحت لها تمثالا لأفرديتى ، فنحت لها هذا التمثال بمساعدة فيرينى ، ولكن الكوسيين ساءهم أن وجدوا الإلهة مجردة من الثياب ، فما كان من پركستليز إلا أن هدأ ثورة غضبهم بأن صنع لها تمثالا آخر مكتسيا ، وابتاعت نيدس التمثال الأول . وعرض نكوميديز ملك بيثيا على نيدس أن يبتاع هذا التمثال بكل ما على المدينة من ديون ، ولكن نيدس آثرت المجد الخالد على العرض الزائل . وأقبل السياح من جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط ليشاهدوا التمثال ، وحكم الخبراء على أنه أجمل تمثال صنع حتى ذلك الوقت فى بلاد اليونان كلها ، وقال الثرثارون إن الرجال كانت تستثار عواطفهم إلى حد الجنون حين يشاهدون هذا التمثال[٣٤](*).

وكما أذاع تمثال أفرديتى شهرة نيدس فى الخافقين ، وكذلك اجتذبت بلدة تسپيا الصغيرة إحدى بلاد بؤوتية مسقط رأس فرينى السائحين ، لأن فيرينى وقد وضعت فيها تمثالا لإيروس (الحب) من نحت پركستليز . ذلك أنها سألته يوما ما أن يقدم لها برهانا على حبه أجمل تمثال فى منحته ، وأراد أن يترك لها الخيار ؛ ولكن فيرينى أرادت أن تكشف بنفسها عن تقديره لأعماله ، فهرولت إليه فى يوم من الأيام وأخبرته أن منحته يحترق ، فلما سمع هذا النبأ صاح قائلا : « إن كان تمثال جنى الغاب وتمثال إيروس قد احترقا فيا لهول النكبة[٣٥] »

(*) وفى متحف الفاتيكان صورة تطابق صورة هذا التمثال المنقوشة على النقود [illegible] التى عثر عليها فى أنقاض المدينة .

واختارت فرينى من فورها تمثال إيروس وأهدته إلى مسقط رأسها(*) .
وكان إيروس في أول أمره إله هزيود Hesiod وخالقه ، ثم استحال
تفكير پركستليز شابا حالما رقيقاً ، يرمز إلى سلطان الحب على النفوس ؛
ولم يكن قد أصبح بعد كيوبد Cupid اللعوب الخبيث الذى نعرفه فى الفنين :
الهلينستى والرومانى .

ولعل تمثال جِنّى الغاب المحفوظ فى متحف الكبتولين برومة والمعروف
باسم إله الحقول والرعاة الرخامى صورة من التمثال الذى فضله پركستليز عن
تمثال إيروس . ويظن بعضهم أن جذع التمثال المحفوظ فى متحف اللوفر
جزء من التمثال الأصلى نفسه(٣٦) . وتمثال الجنى يصوره فى صورة غلام
متين البنية مبتهجا سعيدا ، ليس فيه من جسم الحيوان إلا أذناه الطويلتان
القائمتان ؛ وهو يتكئ متراخيا على جذع شجرة وقد لف إحدى قدميه
بالأخرى . وقل أن نجد فى الرخام تمثيلا أصدق من هذا للراحة الكاملة .
فأنت ترى تراخى الحلوثة الساحر باديا فى الأطراف المرتخية والوجه المطمئن
الواثق . وربما كانت الأطراف مستديرة ناعمة فوق ما يجب أن تكون ؛ وذلك
لأن پركستليز لم يستطع لطول نظره إلى فرينى أن يمثل الرجال تمثيلا صادقاً .
ويؤيد ذلك أن تمثال أپلو قاتل العظايا Apolls Sauroctomus نسائى إلى حد
يكاد يحملنا على أن نضمه إلى تماثيل المخنثين الكثيرة بين التماثيل الهلينستية .

ويقول پوسنياس فى عبارة موجزة إيجازاً يؤسف له إن من بين تماثيل
هيرايوم Heraeum فى أولمپيا تمثالا « من الحجر لهرمس يحمل ديونيشس
من عمل پركستليز(٣٧) » . وبينا كان علماء الآثار الألمان ينقبون فى هذا

(*) وأمر نيرون فجىء به إلى رومة ، حيث أحرق فى النار التى شبت فى عام ٦٤ م
وقد يكون تمثال كيوبد السنتوسل Cupid of Centocelle المحفوظ فى الفاتيكان صورة
منقولة عنه

المكان عام ١٨٧٧ إذ توجت جهودهم بالعثور على هذا التمثال مطموراً فى طبقات من الأقذار والطين ظلت تتراكم عليه عدة قرون . وليس فى وسع القارئ أن يتخيل صورة حقيقية له من وصفه ، وصوره الشمسية، والنماذج التى تعمل له ، بل على الإنسان أن يقف خاشعاً أمامه فى متحف أولمبيا الصغير ، ويمر بإصبعه خلسه على سطحه لكى يدرك ما فى نسيج هذا اللحم الرخامى من نعومة وحياة ، أما موضوعه فهو أن الإله الرسول قد عهد إليه إنقاذ الطفل ديونيشس من غيرة هيرا وحمله إلى أحور الغابات والبحيرات ليربيته فى السر . ويقف هرمس فى الطريق ، ويضطجع على جذع شجرة ويمسك بعنقود من العنب أمام الطفل . وليس تمثال الطفل نفسه جيد الصقل، كأن تمثال الإله الأكبر قد استنفد جميع وحى الفنان . وقد ضاعت ذراع هرمس اليمنى وأعيدت إليه بعض أجزاء من الساقين ، أما بقية الجسم فيبدو أنها هى كما صاغتها يد المثال . وتكشف الأطراف المتينة ويكشف الصدر العريض عن قوة الجسم وصحته ، والرأس فى حد ذاته آية فنية رائعة بجماله الأرستقراطى ، ومعارفه الرقيقة وشعره المثنى ، والقدم اليمنى قد بلغت درجة الكمال حيث يندر الكمال فى التماثيل . وكان الأقدمون يعدون هذا التمثال من أعمال الفنان الصغرى ، وفى وسعنا أن نحكم من هذا على مقدار ما كان يمتاز به هذا العصر من ثروة فنية عظيمة .

ويصف بوسنياس[٣٨] فى فقرة أخرى مجموعة رخامية أقامها پركستليز فى منتينيا . ولم يعثر المنقبون إلا على قاعدة هذه المجموعة ، تحمل تماثيل لثلاث من ربات الفن لعل الذين نحتوها هم التلاميذ لا الأستاذ نفسه . وإذا جمعنا ما فى بوسنياس من إشارات إلى تماثيل پركستليز فى الكتابات اليونانية التى كانت موجودة فى أيامه ، خرجنا منها بنحو أربعين من الأعمال الكبرى[٣٩]، وما من شك فى أن هذه الأربعين لم تكن إلا جزءاً من إنتاجه العظيم . ونحن إذا درسنا القطع الباقية من هذه الأعمال نجد فيها ما نجده فى تماثيل فدياس

من سمو وقوة وهيبة وإجلال ، وترى الآلهة قد أخلت مكانها لفيريني ، وترى مشاكل الحياة القومية الكبرى قد أغفلت ليحل محلها الحب الفردى . ولكن ما من مثال قد فاق پركستليز فى دقه الصياغة ، وفى قدرته التى تكاد تبلغ حد الإعجاز على أن يمثل فى الحجر الصلب الراحة والرشاقة ، وأرق العواطف وبهجة الحواس ، والاستمتاع بالغابات . لقد كان فدياس فناناً دورياً وأما بركستليز فكان أيونياً ، وإنا لنجد فيه مرة أخرى ما ينذر بغزو أوربا الثقافى الذى أعقب انتصارات الإسكندر .

الفصل السادس

اسكوباس وليسبوس

لقد كان اسكوپاس لبيرن Byron كما كان فدياس لملتن وپركستليز لكيتس Keats . ولسنا نعرف شيئاً عن حياة المثال القديم إلا من أعماله ، وهى الترجمة الحقة لأى إنسان ؛ ولكننا لا نعرف أعماله نفسها معرفة أكيدة موثوقاً بصحتها . وإن الرؤوس القصيرة الممتلئة المنفرة للتماثيل المعزوة له ، أو النسخ التى يقال إنها منقولة عن التماثيل الأصلية ، لتظهره فى صورة الرجل المسرف فى قوته وفى نزعته الفردية . ولقد سبق القول إنه كان يعمل فى تيجيا مهندساً معمارياً ومثالا معاً ، وإنه لا يفوقه فى قوته وتعدد كفاياته أحد فى جميع القرون التى بين فدياس وميكل أنجلو . وكل ما عثر عليه المنقبون من أعماله قطع قليلة من قوصرة ، أهمها رأسان أصيبا بكثير من التلف يمتازان بقصرهما وعرضهما واستدارتهما وبالنظرة العابسة الحافة ، وهى الصفات الغالبة على جميع أعمال اسكوپاس ، ومنها تمثال مهشم لأطلنطا . ويشبه هذه البقايا شبهاً عجيباً رأس ملياجر Meleager المحفوظ فى بيت مديشى برومة . وفى هذا الرأس أيضاً نرى الخدين الممتلئين ، والشفتين الشهوانيتين ، والعينين المكتئبتين ، والجبهة ذات الحافة البارزة بروزاً قليلا فوق الأنف ، والشعر الملوى الأشعث بعض الشيء ؛ ولعل هذا التمثال نسخة رومانية من تمثال ملياجر الذى نحته اسكوپاس ليكون جزءاً من مجموعة تمثل منظر صيد كلدونى . وفى متحف نيويورك الفنى رأس آخر لا نكاد نشك فى أنه من صنع اسكوپاس ، أو منقول عن رأس من صنعه ؛ وهو قوى بليد ولكنه وسيم ذكى ، وهو أصدق الرؤوس تمثيلا لما بقى من آثار النحت فى العصور القديمة ؟

ويقول پوسنياس(٤٠) إن اسكوپاس قد « صَبَّ » فى « إليس » تمثالا من الشبه لأفروديتى الپندمية جالسة فوق جَدْى من الشبه » . ونحت فى سيكون تمثالا رخامياً لهرقليز لعل النسخة الرومانية المحفوظة فى بيت لانلسدون بلندن منقولة عنه مباشرة . وجسم التمثال يدل على النكسة الفنية والعودة بالفن إلى الطراز العضلى الپولكيتى ، والرأس صغير مستدير كالعادة ، والوجه يكاد يبلغ من الرقة وجوه تماثيل پركستليز . وقد أقام فى ميغارا ، وأرجوس ، وطيبة ، وأثينة ما يكفى من الوقت لنحت تماثيل شاهدها پوسنياس بعد خمسة قرون من ذلك الوقت ، ولعله قد اشترك فى تجديد بناء معبد أپلورس . وعبر بعدئذ بحر إيجة ونحت لنيدس تمثالين لأثينا وديونيشس ، وكان له شأن كبير فى أعمال النحت التى احتاجها بعض الأعمدة فى هيكل إفسوس . وفى برجموم Bergamum نحت تمثالا ضخما لآريس Ares يمثله جالساً ؛ وفى كريسا فى أرض إطروادة أقام تمثالا لأپلوسمنثيوس Apollo Smintheus ليخيف الجرزان ويطردها من الحقول . وأقام فى سمثريس Samothrace تمثالا لأفروديتى كان من أسباب شهرتها العظيمة ، ونحت فى بيزنطية البعيدة تمثالا لكاهنة باكس Bacchante ربما كان التمثال المحفوظ فى متحف البرتنوم بدرسدن والمعروف باسم ميناد الغامضة نسخة رومانية منه . وإن هذا التمثال الرخامى الصغير وحده لخليق بأن يرفع صانعه إلى مرتبة الفنانين العظام؟ — فهو تمثال قوى النحت ، فخم الثياب ، فذ فى وقفته ، حى فى غضبها ، وجميل من كافة نواحيه . ويشير پلنى إلى تماثيل أخرى كثيرة من صنع اسكوپاس كانت فى أيامه قائمة فى قصور رومة . منها تمثال لأبلو يرجح أنه هو الذى نقل عنه تمثال أبلو ثيسارودس Apollo Citharoedus المحفوظ فى الفاتيكان ؛ ومجموعة تماثيل لپسيدن ، وثيتيس ، وأخيل ، ونريديز ، وهى كما يقول پلنى آية فى دقة الصنع حتى لو أن صاحبها قد قضى حياته كلها فى إتمامها ؛ ومنها تمثال لأفروديتى عارية يكفى وحده لأن يذيع شهرة أية مدينة(٤١) » .

وملاك القول أن هذه الأعمال ، إذا جاز لنا أن نصدر حكماً على صاحبها يستند إلى بقايا قليلة ظنية ، توحى بأن لإسكوپاس منزلة تقرب جداً من منزلة پركستليز . فهو يمتاز بالابتكار فى غير إسراف ، والقوة فى غير غلظة ، وبالتمثيل المسرحى للنوازع والعواطف والمزاج ، دون أن تشوه هذه كلها شدةٌ متكلفة . لقد كان پركستليز يعشق الجمال ، أما اسكوپاس فكان ينجذب نحو الخلق ، وكان پركستليز يرغب فى الكشف عن الرشاقة والحنان فى النساء ، وعن الصحة المبهجة والمرح فى الشباب ؛ أما اسكوپاس فقد اختار أن يمثل آلام الحياة ومآسيها ، ورفع من شأنها بهذا التمثيل الفنى البديع . ولو أننا كان لدينا من أعماله أكثر مما عثرنا عليه منها لما فضلنا عليه أحداً غير فدياس .

حسبنا هذا عن اسكوپاس ، أما ليسپوس السيكونى فقد بدأ حياته صانعاً وضيعاً فى النحاس ؛ وكان يتوق إلى أن يكون فناناً ، ولكنه لم يكن لديه من المال ما يمكنه من أن يتتلمذ على معلم . غير أنه تشجع حين سمع يوپومس المصور يعلن أنه يفضل محاكاة الطبيعة نفسها عن محاكاة أى فنان مهما يكن قدره[٤٣] . فلما سمع ليسپوس هذا القول اتجه من فوره إلى دراسة الكائنات الحية ، ووضع قانوناً جديداً للنسب فى فن النحت ليستعيض به عن قاعدة پلكليتس الصارمة ؛ فأطال الساقين وقصر الرأس ، وزاد من نحافة الأطراف ، وخلع على الصورة كلها كثيراً من الحيوية والراحة . ومن أعماله تمثال أپكسيومنوس Apxyomenos وهو صورة لتمثال ديامنوس ، تختلف عنها من بعض الوجوه . فرجل پلكليتس الرياضى يربط عصابة فوق جبينه ، أما ليسپوس فيزيل الزيت والغبار عن ذراعه بمكشط ، ويبدو فيها أكثر نحافة ورشاقة . وأكثر من هذا التمثال جاذبية وحيوية ، إذا جاز لنا أن نستند فى حكمنا إلى الصورة الرخامية المحفوظة فى متحف دلفى ، تمثال أچياس Agias الشاب التسالى النبيل . ذلك أن ليسپوس لم يكد يتحرر من القيود حتى أخذ يشق طريقه فى ميادين فنية جديدة ، فاستبدل تصوير الفرد بتصوير

الطراز ، والنزعة الانطباعية بالعرف والتقاليد(*) .

وكاد هو أن يبتدع النحت المصوَّر عند اليونان . وقد قطع فليب حروبه وعشقه ليجلس أمام ليسپوس لينحت له تمثالا ؛ وسر الإسكندر من التماثيل النصفية التي نحتها له الفنان سروراً جعله يختاره دون غيره مثاله الملكي الرسمي ، كما منح من قبل أپليز وحده حق تصويره وإلى پرجتليز حق نقش هذه الصور على الجواهر .

وثمة طائفة من أجمل التماثيل التي خلفها القرن الرابع في فن النحت لا يعرف من صنعها : منها تمثال من الشبه لشاب عثر عليه في البحر قرب مرثون ، ومنها نسخة قديمة لتمثال هرمس الأندرشي الذي صنع في القرن الرابع ، وتمثال رقيق لهيچيا المفكرة عثر عليه في تيچيا(**) — وكل هذه التماثيل في متحف أثينة ، وفي متحف بسطن رأس فتاة من طشيوز غاية في الجمال . ومن آثار هذا العصر ، بقدر ما وصل إليه علمنا ، معظم تماثيل نيوبي التي نقلت إلى رومة من آسية الصغرى في أيام أغسطس ، والتي نراها الآن موزعة في متاحف أوربا . وربما كان من آثار هذا العهد أيضاً التماثيل الأصلية الثلاثة من تماثيل أفروديتي التي تعزى إلى پركستليز : وهي تمثال ڤينوس المفكرة الذي جيء به من كپوا Capua والمحفوظ في متحف ناپلي ، وتمثال ڤينوس المضطجعة المحفوظ في متحف الفاتيكان

(*) يقول ليسپوس ، في عبارة لو قمها مانت Manet لسر منها أيما سرور ، إن غيره من المثالين يصورون الرجال كما هم أما هو فإنه يصورهم « كما يبدون للناس (٤٣) » .

(**) وقد سرق هذا الرأس الجميل الذي يرى القارئ صورته في الصفحة الأولى من الجزء الأول من هذا المجلد ، من متحف تيچيا الصغير ، ثم عثر عليه بعد بحث دام تسع سنين اسكندر فيلدلفيوس Alexander Philadelpheus أمين المتحف القومي بأثينة في هري قمح بقرية من قرى أركاديا . وموضوع التمثال والعصر الذي صنع فيه غير معروفان على وجه التحقيق، ولكن طرازه البركستيلي يرجعه في ظننا إلى القرن الرابع . ويرى السيد فيلدلفيوس الخبير الجواد أنه « درة تاج المتحف القومي » .

وتمثال ڤينوس أرلوس المتواضع المحفوظ فى متحف اللوڤر . وأعظم من هذه كلها من ناحية الجمال الناضج ، وعمق الشعور الهادئ ، تمثال دمتر الجالس الذى عثر عليه فى نيدس عام ١٨٥٨ ، والذى يعد الآن من أروع التحف المحفوظة فى المتحف البريطانى . ولسنا نعرف موضوع التمثال على وجه التحقيق ، ولعله لا يعدو أن يكون أجمل صورة جنازية وصلت إلينا من العهود القديمة ، أو لعله يمثل إلهة التلال فى صورة الأم الحزينة Mater dolorose ؛ تتحسر وهى صامتة على اغتصاب پرستونى . وقد مثلت العاطفة هنا فى غير إسراف كما كان المثالون يفعلون فى العصر الذهبى ؛ ويبدو فى الوجه والعينين حنو الأمومة كله واستسلامها الصامت . وهذا التمثال مضافاً إلى تمثال هرمس ، لا تماثيل أفروديتى المتحبية المستعطفة ، هى روائع النحت الحية وآياته الخالدة التى أنتجتها بلاد اليونان فى القرن الرابع قبل الميلاد .

الباب الحادي والعشرون

العصر الذهبي للفلسفة

الفصل الأول

العلماء

إذا وازنا بين حال العلم فى القرن الرابع وبين الخطوات الجريئة التى خطاها إلى الأمام فى القرن الخامس ، وبالانقلاب الثورى الذى حدث فيه فى القرن الثالث ، حكمنا من فورنا بأنه كان فى هذا القرن الأوسط فى حالة ركود ، وأنه قنع فى معظم الأحوال بتسجيل ما تجمع له فى القرن السابق . فقد كتب أكسانوقراطيس Xenocrates تاريخاً للهندسة ، وكتب ثاوفرسطوس تاريخاً للفلسفة الطبيعية ، وكتب مينون Menon تاريخاً للطب وأوديموس Eudemus وتواريخ الحساب ، والهندسة ، والفلك[1] . وبدا لعلماء ذلك العصر أن المسائل الدينية والأخلاقية والسياسية أكثر أهمية وأولى بالدرس من مشاكل الطبيعة ، فتحول الناس مع سقراط من دراسة العالم المادى دراسة موضوعية إلى البحث فى أحوال النفس وشئون الدولة .

وكان أفلاطون يحب العلوم الرياضية فغمر فيها فلسفته إلى أعماق بعيدة ، وجعلها شغل المجتمع العلمى ،وكاد فى سراقوصة أن يهب لها مملكة بأسرها . لكن الحساب كان فى نظره نظريات فى الأعداد تتصف بالكثير من الغموض ؛ ولم تكن الهندسة هى قياس الأرض ، بل كانت تدريباً عقلياً خالصا ، وطريقا يصل به العقل إلى الله . ويحدثنا فلوطرخس عن « غضب » أفلاطون من أودكسوس

Eudoxus وأرخيتاس Archytas لأنهما قاما بتجارب فى الميكانيكا « فأفسدا الشىء الوحيد الطيب فى الهندسة ، وقضيا عليه قضاءً مبرماً ؛ وأبعداه بطريقة مخجلة يجللهما العار من المسائل العقلية الخالصة غير المجسمة إلى المحسوسات ، واستعانا على عملهما هذا بالمادة » . ويقول فلوطرخس بعد ذلك : « إن الميكانيكا قد انفصلت بهذه الطريقة عن الهندسة ، وأنكرها الفلاسفة وأهملوا أمرها ، فأصبحت من فنون الحرب[٢] » . على أن أفلاطون رغم هذا قد قدم للعلوم الرياضية بطريقته العقلية المجردة أجل الخدمات ؛ فأعاد تعريف النقطة وقال إنها مبدأ الخط[٣] ، ووضع قاعدة لإيجاد الأعداد المربعة التى هى مجموع مربعين[٤] ، واخترع التحليل الرياضى أو ارتقى به[٥] ، ونعنى بالتحليل الرياضى البرهنة على صحة قضية أو خطئها بالنظر إلى النتائج التى يؤدى إليها الأخذ بها ؛ وليست طريقة إقامة البرهان بنقض نقيضه إلا صورة من هذه الطريقة . وكان الاهتمام بالرياضيات فى منهاج المجمع العلمى عوناً كبيراً للعلوم الطبيعية ، ولو لم يؤد هذا الاهتمام إلا لتدريب تلاميذ مبتكرين أمثال أودكسوس النيدى(*) ، وهرقليدس البنتى(*) ، لكفاه فضلا .

وعمل أرخيتاس صديق أفلاطون على ترقية رياضيات الموسيقى ، وضاعف المكعب ، وكتب أول رسالة معروفة فى الميكانيكا . هذا إلى أنه اختير حاكما لمدينة تاراس Taras سبع مرات ، وكتب عدة بحوث فى الفلسفة الفيثاغورية . ويعزو إليه الأقدمون ثلاثة اختراعات عظيمة الخطر — البكرة وطارة السير ، واللولب ، (والخشخيشة) . وكان الاختراعان الأولان أساس الصناعة الآلية ، أما ثالثهما فيقول عنه أرسطاطاليس فى كثير من الجد والوقار « إنه هيأ للأطفال

(*) Heracleides of Pontus ، Eudoxus of Cnidus

عمـلا يشغلون به أنفسهم فتنعهم بذلك أن يحطموا ما فى البيت من أدوات[٦] » . وفى هذا العصر نفسه « ربع » دينوستراتس Dinostratus « الدائرة » باستخدام القوس الذى يمكن به إيجاد الخطوط المستقيمة المساوية لمحيطات الدوائر أوغيرها من المنحنيات. ووضع أخوه مينكموس Menaechmus أحد تلاميذ أفلاطون ، أساس هندسة القطاعات المخروطية(*)، وضاعف المكعب ، ووضع قاعدة التكوين النظرى للخمسة الأجسام الصلبة المنتظمة(**) ، وصاغ نظرية الأعداد الصماء ، وأورث العالم تلك العبارة المشهورة ، وهى قوله للإسكندر : « أيها الملك إن ثمة طرقا للملوك وأخرى لعامة الشعب يسافرون عليها فى أقطار الأرض ؛ أما الهندسة فليس فيها إلا طريق واحد يسلكه جميع الناس(†) [٨] » .

وأعظم رجال العلم فى القرن الرابع هو أودكسوس الذى أعان پركستليز على تخليد اسم نيدس فى التاريخ . وقد ولد فيها حوالى عام ٤٠٨ ، وشرع وهو فى الثالثة والعشرين من عمره يدرس الطب مع فلستيون Philistion فى لكرى Locri ، والهندسة مع أرخيتاس فى تاراس ، والفلسفة مع أفلاطون فى أثينة . وكان لفقره يعيش معيشة ضنكاً فى پيرية ، ويسير منها على قدميه إلى المجمع العلمى فى كل يوم من أيام الدراسة . وبعد أن

(*) عرف اليونان القطاعات المخروطية بأنها الأشكال – القطع الناقص ، والقطع المكافئ ، والقطع الزائد – التى تنتج من قطع مخروط ذى زوايا حادة ، وزوايا قائمة ، وزوايا منفرجة بسطح عمودى عليه . وتضيف العلوم الرياضية الحديثة إلى هذه الأجسام الدائرة الخطوط المتقاطعة .

(**) وهى الهرم الثلاثى المنتظم ، والمكعب (ذو الستة الأوجه المنتظم) ، والمثمن المنتظم ، وذو الأثنى عشر وجها المنتظم ، وذو العشرين وجها المنتظم – وهى الأجسام الصلبة المحدبة التى تحدها أربعة سطوح منتظمة ، أوستة ، أو ثمانية ، أو اثنا عشر سطحا أو عشرون .

(†) كان لفظ الطرق الملكية يطلق عادة على الطرق العظمى التى أنشئت فى الإمبراطورية الفارسية . وتعزى هذه القصة أيضا إلى إقليدس وبطليموس الأول[٨] .

أقام زمنا ما فى نيـــدس سافر إلى مصر وقضى فيها ستة عشر شهراً يدرس الفلك على كهنة عين شمس ثم نجده بعد ذلك فى سيزقوس البربوپنتية Proportin Cyz'cus يحاضر فى العلوم الرياضية . ولما بلغ الأربعين من عمره انتقل هو وتلاميذه إلى أثينة وافتتح فيها مدرسة لتعليم العلوم الطبيعية والفلسفة ، ونافس أفلاطون وقتاً ما . ثم عاد آخر الأمر إلى نيدس وأقام فيها مرصدا ، وعهد إليه أن يضع للمدينة طائفة من القوانين[٩] .

وقد وضع فى الهندسة عدة مبادئ أساسية ، فهو الذى وضع نظرية النسبة ومعظم الفروض التى انتقلت إلينا فى الكتاب الخامس من كتب إقليدس ، وهو الذى اخترع طريقة إفناء الفرق التى أمكن بها إيجاد مساحة الدائرة وحجم الكرة ، والهرم ، والمخروط ، ولولا هذا لكان عمل أرشميدس المبدئى مستحيلا . ولكن العلم الذى وهب له أودكسوس معظم جهوده هو علم الفلك . ونستطيع أن نلمح روح العالم فى قوله إنه يسره أن يحترق كما احترق فيتون إذا استطاع بهذا أن يكشف عن طبيعة الشمس وحجمها وشكلها[١٠] . وكان لفظ التنجيم Astrology يستعمل فى ذلك الوقت ليشمل ما نسميه الآن علم الفلك Astronomy ، ولكن أودكسوس أشار على تلاميذه أن يغفلوا نظرية الكلدانيين القائلة إن مستقبل الإنسان يمكن التنبؤ به بالنظر فى مواقع النجوم وقت مولده . وكان شديد الرغبة فى أن يرجع جميع الحركات السماوية إلى قوانين ثابتة ، ووضع فى كتابه الفينومينا Fhainomena — الذى يعده الأقدمون أعظم ما كتبوه فى علم الفلك — أساس التنبؤات الجوية .

(*) وكان من المسائل الحبية له مسألة إيجاد « القطاع الذهبى » أى أن يقسم الخط فى نقطة بحيث تكون النسبة بين الخط كله وجزئه الأكبر ، كالنسبة بين هذا الجزء الأكبر والجزء الأصغر .

وأخفقت أشهر نظرياته إخفاقاً باهراً . فقد قال إن العالم يتكون من سبع وعشرين دائرة شفافة لا تراها العين لشفيفها تدور فى اتجاهات مختلفة وبسرعات متباينة حول مركز الأرض ، وإن الأجرام السماوية مثبتة حول قشرة هذه الدوائر المتحدة المركز . ويبدو هذا النظام الآن نظاماً مغرقاً فى الخيال ، ولكنه كان أول محاولة بذلت لتفسير حركات الأجرام السماوية تفسيراً علمياً . وعلى أساس هذه النظرية حسب أودكسوس بدقة عظيمة (إذا ما اتخذنا « معلوماتنا » الحاضرة فى مثل هذه المسائل مقياساً نحكم به على الأشياء) أوقات اقتران الكواكب وحلولها فى البروج المختلفة(*) . وكان لهذه النظرية أثر أقوى من أية نظرية أخرى فى الزمن القديم لإيقاظ روح البحث العلمى .

وكتب إكفنتوس السراقوصى حوالى عام ٣٩٠ . ومن أقواله أن الأرض تدور حول مركزها فى اتجاه شرقى(١٢) » . وأخذ هرقليدس البنتى هذا الإيحاء ، أو لعله وصل إليه مستقلا ، وقال إن العالم لا يدور حول الأرض ، وإن الظواهر المتصلة بهذا الفرض يمكن تفسيرها إذا افترضنا أن الأرض نفسها تدور مرة فى كل يوم حول محورها(١٣) . ومن أقواله أيضاً إن الزهرة وعطارد يدوران

(*) إن فترة الاقتران لجرم من الأجرام السماوية هى الزمن المحصور بين اقترانين متتاليين بينه وبين الشمس ، كما يرى من الأرض . أما فترة الحلول فى برج من البروج فهى الزمن المحصور بين ظهور جرم سماوى مرتين متتاليتين فى هذا البرج أى فى ذلك الجزء من السماء المقسمة تقسيما خياليا إلى اثنى عشر قسما يسمى كل منها برجا . وقدر أودكسوس فترة اقتران زحل بـ ٣٩٠ يوما ونقدرها نحن الآن بـ ٣٧٨ ؛ والمشترى بـ ٣٩٠ ، وتقديرنا نحن هو ٣٩٩ ؛ والمريخ بـ ٢٦٠ ونقدرها نحن بـ ٧٨٠ ، وعطارد بـ ١١٠ (وقد ورد فى أحد المخطوطات ١١٦) ، وتقديرنا هو ١١٦ ؛ والزهرة بـ ٥٧٠ وتقديرنا هو ٥٨٤ . أما الفترة بين حلول الكواكب فى الأبراج مرتين متتاليتين كما قدرها أودكسوس فهى ٣٠ سنة لزحل وتقديرنا نحن هو ٢٩ سنة و١٦٦ يوما ، والمشترى ١٢ سنة وتقديرنا نحن ١١ سنة و ٣١٥ يوما ، والمريخ سنتان ، وتقديرنا سنة و٣٢٢ يوما ، ولعطارد والزهرة سنة . وهذا يتفق بالضبط مع تقديرنا(١١)

حول الشمس ، ولعل هرقليدس فى لحظة من لحظات التجلى العلمى قد استبق أرسطرخوس وكوبرنيق ، لأنا نقرأ فى الجزازات الباقية من كتابات جمنوس Geminus (حوالى عام ٧٠ ق . م) أن هرقليدس البنى قال : «حتى لو افترضنا أن الأرض تدور بطريقة ما ، وأن الشمس ساكنة بطريقة ما ، فإن ما يبدو لنا من عدم انتظام الشمس لا يستعصى على الفهم[١٤]» . وأكبر الظن أننا لن نستطيع فهم ما كان يقصده هرقليدس بقوله هذا بالضبط .

وكانت العلوم الطبيعية فى هذه الأثناء تتقدم تقدماً بطيئاً . ففى الجغرافية قام ديقايرخوس المسانى Dicaearchus of Messana كاتب السير اليونانى بقياس ارتفاع الجبال ، وقدر طول محيط الأرض بما يقرب من ثلاثين ألف ميل ، ولاحظ تأثير الشمس فى المد والجزر . وفى عام ٣٢٥ سافر نيارخوس Nearchus أحد قواد الإسكندر بحراً من مصب نهر السند محاذيا ساحل آسية الجنوبى إلى مصب الفرات ، وكان سجل سفينته الذى احتفظ أريان Arrian ببعضه فى كتابه Indica[١٥] من أهم الكتب الجغرافية القديمة . وكان علم المساحة التطبيقية — أى قياس السطوح ، والمرتفعات . والمنخفضات والمواقع ، والأحجام — قد وضع له اسم خاص يميزه من الهندسة النظرية geometry وهو الجيوديزيا[١٦] . وكان فلستيون Philistion أحد أبناء بلدة لكري Lorcri الإيطالية يمارس تشريح الحيوانات فى بداية ذلك القرن ، وقال إن القلب هو المنظم الرئيسى للحياة ، ومركز النيوما أى النفس . وشرّح ديوقليس Diocles أحد أبناء بلدة كرستوس Carystus العوبية حوالى ٣٧٠ أرحام إناث الحيوان ، ووصف الأجنة البشرية من بداية اليوم السابع والعشرين إلى اليوم الأربعين من حياتها ، وتقدمت على يديه علوم التشريح والأجنة وأمراض النساء والولادة ، وأصلح إحدى الأغلاط اليونانية الشائعة بقوله إن « بذرتى » الذكر والأنثى تشتركان فى تكوين

الجنين[١٧] . وكانت امرأة تدعى أسپلزيا (غير أسپازيا أم الإسكندر) من أشهر الطبيبات فى أثينة فى القرن الرابع ، وذاع صيتها بمؤلفاتها فى أمراض النساء والجراحة وغيرها من فروع الطب[١٨] . وخشى إنياس تكتكوس Aeneas Tacticus الأركادى أن يؤدى تقدم الطب إلى إنقاص نسبة الوفيات أكثر مما تحتمله موارد الغذاء ، فنشر حوالى عام ٣٦٠ أول كتاب شهير فى فن الحرب ، وجاء نشره فى الوقت الذى استطاع فليب والإسكندر أن يفيدا بما ورد فيه من المعلومات .

الفصل الثانى

المدارس السقراطية

١ — أرستبوس

إذا كان العلم فى القرن الرابع لم يتجاوز الدرجة الوسطى من الرقى ، فقد كان هذا القرن عصر الفلسفة الذهبى . لقد بسط المفكرون الأولون آراء عامة ، فى نظام الكون ، وجاء السوفسطائيون فشكوا فى كل شىء عدا البلاغة ، وأثار سقراط آلاف الأسئلة ولم يجب عن واحد منها . أما الآن فقد نبتت البذور التى زرعت فى مائتى عام وصارت نظماً عظيمة فى بحوث ما وراء الطبيعة ، والأخلاق ، والسياسة . وكانت أثينة وقتئذ أفقر من أن تحتفظ للدولة بمصلحة طبية ، ولكنها رغم فقرها هذا أنشأت جامعات خاصة ، فأضحت بذلك « مدرسة هلاس » على حد قول إسقراط ، وحاضرة بلاد اليونان الذهبية ، والحكم الذى لا معقب لحكمه فى شئونها العلمية . ولما أن ضعف الفلاسفة الدين القديم أخذوا يكافحون لكى يجدوا فى الطبيعة وفى العقل بديلا من هذا الدين يكون دعامة للأخلاق وهاديا للناس فى سبيل الحياة .

وكان أول ما عملوه أن ارتادوا السبل التى فتحها لهم سقراط . ذلك أن السوفسطائيين كانوا قد ارتكسوا فاقتصروا فى الغالب على تدريس البلاغة ، وزالوا بوصفهم طبقة مستقلة ؛ ولهذا أصبح تلاميذ سقراط مركز عاصفة من الفلسفات الشديدة التباين . فقد أثار إقليدس الميغارى Eucleides of Megara ، الذى سافر إلى أثينة ليستمع إلى سقراط ، « عاصفة من الجدل » فى مسقط رأسه كما يقول تيمن الأثينى[19] ، وارتقى بنقاش زينون وسقراط فجعله

فناً من الجدل يرتاب فى كل نتيجة منطقية ، وأدى ذلك فى القرن التالى إلى نزعة بيرون وقرنيادس التشككية . وبعد أن مات إقليدس اتجه تلميذه النابه استلپون Stilpo بالمدرسة الميغارية شيئاً فشيئاً نحو النظرة الكلبية (Cynic) التى تقول : بما أن كل فلسفة يمكن دحضها ، فإن الحكمة لا تكون فى بحوث ما وراء الطبيعة ، بل فى الحياة البسيطة التى تحرر الفرد من الاعتماد فى رفاهيته على العوامل الخارجية . ولمـــا سأل دمتريوس بليوقريطس Demetrius Poliorcetes بعد نهب ميغارا عن مقدار ما خسره أستلپون أجابه ذلك الحكيم بقوله إنه لم يك يملك شيئاً غير المعرفة ، وأن أحداً لم يغتصبها منه[٢٠] . وكان من بين تلاميذه فى آخر سنى حياته واضع أسس الفلسفة الرواقية ، ولذلك فإن من حقنا أن نقول إن المدرسة الميغارية قد بدأت بزينون واختتمت بزينون آخر .

وسافر أرستبوس الظريف بعد موت سقراط إلى مدن متفرقة ، وقضى بعض الوقت فى سلس Scillus مع أكسانوفون ، ووقتاً أطول من هذا مع لئيس Lais فى كورنثة[٢١] ، ثم ألقى عصا الترحال فى قورينة مدينته الأصلية القائمة على ساحل أفريقية . وكان ثراء الطبقات العليا فى هذه المدينة النصف الشرقية قد كونا عاداته ، فكان أكثر مما يتفق فيه مع مبادئ أستاذه هو قوله إن السعادة أعظم فضيلة . وكان أرستبوس وسيم الطلعة ، دمث الأخلاق ، بارعاً فى الحديث ، فشق بهذه الصفات طريقاً له فى كل مكان . وتحطمت به سفينته قرب رودس واشتد عليه الفقر فيها ، فذهب إلى مدرسة للتدريب الرياضى ، وأخذ يخطب فيها ، فافتتن به رجالها وقدموا له هو وأصحابه جميع وسائل الراحة ؛ فلما فعلوا ذلك قال لهم إن الآباء يجب أن يسلحوا أبناءهم بثروة يستطيعون أن يحملوها معهم إلى البر إذا تحطمت بهم السفن[٢٢] .

وكانت فلسفته بسيطة وصريحة ؛ قال : إن كل ما نفعله إنما نفعله طمعاً فى اللذة أو خوفاً من الألم — حتى إذا أفقرنا أنفسنا لخير أصدقائنا ، أو ضحينا

بحياتنا من أجل قوادنا . وعلى هذا فالناس كلهم مجمعون على أن اللذة هي الخير الذي لا خير بعده ، وأن كل ما عداها حتى الفضيلة والفلسفة يجب أن يحكم عليه حسب قدرته على توفير اللذة . وعلمنا بالأشياء غير مؤكد ، وكل ما نعرفه معرفة مباشرة أكيدة هو حواسنا ، فالحكمة إذن لا تكون في السعي وراء الحقيقة المجردة بل في اللذات الحسية . وليست أعظم اللذات هي العقلية أو الأخلاقية ، بل هي اللذات الجسمية أو الحسية ، ولهذا فإن الرجل العاقل هو الذي يسعى وراءها أكثر من سعيه وراء أي شيء آخر ، والذي لا يضحي بخير عاجل في سبيل خير آجل غير مؤكد . والحاضر وحده هو الموجود ، وأكبر الظن أنه لا يقل من حيث الخير عن المستقبل إن لم يفقه ذلك . وفن الحياة هو انتهاب اللذائذ وهي عابرة والاستمتاع بكل ما نستطيع أن نحصل عليه في الساعة التي نحن فيها[٢٣] . وليست فائدة الفلسفة في أنها قد تبعدنا عن اللذة ، بل فائدتها في أنها تهدينا إلى أن نختار أحسن اللذات وننتفع بها . وليس صاحب السلطان على اللذات هو الزاهد المتقشف الممتنع عنها ، بل هو الذي يستمتع بها دون أن يكون عبداً لها ، والذي يستطيع بعقله أن يقارن بين اللذائذ التي تعرضه للخطر ، والتي لا تعرضه له . ومن ثم كان الرجل الحكيم هو الذي يظهر الاحترام المقرون بالفطنة للرأي العام وللشرائع ، ولكنه يعمل بقدر ما يستطيع على « ألا يكون سيدا لإنسان ما أو عبداً له[٢٤] » .

وإذا كان يشرف الإنسان أن يعمل بما يدعو الناس إلى عمله فقد كان أنتسيوس خليقا ببعض هذا الشرف . فقد كان في فقره وغناه على السواء سمحا كريما ، ولم يكن يتظاهر بالميل إلى إحدى الناحيتين . وكان يصر على أن يتقاضى أجراً على مايعلمه ، ولا يتردد في أن يتملق الطغاة إذا كان في هذا الملق مايوصله إلى أغراضه . وقد ابتسم ولم يتأفف حين بصق دنيسيوس الأول في وجهه وقال : « إن من واجب الصياد أن يتحمل أكثر من هذا الماء ليمسك بسمكة

أصغر من التي أريدها[٢٥] » ولما أن لامه صديق له على ركوعه أمام دنيسوس أجابه بأنه ليس من عيبه هو أن تكون أذنا الملك في قدميه » ، ولما سأله دنيسوس لم يلازم الفلاسفة أبواب الأغنياء ، ولا يلازم الأغنياء مجالس الفلاسفة ، أجابه بقوله : « ذلك بأن الأولين يعرفون ما يريدون أما الآخرون فلا يعرفونه[٢٦] » . ولكنه مع ذلك كان يحتقر من يطلبون المال لذاته . ومن ذلك أنه لما أن أراه سيموس Simus الفريجي الثرى بيتا له جميلا مفروشا بالرخام بصق أنتسپيوس في وجهه ؛ فلما أن احتج عليه سيموس اعتذر بأنه لم يجد بين ذلك الرخام كله مكانا أليق من وجهه بالبصق عليه[٢٧] . ولما أن جمع من المال ما يريد أنفقه بسخاء على الطعام الشهي ، والكساء الجميل ، والمسكن الفخم ، والنساء الحسان (على ما كان يبدو له) . ولما أن لامه بعضهم على أنه يعاشر حظية أجابه بقوله إنه لا يعارض في أن يعيش في بيت سكنه آخر قبله أو أن يسافر في سفينة سافر فيها غيره[٢٨] . ولما قالت له عشيقته : « إني أعاشرك معاشرة الأزواج » قال لها : « إنك لا تستطيعين أن تقولي إنني أنا الذي أعاشرك ، كما لا تستطيعين أن تقولي بعد أن تخترق أجمة أية شوكة فيها خدشتك[٢٩] .

وقتله الناس رغم أنه كان رجلا شريفاً ، ظريفاً ، مهذبا ، مثقفا ، طيب القلب ، مشهوراً باسم سيموس اللطيف . وما من شك في أن من أسباب دعوته السافرة للسعي وراء اللذة أنه كان يسر من التشهير بالكبار الفاسدين من أهل المدن . وقد كشف عن خليقته بتبجيل سقراط ، وحبه الفلسفة(*) ، واعترافه بأن أجل منظر في الحياة ، وهو منظر الرجل الفاضل الذي يشق طريقه مطمئنا واثقا من نفسه بين الأنذال[٣١] .

وقال وهو على فراش الموت (٣٥٦) إن أعظم تراث يتركه لابنته

(*) يقول أرستبوس إن مثل الذين يهملون الفلسفة في تعليمهم « كمثل الذين جاءوا يخطبون پنلپي ؛ فقد ... وجدوا أن كسب الخادمات أسهل لهم من زواج السيدة[٣٠] » .

أريتى Arete هو أنه علمها ألا ترى قيمة ما لشيء تستطيع أن تستغنى عنه »[٣٢] وهو استسلام منه لديوجانس عجيب . وقد خلفته ابنته فى رياسة مدرسة قورينة وألفت أربعين كتاباً ، وكان لها تلاميذ ممتازون ، وحبتها مدينتها قبرية مشرفة هى : « ضياء هلاس[٣٣] » .

٢ – ديچين (ديوجانس)

ووافق أستانس على نتيجة هذه الفلسفة وإن لم يوفق على مناقشاتها ، واستخلص من أقوال سقراط نفسه فلسفة للحياة قائمة على التقشف . وكان مؤسس المدرسة الكلبية ابن مواطن أثينى وأمة تراقيا ، وحارب ببسالة فى يوم تنغارا عام ٤٢٦ ، ودرس زمنا مع غورغياس وپروديكوس ، ثم أنشأ بعدئذ مدرسته ، ولكنه بعد أن سمع مناقشات سقراط ، ذهب ومعه تلاميذه ليتلقى فلسفة الذى يفوقه سنا . وكان مثل أودكسوس يعيش فى پيرية ، ويسير إلى أثينة مشيا على قدميه كل يوم تقريباً . ولعله كان حاضراً حين كان سقراط (أو أفلاطون) يناقش خطيباً ظريفاً فى مشكلة اللذة .

سقراط : هل تظن أن الفيلسوف يجب أن يهتم بملذات . . . المأكل والمشرب ؟

سمياس : لا ، من غير شك .

سقراط : وما قولك فى لذات الحب – هل يجب عليه أن يهتم بها ؟

سمياس : لا ، يجب ألا يهتم بحال من الأحوال .

سقراط : وهل يجوز له أن يفكر فيما عدا ذلك من طرق المتعة الجسمية – كالحصول على الملابس الغالية ، أو الأحذية وما إليها من زينة الجسم ؟ أليس الواجب عليه ، بدل أن يعنى بهذه الأشياء ، أن يحتقر كل ما تتطلبه الطبيعة ؟ .

سمياس : من واجبى أن أقول إن الفيلسوف الحق هو الذى يحتقرها[٣٤]

هذا هو جوهر الفلسفة الكلبية : أن تقتصر حاجات الجسم على الضرورات المحضة حتى تكون الروح حرة قدر المستطاع . وقد استمسك أنتستانس بحرفية النظرية ، وأصبح كأنه راهب فرنسيسى يونانى بلا دين . وكان شعار أرستيبوس هو : « إنى أملك ولكن أحداً لا يملكنى » أما شعار أنتستانس فقد كان : « إنى لا أملك حتى لا يمتلكنى أحد » . ولم يكن عنده مال[٣٥]، وكان يرتدى ثوباً خلقا عيره به سقراط بقوله : « إنى أستطيع أن أرى غرورك يا أنتستانس من خلال ثقوب ثوبك[٥٥]» وإذا ضربنا صفحا عن هذا فقد كان عيبه الوحيد هو تأليف الكتب ، وقد ترك منها ثمانية ، أحدها تاريخ للفلسفة . ولما مات سقراط اضطلع أنتستانس بواجب تدريس الفلسفة لطالبيها واختار موضعاً لمحاضراته ساحة « كلب البحر للتدريب الرياضى » ، وكان سبب اختيارها أنها مخصصة لأفراد الطبقات الدنيا ، أو الغرباء ، غير الشرعيين ، وغلب اسم الكلبى على المدرسة بسبب مكان وجودها لا بسبب العقيدة التى تدرس فيها[٥٧] ، وكان أنتستانس يرتدى ثياب العمال ، ولا يتقاضى أجراً على قيامه بالتدريس ، ويفضل أن يكون تلاميذه من الفقراء ، ويطرد من مدرسته بلسانه أو عصاه كل من يعيش معيشة الفقراء ولا يتحمل شظف العيش .

وأبى فى أول الأمر أن يقبل ديجين ضمن تلاميذه ، فلما أصر ديجين وصبر على الإهانة ، قبله ، فأذاع التلميذ نظريات أستاذه فى جميع أنحاء هلاس بأن اتبع تعاليمه فى معيشته لا يحيد عنها قيد شعرة . لقد كان أنتستانس فى أصله نصف رقيق وكان ديجين رجلا مصرفياً مفلساً من سينوب ، اضطرته شدة الحاجة إلى التسول وسره أن يعلم أن هذا جزء من الفضيلة والحكمة ، فلبس أثواب المتسولين ، وحمل جرابهم وتوكأ على عصاهم ، وعاش وقتاً ما داخل قصعة فى ساحة معبد سيبيل فى أثينة[٣٨] . وكان يحسد الحيوان على حياته البسيطة ويحاول أن يحذو حذوه ، ينام على الأرض ، ويطعم مما يستطيع الحصول عليه أينما وجده ، ويؤكدون لنا أنه كان

يقضى حاجة الطبيعة ومراسم الحب على مرأى من جميع الناس[٣٩] . ولما رأى طفلا يشرب الماء بيديه ألقى هو الآخر كوب الماء[٤٠] ؛ وكان فى بعض الأحيان يحمل شمعة أو مصباحاً ويقول إنه يبحث بهما عن رجل[٤١] . ولم يسئ فى حياته إلى إنسان ، ولكنه رفض أن يعترف بالقوانين ، وأعلن قبل الرواقيين بزمن طويل أنه مواطن عالمى (Kosmopolites) . وكان يطوف بالبلاد على مهل ، ونسمع أنه أقام بعض الوقت فى سراقوصة ، وقبض عليه القراصنة فى بعض أسفاره وباعوه عبداً لأكسنياديس صاحب كورنثة ؛ ولما سأله سيده عما يستطيع أن يؤديه من الأعمال قال : « إنه يستطيع أن يحكم الرجال » ، فاتخذه أكسنياديس مربياً لأبنائه ، ومشرفاً على شئون قصره ، وأحسن ديجين القيام بكلا العملين إحساناً جعل سيده يطلق عليه لقب « العبقرى الصالح » ، ويعمل بمشورته فى كل شىء . وظل ديجين يحيا حياته البسيطة لايحيد عنها قط حتى أصبح بعد الإسكندر أشهر رجل فى بلاد اليونان .

وكان متصنعاً بعض الشىء ، وما من شك فى أنه كان يحب الشهرة ، وكان بارعاً فى الجدل ، ويقول سميه إنه لم يغلب قط فى مناقشة[٤٢] . وكان يصف حرية الكلام بأنها أعظم الطيبات ، وقد أفاد منها كثيراً هى والمزاج الخشن ، والفكاهة التى لم تكن تعجزه قط . وعنف ذات يوم امرأة تركع وتسجد أمام صورة مقدسة بأن سألها ؛ « ألا تخافين أن تكونى فى هذا الوضع وقد يكون من ورائك إله من الآلهة ، لأن الآلهة يملأون كل مكان[٤٣] ؟ » ، ولما رأى ابن حظية يرمي جماعة من الناس بحجر قال : « احذر أن تصيب أباك[٤٤] » . وكان يكره النساء ، ويحتقر من الرجال من يسلكون مسلك النساء ، من ذلك أن شاباً كورنثياً جاءه متعطراً متأنقاً فى ثيابه الغالية يسأله سؤالا فأجابه بقوله : « لن أجيبك عن سؤالك حتى تخبرنى : أولد أنت أم بنت[٤٥] ؟ » .

والعالم كله يعرف قصته مع الإسكندر حين التقى بالفيلسوف فى كورنثة

قائماً فى الشمس وقال له : « أنا الإسكندر الأكبر » ، وأجابه الفيلسوف بقوله : « وأنا ديجين الكلب » . وقال له الملك : « اسألنى أى شىء تريد » ، فأجابه : « ابتعد حتى لا تحجب عنى الشمس » . وقال الجندى الشاب : لو لم أكن أنا الإسكندر لتمنيت أن أكون ديجين[٤٦] » ؛ ولسنا نعرف أن ديجين قد رد على هذه التحية . ويراد بنا أن نعتقد أن الرجلين توفيا فى يوم واحد من أيام عام ٣٢٣ الإسكندر فى بابل وهو فى سن الثالثة والثلاثين ، وديجين فى كورنثة بعد أن جاوز التسعين[٤٧] . وقد وضع الكورنثيون فوق قبره كلباً من الرخام ؛ وأقامت له سينوب التى نفته نصباً تذكارياً تخليداً لذكراه .

وليس ثمة شىء أوضح من الفلسفة الكلبية : فهى لم تعمد إلى المنطق إلا ريثما تدحض نظرية المعرفة التى كان أفلاطون يحير بها عقول العلماء فى أثينة ، كذلك كانت الميتافيزيقا فى نظر الكلبيين عبثاً عقيماً ، وكانوا يقولون إن من واجبنا ألا ندرس الطبيعة لنفسر العالم بهذه الدراسة ، وهو أمر مستحيل : بل لنعلم حكمة الطبيعة ونسترشد بها فى الحياة . والفلسفة الوحيدة الحقة هى فلسفة الأخلاق ، والغرض من الحيـــاة هو السعادة ، ولكن هذه السعادة لا تكون فى طلب اللذة ، بل فى الحياة الفطرية البسيطة المستقلة قدر المستطاع عن المساعدات الخارجية ؛ ذلك أن اللذة ، وإن كانت عملا مشروعاً إذا أتت نتيجة كدح الإنسان وجهوده الخاصة ، ولم يعقبها شىء من الندم ووخز الضمير[٤٨] ، كثيراً ما تفلت منا أثناء السعى إليها ، أو تخيب رجاءنا فيها بعد أن ننالها ؛ ومن أجل هذا فإن الأخلق بنا أن نعدها شراً لا خيراً . والسبيل الوحيدة إلى السعادة الباقية هى أن يحيا الإنسان حياة معتدلة فاضلة . والثروة تفسد الطمأنينة والسلام ، والشهوة الحاسدة تأكل النفس كما يأكل الصدأ الحديد ، والاسترقاق عمل ظالم ولكنه ليس عملا خطيراً ؛ والرجل الحكيم يسهل عليه أن يجد السعادة فى الرق كما يجدها فى الحرية ، لأن حرية النفس هى الحرية الحقة . ويقول ديجين إن الآلهة

قد وهبت الإنسان الحياة السهلة المريحة ، ولكن الإنسان هو الذى عقدها بالتلهف على الترف . وليس معنى هذا أن الكلبيين كانوا شديدى الإيمان بالآلهة ، وشاهد ذلك أن قسيساً أخذ يعدد لأنتستانس ما يتمتع به المستمسكون أسباب الفضيلة من خير كثير بعد وفاتهم ، فسأله الفيلسوف : « ولم إذن لا تموت ؟ »[٤٩] ، وكان ديجين يسخر من الطقوس الدينية الخفية ، ويقول عن القرابين التى قربها فى سمثريس من نجوا من الموت بعد أن حطمت سفينتهم : « لو أن هذه القرابين قد قدمها الذين هلكوا لا الذين نجوا لكانت أكثر من هذه عدداً »[٥٠] ، وكان كل شىء فى الدين عدا الاستمساك بالفضيلة يبدو للكلبيين أوهاما وخرافات ، وهم يرون أن جزاء الفضيلة يجب أن يكون هو الفضيلة نفسها ، وأن من الواجب ألا يكون هذا الجزاء موقوفاً على عدالة الآلهة . وقوام الفضيلة هو الأكل ، والتملك ، والحد من الرغبات قدر المستطاع ، والاقتصار على شرب الماء . وعدم الإساءة لأى إنسان : وسئل ديجين : وكيف يستطيع الإنسان أن يدفع عنه أذى عدوه ؟ فأجاب بقوله : « بأن يثبت أنه شريف مستقيم »[٥١] . والشهوة الجنسية دون غيرها هى التى كانت تبدو للكلبيين غريزة معقولة ، وكانوا يتجنبون الزواج بوصفه رابطة خارجية ولكنهم كانوا يحمون البغايا . وكان ديجين يدعو إلى الحب الحر الطليق ، وإلى شيوعية الزوجات[٥٢] ؛ وكان أنستانس يطلب الاستقلال فى كل شىء ، ومن أجل ذلك كان يشكو من أنه لا يستطيع أن يشبع جوعه بمفرده كما يستطيع أن يشبع شهوته الجنسية على هذا النحو[٥٣] . وإذا كان الكلبيون قد قرروا أن الشهوة الجنسية شهوة سوية طبيعية كالجوع ، فقد أعلنوا أنهم لا يفقهون لم يخجل الناس من إشباع إحدى الرغبتين جهرة أمام الناس كما يشبعون الأخرى[٥٤] . ومن رأيهم أن الإنسان يجب أن يكون مستقلا فى كل شىء حتى فى الموت نفسه ،

فيختار لنفسه مكان موته وزمانه ؛ وعندهم أن الانتحار عمل مشروع ، ويقول بعضهم إن ديجين قتل نفسه بأن أمسك عن التنفس[٥٥] .

وكانت الفلسفة الكلبية جزءاً من الحركة التي تهدف إلى « الرجوع إلى الطبيعة » ، وهي الحركة التي قامت في أثينة في القرن الخامس رداً على ما أحدثته الحضارة المعقده من ملل في النفوس وعدم توازن في شئون الحياة . ذلك أن الناس ليسوا متحضرين بالفطرة ، وهم لا يحتملون قيود الحياة المنظمة ، إلا لأنهم يخشون مغبة العقاب والوحدة . وكانت الصلة بين ديجين وسقراط شبيهة بعض الشبه بالصلة التي بين روسو وڤلتير : فقد كان يرى أن الحضارة لا خير فيها ، وأن بروميثيوس قد استحق أن يصلب لأنه جاء بها إلى بني الإنسان[٥٦] . وكان الكلبيون ، كما كان الرواقيون ، وكما كان روسو في العصر الحديث ، يجعلون مثلهم الأعلى هو « الشعوب الطبيعية »[٥٧] ؛ وقد حاول ديجين أن يأكل اللحم النيئ لأن طهو الطعام عمل غير طبيعي[٥٨] ، ويظن أن أحسن المجتمعات هو المجتمع الخالي من أسباب الخداع ومن القوانين .

وكان اليونان يسخرون من الكلبيين ، ويصبرون عليهم صبر المجتمع في العصور الوسطى على القديسين . وقد أصبحوا بعد ديجين هيئة دينية من غير دين ، اتخذوا الفقر قاعدة وأساساً لعقيدتهم ، وكانوا يعيشون من الصدقات ، وينفسون عن عزوبتهم بالشيوعية الجنسية ، وافتتحوا مدارس لتعليم الفلسفة . ولم تكن لهم بيوت ، بل كانوا يعملون وينامون في الطرقات أو مداخل المعابد . وانتقلت العقائد الكلبية على أيدي استلبو Stilpo وأقراطيس Crates تلميذي ديجين إلى العصر الهلنستي ، وكانت فيه أساس الرواقية ، واختفت المدرسة بوصفها ذات كيان مستقل حوالى القرن الثالث ، ولكنها ظلت ذات أثر قوي في التقاليد اليونانية ، ولعلها عادت

إلى الوجود فى شخص الأسينيين(*) فى بلاد اليهود ، والرهبان فى مصر ، فى أوائل عهد المسيحية . وليس فى مقدور العلماء أن يقرروا حتى الآن مقدار ما تأثرت به هذه الحركات كلها بأمثالها من حركات الطوائف المختلفة فى الهند أو ما كان للثانية من أثر فى الأولى . وإن الذين يدعون للرجوع إلى الطبيعة فى أيامنا هذه ، لهم الأبناء الذهنيون لأولئك الرجال والنساء الذين عاشوا فى بلاد الشرق أو اليونان فى الأيام الخالية ، والذين ملوا القيود الضيقة غير الطبيعية ، وظنوا أن فى وسعهم أن يعودوا إلى الحيوانات ويعيشوا بينها ، واعتقادنا أنه ليس ثمة حياة كاملة خالية من هذه اللوثة الحضرية ؛

(*) جماعة دينية قامت بين اليهود الأقدمين ، كان أعضاؤها يعيشون عيشة العزلة والتقشف وكانت الملكية عندهم مشاعة . (المترجم)

الفصل الثالث

أفلاطون

١ – المعلم

لقد تأثر أفلاطون نفسه بالمبادئ الكلبية . وشاهد ذلك أنه يصف فى المقالة الثانية من الجمهورية[٥٩] مدينة فاضلة تعيش عيشة فطرية شيوعية ؛ ونستشف من هذا الوصف عطفه على هذه المدينة وحبه إياها . نعم إنه يكتفى بقبولها ولا يدعو إليها ، ويصور دولة « فى الدرجة الثانية بعدها » ، ولكنه حين يعمد إلى تصوير ملوكه — الفلاسفة نستشف فى هذه الصورة الحلم الكلبى ، فنجد رجالا لا أملاك لهم ولا زوجات ، يستمسكون بالحياة البسيطة والفلسفة الراقية ، قد استحوذوا على حصن أجمل خيال فى تاريخ اليونان . وكانت الخطة التى رسمها أفلاطون لإيجاد أرستقراطية شيوعية محاولة باهرة من رجل محافظ ثرى للتوفيق بين احتقاره للدمقراطية وبين مثالية زمانه المتطرفة .

وكان ينتمى إلى أسرة عريقة يرجع أصلها من ناحية أمه صولون ومن ناحية أبيه إلى ملوك أثينة الأولين ، بل لقد ذهب بعضهم إلى أنها ترجع من هذه الناحية إلى بسيدن إله البحر[٦٠] . وكانت أمه أخت خرميدس Charmide وابنة أخ أقريتياس ، ومن أجل هذا يكاد كره الدمقراطية أن يكون متأصلا فى دمه . وقد سمى أرستقليس Aristocles — أى الأحسن الشهير — ، وبرع الشاب فى جميع نواحى الحياة تقريباً ، فنبغ فى الموسيقى ، والرياضيات ، والبلاغة والشعر . وافتتنت النساء ، والرجال بلاريب ، بجمال طلعته ؛ وصارع فى الألعاب البرزخية ، ولقبوه من قبيل السخرية فلاطون Platon أى العريض لامتلاء جسمه وقوة بنيته ؛ وحارب

فى ثلاث معارك ، ونال جائزة فى الشجاعة[٦١] . وكتب فكاهات شعرية وغزلا ، ومأساة رباعية(*) ؛ وبينا كان يتردد بين الشعر والسياسة لا يعرف أيهما يختار طريقاً له فى الحياة ، إذ افتتن وهو فى سن العشرين بسقراط ؛ وما من شك فى أنه كان يعرفه من قبل ، لأن الفيلسوف الكبير كان صديقاً لخاله خرميدس ؛ ولكنه لما بلغ هذه السن كان يستطيع أن يفهم تعاليم سقراط ويستمتع بمنظر الرجل الشيخ وهو يقذف بأفكاره فى الهواء كالبهلوان ، مرتكزاً على أسنة أسئلته . فما كان منه إلا أن أحرق قصائده ، ونسى يوربديز والألعاب الرياضية ، والنساء ، وتبع المعلم الشيخ كأنه سحره أو نومه تنويماً مغنطيسياً . ولعله كان يكتب مذكرات فى كل يوم . لأنه كان يشعر كما يشعر الفنان المرهف الحس بما سيكون لهذا الشيخ البطين المشوه المحبوب من شأن عظيم فى مستقبل الأيام .

ولما بلغ أفلاطون الثالثة والعشرين من عمره شبت ثورة المحافظين فى عام ٤٠٤ بقيادة جماعة من أقربائه ، وشهد أيام الإرهاب الأبلجركى العصبية ، وشجاعة سقراط فى تحدى الثلاثين ، وموت أقريتياس وخرميدس ، وعودة الدمقراطية ، ومحاكمة سقراط وموته ، وبدا العالم كله يتصدع ويتهدم حول هذا الشاب الذى كان من قبل لا يتطرق الهم إلى قلبه ؛ ففر من أثينة التى بدت فى نظره كأنها مأوى الشياطين ، ووجد بعض الراحة فى ميغارا فى بيت إقليدس ، ثم فى قورينا ولعله كان فيها مع أرستيوس . ويظهر أنه سافر منها إلى مصر حيث درس على الكهنة العلوم الرياضية والمعارف التاريخية الشعبية[٦٣] . ونراه مرة أخرى فى أثينة حوالى عام ٣٩٥ ، وبعد عام من ذلك الوقت حارب دفاعاً عن كورنثة . وبدأ أسفاره مرة أخرى حوالى عام ٣٨٧ ، ودرس فلسفة فيثاغورس مع أرخيتاس

(*) المأساة الرباعية مجموعة من أربع مسرحيات ، ثلاث مآس ورواية هجائية ، كانت تمثل مجتمعة فى عيد ديونيشس فى أثينة . (المترجم) .

فى تاراس ومع تياوس فى لكرى ، ثم انتقل إلى صقلية ليشاهد بركان إتنا ، وارتبط برباط الصداقة مع ديون طاغية سراقوصة ، وقُدِّم لدنيسوس الأول ، وبيع بيع الرقيق ، ثم عاد سالماً إلى أثينة فى عام ٣٨٦ . ولما رفض أنسريس Anniceris الثلاثة الآلاف درخمة التى جمعها أصدقاؤه ليفتدوه بها ، ابتاع له هؤلاء الأصدقاء بهذا المال أيكة للتنزه فى ضواحى المدينة وأطلقوا عليها اسماً مشتقاً من إلهها المحلى أكديموس Academus[٦٢] ، وفيها أنشأ أفلاطون الجامعة التى قدر لها أن تكون فيما بعد مركز بلاد اليونان العقلى تسعمائة عام كاملة(*)

وكان المجمع العلمى (الأكاديمية) من الناحية الفنية إخوة دينية (ثاسيوس Thasios) مخصصاً لعبادة ربات الشعر والفن ، ولم يكن الطلاب يؤدون فيه أجوراً عن التعليم ، ولكنهم كانوا فى الغالب من أبناء الأسر الغنية ، ولذلك كان ينتظر من آبائهم أن يهبوا المعهد هبات قيمة . وفى ذلك يقول سويداس إن الأغنياء « كانوا يوصون قبل وفاتهم لأعضاء المدرسة بما يكفل لهم أن يحيوا حياة الفلاسفة غير مضطرين إلى العمل لكسب أقواتهم[٦٣] » . ويقال إن دنيسوس الثانى وهب المعهد ثمانين وزنة (٤٨٠,٠٠٠ ريال أمريكى)[٦٤] — وفى هذا ما قد يفسر صبر الفيلسوف على هذا الملك ، وكان الشعراء الفكهون فى ذلك الوقت يهجون الطلاب بقولهم إنهم أشخاص متصنعون فى أخلاقهم متطرفون فى ملابسهم — ذوو قلانس رشيقة وعصى : وستر قصيرة أو أردية جامعية[٦٥] . ألا ما أقدم تقاليد إيتن والأثواب الجامعية السوداء ! وكانت النساء يقبلن فى المجمع مع الرجال ، لأن أفلاطون بقى من هذه الناحية متطرفاً فى

(*) ولم تكن هى أولى جامعات بلاد اليونان . ذلك أن مدرسة أقروطرنا الفيثاغورية كانت منذ عام ٥٢٠ تقدم مناهج دراسية مختلفة لمجتمع علمى متحد النزعة ، كما كانت مدرسة إسقراط قائمة قبل مجمع أفلاطون العلمى بثمان سنين .

أفكاره تطرفا جعله من أقوى أنصار المرأة ، وكانت أهم موضوعات الدرس هي العلوم الرياضية والفلسفة ، وقد كتب على المجمع هذا التحذير : « لن يدخل هذا المكان إنسان بلا هندسة » ، ولعل قدراً كبيراً من الحساب كان شروط القبول فى المجمع . وكان معظم ما حدث من التقدم فى العلوم الرياضية فى القرن الرابع على أيدى رجال ممن درسوا فيه . وكان منهاج الرياضة يشمل الحساب (نظرية العدد) والهندسة الراقية ، والفلك ، « الموسيقى » (ولعل هذه كانت تتضمن الأدب والتاريخ) ، والقانون ، والفلسفة[٦٦] ، وكانت الفلسفة الأخلاقية والسياسية آخر الدراسات فى هذا المنهاج ، هذا إذا كان أفلاطون قد أخذ بالنصيحة التى ينطق بها سقراط فى معرض الدفاع إلى حد ما عن أنيتوس وملاتوس :

سقراط : إنك تعرف أن ثمة مبادئ معينة فى العدالة والخير تعلمناها فى طفولتنا ، ونشأنا تحت رعايتها الأبوية ، نطيعها ونعظمها :

أجلوكون : هذا صحيح .

سقراط : وثمة أيضاً مبادئ مناقضة لها وعادات من أنواع السرور تملق أرواحنا وتجذبها إليها ، ولكنها لا أثر لها فيمن لديهم أى إحساس بالحق ، ومن لا ينقطعون عن إجلال تعاليم آبائهم وطاعتها .

أجلوكون : حق .

سقراط : فإذا كان الإنسان فى هذه الحال وسألته روحه السائلة . ما هو الشيء الجميل الشريف ؟ وأجاب بأن ذلك هو الذى يأمر به القانون ، نقضت الحجج أقوال المشترع ، فاضطر إلى الاعتراف بأن لا شيء فيه من الجمال أكثر مما فيه من القبح ، أو فيه من العدالة والطيبة أكثر مما فيه من نقيضهما ، وإلى الاعتراف بأن هذا بعينه ينطبق على جميع آرائه التى خلع عليها الزمن جلالا وتعظيما ، إذا حدث هذا فهل تظن أنه سيظل يعظم هذه التعاليم ويطيعها ؟ .

أجلوكون : هذا مستحيل .

سقراط : وإذا لم يعد يظنها كما كان يظنها من قبل شريفة وطبيعية ، ثم عجز عن معرفة الحق ، فهل ينتظر منه أن يحيا حياة غير الحياة التى تتملق شهواته ؟

أجلوكون : ذلك ما لا ينتظر منه .

سقراط : وهل ينقلب بعدئذ من إنسان طائع للقوانين إلى إنسان خارج عليها ؟ .

أجلوكون : بلا ريب

سقراط : وإذن فلا بد من الحذر الشديد فى إدخال مواطنينا الذين لا يتجاوزون سن الثالثة والثلاثين فى الجدل . . . إذ يجب ألا يسمح لهم بتذوق هذه اللذة العزيزة قبل الأوان ؛ هذا شىء ينبغى تجنبه بنوع خاص ، لأن الشبان ، كما رأيت ، إذا تذوقوا الجدل بدءوا من فورهم يجادلون حبا فى الجدل ، ولا ينفكون يعارضون غيرهم ويدحضون حججهم تقليدا منهم لمن ينقضون حججهم هم ؛ فهم فى هذا أشبه بصغار الكلاب التى تسرها أن تشد أثواب كل من يقترب منها وتمزقها .

أجلوكون : نعم إن هذا هو الذى يسرها .

سقراط : وإذا ما غلبوا الكثيرين من الناس وغلبهم الكثيرون اندفعوا بسرعة وعنف إلى حال لا يؤمنون معها بأى شىء كانوا يؤمنون به من قبل ، ومن . . . ثم تسوء سمعة الفلسفة عند سائر الناس

أجلوكون : هذا هو عين الحق .

سقراط : ولكن الرجل إذا بدأ يكبر ، فإنه لا يرتكب هذا الضرب من الأعمال الجنونية ؛ بل يحذو حذو الرجل المنطقى الذى يبحث عن الحقيقة ، لا حذو الخصيم الذى يعارض لما يجده فى المعارضة من لذة ؛ وإن إجلال الناس لخلقه سيزيد من شرف هذا السعى بدل أنه ينقص منه(٧٦) .

وكان أفلاطون وأعوانه يعلمون الناس بالمحاضرات والحوار ، وبعرض

المسائل على الطلاب لحلها، وكان من هذه المسائل إيجاد : « الحركات المنتظمة المتساوية التى يمكن بالاستناد إليها تعليل حركة الكواكب[٦٨] » ؛ ولعل أودكسوس وهرقليدس قد وجدا فى هذه البحوث ما يحفزهما إلى العمل . وكانت المحاضرات علمية ؛ وكانت فى بعض الأحيان مخيبة لآمال من جاؤوها طلبا للكسب المادى ، ولكن تلاميذ أرسطو ودمستين وليقورغ ، وهيبريدس ، وأكسانوقراطيس تأثروا بها أعمق التأثر ونشروا فى كثير من الأحيان ما كتبوه عنها من مذكرات . وقال أنتفانس متفكها إن الكلمات التى كان ينطق بها أفلاطون أمام طلابه فى شبابهم لم يفهموها إلا فى شيخوختهم ، كما كانت الألفاظ فى إحدى المدن القائمة فى أقصى الشمال تتجمد حين تخرج من أفواه المتكلمين ثم تسمع فى الصيف حينما تسيح[٦٩] .

٢ — الفنان

يقر أفلاطون نفسه أنه لم يكتب فى حياته رسالة علمية[٧٠] ، ويشير أرسطوطاليس إلى ما كان يلقى من العلوم فى المجمع العلمى بقوله « تعاليم » أفلاطون « غير المكتوبة »[٧١] . ولسنا نعرف مدى اختلاف هذه التعاليم عما ورد فى المحاورات(*) ، وأكبر الظن أن هذه المحاورات كانت فى بادئ الأمر وسيلة للترويح عن النفس ، وأنها كانت تلقى بطريقة فكهة إلى حد ما[٧٢] . ومن مخريات التاريخ أن المؤلفات الفلسفية التى تدرس فى الجامعات الأوربية والأمريكية والتى تلقى فيها أعظم التقدير والإجلال فى هذه الأيام قد ألفت لتقرب الفلسفة من أذهان غير العلماء بربطها بإحدى الشخصيات المعروفة . ولم تكن محاورات أفلاطون أول ما كتب من الحوار الفلسفى ، فقد اتبع زينون الإيلياتى وكثيرون غيره هذه الطريقة ذاتها[٧٣] ، ونشر تيمن الأثينى قاطع الجلود بطريقة

(*) إن من فقرات فى كتب أرسطو ما يوحى بأنه كان يفهم أفلاطون وخاصة نظريته فى الأفكار على غير ما نفهمه نحن من المحاورات .

الحوار أحاديث سقراط التى كانت تدور فى حانوته[٧٤] . وكانت المحاورات كما أوردها أفلاطون قطعة أدبية لا تاريخية ؛ فهو لا يدعى أنه ينقل لنا نصا دقيقا للأحاديث التى كانت تجرى قبل أن يكتبها بثلاثين عاما أوخمسين ، بل ولا يدعى أنه يحرص على أن يكون ما فيها من إشارات منسقا غير متناقض بعضه مع بعض . وذهل غورغياس كما ذهل سقراط حين سمعا الألفاظ التى أنطقهما بها الفيلسوف المسرحى[٧٥] . وقد كتبت المحاورات مستقلة كل منها عن الأخرى ، ولعلها كتبت فى فترات متباعدة تباعدا طويلا ، وليس من حقنا أن نرتاع لما فيها من سهو ، كما ليس من حقنا أكثر من هذا أن نرتاع لما فيها من آراء متناقضة . وليس ثمة خطة موضوعة للتأليف بينها كلها وجعلها وحدة منسقة ، اللهم إلا البحث المتواصل الذى يقوم به عقل ينمو ويتطور تطوراً واضحا ملموساً عن الحقيقة التى لا يستطيع الحصول عليها أبداً[*] .

والمحاورات مركبة بمهارة وإن كانت لا ترقى إلى الدرجة الوسطى . وهى تصور الأفكار تصويراً مسرحيا ، وترسم صورة منسقة لسقراط تدل على حب أفلاطون الشديد له ؛ ولكنها قلما تدل على وحدة الأفكار أو تسلسلها ،وكثيراً ما تنتقل من موضوع إلى موضوع وتسئم القارئ فى كثير

(*) ليس فى وسعنا أن نحدد تواريخ المحاورات الست والثلاثين أو أن نصنفها تصنيفاً علمياً لا مطعن فيه . غير أن فى وسعنا أن نقسمها تقسيما منسقا إلى الأقسام الآتية : (١) مجموعة أولى وأهمها الأپولوچيا ، وأقريطون ، وليسيز ، وأيون ، وخرميدس ، وأقراطيلوس ، وأوطيفرون وأوتيدموس . (٢) ومجموعة وسطى وأهمها غورغياس ، وپروتاغوراس ، وفيدون ، ومعرض الآراء (سمپوزيوم) ، وفيدروس ، والجمهورية (٣) ومجموعة متأخرة وأهمها پرمنيدس ،وثيتياتوس ، والسوفسطائى ، والسياسى ، وفيلابوس ، وتيماوس والقوانين . وأكبر الظن أنه ألف المجموعة الأولى قبل أن يبلغ الرابعة والثلاثين من العمر ، والثانية قبل الأربعين ، والثالثة بعد الستين ، وأنه كان يخصص السنين التى بين كل مجموعة والتى تليها للمجمع العلمى .

من أجزائها لأنه يورد الحديث بمعناه لا بلفظه — فيجعل رجلا واحداً ينقل سائر أحاديث غيره من الناس . ويقول سقراط إن ذاكرته « غاية فى الضعف »(٧٧) ؛ ولكنه مع ذلك يتلو على صديق له عن ظاهر قلب أربعا وأربعين صفحة من نقاش جرى فى أيام شبابه بينه وبين پروتاغوراس . ومما يضعف معظم المحاورات أنها يعوزها المتكلمون الأقوياء القادرون على أن يردوا على سقراط « بغير نعم » أوما فى معناها . ولكن هذه العيوب تختفى فى تألق اللغة ووضوحها ، وما فى الموقف ، والتعبير والفكرة من فكاهة ، والعالم الحى وما فيه من مختلف الشخصيات البشرية الحقيقية ، وما تفتحه هذه المحاورات من نوافذ توصل إلى العقل العميق النبيل . وفى وسعنا أن نحكم على ما كان لهذه المحاورات من قيمة عظيمة عند الأقدمين ، وإذا ذكرنا أنها أكمل نتاج عقلى وصل إلينا من أى مؤلف يونانى ، وإن شكلها ليضعها فى تاريخ الأدب فى منزلة لا تقل سمواً على المنزلة التى يضعها فيها موضوعها فى تاريخ الفكر .

وأقدم المحاورات من خير الأمثلة فى جدل الشباب الخصيم الذى يندد به فى الفقرة التى أوردناها من قبل ، ولكن الصورة الساحرة التى تصور بها هذه المحاورات الشباب الأثينى تذهب بما فيها من عيوب من هذه الناحية . ومعرض الآراء هو خير ما كتب من نوعه فى أدب العالم كله ، وهو خير مقدمة لكتب أفلاطون ، وإن ما فيه من تصوير مسرحى للمناظر (ونورد على سبيل المثال قول أجاثون Agathon لخدمه : « تصوروا أنكم أرباب المنزل وأننى أنا وأصحابى ضيوفكم »(٧٨)) ، والصورة الحية التى رسمها لأرسطوفان « وقد تملكه الفواق من كثرة الأكل » وقصته المرحة عن ألقبيادس الثمل الذى افتضح أمره بين الناس ، وأهم من هذا كله براعته فى التأليف بين الواقعية القاسية فى صورة سقراط وبين فكرته السامية عن الحب ، نقول إن هذه الصفات تجعل معرض الآراء آية أدبية رائعة فى فن النثر . أما الفيدون فأقل من معرض الآراء قوة وأكثر منه جمالا . فالنقاش الرئيسى فيه ، مهما يبلغ من الضعف ، نقاش أمين لا التواء فيه ولا مغالطة ، يبيح لصاحب الرأى

المخالف فرصة مكافئة لفرصة مناظره ، ويتدفق تدفقاً أكثر سلاسة وسط مناظر يتغلب هدوؤها على ما فيها من مآس ، حتى أن موت سقراط نفسه ليشبه اختفاء النهر عن العين حين يلتف عند أحد المنحنيات . ويدور بعض ما يشتمل عليه فيدروس من حوار على شواطئ نهر إيليسوس Ilissus حين يبرد سقراط وتلميذه أقدامهما في ماء النهر . ولا حاجة إلى القول بأن أعظم المحاورات كلها على الإطلاق هي الجمهورية لأنها أكمل عرض لفلسفة أفلاطون ، وهي في أول أجزائها صراع مسرحي بين الأشخاص والآراء . والبارمنيدس أسوأ مثل للتلاعب المنطقي في الأدب كله ، كما أنه أجرأ مثل في تاريخ الفلسفة للمفكر الذي يفند أحب العقائد إلى نفسه — نعني نظرية الأفكار — تفنيداً لا يقوى أحد على الرد عليه ودحض حججه . وفي المحاورات الأخيرة تضعف قدرة أفلاطون الفنية ، فتضمحل شخصية سقراط ، وتفقد الميتافيزيقا شعريتها ، وتفقد السياسة « مثل الشباب العليا » حتى إذا ما وصلنا إلى القوانين ، استسلم الرجل المتعب المنهوك القوى الذي ورث جميع ثقافة أثينة على اختلاف مناحيها إلى إغراء اسپارطة ، وطلق الحدثة ، والشعر والفن والفلسفة نفسها .

٣ — الميتافيزيقى

لم يتبع أفلاطون فيما خلفه من أفكار خطة منظمة ، وإذا لخصنا نحن آراءه ووضعنا لها رؤوس موضوعات مختلفة كالمنطق ، وما وراء الطبيعية ، والأخلاق ، وعلم الجمال ، والسياسة ، ليسهل علينا أن نتحدث عنها حديثاً منظماً ، فإن من الواجب أن نذكر أن أفلاطون نفسه كان شاعراً مغرقاً في شاعريته إلى حد يمنعه أن يقيد أفكاره ويحدها بحدود . وإذ كان أفلاطون شاعراً فقد كان المنطق أكثر ما يعترض سبيله من الصعاب ، فهو يجول هنا وهناك يبحث

عن التعاريف ويضل السبيل فى التشبيهات التى تعرضه لأشد الأخطار ؛ « ثم دخلنا فى تيه ، ولما حسبنا أننا قد وصلنا إلى آخره ، رأينا أنفسنا مرة أخرى فى بدايته ، وكان علينا أن نعود إلى البحث عن مخرج(٧٩) » ، ويختم حديثه هذا بقوله : « ولست واثقا قط من أنه يوجد من بين العلوم علم كالمنطق(٨٠) ». ولكنه مع هذا يخطو فيه الخطوة الأولى . فهو يفحص عن طبيعة اللغة ويقول إنها مشتقة من محاكاة الأصوات(٨١) ؛ ويبحث فى التحليل والتركيب ، والتشبيهات والمغالطات ، ويقبل الاستقراء ، ولكنه يفضل الاستدلال(٨٢) ؛ ويضع فى هذه المحاورات الشعبية نفسها مصطلحات فنية ، كالجوهر ، والطاقة ، والفعل والانفعال ، والتوليد ، وهى المصطلحات التى استخدمتها الفلسفة فيما بعد . وهو يضع أسماء لخمس من المقولات العشر التى أذاعت شهرة أرسطوطاليس . وهو يرفض قول السوفسطائيين إن الحواس خير وسيلة لمعرفة الحقيقة وإن الفرد هو مقياس "الأشياء جميعها" ؛ ويقول إنه لو صح هذا لكان ما يقوله أى إنسان عن العالم مساويا فى قيمته لما يقوله أى نائم ، وأى مخبول ، أو أى قرد(٨٣) .

ولسنا نستمد من فوضى الحواس إلا فيضا من التغيرات الهرقليطية ؛ ولو لم تكن إلا إحساسات ، لما كانت لدينا قط معلومات أو حقائق ؛ ذلك أن المعلومات لا تأتى إلا عن طريق الأفكار ، وعن طريق الصور المعممة ، والأشكال التى تصوغ فوضى الإحساسات وتكون منها التفكير المنظم(٨٤) . ولو كنا لا ندرك إلا الأشياء المفردة لكان التفكير مستحيلا ، ذلك أننا نتعلم التفكير بجمع الأشياء وتصنيفها حسب ما بينها من أوجه الشبه ، ثم نعبر عن الصنف بأجمعه باسم عام له ، فلفظ رجل يمكننا من أن نفكر فى جميع الرجال ، ولفظ منضدة يمكننا من التفكير فى جميع المناضد ، ولفظ ضوء فى جميع الأضواء التى سطعت فى البر أو البحر . وليست هذه الآراء (ideai و eida) أشياء تدركها الحواس ، ولكنها حقائق تعرف بالتفكير ، لأنها تبقى ، ولا تتغير ، ولو انعدمت

جميع الموجودات الحسية المقابلة لها . فالرجال يولدون ويموتون ، ولكن « الرجل » يبقى . وليس كل مثلث بمفرده إلا مثلثاً ناقصاً ، يفنى عاجلا أو آجلا ، ومن أجل هذا فهو غير حقيقى نسبياً ، ولكن « مثلث » — أى الشكل والقانون اللذين ينطبقان على جميع المثلثات — كامل سرمدى(٨٥) . وكل الأشكال الرياضية أفكار سرمدية وكاملة(*) ، وكل ما تقوله الهندسة عن المثلثات ، والدوائر ، والمربعات والمكعبات ، والكرات ، يبقى صحيحاً ، ومن ثم فهو « حقيقى » ولو لم توجد هذه الأشكال فى العالم المادى فى الماضى أو فى المستقبل . والمعانى المجردة هى الأخرى حقيقة بهذا المعنى ؛ فالأعمال الفردية الفاضلة قصيرة الأجل ولكن الفضيلة تبقى حقيقة خالدة فى التفكير ؛ وأداة للتفكير ، وهذا أيضاً شأن الجمال ، والكبر ، والمشابهة وما إليها(٨٧) . فالأعمال والأشياء الفردية أشياء وأعمال بالصورة التى نعرفها بها ، لأنها تشترك فى هذه الأشكال الكاملة أو الأفكار ، وتحقق وجودها بدرجة قليلة أو كثيرة . وعالم العلم والفلسفة لا يكون من أشياء مفردة ، بل يتكون من أفكار(**) (٨٨) ؛

(*) ولقد حاول أفلاطون فى سنيه الأخيرة أن يبرهن على عكس نظرية فيثاغورس ، أى أن الأفكار جميعها صور رياضية(٨٦) .

(**) وازن بين هذا وبين قول كرل : « إن الأفكار وحدها عند العلماء المحدثين ، كما هى عند أفلاطون ، هى الحقائق(٨٩) » . وانظر ايضا قول اسبنوزا : « ولست أفهم من قولهم تتابع العلل والمعلولات الحقة ، أن هناك سلسلة من الأشياء الفردية المتغيرة ؛ وليس ذلك فقط لأن عددها يفوق الحصر ، بل لأن ... وجود الأشياء المعينة لا صلة بينه وبين جوهر هذه الأشياء ، وليس هو حقيقة ازلية » (لكى تكون هندسة المثلثات حقيقية ، ليس من الضرورى أن يوجد أى مثلث خاص) . « على أنه ليس من الضرورى أن نفهم سلسلة الأشياء الفردية المتغيرة ، لأن جوهرها ... لا يوجد إلا فى الأشياء الثابتة الأزلية ومن القوانين المسجلة فى هذه الأشياء ، والمكونة لشرائعها الحقة التى بمقتضاها صنعت ورتبت(٩٠) » . ويلاحظ القارئ أن هرقليطس وبارمنيدس يتفقان مع أفلاطون فى نظريته الخاصة بالأفكار : فهرقليطس إذن على حق ، وتتابع الأشياء حقيقى فى عالم الحواس ؛ كما أن بارمنيدس على حق والوحدة التى لا تتبدل حقيقة فى عالم الأفكار .

والتاريخ المتميز عن السِّيَر هو قصة الإنسان ، وليس علم الأحياء هو علم كائنات عضوية معينة بل هو علم الحياة نفسها ، وليست العلوم الرياضية هي دراسة الأشياء المجسمة بل هي دراسة العدد ، والعلاقة ، والشكل ، مستقلة عن الأشياء نفسها ، ولكنها تصدق على جميع الأشياء . والفلسفة هي علم الأفكار .

وكل شيء في ميتافيزيقية أفلاطون يدور حول نظرية الأفكار . فالله المحرك الأول الذي لا يتحرك ، أو روح العالم[٩١] ، يحرك كل شيء وينظمه حسب القوانين والأشكال الأزلية ، وهي الأفكار التي لا تتبدل والتي تكون ، على حد قول أصحاب الأفلاطونية الحديثة ، الكلمة أو الحكمة الإلهية أو عقل الله . وأرقى الأفكار هو الخير ، ويرى أفلاطون في بعض الأحيان أن هذا الخير هو الله نفسه[٩٢] ، ولكنه في أكثر الأحيان هو أداة الخلق المادية المرشـــدة ، والشكل الأعلى الذي تنجذب إليه كل الأشياء . وإدراك هذا الخير ، ورؤية هذا المثل الأعلى الذي يشكل عملية الخلق ، هو أسمى غاية تبتغيها المعرفة[٩٣] . وليست الحركة وعملية الخلق عمليتين آليتين بل هما تحتاجان في العالم ، كما نحتاج نحن ، إلى روح أو مبدأ حيوي يكون هو قوتهما المنشئة المبدعة[٩٤] .

وليس شيء حقيقياً إلا الذي فيه قوة[٩٥] ، ومن أجل هذا فإن المادة ليست حقيقة أساسية (to me on) بل هي مجرد مبدأ من القصور الذاتي ، وإمكانياته تنتظر أن يعطيها الله أو الروح شكلا خاصا وكيانا حسب فكرة من الأفكار . والروح هي القوة المتحركة بنفسها الموجودة في الإنسان ، وهي جزء من الروح المتحركة بنفسها الموجودة في الأشياء جميعها[٩٦] . وهي قوة حيوية خالصة ، مجردة من الجسم ، وخالدة . وقد وجدت قبل الجسم ، وجاءت معها من حاولها في أجسام سابقة بذكريات كثيرة إذ أيقظتها الحياة الجديدة حسبناها خطأ معلومات جديدة . ولنضرب لذلك مثلا الحقائق

الرياضية فهى بأجمعها فطرية بهذه الطريقة ، وكل ما يفعله التعليم هو أنه يوقظ ذكريات الأشياء التى عرفتها الروح فى حيواتها الكثيرة الماضية[٩٧] . وإذا مات الإنسان انتقل روحه أو مبدأ الحياة الذى فيه إلى كائنات عضوية أخرى أرقى منه أو أحط حسب ما استحقته فى تجسداتها السابقة . وربما ذهبت الروح المذنبة إلى المطهر أو الجحيم ، وذهبت الروح الفاضلة إلى جزائر المباركين[٩٨] . فإذا ما تطهرت الروح فى خلال الحيوات المختلفة من جميع آثامها ، تحررت من التجسد وصعدت إلى الفردوس تتمتع فيه بالسعادة السرمدية(*) [٩٩] .

٤ — العالم الأخلاقى

لقد كان أفلاطون يعرف أن كثيرين من قرائه سيكونون من المتشككين ، ودليلنا على هذا أنه قضى بعض الوقت يحاول وضع قانونى أخلاق طبيعى يبعث فى نفوس الناس الرغبة فى الاستقامة والصلاح من غير أن يعتمدوا على السماوات والمطهر والجحيم[١٠١] ؛ وإن المحاورات التى كتبها فى حياته الوسطى لتتحول شيئاً فشيئاً من الميتافيزيقا إلى الأخلاق والسياسة « إن أعظم أنواع الحكمة وأجملها هى الحكمة المتصلة بتنظيم الدول والأسر[١٠٢] » .

والمشكلة الرئيسية فى علم الأخلاق تدور حول النزاع الظاهر بين ملاذ الفرد وبين الخير الاجتماعى . ويعرض أفلاطون هذه المشكلة عرضاً واضحاً ويورد على لسان كلياس Callias من الحجج التى تبرر الأنانية ما لا يقل عن أقوى الحجج التى أوردها أى داعية لمخالفة القواعد الخلقية فى عصر من العصور[١٠٣] . وهو يعترف بأن كثيراً من اللذائذ لا عيب فيه ولا إثم ،

(*) يصعب علينا أن نحكم عن مقدار ما فى هذه العقيدة ، عقيدة الخلود ، الهندية — الفيثاغورية — الأورفية من تصوير متعمد يهدف إلى حماية الناس من الزلل . ويعرضها أفلاطون عرضاً تهكمياً ، كأنها فى نظره لا تعدو أن تكون أسطورة نافعة ، أو عوناً شديداً على الخلق الطيب .

وأن الإنسان فى حاجة إلى الذكاء للتمييز بين اللذات الطيبة واللذات الضارة ، وأن من الواجب أن تربى فى الطفل عادة الاعتدال وإدراك « الأواسط الذهبية للأمور » خشية أن يأتى الذكاء متأخراً بعد فوات الوقت(١٠٤) .

وتتكون النفس أو أصل الحياة من ثلاث درجات أو أجزاء — الشهوة ، والإرادة ، والفكر ، ولكل جزء من هذه الأجزاء فضيلته الخاصة — الاعتدال والشجاعة ، والحكمة ؛ ويجب أن تضيف إليها التقوى والعدالة — وأداء واجب الإنسان نحو والديه وآلهته . ويمكن تعريف العدالة بأنها هي تعاون الأجزاء فى الكل ، أو العناصر فى الأخلاق ، أو الأهلين فى الدولة ، بحيث يقوم كل جزء بواجبه اللائق به على الوجه الأكمل(١٠٥) . وليس الخير هو العقل وحده أو اللذة وحدها ، بل هو امتزاجهما بنسب ومقادير تنتج منها حياة الفعل(١٠٦) . والخير الأسمى كائن فى العلم الخالص بالأشكال والقوانين السرمدية ، و « أسمى خير » من الناحية الأخلاقية « ... هو ما فى النفس من قدرة أو موهبة ، إذا كان ثمة شىء من هذا النوع تستطيع به أن تعرف الحقيقة ، وأن تفعل كل الأشياء من أجل الحقيقة(١٠٧) ؛ ومن يحب الحقيقة لا يهمه أن يجزى الإساءة بالإساءة(١٠٨) » ، بل يفضل أن يتحمل على أن يرتكب هو الظلم ، و « يضرب فى الأرض برا وبحرا يبحث عن الناس الذين لا يجد الفساد سبيلا إليهم ، والذين لا تُقَوَّم صحبتهم بالمال أيا كان . . . والذين يهبون أنفسهم للفلسفة بحق يمتنعون عن الشهوات الجسمية ، وإذا ما عرضت عليهم الفلسفة أن تطهرهم من الشر وتحررهم منه ، أحسوا بأن من واجبهم ألا يقاوموا تأثيرها فيهم ؛ ومن أجل ذلك يميلون نحوها ، ويسيرون خلفها للهدف الذى تقودهم إليه(١٠٩) » .

وكان أفلاطون قد حرق قصائده وفقد عقائده الدينية ولكنه ظل مع ذلك شاعراً وعابداً ؛ يغمر فكرته عن الخير إحساس قوى بالجمال وتقوى ممتزجة

بالزهد والتقشف ، توحدت فيه الفلسفة والدين وامتزجت فيه الأخلاق بحاسه الجمال . ولما تقدمت به السن عجز عن أن يرى الجمال منفصلا عن الخير والحقيقة . وكان فى دولته المثالية يفرض الرقابة على جميع الفن والشعر اللذين قد ترى الحكومة أن فيهما نزعة مغايرة للأخلاق الفاضلة أو الوطنية ، وهو يمنع فيها جميع الخطب وجميع المسرحيات المضادة للدين ؛ وحتى شعر هومر نفسه — الذى يصور الدين المغاير للأخلاق تصويراً مغرياً — يجب أن يضحى به . وكان يجيز فى هذه الدولة المثالية أساليب الموسيقى الدُّورية والفريجية ، ولكنه يشترط ألا تضر بها آلات معقدة التركيب أو يعزفها فنانون يحدثون « أصواتا وحشية » فى أثناء عرضهم الفنى[١١٠] ، أو يدخلون فيها بدعا متطرفة .

« يجب الابتعاد عن إضافة أى نوع جديد لأنواع الموسيقى ، لأن هذا يعرض الدولة كلها للخطر ، وسبب ذلك أن الأنماط الموسيقية إذا اضطربت أثرت حتما فى أهم الأنظمة السياسية . . . ذلك أن النمط الجديد يتأصل فى الدولة تدريجا ، ويتطرق شيئاً فشيئاً إلى أخلاق الناس وعاداتهم ، ومن هذه الأخلاق والعادات يهاجم الشرائع والدساتير ، ويظهر فى هذا الهجوم منتهى السفالة ، وينتهى الأمر بقلب كل شىء فى الدولة رأساً على عقب[١١١] .

والجمال كالفضيلة إنما يكون فى اللياقة ، والتناسب ، والنظام . والعمل الفنى يجب أن يكون مخلوقا حيا ، ذا رأس ، وجذع ، وأطراف ، توحدها وتبعث فيها الحياة ، فكرة واحدة[١١٢] . ويظن هذا المتزمت المتحمس أن الجمال الحق هو جمال العقل لا جمال الجسم ، وأن الأشكال المندســية ذات جمال سرمدى مطلق ، وأن القوانين التى تقوم عليها السموات تفوق النجوم فى جمالها[١١٣] . والحب هو طلب الجمال ويتألف من ثلاث مراحل أولاها حب الجسم والثانية حب الروح والثالثة حب الحقيقة . وحب الجسم بين الرجل والمرأة مشروع لا إثم فيه لأنه وسيلة التناسل الذى هو نوع من أنواع الخلود[١١٤] ، ولكنه مع ذلك صورة بدائية من

الحب غير جديرة بالفيلسوف . والحب الجسمي بين الرجل والرجل أو بين المرأة والمرأة مناف للطبيعة ويجب قمعه لأنه يعطل التناسل[١١٥] . وقمعه مستطاع بالسمو به إلى المرحلة الثانية أى المرحلة الروحية من مراحل الحب : فنى هذه المرحلة يحب الرجل الكبير السن الشاب لأن وسامته رمز للجمال الطاهر السرمدى ، والشاب يحب الشيخ لأن حكمته تيسر له سبيل الفهم والشرف . ولكن أسمى أنواع الحب هو « حب الاستحواذ على الخير الأبدى » وهو الحب الذى يسعى وراء الجمال المطلق للأفكار أو الأشكال الكاملة السرمدية[١١٦] . وهذا النوع لا العاطفة غير الجسمية بين الرجل والمرأة هو « الحب الأفلاطونى » ، وهو النقطة التى يتحدث عندها أفلاطون الشاعر مع أفلاطون الفيلسوف فى الرغبة القوية فى الفهم ، وتكاد هذه الرغبة أن تكون شغفا صوفياً بما فى القانون وما فى بناء العالم وحياته وغايته من نور النعيم الباهر .

لأن أديمنتس ، الذى لا يتحول عقله عن الوجود الحق لا يجد لديه وقتاً يطل فيه على شئون الناس ، أو يمتلئ فيه قلبه حسداً وغلا من النزاع معهم ؛ ذلك أن عينه تتجه على الدوام نحو المبادئ الثابتة التى لا تتبدل ، وهى التى لا يؤذى بعضها بعضاً ، بل يراها كلها تتحرك فى نظام حسب قوانين العقل ؛ فهو يحلو حذو هذه المبادئ ، وعلى مثالها يشكل حياته قدر المستطاع[١١٧] » .

٥ — الطوباوى

ولكنه مع هذا يهتم بشئون الناس ، وتتمثل أمام ناظريه رؤيا اجتماعية أيضاً ، ويحلم بوجود مجتمع خال من الفساد والفقر والظلم والحروب . وقد روعه ما كان يسود أثينة من انقسامات حزبية مريرة « وشقاق ، وعداء ، وحقد ، وريبة ، لا تكاد تخبو نارها حتى تعود إلى الاشتعال »[١١٨] . وكان يحتقر أبلوركية المال كما يحتقرها جميع النبلاء أبناء الأسر الشريفة ذات المجد التليد ،

ويقول عن رجالها إنهم « رجال الأعمال . . . الذين لا تطاوعهم نفوسهم إلى رؤية من قضوا عليهم بجشعهم ، ويدفعون سمومهم — أى ما لهم — فى جسم كل من لا يحذرهم ، ثم يستردون ما أخذوه منهم أضعافاً مضاعفة : وتلك هى الطريقة التى يملأون بها الدولة بالكسالى والمعلمين »[119] « ثم تنشأ الدمقراطية ، بعد أن يتغلب الفقراء على معارضيهم ، فيقتلون بعضهم ، وينفون من البلاد البعض الآخر ، ثم يمنحون الباقين أقساطاً متساوية من الحرية والسلطة »[120] . ويتضح آخر الأمر أن الدمقراطيين لا يقلون فساداً عن الحكام الأثرياء : فهم يستخدمون القوة التى تؤول إليهم لكثرة عددهم ليوزعوا الأموال العامة على الفقراء ، ومناصب الدولة عليهم أنفسهم ؛ وهم يتملقون العامة ويداهنونهم حتى تنقلب الحرية فوضى ، وتنحط المعايير بعد أن تؤول السلطة العليا إلى أراذل الناس ، وتغلظ الطباع بسبب انتشار الوقاحة والسباب ؛ وكما أن السعى الجنونى وراء المال يقضى على الحكم الألجركى ، كذلك يقضى على الدمقراطية التطرف فى الحرية .

سقراط : فنى مثل هذه الدولة تسود الفوضى ، وتتخذ سبيلها إلى بيوت الأفراد ، وينتهى الأمر بانتقال عدواها إلى الحيوانات . . . فيتعود الأب النزول إلى مستوى أبنائه . . ويتعود الابن أن يضع نفسه فى مستوى أبيه ، فلا يخشى أبويه ، ولا يستحى منهما . . . ويخاف الأستاذ طلابه ويتملقهم ، ويحتقر الطلاب أساتذتهم ومعلميهم . . . ويصبح الكبار والصغار سواسية ، فيضع الشاب نفسه فى مستوى الشيخ ، ولا يستنكف أن يعارضه بالقول والفعل ولا يتحرج الشيوخ من تقليد الشبان . ومن واجبى ألا أنسى حرية الجنسين الذكور والإناث ومساواة كليهما بالآخر فى علاقتهما بعضهما ببعض . . . والحق أن الخيل والحمير ، لن تعلم وتتخذ سبيلا للسير مع الناس جنباً إلى جنب ، والاستمتاع بكل ما لأحرار الناس من حقوق وكرامات . . وقصارى القول أن الأشياء جميعها توشك أن تنفجر لكثرة ما أتخمت بالحرية . . .

أديمنتس : ولكن ما هى الخطوة التالية ؟ ...

سقراط : إن ازدياد أى شىء فوق حده كثيراً ما يؤدى إلى انقلاب فى الاتجاه المضاد له . . . ولهذا يبدو أن الإفراط فى الحرية ، سواء كان ذلك من ناحية الأفراد أو من ناحية الدول ، لن يؤدى إلا إلى الاستعباد ... ونرى أن أشد أنواع الحكومات استبداداً تنشأ من أشد أنواع الحرية تطرفاً .

وإذا ما صارت الحرية تحللا من كل القيود ، فقد اقتربت الدكتاتورية . ذلك أن الأغنياء يخشون وقتئذ أن تجردهم الدمقراطية من مالهم فيأتمرون بها ليقضوا عليها[١٣٢] ؛ وقد يغتصب السلطة أحد الأفراد المغامرين ، ويعد الفقراء بكل ما يرغبون فيه ، ويحيط نفسه بجيش خاص به ، ويقتل أولا أعداءه ثم يتبعهم بأصدقائه « حتى يطهر الدولة » من هؤلاء وأولئك ، ويقيم حكومة دكتاتورية[١٣٣] . وفى هذا الصراع العنيف بين الآراء المتطرفة يكون الفيلسوف الذى ينادى بالاعتدال والتفاهم أشبه « برجل وقع بين الوحوش » ، فإذا كان حكيما « احتمى بجدار حتى تمر العاصفة والريح الهوجاء »[١٣٤] .

ومن العلماء من يلجئون فى هذه الأزمات إلى الماضى ، ويشتغلون بكتابة التاريخ ، أما أفلاطون فيلجأ إلى المستقبل ، ويضع نظام المدينة الفاضلة ، ويرى أن أول ما يجب عمله هو البحث عن ملك صالح يسمح لنا بأن نجرى التجارب على شعبه ، وواجبنا الثانى هو أن نبعد من هذه المدينة جميع الكبار فلا نستبقى منهم إلا من لا غنى عنهم لحفظ النظام وتعليم الشبان ، وذلك لأن أساليب الكبار تفسد الشباب وتطبعهم بطابع الماضى . ثم نعد الشباب رجالا كانوا أو نساء منهجا تعليمياً يمد إلى عشرين عاما ، ويشمل تعليم الأساطير ، وهو لا يقصد بها أساطير الدين القديم الفاسدة ، بل أساطير جديدة تعود النفس طاعة الآباء والدولة(*) . فإذا قضوا فى التعليم هذه المدة وضعت لهم اختبارات جسمية وعقلية وأخلاقية . فأما الذين يخفقون

(*) أى أن أفلاطون يحكم بأن القانون الأخلاق الطبيعى يكفى بمفرده .

فى هذه الاختبارات فيصبحون هم رجال الاقتصاد فى الدولة — رجال الأعمال، والصناع، والزراع؛ ويسمح لهؤلاء بأن تكون لهم أملاك خاصة، وأن يكونوا على درجات مختلفة فى الثراء (داخل حدود معينة) حسب كفاياتهم ، على أنه لا يسمح بوجود العبيد. أما من يجتازون هذا الاختبار الأول فيتلقون منهاجاً آخر من التعليم والتدريب يمتد إلى عشرة أعوام أخرى .

ثم يختبرون من جديد بعد الأعوام الثلاثين ؛ فأما الساقطون فيصبحون جنوداً ، لا يسمح لهم بأملاك خاصة ولا يشتغلون بالأعمال التجارية والمالية ، بل يعيشون فى شيوعية عسكرية . وأما الذين يجتازون الاختبار الثانى فيبدأون فى ذلك الوقت (لا قبله) دراسة « الفلسفة الإلهية[١٢٥] مدة خمس سنين . وتشمل الدراسة جميع فروع هذه الفلسفة من رياضيات إلى منطق إلى سياسة وقانون . فإذا أتموا فى هذه الدراسة النظرية خمسة وثلاثين عاما ، ألقوا فى الحياة العملية ليكسبوا قوتهم ويشقوا طريقهم . وبعد خمسين عاما يصبح الباقون منهم على قيد الحياة الطبقة المهيمنة على المدينة أو حكامها من غير حاجة إلى انتخاب .

ويمنح هؤلاء السلطة كلها ، ولكنهم لا تكون لهم أملاك . ولن تكون للمدينة قوانين ، بل تعرض كل القضايا والمنازعات على الملوك — الفلاسفة ليفصلوا فيها بحكمتهم التى لم تفسدها السوابق . ولكن يكون لهؤلاء الملوك — الفلاسفة ملك ولا مال ، ولا أسر ، ولا زوجات يختصون بهن على الدوام ، وذلك لكيلا يسيئون استخدام سلطتهم . ويتولى الشعب التصرف فى أموال المدينة كما يتولى الجند السلطة العسكرية . وليست الشيوعية عند أفلاطون نوعا من الدمقراطية ، بل هى أرستقراطية ، يعجز عن بلوغها عامة الشعب ، ولا يحتملها إلا الجنود والفلاسفة .

أما الزواج فيجب أن ينظمه الحراس لجميع الطبقات تنظيما دقيقاً يهدف إلى غرض مقدس هو تحسين النسل . « فيجب أن يجتمع أفضل الجنسين بعضهما ببعض أكثر ما يستطيعون ، وأن يجتمع المنحطون من الرجال بالمنحطات من النساء ،

ثم يربى أبناء الأولين ولا يربى أبناء الآخرين ، لأن هذه هى السبيل الوحيدة للاحتفاظ بالشعب فى حالة صالحة »[١٣٦] وعلى الدولة أن تتولى تربية الأطفال جميعهم وتقدم لهم فرصاً للتعليم متكافئة . ويجب ألا تكون الطبقات وراثية ، وأن يكون للبنات من الفرص مثل ما للأولاد ، وألا تمنع النساء من تولى مناصب الدولة لأنهن نساء . ويعتقد أفلاطون أنه بهذا المزيج من الفردية والشيوعية ؛ وبالعمل على تحسين النساء ، ومساواة المرأة بالرجل فى الحقوق ، يستطيع أن يوجد مجتمعاً يسر الفيلسوف أن يعيش فيه . ويختم بحثه بالعبارة الآتية : « وإلى أن يكون الفلاسفة ملوكا ، أو أن يتشبع ملوك هذا العالم وأمراؤه بروح الفلسفة وقوتها . . . لن تنجو المدن ولن ينجو الجنس البشرى من الشر »[١٣٧] .

٦ — المشترع

وظن أنه وجد فى دنيسوس الثانى الأمير المطلوب . وكان يشعر كما يشعر فلتير أن الملكية المطلقة تمتاز من الدمقراطية بأن المصلح فى الحالة الأولى لا يحتاج إلى إقناع أكثر من رجل واحد[١٣٨] . وفى ذلك يقول إنك إذا أردت أن تنشئ دولة صالحة فما « عليك إلا أن تضع على رأسها حاكما بأمره ، شاباً معتدلا ، سريع التعلم ، قوى الذاكرة شجاعا ، كريم الطبع . . . حسن الحظ ؛ ويكون حسن حظه فى أنه معاصر لمشترع عظيم ، وأن الظروف الموفقة تجمع أحدهما إلى الآخر »[١٣٩] لكن اجتماعه بدنيسوس كان كما سبق القول من أسوأ الظروف .

وكان أفلاطون فى آخر سنى حياته لا يزال يتوق إلى أن يكون مشترعا ، ولذلك عرض على الناس دولة تلى الدولتين السابقتين فى الحسن ؛ وهو يتحدث عن هذه الدولة الثالثة فى كتاب القوانين ، وهذا أقدم المراجع الأوربية المعروفة فى التشريع ، وهو إلى هذا دراسة نافعة فى عهد الشيخوخة

اليونانى الذى أعقب عهد الشباب الإبداعى . وفيه يقول أفلاطون إن الدولة الجديدة ينبغى أن تكون فى داخل الأرض ، بعيدة عن البحر حتى لا تفسد الآراء الأجنبية إيمانها ، والتجارة الأجنبية أمنها ، والترف الأجنبى بساطتها وانطواءها على نفسها[١٣٠] . ويجب أن يقتصر عدد مواطنيها الأحرار على العدد السهل الانقسام وهو ٥٠٤٠ يضاف إليهم أفراد أسرهم . ويختار المواطنون من بينهم ٣٦٠ حارساً يقسمون إلى جماعات تتألف كل واحدة منها من ثلاثين شخصاً يتولون تصريف أعمال الدولة شهراً واحداً ، ويختار الحراس الثلثمائة والستون مجلساً ليلياً مؤلفاً من ستة وعشرين عضواً يجتمع فى الليل ويشرع لكل شئون المدينة الحيوية[١٣١] . ويجب على هؤلاء الأعضاء أن يقسموا الأرض بين أسر المواطنين أقساماً متساوية على ألا يسمح لهؤلاء الملاك بتقسيمها بعدئذ ولا بالنزول عنها لغيرهم . وعلى الحراس « أن يتخذوا ما يجب اتخاذه من الاحتياطات حتى لا يضر المطر بالأرض بدل أن ينفعها . . وأن يمنعوا المطر عنها بالجسور والخنادق ، ويجعلوا قنوات » الرى « توصل الكثير من الماء بجميع الأراضى حتى الأراضى الجافة »[١٣٢] . ويجب ألا تزيد التجارة على الحد الأدنى حتى لا ينشأ من هذا عدم المساواة الاقتصادية . ويجب ألا يحتفظ الناس بشىء من الذهب أو الفضة ، وألا يتعاملوا بالربا[١٣٣] ، وألا يشجع أى إنسان على أن يعيش باستثمار أمواله ، بل يشجع على أن يعيش بالاشتغال يزرع الأرض بجد ونشاط . ويجب على كل من يحصل من ريع الأرض على أربعة أمثال قيمة أن يرد الباقى إلى الدولة . وقد قيد حق التوريث والوصية بأشد القيود[١٣٤] وجعل للنساء فرصا تعليمية وسياسية متكافئة مع الرجال[١٣٥] ، وفرض على الرجال أن يتزوجوا بين الثلاثين والخامسة والثلاثين ، وإلا ألزموا بدفع غرامات سنوية باهظة[١٣٦] ، وعليهم ألا يلدوا أطفالا إلا فى خلال عشر سنين . ومن الواجب تنظيم الشراب وغيره من وسائل اللهو للمحافظة على أخلاق الشعب[١٣٧] .

وللوصول إلى هذا كله فى هدوء وسلام يجب أن تشرف الدولة إشرافا تاما على شئون التعليم ، والنشر ، وغيرهما من وسائل تكوين الرأى العام ، وأخلاق الأفراد ، ويجب أن يكون أكبر موظف فى الدولة هو وزير المعارف . ويجب أن تحل السلطة محل الحرية فى شئون التعليم ، وذلك لأن ذكاء الأطفال أقل من أن يجيز لنا أن نتركهم يختطون لنفسهم حياتهم . ويجب ألا تفرض الرقابة على الآداب ، والعلوم والفنون ، فلا يجوز أن يعبر عن آراء يرى أعضاء المجلس أنها ضارة بالآداب العامة أو الخلق القويم . وإذ كانت طاعة الوالدين والقوانين لا بد أن تستند إلى قوة أعلى من قوة البشر وتأييدها فإن الدولة هى التى تقرر أى الآلهة تعبد وكيف تعبد ومتى تعبد . وكل من يتردد فى الخضوع لهذا الدين الرسمى يسجن ، فإن أصر على عدم الخضوع له وجب أن يقتل(١٣٨) .

وليست الحياة الطويلة نعمة لصاحبها على الدوام . ولقد كان من الخير لأفلاطون أن يموت قبل أن يوجه هذه التهمة لسقراط ، وأن يمهد هذا التمهيد لجميع محاكم التفتيش المستقبلة . ولعل دفاعه عن نفسه هو أنه يحب العدالة أكثر من حبه للحقيقة ، وأن هدفه هو أن يمحو الفقر والحرب . وأنه لا يستطيع أن يمحوهما إلا بسيطرة الدولة على الأفراد سيطرة تامة ، وأن هذه السيطرة لا تكون إلا بواحدة من اثنتين القوة أو الدين . وكان يظن أن ما أصاب الأثينين من الانحلال أيونى فى الأخلاق والسياسة لا علاج له إلا بالقوانين الاسپارطية المشتقة من النظام الدورى . والنزعة السارية فى تفكير أفلاطون كله هى خوفه من أن يساء استخدام الحرية ، وأن يفهم الناس الفلسفة على أنها الرقيب على شئون الناس والمنظمة للفنون . ويعرض أفلاطون فى كتاب القوانين تسليم أثينة المحتضرة التى استوفت حياتها لاسپارطة التى قضت نحبها من أيام ليفورغ ، وإذا لم يكن فى وسع أشهر فلاسفة أثينة أن يقول أكثر مما قال دفاعا عن الحرية ، فمعنى هذا أن بلاد اليونان كانت على أتم استعداد لأن يتولى أمورها ملك . وإذا ما ألقينا نظرة

شاملة على جميع هذه الآراء اعترتنا الدهشة.إذ نرى أن أفلاطون قد جاء فى هذا الوقت القديم بكل ما جاءت به فى العصور الوسطى للفسلفة والدين والأنظمة المسيحية ، وبالشىء الكثير مما جاءت به الفاشية فى العصر الحديث . لقد صارت نظرية الأفكار هى « واقعية » المدرسيين — واقعية « العموميات » الموضوعية ، ولم يكن أفلاطون مسيحياً قبل وجود المسيحية — على حد قول نتشه — فحسب ، بل كان فوق ذلك متزمتاً مسيحياً قبل وجود عصر التزمت المسيحى . فهو يرتاب فى الطبيعة البشرية ويراها شراً ، ويعتقد أنها هى الخطيئة الأولى التى لوثت النفس . وهو يعمد إلى تلك الوحدة القائمة بين الجسم والروح والتى كانت هى الفكرة الرئيسية فى القرنين السادس والخامس ، فيقسمها إلى جسم خبيث وروح قدسية(١٣٩) . وهو يستمد من فيثاغورس والأورفية اعتقاد الشرق فى تناسخ الأرواح ، والكرما(*) ، والخطيئة والتطهير ، و « الانطلاق » ؛ ويضرب فى كتبه الأخيرة على نغمة أخروية شبيهة بنغمة أوغسطين أى نغمة الرجل الذى تاب وأناب وعاد إلى الدين الصحيح ، ولولا هذا النثر الذى بلغ غاية الكمال لشك الإنسان فى أن أفلاطون من اليونان .

وقد بقى أفلاطون أحب المفكرين اليونان إلى الناس لأنه يتصف بعيوبهم الجذابة المحبوبة . وكان مثل داتى مرهف الحس إلى حد يستطيع معه أنه يرى الجمال الكامل السرمدى وراء الأشكال الدنيوية غير الكاملة . وكان زاهداً لأنه كان مضطراً فى كل لحظة إلى أن يكبح جماح مزاجه القوى العنيف(١٤٠) . وكان شاعراً يسيطر عليه الخيال ويسير وراء كل فكرة شاذة غريبة ، وتستحوذ عليه مآسى الأفكار ومباهجها ، يهيجه التحمس اللهنى

(*) عقيدة بوذية تقول إن أعمال الإنسان والكائنات الحية بوجه عام يحددها تتابع العلل والمعلولات السابقة بنظام محتوم لا يتبدل . (المترجم)

المنبعث من الحياة العقلية الحرة التى كانت تستمتع بها أثينة . ولكن كان من سوء حظه أنه رجل منطق وشاعر معاً ، وأنه كان أقوى مجادل فى العصر القديم ، فقد كان أدق فى جدله من زينون الإليائى ومن أرسطو ، وأنه كان يشغف بالفلسفة أكثر من شغفه بأية امرأة أو أى رجل ، وأنه انتهى فى آخر الأمر بمثل ما انتهى إليه البحاث الأكبر فى رواية دستيوفسكى ، وهو قمع كل تفكير حر ، واعتقاده بأن الفلسفة يجب أن يقضى عليها لكى يعيش الإنسان . ولو أن مدينته الفاضلة تحققت فعلا لكان هو أول ضحاياها .

الفصل الرابع

أرسطوطاليس

---

١ — أعوام التجوال

لما مات أفلاطون شيد أرسطوطاليس مذبحا له وكرمه تكريما يكاد يبلغ حد التأليه ، ذلك لأنه كان يعجب بأفلاطون وإن لم يكن يميل إليه . وكان أرسطوطاليس قد قدم إلى أثينة من مسقط رأسه فى اسطاغيرا وهى مستعمرة يونانية صغيرة فى تراقية . وكان أبوه الطبيب الخاص لأمينتاس الثانى Amyntas II والد فليب ، وكان قد علم الشاب (إذا لم يكن جالينوس مخطئاً فى قوله) شيئاً من التشريح قبل أن يبعث به إلى أفلاطون[١٤١] . واجتمعت باجتماع الفيلسوفين نزعتان متعارضتان فى تاريخ الفكر — النزعة الصوفية والنزعة الطبيعية — وأخذتا تحتربان . ولو أن أرسطوطاليس لم يستمع إلى أفلاطون تلك المدة الطويلة (التى يقدرها بعضهم بعشرين عاماً) لجاز أن يكون له عقل علمى محض ؛ أما وقد استمع له تلك المدة فإن ابن الطبيب أخذ ينازع فيه تلميذ المعلم المتزمت ، ولم تتغلب إحدى النزعتين على الأخرى ، لهذا لم يقرر أرسطو طول حياته أى النزعتين يطيع . لقد كدس حوله ملاحظات علمية تكفى لإخراج موسوعة كاملة ، ثم حاول أن يحشرها فى القالب الأفلاطونى الذى صنع عقله المدرسى على غراره . ولقد نقض حجج أفلاطون فى كل مرحلة من مراحل تفكيره لأنه كان يستعير منه فى كل صفحة من صفحات كتبه .

وكان طالبا مجدا ، وشرعان ما لاحظ فيه معلمه هذا الجد . ولما قرأ أفلاطون رسالته عن الروح فى المجتمع العلمى كان أرسطوطاليس (على حد قول ديچين

لبرتس) « الشخص الوحيد الذى يستمع إليها من أولها إلى آخرها ، أما غيره فقد انفضوا من حوله » . ولما مات أفلاطون ذهب أرسطوطاليس إلى بلاط هرمياس Hermeias ، وكان قد درس معه فى المجمع العلمى وارتفع من عبد رقيق إلى أن صار حاكماً بأمره فى أترنيوس Atarneus وأسوس Assus من بلاد آسـيـة الصغرى . وتزوج أرسطوطاليس بيثياس Pythias ابنة هرمياس (٣٤٤) ؛ وأوشك أن يستقر فى أسوس ، لكن الفرس اغتالوا هرمياس ، لأنهم ظنوه يدبر الخطط لمعاونة فليپ فى غزوه المرتقب لبلاد آسية[١٤٣] . وفر أرسطوطاليس مع بيثياس إلى لسبوس القريبة وقضى فيها بعض الوقت يدرس تاريخ الجزيرة الطبيعى[١٤٤] . ثم ماتت بيثياس بعد أن رزق منها بنتاً ، ثم تزوج أرسطوطاليس بعدئذ الغانية هربليس Herpyllis أو عاشرها[١٤٥] ، ولكنه ظل إلى آخر أيام حياته يعز ذكرى بيثياس ، وأوصى وهو على فراش الموت أن تدفن عظامه بجوار عظامها ، ذلك أنه لم يكن بالرجل المنكب على الدرس والكتب الذى قد يتصوره الإنسان بالنظر إلى مؤلفاته . وفى عام ٣٤٣ دعاه فليب ليتولى تعليم الإسكندر ، وكان وقتئذ غلاماً طائشاً فى الثالثة عشرة من عمره . وأكبر الظن أن فليب قد عرف الفيلسوف أيام شبابه فى بلاط أمينتاس . وجاء أرسطوطاليس إلى پلا ؛ وظل يقوم بهذا الواجب الثقيل أربع سنين ؛ وفى عام ٣٤٠ كلفه فليپ بالإشراف على إعادة بناء اسطرخوس وتعميرها ، وكانت قد ضربت فى أثناء الحرب مع أولنثوس Olynthus ؛ وطلب إليه فوق ذلك أن يضع لها شرائعها ؛ وقد قام بهذه الأعمال جميعها قياماً أرضى أهل المدينة ، فأخذت من ذلك الحين تحيي ذكرى هذا التعمير بإقامة عيد له فى كل عام[١٤٦] .

وفى عام ٣٣٤ عاد إلى أثينة ، وافتتح فيها مدرسة لتعليم البلاغة والفلسفة — وأكبر الظن أن الإسكندر قد أمده بما يلزمه من المال ، واختار مكانها فى أجمل دار للتدريب الرياضى فى أثينة ، وهى طائفة من المبانى خاصة بأپلو لوقيوس

Apolli Lyceus (إله الرعاة) تحيط بها حدائق غناء ، وطرقات مسقوفة ، وكان فى صدر النهار يلقى على الطلبة المنتظمين فيها دروساً فى موضوعات راقية ، وفى عجزه يلقى محاضرات على جماعات من الشعب أقل انتظاماً وأقل رقياً ممن يستمعون إليه فى الصباح . وأكبر الظن أن هذه المحاضرات الثانية كانت فى البلاغة ، والشعر ، والأخلاق والسياسة ، وقد جمع فى هذا البناء مكتبة كبيرة ، وأنشأ فيه حديقة للحيوان ومتحفاً للتاريخ الطبيعى ، وسميت المدرسة فيما بعد باللوقيون Lyceum ، كما سمى الطلاب بالمشائين وسميت فلسفتهم بالمشائية نسبة إلى المماشى المسقوفة (Pereptaoi) التى كان أرسطوطاليس يحب أن يسير فيها مع طلابه وهو يحاضرهم[١٤٧] . وقامت منافسة حادة بين اللوقيون التى كان معظم طلابها من الطبقة الوسطى ، وبين المجمع العلمى الذى كان يستمد معظم أعضائه من طبقة الأشراف ، ومدرسة إسقراط التى كان يؤمها فى الغالب يونان المستعمرات . ثم خفت حدة هذه المنافسة فيما بعد حين وجه إسقراط اهتمامه إلى الفلسفة ، وحين أخذ المجمع العلمى يعنى بالعلوم الرياضية ، وما وراء الطبيعة ، والسياسة ، وأخذت اللوقيون تعنى بالتاريخ الطبيعى. وكان أرسطو يطلب إلى تلاميذه أن يجمعوا المعلومات فى الميادين العلمية المختلفة وينسقوها : كعادات البرابرة ، ودساتير المدن اليونانية ، وتواريخ الفائزين فى الألعاب البيثية والديونيشيا الأثينية ، وأعضاء الحيوانات ، وعاداتها ، وأوصاف النباتات وتوزيعها ، وتاريخ العلوم والفلسفة ، وأضحت هذه البحوث ذخيرة طيبة من المعلومات يستمد منها رسائله المختلفة التى يخطئها الحصر ، وكان أحياناً يولى هذه المعلومات من الثقة أكثر مما تستحق .

وكتب لأنصاف المتعلمين نحو سبع وعشرين محاورة يرى شيشرون وكونتليان أنها تضارع محاورات أفلاطون ، وهذه المحاورات هى التى قامت عليها شهرته فى الزمن القديم[١٤٨] ، وقد ضاعت فيما ضاع على أثر استيلاء البرابرة على رومة.

أما ما بقى لنا من مؤلفاته فهو مجموعة من الكتب الفنية ، المجردة إلى أبعد حد في التجريد ، والخالية من المتعة إلى درجة تعز على التقليد ، وقلما كان العلماء الأقدمون يشيرون إليها فى مؤلفاتهم ، ولعله قد كتبها فى السنين العشرين الأخيرة من حياته بالرجوع إلى مذكرات له وضعها بنفسه ليعتمد عليها فى محاضراته ، أو من مذكرات دونها تلاميذه عن هذه المحاضرات ؛ ولم تكن هذه الذخيرة العلمية الفنية معروفة خارج اللوقيون حتى نشرها أندرنكوس Andronicus من أهل رودس فى القرن الأول قبل الميلاد[١٤٩] .
وقد بقيت لنا من هذه الكتب أربعون كتابا ، ولكن ديجين لِرتس يضيف إليها ٣٦٠ كتابا أخرى أكبر الظن أنها رسائل قصيرة كل منها فى موضوع واحد . وهذه البقايا العلمية القليلة هى التى يجب علينا أن نبحث فيها عن الأفكار التى كانت وقتاً ما أفكاراً حية ، والتى أكسبت أرسطوطاليس فى العصور التى تلت عصره لقب « الفيلسوف » . وإذا ما أخذنا ندرسه فعلينا ألا نتوقع أن نرى فى كتاباته من البهجة ما فى أفلاطون ، ومن الفكاهة ما فى ديجين ؛ بل كل الذى نجده هو طائفة كبيرة من المعلومات القيمة ، ومن الحكمة المتحفظة الخليقة بصديق الملوك الذى يعيش من رفدهم[*] .

(*) ويمكن تقسيم ما بقى من رسائله ستة أقسام :
١ — رسائل فى المنطق : مقولات ، شروح ، تحليلات سابقة ، تحليلات لاحقة ، موضوعات ، استدلالات سوفسطائية
٢ — علوم :
(ا) علوم طبيعية : طبيعة ، ميكانيكا ، جيه ، ظواهر جوية .
(ب) أحياء : تاريخ الحيوان ، أجزاء الحيوان ، حركات الحيوان ، انتقال الحيوان ، تناسل الحيوان .
(ح) علم النفس : فى الروح ، مقالات قصيرة فى طبيعة العالم .
٣ — ما وراء الطبيعة .
٤ — علم الجمال : البلاغة ، والشعر .
٥ — علم الأخلاق : الأخلاق النيقوماخية الأخلاق الأوديمية .
٦ — السياسة : علم السياسة ، دستور أثينة .

٢ العالم الطبيعى

إن الاعتقاد السائد هو أن أرسطو فيلسوف قبل كل شىء ، ولعل هذا من الأخطاء الشائعة ؛ بيد أننا سنعده فى هذا الكتاب عالما طبيعيا أولا ، حتى إذا لم يكن لهذا سند إلا أنه رأى فى الرجل جديد .

وأول ما نقوله عنه أن عقله الطلعة يهتم بعملية الاستدلال وأصولها الفنية ، ويحلل هذه العملية والأصول تحليلا بلغ من الدقة حدا أصبح معه الأورغانون (Organon) أو الآلة (الفكرية) — وهو الاسم الذى أطلق بعد وفاته على رسالاته فى المنطق — المرجع الذى ظل المناطقة يعتمدون عليه مدى ألفى عام . وهو يتوق إلى أن يكون واضح التفكير ، وإن كان لا يصل إلى هذا الغرض فيما لدينا من كتبه إلا نادرا ؛ فهو يقضى نصف وقته فى تعريف مصطلحاته ، فإذا فرغ من هذا شعر بأنه قد حل المسألة التى يبحث فيها ؛ وهو يعرّف التعريف نفسه تعريفا دقيقاً بأنه تحديد الشىء أو الفكرة بذكر الجنس أو الصنف الذى ينتمى إليه ذلك الشىء ، أو تنتمى إليه تلك الفكرة (كقوله « الإنسان حيوان ») والفروق الخاصة التى تميزه أو تميزها عن جميع أفراد الصنف (« الإنسان حيوان عاقل ») . ومما تمتاز به طريقته المنظمة أنه قسم المظاهر الرئيسية التى يمكن دراسة أى شىء بمقتضاها عشرة أقسام : المادة ، والكم ، والكيف ، والعلاقة ، والمكان ، والزمان ، والموضع ، والمِلْك ، والفاعلية ، والانفعالية — وهو تصنيف وجد فيه بعض الكتاب ما يعينهم على تنشيط ذهنهم الكليل .

وهو يرى أن الحواس هى المصدر الوحيد للمعرفة ، وأن القوانين العامة ليست إلا أفكاراً معممة ، وأنها ليست فطرية بل تكونت من مشاهدات للأشياء المتماثلة ، فهى مدركات وليست أشياء[١٥٠] . وهو يقرر قرار

لواثق مبدأ التناقض ، بوصفه الشيء البديهي في المنطق كله ، وهو أن « الصفة الواحدة لا يمكن أن تكون من صفات الشيء الواحد ومن غير صفاته في العلاقة الواحدة[١٥١] » . ويكشف عن المغالطات التي يقع فيها السوفسطائيون أو يغرون الناس بالوقوع فيها ، وينتقد المتقدمين لأنهم صوروا الكون أو وضعوا نظرياتهم عنه من خيالهم بدل أن يمضوا الوقت الطويل في الرصد والتجارب بصبر وأناة[١٥٢] . ومثله الأعلى الاستدلال المنطقي وهو القياس – المكون من ثلاث قضايا ثالثتها نتيجة محتومة للقضيتين الأوليين ؛ ولكنه يقر بأنه إذا أريد تجنب الوقوع في خطأ المصادرة على المطلوب الأول[*] وجب أن يسبق القياس استقراء واسع يجعل قضيته الكبرى مرجحة ؛ وهو وإن كان في رسائله الفلسفية يضل في بيداء الاستدلال يمجد الاستقراء ويجمع في كتبه العلمية ذخيرة طيبة من الملاحظات المحدودة الدقيقة ، ويسجل في بعض الأحيان تجاربه هو أو تجارب غيره من العلماء[**] . وقصارى القول أنه رغم أغلاطه واضع أساس الطريقة العلمية وأول من نظم التعاون في البحث العلمي .

فهو يبدأ بحثه العلمي من حيث انتهى ديموقريطس ، ولا يخشى أن يلج كل ميدان فيه . وهو أضعف ما يكون في الرياضيات والطبيعة ، ويقتصر فيهما على دراسة المبادئ الأساسية . فهو في كتابه « الطبيعة » لا يسعى وراء اكتشافات جديدة بل يهتم بوضع التعاريف الواضحة للمصطلحات المستعملة في هذا العلم كالمادة ، والحركة ، والمكان ، والزمان ، والاستمرار ، واللانهائي ، والتغير ، والنهاية . فالحركة والمكان عنده مستمران ، وهما لا تتكونان ، كما يفترض زينون ،

(*) هو افتراض صحة ما يراد إثباته . (المترجم)

(**) مثال ذلك أنه يشير في كتابه « تناسل الحيوان (٤ : ٦ : ١) » إلى نمو العينين من جديد إذا أزيلتا في صغار الطير ؛ وهو يرفض النظرية القائلة : إن الخصية اليمنى تنتج الذكور واليسرى تنتج الإناث من الأبناء ، ويستدل على ذلك بأن رجلا أزيلت خصيته اليمنى ومع ذلك ظل ينجب بنين وبنات .

من لحظات أو أجزاء صغيرة قابلة للانقسام ، والشيء « اللانهائي » موجود بالقوة لا بالفعل(١٥٣) . وهو يحس بالمشاكل التي أثارت تفكير نيوتن وإن لم يعمل شيئاً لحلها ؛ وهذه المشاكل هي القصور الذاتي ، والجاذبية والحركة ، والسرعة . ولديه فكرة عن توازن القوى ، ويقول في قانون الروافع : « كلما كان الثقل المحرك بعيداً عن نقطة الارتكاز كان أقدر على تحريك (الجسم)(١٥٤) » .

ويقول إن الأجرام السماوية كلها كرات — ويؤكد ذلك بالنسبة للأرض بنوع خاص ، لأنه لا يستطاع تفسير شكل القمر إذا خسف بسبب اعتراض الأرض بينه وبين الشمس إلا إذا كانت الأرض كرية(١٥٥) . وهو يدرك الأزمنة الجيولوجية إدراكاً يستثير الإعجاب فيقول مثلا إن البحر يستحيل إلى أرض والأرض تستحيل إلى بحر على توالي الأيام ، ولكنا لا نحس بهذا التحول (١٥٦) ، وقد ظهرت أمم وحضارات لا حصر لها ثم اختفت ، إما بسبب الكوارث السريعة ، وإما بسبب عدوان الأيام البطيء . « وأكبر الظن أن كل فن قد نما وازدهر وارتفع إلى أعلى الدرجات عدة مرار ثم اختفى . وهذا أيضاً شأن الفلسفة(١٥٧) » . والحرارة أهم عامل في التغيرات الجيولوجية والجوية . وهو يجازف بتفسير أصل السحب والضباب ، والندى والصقيع ، والمطر ، والثلج والبرد ، والرياح ، والرعد ، والبرق ، وقوس قزح ، والشهب . ونظرياته في الغالب شاذة غريبة ، ولكن رسالته الصغيرة في الظواهر الجوية عظيمة الخطر من الناحية التاريخية ، لأنها لا تستند إلى القوى الخارقة للطبيعة ، بل يحاول فيها أن يرجع ما في الجو من تقلبات تبدو له غير منطبقة على القوانين الطبيعية إلى أسباب طبيعية تعمل متعاقبة وفقاً لنظام محدد ، ولم يكن من المستطاع أن ترقى العلوم الطبيعية فوق الحد الذي وصلت إليه على يديه إلا بعد أن مدتها الاختراعات بأجهزة وآلات أوسع مدى وأدق في الرصد والقياس .

أما علم الأحياء فهو ميدان أرسطو الحقيق ، فهو فيه واسع الملاحظة عظيم الاطلاع ؛ وفيه أيضاً يرتكب أكثر الأغلاط ؛ وأعظم فضل له على هذا العلم الحيوى أنه نسق كل ما كشف فيه من قبل ودعم أركانه ، فقد استعان بتلاميذه على جمع المعلومات القيمة عن الحيوان والنبات فى بلاد بحر إيجه كما جمع فى مكان واحد أولى المجموعات العلمية من الحيوان والنبات . وإذا جاز لنا أن نأخذ بقول بلنى Pliny[١٥٨] فإن الإسكندر أصدر الأوامر لصياديه ، وحارسى صيده ، وصائدى السمك له ، وغيرهم ألا يمنعوا عن أرسطو أى نوع يطلبه منها وأن يمدوه بما يريده من المعلومات . ويعتذر الفيلسوف عن اهتمامه بتلك الأشياء الصغيرة فيقول : « ليس فى الأشياء الطبيعية ما يخلو من الأعاجيب ، وإذا ما احتقر إنسان التفكير فى الحيوانات الدنيا ، فإن عليه أن يحتقر نفسه »[١٥٩] .

وهو يقسم المملكة الحيوانية قسمين ، ذات دم وغير ذات دم : إنيما ، وأنيما Anaima, Enaima وهما يقابلان بوجه التقريب تقسيمنا إياها إلى « فقاريات » و « لافقاريات » . ثم يعود فيقسم الحيوانات غير ذات الدم إلى صدفية ، وقشرية ، ورخوة ، وحشرات ، ويقسم الدموية إلى أسماك ، وقوازب(*) ، وطيور ، وثدييات .

وتشمل بحوثه فى هذا العلم ميدانا واسعا مختلف الأنحاء . فهو يبحث فى أعضاء الهضم ، والإخراج ، والحس ، والحركة والتكاثر ، والدفاع ؛ وفى أنواع الأسماك ، والطيور ، والزواحف ، والقردة ، ومئات غيرها من الأصناف ؛ وفى فصول تزاوجها ، وطريقة حملها صغارها ، وتربيتها إياها ؛ وفى ظواهر البلوغ ، والحيض ، والحمل ، والإجهاض ، والوراثة ، والإنتام ؛ وفى مواطن الحيوانات وهجرتها ؛ وما يعيش عليها من الطفيليات وما ينتابها من الأمراض ؛ وفى طرق نومها وفصول سباتها . . . وهو يشرح حياة النحلة شرحاً وافياً ممتعاً[١٦٠] . وكتابه ملىء بالملاحظات

(*) القوازب أو البرمائيات : هى التى تعيش فى البر والبحر على السواء . (المترجم)

العجيبة العارضة ، كقوله إن دم الثيران يتجمد أسرع من تجمد دماء معظم الحيوانات الأخرى ، وإن بعض ذكور الحيوان كالجدى بنوع خاص قد تدر اللبن ؛ وإن الخيل ذكوراً وإناثاً أكثر الحيوانات شهوانية بعد الإنسان(*)[١٦١] .

وهو شديد الاهتمام بأجهزة التوالد وأساليبها فى الحيوان ، وتثير دهشته كثرة الأساليب التى تتوصل بها الطبيعة إلى الإبقاء على أنواع الأحياء ، وكيف « تحتفظ بالنوع حين يعجزها أن تحتفظ بالفرد[١٦٢] » ؛ وقد ظل عمله فى هذا الميدان فذا منقطع النظير حتى القرن الماضى . ومن أقواله أن حياة الإنسان تدور حول بؤرتين — الأكل والتوالد[١٦٣] : فللأنثى عضو يجب أن يعد بمثابة مبيض لأنه يحتوى على ما يكون فى بادئ الأمر بيضة غير متميزة ، ثم تتميز بعدئذ فتصبح بويضات كثيرة(**) » . والعنصر الأنثوى يزود مادة الجنين بالطعام ، أما عنصر الذكورة فيزوده بالجهد والحركة ، والأنثى هى العنصر المنفعل ، أما الذكر فهو العنصر النشيط الفعال[١٦٥] . ويرفض أرسطو ما يراه أنبادوقليس وديموقريطس من أن جنس الجنين تعينه حرارة الرحم أو تغلب أحد عنصرى التكاثر على العنصر الآخر ؛ ثم يصوغ بعدئذ هـــذه النظريات على أنها من وضعه فيقول : « كلما عجز العنصر المكوِّن (الذكر) عن أن تكون له الغلبة ، ولم يستطع لنقص حرارته أن يطبخ المادة ، أو يشكلها فى شكله هو ، انتقلت هذه المادة إلى . . . صورة الأنثى[١٦٦] » ويضيف إلى ذلك قوله : « وقد يحدث أحيانا أن تلد

(*) تدل بعض الإشارات الواردة فى « تاريخ الحيوان » على أن أرسطو أعد مجلداً فى الرسوم التشريحية ، وأن بعض هذه الرسوم قد نقلت من هذا المجلد على جدران اللوقيون ؛ وهو يستخدم فى كتابه الحروف على الطريقة الحديثة ، ليشير بها إلى بعض الأعضاء أو بعض النقط فى الرسوم .

(**) لقد عجز أرسطو ليس عن أن يميز بين المبيض والرحم ، ولكن وصفه لم يحسن قصداً ذا بال قبل عمل استنس Stenson فى عام ١٦٦٩ .

المرأة ثلاثة صغار أو أربعة ، وخاصة فى أجزاء معينة من الأرض . وأكبر عدد ولدته امرأة هو خمسة أبناء ، وقد حدث هذا عدة مرار . وحدث فى زمن ما أن وضعت امرأة عشرين طفلا على أربع دفعات وأن عاش معظم هؤلاء الأطفال حتى كبروا[١٦٧] » .

وهو يستبق القرن التاسع عشر فى كثير من نظريات علم الأحياء . فهو يعتقد مثلا أن أعضاء الجنين وخواصه تتكون بوساطة جزيئات دقيقة (هى « ذرات التناسل بالتجمع العام » التى يذكرها دارون[*]) تنتقل من كل جزء من أجزاء الشخص الكبير إلى عناصر التوالد[١٦٨] . وهو يقول كما يقول فن بير Von Baer إن الخواص المميزة للجنس تظهر فى الجنين قبل غيرها من الصفات ، ثم تليها الخواص المميزة للنوع ، وتلى هذه الخواص المميزة للفرد [١٦٩] . وهو يذكر مبدأ يفخر به هربرت اسپنسر ، وهو أن خصوبة الكائن الحى بوجه عام تتناسب تناسبا عكسيا مع تعقد تطوره[١٧٠] وخير ما يتجلى فيه نبوغه هو وصفه جنين الدجاج :

« أجر إذا شئت هذه التجربة : إيت بعشرين بيضة أو أكثر ، واجعل دجاجتين أو أكثر ترقدان عليها . ثم خذ منها بيضة فى كل يوم ؛ ابتداء من اليوم الثانى إلى أن تفقس واكسرها وافحص عنها . . . فى حالة الدجاجة العادية تستطاع رؤية الجنين أول مرة بعد ثلاثة أيام . . . فيظهر القلب فى صورة نقطة من الدم ، ينبض ويتحرك كأنه قد وهب الحياة ، ويخرج منه وعاءان بهما دم يسيران فى تلافيف ، وغشاء يحمل خيوطا رفيعة دموية من

(*) يشير الكاتب إلى مذهب دارون فى الوراثة القائل بوجود ذرات تنفصل من جميع أنواع خلايا الجسم فتلتقطها غدد التناسل ، وهذه الذرات رموز لجميع الأنسجة تتجمع فى الجرثومة ومنها يتخلق المولود الجديد (معجم الدكتور شرف) . (المترجم)

أنابيب الوريدين ويحيط بجميع أجزاء المخ (الصفار) . . . وبعد عشرة أيام يرى الفرخ بجميع أجزائه واضحا كل الوضوح[١٧١] » .

ويعتقد أرسطو أن جنين الإنسان ينمو كما ينمو جنين الكتكوت : « ويرقد الطفل فى رحم أمه بهذه الطريقة عينها ... لأن طبيعة الطائر يمكن تشبيهها بطبيعة الإنسان[١٧٢] » . وهو يستطيع بنظريته الخاصة بالأعضاء المتشابهة أن يرى عالم الحيوان فى صورة جامعة : « فالظفر مماثل للمخلب ، واليد شبيهة بثنية السرطان القاطعة ، والريشة بقشرة السمكة[١٧٣] » وهو يقترب فى بعض الأحيان من نظرية النشوء والارتقاء :

« تسير الطبيعة قليلا قليلا من الأشياء غير الحية إلى الحياة الحيوانية بطريقة يستحيل معها أن نحدد تحديدا دقيقا متى تنتهى هذه وتبدأ تلك . . . فجنس النبات مثلا يأتى بعد الجمادات غير الحية فى سلم الرقى ، وهذا النبات لا حياة فيه نسبيا إذا وازنا بينه وبين الحيوان ، ولكنه حى إذا ووزن بالأشياء الجامدة . وفى النبات سلم تصاعدى مستمر نحو مرتبة الحيوان . ففى البحر أشياء لا يستطيع الإنسان أن يقول هل هى حيوان أو نبات . . . فالإسفنج مثلا شبيه بالنبات من جميع الوجوه . . . وبعض الحيوانات ثابتة فى أماكنها لا تنتقل منها ، وإذا انتزعت منها هلكت . . . أما من حيث الحساسية فإن بعض الحيوانات لا يظهر فيها ما يدل عليها ، وبعضها تظفر فيها غامضة . . . وهذا التنوع بعينه يظهر فى سلم الرقى الحيوانى[١٧٤] » .

وهو يرى أن القرد صورة وسطى بين الإنسان وغيره من الحيوانات التى تلد[١٧٥] ، ولا يقبل فكرة أنبادوقليس عن الانتخاب الطبيعى للتغيرات العارضة ، لأن النشوء والارتقاء ليس فيهما أشياء عارضة ، بل إن خطوط التطور يحددها ما فى كل فرد ، ونوع ، وجنس من دافع فطرى لكى ينمى نفسه

نماء يصل به إلى أقصى درجة من تحقيق طبيعته . إن لهذا التطور خطة موضوعة ولكنها دفع من الداخل نحو الغرض يجذب كل شيء إلى أن يكمل طبيعته .

ويمتزج بهذه الآراء النيرة كل ما يتوقع الإنسان وجوده فى ذلك الزمن القاصى الذى يبعد عنا نحو ثلاثة وعشرين قرنا من أخطاء كثيرة ، يبلغ بعضها من الشناعة حداً لا نرى معه حرجاً إذا ظننا أن مؤلفات أرسطو فى علم الحيوان قد اختلطت فيها مذكراته بمذكرات تلاميذه[١٧٦] . فكتابه فى تاريخ الحيوان معين لا ينضب من الأخطاء ؛ فهو يقول فيه إن الفيران تموت إذا شربت الماء فى الصيف ، وإن الفيلة لا يصيبها إلا مرضان — الزكام والانتفاخ ، وإن الحيوانات كلها ما عدا الإنسان يصيبها السعور إذا عضها كلب كلِب[*] ، وإن ثعبان الماء ينشأ نشأة شيطانية ، وإن الإنسان وحده هو الذى يخفق قلبه ، وإنه إذا رج صفار عدة بيضات اجتمع فى وسط الإناء ، وإن البيض يطفو فوق الماء الكثير الملح[١٧٧] . يضاف إلى هذا أن أرسطو يعرف عن الأعضاء الداخلية للحيوان أكثر مما يعرفه عن الإنسان ، فقد يلوح أنه لا هو ولا أبقراط قد تحررا من سلطان الدين فأقدما على تشريح الأجسام البشرية[١٧٨] . ومن أجل هذا وقع فى أغلاط شنيعة منها قوله إن ليس للإنسان إلا ثمانية أضلاع ، وإن أسنان المرأة أقل من أسنان الرجل[١٧٩] ، وإن القلب أعلى من الرئتين ، وإن القلب لا المخ هو مركز الإحساس[**][١٨٠] . وإن وظيفة المخ هى تبريد الدم (بالمعنى الحرفى لهذه العبارة)[١٨١] . وآخر ما نذكره من هذه الأغلاط أنه (هو أو إنساناً آخر سمجاً ثقيلا) قد ذهب بنظرية الخطة الموضوعة مذاهب يضحك منها كل حكيم . « من الواضح أن النباتات قد خلقت لمنفعة الحيوانات ، كما خلقت الحيوانات لمنفعة الإنسان » « لقد جعلت الطبيعة الأعجاز للراحة ، لأن ذوات الأربع تستطيع أن تقف

(*) ويسمى أيضا الحديث والقريث والمزف وهو ضرب من الحيوانات البحرية (eels)
(**) وقد أوقعه فى هذا الخطأ عدم إحساس أنسجة المخ بالتنبيه المباشر . (المترجم)

على أرجلها دون أن تتعب ، أما الإنسان فهو فى حاجة إلى ما يجلس عليه[١٨٢] . وحتى هذه الفترة الأخيرة تكشف عن طبيعة أرسطوطاليس العلمية ؛ فمؤلف هذا الكتاب يرى أن من الأمور المسلم بها أن الإنسان حيوان ، ولهذا يبحث عن الأسباب الطبيعية لما بين الإنسان والحيوان من فروق فى التشريح . وقصارى القول أن تاريخ الحيوان فى مجموعه هو خير مؤلفات أرسطوطاليس على الإطلاق ، وأنه أعظم ما أثمره العلم فى بلاد اليونان أثناء القرن الرابع . وقد لبث علم الأحياء عشرين قرناً ينتظر ظهور مؤلف يضارعه .

٣ – الفيلسوف

إذا ما انتقل أرسطوطاليس إلى دراسة الإنسان نفسه أصبح ميتافيزيقياً أكثر منه عالماً طبيعياً . ولسنا ندرى هل منشأ هذا التحول هو تقواه الشديد أو احترامه لآراء بنى الإنسان . وهو يعرف النفس (Psyche) أو العنصر الحيوى بأنه « الدافع الداخلى الأول فى الكائن العضوى» أى الصورة الفطرية المقدرة لهذا الكائن والتى تدفع نماءه وتحدد اتجاهه . وليست النفس شيئاً يأتى إلى الجسم من خارجه أو يسكن فيه بل هى موجودة معه فى كل جزء من أجزائه ، أى أنها هى الجسم نفسه من حيث « قدرته على تغذية نفسه وتنميته وانحلاله » ؛ فهى جماع وظائف الكائن العضوى ، وهى للجسم كقوة الإبصار للعين[١٨٣] . بيد أن هذه الناحية الوظيفية ناحية أساسية ، فالوظائف هى التى توجد التراكيب والرغبات هى التى تشكل الأعضاء ، والنفس هى التى تكون الجسم : « فالأجسام الطبيعية كلها أعضاء للنفس(*) » .

(*) ويضيف أرسطوطاليس إلى قوله السابق الدال على نزعة مثالية عجيبة قوله : إن « النفس هى بمعنى ما جميع الموجودات ؛ لأن الأشياء كلها إما إحساسات أو أفكار[١٨٥] » وهو يتفق فى آرائه مع بركلى Berkeley ومع هيوم Hume فى آن واحد . انظر مثلا إلى –

والنفس ثلاث درجات : نامية ، وحاسة ، وناطقة . فالنبات يشترك مع الإنسان والحيوان فى النفس النامية — أى فى قدرته على تغذية نفسه وعلى النماء الداخلى ، وللحيوان والإنسان فضلا عن هذه النفس نفس حاسة — أى قدرة الإحساس ، وللحيوانات الراقية والإنسان نفس « منفعلة عاقلة » — أى قدرة على الأشكال البسيطة البدائية من الذكاء ، والإنسان وحده هو الذى له نفس « فاعلة عاقلة » — أى قدرة على التعميم والابتكار . وهذه النفس الأخيرة جزء أو انبعاث من قوة الكون الخالقة العاقلة وهى الله ، وهى بهذا الوصف لا تموت[١٨٢] . ولكن هذا الخلود غير شخصى ، أى أن الذى يبقى هو القوة لا الشخصية ؛ والفرد مركب فذ فإن من المواهب النامية والحاسة والعاقلة ، وهو لا يصل إلى الخلود إلا نسبياً ؛ وذلك عن طرق التوالد ، وبطريقة غير شخصية عن طريق الموت[*] .

والله هو « صورة » العالم أو « حقيقته الفعلية entelechy » — طبيعته الفطرية ، ووظائفه ، وأغراضه[**] كما أن الروح هى « صورة » الجسم .

— قوله : « إن العقل واحد ومستمر بالمعنى الذى تكون به عملية التفكير واحدة ومستمرة ؛ والتفكير هو بعينه الأفكار التى هى أجزاؤه »

(*) ويمكن تفسير أقوال أرسطوطاليس المتناقضة فى هذه النقطة تفسيرات أخرى . والنص الذى أثبتناه هنا مأخوذ من المجلد الرابع من تاريخ كامبردج القديم Cambridge Ancient History ص ٣٤٥ ؛ ومن الجزء الثانى من كتاب أرسطوطاليس تأليف جروت Grote ص ٢٣٣ ، ومن كتاب النفس (Psyche) تأليف روده Rhode ص ٤٩٣ .

(**) ويرى أرسطو كما يرى أفلاطون أن الأمر الجوهرى فى أى شىء هو « الصورة » eidos لا المادة المصورة ؛ وليست المادة هى « الشىء الحقيقى » بل هى إمكانية سالبة منفعلة لا تتخذ لها وجوداً خاصاً إلا إذا دفعتها الصورة وحددتها .

والعلل كلها ترتد آخر الأمر إلى العلة الأولى التي لا علة لها(*) ، كما ترد كل الحركات إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ؛ ولا بد لنا أن نفترض وجود أصـــل أو مبدأ لما في العالم من حركة أو قوة ، وهذا الأصل هو الله . وكما أن الله هو جماع الحركة كلها ومصدرها ، فهو كذلك جماع كل غايات الطبيعة وهدفها ، فهو العلة الآخرة والأولى . وإنا لنرى الأشياء في كل مكان تتحرك نحو غايات معينة : فالأسنان الأمامية تنمو حادة لتقطع الطعام ، والأضراس تنمو مستوية لتطحنه ، والجفن يطوف ليقي العين ، والحدقة تتسع في الظلام لتدخل قدراً كبيراً من الضوء ، والشجرة تمد جذورها في الأرض ، وغصونها نحو الشمس(١٨٩) . وكما أن الشجرة تجذبها طبيعتها الفطرية وقوتها وأغراضها نحو الضوء ، فكذلك العالم ينجذب بطبيعته الفطرية وقوته وأغراضه وهذه كلها هي الله . وليس الله هو خالق العالم المادي ، ولكنه صورته المنشطة ، وهو لا يحركه من خلفه ولكنه هو الموجه له من الداخل أو هدفه ، يحركه كما يحرك الحب الحبيب(١٩٠) ، ويقول أرسطو أخيراً إن الله فكر خالص ، وروح عاقل ، يتبدى في الصور السرمدية التي تكون جوهر العالم والله في وقت واحد .

وغاية الفن ، كغاية الميتافيزيقا ، هي القبض على الصورة الجوهرية للأشياء ، وهو تقليد أو تمثيل للحياة(١٩١) ، ولكنه ليس نسخة آلية لها ، والذي تقلده هو روح المادة لا جسم المادة ولا المادة نفسها ، وعن طريق هذه البصيرة أو عكس هذا الجوهر كما تعكس المرآة الجسم قد يبدو الشيء القبيح نفسه جميلا . والجمال

(*) يقول أرسطو : إن كل معلول يخرج من أربعة علل : المادية (التي يتكون منها) ، والفعالة (العامل فيها أو فاعله) ، والشكلية (طبيعة الشيء) ، والغائية (الهدف) وهو يضرب لذلك مثالا عجيبا فيقول : « ما هي العلة المادية للإنسان ؟ هي الطمث (أي وجود البويضة) . وما هي العلة الفعالة ؟ هي المادة والنطفة (أي ماء [illegible]) . وما هي الشكلية ؟ هي الطبيعة (أي طبيعة العوامل ذات الشأن) . وما هي العلة الغائية ؟ هي الغاية التي يهدف إليها » (١٨٨) .

هو الوحدة ، هو تعاون الأجزاء وتماثلها فى الكل . وتكون هذه الوحدة فى المسرحية وحدة العمل قبل كل شىء ؛ ولذلك يجب أن يكون أعظم ما تهتم به المسرحية عملا واحداً ، وأن يكون الغرض الوحيد مما فيها من أعمال أخرى هو أن ترقى بهذه القصة الرئيسية أو توضحها . وإذا أريد أن يكون العمل الفنى غاية فى الروعة والجودة وجب أن يكون موضوعه متسما بالنبل أو البطولة .

ويقول أرسطو فى تفسيره الشهير للمأساة : « المأساة تمثيل موضوع فى البطولة ، كامل متسع إلى حد ما ، بلغة تزدان بكل أنواع المحسنات . . . فهى تمثل رجالا يعملون ولا تعمد إلى القصص ، ثم تستعين بالرحمة والخوف لتخفف من وقع هذه العواطف وغيرها[١٩٢] » . والمأساة تستثير أعمق عواطفنا ثم تهدئها بخاتمتها المسكنة . وبذلك تعرض علينا تعبيراً عن العواطف لا ضرر فيه ولكنه ينفذ إلى أعماق النفس ، ولولا هذا التعبير لتجمعت العواطف فصارت عُصَاباً أو عنفاً . فهى تظهر من الآلام والأحزان ما هو أكثر رهبة من آلامنا وأحزاننا ، وتعيدنا إلى بيوتنا مبرئين مطهرين . وقصارى القول أن ثمة لذة فى تأمل عمل من أعمال الفن الحقيقية . ومن الشواهد الدالة على رقى الحضارة أن تقدم للروح أعمالا خليقة بهذا التأمل . ذلك بأن « الطبيعة لا تطلب إلينا أن نشغل أوقاتنا بالأعمال الطيبة فحسب ؛ بل تتطلب فوق ذلك أن نكون قادرين على أن نستمتع بفراغنا بأشرف الوسائل[١٩٣] » .

فما هى الحياة الطيبة إذن ؟ يجيب أرسطو عن هذا السؤال ببساطة وصراحة فيقول إنها الحياة السعيدة ؛ وهو لا يريد أن يبحث فى كتاب الأخلاق(*)

(*) لقد كان كتاب أخلاق نيقوماخوس (وسمى كذلك لأن الذى نشره هو نيقوماخوس ابن أرسطو) وكتاب السياسة فى أول الأمر كتاباً واحداً . وكان الناشرون اليونان يستخدمون هذه الصيغة المزدوجة وهى الأخلاق والسياسة (ta etika of ta politika) ليعبروا بها عن علاج عدة مشاكل أخلاقية وسياسية ، وقد احتفظ بها كما هى حين انتقلت الكلمتان إلى اللغة الإنجليزية .

(كما يبحث أفلاطون) كيف يجعل الناس أخياراً ، بل يريد أن يبحث كيف يجعلهم سعداء ! وهو يرى أن غير السعادة من الأغراض لا يسعى إليها لذاتها بل هي وسيلة لغاية ، أما السعادة فهي وحدها التي تبتغى لذاتها[١٩٣] . وثمة بعض أشياء لا بد منها للحصول على السعادة الباقية وهي : المولد الطيب ، والصحة الجيدة ، الوجه الجميل ، والحظ الطيب ، والسمعة الحسنة ، والأصدقاء الأوفياء ، والمال الوفير ، والصلاح[١٩٥] . « وليس فى وسع إنسان أن يكون سعيداً إذا كان دميم الخلقة[١٩٦] » « أما الذين يقولون إن الذى يعذب على العذراء ، أو تحل به كارثة شديدة ، يكون سعيداً بشرط أن يكون صالحا فقولهم هراء[١٩٧] » . وينقل أرسطو بصراحة يندر وجودها فى الفلاسفة ، جواب سمنيدس لزوجة هيرن إذ سألته أيهما أفضل الحكمة أو الغنى فقال : « الغنى ، لأنا نرى الحكماء يقضون أوقاتهم على أبواب الأغنياء[١٩٨] » . لكن الثروة وسيلة لا أكثر ، فهى فى حد ذاتها لا ترضى غير البخيل ، وإذ كانت الثروة نسبية فإنها لا ترضى إنساناً زمناً طويلا . وسر السعادة هو العمل ، أى بذل الجهد بطريقة تتفق مع طبيعة الإنسان وظروفه . والفضيلة حكمة عملية ، وهى تقدير الإنسان بعقله لما فيه من خير[١٩٩] ، وهى فى العادة وسط بين نقيضين ، والإنسان فى حاجة إلى الذكاء لمعرفة هذا الوسط ، وإلى ضبط النفس (إنكراتيا enkrateia أو القوة الداخلية) لممارستها . ويقول أرسطو فى جملة من جمله النموذجية إن « الذى يغضب مما وممن ينبغى أن يغضب منه ، ويغضب فوق ذلك بالطريقة الحقة وفى الوقت المناسب للغضب ، ويطول غضبه الزمن الملائم ، إن هذا الرجل خليق بالثناء[٢٠٠] . وليست الفضيلة عملا ، بل هى تعود عمل الصواب ، ولا بد أن تفرض فى أول الأمر بالتدريب والتهذيب ، لأن الشبان لا يستطيعون أن يحكموا فى مثل هذه الأمور حكما صادقا حكيما ، فإذا مضى بعض الوقت فإن ما كان من قبل نتيجة الإرغام يصبح عادة أى « طبيعة ثانية » ، ويكاد يبعث من اللذة ما تبعثه الشهوة .

ويختتم أرسطو هذا البحث خاتمة تناقض أشد التناقض ما بدأه به وهو قوله إن السعادة فى العمل ، وإن أحسن حياة هى حياة الفكر . ذلك أن الفكر فى رأيه هو الدليل على ما انفرد به الإنسان من تفوق وامتياز ، وأن « العمل الخليق بالإنسان هو أن تعمل نفسه بالاتفاق مع عقله[٢٠١] » . « وأسعد الناس حظاً هو الذى يجمع بين قدر من الرخاء وقدر من العلم ، أو البحث أو التفكير ، فهذا الرجل هو أقرب الناس إلى الآلهة[٢٠٢] » . « والذين يرغبون فى اللذة المستقلة يجب أن يطلبوها فى الفلسفة ، لأن غيرها من اللذات يحتاج إلى معونة الإنسان[٢٠٣] » .

٤ — السياسى

ويرى أرسطو أن علم السياسة هو علم السعادة الجماعية كما أن علم الأخلاق هو علم السعادة الفردية ، وأن وظيفة الدولة هى أن تقيم مجتمعا يحقق أعظم سعادة لأكبر عدد . « والدولة هى مجموعة من المواطنين ذات عدد كاف لتحقيق جميع أغراض الحياة[٢٠٤] ، وهى نتاج طبيعى ، لأن « الإنسان بطبيعته حيوان سياسى[٢٠٥] » ، أى أن غرائزه تؤدى به إلى اجتماع مع غيره .. « والدولة سابقة بطبيعتها على الأسرة ، وعلى الفرد » : ذلك أن الإنسان كما نعرفه يولد فى مجتمع منظم من قبل يشكله فى صورته .

وبعد أن درس أرسطو مع طلابه ١٥٨ دستورا يونانيا (*) ، قسم هذه الدساتير ثلاثة أنواع مختلفة ، ملكية ، وأرستقراطية ، وديمقراطية ، أى حكم أصحاب السلطان ، وأصحاب المولد الشريف ، والنبهاء . وكل نوع من

(*) لم يبق من هذه الدراسات إلا كتابه « أحوال الدولة الأثينية Athenaion Politeia » ، وقد عثر عليه فى عام ١٨٩١ ، وهو تاريخ دستورى لأثينة من خير ما كتب فى موضوعه .

هذه الأنواع قد يكون صالحا حسب زمانه ومكانه وظروفه . وتقول إحدى الجمل التي يجب على كل أمريكي أن يحفظها عن ظهر قلب « إن نوعا من أنواع الحكم قد يكون أحسن من غيره من الأنواع ولكن ليس ثمة ما يمنع أن يكون نوع آخر خيراً منه في ظروف خاصة[٢٠٦] » . وكل حكم حسن إذا كانت السلطة الحاكمة تعمل لمصلحة الناس جميعاً لا لمصلحتها الخاصة ، فإذا لم تفعل هذا فكل حكم سيئ . ومن ثم كان لكل نوع من أنواع الحكم الصالح شبيه فاسد حين يكون حكماً لمصلحة الحاكمين لا لمصلحة المحكومين ؛ ففي هذه الحال تنحط الملكية فتصير استبدادا ، والأرستقراطية فتصبح ألجركية ، والتقراطية فتكون دمقراطية أي حكم العامة[٢٠٧] . فإذا كان الحاكم المفرد صالحا وقديراً كانت الملكية خير أشكال الحكم ، أما إذا كان أتقراطيا أنانيا كان حكمه حكما استبداديا ظالما ؛ وهو شر أنواع الحكم . وقد تصلح الحكومة الأرستقراطية إلى حين ولكن الأشراف (الأرستقراط) الذين يتولون أمورها ينزعون إلى الاضمحلال والانحطاط . « ويندر أن نجد شخصا نبيل الخلق بين الأشراف بمولدهم بل إن معظمهم لا يصلحون لشيء على الإطلاق . . . فالأسر ذوات المواهب العالية كثيراً ما تنحط فيكون أبناؤها من المجانين ، ومن أمثلة ذلك أبناء ألقبيادس ودنيسوس الأكبر ؛ أما المتوسطون منهم فكثيراً ما يكونون حمقى أو أغبياء كأبناء سيمون ، وبركليز ، وسقراط[٢٠٨] » . وإذا ما انحطت الأرستقراطية حلت محلها في العادة حكومة ألجركية من أصحاب المال أي حكومة ذوي الثراء . وهذه خير من طغيان الملك أو طغيان الغوغاء ، ولكنها تضع السلطة في أيدي رجال لا تتسع نفوسهم لأكبر من ذلك العمل الصغير وهو حساب تجارتهم ، أو ذلك العمل الإجرامي الدنيء وهو أكل الربا[٢٠٩] ، وينتهي أمرهم إلى استغلال الفقراء بلا وازع من ضمير[٢١٠] .

والدمقراطية — وهو يعني بها حكومة العامة من المواطنين demos — لا تقل خطورة عن الأبلجركية لأنها تعتمد على انتصار الفقراء القصير الأمد على الأغنياء في كفاحهما من أجل السلطة ؛ ونتيجتها هي الفوضى المؤدية إلى القضاء عليهما معاً . وخير ما تكون الدمقراطية حين يسيطر عليها الملاك الزراعيون ، وأسوأ ما تكون حين يسيطر عليها رعاع المدن من الصناع والتجار[٢١١] . نعم إن « حكم الكثرة يكون في كثير من الحالات خيراً من حكم الفرد ، لأنها لكثرة أفرادها أبعد عن الفساد والرشوة بعد الماء الكثير عن التلوث »[٢١٢] . ولكن الحكم يتطلب كفاية خاصة ودراية خاصة و« ليس في مقدور من يعيش عيشة الصانع البسيط أو الخادم الأجير أن يحصل على التفوق المطلوب »[٢١٣] ، (أي على الخلق الطيب والتدريب ، وصحة الحكم على الأمور) . وقد خلق الناس كلهم غير متساوين . نعم إن « العدل في المساواة ، ولكن هذا لا يكون إلا بين الأكفاء »[٢١٤] . ولا يقل استعداد الطبقات العليا لإثارة الفتن إذا فرضت عليهم مساواة غير طبيعية عن استعداد الطبقات الدنيا للتمرد إذ بلغ عدم المساواة درجة من التطرف غير طبيعية(*)[٢١٥] . وإذا ما سيطرت الطبقات الدنيا على الدمقراطية فرضت الضرائب على الأغنياء لتوفر المال للفقراء ؛ « فإذا أخذه الفقراء شرعوا يستزيدون منه ، وما أشبه هذه الحال بصب الماء في المنخل ٢٢[٢١٧] » . ومع هذا فإن الرجل الحافظ الحكيم لن يترك الناس يموتون جوعا ، و« يجب على الوطني الحق في الحكومة الدمقراطية أن يحذر من أن تكون أغلبية الشعب في فقر مدقع . . . ، وعليه أن يبذل جهده في أن يوفر لها الخبز على الدوام ؛ وإذ كان الأغنياء يستفيدون أيضاً من هذا ، فإن من الواجب أن يقسم ما يمكن ادخاره من الأموال العامة بين الفقراء بحيث يكفي نصيب كل منهم لأن يبتاع به حقلا »[٢١٨] .

(*) ويظن أرسطو أن الرق نفسه نظام مشروع ؛ فكما أن من الصواب أن يحكم العقل الجسم ، فإن من الصواب كذلك أن يحكم المتفوقون في الذكاء من لا يتفوقون إلا في قوة الجسم[٢١٦] .

وهكذا يرد أرسطو للأغنياء ما يكاد يعدل ما أخذه منهم ، وبعد أن يفعل هذا يعرض توصيات متواضعة لا يقصد بها أن يقيم مدينة فاضلة ، بل يهدف إلى إقامة مجتمع خير من المجتمع القائم فى زمانه إلى حد ما .

ثم ينتقل بعد هذا للبحث عن أصلح نوع من أنواع الحكم وأحسن أسلوب من أساليب الحياة يوائم المجتمعات بوجه عام .

ولسنا نريد أن يكون هذا الحكم وذلك الأسلوب مما يتفق مع تلك الفضيلة السامية البعيدة عن متناول العامة ، أو مع تلك التربية التى لا ينالها إلا من هيأت له الطبيعة والحظ جميع الفرص الطيبة ، أو مع تلك الخطط الخيالية التى يضعها الناس فى أوقات لهوهم ومرحهم ؛ بل نريد أن يتفقا مع أسلوب الحياة الذى تستطيع كثرة الجنس البشرى أن تصل إليه ، ومع نظام الحكم الذى تستطيع معظم المدن أن تقيمه[٢١٩] . . . ومن أراد أن يقيم حكومة على أساس شيوعية السلع فليرجع إلى تجارب كثيرة من السنين ؛ فإذا فعل فسيتضح له هل هذا نظام نافع أو غير نافع ؛ ذلك أن الأشياء كلها تقريباً قد عرفت ولم يبق منها مجهولا إلى القليل[٢٢٠] ... إن الشىء الذى يشترك فيه كثيرون لايعنى به إلا أقل عناية ؛ ذلك بأن الناس يوجهون من العناية إلى ما يملكونه لأنفسهم أكثر مما يوجهون إلى ما يشاركهم فيه غيرهم[٢٢١]... ولا بد لنا أن نبدأ بحثنا بافتراض مبدأ عام وهو أن ذلك الجزء من الدولة الذى يرغب فى بقاء الدستور الجديد يجب أن يكون أقوى من ذلك الجزء الذى لا يرغب فى بقائه[٢٢٢] ويتضح من هذا أن أحسن الدول نظاماً هى التى تكون الطبقات الوسطى فيها أكبر عدداً وأعظم قوة من الأغنياء أو الفقراء ... وفى جميع الحالات التى قل فيها عدد أفراد الطبقة الوسطى عن الحد الواجب تغلبت عليها الطبقة التى تفوقها فى العدد ، سواء أكانت طبقة الأغنياء أم طبقة الفقراء ، وتولت بنفسها تصريف الشئون العامة . . . ؛ وإذا ما سيطر الأغنياء على الفقراء ، أو الفقراء على الأغنياء ، لم تستطع هذه الطبقة أو تلك أن تقيم دولة حرة[٢٢٣] .

ويقترح أرسطو وضع « دستور مختلط » أو إقامة حكم « تمقراطى »[1] ، وهو خليط من الأرستقراطية والدمقراطية ، ليمنع به هذه الدكتاتوريات المقيدة للحرية سواء أكانت دكتاتورية الأغنياء أم الفقراء . وهو يريد أن يكون حق الانتخاب فى هذا النظام مقصوراً على ملاك الأراضى ، وأن تكون فيه طبقة وسطى قوية هى مصدر السلطة وقطب دائرتها ، « ويجب أن تقسم الأرض قسمين ، أحدهما يملكه المجتمع بوجه عام ، والآخر يملكه الأفراد متفرقين[224] » . ولا بد أن يكون كل مواطن من الملاك ، ويجب « أن يطعموا على الموائد العامة جماعات » ، وهؤلاء وحدهم هم الذين يقترعون أو يحملون السلاح . وسيكون هؤلاء أقلية صغيرة من السكان ، لا تزيد على عشرة آلاف . « ويجب ألا يسمح لواحد منهم أن يشتغل بمهنة آلية أو يكسب عيشه من طريق التجارة ، لأن هاتين المهنتين غير شريفتين ، وتقضيان على التفوق[225] » . كذلك يجب ألا يفلحوا الأرض ، . . . بل ينبغى « أن يكون الفلاحون طبقة من الشعب قائمة بنفسها » — ولعله يريد أن تكون من الأرقاء . ويختار المواطنون الموظفين العموميين ويحاسبون كلا منهم على أعماله فى نهاية المدة التى يتولى فيها منصبه . ويجب أن تحدد القوانين الموضوعة وفقا لنظام قويم ما يصدر من الأحكام فى جميع القضايا بقدر المستطاع ، بحيث لا يترك إلا أقل عدد مستطاع منها لتصرف القضاة[226] . . . » ذلك أن « حكم القانون خير من حكم الفرد . . . ، وأن من يعهد بالسلطة العليا لإنسان أيا كان إنما يعهد بها إلى وحش من الوحوش ، لأن شهواته تجعله فى بعض الأحيان وحشا . وللعواطف أثر كبير فيمن يتولون السلطة ، ولو كانوا هم خير من يتولاها ، أما القانون فهو العقل مجردا عن الشهوة[227] . والدولة المقامة على هذا النظام تتولى تنظيم الملكية ، والصناعة ، والزواج ، والأسرة ، والتعليم ، والأخلاق ، والموسيقى ، والأدب ، والفن . « وأحق من هذا كله بالعناية ألا يتجاوز عدد الناس حدا معينا . . . لأن إهمال هذا

الواجب يؤدى إلى افتقار المواطنين[٢٢٨] ؛ ويجب ألا يسمح بتربية أبناء مشوهين عاجزين » ، ومن هذه الأسس السليمة تتفتح أزهار الحضارة والطمأنينة . « وإذ كان الذكاء أعظم الفضائل ، فإن أهم ما يجب على الدولة ليس هو إعداد المواطنين للتفوق الحربى ، بل هو تعليمهم كيف يستفيدون من السلم الاستفادة الصحيحة[٢٢٩] » .

وبعد فليس من الضرورى أن ننصب أنفسنا حكاما على أعمال أرسطوطاليس . وحسبنا أن نقول إنا لا نعرف أحداً من الناس قبله قد شاد مثل هذا الصرح الرائع من التفكير . وحين يمتد نشاط الإنسان الذهنى إلى ميادين واسعة ، فإن من حقه علينا أن نعفو عن كثير من زلاته ، إذا ما وسعت نتائج بحوثه إدراكنا للحياة . وإن أخطاء أرسطو — أو أخطاء المجلدات التى نعدها بالحق أو بالباطل ثمار قلمه — لتبلغ من الوضوح حدا لا نحتاج معه إلى إيرادها مفصلة . فهو رجل منطق ، ولكن هذا لا يمنعه أن يقع فى كثير من الأغلاط المنطقية ؛ وهو يضع قواعد البلاغة والشعر ، ولكن كتبه أيكة مشتبكة الأغصان من سوء النظام ، أوراقها المتربة نفثة من ريح الخيال . بيد أننا إذا ما توغلنا فى هذه الأيكة ، التقينا فيها بكنز من الحكمة والنشاط العقلى الذى شق طرقا كثيرة فى ميدان العقل .

وليس فى وسعنا أن نقول إنه قد أوجد علم الأحياء ، أو تاريخ النظم الدستورية ، أو النقد الأدبى — إذ ليس فى العالم قط بدايات — ولكن هذه الموضوعات كلها قد أفادت منه أكثر مما أفادته من أى رجل نعرفه من الأقدمين . والعلوم الطبيعية والفلسفة مدينة له بالعدد الجم من المصطلحات التى يسرت فى صورتها اللاتينية تبادل الأفكار . . منها المبدأ ، والنهاية ، والموهبة ، والوسط ، والصنف ، والطاقة ، والباعث ، والعادة ، والغاية ، principle, maxim,faculty, means, catxegory ererg), motive habit, end . ولقد كان كما سماه بيتر Pater « أول المدرسين »[٢٣١] .

وكانت سيطرته الطويلة على الأساليب والبحوث والفلسفة مما يوحى بخصب تفكيره ، ونفاذ بصيرته . وإن كتابيه فى الأخلاق والسياسة(*) ليفوقان أمثالهما كلها فى الشهرة وعميق التأثير حتى أيامنا هذه ، وإذا ما أنقصنا من تقديرنا له كل ما فيه من عيوب ، فإنه يبقى بعدها « سيد العارفين » . وذلك دليل مشجع على ما يمتاز به العقل البشرى من مدى واسع مرن ، وهو إلهام مطمئن إلى الذين يكدحون فى سبيل جمع معلومات الناس المتفرقة وتنسيقها وفهمها .

(*) لقد ترجم هذين الكتابين إلى اللغة العربية الأستاذ أحمد لطفى السيد وطبعتهما لجنة التأليف . (المترجم)

الباب الثاني والعشرون

الإسكندر

الفصل الأول

نفسية فاتح

لقد كانت حياة أرسطو العقلية بعد أن غادر تلميذه الملكى مماثلة لحياة الإسكندر العسكرية ؛ ذلك أن كلتا الحياتين تعبر عن نزعة الفتح ، والبناء ، والتركيب . وربما كان الفيلسوف هو الذى غرس فى عقل الشاب تحمسه الشديد للوحدة وهو التحمس الذى رفع بعض الشيء من قدر انتصارات الإسكندر ؛ لكن أرجح من هذا أن هذا التحمس قد انحدر إليه من مطامع أبيه ، ثم أحاله دم أمه إلى ولع وهيام . وإذا شئنا أن نفهم الإسكندر على حقيقته ، وجب علينا أن نتذكر على الدوام أن عروقه كان يجرى فيها نشاط فليب العارم وحدة أولمبياس الهمجية ؛ يضاف إلى هذا أن أولمبياس كانت تدعي الانتساب إلى أخيل ، ومن أجل هذا كان الإسكندر يهوى الإلياذة ويفتتن بها ، وكان يفسر عبوره الهلسبنت بأنه تتبع لخطوات أخيل نفسه واستيلاءه على آسية الغربية بأنه إتمام للعمل الذى بدأه جده الأعلى فى طروادة . وكان فى خلال حملاته العسكرية كلها يحتفظ معه بنسخة من الإلياذة عليها شروح بقلم أرسطو ، وكثيراً ما كان يضعها تحت وسادته أثناء الليل بجوار خنجره ، كأنه يرمز بهذا إلى أداته وهدفه .

وعنى ليونداس Leonidas وهو مولوسى Molosian صارم بتربية الغلام الجسمية ، وعلمه ليسمخوس الأدب ، وحاول أرسطو أن يكون عقله . وكان فليب

يرغب فى أن يدرس ولده الفلسفة « حتى لا يفعل أشياء كثيرة من نوع الأشياء التى فعلتها أنا والتى آسف على فعلها[1] » كما قال فليب نفسه . وقد أفلح أرسطو إلى حد ما فى أن يجعل منه رجلا هلينياً ؛ وذلك أن الإسكندر كان طوال حياته يعجب بالأدب اليونانى ويحسد اليونان على حضارتهم ؛ وقد قال مرة لرجلين يونانيين كانا يجلسان معه أثناء المأدبة الوحشية التى قتل فيها كليتوس : « ألا تشعران حين تجلسان فى صحبة المقدونيين بأنكما أشبه بإلهين بين خلائق من الهمج[2] » .

وكان الإسكندر من الناحية الجسمية شاباً مثالياً . وذلك أنه كان يجيد كل ضروب الألعاب الرياضية : كان عداء سريعاً ، وفارساً جريئاً ، ومبارزاً ماهراً ؛ وكان يجيد الرماية بالقوس ، ولا يرهب أى شىء فى الصيد . ولما رغب إليه أصدقاؤه أن يشترك فى سباق العدو فى أولمبيا أجاب بأنه لم يكن يمانع فى ذلك لو أن المتبارين معه كانوا ملوكا . ولما عجز غيره عن تذليل بوسفلس Bucephalus الجواد الجامح الجبار ، نجح الإسكندر فى هذا العمل ؛ فلما رأى ذلك فليب ، كما يقول فلوطرخس ، حياه بتلك الألفاظ التى كانت أشبه بنبوءة بما يخبؤه له القدر : « أى بنى ، إن مقدونية لا تتسع لك ، فابحث لنفسك عن إمبراطورية أوسع منها ، وأجدر بك[3] » . وكان حتى فى أثناء زحفه يصرف بعض نشاطه فى أن يرمى بالسهام بعض ما يمر به من الأهداف ، أو ينزل من مركبته ثم يعود فيركبها وهى تجرى بأقصى سرعتها . وكان إذا تراخت الحرب خرج إلى الصيد وواجه بمفرده وهو واقف على قدميه وحشاً ضارياً ؛ وسمع ذات مرة بعد أن فرغ من قتال أسد بعضهم يقول إنه كان يحارب الأسد كأنه يبارزه لتقرر نتيجة البراز أيهما يكون هو الملك[4] ، فسر من هذا القول أيما سرور . وكان مولعاً بالعمل الشاق والمغامرات الخطرة ، ولم يكن يطيق الراحة . وكان يسخر من بعض أصدقائه الكثيرى الخدم ويقول إنهم لا يجدون ما يفعلون . ومن أقواله لهم : « عجيب أمركم ،

كيف لم تدلكم تجاربكم على أن من يعملون ينامون نوماً أعمق من نوم من يعمل لهم غيرهم ؛ وهل لا تزالون بحاجة إلى من يدلكم على أن أعظم ما نحتاجه بعد انتصارنا هو أن نتجنب الرذائل وأسباب الضعف التي كان يتصف بها من غلبناهم على أمرهم »[٥] . وكان يؤلمه ما يضيع من الوقت فى النوم ويقول : « إن النوم وعملية التناسل هما أهم ما كان يشعره بأنه آدمى فان »[٦] . وكان معتدلا فى الطعام ، وظل إلى آخر سنى حياته معتدلا كذلك فى الشراب ، وإن كان يحب أن يطيل المكث مع أصدقائه على كأس من الخمر . وكان يحتقر الأطعمة الدسمة ، وقد رد مشهورى الطهاة الماهرين الذين عرضوا عليه ، وقال إن مشى ليلة كفيل بأن يقوى شهوته للفطور ، وإن فطوراً خفيفاً يقوى شهوته للغداء[٧] . ولعل هذه العادات هى التى جعلت وجهه وضاء إلى حد كبير ، وجعلت رائحة جسمه ونفسه « زكية تفوح من ملابسه التى على جسمه »[٨] . وإذا ما أخذنا بأقوال معاصريه وضربنا صفحا عن ملق الذين رسموا صوره أو نحتوا تماثيله أو نقشوا رسمه ، حكمنا بأنه كان وسيما بدرجة لم يسبق إليها أحد من الملوك الذين قبله : كان ذا معارف قوية التعبير ، وعينين زرقاوين رقيقتين وشعر غزير أصحر . وهو الذى ساعد على إدخال عادة حلق اللحية فى أوربا ، وحجته فى ذلك أن اللحية تمكن العدو من القبض على صاحبها[٩] . ولعل أكبر آثاره فى التاريخ هو هذا الأثر التافه .

أما من الناحية العقلية فقد كان طالباً شديد التحمس للدرس ، لكن التبعات التى ألقيت عليه قبل الأوان لم تترك له فسحة من الوقت ينضج فيها عقله . وكان يحزنه ما يحزن الكثيرين من رجال الجد والعمل وهو أنه لا يستطيع أن يكون أيضاً مفكراً . ويقول فيه فلوطرخس إنه « كان شديد الشغف بالعلم ، شغفاً يزداد على مر الأيام . . وكان مولعا بجميع أنواع المعارف محبا لقراءة جميع أنواع الكتب » . وكان من أسباب سروره بعد أن يقضى يوماً فى السير أو القتال أن يسهر إلى منتصف الليل يتحدث إلى الطلاب والعلماء . وقد كتب مرة إلى أرسطو يقول : خير لى أن أتفوق على غيرى

فى العلوم من أن أتفوق عليهم فى اتساع الملك وقوة السلطان »[٩] . ولقد أرسل بعثة لارتياد منابع النيل — وقد يكون هذا بإيعاز أرسطو — ، وأعان بالمال كثيراً من البحوث العلمية . وليس فى وسعنا أن نحكم أكان إذا امتد به أجله يبلغ ما بلغه قيصر من صفاء الذهن أو ما بلغه نابليون من دقة الفهم . لكن مشاغل الملك أدركته وهو فى العشرين من عمره ، واستغرقت شئون الحرب والإدارة كل وقته وجهده ، ومن أجل هذا بقى ناقص التعليم إلى آخر أيام حياته . ثم إنه كان متحدثاً لبقاً ، ولكنه كان يتورط فى مئات الأغلاط إذا تطرق الحديث إلى شئون السياسة والحرب . ويلوح أنه رغم حروبه الكثيرة لم يعرف من الجغرافية ما كان فى مقدور ذلك العلم فى أيامه أن يمده به . وكان عقله فى بعض الأحيان يسمو عن الآراء الضيقة التحكمية ، ولكنه بقى إلى آخر أيام حياته عبداً للخرافات والأوهام ، شديد الثقة بالعرافين والمنجمين الذين تزدحم بهم حاشيته . ولقد قضى الليلة السابقة لواقعة أربيلا يقوم بمراسيم سحرية مع الساحر أرستندر Aristander ويقرب القربان إلى إله الخوف . وكان هذا الرجل الذى واجه الناس والوحوش بشجاعة ونشوة « يرتاع لأقل النذر الموهومة » ارتياعاً يحمله على تغيير خططه[١٠] . وكان فى مقدوره أن يقود آلاف الرجال ، ويهزم الملايين منهم ، ويحكمهم ، ولكنه لم يكن يستطيع السيطرة على طبعه . ولم يتعلم قط الاعتراف بما يرتكب من خطأ أو بما فيه من نقص ، وكان يغتر بالثناء اغتراراً يطغى على حكمته ويفسدها . وقد عاش طول حياته فى جو من الانفعال والمجد يكاد يذهب بعقله ، وكان يحب الحرب حباً استحوذ على عقله فلم يترك له ساعة ينعم فيها بالسلام .

وكانت أخلاقه تحوم حول أمثال هذه المتناقضات . فقد كان فى قرارة نفسه عاطفياً سريع الانفعال ، تستبقه عبراته ، شديد التأثر بالشعر والموسيقى ، وكان فى أيام شبابه الأولى يعزف على القيثارة ويتأثر بأنغامها

أشد التأثر . ولما عنفه فليب على هذا هجر تلك الآلة ، ورفض من ذلك الوقت أن يستمع لغير النغمات العسكرية ؛ ولعله أراد بهذا أن يتعود السيطرة على حواسه[١١] كذلك كان يستمسك بالفضيلة فى الناحية الجنسية ، ولم يكن ذلك عن مبدإ يدين به ، بل لأن مشاغله كانت تحول بينه وبين الانحراف إلى هذه الناحية . ذلك أن نشاطه الدائم ، وسيره الطويل ، وحروبه الكثيرة ، وخططه المعقدة ، وأعباءه الإدارية ، كانت تستنفد كل قواه ، ولا تترك له إلا القليل من شهوة الحب . وكانت له زوجات كثيرات ، ولكن زواجه بهن كان تضحية منه قضت بها شئون السياسة والحكم ؛ وكان شهماً ذا مروءة فى معاملته للنساء ، لكنه كان يفضل عليهن صحبة قواده . وجاءه رجاله ذات مرة إلى خيمته بامرأة جميلة بعد أن مضى من الليل أكثره ، فسألها « لم تأخرت إلى هذا الوقت؟ » فردت عليه بقولها : « كان على أن انتظر حتى أنيم زوجى » . فصرفها الإسكندر وعنف خدمه وقال لهم إنه كاد بأعمالهم أن يصبح زانياً[١٢] . وكان فيه كثير من صفات اللوطيين ، وكان يحب هفستيون Hephaestion إلى حد الجنون ؛ لكنه حين جاءه ثيودورس التاراسى Theodorus of Taras يعرض عليه أن يبيعه غلامين بارعى الجمال ، طرد ثيودورس من مجلسه وطلب إلى أصدقائه أن يفصحوا له عما أظهره من سفالة وخسة نفس تحملان إنساناً ما على أن يتقدم إليه بهذا العرض الدنىء[١٣] . وكان يستمسك بصداقة الأصدقاء ويهبهم ما يهبه معظم الناس إلى المحب من اشتياق ورقة عاطفية ؛ وليس بين من نعرف من الساسة ، دع عنك القواد ، من فاقه فى صدق القول الخالى من التكلف أو فى الصداقة الوفية القوية : أو فى إخلاصه فى حبه وغرضه ، أو فى كرمه لمعارفه وأعدائه دع عنك أصدقاءه[١٤] . وفى ذلك يقول فلوطرخس « وهو ينتهز أقل الظروف ليكتب الخطابات لخدمة الأصدقاء » . وقد كسب حب جنوده بعطفه عليهم ؛ وكان يخاطر بحياتهم ولكنه لم يكن يفعل ذلك جزافاً من غير مبالاة ، كأنه كان يحس بجميع جراحهم ؛ وكما عفا قيصر عن

بروتس وشيشرون، وكما عفا نابليون عن فوشيه Foché وتاليران Talley and -
كذلك عفا الإسكندر عن هرپالس Harpalu، صاحب بيت المال الذى اختفى
بما فى عهدته منه ثم عاد إليه يرجو عفوه ؛ وقد أدهش الشاب الفاتح الناس
جميعاً بأن أعاده إلى منصبه ، ويبدو أنه أصلحه بذلك العمل(١٥) . ومرض
الإسكندر فى طرسوس عام ٣٣٣ فعرض عليه طبيبه فليپ شراباً مسهلا .
وفى تلك اللحظة وصلت إلى يد الملك رسالة من پرمنيو يقول فيها إن دارا
قد رشا فليپ ليدس له السم ، فما كان من الإسكندر إلا أن عرض الرسالة
على فليپ ، وبينا كان الطبيب يقرؤها شرب الإسكندر الدواء — ولم يصب
بسوء . وقد كان اشتهاره بالنبل والكرم عونا له فى حروبه ؛ فقد كان
كثيرون من أعدائه يلقون بأنفسهم أسرى بين يديه ، وكانت المدن تفتح
أبوابها إذا اقترب منها لأنها تخشى على أنفسها من النهب . ولكنه كان فيه شىء
من الشراسة المولوسية ، وقد شاء القدر القاسى أن يقضى عليه ما كان ينتابه
أحياناً من نوبات القسوة . مثال ذلك أنه لما استولى على غزة بعد أن حاصرها
واقتحم أسوارها واستفزته بطول مقاومتها أمر بأن تخرق قدما باتيس Batis
قائدها الباسل ، وأن توضع فيها حلقات من نحاس . ثم أسكرته ذكرى
أخيل ، فشد القائد الفارس بعد موته إلى العربة الملكية بالحبال ، وجرت
به أقصى سرعتها حول المدينة(١٨) . وكان إدمانه الخمر إدماناً متزايداً ليهدئ
به أعصابه مما دفعه فى سنيه الأخيرة إلى كثير من أعمال القسوة العمياء
التى أخذت تزداد على مر الأيام ، وكانت تتلوها نوبات من الندم الصامت
وتوبيخ الضمير العنيف .

وكان من صفاته صفة لها الغلبة على كل ما عداها ونعنى بها الطموح
فقد كان وهو شاب يتبرم من انتصارات فليپ ، حتى لقد شكا مرة إلى
أصدقائه من أن « أباه سيفرغ من كل شىء قبل أن نستعد نحن ، ولن
يترك لى أو لكم فرصة نعمل فيها شيئاً عظيماً خطيراً(١٧) » . وقد دفعته هذه

الرغبة الشديدة فى العمل العظيم إلى محاولة القيام بكل واجب واقتحام كل خطر ففى يوم قيرونيا مثلا كان هو أول من هجم على « العصبة الطيبية المقدسة » ؛ وفى يوم غرانيقوس أطلق العنان لما كان يسميه رغبة فى ملاقاة الأخطار[١٨]» . وقد أصبحت هذه الرغبة هى الأخرى شهوة جامحة ، فكان صوت الحرب ومنظرها يسكرانه ، فينسى فى ذلك واجبات القائد ويندفع إلى معمعان القتال ، وكثيراً ما كان جنوده يلحون عليه أن يرتد إلى المؤخرة لخوفهم أن يفقدوه . على أنه لم يكن قائداً عظيما ، بل كان جنديا باسلا أوصله جلده وعناده وعدم مبالاته بالعقبات التى كانت تبدو مستحيلة التذليل إلى انتصارات مؤزرة لم يسبقه أحد إلى مثلها . وكان هو الملهم لجنوده ، أما قواده الذين كانوا من أقدر الرجال فالراجح أنهم هم الذين كانت تقع عليهم أعباء التنظيم والتدريب والكر والفر والفنون الحربية . وكان يقود جنوده بخياله الوضاء ؛ وفصاحته الطبيعية غير المتكلفة ، واستعداده لمقاسمتهم صعابهم وأحزانهم استعداد المخلص الوفى . ولا جدال فى أنه كان إدارياً حازماً ؛ وقد حكم الأملاك الواسعة التى افتتحها بقوة السلاح حكما رفيقاً حازماً ؛ وكان يفى بالعهود التى يقطعها على نفسه لقواد الجند المهزومين وللمدن المغلوبة ، ولم يسمح قط لموظفيه أن يظلموا رعاياه أو يستبدوا بهم ، ولم يكن وهو يخوض غمار القتال والهيجاء مشتجرة والأرض متزلزلة يغفل قط عن هدفه الأسمى الذى لم يحل موته دون إنجازه : وهو ضم البحر المتوسط الشرقى فى وحدة ثقافية جامعة ، تسيطر عليها وتسمو بها حضارة بلاد اليونان الآخذة فى الانتشار .

الفصل الثاني

طريق المجد

لما ارتقى الإسكندر العرش ألفى نفسه على رأس دولة متصدعة ؛ فقد ثارت القبائل الشمالية الضاربة في تراقية وإليريا ؛ وخرجت عن طاعته إيتوليا وأكرنانيا Acarnania ، وفوسيس ، وإليس ، وأرجولس ، وطرد الأمبراقيوتيون Amparciotes الحامية المقدونية من بلادهم ؛ وكان أرتخشتر الثالث يفخر بأنه هو المحرض على قتل فليب ، وأن بلاد الفرس لا تخشى شيئاً من هذا الحدث المراهق الذي ورث الملك وهو في العشرين من العمر . ولما أن وصلت البشائر إلى أثينة بأن فيلب قد مات ازين دمستين بأفخر الثياب وتوج رأسه بإكليل من الزهر ، واقترح على الجمعية أن تضع تاجا على رأس قاتله پوسنياس تكريماً له[١٩] . وفي مقدونية نفسها كانت عشرة أحزاب أو أكثر تأتمر بحياة الملك الشاب .

وواجه الإسكندر هذه الصعاب كلها بهمة قعساء وعزيمة ماضية قضى بهما على المقاومة الداخلية وخطا الخطوة الأولى نحو مستقبله العظيم . ولما أن ألقى القبض على زعماء المتآمرين في داخل البلاد وقتلهم اتجه بجيوشه جنوبا نحو بلاد اليونان (٣٣٦) وبلغ طيبة بعد بضعة أيام . وأسرعت بلاد اليونان فقدمت له ولاءها ، وبعثت إليه أثينة معتذرة عما فرط منها ، وعرضت عليه تاجين ، ومنحته ما تمنحه الآلهة من مراسم التكريم . فلما هدأت سـورة الإسكندر أعلن إلغاء جميع الحكومات الدكتاتورية في بلاد اليونان ، وأمر أن تعيش كل مدينة حرة حسب قوانينها . وثبت له المجلس الأمفكتيوني جميع الحقوق التي منحها فليب ،

واجتمع فى كورنثة مؤتمر من جميع دول اليونان ما عدا اسپارطة وأعانه قائدا عاما لجميع اليونان ، ووعد أن يعينه بالمال والرجال فى حروبه الأسيوية المرتقبة : ثم رجع الإسكندر إلى پلا ، ونظم شئون العاصمة ، واتجه بعدئذ نحو الشمال ليقلم أظفار الفتنة التى أوقدت نارها القبائل المتبربرة (٣٣٥) . وزحف على رأس جنوده بسرعة ناپليونية حتى وصل إلى موضع مدينة بخارست الحالية ، ورفع علمه على ضفة الدانوب الشمالية . ثم تراءى إليه أن أهل إلريا يزحفون على مقدونية فاجتاز مائتى ميل فى قلب بلاد الصرب وفاجأ مؤخرة الغزاة ، وهزمهم ، ورد فلولهم إلى جبالهم .

لكن إشاعة راجت وقتئذ فى أثينة بأن الإسكندر قد قتل وهو يحاربه عند نهر الدانوب . فأخذ دمستين يدعو إلى حرب لنيل الاستقلال ، ولم ير حرجاً فى أن يقبل مبالغ طائلة من الفرس يستعين بها على تنفيذ خططه . واستجابت طيبة إلى تحريضه فخرجت عن طاعة الإسكندر ، وقتلت الموظفين المقدونيين الذين تركهم فيها الملك الشاب ، وحاصرت الحامية المقدونية المعكسرة فى حصن الكدميا . وأرسلت أثينة المدد إلى طيبة ، ودعت بلاد اليونان والفرس إلى التحالف على مقدونية . وثارت ثائرة الإسكندر لهذا العمل الذى لم يكن الدافع إليه فى نظره رغبة اليونان فى الاستقلال ، بل كان غدراً منها وكفراً بفضله عليها ؛ فزحف بجنوده المتعبين نحو الجنوب وهاجم بلاد اليونان مرة أخرى . ووصل إلى طيبة بعد ثلاثة عشر يوماً ، وشتت شمل جيش سيرته ليصد زحفه ؛ ثم ترك مصير هذه المدينة المجردة من وسائل الدفاع عن أعدائها الأقدمين — پلاتيه ، وأركمنوس وتسپيا ، وفوسيس ؛ فقررت هذه المدن أن تُحرق طيبة عن آخرها وأن يباع أهلها أرقاء . وأراد الإسكندر أن يلقى درساً على غيرها من المدن فأمضى هذا القرار ، ولكنه اشترط ألا يمس الجنود الظافرون بيت پندار بسوء ، وأن يبقوا على حياة الكهنة والكاهنات وجميع الطيبيين الذين يثبتون أنهم قاوموا الثورة . وقد ندم

فيما بعد على هذا الانتقام العنيف وعده سبة له » ولم يكن يتردد فى أن يعطى أى طيبى ما يطلبه إليه » ، وقد كفر عن بعض ذنبه بمعاملته اللينة لأثينة ، فتغاضى عن نكثها ما قطعته على نفسها من عهود فى السنة السابقة ، ولم يتشدد فى طلبه تسليم دمستين وغيره من الزعماء الذين قاوموا المقدونيين. وظل إلى آخر حياته يظهر لها دلائل الاحترام والحب، فوهب الأكربوليس كثيراً من الغنائم التى ظفر بها فى انتصاراته الأسيوية ، ورد إلى أثينة تمثالى قاتلى الطغاة اللذين نهبهما خشيارشاى ، وقال عقب حملة حربية مجهدة : « أيها الأثينيون ، هل تعلمون أى أخطار أعرض نفسى لها لأكون خليقاً بحمدكم[١٦] » .

وبعد أن أعربت جميع الدول اليونانية ما عدا اسپارطة عن ولائها للإسكندر عاد إلى مقدونية وأخذ يستعد لغزو آسية . وقد وجد أن خزائن الدولة تكاد أن تكون خاوية ، بل وجد أنها مثقلة من عهد فليب بعجز يبلغ مقداره خمسمائة وزنة (نحو ٣٠٠٠٠٠٠ ريال أمريكى)[١٧] ، فاقترض ثمانمائة وشرع يتغلب على ديونه قبل أن يتغلب على العالم . وكان قد عقد النية على محاربة الفرس بوصفه بطل هلاس وناصرها ، ولكنه عرف أن نصف بلاد اليونان كان يرجو أن يلاقى حتفه . ونقل إليه عيونه أن فى مقدور الفرس أن يحشدوا لقتاله ألف ألف رجل ؛ أما هو فلم تزد قوته التى سيرها لقتالهم على ثلاثين ألفاً من المشاة ، وخمسة آلاف من الفرسان . بيد أن هذا الأخيل الجديد لم يعبأ بهذا الفرق الهائل ، وترك اثنى عشر ألف جندى بقيادة أنتباتر Antipater لحراسة مقدونية ومراقبة بلاد اليونان ، وبدأ فى عام ٣٣٤ أجرأ وأعجب مغامرة روائية فى تاريخ الملوك . وعاش بعد ذلك إحدى عشرة سنة ولكنه لم ير من ذلك اليوم بلاده أو أوربا . وبينا كان جيشه يعبر الهلسپنت من لسبوس إلى أبيدوس اختار هو أن ينزل إلى البر عند رأس سجيوم Sigeum ويسير فى الطريق الذى كان يعتقد أن أجممنون سار فيه إلى طروادة . وكان فى كل خطوة يذكر لرفاقه فقرات من الإلياذة :

فقد كان يحفظها كلها تقريباً عن ظهر قلب . ولما جاء إلى قبر أخيل المزعوم صب عليه الزيت تكريماً له ووضع عليه تاجاً من الزهر ، وسعى عارياً حوله كما كان يفعل الأقدمون ، وصاح قائلا : « ما أسعد أخيل إذ كان له فى حياته هـذا الصديق الوفى ، وبعد مماته ذلك الشاعر العظيم ليمجده ويخلد ذكره »[٢٨] . وأقسم فى تلك الساعة أن يواصل ذلك الكفاح الطويل بين أوربا وآسية الذى بدأ عند طروادة حتى نهايته المظفرة .

وليس من غرضنا فى هذا الكتاب أن نعيد ذكر انتصاراته . وحسبنا أن نقول إنه التقى بأول جيش فارسى عند نهر غرانيقوس وهزمه . وفى هذه الواقعة أنقذ كليتس Cleitus حياة الإسكندر بأن قطع يد جندى فارسى أوشك أن يضرب الإسكندر من خلفه . وليس من دأبنا أن نفعل ما يفعله بعض المؤرخين الخياليين فنفترض الفروض ونبنى التاريخ على أمثال هذه الحوادث العارضة أو نتخذها أساساً لهذه الفروض . وبعد أن أراح رجاله بعض الوقت واصل السير إلى أيونيا ، وأنشأ فى المدن اليونانية حكومات دمقراطية تحت حمايته . وقد فتحت له معظم هذه المدن أبوابها من غير مقاومة . والتقى عند إسوس بجيش الفرس الرئيسى ، وكان يبلغ ٦٠٠ر٠٠٠ مقاتل يقودهم دارا الثالث . وكسب المعركة مرة أخرى باستخدام فرسانه للهجوم ومشاته للدفاع . وفر دارا من الميدان وترك وراءه أمواله وأسرته ؛ وشكر له الإسكندر هديته الأولى وعامل الهدية الثانية معاملة الرجل الشهم الكريم . وبعد أن استولى على دمشق وصيدا من غير قتال حاصر صور ، وكان بها أسطول فينيقى قوى استأجره الفرس لخدمتهم فى القتال . وقاومته المدينة القديمة مقاومة طويلة غضب لها الإسكندر أشد الغضب ؛ ولما أن استولى عليها آخر الأمر ركب رأسه فترك رجاله يذبحون ثمانية آلاف من أهلها ، ويبيعون منهم ثمانين ألفاً بيع الرقيق . واستسلمت له أورشليم بلا

مقاومة فأحسن معاملتها ، وحاربته غزة حتى قتل كل رجل فى المدينة وسبيت كل امرأة .

وواصل المقدونيون زحفهم المظفر مخترقين صحراء سيناء إلى مصر ، وفيها كان الإسكندر حكيما ، فعظم آلهتها ورحب به أهلها ، ورأوا فيه منقذاً أرسلته الآلهة ليحررهم من نير الفرس . وعرف الإسكندر أن الدين أقوى من السياسة فاخترق صحراء أخرى إلى واحة سيوة ، وقدم الطاعة إلى الإله آمون — وهو أبوه نفسه إذا جاز لنا أن نصدق أولمبياس . وتوّجه القساوسة المرنون فرعونا ، وأقاموا له الطقوس القديمة ، ومهدوا بعملهم هذا الطريق لأسرة البطالمة . فلما تم له ذلك عاد إلى وادى النيل وبدا له أن يقيم عاصمة جديدة ، أو لعله وافق على إقامتها ، عند أحد مصاب نهر النيل الكثيرة ؛ وربما كان اليونان المقيمون فى نقراطس (نقراش) القريبة من هذا المكان قد أشاروا عليه بإنشائها لأنها بموقعها هذا تكون مستودعاً أحسن من نقراطس للتجارة اليونانية الكبيرة التى كان يرجى أن تتبادل بين مصر وبلاد اليونان . وخطط الإسكندر محيط أسوار الإسكندرية وحدود شوارعها الرئيسية ، ومواضع الهياكل التى اعتزم أن يقيمها لآلهة المصريين واليونان ، ثم ترك ما عدا هـــذا من التفاصيل لمهندسه دنقراطيس Dinocrates (*) .

ثم عاد بجيشه إلى آسية والتقى عند جوكميلا قرب أربيلا بجيش دارا المؤلف من خليط من الأمم ، وارتاع لكثرة عدده ، وكان يعرف أن هزيمة واحدة كفيلة بأن تذهب بجميع ما سبقها من انتصارات . لكن جنوده هدأوا روعه وقالوا له « طب نفسا أيها السيد المعظم ، ولا ترهبك كثرة عدد الأعداء ،

(*) وكان دنقراطيس قد أدخل السرور على قلب الإسكندر بأن عرض عليه أن ينحت جبل آثوس — الذى يبلغ ارتفاعه ستة آلاف قدم — ليجعله تمثالا للإسكندر يقف والبحر يغمره إلى وسطه ، ويمسك مدينة فى إحدى يديه وعرفاً فى اليد الأخرى(٢٤) ، لكن هذا المشروع ظل حلما من الأحلام .

لأنهم لن يستطيعوا الوقوف أمام رائحة المعز التي تصحب جيوشنا[٢٥] ، وقضى الليلة يستكشف الأرض التي ستدور فيها المعركة ، ويقرب القرابين للآلهة . وكان نصره مؤزرا حاسما ، فلم تستطع جيوش دارا المختلة النظام أن تصمد أمام فيالق الإسكندر المتراصة ، ولم تعرف كيف تدافع عن نفسها أمام هجمات الفرسان المقدونيين السريعة المتكررة ، فتبدد شملها وولت الأدبار ، ولم يكن دارا آخر الفارين . وقتله قواده جزاء له على جبنه ، في الوقت الذي كان الإسكندر يتقبل فيه خضوع بابل ، ونصيبا من ثروتها ، ويوزع بعضها على جنده ، ويأسر قلوب أهل المدينة بتعظيم آلهتها وإصدار أوامره بإعادة أضرحتها المقدسة . ولم تنته سنة ٣٣١ حتى كان قد وصل إلى مدينة السوس ، وكان أهلها لا يزالون يذكرون مجد عيلام القديم فاستقبلوه استقبال المنقذ . وقد حمى المدينة من النهب وعوض جنوده عن ذلك بأن قسم بينهم بعض الخمسين ألف وزنة (٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ريال أمريكي) التي وجدها في أقبية دارا . وأرسل إلى أهل بلاتية قدراً كبيراً من هذا المال لأنهم قاوموا الفرس مقاومة عنيفة في عام ٤٨٠ ، ويبدو أنه رد إلى مدن آسية « العطايا » التي استولى عليها منها في بداية الحملة[٢٦] . وأعلن إلى اليونان في جميع أنحاء العالم في فخر وكبرياء أنهم أصبحوا الآن أحراراً مستقلين أتم الاستقلال عن حكم الفرس .

ولم يكد يستريح في السوس حتى واصل الزحف فوق الجبال في قلب الشتاء ليستولي على پرسپوليس ؛ وقد بلغ من سرعة زحفه أن وصل إلى قصر دارا قبل أن يستطيع الفرس إخفاء الكنوز الملكية . وهنا ركب رأسه فحرق المدينة العظيمة ودكها دكا ، وانطلق جنوده ينهبون البيوت ويسبون النساء ويقتلون الرجال . ولعل الذي أثار سخطهم هو أنهم رأوا وهم مقبلون على المدينة ثمانمائة من اليونان قد مثل بهم الفرس لأسباب مختلفة فقطعوا أرجلهم

أو أيديهم أو آذانهم أو فقأوا عيونهم . وأبصرهم الإسكندر فبكى من فرط التأثر وأقطعهم أرضاً زراعية وخصهم بأتباع يزرعونها لهم .

ولم يكتف الإسكندر بما نال من مجد فحاول أن يفعل ما عجز عن فعله قورش — وهو إخضاع القبائل التي كانت تحوم حول تخوم بلاد الفرس من الشرق ، ولعله كان يأمل لقلة معلوماته الجغرافية أن يجد وراء الشرق الغامض المجهول ذلك الأقيانوس الذي يصلح لأن يكون حداً طبيعياً للدولة العظيمة التي أقامها بسيفه . ولما دخل سجديانا مر بقرية يسكنها أبناء البرنشيدى Branchidae الذين أسلموا لخشيارشاى قرب ميليطس كنوز هيكلهم . وتملكته فكرة الانتقام للإله الذي انتُهب ماله ، فأمر بأن يقتل جميع أهلها بما فيهم النساء والأطفال — فاقتص بهذا العمل من الآباء بعقاب الجيل الخامس من الأبناء . وكانت حروبه في سجديانا ، وأريانا ، وبكتريانا ، وحشية لم يجن منها نفعاً ، فقد نال فيها بعض النصر ، وعثر في أعقابها على بعض اللهب ، وترك من ورائه أعداء في كل مكان . وقبض رجاله قرب بخارى على بسوس Bessus قاتل دارا . وأقام الإسكندر نفسه فجاءة مطالباً بدم الملك العظيم ، فضرب بسوس بأمره بالسياط حتى كاد يقضى عليه ، وجدع أنفه وصملت أذناه ، ثم أرسل إلى إكباتانا حيث قتل بأن ربط ذراعاه في إحدى الأشجار وساقه في شجرة أخرى ، وكانت الشجرتان قد ضمتا بالحبال ، فلما قطعت حبالها مزقت الشجرتان جسمه[٢٧] . وهكذا كان الإسكندر كلما بعد عن بلاد اليونان قلت فيه صفات اليونان وزادت نزعة الهمجية .

ونراه في عام ٣٢٧ يخترق جبال الهملايا لينقض على الهند . وكأن غروره وتشوفه كانا يأتمران به ليقوداه إلى هذا الصقع النائى . ونصحه قواده بألا يقدم على هذه المغامرة ، وأطاعه جنده وهم كارهون ، فعبر نهر السند ، وهزم الملك پورس Porus ، وأعلن أنه سيواصل الزحف حتى نهر الكنج Ganges لكن

جنوده أبو أن يتقدموا خطوة واحدة . فحاول إقناعهم ، وقضى ثلاثة أيام متجهما فى خيمته كما فعل جده أخيل من قبل ؛ ولكن ذلك لم يجده نفعاً لأن جنوده قد سئموا القتال ، فعاد أدراجه مكتئبا حزينا ، كارهاً أن يواجه الغرب مرة أخرى ، وشق طريقه وسط قبائل معادية له ، بشجاعة لم يسع جنوده حين شهدوها إلا أن يبكوا لعجزهم عن تحقيق جميع أحلامه

وكان هو أول من تسلق أسوار ماليا Mallia ؛ وبعد أن قفز هو واثنان من جنده إلى داخل المدينة ، تحطم السلم الذى صعدوا عليه ، ووجد هو وزميلاه أنفسهم يحيط بهم الأعداء من كل جانب . وحارب الإسكندر حتى سقط على الأرض مثخناً بالجراح ؛ وكان جنوده فى هذه الأثناء قد اقتحموا أسوار المدينة ، وأخذوا واحداً بعد واحد يضحون بحياتهم دفاعا عن مليكهم الملقى على الأرض . فلما انتهت المعركة ، حمل الإسكندر إلى خيمته ، والجند يقبلون ثيابه وهو مار بهم . وبعد أن قضى ثلاثة أشهر فى دور النقاهة بدأ الزحف من جديد بمحاذاة نهر السند حتى وصل آخر الأمر إلى المحيط الهندى . ومن هنا أرسل قسما من جيوشه بطريق البحر بقيادة نيارخوس Nearchus ، واستطاع هذا القائد الماهر أن يقوم بهذه الرحلة بعد أن اخترق بحاراً لا عهد له بها وقاد الإسكندر بنفسه بقية الجيش متجها به نحو الشمال الغربى بمحاذاة ساحل الهند ، ومخترقا صحراء جدروسيا Gedrosia (بلوخستان) ؛ وقاسى جنوده فيها ما قاسته جنود نابليون فى أثناء ارتدادهم من مسكو ، فقد قضى آلاف منهم من شدة الحر ، وهلك من العطش أكثر من هؤلاء ؛ ثم وجدوا قليلا من الماء ، وجىء به إلى الإسكندر ، فصبه متعمداً على الأرض[٢٨] . ووصلت فلول جيشه إلى السوس بعد أن قتل منهم عشرة آلاف ، واختلت موازين عقل الإسكندر نفسه من كثرة ما لاقاه من الأهوال .

الفصل الثالث

موت إله

وكان قد قضى حتى ذلك الوقت تسع سنين فى آسية ، أحدث فيها من التأثير بانتصاراته قل مما أحدثته هى فيه بأساليبها الشرقية . ذلك أن أرسطو قد علمه أن يعامل اليونان معاملة الأحرار وأن يعامل « البرابرة » معاملة العبيد . ولكنه دهش إذ وجد بين أشراف الفرس مستوى من الرقة وحسن الخلق لم يره كثيراً فى الدمقراطيات اليونانية المضطربة ؛ وأعجب بالطريقة التى نظم بها الملوك العظام إمبراطوريتهم ، وارتاب فى مقدرة المقدونيين الغلاظ على أن يحلوا محل حكام هذه الإمبراطورية ، وأدرك أن السبيل الوحيدة إلى تثبيت فتوحه واستقرارها بعض الاستقرار هى أن يسترضى أشراف الفرس حتى يقبلوا زعامته ، فإذا فعلوا استخدمهم فى المناصب الإدارة . وزاد سروره برعاياه الجدد يوما بعد يوم ، فتخلى عن فكرته القديمة وهى أن يحكمهم بوصفه ملكا مقدونياً ، وتخال نفسه إمبراطوراً يونانياً — فارسياً يحكم دولة يكون فيها الفرس واليونان أكفاء ، وتمتزج ثقافتهم ودماؤهم امتزاجاً سلميا ، فينتهى النزاع الطويل بين أوربا وآسية بذلك الاقتران السعيد بين حضارتيهما .

وكان آلاف من جنوده قد تزوجوا من نساء البلاد المفتوحة ، وأخذوا يعاشرونهن ؛ فلم لا يفعل هو أيضاً فعلهم ؟ فيتزوج بابنة دارا ويسوى النزاع بين الأمتين بأن يلد لها ملكا يجرى فى عروقه دم الأسرتين . لقد تزوج قبل ذلك الوقت رُكسانا الأميرة البكترية ، ولكنه لم يكن يرى أن هذا عقبة تقف فى طريقه ، وعرض الفكرة على ضباطه وأشار عليهم أن يتخذوا لهم

أزواجاً فارسيات . وتبسموا ضاحكين من فكرة توحيد الأمتين ، ولكنهم كانوا قد قضوا زمناً طويلا بعيدين عن ديارهم ، وكانت نساء الفرس ذوات جمال بارع . ومن ثم أقيم عرس عظيم في السوس (٣٢٤) تزوج فيه الإسكندر استاتيرا Stati ابنة دارا الثالث ، وپريساتس Parysatis ابنة أرتخشتر الثالث ، وبهذا ربط نفسه بفرعي الأسرة المالكة الفارسية ، واتخذ ثمانون من ضباطه لهم زوجات فارسيات . وحذا حذوهم بعد زمن يسير آلاف من الجنود فتزوجوا من فارسيات . ووهب الإسكندر كل ضابط من ضباطه بائنة قيمة وأدى ما على الجنود الذين تزوجوا من ديون — وقد بلغت هذه الهبات (إذا جاز لنا أن نأخذ بأقوال أريان Arrian) عشرين ألف وزنة (نحو ٠٠٠ر٠٠٠ر١٢٠ ريال أمريكي[٢٩] . وأراد أن يزيد هذا الاتحاد بين الشعبين قوة ، ففتح أراضي الجزيرة وفارس للمستعمرين اليونان ؛ وخفف بهذا العمل ضغط السكان في بعض الدول اليونانية وقلل من حدة حرب الطبقات . ومن ذلك الوقت بدأت تقوم تلك المدن المتأغرقة الأسيوية التي صارت فيما بعد جزءاً هاماً من الإمبراطورية السلوقية Seleucid Empire وجمع في الوقت نفسه ثلاثين ألفاً من شباب الفرس وعلمهم على الطريقة اليونانية ودربهم على فنون الحرب اليونانية .

ولعل زوجاته كن من أسباب ميله إلى الأساليب الشرقية ، أو لعل هذا الميل كان خطأ وقع فيه لشدة تواضعه ، أولعله كان جزءاً من خطة موضوعة . وفي ذلك يقول فلوطرخس : « فلما كان في فارس بدأ يلبس الثياب « البربرية » (أي الأجنبية) ولعله أراد بذلك أن ييسر تحضير الفرس لأن أكبر ما يؤثر في الناس هو أتباع عاداتهم ... بيد أنه لم يتبع عادات الميديين ... بل اختط خطة وسطا بين الأساليب الفارسية والمقدونية ، وكيف عاداته بحيث خلت من التفاخر الذي هو من مميزات الأولين ، ولكنها كانت أكثر أبهة وفخامة من الآخرين[٣٠] »

وكان جنوده يرون فى هذا التغير استسلاماً من الإسكندر للشرق ، ويحسون أنهم بذلك قد خسروه ، وفقدوا ما كانوا يرونه من أدلة العناية والعطف التى كان يضفيها عليهم فى كل حين . وأظهر له الفرس فروض الطاعة والولاء ، وأرضوه بضروب الملق والدهان ، وشرع المقدونيون ، بعد أن رقق الترف الشرقى طباعهم يظهرون استياءهم من الواجبات الثقيلة التى كان يفرضها عليهم ، ونسوا إحسانه لهم ، وأخذوا يتهامسون بالفرار من الجيش ، بل إنهم شرعوا يأتمرون به ليقتلوه . وبدأ هو يفضل صحبة عظماء الفرس على صحبة اليونان .

وكان أكبر شاهد على ارتداده عن دينه أو على حسن سياسته هو جهره بألوهيته ، وذلك أنه بعث فى عام ٣٢٤ إلى جميع الدول اليونانية ما عدا مقدونية (لأن ما فى الرسالة التى بعث بها من إهانة لفليب قد يثير غضب أهلها) يبلغها أنه يرغب فى أن يعترف به من ذلك الوقت ابناً لزيوس — أمون . وصدعت معظم الدول بما أمرت ، ولم تر فى الأمر أكثر من لقب صورى ، بل إن الاسپارطيين المعاندين أنفسهم لم يخرجوا على الأمر وقالوا فى أنفسهم : « فليكن الإسكندر إلها إذا شاء » . ولم يكن تأليه إنسان ما ، بمعنى لفظ الألوهية عند اليونان ، ليرفع من شأنه كثيراً ؛ ذلك أن الهوة التى تفصل بين الإنسانية والألوهية لم تكن وقتئذ واسعة كما أضحت فى الأديان الحديثة . ولقد جمع كثيرون من اليونان بين الصفتين ، ومن هؤلاء هيوداميا ، وأوديب ، وأخيل ، وإفجينيا ، وهلن . كذلك كان المصريون يحسبون فراعنتهم آلهة ؛ ولو أن الإسكندر غفل عن أن يضع نفسه فى هذا الوضع لكان من المحتمل أن يغضب المصريون لخروجه هذا الخروج العنيف على السوابق المقررة عندهم . ولقد أكد كهنة سيوة ، وديديما Didyma ، وبابل ، وهم الذين يعتقد الناس فيهم أن لديهم مصادر خاصة يستقون منها أمثال هذه الأنباء ، أنه من نسل الآلهة . أما أن الإسكندر قد اعتقد بحق (كما يظن جروت[٣١]) أنه إله بأكثر من المعنى المجازى لهذا اللفظ فأمر

بعيد الاحتمال . نعم إنه بعد أن ألّه نفسه أصبح سريع الغضب متغطرساً ، وإن سرعة غضبه وغطرسته تزدادان على مر الأيام . ولسنا ننكر أيضاً أنه جلس على عرش من الذهب ، وارتدى ثياباً كهنوتية ، وزين رأسه فى بعض الأحيان بقرنى أمون[٣٢] . ولكنه حين لم يكن يظهر ألوهيته لأغراضه الدنيوية كان يسخر من هذه العظمة التى يدعيها لنفسه ؛ ولما أن جرحه سهم قال لبعض أصدقائه : « ها أنتم هؤلاء ترون أن هذا دم لا غذيلة كالتى تسيل من جراح الآلهة المخلدين[٣٣] » . وما من شك فى أنه لم يكن يحمل قصة والدته عن الصاعقة محمل الجد ، وذلك واضح من غضبه الشديد على أتلس حين قال ما قال عن مولده ، ومن قوله هو عن حاجته إلى النوم الذى يميز البشر من الآلهة . وحتى أولمبياس نفسها قد ضحكت ساخرة حين سمعت أن الإسكندر قد سجل قصتها الخرافية فى السجلات الرسمية ، وسألت قائلة : « ألم يأن للإسكندر أن يمتنع عن التشنيع علىّ عند هيرا[٣٤] ؟ » ولقد ظل الإسكندر نفسه بالرغم من ربوبيته يقرب القرابين إلى الآلهة ، وهو عمل لم نسمع قط بأن إلها قد أتى به ، ولم يكن فلوطرخس وأريان وهما الرجلان اللذان يستطيعان أن يحكما فى هذه المسألة لأنهما يونانيان ، يشكان فى أن الإسكندر قد أله نفسه ليتخذ ذلك التأليه وسيلة تيسر له حكم سكان إمبراطوريته المختلفى الأجناس والذين يؤمنون بالخرافات[٣٥] . ولا ريب فى أنه كان يحس أن مهمة توحيد العالمين المتعادين تُيَسَّر له إذا قبلت الطبقات العليا من أهلهما دعوى ربوبيته وعظمته الطبقات الدنيا وقدسته . ولعله قد فكر فى أن يتغلب على ما تثيره الأديان المختلفة فى الإمبراطورية من نزعة انفصالية بأن ينشر فيها حول شخصيته أسطورة مقدسة ودينا عاما تؤمن به جميع شعوب هذه الإمبراطورية[*] .

(*) ويحدثنا لوشيان عن هذا الرأى القديم فى إحدى « محاورات الموتى » فيقول : « فليب : لا تستطيع يا إسكندر أن تنكر أنك ولدى ، ولو أنك كنت ابن أمون لما جاز عليك—

ولم يكن في مقدور المقدونيين أن يسبروا غور خطط الإسكندر السياسية ؛ ذلك أنهم وإن تأثروا بالروح اليونانية إلى الحد الذى تحررت به عقولهم من الاسترقاق الفكرى ، لم يرقوا إلى درجة التسامح الفلسفى ، ورأوا أن ما طلبه إليهم من السجود له حين يقتربون منه مذلة لا يرضونها لأنفسهم . ومن أجل ذلك دبر فيلوتاس Philotas ، وهو ضابط من أشجع ضباطه ابن قائد من أكفأ قواده وأحبهم إليه ، بالاشتراك مع القائد برمنيو Parmenio مؤامرة لقتل الإله الجديد . ووصلت أنباء المؤامرة إلى مسامع الإسكندر ، فأمر بالقبض على فيلوتاس وانتزع منه بضروب التعذيب اعترافاً باشتراك أبيه مع المتآمرين . وأرغم على أن يكرر هذا الاعتراف أمام الجند ، فرجموه من فورهم بالحجارة حتى مات ، وكانت هذه عادتهم في مثل هذه الحالة . أما برمنيو فقد أعدم بأمر الملك لأنه مجرم في أغلب الظن ، وأنه على كل حال عدو لا يؤمن جانبه . وتوترت العلاقات بين الإسكندر وجيشه من ذلك الحين — فأخذ الجنود يزدادون غضباً واستياء ، وأخذ الملك يزداد في كل يوم ريبة وقسوة وعزلة .

وحمله تساميه ، وعزلته ، وكثرة مشاغله المطردة الزيادة ، على أن يحاول إغراق همومه في الشراب . وقد حدث في مأدبة أقيمت في سمرقند أن شرب كليتس الذى أنقذ حياة الإسكندر في يوم غرانيقوس حتى فقد وعيه ، فقال للإسكندر : إن ما نال من النصر يرجع الفضل فيه إلى جنوده لا إليه ، وإن أعمال فليب أعظم من أعماله . وكان الإسكندر هو الآخر ثملا فقام ليضربه ، ولكن بطليموس لاجوس Ptolemy Lagus (الذى أصبح بعد قليل والياً

= الموت الإسكندر : لقد كنت طوال الوقت أعرف أنك أبي ، ولم أقبل قول الوحى إلا لأنى خلته خطة سياسية صالحة ... ذلك أن البرابرة حين عرفوا أن الذى أمامهم إله ، امتنعوا عن القتال ، وقد يسر لى ذلك هزيمتهم وفتح بلادهم

على مصر) أخرج كليتس من مكان المأدبة . بيد أن كليتس كان يريد أن يقول أكثر مما قال ، فعاد ليواصل طعنه . فرماه الإسكندر بحربة أردته قتيلا . وندم الإسكندر بعدئذ على عمله هذا ندما حمله على أن يعتزل الناس ثلاثة أيام كاملة ، امتنع فيها عن الطعام ، وانتابته نوبات هستيرية ، حاول فيها أن ينتحر : ولم يمض بعد ذلك إلا قليل من الوقت حتى قام هرمولوس Hermolaus ، وهو خادم من خدم الإسكندر عاقبه فى يوم من الأيام عقابا ظالما ، بتدبير مؤامرة أخرى لقتله . وقبض على الغلام وعذب حتى أقر باعتراف اتهم فيه كلستانس Callisthenes ابن أخى أرسطو . وكان كلستانس هذا يرافق الحملة بوصفه مؤرخاً رسمياً لها ، وكان قد أغضب الملك لأنه أبى أن يسجد له ، وأخذ ينتقد أساليبه الشرقية ، ويتباهى بأن الخلف لن يعرف الإسكندر إلا عن طريق كلستانس المؤرخ . وأمر به الإسكندر فسجن حتى مات بعد سبعه أشهر من ذلك الوقت(*) . وقضت هذه الحادثة على ما كان بين الإسكندر وأرسطو من صداقة ، وكان الفيلسوف قد ظل عدة سنين يعرض حياته لأشد الأخطار بدفاعه عن قضية الإسكندر فى أثينة .

وظل سخط الجيش يزداد حتى أوشك أن يكون فى آخر الأمر تمرداً علنياً . ولما أعلن الملك فى يوم من الأيام أنه يريد أن يرجع إلى مقدونية أكبر الجنود سنا بعد أن يمنح كلا منهم جائزة سنية نظير خدمته(**) ، هاله أن يسمع الجند يتهامسون بأنهم يحبون أن يفصلهم جميعاً من سلك الجندية ، لأنه وهو إله لا حاجة له بالناس ليحققوا أغراضه . فلم يكن منه إلا أن أمر

(*) تروى قصص متناقضة عن جريمته وموته(٣٧). وأشهر ما تركه وراءه ثلاثة كتب : « الهلينيكا Hellenica » وهو تاريخ لبلاد اليونان من ٣٨٧ إلى ٣٢٧ ، « وتاريخ الحرب المقدسة » و « تاريخ الإسكندر » .

(**) ويؤكد لنا أريان أنه وهب كلا منهم وزنه زيادة على مرتبه الذى لم يكن لينقطع حتى يعود إلى وطنه .

بقتل زعماء الفتنة ، ثم ألقى على الجنود خطبة مؤثرة[٣٩] (ولكنها فى أغلب الظن مشكوك فى صحتها) ذكر فيها كل ما فعلوه من أجله ، وكل ما فعله هو من أجلهم ، وسألهم هل فيهم من يستطيع أن يظهر فى جسده من الجروح أكثر مما فيه هو ؟ وهل فيهم رجل مثله فى جسمه أثر من كل سلاح من أسلحة القتال ؟ ثم أذن لهم جميعا فى آخرها أن يعودوا إلى ديارهم وقال لهم : « عودوا إلى أوطانكم وقولوا للناس إنكم تخليتم عن مليككم ، وتركتموه فى حماية الأجانب المغلوبين » . ثم آوى إلى حجرته وأبى أن يقابل أحداً من الناس . فندم جنوده أشد الندم ، وأقبلوا على قصره ، وألقوا بأنفسهم على الأرض أمامه ، وأعلنوا أنهم لن يغادروا أماكنهم حتى يعفو عنهم ويعيدهم إلى جيشه . ولما أن ظهر أمامهم فى آخر الأمر ، أجهشوا بالبكاء وأصروا على أن يقبلوه ، فلما رضى عنهم عادوا إلى معسكرهم ينشدون أناشيد الحمد والثناء .

واغتر الإسكندر بمظاهر الحب هذه ، فأخذ يحلم بمواصلة الحروب والانتصارات ، ووضع الخطط لفتح بلاد العرب الغامضة ، وأرسل بعثة لارتياد أقاليم بحر قزوين ، وفكر فى الاستيلاء على أوربا حتى أعمدة هرقل . غير أن تعرضه للجواء المختلفة وإدمانه الشراب كانا قد أضعفا بنيته القوية ، كما أن مؤامرات ضباطه وتمرد جنوده كانا قد أوهنا قوته النفسية . وبينا كان الجيش فى إكبتانا مرض هفستيون Hephaestion أعز أصدقائه وقضى نحبه . وكان الإسكندر يحبه حبا بلغ من شدته أنه حين دخلت زوجة دارا خيمة الملك الفاتح وانحنت أولا لهفستيون احتراما له لظنها أنه هو الإسكندر ، قال لها الملك الشاب فى رقة ولطف : « إن هفستيون هو أيضاً إسكندر[٤٠] » وكأنما أراد بقوله هذا أنه هو وهفستيون رجل واحد . وكثيرا ما كان الرجلان يشتركان فى خيمة واحدة ، وكانا فى الحرب يقاتلان جنبا إلى جنب . وأحس الملك بعد موته أن نصفه قد انتزع منه ، فأحزنه ذلك وفت

فى عضده ، وقضى عدة ساعات ملقى على جثة صديقه يبكى وينتحب ؛ واقتلع شعره من فرط الحزن ، وأبى أن يتناول شيئاً من الطعام عدة أيام متوالية ، وحكم بالإعدام على الطبيب الذى ترك الشاب المريض ليشهد الألعاب العامة . وأمر أن تكرم ذكرى هفستيون بإقامة محرقة جنازية ضخمة بلغت نفقاتها كما يقولون عشرة آلاف وزنة (٠٠٠ر٠٠٠ر٦٠ ريال أمريكى) وبعث يسأل مهبط الوحى من أمون هل يجوز أن يتخذ هفستيون إلها يعبد ، وأمر فى الوقائع الحربية التى دارت بعدئذ أن تقتل قبيلة على بكرة أبيها قرباناً لروح هفستيون . وكانت الفكرة التى تراوده وهى أن أخيل لم يعش طويلا بعد موت پترکلس تقض مضجعه كأنها حكم عليه بالإعدام .

ولما عاد إلى بابل زاد انغماسه فى الشراب شيئاً فشيئاً . وبينا كان يشرب مع ضباطه ذات ليلة إذ عرض عليهم أن يتباروا فى شرب الخمر . فتجرع برامكس نحو ثلاثة جالونات وفاز بالجائزة وهى وزنة من الذهب ، ومات بعد ثلاثة أيام . وأقيمت مأدبة أخرى بعد أيام قلائل شرب فيها الإسكندر خابية تحتوى نحو جالون ونصف من الخمر ، وعاد فى الليلة التالية إلى الشراب ، ثم اشتد البرد فجاءة فأصيب بالحمى وآوى إلى فراشه . ولم تفارقه الحمى عشرة أيام كاملة ظل فى أثنائها يصدر الأوامر إلى جيشه وأسطوله . ثم مات فى اليوم الحادى عشر فى السنة الثالثة والثلاثين من عمره (٣٢٣) ولما سأله قواده لمن يترك ملكه أجابهم بقوله : « إلى أعظمكم قوة[٤١] » .

وقد عجز الإسكندر كما عجز أكثر العظماء عن أن يجد رجلا جديراً بأن يخلفه على عرشه ، وكان قد مضى نحبه قبل أن يتم عمله . على أن هذا العمل رغم هذا لم يكن جليلا فحسب بل كان فوق ذلك أبقى على الدهر مما يظنه الناس عادة . فكأن الضرورات التاريخية قد اختارت الإسكندر لتغيير

الأوضاع السياسية القائمة فى ذلك الوقت ، فقد قضى على عهد دول المدن ، وأنشأ بعد التضحية بقسط غير قليل من حرية هـــذه المدائن نظاما أوسع رقعة وأعظم استقرارا من أى نظام عرفته أوربا قبل عهده . وقد ظلت الفكرة التى قامت بذهنه عن الحكم ، الحكم الاستبدادى الذى يستعين بالدين لفرض السلم على أمم مختلفة الأجناس والألوان ، نقول ظلت هذه الفكرة هى المسيطرة على أوربا حتى العصر الحديث عصر القومية والدمقراطية . وقد حطم الحواجز القائمة بين اليونان و « البرابرة » ومهد السبيل لعالمية للعصر الهلنستى ، وفتح آسية الدنيا للاستعمار اليونانى ، وأنشأ فى بلاد الشرق مستعمرات يونانية وصلت فى هذا الاتجاه إلى بكتريا ، وجمع عالم البحر الأبيض المتوسط الشرقى فى نظام تجارى موحد واسع النطاق شجع التجارة وأطلقها من قيودها ، ونقل الآداب والفلسفة والفنون اليونانية إلى آسية ، ومات قبل أن يدرك أنه مهد السبيل لذلك الانتصار الدينى العظيم الذى ظفر فيه الشرق بالغرب . ولقد كان ارتداؤه الملابس الشرقية وتحوله إلى الأساليب الشرقية بداية انتقام آسية من أوربا .

ولقد كان من الخير للإسكندر أن يموت وهو فى عنفوان مجده ؛ ولو أنه طال به العمر لتكشف له أنه كان مخدوعاً فى كثير من الأمور ، ولعله لو عاش لأقضت مضجعه الهزائم والآلام ولأحب السياسة — وكان قد بدأ يحبها — أكثر مما يحب الحرب . لكنه أجهد نفسه فوق طاقته ، وأكبر الظن أن ما كان يتطلبه حفظ دولته العظيمة قوية موحدة ، ومراقبة أجزائها المختلفة بأجمعها ، قد بدأ يحدث الاضطراب فى عقله المشرق النير . ذلك أن الجد ليس إلا نصف العبقرية ، أما نصفها الآخر فهو السيطرة على أعنة هذا الجد وتملك ناصيته ؛ ولكن الإسكندر كان كله جدا ونشاطا ؛ وكان يعوزه — وإن لم يكن من حقنا أن نتطلب منه — نضج قيصر الهادئ أو حكمة أغسطس ودهاؤه .

ونحن نعجب به كما نعجب بناپليون لأنه لاقى بمفرده نصف العالم ، ولأنه يشجعنا على أن نؤمن بما فى نفوس الأفراد من قوة كامنة لا يكاد الإنسان يؤمن بوجودها فيها . ونحن نشعر بعطف طبيعى عليه رغم إيمانه بالخرافات والأوهام وتصديقه ما لا يصح لمثله أن يصدقه ، وذلك لأننا نعرف أن أقل ما يمكن أن يقال فيه أنه كان شابا كريم النفس قوى العاطفة ، كما كان رجلا قديراً باسلا لا يكاد يدانيه أحد فى قدرته وبسالته ، وأنه كان يكافح ليتخلص مما فى دمه من تراث من الهمجية يذهب بالعقل الحصيف ، وأنه فيما خاض من المعارك العنيفة وفيما أهرق من الدماء الغزيرة لم يغب عنه قط حلمه العظيم وهو نشر نور أثينة فى عالم أوسع منها رقعة .

الفصل الرابع

خاتمة عصر

لما علمت بلاد اليونان بموت الإسكندر اندلع لهيب الثورة على سلطان مقدونية فى جميع أنحائها . ونظم أهل طيبة المنفيون فى أثينة قوة من الوطنيين وحاصروا الحامية المقدونية المرابطة فى كدميا . وفى أثينة نفسها ، حيث كان الكثيرون يتضرعون إلى الآلهة أن تقضى على الإسكندر ، توج أعضاء الحزب المعادى للمقدونيين رءوسهم بأكاليل الغار حين أحسوا بأن دعاءهم قد استجيب ، وأخذوا يقصفون ويمرحون لموت من كانوا قبل موته يتخذونه إلها يعبد ، وينشدون ، كما يقول فلوطرخس « أناشيد النصر كأنهم قد فازوا عليه بشجاعتهم »[٤٢] .

وكان دمستين فى هذه اللحظة القصيرة فى ذروة مجده ، ذلك أن أموره فى خلال حروب الإسكندر لم تكن كما يحب : فقد اتهم بأنه قبل رشوة كبيرة من هرپالوس Harpalus وزج فى السجن ، ثم سمح له بالفرار وعاش تسعة أشهر يقاسى آلام النفى فى تريزن Troezen . فلما مات الإسكندر استدعى من منفاه وأرسل فى مهمة سياسية إلى البلوپونيز ليعقد حلفاً لأثينة يعاونها فى حرب الاستقلال والحرية . وزحفت قوة متحدة نحو الشمال والتقت بجيش أنتپاتر عند كرانون Crannon ودارت عليها الدائرة . وفرض الجندى الطاعن فى السن ، الذى لم يكن كالإسكندر يشعر بشىء من العطف على الثقافة الأثينية ، أفدح الشروط على المدينة المهزومة ، فطلب إليها أن تتحمل جميع نفقات الحرب ، وأن تقبل فيها حامية مقدونية ، وتلغى دستورها الدمقراطى ومحاكمها ، وتحرم من حق الانتخاب ، وتنقل إلى المستعمرات الخارجية كل المواطنين (١٢٫٠٠٠ من ٢١٫٠٠٠)

الذين تقل قيمة ممتلكاتهم عن ألفى درخمة ، وأن تسلم دمستين ، وهيبريدز ، واثنين غيرهما من الخطباء المعادين للمقدونيين . فلما سمع دمستين بهذه الشروط فر إلى كالوريا Calauria ولجأ إلى حمى أحد الهياكل . ولما أحاط به مطاردوه المقدونيين تجرع ملء قارورة من السم ؛ ومات قبل أن يستطيع جر نفسه من البهو المقدس .

وشهدت هذه السنة المشئومة نفسها خاتمة حياة أرسطو . لقد كان منذ زمن طويل غير محبب للأثينيين : فقد كان المجمع العلمى ومدرسة إسقراط يحقدان عليه لأنه كان ينقدهما وينافسهما ، بينا كان الوطنيون يعدونه زعيما للحزب المناصر للمقدونيين . وانتهز أعداؤه فرصة موت الإسكندر فاتهموا أرسطو بالمروق من الدين ، وجيء بفقرات من كتبه دالة على كفره بالآلهة تأييداً لهذه التهمة ؛ واتهم أيضاً بأنه كرم الطاغية هرمياس Hermeias بما تكرم به الآلهة ، وكان هرمياس هذا عبدا رقيقا ومن ثم لم يكن فى مقدوره أن يصبح إلها . وغادر أرسطو المدينة فى هدوء وهو يقول إن نفسه لا تطاوعه أن يتيح لأثينة فرصة أخرى ترتكب فيها الإثم فى حق الفلسفة(٤٣) . ولجأ إلى بيت أسرة والدته فى خلقيديا وأوصى ثاوفراسطوس Theophrastus أن يعنى بشئون اللوقيون . وحكم عليه الأثينيون بالإعدام ، ولكن الفرصة لم تسنح لهم لتنفيذ الحكم ، كما أنهم لم يكونوا فى حاجة لتنفيذه . ذلك أن أرسطو قضى نحبه بعد بضعة أشهر من مغادرته أثينة ؛ وقد يكون سبب موته مرضا أصيب به فى معدته واشتد عليه بسبب فراره ، وقد يكون سببه كما يقول بعضهم أنه تجرع السم . وكان وقت وفاته فى الثالثة والستين من عمره ، وكانت وصيته مثلا أعلى فى الحنان والتقدير لزوجته الثانية ، وأسرته ، وعبيده

وبعد فقد كان موت الدمقراطية اليونانية موتا عنيفاً وطبيعياً فى وقت واحد . وكان أهم أسباب هذا الموت ما أصاب هذا النظام من اضطراب

تغلغل فى كيانه ، ولم يكن سيف مقدونية إلا الضربة الأخيرة التى أجهزت عليه وهو يلفظ آخر أنفاسه . لقد تبين أن دولة المدينة لا تستطيع حل مشاكل الحكم : فقد عجزت عن حفظ النظام فى الداخل ، وصد الأعداء فى الخارج ؛ ولم تهتد إلى وسيلة توفق بها بين الاستقلال وبين الاستقرار القومى وقوة السلطان رغم نداء غورغياس ، وإسقراط وأفلاطون لهذه المدن بأن تستعين بشىء من التنظيم الدّورى القوى لتكبح به جماح الحرية الأثينية . هذا إلى أن حب دولة المدينة للحرية لم يقف قط فى سبيل نزعتها الإمبراطوريه . يضاف إلى هذا أن حرب الطبقات قد اشتدت حتى أفلت زمامها من أيدى الزعماء ، وجعلت الدمقراطية سباقاً إلى الانتهاب عن طريق التشريع . وانحطت الجمعية التى كانت هيئة شريفة فى أحسن أيامها فأصبحت هيئة من الرعاع الصخابين تكره كل سلطة فوق سلطتها ، وترفض كل قيد يحد من هذه السلطة ، تقسو على الضعيف وتخضع ذليلة للقوى ، توافق على كل ما تنال من ورائه النفع لنفسها ، وتفرض على الأملاك من الضرائب الفادحة ما من شأنه أن يقضى على الابتكار والنشاط والادخار . إن فليب والإسكندر وأنتباتر لم يكونوا هم الذين قضوا على الحرية اليونانية ، بل إن هذه الحرية هى التى قضت على نفسها بنفسها ، ولقد أبقى النظام الذى أقاموه حضارة لولاه لقضى عليها ما فيها من عناصر الفوضى الاستبدادية ، ونشر هذه الحضارة فى مصر والشرق .

ومع هذا كله فهل استطاعت الألجركية أو الملكية المطلقة أن تفعل خيراً مما فعلته تلك الدمقراطية ؟ إن حكومة « الثلاثين » قد ارتكبت فى الشهور القلائل التى استولت فيها على أزمة الحكم من الفظائع ضد الأنفس والأموال أكثر مما ارتكبته الدمقراطية فى مائة السنين السابقة لهذا الحكم[٤٥] . وبينا كانت الدمقراطية تخلق الفوضى فى أثينة كانت الملكية تخلق الفوضى فى مقدونية ، وهل ثمة فوضى أكثر من حروب تربى على عشر جر إليها النزاع

على العرش ، ومائة من الاغتيالات ، وألف من القيود على الحرية ، وذلك كله من غير أن يصحب هذه الفوضى شيء من المجد الأدبي أو العلمي أو الفني يخفف من فظاعتها ؟ ولقد كان ضعف الدولة وصغرها في بلاد اليونان نعمة كبرى على الفرد ، نعمت بها روحه بلا ريب إن لم ينعم بها جسمه ؛ ذلك أن هذه الحرية ، وإن كلفته كثيراً ، قد أمكنت العقل اليوناني من أن يقوم بجلائل الأعمال . إن الفردية تقضي في آخر الأمر على الجماعة . ولكنها قبل أن تقضي عليها تقوى الشخصية ، والكشف العقلي ، والإبداع الفني . ولسنا ننكر أن الدمقراطية اليونانية أضحت فاسدة عاجزة يجب أن تموت ، ولكن الناس أدركوا بعد موتها ما كانت عليه من الجمال في أيام مجدها ، وكانت الأجيال القديمة التالية على بكرة أبيها ترنو ببصرها إلى عهود بركليز وأفلاطون وتعدها أعظم العهود التي شهدتها بلاد اليونان بل أحسن العهود في التاريخ كله .

فهرس الأشكال والصور

مقـــدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وبعد :

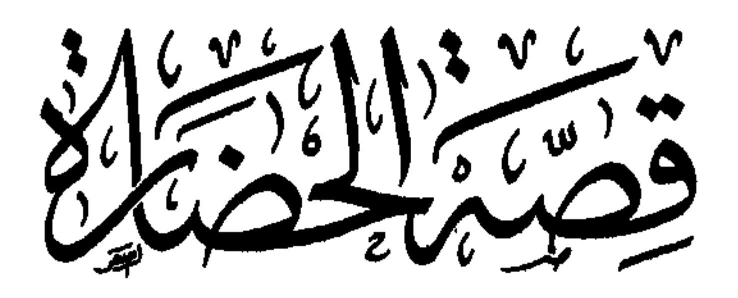
فهذا هو الجزء الثانى من المجلد الثانى من مجلدات قصة الحضارة الست : وهو يضم بين دفتيه حضارة اليونان فى العصر الذهبى ، وفى عصر اضمحلال الحرية اليونانية وسقوطها . وهو كسابقه ترجمة أمينة للأصل الإنجليزى لا يزيد عليه إلا فى بعض شروح قليلة فى هامش الكتاب . ولقد جرينا فيه على السنة التى جرينا عليها فى الأجزاء السابقة فأثبتنا أسماء الأماكن والأشخاص بالحروف الإنجليزية بعد العربية حين يرد ذكرها أول مرة ، حتى يكون القارئ على بينة منها ، وحتى يسهل عليه نطقها . أما الأسماء اليونانية التى ورد ذكرها فى الكتب العربية كأسماء الفلاسفة وبلادهم ، فقد كتبناها كما كتبها العرب أنفسهم وإن خالف ذلك نطقها باليونانية والإنجليزية . ولعلنا لم نستطع الوصول إلى بعض هذه الأسماء ، ولكنا قد بذلنا كثيراً من الجهد فى الوصول إليها ، وسنتدارك ما نستطيع معرفته منها فى الجزء الثالث كما تداركنا فى هذا الجزء بعض ما فاتنا فى الجزء الأول .

ونعود فنكرر الشكر للإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية ، التى بفضلها ترجم هذا الكتاب ، وللجنة التأليف والترجمة والنشر التى بفضلها نشر . والله الهادى إلى سواء السبيل»

ديسمبر سنة ١٩٥٢ — محمد بدران

الفهرس

الموضوع | الصفحة



ول وايريل ديورانت

حياة اليونان

ترجمة

محمد بدران

الجزء الثالث من المجلد الثاني





تونس



بيروت

الكتاب الخامس

انتشار الهلنستية

من ٣٢٢ الى ١٤٦ ق . م .

ثبت مسلسل للحوادث التاريخية

فى الكتاب الخامس

ق . م .

٣٤٨ – ٣٣٩ اسبوسبوس رئيس المجمع العلمى .
٣٣٩ – ٣١٤ زنقراط رئيس المجمع العلمى .
٣٢٣ – ٢٨٥ بطليموس الأول (سوتر) يؤسس أسرة البطالمة فى مصر .
– ٣٢٣ بلاد اليهود تصبح ولاية سورية .
٣٢٢ – ٢٨٨ ثاوفراسطوس رئيس اللوقيون .
– ٣٢١ تقسيم إمبراطورية الإسكندر ؛ أول مسرحيات منندر .
– ٣٢٠ بطليموس الأول يستولى على أورشليم ؛ الفيلسوفان پيرون الإيليسى وأقراطيس الطيبى .
– ٣١٩ فليمون والملهاة الجديدة .
– ٣١٨ أرسطوكسانس فيلسوف تارنتم وفنانها الموسيقى .
٣١٧ – ٣٠٧ دمتريوس الفاليرى يتولى السلطة فى أثينة .
– ٣١٦ كسندر ملك مقدونية .
٣١٥ – ٣٠١ أنتيجونس الأول سيكلپس ملك مقدونية .
– ٣١٤ أنتيجونس الأول يعلن حرية بلاد اليونان ؛ قدوم زينون إلى أثينة .
٣١٤ – ٢٧٠ پوليمو رئيس المجمع العلمى .
٣١٢ – ١٩٨ بلاد اليونان تخضع للبطالمة .
٣١٢ – ٢٨٠ سلوقس الأول (نكاتور) يؤسس الإمبراطورية السلوقية .
– ٣١١ هملكار يغزو صقلية .
– ٣١٠ أجثكل طاغية سرقوسة يغزو إفريقية .
– ٣٠٧ قانون مناهضة الفلاسفة .
٣٠٧ – ٢٨٧ دمتريوس پليورستيز ملك مقدونية .
– ٣٠٦ أبيقور يفتتح مدرسته فى أثينة .
٣٠٦ – ٣٠٢ الحرب بين كسندر ودمتريوس پليورستيز للسيادة على بلاد اليونان .
– ٣٠٥ تميوس التورومنيومى المؤرخ .
– ٣٠١ زينون يفتتح مدرسته فى استوى ، وسلوقس الأول يؤسس أنطاكية ؛ لسماخوس يهزم أنتيجونس الأول عند إبسوس .
– ٣٠٠ إقليدس الإسكندرى الرياضى ؛ أوتيميروس صاحب المذهب العقلى .
٢٩٥ – ٢٧٢ پيرس ملك الملوسيين .

ق . م .

— ٢٩٠ مدرسة النحت الرودسية .
٢٨٨ — ٢٧٠ استراتون رئيس اللوقيون .
٢٨٥ — ٢٤٦ بطليموس الثانى (فلادلفس) ؛ متحف الإسكندرية ومكتبتها .
— ٢٨٥ زنودوتس مدير المكتبة ؛ هروفيلوس الخلقدونى عالم التشريح .
٢٨٣ — ٢٣٩ أنتجونس الثانى (جناتاس) ملك مقدونية .
— ٢٨٠ أرسطوخوس الساموسى الفلكى ؛ قيام حلف الآخيين ؛ بيرس يساعد تارنتم على رومة .
٢٨٠ — ٢٦٢ أنطيوخوس الأول (سوتر) السلوقى الإمبراطور .
٢٨٠ — ٢٧٩ الغاليون يغزون مقدونية وبلاد اليونان .
— ٢٧٩ بيرس يغزو صقلية .
— ٢٧٨ تمثال رودس الضخم .
— ٢٧٧ الغاليون يغزون آسية الصغرى .
— ٢٧٥ أراطوس الصولى الشاعر .
— ٢٧١ ثيمن الفيلوسى الهجاء .
— ٢٧٠ كلخوس الإسكندرى وثاوقريطوس الكوسى الشاعران ؛ بروسس البابلى المؤرخ .
٢٧٠ — ٢٦٩ أقراطيس الأثينى رئيس المجمع العلمى .
٢٧٠ — ٢١٦ هيرون الثانى طاغية سرقوسة .
٢٦٩ — ٢٤١ أرسسلوس رئيس المجمع العلمى الأوسط .
٢٦٦ — ٢٦١ الحرب الكرمنيدية .
— ٢٦١ أنتجونس الثانى يستولى على أثينة .
٢٦١ — ٢٤٧ أنتيوخوس الثانى (ثيوس) الإمبراطور السلوقى .
٢٦١ — ٢٣٢ أقلانيتوس رئيس الاستوى .
— ٢٦٠ هرداس الكوسى الشاعر .
— ٢٥٨ إراسسطراطوس الكيوسى العالم فى وظائف الأعضاء .
٢٥٧ — ١٨٠ أرسطوفان البيزنطى العالم اللغوى .
— ٢٥١ أراطوس السكيونى يحرر مدينته .
— ٢٥٠ أرساسيس يؤسس مملكة بارثيا ؛ اللاؤكون ؛ مانيثون المؤرخ المصرى ليكفرون الخلقيسى الشاعر .
— ٢٤٧ أركميدس السراقوسى العالم الطبيعى .
٢٤٣ — ٢٢٦ سلوقس الثانى (كلنيكوس) .
٢٤٦ — ٢٢١ بطليموس الثالث (إرجتيس الأول) .

ق . م .

- — ٢٤٣ أراطوس يقود الحلف الآخى ضد مقدونية .
- — ٢٤٢ أجيس الرابع يحاول الإصلاح فى اسپارطة .
- — ٢٤٠ أپلونيوس الرودسى الشاعر .
- ٢٣٩ — ٢٢٩ دمتريوس الثانى ملك مقدونية .
- ٢٣٠ — ١٩٧ أتَلس الأول يؤسس مملكة برجوم .
- ٢٣٥ — ١٩٥ أرتسثنيز مدير مكتبة الإسكندرية .
- ٢٣٢ — ٢٠٧ أقريسيپوس رئيس الاستوى .
- — ٢٢٩ أراطوس يحرر أثينة .
- ٢٢٩ — ٢٢١ أنتجونس الثالث (دوسون) ملك مقدونية .
- ٢٢٦ — ٢٢٤ إصلاحات كليومينيس فى اسپارطة .
- ٢٢٦ — ٢٢٣ سلوقس الثالث (سوتر) .
- — ٢٢٥ الزلزال يدمر رودس .
- ٢٢٣ — ١٨٧ أنتيوخوس الثالث (العظيم) الإمبراطور السلوقى .
- — ٢٢١ أنتجونس الثالث يهزم كليومنيز الثالث عند سلاسيا .
- ٢٢١ — ١٧٩ فليب الخامس ملك مقدونية .
- ٢٢١ — ٢٠٣ بطليموس الرابع (فيلوپاتر) .
- — ٢٢٠ أپلونيوس البرسياى العالم الرياضى .
- — ٢١٧ بطليموس الرابع يهزم أنتيوخوس الثالث عند رافيا .
- — ٢١٥ تحالف فليب الخامس وهنيبال .
- ٢١٤ — ٢٠٥ الحرب المقدونية الأولى ضد رومة .
- — ٢١٢ مارسلوس يستولى على سرقوسة ؛ موت أركسميديز .
- — ٢١٠ صقلية تصبح ولاية رومانية .
- — ٢٠٨ زينون الطرسوسى الفيلسوف .
- — ٢٠٧ ثورة نابيس فى اسپارطة .
- — ٢٠٥ مصر حماية رومانية .
- ٢٠٣ — ١٨١ بطليموس الخامس (ايفانيز) .
- ٢٠٠ — ١٩٧ الحرب المقدونية الثانية .
- — ٢٠٠ ديچين السلوقى الفيلسوف .
- — ١٩٧ معركة سينوسفلى .
- ١٩٧ — ١٦٠ مجد برجوم تحت حكم يومنيز الثانى
- — ١٩٦ فلامنيوس يعلن حرية بلاد اليونان ؛ إنشاء مكتبة برجمى .
- ١٩٥ — ٨٠ أرسطوفان البيزنطى أمين مكتبة الإسكندرية .

ق . م .

— ١٩٠ الصبل الفرنيزى .

— ١٨٩ الرومان يهزمون أنتيوخوس الثالث عند مجنيزيا .

— ١٨٨ فليبومين يلغى دستور ليقورغ فى اسپارطه .

١٨٧ — ١٧٥ سلوقس الرابع (فلوپاتر) .

١٨١ — ١٤٥ بطليموس السادس (فلوميتور) .

— ١٨٠ المذبح العظيم فى برجوم . أرسطارخوس السمثراسى أمين مكتبة الإسكندرية

١٧٩ — ١٦٨ برسيوس ملك مقدونية .

١٧٥ — ١٦٣ أنتيوخوس الرابع (إيفانيز) الإمبراطور السلوقى .

١٧٥ — ١٣٨ مثرداتس الأول ملك پارثيا . .

— ١٧٤ أنتيوخوس الرابع يعيد بناء أولمپيوم .

— ١٧٣ قرنيادس رئيس الأكاديمية الجديدة .

١٧١ — ١٦٨ الحرب المقدونية الثالثة .

— ١٦٨ إيمليوس بولوس يهزم برسيوس عند پدنا . أنتيوخوس الرابع ينهب هيكل أورشليم .

— ١٦٧ إخراج الآخيين ومنهم پوليبيوس المؤرخ .

— ١٦٦ نهضة المكابيين الأولى ؛ سفر دانيال .

— ١٦٥ چوداس مكابى يعيد الصلوات فى المعبد .

١٦٤ — ١٦٢ أنتيوخوس الخامس (يوپاتر) الإمبراطور السلوقى .

١٦٢ — ١٥٠ دمتريوس الأول (سوتر) الإمبراطور السلوقى .

— ١٦١ چوداس مكابى يعقد معاهدة مع رومة .

— ١٦٠ هزيمة چوداس مكابى وموته .

١٦٠ — ١٣٩ أتلس الثانى ملك برجوم .

— ١٥٧ بلاد اليهود تصبح دولة مستقلة يحكمها رجال الدين .

— ١٥٥ كرنيدز فى رومة .

١٥٠ — ١٤٥ الكسندر بالاس الإمبراطور السلوقى .

— ١٥٠ هپاركوس النيقيائى وسلوقس السلوقى الفلكيان ؛ مسخوس الأزميرى الشاعر .

— ١٤٦ ميوس ينهب كورنثة ؛ بلاد اليونان ومقدونيـة تصبحان ولاية تابعة لرومة .

الباب الثالث والعشرون

بلاد اليونان ومقـــدونية

الفصل الأول

تنازع السلطان

يقسم المؤرخون الماضى أحقابا ، وسنين ، وحوادث ، كما يقسم الفكر العالم جماعات ، وأفراداً أو أشياء ؛ ولكن التاريخ لايعرف ، كما لا تعرف الطبيعة، إلا الاستمرار والتغير ـــ والتاريخ لايقفز قفزات historia non facit. لهذا لم تشعر بلاد اليونان الهلنستية بأن موت الأسكندر كان نهاية عصر من العصور ؛ بل نظرت إلى الإسكندر نفسه على أنه بداية العصور « الحديثة » ، وعلى أنه رمز الشباب القوى لا على أنه عامل من عوامل الاضمحلال والفناء ؛ وكان هذا العالم موقنا بأنه قد بدأ الآن أعظم مراحل النضوج ، وأن زعماءه لم يكونوا يقلون عظمة وفخامة عن الزعماء فى أى عصر من العصور الماضية ماعدا الملك الشاب نفسه ، فهو دون غيره نسيج وحده[1]. ولقد كان هذا العالم على حق من نواح كثيرة . ذلك أن الحضارة اليونانية لم تمت بموت الحرية اليونانية، بل إنها على العكس من ذلك قد افتتحت لنفسها أقطاراً جديدة ، وانتشرت فى ثلاث جهات بعد أن حطم تكوين الإمبراطوريات الواسعة ما كان يعترض سبل الاتصال والاستعمار والتجارة من حواجز سياسية . وكان اليونان لايزالون شعبا مغامرا يقظاً ، فهاجروا بمئات الآلاف إلى آسية ، ومصر ، وإبيروس، ومقدونية ، وبذلك لم تزدهر أيونيا مرة أخرى وحسب ، بل إن الدم الهليني

واللغة اليونانية والثقافة اليونانية قد شقت طريقها إلى داخل آسية الصغرى ، وفينيقية وفلسطين ؛ واخترقت سوريا ، وبابل ؛ وتخطت نهرى الفرات ودجلة ، بل وصلت إلى بكتريا والهند نفسهما . ولم تكن الروح اليونانية فى فى وقت من الأوقات أشد مما كانت فى ذلك الوقت حماسة وشجاعة ؛ ولم تحرز الآداب والفنون اليونانية نصراً مؤزراً أوسع من النصر الذى أحرزته فى تلك الأيام .

ولعل هذا هو السبب الذى جعل المؤرخين يختتمون تاريخ بلاد اليونان بالإسكندر ؛ ذلك أن العالم اليونانى بعد موته قد بلغ من الاتساع والتعقد حداً لايستطيع الإنسان معه أن ينظر إليه على أنه وحدة ، أو يقص تاريخه قصة متصلة . ذلك أنه لم تقم فيه ثلاث دول ملكية كبرى فحسب — مقدونية ، وسلوقية ومصر — ؛ بل نشأ فيـــه أيضاً مائة من دول المدن اليونانية تتمتع بدرجات مختلفة من الاستقلال ؛ وقامت أحلاف واتحادات متشابكة ؛ وأنشئت دول نصف يونانية فى أبيروس ، وبلاد اليهود ، وبرجموم ، وبزنطية ، وبيثينيا ، وكبدوكيا ، وغلاشيا ، وبكتريا . وقامت فى الغرب إيطاليا وصقلية اليونانيتان تتنازعهما قرطاجنة العجوز ورومة الفتية . وكانت دولة الإسكندر المزعزعة القواعد لاتربطها إلا روابط ضعيفة من اللغة وسبل الاتصال ، والعادات والدين ، لا تقوى معها على البقاء طويلا . يضاف إلى هذا أنه لم يترك وراءه رجلا قويا واحدا بل ترك رجالا كثيرين ، لم يكن منهم من يقنع بأقل من السيادة التامة . وغفلت الدولة الجديدة لسعتها واختلاف أصقاعها عن فكرة الدمقراطية ، فقد كان الاستقلال ، كما يفهمه اليونان ، يفترض وجود دولة مدينة يستطيع مواطنوها أن يجتمعوا فى أوقات معينة فى مكان واحد . يضاف إلى هذا أن فلاسفة أثينة الدمقراطية قد عابوا على هذه الدمقراطية نفسها أنها مستقر الجهالة والتحاسد والفوضى . وكان خلفاء الإسكندر جماعة من الزعماء المقدونيين تعودوا من زمن بعيد أن يقيموا حكمهم بالسيف ؛ ولم يكن للدمقراطية نصيب من تفكيرهم إلا فى أوقات متفرقة

يستشيرون فيها أعوانهم . وبعد عدة مناوشات حربية صغيرة تخلصوا فيها من صغار منازعيهم ، قسموا الدولة خمسة أقسام (٣٢١) ، فاختص أنتيباتر بمقدونية وبلاد اليونان ؛ وليسياخوس بتراقية ، وأنتجونس بآسية الصغرى، وسلوقس ببابل ، وبطليموس بمصر . ولم يروا ضرورة للدعوة لمجمع عام من الدول اليونانية يؤيد هذا التقسيم . وظلت الملكية من تلك الساعة إلى قيام الثورة الفرنسية — إذا استثنينا فترات متقطعة في تاريخ بلاد اليونان نفسها وتاريخ جمهورية رومة الأرستقراطية — هي المسيطرة على أوربا بأكملها .

إن المبدأ الأساسي الذي تقوم عليه الدمقراطية هو الحرية التي تدعو إلى الفوضى ، كما أن المبدأ الأساسي في الملكية هو السلطان الذي يدعو إلى الاستبداد والثورة والحرب . ولقد كانت الحروب الخارجية والأهلية من عهد فليب إلى عهد برسيوس ، ومن قيرونية إلى بدنا (٣٣٨ — ١٦٨) تكملها الحروب الخارجية والداخلية في الممالك لأن منافع الحكم تغوى مائة من القواد على أن يتنازعوا العروش . ولم يكن العنف أقل انتشاراً في بلاد اليونان الهلنستية منه في رومة في عهد النهضة . كذلك لم يكن زعماء العصابات اللذين يستأجرون بالمال لتأييد هذا الفريق أو ذاك أقل عدداً أو أقل شهرة في الأولى منهم في الثانية . ولما مات أنتيباتر ثارت أثينة مرة أخرى ، وقتلت فوشيون الشيخ الطاعن في السن بعد أن حكمها باسم أنتيباتر حكماً كان أعدل ما يستطيع أن يهبها من أحكام ، وأعاد كسندر بن أنتيباتر المدينة إلى حكم مقدونية (٣١٨) ، ووسع حق الانتخاب حتى شمل من كان يملك ألف درخمة ، وأناب عنه في الحكم دمتريوس الفلروى Demetrius of Phalerum الفيلسوف، والعالم ، والفنان الهاوى الذى نعمت المدينة في عهده بعشر سنين من الرخاء والسلام ، وفي هذه الأثناء كان أنتجونس الأول « الجبار الأعور » يحلم بضم دولة الإسكندر كلها تحت عينه الواحدة ؛ ولكن حلفا من أقسام هذه الدولة هزمه عند إبسوس (٣٠١) ، وانتزع منه سلوكس آسية الصغرى ، وحرر

ابنه دمتريوس بوليكريتير («آخذ المدن») بلاد اليونان من نير مقدونية ، واستمتعت أثينة تحت حكمه باثنى عشر عاما أخرى من الحكم الدمقراطى ؛ وأقام فى البرثنون ضيفا على المدينة ، وجاء بالسرارى ليعشن معه فيه[٢] ، ودفع بعض الشبان المستيشسين إلى أعمال العنف بمغامراته النسائية(*) ، وانتصر فى معركة بحرية انتصارا باهراً على بطليموس الأول قرب قبرص (٣٠٨) ، وحاصر رودس ستة أعوام استخدم فيها آلات جديدة من آلات الحصار ، ولكنه ارتد عنها خائبا . وجعل نفسه ملكا على مقدونية (٢٩٤) ، وقضى على حرية أثينة بحامية وضعها فيها ، وتورط فى حرب بعد حرب ، حتى هزمه سلوكس وقبض عليه ، ومات من كثرة الشراب .

وبعد أربع سنين من ذلك الوقت (٢٧٩) ، انتهزت جموع من الكلت أو «الغالبين» بزعامة برنوس Brennus فرصة ما حدث من الاضطراب بسبب النزاع القائم على السلطة فى شرق البحر الأبيض المتوسط(**) ، فانقضت على بلاد اليونان مخترقة تراقيه ومقدونية . ويقول بوسنياس إن برتوس «أشار إلى ضعف بلاد اليونان ، وإلى ما فى مدنها من ثروة طائلة ، وما فى هياكلها من نذور ضخمة ، وإلى ما فى البلاد من مقادير هائلة من الفضة والذهب[٤]» . وشبت فى نفس هذا الوقت نار الثورة فى مقدونية بزعامة أپلودوروس Apollodorus ؛ وانضم قسم من الجيش إلى الثوار ، وأيدوا الفقراء الجياع فى ثأرهم الدورى المتكرر من الأغنياء وانتهاب ثروتهم . وما من شك فى أن الغالبين قد وجدوا لهم بإرشاد أحد اليونان طريقاً سريا حول ترموپيلى ، فعاثوا فى الأرض فسادا ، يقتلون وينهبون بلا حرج ولا تمييز ، ثم تقدموا بجموعهم نحو هيكل دلفى

(*) وبحث دمتريوس عن دمكليز Damocles فى كل مكان ، ولما أوشك أن يقبض عليه قتل نفسه بأن قفز فى قدر بها ماء يغلى[٣] . وليس لنا أن نحكم على الأثينيين حكما خاطئاً مستندين إلى هذا المثل الفذ من أمثلة الفضيلة .

(**) وهو غير برنوس الذى غزا إيطاليا فى عام ٣٩٠ ق . م .

الغنى . فلما صدتهم عنه قوة يونانية وعاصفة هوجاء أرسلها أبلو كما يعتقد اليونان للدفاع عن مزاره ، تقهقر برتوس وقتل نفسه فرارا من العار . وعبرت فلول الغاليين الذين نجوا من القتل إلى آسية الصغرى ، ويقول فيهم پوسنياس إنهم « ذبحوا جميع الذكور ، والعجائز ، كما ذبحوا الأطفال على صدور أمهاتهم ؛ وشربوا دماءهم وأكلوا لحوم السمان منهم ، فلما رأت ذلك النساء الشريفات والعذارى المخدرات انتحرن فرارا من العار . . . وتعرض من بقين على قيد الحياة لأصناف من الامتهان لا حصر لها . . . فمنهن من ألقين بأنفسهن على شفار سيوف الغاليين ، يطلبن لأنفسهن الموت ، ومنهن من قضين نحبهن من الجوع وعدم النوم ، وكان هؤلاء البرابرة الغلاظ الأكباد يغتصبونهن واحدة فى إثر واحدة ويشبعون فيهن شهواتهم سواء كن أحياء أو أمواتا (*)(٥) .

وبعد أن عاث الغزاة فسادا فى البلاد أعواما طوالا ، أقنعهم يونانيو آسية بما نفحوهم من المال بأن ينسحبوا إلى شمالى فريجيا (وعرفت مستعمراتهم فيها باسم غالاشيا) ، وإلى تراقية وبلاد البلقان . وظل الغاليون جيلين كاملين يرهبون سلوقس الأول والمدن اليونانية القائمة على سواحل آسية وشواطئ البحر الأسود . وكانت بزنطية وحدها تؤدى لهم جزية سنوية تقدر بما يوازى ٢٤٠,٠٠ ريال أمريكى (**)(٦) . وكما أن أباطرة رومة وقوادها قد شغلوا فى القرن الثالث بعد الميلاد بصد غارات البرابرة على الدولة الرومانية ، كذلك

(*) ليس لدينا رواية من الغاليين أنفسهم عن هذه الحوادث ، كما أننا ليس لدينا أية رواية من « البرابرة » عن غزو اليونان لآسية ، أو إيطاليا ، أو صقلية .

(**) سنقدر الوزنة فى الصفحات التالية من هذا الكتاب بما يعادل ٣٠٠٠ ريال أمريكى على أساس قيمة الريال فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٩ ، وذلك لكى ندخل فى حسابنا ما حدث فى العصر الهلنستى من ارتفاع فى الأسعار .

بحر ملوك برجوم ، وسلوقيا ، ومقدونية ، هم وقوادها مواردهم وقواهم في القرن الثالث قبل الميلاد لصد موجات الكلت الغزاة المتكررة عن البلاد اليونانية . ذلك أن الحضارة القديمة كانت طوال تاريخها تعيش على شاطىء بحر من الهمجية طالما هددها بإغراقها واجتياحها ؛ وقد استطاعت بسالة المواطنين أن تصد أمواج هذا البحر الطاغي في يوم من الأيام بعد أن أعدت لهذا الغرض إعداداً دائماً طويل الأمد ؛ ولكن البسالة كانت تحتضر في بلاد اليونان في وقت أن كان الدهر يضفي عليها صبغتها القديمة ويخلع عليها اسمها اللذين عرفت بهما في مستقبل أيامها .

وطرد أنتجونس الثاني ابن دمتريوس بوليكراتيس والمعروف باسم « جوناتاس » لأسباب لانعرفها الآن ، طرد الغالبين من مقدونية ، وقلم أظفار فتنة أپلودورس ، وحكم مقدونية حكما حازما معتدلا دام ثمانية وثلاثين عاماً (٢٧٧ – ٢٣٩) . وكان سمحا جواداً يناصر الآداب والعلوم والفلسفة ، واستدعى شعراء مثل أراطوس السليائي إلى بلاطه ، ووثق مع زينون الرواقي الصداقة التي دامت طوال حياته ، وكان أول تلك السلسلة غير المتصلة الحلقات من الفلاسفة الملوك التي انتهت بماركس أورليوس . ومع هذا ففي أثناء حكمه بذلت أثينة آخر جهودها لاستعادة حريتها . ذلك أن الحزب الوطني الأثيني الذي كان يتزعمه في ذلك الوقت أقرمنيدس Chremonides أحد تلاميذ زينون الشبان استولى على أزمة الحكم في عام ٢٦٧ . واستطاع بمعونة مصر أن يطرد الجنود المقدونيين من المدينة ، ويعلن استقلال أثينة وحريتها . وجاءه أنتجونس على مهل ، واسترد المدينة (٢٦٢) ، ولكنه عامله معاملة من يحترم الفلسفة والشيخوخة ؛ فوضع حاميات في پيرية وسلاميس وعند سنيوم ، وحذر أثينة من الاشتراك في أحلاف والاشتباك في حروب ، وفيما عدا هذا ترك للمدينة حريتها كاملة .

وكانت المدن اليونانية الأخرى وقتئذ تحل بأساليب اخرى مشكلة التوفيق بين الحرية والنظام ، فشرعت إيتوليا الصغيرة حوالي عام ٢٧٩ ، وكان يسكنها

كما يسكن مقدونية أقوام جبليون نصف همج لم يخضعوا فى حياتهم لغريب ، شرعت هذه المدينة الصغيرة تنظم مدن اليونان الشمالية — وخاصة مدن الحلف الدلفى الاثنى عشرى — وتضمها فى الحلف الإيتولى ؛ وضم الحلف الآخى المؤلف من مدائن پترى Patrae ، وديمى Dyme ، وپلينى ، إلى عضويته حوالى ذلك الوقت كثيراً من مدن الپلوپونيز . وظلت الهيئات البلدية التى يتألف منها كلا الحلفين تشرف على جميع فروع الحكومة المحلية ، ولكنها أسلمت قواها المسلحة وعلاقاتها الخارجية إلى مجلس الاتحاد وإلى استراتيجوس ينتخبه من يستطيع من المواطنين أن يحضر الجلسات السنوية التى تعقدها الجمعية فى إجيوم من أعمال آخية أو فى ثرموس من أعمال إيتوليا . وكانت مهمة كل حلف أن يحافظ على السلم ، ويوحد المقاييس والموازين والسكة فى الأصقاع التى يشملها - وتلك خطوة فى سبيل التعاون تجعل القرن الثالث أرقى من عصر پركليز من بعض الوجوه .

وحول أراتوس السكيونى عصبة الدول السكيونية إلى قوة من الطراز الأول . واستطاع هذا الثمستكليز الجديد وهو فى سن العشرين أن يحرر سكيون من طاغيتها بأن باغته بالهجوم ليلا هو وحفنة من الرجال ، واستطاع بفصاحته وبراعته فى المفاوضات أن يقنع جميع مدن الپلوپونيز ماعدا اسبارطة وإليس بأن تنضم إلى العصبة التى ظلت تنتخبه رئيساً لها مدى عشر سنين (٢٤٥ . ٢٣٥) . ودخل مدينة كورنثة سرا ومعه بضع مئات من رجاله وتسلق قمة أكروكورنثس المنيعة ، وبدد شمل الجيوش المقدونية ، وأعاد إلى المدينة حريتها . ثم انتقل إلى ثغرپيرية ورشا الحامية المقدونية المقيمة بها بالمال فاستسلمت له وأعلن تحرير أثينة ، وظلت تلك المدينة من ذلك الوقت إلى الفتح الرومانى تستمتع باستقلال فذ فى نوعه — فقد كانت لا حول لها ولا طول

من الناحية العسكرية ولكن الدول الهلنستية تركتها وشأنها لم تمسها بسوء لأن جامعاتها العلمية جعلتها العاصمة الذهنية للعالم اليونانى . ووجهت أثينة عنايتها للفلسفة ، واختفت من ذلك الحين من التاريخ السياسى .

وكانت عصبتا الدول اليونانية وقتئذ فى عنفوان قوتهما ، ثم أخذتا تضعفان نفسهما بمحاربة كل منهما للأخرى فى الخارج ، وبحروب الطبقات فى الداخل . ففى عام ٢٢٠ اشتبكت العصبة الإيتولية ومعها اسپارطة وإليس فى الحرب « الاجتماعية » العوان ضد العصبة الآخية ومقدونية . وكان أراطوس المدافع عن الحرية يدافع أيضاً عن حق الملكية ؛ ولذلك كانت العصبة تؤيد حزب الملاك فى كافة المدن . وشكا فقراء المواطنين من أنهم لا يستطيعون حضور الجمعيات النائية لعصبة الدول وأنهم كانوا فى واقع الأمر محرومين من الحقوق السياسية ؛ وكانوا يرتابون فى فائدة حرية لا معنى لها إلا أن تتيح الفرصة كاملة للأقوياء والمهرة دون غيرهم لكى يستغلوا الضعفاء والسذج ؛ فأخذوا يؤيدون تأييداً متزايداً المهرجين من زعماء الشعب الذين كانوا ينادون بإعادة توزيع الأراضى الزراعية ؛ وشرع الفقراء يفضلون حكم المقدونيين على حكومتهم الوطنية كما كان يفعل الأغنياء قبل مائة عام من ذلك الوقت.

بيد أن الذى قضى على مقدونية آخر الأمر هو أمانة أنتجونس الثالث . وذلك أنه كان قد استولى على زمام السلطة بوصفه وصياً على فليپ ابن زوجته ، ووعد بأن يتخلى على الملك حين يبلغ فليپ سن الرشد . وأطلق عليه الساخرون فى ذلك الوقت اسم « الدوسون Doson أى الواعد » ، لأنهم على ما يبدو كانوا موقنين بأنه لن يوفى بوعده . ولكنه أنجز هذا الوعد فعلا ، وبدأ فليپ الخامس فى عام ٢٢١ ، وهو فى السابعة عشرة من عمره ، حكما طويلا مليئاً بالدسائس والحروب . وكان فليپ شجاعا قديراً ، ولكنه كان مخاتلا ميت الضمير ، لم

يتورع عن أن يغرر بزوجة ابن أراطوس ، ويسم أراطوس نفسه ، ويقتل ابنه هو لأنه ظنــه يأتمر به ، وأقام ولائم من الخمر المسموم للذين وقفوا فى وجه خططه[٢] . وقد وسع رقعة مقدونية وزاد ثروتها ، وتركها وهى أكثر سكانا وأعظم رخاء مما كانت عليه منذ مائة وخمسين عاماً . ولكنه فى عام ٢١٥ أوجس خيفة من قوة رومة النامية ، فارتكب الغلطة التاريخية الموبقة بأن تحالف مع هنيبال وقرطاجة ، فما كان من رومة إلا أن أعلنت الحرب على مقدونية بعد عام واحد من ذلك الوقت وبدأت تستولى على بلاد اليونان .

الفصل الثاني

الكفاح من أجل المال

ويقول أثنيوس ، وهو ثرثار خليق بأن يعتمد عليه بالقدر الذى يصح أن يعتمد به على أمثاله الثرثارين ، إن دمتريوس الفالرومى أحصى سكان أثينة حوالى عام ٣١٠ ق . م فوجد فيها ٢١,٠٠٠ من المواطنين ، و ١٠,٠٠٠ من الغرباء المستوطنين ، و ٤٠٠,٠٠٠ من الأرقاء[٨] : فأما العدد الأخير فلا يمكن تصديقه ، ولكنا لانعرف شيئاً ينقضه ، وأكبر الظن أن عدد الأرقاء الذين كانوا يعملون فى المزارع قد ازداد لأن الضياع كانت آخذة فى الاتساع ، ولأن استغلالها بجهود العبيد تحت إشراف العبيد الذين يعملون فى خدمة المالك البعيد عنها ، كان آخذاً فى الازدياد[٩] . وبفضل هذا النظام انتشر نظام الزراعة الذى يعتمد على العلم أكثر من ذى قبل ؛ ودليلنا على ذلك أن فارو Varro كان يعرف أسماء خمسين كتاباً فى فن الزراعة . ولكن عوامل التعرية وتقطيع الغابات أدت إلى اكتساح التربة فى مساحات واسعة من الأرض الخصبة . وحتى فى القرن الرابع ذكر أفلاطون أن الأمطار وفيضانات الأنهار قد جرفت على مر الزمن كثيراً من تربة أتكا الخصبة ؛ ويشبه ما بقى من التلال بالهيكل العظمى الذى انتزع منه اللحم[١٠] . وما وافى القرن الثالث حتى كانت مساحات واسعة فى أتكا قد تعرت من تربتها الخصبة إلى درجة اضطرت أصحاب كثير من الضياع القديمة إلى هجرها ، وأخذت غابات بلاد اليونان تختفى شيئاً فشيئاً ، حتى اضطر الأهلون إلى استيراد الخشب كما اضطروا إلى استيراد الطعام من خارج البلاد[١١] . كذلك أجدبت مناجم لوريوم ، وكادت هى الأخرى أن تهجر ، وكان

استيراد الفضة من أسبانيا أرخص من استخراجها من مناجم البلاد ، وأضحت مناجم الذهب فى تراقية تغنى خزائن مقدونية وتجمل عملتها بعد أن كانت تصب ثروتها فى أثينة .

وبينا كانت موارد الرجولة والمواطنية المستقلة ينضب معينها فى القرى ، كانت الصناعة وحرب الطبقات تفعلان فعلهما فى المدن ، فكانت المصانع الصغيرة فى أثينة وفى جميع المدائن الكبرى فى العالم الهلنستى يتزايد عددها وعدد العبيد الذين يعملون فيها ؛ وكان تجار الرقيق يصحبون الجيوش ، ويبتاعون من لايفتدون من الأسرى ، ويبيعونهم بسعر ثلاث مينات أوأربع (مائة وخمسين ريالا أو مائتى ريال) فى أسواق الرقيق الكبرى فى ديلوس ورودس . وكان عدد من الناس يشعرون بما فى هذا النظام القديم ، نظام الاسترقاق ، من مجافاة للمبادئ الإنسانية ؛ وكان من ثمار الفلسفة أن سرت فى قلوب الناس عاطفة إنسانية نبيلة ؛ يضاف إلى هذا أن الروح العالمية التى سادت ذلك العصر لم تكن تميز بين الأجناس البشرية ، وأن العمال المأجورين الذين يخرجون من الأعمال حين لاتأتى بأرباح ليعيشوا من معونة الدولة ، كانوا فى كثير من الظروف أقل كلفة من العبيد الذين لابد من إطعامهم على الدوام[١٢]. وكان من أثر هذه العوامل كلها أن أخذ عدد العبيد المحررين يزداد فى ذلك الوقت زيادة ملحوظة .

وكسدت التجارة فى المدن القديمة ولكنها راجت فى المدن الحديثة ، فازدهرت الثغور اليونانية فى آسية ومصر على حساب ثغر بيرية ، وحتى فى أرض اليونان القارية كانت خلقيس وكورنثة هما اللتين استفادتا من تيار التجارة الهلنستية الزاخر ؛ فقد كان التجار لاينقطعون عن التردد غادين رائحين على هذين البلدين ذوى المركز الهام والاستعداد التجارى العظيم ، كما لم يكونوا ينقطعون عن التردد على أنطاكية ، وسلوقيا ، ورودس ، والإسكندرية ، وسرقوسة ، وكانوا ينشرون مع تجارتهم نزعتهم العالمية والمتشككة . وتضاعف عدد رجال المصارف ، ولم يكونوا يقرضون المال

للتجار والملاك فحسب ، بل كانوا يقرضونه أيضاً للمدن والحكومات[١٣] ؛ وكان لبعض المدن مثل ديلوس وبيزنطية مصارف عامة أو وطنية تودع فيها الحكومات أموالها ويديرها موظفون معينون من قبل الدولة[١٤] . وفى عام ٣٢٤ أنشأ أنتمنيس الرودسى أول نظام معروف للتأمين ، وذلك بأنه ضمن للملاك نظير ثمانية فى المائة من إيرادهم ما عسى أن يصيبهم من الخسارة إذا فر منهم عبيدهم[١٥] . وكانت نتيجة انطلاق الأموال المكدسة فى خزائن بلاد الفرس ، وسرعة تداول رؤوس الأموال ، أن نقص سعر الفائدة إلى عشرة فى المائة فى القرن الثالث ، وإلى سبعة فى المائة فى القرن الثانى . كذلك انتشرت المضاربات انتشاراً كبيراً ، ولكنها كانت على غير نظام ؛ فمن المضاربين من كانوا يعملون لرفع الأسعار بتحديد الإنتاج ؛ وقد وجد فى البلاد من كانوا يدعون إلى تحديد مقدار الحاصلات الزراعية لكى يحتفظ الزراع بقدرتهم على الشراء[١٦] . وكانت أثمان السلع مرتفعة فى العادة لأن الإسكندر هو الآخر قد صب فى أيدى الناس الأموال المكدسة فى خزائن الملوك الأكمينيين ؛ لكن هذا السبب عينه كان من الأسباب التى يسرت سبل التجارة ، ونشطت الإنتاج فعادت الأثمان إلى مستواها العادى . وازدادت ثروة الأغنياء إلى حد لم يعرف له مثيل فى تاريخ اليونان ، فاستحالت البيوت قصوراً ، وأضحت الرياش والعربات أفخم من ذى قبل ، وكثر العبيد ، وصارت وجبات الطعام قصفاً ولهوا خليعاً ، وأضحت النساء معارض لثراء أزواجهن[١٧] .

ولم تستطع الأجور لانخفاضها مجاراة أثمان السلع الآخذة فى الارتفاع ، فإذا انخفضت هذه الأسعار انخفضت معها الأجور على الفور ؛ ولم تكن تكفى إلا لإطعام شخص بمفرده ، وكانت سبباً فى انتشار العزوبة والمسكنة ، وإقفار البلاد من أهلها ؛ وأخذ الفرق بين أجر العمل الحر ونفقات الرقيق ينقص — تدريجا . ولم يكن العمل ميسراً للعمال على الدوام ، وترك آلاف من الرجال مواطنهم فى المدن اليونانية التى فى أرض القارة ليعملوا جنودا

مرتزقين فى خارج البلاد ، أوليخفوا فقرهم فى عزلتهم الريفية[١٨] . وأعانت حكومة أثينة المعدمين من أهلها بهبات من الحبوب ، وأخذ الأغنياء يسلونهم بما يقدمون لهم من التذاكر التى تبيح لهم حضور الحفلات والألعاب . فقد كانوا يقترون فى الأجور ، ولكنهم كانوا أسخياء فى الصدقات ؛ وكثيراً ماكانوا يقرضون المال لمدنهم من غير فائدة ، أو ينقذونها من الإفلاس بالهبات الضخمة ، أو ينشئون المبانى العامة على نفقتهم الخاصة ، أو يهبون المال للهياكل والجامعات ، أو يجودون بالكثير منها لإقامة التماثيل ، أو إجازة الشعراء الذين يذيعون فى الناس ملاحمهم أو يشيدون بعطاياهم . ونظم الفقراء أنفسهم فى اتحادات ليتبادلوا المعونة فيما بينهم ، ولكنهم كانوا أضعف من أن يحدوا من سلطان الأغنياء أومهارتهم ؛ ومن جمود الفلاحين واستعداد الحكومات والأحلاف المتنافسة لتبادل المعونة المسلحة للقضاء على الثورات[١٩].

وقد أدت حرية الكفايات غير المتكافئة فى جمع الثروة أو الهلاك جوعا إلى ما أدت إليه من قبل فى أيام صولون ، ألا وهو تركز الثروة فى أيدى عدد قليل جداً من الأفراد . وكان الفقراء سريعى الاستجابة إلى الدعايات الاشتراكية ، فأخذ ممثلوهم يطالبون بإلغاء الديون ، وإعادة توزيع الأراضى الزراعية على الأهلين ، ومصادرة الثروات الكبرى ؛ وكان أكثرهم جرأة يطالبون من حين إلى حين بتحرير العبيد[٢٠] .

وكان ضعف العقيدة الدينية سبباً فى نشأة الدعوة إلى إقامة مدائن فاضلة خيالية تعوض على الناس هذا الضعف : فوصف زينون الرواقى فى جمهوريته التى نشرها عام ٣٠٠ ق . م على ما يظن نظاما شيوعيا مثاليا ؛ وألهم يمبولوس أحد أتباعه (٢٥٠ فى الغالب) الثوار اليونان برواية له وصف فيها جزيرة مباركة فى المحيط الهندى (قد تكون جزيرة سرنديب) قال إن الناس كلهم فيها أكفاء ، لا فى الحقوق فحسب ، بل فى مقدرتهم وذكائهم ؛ وإنهم كلهم يعملون على قدم المساواة ، ويقتسمون ثمار عملهم بالتساوى ، ويشتركون

كلهم إذا جاء دورهم فى تصريف شئون الحكومة ، وإن هذه الجزيرة لم يكن فيها غنى ولا فقر ، ولا حرب بين الطبقات ، وإن الطبيعة تنتج فيها الفاكهة موفورة بلا حاجة إلى جهد ، وإن الناس يعيشون فيها متآخين متحابين[٢٠] .

وأممت بعض الحكومات عددا من الصناعات : فاستولت حكومة بريينى على مصانع الملح ، وأممت ميليطس مصانع النسيج ، ورودس ونيدس مصانع الفخار ؛ ولكن الحكومات لم تكن تؤدى للعمال أجورا أعلى مما يؤديه أصحاب الأعمال الشحيحون ، وكانوا يمتصون من كدح عبيدهم كل ما يستطيعون امتصاصه من المكاسب . واتسعت الهوة بين الأغنياء والفقراء[٢١] ، وأضحت حرب الطبقات أشد مرارة مما كانت قبل ؛ فأخذت كل مدينة قديمة كانت أو حديثة تردد أصداء كراهية الطبقات بعضها لبعض ، وكانت هذه الكراهية تتمثل فى الفتن ، والمذابح ، وأعمال القمع ، والنفى ، والقضاء على الأنفس والثمرات . فإذا ما انتصر فيها حزب طرد الحزب الآخر وصادر أملاكه ؛ فإذا عاد إلى المنفيين سلطانهم ثأروا لأنفسهم مثل هذا الثأر وقتلوا أعداءهم ، ألا فليتصور القارئ أى استقرار يمكن أن يتاح لنظام اقتصادى يتعرض لأمثال هذه الاضطرابات والهزات العنيفة . وقد وصل ما حل من الخراب ببعض المدن اليونانية القديمة من جراء النزاع بين الطبقات إلى درجة أن هجرتها الصناعات وفر منها الناس ، وأن نمت الأعشاب فى شوارعها وأقبلت عليها الماشية ترعاها[٢٢] . وكتب پولبيوس حوالى عام ١٥٠ ق . م يصف بعض مظاهر هذه الحرب كما يراها رجل محافظ ثرى :

« ولما أن هيئوا (أى الزعماء المتطرفون) نفوس العامة إلى الجشع والرشوة ، قضى على ما فى الديمقراطية من فضيلة ، واستحالت حكم العنف والاستبداد . ذلك أنه إذا اعتادت الغوغاء أن تطعم على حساب غيرها ، وأن تُبعث فيها الآمال بأن تعيش من مال جيرانها ، ثم وجدت زعيما أوتى قدرا كافيا من

الطموح والجرأة . . إذا حدث هذا نشأ عنه حكم العنف . وحينئذ تقوم الجمعيات الصاخبة ، والمذابح ، والنفى ، وإعادة توزيع الأرض[٢٣] »

وكانت الحروب ونزاع الطبقات هى التى أضعفت بلاد اليونان الأصلية حتى جعلتها غنيمة سهلة لرومة . ذلك أن قسوة المتصرين وغلظة قلوبهم المتناهية ، وتدمير الغلات ، والكروم ، والبساتين ، وتخريب الضياع ، وبيع الأسرى فى سوق العبيد قد قضى على إقليم فى إثر إقليم ، وترك البلاد أشبه بقشرة فارغة أمام العدو الأخير . وهل تقوى أرض أفقرها التنازع والتباغض ، واكتسحت تربتها عوامل التعرية ، وقطعت غاباتها ، ولم يكن يزرع أرضها إلا المستأجرون الفقراء أوالأرقاء الكليلون ، هل تقوى أرض هذا شأنها على منافسة السهول الفيضية التى تشقها أنهار العاصى ، والفرات ، ودجلة ، والنيل . أضف إلى هذه أن المدن الشمالية لم تعد كما كانت من قبل قائمة على الطرق التجارية الكبرى ، وأنها قد فقدت أساطيلها الحربية ، ولم يكن فى مقدورها أن تشرف على موارد الحبوب وطرقها وهى الموارد والطرق التى كانت أثينة واسپاطة تسيطران عليها فى أيام عظمتهما الإمبراطورية . وانتقلت مراكز القوة ، بما فيها قوة الإبداع الأدبية والفنية ، إلى أماكنها القديمة فى آسية ومصر ، وهى المراكز التى أخذت منها بلاد اليونان فى تواضع وخشوع آدابها وفنونها قبل ذلك الوقت بألف عام .

الفصل الثالث

أخلاق الانحلال

لقد عجل فشل نظام دول المدائن تدهور الدين القديم؛ذلك أن آلهة المدينة قد ثبت عجزها عن حمايتها ، ومن أجل هذا تزعزع إيمان الناس بهذه الآلهة . واختلط أهلها بالتجار الأجانب الذين لم يكن لهم نصيب فى حياة البلد المدنية والدينية والذين انتشر تشككهم ولهوهم بين المواطنين . على أن أساطير الآلهة المحلية القديمة قد بقيت بين الفلاحين والسذج من سكان المدن ، وبقيت كذلك فى الطقوس الرسمية ، وظل المتعلمون يستخدمونها فى الشعر والفن ؛ أما من تحررت عقائدهم بعض التحرر من سلطانها فأخذوا يهاجمونها بعنف . غير أن الطبقات العليا ظلت تستمسك بها وتستعين بها على حفظ النظام ، وتقاوم الإلحاد الصريح وتعده شاهداً على فساد الذوق . ولما قامت دول كبيرة أدى قيامها هذا إلى توحيد الآلهة واندماجها هى الأخرى ، وسرت فى نفوس الناس نزعة غامضة نحو التوحيد ، وحاول الفلاسفة أن يصوغوا للأدباء مذهب وحدة الوجود فى صيغة لا تتعارض تعارضا صريحا كل الصراحة مع العقائد الثابتة القديمة . من ذلك أن أوفروس Euphemerus أحد سكان مسانا فى صقلية نشر حوالى عام ٣٠٠ق.م كتابه المسمى هيرا أنجرافا Hiera Anagrapha (ومعناه الحرفى الكتابات أو السجلات المقدسة) ، والذى قال فيه إن الآلهة إما أن تكون قوى طبيعية جسدها الناس ، وإما أن تكون — وهذا هو الأغلب الأعم — أبطالا آدميين ألّههم خيال الشعب أو عبدهم اعترافا بفضلهم على بنى الإنسان ؛ وإن الأساطير إن هى إلا استعارات وتشبيهات ، وإن الاحتفالات الدينية كانت فى الأصل مراسم تخليداً لذكرى الموتى . فزيوس

مثلا كان فانحا مات فى كريت وأفروديتى كانت موجدة الدعارة ونصيرتها ، ولم تكن قصة كرونوس وأكله أبناءه إلا طريقة للقول بأن أكل اللحوم البشرية فى الزمن القديم عادة متبعة على ظهر الأرض . وقد كان لهذا الكتاب أثر قوى فى نشر النزعة الإلحادية فى بلاد اليونان فى القرن الثالث قبل الميلاد(*)(٢٣).

بيد أن الناس لا يستريحون للتشكك لأنه يترك قلب الإنسان وخياله فارغين ، وهذا الفراغ لا يلبث أن يجذب إليه عقيدة جديدة مشجعة ؛ وقد مهدت انتصارات الفلسفة وانتصارات الإسكندر السبيل إلى الطقوس الدينية الجديدة . وسادت أثينة فى القرن الثالث عقائد دينية غريبة اضطربت لها أحوالها ، وكانت كلها تقريبا ، تبشر بالجنة وتنذر بالجحيم ، حتى أحس أبيقور ، كما أحس لكريشيوس فى رومة فى القرن الأول ، أن من واجبه أن يندد بالدين ويقول إنه يتعارض مع طمأنينة العقل ومتعة الحياة . ومن أجل هذا أصبحت المعابد الجديدة ، حتى فى أثينة نفسها ، تشاد عادة لإيزيس ، وسرابيس Seropis ، وبنديس Bendis وأدنيس ، وغيرها من الأرباب الأجانب . وانتشرت الطقوس الإليزينية الخفية وأخذ الناس يحاكونها فى مصر ، وإيطاليا ، وصقلية ، وكريت . وظلت عبادة ديونيشيوس إليوثيريوس — المحرر — واسعة الانتشار حتى اندمج هذا الإله فى المسيح . وانضوى تحت لواء الأرفية أتباع جدد حين جذبت اتصالها بالأديان الشرقية التى نشأت هى عنها . لقد كان الدين القديم أرستقراطيا ، وكان يحرم على الأجانب والرقيق أن يكونوا من أتباعه ، أما الطقوس الشرقية الجديدة فكانت تقبل بين أتباعها جميع الرجال والنساء ، ومنهم الأجانب ، والأرقاء ، والأحرار ، وكانت تعد الناس على اختلاف طبقاتهم بالخلود فى الدار الآخرة .

(*) وربما كان هذا الكتاب تعبيرا عن العادة الملنستية عادة تألية الملوك ومشجعا لها فى الوقت نفسه .

وانتشرت الخرافات والأوهام فى الوقت الذى بلغ فيه العلم أوجه ، وإن الصورة التى رسمها ثاوفراسطوس « للرجل المخرف » لتكشف عن رقة الغشاء الثقافى فى حاضرة النور والفلسفة نفسها . فلقد كان العدد ٧ عدداً مقدسا إلى حد لايتصوره العقل ؛ فكان ثمة سبعة كواكب سيارة ، وسبعة أيام فى الأسبوع ، وسبع عجائب فى العالم ، وسبعة أعمار للإنسان ، وسبع سماوات ، وسبعة أبواب للجحيم . وانتعش علم التنجيم على أثر انتشار التجارة مع بابل ، وكان من العقائد المسلم بها والتى لا تقبل الجدل أن النجوم آلهة تتصرف فى مصائر الأفراد والدول صغيرها وكبيرها ، وحتى خلق الإنسان كان يحدده الكوكب الذى ولد الإنسان فى مطلعه ، فيكون مرحا إذا ولد والمشترى فى السماء ؛ أو نشطا زواغا ، إذا كان فيها عطارد ، أو نكداً إذا كان فيها زحل(*) . وحتى اليهود أنفسهم كانوا يعبرون عن الأمانى الطيبة بقولهم : « مزول — توف Mazzol-Tof » نرجو أن يكون كوكبك سعدا[٢٤] » . وكان علم الفلك يكافح فى سبيل الحياة ضد التنجيم ، ثم استسلم له آخر الأمر فى القرن الثانى بعد الميلاد . وكان الناس فى جميع أنحاء العالم الهلنستى يعبدون تيكى Tyche إله الفرص .

وليس فى مقدور الإنسان أن يدرك عظيم الأثر الذى يحدثه فى الأمة موت دينها التقليدى إلا إذا أوتى خيالا قويا لا يكل ، أو قدرة فائقة على الملاحظة . لقد قامت الحضارة اليونانية القديمة على الإخلاص للدولة المدينة والتفانى فى حبها ، وكانت العقائد الخرافية من أقوى العوامل فى تدعيم المبادئ الأخلاقية وإن كانت هذه المبادئ متأصلة فى القصص الشعبى والمعارف الشعبية أكثر من تأصلها فى العقيدة الدينية . لكن الرجل اليونانى المتعلم قد خسر فى الوقت الذى نتحدث عنه دينه ووطنيته ؛ ومحت الإمبراطوريات الحدود المدنية ، وأضحت

(*) ويطلق على هـذه الصفات بالإنجليزية Mercurial, Jovial على التوالى .

المبادئ الخلقية ، وشئون الزواج ، والأبوة ، والقوانين ، بسبب انتشار المعارف من الأمور الدنيوية . وقد كان عصر الاستنارة فى أيام پركليز من أسباب تدعيم الأخلاق إلى حين ، وهذا شبيه بما حدث فى أوربا الحديثة ؛ فقد نمت المشاعر الإنسانية ، وأيقظت — دون جدوى — فى نفوس الناس استياء شديداً من الحروب ، ونشأت عادة التحكيم فى المنازعات بين المدن والأفراد ، وأصبحت الآداب أظرف مما كانت وأكثر صقلا ، وصار الجدل أكثر تحضراً ، وانتقلت آداب اللياقة والمجاملات اللطيفة من حاشيات الملوك ، حيث كان الباعث عليها السلامة الشخصية والهيئة الملكية ، إلى أفراد الشعب ، فلما أن جاء الرومان دهش اليونان أشد الدهشة من سوء آدابهم وغلظة طباعهم . لقد أضحت الحياة فى بلاد اليونان أرق مما كانت وأكثر تهذيباً ، وكان النساء يستمتعن بقسط أوسع من الحرية فى غدوهن ورواحهن ، ويبعثن فى الرجال الميل إلى الظرف والرشاقة ؛ فأخذوا يحلقون لحاهم وخاصة فى بيزنطية وزودس ، حيث كانت القوانين تحرم هذا العمل وتعده تشبها بالنساء[٢٥] . غير أن الجرى وراء اللذات قد أنهك حياة الراشدين من أفراد الطبقات العليا . ولم تجد المشكلة القديمة مشكلة الآداب والقوانين الأخلاقية ، وكيف يوفق الناس بين أبيقورية الفرد الفطرية ورواقية الدولة الضرورية ، لم تجد هذه المشكلة حلا لها فى الدين ، أو السياسة ، أو الفلسفة .

وانتشر التعليم ولكن انتشاره كان رقيقاً غير عميق ، فقد كان يفعل ما يفعله فى جميع العصور التى كانت الغلبة فيها للعقل فيعنى بالمعارف أكثر مما يعنى بالأخلاق ، ولذلك أخرج جماهير غفيرة من أنصاف المتعلمين الذين انتزعوا من العمل ومن الأرض ، وأخذوا يطوفون وهم ساخطون حيث يجب ألا يكونوا ، كأنهم بضاعة سائبة فى سفينة الدولة : وأنشأت بعض المدن مثل ميليطس وزودس مدارس عامة تنفق عليها الدولة ، وكان الذكور والإناث

يتعلمون مجتمعين فى مدارس تيوس Teos ، وطشيوز ، وكانت تعطى للجنسين فرص متكافئة لا نظير لها إلا فى اسبارطة(٢٦) . وتطورت مدارس الرياضة البدنية حتى أضحت مدارس عليا أوكليات جامعية بها غرف للتدريس ، وقاعات للمحاضرات ومكتبات . كذلك ازدهرت ساحات التدريب الرياضى وأضحى لها شأن فى بلاد الشرق ؛ ولكن الألعاب العامة اضمحلت حتى أصبحت مباريات بين المحترفين وخاصة فى الملاكمة ، التى كانت قوة الجسم فيها أهم من المهارة والحذق ؛ وأصبح اليونان أمة من النظارة يقنعون بأن يشاهدوا ولا يعملوا وقد كانوا فى ماضى أيامهم أمة من الرياضيين .

وتحللت الأخلاق الجنسية من القيود أكثر من تحللها فى عصر بركليز نفسه ، وإن كان هذا التحلل لم يقلل من انتشار اللواط بل ظل كما كان فى سابق الأيام . انظر إلى قول شميثا Simaetha فى بعض قصائد ثاوفراطوس : « إن الشاب دلفس Delphis يحب ، ولكنى لا أعرف أيحب امرأة أم رجلا (٢٧) » . وظلت الحظية صاحبة السلطان الأعلى ، وهل أدل على ذلك من أن دمتريوس پليوكرتيز جبى من الأثينيين ضريبة مقدارها مائتى وزنة وخمسين (٧٥٠,٠٠٠ ريال أمريكى) ثم وهبها لعشيقته لاميا Lamia بحجة أنها فى حاجة إلى هذا المال لتبتاع به ما يلزمها من الصابون ؛ وقال الأثينيون الغضاب « إن هذه السيدة لابد أن تكون قذرة إلى أبعد حدود القذارة » وأصبح الناس لا يتأففون من رقص النساء العاريات بل يرونه من العادات المألوفة ، وكان هذا يحدث أمام أحد ملوك مقدونية(٢٩) . وقد صور مننلر فى مسرحياته الحياة الأثينية بأنها حياة تدور كلها حول السفاسف ، والغواية والزنى .

واشتركت المرأة اليونانية اشتراكا نشيطاً فى الأعمال الثقافية فى ذلك العصر ، وكانت لهـا جهود موفقة فى الأدب والعلم والفلسفة والفن ، فكانت أرسطوداما Aristodama الأزميرية تنشد أشعارها فى طول بلاد اليونان وعرضها وتقابل أينما حلت بأعظم مظاهر التكريم ؛ ولم يتردد بعض

الفلاسفة ، كأبيقور مثلا ، فى قبول النساء فى مدارسهم . وبدأ الأدب يعنى بوصف جمال المرأة الجسمانى بعد أن كان من قبل يعنى بقيمتها وفتنتها من ناحية الأمومة ، ونشأت العبادة الأدبية للجمال النسوى فى ذلك العهد إلى جانب أشعار الحب الروائى وقصصه . وقد صحب هذا التحرير الجزئى للمرأة ثورة على قصر وظيفتها على الأمومة ، وأضحى تحديد النسل من أهم الظواهر البارزة فى ذلك العصر ، فلم يكن يعاقب على الإجهاض مثلا إلا إذا لجأت إليه المرأة على غير إرادة زوجها ، أو بتحريض من أغواها ؛ وكان الطفل فى كثير من الأحيان يعرض للجو القاسى ، ولم يكن عدد الأسر التى تربى أكثر من بنت واحدة فى المدن اليونانية القديمة يزيد على واحد فى المائة من مجموع أسرها ؛ وفى ذلك يقول پوسيدبوس Posidippus ، « وحتى الرجل الغنى نفسه ، كان يعرض ابنته للجو القاسى على الدوام . وكان يندر وجود أخوات للأبناء ، وكثر عدد الأسر التى لم يكن لها أبناء قط أو كان لكل منها ولد واحد . وفى وسعنا أن نتتبع من النقوش الباقية إلى هذه الأيام خصوبة تسع وسبعين أسرة من سكان ليليطس فى عام ٢٠٠ ق.م : لقد كان لاثنتين وثلاثين من هذه الأسر طفل واحد ، ولإحدى وثلاثين منها طفلا ؛ وكان مجموع أبناء هذه الأسر جميعها مائة وثمانية عشر ولدا وثمانيا وعشرين بنتا[٣٠]. وفى إرتريا Eretria لم يكن عدد الأسر التى لها ولدان يزيد على أسرة واحدة فى كل اثنتى عشرة أسرة ، وقلما كان لأسرة واحدة ابنتان . وكان الفلاسفة يتجاوزون عن قتل الأطفال بحجة أنه يخفف من ضغط السكان على موارد الرزق ؛ فلما أن لجأت الطبقات الدنيا إلى هذه العادة وأسرفت فيها تساوت نسبة الوفيات مع نسبة المواليد . ولم يعد فى مقدور الدين أن يتغلب على مقتضيات الراحة ونفقات الأبناء ، مع أن الدين نفسه كان فى الأيام الخالية يخيف الناس ويحذرهم من قلة النسل حتى تجد أرواحهم من يعنى بها بعد موتهم . وحل المهاجرون فى المستعمرات محل الأسر القديمة ، فلما أن نقص عدد المهاجرين فى أتكا والپلوپونيز إلى أدنى حد قل عدد السكان كثيراً . ورأى

ورأى ذلك فليب الخامس فحرم تحديد عدد أفراد الأسر فى مقدونية ، وزاد بذلك عدد الرجال بنسبة خمسين فى المائة مما كانوا عليه قبل هذا الأمر(٣١) ؛ وفى وسعنا أن نستدل من هذا على مبلغ ما وصلت إليه عادة تحديد النسل حتى فى مقدونية التى كانت لاتزال نصف بدائية ، وفى هذا المعنى يقول پوليبيوس فى عام ١٥٠ ق . م :

لقد سرت فى جميع بلاد اليونان موجة من نقص المواليد ومن قلة السكان تبعاً لهذا النقص ، نشأ عنها أن أقفرت المدن من السكان وأجدبت الأرض فلم تعد تخرج ثمرها ... ذلك أن الناس قد انغمسوا فى الترف والبخل والكسل ؛ فلم يعودوا يرغبون فى الزواج ، أو فى تربية الأبناء إذا تزوجوا ، وأقصى ماكانوا يسمحون به أن يكون لهم من الأبناء ولد أو ولدان حتى يظلوا يستمتعون برخاء العيش ، وحتى يربوا هؤلاء الأبناء ليتلفوا ما يتركون لهم من المال . واستشرى هذا الفساد بسرعة وإن تكن غير ملحوظة ، وكان يحدث أحياناً أن يهلك أحد الولدين فى الحرب وأن يقضى المرض على الولد الثانى ، فيكون مصير البيت الخراب ... وهكذا نضب معين المدن وحل بها الوهن شيئاً فشيئاً(٣٢) .

الفصل الرابع

الثورة فى اسـبارطة

وفى هذه الأثناء كان تركز الثروة فى أيدى عدد قليل من الأفراد يثير النزاع الأبدى بين الطبقات فى جميع أنحاء اليونان . وكان من أثر هذا التركز فى اسپارطة أن بذلت محاولتان لإصلاح الحال بإحداث انقلاب تام فى أحوال تلك المدينة . لقد استطاعت اسپارطة بفضل عزلتها بين الحواجز الجبلية أن تحافظ على استقلالها ، وأن تصد جيوش مقدونية ، وتهزم جيش پيروس (٢٧٢) الضخم ببسالة أبنائها وشدة بأسهم . ولكن نهم الأقوياء أحدث فى داخل البلاد من الخراب ما لم تقو جيوش الأعداء على إحداثه فيها من الخارج . فقد ألغى قانون ليقورغ الذى كان يمنع انتقال الأرض من أيدى ملاكها بالبيع أو تقسيمها بالوصية(*)، واستخدم الاسپارطيون ما عاد عليهم من الثروة بطريق الإمبراطورية أو الحرب فى شراء هذه الأراضى من أصحابها[٣٣] . وما وافت سنة ٢٤٤ حتى آلت أراضى لكونيا الزراعية التى تبلغ مساحتها ٧٠٠,٠٠٠ فدان إلى مائة أسرة لا أكثر[٣٤] ، وحتى لم يحتفظ بحقوق المواطنية إلا سبعمائة رجل ، وحتى هؤلاء السبعمائة لم يكونوا يطعمون مجتمعين كما كانوا يطعمون من قبل . ذلك أن الفقراء لم يستطيعوا تقديم قسطهم من الطعام ، وأن الأغنياء كانوا يفضلون ولائمهم الخاصة . وحلت الفاقة بمعظم الأسر التى كانت من قبل تستمتع بالحقوق السياسية ، وأخذت تطالب بإلغاء الديون وإعادة توزيع الأراضى على الأهلين .

(*) ولعل سبب إلغائه أنه أدى إلى تحديد عدد أفراد الأسرة ؛ كما حدث فى فرنسا الحديثة .

وكان من فضائل الملكية أن محاولة إصلاح هذه الحال قد قام بها ملوك اسپارطة . ذلك أن أجيس الرابع Agis IV وليونداس قد ارتقيا عرش المدينة المزدوج فى عام ٢٤٢ . وأيقن أجيس أن ليقورغ كان يقصد أن تكون الأراضى موزعة بالتساوى بين جميع الأحرار فاقترح أن يشرع فى توزيعها بينهم من جديد ، وأن تلغى جميع الديون ، وأن يعاد النظام شبه الشيوعى الذى وضعه ليقورغ . وأيد الملاك الذين كانت أرضهم مرتهنة اقتراح إلغاء الديون ، فلما أن ووفق على المشروع عارضوا أشد المعارضة كل ما عداه من عناصر إصلاحات أجيس ؛ ثم اغتيل أجيس نفسه بتحريض ليونداس ، واغتيلت معه أمه وجدته ، وكانت كلتاهما قد نزلت عن ضياعها طائعة مختارة لتوزع على أبناء الشعب . وكانت النساء أنبل الشخصيات فى هذه المسرحية الملكية ، فقد كانت كلونيس Chilones ابنة ليونداس زوجة كليمبروتوس Cleombrotus الذى يؤيد أجيس . ولما نفى ليونداس واغتصب كليمبروتوس الملك هجرت كلونيس زوجها الظافر لتشترك فى النفى مع زوجها ، ولما أن استعاد ليونداس السلطة ونفى كليمبروتوس ، آثرت كلونيس أن تنفى مع أبيها[٣٥] .

وأراد ليونداس أن يضم لأملاك أسرته ما كان لأرملة أجيس من ثروة طائلة ، فأرغمها على أن تتزوج بابنه كليمنيس Cleomenes . ولكن كليمنيس هام بحب زوجته ، واستلهم منها آراء الملك القتيل ؛ ولما أن اعتلى العرش باسم كليمنيس الثالث ، قرر أن ينفذ إصلاحات أجيس . واستطاع أن يضم الجيش إلى جانبه ببسالته فى الحرب ، وأن يكسب تأييد الشعب ببساطة معيشته . فلما تم له ذلك ألغى الأفورية الألجركية بحجة أن ليقورغ لم يوافق عليها قط ، وقتل أربعة عشر من الذين عارضوا هذا الإلغاء ، ونفى منهم ثمانين ، وألغى جميع الديون ، ووزع الأراضى على الأهلين الأحرار ، وأعاد نظام ليقورغ إلى ما كان عليه من قبل . ولم يكتف بهذا ، بل شرع

يفتح البلوبونيز أمام الثورة . ورحب به الصعاليك فى كل مكان ورأوا فيه منقذاً ومحرراً لهم ، واستسلمت له عدة مدن وهى فرحة مستبشرة ، فاستولى على أرجوس ، وپلينى ، وفليوس Philius ، وإپدورس ، وهرميونى Hermione ، وتريزين Troezen ؛ وحتى كورنثة الفتيـة استسلمت له هى الأخرى فى آخر الأمر . وانتشرت عدوى خطته هذه فى كل مكان : ففى بؤوشيا امتنع المدينون عن الوفاء بديونهم ، واستولت الدولة على الأموال لاسترضاء الفقراء؛ وفى مجالوپوليس Megalopolis قام الفيلسوف سرسداس Cercidas يدعو الأغنياء أن يمدوا يد المعونة للفقراء قبل أن تطيح الثورة بجميع أموالهم[٣٦] . ولما أن غزا كليمنيس آخيه Achaea وهزم أراطوس ، دب الرعب فى قلوب الطبقات العليا جميعها خوفا على أملاكها، واستغاث أراطوس بمقدونية ولبى نداءه أنتجونس دوسن Antigonus Doson ؛ وهزم كليمنيس فى سلاسيا Sellsia (٢٢١) ، وأعاد النظام الألجركى فى لسديمون . وفركليمنيس إلى مصر ، وحاول دون جدوى أن يستعين ببطليموس الثالث ، كما حاول دون جدوى أن يدفع أهل الإسكندرية إلى الثورة ، فلما أخفق فى كلتا المحاولتين لم يجد بدا من الانتحار[٣٧] .

وظلت حرب الطبقات مستعرة نارها، فخرج أهل اسپارطة على حكومتهم بعد جيل واحد من حكم كليمنيس ، وأقاموا دكتاتورية ثورية ، فما كان من فلوپيمين الذى خلف أراطوس فى رياسة العصبة الآخية إلا أن غزا لكونيا ، وأعاد إليها حكم الملاك . وما كاد فلوپيمين ينصرم أجله حتى ثار الشعب مرة أخرى ، وأقام مكانه نابيس Nabis حاكما بأمره (٢٠٧) . وكان نابيس هذا سورى الموطن سامى الجنس، أخذ أسيرا فى الحرب ، وبيع عبدا فى مجالوپوليس . ولم يطلق صبرا على كفايته المقموعة فانتقم لنفسه بتنظيم ثورة بين الهيلوتين، ولما تم له الأمر منح المواطنية الاسپارطية لجميع الأحرار ، وقال للهيلوتين كونوا

أحرارا فكانوا . ولما وقف الأغنياء فى وجهه صادر أملاكهم وقطع رؤوسهم . وانتشرت أنباء أعماله هذه فى خارج اسپارطه : ووجد من أيسر الأمور أن يفتح بمعونة الطبقات الفقيرة مدائن أرجوس، ومسينيا ، والِيس ، وبعض أركاديا . وكان أينما سار يؤمم المزارع الكبرى ، ويعيد توزيع الأراضى على الأهلين ، ويلغى الديون[٣٨] . ورأت عصبة الدول الآخية أنها عاجزة عن القضاء عليه فطلبت العون من رومة . ولبى فلامنينوس طلبه ، ولكن نابيس قاومه مقاومة عنيفة أرغمت الرومان على قبول هدنة رضى بمقتضاها نابيس أن يطلق سراح الأغنياء المسجونين ، ولكنه اشترط أن يظل محتفظا لنفسه بالسلطة . وفى هذه الأثناء اغتال نابيس مغتال بتحريض عصبة الدول الإيتولية (١٩٢)[٣٩] . وبعد أربع سنين من ذلك الوقت زحف فلپومين مرة أخرى على اسپارطة ، وأعاد السلطة إلى الملاك ، وألغى أنظمة ليقورغ ، وباع ثلاثة آلاف من أتباع نابيس فى أسواق الرقيق.. وهكذا قضى على الثورة ، ولكن اسپارطة قضى عليها أيضاً ؛ نعم إن المدينة ظلت قائمة ، ولكنها لم يكن لها بعدئذ شأن فى تاريخ بلاد اليونان .

———

الفصل الخامس

سيادة رودس

انتقلت التجارة ورؤوس الأموال من بلاد اليونان القارية وأخذت تبحث لها عن ملاجئ جديدة فى جزائر بحر إيجة ، وذلك لأنها خشيت عنف الانقسامات الحزبية ، ولأن حركات السكان اجتذبتها إلى تلك الجزائر. فازدهرت ديلوس فى القرن الثانى ، وقد كانت من قبل موفورة الثراء بسبب وجود هيكل أپلوبها ؛ وأضحت ثغراً حراً تحت حماية رومة وإن كانت أثينة هى التى تصرف شئونها . وازدحمت الجزيرة الصغيرة بالتجار الأجانب ، وبمكاتب رجال الأعمال وبالقصور ، والأكواخ ، والهياكل المختلفة التى أقيمت للآلهة الأجنبية .

وبلغت رودس غاية مجدها فى القرن الثالث ، وأضحت بإجماع الآراء أجمل مدائن هلاس وأعظمها حضارة . وقد وصف استرابون الثغر الكبير بأنه « يفوق سائر الثغور فى مرافئه ، وطرقه ، وأسواره ، وما أدخل عليه من الإصلاحات ، حتى لأعجز عن القول بأن مدينة أخرى تضارعه أو تكاد تضارعه[4] » .

وكانت رودس ذات موقع طيب فى ملتقى الطرق التجارية التى تخترق البحر الأبيض المتوسط ، مكنها من أن تفيد من التجارة الآخذة فى الانتشار والتى يسرت سبلها فتوح الإسكندر ، بين أوربا ، ومصر ، وآسية ، ومن أجل هذا حلت مرافئ رودس الرحبة محل مرافئ صور وبيرية ، وأضحت المرافئ التى يعاد منها شحن البضائع ، كما أضحت مكان المقاصة التجارية والمالية والعاملة على تنظيمها فى شرق البحر . وكان لتجارها سمعة حسنة فى الأمانة . ولمصارفها وحكومتها شهرة طيبة فى الاستقرار ، وسط عالم كله خيانة وتقلقل . وأفادت

الجزيرة كثيراً من هذه السمعة الحسنة ، وكان لها عمارة بحرية قوية يسيرها ملاحون من مواطنيها ، استطاعت أن تطهر بحر إيجة من القراصنة ، وتؤمن السبل البحرية لجميع السفن التجارية لسائر الأمم على قدم المساواة ، وأن تضع قوانين صالحة للملاحة تدل على عقلية ناضجة ، رضيت بها سائر السفن التجارية ، وظلت هذه القوانين هي المسيطرة على تجارة البحر الأبيض قروناً عدة ، ثم أضحت جزءاً من القوانين التجارية لرومة والقسطنطينية والبندقية .

وبعد أن حررت رودس نفسها من سيطرة مقدونية بفضل مقاومتها الباسلة لدمتريوس پليوكريتيس (٣٠٥) ، وجهت سفينتها السياسية توجيهاً ناجحاً وسط بحر السياسة المضطرب فى ذلك العصر ، فاحتفظت بحيادها احتفاظا حكيما ولم تتورط فى الحرب إلا لتحول بين ازدياد سلطان دولة معتدية يخشى بأسها ، أو لتحفظ للبحار حريتها . وقد ضمت كثيراً من مدن بحر إيجة وألفت منها « عصبة جزرية » ، وكانت فى ممارستها حقوق السيادة عليها عادلة إلى حد لم تشك أية واحدة منها فيما لها من حق الزعامة عليها . وكانت لها حكومة ذات نظام أرستقراطى على أســاس دمقراطى ، شبيهة بحكومة رومة فى عصر الجمهورية ؛ وكانت تحكم مدائن لندس ، وكميروس Camirus ، وياليسوس Ialysus ، ورودس مجتمعة بمهارة وعدل نسبى ، ومتحف المقيمين فيها من الأجانب من الامتيازات ما لم تمنحه أثينة من هاجر إليها من الغرباء ؛ وبسطت حمايتها على عدد كبير من الأرقاء ، ولما أن تعرضوا للخطر لم تتردد فى تسليحهم للدفاع عن أنفسهم ، وفرضت على أغنياء المدينة أن يعنوا بالفقراء من أهلها[41] . وكانت الدولة تواجه نفقاتها بفرض ضريبة مقدارها اثنان فى المائة على الصادرات والواردات ؛ وكانت تقرض المال بسخاء ، ومن غير فائدة فى بعض الأحيان ، إلى المدن إذا حلت بها الأزمات .

ولما أن خرب الزلزال رودس نفسها (٢٢٥) ، هب جميع العالم اليونانى لمعونتها ، وذلك لأن اليونان على بكرة أبيهم كانوا يعتقدون أن اختفاءها من وسط بحر إيجة سيؤدى لامحالة إلى الفوضى التجارية والسياسية . فأرسل هيرون الثانى مثلا مائة وزنة ذهبية (٣٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى) ، وأعاد فى المدينة نحت طائفة من التماثيل تمثل أهل رودس يتوجهم السرقوسيون ،وأرسل بطليموس الثالث ثلثمائة وزنة(*) ، وأنتجونس الثالث ثلاثة آلاف ، ومعها مقادير كبيرة من الخشب والقار لتستخدمها فى البناء ، وتبرعت زوجته الملكة كريسيس **Chryseis** بثلاثة آلاف وزنة من الرصاص ، وبما يعادل ثمانية وعشرين أردباً من الحبوب ؛ وبعث سلوقس الثالث بضعفى هذا القدر وبعشر سفن ذات خمسة صفوف من المجاديف كاملة العدة . وأما المدن التى قدمت كل منها ما يتناسب مع قدرتها المالية فهذه يخطئها الحصر على حد قول پوليبيوس(٤٢)، لقد كانت هذه الفترة مشكاة نيرة فى دياجير التاريخ السياسى المظلمة ، وكانت فرصة من الفرص القليلة النادرة التى فكر فيها العالم اليونانى وعمل يداً واحدة .

(*) كانت الوزنة اليونانية تزن نحو ثمانية وسبعين رطلا مصريا . (المترجم)

الباب الرابع والعشرون

الهلنية والشرق

الفصل الأول

الإمبراطورية السلوقية

إذا انتقلنا من أرض اليونان الأصلية مجتازين بحر إيجة إلى المستقرات اليونانية فى آسية ومصر أذهشنا أن نجد فيها حياة جديدة مزدهرة ، وأدركنا أن العصر الهلنستى لم يشهد سقوط الحضارة اليونانية بل شهد انتشارها . ذلك أن طوائف فى إثر طوائف من الجنود والمهاجرين اليونان أخذت تتدفق على آسية ، وزادت فتوح الإسكندر من ضخامة هذه الطوائف بما أتاحت للمغامرات اليونانية من فرص وما مهدت لها من سبل جديدة .

وكان سلوقس الملقب « بنيكاتور» Nicator (المظفر) يمتاز من بين قواد الإسكندر بالشجاعة ، وقوة الخيال ، والكرم الذى لا حد له . وحسبك دليلا على هذا الكرم أنه وهب زوجته الثانية استرتنيسى Stratonice الحسناء لابنه دمتريوس لما عرف أن الغلام قد افتتن بها . وغضب أنتجونس الثانى حين جعلت بابل من نصيب سلوقس فزحف بجيوشه ليستولى على جميع بلاد الشرق الأدنى ، ولكن سلوقس وبطليموس هزماه عند غزة (٣١٢) . وكانت الأسرة السلوقية تعد هذه الحادثة مبدأ لتاريخ الإمبراطورية السلوقية والعصر الجديد ، وهى طريقة فى التاريخ بقيت فى غرب آسية إلى ظهور الإسلام . وضم سلوقس تحت لوائه عدة ممالك وثقافات قديمة هى عيلام ، وسومر ، وفارس ، وبابل ،

وأشور ، وسوريا ، وفينيقية ، وشملت آسية الصغرى وفلسطين فى بعض الأحيان ، وأنشأ فى سلوقية وأنطاكية عاصمتين للملك كانتا أعظم ثروة وأكثر سكاناً من أية مدن عرفناها فى بلاد اليونان الأصلية . واختار لسلوقية موضعا قرب موضع مدينة بابل القديمة التى شيدت فيه بغداد فيما بعد ، لايبعد إلا قليلا عن ملتقى نهر دجلة والفرات ، وكان هذا الموضع من أصلح المواضع لاجتذاب التجارة المتبادلة بين أرض الجزيرة والخليج الفارسى وما وراءه . ولم يكد يمضى عليها نصف قرن من الزمان حتى بلغ عامرها ٦٠٠,٠٠٠ نفس ، كانوا خليطا من مختلف أجناس آسية تسيطر عليهم أقلية يونانية(*) . وكان موقع أنطاكية على نهر العاصى شبيها بموقع سلوقية ، ولم تكن تبعد عن مصبه بعداً يحول دون وصول السفن المحيطية إليها ، ولكنها تبعد عنه بعداً يجعلها فى مأمن من هجوم الأساطيل المعادية ، ويمكنها من استغلال حقول وادى النهر الغنية ، ومن اجتذاب تجارة البحر الأبيض المتوسط وشمالى الجزيرة وسوريا . وفى هذه المدينة شاد الأباطرة السلوقيون المتأخرون قصورهم ، وظلت المدينة تنمو وتزدهر حتى صارت فى عهد أنتيوخوس الرابع أغنى مدائن آسية السلوقية ، تزينها المعابد والأروقة المعمدة ، ودور التمثيل ، وساحات الألعاب الرياضية ، والمدارس ، وحدائق الأزهار ، والشوارع الواسعة ذات المناظر الرائعة ، والبساتين الجميلة ومنها حديقة دفنى Daphne التى طبقت الخافقين شهرة ما بها من أشجار الغار والسرو ، والفوارات والجداول .

واغتيل سلوقس الأول فى عام ٢٨١ ، بعد أن حكم البلاد حكماً صالحا دام خمسا وثلاثين سنة كسب فيها قلوب شعبه . وأخذت دولته بعد موته فى التفكك ،

(*) وقد استخرج الأستاذ لروى وترمان Leroy Waterman من هذا الموضع فى عام ١٩٣١ ألواحا تدل على أن رجلا من أغنى رجال سلوقية قد ظل يتهرب من أداء الضرائب خمسا وعشرين سنة(١) .

تمزقها الاختلافات الجغرافية والعنصرية ، والتنازع العنيف على العرش ، وغارات البرابرة من كل صوب . واستبسل أنتيوخوس الأول سوتر Soter (المنقذ) فى حرب الغاليين ؛ وعاش أنتيوخوس الثانى ثيوس (الإله) ، عيشة الإدمان المستمر ، كأنه أراد أن يثبت مرة أخرى ما تتعرض له البلاد ذات الحكومات الملكية المطلقة من خطر شديد ، وبدأت زوجته لأوديسى Laodice سلسلة الدسائس والمؤامرات التى مزقت البيت المالك شر ممزق وقضت عليه فى آخر الأمر . وكان أنتيوخوس الثالث الأكبر رجلا عظيم الكفاية ، حسن الثقافة ؛ ويظهره تمثاله النصفى المحفوظ فى متحف اللوفر رجلا يونانيا — مقدونيا جمع إلى شجاعة المقدونيين ذكاء اليونان . وقد استعاد بحروبه الطويلة معظم الأقاليم التى فقدتها الإمبراطورية من أيام سلوقس الأول ، وأنشأ مكتبة فى أنطاكية وناصر الحركة الأدبية التى بلغت ذروتها على يدى مليجر الغزى Meleager of Gaza فى أواخر القرن الثانى . وحافظ هذا العاهل على العادة اليونانية ، عادة استقلال المدن بشئونها ، وكتب إليها يقول إنه « إذا أمر بشىء يخالف القوانين ، فعليها ألا تعير أمره التفاتا ، بل يجب أن تفترض أنه فعل ما فعل عن جهل[٢] » . ولكنه قضت عليه المطامع المفرطة ، والخيال القوى ، والعشق العنيف . وهزمه بطليموس الرابع عند رافيا Raphia فى عام ٢١٧ ، وضاعت منه فينيقية ، وسوريا ، وفلسطين . وخفف من وقع هذه الهزيمة وأعقابها حملته المظفرة إلى بكتريا والهند (٢٠٨) ، وهى الحملة التى جددت أعمال الإسكندر . وأغراه هنيبال بأن يساعده على رومة فأرسل جيشا إلى عوبية ؛ وهام وهو فى سن الخمسين بحب فتاة حسناء فى خلقيس . وأخذ يغازلها غزلا شريفا ، ثم تزوجها باحتفال عظيم ، ونسى الحرب وقضى فصل الشتاء يستمتع معها بالسعادة[٣] . وهزمه الرومان فى ترمپيلى ، وطردوه إلى آسية الصغرى ، وهجموا عليه هجوما عنيفاً فى مجنيزيا . ولم تطاوعه

نفسه على السكون فتورط فى حرب أخرى فى بلاد الشرق مات فى أثنائها بعد أن حكم ستة وثلاثين عاماً .

وكان ابنه سلوقس الرابع ميالا للسلم ، صرف شئون الدولة بالاقتصاد والحكمة ، واغتيل فى عام ١٧٥ ق . م وكان أصغر ابنيه فى ذلك الوقت أركونا فى أثينة ، حيث ذهب ليدرس الفلسفة . فلما سمع بموت سلوقس ، جمع جيشا زحف به على أنطاكية ، وخلع قاتل أبيه ، واعتلى العرش . وكان أنتيوخوس الرابع أجدر أفراد هذه الأسرة بالاهتمام وأكثرهم أخطاء ، ذلك أنه كان مزيجا نادرا من الذكاء والجنون ، والجاذبية ، وقد حكم مملكته حكما حازما رغم ما ارتكبه من مئات المظالم والسخافات . فقد أجاز لعماله أن يسيئوا استخدام سلطتهم ، وأطلق يد عشيقته فى ثلاث مدن ؛ وكان كريما وقاسيا لايعتمد فى أحكامه على عقل ، يحكم ويصفح عن هوى ، ويفاجئ البسطاء من أفراد الشعب ، بالهدايا القيمة ، ويلقى بالنقود على رؤوس الجماهير فى الشوارع كما يفعل الأطفال المنتشون . وكان يحب الخمر والنساء والفنون ؛ يفرط فى الشراب ، ويقوم من مجلسه فى الولائم ليرقص عاريا مع أضيافه ، أو يتعاطى نفايات الطعام والشراب . وكان رجلا إباحيا شاءت الأقدار أن تحقق له ماكان يحلم به من سلطان . كان يحتقر وقار البلاط وزخارفه ، ويمزح مزاحاً عملياً مع كبار رجال الدولة ، ويتخفى ليستمتع بما يهيئه التخفى من الترف . وكان يسره أن يختلط بأفراد الشعب ليتعرف مايقولونه عن الملك ، وأن يتجول فى أماكن الفنانين ليدرس أعمال الحفارين والصياغ ويناقشهم فى التفاصيل الفنية لصناعتهم . وكان يشعر بحماسة صادقة للآداب والفنون والأفكار اليونانية . وبفضله ظلت أنطاكية مائة عام كاملة مركز الفنون فى العالم اليونانى ؛ وكان يجود بالمال بسخاء على الفنانين لينحتوا التماثيل ويشيدوا المعابد فى غير أنطاكية من مدن هلاس ، فأعاد تزيين ضريح أپلو فى ديلوس ، وشاد دار تمثيل لتيجيا ، وتبرع بالأموال اللازمة لإتمام الأولمپيوم فى أثينة . وإذ كان

قد قضى فى رومة أربعة عشر عاما وهو فى سن يكون فيها المرء سريع التأثر بما حوله ، فقد تشرب فيها بحب الأنظمة الجمهورية ؛ وكأنما أراد أن يستبق عهد أغسطس ، فكان يسره ويوائم مزاجه وسياسته أن يخلع على سلطته الملكية المطلقة ستاراً من الحرية الجمهورية . وكان أهم آثار هيامه بكل ما هو رومانى أن أدخل ألعاب المجالدين فى أنطاكية عاصمة ملكه . واستاء الشعب من هذه الألعاب الوحشية ، ولكن أنتيوخوس استرضاه بما أقام له من الاستعراضات الفخمة الرائعة وما أنفق عليها من أموال طائلة ؛ فلما أن ألف الشعب مظاهر التقتيل عد انحطاطه هذا نصراً له . وكان من مميزاته أنه بدأ حياته رواقيا شديد التحمس للرواقية ، ثم اختتمها بعد أن تحول فى غير عناء إلى الأبيقورية . وكان يستمتع بصفاته هذه استمتاعا بلغ من قدره أن نقش على النقود التى ضربت فى أيامه «أنتيوخوس الإله البيّن Antiochus Theos Epiphanes» .
ولما أن عدا طوره كما يفعل أمثاله من ذوى الخيال ، حاول فى عام ١٦٩ أن يفتح مصر . وكاد يتم له ما أراد لولا أن أمرته رومة ، وكانت هى الأخرى تتطلع إلى الاستيلاء على مصر ، أن ينسحب من أرض إفريقية بأجمعها . وطلب أنتيوخوس أن يتاح له بعض الوقت ليفكر فى أمره ، ولكن پوبليوس رسول رومة رسم فى الرمل دائرة حول أنتيوخوس وأمره أن يقطع برأى قبل أن يجتاز محيطها . فاستسلم وهو غاضب ثائر ، ونهب هيكل أورشليم ليسترد ما أنفق فى حملته من الأموال ، طلب المجد كما طلبه أبوه من قبل فى شن الحرب على القبائل الشرقية ، ومات فى فارس وهو فى طريقه إلى هذه القبائل من الصرع والجنون والمرض(٥) .

الفصل الثاني

الحضارة السلوقية

لقد كانت مهمة الدولة السلوقية فى التاريخ أن تهب الشرق الأدنى الاستقرار الاقتصادى والنظام السياسى ، اللذين وهبتهما إياه فارس قبل الإسكندر ، واللذين أعادتهما إليه رومة بعد قيصر . ولقد أدت فى واقع الأمر هذه المهمة رغم ما ينتاب أحوال البشر من حروب وثورات ونهب وفساد . ذلك أن الفتوح المقدونية قد حطمت ما أقامته الحكومات واللغات من حواجز بين الأمم ، ودعت الشرق والغرب إلى تبادل المصالح التجارية تبادلا أتم مما كان بينهما من قبل ؛ وكانت نتيجة هذا أن بعثت الحياة فى بلاد آسية اليونانية بعثا باهرا جديداً . فبينا كان الانقسام والنزاع وجدب التربة وتحول الطرق التجارية يقضى على بلاد اليونان الأصلية ، كانت الوحدة والسلم اللتان احتفظ بهما الأباطرة السلوقيون ذواتى أثر عظيم فى تشجيع الزراعة والتجارة والصناعة . ولم تعد مدن آسية اليونانية حرة فى إشعال نار الثورات أو التجارب فى أساليب الحكم ، بل أرغمها الملوك على أن تأتلف ، حتى أصبح الائتلاف إلها يعبد فى هذه المدن[6] ، وكانت نتيجة هذا أن ازدهرت من جديد مدن قديمة مثل ميليطس ، وإفسوس ، وأزمير .

وكانت أودية دجلة والفرات ، والأردن ، والعاصى ، ومِيندر ، وهاليس ، وجيحون خصبة إلى حد لا يستطيع خيالنا أن يتصوره الآن لما يثقله من مناظر الصحارى ، والقفار الصخرية التى تغطى أصقاعا واسعة من بلاد الشرق الأدنى بعد أن ظلت ألفى عام كاملة معرضة لعوامل التعرية ، ولتقطيع الغابات وإهمال الأهلين حرثها وزرعها[7] . وكانت الأرض فى أيام تلك الإمبراطورية ترويها

شبكة من القنوات تشرف عليها الدولة وتعنى بأمرها . وكانت وقتئذ ملكا للملوك أو النبلاء من رجال حاشيته ، أو للمدن ، أوالهياكل ، أو الأفراد . وكان الأقنان هم الذين يزرعونها فى جميع هذه الأحوال وينتقلون معها إذا ما أورثت أو بيعت . وكانت الحكومة تعد كل ما تحتويه الأرض من ثروة ملكا قوميا(٨) ، لكنها قلما كانت تعنى باستغلالها . وقد بلغت الحرف وقتئذ ، والمدن نفسها ، درجة عظيمة من التخصص ؛ فكانت ميليطس مثلا مركزا هاما لصناعة النسيج ، وكانت أنطاكية تستورد المواد الغفل وتحيلها إلى بضائع مصنوعة ، وبلغت بعض المصانع الكبرى التى تستخدم العبيد درجة لا بأس بها من الإنتاج الكبير ترسله للأسواق العامة(٩) . ولكن الاستهلاك المحلى لم يجار الإنتاج ، لأن فقر الأهلين لم يساعد على قيام أسواق محلية كبيرة تشجع الصناعات الكبرى .

وكانت التجارة حياة الاقتصاد الهلنستى ، فهى التى أوجدت الثروات الكبرى ، وشادت المدن العظيمة ، واستخدمت نسبة متزايدة من السكان الآخذين فى الازدياد . وحل التعامل بالنقد فى ذلك الوقت محل المقايضة التى ظلت أربعة قرون وسيلة للتعامل لم تقض عليها نقود كروسس . لكنها وقتئذ كادت تختفى اختفاء تاما من تلك البلاد ؛ فقد أصدرت مصر ، ورودس ، وسلوقية ، وبرجموم ، وغيرها من الحكومات نقودا بلغت من الاستقرار والتشابه حدا يكفى لتيسير التجارة الدولية . وكانت المصارف تيسر وسائل الائتمان الفردى والعام . وكانت السفن كبيرة تتراوح سرعتها بين أربعة أميال بحرية وستة أميال فى الساعة ، وكان لها فضل تقصير المسافات بعد أن استطاعت السير فى عرض البحار . وفى البر عنى السلوقيون بالطرق الكبرى التى ورثتها بلاد الشرق عن فارس ، وأكثروا منها ، وزادوا فى أطوالها . وكانت طرق القوافل الممتدة من أطراف آسية الصغرى تلتقى فى سلوقية ثم تتفرع منها إلى دمشق ، وبريتس (بيروت) وأنطاكية . وأثرت سلوقية من هذه التجارة الواسعة ،

وعملت على إنمائها ، فقامت أحياء غاصة بالسكان فيها وفى بابل : وصور ، وطرسوس ، وزانثوس ، ورودس ، وهليكرنسس ، ومِيليطس ، وإفسوس ، وأزمير ، وبرجموم ، وبيزنطية ، وسزيكوس Cyzicus ، وأپاميا Apamea ، وهرقلية ، وأمسوس Amisus ، وسينوب ، وبنتيكپيوم Banticapaeum ، وألبينا Albia ، ولسماكيا Lysimacheia ، وأبيدوس ، وثسلونيكا (سلونيكا) ، وخلقيس ، وديلوس ، وكورنثة ، وأمبراشيا Ambracia ، وإبدامنوس Epidamnus (درازو الحالية) ، وتراس ، ونيپوليس Neapolis (نابلى) وروما ، ومساليا ، وإمپوريوم Emporium ، وبنورموس Banormus (پالرمو) ، وسرقوسة ، ويوتيكا Utica ، وقرطاجة ، وقوريني Cyrene والإسكندرية . وكانت شبكة ناشطة من طرق التجارة تربط أسبانيا فى عهد قرطاجة بروما ؛ وقرطاجة فى أيام هملكار وسرقوسة فى عهد هيرون الثانى بروما أيام آل سپيو ؛ ومقدونية فى عهد الأنتجونيين ، وبلاد اليونان فى عهد العصب المتحالفة ، ومصر فى عهد البطالمة ، والشرق الأدنى فى عهد السلوقيين ، والهند فى عهد آل موريا Maurya والصين فى عهد أسرة هان . وكانت الطرق الآتية من بلاد الصين تخترق التركستان ، وبكتريا ، وفارس ، أو تجتاز بحر أرال والبحر الأسود وبحر قزوين . أما الطرق الآتية من الهند فكانت تجتاز أفغانستان وفارس إلى سلوقية أو تخترق بلاد العرب والبتراء إلى أورشليم ودمشق ، أو تعبر المحيط الهندى إلى أدانا (عدن) ثم تجتاز البحر الأحمر إلى أرستوى (السويس الحالية) ، ومنها إلى الإسكندرية . ومن أجل الإشراف على هذين الطريقين الآخرين اشتبك السلوقيون والبطالمة فى « الحروب السورية » التى أضعفتهما جميعاً آخر الأمر ضعفاً أخضعهما إلى روما .

وورثت المملكة السلوقية التقاليد الأسيوية فكانت ملكية مطلقة ، لا تحد من سلطتها جمعية شعبية . وقد نظم بلاط الملك على الطراز الشرقى فكان فيه

رجال التشريفات ذوو الملابس المزركشة ، والخصيان ، والحلل الرسمية ، والبخور والموسيقى ؛ ولم يبق فيه شيء يونانى عدا الكلام والملابس الداخلية . ولم يكن الأشراف فيها زعماء شبه مستقلين كما كانت الحال فى مقدونية وفى أوربا فى العصور الوسطى ، بل كانوا موظفين إداريين أوعسكريين يعينهم الملوك . وهذا النظام الملكى هو الذى انتقل من بلاد الفرس عن طريق السلوقيين والساسانيين إلى رومة فى عهد دقلديانوس ، وبيزنطية فى عهد قسطنطين . وكان السلوقيون يعرفون أن سلطانهم فى هذا المحيط الأجنبى إنما يعتمد على ولاء السكان اليونان ، ولهذا بذلوا كل ما يستطيعون من جهد لإعادة المدن اليونانية القديمة وإنشاء مدن أخرى جديدة ؛ فأنشأ سلوقس الأول تسع مدن باسم سلوقية وستاً باسم أنطاكية وخمساً باسم لأودِسيا ، وثلاثاً باسم أپاميا ، وواحدة باسم استرتونيس Stratonice ، وحذا خلفاؤه حذوه بقدرما وسعته جهودهم التى كانت أقل من جهوده . ونمت هذه المدن وتضاعف عددها كما حدث فى أمريكا فى القرن التاسع عشر.

وعن طريقهم أخذ غربى آسية يصطبغ بالصبغة اليونانية بخطى سريعة فى ظاهر الأمر . ولا حاجة إلى القول بأن هذه العملية كانت قديمة العهد ، فقد بدأت فى أيام الهجرة الكبرى ، وكان الانتشار الهلنستى من بعض نواحيه هو نهضة أيونيا من جديد وعودة الحضارة اليونانية إلى مواطنها الأسيوية القديمة ، ولقد كان اليونان حتى قبل الإسكندر يشغلون مناصب رفيعة فى الإمبراطورية الفارسية ، كما كان التجار اليونان يسيطرون على المسالك التجارية فى الشرق الأدنى القريب . أما الآن فإن الفرص السياسية والتجارية والفنية قد اجتذبت سيلا جارفاً من المهاجرين المغامرين ، والمستعمرين والكتبة ، والجند والتجار ، والأطباء ، والعلماء ، والسرارى . وكان المثالون والحفارون اليونان ينحتون التماثيل وينقشون النقود لملوك فينيقية ، وليشيا ، وكاريا ، وصقلية ، وبكتريا.

وهرعت الراقصات اليونانيات إلى الثغور الأسيوية[١٠] ، وغشى القباد الخلق الجنسى ستار يونانى ظريف ، وأثارت مدارس الألعاب الرياضية اليونانية وساحاتها فى بعض الشرقيين شغفاً لم يألفوه من قبل بالألعاب والحمامات. فأنشأت المدن طرقاً جديدة تمدها بالماء ونظماً جديدة لصرف الأقذار ، ورصفت الطرق ونظفت . ونشطت المدارس ، ودور الكتب ، والتمثيل والقراءة والأدب ؛ وكان طلاب العلم فى الكليات والجامعات يطوفون بشوارع المدن يحاجج بعضهم بعضاً ، أو يحاجون الناس كما كانوا يفعلون فى العهد القديم ؛ ولم يكن أحد يحسب من المثقفين إلا إذا كان يفهم اللغة اليونانية ، ويستطيع الاستمتاع بمسرحيات مناندر ، ويوربديز . وكانت سيطرة الحضارة اليونانية على بلاد الشرق الأدنى من أغرب الظواهر فى التاريخ القديم ؛ ولم تر آسية من قبل مثل هذا التبديل السريع الواسع المدى . غير أننا لانعرف من تفاصيله وآثاره إلا النزر اليسير ؛ ذلك أن ما وصلنا من المعلومات عن آداب آسية السلوقية ، وفلسفتها ، وعلومها جد ضئيل ، وإذا لم نجد فيه إلا عددا قليلا من الشخصيات الجبارة أمثال زينون الرواقى ، وسلوقس الفلكى ، وفى العهد الرومانى مليجر الشاعر ، وبسيديس الذى كان يلم بكثير من العلوم المختلفة ، إذا لم نجد إلا هذا العدد القليل فإنا لانستطيع أن نجزم أنه لم يكن هناك كثيرون غيرهم . والحق أن هذه الثقافة كانت ثقافة مزدهرة ، ذات ألوان متعددة ، رقيقة مهذبة ، متحمسة ، لا تقل خصباً فى الفنون عن أية ثقافة سبقتها . ومبلغ علمنا أنه لم توجد قبلها ثقافة تضارعها فى سعة انتشارها وفى وحدتها المعقدة بين ماكان يحيط بها من بيئات متباينة . وقصارى القول أن غرب آسية ظل مدى قرن من الزمان تابعاً لأوربا ، وأن السبيل قد مهدت للسلام الرومانى والتآلف المسيحى الجامع الشامل .

ولكن هذا لايعنى أن الشرق قد غلب على أمره ، فقد كانت خصائصه متأصلة فيه قديمة العهد ، ولم يكن من اليسير أن يسلم روحه إلى الغرب أياً كانت

قوته . لهذا ظلت جمهرة الناس تتخاطب بلغاتها الوطنية ، وتجرى على سنتها وأساليبها المألوفة من قديم الزمان ، وتعبد الآلهة التى كان يعبدها آباؤها وأجدادها ، وكان الغشاء اليونانى الذى يغشى البلاد البعيدة عن شواطئ البحر الأبيض المتوسط رقيقاً ، وكانت المراكز الهلينية القائمة فى هذه الأصقاع أمثال سلوقية على نهر دجلة جزائر يونانية فى البحر الشرقى . ولم تمتزج فى هذه الأصقاع الأجناس والثقافات الامتزاج الذى كان يحلم به الإسكندر ؛ بل كان من فوق سطحه يونان وحضارة يونانية ، من تحتهما خليط من الشعوب والثقافات الشرقية ، ولم تدخل الصفات الذهنية اليونانية فى العقل الشرقى ؛ ولم تحدث ما امتاز به اليونان من نشاط وحب للجديد ، وحرص على الشئون الدنيوية ، ورغبة شديدة فى الكمال ، والتعبير عن الذات والنزعة الفردية القوية ، لم يحدث هذا كله تغيراً ما فى أخلاق الشرقيين . بل حدث عكس هذا ، حدث على مر الأيام أن جاشت أساليب التفكير والإحساس الشرقية من أسفل وغمرت الطبقة اليونانية الحاكمة ، ثم نقلها هؤلاء إلى الغرب فكانت هى التى بدلت العالم « الوثنى » . ففى بابل استعاد التاجر السامى ومصرِّفو الهيكل الصابران سيطرتهما على الهلنى المتقلب الفرّار ، فاحتفظا بالكتابة المسمارية ، وأنزلت اللغة اليونانية إلى المكانة الثانية فى عالم الأعمال ؛ وأفسد التنجيم ، والكيمياء الكاذبة ، فلك اليونان وعلومهم الطبيعية ، وأثبتت الملكية المطلقة الشرقية أنها أقوى من الدمقراطية اليونانية ، وانتهى الأمر بأن فرضت صورتها على الغرب نفسه ، فأصبح الملوك اليونان والأباطرة الرومان آلهة كما كانوا فى بلاد الشرق ، وانتقلت نظرية حق الملوك المقدس التى كانت تسود بلاد الشرق إلى أوربا الحديثة عن طريق رومة والقسطنطينية .

وبث الشرق عن طريق زينون نزعته التجريدية والجبرية فى الفلسفة اليونانية ، كما سرى تصوفه وتقواه من مئات السبل إلى الفراغ الذى تركه تدهور

الدين اليونانى السليم . وسرعان ما قبل اليونان آلهة الشرق ورأوا أنهم فى جوهرهم آلهتهم هم ؛ ولكن اليونانى لم يكن فى واقع الأمر يؤمن بالآلهة كما كان يؤمن بها الشرق ، ولهذا بقى الإله الشرقى ومات الإله اليونانى ، فعادت أرتميس الإفيزية كما كانت إلهة شرقية للأمومة ، ذات اثنى عشر ثديا ،واستسلم عدد عظيم من غزاة اليونان للطقوس الدينية البابلية ، والفينيقية ، والسورية . وقصارى القول أن اليونان عرضوا على الشرق الفلسفة ،وأن الشرق عرض على اليونان الدين ، كانت الغلبة للدين ، لأن الفلسفة كانت ترفا يقدم للأقلية الضئيلة ، أما الدين فكان سلوى للكثيرين . واستعاد الدين سلطانه فى هذا التبادل التاريخى المضطرب بين الإيمان والكفر ، والنزعة التصوفية والنزعة الطبيعية ، والدين والعلم ؛ وذلك لأن الدين أدرك ما ينطوى عليه الإنسان من ضعف وعزلة ، وبعث فيه الإلهام والشعر . وقد سر العالم الذى زالت عن أعينه غشاوة الخداع ، العالم المستقل ، الذى سئم الحروب ، سر هذا العالم أن يعود إليه الإيمان والأمل . وكانت أعمق فتوح الإسكندر أثراً نتيجة أبعد ما تكون عن العقول ، ألا وهى اصطباغ الروح الأوروبية بالصبغة الشرقية .

الفصل الثالث

برجـــوم

لقد كان امتصاص آسية لليونان امتصاصا تدريجيا سيئاً في ضعف قوة الدولة السلوقية ، ونشأة ممالك مستقلة على أطراف العالم الملكستي . فقد أقامت منذ عام ٢٨٠ بلاد أرمينية ، وكبدوكيا وتيقس ، وبيثينيا ممالك مطلقة مستقلة ؛ ولم تلبث المدن اليونانية القائمة على شواطئ البحر الأسود أن خضعت لحكم الأسيويين . وانفصلت بكتريا وسجديانا من حكم السلوقيين حوالى عام ٢٥٠ ؛ وفي عام ٢٤٧ اغتال أرسسيزعيم البارثي Parni — وهي قبيلة إيرانية بدوية — حاكم بلاد الفرس السلوقي ، وأنشأ مملكة پارثيا التي قدر لها أن تنازع رومة سلطانها عدة قرون ؛ وفي عام ٢٨٢ استولى فلاتيروس Philataerus على تسعة آلاف وزنة من المال ، وكان لسمخوس Lysemachus قد ائتمنه عليها ، كما استولى على تل برجموم الحصين في آسية وأعلن استقلاله عن الدولة السلوقية . وضم ابن أخيه أمنيز الأول Eumenes الأول إلى ملكة پيتانى Pitane وأترنيوس Atarneus . وجعل برجموم مملكة مطلقة مستقلة ذات سيادة (٢٦٢) . وكان لأتلوس الأول Attalus فضل كبير على آسية اليونانية لأنه صد عنها الغاليين الذين اخترقوا هذه الأصقاع حتى وصلوا إلى أسوار مدينته (٢٣٠) ؛ وواصل أمنيز الثاني أكبر أبنائه حكم أبيه الحازم ، ولكنه أثار دهشة اليونان بأن استغاث برومة لتحميه من أنتيوخوس الثالث ؛ وبعد أن هزم بمعونتها أنتيوخوس عند مجنيزيا ترك له الرومان جميع بلاد آسية الصغرى تقريبا ، وخلفه على العرش أخوه أتلوس الثاني ، وكان يرتاب في مقدرة أبنائه على أن يحتفظوا بحرية برجموم ، فأوصى بملكه وهو على فراش الموت (١٣٩) إلى رومة .

وبذلت الدولة الصغيرة كل ما فى وسعها لتكفر عما أحاط بمولدها ونشأتها من غدر وخيانة ، فأخذت تنافس الإسكندرية بوصفها مركزاً للعلم والفن ، فلم تنفق كل ما عاد عليها من خيرات المناجم ، والكروم ، وحقول الغلال ، ومن نسيج الصوف وصناعة رقائق الجلد والعطور ، والآجر والقرميد ، ومن سيطرتها على تجارة بحر إيجة ، نقول إنها لم تنفق كل ما عاد عليها من هذا فى إنشاء جيش وأسطول قويين بل أنفقت جانبا كبيراً منه فى تشجيع الأدب والفن ، ذلك أن ملوك برجموم كانوا يؤمنون بأن الحكم والأعمال التجارية والمالية الخاصة تستطيعان أن تتنافسا تنافساً يؤتى خير الثمرات ، وأن تقضيا على كثير من أسباب العجز والشره . فقد كان الملك يستخدم العبيد فى زرع مساحات واسعة من الأرضين ، ويدير كثيراً من المصانع ، والمحاجر والمناجم ، وإن لم يكن ذلك بطريق الاحتكار . وبهذه الطريقة الفذة ازدادت الثروة وتضاعفت ، وأضحت برجموم حاضرة مزخرفة ، اشتهرت بمذبح زيوس ، وبقصورها الفخمة ، وبمكتبتها الجامعة ، ودار تمثيلها العظيمة ، وربما كان فيها من ساحات رياضية وحمامات ، بل إن ما كان فيها من دورات مياه عامة ليشهد بفضل إدارتها البلدية[١١] . ولم تكن مكتبتها الجامعة يفوقها فى عدد مجلداتها ، وفى شهرة علمائها الواسعة إلا مكتبة الإسكندرية وحدها ، وكان معرض صورها يحتوى على مجموعة عظيمة من الرسوم الملونة يتردد عليها الزائرون ليستمتعوا بجمالها . وظلت برجموم خمسين عاما أنضر زهرة فى الحضارة الهلينية .

وكان بيت سلوقس فى هذه الأثناء آخذاً فى الاضمحلال والفناء . ذلك أن قيام الممالك المستقلة فى أنحاء الإمبراطورية السلوقية كان يقصر سلطان الملوك السلوقيين على سوريا وبلاد الجزيرة . وأخذت بارثيا وبرجموم ، ومصر ، ورومة تعمل جاهدة فى صبر وأناة لإضعاف هذه الأسرة ، يساعدها على هذا

المدعون الذين كانوا يطالبون بعرش البلاد كلما انتقل هذا العرش من ملك إلى ملك، كما تساعدها الجزازات والانشقاق والحرب الأهلية . وبينما كان دمتريوس الأول يعيد القوة والنشاط للحكومة السلوقية ، إذ جيشت رومة فى عام ١٥٣ جيشاً من مرتزقة الجند جاءت بهم من كافة الأنحاء لتأييد مغامر من أهل أزمير فى مطالبته الباطلة بعرش البلاد . وانضمت برجموم ومصر فى الهجوم على دمتريوس ، فقاوم هذا الملك جيوش أعدائه مقاومة الأبطال ، وخر صريعاً فى ميدان القتال ، وآلت سلطة السلوقيين إلى يدى رجل حقير خامل يدعى ألكسندر بالاس Alexander Balas ، كان ألعوبة فى أيدى عشيقاته ورومة .

الفصل الرابع

الهلنية واليهود

يدور تاريخ بلاد اليهود فى العصر الهلنسىّ حول نزاعين : الكفاح الخارجى بين آسية السلوقية ومصر البطالمة للاستيلاء على فلسطين ، والكفاح الداخلى بين أساليب الحياة الهلنية والعبرية . فأما الكفاح الأول فهو تاريخ ميت ، وفى وسعنا أن نفرغ منه فى عبارات موجزة ، وأما الكفاح الثانى فهو فى اعتقاد ماثيوآرنلد Mathew Arnold أحد الانشقاقات الخالدة التى طرأت على الأفكار والمشاعر البشرية . وكانت بلاد اليهود (أى فلسطين الواقعة جنوب السامرة) فى التقسيم الأول لإمبراطورية الإسكندر من نصيب بطليموس ؛ ولكن السلوقيين لم يقبلوا قط هذا التقسيم لأنهم وجدوا أنفسهم بمقتضاه منفصلين عن البحر الأبيض المتوسط ، ولأنهم كانوا يطمعون فيما قد يعود عليهم من ثراء بسبب التجارة المارة بدمشق وأورشليم . وانتصر بطليموس فى الحروب التى ثارت بسبب هذا النزاع ، واستولى على بلاد اليهود وظلت خاضعة لسلطان البطالمة أكثر من مائة عام (٣١٨ — ١٩٨) ، كانت تؤدى فى خلالها جزية سنوية مقدارها ثمانية آلاف وزنة ، ولكنها ازدهرت وعمها الرخاء رغم هذا العبء الثقيل . وقد ترك البطالمة لبلاد اليهود قسطا كبيرا من الحكم الذاتى ، تحت سلطان كاهن أورشليم الأكبر والجمعية الوطنية الكبرى . وأضحت الجروسيا أو مجلس الكبار ، التى أنشأها عزرا ونحميا قبل ذلك العهد بمائتى عام ، مجلس شيوخ ومحكمة عليا فى وقت واحد . وكان أعضاؤها السبعون أو الأكثر من السبعين يختارون من بين رؤساء الأسر الشهيرة فى البلاد ، ومن بين أكبر رجال العلم (السفريم Soferim) . وقد ظلت قرارات هذه الجمعية المعروفة

باسم « الدبرسفريم Dibre Soferim » أساس الدين اليهودى العام من العصر المكتبى إلى العصر الحديث .

وكان أساس اليهودية هو الدين : كما كانت فكرة وجود إله قادر تسيطر على كل ناحية من نواحى الحياة اليهودية وكل لحظة من لحظاتها . وكان مجلس الكبراء يفرض القوانين الأخلاقية والآداب الاجتماعية بجميع دقائقها . ويشرف على تنفيذها إشرافا تاما . وكانت أسباب اللهو والتسلية والألعاب قليلة محدودة ، وكان الزواج بغير اليهود محرما ، وكذلك العزوبة وقتل الأطفال . ومن ثم كان اليهود يلدون كثيراً ويربون جميع أبنائهم ، وظلوا طوال العصور القديمة يتكاثرون رغم الحروب والمجاعات حتى بلغ عددهم فى الإمبراطورية الرومانية أيام قيصر سبعة ملايين . وكان معظم السكان قبل العهد المقدونى يشتغلون بالزراعة ، لأن اليهود لم يكونوا قد أصبحوا بعض أمة من التجار . وقد كتب عنهم يوسفوس Josephus فى ذلك العهد المتأخر ، وهو القرن الأول بعد الميلاد ، يقول : « لسنا شعباً تجاريا[١٣] » . أما الشعوب التجارية العظيمة فى ذلك العصر فهى الفينيقيون والعرب واليونان . وكان الرق موجودا فى بلاد اليهود كما كان فى غيره من الأقطار ، غير أن حرب الطبقات كانت هادئة نسبياً . ولم يكن للفنون عندهم شأن عدا الموسيقى فقد كانت راقية مزدهرة . وكان الناى والطبل ، والصنوج و « قرن الكبش » أو البوق ، والقيثارة ، تستخدم مصاحبة للصوت الواحد ، أو للأغانى الشعبية ، أو الترانيم الدينية . وكان الدين اليهودى يعيب على الطقوس اليونانية استرسالها فى الخضوع لخيال الشعب ويزدريها لهذا السبب ؛ وكانت الصلة مقطوعة بينه وبين الصور ، والنبوءات ، ومعرفة الغيب بالنظر فى أحشاء الطير ؛ وكان أقل تجسيدا ، وتخريفاً ، وأقل بهجة ومرحا من دين اليونان . وكان الربانيون يواجهون طقوس الشرك الملنية بإنشاد هذه النغمة التى لاتزال تتردد حتى اليوم فى كل كنيس يهودى : « استمعى يا إسرائيل : الرب إلهنا ، الرب واحد » .

وأدخل الغزاة اليونان فى هذه الحياة البسيطة المتزمتة كل ما فى الحضارة المهذبة الأبيقورية من أسباب اللهو والغواية . وقد كان يحيط ببلاد اليهود حلقة من المستقرات والمدن اليونانية : السامرة ، ونيوبوليس ، وغزة، وعسقلان ، وأزوتس Azotus (أشرود) وجبا Joppa (يافا) ، وأپولونيا Appollonia ، ودوريس Dorisa ، وسكيناSycamina ، وپوليس Polis (حيفا) وأكو (عكا). وكان على الضفة الأخرى من نهر الأردن عصبة من عشر مدن يونانية : هى دمشق ، وجدارا Gadara ، وجراسا Gerasa ، وديوم Dium ، وفلدلفيا ، وپلا Pella ، ورافيا Raphia ، وهپو Hippo ، واسكيثو پوليس Scythopolis ، وكنيثا Canetha. وكانت تقوم فى كل واحدة من هذه المدن نظم ومؤسسات يونانية وهياكل للآلهة والإلهات اليونانية ، ومدارس ، ومجامع علمية ، ومدارس وساحات للألعاب الرياضية ، وألعاب يشترك فيها الناس وهم عراة .وأقبل على أورشليم من هذه المدن ومن الإسكندرية ، وأنطاكية ، وديلوس ، ورودس يونان ويهود يحملون العدوى الهلينية ، عدوى التبحر فى العلم والفلسفة ، والفن ، والأدب ، والاستمتاع بالجمال واللذة ، والغناء ، والرقص ، والشراب ، والطعام ، والألعاب الرياضية ، والعشيقات ، والغلمان ؛ فضلا عن السفسطة المرحة ، التى ترتاب فى جميع القوانين الأخلاقية ، والتشكك الذى قضى على كل عقيدة فى خوارق الطبيعة . وهل يستطيع الشاب اليهودى أن يقاوم هـذه المغريات ، التى تدعوه إلى الاستمتاع باللذة وإلى التحرر من آلاف القيود الضيقة الثقيلة ؟ لقد بدأ الشبان اليهود الفكهون يسخرون من الكهنة ويصفونهم بأنهم طلاب مال ، كما يصفون الأتقياء من أتباعهم بأنهم حمقى ، ينحدرون إلى الشيخوخة من غير أن يعرفوا الملاذ والترف ومباهج الحياة . وانضم إليهم فى هذا أغنياء اليهود ، لأنهم كانوا يستطيعون أن يستجيبوا لداعى الغواية . وأحس اليهود الذين كانوا يطلبون المناصب من الموظفين اليونان بأن من

حسن السياسة أن يتكلموا اللغة اليونانية ، ولأن يعيشوا كما يعيش اليونان ، بل أن يقولوا بضع كلمات طيبة فى حق الآلهة اليونانية .

وكانت ثلاث قوى تحمى اليهود من هذا الهجوم القوى على عقلهم وحواسهم : هى ماوقع عليهم من الاضطهاد أيام أنتيوخوس الرابع ، وحماية رومة ، وسلطان القانون وهيبته لأنه كان فى اعتقاد اليهود وحيا منزلا من عند الله . وتجمع الأتقياء من اليهود ، كما تتجمع الكرات البيضاء فى الدم لحماية الجسم من جراثيم الأمراض ، وألفوا هيئة من الصفوة المختارة أطلقوا عليها اسم « المتقين » . وبدأت هذه الجماعة (حوالى عام ٣٠٠ ق . م) بعهد بسيط قيدوا به أنفسهم أن يمتنعوا عن شرب الخمر زمنا معينا ، ثم ذهبوا فيما بعد مدفوعين بسيكولوجية الحرب المحتومة إلى أبعد حدود التزمت ، فحرموا جميع الملاذ وعدوها استسلاما للشيطان واليونان . وعجب منهم اليونان أشد العجب وضموهم إلى زمرة الفلاسفة الزاهدين العرايا العجيبين الذين التقت بهم جيوش الإسكندر فى بلاد الهند . وحتى اليهودى العادى نفسه كان يعارض فى تزمت جماعة المتقين الشديد ويبحث لنفسه عن خطة وسطى بين التزمت والإباحية ، ولعله هو وأمثاله كان يستطيع أن يجد هذا الحل الوسط لولا أن أنتيوخوس إيفانيز حاول أن يقحم الهلنية فى بلاد اليهود بالإقناع تارة وبالسيف تارة أخرى .

وظلت بلاد اليهود تابعة لمصر حتى عام ١٩٨ حين هزم أنتيوخوس الثالث بطليموس الخامس وضمها إلى الإمبراطورية السلوقية . وكان اليهود قد ملوا حكم المصريين فأعانوا أنتيوخوس ورحبوا باستيلائه على أورشليم وتحريرهم من حكامهم ، ولكن خلفه أنتيوخوس الرابع لم ير فى بلاد اليهود إلا أنها مصدر للإيراد ، وكان وقتئذ يستعد لحروب عوان تتطلب الكثير من الأموال ، فأمر اليهود أن يؤدوا إلى خزانة الدولة ثلث محصولاتهم من الحبوب ، ونصف ما تثمره أشجار الفاكهة[١٤] . ثم عين جيسن المعروف بتذلله وملقه حاخاماً

أكبر ؛ وتجاهل فى هذا التعيين ما جرت به العادة من توارث هذا المنصب الدينى . وكان جيسن هذا يمثل الحزب القائم فى أورشليم والذى ينادى بفرض الثقافة الهلنية على بلاد اليهود ، ويطلب الإذن بإقامة النظم اليونانية فى تلك البلاد . وأصغى أنتيوخوس إلى مطالبه وهو فرح مستبشر لأن اختلاف الطقوس الدينية الشرقية فى بلاد آسية اليونانية وقوة هذه الطقوس كانا يقلقان باله إذ كان يحلم بتوحيد إمبراطوريته المتعددة اللغات والأجناس بإخضاعها كلها لشريعة واحدة وعقيدة واحدة . ولما أن أبطأ جيسن فى العمل للوصول إلى هذه الغاية عين أنتيوخوس بدلا منه منلوس ، بعد أن وعده بأكثر مما وعده به سلفه ونفحه برشوة أكبر[١٥] . وتوحد يهوة وزيوس على يدى منلوس ، وبيعت آنية المعابد للحصول على المال ، وقربت بعض الجماعات اليهودية القرابين إلى الآلهة الهلنية . وافتتحت فى أورشليم مدرسة للرياضة البدنية ، واشترك شباب اليهود والكهنة أنفسهم وهم عراة فى الألعاب الرياضية . وبلغ من تحمس بعض شبان اليهود للهلنية أن تحملوا جراحات فى أجسامهم ليعالجوا بها بعض العيوب التى قد تكشف عن أصلهم[١٦] .

وارتاعت كثرة الشعب اليهودى من هذه التطورات وأحست أن دينها يكاد ينهار من أساسه ، فانحازت إلى آراء المتقين ؛ ولما أن طرد پوپليوس (١٦٥) أنتيوخوس الرابع من مصر ، شاع فى أورشليم أنه قتل ، فاغتبط اليهود بالنبأ ، وخلعوا الموظفين المعينين عليهم من قبله ، وقتلوا زعماء الحزب الذى كان يدعو إلى الثقافة الهلينية ، وطهروا الهيكل مما كانوا يرونه منكراً أوكفراً . لكن أنتيوخوس لم يكن قد مات ، بل هزم وذل وأصبح فقيراً معدما ؛ وقد أيقن أن اليهود كانوا سبباً فى هزيمته فى مصر وأنهم كانوا يأتمرون ليعيدوا بلادهم إلى البطالمة[١٧] ، فعاد إلى أورشليم وذبح آلافا من اليهود رجالهم ونسائهم ، ودنس الهيكل ونهبه ، وصادر مذبحه الذهبى وآنيته وكنوزه وضمها إلى الخزائن الملكية ، وأعاد إلى منلوس سلطته العليا ، وأمر أن يثقف اليهود كلهم

على الرغم منهم بالثقافة الهلينية (١٦٧) ، وأن يعود الهيكل كما كان ضريحاً مقدساً لزيوس ، وأن يقام مذبح يونانى فوق المذبح القديم ، وأن يستبدل بالقرابين القديمة قربان من الخنازير . ثم حرم تقديس السبت والاحتفال بالأعياد اليهودية ، وجعل الختان جريمة يعاقب عليها بالإعدام ، وحرمت جميع مراسم الدين اليهودى فى جميع أنحاء بلاد اليهود ، وألزم الأهلون باتباع المراسم اليونانية ، وعوقب من يخالف هذه الأوامر بالإعدام . وكان كل من يأبى من اليهود أن يأكل لحم الخنزير وكل من يوجد عنده كتاب الشريعة يسجن أو يقتل ، وأمر أن يحرق هذا الكتاب أنى وجد[18] . وأشعلت النار فى أورشليم نفسها ، وهدمت أسوارها ، وبيع سكانها اليهود فى أسواق الرقيق ، وجئ بالأجانب ليقيموا فى مواضعها ، وشيد حصن جديد على جبل صهيون ، ووضعت فيه حامية من الجند لتحكم المدينة باسم الملك[19] . ويبدو أن أنتيوخوس سعى فى بعض الأوقات لأن يجعل نفسه إلها ، وأنه طلب إلى الناس أن يتخذوه إلها يعبدونه[20] .

وزاد الاضطهاد شدة على مر الزمن . ذلك أنه يوجد دائماً فى كل مجتمع أقلية فطرت على الابتهاج إذا أذن لها بالاضطهاد ، لأنها ترى فى هذا الاضطهاد انطلاقا من قيود الحضارة . وكان عملاء أنتيوخوس من هذه الأقلية ، فإنهم بعد أن قضوا على جميع مظاهر اليهودية فى أورشليم انطلقوا انطلاق اللهب يبحثون عن هذه المظاهر فى المدائن والقرى ، وكانوا أينما حلوا يخيرون الأهلين بين الموت والاشتراك فى العبادات الهلنية بما تتضمنه من أكل لحم الخنازير المذبوحة على النصب[21] . وأغلقت جميع الهياكل والمدارس اليهودية ، وعد جميع من يأبون الاشتغال فى يوم السبت عصاة خارجين على القانون . وأرغم اليهود فى عيد باخوس أن يزينوا باللبلاب كاليونان أنفسهم ، وأن يشتركوا فى المواكب ، وأن ينشدوا الأناشيد الهمجية تكريما لديونيش . وصدع الكثيرون من اليهود بما أمروا به ، وترقبوا أن تمر العاصفة ، وفر كثيرون غيرهم إلى

الكهوف أو المعاقل الجبلية النائية ؛ وعاشوا على ما يلتقطونه خلسة من الحقول ، وثبتوا على ممارسة أساليب الحياة اليهودية . وأخذ « المتقون » يطوفون بهم يدعونهم إلى الشجاعة والمقاومة . وعثرت شرذمة من جنود الملك على كهوف آوى إليها آلاف من اليهود — رجال ونساء وأطفال — فأمروهم بالخروج ؛ فلما عصوا أمر الجنود وأبوا كذلك أن يزيلوا ماعساه أن يكون فى مداخل الكهوف من الحجارة ، لأن اليوم كان يوم السبت ، أعمل فيهم الجنود النار والسيف ، وقتلوا كثيرين من اللاجئين ، واختنق الباقون بالدخان(٢٢) . وفى المدن قبض على النساء اللاتى ختن من ولدن حديثا من الأطفال وألقين هن وأطفالهن من فوق الأسوار (٢٣) . وماكان أشد دهشة اليونان من استمساك الأهلين بدينهم القديم ، ذلك أنهم لم يروا من عدة قرون مثل هذا الإخلاص للرأى والاستمساك بالعقيدة . وكانت قصص الاستشهاد تتناقلها الألسن وتملأ بها الكتب ، فضربت للمسيحين أمثلة صادقة فى الاستشهاد والشهداء . وهكذا أضحت اليهودية دينا وقومية وثبتت قواعدها وتأصلت جذورها وآثرت العزلة لتحتمى بها من أعدائها .

وكان من بين اليهود الذين فروا وقتئذ من أورشليم متاثياس Mattathias من أسرة هزموناى Hasmoni من سبط هارون — وأبناؤه الخمسة يوحنان كاديس ، وسيمون ، ويوداس ، والعزر ، ويوناثان . ولما أقبل أپليز عامل أنتيوخوس إلى مدين Modin التى لجأ إليها هؤلاء الستة ، أمر أهلها أن يجحدوا « الشريعة » ويقربوا لزيوس . وجاء متاثياس الشيخ ومعه أبناؤه الخمسة وقال : « لو ان جميع سكان المملكة أطاعوا أمركم بالمروق من دين آبائهم لبقيت أنا وأولادى الخمسة مستمسكين بعهد آبائنا الأولين » . ولما ان اقترب أحد اليهود من المذبح ليقرب القربان المطلوب ذبحه متاثياس بيده وذبح أيضا مندوب الملك . ثم نادى فى الشعب قائلا : « من كان يغار على الشريعة ، وأراد

أن يؤيد العهد فليتبعنى[٢٤] . فسار وراءه هو وأبنائه كثيرون من القرويين حتى وصلوا إلى جبل إفرايم . حيث انضمت إليهم جماعة صغيرة من الشبان الثائرين ومن كان باقيا على قيد الحياة من « المتقين » .

وبعد قليل من هذا الحادث توفى متاثياس بعد أن أوصى بأن يرأس أتباعه من بعده ابنه بوداس المعروف باسم مكابى(*). وكان بوداس هذا رجل حرب أوتى من الشجاعة مثل ما أوتى من التقوى . وكان من عادته قبل أن يخوض أية معركة أن يصلى كما يصلى الأولياء المطهرون ، حتى إذا خاض غمارها « كان كالأسد فى سورته » . وكان جيشه الصغير « يعيش فى الجبال كما تعيش الوحوش ، ويقتات بالأعشاب » . ثم ينقض من حين إلى حين على إحدى القرى المجاورة ويقتل المارقين ويهدم مذابح الوثنيين ؛ و« إذا وجدوا أطفالا لم يختتنوا أجروا لهم عملية الاختتان بشجاعة[٢٥] » . ونقلت هـــذه الأنباء إلى أنتيوخوس فسير عليهم جيشاً من السوريين اليونان وأمره أن يهدم حصن المكابيين . والتقى بهم بوداس فى ممر إموس Emmaus وانتصر عليهم نصراً مؤزرا (١٦٦) ، مع أن اليونان كانوا من الجنود المرتزقة المدربين أحسن تدريب والمسلحين أتم تسليح . بينا كانت فرقة بوداس يعوزها الكثير من السلاح والثياب . وسير أنتيوخوس عليهم قوة أخرى أكبر من القوة السابقة بلغ من ثقة قائدها بالنصر أن جاء معه بالنخاسين ليبتاعوا من كان ينتظر أسرهم من اليهود ، ووضع فى المدن لوحات بما يطلب فيهم من الأثمان[٢٦] . وهزم بوداس هذا الجيش فى مزپاح ، وكانت الهزيمة حاسمة سقطت على إثرها أورشليم فى قبضته دون مقاومة ؛ فلما دخلها أخرج ما كان فى الهيكل من مذابح وزينات وثنية وطهره ودشنه من جديد . وأعاد الصلوات القديمة إلى سابق عهدها وسبط مظاهر الابتهاج من اليهود العائدين المستمسكين بالدين(**) (١٦٤) .

(*) يفسر هذا اللفظ عادة « بالمطرقة » وإن كان هـــذا التفسير غير موثوق بصحته .

(**) لا تزال ذكرى هذا المولد الجديد من الأعياد التى يحتفل بها فى كل بيت يهودى تقريبا .

ولما تقدم ليسياس Lysias نائب الملك بجيش جديد ليسترد به العاصمة ، شاع بين الجند أن أنتيوخوس قد مات ـ وكانت هذه الشائعة صادقة فى هذه المرة (١٦٣) . وأراد ليسياس أن يكون حرا فى العمل فى غير هذا الميدان فعرض على اليهود أن يترك لهم حريتهم الدينية الكاملة إذا ما ألقوا السلاح ؛ فرضى بذلك «المتقون» ورفضه المكابيون ، وأعلن يوداس أن بلاد اليهود لا تأمن على نفسها من الاضطهاد إلا إذا نالت استقلالها السياسى والدينى جميعا . وسكر المكابيون بخمرة النصر فبدءوا هم أنفسهم يضطهدون أعداءهم ، وينتقمون من الحزب المشايع لليونان فى أورشليم وفى المدن المجاورة للحدود[٢٧] ، وفى عام ١٦١ هزم يوداس نكانور Nicanor عند أداسا Adasa وقوى نفسه بأن عقد حلفا مع رومة ، ولكنه قتل فى تلك السنة نفسها وهو يحارب جيشاً أقوى من جيشه عند إلاسا Elasa وواصل أخوه يوناثان الحرب بشجاعة عظيمة ولكنه قتل هو الآخر عند عكا (١٤٣) . ولم يبق بعدئذ من الإخوة الخمسة إلا سيمون ، وقد استطاع بمعونة رومة أن ينال من دمتريوس الثانى فى عام ١٤٢ اعترافا باستقلال بلاد اليهود . وعين سيمون بمرسوم شعبى حاخاما أكبر وقائدا عسكريا ، وإذ كان هذان المنصبان قد أصبحا وراثيين فى هذه الأسرة فقد أضحى هو مؤسس الأسرة المالكة المزمونية Hasmonean ، وعدت أول سنى حكمه بداية التاريخ الجديد ، وصدرت عملة تعلن مولد الدولة اليهودية الجديدة

الباب الخامس والعشرون

مصر والغرب

الفصل الأول

سجل الملوك

كانت أصغر أجزاء تركة الإسكندر وأغناها من نصيب أقدر قواده وأعظمهم حكمة . وقد برهن بطليموس بن لاجوس على ولائه العظيم للملك المتوفى – ولعله أراد أن يدعم سلطانه بهذا الولاء – بأن نقل جثته إلى منفيس وأمر أن تودع تابوتاً من الذهب(*) وجاء معه أيضا بتاييس Thais التي كانت عشيقة الإسكندر في بعض الأوقات ، وتزوجها ورزق منها بولدين . وقد كان بطليموس هذا جنديا بسيطا ، صريحا ، خشن الطباع ، قادرا على الإحساس الكريم والتفكير الواقعي . وبينما كان غيره من ورثة ملك الإسكندر يقضون نصف حياتهم في الحروب ، ويحلمون بأن تكون لكل منهم دون غيره السيادة على هذا الملك ، بذل بطليموس جهوده كلها في تدعيم مركزه في البلد الأجنبي الذي كان من نصيبه ، وفي ترقية زراعته وتجارته وصناعته . وأنشأ لذلك أسطولا عظيما وأمن مصر من الغزو البحري كما أمنتها الطبيعة من الغزو البري ، وجعلتها من هذه الناحية أمنع من عقاب الجو . وساعد رودس وعصب المدن المتحالفة على الاستقلال عن مقدونية ، ومن أجل هذا سمي «سوتر Soter» . ولم يلقب نفسه ملكا إلا بعد ثمانية عشر عاما من العمل الشاق دعم في خلالها

(*) وقد أمر بطليموس فلدلفس أن ينقل التابوت إلى الإسكندرية ، وأذاب بطليموس هذا الذهب لينتفع به وعرض جثة الإسكندر في تابوت من الزجاج .

حياة مملكته الجديدة من النواحي السياسية والاقتصادية ، وأقامها على نظام ثابت متين (٣٠٥) . وكانت نتيجة جهود خلفه أن بسطت مصر حكمها على قورينة ، وكريت ، وجزائر سكلديز ، وقبرص ، وعلى سوريا ، وفلسطين ، وفينيقية وساموس ، ولسبوس ، وسمثريس ، والهلسپنت . وقد وجد في شيخوخته متسعاً من الوقت يكتب فيه شروحاً وتعليقات صادقة صدقاً مدهشاً على حروبه ، وأن ينشئ حوالى عام ٢٩٠ دار العاديات والمكتبة اللتين قامت عليهما شهرة الإسكندرية . ولما بلغ الثانية والثمانين من عمره وأحس بضعف الشيخوخة أجلس ابنه الثاني بطليموس فلدلفس مكانه على العرش وأسلمه زمام الحكم ، واتخذ مكانه كأحد الرعايا في بلاط الملك الشاب . ومات بعد عامين من ذلك الوقت .

وكان وادي النيل الخصيب ودلتاه قد ملأ خزائن الملك بالمال . وحسبنا دليلا على هذا أن بطليموس الأول حين أراد أن يولم وليمة لأصدقائه اضطر إلى أن يقترض آنيتهم الفضية وطنافسهم ، أما بطليموس الثاني فقد أنفق في آخر حفلات تتويجه ما قيمته ٢,٥٠٠,٠٠٠ ريال أمريكي[٢] . واعتنق الملك المصري الجديد فلسفة قورينة واعتزم أن يستمتع بكل ما تتيحه له الساعة التي هو فيها من لذة . فكان يتخم معدته بشهي الطعام ، وجرب كثيراً من العشيقات ، وأقصى عنه زوجته ، وتزوج آخر الأمر بأخته أرسينوي[٣] Arsinoë . وحكمت الملكة الجديدة الإمبراطورية وصرفت شئونها الحربية بينما كان بطلميوس الثاني يحكم بين طهاته وعلماء بلاطه . وحذا حذو أبيه وزاد عليه بأن استقدم إلى الإسكندرية مشهوري الشعراء ، والعلماء ، والنقاد ، والمتبحرين في العلوم الطبيعية والفلسفة ، والفنانين ، واستضافهم عنده ؛ وزين عاصمته بالمباني الفخمة على الطراز اليوناني حتى صارت الإسكندرية في أثناء حكمه الطويل عاصمة بلاد البحر الأبيض المتوسط الأدبية والعلمية ، وازدهرت آدابها ازدهاراً لم تر مثله مرة

أخرى . لكن فلدلفس لم يكن مع هذا كله سعيداً فى شيخوخته . فقد اشتد عليه داء النقرس ، وزادت متاعبه بازدياد ثروته وسلطانه . وأطل مرة من نافذة قصره فأبصر متسولا يرقد مستريحاً فى الشمس على كثبان الميناء الرملية ، فحسد الرجل على نعمته ، وقال متحسراً : « وا أسفاه ! ليتنى ولدت واحداً من هؤلاء[٤] ! » . وساوره خوف الموت ، فطلب إلى الكهنة المصريين أن يدلوه على إكسير الخلود السحرى[٥] .

ووسع المتحف والمكتبة وأنفق عليهما من المال ما جعل المؤرخين الذين جاءوا بعده يقولون إنه هو الذى أنشأهما . وكان دمتريوس فليرم قد لجأ إلى مصر فى عام ٣٠٧ بعد أن طرد من أثينة ، فإذا نحن نجده بعد عشر سنين من ذلك الوقت فى بلاط بطليموس الأول ؛ ويلوح أنه هو الذى أوحى إلى بطليموس سوتر أن عاصمة ملكه وأسرته تذيع شهرتهما إذا أنشأ متحفاً (أى بيتاً لربات الفنون والعلوم Muses[*]) يضارع جامعات أثينة . وأكبر الظن أن دمتريوس قد ألهم نشاط أرسطو فى جمع الكتب ، وضروب المعرفة ، وأنواع الحيوان ، والنبات ، ودساتير الحكم ، وتصنيف ما جمعه منها ، فأشار على ما يظهر بأن تقام طائفة من المبانى لا تتسع لإيواء مجموعة عظيمة من الكتب فحسب ، بل تتسع فوق ذلك لإيواء العلماء الذين يقضون حياتهم فى البحث العلمى . واقتنع بطليموس الأول والثانى بهذه الفكرة ، فأمداه بالمال ، وقامت الجامعة الجديدة على مهل بالقرب من القصور الملكية . وكانت تحتوى على ردهة عامة يلوح أن العلماء كانوا يتناولون فيها الطعام ، وقاعة للمحاضرات ، وبهواً ، ورواقاً ، وحديقة ، ومرصداً فلكياً ، والمكتبة الكبرى . وكان رئيس هذا المعهد كله من الناحية الرسمية كاهناً دينياً ، لأنه كان مخصصاً لإلهات الفن بوصفها

(*) هذا هو المعنى الحرفى لفظ Museum . (المترجم)

معبودات بحق . وكان يعيش فى المتحف أربع طوائف من العلماء : فلكيين، وكتاب ، وعلماء فى الطبيعة ، وأطباء . وكان هؤلاء كلهم من اليونان، وكانوا جميعاً يتقاضون مرتبات من الخزانة الملكية . ولم تكن مهمتهم أن يعلموا الطلاب ، بل أن يتوفروا على البحوث والدراسات وإجراء التجارب . ولما تضاعف عدد الطلاب فى المتحف فى العقود التالية ، قام أعضاؤه بإلقاء المحاضرات ، ولكنه بقى إلى آخر أيامه معهداً للدراسات الراقية أكثر مما كان جامعة للطلاب . ومبلغ علمنا أنه كان أول مؤسسة أقامتها دولة للعمل على تقدم الآداب والعلوم ؛ وكانت أهم ما أفاده تاريخ الحضارة من البطالمة ومن الإسكندرية .

ومات بطليموس فلدلفس عام ٢٤٦ بعد حكم طويل قام فيه بكثير من جلائل الأعمال . وكان بطليموس الثالث أورجيتيس Euergetes (المحسن) ملكا من طراز تحتمس الثالث يبغى فتح بلاد الشرق الأدنى . فبدأ بالاستيلاء على سرديس وبابل ، ثم واصل زحفه حتى بلغ بلاد الهند ، وزعزع كيان الإمبراطورية السلوقية حتى انهارت حين مستها جيوش رومة . ولسنا نريد أن نتتبع حادثات حروبه ، لأنها ، وإن كانت فى تفاصيلها أشبه الأشياء بالرواية التمثيلية ، كانت فى أسبابها ونتائجها موحشة لاحد لوحشتها ؛ وإن تاريخ الحروب إذا قص أصبح تابعاً ذليلا لتقلبات القوة والسلطان تلغى فيها الانتصارات والهزائم بعضها بعضاً فتجعله تاريخاً أجوف لا قيمة له . وحسبنا أن نقول إن برنيس Berenice زوجة أورجيتيس الشابة عبرت عن شكرها لانتصاراته بأن وهبت خصلة من شعرها للآلهة ؛ وتغنى الشعراء بهذه القصة ، ورفع الفلكيون عقيرتهم بها إلى السماء فسموا إحدى المجموعات النجمية باسم كوما برنيسز Coma Berenices أى شعر برنيس .

وكان بطليموس الرابع فلوپاتر يحب أباه حباً حمله على أن يخلو حلوه فى

حروبه وانتصاراته . ولكنه أحرز النصر على أنتيوخوس الثالث فى رافيا (٢١٧) باستخدام جيوش مصرية ، وكانت هذه أول مرة استخدم فيها البطالمة هؤلاء الجنود ، فلما أن تسلح المصريون على هذا النحو وشعروا بقوتهم بدأوا يقوضون سلطان اليونان فى وادى النيل . وانغمس فلوپاتر فى اللهو ، وقضى كثيراً من الوقت فى قارب نزهته ، وأدخل عيد البكاناليا فى مصر ، وكاد يقنع نفسه بأنه من نسل ديونيشس . وقد حدث فى عام ٢٠٥ أن قتلت عشيقته زوجته ، ولم يلبث فلوپاتر نفسه أن اختفى هو الآخر من التاريخ . وأعقبت موته فترة من الفوضى أوشك فيها فليب الخامس المقدونى وأنتيوخوس الثالث السلوقى أن يمزقا أوصال مصر ويضماها إلى بلادهما ، ولكن رومة التى عقد معها بطليموس الثانى معاهدة صداقة — تدخلت فى الأمر وهزمت فليب ، وأرغمت أنتيوخوس على أن يعجل بالعودة إلى بلاده وبسطت حمايتها على مصر (٢٠٥) .

الفصل الثانى

الاشتراكية فى عهد البطالمة

إن أهم ما يعنينا فى مصر البطالمة هو تجربتها الواسعة فى الاشتراكية الدولية .
لقد كانت ملكية الأرض من زمن بعيد عادة مقدسة فى مصر ، وكان لفرعون، بوصفه ملكا وإلها ، حق كامل على الأرض وعلى كل ماتنتجه . ولم يكن الفلاح عبدا ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يترك مكانه إلا بإذن الحكومة ، وكان يطلب إليه أن يورد الجزء الأكبر من محصوله إلى الدولة[٦] . وأبقى البطالمة على هذا النظام ووسعوا نطاقه باستيلائهم على الأراضى الواسعة التى كانت فى عهد الأسر الحاكمة السابقة ملكا للأعيان المصريين أوللكهنة . وكانت هيئة بيروقراطية كبيرة من الموظفين الحكوميين ، يؤيدها حراس مسلحون ، تدير شئون أرض مصر كلها كأنها مزرعة حكومية ضخمة[٧] . وكان هؤلاء الموظفون يعينون لكل زارع تقريباً قطعة الأرض التى ينبغى له أن يزرعها ، والمحصولات التى يجب أن ينتجها ، وكان فى وسع الدولة أن تجنده هو ودوابه للعمل فى المناجم، وإقامة المبانى العامة ، والصيد ، وشق قنوات الرى، وإنشاء الطرق . وكانت محصولاته تكال بمكاييل حكومية ، ويدون الكتبة مقدارها ،وتدرس فى أجران الملك ، ويحملها الفلاحون أنفسهم إلى مخازن الملك[٨] . وكان يستثنى من هذا النظام بعض حالات : فقد كان البطالمة يجيزون للفلاح أن يمتلك بيته وحديقته ، ويجيزون الملكية الخاصة فى الحواضر ، ويؤجرون قطعا من الأرض للجنود يكافئونهم بها على ما قدموا للدولة من خدمات . ولكن هذه الأراضى المستأجرة كانت مقصورة فى العادة على المساحات التى يوافق صاحبها على أن يخصصها للكروم ، أو البساتين ، أو أشجار الزيتون ؛ ولم يكن

يسمح له أن يورثها أبناءه أو أن يوصى بها لمن يشاء ؛ وكان للملك أن يلغى حق الإيجار متى أراد . ولما تحسنت حال هذه الأرض التى يشترك فى ملكيتها الفرد والدولة بفضل جهود اليونان ومهارتهم ، بدأ أصحابها يطالبون بأن يكون لهم حق توريثها أبناءهم . وكان العرف لا القانون يجيز هذا التوريث فى القرن الثانى ، ثم اعترف به القانون فى القرن الأول قبل الميلاد[٩] ، وتم بذلك التطور المألوف من الملكية العامة إلى الملكية الخاصة .

وما من شك فى أن تطور هذا النظام الاشتراكى الحكومى، قد حدث لأن أحوال الزراعة فى مصر كانت تتطلب من التعاون ووحدة العمل فى الزمان والمكان أكثر مما تستطيع أن تهيئه الملكية الفردية ، وأن مقدار ما يزرع من الغلات ونوعها يقفان على مقدار الفيضان السنوى. وكفاية نظام الرى والصرف ، وهذه كلها مسائل تتطلب أن تشرف عليها هيئة مركزية . وقد عمل المهندسون اليونان الذين استخدمتهم الحكومة على تحسين الأساليب القديمة ،واستخدموا فى زراعة الأرض وسائل أكثر انطباقا على العلم وعلى الإنتاج الضيق الوفير ، فاستبدل بالشادوف « الناعورة » أو « الساقية » ، وهى عجلة كبيرة يبلغ طول قطرها أحيانا أربعين قدما تعلق عليها دلاء غير مشدودة على حافتها الخارجية(*) فإذا وصل الدلو إلى أعلى مكان فى العجلة أثناء دورتها مال على قضيب وأفرغ ما فيه من الماء فى حوض . وخير من هذه الآلة « لولب أركيديز(**) » ومضخة تسيبوس(+) وهما يرفعان الماء بسرعة لم تكن معروفة قبل عصر البطالمة ، وبفضل تركيز الإدارة الاقتصادية فى يد الحكومة ونظام السخرة أمكن إقامة المنشآت العامة للتحكم فى فيضان النيل ، وإنشاء الطرق ،

(*) فى الأصل الإنجليزى الداخلية ولكن ما أثبتناه هنا هو الصحيح ولا تزال هذه الآلة مستعملة فى ريف مصر إلى الآن . (المترجم)

(**) هذا هو المعروف عندنا بالطنبور .

(+) انظر الباب السابع والعشرين .

وشق قنوات الرى ، وتشييد المبانى ، وتمهيد السبيل للأعمال الهندسية الكبرى التى تمت فى أيام الحكم الرومانى . وقد جفف بطليموس الثانى بحيرة موريس وحول قاعها إلى مساحة واسعة من الأرض الخصبة وزعها على جنوده ، وشرع فى عام ٢٥٨ يعيد فتح القناة التى تصل النيل بالقرب من عين شمس بالبحر الأحمر قرب السويس[١١] . وكان نخاو ودارا قد حفرا هذه القناة من قبل ، ولكن الرمال فى كلتا الحالين طمرتها ، كما طمرت قناة بطليموس بعد مائة عام من شقها .

وسارت الصناعة وسط ظروف مماثلة لهذه الظروف ، فلم تكن الحكومة تمتلك المناجم فحسب ، بل كانت تديرها بنفسها أوتستولى على مايخرج من المعادن[١٢] . واستغل البطالمة رواسب الذهب الغنية فى بلاد النوبة ، وكانت لهم عملة ذهبية مستقرة ؛ وكانوا يسيطرون على مناجم النحاس فى قبرص وطور سيناء ، ويحتكرون صناعة الزيت — ولم يكونوا يستخرجونه من الأرض ، بل كانوا يعصرونه من النبات كبذور الكتان وحب الملوك (الكروتن) ، والسمسم ؛ وكانت الحكومة تحدد فى كل عام مقدار ما يزرع من الأرض بهذه النباتات ، وتستولى على المحصول بالثمن الذى تحدده له ؛ وتعصر الزيت فى مصانع تمتلكها الدولة بعصارات من كتل الخشب الضخمة يحركها أقنان الأرض ، ثم تبيع الزيت إلى تجار التجزئة بالثمن الذى تريده هى ، وتمنع المنافسة الأجنبية بالضرائب الجمركية العالية ، وكانت أرباحها من هذه العملية تتراوح بين سبعين وثلثمائة فى المائة[١٣] . ويلوح أن الحكومة كانت تجنى أرباحاً مماثلة لهذه الربح من الملح ، والنطرون (كربونات الصودا المستخدمة فى صنع الصابون) ، والبخور ، والبردى ، والمنسوجات . وكانت فى البلاد مصانع للنسيج يمتلكها الأفراد ، ولكنها كانت تضطر إلى بيع كل ما تنتجه إلى الحكومة[١٤] . أما الصناعات الصغرى فقد تركت للأفراد ، وكانت الدولة تكتفى بالتصريح بها

ومراقبتها ، وابتياع جزء كبير من منتجاتها بالثمن الذى تحدده لها ، وفرض ضريبة طيبة على أرباحها تجبي لخزانتها . وكانت الصناعات اليدوية تقوم بها هيئات من العمال يتوارث أعضاؤها صناعاتهم بحكم التقاليد المرعية ، وكانوا بحكم هذه التقاليد نفسها مرتبطين بقراهم وبمنازلهم أيضاً(١٥) . وكانت الصناعة متقدمة ، فكانت العربات ، وقطع الأثاث ، والفخار ، والأبسطة ، ومواد التجميل تصنع بكميات كبيرة ؛ وكان صنع الزجاج ونسج التيل من الصناعات التى اختصت بها الإسكندرية . وكانت الاختراعات أكثر تقدماً فى مصر فى عصر البطالمة منها فى أى عصر آخر قبل رومة الإمبراطورية . وكانت الأدوات اللولبية والتروس ، وطارات السيور ، والضاغطات اللولبية ، كانت هذه كلها معروفة مستعملة(١٦) ؛ وتقدمت كيمياء الصباغة إلى حد استطاعوا معه أن يعالجوا الأقمشة بالقواعد الكيميائية المختلفة بحيث إذا غمر القماش فى صبغة واحدة نتج عن ذلك عدد من الألوان الثابتة(١٧) . وكانت مصانع الإسكندرية يديرها العبيد عادة ، وكانت نفقاتهم القليلة تمكن البطالمة من أن يبيعوا منتجاتها فى الأسواق الأجنبية بأقل مما تباع به المصنوعات اليدوية اليونانية(١٨) .

وكانت الحكومة تشرف على التجارة بأجمعها وتنظم شئونها . فكان بائعو الأشتات عادة وكلاء معينين من قبـــل الدولة لتوزيع بضائع الدولة(١٩) ، وكانت الدولة تمتلك جميع طرق القوافل والطرق المائية . وقد أدخل بطليموس الثانى الجمل فى مصر وأقام مخفراً من راكبي الجمال فى جنوب القطر ؛ يتولى نقل المخابرات الحكومية دون غيرها ؛ ولكن هذه المخابرات كانت تشمل الرسائل التجارية كلها تقريباً . وكان نهر النيل غاصاً بسفن الركاب والبضائع ، ويبدو أن هذه السفن كانت ملكا للأفراد وخاضعة لأنظمة الدولة(٢٠) . وقد أنشأ البطالمة لتجارة البحر الأبيض المتوسط أعظم أسطول تجارى فى ذلك الوقت ، وكانت حمولة السفينة الواحدة من سفنه تبلغ ثلثمائة طن(٢١) . وكانت مخازن

الإسكندرية تستهوى التجارة العالمية ، وكان مرفأها المزدوج مما تحسدها عليه سائر المدن ، كما كانت منارتها من عجائب الدنيا السبع(*) . وكانت حقول مصر ومصانعها كبيرة وصغيرة تنتج قدراً كبيراً من الغلات الزائدة على حاجة البلاد تباع فى الأسواق النائية التى تصل إلى الصين شرقاً ، وإلى أواسط إفريقية جنوباً ، وإلى الروسيا والجزائر البريطانية شمالا . وقد سار الروادا لمصريون جنوباً حتى بلغوا زنجبار وبلاد السومال ونقلوا إلى العالم أخبار سكان الكهوف الذين يعيشون على سواحل إفريقية الشرقية ويقتاتون بالأطعمة البحرية ، والنعام ، والجزر ، وجذور النبات(٢١) . واستطاعت السفن المصرية أن تقضى على سيطرة العرب على تجارة الهند مع بلاد الشرق الأدنى بسيرها من النيل إلى الهند مباشرة ، وأضحت الإسكندرية بتشجيع البطالمة وحكمتهم أهم الثغور التى يعاد منها شحن البضائع المرسلة إلى أسواق بلاد البحر الأبيض المتوسط .

وكان مما زاد فى سرعة نماء التجارة والصناعة وازدهارهما ماقدمته المصارف المالية من تسهيلات عظيمة . لقد بقى فى مصر حتى ذلك الوقت قدر من المقايضة ورثته البلاد من العهود القديمة : وكانت الحبوب المحفوظة فى المخازن الملكية بمثابة رصيد احتياطى للمصارف ؛ ولكن إيداع الحبوب وسحبها ، وتحويلها من يد إلى يد كان فى الاستطالة إتمامها على الورق بدل إجراء هذه العمليات

(*) ويقول ستراتس النيدى Sostratus of Cnidus إن التى أقامها هو بطليموس الثانى وإنه أنفق فى تشييدها ثمانمائة وزنة (نحو ٢٬٤٠٠٬٠٠٠ ريال أمريكى(٢٢)) . وكانت تعلو بدرج متراجعة إلى ارتفاع أربعمائة قدم ، ويغطيها الرخام الأبيض وتزينها تماثيل من الرخام والبرنز . وقد وضع فوق القبة المقامة على الأعمدة والتى كانت تحمل الضوء تمثال لپسيدن يبلغ ارتفاعه إحدى وعشرين قدما . وكان هذا الضوء ينبعث من نار وقودها خشب راتنجى ؛ والراجح أن مرايا محدبة كانت تعكسه بحيث يرى على بعد ثمانية وثلاثين ميلا(٢٣) وقد تم بناء المنارة فى عام ٢٧٩ ق . م وهدمت فى القرن الثالث عشر الميلادى . ومحل جزيرة فاروس التى كانت مقامة عليها هو الآن حى رأس التين بالإسكندرية . أما موضع المنارة نفسه فقد غمره ماء البحر .

بالفعل[٢٥] . وقد قام إلى جانب هذه المقايضة المعدلة نظام اقتصادى نقدى معقد . وكانت الحكومة تحتكر لنفسها إنشاء المصارف ، ولكن كان فى وسعها أن تنيب عنها فى أعمالها شركات خاصة[٢٦] . وكانت الحسابات تدفع بتحاويل مما لأصحابها فى المصارف من أرصدة ؛ وكانت المصارف تقرض المال بالربا ، وتسدد حسابات الخزائن الملكية . وقصارى القول أننا لانعرف فى التاريخ كله عهداً بلغت فيه الزراعة ، والصناعة والتجارة ، والمالية ، ما بلغته كلها فى هذا العهد من ثراء ، ووحدة ، ونماء خال من العاطفة الإنسانية .

وكان المشرفون على هذا النظام ومنفذوه هم اليونان الأحرار المقيمون فى العاصمة . وكان على رأسهم كلهم فرعون — الملك — الإله . وكان بطليموس فى نظر سكان بلاد اليونان منقذاً Soter ، أو محسناً Euergetes بحق ، فقد وهبهم مائة ألف منصب حكومى وأتاح لهم فرصا اقتصادية لا حد لها ، ويسر لهم سبل الحياة العقلية تيسيراً لا عهد لهم به من قبل ، وأوجد لهم بلاطا كان مصدر الحياة الاجتماعية المترفة ومركزها . ولم يكن الملك نفسه ملكا مستبداً لا يسأل عما يفعل ؛ فقد اجتمعت التقاليد المصرية والشرائع اليونانية على إقامة نظام تشريعى أخذت بعضه عن القانون الأثينى وحسنت فيه من جميع نواحيه ما عدا ناحية الحرية . وكان لأوامر الملك قوة القانون بأكملها ، ولكن المدن كانت تستمتع بقسط كبير من الحكم الذاتى . وكانت الجماعات المصرية ، واليونانية ، واليهودية ، تخضع كل منها لشرائعها الخاصة ، وتختار قضاتها ، وتحاكم أمام محاكمها[٢٧] . وفى تورين بردية سجلت فيها إحدى قضايا الإسكندرية ، وقد حدد فيها موضوع النزاع تحديداً دقيقاً ، وعرضت فيها الأدلة بعناية فائقة ، ولخصت السوابق ، ثم صدر الحكم بالنزاهة المطلوبة من القضاة . وثمة برديات أخرى سجلت فيها وصايا أهل الإسكندرية ، وهى تزيح الستار عن قدم الصيغ

والعبارات القانونية : « هذه هي وصية بزياس Peisias اللوشياني ابن س ، الكامل العقل ، الحر الاختيار[٢٨] » .

وكانت حكومة البطالمة أقدر الحكومات وأحسنها نظاما فى العالم الهلنستى . وقد أخذت شكلها القومى المركزى عن مصر وفارس، واستقلال مدنها بشئونها الخاصة عن بلاد اليونان ، ثم أخذتهما عنها رومة . وقد قسمت البلاد إلى أقاليم ، يدير كلا منها موظفون يعينهم الملك، وكانوا كلهم تقريبا من اليونان . وقد أغفل البطالمة ما كان يعتزمه الإسكندر من جعل اليونان والشرقيين أو المصريين يعيشون ويختلطون على قدم المساواة بعد أن تبين لهم أن هذه الفكرة غير اقتصادية ، وأصبح وادى النيل فى ظاهر الأمر وباطنه يحكم كما تحكم البلاد المفتوحة ، فقد أدخل المشرفون اليونان على حياة مصر الاقتصادية كثيراً من الرقى فى النواحى الفنية والإدارية ، وزادوا ثروة البلاد من الناحية الاقتصادية ، ولكنهم استولوا على ما زاد من هذه الثروة . ورفعت الدولة أثمان الغلات التى كانت تسيطر عليها ، ومنعت المنافسة الأجنبية بفرض الضرائب الجمركية العالية ، فكان ما يباع من زيت الزيتون بإحدى وعشرين درخمة فى ديلوس يباع بالثنتين وخمسين فى الإسكندرية . وكانت الحكومة فى كل مكان فى البلاد تجبى الضرائب وإيجار الأرض ، والرسوم الجمركية ، وعوائد المرور على الطرق ، وتستولى من الناس أحيانا على جهودهم وحياتهم نفسها . وكان الفلاح يؤدى للدولة أجرا على امتلاك الماشية ، وعلى ما يقدمه لها من علف ، وعلى الإذن له برعيها فى أرض الكلأ العامة . وكان ملاك الحدائق ، والكروم ، والبساتين ، من الأفراد يؤدون للدولة سدس منتجاتها (وفى أيام بطليموس الثانى نصف هذه المنتجات)[٢٩] . وكان الأهلون كلهم ، ما عدا الجنود ، ورجال الدين ، وموظفى الحكومة ، يؤدون فرضة الرؤوس. وكانت الضرائب مفروضة على الملح ، والمحررات الرسمية ، والمواريث . وكانت تفرض على الإيجارات ضريبة قدرها خمسة فى المائة منها ، وعلى المبيعات عشرة

فى المائة من أثمانها ، وخمسة وعشرون فى المائة على الأسماك المصيدة فى المياه المصرية ، وعوائد على البضائع التى تنقل من القرى أو المدن أو تنقل بطريق النيل . وكانت رسوم عالية تفرض فى الثغور المصرية على جميع الصادرات والواردات ؛ وكانت ضرائب خاصة تفرض للإنفاق على الأسطول والمنارة البحرية ، وللترفيه عن أطباء البلديات ورجال الشرطة ، ولشراء تاج من الذهب لكل ملك جديد(٣٠) . وقصارى القول أن الدولة لم تكن تترك شيئاً يسمنها إلا فرضت عليه ضريبة . وقد احتفظت الدولة بجيش من الكتبة، وبنظام واسع من التسجيل للأشخاص والأملاك ، لتستطيع بهما إحصاء جميع الحاصلات والإيرادات والعمليات المالية والتجارية التى يصح فرض الضرائب عليها . أما جباية هذه الضرائب فقد كانت تعهد إلى جماعة من الإخصائيين ، تراقب هى أعمالهم ، وتجعل أملاكهم ضمانا تحت يدها حتى يؤدوا لها حقها . والراجح أن مجموع إيرادات البطالمة نقدا وعينا كان أكبر ما جمعته دولة من الدول فى الفترة المحصورة بين سقوط دولة الفرس وعظمة رومة .

الفصل الثالث

الإسكندرية

وكان الجزء الأكبر من هذه الثروة يرد إلى الإسكندرية ، وكانت عواصم الأقاليم وقلة من المدن الأخرى تستمتع أيضا بالرخاء ، فكانت أرضها مرصوفة وشوارعها مضاءة ، وكانت لها شرطة تحمي أهلها ، وكانت تمد بالماء النقى ؛ ولكن الإسكندرية بنوع خاص كانت تستمتع بنظام « حديث » لم يعهد له مثيل من قبل ، ويصفها استرابون فى القرن الأول بعد الميلاد فيقول إنها كانت تبلغ أكثر من ثلاثة أميال فى الطول وميلا فى العرض ؛ ويقدر بلنى طول أسوارها بخمسة عشر ميلا[٣١]. وقد اختط المدينة دنقراطس المهندس الرودسى ، وستراتس النيدى على شكل مستطيل فى وسطه شارع رئيسى يبلغ عرضه مائة قدم يخترقها من الشرق إلى الغرب ، ويقطعه شارع آخر فى مثل عرضه من الجنوب إلى الشمال . وكان هذان الشارعان الرئيسيان ، وأكبر الظن أن شوارع غيرهما ، يضاءان ليلا وتظللهما أثناء النهار أميال من العمد . وكان الشريانان الرئيسيان السابق ذكرهما يقسمان المدينة أربعة أحياء ، أبعدها نحو الغرب حى ركوتس Rhacotis وكانت كثرة سكانه من المصريين ؛ وكان الحى الشمالى الشرقى حى اليهود ، والجنوبى الشرقى أو البركيوم Brucheum يحتوى على القصر الملكى ، والمتحف والمكتبة ، ومقابر البطالمة ، وضريح الإسكندر ، ودار الصنعة البحرية ، وأهم الهياكل اليونانية ، وكثير من الحدائق الفسيحة . وكان لإحدى هذه الحدائق مدخل تبلغ مساحته ستمائة ق. م. وكانت حديقة أخرى تحتوى على مجموعة الحيوانات الملكية . وكان فى وسط المدينة مبانى الإدارات والمخازن الحكومية ، والمحكمة ، ومدرسة الألعاب الرياضية ، وألف حانوت وسوق .

وكان فى خارج الأبواب الكبرى ملعب رياضى ، وميدان للسباق ، ومدرج ، ومقبرة عظيمة تعرف بمدينة الموتى (Necropolis)[٢٣] . وكانت تمتد على طول شاطئ البحر مقاصير للاستحمام والاصطياف . وكان يصل المدينة بجزيرة فاروس جسر أو حاجز يسمى الهپتستديوم Heptastadium لأن طوله كان يبلغ سبعة استديومات(*) ، وكان المرفأ مرفأين . وكانت تقع خلف المدينة بحيرة مريوط ، وتستخدم مرافئ ومخارج للسفن النيلية . وفى هذه البحيرة كان البطالمة يحتفظون بقوارب التنزه ، ويقضون ساعات الراحة من عناء الأعمال(**) .

وكان سكان الإسكندرية فى عام ٢٠٠ ق . م خليطا من أجناس مختلفة كما هى حال سكان العواصم فى هذه الأيام . وكانت عدتهم تتراوح بين أربعمائة ألف وخمسمائة ألف من المقدونيين ، واليونان ، والمصريين ، واليهود ، والفرس ، وأهل الأناضول ، والعرب ، والزنوج (+)[٢٣] . وزاد انتشار التجارة عدد أفراد الطبقة الوسطى — الدنيا وملأ العاصمة المختلطة السكان بطائفة نشيطة ، وثرثارة ، متشاحنة من أصحاب الحوانيت والتجار ، لا تغفل لهم عين عن اقتناص أية فرصة لعقد الصفقات التجارية غير مراعين فى ذلك شرفا أو أمانة . وكان على رأس هذه الطوائف السالفة الذكر المقدونيون واليونان ، يعيشون عيشة بلغت من الترف حدا أدهش السفراء الرومان الذين عينوا فى بلاط ملوك مصر عام ٢٧٣ . ويذكر أثنيوس أصناف الأطعمة الشهية التى كانت تثقل موائد هؤلاء السادة ومعداتهم[٢٤] ،

(*) الاستديوم مقياس يونانى يبلغ طوله ٦٠٠ قدم يونانية أو ٥٨٢ قدم إنجليزية .

(**) ولا يكاد يوجد الآن من الإسكندرية القديمة إلا عدد قليل من سراديب الموتى والأعمدة . وإذا كانت آثار هذه المدينة تحت الإسكندرية الحالية مباشرة ، فإن أعمال الحفر للكشف عنها تكون عظيمة النفقة . وأكبر الظن أن هذه الآثار قد هبطت إلى ما تحت مستوى ماء البحر ، ولا شك أن البحر الأبيض المتوسط قد غمر أجزاء من المدينة القديمة .

(+) وكان عدد سكان الإسكندرية فى عام ١٩٢٧ هو ٥٧٠,٠٠٠ .

ويقول عنهم هروداس Herodas إن « الإسكندرية هي بيت أفروديتي ، وإن الإنسان ليجد فيها كل شيء – ثروة ، وملاعب ، وجيشا كبيرا ، وسماء صافية ، ومعارض عامة ، وفلاسفة ، ومعادن ثمينة ، وشبانا ظرفاء ، وبيتا ملكيا طيبا ، ومجمعا للعلوم ، وخمرا لذيذة ، ونساء حسانا »[٣٥] . وكان شعراء الإسكندرية قد أخذوا يكشفون ما للعذارى من قيمة أدبية ، وسرعان ما جعلهن كتابها القصصيون موضوعا لكثير من قصصهم ، كما جعلوا سقوطهن خاتمة تنتهي بها هذه القصص . غير أن المدينة قد اشتهرت في ذلك الوقت بسماحة نسائها وبكثرة ما فيها من فتيات المتعة ، حتى لقد شكا پوليبوس من أن أجمل البيوت الخاصة في الإسكندرية تمتلكها العاهرات[٣٦] . وكانت النساء من مختلف الطبقات يسرن بكامل حريتهن في الشوارع ، ويبتعن حوائجهن من الحوانيت ، ويختلطن بالرجال . وكان منهن أديبات وعالمات مشهورات[٣٧] . وكانت الملكات المقدونيات وسيدات بلاطهن من أرسينوي زوجة بطليموس الثاني إلى كليوبطرة يقمن بدور هام في الشئون السياسية ، ويقترفن جرائمهن خدمة للأغراض السياسية لا للحب ، ولكنهن قد احتفظن بما يكفي من الجمال والفتنة لإثارة الرجال لأعمال من الشهامة والبطولة لامثيل لها من قبل ، في عالم الشعر والنثر على الأقل إن لم يكن في واقع الأمر ، وقد أدخلن في مجتمعات الإسكندرية عنصراً من الظرف والرشاقة النسوية لم يكن معروفاً في بلاد اليونان أيام مجدها .

والراجح أن نحو خمس سكان الإسكندرية كان وقتئذ من اليهود . ولقد كان في مصر منذ القرن السابع قبل الميلاد مواطن للعبرانيين ، ثم قدم إليها كثيرون من تجار اليهود في أعقاب الفتح الفارسي . وكان الإسكندر قد حثهم على الهجرة إليها وعرض عليهم ، كما يقول يوسفوس ، أن يكون لهم ما لليونان من حقوق سياسية واقتصادية[٣٨] . وجاء بطليموس الأول بعد استيلائه على أورشليم بآلاف من الأسرى اليهود الذين أطلق خلفه سراحهم[٣٩] ، ثم دعا

فى الوقت نفسه كثيراً من أثرياء العبرانيين إلى الإقامة فيها ومزاولة الأعمال التجارية والمالية(٤٠) . ولم يكد يستهل القرن الأول الميلادى حتى بلغ عدد اليهود فى مصر مليوناً من الأنفس(٤١) ، يعيش عدد كبير منهم فى الحى اليهودى من العاصمة . لكنهم لم يكونوا مرغمين على الإقامة فى هذا الحى ، بل كان لهم مطلق الحرية فى الإقامة فى أى حى من أحيائها عدا البروكيوم Brucheum الذى كان مقصوراً على أسر الموظفين ومن يخدمونهم . وكانوا يختارون لأنفسهم مجالس كبرائهم ، ويمارسون شعائر دينهم ، وقد أقام أنياس Anias حاخامهم الأكبر فى عام ١٦٩ هيكلا عظيما فى لبونتپوليس Leontopolis إحدى ضواحى الإسكندرية، وخصص صديقه بطليموس السادس إيراد عين شمس للإنفاق على هذا الهيكل . وكان هذا الهيكل وأمثاله مدارس وأمكنة اجتماع كما كانت معابد دينية ، ومن ثم أطلق عليها من يتكلمون اللغة اليونانية من اليهود اسم سيناجوجاى أى أمكنة الاجتماع . وإذ لم يكن فى مصر من بين اليهود المصريين بعد الجيل الثانى أو الثالث إلا أقلية ضئيلة تعرف اللغة العبرية ، فإن قراءة الشريعة كان يتلوها شرح لها باللغة اليونانية ، ومن هذه الشروح والتطبيقات نشأت عادة قراءة المواعظ من نصوص مكتوبة ، كما نشأت من هذه الشعيرة الدينية أولى أشكال القداس الكاثوليكى(٤٢) .

ونشأت من هذه الفوارق الدينية والعنصرية مضافة إلى المنافسات الاقتصادية حركة مناهضة للسامية فى أواخر ذلك العصر . ذلك أن المصريين واليونان قد اعتادوا جميعا وحدة الدين والدولة ، ولم يكن يرضيهم استقلال اليهود الثقافى عن سائر أهل البلاد . يضاف إلى هذا أن منافسة الصانع ورجل الأعمال اليهودى كانت ثقيلة الوطأة عليهم ، ولم يكونوا يطيقون نشاطه وصبره وحذقه ؛ ولما أن أخذت رومة تستورد الحبوب من مصر كان تجار الإسكندرية اليهود هم الذين ينقلون هذه البضاعة فى أساطيلهم(٤٣) . وأدرك اليونان عجزهم عن صبغ

اليهود بالصبغة الإغريقية ، فأوجسوا خيفة على مستقبلهم فى دولة تستمسك الكثرة الغالبة من أهلها بشرقيتها وتتكاثر بسرعة كبيرة . ونسى اليونان تشريع بركليز ، فأخذوا يشكون من أن الشريعة اليهودية تحرم التزاوج بينهم وبين أهل الأديان الأخرى ، ومن أن معظم اليهود لايختلطون بغيرهم . وكثرت الكتب والرسائل المناهضة للسامية ، ونشر مانيثون المؤرخ المصرى القصة القائلة بأن اليهود قد أخرجوا من مصر من عدة قرون لأنهم أصيبوا بداء الخنازير أو الجذام(٤٣) ، واشتدت الأحقاد من كلا الجانبين حتى أدت فى القرن الأول الميلادى إلى أعمال العنف المخربة .

وبذل اليهود غاية جهدهم لتخفيف حدة الغضب من عزلتهم الاجتماعية ونجاحهم فى أعمالهم المالية والتجارية ، فأخذوا يتكلمون اللغة اليونانية ، وإن ظلوا متمسكين بدينهم ، كما أخذوا يدرسون الآداب اليونانية ويكتبون فيها ، ويترجمون كتبهم المقدسة وتواريخهم إلى اللغة اليونانية . ثم سعوا إلى تعريف اليونان بالتقاليد الدينية اليهودية وتمكين اليهودى الذى لايعرف العبرية من قراءة كتبه المقدسة ، فقامت طائفة من علماء اليهود بالإسكندرية فى عهد بطليموس الثانى على الأرجح ، تترجم التوراة العبرية إلى اللغة اليونانية . وسر الملوك من ذلك العمل لأنهم كانوا يرجون أن تؤدى هذه الحركة إلى جعل يهود مصر أكثر استقلالا عن أورشليم مما كانوا حتى ذلك الوقت ، وأن يقل تسرب الأموال اليهوديه — المصرية إلى فلسطين . وتقص إحدى القصص الخرافية كيف دعا بطليموس فلدلفس ، عملا بمشورة دمتريوس الفاليرى ، سبعين عالما من علماء اليهود إلى المجىء من بلادهم فى فلسطين فى سنة ٢٥٠ ، وكلفهم بترجمة كتبهم المقدسة ، وكيف أسكن الملك كل واحد من هؤلاء العلماء فى حجرة خاصة بجزيرة فاروس ، ولم يسمح له بالاتصال بأحد من الناس حتى فرغ كل منهم من ترجمة أسفار موسى الخمسة ؛ فلما فرغ السبعون من ترجماتهم وجدها تتفق

بعضها مع بعض فى كل كلمة ، فدل ذلك على أن هذه النصوص موحى بها من عند الله ، وأن المترجمين أنفسهم قد أوحيت الترجمة إليهم ، وكيف نفح الملك هؤلاء العلماء بعطايا قيمة من الذهب . وتروى القصة فى نهايتها أن الترجمة اليونانية للتوراة العبرية قد عرفت لهذا السبب باسم — الشروح عن السبعين hermeneia keata tous hebdomebkonta وباللاتينية (seniorum) Interpretaio Selpuaginta أو فى كلمة واحدة Septuagint(*) ، (٤٤)

وأياً كانت طريقة الترجمة فيبدو أن أسفار موسى الخمسة قد ظهرت باللغة اليونانية قبل نهاية القرن الثالث ، وأن كتب الأنبياء قد ظهرت بهذه اللغة فى القرن الثانى ، وهذا هو الكتاب المقدس الذى استعان به فيلو وبولس الرسول .

وأخفقت عملية الأغرقة فى مصر إخفاقا تاما مع المصريين واليهود على السواء ، وكان سبب هذا الإخفاق أن المصريين فى خارج الإسكندرية عضوا بالنواجذ على دينهم ، وعلى لباسهم أوعريهم ، وعلى أساليبهم التى ورثوها من أقدم الأزمنة . يضاف إلى هذا أن اليونان كانوا يرون أنهم فاتحون وليسوا كغيرهم من الخلق ، ولم يهتموا بإقامة مدن يونانية جنوب الوجه البحرى أو يتعلم لغة المصريين ، كما أن قوانينهم لم تكن تعترف بالزواج بين المصريين واليونان . وقد حاول بطليموس الأول أن يوحد الدينين اليونانى والمصرى بقوله إن سرابس وزيوس إله واحد ؛ وشجع من جاء بعده من البطالمة أهل البلاد على أن يتخذوهم آلهة يعبدونها لكى يقدموا بذلك للأهلين المختلفى الأجناس معبودا مشتركا لايلقون صعوبة فى عبادته . ولكن المصريين الذين لم تكن لهم مطامع فى المناصب العامة لم يلقوا بالا لهذه العبادات المصطنعة . وأما الكهنة

(*) وهذه القصة مرجعها خطاب يقال إنه بخط كاتب يدعى أرستياس Aristeas عاش فى القرن الأول الميلادى . وقد أثبت هودى الأكسفردى Hody of Oxford فى ١٦٨٤ أن هذا الخطاب مزور(٤٥) .

المصريون الذين جردوا من ثروتهم وسلطتهم ، والذين كانوا يعيشون من الأموال التى تمنحهم إياها الدولة ، فقد ظلوا صابرين ينتظرون انحسار هذه الموجة اليونانية . ولم تكن الغلبة فى الإسكندرية آخر الأمر للصبغة اليونانية ، بل كانت للنزعة الصوفية . ووضعت فى ذلك الوقت أسس الأفلاطونية الجديدة وذلك الخليط من الطقوس المليئة بالأمانى ، والتى كانت تتنازع فيما بينها للاستحواذ على نفوس أهل الإسكندرية فى القرون التى أحاطت بميلاد المسيح . وأضحى أوزريس فى صورة سرابس الإله المحبب للمصريين فى ذلك العهد المتأخر من تاريخهم ، وللكثيرين من اليونان المصريين ، واستعادت إيزيس مكانتها بوصفها إلهة النساء والأمومة ؛ ولما دخلت المسيحية البلاد لم يجد الكهنة أو الشعب ما يحول بينهم وبين استبدال مريم بإيزيس أو المسيح بسرابيس .

الفصل الرابع

الفتنـــة

إن الدرس الذى نستفيده من نظام البطالمة الاشتراكى هو أن الحكومة نفسها قد تستغل الناس . ثم إن هذا النظام قد سار مستقيما إلى حد معقول فى أيام بطليموس الأول والثانى ، فقد تمت فى عهدهما مشروعات هندسية عظيمة ، وتقدمت الزراعة ، ونظمت عمليات البيع والشراء ، ولم يفرط مفتشو الحكومة فى الظلم والمحاباة ؛ ومع أن استغلال الحكومة للمواد والرجال كان استغلالا كاملا لا هوادة فيه فإن الجزء الأكبر مما عاد عليها من هذا الاستغلال قد استخدم فى تزيين البلاد وفى إمداد الحياة الثقافية بما يلزمها من المال . ولكن البطالمة شنوا الحروب وأنفقوا مقدارا متزايدا من مكاسب الشعب على الجيوش والأساطيل والوقائع الحربية ، وتدهورت طباع الملوك تدهوراً سريعاً بعد فلدلفس ؛ فقد انهمكوا فى ملاذ الأكل والطعام والنساء وتركوا أزمة الحكم فى أيدى السفلة الذين ابتزوا كل درهم من الفقراء ، ولم ينس المصريون قط أن هؤلاء المستغلين كانوا من الأجانب ، ولم يغب ذلك عن عقول الكهنة الذين كانوا يحلمون بالحياة المترفة التى كانوا يستمتعون بها قبل سيادة الفرس واليونان .

وكان أهم ما يفهمه البطالمة من الاشتراكية أنها نظام للإنتاج الكثير لا للتوزيع الواسع النطاق . فقد كان الفلاح ينال من محصوله ما يكفى لحفظ حياته ، ولكنه لا يكفى لتشجيعه على عمله أو إعانته على تربية أسرته . وزاد مقدار ما تنزعه الحكومة منه جيلا بعد جيل . ولم يعد الناس يطيقون سيطرة الدولة على كل صغيرة وكبيرة كما لا يطيق الأبناء متى كبروا الرقابة الدائمة التى يفرضها الأب المستبد عليهم . وكانت الدولة تقرض الفلاح البذور ليزرع بها

أرضه ولكنها كانت تقيده بالبقاء فى الأرض حتى يجنى المحصول ، ولم يكن فى وسع أى فلاح أن ينتفع بأى قدر من محصوله إلا بعد أن يؤدى ما عليه للدولة من التزامات وديون . ولقد كان هذا الفلاح صبورا بطبعه . ولكنه رغم طبعه هذا بدأ يتذمر ، فلم يكد يستهل القرن الثانى حتى بارت مساحات واسعه من الأرض لعدم وجود من يزرعها ، ولم يجد مستأجرو أراضى الملك من يؤجرونها لهم ليزرعوها ، فحاولوا أن يقوموا هم أنفسهم بزرعها ، ولكنهم عجزوا عن ذلك العمل ، فأخذت الصحراء تزحف شيئاً فشيئاً على الحضارة . وكان العبيد يعملون فى مناجم الذهب ببلاد النوبة وهم عراة ، فى سراديب مظلمة ضيقة ، وأجسامهم ملتوية ، وهم مثقلون بالأغلال ، يسوقهم الملاحظون إلى العمل بالسياط ، طعامهم حقير لايكاد يسد الرمق، وقد هلك آلاف منهم من سوء التغذية ومن فرط التعب ،وكانت سلواهم الوحيدةفى هذه الحياة هى الموت[٤٧] . وكان العامل العادى فى المصانع يتقاضى أبلةواحدة ($\frac{1}{\text{٦٠٠}}$ من الريال الأمريكى) فىاليوم ، أما الصانع الماهر فكان يتقاضى أبلتين أو ثلاث أبلات ، ويستريح من العمل يوماً فى كل عشرة أيام .

وعم الاستياء ، وازدادت الشكاوى ، وكثر الإضراب: إضراب بين عمال المناجم ،والمحاجر ، ورجال القوارب ، والفلاحين ، والصناع ،والتجار ، ثم تعداهم إلى الملاحظين ورجال الشرطة أنفسهم .ولم يكن الغرض من الإضراب زيادة الأجور ، فإن الكادحين قد يئسوا من هذه الزيادة من زمن بعيد ، بل كان الدافع إليه هو الإعياء واليأس . وتقول بردية تسجل إضراباً من هذا النوع : « لقد خارت قوانا ، وسنفر من العمل » أى أنهم سيعتصمون بأحد الهياكل[٤٨] . وكان كل المستغلين تقريبا من اليونان، وكل الكادحين المستغلَّين تقريبا من المصريين أو اليهود . وكان الكهنة يثيرون مشاعر الأهلين خفية باسم الدين ، على حين كان اليهود يعارضون فى كل عمل تقوم به الحكومة لتخفيف الضغط عليهم أوعلى المصريين . ولجأت الحكومة فى العاصمة إلى العطايا

وأساليب التسلية لترشو بها الجماهير ، ولكنها لم تكن تسمح لهم بدخول الأحياء الملكية ، وكانت تسلط عليهم قوة عسكرية كبيرة تراقبهم وتتجسس عليهم ، ولم تكن تسمح لهم بنصيب ما فى إدارة شئونهم . وما لبثت هذه الجماهير أن أضحت فى آخر الأمر جماعات من الغوغاء عنيفـــة لا تحس بأية تبعة[٤٩] . وثار المصريون فى عام ٢١٦ ولكن الثورة أخمدت ، ثم ثاروا مرة أخرى فى عام ١٨٩ ودامت ثورتهم خمس سنين . وسيطر البطالمة على الموقف وقتاً ما بقوة جيشهم وبزيادة هباتهم للكهنة ، ولكن الموقف كان قد خرج إلى أقصى حدود الحرج ، لأن موارد البلاد نضبت عن آخرها ، حتى لقد أحس المستغلون أنفسهم أنه لم يبق فيها شيء يستغلونه .

وبدأ الانحلال يدب فى كل شيء ، فانتقل البطالمة من الرذائل الطبيعية إلى الرذائل غير الطبيعية ، ومن الذكاء إلى الغباوة ، وانطلقوا يتزوجون بلا قيد وبسرعة أفقدتهم احترام الشعب ، وانغمسوا فى الترف انغماسا أعجزهم عن إدارة دفة الحرب أو الحكم ، وأفقدهم آخر الأمر القدرة على التفكير . وضعفت قدرة الأرض على الإنتاج عاما بعد عام لخروج الناس على القانون ، وقلة أمانتهم وعجزهم ويأسهم ، ولانعدام المنافسة بينهم ، ولضعف الهمم والدوافع التى تبعثها الملكية فى النفوس . وذوى غصن الآداب ، وقضى على الفن المبدع الخلاق ، فلم تكد تضيف الإسكندرية إليهما شيئاً بعد القرن الثالث ، وفقد المصريون احترامهم لليونان ، وفقد اليونان احترامهم لأنفسهم ، إذا صح أن الإنسان قد يفقد احترامه لنفسه ، فنسوا على مر السنين لغتهم ، وأخذوا يتكلمون خليطا فاسداً من اللغتين اليونانية والمصرية ، وازداد عدد من يتزوجون منهم بأخواتهم زيادة مطردة ، كما كان يفعل أهل البلاد ، ومن يتزوجون من أسر مصرية ، فامتصتهم البلاد واندمجوا فى أهلها ، وعبد الآلاف منهم الآلهة المصرية . وما وافى القرن الثانى حتى لم يعد اليونان هم الشعب المسيطر حتى من الوجهة السياسية ؛ ذلك أن البطالمة اعتنقوا دين المصريين

واتبعوا طقوسهم ليحافظوا بهذا على سلطانهم ، وزادوا لهذا السبب عينه من سلطة الكهنة . ولما انغمس الملوك فى الترف والملاذ بدأ الكهنة يستعيدون سلطانهم ويثبتون قواعد زعامتهم ، واستعادوا عاما بعد عام الأراضى والمزايا التى سلبها منهم البطالمة الأولون(٥٠) . ويصف حجر رشيد الذى يرجع إلى عام ١٩٦ق . م الاحتفال بتتويج بطليموس الخامس وصفا لايكاد يختلف فى شىء عن المراسم المصرية القديمة ؛ وفى عهد بطليموس الخامس (٢٠٣— ١٨١) وبطليموس السادس (١٨١ — ١٤٥) أنهكت المنازعات القائمة بين أفراد الأسرة المالكة قوة البيت المالك ، واضمحلت الزراعة والصناعة غاية الاضمحلال ، ولم يعد الأمن والسلام إلى ربوع البلاد حتى جاء قيصر فاستولى على مصر من غير عناء ، ولم يكن استيلاؤه عليها إلا حادثا عاديا من حوادث حياته . وفى عام ٣٠ ق. م . جعلها قيصر ولاية رومانية .

الفصل الخامس

شمس الحضارة اليونانية تغرب فى صقلية

كانت قبلة العهد الهلنستى هى الشرق والجنوب وكاد يغفل الغرب إغفالاً تاما ، وازدهرت قورينى كالعادة وعمها الرخاء لأنها أدركت أن التجارة خير لها من الحرب . ونبغ فيها فى ذلك العهد كلمخوس الشاعر ، وإرتستنيز وكرنيلز الفيلسوفان . أما إيطاليا اليونانية فقد أضعفها وأقض مضجعها ازدياد سكانها وقوة رومة الناشئة ، وعاشت صقلية تتوجس خيفة من قوة قرطاجة ، وقام أغنياؤها بثورة بعد ثلاثة وعشرين عاما من مجىء تمليون Timoleon فقضوا على حكومة سرقوسة الدمقراطية ووضعوا زمام الحكم فى أيدى ستمائة من الأسر الألجركية (٣٢٠) . ولكن هذه الأسر ما لبثت أن تفرقت وكانت شيعاً ، وقضت عليها ثورة من المتطرفين قتل فيها أربعة آلاف نفس ، ونفى من البلاد ستة آلاف آخرون . ونصب أجثكليز Agathocles نفسه طاغية واستعان على ذلك بأن وعد بإلغاء الديون وإعادة توزيع الأراضى[٥١] . وهكذا يصل تركيز الثروة من آن إلى آن إلى أقصى حد ، ولاتصلح الحال إلا بالضرائب أو الثورات .

ودامت الفوضى فى سرقوسة أربعين عاما غزا فيها القرطاجيون الجزيرة مراراً وتكراراً ، وجاءها پرس ، وانتصر ، وهُزِم ، وخرج منها ، ثم سقطت لحسن حظها التى كانت غير جديرة به فى يد هيرون الثانى Hieron خير الطغاة الكثيرين الذين أنتجتهم عواطف أهل صقلية اليونان واضطراب نفوسهم . وحكم هيرون البلاد أربعة وأربعين عاما « لم يقتل فيها مواطناً واحداً أو ينفيه أو يمسسه بأذى ، وذلك بلا جدال أعجب ماسمع به الإنسان » كما يقول پولبيوس[٥٢] . وكان هيرون يعيش عيشة متواضعة معتدلة رغم ما يحيط به من

أسباب الترف ، وقد عمر حتى بلغ سن التسعين . وأراد فى مناسبات عدة أن ينزل عن سلطته، ولكن الشعب توسل إليه أن يحتفظ بها[٥٣] . وقد هدته حكمته إلى أن يعقد حلفاً مع رومة ، وبذلك حمى البلاد من غزو القرطاجيين نحو نصف قرن من الزمان ، واستمتعت المدينة فى أيامه بالسلم والنظام وبقسط كبير من الحرية ، وأقام منشآت عامة عظيمة ، وترك عند موته خزائنها عامرة بالمال دون أن يرهق الأهلين بالضرائب . وبفضل حمايته أومناصرته رفع أركميديز العلم القديم إلى أعلى ذروته ، وتغنى ثاوفريطوس ، باللغة اليونانية الفصيحة فى أواخر أيامها ، بجمال صقلية وبعطايا مليكها المرتقبه . وأضحت سرقوسة وقتئذ أكثر بلاد هلاس سكاناً وأعظمها رخاء[٥٤].

وكان هيرون يسلى نفسه وقت فراغه بمراقبة صناعه وهم يعملون بإشراف أركميديز فى بناء سفينة لنزهته ، تتمثل فيها جميع فنون بناء السفن وجميع العلوم التى عرفها الأقدمون . وكان طولها يبلغ نصف استديوم (٤٠٧ قدم) ، ولها سطح واسع للألعاب الرياضية ، ومدرسة للتدريب الرياضى ، وحمام من الرخام ، وحديقة مظللة ، جمع فيها كثيراً من أنواع النبات المختلفة . وكان فيها سمائة من الفلاحين يدفعونها بعشرين مجموعة من المجاديف ، وكان فى مقدورها أن تحمل فوق هذا العدد سمائة من البحارة أو المسافرين . وكانت تحتوى على مقصورة ، صنعت أرض بعضها من الفسيفساء ، وأبوابها من العاج والأخشاب الثمينة . وكان أثاثها فخماً ظريفاً ، وزينت جدرانها وسقفها بالرسوم الجميلة والتماثيل ، وكان يحميها من الهجوم دروع وأبراج ؛ وكانت تمتد من أبراجها الثمانية كتل ضخمة من الخشب بكل منها ثقب فى نهايتها تسقط منه الحجارة على السفن المعادية . وأنشأ أركميديز بطول هذه السفينة منجنيقا عظيما يستطيع قذف حجارة زنة الواحد منها ثلاث وزنات (١٧٤ رطلا) أو سهام طول الواحد منها ثمان عشرة قدماً . وكانت هذه السفينة تتسع لحمل ٣٩٠٠ طن

من البضاعة ؛ وكانت زنتها وحدها ألف طن . وكان هيرون يأمل أن يستخدمها في الأسفار المنتظمة بين سرقوسة والإسكندرية ، ولكنه وجد أن أحواضها لا تتسع لها لضخامتها ، وأن نفقاتها كثيرة ، فملأها بالحب والسمك من حقول صقلية وبحارها الغنية ، وأرسلها هي وحمولتها هدية منه لمصر ، وكانت وقتئذ تعاني نقصاً في الحبوب غير عادي (٥٥).

ومات هيرون في عام ٢١٦ ؛ وكان يرغب أن يضع قبل موته دستوراً ديمقراطياً للمدينة ، ولكنه استمع في شيخوخته لرأي بناته فأوصى بالملك إلى حفيده (٥٦) . وتبين أن هيرونموس Hieronymus هذا نذل ضعيف ، نبذ حلف رومة واستقبل وفوداً من قرطاجنة ؛ وصحح لهم أن يكونوا من الوجهة العملية حكام سرقوسة ، وكانت رومة لا تجد كفايتها من الحبوب فأخذت تستعد لقتال قرطاجنة لتنتزع منها ثروة الجزيرة التي لم تتعلم في يوم من الأيام كيف تحكم نفسها . وكان عالم البحر الأبيض المتوسط وقتئذ أشبه بالفاكهة العفنة على استعداد لأن يسقط في يدي فاتح أشد بأساً وأقسى قلباً من كل من عرفهم تاريخ اليونان من الفاتحين .

الباب السادس والعشرون

الكتب

الفصل الأول

دور الكتب والعلماء

فى كل ميدان من ميادين الحياة الهلنستية ، عدا ميدان التمثيل ، نجد ظاهرة بعينها - نجد الحضارة اليونانية تنتشر ولا تتقدم . فقد كانت أثينة تحتضر ، وكانت الحلات اليونانية فى الغرب ، عدا سرقوسة ، آخذة فى الانهيار والزوال ؛ ولكن المدن اليونانية فى مصر وفى الشرق كانت فى ذروة مجدها المادى والثقافى . وقد كتب بوليبوس ، وهو رجل واسع التجارب ، غزير العلم بالتاريخ ، حصيف الرأى ، صادق الحكم ، كتب فى عام ١٤٨ ق. م عن هذه الأيام « التى تتقدم فيها العلوم والفنون بخطى سريعة[1] » ؛ وهى نغمة ألفنا سماعها من غيره من الكتاب . وبفضل انتشار اللغة اليونانية واتخاذها لغة عامة وجدت وحدة ثقافية دامت فى بلاد البحر الأبيض المتوسط مايقرب من ألف عام . فكان جميع المتعلمين فى الإمبراطوريات الجديدة يتعلمون اللغة اليونانية ويتخذونها وسيلة الصلات الدبلوماسية ، ولنشر الآداب والعلوم ؛ وكان الكتاب المؤلف باليونانية يفهمه كل متعلم تقريبا من غير أبناء اليونان فى مصر والشرق الأدنى . وكان الناس إذا تحدثوا عن العالم المعمور (الأيكومينى oikoumene) تحدثوا عنه بوصفه عالما ذا حضارة واحدة . قد أصبحت

له نظرة عالية للحياة أقل بعثا للهمم من النظرة القومية الضيقة المتغطرسة التى كانت تسود دول المدن ولكنها قد تكون أكثر منها مطابقة لمقتضيات العقل .

ولهذه الدائرة الواسعة من القراء كتب آلاف الكتاب مئات الآلاف من الكتب ، ولدينا أسماء ألف ومائة مؤلف هلنستى ، وما من شك فى أن من لا تعرف أسماءهم يخطئهم الحصر ، ونشأ خط سريع دارج لتسهيل الكتابة ، بل إننا لنسمع فى واقع الأمر منذ القرن الرابع عن طرق للاختزال يستطاع بها « التعبير عن بعض الحروف والحركات بشروط مختلفة الأوضاع » . وظلت الكتب تكتب على أوراق البردى المصرى حتى حرم بطليموس الرابع تصدير هذه المادة من مصر لعله يمنع بذلك نمو مكتبة برجموم . ورد يومنيز الثانى على هذا العمل بأن شجع صناعة معالجة جلود الضأن والعجول على نطاق واسع ، وكانت هذه الجلود تستعمل للكتابة فى بلاد الشرق من زمن بعيد ، وسرعان ما أصبح الرق المصنوع فى برجموم والمشتق اسمه الأوربى parchment من اسمها ينافس الورق بوصفه أداة للتخاطب ونقل الآداب .

وبعد أن تضاعف عدد الكتب إلى هذا الحد أصبح إنشاء دور الكتب ضرورة محتومة . كانت هذه الدور قد قامت فى مصر وبلاد النهرين قبل ذلك الوقت ، غير أنها كانت فيهما من وسائل الترف التى يختص بها الملوك ، ولكن يبدو أن مكتبة أرسطو كانت أولى مجموعات الكتب الخاصة الكبيرة . وفى وسعنا أن نقدر حجم هذه المكتبة وقيمتها إذا عرفنا أنه دفع ما قيمته ١٨,٠٠٠ ريال أمريكى ثمنا لجزئها الذى اشتراه من اسپيوسپوس خليفة أفلاطون . وأوصى أرسطو بكتبه إلى ثاوفراسطوس ، ثم أوصى بها هذا (فى عام ٢٨٧) إلى نليوس Neleus ، ونقلها هذا إلى اسكپسيس فى Scepsis فى آسية الصغرى ، حيث دفنت فى باطن الأرض ، كما تقول بعض الروايات ، لتنجو من شره ملوك برجموم العلمى . وبعد أن ظلت هذه الكتب مدفونة على هذا النحو البالغ

الضرر ، يبعث حوالى عام ١٠٠ ق . م. إلى أبلكون Apellicon التيوسى of Teos الفيلسوف الأثيني . ووجد أبلكون أن فقرات كثيرة فى الكتب قد أتلفها رطوبة الأرض ، فكتب منها نسخاً جديدة ، وملأ الثغرات المفقودة بقدر ما هداه إليه تفكيره[٣] ؛ وقد يكون هذا هو السبب فى أن أرسطو أكثر الفلاسفة جاذبية فى التاريخ القديم . ولما استولى سلا Sylla على أثينة عام ٨٦ أخذ مكتبة أبلكون ونقلها إلى رومة ، حيث سجل أندرنكوس Andronicus العالم الرودسى نصوص مؤلفات أرسطو[٤] . ونشر هذه النصوص المسجلة- وكان لهذه الحادثة فى تاريخ التفكير الرومانى أثر لا يقل عن أثر يقظة الفلسفة فى العصور الوسطى .

وإن قصة هذه المجموعة وتنقلها من مكان إلى مكان ليدلاننا على ما يدين به الأدب للملوك البطالمة لإنشائهم مكتبة الإسكندرية العظيمة وجعلها جزءاً من متحفها . لقد بدأ هذه المكتبة بطلميوس الأول وأتمها بطليموس الثانى ، ثم أضاف إليها مكتبة أصغر منها فى معبد سرابيس بإحدى ضواحى المدينة . وقد بلغ عدد ما فيها من الملفات قبل نهاية حكم فلدلفس ٥٣٢,٠٠٠ ملف يتكون منها فى أكبر الظن مائة ألف كتاب بالمعنى الذى يفهم من هذا اللفظ فى هذه الأيام[٥] . وظل تكبير هذه المجموعة حيناً من الدهر ينافس فى قلوب ملوك مصر حبهم لتقوية سلطانهم . ومن الشواهد الدالة على ذلك أن بطليموس الثالث أمر أن كل كتاب يصل إلى الإسكندرية يجب أن يودع فى المكتبة ، وأن تنسخ منه صور تعطى واحدة منها لصاحبه وتحتفظ المكتبة بأصل الكتاب . وطلب هذا الملك صاحب السلطان المطلق إلى أثينة أن تعيره مخطوطات إسكلس ، وسفكليز ، ويوربديز ، وأودع لديها ماقيمته ٩٠,٠٠٠ ريال أمريكى ضماناً لعودتها سالمة ، فلما أرسلت إليه احتفظ بأصولها ورد إليها نسخاً منها ، وأبلغ الأثينيين أن يحتفظوا بالمال جزاء له على عمله[٦] . وانتشرت رغبة

الناس فى اقتناء الكتب انتشاراً بلغ من اتساعه أن نشأت طائفة من الناس تخصصت فى صبغ المخطوطات الجديدة وإتلافها ليبيعوها لجامعى النسخ الأولى على أنها كتب قديمة[٧] .

وما لبثت المكتبة أن زادت على المتحف فى أهميتها وتعلق الناس بها وأصبح منصب أمين المكتبة أكبر المناصب مرتباً عند الملك ، وصار من اختصاصاته أن يكون المعلم الخاص لولى العهد . وقد بقيت لنا أسماء هؤلاء الأمناء وإن اختلف بعضها عن بعض فى المخطوطات المختلفة . ويذكر أحدث ثبت لها أسماء الستة الأمناء الأولين وهم : زنودوتس الإفسوسى ، وأپلونيوس الرودسى ، وأرتستنز القورينى ، وأپلونيوس الإسكندرى ، وأرسطوفان البزنطى ، وأرستارخوس السمثراسى ؛ وإن اختلاف أصولهم ليوحى مرة أخرى بوحدة الثقافة الهلينية . ولايكاد يقل عن هذه الأسماء أهمية كلمخوس الشاعر والعالم الذى صنف هذه المجموعة ونظمها فى فهرس عام بلغ عدد ملفاته مائة وعشرين ملفاً . وإنا لتطوف بخيالنا صورة طائفة كبيرة من النساخين ، نظن أنهم من العبيد ، ينسخون صوراً ثانية من أصول الكتب القيمة ، ومعهم عدد لايحصى من العلماء يقسمون هذه الكتب مجموعات . وكان بعض هؤلاء الرجال يكتبون تواريخ مختلف الآداب والعلوم ، وبعضهم يخرجون للناس « طبعات » من الروائع القيمة ، ومنهم من كانوا يكتبون تعليقات وشروحاً للنصوص ليستنير بها غير الإخصائيين وقراء الأجيال التالية . وقد أحدث أرسطوفان Aristophanes البزنطى انقلاباً عظيما فى الأدب بفصل الجمل المستقلة والتبعية فى المخطوطات القديمة بعضها عن بعض بالحروف الكبيرة (Capitals)، وبعلامات الترقيم ، وكان هو الذى اخترع النبرات التى تضايقنا أشد المضايقة فى قراءة الكتابات اليونانية . وقد بدأ زنودوتس تهذيب الإلياذة والأوديسة ، وواصل أرسطوفان عمله ، وأتمه أرستارخوس ، وكانت نتيجة عملهم هو النص الحالى لهاتين الملحمتين ، وهم الذين شرحوا ما غمض فيهما شرحاً يدل على غزارة الاطلاع . ولم ينقض القرن الثالث حتى

حتى أضحت الإسكندرية بفضل متحفها ومكتبتها وعلمائها العاصمة الذهنية للعالم اليونانى فى كل نوع من فروع العلم والأدب عدا الفلسفة .

وما من شك فى أن مدناً هلنستية أخرى كانت بها دور كتب ، يدل على ذلك أن علماء الآثار النمساويين قد كشفوا عن بقايا مكتبة جميلة الشكل تابعة لبلدية إفسوس ، ونسمع أن مكتبة عظيمة قد احترقت حين خرب سيبو Scipio مدينة قرطاجة . ولكن المكتبة الوحيدة التى يمكن موازنتها بمكتبة الإسكندرية هى مكتبة برجوم : ذلك أن ملوك هذه الدولة القصيرة الأجل كانوا يحسدون حسد المستنيرين ملوك البطالمة على جهودهم الثقافية ، وقام يومنيز الثانى بإنشاء مكتبة برجوم ، واستقدم لإبهائها طائفة من أعظم علماء اليونان . وأخذت مجموعة الكتب التى بها تنمو نمواً سريعاً ، حتى بلغ عددها ، حين أهداها أنطونيوس لكليوبطرة ليعوض بها ذلك الجزء من مكتبة الإسكندرية الذى احترق أثناء الثورة على قيصر عام ٤٨ ق .م . مائتى ألف ملف . وبفضل هذه المكتبة ، وما كان لملوك برجوم من ذوق أتيكى حسن أضحت هذه المدينة فى أواخر العصر الهلنستى مركزاً لأنقى مدرسة من مدارس النثر اليونانى ، وهى مدرسة لم تكن ترى أن لفظا ما يونانيا نقيا إلا إذا كان قد ورد فى كتابات العصر القديم . ونحن مدينون إلى حماسة هؤلاء الأدباء بما بقى من روائع النثر الأتيكى .

ولقد كان هذا العصر أولا وقبل كل شىء عصر النابهين والعلماء ، عصراً أصبحت الكتابة فيه مهنة لا هواية ، ونشأت فيه جماعات وحلقات يتناسب تقدير بعضها مواهب البعض الآخر تناسبا عكسياً مع مربع المسافة بينها . وبدأ الشعراء يكتبون للشعراء . وأضحت كتاباتهم لذلك متكلفة مصطنعة ، وأخذ العلماء يكتبون للعلماء ، فكانت كتاباتهم خالية من البهجة والروعة ، وشعر المفكرون أن إلهام اليونان المبدع كاد ينضب معينه ، وأن أبقى خدمة يستطيعون أداءها هى أن يجمعوا ، ويحفظوا ، ويدونوا ، ويشرحوا الأعمال الأدبية التى أنشأها

عصر أسمى وأعظم جرأة من عصرهم . لذلك أوجدوا طرق نقد النصوص والآداب بجميع أشكاله تقريباً ، وحاولوا أن يستخرجوا خلاصة المخطوطات الكثيرة التي كانت بين أيديهم ، وأن يرشدوا الناس إلى ما يجب أن يقرؤوه منها ، فوضعوا قوائم « بأحسن الكتب » و« شعراء البطولة الأربعة » و« السبعة المؤرخين » و« العشرة الشعراء الغنائيين » و« العشرة أخطباء » وما إلى هذا[٩] . وألفوا سيرا لكبار الكتاب والعلماء ، وجمعوا وأنجوا من الدمار المعلومات المشتتة التي لانعرف الآن غيرها عن هؤلاء الرجال . وكتبوا خلاصات في التاريخ ، والآداب ، والتمثيل ، والعلم والفلسفة[١٠] ؛ وقد ساعدت بعض هذه الخلاصات التي كانت أشبه « بالطرق المختصرة للمعرفة » على حفظ المؤلفات الأصلية التي لخصتها ، وإن كان بعضها قد حل محلها وقضى بغير علم واضعيها على هذه المؤلفات . وأقض مضاجع العلماء الهلنستيين تدهور اللغة اليونانية الأتكية الفصحى وحلول الرطانة اليونانية الشرقية المنتشرة في ذلك الوقت محلها ، فأخذوا يضعون المعاجم وكتب النحو ؛ وأصدرت مكتبة الإسكندرية ، كما يفعل المجمع العلمي الفرنسي في هذه الأيام ، قرارات تبين الاستعمال الصحيح للألفاظ والعبارات اليونانية القديمة . ولولا جد هؤلاء العلماء وصبرهم لقضت الحروب ، والثورات ، والكوارث التي توالت على هذا الجزء من العالم مدى ألفي عام ، على هذه « الشذرات الثمينة » التي انتقلت إلينا من حطام التراث اليوناني القديم .

الفصل الثاني

كتب اليهود

لقد احتفظ اليهود وسط هذا الجو المضطرب الذى لف ذلك العصر بحبهم التقليدى للبحث العلمى ، وأخرجوا أكثر من نصيبهم من الأدب الخالد الذى أخرج فى ذلك العصر . وإلى ذلك العصر تنتمى طائفة من أجمل أجزاء التوراة فقد ألف شاعر يهودى (أو ألفت شاعرة يهودية) قبيل اختتام القرن الثالث نشيد الإنشاد الجميل : فى هذا النشيد كل ماحواه السفر اليونانى من سافو إلى ثاوفريطوس من روعة فنية ، ولكن فيه فوق هذا مالايمكن العثور عليه عند أى مؤلف من مؤلفى ذلك العصر — فيه قوة الخيال ، وعمق فى الشعور ، وإخلاص مثالى ، حوى من القوة ما يكفى للترحيب بجسم الحب وروحه ،وأن يبدل الجسم نفسه روحاً . وقد كتب اليهود الهلنستيون وقتئذ — بالعبرية أو الآرامية أو اليونانية — روائع خالدة كأسفار الجامعة ، ودانيال ، وأجزاء من الأمثال ، والمزامير ، والجزء الأكبر من الأسفار الإبوكريفية ، كتبوا بعضها فى أورشليم ، ومعظمها فى الإسكندرية ، وبعضها الآخر فى غيرهما من مدائن شرق البحر الأبيض المتوسط . وكتبوا تواريخ كسفر الأخبار وقصصاً صغيرة كاستر ويهوديت ، وأناشيد للأسر كسفر طوبيت . وحول كبار العلماء الكتابة العبرية من النمط الأشورى القديم إلى النمط السورى المربع احتفظت به إلى اليوم[11] . وإذ كان معظم اليهود فى بلاد الشرق الأدنى يتكلمون وقتئذ الآرامية بدل العبرية ، فقد أخذ علماؤهم يفسرون لهم الكتاب المقدس بترجمته إلى الآرامية ، وافتتحت المدارس لدراسة أسفار موسى ، والشريعة ، وتفسير القوانين الأخلاقية للشبان الناشئين . وانتقلت هذه الشروح

والتعليقات ، والإيضاحات من المعلم إلى الطالب جيلا بعد جيل ، فكان منها في العصور التالية معظم المادة التي احتواها التلمود .

وقبل أن يختم القرن الثالث كان علماء المجمع العظيم قد فرغوا من نشر الأدب القديم كله وانتهوا من كتب العهد القديم[١٣] . وقد حكموا في ذلك الوقت أن عصر الأنبياء قد انقضى وأن الوحي اللفظي قد انتهى زمنه ، وكانت نتيجة هذا الحكم أن كثيراً مما كتب في ذلك العصر وإن كان مليئاً بالحكمة والجمال لم تتح له فرصة السند الإلهي ، فكان نصيبه أن يصبح جزءاً من أسفار الأبكريفا المنكودة(*) . ولعل بعض أسفارها مدينة بروعتها الأدبية إلى براعة المترجمين في عهد الملك جيمس ، ولكن هؤلاء المترجمين لا يمكن أن يكونوا أصحاب الفضل في تلك العبارات المؤثرة التي تصف سؤالا للملك أوريل أن يفسر كيف يفلح الخبيثون ويعذب الصالحون ؟ وكيف تكون إسرائيل أسيرة ذليلة ؛ فيجيب الملك ، بتشبيهات ومجازات قوية ولكن في عبارات سهلة بسيطة أن ليس من حق الجزء أن يفهم الكل أو يحكم عليه .

وتقول مقدمة سفر الحكمة إن هذا السفر ترجمة يونانية تمت في عام ١٣٢ لأحاديث باللغة العبرية كتبها يسوع بن سيراك جد المترجم قبل ذلك الوقت

(*) أسفار الأبكريفا (ومعناها الحرفي الخفية) في العهد القديم هي الأسفار التي ستبعدت من النص اليهودي للعهد القديم الموحى به ، ولكنها اشتملت عليها النسخة الكاثوليكية للكتاب المقدس ، أي الترجمة اللاتينية التي قام بها القديس جيروم للنصوص العبرية واليونانية . وأهم أسفار الأبكريفا في العهد القديم هي سفر الحكمة ، وسفر المكابيين الأول والثاني . أما أسفار الرؤيا (أي الوحي) فهي التي يقولون إنها تحتوي على الوحي والتنبؤات الإلهيـــة ؛ وقد بدأ ظهور هذه الكتابات الأخيرة حوالي عام ٢٥٠ ق . م . واستمرت إلى العهد المسيحي . وتعد بعض أسفار الرؤيا كسفر أخنوخ أبكريفية غير معترف بصحتها ، ويعد بعضها الآخر كسفر الرؤيا صحيحاً معترفاً بصحته .

بجيلين .وكان يسوع بن سيراك هذا عالما ورجلا من رجال الأعمال ، رأى بعض أحوال العالم فى خلال أسفاره ثم استقر فى بلده واتخذ منزله مدرسة للطلاب ، وألقى عليهم هذه الأحاديث يبين لهم فيها حكمة الحياة[١٣] .وهو يندد فيها بأغنياء اليهود الذين خرجوا على دينهم ليكون لهم شأن فى عالم الكفار ؛ ويحذر الشباب من العاهرات الواقفات لهم بالمرصاد فى كل مكان ،ويعرض عليهم شريعة موسى ويصفها بأنها لاتزال خير هاد لهم وسط شرور العالم ومزالقه . ولكنه ليس بالرجل المتزمت فى دينه فلا ينحو نحو « المتقين » بل يجد كلمة طيبة يقولها ليدخل بها السرور البرىء على قلب محدثه ، وهو يندد بالمتصوفين الذين يرفضون الدواء بحجة أن المرض مرسل من عند الله ، وأنه لذلك لايشفيه إلا الله وحده . والكتاب ملىء بالحكم أشهرها كلها الحكمة التى تجمع بين الطفل والعصا . ويقول رينان Renan إن « السياط التى يبررها ضاربوها بهذه الحكمة ليخطئها الحصر بلا ريب[١٤] » . والحق أن هذا السفر عظيم وأنه أكثر حكمة ورأفة من سفر الجامعة .

وقد ورد فى الإصحاح الرابع والعشرين من سفر الحكمة أن « الحكمة أول ما أوجده الله ، فقد خلقها من بداية العالم » . وفى هذا الإصحاح وفى الإصحاح الأول من سفر الأمثال نجد أقدم صورة من صور نظرية « الكلمة » أى الحكمة - بوصفها خالقا وسطا » عهد إليها الله تنظيم العالم . وتشخيص الحكمة بهذه الصورة أى جعلها ذكاء مجسداً يصبح من المبادئ الرئيسية ذات الشأن فى الدين اليهودى خلال القرون السابقة لظهور المسيح مباشرة . وإلى جانب هذا ترى فكرة الخلود الشخصى تزداد وضوحا شيئاً فشيئاً . وفى كتاب أخنوخ الذى كتبه على ما يظهر عدد من الكتاب المختلفين فى فلسطين بين عامى ١٧٠ ، ٦٦ قبل الميلاد يصبح الأمل فى ملكوت السموات حاجة أساسية ؛ وسبب ذلك أن ما يناله الأشرار من خير وفلاح وما يلقاه الأتقياء والصالحون والأوفياء من سوء المصير لم يعد يستطاع تحمله إلا إذا عمرت صدور الناس

بهذا الأمل . وقد بدا للناس أن الحياة والتاريخ إذا تجردا من هذا الأمل كانا من عمل الشيطان لا من فعل الله . وسينزل مسيح يقيم مملكة السماء فى الأرض ويجزى المتقين بالسعادة السرمدية بعد الموت »

ويعبر سفر دانيال عما كان يسود عهد أنتيوخوس الرابع من هولٍ ورعب. فقد حدث حوالى عام ١٦٦ حينما كان المؤمنون يعذبون ويقتلون لتمسكهم بدينهم ، وكان الأعداء المتزايدون يهاجمون المكابيين ، أن أخذ أحد «المتقين» على الأرجح على نفسه أن يستثير شجاعة الشعب بأن يصف له ما لاقاه دانيال من العذاب ، وما نطق به من التنبؤات فى بابل أيام نبوخذنصر. وتداولت أيدى اليهود فى السر نسخاً من هذا الكتاب ، وقيل عنه إنه من وضع نبى من الأنبياء عاش قبل ذلك العهد بثلثمائة وسبعين عاما ، وإنه لاقى ألواناً من العذاب أشد مما لاقاه أى يهودى فى عهد أنتيوخوس ، وإنه خرج منها ظافراً ، وتنبأ بأن شعبه سينال من النصر مثل ما ناله هو ، وقال إنه إذا كان الصالحون والمؤمنون لم يلقوا ما هم خليقون به من السعادة فى هذا العالم ، فسوف يتألون جزاءهم الأوفى يوم الحساب ، حين يدخلهم الله فى ملكوت السموات ليعموا فيها بالسعادة السرمدية ويلقى بمن عذبوهم فى الجحيم الأبدى .

وجملة القول أن ما بقى من كتابات اليهود فى ذلك العهد يمكن وصفه بأنه أدب صوفى خيالى يهدف إلى تعليمهم وتقوية روحهم ومواساتهم . لقد كانت الحياة نفسها كافية لليهود الذين عاشوا قبل ذلك العهد ، ولم يكن الدين وقتئذ طريقاً للفرار من العالم ، بل كان تمثيلا مسرحياً للأخلاق يثير الإيمان ، يصور لهم إلها قديراً يحكم كل شىء ويرى كل شىء ، يثيب على الفضيلة ويعاقب على الرذيلة فى هذه الحياة الدنيا . ثم زعزع « الأسر » هذه العقيدة ، وجددتها إعادة بناء الهيكل ، ثم حطمتها ضربات أنتيوخوس . ووجد التشاؤم الآن الميدان فسيحاً أمامه ؛ ورأى اليهود فى كتابات اليونان أفصح تعبير عن

مظالم الحياة ومآسيها . وكان اتصال اليهود فى هذه الأثناء بأفكار الفرس عن الجنة والنار ، وعن الكفاح بين الخير والشر ، وانتصار الخير فى آخر الأمر ، كان هذا كله مما يسر لهم الفرار من فلسفة اليأس ؛ ولعل أفكار الخلود التى انتقلت من مصر إلى الإسكندرية ، والأفكار التى قامت عليها طقوس اليونان الخفية ، لعل هذه وتلك قد تعاونت على أن تبعث فى قلوب اليهود فى العصرين اليونانى والرومانى ذلك الأمل الذى أبقى على كيانهم خلال الحادثات التى مرت بأشيكل والدولة . ومن هؤلاء اليهود ، ومن المصريين ، والفرس ، واليونان ، سرت فكرة الثواب والعقاب الأبديين إلى دين جديد أقوى من دين اليهود ، وأعانت هذا الدين على أن يضم تحت لوائه عالما كان سائراً فى طريق الانحلال .

الفصل الثالث

مناندر

بلغ التمثيل فى ذلك العهد ، كما بلغ غيره من الفنون، ذروته من حيث كمية الإنتاج ، ولقد كان لكل مدينة بل كاد يكون لكل بلدة فى المرتبة الثالثة دار للتمثيل . وكان الممثلون أحسن تنظيماً مما كانوا فى أى عصر سابق ، وكان الطلب عليهم كثيراً ، وكانوا ينالون أجوراً عالية ، ويعيشون من الناحية الخلقية عيشة أرقى من أهل زمانهم . وظل كتاب المسرحيات يكتبون المآسى ، ولكن الدهر أسبل عليهم ثوب النسيان ، سواء كان ذلك من قبيل المصادفات أو كان سببه ارتقاء أذواق الناس . لكن مزاج أثينة الهلنستية ، كمزاج هذه الأيام ، كان يفضل قصص المسلاة الجديثة ، الخفيفة الروح ، النزقة، العاطفية ، ذات الخاتمة المفرحة . ولم يبق من هذه أيضاً إلا قطع متفرقة ولكن لدينا نماذج منها غير مشجعة فى مختلسات پلوتس Plautus وترنس Terence اللذين ألفا مسرحياتهما بترجمة المسالى الهلنستية وتحويرها . وقد أغفلت فى المسالى الجديدة شئون الدولة وشئون الروح العليا التى ألهمت أرسطوفان لأن كتابة هذه المسالى كانت أكثر مما تتحمله طاقة الكتاب الأدبية ؛ وكان موضوعها فى العادة مأخوذاً من المنزل أو الحياة الخاصة ، بتعقب الطرق الملتوية التى ترفع بها النساء إلى منزلة الكرامة وتؤدى بالرجال مع ذلك إلى الزواج . وترى فيها الحب يسير فى طريق النصر لكى يصبح أهم شىء على المسرح ؛ وترى مئات الفتيات حائرات بائسات على المسرح ولكنهن ينلن الشرف ويحصلن على الأزواج فى آخر المسرحية . ولم يبق وجود للملابس القديمة التى كانت تمثل فيها أعضاء الذكور ، ولا للخلاعة والفجور الأولين ؛ بل كانت تدور القصة فى مجال ضيق حول عذرة السيدة

المهمة فيها ، ولم يكن للفضيلة فيها شأن كبير كشأنها فى الصحف اليومية فى هذه الأيام . وإذ كان الممثلون يلبسون أقنعة ، وكان عدد الأقنعة محدوداً، فإن كاتب المسلاة كان يحيك حبكته وما فيها من دسائس وخطأ فى هوية أشخاص المسرحية حول عدد قليل من الأشخاص البلهاء كان يسر النظارة على الدوام أن يميزوهم بعضهم من بعض . وكانت الشخصيات التى تتكرر باستمرار هى شخصية الأب القاسى ، والشيخ الهرم ، الخير ، والابن المتلاف ، والوارثة التى يخطئ الناس فيظنونها فقيرة ، والجندى الصخاب ، والعبد الحاذق ، والمتملق ، والطفيلى ، والطبيب ، والقس ، والفيلسوف ، والطاهى ، والعشيقة ، والقواد .

وكان رافعا علم هذه المسلاة الأخلاقية فى أثينة فى القرن الثالث هما فلمون Philemon ومناندر Menander . فأما فلمون فلا يكاد يبقى لنا من آثاره شىء سوى صدى شهرته ، وكان الأثينيون يحبونه أكثر مما يحبون مناندر ، وقد منحوا أولهما من الجوائز أكثر مما منحوا الآخر ؛ ولكن فلمون ارتفع بفن تنظيم المصفقين المأجورين فى دار التمثيل إلى ذروته ؛ وإذ كانت الأجيال المقبلة قد أغفل أمرها ولم يحسب لها حساب فى تلك الأجور ، فإنها لم تأخذ بحكم هؤلاء المصفقين وقلبته ظهراً لبطن ، ووضعت التاج على عظام مناندر . وكان هذا المؤلف المسرحى الذى يماثل كجريف Cogreve فى العصر الحديث ابن أخ كاتب مسرحى آخر غزير الإنتاج هو ألكسيس الثوريائى Alexis of Thurii تلميذ ثاوفراسطوس وصديق أبيقور . وقد تعلم من أستاذه وصديقه أسرار المسرحيات ، والفلسفة ، وهدوء النفس ، وكاد أن يحقق مثل أرسطو الأعلى ؛ فقد كان جميلا ، ثرياً ، يفكر فى الحياة فى هدوء وحسن إدراك ، ويستمتع بملاذها استمتاع الرجل المهذب . وكان عاشقاً متقلباً ، قنع بأن يجزى جلسرا Glycera على حبها وإخلاصها له بأن يمس اسمها بعصا الخلود السحرية . ولما دعاه بطليموس الأول إلى الإسكندرية بعث فلمون بدلا منه وقال : « إن فلمون

ليست له جلسرا ». ومرت جلسرا بذلك أيما سرور ، وكانت قد قاست كثيراً بانتصارها على ملك من الملوك(١٥) . ويؤكد لنا رولة أخباره أنه عاش معها بعد ذلك الوقت وأخلص لها حتى مات فى الثانية والخمسين من عمره باعتقال العضلات بينا كان يستحم فى بيرية (٢٩٢)(١٦) .

وظهرت مسرحيته الأولى فى السنة التى أعقبت وفاة الإسكندر ، كأنها بظهورها فى تلك السنة تعلن بداءة عهد جديد . وكتب بعد ذلك العام مائة مسلاة وأربعاً ، نالت ثمان منها الجائزة الأولى . وقد بقى من هذه المسرحيات نحو أربعة آلاف سطر كلها قطع منها قصيرة متفرقة ماعدا بردية عثر عليها فى مصر عام ١٩٠٥ . وتحتوى هذه البردية على نصف مسلاة المحكمين Epitrepontes وقد هبطت بسمعة مناندر . ولو أننا شكونا من أن موضوعات هذه المسالى مسئمة كموضوعات فنون النحت ، والعمارة ، والخزف اليونانية ، للمحبت شكوانا هذه مع الريح ؛ بل ينبغى لنا أن نذكر أن اليونان لم يكونوا يحكمون على المسرحية بالقصة التى تقصها — وهو معيار خليق بالأطفال — بل بالطريقة التى تقصها بها . ومن أجل هذا كان ما يعجب به العقل اليونانى فى مناندر هو أسلوبه الأنيق المصقول ، والفلسفة المركزة فى فكاهته ، وتصوير المناظر العادية تصويراً بلغ من واقعيته أن صاح أرسطوفان البيزنطى متسائلا: أى مناندر، وأنت أيتها الحياة ، ترى أيكما يقلد الآخر »(١٧) وكان مناندر يرى أنه لم يبق للإنسان شىء فى هذا العالم الذى ضاع تحت أقدام الجنود إلا أن يفكر فى شئون البشر تفكير الناظر إليها وهو خارج عنها ، يعطف عليها من غير أن يتورط فيها . وهو يلاحظ غرور النساء وتقلبهن ، ولكنه يسلم بأن الزوجة العادية نعمة من أجل النعم . وتدور فكرة المحكمين فى بعض أجزائها على رفض المعيار المزدوج(١٨) ، ويدور موضوع إحدى المسرحيات بطبيعة الحال حول عاهر مخلصة ترفض كما ترفض ذات الكميليا دوماس ، الرجل الذى تحبه ، لكى تمكنه من أن يتزوج زواجاً محترماً بسيدة يجنى من وراء

زواجه بها نفعاً[١٩] . وفى بعض القطع الباقية من المسرحيات سطور جرت مجرى الأمثال ، منها قوله : « إن أخبار السوء تفسد الخلق الطيب » (وقد نقلها القديس بولس)[٢٠] ، و« الضمير الحر يخلق من الجبناء رجالا بواسل »[٢١] . ومن الناس من يعزو إلى مناندر أصل قول ترنس الشهير : « إنى رجل ، ولا أرى شيئاً من مستلزمات الرجولة غريباً عنى » . وتعثر فى كتاباته أحياناً على لآلىء من الفطنة والفراسة كقوله : « كل شىء يموت إنما يموت بما يعتريه من فساد ، وكل ما يفسد يفسد من الداخل » وكهذه الأبيات التى تعد أنموذجاً صادقاً لشعر مناندر ، والتى يتنبأ فيها بموته المبكر :

إن الذين تحبهم الآلهة يموتون صغاراً ، طوبى للرجل
الذى يرى فى اطمئنان هذا الموكب الرهيب
موكب الشمس ، والنجوم ، والبحر ، والنار ، ثم يعود بعد ذلك
مسرعاً إلى بيته وقلبه مطمئن لم يمسسه سوء .
وسواء كانت الحياة قصيرة أو طويلة فإنك بلا ريب
يا پرمينو لن ترى شيئاً أحسن
من هذه الأشياء ، إذن فاتخذ مقامك هنا كما
لو كنت ممن يترددون على دور التمثيل أو الأعراس .
كلما أسرعت كان ذلك أضمن لراحتك .
سوف تعود مزوداً بأحسن زاد ، لا عدولك ، قوياً عند الحاجة ؛
أما من يبطئ فسيقضى فى الطريق منهوك القوى ، تثقله السنون ،
ويلاحقه الأعداء الذين تؤلبهم عليه متاعب الحياة النكدة ؛
وهكذا يموت أسوأ ميتة من يبطئ عليه الموت .

الفصل الرابع

ثاوقريطوس

ماتت الملاة اليونانية ، ومات الأدب الأثيني إلى حد كبير ، بموت فليمون عام ٢٦٢ . نعم إن المسرح قد ازدهر ولكنه لم ينتج من الروائع ما رأي الزمان أو العلماء أنه خليق بالبقاء ، وأخذ تكرار المسالى القديمة — وخاصة مسالى فليمون ومناندر — يطرد من هذه المسارح التمثيليات المبتكرة . ولما انقضى القرن الثالث خفتت معه روح المجتمع المرح التي أوجدت الملاة الجديدة وحلت محلها في أثينة النزعة الجدية التي كانت من خصائص المدرسة الفلسفية . وحاولت مدن أخرى وخاصة مدينة الإسكندرية أن تنقل إليها غروس فن التمثيل ولكنها لم توفق .

وجددت المكتبة الكبرى والعلماء الذين اجتذبتهم إليها نفحة الأدب الإسكندرى . فكان لابد للكتب أن تتفق مع أذواق القراء المتعلمين الناقدين التي « سفسطها » العلم والتاريخ . وحتى الشعر نفسه أضحى شعرا علميا وحاول أن يستر ما فيه من ضعف الخيال بالإشارات الغامضة والتلاعب الدقيق بالألفاظ . وأخذ كلمكس يكتب تراتيل ميتة لآلهة ميتة ، ونكات شعرية طريفة تلتمع يوما واحدا ، ومدائح تنم عن فطنة وروية مثل خصلة برنيس The Lock of Bernice وقصيدة إرشادية عن الأسباب (Aitia) وهي قصيدة تحتوى على كثير من المعارف العلمية في الجغرافية ، والأساطير ، والتاريخ ، وعلى قصة من أقدم قصص الحب في الأدب . ومضمون هذه القصة أن بطلها أكنتيوس Acontius فتى بارع الجمال إلى درجة لا يصدقها العقل ، وأن سيدبى Cydippe ذات جمال مفرط ، ويلتقى الفتى والفتاة فيتحابان من أول نظرة ، ويقف في سبيل هذا الحب أبواهما الشرهان المحبان للمال ، فيهددانهما .

تلك هي القصة التي رواها ملايين من الشعراء والقصصيين منذ ذلك العهد ، والتي سيظل يرويها ملايين آخرون من هؤلاء وأولئك في مستقبل الإيام . غير أننا يجدر بنا أن نضيف إلى هذا أن كلمكس يعود في إحدى مقطوعاته إلى الأذواق اليونانية المألوفة :

اشرب الآن وأحب يا دمقراطيس Democrates ؛ لأنا
لن نجد بعد خمراً أو غلمانا إلى أبد الآبدين[٢٤] .

وكان منافسه الوحيد في القرن الذي عاش فيه هو تلميذه أپلونيوس الروديسي . ولما أن سطا هذا التلميذ على أشعار أستاذه ونافسه عند البطالمة ، أخذ الرجلان يتنازعان بالعمل وبالكتابة تنازعا أدى إلى عودة أپلونيوس إلى رودس ، حيث برهن على شجاعته بأن كتب في عصر يفضل الإيجاز على الإطناب ملحمة متوسطة القيمة هي ملحمة الأرجو نوتكا Argonautica . ولم تنل هذه الملحمة من عناية كلمكس أكثر من نكتة شعرية قصيرة هي قوله : « إنه الكتاب الكبير شر مستطير » — وهو قول يستطيع القارئ أن يجد شاهدا عليه في الكتاب الذي بين يديه . وكوفئ أپلونيوس على عمله في آخر الأمر فنال المنصب الذي كان يطمع فيه وهو منصب أمين مكتبة الإسكندرية ، وأفلح فوق هذا في إقناع بعض معاصريه أن يقرؤوا ملحمته . ولا تزال هذه الملحمة باقية إلى الآن ، وفيها دراسة فلسفية ممتازة لحب ميديا ، ولكنها ليست من الملاحم التي لا غنى عنها لطالب العلم الحديث(*) .

وتنم نشأة شعر الرعاة عن قيام حضارة مدنية غير ريفية ، ويكاد هذا الشعر أن يجاري تلك الحضارة خطوة فخطوة . ذلك أن لليونان في القرون الأولى من تاريخهم لم يقولوا إلا النزر اليسير عن جمال الريف لأن معظمهم كانوا يعيشون من قبل إما في الضياع نفسها أو قريبين منها ، وكانوا يعرفون ما في الحياة

(*) وقد نسج فرجيل في الإلياذة على منوالها في شكلها ، وفي مادتها أحياناً ، وحاكاها أحياناً سطراً سطرا .

الريفية وعزلتها من صعاب ، كما يعرفون ما فيها من هدوء وجمال . وما من شك فى أن إسكندرية البطالمة كانت حارة مترِبة كإسكندرية هذه الأيام ، ولهذا فإن من كان يقيم فيها من اليونان كانوا يعودون بذاكرتهم إلى تلال بلادهم الأصيلة وحقولها ، ويتخيلون هذه التلال والحقول المثل الأعلى فى جمال المنظر ؛ فكانت المدينة العظيمة والحالة هذه هى المكان الموحى بالشعر الرعوى .

وأقبل عليها حوالى عام ٢٧٦ شاب جرىء يحمل ذلك الاسم الظريف وهو ثاوقريطوس . وكان قد بدأ حياته فى صقلية ، وقضى بعدئذ جزءا منها فى كوس ، ثم عاد إلى سرقوسة يسعى إلى رفد هيرون الثانى ، ولكنه لم يوفق ؛ غير أنه لم ينس قط جمال صقلية ، وجبالها وأزهارها ، وسواحلها وخلجانها ، فلما انتقل بعدئذ إلى الإسكندرية أنشأ قصيدة فى مدح بطليموس الثانى نال عليها رضاء البلاط وهو رضاء قصير الأجل . ويبدو أنه ظل بضع سنين يعيش بين رجال البلاط والعلماء ، بينما كانت الصور الجميلة التى يرسمها لحياة الجبال تحببه إلى سوفسطائيي العاصمة . وتصف قصيدته بركسنووا **Praxinoa** ما يلقاه الإنسان فى شوارع الإسكندرية المزدحمة من هول وفزع :

ربّاه : ما أكثر أولئك الغوغاء ! ليس فى وسعى أن أتصور
كيف نستطيع أن نشق طريقنا، أو كم من الزمن يلزمنا لكى نشقه فيها ؛
إن عش النمل لايعد شيئاً إلى جانب هذا الهرج والمرج . . .
أى جرجون **Gorgon** ، ياعزيزى ؛ أنظر ! — ماذا فى مقدورنا أن نفعل ؟
أولئك هم فرسان الملك ! لا تطؤونا بسنابك خيولكم !
أونوا **Eunoa** ، تنحى عن طريقهم(٣٦) !

وكيف يستطيع رجل له نفس شاعر وذكريات صقلية أن يكون سعيداً فى هذه البيئة ؟ لقد كان يمدح الملك لكى يستطيع العيش ، ولكنه كان يغذى روحه بما فى مخيلته من صور جزيرته الأصلية ، ولعله كان يغذيها أيضاً بصور جزيرة كوس ؛ وكان يجسد الراعى على حياته البسيطة ويتخيله وهو يخطو وراء قطعانه

الهادئة الوديعة فوق منحدرات التلال المعشوشبة المطلة على البحار المشمسة . وقد أتم وهو فى هذه الحالة نشيد الرعاة — الإيدليون eidyllion أو الصورة الصغيرة — ووصفه ذلك الوصف الذى لايزال محتفظاً به إلى الآن ، وهو نقش ريفى أو قصة شعرية . وليس فى الاثنتين والثلاثين مقطوعة التى وصلت إلينا من أشعار ثاوقريطوس إلا عشرة أناشيد رعوية ، ولكن هذه الأناشيد العشرة قد طبعت ذلك الاسم الذى يشملها جميعاً بطابع نصف ريفى . وبهذه الأناشيد يدخل وصف الطبيعة آخر الأمر فى الأدب اليونانى ، وهو لايدخله دخول الإلهة فحسب ، بل يدخله كذلك دخول معالم الأرض الحية المحببة إلى النفوس . ولم ينقل الأدب اليونانى قبل ذلك العهد ، بمثل هذا الشعور الحى ، الإحساس الخلقى بالصلة التى تبعث فى النفس حب الصخور والجداول ، والماء والأرض والسماء ، والاعتراف بفضلها على بنى الإنسان .

بيد أن موضوعاً آخر ينفذ فى قلب ثاوقريطوس إلى أعماق أبعد من التى ينفذ إليها الشعر الرعوى — ذلك هو موضوع الحب . ولكنه وهو لايزال يونانياً رغم بعده عن بلاد اليونان ، ينشئ أغنيتين شعريتين (الثانية عشرة والتاسعة والعشرين) فى الصداقة الجنسية بين الغلمان ، ويقص قصصاً واضحاً جياشاً بالعاطفة قصة هرقل وهيلاس Hylas (الأغنية الثالثة عشرة) ، وكيف « قاوم الجبار وحشية الأسد ، وأحب شاباً ، وعلمه ، كما يعلم الأب ابنه ، كل ما يستطيع به أن يكون رجلا طيباً ذائع الصيت ؛ ولم يكن يفارق الغلام فى مطلع الفجر ، أو وقت الظهيرة أو فى المساء ، ولكنه كان يعمل دائباً على أن يشكله بالصورة التى يحب من صميم قلبه أن يكون عليها ، وأن يجعله رفيقه الحقيقى ، يماثله فى أعماله العظيمة » . وثمة أنشودة أشهر من الأنشودة السابقة (الأنشودة رقم ١) وهى التى تعيد على مسامعنا قصة دفنيس Daphnis لاسنكسورس الراعى الصقلى الذى زمر وغنى زميراً وأغانى بلغ من جمالها أن جعلته الأقاصيص

الخرافية مخترع شعر رعاة البقر . وخلاصة القصة أن دفنيس ظل وقتاً ما يراقب قطعانه ، ويحسدها على مرحها وحبها ، حتى إذا ما نبتت الشعرةالأولى على شفته هامت بحبه إحدى حور الغاب المقدسات ، وتزوجت به . ولكنها تقاضت منه ثمن حبها بأن جعلته يقسم ألايحبقط امرأة غيرها . وحاول جهده أن يبر بقسمه وأفلح فى هذا إلى أن افتتنت ابنة أحد الملوك بشبابه وأسلمت نفسها له فى الحقول . وأبصرت هذا أفروديتى ، وانتقمت لزميلتها الإلهة بأن جعلت دفنيس يذوب قلبه وجسمه من الحب غير المستجاب . فلما مات أوصى بمزماره إلى پان pan فى أغنية يضيف إليها صاحب القصة قراراً موسيقياً يردده بعدكل مقطوعة فى الأغنية :

« أقبل يا سيدي ، وخذ هذا المزمار الجميل
المغمور فى الشمع الذى لاتزال تفوح منه رائحة الشهد
والمربوط عند الشفتين بالخيط . ذلك أن حبي قد أقبل
ليناديني إلى بيت الأموات » .
يا ربات الشعر أقلعى ، أقلعى عن نشيد الرعاة
« والآن فليخرج العوسج والحسك أزهار ،
البنفسج ؛ وليزهر النرجس ،
فوق العرعر ؛ ولتنكب كل الأشياء طريقها السوى .
وليثمر الصنوبر الكمثرى ، لأن دفنيس سوف يموت .
ولتطارد الوعول كلاب الصيد ، وليطرد البوم الناعق
العنديب من التلال »
يا ربات الشعر أقلعى ، أقلعى عن نشيد الرعاة
« قال هذا — ثم لم يقل شيئاً . وكان يود أفروديتى
أن ترفعه ؛ ولكن ربات الأقدار
قطعت حبل حياته ، فهوى دفنيس

في نهر الموت وجرفه التيار ، وانقفل الدردور على رأسه
رأس من كانت تحبه ربات الشعر بأجمعها
رأس من لم تغضب منه حور الغاب »
يا ربات الشعر ، أقلعي ، أقلعي عن نشيد الرعاة(٢٧) .

وتواصل الأنشودة الثانية موضوع الحب ، ولكنها تواصله في نغمة أعنف من هذه النغمة . وتقص كيف أغوى دلفيس Delphis سميثا Simaetha عذراء سرقوسة ثم هجرها فأخذت تستثير حبه بالتعاويذ، ورحيق العشاق، وتقول إنها اعتزمت أن تتجرع السم إذا عجزت عن كسب حبه . وتقف تحت النجوم وتصف لسيليني Selene إلهة القمر ما دب في قلبها من الغيرة حين رأت دلفيس يسير مع رفيقته :

وما كدنا نصل إلى منتصف الطريق عند مسكن ليكون Lycon
حتى شاهدت دلفيس مقبلا مع أودانيوس Eudanippus
وكانت وجنات الفتى والفتاة وذقناهما
أنصع بياضا من القسوس حين يكمل نماؤه
نعم ، وصدراهما أكثر تلألؤا منك يا سيليني ،
يدلان على أنهما قد أقبلا توا من كدح المصارعين النبيل .
فكري في حبي ، وفكري من أين جاء ، أنت ياسيدة سيليني .
فلما رأيتهما ، استشطت غضبا ، واتقدت نار الغيرة في صدري
فاكتوى بنار الحب الضائع قلبي . وذبل جمالي ولم أعد
أرقب المراكب حين تمر ؛ ولم أدر كيف عدت إلى داري
لأن آفة كريهة ، أو مرضاً لافحا ، قد قضى علي ،
وظللت أربعة أيام مسجى على فراشي وعشر ليال قضيتها في ألم ممض .
فكري في حبي ، وفكري من أين جاء ، أنت يا سيدة سيليني

وكثيراً ما جفت نضرة جسمي واصفرت كالهشيم الجاف،
أجل وتساقط شعر رأسي ، وكل ما كنته قبلا
لم يبق منه إلا جلد وعظم ، وما من إنسان إلا لجأت إليه ،
وما من طريق قامت فيه عجوز شمطاء تتلو فيه رقية حب إلا سلكته .
لكنني لم أجد عزاء ، ومرت الأيام سراعا .
فكرى فى حبي ، وفكرى من أين جاء ، أنت ياسيدة سيليني

والأنشودة الثانية تصل بنا إلى الحورية أمرلس Amaryllis ومفاتنها البعيدة المنال ، وتصل بنا الرابعة إلى الراعي كريدون Corydon والسابعة إلى لسداس Lycidas راعي المعز الشعرى — وتلك كلها أسماء قد تغنى بها آلاف الشعراء من فرجيل إلى تنيسن Tennyson . ولقد أصبح أولئك الشعراء الريفيون مثلا عليا ينطقون بأجمل الأشعار اليونانية ، وفى وسع كل منهم أن يقرض أبياتا سداسية الأوتاد أجمل من أبيات هومر ؛ ولكننا قد علمنا أن تراثهم ،الذى لايكاد يدرك العقل جماله كأنه تقليد مألوف، متوسط القدر حين نستسلم إلى ما فى أغانيهم من نغمة حزينة . بيد أن ثاوقريطوس بعيدهم إلينا أشخاصا واقعيين يحدثنا عن ثيابهم التى تفوح منها رائحة أجسامهم ، وحين يذكر لنا فحش أفكارهم ؛ ذلك أن فى فكاهاتهم من الفجور ما يحط بعض الشيء من رقيق عواطفهم فيجعلهم أناسا حقيقيين . وجملة القول أن هذا الشعر أكمل شعر يونانى كتب بعد يوربيديز ، وهو دون غيره من الشعر الهلنستى الباقى إلى يومنا هذا الشعرُ الذى تسرى فيه أنفاس الحياة .

الفصل الخامس

پولبيوس

إذا كان العصر الهلنستى لم يلهم إلا شاعراً واحداً ، فإنه قد أخرج مقداراً من النثر مختلف الأنواع لم يخرج مثله عصر آخر قبله . ففيه ابتدع التحدث الخيالى وابتدعت المقالة، وذائرة المعارف، وواصل فيه الكتاب إخراج التراجم القصيرة الواضحة، وأضاف الأدب اليونانى فى العهد الرومانى الذى تلا هذا العهد الذى نتحدث عنه الموعظة والرواية القصصية . أما الخطابة فكانت فى دور الاحتضار لأنها كانت تعتمد على النزاع السياسى ، والتقاضى أمام المحاكم الشعبية ، وعلى حق الناس الدمقراطى فى أن يتكلموا ، وأصبحت الرسالة الأداة المحبوبة لنقل الأفكار سواء فى التخاطب أو فى الأدب ، فنى هذا العصر تقررت صور الرسائل وعباراتها التى نجدها فى أقوال شيشرون ، بل تقررت أيضاً الديباجة الشهيرة التى كان يستمسك بها أجدادنا ويجلونها : « أرجو أن يصلك هذا وأنت بخير كما تركتنى »[٢٨] .

وازدهرت كتابة التاريخ، فقد كتب بطليموس الأول ، وأراتوس الآخى وبيرس الإپيروسى مذكرات عن حروبهم ، فوضعوا بذلك تقليداً بلغ غايته فى قيصر . وكتب مانيثون الكاهن المصرى الأكبر باللغة اليونانية حوليات مصر Aigyptaka التى جمعت الفراعنة بطريقة تصنفية إلى حد ما فى أسر مالكة لا تزال هى التقسيم المتبع حتى اليوم . وأهدى بروسس كبير الكهنة الكلدان إلى أنتيوخوس الأول تاريخاً لبابل معتمداً على السجلات المسمارية . وأدهش مجستنيز Megasthenes سفير سلوقس الأول لدى شندراجوبتا موريا Chandragupta Mourya العالم اليونانى بكتاب عن الهند أخرجه حوالى عام ٣٠٠ . وجاء فى فقرة موحية من هذا الكتاب : « إن بين البراهمة طائفة من الفلاسفة . . .

تعتقد أن الله هو الكلمة ، وهم لايقصدون بها الكلام المنطوق بل يقصدون حديث العقل[٢٩] . وهنا أيضاً نجد عقيدة الكلمة التي قدر لها أن تكون ذات أثر عميق في الدين المسيحي . وقام تياوس التورومنيوى Timoeus of Tauromenium بعد أن نفاه أجثكليز Agathocles من صقلية (٣١٧) برحلات واسعة في أسبانيا وغالة ، ثم ألقى عصا التسيار في أثينة وكتب فيها كتابا عن صقلية وعن الغرب. وكان طالباً مجداً ، بلغ من حرصه على أن يدون في كتابه هذا كل شيء أن لقبه بعض منافسيه « جامع الأسمال العجوز » [٣٠] . وقد بذل غاية جهده في أن يصل إلى تواريخ صحيحة للحوادث التي رواها ، حتى عثر على طريقة تأريخ هذه الحوادث بدورات الألعاب الأولمبية . وكان شديد النقد لمن سبقه من المؤرخين ، وكان من حسن حظه أن مات قبل أن يشهد هجوم پوليبيوس الوحشي على كتابه[٣١] .

وأعظم المؤرخين في العصر الهلنستي واليوناني ، والمؤرخ الوحيد الخليق بأن يوضع إلى جانب هيرودوت وتوكيديدس ، هو پولبيوس . وكان مولده في أركاديا عام ٢٠٨ . وكان والده ليكورتاس Lycortas أحد زعماء العصبة الآخية ، لقد اختير في مهمة سياسية في رومة عام ١٨٩ ، وعين استرتيموس في عام ١٨٤ . ونشأ ابنه في الجو السياسي ، ودرب للجندية بإشراف فيلوبيمين ، واشترك في حروب الرومان ضد الغاليين في آسية الصغرى ، وسافر مع والده في بعثة سياسية إلى مصر (٢٨٠) ، واختير ليكون قائد فرسان العصبة الآخية (هپاركوس Hipparchos) في عام ١٦٩[٣٢] ، لكن تفوقه هذا قد جر عليه كثيراً من المتاعب : ذلك أنه حين أراد الرومان أن يعاقبوا العصبة الآخية لتأييدها برسوس ضدهم أخذوا ألفاً من زعماء الآخيين رهائن إلى رومة ، وكان منهم پوليبيوس (١٦٧) . وظل في المنفى ستة عشر عاما يعاني فيها آلام النفي ، ومنها كما يقول هو نفسه « ضياع الروح المعنوية والشلل العقلي الذي بلغ أقصى حد »[٣٣] . ولكن سيپو الأصغر بذل له مودته ، وضمه إلى الدائرة السيبيونية التي كانت تشمل الرومان المتعلمين ، وأقنع مجلس الشيوخ :

حين كان يشنك غيره من المنفيين فى أنحاء إيطاليا ، أن يسمح بأن يعيش پولبيوس معه فى رومة . ورافق سپيو فى كثير من الوقائع الحربية ، وأسدى إليه نصائح عسكرية قيمة ، وارتاد له سواحل أسپانيا وأفريقية ،ووقف إلى جانبه حين أحرق رومة (١٤٦) . وكان قبل ذلك قد نال حريته فى عام١٥١ ، واختير فى عام ١٤٩ ليمثل رومة فى تنظيم الوفاق الذى تم بين المدن اليونانية وبين مجلس الشيوخ الرومانى ، سيدها البعيد عنها ، وما من شك فى أنه قد قام بهذا الواجب البغيض على خير وجه ، لأن كثيراً من المدن قد كرمته بإقامة أنصاب تذكارية له ، وإن لم يكن فى وسع الإنسان أن يعرف متى يشعر الناس بفضل أحد عليهم . وبعد أن عاش پولبيوس ستين عاما فى جد متواصل اعتزل هذا النوع من العمل ليكتب كتبه الثلاثة : رسالة فى الفنون العسكرية ، وحياة فيلوپيمين ، وكتاب التواريخ الضخم . ومات كما يموت السادة الأشراف ؛ فقد سقط عن ظهر جواده وهو عائد من رحلة صيد ، بعد أن بلغ الثانية والثمانين من العمر.

ولسنا نعرف قط رجلا كتب التاريخ مستنداً إلى أوسع مما استند إليه پولبيوس من علم ، وأسفار ، وتجارب . وكانت الخطة التى وضعها لكتابه خطة واسعة النطاق، فلم يكن يقصد أن يكتب تاريخ بلاد اليونان فحسب ،بل كان يبغى كتابة تاريخ « العالم كله » (أى أمم البحر الأبيض المتوسط) من عام ٢٢١ إلى ١٤٦ ق. م . «تلك هى الخطة التى وضعتها ،ولكن كل شىء يتوقف على ما تحبونى به الأقدار من حياة تطول حتى أخرجها إلى حيز الوجود »(٣٤) .وكان يشعر بحق أن رومة هى مركز دائرة التاريخ السياسى فى الفترة التى يريد أن يؤرخها ، ولهذا أسبغ على كتابه وحدة جامعة إذ جعل رومة محور حوادثه ، ودرس بتشوف الرجل الدبلوماسى الوسائل التى استخدمتها رومة ، والتى تدعى كما يدعى البريطانيون أن الظروف هى التى ساقتها لها على غير قصد منها ، للسيطرة على عالم البحر الأبيض المتوسط(٣٥) . وكان شديد الإعجاب

بالرومان ، لأنه شاهدهم فى عصر مجدهم ، ولأن أكثر من عرفهم منهم هم خيرهم فى جماعة سيبو . وكان يشعر أنهم يتصفون بتلك الصفات التى لا توجد فى الخلق ولا فى الحكم اليونانى ، والتى كان عدم وجودها فى اليونان سبباً فى القضاء عليهم . وإذ كان هو من أبناء الأشراف وكان صديقاً للأشراف ، فإنه لم يكن يعطف قط على المراحل المتأخرة من الدمقراطية اليونانية التى لم تكن فى رأيه غير حكم الغوغاء . وكان التاريخ السياسى يبدو له دورة متكررة من الملكية المطلقة (أو الدكتاتورية)، والأرستقراطية ، والأولجركية، والدمقراطية، ثم الملكية المطلقة مرة أخرى . وكانت خير طريقة فى رأيه للنجاة من هذه الدورة هى طريق « الدستور المختلط » الشبيه بدستور ليقورغ أو دستور رومة - وهو الذى يقضى بوجود مواطنين يستمتعون بحقوق سياسية ولكنها حقوق محدودة ، ويختارون كبار الموظفين ، ولكن سلطانهم يحدد سلطان مجلس الشيوخ الأرستقراطى الدائم[٣٦] . وكانت هذه النظرة هى التى اهتدى بها فى كتابة تاريخ عصره .

وپوليبيوس هو « مؤرخ المؤرخين » لأنه يهتم بطريقته كما يهتم بموضوعه . وهو يميل إلى التحدث عن الخطة التى يسير عليها ، ويعمد إلى التفلسف فى كل فرصة تتاح له . وهو يصور مؤهلاته على أنها خير المؤهلات ومثلها الأعلى ، ويصر على أن التاريخ ينبغى أن يكتبه أولئك الذين رأوا بأعينهم - أو استشاروا غيرهم ممن رأوا بأعينهم - مايصفونه من الحوادث . يندد بتيماوس لأنه اعتمد على أذنيه بدل اعتماده على عينيه ، ويتحدث بفخر وإعجاب عن أسفاره فى البحث عن المعلومات ، والوثائق ، والحقائق الجغرافية ، ويذكر لنا كيف اخترق جبال الألب وهو عائد من أسبانيا إلى إيطاليا من نفس الممر الذى اخترقه هنيبال ، وكيف نزل إلى نهاية إصبع قدم إيطاليا ليحل رموز نقش تركه هنيبال فى بروتيوم[٣٧] . ويقول إنه يعتزم أن يجعل تاريخه دقيقاً بقدر ما تسمح به « ضخامة عمله ، والطريقة الشاملة التى عالجه بها »[٣٨] . وهو فى تاريخه رجل عقلى النزعة واقعيها ، ينفذ فكره فى ألفاظ الدبلوماسيين

الأخلاقية ليعرف ما تهدف إليه خططهم من اعتراضات حقيقية ، ويسره أن يدرك كيف يخدع الناس بسهولة أفرادا كانوا أو جماعات ، ويخدعون أكثر من مرة ، بنفس الحيل والأساليب التي خدعوا بها من قبل[٤٠] . ويقول فى عبارة شائقة استبق بها مبادئ مكيفلى : « قلما يتفق العمل الخير مع العمل النافع ، وما أقل من يستطيعون الجمع بين العملين والتوفيق بينهما »[٤١] . وهو يقبل عقيدة الرواقيين الدينية التى تقول بوجود قوة إلهية مدبرة ولكنه يعلف مجرد عطف على الطقوس الدينية السائدة فى عصره ، ويسخر ضاحكا من عقيدة تدخل القوى غير الطبيعية فى شئون العالم[٤٢] . ويعترف بما للمصادفات من شأن فى التاريخ ، وما لعظماء الرجال من أثر فعال فى بعض الأحيان ، ولكنه لايتردد فى أن يكشف عن تسلسل العلل والمعلولات تسلسلا حقيقياً خارجا فى كثير من الأحيان عن إرادة الآدميين ، وبذلك يكون التاريخ مصباحا مضيئاً للعقول فى الحاضر والماضى[٤٤] . « ليس شىء أسرع تصحيحا لسلوك الناس من معرفة الماضى » و« خير تعليم وإعداد للحياة السياسية النشيطة هو دراسة التاريخ »[٤٥] . « والتاريخ ، والتاريخ وحده ، هو الذى ينضج عقولنا ، ويهيئنا للنظر إلى الأشياء نظرة صحيحة مهما تكن الأزمات أو سير الحوادث »[٤٦] . وهو يرى أن خير طريقة لفهم التاريخ هى أن ينظر إلى حياة الأمة على أنها وحدة عضوية ، ثم تضم قصة كل جزء من أجزائها إلى تاريخ حياة الأمة بأجمعه . والذى يعتقد أنه إذا درس التواريخ منفصلة بعضها عن بعض يستطيع أن ينظر نظرة صحيحة إلى التاريخ بأجمعه ليشبه فى رأيى ذلك الرجل الذى نظر إلى أطراف حيوان كان من قبل حيا وجميلا ، ثم يتصور أنه كمن شاهد بعينيه الحيوان نفسه فى جميع حركاته وأدرك ما فيها من رشاقة وجمال »[٤٧] .

وقد أبقى الدهر على خمسة من الكتب التى قسم إليها پولبيوس تواريخه ، وأبقى المختصرون قطعا متفرقة قيمة من الكتب الباقية . ومما يؤسف له أشد

الأسف أن إخراج هذه الفكرة العظيمة إلى حيز الوجود قد أفسدته لغة ذلك الوقت اليونانية الفاسدة ، ونقده المر لغيره من المؤرخين ، واقتصاره تقريباً على شئون الحرب والسياسة ، وتقسيمه قصته تقسيما سخيفاً إلى دورات أولمبية ،وكتابة تاريخ جميع أمم البحر الأبيض المتوسط فى كل دورة.مقدارها أربع سنوات ، وما أدى إليه ذلك من استطرادات مملة ومن انعدام التسلسل إلى حد يحير القارئ ويضله . ويسمو پوليبيوس فى قصته أحيانا إلى البلاغة المسرحية ، ولكنه يتجنب بشدة الأسلوب الخطابى المزخرف الذى كان شائعا بين من سبقوه مباشرة من الكتاب ، حتى أنه ليفخر بثقل أسلوبه وخلوه من البهجة[٤٨] . وفى ذلك يقول أحد النقاد الأقدمين . « لا أعرف قط رجلا قرأ كتابه من أوله إلى آخره »[٤٩]. ولقد كاد العالم أن ينساه ، ولكن المؤرخين سيظلون دهراً طويلا يدرسون كتابه لأنه كان من أعظم أصحاب النظريات فى كتابة التاريخ وأعظم من طبقوها فى كتاباتهم ، ولأنه جرؤ على أن يكون واسع الأفق فى كتابه ، وأن يكتب « تاريخا عاما »؛ولأنه فوق هذا وذاك أدرك أن الحقائق وحدها لاقيمة لها إلا مع شرحها وتفسيرها ، وأن الماضى لاقيمة له إلا من حيث هو جذورنا المتأصلة والضوء الذى ينير لنا حاضرنا ومستقبلنا .

الباب السابع والعشرون

الفن فى عهد التشتت

الفصل الأول

موضوعات أشتات

لقد تأخر اضمحلال الحضارة اليونانية من ناحية الفن زمنا طويلا . فى هذه الناحية لا يقل ازدهار العصر الهلنستى ، فى خصوبة الإنتاج وفى الابتكار ، عن ازدهار أى عصر آخر فى التاريخ . وما من شك فى أن الفنون الصغرى لم يطرأ عليها شىء من الاضمحلال ، وأن مهرة الصناع فى الخشب والعاج والفضة والذهب انتشروا فى جميع أنحاء العالم اليونانى الذى اتسعت رقعته . وفيه بلغ الحفر على الجواهر والنقود أعلى درجاته ، وكان الملوك الهلنستيون فى البلاد الممتدة إلى بكتريا يحلون نقودهم بالكثير من النقوش ، ولسنا نبالغ إذا قلنا إن القطعة ذات العشر الدرخمات من نقود هيرون الثانى كانت أجمل ما رأته العين فى فن المسكوكات الذى سجله التاريخ . واشتهرت الإسكندرية بمن فيها من صائغى الذهب والفضة ، الذين لم يكن فنهم يقل جمالا عن أسلوب شعرائها الذى لا تشوبه قط شائبة ، كما اشتهرت بأحجارها الثمينة وأصدافها ذات النقوش البارزة الملونة ، وبخزفها الأخضر والأزرق ، وبفخارها المغطى بطبقة زجاجية بديعة ، وبزجاجها الكثير الألوان ذى النقش الدقيق الجميل . ويتجلى هذا الفن بأجلى مظاهره فى مزهرية پورتلاند portland وهى فى أغلب الظن من صنع الإسكندرية ، فقد نقشت عليها صور رشيقة محفورة فى طبقة زجاجية ناصعة البياض فى لون اللبن الصافى فوق جسم من الزجاج الأزرق . وما أشبه هذه

التحفة فى الزمن القديم بتحف چوسيا ودچود فى الزمن الحديث(*) .

وظلت الموسيقى شائعة بين جميع طبقات السكان ، وتبدلت فيها السلالم والأنغام فى اتجاه الرقة والحدة(١) ، وأدخلت الأنغام الناشزة القصيرة فى النغمات المتوافقة ، وازدادت الآلات والتآليف الموسيقية تعقيداً(٢) . وكبرت « زمارات پان » القديمة حوالى عام ٤٢٠ فى الإسكندرية حتى صارت مجموعة من الزمارات البرنزية ، وحسن تسبيوس حوالى عام ١٧٥ هذه الآلة فجعلها أرغناً يدار بالماء والهواء مجتمعين ويجعل فى مقدور العازف أن يحدث به نغمات من الصوت جد طويلة . ولسنا نعرف عن تركيب هذه الآلة أكثر مما ذكرنا ، ولكننا سنرى كيف تطورت تطوراً سريعاً فى أيام الرومان حتى صارت هى أرغن المسيحية وأرغن هذه الأيام(٣) . وكانت الآلات تجتمع فيتكون منها جوقة العازفين ؛ وكانت ألحان من الموسيقى الآلية الخالصة مكونة فى بعض الأحيان من خمس حركات تعزف فى ملاهى الإسكندرية وأثينة وسرقوسة(٤). ونال عدد من مهرة الموسيقيين شهرة واسعة وأصبحت لهم مكانة اجتماعية تتناسب مع أجورهم العالية . وفى عام ٣١٨ كتب أرستكسنوس **Aristoxenus** التارامى ، تلميذ أرسطو ، رسالة صغيرة تدعى قواعد الألحان صارت هى النص القديم الذى يرجع إليه فى النظريات الموسيقية . وكان أرستكسنوس هذا رجلا جادا ، لم يستسغ كما لم يستسغ معظم الفلاسفة موسيقى زمانه . ويروى عنه أثينيوس قوله فى عبارات سمعتها أجيال كثيرة من بعده : « بعد أن طغت البربرية على دور التمثيل ، وبعد أن فسدت الموسيقى وقضى عليها القضاء الأخير ، وأصبحنا نحن أقلية صغرى فى هذا الزمان ، نستعيد فى عقولنا ، ونحن جالسون بمفردنا ، ما كانت عليه الموسيقى فى الأيام الخالية »(٥) .

أما عمارة العصر الهلنستى فليس لها وقع فى نفوسنا لأن الدهر قد عدا عليها

(*) وقد سميت كذلك نسبة إلى دوق پورتلاند الذى جاء بها إلى رومة . وهى الآن فى المتحف البريطانى .

فسواها بالأرض وناصبها العداء بلا تفريق بين بعضها والبعض الآخر . غير أننا نستدل من الأدب ومن آثارها ، على أن فن العمارة اليونانى انتشر فى هذا العصر من بكتريا إلى أسبانيا . ولقد نشأ من التأثير المتبادل بين بلاد اليونان والشرق خليط من الأنماط : فغزت الأروقة المعمدة والعارضة الراكزة داخل آسية ، ودخلت الأقواس والعقود والقباء بلاد الغرب . ففى ديلوس نفسها ، وهى المركز اليونانى القديم ، قامت تيجان العمد المصرية والفارسية . وقد بدا الطراز الدورى جامداً كئيباً فى عصر أولع بالرقة والزينة ، ولهذا أخذ يختفى من مدينة إثر مدينة ، فى الوقت الذى أخذ فيه الطراز الكورنثى المزخرف يرقى حتى بلغ ذروته . وكانت النزعة الدنيوية فى الفن تجارى فى سرعة تقدمها النزعة الدنيوية فى نظام الحكم ، وفى الشرائع والأخلاق ، والآداب ، والفلسفة ؛ وأخذت العمد المقامة حول البيوت ، والمداخل الواسعة ، والأسواق ، ودور القضاء ، وقاعات الجمعيات الوطنية ، ودور الكتب والتمثيل ، ومدارس التدريب الرياضى ، والحمامات ، أخذت هذه العمد تحل محل المعابد ؛ وكانت قصور الملوك أو الأفراد ميدانا جديداً ظهر فيه فن التخطيط والزخرف اليونانى . وصارت مداخل البيوت تزدان بالرسوم ، والتماثيل ، والنقوش على الجدران ، كما أخذت الحدائق الخاصة تحيط بالبيوت الواسعة الفخمة . وأنشئت للملوك بساتين وحدائق ، وبحيرات ، وسرادقات فى حواضر البلاد ، وكانت تفتح عادة للجماهير . وتطور فن تخطيط المدن ليجارى فن العمارة ، فخططت الشوارع على طراز هبودامس Hippodamus الرباعى ، وكان منها شوارع رئيسية لا يقل عرضها عن ثلاثين قدما — وهو عرض يتناسب مع الخيل والمركبات التى كانت وسائل النقل فى تلك الأيام . وكانت مدينة أزمير تزهو بشوارعها المرصوفة(٦) ، ولكن أكبر الظن أن معظم شوارع المدن الهلنستية كانت أرضا معبدة تعرف مساوئ التراب والطين .

وكثرت المبانى الجميلة كثرة لم يكن لها مثيل من قبل ؛ ففى أثينة شيدت فى

القرن الثانى العمد الكورنثية المقامة فى الأولمبيوم ووضع المهندس الرومانى كوسوتيوس Cossotius الخطة العامة للصرح الرحب العظيم الذى كان أفخم بناء فى أثينة - وكان قيام كوسوتيوس بهذا العمل قلباً للوضع المألوف وهو اعتماد رومة على الفنانين اليونان . ويصف ليفى هيكل زيوس الأولمبى بأنه لم ير بناء غيره يليق لأن يكون مسكنا لإله الآلهة[٧] . ولا تزال ستة عشر عموداً من أعمدته قائمة وهى أجمل النماذج الباقية من الطراز الكورنثى . وفى إلوسيس أتم صلاح أثينة فى دور احتضاره ، وأتمت عبقرية فيلون ، هيكل الطقوس الخفية الفخم الذى بدأه بركليز فى موضع كان مكانا مقدساً منذ العصور الميسينية . ولم يبق من هذا الهيكل إلا قطع متفرقة ، ولكن بعضها يدل على أن التخطيط والنحت اليونانيين كانا لايزالان وقتئذ فى أوجهما . وقد كشف الفرنسيون فى ديلوس عن قواعد هيكل أبلو كما كشفوا عن مدينة كانت فى أيامها مزدحمة بالمبانى الفخمة المخصصة للأعمال التجارية أو لإيواء مائة من الآلهة اليونانية أوالأجنبية . وأقام هيرون الثانى فى سرقوسة كثيراً من المبانى الضخمة ذات الروعة والجلال ، وجدد دار التمثيل التابعة للبلدية وزاد فى مساحتها ، ولا نزال فى هذه الأيام نقرأ اسمه منقوشاً على حجارتها . وزين البطالمة مدينة الإسكندرية بالمبانى الشاهقة التى أذاعت اشتهارها بالجمال ، ولكن شيئاً من هذه المبانى لم يبق حتى الآن . وشاد بطليموس الثالث عند إدفو معبداً هو أفخم ما بقى من العمائر من عصر الاحتلال اليونانى ، وشاد خلفاؤه معبد أيزيس فى جزيرة فيلى وجددوا بناءه . وفى أيونيا أقيمت بيوت جديدة للآلهة فى ميليطس ، وبرينى Priene ، ومجنيزيا ،وغيرها من المدن ؛ وتم فى عام ٣٠٠ ق . م بناء المعبد الثالث لأرتميس فى إفسوس ، وشاد المهندسان بيونيوس Paeonius ، ودفنيس فى ديديا بالقرب من ميليطس معبداً أوسع من هذا تكريما لأبلو (٣٣٢ ق . م . - ٤١ م) ؛ ولاتزال صفحات الأعمدة الأيونية الفخمة التى كانت قائمة فى هذا المعبد باقية إلى اليوم . وفى برجموم أذاع

أومنيز الثانى شهرة عاصمته فى طول بلاد اليونان وعرضها بما أنشاه فيها من المبانى وخاصة مذبح زيوس الذائع الصيت الذى كشفه الألمان فى عام ١٨٧٨ ، وأعادوا بناءه بحذق عظيم فى متحف برجموم القائم فى برلين . وكانت مجموعتان فخمتان من الدرج حول بابين عظيمين لهذا المذبح تؤديان إلى بهو رحب ذى عمد ؛ وكان حول مائة وثلاثين قدما من القاعدة إفريز يبلغ فى أيامه من الفخامة ما بلغه ضريح الإسكندر فى القرن الرابع أو البارثنون فى القرن الخامس . وقصارى القول أن بلاد اليونان لم تزدن فى وقت من الأوقات بمثل ما ازدانت به فى تلك الأيام ، وأن حماسة مواطنيها ومهارة فنانيها لم تفعلا مثل ما فعلتاه فى ذلك الوقت من تحويل الكثير من مساكن أهلها إلى قصور فخمة ذات روعة وجمال ؟

الفصل الثانى

التصوير

التصوير فى العادة آخر فن عظيم ينضج فى الحضارة ؛ فهو فى المراحل الأولى من مراحل الثقافة يخضع للعمارة الدينية ولعمل التماثيل الدينية ، ولا يصبح فنا مستقلا إلا حين تدعوه الحياة والثروة الخاصة إلى زخرفة المنازل أو لتخليد ذكرى اسم من الأسماء . ولما أن أضعف موت الدمقراطية من معنى الدولة فى عقول الناس ، عاد الفرد إلى طلب السلوى فى منزله ، فشاد الأغنياء قصوراً يسكنون فيها ، وأدوا أجوراً عالية للفنانين الذين يستطيعون أن يزينوا فسقية أو يجملوا جداراً . فكانت الإسكندرية تتخذ التصوير على الزجاج وسيلة من الوسائل التى تزين بها الجدران ؛ وكانت جميع المدن الهلنستية تستخدم لهذا الغرض إطارات متحركة من الخشب ؛ وكان الأمراء والكبراء يفضلون عن هذه الإطارات الصور الضخمة المرسومة على ألواح من الرخام يمكن فصلها ووضعها فى أى مكان شاءوا . ويصف پوسنياس عدداً لا يحصى من الصور رآه فى تجواله ببلاد اليونان ، ولكن الدهر لم يبق منها إلا على رسوم حائلة من الخشب أو الحجارة ، ولهذا لا نجد سبيلا لمعرفة حقيقة هذه الصور إلا الحدس والتخمين والاعتماد على الصور الحائلة المتوسطة القدر المنقولة عنها والتى عثر عليها فى پمپاى ، وهركولانيم Hercolaneum ورومة .

وظلت بلاد اليونان تضع مصوريها فى المستوى العالى الذى تضع فيه مثاليها ومهندسيها ، بل لعلها كانت تضع الأولين فى مستوى أعلى من مستوى الآخرين . وكانت تؤدى إليهم من الأجور مثل ما يؤديه الأمريكيون للمصورين فى هذه الأيام ، وتروى عن حياتهم قصصاً تدل على حبها وتكريمها لهم . منها أن تسكليز الإفسوسى ، حين لم ينل من الملكة استرتنيس Stratonice ما كان يرجو من

عطاء صورها وهي تعبث مع صائد سمك ، وعرض الصورة على الجماهير . ثم ركب البحر لينجو من القتل . ورأت استرتنيس « أن الصورتين قد عبرتا عن ملامحها وملامح الصياد تعبيراً يدعو إلى الإعجاب » فعفت عنه وسمحت له بالعودة(٨) . ولما استولى أراتس على سكيون أمر بإتلاف جميع صور طغاتها السابقين . وكان ملانثوس Milanthus (وهو مصور من رجال القرن الرابع) قد صور أحد هؤلاء الطغاة واسمه أركسترانوس Archestratus إلى جانب مركبته الحربية تصويراً حياً واضحاً تأثر به الفنان نيكليز Neacles فتوسل إلى أراتس أن يبقى على الصورة ، وقبل أراتس رجاءه على شريطة أن يستبدل بصورة أراتس صورة أخرى لا تثير من البغض ما تثيره صورة هذا الرجل(٩). ويقول استرابون إن بروتجنيز Protogenes صور ساتيرة Satyr(*) ، وإلى جانبها صورة حجل وقد بلغت صورة الحجل من الإتقان درجة جعلت أخواته الحية تناديه ، ثم محا المصور بعدئذ صورة الطائر حتى يقدر الناس جمال صورة الساتيرة(١٠) . ويقول بلنى إن هذا المصور نفسه وضع أربع طبقات من اللون على صورته الذائعة الصيت صورة ياليسوس Ialysus (الذى يزعم الناس أنه مؤسس المدينة المسماة بهذا الاسم فى رودس) ، حتى تبقى الألوان ناضرة زاهية إذا ما أزال الدهر الطبقة العليا منها . ويقال إن بروتجنيز قد غضب من عجزه عن أن يصور الزبد الذى يتساقط من فم كلب ياليسوس تصويراً صادقا ، فلم يتمالك نفسه ورمى الصورة بإسفنجة يريد أن يتلفها . ووقعت الإسفنجة بطبيعة الحال على المكان المطلوب ، وتركت فى ذلك المكان بقعة من اللون شبيهة كل الشبه بالزبد الخارج من فم كلب يلهث . ولما أن حاصر دمتريوس بليورسيتيز جزيرة رودس أبى أن يشعل النار فى تلك المدينة لئلا تتلف هذه الصورة . ولم ينقطع بروتجنيز عن العمل أثناء الحصار فى مرسمه ، وكان هذا المرسم أمام خط زحف المقدونيين مباشرة . واستدعاه دمتريوس إليه وسأله :

(*) حيوان خرافى نصفه الأعلى آدمى ونصفه الأسفل ماعز . (المترجم)

لِمَ لمْ يحتم داخل أسوار المدينة كما فعل غيره من المقدونيين ؟ فأجابه بروتجنيز بقوله : « ذلك بأنى أعرف أنك إنما تشن الحرب على أهل رودس لا على الفن » . فما كان من الملك إلا أن عين له حرساً يحميه ، وترك الحصار ليشاهد أعمال الفنان العظيم[١١] .

وكان المصورون الهلنستيون يعرفون خداع المنظور ، وتمثيل الأشخاص بارزين فى عين الناظر ، وسقوط الضوء ، وتجمع الأشكال . ومع أنهم لم يستخدموا المناظر الطبيعية إلا لتكون مؤخرة للصورة لتجميلها ،وأنهم صوروها حين استخدموها بطريقة خالية من الحياة جارية على العرف (إذا حكمنا عليها مما نقل عنها من الصور فى بمبياى) ، فإنهم أدركوا على الأقل أن الطبيعة موجودة ، وجعلوا لها مكاناً فى الفن فى الوقت الذى كان ثيوقريطس يجعل لها مكاناً فى الشعر . ولكنهم كانوا شديدى الولع بالإنسان وبأعماله كلها إلى حد غفلوا معه عن الأشجار والأزهار . لقد اقتصر أسلافهم على رسم الآلهة والأغنياء من الآدميين أما الفنانون الهلنستيون فقد افتتنوا بكل ما هو آدمى وتبينوا أن الموضوع القبيح المنظر قد يصور تصويراً جميلا أو على الأقل يأتى بأجر كبير ، فانقلبوا يصورون الحياة البشرية بحماسة كحماسة الهولنديين ، وسرهم أن يصوروا الحلاقين والأساكفة والعاهرات ، والخياطات ، والحمير ، والرجال المشوهين ، والحيوانات الغريبة . ثم أضافوا إلى هذه الصور المأخوذة من الحياة المألوفة أو الريفية ، صوراً من الحياة الساكنة الجامدة — كالكعك ، والبيض ، والفاكهة ، والخضر ، والسمك ، والطير ، والحيوان المصيد ، والخمر ، وكل ما يتصل بها من الطقوس القديمة . وكان سوسوس Sosus البرجومى يسلى معاصريه بأن يمثل لهم أرضاً من الفسيفساء الخادعة لاتزال منتشرة عليها بقايا وليمة[١٢] . لكن المصورين المحافظين قد ساءهم هذا فأخذوا يندون بهؤلاء الذين يرفعون من شأن الأشياء العادية ويصفونهم بأنهم

يصورون الفحش والأقذار Pornographoi and rhparographoi وحرم القانون فى طيبة تصوير الأشياء القبيحة[١٣] .

وقد أنقذت حمم بركان فيزوف بعض روائع ذلك العصر الكبيرة من النسيان وإن لم تحفظ لنا هذه الحمم أسماء أصحابها . وقد وجد فى أستيا مظلم يبدو أنه صورة ضعيفة منقولة عن أصل هللنستى ، وهى معروفة لدينا باسم عرس الألدبرنديني The Aldorbrandini Wedding نسبة إلى الأسرة الإيطالية التى كانت تمتلكها قبل أن تجد لها مكاناً فى متحف الفاتيكان . وفى هذه الصورة تظهر أفرديتى ممتلئة الجسم شبيهة بصور الرسام الهولندى روبنز Rubens تبعث الشجاعة فى قلب العروس الخائفة ، على حين ينتظر العريس ، وهو فى غير حاجة إلى من يستحثه ، على أحر من الجمر إلى جانب الفراش . وأجمل هاتين الشخصيتين الرئيسيتين صورة امرأة رشيقة توقع نشيدا على مزهر حائل اللون . وثمة صورة جدار من پمپياى يقول بعض الخبراء ، وإن لم يرق قولهم إلى مرتبة اليقين ، إنها منقولة عن أصل يونانى رسم فى القرن الثالث . وهى تصور أخيل وإلى جانبه پترکلوس ، يسلم ، وهو غاضب ، بريسيس لعجوز أجممنون . ويبدو لأذواقنا ومألوف عاداتنا أن فى صور الآدميين فى هذا الرسم من الحجم أكثر مما فيها من الجمال ، ذلك أننا قد ألفنا أن نرى أجساماً أقل من هذه الأجسام وسيقاناً أطول من تلك السيقان ، ولكننا يجب أن نسلم أن الفنانين الأقدمين كانوا يعرفون الرجال اليونانيين والنساء اليونانيات ، أحسن مما نعرفهم نحن أو يعرفهم من سيأتون بعدنا . وقد ذهب الزمان بنضرة هذه الصور ، وما من شىء يستطيع أن يعيد لها ما كان لها من بهاء ونضارة ، كانا بلا ريب موضع إعجاب جمهرة الشعب وملوكه ، إلا الخيال القوى القادر على تصوير ما كانت عليه فى الأيام الخوالى.

وأوقع من هذه فى النفس قطع من الفسيفساء(*) الرومانية منقولة على

(*) وهذه الفسيفساء وصورة أخيل وبريسيس محفوظتان فى متحف نابل .

ما يظهر عن رسوم هلنستية . لقد كانت الفسيفساء من الفنون القديمة فى مصر وأرض الجزيرة، ثم أخذها عنهما اليونان وسموا بها إلى أعلى الدرجات، فكانت الصورة تقسم بالخطوط إلى مربعات صغيرة ، وكانت المكعبات الرخامية الدقيقة تلون بحيث إذا وضع بعضها إلى جانب البعض الآخر مثلت الصورة تمثيلا لايبليه الزمان ، ولاتزال قطع من الفسيفساء محتفظة بألوانها تقص علينا القصة القديمة وإن كانت قد وطأتها أرجل لاُيحصى عديدها . وقد عثر فى پمپاى على صورة تمثل واقعة إسوس ، يرى بعضهم أنها ذات صلة بصورة يونانية من تصوير فلكسينوس (وإن كان هذا مشكوكا فيه) . وتتكون هذه الصورة من نحو ١,٥٠٠,٠٠٠ حجر ، لا تزيد مساحة كل منها على مليمترين مربعين أو ثلاثة مليمترات ، ويبلغ طول هذه الفسيفساء كلها ست عشرة قدما ، ويبلغ عرضها ثمانى أقدام . وقد ألحق بها الزلزال وثوران البركان اللذان نكبت بهما پمپاى فى عام ٧٩ م . ضرراً بليغاً ، ولكن ما بقى منها يكفى للدلالة على ما كانت تمتاز به هذه الصورة من براعة وقوة . ففيها يرى الإسكندر وقد اسود جسمه وانتفش شعره من وهج الشمس وقذارة الماء ، يوجه الهجوم وهو على ظهر جواده بوسفلسوس Bucephalus ، ولا يبعد إلا بضع أقدام عن مركبة دارا الحربية . وقد ألقى عظيم من عظماء الفرس نفسه بين الملكين ، وتلقى فى جسمه طعنة من رمح الإسكندر . وينحنى دارا من مركبته نحو صديقه المجندل ، غير عابئ بما يتعرض له من الخطر (لأن الإسكندر يوجه إليه طعنته الثانية) ووجهه ملىء بالقلق والحزن . ويهجم فرسان الفرس لينقذوا مليكهم ، ويظل رمح الإسكندر متزناً فى الهواء . وأهم ما فى هذه الصورة وأبدعه هو تمثيل العواطف الكثيرة المعقدة فى وجه الإسكندر ، ولكن أجمل رأس فى هذه المجموعة كلها هو رأس جواده . وليس فى الفسيفساء كلها ما هو أعظم من هذه القطعة .

الفصل الثالث

النحت

لم تبلغ التماثيل من الكثرة فى عصر من العصور مثل ما بلغته فى العصر الهلنستى ، فقد كانت الهياكل والقصور ، والدور والشوارع ، والحدائق والبساتين كلها غاصة بالتماثيل التى تصور كل ناحية من نواحى الحياة البشرية وكثيراً من مظاهر العالم النباتى والحيوانى . وكانت تماثيل نصفية تخلد إلى وقت ما الموتى من الأبطال والمشهورين من الأحياء ، وانتهى الأمر بأن نحتت من الحجارة تماثيل للمعانى المجردة كالحظ ، والسلام ، والنميمة ، والفرصة السانحة.

وقد صنع يوتكيديز السكيونى Eutychides of Sicyon تلميذ ليسبوس Lysippus لمدينة أنطاكية أنموذجاً ذائع الصيت لتمثال الحظ يمثل فيه روح المدينة وأمانيها . وواصل تماخوس Timachus وسفسودوتسوس Cephisodotus ابنا بركستليز تقاليد النحت الأثينى الظريفة . وفى البلوبونيز طبقت شهرة دمفون المسينى Damphon of Messene الخافقين حين نحت مجموعته الضخمة المكونة من دمتر ، وبرسفونى ، وأرتميس . غير أن الكثرة الغالبة من المثالين الجدد كانت تتبع أقرب طريق ينقذها من الموت جوعا ألا وهو تزيين قصور الملوك والعظماء اليونان الشرقيين .

ونشأت فى جزيرة رودس فى القرن الثالث مدرسة فى النحت ذات طابع خاص لا مثيل له فى غيرها من المدارس . فلقد كان فى الجزيرة مائة تمثال ضخم يكفى الواحد منها على حد قول پلنى ، لأن ينشر فى الآفاق شهرة مدينة . وكان أعظمها كلها تمثال ضخم من البرنز لهليوس Helios إله الشمس صنعه كاريز

اللندوسى Chares of Lindus حوالى عام ٢٨٠ . وتقول رواية ضعيفة إن كاريز هذا قد انتحر حين رأى أن نفقة التمثال قد زادت كثيراً على ما كان مقدراً لها ، وإن لاكيز اللندوسى Laches of Lindus أتم التمثال . ولم يكن هذا التمثال مقاماً فوق المرفأ بل كان مقاماً إلى جانبه ويعلو إلى ارتفاع مائة قدم وخمس أقدام ؛ ويوحى هذا الحجم بأن ذوق أهل رودس كان يتجه نحو المظاهر الفخمة والضخامة ، ولكن لعل الرودسيين كانوا يستخدمونه منارة للسفن ورمزاً للجزيرة . وإذا جاز لنا أن نصدق ما جاء فى قصيدة فى ديوان الشعر اليونانى[١٥] فإن هذا التمثال كان يرفع بيده ضوءاً وأنه كأن يرمز إلى الحرية التى تستمتع بها رودس — وتلك سابقة عجيبة لتمثال شهير فى أحد الثغور الحديثة[*] . وكان هذا التمثال بلا ريب يعد إحدى عجائب الدنيا السبع ؛ ويقول پلنى إنه :

« قد ألقاه على الأرض زلزال بعد ست وخمسين عاما من إقامته : وإنه قلما يوجد من الرجال من يستطيع تطويق إبهامه بذراعيه ، وإن أصابع يديه أكبر من أجسام معظم التماثيل ، وإنه إذا ما كسرت أطرافه شوهدت فى داخل الجسم كهوف واسعة مفتوحة . ويرى فى داخله أيضا صخور ضخمة أراد المثال أن يثبت بها التمثال فى موضعه أثناء اشتغاله بإقامته . ويقال إنه قضى فى نحته اثنتى عشرة سنة ، وإن نفقاته بلغت ثلثمائة وزنة — وقد حصلت الجزيرة على هذا المبلغ من آلات الحرب التى تركها دمتريوس وراءه بعد حصاره الفاشل للجزيرة[**][١٦] » .

وكان يضارع هذا التمثال فى شهرته التاريخية مجموعة أخرى من صنع المدرسة الرودسية تعرف باسم اللاؤكوئن Laocoön. وقد شاهد پلنى هذه المجموعة فى قصر الإمبراطور تيتس ، وعثر عليها عام ١٥٠٦ م فى حمامات هذا

(*) يبلغ ارتفاع تمثال الحرية مائة وإحدى وخمسين قدما من القاعدة إلى طرف الشعلة .

(**) وقد بقى فى المكان الذى سقط فيه حتى بيعت مواده فى عام ٦٥٣ . وقد استخدمت فى نقلها تسعمائة بعير[١٧] .

الإمبرطو ، ولا يكاد يخامرنا أدنى شك فى أنها هى المجموعة الأصلية التى نحتها أجسندر Agesandar ، وپليدوروس Polydorus ، وأثينودوروس Athenodorus من قطعتين كبيرتين من الرخام فى القرن الثانى أو الثالث قبل الميلاد[١٨]. وقد هز كشفها مشاعر إيطاليا فى عهد النهضة وكان لها أعمق الأثر فى ميكل أنجلو الذى حاول عبثاً أن يعيد إلى التمثال الأوسط فيها ذراعه اليمنى الضائعة(*). وكان لاوكوئون الذى تسمى المجموعة باسمه كاهنا طرواديا نصح الطرواديين بألا يقبلوا الحصان الخشبى حين بعث به اليونان إليهم وقال لهم ، كما يروى ڤرچيل ، « إنى أخشى اليونان حتى وهم يحملون إلينا الهدايا Timeo Danaos et dona ferentes[١٩] » وأرادت أثينا التى تحب اليونان أن تعاقبه على حكمته فأرسلت إليه حيتين لتقتلاه . فقبضتا أولا على ولديه ، وأبصرهما لاوكوئون فهجم عليهما لينقذهما ، فوقع بين طيات الحيتين ، وانتهى الأمر بأن طحنت أجسامهم جميعاً وماتوا من سم أنياب الحيتين . ولقد أجاز المثالون لأنفسهم ما أجازه ڤرچيل لنفسه (وما أجازه لنفسه سفكليز فى فلكتيتس) فعبروا عن الألم بقوة ، ولكن النتيجة لاتتفق وما فى طبيعة الحجر من دوام . إن الألم فى الأدب وفى الحياة عادة لايدوم ؛ إما فى اللاوكوون فإن صرخة الألم قد دامت دواما غير طبيعى ، والناظر إليها لا يتأثر كما يتأثر بحزن دمتر الصامت (**) . على أن الذى يثير إعجابنا هو براعة الفكرة وإتقان التنفيذ . نعم إن العضلات قد بولغ فيها ، ولكن أطراف الكاهن الشيخ ، وجسمى ولديه قد صيغا صياغة مثلث فى كثير من الهيبة والتحفظ . ولعلنا لو عرفنا

(*) والذراع المعادة التى فى الفاتيكان من صنع برنينى Bernini وهى متقنة الصنع فى تفاصيلها ، غير أنها تفسد على المجموعة وحدتها المركزية . لكن ونكلمان رغم هذا قد أعجب بالمجموعة إعجابا حمل لسنج Lessing حين قرأ وصفه إياها على أن يؤلف كتابا فى نقد حماسة الجمال ، يشير إليها تارة من طرف خفى ويدور حولها تارة أخرى فى صراحة واضحة .

(**) البادى فى تمثال دمتر المحفوظ بالمتحف البريطانى .

القصة قبل أن نشاهد المجموعة لتأثرنا بها كما تأثر پلنى ، الذى ظنها أعظم عمل من أعمال الفن اللدن (٢٠) .

وقامت فى مراكز يونانية أخرى مدارس زاهرة للنحت فى هذا العصر الذى لم يقدره الناس حق قدره ؛ غير أن الإسكندرية قد انقلبت أرضها وتبدلت مبانيها مراراً كثيرة فى أثناء تاريخها الطويل ، فلم تحتفظ بما أقامه الفنانون اليونان للبطالمة من أعمال ؛ وكل ما بقى من الأعمال الجليلة الشأن هو تمثال النيل الوقور المحفوظ فى متحف الفاتيكان والذى يسنده ستة عشر طفلا ترمز إلى ستة عشر قيراطا التى يعلوها النهر فى فيضانه . وقد نحت مثال يونانى من صيدا عدداً من التوابيت لطائفة غير معروفة من الكبراء أحسنها كلها التابوت المسمى خطأً بتابوت الإسكندر والمحفوظ فى متحف اسطنبول . ويضارع ما فيه من الحفر ما فى إفريز البارثنون وإن قل عنه فى الكم ؛ فالصور جميلة متقنة التناسب ، والنحت قوى ولكنه واضح ، والألوان الهادئة التى لاتزال عالقة بالحجارة تدل على العون الذى كان يلقاه النحت اليونانى من فن التصوير . وصب أپلونيوس وتورسكس فى ترالس Trallas من أعمال كاريا Caria حوالى ١٥٠ ق. م. مجموعة ضخمة من البرنز لرودس تعرف الآن باسم ثور فارنيز . وتتألف هذه المجموعة من غلامين وصيمين يسيطان درسى Dirce الجميلة ويدفعانها إلى قرنى ثور وحشى ، لأنها أساءت معاملة أمهما أنتيوبى Antiope التى تنظر إليهما راضية مطمئنة اطمئناناً تعافه النفس(*) . وفى برجموم صب المثالون اليونان من البرنز عدة مجموعات حربية أقامها أتلس أول الأمر فى عاصمة ملكه ليخلد بها ذكرى صد غازات الغاليين . وأراد أتلس أن يعبر عما تشعر به الثقافة اليونانية بأجمعها من فضل أثينة عليها ، ولعله أراد أيضاً أن

(*) وأصل هذه المجموعة ضائع . وقد عثر فى القرن السادس عشر وفى حمامات كركلا Cararcalla على نسخة رخامية رومانية منقولة عنها فى القرن الثالث الميلادى ، وأصلحها ميكل أنجلو ، واحتفظ بها وقتا ما فى قصر فارنيز وهى الآن فى متحف نابلى .

يذيع شهرته ، فأهدى صوراً من هذه المجموعة لتقام على الأكروبوليس بأثينة . وقد بقيت قطع صغيرة منها فى صورة الغالى المحتضر المحفوظة فى متحف الكبيتولين ، وفى الصورة المسماة خطأ بيتس وأريا(*) — وهى صورة غالى يؤثر الموت على الأسر فيقتل زوجته أولا ثم يثني بنفسه — وفى قطع أخرى أصغر منها منتشرة الآن فى مصر وأوربا . ولعل من هذه المجموعة أيضاً صورة الأمزونة الميتة(**) التى لا عيب فى تفاصيلها كلها عدا ثدييها اللذين بلغا من الكمال حداً لايتصوره العقل . وتكشف هذه الصور عن تحفظ فى التعبير عن الانفعالات شبيه بما كان فى عصر اليونان الزاهر . فالرجال المغلوبون يقاسون الآلام والأحزان المبرحة ، ولكنهم يموتون وهم صابرون ؛ وقد أجاز المنتصرون للفنانين أن يمثلوا فضائل أعدائهم كما يمثلون هزيمتهم . ولسنا نتبين هنا أى دليل على نقص القدرة على التفكير أو دقة ملاحظة أجزاء الجسم ، أومهارة التنفيذ أو الصبر عليه . ولايكاد يقل عن هذه المجموعة كمالا النقش العظيم الذى كان يمتد على طول قاعدة مذبح زيوس وأكربوليس برجموم ، والذى يقص مرة أخرى قصة الحرب التى نشبت بين الآلهة والجبابرة — ويبدو أن هذا النقش تمثيل متواضع للحرب بين أهل برجموم والغاليين . والنقش هنا شديد الازدحام ، ويبدو أحياناً عنيفاً عنفاً مسرحياً ، ولكن بعض رسومه تضارع خير ما أنتجه الفن اليونانى . فصورة زيوس التى لا رأس لها منحوتة بقوة لا تقل عن قوة اسكوپاس Scopas ، والإلهة هكتى Hecate مثال فى الرشاقة والجمال بين أهوال الحرب وفظائعها .

وكان هذا العصر غنياً بما فيه من روائع الفن التى لايعرف أصحابها والتى تكاد تشمل صوراً لجميع الآلهة الكبار ، ونذكر منها رأس زيوس الفخم الذى

(*) فى متحف ترمى Museo delle Terme فى رومة .

(**) فى متحف نابلى .

عثر عليه فى أتركولى Atricoli وتمثال لودوفيزى هيرا Lodovisi Hera المحفوظ فى متحف ترمى ، وقد أعجب بهما جيته فى شبابه إعجاباً حمله على أن ينقل معه قالبين لهما إلى ألمانيا كأنهما تذكاران حقيقيان أهداهما إليه چوف ويونو . أما أبلو بلفدير الذى كان من قبل موضع الإعجاب فهو فاتر متكلف خال من دلائل الحياة ، ولكنه مع ذلك أزكى نار الحماسة فى قلب ونكلمان منذ قرنين من الزمان(٢١) . ويختلف أشد الاختلاف عن هذا التمثال الأملس الضعيف تمثال هرقل الفارنيزى الذى نقله جليكون Olycon الأثينى عن أصل له يعزى إلى ليسبوس — وجسمه الضخم كله عضلات ، وكله ملل ، وكله حنو ، ووجهه كله عجب ودهشة — كأن القوة كانت تسأل نفسها ذلك السؤال الذى لم يجب عنه أحد قط : ماذا يجب أن يكون هدفها ؟ أما أفروديتى فقد أخرج لها ذلك العصر تماثيل لايقل عنها فى عددها إلا عبادها وحدهم ؛ وقد بقى عدد من هذه التماثيل معظمها مما نقله الرومان عن أصولها اليونانية . غير أن تمثال أفروديتى ميلوس المحفوظ فى متحف اللوفر والمعروف فيه باسم زهرة ميلوبيدو أنه تمثال يونانى أصيل نحت فى القرن الثانى قبل الميلاد . وقد عثر على هذا التمثال فى ميلوس عام ١٨٢٠ بالقرب من قطعة من القاعدة نقشت عليها الحروف ساندوس Sandos ، وربما كان أجسندر الأنطاكي واسمه مأخوذ من سرادق الفاتيكان الذى وضع فيه التمثال أولا ، هو الذى نحت هذا التمثال العادى المتواضع .

وليس لوجه التمثال ذلك الجمال الرقيق الذى يزدان به وجه التمثال الموضوعة صورته فى الصفحة الأولى من هذا المجلد ، ولكن الجسم نفسه ممتلئ بالصحة التى يكون الجمال ثمرتها الطبيعية . ولسنا نرى فيه ذلك الخصر النحيل الذى لا يتفق مع الجسم الملئ والوركين المكتنزتين . ولم يبلغ هذا الكمال كله تمثالا ڤينوس الكپتولينية ، وڤينوس الميديشية(*) . وتمثال ڤينوس كليپجى

(*) والتمثال الأول محفوظ فى متحف الكپتولين فى رومة والثانى فى متحف أفيزى بفلورنس .

Veuns Callpyge أوڤينوس ذات الإليتين الجميلتين(*) يثير الغريزة الجنسية قوية ، وقد غطيت فيه مفاتنها لكي تكشف عنها ، وتلتفت لتبدى إعجابها بردفيها فى البحيرة . وأوقع من هذه التماثيل كلها فى النفس تمثال نيـكى Nike أو نصر سموثريس الذى وجد فى ذلك المكان عام ١٨٦٣ ، وهو الآن أروع آيات النحت فى متحف اللوفر(**) . وقد مثلث إلهة النصر كأنها تحط وهى طائرة بأقصى سرعتها على مقدم سفينة مسرعة ، وتقودها إلى الهجوم . ويخيل إلى الرائى أن جناحيها العظيمين يجذبان السفينة ضد النسيم الذى يعبث بأثوابها . وهنا أيضاً تسيطر على التمثال فكرة اليونان عن المرأة ، وهى أنها ليست متعة حلوة فحسب ، بل إنها فوق ذلك أم قوية . فليس جمالها هو جمال الشباب الضعيف الزائل بل هو نداء المرأة الذى يدوم طول الحياة للرجل لكى يسمو بنفسه إلى الأعمال الجليلة ؛ وكأنما أراد الفنان أن يمثل هنا السطور الأخيرة من فوست Faust للشاعر جيته . لعمرى إن حضارة تستطيع أن تفكر فى هذا التمثال وأن تنحته لحضارة أبعد ماتكون عن الموت .

ولم تكن الآلهة أهم ما يعنى به المثالون الذين ازدان بهم خريف الفن اليونانى ؛ لقد كان هؤلاء الفنانون ينظرون إلى أولمپس نظرتهم إلى معين من الموضوعات لا أقل من ذلك ولا أكثر . ولما أن نضب هذا المعين من كثرة ما أخذ منه انتقلوا إلى الأرض نفسها وسرهم أن يمثلوا ما فى الحياة البشرية من حكمة وجمال ، وغرابة وسخافات . فنحتوا أو صبوا رؤوساً ذات

(*) فى متحف نابلى .

(**) وكان يعتقد أولا أن دمتريوس پليوكريتيز قد أقامه فى عام ٣٠٥ ليخلد به ذكرى انتصاره البحرى على بطليموس الأول قرب سلاميس القبرصية عام ٣٠٦ ق م . ولكن الجدل الحديث يميل إلى جعل هذا التمثال ذا صلة بمعركة كوس (٢٥٨ أو معركة أخرى من نوعها) وهى المعركة التى انتصرت فيها أساطيل مقدونية ، وسلوقيا ، ورودس على بطليموس الثانى .

روعة لهومر ، ويوريپديز ، وسقراط . وصنعوا عدداً من التماثيل الملساءالرقيقة لهرمفرديتى Hermaphrodite يستلفت العين جمالها الغامض ؛ وهى قائمة فى متحف العاديات باسطنبول ، أو فى معرض بورجا فى رومة ، أو فى متحف اللوفر . وكان الأطفال فى هذه التماثيل يقفون وقفات طبيعية منشطة ، كوقفة الغلام الذى يخرج شوكة من قدمه ؛ والغلام الآخر الذى يقاتل إوزة(*) . وأجمل ما فى هذا الصنف من التماثيل تمثال الشاب القائم للصلاة والذى يتجلى الإيمان فى وجهه ، ويعزى هذا التمثال إلى بوئيثس Boëthus تلميذ ليسپوس(**) . وكان المثالون يذهبون إلى الغابات ويصورون جن الغاب كجنية بربرينى المحفوظ تمثالها فى ميونخ Munich أوالساترات الفرحة كتمثال سيلينس السكرى المحفوظ فى متحف نابلى . وكانوا يضعون فى مواضع متفرقة بين صورهم الوجنتين المتوردتين والحيل الخادعة الماكرة التى يعزوها الأقدمون إلى إله الحب .

(*) وكلاهما فى متحف الفاتيكان .

(**) فى متحف الدولة ببرلين .

الفصل الرابع

تعليـــــق

إن إقحام الفكاهة الفجائى على النحو الذى وصفناه فى الفصل السابق فى موضوعات النحت اليونانى التى كانت من قبل موضوعات مقدسة الطابع، لمن الخصائص التى يمتاز بها الفن الهلنستى. ولقد احتفظ كل متحف من المتاحف بين ما احتفظ به من آثار ذلك العصر بتمثال لإله الحقول يضحك، أو إله الرعاة يغنى، أو إله الشراب يصخب، أو لغلام يستخدم فوارة يخرج منها الماء بطريقة يأباها الذوق والأدب. ولعل عودة الفن اليونانى إلى آسية قد أرجعت له ما كاد يفقده فى عهد اليونان القديم، حين كان خاضعاً للدين والدولة، من اختلاف فى الشكل، ومن شعور وتحمس قويين. لقد بدأ الفنانون وقتئذ يستمتعون بالطبيعة بعد أن كانوا من قبل يعبدونها. ولم يكن هذا لأن الاعتدال القديم قد زال: فهاهو ذا تمثال شاب سبياكو Subiaco فى متحف ترمى، وتمثال أدريدنى النائمة (Adriadne)، فى متحف الفاتيكان، والفتاة الجالسة فى قصر الكنسرفتورى كلها تواصل تقاليد پركسيتليز وما فيها من رقة؛ وظل كثيرون من المثالين فى أثينة طوال ذلك العصر يقاومون النزعات «الاعتدالية» التى فشت فى أيامهم بعودتهم متعمدين إلى أنماط القرن الرابع والقرن الخامس، بل إنهم كانوا من حين إلى حين يعودون إلى الوقار القديم وقار القرن السادس. لكن روح العصر كانت روح التجارب، والفردية، والنزعة الطبيعية، والواقعية، مع وجود تيار قوى خفى نحو الخيال، والمثالية، والعاطفية، والتأثير المسرحى. وأخذ الفنانون يمنون بالإفادة من تقدم التشريح، ويكثرون من استخدام النماذج الحية فى متاحفهم ومراسمهم؛ فكان المثالون ينحتون تماثيل لا ينظر إليها الإنسان من الأمام فحسب، بل ينظر إليها من جميع النواحى

وأخذوا يستخدمون مواد جديدة — كالبلور ، والعقيق الأبيض ، والياقوت والزجاج ، والبازلت القاتم اللون ، والرخام الأسود ، والرخام السماق ليقلدوا لون الزنوج ، أووجوده الساترات المتوردة التي تزيد الخمر بريقها .

وكان خصب اختراعهم يضارع سيطرتهم الفنية ، ذلك أنهم قد ملوا تكرار الأنماط القديمة ، وكأنهم عرفوا مقدماً ما يعيبه رسكن على الفنانين(*) ، فاعتزموا أن يظهروا فى صورهم ما للأشخاص والأشياء من وجود حقيقى ومن خواص فردية . ولم يعودوا يقتصرون على تمثيل ماهو كامل وجميل ، كالرياضيين والأبطال ، والآلهة ، بل أخذوا يخرجون صوراً من الحياة الريفية المألوفة ، أو تماثيل من الآجر للصناع ، وصائدى السمك ، والموسيقيين ، والبائعين والمشترين فى الأسواق ومدربى الخيول والخصيان وبحثوا عن موضوعات غير مطروقة فى الأطفال والفلاحين ، وفى شخصيات ممتازة كسقراط ، وفى رجال شيوخ حاقدين كلمنتين ، وفى وجوه قوية تكاد تكون وحشية كوجه يوثدموس Euthydemus الملك البكترى اليونانى ، وفى أماكن مهجورة منبوذة كتمثال امرأة السوق العجوز المحفوظ فى متحف نيويورك . وقد أدركوا وأحبوا تنوع مظاهر الحياة وتعقدها . ولم يترددوا فى أن يكونوا فى تماثيلهم وتصويرهم شهوانيين ؛ فلم يكونوا آباء يحرصون على عفة بناتهم ، أوفلاسفة تقض مضاجعهم ما تؤدى إليه النزعة الفردية الأبيقورية من عواقب اجتماعية خطيرة ؛ بل كانوا يشاهدون مفاتن الجسم ، وينحتونها ، ويبرزون الجمال الذى يستطيع أن يسخر إلى حين من الزمن وما يحدثه فيه من آثار . ولقد تحرر

(*) « ليست هناك صفة شخصية فى الفن اليونانى — بل فيه آراء مجردة عن الشباب ، والشيخوخة ، والقوة ، والسرعة ، والفضيلة ، والرذيلة — ؛ ولكنه خال أيضاً من الفردية(٢٣) » . إن رسكن لم يكن يفكر إلا فى الفن اليونانى فى القرنين الخامس والرابع ؛ كما أن ونكلمان ولسنج كانا يعرفان بنوع خاص فن العصر الهلنستى .

هؤلاء المثالون من قيود العرف التي كانت تسود العصر الزاهر القديم ، فانهمكوا في إبراز العواطف الرقيقة ، وصوروا بإحساس قوى وإخلاص عظيم رعاة يموتون بعد أن تكشف لبصائرهم حقيقة الحب وآلامه ، ورؤوساً جميلة سابحة في أحلام اليقظة ، وأمهات يفكرن بحنان في أبنائهن : لقد بدت لهم هذه الموضوعات أيضاً جزءاً من الحقيقة الخليقة بالتسجيل ؛ ثم واجهوا في آخر الأمر حقائق الألم والحزن ، والفواجع المحزنة ، والموت في شرخ الشباب ، وعقدوا النية على أن يجدوا لها مكاناً فيما يمثلونه من نواحي الحياة البشرية .

وليس ثمة دارس مستقل في تفكيره يطاوعه عقله على أن يصدر حكماً عاماً شاملا على اضمحلال العصر الهلنستي ؛ فما أسهل أن يتخذ حكم عام كهذا حجة يتذرع بها لاختتام قصة بلاد اليونان قبل أن يكشف عما كان لها من شأن في الحضارة العالمية . نعم إننا نشعر في ذلك العصر ببطء في قوة الابتكار ، ولكن هذا يعوضه كثرة منتجات الفن بعد أن أصبحت له السيطرة التامة على أدواته . وإذ كان الشباب لا يدوم أبداً ، وإذ لم يكن لمفاتنه أعلى مقام في الحياة ؛ فقد كان لابد أن يحل الخمود الطبيعي بحياة بلاد اليونان كما يحل الخمود بكل حياة ، وأن تتقبل عهد الشيخوخة والنضوج . لقد دب دبيب الاضمحلال في البلاد ، وأخذت عوامل الضعف تعمل عملها في الدين والأخلاق والآداب ووسمت بميسمها أعمالا فردية في أماكن متفرقة في البلاد ؛ ولكن قوة العبقرية اليونانية الدافقة أبقت الفن اليوناني ، كما أبقت العلوم والفلسفة اليونانية ، قرب ذروته إلى آخر أيام ذلك العصر ، ولم يبلغ هيام اليونان بالجمال ولا قدرتهم وصبرهم على تجسيده في أيام شبابهم وعزلتهم مثل ما بلغه هيامهم وقدرتهم وصبرهم في العصر الهلنستي ، أوكان لهذه الصفات قوة دافعة وآثار عظيمة في مدن الشرق الغافلة في العهد الأول مثل ما كان لها في هذا العصر الذي نتحدث عنه . وفي هذه المدن وجدتها رومة ونقلتها إلى سائر بلاد العالم .

الباب الثامن والعشرون

ذروة مجد العلم اليونانى

الفصل الأول

إقليدس وأپولونيوس

شهد القرن الخامس ذروة مجد الآداب ، وشهد القرن الرابع ازدهار الفلسفة ، وشهد القرن الثالث ذروة مجد العلوم الطبيعية . ذلك أن الملوك كانوا أكثر من الدمقراطيات تسامحاً فى البحث العلمى وأكثر منها تشجيعاً له . من ذلك أن الإسكندر أرسل إلى المدن اليونانية القائمة على ساحل آسية جمالا محملة بألواح الفلك البابلية لم تلبث أن ترجمت إلى اللغة اليونانية ، وأنشأ البطالمة المتحف الذى كان معهداً للدراسات الراقية ، وجمعوا علوم بلاد البحر الأبيض المتوسط وثقافاتها فى المكتبة ؛ وأهدى أپولونيوس كتابه «المخروطات» إلى أتلس الأول ، ورسم أركميديز ، برعاية هيرون الثانى دوائره . وقد كان لزوال الحدود السياسية بين الأقطار ، ووجود لغة واحدة مشتركة ، وسهولة تبادل الكتب والأفكار ، والقضاء على علم الميتافيزيقا ، وضعف الدين القديم ، وقيام طبقة من التجار ذات عقلية دنيوية لا دينية فى الإسكندرية ، ورودس ، وأنطاكية ، وبرجموم ، وسرقوسة ، وازدياد عدد المدارس ، والجامعات ، والمراصد الفلكية ، ودور الكتب ، كان لهذه كلها مجتمعة مع ازدياد الثروة وتقدم الصناعة ، ومناصرة الملوك ، أكبر الأثر فى تحرير العلم من الفلسفة ، وتشجيعه فى العمل على تنوير الأذهان ، وازدياد الثراء وتهديد العالم بأكثر الأخطار .

وحدث حوالى مستهل القرن الثالث — أولعله حدث قبله بزمن طويل — أن أصبحت علماء الرياضة اليونان أجود وأدق مما كانت باختراع طريقة للعد والحساب أبسط من الطريقة التى كانت متبعة حتى ذلك الوقت . ذلك أن التسعة الحروف الأولى من حروف الهجاء قد استخلصت للدلالة على الأرقام التسعة البسيطة ، ثم استخدم الحرف الذى يليها للدلالة على الرقم ١٠ ، والتسعة التى تليه للدلالة على ٢٠ ، و٣٠ الخ ، والذى يليها للدلالة على ١٠٠ ، والتسعة التى تلى هذا للدلالة على ٢٠٠ ، ٣٠٠ ، وهكذا . وعبر عن الكسور والأعداد الترتيبية بوضع شرطة صغيرة مائلة من اليمين إلى اليسار بعد الحرف : فهذه العلامة ι' مثلا تدل إما على عشر أو العاشر حسب السياق ، وحرف ,α الصغير إذا وضع تحت الحرف دل على ألف . فكانت هذه الطريقة الحسابية المختصرة وسيلة سهلة للعد والحساب ؛ ومن البرديات اليونانية الباقية إلى الآن ما يجمع عمليات حسابية معقدة ، تختلف ما بين الكسور العشرية والملايين ، فى فراغ أقل مما تشغله أمثال هذه العمليات فى طريقتنا الحسابية فى هذه الأيام(*) .

لكن أعظم ما أحرزته العلوم من انتصار فى العصر الهلنستى كان فى الهندسة النظرية ، فمن علماء ذلك العصر إقليدس الذى ظل اسمه مدى ألفى عام مرادفا لاسم هذه الهندسة . وكل ما نعرفه من سيرته أنه أنشأ مدرسة فى الإسكندرية ، وأن تلاميذه بزوا كل من عداهم من التلاميذ فى هذا الفرع من العلوم ، وأنه لم يكن يعنى قط بالمال ، وأنه حين سأله أحد تلاميذه « ماذا يفيدنى تعلم الهندسة؟ » أمر أحد العبيد أن يعطيه أبلة « لأنه يريد أن يربح المال مما يتعلم[1] » ، وأنه

(*) ليست هذه البرديات أقدم من مدينة الإسكندرية ذاتها ، ولكنها وهى تستخدم حرف الديجما Digamma اليونانى البدائى المهجور للدلالة على الرقم ٦ ، فإن أكبر الظن أن استخدام الحروف الهجائية للدلالة على الأرقام قد حدث قبل العصر الهلنستى .

كان شديد التواضع والرأفة ، وأنه حين كتب كتابه الشهير المسمى « العناصر (*) Elements » حوالى عام ٣٠٠ لم يخطر بباله قط أن يعزو مابه من مختلف النظريات إلى واضعيها لأن كل ما ادعاه لنفسه أنه جمع فى نظام منطقى معلومات اليونان الهندسية . وقد بدأ الكتاب ، دون تقديم أو اعتذار ، بالتعاريف البسيطة ، ثم ثنى بالفروض الضرورية ، وجاء بعدها بـ « الأفكار العامة » أو البداءة . وقد سار على ما أوصى به أفلاطون فاقتصر على الأشكال والبراهين التى لاتحتاج من الآلات إلى غير المسطرة والفرجار . واتبع طريقة فى العرض والإثبات معروفة لمن سبقه من العلماء ولكنه وصل بها إلى حد الكمال ، وهى الطريقة التى تسير على النظام الآتى : الفرض ، والعمل ، والبرهان والنتيجة . وكانت النتيجة الكلية لجهوده ، رغم ما فيها من عيوب قليلة ، أن أقامت للعالم صرحا رياضيا ينافس البارثنون فى رمزه للعقل اليونانى . بل الحق أن هذا الصرح العلمى قد عاش كاملا بعد أن تحطم البارثنون ، وذلك لأن « عناصر » إقليدس قد ظل حتى هذا القرن الكتاب المدرسى المعترف به فى كل جامعة أوربية تقريبا . وإذا أردنا أن نجد ما يشبه هذا الكتاب فى أثره الباقى فعلينا أن نذهب إلى الكتاب المقدس نفسه لنجد هذا الشبيه .

وثمة كتاب لإقليدس فى المخروطات قد ضاع فيما ضاع من كتب ؛ وهو يلخص دراسات منيكمس ، وأرستيوس وغيرهما من علماء الهندسة فى المخروط . وقد عمد أبلونيوس البرجاوى Apollouins of Perga ، بعد أن ظل يدرس الهندسة فى مدرسة إقليدس عدة سنين ، إلى هذه الرسالة فاتخذها بداية لكتابه هو فى

(*) يلخص الكتاب الأول والثانى أعمال فيثاغورس الهندسية ؛ ويلخص الكتاب الثالث أعمال أبقراط الطشيوزى ، والكتاب الخامس أعمال يودكسوس ؛ والرابع والسادس والحادى عشر والثانى عشر آراء علماء الهندسة الفيثاغوريين والأثينيين المتأخرين ؛ وتبحث الكتب السابع والثامن والتاسع فى الرياضيات العليا .

المخروطات ، وبحث فى ثمانية «كتب» و٣٨٧ نظرية خواص المنحنيات التى تنشأ من تقاطع مخروط مع سطح مستو . وقد أطلق على ثلاثة من هذه المنحنيات (والدائرة هى رابعتها) أسماءها المعروفة بها إلى الآن وهى : القطع المكافئ parbola، والقطع الناقص أو الإهليلجى ellipse ، والقطع الزائد hyperbola وقد يسرت اكتشافاته وضع نظرية القذائف ، وكانت من أكبر العوامل فيما حدث فى الميكانيكا والملاحة والفلك من تقدم عظيم . وكان عرضه لنظرياته طويلا مجهداً مملا ، ولكن الطريقة التى اتبعها طريقة عملية خالصة ؛ ولم يكن مؤلفه أقل من مؤلف إقليدس وضوحاً ودقة ، ولا تزال السبعة الكتب الباقية منه حتى اليوم أعظم كتاب علمى مبتكر فى كل ما كتب فى الهندسة النظرية .

الفصل الثانى

أركميديز

ولد أعظم العلماء الأقدمين فى سرقوسة حوالى عام ٢٨٧ ق م ، وكان والده هو فيدياس Pheidias الفلكى ؛ ويلوح أنه ابن عم هيرون الثانى أعظم حكام زمانه استنارة . وفعل أركميديز ما فعله كثيرون غيره من اليونان الهلنستيين الذين أولعوا بالعلوم ، وكان لديهم من المال ما يمكنهم من إشباع هذا الولع ، فسافر إلى الإسكندرية ، حيث درس على خلفاء إقليدس ، وشغف بالرياضيات وأفاد من دراستها فائدتين — انهماكا فيها وموتا مفاجئاً بسببها . وعاد من الإسكندرية إلى سرقوسة ، حيث وهب حياته ، كما يهب الرهبان حياتهم ، لكل فرع من فروع العلوم الرياضية . وكثيراً ما كان يهمل كما يهمل نيوتن ، طعامه وشرابه ، والعناية بجسمه ، لكى يتتبع نتائج نظرية رياضية جديدة ، أو يرسم بالزيت أشكالا على جسده ، أو بالرماد على الموقد ، أو الرمل الذى اعتاد علماء الهندسة اليونان أن يفرشوه على أرض منازلهم[٢] . على أنه لم يكن تنقصه الفكاهة : فقد تعمد أن يضع فى كتابه « الكرة والأسطوانة » ، الذى يرى هو أنه أحسن كتبه ، نظريات خاطئة (كما يؤكد بعضهم) ليمزح مع من أرسل إليهم المخطوط من الأصدقاء من جهة ، وليوقع فى الشرك لصوص العلم الذين يبيحون أن يغتصبوا لأنفسهم أفكار غيرهم من الناس من جهة أخرى[٣] . وكان تارة يسلى نفسه بألغاز كادت أن توصله إلى اختراع الجبر كمشكلة الماشية الشهيرة التى حيرت لسنج أشد الحيرة[٤] ، وتارة أخرى يخترع آلات عجيبة ليدرس بها القوانين التى يستخدمها . ولكن الذى كان يعنى به وتلذه دراسته على الدوام هو العلم البحث يتخذه مفتاحا لفهم الكون لا أداة للمنشآت العملية أو زيادة الثروة . ولم يكن يكتب للطلاب بل للعلماء

المتخصصين ينقل إليهم فى عبارات قصيرة جامعة النتائج العويصة التى استخلصها من بحوثه . وقد افتتن كل من جاء بعده من الأقدمين بما تمتاز به رسائله العلمية من ابتكار ، وعمق ، ووضوح . وقد وصفها فلوطرخس بقوله : « ليس من المستطاع أن نجد فى الهندسة كلها مسائل أصعب وأعوص ، أو شروحا أبسط وأوضح ، مما احتوته هذه الرسائل . ومن الناس من يعزو هذا إلى عبقريته الفطرية ، ومنهم من يظن أن هذه الصحف السهلة الميسرة كانت ثمرة كدح وجهود لايصدقها العقل (٥) .

وقد أبقى الزمان على عشرة من مؤلفات أركيديز التى كتبها بعد رحلات كثيرة فى أوربا وبلاد العرب وهى : (١) **الطريقة** ويشرح فيه لإرتسثنيز ، الذى عقد معه صداقة وثيقة فى الإسكندرية ، كيف توسع التجارب العملية معلومات الإنسان الهندسية . وقد وضعت هذه المقالة حداً لحكم المسطرة والفرجار الذى أقامه أفلاطون ، وفتحت باب الطرق التجريبية ؛ لكنها مع هذا تكشف عما بين المزاجين العلميين القديم والحديث من اختلاف . فقد كان الأقدمون يجيزون التجارب العملية ليتوصلوا بها إلى فهم النظريات ، أما المحدثون فيستخدمون النظريات لما عساه أن تؤدى إليه من نتائج عملية (٢) **مجموعة من القضايا العارضة** وفيها يبحث سبعة عشر « اختبارا » أو فرضاً متبادلا فى الهندسة المستوية . (٣) **قياس الزاوية** ويصل فيه إلى $\frac{1}{7}3$ و$\frac{10}{71}3$ للنسبة التقريبية أى نسبة محيط الدائرة إلى قطرها ؛ وهو يصل إلى تربيع الدائرة بأن يوضح بطريقة إفناء الفرق أن مساحة الدائرة تساوى مساحة مثلث قائم الزاوية ارتفاعه يساوى نصف قطر الدائرة وطول قاعدته يعادل طول محيطها. (٤) **تربيع القطع المكافئ** وفيه يدرس بطريقة حساب التكامل المساحة التى يفصلها وترقوس من القطع المكافىء ومساحة القطع الناقص . (٥) **فى اللولبيات** وفيه يعرف اللولبيات بأنها الأشكال التى تحدثها نقطة تتحرك من

نقطة معينة بسرعة منتظمة فى خط مستقيم يدور فى سطح مستو بسرعة منتظمة حول هذه النقطة المعينة نفسها ؛ ثم يتوصل إلى معرفة المساحة المحصورة بين قوس لولبي ونصف قطر فى قطع ناقص ، مستخدماً فى ذلك طرقاً تقرب من حساب التفاضل (٦) **الكرة والأسطوانة** وفيه يبحث عن قوانين رياضية لإيجاد أحجام الهرم ، والاسطوانة ، والكرة ، ومساحة سطوحها (٧) **فى أشباه المخروط وأشباه الكرة** ويشتمل على دراسة للأجسام الجامدة المتولدة من دوران القطاعات المخروطية حول محاورها .(٨) **حاسب الرمل** وفيه ينتقل من الهندسة إلى الحساب ، بل يكاد ينتقل إلى اللوغرتمات ، وذلك بقوله إن الأعداد الكبيرة يمكن أن تمثل بمضاعفات أو « طبقات » ١٠,٠٠٠ وبهذه الطريقة يحصى أركميديز حبات الرمل التى يحتاج إليها لملء الكون — على فرض أن للكون حجما معقولا ، كما يقول هو بعبارته الفكهة الظريفة .والنتيجة التى يصل إليها ، والتى يستطيع أى إنسان أن يحققها بنفسه ، أن العالم لا يحتوى على أكثر من ثلاث وستين «وحدة كل منها عشرة ملايين من الطبقة الثامنة من الأعداد » أو ١٠^٦٣ حسب طريقتنا فى هذه الأيام . ويدل ما فى هذا الكتاب من إشارات إلى ماضاع من مؤلفات أركميديز على أنه كشف أيضاً طريقة لإيجاد الجذر التربيعى للأعداد غير المربعة (٩) **فى الموازنات المستوية** وفيه يطبق الهندسة على الميكانيكا ويدرس مركز الجاذبية لعدة أجسام ذات أشكال مختلفة ، ويصوغ ماهو معروف لنا من قوانين علم القوى المتوازنة (١٠) **فى الأجسام الطافية** وفيه يضع علم توازن السوائل الساكنة وضغطها (الهيدروستاتيكا) وذلك حين يصل إلى قوانين رياضية لمعرفة مركز توازن الجسم الطافى .

ويبدأ الكتاب بالفكرة التى أدهشت الناس فى ذلك الوقت وهى أنه

سطح أى جسم سائل ساكن فى حالة توازن هو سطح كرى ، وأن مركز الكرة التى هو جزء منها هو مركز الأرض نفسها .

ولعل الذى دعا أركيديز إلى دراسة علم توازن السوائل حادثة تكاد تبلغ من الشهرة ما بلغته حادثة نيوتن . وخلاصة قصتها أن الملك هيرون أعطى لصائغ هرقومى مقداراً من الذهب ليصوغه تاجاً له . فلما أعطاه التاج كان وزنه مساوياً لوزن الذهب ، ولكن الملك ارتاب فى أن يكون الفنان قد استبدل ببعض الذهب مثل وزنه من الفضة ، واحتفظ لنفسه عما أنقصه من الذهب . وأفضى هيرون بريبته هذه إلى أركيدز وأعطاه التاج ، ويبدو أنه اشترط عليه أن يبدد ارتيابه دون أن يلحق بالتاج أذى ، وظل أركيديز عدة أسابيع يقلب الأمر فى فكره . حتى إذا خطا يوما ما فى وعاء كبير بحمام عام ، لاحظ أن ماءه قد فاض بقدر العمق الذى وصل إليه فيه ، وخيل إليه أن وزن جسمه — أى ضغطه إلى أسفل — يقل تدريجا كلما انغمس فى الماء . فما كان منه وهو صاحب العقل الطلعة إلا أن وضع فجأة « قانون أركيديز » ، وهو أن الجسم الطافى يفقد من وزنه ما يساوى وزن الماء الذى يزيحه . وظن أن الجسم المغمور فى الماء يزيح منه بمقدار حجمه ، وأدرك أن هذا القانون يمكنه من حل مشكلة التاج فخرج عارياً فى الطريق (إذا صدقنا قول فتروفيوس المعروف برزانته وهرول إلى مسكنه وهو يصيح « يوريكا » (لقد وجدتها ! لقد وجدتها !) . وسرعان ما أدرك وهو فى بيته أن قدراً من الفضة ذا وزن معين إذا غمس فى الماء يزيح منه مقداراً أكثر مما يزيحه ذهب مساو له فى الوزن ، لأن حجم الفضة يزيد على حجم الذهب المساوى له فى الوزن . ولاحظ أيضا أن التاج المغمور فى الماء يزيح منه أكثر مما يزيحه مقدار من الذهب مساو له فى الوزن . فاستنتج من هذا أن التاج قد وضع فيه معدن أقل كثافة من الذهب . فأخذ يستبدل فى الذهب الذى كان يستخدمه للمقارنة فضة بذهب حتى أزاغ الخليط قدر ما يزيحه التاج

من الماء . وبذلك استطاع أركيديز أن يعرف بالضبط مقدار ما استخدم في التاج من الفضة ، ومقدار ما اختلس من الذهب .

ولم تكن لتحقيقه رغبة الملك من الأهمية لديه مايعادل كشفه قانون الأجسام الطافية وطريقة تقدير الثقل النوعي للأجسام . وصنع أركيديز آلة مثل فيها الشمس والأرض والقمر والخمسة الكواكب المعروفة وقتئذ (زحل والمشترى، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد) ورتبها بحيث إذا أدير ذراع مركب في الآلة رأى الإنسان هذه الأجرام جميعها تتحرك في اتجاهات وبسرعات مختلفة[7] ؛ ولكنه في أغلب الظن كان يتفق مع أفلاطون في قوله إن القوانين المسيطرة على حركات الأجرام السماوية أجمل من النجوم(*) .

وقد صاغ أركيديز ، في رسالة مفقودة بقي بعضها في ملخصات لها ، قوانين الرافعة والميزان صياغة بلغ من دقتها أن تقدما مالم يحصل فيها حتى عام ١٥٨٦ م ، فهو يقول مثلا في الفرض الرابع : « الأجسام المتناسبة تتوازن إذا كانت على مسافات تتناسب تناسباً عكسياً مع جاذبيتها »[8] ، وتلك حقيقة عظيمة النفع تبسط العلاقات المعقدة بين الأجسام تبسيطاً بارعا يؤثر في نفس العالم كما يؤثر تمثال هرمس لبركستليز في نفس الفنان . وذهل أركيديز حين شاهد ما في الرافعة والبكرة من قوة فأعلن أنه إذا أعطى مرتكزاً ثابتاً استطاع أن يحرك أي شيء يريد تحريكه ، ويروى عنه أنه قال في لهجة سرقوسة الدورية Pa po, kai tan gan kinoa : أعطني مكانا أقف عليه ، أحرك لك الأرض[9] ، وتحداه هيرون أن يفعل ما يقول ، وأشار إلى ما كان يلقاه

(*) وقد رأى شيشرون هذا الجهاز بعد قرنين من ذلك الوقت ، وعجب من تناسق حركات الأجرام الممثلة فيه في أوقاتها المختلفة رغم تعقيدها الشديد ؛ وكتب في ذلك يقول : « حين حرك جلوس Gallus الكرة تبينا أن القمر كان على الدوام يتم دورات خلف الشمس على الجهاز البرنزى تتفق في عددها اتفاقا تاما مع عدد الأيام التي يتخلف فيها وراء الشمس في السماء . وبهذا يحدث خسوف الشمس على الجهاز كما يحدث في الحقيقة[7] » .

رجاله من المشقة فى رفع سفينة كبيرة من سفن الأسطول الملكى إلى شاطئ البحر . فما كان من أركيديز إلا أن وضع عدداً من الأضراس والبكر بطريقة أمكنته بمفرده وهو جالس عند نهاية هذا الجهاز أن يرفع السفينة الكاملة الشحنة من الماء إلى الأرض(١٠) .

وسر الملك من هذا العمل فطلب إلى أركيديز أن يضع له تصميمات لبعض عدد الحرب ، وكان من غريب صفات الرجلين أن أركيديز بعد أن وضع هذه التصميمات نسيها ، وأن هيرون لحبه السلم لم يستخدمها . وقد وصف فلوطرخس أركيديز فقال :

« إنه بلغ من علو الهمة وعمق التفكير ، وغزارة المادة العلمية ما سما به عن أن يترك وراءه أى شىء مكتوب فى هذه الموضوعات ، وإن كانت هذه الاختراعات قد أذاعت فى الخافقين ذكاءه العظيم الذى لانظير له بين الخلائق طراً . فقد نبذ كل فن لا غاية له إلا النفع والكسب المادى وعده فناً دنيئاً حقيراً ، وخص حبه كله وآماله كلها فى تلك المباحث العلمية الخاصة التى لا صلة بينها وبين مطالب الحياة الوضيعة — وهى تلك الدراسات التى لايشك إنسان فى سموها على سائر الدراسات ، بل كان ما يشك فيه هو هل جمال الموضوعات التى تبحثها وعظمتها ، أو دقة طرق البرهنة على صحتها وقوة الاقتناع بها ، هى أعظم الأشياء جدارة بإعجابنا » .

ولما أن مات هيرون قام النزاع بين سرقوسة ورومة ، وهاجمها مارسلس الباسل براً وبحراً . وكان أركيديز وقتئذ (٢١٢) فى السابعة والخمسين من عمره ولكنه مع هذا أشرف على الدفاع فى الجبهتين ، فأقام خلف الأسوار التى تحمى الميناء منجنيقات تقوى على قذف الحجارة الثقيلة مسافات بعيدة . وكان وابل القذائف التى تلقيها هذه المنجنيقات شديد الوقع فاضطر مارسلس إلى التقهقر حتى يفاجئ المدينة ليلا . فلما أن أبصر أهلها سفن العدو قرب الشاطئ أمطر الرماة بحارتها وابلا من السهام من بين الثقوب التى صنعها أعوان أركيديز فى الأسوار . وفضلا عن هذا فقد وضع المخترع العظيم فى داخل

هذه الأسوار رافعات وبكرات ضخمة تلقى بالقرب من السفن كتلا كبيرة من الحجارة والرصاص أغرقت الكثير منها . وكانت رافعة أخرى ، مسلحة بخطاطيف كبيرة تمسك بالسفن ، وترفعها فى الهواء ، وتقذفها على الصخور ، أو تلقيها بمقدمها فى البحر(*)(١٢) . وابتعد مارسلس بأسطوله ووضع كل آماله فى هجومه براً . ولكن أركيديز أمطر الجنود حجارة ضخمة من منجنيقات بلغت من القوة والإحكام حداً اضطر معه الرومان إلى الفرار وهم يقولون إن الآلهة نفسها كانت تقاومهم ، وأبوا أن يتقدموا بعدئذ للقتال(١٤) . ويعلق پوليبوس على ذلك بقوله : « وهكذا تتبدى فى هذا الاختراع العظيم المدهش عبقرية رجل واحد استخدمت الاستخدام الصحيح » . ولم يكن الرومان الأقوياء بحراً وبراً يرتابون فى الاستيلاء على المدينة من فورهم إذا أبعد عنها رجل واحد طاعن فى السن ؛ وما دام هذا الرجل باقياً فيها فإنهم لم يجرؤوا قط على مهاجمتها(١٥) » .

وتخلى مارسلس عن فكرة الاستيلاء على المدينة عنوة وآثر أن يستولى عليها بالحصار الطويل ، فضرب عليها حصاراً دام ثمانية أشهر نفدت فيها مؤونتها فاستسلمت له من فرط الجوع . وأعمل فيها الجند القتل والسلب لكن مارسلس أمرهم ألا يمسوا أركيديز بأذى . والتقى فى أثناء النهب جندى رومانى بشيخ سرقوسى منهمك فى دراسة أشكال رسمها على الرمل . فأمره الجندى الرومانى بأن يحضر من فوره لمقابلة مارسلس وأبى أركيديز أن يذهب إلا بعد أن تحل المسألة التى كان منهمكا فيها . ويقول فلوطرخس إنه « ألح على الجندى وتوسل إليه أن ينتظره قليلا ، حتى لا يضطر إلى ترك ما يشتغل به ناقصاً لم يصل فيه إلى

(*) لوشيان هو أقدم المراجع التى نستند إليها فى قولنا إن أركيديز أشعل النار فى السفن الرومانية بتسليطه أشعة الشمس عليها من مرايا مقعرة(١٣) » . وأقوال لوشيان من المراجع التى لا يصح الاعتماد عليها كل الاعتماد .

نتيجة مقنعة ؛ ولكن الجندى لم يؤثر فيه رجاء الرجل فقتله من فوره[١٦] » .
ولما سمع بذلك مارسلس حزن عليه وبذل كل ما فى وسعه ليواسى أهل القتيل[١٧].
وأقام القائد الرومانى قبراً فخماً تخليداً لذكراه نقش عليه بناء على رغبة العالم
الرياضى كرة داخل اسطوانة . ذلك أن أركيديز كان يعتقد أن وصوله إلى
القوانين التى أوجد بها مساحتى هذين الشكلين وحجميهما أعظم ما عمله فى
حياته . ولم يكن الرجل فى ظنه هذا بعيداً كل البعد عن الصواب ، فإن إضافة
نظرية هامة إلى نظريات الهندسة أعظم قيمة للإنسانية من حصار مدينة أو الدفاع
عنها . ومن حق أركيديز علينا أن نضعه فى المستوى الذى نضع فيه نيوتن ،
وأن نقول إنه ترك للعالم « عدداً من الاكتشافات الرياضية الجليلة الشأن
لايفوقه فيه إنسان بمفرده فى تاريخ العالم كله[١٨] » .

ولولا كثرة الأرقاء وقلة أجورهم لكان أركيديز زعيم انقلاب صناعى
حقيقى . ذلك أن رسالة فى المسائل الميكانيكية تعزى خطأ إلى أرسطو ، ورسالة
فى الأثقال تعزى خطأ إلى إقليدس ، قد وضعتا عدة قوانين أولية فى علم القوى
المحركة (الديناميكا) وعلم القوى المتوازنة (الأستاتيكا) قبل أركيديز بمائة
عام . وأحال استراتو اللمبسكسوسى Strato of Lampsacus، الذى تولى بعد
ثاوفراسطوس رياسة اللوقيون ، ماديته الجبرية إلى علم الطبيعة وصاغ (حوالى
عام ٢٨٠) المبدأ القائل بأن « الطبيعة تكره الفراغ »[١٩] . ولما أن أضاف إلى ذلك
قوله إن « الفراغ يمكن إيجاده بوسائل اصطناعية » مهد بذلك السبيل إلى ألف
من المخترعات . فدرس تسيبيوس الإسكندرى Ctesibius طبيعة المصات
(وكانت مستخدمة فى مصر من عام ١٥٠٠ ق . م) واخترع المضخة الرافعة ،
والأرغن المائى ، والساعة المائية . وأكبر الظن أن أركيديز قد حسن اللولب
المائى المصرى (الطنبور) الذى أطلق عليه اسمه على غير علم منه ؛ وهو الآلة

التي جعلت الماء يجرى إلى أعلى[٢٠] . واخترع فيلون البيزنطى الآلات التي تتحرك بالهواء ، وعدداً من آلات الحرب المختلفة الأنواع[٢١] . وكانت الآلة البخارية التي اخترعها هيرون الإسكندرى Heron of Alex.، بعد أن فتح الرومان بلاد اليونان آخر مخترعات هذا العصر وأعظمها . وسبب ذلك أن التقاليد الفلسفية كانت أقوى من أن تقضى عليها هذه النزعة العلمية العملية، وأن الصناعة اليونانية قد اقتنعت بالاعتماد على الأرقاء . لقد كان اليونان على علم بالمغنطيس وبما فى الكهرمان من خواص كهربائية ، ولكنهم لم يروا فى هذه الظواهر الغريبة ما يمكن أن تفيد منه الصناعة ، وحكم القدم على غير علم منه أن الحداثة غير جديرة بالعناية .

الفصل الثالث

أرستارخوس ، وهپارخوس ، وإراتسثنيز

تدين علوم اليونان الرياضية بازدهارها والقوة الدافعة لها إلى مصر ، ويدين الفلك اليونانى بازدهاره وقوته الدافعة إلى بابل . ذلك أن استيلاء الإسكندر على بلاد الشرق قد أدى إلى عودة تبادل الأفكار وإلى اتساع ذلك التبادل الذى أعان منذ ثلاثة قرون قبل ذلك الوقت على ميلاد العلم اليونانى فى أيونيا . وفى وسعنا أن نعزو إلى هذا الاتصال الجديد بمصر والشرق الأدنى ما نراه من تناقض . فقد بلغ العلم اليونانى ذروته فى العصر الهلنستى ، حين كان الأدب اليونانى والفن اليونانى آخذين فى الاضمحلال .

ولمع اسم أرستارخوس الساموسى فى الفترة الواقعة بين العهدين اللذين سيطرت فيهما على علم الفلك النظرية القائلة بأن الأرض مركز الكون . وكان هذا العالم شديد التحمس لدراسة الفلك فلم يترك فرعاً منه إلا بحثه ، ونبغ فى هذه الفروع جميعها(٢٧). ولسنا نجد فى رسالته الوحيدة التى بقيت لنا حتى الآن والمسماة « فى حجم الشمس والقمر وبعديهما(*) » أية إشارة إلى أن الشمس مركز العالم ، بل إن هذه الرسالة تفترض عكس هذا ، تفترض أن الشمس والقمر يتحركان فى دائرتين حول الأرض . ولكن كتاب أركميديز « حاسب الرمل »

(*) قدر أستارخوس حجم الشمس قدر حجم الأرض ثلثمائة مرة (وهى فى الحقيقة أكبر منها بأكثر من مليون مرة) ، وتقديره هذا يبدو صغيراً ، ولكنه تقدير لو عرفه أنكساغورس أو أبيقور لدهش منه . وقدر قطر القمر بثلث قطر الأرض ، ولا يزيد خطأ هذا التقدير على ثمانية فى المائة ، كما قدر بعد الأرض عن الشمس بقدر بعدنا عن القمر عشرين مرة (وهو يكاد يبلغ قدره أربعمائة مرة) . ويقول فى إحدى نظرياته إنه « حين يحدث كسوف كلى للشمس تقع الشمس والقمر وقتئذ داخل مخروط واحد رأسه عند عيننا(٢٨) » .

يعزو صراحة إلى أرستارخوس « الفرض القائل إن النجوم الثوابت والشمس تظل ثابتة لاتتحرك ، وإن الأرض تدور حول الشمس فى محيط دائرة ، وإن الشمس فى وسط هذا المدار[٢٤] » ، ويقول فلوطرخس إن كليانثيز الرواق كان يعتقد أن أرستارخوس يجب أن يتهم « بتحريكه مسكن الكون » (أى الأرض[٢٥]) . وأيد سلوقس السلوقى Seleucus of Selucia الرأى القائل بأن الشمس مركز العالم ، ولكن رأى العلماء فى العالم اليونانى قرر عكس هذا ، ويبدو أن أرستارخوس نفسه قد نزل عن هذا الافتراض حين عجز عن التوفيق بينه وبين حركات الأجرام السماوية التى كانوا يظنونها دائرية ؛ ذلك أن علماء الفلك على بكرة أبيهم كانوا يرون أن من القضايا المسلم بها قطعاً أن هذه الأفلاك دائرية . ولعل كراهية السم هى التى دفعت أرستارخوس إلى أن يكون جليلو العالم القديم وكوبرنيقه .

وكان من سوء حظ العلم الهلنستى أن أعظم الفلكيين اليونان هاجم النظرية القائلة إن الشمس مركز العالم بحجج كانت تبدو للناس أجمعين قبل كوبرنيق أنها حجج لايمكن دحضها أبداً . وكان هبارخوس النيقى Nicaea of (فى بيثينيا) عالما من الطراز الأول ، رغم ما وقع فيه من خطأ كان له شأن عظيم فى عصره ؛ فقد كان عظيم الشغف بالمعرفة ، طويل الصبر على البحث ، دقيقا شديد العناية بالملاحظة ونقل ما يلاحظ إلى غيره ، حتى لقد أطلق عليه الأقدمون لقب « حبيب الحقيقة[٢٦] » . وقد مس وزان كل فرع من فروع الفلك تقريبا ، وظلت النتائج التى وصل إليها فيه ثابتة سبعة عشر قرناً كاملة . غير أننا لم يبق لنا من مؤلفاته الكثيرة إلا كتاب واحد — وهو شرح لكتاب الفينومينا Phainomena (الظواهر الطبيعية) ليودكسوس ، وأراتوس الصولى ؛ ولكننا نعرفه من كتاب المجسطى تأليف كلوديوس بطليموس Claudius Ptolamy (١٤٠ م . تقريبا) ، لأن هذا الكتاب يعتمد على بحوثه وتقديراته . ومن أجل

هذا كان من الواجب أن يسمى « فلك بطليموس » « فلك هپارخوس » . وأكبر الظن أنه هو الذى حسن الاسطرلابات وآلات قياس الزوايا وهى أهم الآلات الفلكية فى زمانه ، ولعله قد استعان على هذا التحسين بنماذج الآلات البابلية ؛ واخترع طريقة تعيين الأماكن على سطح الأرض بخطوط الطول والعرض. وحاول أن ينظم الفلكيين فى بلاد البحر الأبيض المتوسط ليقوموا بأعمال الرصد والقياس التى يستطيعون بها تحديد مواضع البلاد الهامة بهذه الطريقة . لكن الاضطرابات السياسية حالت دون تنفيذ هذه الخطة حتى استتب النظام فى عصر بطليموس . واستطاع هبارخوس بفضل دراساته الرياضية للعلاقات الفلكية أن يضع جداول جيوب الزوايا ، وأن يبتكر بذلك حساب المثلثات . ومما لا ريب فيه أنه استعان بالسجلات المبهارية التى جىء بها من بابل فحدد أطوال السنين الشمسية ، والقمرية ،والنجمية ، تحديداً لايكاد يختلف عن أطوالها الصحيحة ؛ فقد قدر السنة الشمسية بثلثمائة وخمسة وستين يوماً وربع يوم إلا أربع دقائق و٤٨ ثانية — وهو يختلف عن تقدير هذه الأيام بست دقائق لا أكثر . وكان تقديره للشهر القمرى الوسطى ٢٩ يوما ،و١٢ ساعة ،و٤٤ دقيقة ، ½ ٢ ثانية . وهو يختلف عن التقدير المعترف به اليوم بأقل من ثانية[٢٧] . وحسب أزمنة اقتران الكواكب ، وميل مدار القمر عن فلك الأرض ،وحدد أكبر بعد بين الشمس والأرض ، واختلاف موقع القمر بالنسبة للنجوم باختلاف موضع الراصد على سطح الأرض[٢٨] ، وقدر بعد القمر عن الأرض بمائتى ألف وخمسين ألف ميل فلم يخطئ إلا فى خمسة فى المائة .

واستنتج هپارخوس بالاعتماد على هذه المعلومات كلها أن القول بأن الأرض مركز العالم يفسر هذه الحقائق كلها أحسن مما يفسرها فرض أرستارخوس . ذلك أن النظرية القائلة بأن الشمس مركز العالم لا يمكن أن تثبت على التحليل الرياضى إلا إذا افترضنا أن مدار الأرض قطع ناقص ، وهو فرض لا يوائم التفكير

اليوناني ، حتى ليبدو أن أرستارخوس نفسه لم يعن ببحثه . وأوشك هيارخوس أن يمسه في نظريته عن « الانحرافات » التي فسر بها ما يبدو من شذوذ في سرعة مسير الشمس والقمر في فلكيهما حين قال إن مركزي فلكي الشمس والقمر مائلان قليلا على أحد جانبي الأرض . وأوشك هيارخوس أن يكون أعظم أصحاب النظريات الفلكية وأعظم الراصدين بين علماء الفلك الأقدمين على بكرة أبيهم .

وبينا كان هيارخوس يرقب السماء ليلة بعد ليلة إذ دهش ذات مساء لظهور نجم في مكان لاريب عنده في أنه لم يرقب فيه نجما من قبل . ولكي يثبت ما سوف يحدث من اختلاف في مواضع النجوم في مستقبل الأيام صنع حوالى عام ١٢٩ ق . م . فهرسا ، وخريطة ، وكرة حدد فيها مواضع ١٠٨٠ من النجوم الثوابت بالنسبة لخطوط الطول والعرض السماوية . وقد أفاد دارسو السماء من عمله هذا أعظم فائدة . ووازن هيارخوس خريطته بخريطة تموكارس التي صنعها قبل خريطته بمائة وست وستين سنة فتبين أن النجوم قد غيرت مكانها الظاهري نحو درجتين في هذه الفترة الزمنية . على هذا الأساس كشف هيارخوس أدق كشوفه كلها(*) . وهو تقدم الاعتدالين — ويعنى به تقدم اللحظة التي تقع فيها نقطتا الاعتدالين على خط الزوال(**) . وقدر هذا التقدم بست وثلاثين ثانية كل سنة ؛ والتقدير المأخوذ به الآن خمسون ثانية .

ولقد كان بين أرستارخوس وهيارخوس في الترتيب الزمني عالم آخر واسع

(*) هذا إذا لم يكن قد أخذه عن كدنو Kidinnu البابلي الذي عاش قبله .

(**) الاعتدالان ، ومعنى اللفظ الإنجليزي (الليلتان المتساويتان equinoxes) هما اليومان اللذان تعبر فيهما الشمس في حركتها الظاهرية أثناء السنة خط الاستواء شمالا (وهو الاعتدال الربيعي عندنا ، والاعتدال الخريفي في نصف الكرة الجنوبي) أو جنوباً (وهو الاعتدال الخريفي عندنا والربيعي في نصف الكرة الجنوبي) وفي كل منهما يتساوى الليل والنهار يوماً واحداً . ونقطتا الاعتدالين هما النقطتان السماويتان اللتان يتقاطع فيهما خط الاستواء السماوي بفلك الأرض .

الاطلاع ، فى فروع من العلم متعددة ، ويمتاز بغزارة علمه فى عدد كبير من الميادين ، وكان ثانى المتفوقين فيها جميعا ، ومن أجل ذلك لقب بنتاثلوس وبيتا Pentathlos and Beta . وتقول الرواية المأثورة إن اوتسستنز تلقى العلم على معلمين أفذاذ : زينون الرواقى ، وأرسسلوس المتشكك ، وكلمخوس الشاعر ،وليسنياس النحوى . وقبل أن يبلغ الأربعين من عمره ذاعت شهرته فى كثير من فروع العلم المختلفة حتى جعله بطليموس الثالث أمين مكتبة الإسكندرية . وكتب ديوان شعر وتاريخا للمسلاة ، وحاول فى كتاب الكرونوغرافيا Chronography أن يحدد أوقات الحادثات الكبرى فى تاريخ بلاد البحر الأبيض المتوسط . وقد كتب أيضا رسائل فى الرياضيات واخترع طريقة آلية لإيجاد نسب وسطى متناسبة تناسبا مطردا بين خطين مستقيمين . وقاس ميل مستوى الفلك وحدد هذا الميل بـ ٥١ ° ٢٣ فلم يخطئ إلا فى نصف فى المائة . لكن أعظم أعماله هو تقديره طول محيط الأرض بـ ٢٤,٦٦٢ ميلا[٣٠] ، ونحن نقدره الآن بـ ٢٤,٨٤٧ . فقد لاحظ فى ظهر يوم الانقلاب الصيفى أن الشمس عند مدينة سينى (*) تسطع عمودية على سطح جدار ضيق ، ثم عرف أن ظل مسلة فى الإسكندرية التى تبعد عن سينى إلى الشمال بنحو خمسمائة ميل يدل على أن الشمس تميل عن سمت الرأس بنحو ٧½° إذا قيست وقت الزوال على خط الطول الذى يصل بين البلدين ، فاستنتج من هذا أن القوس الذى يبلغ ٧½° على محيط الأرض يساوى خمسمائة ميل ، وأن محيط الأرض بهذه النسبة = ٣٦٠ ÷ ٧,٥ × ٥٠٠ أو ٢٤,٠٠٠ ميل.

وبعد أن قاس إرتسثنز الأرض انتقل إلى وصفها فجمع فى كتابه الجغرافيكا Geographica تقريرات جميع علماء المساحة فى الإسكندرية ، والرحالة البريين أمثال Megasthenes والبحريين أمثال نيارخوس ، والرواد أمثال پيثياس المساليائى Pythias of Massalia ، الذى طاف حول اسكتلندة فى عام ٣٢٠ ،

(*) وموقعها قرب موقع مدينة أسوان الحالية . (المترجم)

ووصل إلى النرويج ولعله وصل أيضا إلى الدائرة القطبية الشمالية[٣١] . ولم يكتف أرتستنيز بوصف تضاريس كل إقليم ومظاهره الطبيعية ، بل حاول أيضا أن يفسرها بفعل المياه الجارية ،والنيران والزلازل والثورات البركانية[٣٢]. وطلب إلى اليونان أن يتخلوا عن تقسيمهم الضيق لبنى الإنسان إلى هلنيين وبرابرة ، وأعلن أن الناس يجب أن يقسموا أفراداً لا أقواما ؛ وقال إنه يرى أن كثيرين من اليونان سفلة أنذال ، وأن كثيرين من الفرس والهنود قوم ظرفاء ؛ وأن الرومان قد أظهروا أنهم أكثر استعداداً من اليونان للنظام الاجتماعي والحكم الصالح القدير[٣٣] . ولم يكن يعرف إلا القليل عن شمالى أوربا وآسية ، وكان علمه بالهند الممتدة جنوب نهر الكنج أقل من هذا القليل ؛ أما شمال أفريقية فلم يكن يعرف عنه شيئاً على الإطلاق . ولكنه كان على ما وصل إليه علمنا أول عالم جغرافى ذكر الصينيين فى كتبه . وقد ورد فى فقرة أخرى من هذه الكتب عظيمة الدلالة : « لو أن اتساع المحيط الأطلنطى لم يقم عقبة فى سبيلنا لكان من السهل علينا أن ننتقل بطريق البحر من إيبريا Iberia (أسبانيا) إلى الهند متتبعين دائرة واحدة من دوائر العرض »[٣٤] .

الفصل الرابع

ثاوفراسطوس ، هيروفيلوس ، إراسستراتوس

لم يبلغ علم الحيوان فى الزمن القديم مثل ما بلغه فى كتاب أرسطو المسمى تاريخ الحيوان ، والراجح أن خليفته ثاوفراسطوس قد اتفق معه على أن يوزعا العمل بينهما ، فكتب هو تاريخ النبات ، وكتب بحثا آخر أكثر إيغالا فى البحث النظرى يسمى أسباب النبات . وكان ثاوفراسطوس يحب فن فلاحة البساتين ويعرف كل صغيرة وكبيرة فى موضوعه . وكانت نزعته العلمية فى كثير من النواحى أعظم من نزعة أستاذه ، كما كان أكثر منه عناية بالحقائق ، وأدق نظاما فى عرضها ؛ ومن أقواله فى هذا المعنى أن الكتاب الخالى من التصنيف غير خليق بأن يعتمد عليه مثله كمثل الجواد غير الملجم[٣٥] . وقد قسم النباتات جميعها إلى أشجار ، وشجيرات ، وأعشاب ، وحشائش ؛ وميز أجزاء النبات بعضها من بعض ، وقسمها إلى جذر ، وساق ، وأغصان ، وصاليج ، وأوراق ، وأزهار ، وفاكهة — وهو تقسيم لم يدخل عليه أى تحسين حتى عام ١٥٦١[٣٦] م ؛ وقد كتب فى ذلك يقول : « للنبات قدرة على التوالد سارية فى جميع أجزائه ، لأن فيه حياة تسرى فيها جميعاً . . . وطرق توالد النبات هى : الطريقة التلقائية من بذرة ، أو جذر ، أو قطعة تقطع منه ؛ أو غصن ، أو صلوج ، أو قطع من الخشب تقسم أقساما صغيرة ، أو من الجزع نفسه[٣٧] » . ولم يعرف شيئاً عن التكاثر بالتزاوج الجنسى فى النبات ، اللهم إلا عن عدد قليل من أنواعه كأشجار التين ، ونخل البلح ، وهنا سار على نهج البابليين فوصف عمليتى التلقيح ، والتختين لإنضاج الفاكهة قبل الأوان بوسائل اصطناعية . وبحث فى التوزيع الجغرافى للنبات ، وفى فوائده للصناعة ، وفى أنسب الأحوال

الحوية لنمائه وقوته . ودرس التفاصيل الجزئية لنحو خمسمائة نوع من أنواع النبات دراسة دقيقة فى جميع أجزائها دقة تثير الدهشة ، وذلك فى وقت لم يكن فيه مجهر يعين على هذه الدراسة . وأدرك قبل مجيئه بعشرين قرنا أن الزهرة ورقة متحولة[٣٨] . وكان عالما طبيعيا فى أكثر من ناحية ، يرفض بقوة ماكان منتشرا فى أيامه من تفسير بعض المظاهر العجيبة فى النبات بالرجوع إلى القوى غير الطبيعية[٣٩] . وكان يتصف بما يتصف به العلماء من حب البحث ، ولم يكن يرى أن مقامه بوصفه فيلسوفا ينقص منه أن يكتب رسائل كل واحدة منها فى موضوع واحد ، كالحجارة ، والمعادن ، والجو ، والرياح ، والسأم ، والهندسة النظرية ، والفلك ، ونظريات الطبيعة التى كانت منتشرة عند اليونان قبل أيام سقراط[٤٠] . وفى ذلك يقول سارتن Sarton « لو لم يكن أرسطو من رجال ذلك العصر لسمى عصر ثاوفراسطوس[٤١] » .

ولخص « كتاب » ثاوفراسطوس التاسع كل ما كان يعرفه اليونان عن خواص النباتات . وفى هذا الكتاب فقرة تشير إلى التخدير وردت فى قوله إن « الدقتمون dittany نبات نافع بوجه خاص للنساء فى أثناء الوضع ، ويقول بعض الناس إنه إما أن يسهل الوضع أو إنه يوقف الألم[٤٢] » وتقدم الطب بخطى سريعة فى هذا العصر ، ولعل سبب تقدمه أنه كان لابد له أن يسير بنفس السرعة التى تفشو بها الأمراض الجديدة المتزايدة فى حضارة المدن المعقدة . وكانت دراسة اليونان لمعلومات المصريين الطبية باعثا قويا على هذا التقدم . وكان البطالمة لايترددون فى تقديم أية مساعدة يحتاجها علماء الطب ، فلم يكونوا يجيزون تشريح الحيوانات وجثث الموتى من الآدميين فحسب ، بل كانوا يرسلون بعض المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام للتشريح أجسامهم وهم أحياء[٤٣]. وبفضل هذا التشجيع أصبح التشريح الآدمى علما ، وقلت إلى حد كبير الأغلاط السخيفة التى وقع فيها أرسطو .

وقام هيروفيلوس الخلقدونى الذى كان يعمل بالإسكندرية حوالى عام ٢٨٥

بتشريح العين ووصف الشبكية وأعصاب النظر وصفاطيبا . وشرح أيضاً المخ ، ووصف مقدم الدماغ ، والمخيخ ، والسحايا ، وسمى باسمه معصار هيروفيلي(*) . وأعاد للمخ مكانته السامية بأن جعله مركز التفكير ، وفهم وظيفة الأعصاب ، وكان البادئ بتقسيمها إلى أعصاب حس وأعصاب حركة ، وفصل أعصاب الجمجمة عن أعصاب النخاع الشوكي ، وميز الشرايين من الأوردة ، وحدد وظيفة الشرايين بأنها هي الأوعية التي تحمل الدم من القلب إلى مختلف أجزاء الجسم ، وكشف في واقع الأمر الدورة الدموية قبل أن يكتشفها هارفي[٤٤] Harvey بتسعة عشر قرنا . وقد أخذ بإشارة وردت في أقوال بركساغورس الطبيب الكوسي فضم جس النبض إلى وسائل تشخيص الأمراض ، واستخدم ساعة مائية لقياس عدد ضربات القلب . وشرح المبيض والرحم والحويصلات المنوية ، وغدة البرستاتة ووصفها كلها ، ودرس الكبد ، والبنكرباس ، وسمى المعاء الاثني عشري بالاسم الذي لايزال يعرف به إلى اليوم[٤٥]. ومن أقوال هروفيلوس المأثورة : « إن العلم والفن لايكون لهما ما يعرضانه ، وإن القوة لتعجز عن بذل أي جهد ، والثروة لتصبح عديمة النفع ، والفصاحة تفقد قوتها ، حين تنعدم صحة الجسم »[٤٦] .

ولقد كان هروفيلوس ، على قدر مانستطيع أن نحكم بالاستناد إلى معلوماتنا الحاضرة ، أعظم علماء التشريح في العهد القديم ، كما كان إرسستراتوس أعظم علماء وظائف الأعضاء . وقد ولد ارسستراتوس في كيوس Ceos ، ودرس في أثينة ، ومارس مهنة الطب في الإسكندرية حوالي عام ٢٥٨ ق . م . وقد استطاع أن يميز المخ من المخيخ تمييزاً أدق من هروفيلوس ، وأجرى تجارب على الأجسام الحية لدراسة عمليات المخ ، ووصف وشرح عمل الغلصمة (لسان المزمار) ، والأوعية اللمفاوية في غشاء الأمعاء ، والصمامين الأورطي ،

(*) هو مصب تجاويف الدماء في الأم الجافية أو الغشاء الخارجي للمخ .

والرئوى فى القلب . وكان لديه فكرة ما عن التمثيل الأساسى للأغذية لأنه ابتدع مسعرا فجا لقياس حرارة الزفير[٤٧] . ويقول إرسستراتوس إن كل عضو يتصل بسائر أجزاء الكائن الحى بثلاث طرق — بشريان ، ووريد ، وعصب . واجتهد أن يعلل جميع الظواهر الفسيولوجية بعلل طبيعية ، ورفض كل ما يشير إلى موجودات خفية كما رفض نظرية الأخلاط التى قال بها هپارخوس ، والتى احتفظ بها هروفيلوس . وكان يرى أن الطب هو فن منع المرض بمراعاة قواعد الصحة ، وليس هو علاج المرض بالدواء . وكان يقاوم كثرة استعمال العقاقير ، والحجامة ، ويعتمد على تنظيم التغذية والاستجمام والرياضة[٤٨] .

أولئك هم الرجال الذين جعلوا الإسكندرية فى العصر القديم أشبه بقينا فى هذه الأيام . غير أنه كانت توجد أيضا مدارس عظيمة للطب فى ترليس Tralles وميليطس ، وإفسوس ، وبرجموم، وتاراس ، وسرقوسة . وكان للكثير من المدن إدارات طبية بلدية ، يتقاضى الأطباء القائمون بالعمل فيها مرتبا وسطا ، ولكن كان من أسباب فخرهم أنهم لايفرقون بين الأغنياء والفقراء والأحرار والأرقاء ، وأنهم كانوا يهبون أنفسهم لعملهم فى أى وقت مهما يكن الخطر المحدق بهم . فقد ذهب أپلونيوس الملطى ليكافح الطاعون فى الجزائر القريبة من موطنه دون أن ينال على ذلك أجرا ، ولما أن فتك المرض بجميع أطباء كوس بعد أن بذلوا كل ما يستطيعون من الجهد لمقاومته ، أقبل غيرهم من أطباء المدن المجاورة لإنقاذهم . وما أكثر القرارات العامة التى أصدرها الحكام للإشادة بذكر الأطباء الهلنستيين والاعتراف بفضلهم ؛ ومع أن الكثيرين من القدماء كانوا يسخرون من عجز الأطباء المأجورين ، فإن هذه المهنة العظمى قد احتفظت بذلك المستوى الأخلاقى الرفيع الذى ورثته عن أبقراط والذى كانت تعده أعظم تراثه وأثمنه .

الباب التاسع والعشرون

استسلام الفلسفة

ثلاث نزعات امتزجت فى الفلسفة اليونانية : النزعة الطبيعية (الفيزيقية) والنزعة الميتافيزيقية ، والنزعة الأخلاقية . ووصلت النزعة الطبيعية إلى غايتها فى أرسطو والميتافيزيقية فى أفلاطون ، والأخلاقية فى زينون القبرصى ؛ وانتهى تطور النزعة الطبيعية بفصل العلم عن الفلسفة على يد أركميديز ، وهبارخوس ، وانتهت النزعة الميتافيزيقية بتشكك پيرون Pyrrho والمجمع المتأخر ، وبقيت النزعة الأخلاقية حتى غلبت المسيحية على الأبيقورية والرواقية أواندمجتا فيها .

الفصل الأول

هجوم المتشككة

لقد احتفظت أثينة فى هذه الثقافة الهلنستية — وكانت هي أم الكثير وسيلة الجزء الأكبر ، منها — احتفظت فيها بمكان الزعامة فى ميدانين : التمثيل والفلسفة . ولم يكن العالم منهمكا فى الحروب والثورات ، والعلوم الجديدة والأديان الجديدة ، وحب الجمال والجرى وراء المال ، لم يكن منهمكا فى هذا كله إلى حد لايستطيع معه أن يجد بعض الوقت ينفقه فى المشاكل التى لايجد لها جوابا ، ولكنها لاتنفك تواجهه فلا يستطيع منها فرارا ، مسائل الخطأ والصواب ، والمادة ، والعقل ، والحرية والضرورة ، والنبل والخسة ، والحياة والموت . وقدم الشبان من جميع مدن البحر الأبيض المتوسط ، وكثير

ماكانوا يلاقون أشد الصعاب وهم قادمون ، ليدرسوا فى الأبهاء والحدائق التى خلفها أفلاطون وأرسطو آثاراً لهما خالدة من بعدهما .

وواصل ثاوفراسطوس اللسبوسى المجد النشط فى اللوقيون تقاليد الطريقة الاختبارية . لقد كان المشاءون علماء وباحثين أكثر منهم فلاسفة ، وهبوا حياتهم للبحث المتخصص فى علوم الحيوان والنبات ، والسير ، وتاريخ العلوم ، والفلسفة ، والأدب ، والقانون . وارتاد ثاوفراسطوس فى أثناء زعامته العلمية التى دامت أربعاً وثلاثين سنة (٣٢٢ — ٢٨٨) ميادين علمية كثيرة ، ونشر بحوثه فى أربعمائة مجلد تكاد تعالج كل موضوع من الحب إلى الحرب . وقد شدد النكير على النساء فى رسالته « فى الزواج » ، فردت عليه لينتيوم حظية أبيقور برسالة غزيرة المادة ، شديدة الوقع عليه ، فندت فيها أراءه[1] . ومع هذا فإن اثنيوس يعزو إلى ثاوفراسطوس ذلك القول الدال على رقة العاطفة : « إن التواضع هو الذى يجعل الجمال جميلا »[2] ويصفه ديجين ليرنس بأنه « من أحب الناس للخير ومن أكثرهم ظرفا » . وقد بلغ من فصاحته أن نسى الناس اسمه الأول فلم يذكروه إلا بالاسم الذى أطلقه عليه أرسطو والذى يعنى أنه يتكلم كما تتكلم الآلهة ؛ وقد بلغ من حب الناس إياه أن ألفين من الطلاب كانوا يهرعون إلى سماع محاضراته ، وكان مناندر من أخلص أتباعه[3] .

وقد عنى الناس من بعده أشد العناية بالاحتفاظ بكتابه فى « الأخلاق » ، ولم يكن احتفاظهم به لأنه أوجد طرازاً جديداً فى الأدب ، بل لأنه سخر أشد السخرية من الأخطاء التى يعزوها الناس جميعاً لغيرهم من الناس . فهنا الرجل الثرثار الذى يبدأ بمدح زوجته ، ثم يروى الرؤيا التى نراها فى الليلة السابقة ، ويعدد أصناف الأطعمة التى تناولها فى العشاء صنفا صنفا ؛ ثم يختم حديثه بقوله « إننا لم نعد كما كنا» من قبل فى الأيام الخالية . وهنا الرجل الغبى الذى

« إذا ذهب ليشاهد مسرحية ، تركه الناس فى آخر التمثيل مستغرقاً فى النوم فى الدار الخاوية . . فهو يثقل معدته بالعشاء الدسم ، فيضطر إلى السهرليلا ، ويعود إلى منزله وهو بين النوم واليقظة ، فلا يعرف بابه ، ويعضه كلب جاره »(٤) .

ومن الحوادث القليلة فى حياة ثاوفراسطوس أن الدولة أصدرت مرسوما (٣٠٧) يحتم موافقة الجمعية على من يختارون لرياسة المدارس الفلسفية . وحوالى هذا الوقت نفسه ، وجه أجنيديز Agnonides إلى ثاوفراسطوس التهمة القديمة ، تهمة المروق من الدين ؛ فما كان من ثاوفراسطوس إلا أن غادر أثينة فى هدوء ، ولكن الطلاب الذين غادروها بعده بلغوا من الكثرة حدا جعل التجار يجأرون بالشكوى من كساد بضاعتهم الذى يوشك أن يحل بهم الخراب . فلم تمض سنة على صدور المرسوم حتى اضطرت الدولة إلى إلغائه ، وعاد ثاوفراسطوس ظافرا ليرأس اللوقيون ويظل رئيساً لها إلى قرب وفاته فى سن الخامسة والثمانين . ويقال إن « أثينة بأجمعها » شيعت جنازته . ولم تبق مدرسة المشائين طويلا بعد وفاته ؛ ذلك أن العلم خرج من أثينة بعد أن افتقرت إلى الإسكندرية الغنية الرخية ، وانحطت اللوقيون التى كانت قد وهبت نفسها للبحث العلمى فلم يعد يسمع الناس عنها إلا القليل .

وفى هذه الأثناء كان اسبيوسپوس Speusippus قد خلف أفلاطون أكسانوقراطيس أسبيوسپوس Xenocrates Speusippus فى المجمع العلمى . وظل أكسانوقراطيس يحكم المجمع ربع قرن من الزمان (٣٣٩ — ٣١٤) ، ورفع من شأن الفلسفة بحياته النبيلة البسيطة . وقد انهمك فى الدرس والتعليم ، فلم يكن يترك المجمع إلا مرة واحدة فى العام ليشهد المآسى الديونيشية ، ويقول ليرتيوس إنه كان إذا ظهر « أفسح الطريق له غوغاء المدينة المشاكسون المشاغبون »(٥) . وكان يأبى أن يتقاضى أجرا ما على عمله . وبلغ من فقره

أن كاد يزج به فى السجن لعجزه عن أداء الضرائب ، ولكن أمتريوس الفالروى أدى عنه ما كان متأخراً عليه وأطلق سراحه . وقال فليب المقدونى إن أكسانوقراطيس كان أطهر يدا من جميع الشعراء الأثينيين الذين أرسلوا إليه . وقد تضايقت فرينى Phryne من اشتهاره بالفضيلة ، فادعت أن بعض الناس يطاردونها ، ولجأت إلى بيته ، ولما رأت أن ليس فيه إلا سرير واحد سألته هل يقبل أن تنام معه فيه . وأجابها إلى ماطلبت مدفوعا إلى ذلك ، على ما يقال لنا ، بعوامل إنسانية محضة ؛ ولكنه بلغ من بروده وعدم استجابته لتوسلاتها وفتنتها ، أن فرت من فراشه وضيافته ، وشكته إلى أصدقائه قائلة إنها وجدت تمثالا لا رجلا[٦] . ذلك أن أكسانوقراطيس لم يكن يريد أن يعشق غير الفلسفة .

ولما مات أوشكت النزعة الميتافيزيقية فى التفكير اليونانى أن يقضى عليها فى الأيكة التى كانت مزارها ومتعبدها . ذلك أن خلفاء أفلاطون كانوا من علماء الرياضة والأخلاق ، وقلما كانوا ينفقون شيئاً من وقتهم فى دراسة المسائل المجردة التى كانت من قبل تتردد بين جوانب المجمع العلمى ، واستعادت تحديات زينون الإيلياتى التشككية ، ونزعة هرقليطس الموضوعية ، وتشكك غورغياس وبروتاغوراس المنظم ، ولا أدرية سقراط وأرستبوس وإقليدس المجارى ، استعادت هذه كلها ما كان لها من سيطرة على الفلسفة اليونانية ، وكان ذلك خاتمة عصر العقل . لقد فكروا فى كل فرض من الفروض العلمية ، وبحثه ثم نسى وأهمل ؛ واحتفظ الكون بأسراره ، ومل الناس البحث الذى عجزت عنه أنبه العقول نفسها . وكان أرسطو قد اتفق مع أفلاطون فى نقطة واحدة — وهى أن فى الإمكان الوصول إلى الحقيقة النهائية[٧] . وعبر بيرون Pyrrho عن تشكك عصره بقوله إن هذه النقطة هى التى أخطأ فيها الفيلسوفان أكثر مما أخطأا فى أية نقطة أخرى .

وولد بيرون فى أليس Elis حوالى عام ٣٦٠ وسار مع جيش الإسكندر

الزاحف على الهند ، وتلقى العلم على « من فيها من » السوفسطائيين العراة Gmnosophists ، ولعله أخذ عنهم بعض آرائهم عن التشكك الذى صار اسمه مرادفا له فيا بعد . ولما عاد إلى إليس عاش فقيراً يعلم الناس الفلسفة . وقد منعه الحياء من تأليف الكتب ، ولكن تلميذه تيمن الفليوسي Timon of Phlius نشر آراء پيرون فى أنحاء العالم فى سلسلة من رسائل الهجاء (Silloli) . وكانت هذه الآراء تقوم على ثلاث قواعد رئيسية أولاها : أن الحقيقة لا يمكن الوصول إليها ، وأن الرجل العاقل يرجئ حكمه ، ويبحث عن الطمأنينة لا عن الحقيقة ، وأنه لما كانت كل النظريات خاطئة فى أغلب الظن فإن من الخير للإنسان أن يقبل أساطير زمانه ومكانه وما جرى به العرف فيهما . وثانيتها أن ليس فى مقدور الحواس أو العقل أن تمدنا بعلم أكيد : فالحواس تشوه الشىء الخارجي حين تحسه ، وليس العقل إلا خادم الشهوات المغالط المخادع . وكل قياس منطقى يصادر على المحمول لأن قضيته الكبرى تفترض صحة النتيجة . « وكل علة لها علة تقابلها وتناقضها[٨] » ؛ والتجربة الواحدة قد تكون سارة حسب الظروف المحيطة بها ومزاج صاحبها ؛ والشىء الواحد قد يبدو صغيراً أو كبيراً ، قبيحاً أو جميلا ؛ والعمل الواحد قد يعد فضيلة أو رذيلة حسب المكان والزمان اللذين نعيش فيهما ؛ والآلهة نفسها قد تكون وقد لا تكون حسب اعتقاد أمم الخلائق المختلفة ؛ وكل شىء هو رأى ، ولا شىء قط حقيقى كل الحق — فمن الحمق إذن أن ينحاز الإنسان فى المنازعات إلى هذا الجانب أو ذاك ، أو أن يبحث له عن مكان آخر يعيش فيه أو طريقة أخرى يعيش بها ، أو أن يحسد المستقبل أو الماضى » ؛ فالرغبات كلها خداع باطل . وحتى الحياة نفسها خير غير مؤكد ، والموت نفسه ليس شرا مؤكدا ، والواجب على الإنسان ألا يتحيز ضد هذا الشىء وذاك . وثالثة هذه القواعد أن أفضل الأشياء جميعها للإنسان أن يقبل الحياة كما هى فى هدوء واطمئنان ، فلا يحاول إصلاح العالم ، بل يرضى به وهو صابر عليه ، ولا ينهمك فى العمل على تقدمه ، بل يقنع بالسلام . وحاول پيرون مخلصاً أن يسير فى حياته على

هدى هذه الفلسفة النصف الهندية ، فخضع لعادات إليس وعبادتها ، ولم يبذل جهدا ما فى تجنب الأخطار أو إطالة حياته[٩] ، ومات فى سن التسعين . وأحبه مواطنوه ورضوا عنه وكرموه بأن أعفوا زملاءه الفلاسفة من الضرائب .

وكان من سخريات الأيام أن أتباع أفلاطون هم الذين وجهوا هذه الحملة على الميتافيزيقا . ذلك أن أرسسلوس الذى أصبح فى عام ٢٦٩ رئيس « المجمع العلمى الأوسط » حول رفض أفلاطون للمعلومات المستمدة من الحواس إلى تشكك كامل يضارع فى ذلك تشكك بيرون ، ولعلهم فعلوا ذلك بتأثير بيرون نفسه. ومن أقوال أرسسلوس فى هذا المعنى : « لاشىء مؤكد ، حتى ذلك القول نفسه[١١] » . ولما قيل له إن هذه العقيدة تجعل الحياة مستحيلة قال إن الحياة قد عرفت من زمن بعيد كيف تدبر أمرها بالاحتمالات . وقام على رأس « المجمع العلمى الجديد » بعد قرن من الزمان رجل آخر كان أكثر تشككا من أرسسلوس ، وأوصل عقيدة التشكك العام إلى العدمية الذهنية والأخلاقية ، ونعنى بذلك الرجل قرنيادس القورينى Carneades of Cyrene . فقد جاء هذا الأبلار(*) اليونانى إلى أثينة حوالى عام ١٩٣ ، ونغص الحياة على كريسبوس Chrysippus وغيره من معلميه ، بحججه الدقيقة المؤلمة ضد كل عقيدة يعلمونها . وإذ كانوا يبغون أن يجعلوه عالما منطقياً ، فقد اعتاد أن يقول لهم موجها قوله إلى بروتاغوراس : « إذا كان منطقى صحيحا فبها ونعمت ، وإذا كان خطأ فأعيدوا إلى ما أديته من الأجر لتعليمى »[١٢]. ولما أنشأ لنفسه حانوتا كان يحاضر فى صباح يوم ما فيحبذ رأيا من الآراء ، وفى اليوم التالى يحبذ نقيضه ، ويبرهن على صحة كليهما بحيث يقضى عليهما جميعا ، بينا كان تلاميذه ، وكاتب سيرته نفسه ، يحاولون عبثا أن يعرفوا آراءه الحقيقية . وأخذ على عاتقه أن يفند واقعية الرواقيين المادية ببحثه التحليلى الأفلاطونى — الكانتى فى الحواس والعقل .

(*) بيير أبلار Pierre Abelard الفيلسوف الفرنسى ١٠٧٩ — ١١٤٢ . (المترجم)

وهاجم كل النتائج المنطقية ووصفها بأنها لايستطاع الدفاع عنها عقليا ، وأمر طلابه أن يقنعوا بالاحتمالات ويرضوا بعادات زمانهم . ولما أرسلته أثينة ضمن بعثة سياسية إلى رومة (١٥٥) أدهش مجلس الشيوخ بأن خطب فى يوم من الأيام مدافعا عن العدالة ، ثم خطب فى اليوم التالى مستهزئا بها وواصفا إياها بأنها حلم غير عملى وقال : إذا شاءت رومة أن تتبع طريق العدالة فعليها أن تعيد إلى أمم البحر الأبيض المتوسط كل ما أخذته منها بفضل تفوقها عليها فى القوة[١٣] . وفى اليوم الثالث اضطر كاتو أن يعيد البعثة إلى بلدها لأنها خطر على الأخلاق العامة . وربما كان بوليبيوس — وكان وقتئذ رهينة عند سپيو — قد سمع هاتين الخطبتين أوسمع عنهما ، لأنه يندد تنديد الرجل العملى بأولئك الفلاسفة .

« الذين دربوا أنفسهم فى مناقشات المجمع العلمى على الإفراط فى الاستعداد للخطابة . ذلك أن بعضهم يلجئون إلى أشد الأشياء تناقضا فيما يبذلون من جهد ليحيروا عقول سامعيهم ، وأنهم برعوا فى اختراع مايبررون به هذه المتناقضات ، حتى أنك تراهم يتناقشون وهم حيارى لايدرون هل يستطيع من فى أثينة أن يشموا رائحة البيض الذى يغلى فى إفسوس أو لايستطيعون أن يشموها ، ويظنون طوال الوقت الذى يناقشون فيه مسألة فى المجمع العلمى أنهم قد يكونون نائمين فى بيوتهم يؤلفون خطبهم فى أحلامهم . . وقد سوءوا سمعة الفلسفة جميعها بهذا الحب المفرط للمتناقضات . . . وغرسوا فى عقول شبابنا هذا الحب الشديد ، فكان من أثره أن أولئك الشبان لا يفكرون أقل تفكير فى المسائل الأخلاقية والسياسية التى تفيد طلاب الفلسفة بحق ، بل تراهم يقضون وقتهم فى محاولات عديمة الجدوى لاختراع السخافات والأباطيل التى لا نفع فيها »[١٤] .

الفصل الثانى

فرار الأبيقورية

لقد أخطأ بوليبيوس إذ ظن أن المسائل الأخلاقية قد فقدت إغراءها للعقل اليونانى ، وإن كان قد وصف للأجيال التالية الكثيرة صاحب النظريات الذى يضيع حياته فى دياجير البحث النظرى المعقد . ودليلنا على خطئه فى هذا الظن أن النغمة الأخلاقية نفسها هى التى حلت فى ذلك العهد محل النغمتين الفيزيقية والميتافيزيقية فكانت النغمة السائدة فى الفلسفة . والحق أن المشاكل السياسية قد خمدت نارها لأن حرية الكلام قد قضى عليها وجود الحاميات الملكية فى البلاد أو ذكرى وجودها ، وفهم الناس ضمنا أن الحرية القومية إنما تقوم على الهدوء والاستقرار . يضاف إلى هذا أن مجد الدولة الأثينية كان قد انقضى عهده ، وأن الفلسفة كان عليها أن تواجه تلك القطيعة التى لم يكن لبلاد اليونان عهد بها من قبل ونعنى بها القطيعة بين السياسة والأخلاق . وكان عليها أن تجد أسلوبا للحياة يجمع بين رضاء الفلاسفة وعدم التعارض مع العجز السياسى . ولذلك لم تفهم المشكلة التى تواجهها على أنها لم تعد مشكلة بناء دولة عادلة ، بل فهمتها على أنها تكوين الفرد الراضى القانع المنطوى على نفسه .

وقد سار التطور الأخلاقى وقتئذ فى اتجاهين متضادين ؛ فسلك أحدهما السبيل التى يتزعمها هرقليطس ، وسقراط ، وأنستانس ، وديجين ، ووسع نطاق الفلسفة الكلبية حتى أضحت هى الفلسفة الرواقية . وتفرع الطريق الآخر من دمقريطس ومال ميلا شديدا نحو أرستيبوس واجتذب العقيدة القورينية إلى العقيدة الأبيقورية . وجاءت النزعتان من آسية وكانت كلتاهما تعويضا فلسفيا عن التدهور الدينى والسياسى الذى حل فى ذلك الوقت . فاشتقت الرواقية من العقيدة السامية عقيدة وحدة الوجود ، والجبرية ، والاستسلام

للقضاء والقدر ؛ واشتقت الأبيقورية من طبيعة اليونان المستوطنين شواطئ آسية وما فطروا عليه من حب اللذة .

وقد ولد أبيقور فى جزيرة ساموس عام ٣٤١ . وشغف بالفلسفة وهو فى الثانية عشرة من عمره ؛ ولما بلغ التاسعة عشرة رحل إلى أثينة وقضى عاماً فى مجمعها العلمى ، وكان كفرنسيس بيكن يفضل دمقريطس عن أفلاطون وأرسطو ، وعنه أخذ بعض اللبنات التى شاد بها فلسفته ، كما أخذ عن أرستيوس حكمة اللذة ، وعن سقراط لذة الحكمة ، وعن بيرون عقيدة الهدوء ،واسمها الطنان الرنان أتركسيا Ataraxia ؛ وما من شك فى أنه كان يرقب بكثير من الاهتمام حياة معاصره ثيودورس القورينى ، الذى كان يخطب فى أثينة داعياً إلى الخروج على الدين والأخلاق جهرة وفى صراحة جعلت الجمعية توجه إليه تهمة الإلحاد[١٥] — وكان درساً لم ينسه أبيقور قط . ثم عاد إلى آسية وأخذ يلقى محاضرات فى الفلسفة فى كلوفون Colophon . وقد بلغ من تأثر اللمبسكيين بآرائه وأخلاقه أن شعروا بوخز ضميرهم على أنانيتهم إذ يحتفظون به فى مدينتهم النائية ، فجمعوا مبلغاً من المال قدره ثمانون مينا (٤٠٠٠ ريال أمريكى) ، واشتروا به بيتاً وحديقة فى ضواحى أثينة ، وأهدوهما إلى أبيقور ليكونا له مدرسة ومنزلا . ولما بلغ أبيقور الخامسة والثلاثين من عمره فى عام ٣٠٦ اتخذ هذه الدارسة مسكنا له وأخذ يعلم الأثينيين فلسفة لم تكن أبيقورية إلا فى اسمها ؛ وكان من أدلة تحرر النساء فى ذلك الوقت أنه كان يرحب بهن حين يجئن للاستماع إلى محاضراته ، بل كان يرحب بهن فى الجماعة القليلة العدد التى كانت تسكن معه . ولم يكن يفرق بين الناس بسبب مراكزهم أو أجناسهم ، فكان يقبل العاهرات والزوجات ، والأرقاء والأحرار ، وكان أحب تلاميذه إليه عبده ميسيس Mysis ؛ وأضحت العاهر ليونتيوم Leontium عشيقته وتلميذته ، ووجدت فيه رفيقاً شديد الغيرة كأنه قد حصل عليها بالطريقة

القانونية المرسومة . وولدت منه طفلاً واحداً ، وبتأثيره ألفت عدة كتب لم يتأثر فيها أسلوبها بفساد أخلاقها .

وأما فيما عدا هذا فقد عاش أبيقور عيشة الرواقيين البسيطة ، واتخذ له شعاراً « عش معتدلا » . وكان يؤدى واجبه فى طقوس المدينة الدينية ، ولكنه لم يلوث يديه بشئونها السياسية ، ولم يقيد روحه بشئون العالم . وكان يقنع فى غذائه بالماء وقليل من الخمر ، والخبز والجبن . وكان منافسوه يتهمونه بأنه يملأ معدته بالطعام حين كان ذلك فى مقدوره ، وأنه لم يتعفف عن الإكثار منه إلا حين أتلف جهازه الهضمى بكثرة الأكل . ولكن ديجين لبرتيوس يؤكد لنا : « أن الذين يقولون هذا مخطئون جميعهم » ويضيف إلى ذلك قوله : « إن كثيراً من الناس ليشهدون بما ينطوى عليه قلب الرجل من شفقة ، ليس بعدها شفقة ، على الناس جميعاً — سواء فى ذلك أهل بلاده التى كرمته بإقامة التماثيل ، وأصدقاؤه الذين كانوا من الكثرة بحيث تضيق بهم مدن برمتها(١٧) » . وكان باراً بأبويه ، سخياً مع إخوته ، رفيقاً بخدمة الذين كانوا يشتركون معه فى دراساته الفلسفية . ويقول سنكا إن تلاميذه كانوا ينظرون إليه نظرتهم إلى إله قائم بينهم ، وكان شعارهم بعد موته هو : « عش كأن عين أبيقور ترقبك » .

وقد وجد بين دروسه وحبه من الوقت ما يؤلف فيه ثلثمائة كتاب . وحفظ لنا رماد هركيولانيوم قطعاً متفرقة من أهم كتاب له وهو المسمى « فى الطبيعة » . وورث المتأخرون عن ديجين لبرتيوس ، أفلوطوخس الفلسفة ، ثلاثة من خطاباته ، وأضافت إليها الاستكشافات المتأخرة عدداً آخر منها قليلا . وأهم من هذا كله أن لكريشيوس خلد أفكار أبيقور فى قصيدة له تعد أعظم القصائد الفلسفية على الإطلاق .

ولعل أبيقور قد أدرك وقتئذ أن فتوح الإسكندر كانت تطلق من الشرق على بلاد اليونان ما لا يحصى من الطقوس الغامضة الخفية ، فبدأ بتقرير المبدأ

القائل إن هدف الفلسفة هو أن تحرر الناس من الخوف ـ وخاصة من خوف الآلهة ؛ وهو يكره الدين لأن الدين ، فى رأيه ، يقوم على الجهل ، ويزيده ، ويظلم الحياة بما يبثه فى النفس من رهبة جواسيس السماء ، والأقدار الصارمة القاسية ، والعقاب الذى لا يقف عند حد . ويقول أبيقور إن الآلهة موجودة ، وإنها تستمتع فى مكان بعيد بين النجوم بحياة صافية هادئة منزهة عن الموت ، ولكنها أعقل من أن تشغل نفسها بشئون البشر وهم ذلك النوع الصغير التافه من الخلائق . وليست الآلهة هى التى أنشأت العالم وليست هى التى ترشده وتسيره . وكيف يستطيع هؤلاء الأبيقوريون المقدسون أن يخلقوا هذا العالم الوسط ، وهذا المشهد المكون من خليط من النظام والفوضى ؛ والجمال والألم[١٠] ؟ ؛ ويضيف أبيقور إلى ذلك قوله : « فإن كان هذا لايرضيكم ، فلتعزوا أنفسكم بأن تفكروا فى أن الآلهة بعيدة عنكم بعداً لاتستطيع معه أن تضركم أو تنفعكم ، ذلك أنها لاتستطيع أن تراقبكم ، أو أن تحكم على أعمالكم ، أو أن تقذف بكم إلى الجحيم . أما الآلهة الخبيثة أو الشياطين فهى أوهام تعسة تصورها لنا أحلامنا » .

وبعد أن رفض أبيقور الدين رفض أيضا الميتافيزيقا . وحجته فى هذا أننا عاجزون عن معرفة شىء عن العالم الذى لاتدركه الحواس ؛ ولذلك يجب ألا نشغل عقولنا بغير التجارب التى تدركها الحواس ، وأن نعد هذه التجارب آخر محك للحقيقة : ويجمع أبيقور فى جملة واحدة كل المسائل التى ناقشها لك Locke وليبنتز Leibnitz بعد ألفى عام من ذلك الوقت : إذا لم تأت المعرفة من الحواس ، فمن أى طريق آخر تأتى إذن ؟ وإذا لم تكن الحواس هى الحكم الأخير فى الحقائق ، فكيف نجد هذا الحكم فى العقل الذى لا تصل إليه المعلومات إلا عن طريق الحواس ؟

ومع هذا فهو يرى أن الحواس لا تمدنا بمعلومات أكيدة عن العالم الخارجى ، فهى لاتمسك بالشىء الخارجى نفسه ، بل تمسك بالذرات الدقيقة التى يقذف

بها كل جزء من سطحه ، والتي تطبع على حواسنا نسخة صغيرة من طبيعته وشكله فإذا كان لابدّ لنا والحالة هذه أن نكون لأنفسنا نظرية عن العالم (وليس تكوين هذه النظرية فى واقع الأمر ضرورياً) فخير لنا أن نأخذ برأى دمقريطس القائل بأن لا شىء موجود ، أو يمكن أن يكون معروفاً لنا ، بل لا شىء يمكن أن نتخيله ، اللهم إلا الأجسام والفضاء ، وبأن الأجسام كلها تتألف من ذرات لا تنقسم ولا تتغير ... وليس لهذه الذرات لون ، ولا حرارة ، ولا صوت ، ولا ذوق ، ولا رائحة . وإنما تنتج كلها من الكريات المشعة من الأجسام والتى تلقى على أعضاء الحس فى أجسامنا . ولكن الذرات تختلف فى حجمها ، ووزنها وشكلها : لأن هذا الفرض وحده هو الذى نستطيع أن نفسر به ما بين الأشياء من اختلاف لا آخر له . وكان أبيقور يحب أن يفسر عمل الذرات على مبادئ آلية خالصة ، ولكنه لما كان مولعا بالأخلاق أكثر من ولعه بنظام الكون ، ولما كان حريصاً على أن يستمسك بحرية الإرادة بوصفها مصدر التبعة الأخلاقية ودعامة الشخصية ، فإنه يترك دمقريطس معلقاً بين السماء والأرض ، ويفترض وجود نوع من التلقائية فى الذرات : فهى تحيد قليلا عن الخط العمودى حين تهوى فى الفضاء ، وبهذا تدخل فى التراكيب التى تتكون منها الأركان (العناصر) الأربعة ، والتى تتكون منها — عن طريق هذه الأركان — المشاهد الخارجية[٢٠] . وهنالك عوالم كثيرة ، ولكن ليس من العقل فى شىء أن نشغل بها أنفسنا . وفى وسعنا أن نفترض أن حجمى الشمس والقمر يقربان من حجميهما اللذين يبدوان لنا ، فإذا فعلنا هذا كان فى مقدورنا أن نصرف وقتنا فى دراسة الإنسان .

والإنسان نتاج طبيعى فى جزئياته ومجموعه . وأكبر الظن أن الحياة قد بدأت بالتوالد التلقائى ، ثم ارتقت على غير خطة مرسومة بالانتخاب الطبيعى لأصلح الأشكال[٢١] . وليس العقل إلا نوعا آخر من المادة ، والروح جسم مادى رقيق منبث فى جميع أجزاء الجسم[٢٢] ، وهى لا تستطيع أن تحس

أو تعمل إلا بوساطة الجسم ، وتموت بموته . ولكن علينا بالرغم من هذا كله أن نقبل ما ندركه إدراكاً مباشراً من أننا أحرار فيما نريد ، وإلا كنا ألاعيب على مسرح الحياة لا قيمة لها ولا معنى لوجودها . وخير لنا أن نكون عبيداً للآلهة التي يقول بها الخلق ، من أن نكون عبيداً للأقدار التي يقول بها الفلاسفة[23]

على أن وظيفة الفلسفة الحقيقية ليست هي تفسير العالم ، لأن الجزء لا يستطيع قط أن يفسر الكل ، بل وظيفتها أن تهدينا في بحثنا عن السعادة . « وليس الذي نضعه نصب أعيننا هو مجموعة من النظم والآراء التي لا جدوى منها ، بل الذي يجب علينا أن نعنى به هو الحياة المبرأة من كل نوع من أنواع الجزع والاضطراب[24] » . وقد كتبت على مدخل حديقة أبيقور تلك الخرافة الجذابة « أيها الزائر ، ستكون هنا سعيداً ، لأن السعادة هنا تعد أعظم خير » ، وليست الفضيلة في هذه الفلسفة غاية في ذاتها ، بل هي وسيلة لابد منها للوصول إلى الحياة السعيدة[25] . « وليس في وسع الإنسان أن يحيا حياة سارة من غير أن يحيا حياة تتصف بالفطنة ، والشرف والعدالة ؛ وليس في وسعه أن يحيا حياة متصفة بالفطنة والشرف والعدالة من غير أن يحيا حياة سارة[26] » . وليس في الفلسفة إلا قضيتان اثنتان مؤكدتان ، وهما أن اللذة خير ، وأن الألم شر ؛ والملاذ الجنسية في ذاتها مشروعة ، وستجد الحكمة لها مكاناً فيها ؛ غير أنه لما كانت هذه الملاذ قد تؤدي إلى عواقب وخيمة ، فإنها في حاجة إلى جهاد حصيف فطن لا يستطيعه إلا صاحب الذكاء .

« فإذا قلنا إذن إن اللذة هي أعظم خير ، فلسنا نقصد بذلك لذات الرجل الفاجر الداعر ، أو اللذات التي تقع في مجال المتعة الجنسية ... ولكننا نقصد تحرر الجسم من الألم ، والروح من الانزعاج . ذلك أن الشراب والمرح الدائمين أو الاستمتاع بصحبة النساء أو ولائم السمك وغيره من الأطعمة الغالية ليست هي التي تجعل الحياة سارة لذيذة ، بل الذي يجعلها كذلك هو التفكير الهادئ

الرزين ، الذى يفحص عن أسباب اختيار هذا الشيء وتجنب ذاك ، والذى يطرد الأفكار الباطلة التى ينشأ عنها معظم ما يزعج النفس من اضطراب .

ونخلص من هذا إذن إلى أن الفهم ليس هو أسمى الفضائل فحسب ، بل إنه أيضاً أسمى أنواع السعادة ، لأنه يعيننا أكثر مما تعيننا أية موهبة أخرى من مواهبنا على تجنب الألم والحزن . والحكمة هى وسيلتنا الوحيدة إلى الحرية : فهى تحررنا من رق الانفعالات ، ومن خوف الآلهة ، والفزع من الموت ؛ وهى تعلمنا كيف نتحمل مصائب الدهر ، وكيف نستمد من طيبات الحياة البسيطة ولذات العقل الهادئة لذة عميقة خالدة . وليس الموت مخيفاً رهيباً كما نظنه إذا نظرنا إليه نظرة عاقلة قائمة على الذكاء والفطنة ؛ فقد يكون ماينطوى عليه من الألم أقصر أمداً وأخف وقعاً مما عانيناه المرة بعد المرة فى أثناء حياتنا . والذى يخلع على الموت ما يعلق به من رهبة هو أوهامنا السخيفة عما قد يكون وراء الموت . ثم انظر إلى القليل الذى تحتاجه القناعة الحكيمة — إنها لاتحتاج إلا إلى الهواء الطلق ، وأرخص الطعام ، ومأوى متضع ، وفراش ، وقليل من الكتب ، وصديق « وكل شيء طبيعى يسهل الحصول عليه ، والعديم النفع وحده هو الكثير النفقة » . وعلينا ألا نقضى حياتنا فى نكد مستمر نحاول أن نحقق كل شهوة تطوف برؤوسنا : « وفى وسعنا أن نغفل الشهوات متى كان عجزنا عن إشباعها لايسبب لنا ألماً بحق[٢٩] » ، وحتى الحب ، والزواج ، والأبوة أمور يمكن الاستغناء عنها ، فهى تعود علينا بلذائذ متقطعة ، وبحزن لاينتهى أبداً[٣٠] . وإذا تعودنا المعيشة البسيطة ، والأساليب غير المعقدة ، فذلك طريق لايكاد يخطئ يوصلنا إلى صحة الجسم[٣١] . والرجل الحكيم لايحترق قلبه بالمطامع أو شهوة الصيت ؛ وهو لايحسد أعداءه على ما نالوا من حظ طيب ، بل إنه لا يحسد أصدقاءه على هذا الحظ ؛ وهو يتجنب ما فى المدينة من حمى

المنافسات وضوضاء المنازعات السياسية ، بل يطلب هدوء الريف ، ويجد أوكد السعادة وأعمقها فى هدوء الجسم والعقل . ولما كان هو المسيطر على شهواته ، فإنه يعيش بعيداً عن الادعاء الكاذب ، ويطرح وراءه كل المخاوف ، وتجزيه « حلاوة الحياة » hedone الطبيعية بأعظم أنواع الخير وأعلاها شأنا وهو السلم .

تلك عقيدة شريفة جديرة بالحب ، ومما يملأ النفس شجاعة أن يجد المرء فيلسوفاً لايخاف اللذة ومنطقياً لديه كلمة طيبة يقولها عن الحواس . وليس فى هذا الكلام غموض وليس فيه تمجيد شديد للفهم ، بل إن الأبيقورية ، على الرغم من أنها هى التى نقلت النظرية الذرية من العهد القديم إلى العصر الحديث ، كانت نقطة تحول من نزعة التشوف القوية التى أنشأت العلم اليونانى والفلسفة اليونانية . وأكبر عيب فى هذه الفلسفة هو سلبيتها : فهى تفكر فى اللذة على أنها التحرر من الألم ، وفى الحكمة على أنها فرار من مخاطر الحياة وامتلائها ؛ وهى خطة صالحة طيبة للفردية ولكنها لاتصلح للمجتمع . وكان أبيقور يحترم الدولة لأنه يراها شراً لابد منه ، يستطيع تحت حمايتها أن يعيش آمناً من الأذى فى حديقته ، ولكن يبدو أنه لم يكن يعنى بالاستقلال القومى ، بل يبدو أن مدرسته كانت فى واقع الأمر تفضل الملكية المطلقة عن الدمقراطية ، لأن الأولى أقل من الثانية ميلا إلى اضطهاد الإلحاد[32] — وهو قلب للعقائد الحديثة يستلفت الأنظار ، وكان أبيقور على استعداد لأن يقبل أية حكومة لا تضع أية عقبة فى سبيل طلب الحكمة والصداقة طلباً مطلقاً من القيود والعوائق . وكان إخلاصه للصداقة يعدل إخلاص الأجيال التى سبقته للدولة : « إن الصداقة أهم الوسائل التى تهيئها الحكمة لسعادة الحياة بأجمعها »[33] . وكانت صداقات الأبيقوريين مضرب المثل فى دوامها ، ورسائل زعيمهم مليئة بعبارات الحب الخالص القوى[34] . وقد بادله مريدوه هذا الشعور بالقوة التى نعهدها فى مشاعر اليونان : وحسبنا دليلا على هذا أن الشاب كولوتيز

Colotes حين سمع ابيقور لأول مرة خر راكعاً ، وبكى ، وحياه بأنه إله[٣٥].

وظل أبيقور ثلاثين عاما يعلم فى حديقته ويفضل المدرسة عن الأسرة حتى إذا كان عام ٢٧٠ قاسى أشد الآلام من حصوة فى المثانة ، ولكنه تحمل الألم بصبر عجيب ، ووجد وهو على فراش الموت متسعا من الوقت للتفكير فى أصدقائه : « أكتب إليكم فى هذا اليوم السعيد الذى هو آخر أيام حياتى . إن انسداد مثانتى ، وآلامى الداخلية قد وصلا إلى غايتهما ، ولكنهما يقف فى سبيلهما ابتهاج عقلى حين أفكر فى حديثى معكم . اعتنوا بأطفال مترودوروس العناية الخليقة بإخلاصكم لى وللفلسفة طوال حياتكم[٣٦] . وأوصى بما يملك للمدرسة راجياً « ألا يشعر أى واحد من الذين يدرسون الفلسفة بالحاجة ... على قدر ما تصل إليه قوتنا لمنعها »[٣٧].

وترك أبيقور وراءه مريدين خلف بعضهم بعضاً زمناً طويلا ، وقد بلغ من وفائهم لذكراه أن ظلوا قروناً طوالا يأبون أن يغيروا كلمة واحدة من تعاليمه . وكان أشهر تلاميذه كلهم مترودوروس اللمپسكى Metrodorus of Lampascus وقد أدهش بلاد اليونان كلها أو أثار ضحكها بتلخيصه الأبيقورية كلها فى قوله إن « كل الطيبات ذات صلة بالبطن »[٣٨] ، ولعله كان يقصد بهذا أن الملاذ كلها جسمية وأنها فى آخر الأمر معوية . ورد عليه كريسپوس بتسميته علم البطنة الذى تخصص فيه أركستراتوس « مركز الفلسفة الأبيقورية[٣٩] ». وأساء الجمهور فهم الأبيقورية فندوا بها علنا وساروا على سننها فى أوساط كبيرة فى جميع أنحاء هلاس . واتبعها كثيرون من اليهود الهلنستيين ، وبلغ من كثرتهم أن أضحت كلمة أبيقورى عند الأحبار مرادفة لكلمة مرتد عن الدين[٤٠] . وفى عام ١٧٣ ، أو ١٥٥ أخرج من رومة اثنان من فلاسفة

الأبيقوريين بحجة أنهم كانوا يفسدون أخلاق الشباب(٤١) : وبعد مائة عام من ذلك الوقت ألقى شيشرون هذا السؤال : « لماذا كان لأبيقور أتباع بهذه الكثرة ؟ »(٤٢) ، وكتب لكريشيس أكمل وأظرف عرض بقى حتى الآن للطريقة الأبيقورية . وظل لمدرستهم أتباع ينتمون إليها جهرة إلى عهد قسطنطين ، منهم من سوأ اسم أستاذه فجعله مرادفا للنهم فى المأكل والمشرب ، ومنهم من ظل أمينا يعلم الحكم البسيطة التى لخص فيها فلسفته « الآلهة لاينبغى أن تخاف ، والموت لايمكن الشعور به ، والخير يستطاع نيله ، وكل ما نرهبه يمكن التغلب عليه » (٤٣) .

الفصل الثالث

التوفيق بين الأبيقورية والرواقية

لما كان عدد متزايد من أتباع أبيقور قد أخذوا يفسرون أقواله بأنه ينصح الناس بالجرى وراء اللذة الجسمية فإن النظرية الأساسية فى علم الأخلاق — وهى ما هى الحياة الطيبة ؟ — لم يتوصل إلى حلها ، بل كل ما فى الأمر أنها وضعت فى صيغة أخرى وهى : كيف يوفق بين أبيقورية الفرد الفطرية وبين الرواقية التى لابد منها للجماعة وللجنس البشرى ؟ — وكيف يستطاع أن يوحى إلى أعضاء المجتمع أو أن يرهبوا حتى يسيطروا على أنفسهم أو يضحوا بها لأن هذه التضحية وتلك السيطرة لاغنى عنهما لبقاء المجتمع . ولم يعد فى مقدور الدين القديم أن يؤدى هذا الواجب ، كما أن الدولة القديمة — دولة المدينة — لم تسم بالناس إلى حد يجعلهم ينسون أنفسهم . واتجه اليونان المتململون إلى الفلسفة يسألونها الجواب ، واستدعوا الفلاسفة يطلبون إليهم التضحية أو السلوى فى أزمات الحياة ، وبحثوا فى الفلسفة عن نظرة إلى العالم تكسب الوجود الإنسانى معنى خالدا أو حكمة دائمة فى نظام الأشياء ، وتمكنهم من أن ينظروا إلى الموت الذى هم ملاقوه حتما بلا رهبة ولا فزع . لقد كانت الرواقية آخر ما بذله الأقدمون الأمجاد من جهد للبحث عن مبدأ خلقى فطرى ، ولقد حاول زينون مرة أخرى أن يصل إلى الهدف الذى عجز أفلاطون عن الوصول إليه .

وكان زينون من أهل سيتيوم إحدى مدائن قبرص ؛ وكانت المدينة فينيقية فى بعض أحيائها يونانية فى أكثرها ؛ وكثيراً ما يقال إن زينون فينيقى ، ويقال أحياناً إنه مصرى ؛ والذى لاشك فيه أن أبويه يختلط فيهما الدم الهلينى والدم السامى[٤٤] . ويصفه أپلونيوس الصورى بأنه نحيل الجسم، طويل القامة،

أسمر اللون ، وأن رأسه كان يميل إلى أحد الجانبين ، وأن ساقيه كانتا ضعيفتين ، ويخيل إلينا أن أفرديتي لو عرض عليها لأسلمته إلى أثينا ، وإن لم يكن هفستس Hephaestus خيراً منه . وإذ لم يكن له ما يشغل باله ويشتت جهوده فإنه سرعان ما جمع من التجارة ثروة طائلة ، فلما أن جاء إلى أثينة أول مرة كان لديه ، كما يقولون ، أكثر من ألف وزنة . ويقول ديجين ليرتيوس إن السفينة تحطمت به عند ساحل أتكا، وإنه فقد ثروته، فوصل إلى أثينة حوالى عام ٣١٤ وهو لا يكاد يملك شيئاً(٤٥) . وجلس الرجل إلى جوار دكة كتبي وشرع يقرأ في كتاب ممرابيليا لأكسانوفون وسرعان ما افتتن بأخلاق سقراط ، وأخذ يسأل : « أين يوجد أمثال هذا الرجل اليوم ؟ » . ومر به في تلك الساعة أقراطيس الفيلسوف الكلبي ، فأشار عليه الكتبي أن يتبع ذلك الرجل . فانضم زينون وهو وقتئذ في سن الثلاثين إلى مدرسة أقراطيس وسره أن كشف الفلسفة وقال : « لقد قمت برحلة ناجحة موفقة حين تحطمت سفينتي »(٤٦) . وكان أقراطيس هذا رجلا من أهل طيبة نزل عن ثروته البالغ قدرها ثلثمائة وزنة إلى مواطنيه وعاش عيشة الزهد والتقشف التي يعيشها الكلبيون المتسولون . وكان يندد بالدعارة المتفشية في أيامه ، وينصح الناس بأن يجوعوا ليعالجوا الحب ؛ وشغفت تلميذته هباركيا Hipparchia بحبه ، لكثرة ما كان لديها من الطعام ، وهددت أبويها بأنها سوف تقتل نفسها إذا لم يزوجاها به، فتوسلا إلى أقراطيس أن ينصحها بالرجوع عن عزمها ، وحاول هو أن يجيبهما إلى ما طلبا ووضع مخلاة تسوله بين قدميها وقال لها : « هذا كل ما أملك ؛ ففكري الآن فيما تفعلين » ؛ ولم يثن ذلك من عزمها فغادرت منزلها الفخم ، وارتدت ثياب المتسولين ، وذهبت لتعيش مع أقراطيس عيشة العشق الحر الطليق . ويقال لنا إن زواجهما قد تم علنا، ولكن حياتهما كانت مثلا أعلى في الحب والوفاء(٤٧) .

وأثرت في نفس زينون حياة الكلبيين البسيطة الصارمة ؛ ذلك أن أتباع

أنستانس قد أصبحوا وقتئذ هم الرهبان الفرنسسكان فى الزمن القديم ، نذروا أن يعيشوا فقراء زاهدين ، ينامون فى أى مأوى طبيعى يعثرون عليه ، ويعيشون على صدقات الناس الذين يمنعهم جدهم أن يكونوا قديسين . وأخذ زينون عن الكلبيين المبادئ الأولية لنظامه الأخلاق ، ولم يحاول قط أن يخفى ما هو مدين به إليهم : وقد تأثر بهم فى أول كتاب له وهو كتاب الجمهورية تأثراً جعله يعتنق شيوعيتهم الفوضوية التى لا تكون فيها نقود ، ولا ملكية ، ولا زواج ، ولا دين ، ولا شرائع[٤٨]. ولما أدرك أن هذه الطوبى ، وأن نظام التغذية الكلبى ، لايصلحان لأن يكونا منهاجا عمليا للحياة ، فارق أقراطيس وأخذ يدرس مع زنوقراطيس فى المجمع ومع استلپو المغارى . وما من شك فى أنه قرأ كتب هرقليطس قراءة استيعاب لأنه أدخل فى أفكاره كثيراً من آراء هرقليطس — كالنار المقدسة بوصفها روح الإنسان والكون ، وأبدية القانون وتكرار خلق العالم واحتراقه ؛ ولكن كان من عادته أن يقول إنه مدين لسقراط بأكثر مما هو مدين به لغيره من الفلاسفة ، وإن سقراط هو معين الفلسفة الرواقية ومثلها الأعلى .

وبعد أن قضى زينون كثيراً من السنين تحت وصاية غيره من الفلاسفة أنشأ أخيراً مدرسته الفلسفية الخاصة به فى عام ٣٠١ ، وذلك بأن أخذ يتحدث إلى الطلاب وهو رائح غاد تحت أعمدة الاستواء پوسيلى Stoa Poecile أو المدخل المحدد . وكان يرحب بالفقراء والأغنياء على السواء ، ولكنه لم يكن يشجع انضمام الشبان إلى تلاميذه ، لأنه كان يشعر بأن الفلسفة لايفهمها إلا الرجال الناضجو العقل . وحدث أن أطال أحد الشبان فى الكلام فقال له زينون « لقد خلق لنا أذنان وفم واحد لكى ننصت كثيراً ونتكلم قليلا »[٤٩] . وحضر أنتجونس الثانى وهو فى أثينة دروس زينون ، وأضحى صديقا له معجباً به ، يستنصحه فى مهام الأمور ، وأغراه بالترف برهة وجيزة ، ودعاه لأن يعيش

ضيفا عليه فى پلا Pella ، ولكن زينون اعتذر له وأرسل إليه بدلا منه تلميذه پرسيوس Persaeus، وظل هو أربعين عاما(*) يعلم فى الاستوا ويعيش عيشة تتفق وتعاليمه اتفاقا أصبحت معه عبارة « أكثر اعتدالا من زينون » مثلا سائراً فى بلاد اليونان . وأسلمته الجمعية الأثينية رغم صلته الوثيقة بأنتجونس « مفاتيح الأسوار » ، ووافقت على المال الذى خصص لإقامة تمثال له وإهدائه تاجا ؛ وهذا نص القرار :

« لما كان زينون الستيوى قد قضى سنين كثيرة فى مدينتنا يدرس الفلسفة ، ولما كان فى كل ماعدا هذا رجلا طيبا (هكذا) ، يحض جميع الشبان الذين يسعون لصحبته على الاعتدال فى حياتهم ويجعل حياته أنموذجا لأعظم ما تسمو إليه الحياة ... فقد صحت عزيمة الشعب على تكريم زينون ... وعلى أن يهديه تاجا من الذهب ... وأن يبنى له قبرا فى حى الرمكس من الأموال العامة »[٥١].

والشائع أن موته كان فى سن التسعين ، ويقول ليرتيوس إنه مات بالطريقة الآتية : « بينا هو خارج من مدرسته إذ زلت قدمه وكسر إصبع من أصابعها ، فضرب الأرض بيده وأعاد بيتا من الشعر فى نيوبى وهو « لقد جئت ؛ فلم تنادينى على هذا النحو ؟ ثم خنق نفسه من فوره »[٥٢] .

وواصل عمله فى الاستوا رجلان من يونان آسية هما أقلانيتوس الأسوسى Cleanthes of Assus ومن بعده أقريسپوس الصولي Chrysippus of Soli وكان أقلانيتوس ملاكما عتّرفا قدم إلى أثينة ومعه أربع درخمات ، واشتغل فاعلا جاديا ، ورفض أن يتقاضى إعانة من الدولة ، ودرس على زينون تسعة عشر عاما ، وعاش مجدا فقيرا زاهداً ، أما أقرسپوس فكان أكثر تلاميذ المدرسة

(*) إن جميع التواريخ الواردة عن زينون مثار الجدل ؛ والأصول المأخوذة منها متناقضة . وقد استنتج زلر Zeller من بحوثه أن مولده كان فى عام ٣٥٠ ، وأن وفاته كانت فى عام ٢٦٠[٥٠] .

علما وإنتاجا ، وهو الذى أكسب العقيدة الرواقية صورتها التاريخية بأن شرحها فى ٢٧٠ كتابا ، جعلت ديونيشيوس الهلكرنسى Dionysius of Halicarnassus يعدها أنموذجا لغزارة العلم المملة . وانتشرت الرواقية من بعده فى جميع أنحاء هلاس ، وكان أعظم دعاتها فى آسية : بانيتيوس الرودسى Panaetius of Rhodes وزينون الترسوسى ، وبوئثوس الصيداوى Boethus of Sidon ، وديجين السلوقى . وكل الذى نستطيعه للتعريف بها هو أن نؤلف مما عثرنا عليه عرضا من النتف الباقية من المؤلفات الضخمة الكثيرة التى كتبت عنها صورة لأوسع فلسفات العالم القديم انتشارا وأعظمها أثراً .

وأكبر الظن أن أقريسبوس هو الذى قسم الفلسفة الرواقية إلى منطق ، وعلوم طبيعية ، وأخلاق . وكان زينون ومن جاء بعده يفخرون بما كتبوه فى النظريات المنطقية ، ولكن أنهار المداد التى فاضت بها أقلامهم فى هذا الموضوع لم تترك أثراً ملحوظاً فى إنارة العقول أو فى نفعها(*) . لقد كان الرواقيون يتفقون مع الأبيقوريين فى أن المعرفة لاتنشأ إلا من الحواس ، وكان المقياس النهائى للحقيقة فى رأيهم هو المدركات الحسية التى تضطر العقل إلى قبولها بما فيها من وضوح أو ثبات ، على أنه ليس من الضرورى أن تؤدى التجارب إلى المعرفة ، لأن بين الحواس والعقل توجد العواطف أو الانفعالات ، وهذه قد تشوه التجارب فتجعلها أخطاء ، كما تشوه الرغبات فتجعلها رذائل . والعقل هو أسمى ما أحرزه الإنسان ، وهو بذرة من بذور العقل الكلى الذى وضع قواعد العالم .

والعالم كالإنسان مادى بأكمله وإلهى بفطرته . فكل ما تنقله لنا الحواس مادى ، والأشياء المادية دون غيرها هى التى تحدث الأفعال أو تستقبلها .

(*) مع استثناء إضافات قليلة المصطلحات ككلمة logic (المنطق) نفسها . وقد شبه أرستو Aristo تلميذ زينون المناطقة بقوم يأكلون الحيوانات الصدفية البحرية ، فهم يبذلون كثيراً من الجهد ليحصلوا على قط[illegible] محشة بين كثير من الـ[illegible](٥٣) .

والصفات والكميات ، والفضائل ، والانفعالات ، والنفس والجسم ، والله والنجوم ، كلها صور مادية أوعمليات، تختلف فى درجة رقيها ، ولكنهاواحدة فى جوهرها[٥٤] . غير أن المادة كلها حركية ، مملوءة بالتوتر والقوى ، لاتنقطع عن العمل على الانتشار أو التركيز ، يبعث فيها الحياة من داخلها وخارجها النشاط والحرارة أو النار . والعالم يعيش بوساطة عدد لايحصى من دورات التمدد والانكماش ، والتطور والانحلال ، يحترق من آن إلى آن فى لهب عظيم ، ثم يتشكل على مهل من جديد . ثم يعود فى تاريخه القديم كله بأدق تفاصيله[*] لأن تسلسل العلل والمعلولات يسير فى دائرة مفرغة ويتكرر إلى غير نهاية . وكل الحوادث وكل أعمال الإرادة مقررة معينة ، ومن المستحيل على شىء ما أن يحدث على نحو يخالف ما حدث عليه ، كما أنه يستحيل على شىء أن ينشأ من لاشىء ؛ ولو حدثت أية ثغرة فى السلسلة لتمزق العالم .

والله فى هذا النظام هو البداية والوسط والنهاية . وكان الرواقيون يعترفون بضرورة وجود الدين ليكون أساسا للأخلاق الفاضلة ؛ فكانوا ينظرون نظرة التسامح اللطيفة لعقائد الشعب الدينية وما فيها من شياطين ، ومن تنبؤبالغيب، وكانوا يجدون لهذه تفسيرات مصوغة فى تشبيهات ومجازات يسدون بها الثغرة الفاصلة بين الخرافة والفلسفة . وكانوا يقبلون علم التنجيم الكلدانى ويعتقدون بصحته فى جوهره ، ويرون أن شئون الأرض تنطبق انطباقا خفياً مستمراً على حركات النجوم[٥٥] . فكان ذلك لديهم صورة من صور التعاطف العالمى الذى يجعل كل ما يحدث فى جزء منه يؤثر فى سائرا الأجزاء .وكأنهم أرادوا ألا يكتفوا بوضع نظام أخلاق للمسيحية ، بل شاءوا أن يضعوا لها أيضا نظامها الدينى ، ففكروا فى العالم ، والشرائع ، والحياة ، والنفس ،والأقدار من حيث

(*) وإنا ليسرنا ويقضى على مخاوفنا أن نعلم أن من الرواقيين من لم يكونوا واثقين كل الثقة من هذه المسألة .

صلتها بالله،وعرفوا الأخلاق الفاضلة بأنها الاستسلام عن رضا واختيار لإرادة الله . والله عندهم ، كالإنسان ، مادة حية ؛ فالعلم كله بجسمه ، ونظام العالم وقانونه عقله وإرادته ؛ والكون كائن حى ضخم ، الله روحه ، ونسمته المنعشة ، وعقله المخصب ، وناره المحركة المنشطة(٥٦) . وترى الرواقيين أحيانا يفكرون فى الله تفكيراً مجرداً غير مجسد ؛ ولكنهم يصورونه فى الأكثر الأهم على أنه قوة مدبرة تضع للكون خطته وترشده بعقلها الأعلى ، وتنظم أجزاءه كلها لتؤدى أغراضا تنطبق على العقل ، وتجعل كل شىء فيه يعود بالنفع على الأفاضل من الناس . ويوحد أقلانيتوس بين الله وزيوس فى ترنيمه توحيدية خليقة بأن ينطق بها إخناتون أو إشعيا :

حمدا لك يازيوس ، حمدا يفوق حمد جميع الآلهة : إن أسماءك لكثيرة ،
وإن قوتك لأعظم القوى إلى أبد الدهر.
منك بدأ العالم ، وأنت تحكم الأشياء كلها بقوة القانون ،
وإليك تتحدث كل الأجسام لأننا نحن جميعاً أبناؤك .
ومن أجل هذا أرفع إليك نشيدا أتغنى فيه بقوتك :
إن نظام الكون بأجمعه يطيع كلمتك فى تحركها حول الأرض
حيث تختلط الأضواء الصغيرة والكبيرة : ألا ما أجل شأنك
لك الملك إلى أبد الدهر !
لاشىء يحدث على الأرض إلا بعلمك ، ولا فى السماء ولا فى البحار:
إلا ما يفعله الأشرار : مدفوعين إليه بجهلهم ؛
ولكن لك من الحذق ما يصلح المعوج نفسه ، وما لاصورة له يصور
والبعيد أمامك قريب
وهكذا نظمت الأشياء كلها فجعلتها وحدة : خيرها وشرها :
حتى تكون كلمتك واحدة فى الأشياء جميعها : باقية إلى الأبد .

طهر نفوسنا من الحماقة ، حتى نرد إليك
الفضل الذى تفضلت علينا به :
فنتغنى بمدح أعمالك إلى أبد الآبدين :
غناء يليق ببنى الإنسان(٥٧) .

وما أشبه الإنسان والعالم بالكون الصغير فى الكون الكبير ، فهو أيضا كائن حى ذو جسم مادى والنفس مادية ، ذلك بأن كل ما يحرك الجسم أو يؤثر فيه ، وكل ما يحركه الجسم أو يؤثر فيه ، لابد أن يكون ذا جسم . والنفس نسيم نارى (نيوما Pneuma) منبثة فى جميع أجزاء الجسم ، كما أن النفس العالمية منبثة فى جميع العالم . وهى تبقى بعد الجسم إذا مات ، ولكنها تبقى على هيئة طاقة غير شخصية . وحين يحدث اللهب الأخير تمتص الروح مرة أخرى فى محيط الطاقة وهو الله كما يمتص أتمان Atman فى برهمان Brahman .

وإذ كان الإنسان جزءاً من الله أو الطبيعة فإن من اليسير أن تحل المشكلة الأخلاقية على النحو الآتى : الخير هو التعاون مع الله أى مع الطبيعة ونعنى بها قانون العالم . وليس الخير هو الجرى وراء الاستمتاع أو اللذة لأن هذا الجرى يخضع العقل للشهوة ، وكثيراً ما يؤذى الجسم أو العقل ، وقلما يرضينا فى آخر الأمر . ولا يمكن أن تتحقق السعادة إلا بالمواءمة بين أغراضنا وسلوكنا من جهة ، وبين أغراض العالم وقوانينه من جهة أخرى ؛ وليس ثمة تعارض بين صالح الفرد وصالح الكون ، لأن قانون الخير فى حالة الفرد يتفق مع قانون الطبيعة . وإذا لحق الشر بالرجل الطيب فإن هذا لا يكون إلا إلى أجل قصير ، وليس هو فى واقع الأمر شراً ؛ ولو أننا استطعنا أن نفهم الأمر كله لرأينا ما وراءه من خير مهما يظهر فى أجزائه من شر(*) . والرجل العاقل لا يدرس العلوم

(*) يقول أكريسبوس إن الحروب تصحيح مفيد لازدحام العالم بالسكان ، وبق الفراش يفيد فى منعنا من الإفراط فى النوم(٥٨) .

الطبيعية إلا بالقدر الذى يكفى لمعرفة قانون الطبيعة ثم يكيف حياته وفق هذا القانون ، وغرض العلم والفلسفة والمبرر الوحيد لدراستهما هما تمكيننا من أن نعيش وفق الطبيعة Zen Kata physin . ويسلم أقلاينتوس إرادته لإرادة الله فى ألفاظ تكاد أن تكون هى بعينها ألفاظ نيومن Neuman :

اهدنى يا ألله ، وأنت يا قدرى ،

إلى ذلك المكان الوحيد الذى تريدنى أن أشغله .

وسأتبع هديكما مسرورا . فإذا ما وصلت معكما

ثم نكثت العهد ، فلا بد لى من أن أواصل السير معكما(٥٩) .

ومن أجل هذا يتجنب الرواقى الترف والتعقيد ، والمنازعات السياسية والاقتصادية ؛ وهو يقنع بالقليل ، ويقبل بلا تذمر صعاب الحياة وما يلاقيه فيها من خيبة . ولا يأبه بشىء غير الفضيلة والرذيلة — لايبالى بالمرض والألم ، بحسن السمعة أوسوئها ، بالحرية أو الرق ، بالحياة أوالموت . ويقمع كل شعور يقف فى وجه سير الطبيعة أو يبعث على الارتياب فى حكمتها : فإذا مات ولده لم يحزن ، بل يرضى بحكم القدر معتقداً أنه أحسن الأحكام وإن خفى الأمر عليه ؛ ويسعى لأن يكون مجرداً من الشعور تجرداً تاما ، [illegible] يكون هدوء عقله آمنا من جميع تقلبات الحظ ، أو الرحمة ، أو الحب [illegible] وقعها عليه(*) . وعلى الرواقى أن يكون معلما قاسياً ، وإداريا [illegible] . والجبرية لاتتضمن الانطلاق من القيود ، بل يجب علينا أن نكبح [illegible] وأنفس غيرنا ، وأن نتحمل من الناحية الخلقية تبعات جميع أعمالنا . [illegible] أن ضرب.

(*) واقترح كريسپوس أن يقتصر فى العناية بالموتى من الأقارب عن دفنهم بأبسط الوسائل وأحدثها ، ثم قال إن خيرا من هذا العمل لقمة أن تتخذ منهم [illegible](٦٠) .

زينون عبده لأنه سرق ، وكان العبد يعرف قليلا من العلم ، قال له : «ولكنى قد قدر على أن أسرق» ، فرد عليه زينون بقوله : «وقدر أيضاً أن أضربك»[٦١] ويرى الرواقى أن جزاء الفضيلة هو الفضيلة نفسها ، وأنها واجب مطلق وأمر محتوم ، مستمد من اشتراكه فى الألوهية ، وإذا أصابه مكروه عزى نفسه بأنه حين يتبع القانون الإلهى يصبح هو الله مجسداً[٦٢] . فإذا سئم الحياة ، واستطاع أن يفارقها من غير أن يسبب الأذى لغيره ، فلا حرج عليه من أن ينتحر . ولما بلغ أقلانيثوس من السبعين شرع يصوم صوما طويلا ، ثم قال إنه لن يعود بعد أن قطع نصف الطريق ، وواصل الصوم حتى مات[٦٣] .

على أن الرواقى مع هذا ليس بالرجل غير الاجتماعى ، وهو لا يفخر بالفقر كالكلبى ، ولا يغرم بالوحدة كالأبيقورى . وهو يوافق على الزواج وعلى وجود الأسرة ويراهما لازمين ، وإن كان لا يمتدح الحب الروائى ؛ وهو يتطلع إلى وجود مدينة فاضلة تكون فيها النساء شركة بين الرجال[٦٤] . ويقبل وجود الدولة ، بل يقبل الملكية المطلقة نفسها ؛ وليست لديه ذكريات عزيزة عن دولة — المدينة ، ويرى أن أوساط الناس مغفلون شديدو الخطر ، ويفضل الملوك المطلقى السلطة على تحكم الغوغاء . والحق أنه قلما يعنى بأية حكومة ، ويتمنى أن يكون الناس كلهم فلاسفة ، حتى تصبح القوانين لا ضرورة لها . وهو لا يفكر فى الكمال كما يفكر فيه أفلاطون أو أرسطو من حيث علاقته بخير المجتمع ، بل يفكر فيه من حيث علاقته بالرجل الصالح . ولا يرى حرجا فى أن يشترك فى الشئون السياسية ، ويناصر كل حركة ، مهما تكن ضعيفة ، تهدف إلى الحرية والكرامة الإنسانية ، ولكنه لا يقيد سعادته بقيود المنصب أو السلطان . وهو يرضى بأن يضحى بحياته فى سبيل بلاده ، ولكنه يرفض

كل وطنية تقف فى سبيل ولائه للإنسانية بأجمعها ؛ فهو والحالة هذه مواطن عالمى . وكان زينون ، وهو الذى يجرى فى عروقه ، كما سبق القول ، الدم اليونانى والدم السامى ، يتوق كما يتوق الإسكندر لتحطيم الحواجز العنصرية والقومية ؛ وإن نزعته الدولية لتكشف عن فكرة الإسكندر التى كانت آخذة فى الزوال ، فكرة توحيد بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط . وكان زينون وكريسبوس يأملان فى آخر الأمر أن يحل مجتمع واحد كبير محل تلك الدول والطبقات المتطاحنة ، وألا يكون فى هذا المجتمع الجديد أغنياء وفقراء ، أوسادة وعبيد ؛ يحكمه الفلاسفة فلا يظلمون ، ويكون فيه الناس جميعاً إخوة لأنهم أبناء إله واحد[٦٥] .

وملاك القول أن الرواقية كانت فلسفة نبيلة ، وأنها كانت فلسفة عملية إلى حد أبعد مما يتوقعه الساخر منها فى الوقت الحاضر . لقد وحدت هذه الفلسفة جميع عناصر الفكر اليونانى وبذلتها فى مجهود نهائى قام به العقل الوثنى لوضع نظام أخلاقى ترتضيه الطبقات التى خرجت على الدين القديم ؛ ومع أنه لم ينضو تحت لوائها إلا أقلية ضئيلة ، فإن هذه الأقلية أينما وجدت كانت خير العناصر. وقد أنتجت كما أنتج المذهبان المسيحيان المقابلان لها — وهما الكلفنية والمتزمتة — أقوى الأخلاق فى زمنها . على أننا إذا نظرنا إلى هذه الفلسفة من الوجهة النظرية رأيناها عقيدة شاذة مروعة تهدف إلى كمال قاس يتطلب من أصحابه اعتزال المجتمع ، ولكنها فى واقع الأمر قد خلقت رجالا شجعانا ، قديسين أطهاراً ، خيرين أمثال كاتو الأصغر ، وإبكتتس Epictetus ، وماركس أورليوس . ولقد تأثر بها الفقه الرومانى فوضع على هديها تشريعا للأمم غير الرومانية ، وأعانت على حفظ كيان المجتمع القديم حتى ظهر له دين جديد . ولسنا ننكر أن الرواقيين قد شدوا من أزر الخرافات ، وأنهم كان لهم أثر سيئ فى العلوم الطبيعية ، ولكنهم رأوا بنافذ بصيرتهم المشكلة الأساسية القائمة فى عصرهم

ـــ وهى أساس الأخلاق الدينى ـــ وبذلوا مجهوداً شريفاً لملء الهوة الفاصلة بين الدين والفلسفة . لقد كسب أبيقور اليونان وضمهم إلى لوائه ، أما زينون فقد كسب أرستقراط رومة ، وظل الرواقيون إلى آخر تاريخ الوثنية يحكمون الأبيقوريين ، وسيظلون على الدوام هم الحاكمين لهم . ولما أن نشأ دين جديد من أنقاض الفوضى العقلية والأخلاقية الضاربة أطنابها فى العالم الهلنستى ، كانت السبيل قد مهدتها لهذا الدين فلسفة آمنت بضرورة الدين ، ونادت بعقيدة تقشفية من مبادئها البساطة وضبط النفس ، عقيدة ترى فى الله كل شىء .

الفصل الرابع

العودة إلى الدين

لقد مر النزاع بين الدين والفلسفة حتى الوقت الذى نتحدث عنه فى ثلاث مراحل : مهاجمة الدين كما حدث قبل عهد السقراطيين ، والمحاولة التى تهدف إلى استبدال قانون أخلاقى طبيعى بالدين كما فعل أرسطو وأبيقور ؛ ثم العودة إلى الدين كما فعلت المتشككةوالرواقية — وتلك هى الحركة التى انتهت بظهور الأفلاطونية الجديدة والمسيحية . وقد حدث مثل هذا التعاقب أكثر من مرة فى تاريخ العالم ، ولعله يحدث أيضا فى هذه الأيام . فطاليس يقابل جاللبو ، ودمقريطس يقابل هُبز ، والسوفسطائيون يقابلون رجال دوائر المعارف الفرنسيين ، وبروتاغوراس يقابل ڤلتير ؛ ثم إن أرسطو يقابل سپنسر ، وأبيقور يقابل أناطول فرانس ؛ وپيرون يقابل پسكال ، وأرسسلوس يقابل هيوم ، وأقرنيداس يقابل كانت ، وزينون يقابل شوپنهور ، وأفلوطين Plotinus يقابل برجسن . نعم إن الترتيب التاريخى لهؤلاء الفلاسفة يجعل التشابه بينهم غير يسير ، ولكن الاتجاه الأساسى للتطور واحد فى جميع الأحوال .

لقد تخلى عصر النظم العظيمة عن مكانه إلى التشكك فى قدرة العقل الإنسانى على فهم العالم أو السيطرة على غرائز الناس وإخضاعها للنظام وللحضارة . ولقد كانت هذه حال المتشككة بالمعنى الذى يقصده منها كانت لاهيوم : فقد كان هؤلاء يرتابون فى الفلسفة كما يرتابون فى العقائد التحكمية ، وحطموا أسس المبادىء ، وأشاروا بقبول الطقوس الدينية القديمة فى هدوء . ولم يبعد التشكك الناس على يد پيرون ، كما لم يبعدهم على يد پسكال ، عن الدين بل قادهم إليه ، وقد ختم پيرون نفسه حياته بأن كان كاهن المدينة الأكبر المبجل . ولم يكن هجر

الأبيقوريين للسياسة واتجاههم نحو القوانين الأخلاقية ، وفرارهم من الدولة إلى الروح ، لم يكن هذا كله إلا لحظة قصيرة فى الرجعة إلى العهد الأول ؛ وقد مهد قصر الاهتمام على النجاة الفردية الطريق إلى ظهور دين يستهوى الفرد أكثر مما يستهوى الدولة ؛ وكان ثمة كثيرون من الناس لايستطيعون أن يجدوا فى الحياة ما وجده فيها أبيقور من سلوى اقتنع بها ورضى ، فقد حلت بهم الفاقة ، أو مصائب الدهر ، أوالمرض ، أو الثكل ، أو الثورة ، أو الحرب ؛ وتركت نصائح الدهر كلها أفئدتهم فارغة . وها هو ذا هجسياس القوريني Hegesias of Cyrene قد بدأ فى نظر القوريِنيين كما بدأ أبيقور ، ولكنه انتهى إلى الاعتقاد بأن فى الحياة من الألم أكثر مما فيها من اللذة ، ومن الحزن أكثر من الفرح ، وأن النتيجة الوحيدة التى تتمخض عنها الفلسفة الطبيعية هى الانتحار(*) . وقد فعلت الفلسفة ما تفعله الابنة الضالة بعد المغامرات المبهجة وزوال الخداع عن بصيرتها ، فأقلعت عن الجرى وراء الحقيقة والبحث عن السعادة ، وعادت بعد أن تابت وأنابت إلى أمها الدين ، تبحث فيه مرة أخرى عن أسس تقيم عليها آمالها ومبادئ تؤيد بها صدقاتها .

وبيناكانت الرواقية تسعى لإقامة صرح القانون الأخلاقى للطبقات المفكرة ، كانت تعمل أيضا للاحتفاظ بمعونة القوى غير الطبيعية لتدعم بها أخلاق الرجل العادى ، وصبغت فكرتها الميتافيزيقية والأخلاقية صبغة دينية أخذت تقوى على مر الزمان . وكان زينون ينكر كل وجود حقيقى للآلهة التى يقول بها العامة(٦٧) ، ولكن أقلانيتوس بعد جيل واحد اقترح محاكمة أرستارخوس لأنه ملحد . ولم يكن زينون يدعو إلى شىء من الفساد الخلقى الشخصى ، ولكن سنكا كان يتحدث عن النعيم فى الدار الآخرة بألفاظ لاتكاد تفترق فى شىء

(*) وقد بلغ من فصاحته فى تأييد ما أدلى به من حجج أن ثارت فى الإسكندرية موجة من الانتحار اضطر بطليموس الثانى على أثرها أن يخرجه من مصر(٦٦) .

عن العقائد الأليوزينية Eleusinian والمسيحية(٦٨) . ولقد أصبحت الرواقية بعد زينون دينا أكثر منها فلسفة ، واتخذ كل مبدأ من مبادئها صورة دينية ؛ وكان الجزء الأكبر من نظامها يتألف من جدل يدور حول وجود الله وطبيعته ، وانبعاث العالم من الله ، وحقيقة القوة المدبرة ، واتفاق الفضيلة مع الإرادة الإلهية ، وأخوة البشر تحت سيطرة أبوة الله ، وعودة العالم فى آخر الأمر إلى الله . وفى هذه الفلسفة نجد معنى الخطيئة الذى كان له شأن أيما شأن فى المسيحية الأولى وفى البروتستنتية : ونجد فيها ذلك الشمول السامى الذى يرحب كما رحب فى المسيحية من بعد بكل الأجناس والطبقات ؛ والزهد وعدم الزواج المأخوذين عن الكلبيين واللذين أثمرا ذلك العدد العظيم من الرهبان المسيحيين ؛ والحق أنه لم يكن بين زينون الطرسوسى وبولس الطرسوسى إلا خطوة واحدة يخطوها العالم فى الطريق إلى الدمشق .

ولقد كانت عناصر كثيرة فى العقيدة الرواقية أسيوية فى أصلها ، وكان بعضها سامياً خالصاً — ولم تكن الرواقية فى جوهرها إلا مرحلة واحدة أولية من مراحل انتصار الشرق على الحضارة الهلنية . إن بلاد اليونان لم تعد بلاد اليونان قبل أن تفتحها رومة .

الباب الثلاثون

مجيء رومة

الفصل الأول

بيرس

يقول بوليبيوس متسائلا : « ومنذا الذى تبلغ به الحقارة أو البلادة حداً لايريد معه أن يعرف بأية وسائل وفى ظل أى نظام سياسى أفلح الرومان فى أن يخضعوا إلى سلطانهم فى أقل من خمسين عاماً جميع العالم المعمور — وهو عمل فذ لا نظير له فى التاريخ ؟ ومنذا الذى أولع بغير هذه الدراسات ولعاً يحمله على أن يرى أن أية دراسة أخرى أجل شأناً من هذه الدراسة[1] ؟ » . ذلك سؤال لانراه مخطئاً فى إلقائه ، وقد يشغلنا نحن فيما بعد ، ولكن الفتوح قد توالت وكثرت مذ كتب بوليبيوس تاريخه إلى درجة لا نستطيع معها أن نصرف كثيراً من الوقت فى دراسة شىء منها . ولقد حاولنا فى الفصول السابقة أن نظهر أن السبب الرئيسى الذى يسر للرومان فتح بلاد اليونان هو انحلال الحضارة اليونانية من الداخل ؛ ذلك أنه ما من أمة عظيمة قد غلبت على أمرها إلا بعد أن دمرت هى نفسها . وقد دمرت بلاد اليونان نفسها بتقطيع غاباتها ، وإتلاف تربتها ، واستنفاد ما فى باطن أرضها من معادن ثمينة ، وبتحول طرق التجارة عنها ، واضطراب الحياة الاقتصادية نتيجة لاختلال النظام السياسى ، وفساد الدمقراطية وانحلال الأسر الحاكمة ، وفساد الأخلاق ، وانعدام الروح الوطنية ، ونقص السكان وتدهور قوتهم الجسمية ، واستبدال الجنود المرتزقة بالجيوش

الوطنية ، وما أدت إليه الحروب الأهلية من تطاحن بين الإخوة وإتلاف لموارد البلاد ، والقضاء على الكفايات بالفتن المتضادة الصماء — كل هذه قد استنفدت موارد هلاس فى الوقت الذى كانت فيه الدولة الصغيرة القائمة على ضفة نهر التيبر ، والتى كانت تحكمها أرستقراطية صارمة بعيدة النظر ، تدرب جحافلها القوية المجندة من طبقة الملاك ، وتتغلب على جيرانها ومنافسيها ، وتستولى على ما فى البحر الأبيض المتوسط من طعام ومعادن ، وتزحف عاما فعاما على المستعمرات اليونانية فى جنوبى إيطاليا . لقد كانت هذه المحلات القديمة فى سابق عهدها تزهو بثرائها ، وحكمائها ، وفنونها ، ولكنها الآن قد أفقرتها الحروب وغارات ديونيشيوس وسلبه ونهبه ، ونشأة رومة وتقدمها ومنافستها لهذه المستعمرات فى مركزها التجارى . يضاف إلى هذا أن القبائل الأصلية التى كان اليونان قد استعبدوا أفرادها أوطردوهم إلى ما وراء حدودها ، قد ازدادت وتضاعفت ، فى الوقت الذى كان سادتها ينشلون للنعيم والراحة بقتل أطفالهم وإسقاط الحاملات من نسائهم ؛ وما لبث أبناء السكان الأصليين أن أخذوا ينازعون المستعمرين السيطرة على جنوبى إيطاليا ، واستغاثت المدن الإيطالية برومة فأغاثتها والتهمتها .

وخشيت تاراس بأس رومة النامية فاستعانت بملك إيبروس الشاب الجرىء . وكانت الثقافة اليونانية قد امتدت إلى هذه البلاد الجبلية الجميلة المعروفة الآن باسم ألبانيا الجنوبية ، منذ أن شاد الدوريون معبداً لزيوس فى دودنا **Dodona** ، ولكن هذه الثقافات ظلت مزعزعة غير موطدة الأركان(*) . حتى عام ٢٩٥ حين تولى پرس **Pyrrhus** ملك الملوسيين **Mollosians** وهم أقوى القبائل الإيپروسية وأعظمها سلطاناً . وكان پرس هذا يدعى أنه من سلالة البطل أخيل ، وكان وسيما ، شجاعا ، وحاكما مستبدا ، ولكنه محبوب . وكان رعاياه

(*) وعثر علماء الآثار الإيطاليون فى عام ١٩٢٩ عند بترينو **Butrino** (وهى بثروتم **Buthrotum** القديمة) على طائفة كبيرة من آثار المبانى والتماثيل الباقية من عهد الحضارتين اليونانية الرومانية ، ومنها دار تمثيل يونانية من القرن الثالث قبل الميلاد .

يعتقدون أن فى مقدوره أن يشفيهم من مرض الطحال بوضع قدمه اليمنى على ظهورهم وهم مستلقون على الأرض ، ولم يكن هو يأبى هذا العلاج على أفقر فقير فى البلاد[٢] . ولما استغاث به أهل تارنتم رأى فى هذا فرصة له مغرية : فقد قدر أنه يستطيع فتح رومة ، وهى الخطر الذى يتهدده من الغرب ، كما فتح الإسكندر بلاد الفرس وهى الخطر الذى كان يتهدده من الشرق ، فيثبت بذلك نسبه بيسالته . ولهذا عبر البحر (الأدرياوى) فى عام ٢٨١ على رأس قوة مؤلفة من ٢٥,٠٠٠ من المشاة ، وثلاثة آلاف من الفرسان ، وعشرين فيلا . وكان اليونان قد أخذوا الفيلة كما أخذوا التصوف عن الهند . والتقى بالرومان عند هرقلية Heracleia ، وانتصر عليهم « نصرا پيرسيا » : أى أن خسارته فى هذا النصر كانت عظيمة ، وأن موارده من الرجال والعتاد قد نقصت إلى حد جعله يرد على أحد أعوانه حين هنأه به بهذه العبارة التى أضحت مثلا سائراً مدى الأجيال إذ قال إن نصراً آخر مثله كفيل بأن يقضى عليه[٣]. وأرسل الرومان كيس فبريسيوس ليفاوضه فى أمر تبادل الأسرى . ويروى أفلوطرخس ما دار وقتئذ من الحديث فيقول :

وفى أثناء العشاء دار الحديث حول كثير من الشئون ، وكان أهمها كلها شئون بلاد اليونان وفلاسفتها . وتحدث قنياس Cineas (الدبلوماسى الإپيروسى) عن أبيقور ، وأخذ يشرح آراء أتباعه فى الآلهة ، والدولة ، وأغراض الحياة ، مؤكداً أن اللذة أكبر سعادة للإنسان ، ووصف الشئون العامة بأن لها أسوأ الأثر فى الحياة السعيدة لأنها تسبب لها الاضطراب . وقال إن الآلهة لاشأن لها بنا جميعاً ولاتعنى بنا أية عناية ، فهى مجردة من الرحمة بنا أو الغضب علينا ، وهى تحيا حياة لاتقوم فيها بعمل وتقضيها فى النعيم والترف . وقبل أن ينتهى قنياس من كلامه صاح فبريسيوس قائلا لپيرس : « إى هرقل ! . دع پيرس والسمنيين(*) يمتعون أنفسهم بمثل هذه الآراء ما داموا فى حرب معنا[٤] » .

(*) أقوى أعداء رومة فى إيطاليا .

وتأثر پيرس بما رآه من صفات الرومان ، فدعاه هذا كما دعاه يأسه من تلقى العون الكافي من يونان إيطاليا ، إلى أن يرسل قنياس إلى رومة ليفاوضها فى الصلح . وأوشك مجلس الشيوخ أن يوافق على هذا ، ولكنه فوجئ بأپيوس كلوديوس Appius Claudius ، وكان أعمى يشرف على الموت ، يحمل إليه ليحتج على عقد الصلح مع جيش أجنبي فى أرض إيطالية . فلما عجز پيرس عن نيل بغيته اضطر أن يواصل الحرب ، وانتصر انتصاراً انتحارياً آخر فى أسكولوم Asculum ، ثم عاوده اليأس من الفوز على رومة فعبر البحر إلى صقلية معتزماً أن يخلصها من القرطاجيين . وفيها صد القرطاجيين ببطولته المشهورة ، ولكن يونان صقلية كانوا أجبن من أن يخفوا لنجدته ، أو لعله كان يحكمهم حكما استبداديا كما يحكم كل طاغية . وسواء كان هذا أو ذاك هو السبب فإن أهل صقلية لم يمدوه بما يحتاجه من العون ، فاضطر إلى ترك الجزيرة بعد أن ظل يحارب فيها ثلاث سنين . ونطق وهو يغادرها بنبوءته المأثورة : « أى ميدان قتال أتركه لقرطاجة ورومة ! » ولما وصل إلى إيطاليا كانت قواته قد نقصت نقصا كبيراً ، فهزم فى بننتوم Beneventum (٢٧٥) ، حيث أثبتت الكتائب المتحركة الخفيفة السلاح لأول مرة تفوقها على الصفوف المتراصة الصعبة الحركة ، فكان ذلك بداية مرحلة جديدة فى تاريخ الحروب[٥] .

وعاد پيرس إلى إپيروس ، كما يقول الفيلسوف أفلوطرخس :

« بعد أن قضى فى هذه الحروب ست سنين ؛ ومع أنه قد أخفق فى أغراضه فقد احتفظ بشجاعة لم تنل منها كل هذه المصائب ، ويضعه الناس لكثرة تجاربه الحربية ، وبأسه ، وجرأته ، فى منزلة أعلى من منزلة سائر أمراء عصره . ولكن الذى ناله بشجاعته قد خسره مرة أخرى بسبب آماله المتطرفة ؛ وكانت رغبته فى نيل مالا يملك سببا فى ضياع ما كان يملك[٦] » .

واشتبك بيرس وقتئذ فى حروب جديدة ثم قتل بقرميدة ألقتها عليه عجوز فى أرجوس . واستسلمت تراس لرومة فى تلك السنة نفسها .

وبعد ثمان سنين من ذلك الوقت بدأت رومة كفاحها الطويل مع قرطاجة ، وهو الكفاح الذى دام مائة عام ، من أجل السيادة على غربى البحر الأبيض المتوسط . ونزلت قرطاجة لرومة بعد حرب دامت جيلا كاملا عن سردينية ، وقورسقة ، والأجزاء التى كانت تمتلكها فى صقلية . وارتكبت سرقوسة فى الحرب اليونانية الثانية تلك الغلطة الموبقة فانضمت فى هذه الحرب إلى قرطاجة ، فأجاعها مرسلس Marcellus حتى استسلمت . وانطلق المنتصرون فى المدينة ينهبون ويسلبون حتى لم يبقوا فيها على شىء ولم تقم لها بعد ذلك قائمة . ويقول ليفى إن مرسلس « نقل إلى رومة ما كانت تزدان به سرقوسة من تماثيل كانت غاصة بها ... وقد بلغت الغنائم حداً أكثر مما كان يحصل عليه لو أن قرطاجة نفسها هى التى فتحت » . ولم يحل عام ٢١٠ حتى كانت صقلية كلها قد سقطت فى يد رومة جزاء لها على فعلها . واستحالت المدينة هريا يورد الحبوب لرومة وعادت مزرعة يقوم فيها بالعمل كله تقريباً عبيد لا آمال لهم فى الحياة ؛ ووضعت القيود الشديدة على الصناعة والتجارة ، ونقلت ثروتها إلى رومة ، ونقص عدد سكانها نقصاً كبيراً ، واختفت صقلية من تاريخ الحضارة مدى ألف عام .

الفصل الثاني

رومة المحرِّرة

لقد كان يساعد رومة في كل خطوة من خطى توسعها أخطاء أعدائها . من ذلك أنها أرسلت في عام ٢٣٠ رجلين من أهلها إلى أشقودرة Scodra عاصمة اليريا Illyria (شمالي ألبانيا) ليحتجا على هجوم القراصنة الإليريين على السفن الرومانية ، فردت الملكة توتا Teuta ، وكانت تقاسم القراصنة الأسلاب ، على احتجاجهما بقولها « أن ليس من عادة الحكام الإليريين أن يمنعوا رعاياهم من الاستحواذ على الغنائم في البحار[٨] » . ولما أن أنذرها رسول من قبل رومة بالحرب أمرت بقتله . وسرت رومة إذ تهيأت لها هذه الحجة الرخيصة للاستيلاء على ساحل دلماشيا Dalmatia ؛ فسيرت حملة إلى إليريا فرضت عليها حماية رومة ولم تكد تكلفها من العناء في عام ٢٢٩ ق . م أكثر مما كلفتها حملة ١٩٣٩م(*). وأصبحت كرسيرا Corcyra (كورفو)، وإبدamوس Epidamus وغيرهما من المحلات اليونانية مدنا تابعة لرومة . ولما كانت التجارة اليونانية قد عطلتها أيضاً أعمال القرصنة الإليرية فإن أثينة وكورنثة ، والعصبتين اليونانيتين قد رحبت برومة وعدتها منقذة لها ، وقبلت سفراءها ، ورضيت أن يشترك الرومان في الطقوس الإليزينية الخفية وفي ألعاب برزخ كورنثة .

وفي عام ٢١٦ مزق هنيبال الجيش الروماني في كاني شر ممزق . وزحف بجيشه حتى دق أبواب رومة . وبينما كانت رومة تواجه أشد أزمة في تاريخ الجمهورية عقد فيليب الخامس ملك مقدونيا حلفا مع هنيبال وأعد العدة لغزو

(*) يقصد الحملة التي سيرتها إيطاليا في عهد موسوليني على ألبانيا واستولت عليها وأخرجت منها مليكها . (المترجم)

إيطاليا (٢١٤) . وعقد مؤتمر فى نوبكتس Naupactus (٢١٣) قام فيه أجلوس Agelaus مندوب إيتوليا يناشد اليونان جميعاً أن يوحدوا صفوفهم فى هذه الحرب المقدونية الأولى ضد القوة التى أخذت تنمو فى الغرب ؟

« ما أحسن أن يمتنع اليونان عن أن يحارب بعضهم بعضاً ، وأن يروا أن أعظم النعم التى تنعم بها عليهم الآلهة أن ينطقوا على الدوام بقلب واحد وصوت واحد ، وأن يسيروا وأيديهم متماسكة ، كما يسير الرجال الذين يخوضون نهراً ، فيصدوا البرابرة المغيرين ويوحدوا صفوفهم ليحافظوا على أنفسهم وعلى مدنهم .. ذلك أنه لاجدال فى أن من أسعد الأشياء وأقلها احتمالا ، سواء انتصر القرطاجيون على الرومان أو انتصر الرومان على القرطاجيين ، أن يقنع المنتصرون بالسيادة على إيطاليا وصقلية ، بل الذى لاريب فيه أنهم سيأتون إلى بلادنا وأن أطماعهم ستمتد إلى أبعد ما تخوله لهم العدالة . لهذا أضرع إليكم جميعاً أن تحصنوا أنفسكم من هذا الخطر الداهم ، وأتوجه بندائى هذا إلى الملك فليب على الأخص . إن خير ضمان لك يامولاى ، ليس هو إنهاك اليونان ، وجعلهم فريسة سهلة للغزاة ، بل هو عكس هذا ، هو أن تعنى بسلامة كل إقليم من أقاليم اليونان كأنه جزء لا يتجزأ من أملاكك الخاصة »[٩]

وأنصت إليه فليب فى أدب جم ، وأصبح إلى وقت ما معبود بلاد اليونان . ولكن معاهدته مع هنيبال ، إذا جاز لنا أن نصدق ليفى المتطرف فى وطنيته ، قد نصت على أن تساعد قرطاجنة فليب ، إذا خرجت من الحرب القائمة وقتئذ ظافرة ، على إخضاع جميع بلاد اليونان الأصلية إلى مقدونية ، مقابل هجومه على إيطاليا . وربما كان سبب الميثاق الذى عقدته معظم الدول اليونانية . ومنها عصبة أجلوس الإيتولية Agelaus Aetolian League ، مع رومة ضد مقدونية أن هذه الولايات قد عرفت شروط هذا الاتفاق ، وكانت نتيجة هذا الميثاق أن وضعت العراقيل فى سبيل فليب فى داخل البلاد وتأجل غزوه إلى إيطاليا

إلى أجل غير مسمى ، وفى عام ٢٠٥ عقدت إيطاليا معاهدة مع فليب لكى توجه اهتمامها كله إلى هنيبال ؛ وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت بدد سپيو الأكبر شمل القرطاجيين فى زاما Zama . ولما بلغ القرن الأخير العظيم من قرون الحضارة اليونانية غايته جاءت مصر ، ورودس ، وبرجوم إلى رومة لتساعدها على فليب . واستجابت رومة لهذه الدعوة بأن أثارت الحرب المقدونية الثانية . ووجد فليب جميع البلاد اليونانية تقريباً ومعها رومة تقف فى وجهه ، فحارب بشراسة الوحش إذا وقع فى المحظور . فلم يتردد فى أن يستخدم كل أنواع الغدر ، أو سرقة كل ما يوصله إلى غرضه ، أو التنكيل بالأسرى تنكيلا يدفع كل رجل فى أبيدوس ، حين بدا لهم أن حصار فليب لمدينتهم لا يمكن مقاومته ، أن يقتل زوجته وأطفاله ثم يقتل بعدئذ نفسه[١١] . وفى عام ١٩٧ أوقع تيتس كونكتيوس فلامنينوس Titus Quinctius Flamininus ، وهو رجل ينتمى إلى ذلك الصنف من الأشراف الذين قلبوا پوليبيوس مناصراً متحمساً للرومان ، أوقع بفيليب هزيمة منكرة عند سينوسفلى Cynoscephalea وسقطت على أثرها كل مقدونية — أو بالأحرى بلاد اليونان كلها — تحت رحمة رومة . وقد استاء من فلامنينوس أحلافه الإيتوليون (وقد ادعوا أنهم هم الذين كسبوا المعركة) لأنه سمح لفليب بعد أن أمن جانبه لشدة ضعفه ، أن يحتفظ بعرشه واكتفى بأن فرض عليه غرامة باهظة واستولى على وسق سفينة من الأسلاب . وكانت حجة فلامنينوس فى المطالبة بإبعاد فليب عن العرش أنه فى حاجة إلى مقدونية لوقاية البلاد من البرابرة الضاربين فى شمالها .

وكان القائد الرومانى قد تعلم اللغة اليونانية فى تارنتم (وهو الاسم الذى أطلقه الرومان على تاراس) وعرف ما فى الأدب اليونانى ، والفلسفة اليونانية ، والفن اليونانى من بهجة وروعة . ويبدو أنه كان يعتزم مخلصا أن يحرر دول المدن اليونانية من سيطرة مقدونية ، وأن يتيح لها كل فرصة تمكنها من أن تستمتع

بالحرية والسلم . ولما استطاع بعد صعاب جمة أن يقنع المبعوثين الرومان بأن هذه خطة حكيمة ، ذهب إلى الألعاب البرزخية فى كورنثة (١٩٦) ، حيث كان جميع العالم اليونانى الخطير الشأن مجتمعاً (وكان كل واحد يحدث جاره ، على حد قول پوليبيوس ، بما يستطيع الرومان وقتئذ أن يفعلوه) وأعلن فى الحاضرين على لسان مناد أن « مجلس الشيوخ الرومانى ، وأن تيتس كونكتيوس القنصل الأكبر بعد أن هزما الملك فليب والمقدونيين يتركان الأقوام الآتى ذكرهم بعد أحراراً ، فلا يضعان فى بلادهم حاميات عسكرية ، ولا يطالبانهم بجزية ، يحكمون أنفسهم بمقتضى قوانينهم . وهؤلاء الأقوام هم الكورنثيون ، والفوقيون ، واللكريون ، والعوبيون ، والآخيون الفثيوتيون ، والمجنزيون ، والساليون ، والبرهيبيون(*) — أى جميع سكان بلاد اليونان القارية الذين لم يكونوا من قبل أحراراً . وصاح الجزء الأكبر من المجتمعين أن يعاد هذا النداء لأنهم لم يستطيعوا أن يصدقوا هذا الإجراء الذى أصبحوا بمقتضاه أحراراً ، والذى لم يعهدوا له من قبل مثيلا ، فلما أن أعاده المنادى « ارتفعت فى الجو عاصفة من التهليل » على حد قول پوليبيوس « ليس من السهل على من يستمعون هذه القصة الآن أن يتصوروا قوتها»[١٢]. وارتاب الكثيرون منهم فى صدق هذا الإعلان وفى إخلاص أصحابه فيه ، وتوقعوا أن تكون من ورائه حيلة ماكرة ، ولكن فلامنينوس شرع من ذلك اليوم ينقل الجنود اليونان من كورنثة ، ولم تحل سنة ١٩٤ حتى كان جيشه كله قد عاد إلى إيطاليا . ورحبت به اليونان وعدته « منقذاً ومحرراً » وبدت مغتبطة سعيدة تعيش فى آخر أيام حريتها .

(*) Corinthians, Phocians, Locrians, Euboeans, Phthiotic Achaeans, Maegnesians, Thessalians, & Perrhaebians.

الفصل الثالث

رومة الفاتحة

غير أن الإيتوليين لم يرضوا عن هذه الخطة ؛ ذلك أن بعض المدن التى حررتها رومة كانت من قبل تحت سيطرة إيتوليا فلم تعد وقتئذ كما كانت من قبل أعضاء فى العصبة الإيتولية . لهذا لم تكد الحرب المقدونية الثانية تضع أوزارها حتى دعا الإيتوليون أنتيوخوس الثالث لإنقاذ بلاد اليونان من رومة . وألفت برجموم ولمپسكس نفسهما بين الغاليين القلقين فى الشمال وقوة السلوقيين المتزايدة فى الجنوب ، فاستغاثتا برومة لتساعدهما على أنتيوخوس . وأرسل مجلس الشيوخ سپيو أفركانس Scipio Aricanus بطل زاما Zama لمعونتهما . واستطاع القواد الرومان بعدد قليل من الفيالق الرومانية وجنود يومنيز الثانى أن يهزموا أنتيوخوس فى مجنيزيا ، ثم اتجهوا نحو الشمال وطردوا الغاليين ، ووسع الرومان ، على أثر هذا النصر حمايتهم حتى شملت جميع ساحل آسية الممتد على البحر الأبيض المتوسط ، ثم عادوا بعدئذ إلى إيطاليا . وحمد لهم يومنيز فعلهم ولكن بلاد اليونان الأصلية عدته خائنا لهلاس لأنه استعان بالرومان البرابرة على مواطنيه اليونان .

ذلك أن بلاد اليونان المذبذبة كانت قد أخذت تندم على قبولها ما أسدته إليها منقذتها غير المثقفة القادمة إليها من الغرب . فقال أهلها إن فلامنينوس وخلفاءه ، وإن كانوا قد ردوا إلى البلاد حريتها ، قد نالوا أجرهم عن هذا وهو الغنائم الكثيرة التى استولوا عليها فى كل مدينة أيدت فليب أو أنتيوخوس أو الإيتوليين حتى بات اليونان يخشون أن يتكرر هذا التحرر مرة أخرى . وقد ظلت الأسلاب التى استولى عليها فلامنينوس بعد انتصاراته فى الحروب اليونانية تمر بلا انقطاع أمام أعين الرومان ؛ ففى اليوم الأول أسلحة ودروع وتماثيل

من الرخام والبرنز لا حصر لها ، وفى اليوم الثانى ١٨,٠٠٠ رطل من الفضة ، و٣,٧١٤ رطلا من الذهب ، ١٠٠,٠٠٠ قطعة من العملة الفضية ؛ وفى اليوم الثالث ١٤٤ تاجا من تيجان الأمراء والأشراف[١٣] . يضاف إلى هذا أن الرومان كانوا قد أيدوا ، وظلوا وقتئذ يؤيدون على أيدى ممثليهم ، الطبقات الغنية فى بلاد اليونان على المواطنين الفقراء ، وحرموا مظاهر حرب الطبقات . ولم ير اليونان أن يشتروا السلم بهذا الثمن الغالى ، بل كانوا يريدون أن يكونوا أحراراً فى تسوية ما بينهم من نزاع ، وأن ينفسوا عما فى صدورهم من مطامع إقليمية قومية؛ ولم يكونوا يطيقون الحياة الرتيبة الخالية من التغيير . وسرعان ما قامت الأحلاف المتنافسة ينازع بعضها بعضا ،ودب الشقاق والانقسام بينها فى كل مكان . وأخذت كل مدينة وكل جماعة تتقدم بمطالب خاصة إلى مجلس الشيوخ الرومانى ، وبعث مجلس الشيوخ لجانا لبحث هذه المطالب والفصل فيها . وكانت أغلال السيطرة الأجنبية خفية غير بادية للعين ولكنها كانت مع ذلك حقيقة واقعة ، وأخذ اليونان جميعهم ماعدا الأغنياء منهم يحسون بهذه الأغلال تضيق على أعناقهم عاما بعد عام ويتمنون أن ينقضى عهد هذه الحرية . وشرع مجلس الشيوخ يستمع إلى أعضائه الذين كانوا يقولون إن بلاد اليونان لا يمكن أن يستتب فيها الأمن والنظام إلا إذا فرضت عليها رومة سيطرتها الكاملة .

وتوفى فليب الخامس فى عام ١٧٩ وخلفه على العرش ابنه پرسيوس بعد فترة سفك فيها الدماء . وكانت السبعة عشر عاما التى سبقت جلوسه على العرش والتى ساد فيها السلم قد أعادت إلى مقدونية رخاءها الاقتصادى ، وأوجدت فيها جيلا جديداً من الشبان تطعم بهم نار الحرب . ودخل پرسيوس فى مفاوضات مع سلوقس الرابع لعقد حلف بين بلديهما وتزوج بابنة سلوقس . وانضمت رودس إلى هذا الحلف وأرسلت أسطولا ضخما ليحرس العروس فى طريقها إلى زوجها . وابتهجت بلاد اليونان جميعها ، ورأت فى پرسيوس

أملا حياً يقف فى وجه سلطان رومة . وخشى يومنيز الثانى على استقلال برجوم فهرول إلى رومة وألح على مجلس الشيوخ أن يبادر إلى تدمير مقدونية إبقاء على مصالح هذا المجلس نفسه . وكاد يومنيز أن يفقد حياته فى مشاجرة خاصة وهو عائد إلى بلاده . ورأت رومة أن من مصلحتها أن تفسر هذا الشجار بأنه مؤامرة دبرها پرسيوس لاغتيال الملك، وتبادل الطرفان عدة مهاترات دبلوماسية وطنية أعقبها اشتعال نار الحرب المقدونية الثالثة . ولم يجرؤ على مساعدة پرسيوس إلا إبيروس وإليريا ، أما دول اليونان الأخرى فقد بعثت إليه برسائل سرية تبدى فيها عطفها عليه ولكنها لم تفعل أكثر من هذا . وفى عام ١٦٨ فرق إعليوس بولوس Aemilius Paulus الجيش اليونانى فى بدنا ، وخرب سبعين مدينة مقدونية ، ونفى الطبقات العليا من أهلها إلى إيطاليا ، وقسم المملكة أربع جمهوريات مستقلة استقلالا ذاتياً ولكنها تؤدى الجزية إلى رومة ، وحرم عليها أن تتبادل فيما بينها التجارة والصلات أياً كان نوعها . وسجن پرسيوس فى إيطاليا وقضى فى السجن سنتين توفى بعدهما مما لقيه من سوء المعاملة . وخربت إبيروس وبيع مائة ألف من أهلها أرقاء بسعر ريال أمريكى لكل واحد منهم[14] وعوقبت ردوس — وهى التى لم يكن لها نصيب جدى فى الحرب — بتحرير ممتلكاتها الممتدة على سواحل آسية ، وبإنشاء مرفأ حر منافس لها فى ديلوس واستحوذ الرومان على أوراق پرسيوس الخاصة ، ونفى أوزج فى السجن كل من مد له يد المعونة أو أظهر العطف عليه . ونقل إلى إيطاليا ألف من الرجال البارزين فى العصبة الآخية ومنهم پوليبيوس، حيث ظلوا فى النفى ستة عشر عاما مات فى خلالها سبعمائة منهم .ولم يكن إعجاب بلاد اليونان السابق برومة المحررة أشد من حقدها وقتئذ على رومة الفاتحة .

وكان لهذه القسوة من جانب المنتصرين عواقب لم يكونوا يريدونها . فقد كان إضعاف رودس سبباً فى القضاء على ما كانت تقوم به من حراسة فى بحر إيجه ، وانتعشت على أثر هذا القرصنة الغاضبة على التجارة المشروعة . كذلك

كان إخراج هذا العدد الكبير من الأشراف سبباً فى إخلاء الميدان للزعامة المتطرفة فى مدن العصبة الآخية ، وتجددت الفتن والحروب الأهلية وبلغت فيها أوجها . واستمسك الأغنياء فى هذه الحروب بحماية رومة ، وطالب الفقراء بإخراج الأغنياء والقوات الرومانية من البلاد . وفى عام ١٥٠ عاد من إيطاليا من كان باقيا فيها على قيد الحياة من الأخيين المنفيين ، وكان عددهم لا يتجاوز المائة والخمسين ، وانضموا إلى المطالبين بالقضاء على سلطان الرومان فى بلاد اليونان . وأرادت رومة أن تضعف قوة الآخيين فأرسلت إلى بلاد اليونان بعثة سياسية أمرت كورنثة ، وأركنوس ، وأرجوس بأن تخرج من الحلف . وردت سيدات كورنثة على هذا الأمر بأن أفرغت دلاء من الأقذار على رءوس المبعوثين(١٥) ؛ وفى عام ١٤٦ أعلنت العصبة حرب التحرير ، وكانت ترجو أن اشتباك رومة فى الحرب فى أسبانيا وإفريقية سيشغل جيوشها فيحملها على أن تعقد معها صلحاً ترتضيه ، وطغت على مدائن العصبة موجة من الحماسة الوطنية فحرر العبيد وسلحوا ، وأعلن إيقاف أداء الديون ، ووعد الفقراء بقسط من الأرض الزراعية ، وألقى الأغنياء التعساء أنفسهم بين الاشتراكية ورومة ، فقدموا كارهين جواهرهم وأموالهم لقضية الحرية ، ونفضت أثينة واسپارطة أيديهما من النزاع كله وبقيتا بمعزل عنه ، أما بؤوتية ، ولكريا ، وعوبية ، فقد انضمت بشجاعة إلى حرب التحرير . وثارت جمهوريات مقدونية الأربع علناً على رومة .

واستشاط مجلس الشيوخ الرومانى غضباً فسير إلى بلاد اليونان جيشاً بقيادة ممميوس وأسطولا بقيادة متلوس Metillus . وقضت قوة الجيش والأسطول مجتمعين على كل مقاومة ، واستولى ممميوس Mummius فى عام ١٤٦ على كورنثة حصن العصبة الحصين . وأشعل الفاتحون النار فى المدينة الغنية مدينة التجار والعاهرات ، وذبحوا جميع رجالها وباعوا جميع نسائها وأطفالها فى أسواق الرقيق . ولعلهم أرادوا بعملهم هذا أن يقضوا على منافس تجارى لرومة فى شرق البحر الأبيض المتوسط كما كان سپيو وقتئذ يقضى بتدمير قرطاجة على

منافس لها فى غربه ، أو لعلهم أرادوا أن يلقوا على بلاد اليونان درساً مثل الدرس الذى ألقاه الإسكندر على طيبة من قبل . ونقل مميوس إلى إيطاليا كل ما استطاع نقله من الأموال ، ومظاهر الثراء ومنها جميع التحف الفنية التى كان الكورنثيون يجملون بها مدينتهم وبيوتهم . ويحدثنا پوليبيوس أن الجنود الرومان كانوا يستخدمون الرسوم الفنية ذات الشهرة العالمية لوحات فى لعب الداما أو النرد . وحلت رومة العصبة ، وقتلت زعماءها ، وأنشأت من بلاد اليونان ومقدونية ولاية تحت حكمها . وفرضت على بؤوتية ، ولكريس ، وكورنثة ، وعوبية جزية . أما أثينة واسپارطة فلم تمسسهما بسوء وأجيز لهما أن تبقيا خاضعتين لقوانينهما . وأيدت رومة حزب الملاك والنظام فى جميع البلاد وأعلنت أن كل محاولة تبذل لإشعال نار الحرب ، أو الفتن ، أو تبديل الدستور ، تعد خروجا على القانون . وهكذا وجدت المدن الهائجة المضطربة السلم فى آخر الأمر .

الخاتمـــة

ما ورثناه عن اليونان

لم تمت الحضارة اليونانية حين استولت رومة على بلاد اليونان، بل عاشت بعد ذلك عدة قرون، ولما أن ماتت أورثت أمم أوربا والشرق الأدنى تراثا ليس له مثيل ، فقد أخذت كل مستعمرة يونانية تصب ماء حياة الفن اليونانى والفكر اليونانى فى الدم الثقافى الذى يجرى فى عروق ماىجاورها من البلاد — فى أسبانيا وبلاد الغالة ؛ وفى إترووريا وروهة ؛ وفى مصر وفلسطين ؛ وفى سوريا وآسية الصغرى ؛ وعلى طول شواطئ البحر الأسود . وكانت الأسكندرية هى الثغر الذى تصدر منه الأفكار كما تصدر منه السلع . فمن المتحف والمكتبة انتشرت مؤلفات شعراء اليونان ، ومتصوفتهم ،وفلاسفتهم وعلمائهم كما انتشرت آراؤهم على يد الطلاب والعلماء فى كل مدينة فى حوض البحر المتوسط وملتقى طرقه . وأخذت رومة تراث اليونان فى شكله الهلنستى : فأخذ كتاب مسرحياتها عن مناندر وفليمون ، وقلد شعراؤها أساليب الأدب الإسكندرى وأوزانه وموضوعاته ؛ واستخدم فنها الصناع اليونان والأشكال اليونانية ؛ واندمجت فى شرائعها قوانين المدن اليونانية ، وصيغ نظامها الإمبراطورى المتأخر على مثال الملكيات اليونانية — الشرقية . وبذلك يصح القول بأن الهلينية قد فتحت رومة بعد الفتح الرومانى كما كانت بلاد الشرق تفتح بلاد اليونان ، فكان كل امتداد لسلطان الرومان انتشاراً للحضارة اليونانية . وعقدت الإمبراطورية البيزنطية قران الحضارة اليونانية والحضارةالأسيوية(*) ،ونقلت بعض تراث اليونان

(*) فى وسعنا أن نؤرخ هذا تسفا بعام ٣٢٥ ق . م ، حين أسس قسطنطين مدينة القسطنطينية ، وأ [illegible] البيزنطية المسيحية تحل محل الثقافة « الوثنية » اليونانية فى شرق البحر [illegible]

إلى الشرق الأدنى وصقالبة الشمال . وأمسك المسيحيون السوريون بشعلة الحضارة اليونانية وأسلموها للعرب واخترق بها هؤلاء إفريقية إلى أسبانية . وأخذ العلماء البيزنطيون ، والمسلمون ، واليهود ينقلون الروائع اليونانية إلى إيطاليا أو يترجمونها لها ؛ لينشئوا بها أول الأمر فلسفة المدرسيين ، ثم يوقدون بها شعلة النهضة الأوربية ، وأخذت روح اليونان منذ ميلاد العقل الأوربى للمرة الثانية تسرى فى الثقافة الحديثة سريانا بلغ من قوته أن « جميع الأمم المتحضرة أضحت اليوم مستعمرات لهلاس فى كل مايتصل بالنشاط الذهنى »(*)(١)

وإذا لم ندخل فى التراث اليونانى ما اخترعه اليونان فحسب بل أدخلنا فيه أيضا ما أخذوه عن ثقافات أقدم من ثقافاتهم ونقلوه بشتى الطرق إلى ثقافتنا ، وجدنا هذا التراث فى كل ناحية من نواحى الحياة الحديثة . فصناعاتنا اليدوية ، وفن التعدين ، وأصول الهندسية العملية ، وأساليب المال والتجارة ، وتشريعات العمل ، وتنظيم التجارة والصناعة — كل هذا قد انتقل إلينا خلال مجرى التاريخ من رومة ، ومن بلاد اليونان عن طريق رومة . فدمقراطياتنا ودكتاتورياتنا على السواء ترجعان إلى المثل اليونانية ؛ ومع أن اتساع رقعة الدول قد أوجد نظاما تمثيلياً لم يكن معروفاً لهلاس ، فإن الفكرة الدمقراطية القائلة بقيام حكومة مسئولة أمام المحكومين ، وفكرة المحاكمة على أيدى المحلفين ، والحريات المدنية التى تشمل حرية الفكر ، والتعبير ، والكتابة ، والاجتماع ، والعبادة ، كل هذه قد استمدت قوتها من التاريخ اليونانى . وهذه هى الخصائص التى تميز اليونانى عن الشرق ، والتى وهبته استقلالا فى الروح وفى المغامرة جعله يسخر من الخضوع والاستسلام ولقصوره الذاتى .

(*) إن ازدياد معلومات عن الحضارتين المصرية والأسيوية ليضطرنا إلى تعديل كبير فى قول سير هنرى مين Sir Henry Maine المأثور والمبالغ فيه كثيراً وهو : «وإذا استثنينا قوى الطبيعة العمياء ، لم نجد شيئا يتحرك فى هذا العالم إلا وهو يونانى فى أصله»(٢) .

فمدارسنا وجامعاتنا ، ومدارس التدريب الرياضي وملاعبه ، والمباريات الرياضية والأولمبية ، كل هذه ترجع أصولها إلى بلاد اليونان . ونظرية تحسين النسل ، وفكرة ضبط الشهوة الجنسية ، والسيطرة على الغرائز والعواطف ، وعبادة الصحة والحياة الطبيعية ، ومذهب إشباع الحواس أكمل إشباع ، كل هذه وجدت صيغها التاريخية في بلاد اليونان . وقد تفرع الجزء الأكبر من الدين المسيحي والعبادات المسيحية (ولفظا Christian و theology نفسهما لفظان يونانيان) من الطقوس الخفية التي كانت منتشرة في بلاد اليونان ومصر ، ومن المراسم الإليوزينية والأرفية ، والأزيريسية ؛ ومن العقيدة اليونانية القائلة بموت الابن المقدس لتخليص الجنس البشري ثم بعثه من بين الموتى ، ومن الطقوس اليونانية والمواكب الدينية وحفلات التطهير ، والتضحية المقدسة ، والطعام العام المقدس ، ومن الآراء اليونانية عن الجحيم ، والشياطين ، والمطهر، والغفران ، والجنة ، ومن النظريات الرواقية والأفلاطونية الجديدة عن الكلمة والخلق ،واحتراق العالم في آخر الأمر . ونحن مدينون بخرافاتنا نفسها لما كان لدى اليونان من أغوال وساحرات ، ولعنات ، وتفاؤل وتشاؤم ،وأيام منحوسة . ومن ذا الذي يستطيع أن يفهم الأدب الإنجليزي ، أو يستمتع بقصيدة واحدة من قصائد كيتس Keats إلا إذا كانت لديه فكرة عن الأساطير الدينية اليونانية .

ولولا ما كتبه اليونان وما نقل إلينا عنهم لكان وجود أدبنا من أشق الأمور . فحروفنا الهجائية جاءتنا من بلاد اليونان عن طريق كومي وروما ؛ ولغتنا تكثر فيها الكلمات اليونانية ؛ وعلومنا قد أنشأت لها لغة عامة دولية بوساطة المصطلحات اليونانية ؛ ونحونا ، وبلاغتنا ، وحتى علامات الترقيم ، وتقسيم هذه الصفحة إلى فقرات ، كل هذا من اختراع اليونان(*) ، وكل ما لدينا من صور أدبية — الشعر الغنائي ، والقصائد ،وأناشيد الرعاة ،والرواية

(*) يقصد الكاتب بطبيعة الحال الإنجليز والأمريكيين .

القصصية ، والمقالة والخطبة ، والسيرة ، والتاريخ ، والمسرحية وهي أهمها جميعاً ، كل ما لدينا من هذا يوناني وكل مسمياته تقريباً مأخوذة عن اليونانية . والألفاظ الإنجليزية التي تطلق على المسرحيات الحديثة وأشكالها — المأساة ، والملهاة ، والمسرحية الصامتة المضحكة التي تستخدم فيها الإشارات Pantomime , comedy, tragedy يونانية . نعم إن المأساة الإنجليزية في عصر اليصابات فذة في نوعها ، ولكن الملهاة المضحكة التي كانت تمثل في ذلك العصر قد انتقلت إليه من مناندر ، وفليمون بوساطة بلوتس ، وترنس ؛ وبن جنس ، وملير ، لم يكد يتبدل فيها شيء . وإن المآسي اليونانية نفسها لمن أثمن ما خلفه اليونان من تراثهم القيم .

وما من شيء في بلاد اليونان يبدو لنا غريبا عنا أكثر من موسيقاها ؛ ومع هذا فإن الموسيقى الحديثة كانت (إلى أن عاد بها الموسيقيون إلى أفريقية وبلاد الشرق) مستقاة من ترانيم العصور الوسطى ورقصها ، وهذه الترانيم وهذا الرقص يرجع بعضهما إلى أصل يوناني .والأناشيد الدينية ،والتمثيليات الغنائية مدينة بعض الدين إلى الرقص الغنائي الجماعي اليوناني وإلى المسرحيات اليونانية ،ومبلغ علمنا أن اليونان من فيثاغورس إلى أرستكسنوس Aristoxenus كانوا أول من وضعوا وشرحوا نظريات الموسيقى . وديننا لليونان في الرسم أقل الديون ، ولكن في وسعنا أن نتتبع تسلسل المظلمات تسلسلا غير متقطع من پولجنوتس إلى رسوم الجدران التي تستلفت الأنظار في هذه الأيام عن طريق الإسكندرية وپمپي ، وجيتو Giotto وميكل أنجلو .ولا تزال أشكال النحت الحديث وقواعده الفنية يونانية ، لأن العبقرية اليونانية لم تطبع شيئاً بطابعها وتستبد به كما طبعت فن النحت واستبدت به .وقد بلغ من قوة هذا الاستبداد أننا لم نبدأ نتحرر من الافتتان بفن العمارة اليونانية إلا في هذه الأيام . وليس في أوربا ولا أمريكا مدينة تخلو من صرح تجاري أومالي قد أخذ شكله أوأخذت واجهته ذات العمد من معابد الآلهة اليونانية . ولسنا ننكر أننا لا نجد في الفن

اليونانى دراسة الخلق وتصوير خلجات النفس ، وأن افتتانه بجمال الجسم وصحته يجعله أقل نضجاً من تماثيل مصر التى تنطق بالرجولة الكاملة ومن تصوير الصينيين النافذ العميق . غير أن ما نتلقاه عن هذا الفن اليونانى من دروس فى الاعتدال ، والطهارة والنقاء ، والتناسق البادى فى النحت والعمارة فى عصر اليونان الزاهر — كل هذا من أثمن تراث الإنسانية :

وإذا كانت الحضارة اليونانية تبدو لنا الآن أقرب « وأحدث » من أية حضارة أخرى قبل فلتير ، فما ذلك إلا أن اليونان كانوا يحبون العقل بقدر ما يحبون الشكل ، ولذلك كانوا جريئين فى سعيهم إلى تفسير الطبيعة على أسس مستمدة من الطبيعة نفسها ، ولقد كان تحرير العلم من قيود الدين ، وتطور البحث العلمى تطوراً مستقلا عن كل ما عداه ، كان هذان التحرر والتطور مظهرين من مغامرات العقلية اليونانية الجامحة . وعلماء الرياضة اليونان هم واضعو قواعد حساب المثلثات ، وحساب التفاضل والتكامل ، وهم الذين بدأوا وأتموا دراسة القطاعات المخروطية ، ووصلوا بهندسة الأبعاد الثلاثة إلى درجة من الكمال النسبى ظلت محتفظة بها دون تبديل إلى أيام ديكارت وبسكال : وقد أثار دمقريطس ميدان علم الطبيعة والكيمياء بأكمله بنظريته الذرية . واستطاع أركميديز فى أوقات تسليته وفراغه من الدراسات المجردة أن يبتدع من الأجهزة والآلات الحديدة ما يكفى لأن يقرن اسمه بأعظم الأسماء فى سجل الاختراعات ، وقد سبق أرستارخوس كوبرنيق فى كشوفه الفلكية ولعله هو الذى أوحى إليه بها (*) ، وأقام هباركوس على يدى كلوديوس بطليموس نظاماً فلكياً يعد من المعالم الخطيرة فى تاريخ الثقافة البشرية . ورسم أنكساغورس وأنبادوقليس الخطوط الأساسية لنظرية النشوء والارتقاء . وصنف أرسطو وثاوفراسطوس

(*) كان كوبرنيق على علم بنظرية أرستارخوس القائلة إن الشمس هى مركز المجموعة الشمسية لأنه ذكر ذلك فى فقرة اختفت من الطبعات المتأخرة من كتابه (٣) .

مملكتى الحيوان والنبات ، وأوشكا أن يبتدعا علوم الأرصاد الجوية ، والحيوان ، والأجنة والنبات. وحرر أبقراط الطب من التصوف والنظريات الفلسفية ورفع من منزلته بأن ضم إليه قانوناً أخلاقياً سامياً . وارتقى هروفيلس وإراستراتس بعلمى التشريح ووظائف الأعضاء إلى درجة لم تصل إليها أوربا بعدهما — إذا استثنينا جالينوس وحده — إلا فى عهد النهضة . ونحن نتنفس فى أعمال أولئك الرجال نسيم العقل المادئ ، غير الواثق أو الآمن على الدوام ، ولكنه العقل المبرأ من العواطف والأساطير .ولعلنا لوكانت لدينا روائعه كاملة لحكمنا من فورنا بأن العلوم الطبيعية اليونانية أجل الأعمال الذهنية الرائعة فى تاريخ الإنسانية .

غير أن الرجل المولع بالفلسفة لايرضى بسهولة أن يجعل للعلوم الطبيعية والفنون الجميلة أعلى منزلة فيا ورثناه عن اليونان الأقدمين. ذلك أن علم اليونان الطبيعي كان هو نفسه وليد الفلسفة اليونانية — وليد ذلك التحدى الجرىء للأقاصيص الخرافية ، وذلك الحب القوى للبحث . الذى ظل عدة قرون يجمع بين العلم والفلسفة فى مغامرات البحث والتنقيب. ولم يشهد العالم قبل اليونان رجالا يفحصون عن الطبيعة بمثل دقتهم وبمثل ولعهم بها وحبهم إياها . ولم ينقص اليونان من مكانة العالم السامية باعتقادهم أنه كون منظم وأن نظامه هذا يجعله قابلا للفهم والإدراك . وقد ابتدعوا المنطق لنفس السبب الذى جعلهم يبتدعون التماثيل التى بلغت ذروة الكمال ؛ والتناسق ،والوحدة ،والتناسب ،والشكل هى فى رأيهم معين فى المنطق ومنطق الفن . وقد دفعهم تشوقهم وتطلعهم لمعرفة كل حقيقة وكل نظرية إلى أن يجعلوا الفلسفة مغامرة ممتازة من مغامرات العقل الأوربى ، وهم لا يكتفون بهذا بل نراهم لايكادون يتركون فرضاً من الفروض أو نظاماً من الأنظمة إلا فكروا فيه ، ولايكادون يتركون لغيرهم شيئاً يقولونه عن مشاكل الحياة الكبرى . فالواقعية ، والقول بأن الأشياء موجودة بالاسم دون الحقيقة،والمثالية والمادية ، والتوحيد ، ووحدة الوجود ،

والشرك ، والحركة النسائية والشيوعية ، والبحث التحليلي الكانتي Kantian واليأس الشوبنهوري ، والعودة إلى الحياة البدائية التي يقول بها روسو ، ومذهب نتشة في التحلل من القيود الأخلاقية ، ومذهب اسپنسر التركيبي ، ومذهب فرويد في التحليل النفسي — وبالجملة كل أحلام الفلسفة وحكمتها نشهدها هنا في مهدها وبداية عهدها . ولم يكن الناس في بلاد اليونان يتحدثون عن الفلسفة فحسب ، بل كانوا فوق ذلك يعيشون فيها : فقد كان الحكيم لا المحارب أو القديس ، صاحب أسمى مكانة في اليونانية وكان هو مثلها الأعلى . وقد وصل إلينا هذا التراث الفلسفي المبهج من أيام طاليس خلال القرون الطوال ، وكان هو الملهم للأباطرة الرومان ، وآباء الكنيسة المسيحيين ، وعلماء الدين المدرسيين ، وملحدى عصر النهضة ، وفلاسفة كبردج الأفلاطونيين ، ومتمردى عصر الاستنارة الفرنسيين ، وعشاق الفلسفة في هذه الأيام . ولعله لا يوجد قطر من أقطار العالم إلا فيه من يقرأ فلسفة أفلاطون ويقرؤها بشغف شديد وإذا عددت هؤلاء القراء في هذه اللحظة وجدتهم ألوفاً مؤلفة .

وآخر ما نقوله في هذا المجال أن الحضارة لا تموت ولكنها تهاجر من بلد إلى بلد ، فهي تغير مسكنها وملبسها ، ولكنها تظل حية . وموت إحدى الحضارات كموت أحد الأفراد يفسح المكان لنشأة حضارة أخرى ؛ فالحياة تخلع عنها غشاءها القديم وتفاجئ الموت بشباب غض جديد . فالحضارة اليونانية حية ، وتتحرك في كل نسمة من نسمات العقل نستنشقها ، وإن ما بقي منها ليبلغ من الضخامة حداً يستحيل على الفرد في حياته أن يستوعبه كله . ونحن نعرف عيوبها ونقائصها — نعرف حروبها الجنونية التي خلت من الرحمة ، وما فيها من استرقاق دام إلى آخر أيام بنيها ، ونعرف إخضاعها النساء وإذلالهن ، وتحللها من القيود الأخلاقية ، ونزعتها الفردية الفاسدة ، وعجزها المحزن عن أن تجمع

بين الحرية والنظام والسلم . ولكن الذين يحبون الحرية ، والعقل ، والجمال ، لايطيلون التفكير فى هذه العيوب ، بل إنهم سوف يستمعون من وراء حجب التاريخ السياسى إلى أصوات صولون وسقراط ، وأفلاطون ويوريپديز ، وفدياس وبركستليز ، وأبيقور ، وأركيديز ، وسوف يحمدون الله لوجود أمثال أولئك الرجال ويحرصون على صحبتهم فى بلاد غير بلادهم . ويقرنون بلاد اليونان بفجر تلك الحضارة الغربية المتبر التى هى غذاؤنا وحياتنا رغم ما فيها من عيوب ترجع أصولها إلى معينها القديم .

إلى الذين وصلوا معى إلى هذا الحد :

أشكر لكم صحبتكم التى لا أراها بعينى ولكننى لا أفتأ أحسها بقلبى ؟

Bibliography

Of Books Reffered to in text or Notes

The starred volumes are recommended for further study.

ADAMS, B. : The Empire. N.Y., 1903.

*AESCHYLUS : The Oresteia. Tr. G. Murray. London, 1928.

ANDERSON, W. J., and SPIERS, R. P. : The Architecture of Greece and Rome. London, 1902.

ARISTOPHANES : The Eleven Comedies. 2v. N.Y. 1928.

ARISTOPHANES : The Frogs, and Three Other Plays. Tr. Frere. etc.. Every-man Library.

ARISTOTLE : Art of Rhetoric. Loeb Classical Library.

ARISTOTLE : Metaphysics. 2v. Loeb Library.

ARISTOTLE : Metaphysics. Tr. M'Mahon. London. 1857.

ARISTOTLE : Nicomachean Ethics. Tr. Chase. Everyman Library.

ARISTOTLE (?) : Oeconomica and Magna Moralia. Leob Library. .

ARISTOTLE : ON the Constitution of Athens. Tr. E. Poste. London, 1891.

ARISTOTLE : Physics. 2v. Loeb Library.

ARISTOTLE : Poetics. Loeb Library.

*ARISTOTLE : Politics. .Tr. Lindsay. Everyman Library.

ARISTOTLE : Works. Tr. Smith and Ross. Oxford, 1931.

ARNOLD, M. : Essays in Criticism. A. L. Burt, N.Y., n.d.

ARRIN : Anabasis of Alexander; Indica. London, 1893.

ATHENAEUS : The Deipnosophists, or Banquet of the Learned. 3v. London, 1854.

*BACON, F. : Philosophical Works. Ed. J. M. Robertson London, 1905.

BAEDEKER, : Greece. Leipzig, 1909.

*BAIKIE, J. : The Sea-Kings of Crete. London, 1926.

BAKEWELL, C. : Source Book in Ancient Philosophy. N.Y., 1909.

BALL, W.W.R. : Short Account of the History of Mathematics. London, 1888.

BARON, S.W. : Social and Religious History of the Jews. 3v. N. Y., 1937.

BEBEL, A. : Woman under Socialism. N.Y., 1937.

BECKER, W.A. : Charicles. Tr. Metcalfe. London, 1886.

BENSON, E. F. : Life of Alcibiades. N.Y., 1929.
BENTWICH, N. : Hellenism. Phila , 1919.
BERRY, A. : Short History of Astronomy. N.Y., 1909.
BEVAN, E. R. : House of Seleucus. 2v. London, 1902.
BEVAN, E.R., and SINGER, C.,eds. : The Legency of Israel. Oxford, 1927.
BIBLE, THE
BLAKENEY, J.A. : Smaller Clasical Diciosary. Everyman Library.
BOTSFORD, G.W. : The Athenian Constitution N.Y., 1893.
BOTSFORD, G. W., and SIHLER, E. G. : Hellenic Civilization. N.Y., 1920.
BRECCIA, E : Alexandrea ad Aegyptum. Bergamo, 1922.
BRIFFAULT, R. : The Mothers. 3v. N.Y., 1927.
BROWNE, H. : Handbook of Homeric Study. London, 1908.
BURY, J. B. : Ancient Greek Historians. N.Y., 1909.
*BURY, J. B. : History of Greece. London, 1931.

CATHOUN, G.M. : Business Life of Ancient Athens. Chicago, 1926.
CAMPRIDGE ANCIENT HISTORY (CAH) : Vols. I-III. N·Y., 1924f.
CAPES, W. : University Life in Ancient Athens. N.Y., 1922.
CARPENTFR, E. : Pagan and Christian Creeds. N.Y., 1920.
CARREL, A. : Man the Unknown. N.Y., 1935.
CARROLL, N. : Greek Women. Phila., 1908.
CHILDE, V.G. : Dawn of European Civilization, N.Y., 1925.
CICERO : De Finibus. Loeb. Library.
CICERO : De Natura Deorum. Loeb Library.
CICERO : De Re Publica. Loeb Library.
CICERO : Tusculan Disputations. Leob Library.
COOK, A.B. : Zeus. Cambridge Univ. Press, 1914.
COTTERILL, H.B. : History of Art. 2v. N.Y., 1922.
COULANGES, F. DE : The Ancient City. Boston, 1901.
CURTIUS, E. : Grieche Geschichte. 8v. Berlin, 1887f.

DAY, C. : History of Commerce. London, 1926.
DEMOSTHENES : On the Crown, etc. Loeb Library.
DEWEY, JOHN, etc. : Studdies in the History of Ideas. N.Y., 1935.
DIKINSON, G.I. : The Greek View of Life. N.Y., 1928.
DIODORUS SICULUS : Library of History. 3v. Loeb Library.
DIODORUS SICULUS Historical Library. 2v. London, 1814.

*DIOGENES LAERTIUS : Lives and Opinions of the Eminent Philosophers. London, 1853.

DRAPER, J. W. : History of the Intellectual Development of Europe. 2v. N.Y., 1876.

DURÉEL, E. : La Légende Socratique. Bruxelles, 1922.

DYER, T.H. : Ancient Athens. London, 1873.

ELLIS, H. : Studies in the Psychology of Sex. 6v. Phila., 1911.

ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA, 14th ed N.Y., 1929.

EURIPIDES : Electra. Tr. G. Murray. Oxford, 1907.

EUIRIPIDES : Iphigenia in Tauris. Tr. Murray. Oxford, 1930.

*EURIPIDES : Medea. Tr. G. Murray. Oxford, 1912.

URIPIDES : Text and tr. by A.S. Way. 4v. Loeb Library.

*EURIPIDES : Trojan Women. Tr. G. Murray. Oxford, 1914.

EVANS, SIR M. : The Palace of Minos. 4v. in 6. London, 1921f.

FARNELL, L.R. : Greece and Babylon. Edinburgh, 1911.

FERGUSON, W.M. : Greek Imperialism. Boston, 1913.

FLICKINGER, R.C. : The Greek Theatre. Chicago, 1918.

FRAZER, SIR J.G. : Adonis, Attis, Osiris. 1936.

FRAZER J.G. : The Dying God. N.Y., 1935.

FRAZER, SIR J.G. : The Magic Art. 2v. N.Y., 1935.

FRAZER, J.G. : The Scapegoat. N.Y., 1935.

FRAZER, SIR J.G. : Spirits of the Corn and of the Wild. 2v. N. Y., 1935.

FRAZER, SIR J. G. : Studies in Greek Scenery, Legend, and History. London, 1931.

FREEMAN, E.A. : The Story of Sicily. N.Y., 1892.

GARDINER, E.N. : Athletics of the Ancient World. Oxford, 1930.

GARDINER, PERCY : New Chapters in Greek History. N.Y. 1892

GARDINER, PERCY : Principlees of Greek Art. N.Y., 1914.

GARDNER, A.E. : Ancient Athens. N.Y., 1902.

GARDNER, E.A. : Handbook of Greek Sculpture. London, 1920.

GARDINER, E.A. : Six Greek Sculptors. London, 1910.

GARRISON, F.H. : History of Medicine. Phila., 1929.

GIBBON, E. : The Decline and Fall of the Roman Empire. 6v. Everyman Library.

GLOTZ, G. : Aegean Civilization. N.Y., 1925.

GLOTZ, Ancient Greece at Work. N.Y., 1926.

GLOTZ, G. : The Greek City. London, 1929.

GLOVER, T.R. : Democracy in the Ancient World. Cambridge, Eng., 1927.

GOETHE, J.W. VON : Poetical Works. N.Y., 1902.

GOMME, J.W. : Population of Athens. Oxford, 1933.

GRAETZ., A. : History of the Jews. 6v. Phila., 1891f.

GREER ANTHOLOGY : Tr. Shane Leslie. N.Y., 1929.

GREEK ANTHOLOGY : Tr. R.G. MacGregor. London, n.d.

GREEK DRAMASO : Tr. E.B. Browning, etc. N,Y., 1912.

GROTE, G. : Aristotle. 2v. London, 1872.

GROTE, G. : History of Greece. 12v. Everyman Library.

GROTE, G. : Plato and the Other Companions of Socrates. 3v. London 1875.

HAGGARD, H.W. : Devils, Drugs, and Doctors. N.Y. 1929.

HAIGH, A.E. : The Attic Theatre. Oxford, 1907.

HALL, H.R. : Civilization of Greece in the Bronze Age. N.Y., 1927.

HALL, M.P. : Encyclopedic Outline of Masonic, Hermetic, Qabbalistic, and Rosicrucian Symbolical Philosophy. San Francisco. 1928.

HARRISON, J.E. : Prolegomena to the Study of Greek Religion. Cambridge, Eng., 1922.

HARRISON, J E. : Themis. Cambridge, Eng., 1927.

HEATH, SIR T. : Aristarchus of Samos. Oxford, 1913.

HEATH, SIR T. : History of Greek Mathematics. 2v. Oxford, 1921.

HEITLAND, W.E. : Agricola : A Study of Agriculture and Rustic Life in the Greco-Roman World. Cambridge, Eng., 1921.

HERACLEITUS ON THE UNIVERSE. Tr. W.H.S. Jones. Loeb. Library.

HERODES (HERODAS), CERCIDAS, AND THE GREEK CHOLIAMAIC POETS. Loeb Library.

*HERODOTUS : History. Tr. Rawlinson. 4v. London, 1862.

HESIOD, CALLIMACHUS, and THEOGNIS : Works. London, 1856.

HIMES, N.E. Medical History of Contraception. Baltimore. 1936.

HIPPOCRATES : Works. 4v. Loeb Library.

HOBHOUSE, L.T. Morals in Evolution N.Y., 1916.

HOGARTH, D.G. : Iodia and the East. Oxford, 1909.

*HOMER : Iliad. Tr. W.C. Bryant. Boston, 1898.

HOMER : Iliad. Text and tr. by A.T. Murray. 2v. Loeb Library.

*HOMER Odyssey. Text and tr. by A.T. Murry. 2v. Loeb Library.

ISOCRATES : Works. 2v. Loeb Library.

JEWISH ENCYCLOPEDIA. N.Y., 1901.

JONES, H.S. : Ancient Writers on Greek Sculpture. London, 1895.

JONES, W.H.S. : Malaria and Greek History. Manchester, Eng., 1909.

JOSEPHUS, F. : Works. 2v. Boston, 1811.

JOURNAL of HELLENIC STUDIES. London, 1882f.

KELLER, A.G. : Homeric Society. N.Y., 1902.

KIRSTEIN, L. : Dance : A Short History N.Y., 1935.

KÖHLER, C. : History of Costume. N.Y., 1928.

LACROIX, P. : History of Prostitution. 2v. N.Y., 1931.

LANGE, F.E. : History of Materialism. N.Y., 1925.

LESSING, G.E. : Laocoön. London, 1874.

LEWES, G.H. : Aristotle. A Chapter in the History of Science. London 1864.

LINFORTH, I.M. : Solon the Athenian. Berkeley, Cal., 1919.

LIPPERT, J. : Evolution of Culture. N.Y., 1931.

LITCHFIELD, F. : Illustrated History of Furniture. Boston, 1922.

*LIVINGSTON, R.W. : The Greek Genius. Oxford, 1924.

LIVINGSTONE, R.W., ed. : The Legacy of Greece. Oxford, 1924.

LIVY : History of Rome. 6v. Everyman Library.

LOCY, W.A. : Growth of Biology. N.Y., 1925.

LONGINUS : On the Sublime. Loeb Library.

LUCIAN : Works. 4v. Oxford, 1905.

*LUCRETIUS, E. De Rerum Natura. Loeb Library.

LUDWIG, E. : Schlieman. Boston, 1931.

LYRA GRAECA : 3v. Loeb Library.

MAHAFFY, J.P. : Empire of the Ptolemies. London, 1895.

MAHAFFY, J.P. : Greek Life and Thought. London, 1887.

MAHAFFY, J.P. : History of Classical Creek Literature. 4v. London, 1908.

MAHAFFY, Old Greek Education. N.Y., n.d.

MAHAFFY, J.P. : Progress of Hellenism in Alexander's Empire. Chicago, 1905.

*MAHAFFY, J.P. : Social Life in Greece. London, 1925.

MAHAFFY, J.P. What Have the Greeks Done for Modern Civilization? N.Y., 1909.

MANSON, W.A : History of the Art of Writing. N.Y., 1920.
McCLEES, H. : Daily Life of the Greeks and Romans. N.Y., 1928.
McCRINDLE, J.W. : Ancient India as Described by Megasthenes and Arrian Calcutta, 1877.
MENANDER : Principal Fragments. Loeb Library.
MEYER, E. Geschichte des Altertums. 4v. Stuttgart, 1884f.
MOMMSEN, T. : History of Rome. 5v. London, 1901.
MÜLLER, K.O. : The Dorians. 2v. Oxford, 1830.
MÜLLER-LYER, F. : Evolution of Modern Marriage N.Y. 1930.
MÜLLER-LYER, F. : The Family. N.Y. 1931.
MURRAY, A.S. : History of Greek Sculpture. 2v. London. 1890.
MURRAY, G. : Aristophances. N.Y. 1933.
*MURRAY, G. : Euripides and His Age. N.Y. 1918.
MURRAY, G. : Five Stages of Greek Religion. Oxford, 1930
*MURRAY, G. : History of Ancient Greek Literature. N.Y. 1927.
MURRAY, G. : Rise of the Greek Epic. Oxford. 1924.

NAPLES MUSEUM. Guide to the Archeological Collections. Naples. 1935.
NIETZSCHE. F. : Early Greek Philosophy. N.Y. 1911.
NILSSON. M. History of Greek Religion. Oxford. 1925.
NORWOOD. R. : The Greek Drama. N.Y. 1920.

OLMSTEAD. A. : History of Assyria. N.Y. 1923.
OVID : Heroides and Amores. Loeb Library.
OVID : Metamorphoses. Loeb Library.
OWEN. J. : Evenings with the Sceptics. 2v. London. 1881.
*OXFORD Book of Greek Verse in Translation. Oxford. 1938.
OXFORD History of Music : Introductory Volume. Oxford. 1929.
OXFORDER Bach Deutscheng Dichtung Oxford. 1936.

PATER. W. : Plato and Platonism. London. 1910.
PAUSANIAS : Description of Greece. 2v. London. 1886.
PFUHL. E. : Masterpieces of Greek Drawing and Painting. London. 1926.
PHILOSTRATUS : Lives of the Sophists. Loeb Library.
*PIJOAN. J. : History of Art. 3v. N.Y. n.d.
PINDAR : Odes. Loeb Library.
PLATO : Dialogues. Tr. Jowett. 4v. N.Y. n.d.

PLATO : Epistles. Loeb Library.

PLINY : Natural History. 6v. London, 1865.

*PLUTARCH : Lives. 3v. Everyman Library.

PLUTARCH : Moralia. Vols. I - III. Loeb Library.

PÖHLMANN, R. VON : Geschichte der Sozailen Frage und des Sozialismus in der antiken Welt. 2v. München, 1925.

POLYRIUS : Histories. 6v. Loeb Library.

PRATT, W.S. : History of Music. N.Y. 1927.

QUINTILIAN : Institutio Oratoria. 4v. Loeb Library.

RAMSAY, SIR WM. : Halanic Elements in Greek Civilization., New Haven, 1928.

RANDALL-MACIVER, D. : Greek Cities in Italy and Sicily. Oxford, 1931.

REINACH, S. : Orpheus : History of Religions N.Y. 1930.

RENAN, E. : History of the People of Israel. 5v. N.Y., 1888.

RICHTER, G. : Handbook of the Classical Collection. Metropolitan Museum Of Art, N.Y. 1922.

RICKARD, T.A. : Man and Metals. 2v. N.Y. 1932.

RIDDER, R., and DEONNA, W. : Art in Greece. N.Y. 1927,

RIDGEWAY, SIR WM. : Early Age of Greece. Cambridge, Eng. 1901.

ROBINSON, D.M. : Sappho and Her Influence. Boston, 1924.

RODENWALDT, G. Die Kunst der Antike. Berlin. 1927.

ROHDE, E. : Psyche. N.Y. 1925.

ROSTOVTZEEF, M. : Histry of the Ancient World. 2v. Oxford, 1930.

ROSTOVTZEFF, M. : Social and Economic History of the Roman Empire. Oxford. 1926.

RUSSELL, B. Principles of Mathematics. 2v. London, 1903.

*SACHA, A.L. : History of the Jews. N.Y. 1932.

SARTON, G. : Introduction to the History of Science. Baltimore, 1930.

SCHLEGEL, A.W. : Lectures on Dramatic Art and Literature. London, 1846.

SCHLIEMANN, H. : Ilios. N.Y. 1881.

CHLIEMANN, H. : Mycenae. N.Y., 1878.

SEDGWICK, W.T., and TYLER, H.W. : Short History of Science. N.Y. 1927

SEMPLE, E.C. : Geography of the Mediterraen Region. N.Y. 1931.

SEXTI EMPIRICI Opera Graece et Latine. 2v. Leipzig, 1840.

SEYMOUR, T.D. : Life in the Homeric Age. N.Y. 1907.

SHOTWELL, J.T. : Introduction to the History of History. N.Y, 1936.

SINGER, C.E. : Studies in the History and Method of Science. Vol. II. Oxford, 1921.

SMITH, G.E. : Human History. N.Y. 1929.

MITH, WM. : Dictionary of Greek and Roman Antiquities. Boston, 1859.

*SOPHOCLES : Tragedies. Tr. Plumptre. London, 1867.

SOPHOCLES : Plays. 2v. Loeb Library.

SPENCER, H. : First Principles. N.Y. 1910.

SPENGLER, O. : Decline of the West. 2v. N.Y. 1926f.

SPINOZA, B. : Ethics and De Emendatione Intellectus. Everyman Library.

STABO : Geography. 8v. Loeb Library.

SUMNER, W.G. Fokways. Boston, 1906.

SUMNER, W. G., and KELLER, A. G. : The Science of Society. 3v. New Haven, 1928.

SWINBURNE, A.C. : Poems. Phila., n.d.

*SYMONDS, J.A. : Studies of the Greek Poets. London, 1920.

TAINE, H. : Lectures on Art. N.Y. 1875.

TARN, W.W. : Hellenistic Civilization. London, 1927.

TAYLOR, A.E. : Plato. N.Y.. 1936.

THEOCRITUS, BION, and MOSCHUS : Poems. London, 1853.

THEOPHRASTUS : Characters. Loeb Library.

THOMPSON, SIR E. M. : Introduction to Greek and Latin Paleography, Oxford, 1912.

*THUCYDIDES : History of the Peloponnesian War. Everyman Library.

TOUTAIN, J. : Economic Life of the Ancient World. N.Y., 1930.

TUCKER, T.G. ; Life in Ancient Athens. Chautauqua, N.Y., 1917.

TYLOR, E B. : Anthropology. N.Y. 1906.

UEBERWEG, F. : History of Philosophy. 2v. N.Y., 1871.

USHER, A.P. : Aistory of Mechanical Inventions. N.Y., 1929.

VERRALL, A.W. : Euripides the Rationalist. Cambridge, Eng., 1913.

VINOGRADOFF, SIR P. : Outlines of Historical Jurisprudence. 2v. Oxford, 1922.

VIRGIL : Works. 2v. Loeb Library.

VITRUVIUS : On Architecture. 2v. Loeb Library.

VOLTAIRE, F.M.A. DE : Works. 22v. N.Y., 1927.

WARD, C.O. : The Ancient Lowly. 2v. Chicago. 1907.

WARREN, H.L. : Foundations of Classic Architecture. N.Y., 1919.

WAXMAN, M. : History of Jewish Litirature. 3v. N.Y., 1930.

*WEIGALL, A. : Alexander the Great. N.Y., 1933.

WEIGALL, A. : Sappho of Lesbos. N.Y., 1932.

WESTERMARCK, E. : History of Human Marriage. 3v. London, 1921.

WESTERMARCK, E. : Origin and Development of the Moral Ideas. 2v. London, 1917f.

WHEWELL, WM. : History of the Inductive Sciences. 2v. N.Y., 1859.

WHIBLEY, L. : Companion to Greek Studies. Cabridge, Eng., 1916.

*WILLIAMS, H.S. : History of Science, 5v. N.Y., 1909.

WINCKELMANN, J. : History of Ancient Art. 4v. in 2. Boston. 1880.

WRIGHT, F.A. : History of Later Greek Literature. N.Y., 1932.

XENOPHON : Works. Loeb Library.

XENOPHON : Memorabilia., Phila 1899.

XENOPHON : Minor Works. London, 1914.

ZEITLIN, S. : History of the Second Jewish Commonwealth. 1933.

ZELLER, E. : Socrates and the Socratic Schools. London, 1877.

ZELLER, E. : Stoics, Epicureans, and Sceptics. London, 1870.

ZIMMERN, A. : The Greek Commonwealth. Oxford, 1924.

Notes

ذكرنا اسم الكتاب كاملا فى المرة الأولى وحدها ، ثم ذكرناه بعدئذ مختصرا وفى وسع القارئ أن يعرف اسمه الكامل بالرجوع إلى ثبت المراجع السابق . والأرقام الكبيرة الرومانية تدل إذا ذكرت إلى جانب المؤلفات الحديثة على أرقام المجلدات ، أما الأرقام الهندسية فتدل على رقم الصفحة . وعند ذكر النصوص القديمة تدل الأرقام الرومانية الصغيرة على رقم « الكتاب » أو « المقالة » أما الأرقام الهندية فتدل على أبواب الكتاب أو على الآية فى الكتب المقدسة . فاذا كانت الأقسام طويلة فإذا تدل على فصول الكتاب بإثبات رقم هندى بعد شولة .

CHAPTER 1

1. Plato, *Works*, Jowett tr.; *Phaedo*, 109.
2. Semple, Ellen, *Geography of the Mediterranean Region*, N.Y., 1931, 99, 507.
3. Evans, Sir Arthur, *Palace of Minos*, London, 1921f, I, 20.
4. Homer, *Odyssey*, tr. A.T. Murray, Loeb Classical Library, London, 1927, xix, 172-7.
5. Aristotle, *Politics*, 1271b.
6. Ludwig, Emil, *Schliemann*, Boston 1931, 264-5; Glotz, G., *Aegean Cevilization*, N.Y., 1925, 14; *Cambredg Ancient History* (hereafter referred to as CAH), N.Y., 1924f, I, 1-9.
7. Evans, I, 18; Hall, H.R., *Civilization of Greece in the Bronze Age*, N.Y., 1927; 27; Glotz, 30-1, 67, 348; CAH, I, 589-90.
8. Evans. I, 26.
9. Ibid., I, 27; Glotz, 89, 40; CAH, I, 597-8.
10. Glotz, 60-4; Baikie, Jas., *Sea-kings of Crete*, London, 1926, 212-3.
11. Hall, 27; Glotz, 68-73.
12. Köhler, Carl, *History of Costume*, N.Y., 1928, frontispiece; Evans. III, 49.
13. CAH, I, 596 : Glotz, 65-6, 75-8, 311, and fig. 6.
14. Cf. Evans. III, 227.
19. Glotz, 147-8; CAH, II, 487.
20. Thucydides, *History of the Peloponnesian War*, Evryman Library, I, 1.4; cf. Herodotus, *History*, tr. Rawhlinson, Lodon, 1862, vii, 170, and Diodorus Siculus, *Library of History*, v, 78.
21. Strabo, *Geography*, Loeb, Library, x, 4.8; Glotz, 149; Evans, I, 2, IV, p. xxii; CAH, II 442; Homer, *Odyssey*, xi\ 568-70.
22. Ibid., iii, 296.
23. Glotz, 139-42; 173-4; Baikie, 120, 129-31.
24. Evans, I, facing 306, III. 13f; CAH, I, 591, 605, II, 432; Glotz, 106-9, 163-4; Baikie, 97.
25. Evans. I, facing 472; Glotz, 169, 70, 298.
26. Evans, III, 218; Hall, 16; Glotz, 294 6, 312-3.
27. Evans, I, 15.
28. Ibid., 151; Glotz, 229, 237-41, 248-9, 266; Farnill, L.R, *Greece and Babylon*, Edinburgh, 1911, 228; Nilsson, M.P., *History of Greek Religion*, Oxford, 1925, 13, questions any worship of the bull in Crete.
29. Glotz, 146, 244-7; Evans, IV 468-9.
30. Ibid.; Glotz, 252-4.
31. Ibid., 231-8, 265-70, 273-4; Farnell, 125; Reinach. S., *Orpheus*. N.Y., 1930, 83; Nilsson, 13, 16; CAH, II, 444-5.

32. Mason, W. A., *History of the Art of Writing*, N.Y., 1920, 815-28, 881; Evans, I, 16, 124f. IV, xx, 959; Glotz, 150, 196, 371-7, 381-7; *Encyclopaedia Britannica*, 14th ed., I, 213; CAH, II, 437; Whibley, L., *Companion to Greek Studies*, Cambridge U.P., 1916-26
33. Glotz, 165, 388; Baikie, 238.
34. Homer, *Iliad*, xviii, 590.
35. Glotz, 174, 821.
36. Evans, I, 842-4; Evans in Baikie, 71; Reinach, 62; Pliny, *Natural History*, London, 1855, xxxvi, 19; Glotz, 108.
37. Hall, 102.
38. Evans, I, 142, III, 252-3; Burrows, R.M., in Baikie, 99, and Semple, 570.
39. Evans, III, 116-22.
40. In Baikie, 129.
40a. Evans. Sir Arthur, "The Minoan and Mycenaean Element in Hellenic Life", *Journal of Hellenic Studies*, XXXII (1912), 277f; Hall, 27.
41. Evans, *Palace of Minos*, I, 17.
42. Ibid., 16-7; Smith, *Human History*, 378-90; Hall, 35; Glotz, 191-3, 209; Spengler, Oswald, *Decline of the West*, N.Y., 1926-8, II, 88.
43. Strabo, xiv, 2.27; Evans, "Minoan and Mycenaean Element," 288.
44. Herodotus, vii, 170 : CAH, II, 475; Smith, G.E., 398.
45. Baedeker, K., *Greece*, Leipzig, 1909, 417.
46. CAH, I, 442-3.
47. Himes, Norman, *Medical History of Contraception*, Baltimore, 1936, 187.
48. Grote, G, *History of Greece*, Everyman Library, I, 190; Frazer, Sir Jas., *Dying God*, N.Y., 1935. 71
49. Diodorus, iv, 76.
50. Ibid., 79 Ovid, *Metamorphoses*, Loeb Library, viii, 181f.
51. Pausanias, *Description of Greece* London, 1886, ix, 40.
52. Plutrach, *Lives*, "Theseus"; Homer, *Odyssey*, xi, 821-5.
53. E.g., Polybius, *Histories*, Loeb Library, vi, 45.
54. Strabo, x, 4.16-22.

CHAPTER II

1. Schliemann, H., *Ilios*, N.Y. 1881, 3.
2. Ibid., 9.
3. Ibid., 17.
4. Ludwig, p. ix.
5. Schliemann, 14-15.
6. Ludwig, 137.
7. Ibid., 182-8, 183, 284.
8. Schliemann, 26.
9. Ibid., 41; Ludwig, 139, 165
10. Schliemann, H., *Mycenae*, N.Y., 1878, 101-2.
11. Homer, *Iliad*., ii, 569.
12. Ludwig, 284.
13. Ibid., 256-7.
14. Pausanias, ii, 25.
15. Warren, H L., *Foundations of Classic Architecture*, N. Y., 1919 124-5; Pausanias, ii, 25.
16. Ibid., ii, 15.
17. *Iliad*, ii, 59, vii, 180; *Odyssey*, iii, 305.
18. Pausanias, ii, 16.
19. Schliemann, *Mycenae*, 298f; CAH II, 452-3; Glotz, 46; *Enc. Brit*., XVI, 38.
20. Hall, I; Nilsson, II; Glotz, 81-2; Whibley, 27.
20a. Murray, A.S., *History of Greek Sculpture*, London, 1890, I, 61.
21. Herodotus, ii, 53, 57.
22. Pausanias vii, 2-8; Hall, ii.
23. Ibid.; Glotz, 47; Evans, I, 28; CAH, I, 608.
24. Lippert, J., *Evolution of Culture*, N.Y., 1931, 171.
25. Glotz, 47-8.
26. These frescoes are all in the National Museum at Athens. They are reproduced in Rodenwoldt, G., *Kunst der Antike*, Berlin, 1927, 143f.
27. Schliemann, *Ilios*, 281-3.

29. National Museum, Athens; Evans III, 121; Rodenwaldt, 148-9.
30. Nat. Mus., Athens; Rodenwaldt, 152.
31. Evans, III, 183; Glotz, 388.
32. Gardiner, P., *New Chapters in Greek History*, N.Y., 1892, 178; Hvans, "Minoan and Mycenaean Element," 28; Mason, 327-8; Farnell, 97-8.
33. Schliemann, *Ilions*, 587.
34. Ludwig, 280. He was later financed by Kaiser Wilhelm II.
35. CAH, II, 489-90.
36. Schliemann, *Ilios* 453-505; *Enc. Brit.*, XXII, 502-8.
37. CAH, II, 488; Schliemann, *Ilios*, 123.
38. Bury, J.B., *History of Greece*. London, 1931, 46; CAH, II, 487.
39. *Iliad*, xx, 230f.
40. Herodotus, ii, 118; Strabo, xiii, 1.48.
41. Murray, G., *Rise of the Greek Epic*, Oxford, 1924, 49.
42. Ramsay, Sir—., *Asiatic Elements in Greek Civilization*, Yale U.P, 1928, 109.
43. Bérard, M., in Semple, 699; Murray, *Epic*. 38.
44. Schliemand, *Ilios*, 240, 253; Bury. 48; Glotz, 197, 217.

CHAPTER III

1. CAH, II, 276-83; Glotz, 90.
2. *Iliad*, ii, 681.
3. Ridgeway, Sir—m., *Early Age of Greece*, Cambridge U.P.,1901, 88-90, 337, 680, 682-4, etc.
4. CAH, II, 478; Hall, 248, 289.
5. Burry. 6; Glotz, 386-7.
6. Nilsson, 61.
7. *Odyssey*, xi, 588f; Diodorus, iv.77.
8. Thucydider, i, 1.8, ii, 6.15.
9. Diodorus, iv, 9.
10. One form of the legend tells how Heracles triumphed over fifty virgins in a single night.—Athenaeus, *Deipnosophists. Or Banquet of the Learned*, London, 1854, xiii, 4; Pausanias, ix, 27.
11. Diodorus, iv, 85, 53.
12. Ibid., iv, 57-8.
13. Ibid iv, 41-8.
14. CAH, II, 475, III, 662.
15. *Iliad*, ii, 683, iii, 75.
16. Ibid., xxiii, 198.
17. xxiv, 228.
18. xxix, 186.
19. xviii, 541, xxi, 257; Keller, AG., *Homeric Society*, N.Y., 1902, 78.
20. *Iliad*, v, 87-9.
21. Glotz, G., *Ancient Greece at Work*, N.Y., 1926, 36.
22. *Odyssey*, xx, 72.
23. Symour, T.D., *Life in the Homeric Age*, N.Y, 1907, 234, 209-10.
24. Glotz. *Ancient Greece*, 88; Ridgeway in Botsford, G.—., *Athenian Constitution*, N.Y., 1895, 82.
25. Ibid., 85; Pöhlmann, R. von, *Geschichte der sozialen Frage und des Sozialismus in der antiken Welt*, München, 1925, 6, I, 29; Browne, H., *Handbook of Homeric Study*; London, 1908, 209; Seymour 285, 273; Burry 54.
26. *Iliad*, xxiii, 826.
27. Ibid., xxiii, 341.
28. Glotz, *Ancient Greece*, 45.
29. Ibid., 42; Calhoun, G.M., *Business Life of Ancient Athens*, Chicago, 1926, 13.
30. *Odyssey*, xv, 82f.
31. Ibid., vi, 115.
32. xiv, 202.
33. Aeschylus, *Agamemnon*, 281f.
34. *Iliad*, xix, 247.
35. Ibid., ii, 210f.
36. *Odyssey*, xxi, 224-5.
37. Ibid., iv, 184.
38. *Iliad*, ix, 74.
39. *Odyssey*, vi, 207.
40. Ibid., iv, 20; 267-8.
41. xv, 82f.
42. viii, 870f.
43. Gardiner, E.N., *Athletics of the Ancient World*, Oxford, 1930, 27; Mahaffy, J.P., *Social Life in Greece*. N.Y., 1925, 51.

44. Gardiner, E.N., 21-3; *Iliad* xxiii, 166f.
45. Thucydides, i, 1.5.
46. *Odyssey*, viii, 158f.
47. Ibid., ix, 39f.
48. *Iliad*, x, 383.
49. *Odyssey*, xiii, 287-95.
50. Ibid., ii, 294, iv' 690, xiv, 138-141
51. Ibid., i, 87, viii, 14; *Iliad*, ii, 169
52. *Odyssey*, i, 57-9; *Iliad*, xx, 18
53. *Odyssey*, xvii, 280
54. Athenaeus, xiii, 2; Harrison, Jane, *Prolegomena to the study of Greek Religion*, Cambridge U.P., 1922, 260-2.
55. Athenaeus, xiii, 4
56. *Iliad*, xviii, 593
57. Ibid., xviii, 490
58. vi, 169
59. *Odyssey*, i, 153, 325, viii, 48-84, xxi, 406-8
60. Ibid., xxi, 46
61. *Iliad*, vi, 318-7
62. Ibid., i. 249
63. iii, 222
64. Murray, *Epic*, 129
65. Sumner, —.G., and Keller, A.G., *Sciedce of Society*, New Haven, 1928, I, 658
66. CAH, II, 478; Murray *Epic*, 174
67. Whibley, 30
68. Pliny, xxxvi, 64
69. Grote, I, 77
70. Plutarch, *De StoicorumRepugnantiis*, 32, in Bakewell, C.M., *Source Book in Ancient Philosophy*, N.Y., 1909, 278
71. *Iliad*, vi, 406
72. Ibid., viii, 542
73. CAH, III, 670
74. *Odyssey*, iv, 621
75. Butcher and Lang, *Odyssey*, N. Y., 1927, introd., xxiv
77. Seymour, 78
78. *Odyssey*, v, 151-8
79. Ibid., vi, 289
80. Nilsson, 4-5
81. *Oydssey*, xix, 177
82. Thucydides, i, 1.2
83. Herodotus, i, 66
84. Evans, IV, 477, 959
85. Pausanias, iii, 2.
86. Ridder, A. de, and Deonna, —., *Art in Greece*, N.Y., 1927, 167

CHAPTER IV

1. Plato, *Phaedrus*, 244; Frazer, *Magic Art*, N.Y., 1935, II, 358; Reinach, *Orpheus*, 98; CAH, II, 629
2. Grote, IV, 196
3. Mahaffy, J. P., *What Have the Greeks Done for Civilization ?* N.Y., 1909, II
4. Plato, *Timaeus*, 22-3
5. Herodotus, ii, 143
6. Ibid., ii, 53, 81, 123; Diodorus, i, 96; Harrison, *Prolegomena*, 574-5
7. Herodotus, ii, 109; Strabo, xvii, 3: Diodorus, i, 69; Smith, G.E., 417-8; Rider, 7, 341.
8. Ibid.; Smith, 418-22; Warren, *Foundations*, 193-4
9. Glotz, *Ancient Greece*, 128; Day, C., *History of Commerce*, London, 1926, 14
10. Olmostead, A. T., *History of Assyria*, N.Y., 1923. 537
11. Herodotus, ii, 109
12. Grote, IV, 124
13. Heath, Sir Thos., *History of Greek Mathematics*, Oxford, 1921 I, 44, II, 21; CAH, IV, 589
14. Ridder, 240; Anderson, W. J. and Spiers, R.P., *Architecture of Greece and Rome*, London, 1902 49; Gardner, E. A., *Handbo Greek Sculpture* London, 1920, 51-2
15. Cook, A. B., *Zeus*, Cambridge U.P. 1914, 777.
16. Strabo, viii, 6; CAH, III, 540-2; Grote, III, 96
17. Herodotus, iii, 131
18. Gardner, E. A., *Handbook*, 365.
19. Pausanias, iv, 6-14
20. Strabo, vii, 5.4

21. Müller, K.O., in Rawlinson's Herodotus vii, 234n. The calculation is for 480 B.C., Meyer, Ed., *Geschichte des Alterthums*, Stuttgart, 1884f. III, §§ 268-4, gives the population of Loconia ca. 470 as 12,-000 Spartans (4000 adult males), 80,000 Perioeci, and 190,000 Helots.
22. CAH, V, 7 .
23. Plutarch, *Spartan Institutions*, in *Lyra Graeca*, London, 1928, III, 287; Mahaffy, *Social Life*, 45; Cicero, in Cotterill, H.B., *History of Art*, N.Y., n.d., I, 61
24. Grote, IV, 264
25. *Greek Anthology*, ix, 488, in *Lyra Graeca*, I, 29
26. Grote, III, 195; Murray, Sir G., *History of Ancient Greeck Literature*, N.Y., 1927, 80
27. In Ridder, 106
28. Grote, III, 195
29. Mahaffy, J.P., *History of Classical Greeck Literature*, London, 1908, I, 189; Sacroix, Paul, *History of Prostitution*, N.Y., 1931, I, 149-50
30. Alcman, Frag. 36 in *Lyra Greaca*, I, 77
31. *Das Oxforder Buch Deutschen Dichtung*, Oxford, 1936, 117
32. Goethe, J. W. von, *Poetical Works* [illegible]bb, N.Y., 1902, 61.
33. Glover, T.R., *Democrrcy in the Antient World*, Cambridge U.P. 1927, 84
34. Herodotus, I, 65
35. Aristotle, *Politics*, 1271b
36. Plutarch, "Lycurgus"
37. Ibid
38. Ibid.; Polybius, vi, 48
39. Thucydides, i, 6
40. E.g., Polybius, vi, 10
41. Plutarch, "Lycurgus"
42. Glotz, *Ancient Greece*, 88
43. Coulonges, Fustel de, *Ancient City*, Boston, 1901, 460
44. Plutarch, I.c.
45. Ibid., Grote, III, 148
46. Thucydides, iv, 14
47. Coulanges, 294; Glotz, G., *Greek City*, London, 1929, 300; Carroll, M., *Greek Women*, Phila., 1908, 136
48. Mahaffy. J. P., *Old Greek Education*. N.Y., n.d., 10
49. Hesiod, Callimachus, and Theognis, *Works*, tr. Banks and Frere, London, 1856, 441n.
50. Plutarch, l.c.; Grote, III, 157; Müller-Lyer, F., *Family*, N.Y., 1931, 45
51. Thucydides, i, 3
52. Nilsson, 94
53. Mahaffy, *Greek Education* 46.
54. Plutarch, "Demetrius."
55. Xenophon, *Anabasis*, Loeb Library, iv, 6.15
56. Symonds, J.A., *Greek Poets*, London, 1920, 159
57. Becker, —., *Charicles*, London, 1886, 246, 297
58. Carroll, 138-40; Weigall, A., *Sapphoof Lesbos*, N.Y., 1932, 101
59. Plutarch, "Lycurgus"; Lippert, 301
60. Athenaeus, xiii, 2
61. — hibley, 618
62. Grote, III, 155-6; Sumner,—. G., *Folk-ways*, Boston, 1906, 351
63. Athenaeus, xiii, 2
64. Plutarch, "Numa and Lycurgus Compared."
65. Aristotle, *Politics*, 1270a; Grote, III, 159-7; Briffault, R., *Mothers*, N.Y., I, 399
66. Plutarch. "Lycurgus"; Glotz, *Ancient Greece*, 89
67. Athenaeus, xii, 74
68. Plutarch, l.c.
69. Grote, III, 131, IX, 298; Rawlinson's Herodotus, iii, 146
71. Grote, III, 182, 158
72. Plutarch, "Pelopidas."
73. E.g., Herodotus, I, 82
74. Ibid., vii, 104

75. Xenophon, "Constitution of the Lace daemonians," in *Minor Works*, London, 1914, i, 1.
76. Pausanias, v, 1.
77. Ibid., vii, 21
78. Frazer, Sir J., *Studies in Greek Scenery, Legend and History*, London, 1931, 224-5
79. Pausanias, ii, 1; Glotz, *Ancient Greece*, 116
80. Strabo, viii, 6.21
81. *Iliad*, ii, 570
82. Aristotle (?), *Economics*, Loeb Library ii, 2
83. Aristotle, *Politics*, 1315b
84. *Enc. Brit.*, XVI, 616. Others attribute the first Corinthian coinage to Cypse us; cf. CAH, III, 552
85. Glotz, *Greek City*, 112, *Ancient Greece*, 86; —elgall, *Sappho*, 46
86. Plutarch, *Moralia*, Loeb Library, 147D
87. Herodotus, iii, 50-3; Diogenes Laertius, *Lives and Opinions of the Eminent Philosophers*, London, 1853, "Periander."
88. Aristophanes, *The Eleven Comedies*, N.Y. 1908, *Frogs*, 138; Lacroix, I, 110
89. Pindar, *Odes*, Loeb Library, Frag. 122
90. Strabo, viii, 6.20
91. Athenaeus, xiii, 32
92. Ibid., 33
93. St. Paul, I Cor. vi, 15-18
94. Semple, 569
95. Pausanias, vi, 17-19; Litchfield, F., *History of Furniture, Boston*, 1922, 13
96. CAH, III, 554
97. Glotz, *Greek City*, 113
98. Grote, III, 264-5
99. Theognis, 237, in Dickinson, G.L., *Greek View of Life* N.Y., 1928, 186
100. Theognis in Hesiod, Callimachus and Theognis, *Works*, 444-5
101. Ibid., II. 373f.
102. Ibid., II, 349f.
103. Symonds, 161
104. Botsford, G. —., and Sihler, E.G., *Hellenic Civilization*, N.Y., 1920, 198-9; Coulanges, 369
105. Symonds, 162
106. Theognis in Hesiod, etc., 442
107. Ibid., 470-1, 447-8, 489-90
108. 479-81
109. 477, 491-2
110. 454-5
111. Ridgeway, 31
112. Calhoun, 30-1; Semple, 669
113. Pausanias, ii, 26
114. Pindar, Pythian iii, 47-58
115. Gardner, E.A., *Ancient Athens*, N.Y., 1902, 481

CHAPTER V

1. Stabo, viii, 6 21; ix, 2.25
2. Pausanias. ix, 31
3. Mahaffy, *Greek Literature* I, 117
4. *Enc Brit.*, XI, 529
5. Hesiod, *Works and Days*, 640
6. Ibid., 655
7. Gardiner. E.N., *Athletics*, 30
8. Pausanias, ix, 31; cf. Mahaffy, *Greek Literature*, I, 125; CAH, IV, 474; Grote, I, 12
9. Hesiod, *Theogony*, 1-6
10. 120f
11. Nilsson, 185-6
12. *Theogony*, 166f
13. Ibid., 735f
14. *Works and Days*, 255
15. Ibid., 286f
16. 504f
17. 54f
18. *Theogony*, 585f
19. *Works and Days* 695f
20. Ibid, 109f
21. Mahaffy, *Social Life*, 72
22. Mahaffy, *Greek Literature*, 54
23. Diodorus, xvi, 28; Frazer, *Studies*, 374-5
24. Pope, A., *Essay on Man*
25. Bury, 95; CAH, III, 619. Others (Murray, *Epic*, 43, and *Enc. Brit*, XII, 575) derive the Graii from Epirus

26. Cicero, *De Fato*, 7.
27. Baedeker, xxvii; Zimmern, A., *Greek Commonwealth*, Oxford,
28. Hippocrates, *Works*, Loeb Library, In troductory Essay I to Vol. II, by W. H. S. Jones; cf Jones, W. H. S., *Malaria and Greek History*, Manchester U.P., 1909.
29. Isocrates, *Works*, Loeb Library, *Panegyricus*, 24
30. Ridder, 122
31. Grote, III, 270-4; Vinogradoff, Paul, *Outlines of Historical Jurisprudence*, Oxford, 1922, II, 85-6
32. Frazer, *Studies*, 58-9
33. Aristophanes, I, 196, editor's note.
34. Baedeker, 104
35. CAH, III, 579-80
36. Aristotle, *Constitution of Athens*, London, 1891, sect. 57; Grote, III, 290; Coulanges, 331
37. Meyer, Ed., in Zimmern, 896
38. Aristotle, *Constitution*, 2 says that these "sixth-shares" paid one-sixth of their product to the owner, and Plutarch ("Solon") follows him; but recent scholarship inclines to believe that the sixth part was the amount kept, not paid. Cf. Bury, 174; Glotz, *Greek City*, 102.
39. Botsford, *Athenian Constitution*, 141.
40. Aristotle, *Constitution*, 2.
41. Glotz, *Ancient Greece*, 61, 80, *Greek City*, 102
42. Glotz, *Ancient Greece*, 71
43. CAH, IV, 33
44. Ibid
45. Grote, III, 293-4; Coulanges, 418
46. Plutarch, "Solon."
47. Botsford, *Constitution*, 143
48. Pöhlmann, 158; Glotz, *Ancient Greece*, 71.
49. Glotz, *Greek City*, 119
50. Plutarch, *Amatorius*, 751c, in Linforth, I.M., *Solon the Athenian*, Berkeley, Cal., 1919, 156-7
51. Diog. L., "Solon," ii.
52. Plutarch. "Solon."
53. Diog. L., "Solon," ix.
54. Aristotle, *Constitution*, 5; Grote, III, 318; Botsford, 158
55. Aristotle, 6, 12
56. CAH, IV, 38.
57. Aristotle, 6
58. Plutarch, "Solon"
59. Grote, III, 319
60. Aristotle, 10
61. Plutarch, I c.
62. Grote, III, 316; Mahaffy, *What Have the Greeks Done for Civilization?*, 186
63. CAH, IV, 134; Bury, 183
64. Plutarch, l.c.
65. Aristotle, 12; Grote, III, 331-2.
66. Plutarch, l.c.
67. Ibid., Aristotle, 9
68. Coulanges, 420; CAH, IV, 42; Grote, II, 350
69. Plutarch, l.c.
70. Diog L., "Solon," vii
71. Athenaeus, xiii, 25; Lacroix, I, 68-70; Bebel, A., *Woman under Socialism*, N.Y., 1928, 95
72. Plutarch, l.c.; Grote, III, 351; Tucker, T.G., *Life in Ancient Athens*, Chautauqua, N.Y., 1917, 159
73. Plutarch
74. Ibid
75. Diog. L., "Solon," xvi
76. Grote, III, 344
77. Diog. L, l.c.
78. *Enc. Brit.*, XX, 955
79. Herodtus, I, 29
80. Plato, *Amatores*, 133, in Linforth, 130
81. Herodotus, I, 30
82. Plutarch, l.c.
83. Diog. L., "Solon," iii
84. Diodorus, ix, 20
85. Herodotus, I, 60; Athenaeus, xiii, 89
86. Aristotle, *Constitution*, 16
87. Glotz, *Greek City*, 121
88. Calhoun, 29
89. Aristotle, *Politics*, 1310a

90. Thucydides, vi, 19.
91. Athenaeus, xiii, 70; Lacroix, I, 163
92. Aristotle, *Politics* 1300b

CHAPTER VI

1. Pater, W., *Plato and Platonism*, London, 1910, 246.
2. Thucydides, i, I.
3. CAH. Strabo, x, 5.6; Plutarch, *Moralia* Loeb Library, 249D.
5. *Lyra Graeca* II, 639
6. Aristophanes, *Peace*, 695
7. Cicero, *De Oratione*, ii, 86, in *Lyra Graeca*, II, 806
8. *Lyra Graeca*, II, 257
9. Ibid., III, 297, 339; tr. J. A. Symonds, *Greek Poets*, 155, 167
10. Cicero, *De Natura Deorum*, Loeb Library, i, 22
11. Thucydides, iii, 109
12. Glotz, *Ancient Greece*, 113
13. Botsford and Sihler, 188
14. Carroll, 99
15. CAH, IV, 483
16. Symonds, 169
17. Herodotus, iii, 57
18. Ovid, *Metamorphoses*, Loeb Library, x, 243
19. Herodotus, I, 148
20. Ibid., I, 146
21. Ibid., i, 170; Diog. L., "Tales."
22. Aristotle, *Poetics*, Loeb Library, 1259a
23. Diog. L., "Thales," iii-viii; Plutarch, "Solon."
24. Heath, *Greek Mathematics*, I, 130; Ueberweg, F., *History of Philosophy*, N.Y., 1871, I, 84-5 Heath, I, 187; Herodotus, I, 74
26. Aristotle, *Metaphysics*, tr. M' Mahon, London, 1857, i, 3
27. Ibid
28. Diog. L., "Tales," iii
29. Ibid., "Timies," viii
30. Ibid
31. Ibid., "Thales." xii
32. Starbo, xiv, 4.7
33. Spencer, *First Principles of a New System of Philosophy*, N.Y., 1910, 367.
34. Bakewell, 5
35. Heath, II, 38; Grote, V, 91
36. Bakewell, 6.
37. Aristotle, *Metaphysics*, i, 8 Bakewell, 7; CAH IV, 554
38. Athenaeus, xii, 26xiii, 29, xiv 20
39. Ibid, xii, 26
40. Diog. L., "Bias," i-iv
41. CAH, IV, 92-3
42. Herodotus, ii, 184
43. Plutarch, *Moralia*, 16C
44. Leslie, Shane, *Greew Anthology*, N.Y., 1929, x, 123
45. Pfuhl, Ernst, *Masterpieces of Greek Drawing and Painting*, London, 1926 Fig. 79
46. Sarton, Geo., *Introduction to the History of Science*, Baltimore, 1930, I, 75
47. Pausanias, viii, 14; Glotz, *Ancient Greece*, 182; Jones, H. Stuart, *Ancient Writings on Greek Sculpture*, London, 1895, 24-5
48. Ridder, 174
49. Pliny, xxxv, 46
50. Ibid., xxxvi, 21
51. Athenaeus, xii, 29
52. Carroll, 102
53. Frag. 78 in *Herodes, Cercidas, and the Greek Choliambic Poets*, Loeb Library, 55
54. Diog. L. in Heracleitus, *On the Universe*, Loeb Library, 464
55. Cf. Mahaffy, *What Have the Greek ?*, 219
56. Bakewell, 33.
57. Nietzsche, F., *Early Greek Philosophy*, N.Y. 1911, 103-4
58. Diog. L., "Heracleitus," v.
59. Strabo, xiv, 1,28; Weigall, *Sappho*, 155; Webster's *Dictionary*, s.v. *colophon*.
60. Weigall, 186; Symonds, 150
61. Tr. in Harrison, *Prolegomena*, 178
62. *Lyra Graeca*, III, 636, II, 126 181
63. Athenaeus, x, 88
64. *Lyra Graeca*, II, 126, 139
65. Ibid., 145, frag. 15
66. *Greek (Palatine) Anthology*, vii 24
67. Diodorus, xx, 84

68. Herodotus, viii, 105; Glotz, *Ancient Greece*, 85
69. Athenaeus, vi, 88-90; Ward, C. O., *Ancient Lowly*, Chicago, 1907, I, 12df
70. Eratosthenes in Grote, II, 159
71. *Lyra Graece*, I, 333; Athenaeus, xiv, 23
72. Tr. by Symonds, 197
73. Stobaeus, *Antholoy*, xxix, 58, in *Lyra Graeca*, I, 141
74. *Greek Anthology*, iu, 506
75. Strabo, xiii, 2.3
76. Ovid. *Heroides*, Loeb Library, xv, 81; scholiast on Lucian,. *Imag*, 18, in *Lyra Graeca*, I, 160
77. Weigall, *Sappho*, 76
78. Ibid., 175
79. Symonds, 196
80. Weigall, 86
81. *Lyra Graeca* I, 437
82. Athenaeus, xii, 69
84. Dongiuus, *On the Sublime*, Loeb Library, ix, 15
85. *Berliner Klrasikertexts*, p. 9722, in *Lyra Graeca*, I, 289
86. Murray, *Greek Literature*, 92; Weigall 178, 90; Robinson, D.M. *Sappho and Her Influence*, Boston, 1924, 58
87. Mahaffy, *Greek Literature*, I, 202
88. Weigall, 321
89. Suidas, *Lexicon*, S.v.. *Phaon*, in *Lyra Graeca*, I, 153; Strabo, x, 2.8
90. Ovid, *Heroides*, xv
91. Oxyrhynchue Papyrus 1231, in Weigall, 291
92. *Lyra Graeca*, I, 435
93. Athenaeus, xiii, 89
94. Strabo, xii, 3.11
95. Ramsay, *Asianic Elements*, 118
96. Diodorus, iv, 49
97. Polybius, iv, 88
98. Semple, 72-3, 214
99. Murray, *Greek Literature*, 86

CHAPTER VII

1. Pausanias, iii, 23
2. Ludwig, 266; Cook, *Zeus*, 776
3. Schliemam, *Ilios*, 41
4. Strabo, x, 2.9
5. *Journal of Hellenic Studies*, LVI, 170-89, London 1682f.
6. Grote, IV, 150-1
7. Mahaffy, *Greek Literature*, I, 97-8; *J.H. Studies*, LV, 138
8. Randall-Maciver, D., *Greek Cities in Italy and Sicily*, Oxford, 1931, 75; CAH, III, 676
9. Diodorus, iii, 9
10. Athenaeus, xii, 20
11. Ibid., xii, 15, 17
12. Ibid, 58
13. Herodotus, vi, 127
15. Grote, IV, 168
16. Athenaeus, xii, 19
17. Diog. L., "Pythagoras," ix
18. *Enc. Brit.*, XVIII, 802
19. Diog. L., "i-iii, xvii; Heath, *Greek Math.*, 1, 4
20. Cicero, *De Finibus*, Loeb Library, v, 29, 87; Diodorus, I, 98
21. Cicero, *Tusculan Disputations*, Loeb Library, ii, 15
22. Carroll, 299, 307, 310
23. Diog. L., "Pythagoras," viii.
24. Ibid., "Pythagoras," xix, xviii; Grote, V, 103
25. Diog. L., "Pythagoras," xix
26. Ibid., "Pyth.," xviii
27. Grote, V, 100-1
28. Diog. L., "Pyth.," xxii; Cook, *Zeus*, 1
29. Diog. "Pyth., viii
30. Heath, I, 10
31. Proclus, in Heath, I, 141.
32. Diog. L., "Pyth.," xi
33. Whibley, 229
34. Heath, 1, 70, 85, 145
35. Whewell, W., *History of the Inductive Sciences*, N.Y., 1859, 1, 106; *Oxford History of Music* Oxford U.P., 1929, Introductory Volume, 3
36. Aristotle, *Works*, ed. Smith and Ross, Oxford, 1931, *De Coelo*, ii, 9; *Metaphysics*, i, 5; *Oxford History of Music*, 27; Heath, 1, 165, 11, 107.

37. Heath, II, 65, 119; . Berry, A., *Short History of Astronomy*, N. Y., 1909, 24
38. Diog. L., "Pyth.," xxv.
39. Ibid., 9, Introd., xviii:
40. Livingstone, R. W., *Legacy of Greece*, Oxford, 1924, 59
41. Diog. L., "Pyth ," xix
42. Ibid
43. Rohde, Erwin, *Psyche*, N. Y., 1925, 375; Pater, *Plato*. 54
44. *Greek Anthology*, vii, 120
45. Aristotle, *Nicomachem Ethics*, v, 8
46. Diog. L , "pyth.," xxi
47. Grote, IV, 154-8; CAH, IV, 115-6
48. Frag. 24 in Mhibley, 89
49. Heath, II, 52; Mahaffy, *Greek Lit.*, I, 138
50. Frags.14-5,5-7,1-3, in Bakwell, 8
52. Diog. L., "Xenophanes," iii
53. Frags. 9-10
54. Bakewell, 10-11
55. Warren, *Foundations*, 241 : but Koldewey (ibid.) places it about 450
56. Randall-Maciver, 9-10
57. Child, V.G., *Dawn of European Civilization*, N.Y. 1925, 98-100
58. Thucydides, vi, 18; Diodorus, v, 2
59. Grote, IV, 149
60. Freeman, E.A., *Story of Sicily*, N.Y., 1892, 65
61. Ibid
62 Polybius, xii, 25
63. Ibid., ix, 27
64. Ibid., v, 2
65. Herodotus, vii, 156
66. Lucian, *Works*, tr. H. W. and F.G. Fowler, Oxford, 1905, Hermotimus," 34
67. Glotz, *Ancient Greece*, 116; Draper, J. W., *History of the Intellectual Development of Europe*, N.Y., 1876, I, 52

CHAPTER VIII

1. CAH, II, 610
2. Cf. Sophocles, *Oedipus at Colonus*, 1470; Cook, *Zeus*, *passim*
3. *Iliad*, iii, 277
4. Frazer, *Magic Art*, I, 315
5. Murray, G. *Five Stages of Greek Religion*, Oxford U.p., 1930, 50
6. Nilsson, 91; Farnell, *Greece and Babylon*, 228
7. Nilsson, 91-2; Heracleitus in Bakewell, 29
8. Murray, G. *Aristophanes : A Study*, N.Y., 1933, 6
9. Harrison Jane, *Prolegomenat*, 298; Glotz, *Aegean Civilization*, 391-2; Briffault, *Mothers*, III, 145
10. Murray, *Five Stages*, 35-6; Reinach, S., *Orpheus* 86; Frazer Sir J., *Spirits of the Corn and of Wild*, N.Y., 1935, I, 4
11. Whibley, 387
12. Murray, *Five Stages*, 31
13. Ibid., 29, 33; Harrison, *Prolegomenat*, PP. viii and 28
15. Harrison, 18
16. Rodenwaldt, 315
17. Sophocles, *Philoctetes*, 1327-9; Harrison, 287f
18. Ibid., 325
19. Rohde, 159
20. Nilson, 123
21. Rohde, 297
22. Ibid., 172
23. Seymour, 98; *Odyssey*, i, 66f; *Iliad*, iv, 14f
24. Ibid., viii, 17-27
25. Semple, 629
26. *Iliad*, xvi, 651f
27. Hesiod, *Theogony*, 887f
28. *Iliad*, xv, 17
29. Frazer, *Magic Art*, I, 14-15
30. *Iliad*, viii, 390f
31. Ibid., xx, 46, xxi, 406
32. Smith, Wm, *Dictionary of Greek and Roman Antiquities*, Boston, 1859, 603
33. CAH, II, 637; Glotz, *Ancient Greece*, 112; Blakeney, M.A., ed., *Smaller Classical Dictionary*, Everyman Library, 258

34. CAH, l.c.
35. Diodorus, iv, 6
36. Athenaeus, xii, 80
37. Gardner, P., *New Chapters*, 157
38. Frazer, Sir J., *Adonis, Attis, Osiris*, N.Y., 1935,226; Gardner, *New Chapters*, 157
39. Semple, 43-4
40. In Symonds, 204
41. Diodorus, iii 69
42. Herodotus, ii, 49-57
43. Nilsson, 86; CAH, IV, 527
44. Ibid., 535
45. Rohde, 220; Gardner, *New Chapters*, 385
46. Diodorus, iv, 25
47. Harrison, *Prolegomenal*, 465
48. Reinach, 88; CAH, IV, 586-8; Harrison, 482; Murray, *Greek Literature*, 65; Carpenter, Edw., *Pagan and Christain Creeds*, N.Y, 1920, 64
49. Harrison, p. xi.
50. Ibid., 588; Nilsson, 221, Rohde, 344
51. Plato, *Republic*, ii, 364-5
52. Harrison, 572
53. Whibley, 402
54. Nilsson, 247
55. Symonds, 495
56. Dickinson, G.I., Greek *View of Life*, N.Y., 1928, I
57. Grote, II, 101-2
58. Coulanges, 228
59. Xenophon, Anabasis, v, 3-4
60. *Iliad*, xxi, 27, xxiii, 22, 175
61. Pausanias, iv, 9, vii, 19, CAH, II, 621
62. Pausanas, iii, 16, Plutarch, "Lycurgus", Nilsson, 94
63. CAH, II, 618, Grote, I, 111
64. Frazer, Sir J., *Scapegoat*, N.Y., 1935, 253, Harrison, 107
65. Aristophanes, *Frogs*, 734, and scholiast; Rohde, 296; Harrison, 103; Nilsson, 87, Frazer, *Scapegoat*, 253
66. Harrison, 108
67. Murray, G., *Epic*, 12-13, 317, Harrison, 103
68. Plutarch, "Pelopidas."
69. Hesiod, *Theogony*, 557f
70. *Odyssey*, iii 338-41, CAH, II, 626
71. Farnell, 237
72. Harrison, 501
73. Diodorus, iii, 66
74. Grote, I, 145-6
75. Harrison, 167
76. Nilsson, 82-9, Rohde, 168
77. Coulanges, 218, Rohde, 295-6
78. Nilsson, 83
79. Ibid., 85
80. Theophrastus, *Characters*, Loeb Library, xvi
81. Plutarch, "Solon"
82. Sophocles, *Trachinian Women*, 584, Lacroix, I, 117, Becker, 381
83. Plato, *Laws*, 933, Harrison, 139
84. Herodotus, ix, 95
85. Coulanges, 291
86. Carroll, 270, Rohde, 292
87. Coulanges, 289
88. Grote, III, 38-9, Benson, E. F., *Life of Alcibiades*, N.Y., 1929, 83
89. Herodotus, v, 63, vi, 66, Grote, V, 431
90. Ibid., III, 127
91. CAH, III, 627-8
92. Ibid., 604
93. In Coulanges, 288
94. Harrison, 121, Frazer, *Spirits of the Corn*, II, 17
95. Harrison, 82
96. Frazer, *Spirits of the Corn*, I, 30
97. Rohde, 239

CHAPTER IX

1. Herodotus, viii, 144
2. Mahaffy, *Greek Literature*, IV,24
3. *Enc. Brit.*, I, 661
4. Mason, W. A., *History of the Art of Writing*, 344
5. Mahaffy, *Old Greek Education*, 49, Thompson, Sir E. M., *Introduction to Greek and Latin Palaeography*, Oxford, 1912, 58
6. Pliny, xiii, 11
7. Shortwell, J. T., *Introduction to the History of Histoy*, N.Y., 1936, 30, Becker, 162n

8. Thompson, 39, 43; Mahaffy, l.c., 51
9. Becker, 274
10. Showell, 32
11. Mahaffy, *Greek Literature*, 1, 25-8
12. Grote, II, 245; Murry, *Epic*, 238
13. Diog. L., "Solon," ix
14. Grote, II, 245; Murray, *Epic*, 147
15. Ibid., 258.
16. *Iliad*, xxii, 106-13, tr. G. Murray
17. Ramsay, *Asianic Elements*, 289
18. *Iliad*, i, 477, etc
19. Ibid. ii, 469-78
20. Ibid., xx, 490, tr. Bryant
21. Mahaffy, *Greek Literature*, I, 85, 81. Aristarchus of Samothrace wrote ca. 180 B.C.
22. Browne, 92
23. Glotz, *Aegean Civilzation*, 393; Ward, I, 41; Grote, II, 806-7
24. Briffault, *Mothers*, I, 411
25. *Odyssey*, iv, 120-86
26. Herodotus, ii, 58
27. Curtius, Ernst, *Griechischte*, Berlin, 1887f, I, 126, in Robertson, J.M., *Short, History of Free Thought*, London, 1914, I, 127; Mahaffy, *Social Life*, 352; Murray, *Epic*, 267
27a. Symonds, 167
28. *Odyssey*, viii, 146
29. Rodenwaldt, 283
30. Gardinder, *Athletics*, 230
31. Mahaffy, *Greek Education*, 18
32. Gardiner, *Athletics*, 284
33. Tucker, 222
34. In Zimmern, 316
35. Pausanias, 816
36. Ibid., I, 44
37. Gardiner, *New Chapters*, 291
38. Ibid., 294
39. Ibid., 294
40. Gardiner, *Athletics*, 212f
41. Pausanias, vi, 4
42. Ibid., viii, 40
43. Ibid., vi, 14
44. Herodotus, iii, 106
45. Pausanias, vi, 13
46. Herodotus, viii, 26
47. Grote, III, 352-3
48. Athenaeus, x, 1; Gardiner, *Athletics*, 54-5
49. Ferguson, W.M., *Greek Imperialism*, Boston, 1913, 58-9; Haigh, A.E., *Attic Théatre*, Oxford, 1907, 3
50. Winckelmann, J., *History of Ancient Art*, Boston, 1880, II, 286
51. Athenaeus, xiii, 90
52a. Ibid
53. Richter G., *Handbook of the Classical Collection*, Metropolitan Museum of Art, N.Y., 1922, 76
54. Rodenwaldt, 234
55. Ridder, 171
56. Pfuhl, 38
57. Ridder, 181; Murray, A. S., *Greek Sculpture*, I, 11
58. Rodenwaldt, 247
59. Cf. Pijoan, J., *History of Art*, N.Y., 1927, I, figs. 851-2
60. Ibid', p. 229
61. Pliny, xxxv, 151
62. Cotterill, H. B., *History of Art*, N.Y., 1922, 99-100
63. Anderson and Spiers, 42; CAH, IV, 608-8
64. Livingstone, *Legacy of Greece* 412; Wasen, 277-80; Smith, G.E., 422; CAH, IV, 90
65. Polybius, iv, 20-1; Athenaeus, xiv, 22
66. Lacroix, I, 192
67. Pratt, W.S., *History of Music*, N.Y., 1927, 58
68. Pausanias, x, 7
69. Mahaffy, *Social Life*, 456
70. Diodorus, iii, 67
71. *Lyra Graeca*, III, 582
72. Strabo, x, 3.17
73. *Oxford History of Music*, 8
74. Ibid., Pratt, 55; Mahaffy, *What Have the Greeks?*, 143; id., *Social Life*, 403-5
75. Aristotle, *Politics*, 1342b.
76. Athenaeus, xiv, 18
77. Ibid., 10; *Lyra Graeca*, II, 498; Symonds, 180; Glotz, *Ancient Greece*, 279

78. *Oxford History of Music*, I, 80
79. Haigh, 311
80. Lucian, "Of Pantomime."
81. Ibid
82. In Kirstein, L., *Dance*, N.Y.,
83. Athenaeus, i, 37
84. Kirstein, 28-30
85. Ibid., 30
86. Athenaeus, xiv, 12, 82
87. *Lyra Graeca*, III, 630
88. Lucian, l.c.
89. Mahaffy, *Social Life*, 464-5
90. Athenaeus, xiv, 17
91. Aristotle, *Poetics*, iv; Murray, *Aristophanes*, 3
92. *Enc. Brit.*, VII, 582
93. Aristotle, *Politics*, 1336b
94. Murray, l.c.; id., *Greek Literature*, 212; Haigh, 292; Sumner, W.G., *Folkways*, 447
95. Aristophanes, *Eleven Comedies*, I; 327 and editor's note; Kirstein, 86
96. *Enc. Brit.*, VII, 584
97. Aristotle, *Poetics*, v, 3
98. CAH, V, 117
99. Aristotle, *Poetics*, iv, 17
100. Ridgeway in Harrison, 76; Sumner and Keller, III, 2109
101. *Enc. Brit.*, VII, 582
102. Ibid., 588
103. Athenaeus, i, 39
104. Diog. L., 20, "Solon," xi

CHAPTER X

1. Herodotus, vi, 98
2. Grote, V, 16
3. Ibid., 22
4. Herod., vi, 102
5. Rawlinson, app. to Herod., vi; Grote, V, 58; Pausanias, x 20
6. Plutarch, "Aristides."
8. Herod., vi, 132-6
9. Plutarch, l.c.
10. Ibid
11. Ibid
12. Thucydides, i, 5. 138
13. Plutarch, "Themistocles."
14. Plutarch, "Aristides."
15. Herod., vii, 133-7
16. Ibid., 184-6, 196
17. Ibid., 146
18. Ibid., 53-6
19. Ibid., 56
20. Athenaeus, iv, 27; Herod., vii 118-9
21. Ibid., viii, 4-6
22. vii, 231-2
23. viii, 24
24. *Greek Anthology*, vii, 249; Strabo, ix, 4, 12-16
25. Plutarch, "Themistocles."
26. Mahaffy, *Social Life*, 223. Mahaffy considers the story a legend, but no lover of dogs will doubt it
27. Herod., ix, 4-5
28. Ibid., viii, 89
29. Grote, V, 316f, and Freeman, 77. believe that the two actions were concerted; CAH, IV, 378,
30. Grote, V, 319-20
31. Herod., ix, 70
32. Rawlinson, note to Herod., l.c.

CHAPTER XI

1. Shelley, P.B., "On the Manners of the Ancients," quoted by Livingstone, *Legacy*, 251
2. Herod., viii, 111-12
3. *Oxford Book of Greek Verse in Translation*, Oxford, 1938, 534; Plutarch, "Themistocles."
4. Plutarch, "Aristides."
5. Thucydides, i, 5
6. Grote, VI, 6-7
7. Aristotle, *Constitution*, 24
8. Ibid., 41
9. Plutarch, "Pericles"; Grote, VII 16; CAH, V, 72
10. Plutarch, l.c.
11. Ibid
12. Ibid
13. Glotz, *Greek City*, 241
14. Plato, *Gorgias* 515; Aristotle *Constitution*, 27; Plutarch, l.c.
15. CAH, V, 100; Glotz, 210
16. Glotz, 181
17. Plutarch, l.c.

18. Ibid
19. Plato, *Phaedrus*, 270
20. Plutarch, l.c.
21. Carroll 197
22. Aristophanes. *Acharnians*, 514f; Athenaeus, xiii, 25-6
23. Lacroix, I, 154; Carrol, 200
24. Plato, *Menexenus*, 236; Carroll, 311; Benson, 58
25. Lacroix, I, 156
26. Plutarch, l.c.
27. Plato, l.c.; Benson, 57-8
28. Plutarch, l.c.
29. Benson, 58
30. Plutarch
31. Plato, *Teaetetus*, 79, *Republic*, ii, 8, *Laws*, ix, 3; Thucydides, iii, 52; Mahaffy, *Social Life*, 178-9; Grote, VI, 305-6
32. Botsford, 222
33. Glotz, *Greek City*, 166, Carroll, 442
34. Tuker, 251-2
35. Isocrates, *Antidosis*, 320
36. Coulanges, 248
37. Tylor, E.B., *Anthropology*, N.Y., 1906, 217
38. Vinogradoff, II, 61-2
39. Aristotle, *Constitution*, 57
40. Glotz, *Greek City*, 236
41. Glotz, *Ancient Greece*, 153
42. Botsford, 53-4
43. Glotz, *Ancient City*, 237
44. Cf. Aristotle's will in Diog. L., 185, "Aristole," ix
45. Xenophon, *Memorabilia*, tr. Watson, Phila 1899, x, 2.9
46. Murray, *Greek Literature*, 328
47. Glotz, *Antcient Greece*, 281
48. Tucker, 263
49. Isocrates, *Antidosis*, 79
50. *Enc Brit.*, X, 829
51. Glotz, *Ancient Greece*, 316
52. Glotz, *Greek City*, 263
53. Herod., v, 77; Aristotle, *Ethics* v, 7
54. Glotz, *Greek City*, 220
55. Zimmern, 290; Ferguson, 69
56. CAH, V, 29; Grote, II, 66-7
57. Thucydides, ii, 6
58. *Lyra Graeca*, II, 237

CHAPTER XII

1. Xenophon, *Economicus*, iv-vi, in *Minor Works*
2. Ibid., xviii, 2
3. Semple, 407, 414, 421
4. Pausanias, ii, 38
5. Zimmern, 52-4
6. Aristophanes, II, 245; Athenaeus, vii 48, 50f
7. Ibid., vix, 51
8. Xenophon, *Memorabilia*, ii, 1
9. Hippocrates, "Regimen in Acute Diseases," xxviiif
10. Aeschylus, *Persian Women*, 238
11. Aristotle, *Constitution*, 47; Baedeker, 123
12. CAH, V, 16
13. Rickard, T.A., *Man and Mitals*, N.Y., 1932, I, 376; Calhoum, 142-3
14. Ibid, 154-6
15. Glotz, *Ancient Greece*, 226
16. Semple, 678-9
17. Ibid., 669
18. Glotz, 205
19. Vitruvius, *On Arkitecture*, Loeb Library, ii, 6.3
20. Aeschylus, *Agamemnon*, 278f; Herod., ix, 3; Thucydides, viii, 26
21. Aristophanes, *Frogs*, in *Eleven Comedies*, II, 194
22. Plato, *Gregias*, 511
23. Glotz, 294
24. Ibid, 233
25. In Zimmern, 307
26. Lucian, "Nigrinus," 1
27. CAH, V, 22
28. Zimmern, 218; CAH, V, 8
29. Zimmern, 283
30. Isocrates, *Panegyricus*, 42
31. Thucydides, ii, 6
32. Xenophon, *Economicus*, iv, 2
33. Glotz, 218
34. Gomme, A W., *Population of Athens in the 5th and 4th Centuries B.C.*, Oxford, 1933, 21
35. Athenaeus, vi, 103; Becker, 361
36. Semple, 667; Glotz, 192-3
37. Ibid., 208

38. Aeschines, Epistle 12, in Becker, CAH, V, 8
39. In Bostford and Sihler, 225
40. Glotz, 196
41. Dickinson, 119; Ward, I, 39
42. CAH, VI, 529-30
43. Aristotle, *Ethics*, viii, 12
44. Murray, *Epic*, 16; CAH, VI, 529
54. CAH, V, 25
64. Aristophanes, *Ecclesiazucae*, 307
74. Warld, I, 98
48. CAH, V, 12,95
49. Glotz, 237
50. Ibib, 286
51. Toutain J., *Economic Life of the Ancient World* N.Y., 1930; introduction by Henri Berr, p. xxiii
52. CAH, V, 32
53. Semple, 425
54. Glotz, 168
55. Tucker, 261
56. Coulanges, 451
57. Ward, I, 42
58. Glotz, 148
59. Ward, I, 88, II, 48, 76, 268, 342
60. Hall, M.P., *Encyclopedic Outline of Masonic, Hermetic, Oabbalistic and Rosicrucian SymbolicalPhilosophy*, San Francisco, 1928, 64
61. Aristophanes, II, 871f
62. Ibid 440f
63. Tuucydides, viii, 24
64. Ibid., iii, 10, slightly transposed
65. Aristotle (?), *Economics*, iii, 15
66. Glotz, 296
67. Idid., 298
68. Ibid., 298; Lysias, *Against the Grain-Dealers*, xxii, in Botsford and Sihler, 426; Semple, 365, 668; Zimmern, 362
69. Glotz, 169

CHAPTER XIII

1. Plato, *Republic*, 459f
2. Aristotle, *Politics*, 1335
3. Haggard, H. W., *Devils, Drugs, and Doctors*, N.Y., 1929. 19
4. Himes 82. 96. *Coitus interruptus* was adparaently a popular method of family limitation through antiquity.
5. Athenaens, xiv, 3
6. Plutarch, "Themistocles," *Moralia*, 185D
7. *Greek Anthology*, vii, 887
8. McCless, H., *Daily Life of the Greeksand, Romans*, N.Y., 1928, 41; Metropholitan Museum of Art
9. Ibid., 41; Becker, 223; Mahaffy, *Greek Education*, 16, 19; Weigall, *Sappho*, 200
10. Plato, *Laws*, vii, 84
11. Plato, *Protagoras*, 826
12. Mahaffy, op. cit., 89
13. Becker, 224
14. Winckelmann, II, 296
15. Plato, *Protagoras*, 325
16. Aristotle, *Constitution*, 42
17. Gardner, *Ancient Athens*, 483; Mahaffy, op. cit., 76
18. Lycurgus, *Against Leocrates*, 75-89, in Botsford; and Sihler, 478. On its aubtenticity cf. Mahaffy, op. cit., 71
19. Diog. L., "Aristotle," xi
20. Tucker, 173; Weigall, 184
21. Plutarch, *Moralia*, 249B
22. CAH, II, 22-3
23. Becker 456,
24. Carroll, 172
25. Tucker, 125-7
26. Ibid
27. Plutarch, *Moralia*, 228B; *Athenaeus* xv, 84
28. Weigall, 189, 206-7; Carroll, 178
29. Eubulus, *Flower Girls*, in Tucker, 173-4, and Lacroix, I, 101-2
30. Weigall, 187
31. Athenaeus, xv, 45
32. Glotz, 278
33. Wright, F. A., *History of Later, Greek Literature*, N. Y., 1932, 19
34. Zimmern, 215
35. Tucker, 120
36. Coulanges, 294
37. *Greek Anthology*, x, 125
38. Voltaire, *Works*, N.Y., 1927, IV, 71

39. Thucydides, ii, 6; Mahaffy, *Social Life*, 295; Hobhouse, L. T., *Morals in Evolution*, N.Y., 1916, 347; Glotz, *Greek City*, 131
40. Vinogradoff, II, 54-5
40a. Aristotle, in Sedgwick and Tyler, *Short History of Science*, N.Y., 1927, 102
41. Glotz, *Ancient Greece*, 290; Becker, 280; Tucker, 150
42. Ibid., 123
43. Grote, V, 53
44. Thucydides, ii, 10.82
45. Pausanias, vii, 9-10; Plutarch, Artaxerxes II."
46. Xenophon, *Cyropaedia*, Loeb Library, I, 6.27
47. Thucydides, i, 3.76
48. Ibid., v, 17
49. Ibid., iii, 9.34
50. Ibid., v, 32.116; vi, 20.95; Polybius, iii, 86; Couldangel, 275
51. Thucydides, ii, 7.67.
52. Plutarch, "Alcibiades."
53. Plato, *Laws*, viii, 881
54. Herod., v, 78
58. Aristophanes, *Eccl.*, 720; Becker, 241
59. Ibid., 243
61. Demosthenes, *Against Neaera*; Becker, 244
62. Lacroix, I, 124, 129
63. Ibid., 112
64. Ibid., 85
65. Briffault, II, 340
66. Mahaffy, *Greek Life and Thought*, London, 1887, 72
67, Lacroix, I, 88
68. CAH, V, 175
69. Lacroix, I, 166
70. Ibid., 162
71. Becker, 248
72. Athenaeus, xiii, 59
73. Ibid.,
74. Ibid., 58
75. Ibid., 82
76. Lacroix, I, 180
77. Ibid., 179
78. Athenaeus, xiii, 54
79. Lacroix, I; 182-3
80. Ibid., 145-6
81. Ellis, H., *Studies in the Psychology of Sex*, Phila., 1911, VI, 184
82. Murray, *Aristophanes*, 45
83. Plutarch, "Lycurgus"; Strabo, x, 4.21
84. Plutarch, "Pelopidas."
85. Diog. L., "Xenophon." vi
86. Cf. Plato, *Lysis*, 204
87. Plato, *Symposium*, 180f, 192
88. Lacroix, I, 118, 126
89. Bebel, 87; Hime, 52
90. Whibley, 612
91. Carroll, 307
92. Sophocles, *Trachinian Women*, 443
92a. Tr. by J.S. Phillimore in *Oxford Book of Greek Verse in Translation*, 367
93. Becker, 478
94. Athenaeus, xiii, 16
95. Sumner, *Folkways*, 862; Beker, 478.
96. Tucker, 83
97. Carroll, 164
98. Euripides, *Medea*, 288
99. Coulangel, 63, 298; Becker, 475 Briffault, II, 326
100. Zimmern, 334, 343
101. Euripides, *Aeolus*, 22
102. Demosthenes, *Against Neaera*; Smith, Wm., *Dictionary*, 349, s.v., *Concubinum*.
103. Glotz, *Greek City*, 296; Zimmern, 340 Zeller, Ed., *Socrates and the Socratic Schools*, London, 1877, 62, questions the story and the law
104. Westermarck, E., *History of Human Marriage*, London, 1921 III, 319; Becker, 497; *Lyra Graeca*, II, 135
105. Lacroix, I, 114; *Enc. Brit.*, X, 828; Becker, 496
106. Tucker, 84; Westermark, op. cit., 319; Lacroix, I, 143
107. Westermarck, l.c.; Coulanges, 119
108. Thuc., ii, 6
109. Lacroix, I, 143

110. Becker, 464 : Tucker 83-4.
111. Summer, *Folkways*, 497 ; Briffault, I, 405.
112. Tucker, 156.
113. Aristrophanes, *Lysistrata*, 42f.
114. In Tucker, 84.
115. *Greek Anthology*, vii, 340.
116. Botsford and Sihler, 51.
117. Tucker, 90-6.
118. Semple, 490-1.
119. Athenaeus, i, 10.
120. *Greek Anthology*, xi, 413.
121. Atheaeus, v ٤.
122. Xenophon, *Banquet* ii, 8.
123. Mafaffy, *Social Life*, 120-1.
124. Coulanges, 422.
125. Plato, *Republic*, iv, 425.
126. Tucker, 270.
127. Semple, l.c.
128 Rohde, 167.
129. Harrison, *Prolegomena* 600 ; Westermarck, E., *Origin and Development of the Moral Ideas*, London, 1917-24, I, 716

CHAPTER XIV

1. Xenophon, *Economicus*, viii, 19f
2. Thuc., ii, 6.40
3. Xenophon, *Bonruet*, iv, 11
4. In Ridder, 48
5. Usher, A.P., *History of Mechanical Inventions*, N.Y., 106-7
6. Cf. the gems in the Fourth Room of the Classical Collection Metropolitan Museum of Art, New York.
7. Pfuhl, 5.
8. Ridder, 287
9. Pliny, xxxv, 34
10. Mahaffy, *Sicial Life*, 449-50; Ridder, 19
11. Plutarch, "Cimon."
12. Pausanias, x, 25
13. Pliny, xxxv, 35; Winckelman, II, 299
14. Pliny, xxxv, 86
15. Ibid.
16. Plutarch, "Pericles."
17. Pliny, l.c.
18. Athenaeus, xxi, 62
19. Murray, A.S., I, 18
20. Pliny, l.c.
21. Cicero, *De Invent.*. ii, 1, in Murry, A. S., I, 12, Pliny, l.c., places the story in Acragas.
22. National Museum, Naples; *Guide to the Archeological Collection*, Naples, 1935, 11.
23. Notional Museum, Athens.
24. Xenophon, *Memorebilia*, ii, 10.7
25. Ripder, 177
26. Fardner, *Greek Sculpture*, 20-1
27. Pliny, xxxiv, 19
28. Ibid.
29. Pijoan, I, 264
30. Cf. Lucian, "A Portrait Study," in *Works*, III, 15-16
31. Jones, H. S., *Ancient Writers on Greek Sclpture*, 78.
32. Glotz, *Ancient Greece*, 281.
33. Cf. Jones, op. cit., 76; Gardner, *Greek Sculpture*, 284; Frazer, *Studies in Greek Scenery*, 411; CAH, V, 479
34. Pijoan, 1, 269
35. Pausanias, v, 11; Strabo, viii, 3-80
36. *Iliad*, i, 528
37. Pausanias, v, 11
38. Polybius, xxx, 10
39. Frayer, op. cit., 293
40. Quintilian, *Institutes*, Loeb Libary, xii, 1.07
41. Plutarch. "Pericles."
42. Scholiast on Aristophanes, *Peace*, 605, in Jones, op. cit., 76.
43. Lucian, l.c.
44. Vitruvius, iv, 1.8.
45. Cotterill, I, 75
46. Pausanias, v, 10
47. Zimmern, 411, Grote (VI, 70) makes a smaller estimate ($ 18,000,000) for the architectural works in Athens proper.
48. Warren, 156
49. Ibid., 881
50. Vitruvius, iii, 5
51. Ruskin *Aratra Pentelici*, 174 ;

Gardner, *Ancient Athens*, 838; Gardne, *Greek Sculpture*, 894

52. Warren, 397, 389-41; Mahaffy, *What Have the Greek?* 130
53. Ludwing, 1891.
54. Warren 310-11; Gardner *Ancient Athens*, 258

CHAPTER XV

1. Heath, *Greek Mathematics*, I, 46 Whibly, 928-9
2. Heath, I, 150
3. Sarton, 92
4. Sedgwick and Tyler, 88
5. Heath, I, 176, 178
6. CAH, V, 883
7. Heath, I 98
8. Diog. L., 384, "Parmenides" ii; Sarton, 85
9. Aristotle, *De Coelo*, ii, 18; Heath, Sir Thos., *Aristarchus of samos*, Oxford, 1913, 94
10. Diog. L., 389; "Leucippus," iii.
11. Ibid., 890; Heath, *Aristarches*, 125.
11a. Sarton, 92
12. Heath, 78
13. Anaxagoras, frags. 12 and 16, in Bakewell, 51; Ueberweg, I, 68-5; CAH, IV, 570.
14. Heath, 81.
15. Ibid, 82.
16. Ueberweg, I, 66.
17. Diog. L., 59 60, "Anaxagoras," iv.
18. Heath, 138.
19. Ibid., 79.
20. Anaxagoras, frag. 4, in Bakewell, 49.
21. Diog. L., l.c.
22. Frags. 6 and 17, in Bakewell, 5; Diog. L., l.c.
23. Frag.9, in Bakewell, 51; Arisotle *Metaphysics*, i 3, *De Coelo*, iii; 8, *De, Generatione et Corruptione*, i, 1; Lucretius, *De Rerum Natura*, Loeb Library, i, 83 of.
24. Diog. L , l.c.
25. Aristole, *De Partibus Animalian*, i, 10, iv, 10.
26. Aristotle, *Metapphsics*, i, 4.
27. Nilson, 274.
28. Diog. L., 61, "Anaxgoras," viii; Robertson, J.M., I, 153.
29. Plutarch, "Pericles."
30. Murray, *Greek Literature*, 159.
31. CAH, IV, 569-70.
32. Heath, *Greek Math.*, I, 172.
33. Diog. L., 61, "Anaxagoras," ix.
34. Germinus in Heath, *Aristrchus* 275.
35. Herod., ii, 4, and Rawlinson's note; Whibley, 71.
36. Grote, II, 29-30.
37. Herod., ii, 4.
38. Sarton, 88.
39. Semple, 85-7.
40. Ibid.
41. Cf. Sect. III. of Chap. XVI, below; and cf. Aeschylus, *Prometheus Bound*, 442-506.
42. Gardner, *New Chapters* 269.
43. Sarton, 88.
44. Herod., iii, 125-38.
45. Sarton, 77.
46. Ibid. Livingstone, *Legacy*, 209.
47. Sarton, 102.
48. Garrison, F. H., *History of Medicine*, Phila., 1929, 95.
49. Hippocrates, *Works*, I, Introd., by W.H S. Jones.
50. Ibid., IV, "Aphorisms." i.
51. "The Sacred Disease"; Airs, Waters, Places," xxii.
52. Hippocrates, *Works*, II, Introd., viii; I, Introd., xxiv; Garrison, 94.
53. Ibid., IV, "The Nature of Man," iv, 10.
54. Ibid., "Regimen III," lxviii.
55. Livingstone, 234.
56. Garrison, 94; Hippocrates J, Introd., lvi.
57. IV, Introd., viii.
58. Harding, T.S, in *Medical Journal and Record*, aug., 1, 1928.
59. Hipphocrates, IV, Introd., vii, Hippocrates settles a very ancient problem when he writes :

"It is best for flatulence to pass without noise and breaking, though it is better for it to pass even with noise than to be intercepted and accumulated internally." — *Works*, IV, "Prognostic," 11.
60. In Livingstone, 285.
61. Hippocrates IV."Regimen, III," lxviii.
62. Sarton, 96.
63. Livingstone, 108.
64. Hippocrates, II, "The Sacred Disease," xvii.
65. Xenophon, "Constitution of the Lacedaemonians," xii, 6; Mahaffy *Social Life*, 293; Becker, 380; Garrison, 91; Hippocrates, *Works*, I, 299.
66. Garrison. 97; Livingstone, 225.
67. Ibid., 140.
68. I am indebted, for explanation of the material at Epidaurus, to Dr. A. A. Smith, of Hastings Neb.
69. Livingstone, 225.
70. Plato, *Laws*, iv, 720.
71. Carroll, 824-5; Mahaffy, *Social Life*, 297.
72. Xenophon, *Memorabilia*, iv, 2; Garrison, 91: Becker, 376.
73. Ibid., 291; Garrison, 90; Plato, *Statesman*, 259.
74. Hippocrates, II, "Law," I, and Introd. to Essay VI.
75. I. 291- .
76. Ibid., 299.
77. Becker, 379.
78. Hippocrates, II, Decorum," vii; "Precepts," vi.
79. "Decorum," v.

CHAPTER XVI

1. Athenaeus, xii, 62.
2. Plato, *Protagoras*, 334, 389.
3. Symonds, 116; Owen, John, *Evenings with the Sceptics*, London, 1881, I, 177.
4. Bakewell, 11.
5. Ibid., 22; the conclusion is rephrased.
6. Plato, *Parmenides*, 127.
7. Russell, B., *Principles of Mathematics*, London, 1903, I, 347.
8. Plutarch, "Pericles."
9. Plato, l.c.
10. Diog. L., "Zeno," iv.
11. Ibid.
12. Tredennick, H., Introd. to Aristotle, *Metaphysics*, Lobe Library, xvii; CAH, IV, 575-6.
13. Heath, *Aristarchus*, 105.
14. Tredennick, l.c.
15. Leucippus, frang. 2 in Bakewell,
16. Diog. L., "Leucippus," i-iii.
17. Lange, F-E., *History of Materialism*, N.Y., 1925, 15.
18. Diog. L., "Democritus." ii-iii.
19. Ibid.
20. Lange. 17.
22. *Enc. Brit.*, XVII, 39.
23. Grote, G., *Plato and the Other Companions of Socrates*, London. 1875, I, 68; Bakewell, 62.
24. Robertson, J. M., I. 158; Lange 17.
25. Diog. L., "Democritus," xiii.
26. Heath, *Greek Math.*, I, 176.
27. Cicero, *De Oratore*, I, 11; Ueberweg, I, 68: Grote, *Plato*, I, 68,96.
28. Bacon, F., *Philosophical Works*, ed. Robertson, London, 1905, 96, 471-2, 650.
29. Democritus, frag. O (Diels) in Bakewell, 60.
30. Frags. 117 and 9 in Bakewell,60.
31. Ueberweg, I, 70.
32. Lange, 27.
32. Ueberweg, I, 96-70; Grote, *Plato*, I, 77.
34. Ibid., 76.
35. Diog. L., "Democritus," xii.
36. Heath, *Aristarchus*, 26, 127.
37. Ueberweg, l.c.
38. Grote, *Plato*, I, 78.
39. Lucretius, III, 370.
42. In Plutarch, *Moralia*, 81.

43. Owen, I, 149.
44. Lange, 31; Diog. L., "Democritus," xii; Ueberweg, l.c.
45. Frag. 164a in Bakewell, 68.
46. Frag. 57.
47. In Owen, I, 149.
48. Ueberweg, I, 68.
49. Athenaeus, ii, 26.
50. Ibid.; Lucretius, iii, 1039.
51. Diog. L., "Democritus," xi.
52. Athenaeus, l.c.
53. Diog. L., "Democritus," viii.
54. Id., "Empedocles," ii.
55. In Symonds 127.
56. Murray, Greek Literature, 76.
57. Symonds, 127.
58. Diog. L., "Empedocles," iii.
59. Ibid., "Empedocles," xi.
60. Ibid., Symonds, 131.
61. Diog. L., "Empedocles," ix
63. CAH, IV, 563
64. Aristotle, *De Anima*, ii, 6; *De Sensu*, vi
65. Symonds, 148
68. Empedocles, frag. 89 in Bakewell, 45
69. In Aristotle, *De Coelo*, iii, 2
70. Ueberweg, I, 62
71. Symonds, 143
72. Frags. 17 and 35 in Bakewell, 44-5
73. Cf. Frazer, *Spirits of the Corn*, II, 303
74. Frags. 133-4 in Bakewell, 46
75. Symonds, 187
76. Livingstone, 46
77. Symonds, 186
78. Diog. L., "Empedocles," x
79. Ibid., "Empedocles," xi
80. Ibid; Symonds, 131
81. Plato, *Protagoras*, 318
82. Grote *History*, VI, 46
83. CAH, V, 24, 377-8
84. Plato, *Protagoras*, 309-10
85. Ueberweg, I, 74
86. Plato, *Protag.*, 311
87. Ibid., 328
88. Diog. L. "Protagoras," iv
89. Plato, *Phaedrus*, 267
90. Ueberweg, I, 75; Sarton, 88
91. Euripides, frag. 189, quoted by Rohde, 488
92. Plato, *Theaetetus*, 160; Bakewell 67; Lange, 42
93. Diog. L., l.c; Bakewell, 67
94. Diog. L., l.c.; Ueberweg, I, 74
95. Bakewell, 67
96. Isocrates, *Antidosis*, 155
97. Philostratus, *Lives of the Sophists*, Loeb Library $ 494
98. Grote, VIII, 343
99. Ueberweg, I, 77
100. Philostratus, 488
101 Plato, *Requblic*, i, 336f; Oxyrhynchus Papyri xi, 1364. in Vinogradoff, II, 29; Murray, *Greek Literature*, 161
102. Plato, *Sophist*, 265
103. Murray, *Aristophanes*, 142
104. Ibid
105. Murray, *Greek Literature*, 160
106. Zeller, 36
107. Plato, *Gorgias*, 502
108. Plato, *Cratylus*, 384
109. Xenophon, *Memorabilia*, I, 6.13
110. Plutarch, *Dec. Orat.*, iv in Becker, 235
111. Aristotle, *Soph. Elenchis*, I. 165
112. Grote, VIII, 326
113. Diog. L., "Plato," xxv
114. Aristotle, *Ethics*, 1109, 1116, 1144, 1164
115. Livingstone, 79
116. CAH, VI, 303
117. plutarch, *De Malig. Herod.*, ix, 856, in Dupréel E., *La Légende Socratique*, Bruxelles, 1922, 415
118. Mahaffy, *Social Life*, 205-6
119. Pausanias, I, 22
120. Diog. L., "Socrates," iv
121. CAH, V, 386
122. Plato, *Apo ogy*,28*Republic*, 337; Xenophon, *Memor.*, I, 2.1
124. Plato, *Symposium*, 220-1
125. *Repuplic*, 549
128 Aristotle in Diog. L., "Socrates, x
129 Cf. McClure, M., in Dewey, J., and Others : *Studies in the*

History of Ideas, Columbia U. P.; 1935, II, 31
130. Plato *Symposium*, 214
131. Xenophon, *Banquet*, ii, 19
132. Plato, *Phredrus*, 229
133. Diog. L., "Socrates," ix
134. Xenophon, *Banquet* ii, 24
135. Diog. L., l c.
136. Plato, *Charmides*, 154-5
137. Id., *Protagoras*, 309
138. Id., *Lysis*, 206; Xenophon, *Memor.*, iii, 11
139. Ibid
140. Ibid., iv, 6
141. Plato, *Phaedo*, end
142. CAH, V, 387-8
143. Diog. L., "Socrates," iii; Robertson, J. L., l, 160
144. Plato, *Apology*, 41
145. Xenophon, *Banquet*, i, 5
146. Diog. L., "Socrates," xviii
147. Xenophon, *Memor.*, i, 2.16
148. In Pater, 179 .
149. Plato, *Protag*. 338, 361
150. Xenophon, iv, 4.9
151. Plato, *Theaetetus*, 150
152. Grote VII, 92; Mahaffy, *Greek Education*. 84
153. Cf., e.g., *Charmides*, 159, 161; *Protag.*, 331, 350; *Lysis passim*.
154. Diog. L., "Crio," i.
155. Xenophon, ii, 6.28
156. Ibid., i, 6
157. Ibid
158. Diog. L., "Socrates," xiv
159. Xenophon, iv, 1.1
160. Diog. L., "Crito," i.
161. Plato, *Symposium*, 215, 216
162. Sextus Empiricus, *Opera*, Leipzig, 1840, *Adversus Mathematicos*, ix, 45; Botsford and Sihler, 369; Nilsson, 269; Symonds.
163. Zeller, 205, 208
164. Athenaeus, xii, 534
165. Plato, *Meno*, 94
166. Xenophon, *Memor.*, i, 1.2; i, 8.4; ii, 6.8; iv, 7.10; Plato, *Symposium*, 220; *Phaedo*, 118; *Apology*, 21
167. Zeller, 82
168. Plato, *Apology*, 29
169. Id , *Cratylus* 425
170. Xenophon, *Memor.*, i, II.II
171. Ibid., iv, 8-16
172. iv, 7
174. i, 1. 16
175. iv, 2 24
176. iii, 8.3; iv, 5 9
178. iii, 9.5
179. i, 2.9
180. iii, 5.15-17
181. iv, 6.12
182. CAH, VI, 309
183. Xenophon, *Apology*, end

CHAPTER XVII

1. Pausanias, ix. 22
2. *Lyra Graeca*, III, 9; II, 246
3. Pausanias, ix, 23
4. Pindar, *Olympic Ode* xiv, 5
5. *Olympic Odes* i-ii
6. Frag. 76 in Pindar, *Odes*, p. 557
7. CAH, IV. 511
8. Symonds, 214
9. *Lyra Graeca*, III, 7
10. Pausanias, ix, 23
11. *Olympic* i, 64
12. Frag. 131
13. *Olympic* ii, 56f, tr. C. J. Billson, *Oxford Book of Greek Verse in Translation*, 294
14. Pindar, *Pythian Ode* i, 81
15. *Pythian* iv, 272
16. *Pythian* viii, 92, tr. G. Murray
17. *Paean* iv, 32
18. Symonds, 216
19. S.v. Pratinas, *Lyra Graeca*, III
20. Aristophanes, II, 82 editor's note
21. Haigh, 37
22. Ibid., 64
23. Mahaffy, *Social Life*, 469; Symonds, 380
24. Haigh, 266
25. *Lyra Graeca*, III, 263
26. Aristotle, *Rhetoric*, Loeb Library, iii, 1.
27. Ward, II. 311.

28. Lucian, "Of Pantomime," 27.
29. Haigh, 325-7.
30. Ibid., 327-335.
31. Flckinger, R. C., *Greek Theater and Its Drama*, University of Chicago Press, 1918, 132.
32. Haigh, 348.
33. Ibid., 345; Norwood, *Greek Drama*, 83.
34. Haigh, 344.
35. Ibid., 12, 24.
36. Ferguson, 69.
37. Haigh, 84.
38. Plato, *Laws*, 659, 700.
39. Herod., vi, 21.
40. CAH, IV, 172.
41. Haigh, 15.
42. Aeschylus, *Prometheus Bound*, 18f, tr. Elizabeth Barrett Browinng, in *Greek Dramas*, N.Y, 1912, pp. 5-6.
43. Ibid., II, 459f.
44. Tr. in Murray, *Greek Literature*, 119.
45. Schleged, A. W., *Lectures on Dramatic Art and Literature*, London, 1846, 93. On the 1849, 93. on the "paradox of *Prometheus Bound*," — an antitheistic play by the most pious of Greek dramatists, cf. *Journal of Hellenic Studies*, LIII, 40f, and LIV, 14f.
46. Mahaffy, *Social Life*, 150; Symonds, 260; Murray, *Greek Literature*, 221.
47. Aeschylus, *Agamemnon*, II. 218f, tr. G. Murrary, *Oresteia*, p. 44.
48. Tr. Milman in Mahaffy *Social Life*, 152.
49. *Agamemnon*, 1445f, *Oresteia*, P100.
50. *Choephoroe*, 102-41, *Oresteia*, 188.
51. Athenaeus, i, 39.
52. Schlegel. 95.
53. *Agamemnon*, II. 55f.
54. Ibid., 160.
55. *Eumenides*, end.
56. Murry, *Greek, Literature*, 215.
57. Botsford and Schlegel, 94.
58. Athenaeus, i, 37; Schlegel, 97; Taine. H., *Lectures on Art*. N. Y., 1901, II, 483; Plumptre, E. H., Introd. to *Tragedies of Sophocles*, London, 1867, p. xxxvi.
59. Sophocles, *Works*, tr. F. Storr, Loeb Library, I, Inrod, vii.
60. Symonds, 278.
61. Athenaeus, xiii, 81.
62. Mahaffy, *Greek, Literature* II, 57.
63. Murray, *Greek Literature*, 234.
64. Symonds, 290.
65. Sophocles, *Oedipus the King*, 98 of.
66. *Oedipus at Colonus*, 668f tr. Walter Headlam, *Oxford Book of Greek Verse in Translation*, 378
67. *Oedipus at Colonus*, 607f, tr. Murray, *Greek Literature*, 249.
68. *Oed. Col*, 1648f, tr Murray.
69. *Antigone*, 332f, tr. Storr.
70. Ibid., 786f.
71. Ibid., 122of.
72. Murray, *Greek Literature*, 288.
73. *Trachinian Women*, 1265f.
74. *Philocteles* 451-2.
75. *Electra*, 473f.
76. *Oedipus the King*, 863f.
77. *Oed. Col.*, 1211f, slightly transposed, tr. A. E. Housman. in *Oxford Book of Greek Verse in Translation*, 378.. Cf. to like effect *Oedipus the King* 1187-95 and 1529-30.
78. Athenaeus, xiii, 61
79. Symonds, 278.
80. Mahaffy, *Greek Literature*, II, 97.
81. Murray, *Gk. Lit.*, 261.
82. Strabo, xiv, 1-36.
83. Diog. L., "Socrates," ii.
84. Euripides, *Hippolytus*, 191-7, in Murray *Gk. Lit.*, 12.
85. Murray, op. cit., 84.
86. Euripides, *Medea*, 41of, tr. G. Murray, Oxford, 1912, p. 15.
87. Herod. ii, 120.
88. *Iphigenia in Aulis*, 686-54, tr. A. S. Way, Loeb Library.

89. *Iph. in Aulis*, tr. Webb in Mahaffy, *Social Life*, 202-4.
90. *Iph. in Aulis*, 1369-84, tr. A. S. Way.
91. *Hecuba*, 488f, tr. Way.
92. Murray, *Gk. Lit.* 137.
93. *Trojan Women*, tr. G. Murray, Oxford, 1914.
94. Euripides, *Electra*, tr. Murray, Oxford, 1907, p. 77.
95. Euripides, *Iphigenia, in Tauris*, tr. Murray, Oxford, 1930.
96. Aristotle, *Poetics*. xiii, 4.
97. Verrall, A. W., *Euripides the Rationalist*, Cambridge Univ. Press, 1913, 176 and *passim*.
98. Elizbeth Barrett Browning referred to "Euripides the human, with his droppings of warm tears."
99. *Iph. Aulis*, 957.
100. *Helen* 744f, tr. Way.
101. *Ion*, 374-8; *Iph. in T.*, 570-5; *Electra*, 400; *Bacchae*, 255-7; *Hippolytus*, 1059; Roberson, I, 162.
102. Euripides, *Electra*, tr. Murray, p. 87; *Heracles*, 1341; *Iph. in T.*, 386.
103. *Bellerophontes*, 298, tr. Symond, 368; cf. *Helen*, 1137.
104. *Iph. in T.*, tr. Murray, p. 82.
105. *Helen*, 1688.
106. Verrall, 79.
107. *Trojan Women*, 884.
108. *Hecuba*, 282.
109. *Trojan Women*, prologue.
109a. *Cresphontes*, frag.
110. *Hippolytus* and the *Sthenoboea* and *Chrysippus*.
111. *Andromeda*, 135. t., Symonds, 363.
112. Norwood, 311.
113. Euripides, *Medea*, tr., Murray, p. 67.
114. Frag. 157 in Rohde, 436.
115. *Electra*, tr., Murray, p. 78.
116. Rohde, 437.
117. An uncertain frag. tr. Symonds, 367.
118. A frag, in Symonds, 366.
119. Aristophanes, *Frogs*, 552; Athenaeus, i, 41.
120. Symonds, 426.
121. Mahaffy, *Gk. Lit.*, II, 98.
122. Pater, 122.
123. Plutarch, "Nicias."
124. *Greek Anthology*, ix, 450.
125. Quoted by Murray, *Euripides and His Age*, N.Y., 1918, 10.
126. Murray, *Gk. Lit.*, 277.
127. Aristophanes, I, 117.
128. Haigh, 260.
129. Murray, *Aristophanes*, 102.
130. Zeller, 203.
131. Aristophanes, I, 91.
132. Ibid., 314, 319
133. E.g. *Thesmophoriazusae* II, 286; *Knights*, I, 11; *Ecclesiazusae*, II, 378.
134. *Knights*, I, 31.
135. *Peace*, I, 194. In *The Birds* he calls Heracles a bastard (I, 173); and in *Frogs* he makes Dionysus a coward, an onanist, a lecher, and a clown.
136. Philostratus, 483.
137. Lucian, "Herodotus and Aetion," 1; Bury, J. B., *Ancient Greek Historians*, N. Y., 1909, 95; Mahaffy, *Gk. Lit.*, II, 18; Murray, *Gk. Lit.*, 134.
138. Herod., I, 1.
139. Gibbon, Ed., *Decline and Fall of the Roman Empire*, Everyman Library, I, 77, ch. iii.
140. Strabo, xvii, 1.52.
141. Herod., iii, 101.
142. Ibid., i, 68.
143. iii, 88; ii, 3.
144. E.g., vii, 189, 191.
145. vii, 152.
146. Lucian, l.c.
147. Thuc., i, 1. 21-23.
148. Mahaffy, *Social Life*, 208.
149. Thuc., ii, 45.
150. Ibid., viii, 24; II, 17.
151. *Gk. Lit.*, 1.

CHAPTER XVIII

1. Diog. L., "Empedocles," vii.

2. Athenaeus, xii, 84
3. Aristophanes, *Acharnians*, I, 111
4. Glotz, *Ancient Greece*, 314
5. Grote, V, 390
6. Thuc., iii, 87
7. Ibid , i, 3-75
8. Plutarch, "Pericles."
9. Thuc., ii, 6.8
10. Ibid , i, 2.68-66; i, 5.189-46
11. Jones, W. H. S., *Malaria and Greek Histoy*, 182
12. Plutarch, "Tiberius Graechus."
13. Aristode, *Constitution*, 28
14. Thuc., iii, 9.48-50
15. Ibid., v, 15.22-3
16. v, 17.84f
17. Plutarch, "Alcibiades."
18. Ibid.
19. Xenophon, *Memor* , i, 1.49
20. Athenaeus, i, 5
21. Benson, *Alcibiades*, 162
22. Plutarch, l.c.
23. Thuc., 18.18
24. Ibid., 20.89
25. viii, 23.18
26. viii, 26.97; Aristotle, *Constitution*, 33
27. Xenophon, *Hellenica*, Loeb Library, i, 4.18
28. Aristotle, *Constitution*, 34
29. Plutarch, "Lysandet."
30. Isocrates, *Areopagiticus*, 66
31. Aristotle, op. cit, 40
32. Murray, *Gk. Lit.*, 176
33. Xenophon, *Memor.*, i, 2.82
34. Grote, IV, 68
35. Ueberweg, I, 81
36. In Reinach, 96
37. Plato, *Apology*, 38
38. Ibid., 27
39. 18
40. 29
41. 30
42. Diog. L., "Socates," xxi
45. Plato, *Crito*
46. Xenophon, *Memor.*, iv, 8.1
47. Plato, *Phaedo*, 59-60
48. Ibid., 89
49. Xenophon, *Apology*, 28
50. Diodorus, xiv, 37
51. In Zeller, 201
52. Plutarch, *De Invid*, 6, in Zeller
53. Diog. L., "Socrates," xxii
54. Grote, IV, 88
55. Tertullian, *Apology*, 14, and Augustine, *City of God*, viii, 3, 3, in Zeller, 201

CHAPTER XIX

1. Aristotle, *Physics*, Loeb Library, 1269-70; Plutarch. "Lysanber," "Lycurgus."
2. Glotz, *Greek city*, 300
3. Aristotle, *Physics*, 1270
4. Xenophon, *Anabasis*, iv, 7-22
5. Plutarch, *Moralia*, 190f.
6. Plutarch, "Agesilaus."
7. Plutarch *Moralia*, 39
8. Ibid., 192 C.
9. Aristotle, *Physics*, 1270
10. Glotz, *Ancient Greece*, 199
11. Xenophon, "On the Revenues," in *Minor Works*.
12. Calhoun, 46-8, 98-4, 101
13. Glotz, *Anc. G.*, 804 ; CAH, VI, 79
14. Calhoun, 109
15. Ibid. 116; Glotz, 306
16. Glotz. *Greek City*, 311; *Anc. G.*, 201
17. Glotz, *Gk. City*, 312-3
18. Plato, *Republic*, 312-3
19. Aristotle *Politics*, 1310
20. Isocrates, *Archidamus*, 67. Isocrates was writing of the Peloponnesian Greeks, but probably had his fellow Athenians in mind
21. Pöhlmann, I, 147
22. Plato, *Laws*, v. 736
23. Vinogradoff, II, 118; Glotz, *Gk City*, 318
24. Vinogradoff, I, 206
25. Isocrates, *Antidosis*, 159
26. Glòtz, *Gk City*, 328; Rostovtzeff, M., *Social and Economic History of the Roman Empire*, Oxford, 1926, 2; id., *History of the Ancient World*, Oxford, 1928, II 362; Coulanges, 498

27. Mahaffy, *Social Life*, 267, 273
28. Glotz, *Gk. City*, 296
29. Ibid.
30. Athenaeus, xiii, 38f; Lacroix, I, 168
31. Athenaeus, xii, 43
32. Aristotle, *History Animalium*, 583a
33. Gomme, 16, 26, 47; Athénaeus, vi, 272; Müller-Lyer, *Family*, 203; Gote, V, 338
34. Xenophon, *Hellenica*, vi, 1.5
35. Isocrates, *On the Peace*, 50
36. Aristotle, *Problems*, in Vinogradoff, II, 67
37. Demosthenes in Gloz, *Gk City*, 216
38. Aristotle, *Constitution*, 41
39. Aristophanes, *Clouds*, 991; Plato *Theaetetus*, 173
40. Isocrates, op. cit, 59
41. Grote, XI. 198
42. Diodorus, x, 4
43. Aristotle (?) *Economics*, ii, 2.20
44. *Lyra G.*, III, 866
45. Diog. L., "Plato," xiv; Plutarch, "Dion"; Diodorus, xv. 7; Grote, XI, 84-5. Taylor, A. E., *Plato*, N. Y., 1936, 5, questions the story
46. Plato, *Epistles*, Loeb Library, vii
47. Athenaeus, x, 47
48. Plutarch, l.c.
49. Plato, l.c.
50. Plutarch, l.c.
51. Athenaeus, xii, 58
52. In Weigall *Alexander the Great*, N. Y., 1933, 19
53. Adams, Brooks, *New Empire*, N. Y., 1903, 36
54. Athenaeus, xiii, 63
55. Mahaffy *Social Life*, 425-7
56. Glotz, *Gk, City*, 339
57. Philostratus, 507
58. Plutarch, "Phocion."
59. Philostratus, 61
60. Plutarch, "Alexander."

CHAPTER XX

1. Plutarch, "Demosthenes": *Moralia*, 6
2. Mahaffy, *Gk. Lit.*, IV, 137
3. Demosthenes, *On the Crown*, Loeb Library, 126, 258-9, 265
4. Murray, *Gk Lit.*, 369
5. Isocrates, *Antidosis*, 48
6. Grote, G., *Aristotle*, London, 1872, I, 31; Murray, 344
7. Isocrates, *Panegyricus*, 49
8. Ibid., 167
9. Ibid., 180
10. Isocrates, *On the Peace*, 94
11. Ibid., 13
12. Isocrates, *Areopagiticus*, 15, 70
13. *On the Peace*, 109
14. *Areopag.*, 20
15. Pausanias, i, 18; so Lucian and Philostratus; cf. Murray. 350
16. Milton's phrase, [illegible]
17. Diog, L., "Xenophon," i-ii
18. Aristophanes, *Clouds*, 226
19. Plutarch, *Moralia*, 212B.
20. Xenophon, *Economicus*, x, 1-10
21. Ibid., xix, 7
22. Quoted by Whibley, 180
23. Pausanias, viii, 46
24. Plutarch, "Alexander."
25. Cotterill, I, 108n.
26. Pliny, xxxv, 36, 40 Winckelmann, I, 219
27. Pliny, xxxv, 32
28. Ibid., xxxv, 36
29. Ibid.
30. Aelian, *Varia Historia*, ii, 3, in Weigall, *Alexander*, 186
31. Pliny, l c.
32. Vitruvius, ii, 8.14
35. Pausanias, i, 20
36. Gardner, *Greek Sculpture*, 397
37. Pausanias, v, 17
38. Ibid., viii, 9
39. They are listed in Murray, A. S., II, 253-4. Pliny alone mentions 28
40. Pausanias, vi, 25
41. Pliny, xxxvi, 41
42. Ibid., xxxiv, 19
43. Ibid.

CHAPTER XXI

1. Sarton 127
2. Plutarch, "Marcellus."
3. Aristotle, *Metaphyics*, i, 9
4. Plato, *Hippias Major*, 308
5. Sarton, 113
6. Aristotle, *Politics*, 1340
7. Sedgwick, 76
8. Heath, *Greek Math*, I, 209, 233, 252
8a. Ibid., 354
9. Dioh. L., "Eudoxus," i-iii; Strabo, ii, 5.14 Heath, I, 320; id., *Aristarchus*, 192; Grote, *Plato*, I, 124n; Ball, W. R., *short History of Mathematics*, London. 1888, 41
10. Heath, I. 328
11. Heath, *Aristarchus*, 208
12. Sarton, 118
13. Ibid., 141
14. Heath, *Aristarchus*, 276
15. Heath, I, 16
16. Arrian, *Indica*, London, 1893, chaps. xxxiii
17. Sarton, 120-1
18. Carroll, 325
19. In Zeller, 266
20. Zeller, 277
21. Athenaeus, xiii, 56
22. Vitruvius, ii, 6.1
23. Athenaeus, xii, 63
24. Zeller, 357, 361
25. Ibid., 362b
26. Diogt L., "Aristippus," iv
27. Ibid.
28. Ibid.
29. Ibid.
30. Ibid.
31. Zeller, 367
32. Carroll, 313
33. Ibid.
34. Plato, *Phaedo*, 64
35. Xenophon, *Banquet*, iii, 8
36 Diog. L., "Antisthenes," iv
37. Murray, *Five Stages*, 116
38. Diog. L., "Diogenes," iii
39. Ibid., iii, vi; Zeller, 326n
40. Diog. L., "Diogenes," vi.
41. Ibid.
42. Ibid, x.
43. Ibid., vi.
44. Ibid.
45. Weigall *Alexander*, 103
46. Arrian, *Anabasis of Alexander*, vii, 2; Diog. L., "Diogenes," vi.
47. Ibid., xi.
48. Zeller, 308
49. Diog. L., "Antisthens," iv.
50. Ibid, "Diohenes," vi.
51. Plutarch, *Moralia*, 21F.
52. Diog. L., l.c.
53. Zeller, 319
54. Ibid., 326
55. Diog. L., "Diog.," xi.
56. Murray, *Five Stages*, 118
57. Pöhlmann, 86-91
58. Zeller, 317
59. Plato, *Republic*, 372
60. Diog. L., "Plato," i.
61. Ibid., v,x.
62. viii-ix; Cicero, *De Finibus*, v, 29
62a. Plutarch. *De Exilio*, 10, in Capes, W. W., *University Life in Ancient Athens*, N. Y., 1922, 32.
63. Suidas, *Lexicon*, s.v. *Plato*, in Mahaffy, *Greek Education*, 122
64. Diog. L., "Plato," xi.
65. Mahaffy, op. cit., 128; Grote, *Plato*, I, 125
66. Heath, I, 11
67. Plato, *Republic*, 539
68. Heath, *Aristarchus*, 141
69. Plutarch, *Moralia*. 79
70. Plato, *Epistles*, vii, 531
71. Taylor, 508
72. Cf. *Epistles*, vii, 541
73. Athenaeus, xi, 112
74. Diog. L., "Cimon," i-iii, "Plato," xxxii.
75. Athenaeus, xi, 118
76. Taylor, 20
77. Plato, *Protag*, 334
78. *Symposium*, 175
79. *Euthypho*, 292
80. *Charmides*, 169

81. *Cratylus*
82. *Phaedo*, 106
83. *Theaetetus*, 161
84. Ibid., 158; *Epistles*, vii, 344
85. Aristotle *Meta*, i 5-6; iii, 2; xiii, 4; *Cratylus*, 440
86. Aristotle, *Meta.*, i, 9.16, etc.
87. Plato *Phaedo*, 65
88. Ibid., 74-5, *Theaetetus*, 185-7
89. Carrel, Alexis, *Man the Unknown*, N. Y. 1935, 236
90. Spinoza, *De Emendatione Intellectus*, Everyman Library. p. 269
91. *Phredrus*, 245
92. *Philebus*, 22
93. *Rep.*, 605
94. *Laws*, 966; *Phaedo*, 96
95. *Sophist*, 247
96. *Phaedrus*, 245; *Philebus*, 30
97. *Meno*, 81-2
98. *Gorgias*, 523
99. *Phaedo*, 69, 80-5, 110, 114; *Rep.*, 615f; *Timaeus*, 43-4
100. *Phaedo*, 91, 11
101. *Rep.*, 365
102. *Symp.*, 209
103. *Gorgias*. 482
104. Ibid., 495; *Rep.*, 619; *Philebus*, 66
105. *Rep.*, 441, 587
106. *Philebus*, 94-6
107. Ibid., 57-8
108. *Crito*, 49
109. Ibid., *Laws*, 951; *Phaedo*, 82
110. Aristotle, *Poetics*, i, 4
111. *Rep* 424.
112. Quoted by Symonds, 411
113. *Philebus*, 51; *Rep.*, 529
114. *Symp.*, 206
115. *Laws*, 636
116. *Symp.*, 201; *Phaedrus*, 244f
117. *Rep*, 500
118. *Epistles*, vii, 337
119. *Rep.*, 555
120. Ibid., 557
121. 562
122. 565
123. 567
124. 496
125. *Phaedrus*, 239
126. *Rep.*, 459
127. 478
128. *Statesman*, 297; *Epistles*, vii 337
129. *Laws*, 710
130. Ibid., 704
131. 968
132. 761
134. 744, 922-3
135. 785
136. 721, 774
137. 672
138. 885, 908-9
139. *Phaedo*, 66
140. Pater, 126
141. *Laws*. 7
142. Dioh. L., "Plato," xxv.
143. Calhoun, 125-7
144. Locy, W.A., *Growth of Biology* N. Y., 1925, 27
145. Athenaeus, xiii, 56
146. Grote, *Aristotle*, I, 8
147. Diog. L., "Aristotle," iv.
148. Grote, *Aristotle*, I, 43
149. Murray, *Greek Epic*, 99; CAH VI, 333
150. Aristotle. *Meta* iii, 8.7-9
151. Ibid., iv, 3.8
152. Aristotle, *On Generation*, i, 2
153. *Physics*, v, 8; vii, 1
154. Aristotle, *Mechanics*, iii, 848-50
155. *On the Havens*, ii, 14
146. *Meteorology*, i, 14
157. *Meta.*, xii, 8.21
158. Pliny, viii, 16
159. Aristotle, *Parts of Animals*, i, 5
160. *History of Animals* v, 21-2; ix, 39-40
161. Ibid., vi, 22
162. Aristotle (?), *Economics*, i, 3; a typically Aristotleian sentence in a work long attributed to Aristotle, but probably from a later hand
163. *History of Animals*, viii, 2
164. *Reproduction of Animals*, i, 15

165. Ibid., i, 21
166. iv, 1
167. *Hist. An.*, vi, 2-8
168. *Reprod. An*, ii, 1
169. Ibid., ii, 3
170. ii, 12
171. *Hist. An.*, vi, 2-3
172. Ibid.
173. i, 1
174. viii, 1
175. Ueberweg, I, 167
176. Sedgwick, 14
177. Lewes, G. H., *Aristotle: a Chapter in the History of Science*, London, 1864, 284, 361; Lange, 81
178. Lewes, 159
179. Aristotle, *Hist. An.*, ii, 3
180. *Parts of Animals*, ii, 7
181. Sarton, 128
182. Aristotle, *Politics*, 1254; Lewes,
183. Aristotle; *On the Soul*, ii, 1
184. Ibid., ii, 4
185. iii, 8
186. iii, 7
187. *Reprod An*, ii, 3
188. *Meta.*, viii, 4.4
189. *Poetics*, ii 8
190. *Meta.*, ix, 7
191. *Politics*, i, 8
192. Ibid., vi, 2
193. *Politics*, 1137b.
194. *Ethics*, 1097b, 1176b.
195. *Rhetoric*, i, 5.4, where, in a long list of things necessary for happiness, virtue comes in a poor last
196. *Ethics*, 1099a.
197. Ibid., 1153b.
198. *Rhetoric*, ii, 16.2
199. *Ethics*, 1178a.
200. Ibid., 1125b.
201. 1096a.
202. 1178b.
203. *Politics*, 1267a.
204. Ibid., 1275b.
205. 1258a.
206. 1296b.
207. *Ethics*, 1160ab.
208. *Rhetoric*, ii, 15.3.
209. *Politics*, 1268b.
210. Ibid., 1281a.
211. 1318b.
212. 1286a.
213. 1278a.
214. 1280a.
215. 1266b.
216. 1264b.
217. 1320a.
218. Ibid.
219. 1295a.
220. 1264
221. 1261b.
222. 1296b.
223. 1296a.
224. 1330a.
226. *Rhetorics*, i, 1.7
227. *Politics*, 1267a.
228. Ibid., 1265b.
230. In Ueberweg, I, 177
231. Pater, 141

CHAPTER XXII

1. Plutarch, *Moralia*, 178F
2. Mahaffy, *Greek Life and thought*, 18
3. Plutarch, "Alexander."
4. Weigall, *Alexander*, 235
5. Ibid.
6. Plutarch, *Moralia*, 127B.
8. Id., *Moralia*, 180A.
9. Id., "Alexander."
10. Ibid; Arrian, i, 17
11. Weigall, 50
12. Plutarch, *Moralia*, 179E
13. Id., "Alexander."
14. Arrian, vi., 28
15. Ibid., iii, 6
16. Grote, *History*, XI, 85
17. Weigall, 85
18. Arrian, i, 8
19. Weigall, 97
20. Plutarch, "Alexander."
21. Ibid.
22. Arrian, vii, 9
23. Plutarch, l.c.
24. Vitruvius, ii, 2
25. Plutarch, *Moralia*, 180

26. CAH, VI, 384
27. Arrian iv, 7
28. Ibid., vi, 26
29. vii, 4
30. Plutarch, "Alexander."
31. Grote, XII, 89
32. Athenaeus, xii, 35
33. Plutarch, *Moralia*, 180D.
34. Weigall, 146
35. Plutarch. "Alexander."; Arrian,
36. Lucian, *Dialogues of the Dead*,
37. Cf. Arrian, iv, 9-11
38. Ibid., vii, 11
39. vii, 9-10
40. ii, 19
41. Plutarch, "Alexander"; Arrian,
42. Plutarch, l.c.
43. Grote, *Aristotle*, I, 28
44. Diog. L., "Aristotle," vii
45. Thrasybulus in Grote, *History*, VIII, 263

CHAPTER XXIII

1. Mahaffay, *Greek Life and Thought*, pp. xxx, 112
2. Ibid., 56; Plutarch, "Demetrius
3. Ibid.
4. Pausanias, x. 19
5. Ibid., 22
6. Livy, T. L., *History of Rome*, xxxviii, 16; CAH, VII, 103-7
7. Polybius, iv. 77; Pausanias, ii. 9, vii, 7; Plutarch, "Aratus."
8. Athenaeus, vi, 103
9. Heitland, W. E., *Agricola*, Cambridge University Press, 1921
10. Plato, *Critias*, 111
11. Rostovtzeff, M. *History of the Ancient World*, Oxford, 1930, I, 320
12. Cf. Tarn, W. W., *Hellenistic Civilization*, London, 1927, 90
13. Vinogradoff, II, 108-9
14. Glotz, *Ancient Greece*, 366
15. Ibid 364
16. Ibid.
17. Ibid., 381-3; Tarn, 95
18. Tarn, 102; Heitland, 63; Glotz, 369
19. CAH, VII, 740
20. Ibid.
20a. Ibid., 266, 741; Tran, 104
21. Ibid., 34
22. Glotz, 333
23. Polybius, vi, 9; vii, 10; xv, 21 Glotz, *Greek City*, 328
23a. Diodorus Sic., V, 41-6
24. Bentwich, Norman, *Hellenism*, Phila, 1919, 62
25. Athenaeus, xii, 18
26. Tarn, 82
27. Theocritus, Idyl ii.
28. Lacroix, I, 188-9
29. Athenaeus, in Becker, 344
30. Glotz, *Ancient Greece*, 298 Tarn; 86
31. Ibid., 88
32. Polybius, xxxvi, 17
33. Plutarch, "Agis."
34. Glotz, *Ancient Greece*, 346
35. Plutarch, l.c.
36. CAH VII, 755
37. Polybius, ii, 62; v, 38; Pausanias, ii, 9
38. Coulanges, 467
39. Pausanias, vii, 50
40. Strabo, xix, 2.5
41. Ibid.
42. Polybius, v, 88

CHAPTER XXIV

1. Meeting of the Oriental Institute, Chicago, Mar. 29, 1932
2. Plutarch. *Moralia*, 183 F.
3. Polybius, xy, 8
4. Ibid., xxx, 26
5. Ibid., xxxix, 27; xxxi, 9; Bevan, E. R, *House of Seleucus* London, 1902, II, 181, 158
6. Rostovtzeff *Social and Economic History of the Roman Empire*, 3; Tarn, 79
7. Toutain, 108-8
8. Glotz, *Ancient Greece*, 358
9. Rostovtzeff *Roman Empire* 3; id., *Ancient World*, I. 368-70; Glotz, 321
10. Glotz, *Greek City*, 388
11. Tarn, 254

13. Josephus, *Against Apion*, I, 60; Bevan, 35; Tarn, 209
14. CAH, VII, 193
15. Sachar, A.L., *History of the Jews*, N.Y., 1932, 102. Cf. Zeitlin, S., *History of the Second Jewish Commonwealth*, Phila., 1933, 18f, or CAH, VIII, 501f, for an economic interpretation of these intrgues
16. Graetz, H., *History of the Jews*, Phila., 1891f, I, 445-6; Zeitlin, 18
17. Bevan, I, 171; Mahaffy, J.P., *Empire of the Ptolemies*, London 1895, 341
18. CAH, VIII, 507-8
19. I Macc., i; Josephus, *Works*, Boston, 1811, I, 438; *Antiquities of the Jews*, xii, 5
20. Bevan, II, 154
21. I Macc., v-vi; Bevan, 174
22. I Macc., ii
23. Ibid., vi
24. Ibid., ii
25. Ibid., ii-v
26. Sachar, 104
27. Bevan II, 183, 223

CHAPTER XXV

1. Breccia E., *Alexandrea ad Aegyptum*, Bergamo, 1922, 96; Strabo, xvii, 1.8
2. Mahaffy, *Empire*, 104; *Greek Life*, 204
3. Athenaeus, xiii, 37
4. Mahaffy, *Empire*, 162
5. Draper, I, 190
6. Tarn. 148; CAH, VII, 187
7. Ibid., 27; Rostovtzeff, *Roman Empire*, 259
8. Tran, 149-51, 155; Glotz, *Ancient Greece*, 345
9. Ibid., 348
10. Usher, 80, 86
11. Strabo, xvii, 1.25
12. Glotz, *Ancient Greece*, 363
13. Tarn, 152; Usher, 75
14. Glotz, l.c.
15. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 482
16. Usher, 79, 119
17. Pliny, xxxv, 42
18. Rostovtzeff, *Ancient World*, I, 378; Tarn, 102; Glotz, 350
19. Tarn, 155.
20. Botsford and Sihler, 597
21. Athenaeus, v, 36
22. Pliny, xxxvi, 18
23. Breccia, 107
24. Tarn, 198
25. Calhoun. 130
26. CAH, VIII, 662
27. Mahaffy, *Greek Life*, 182
28. Mahaffy, *What Have the Greeks?*, 195-7
29. Tarn, 158; CAH, VII, 28
30. Ibid., 139-40; Tarn, 158; Mahaffy *Empire*, 182, 213; Breccia, 42
31. Breccia, 69
32. Strabo, xvii, 1.8-10; Tarn, 146
33. Glotz, 336
34. Athenaeus, iii, 47
35. Herodas, *Mimianbi*, i
36. Lacroix, I, 124
37. Carroll, 326
38. Graetz, I, 418; Mahaffy, *Empire* 86
39. Josephus, *Antiquities*, xii, 1-2
40. Zeitlin, 6-8; Bevan, I, 165
41. Bentwwich, 86
42. Renan, E., *History of the Peop of Israel*, N.Y., 1888, IV, 194; V, 189
42a Graetz, I, 504
43. Bevan and Singer, *Legacy of Israel*, Oxford, 1927, 32
44. Josephus, *Antiquities*, xii, 2; Sarton, 161
45. Sachar, 109
46. *Enc Brit.*, XX, 885; Tarn, 177
47. Glotz, *Ancient Greece*, 356; Tarn, 204
48. Tarn, 158
49. Mahaffy, *Greek Life*, 208
50. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 264
51. Glotz., *Greek City*, 323
52. Polybius, vii, 8
53. Ibid.
54. Randall-MacIver, 138-9
55. Athenaeus, v, 40

56. Livy, xxiv, 4

CHAPTER XXVI

1. Polybius, ix, 2
2. Thompson, 71
3. Strabo, xiii, 1.54
4. Grote, *Arts alle*, 50
5. Breccia, 47
6. Ibid., 48
7. Mahaffy, *Empire*, 208
8. Oxyrhynchus. Papyri X, 1241, p. 99; Breccia, 44
9. Tarn, 238; Symonds, 21
10. Tarn, 237 Mahaffy, 511
11. Waxman, M., *History of Jewish Literature*, N.Y., 1930, I, 48
12. Ibid., 49
13. Ibid., 21
14. Renan, IV, 258
15. Lacroix, I, 166-7
16. Wright, 22
17. CAH, VII, 227
18. Menander, *Arbitrants*, 679-85
19. Bacchis in the *Phormio*
20. St. Paul, I Cor., xv, 33
21. Tarn, 219
22. Frag. 40 in Murray, *Aristophanes*, 223
23. Translation by Symonds. 464
24. Ibid., 526
25. Murray, *Greek Literature*, 381; Mahaffy, *Greek Literature* I, 166; id., *Progress of Hellenism in Alexander's Empire*, Chicago, 1905, 112
26. Theocritus, xv, tr. Lindsay, in *Oxford Book of Greek Verse*, 564
27. Theocritus, i, 123-42; tr. Sir Wm. Marris, *Oxford Book*, 543
28. Tarn, 52
29. Frag. 54 in McCrindle, J. W., *Ancient India*, Calcutta, 1877, 120.
30. Bury, *Greek Historians*, 188
31. Polybius, xii, 25, 27, etc
32. Ibid., xxxiv, 6; xxxviii, 6
33. xxx, 32
34. iii, 2
35. vi, 2
36. vi, 3
37. iii, 48, 59; Shotwell, 199
38. xvi, 20
39. xii, 28
40. v, 75
41. xxi, 32
42. xvi, 12
43. vi, 48
44. iii, 31
45. i, 1
46. i, 35; i, 1
47. i, 4
48. ix, 1; ii, 56
49. Dionysius of Halicarnassus in CAH, VIII, 10

CHAPTER XXVII

1. Athenaeus, xiv, 83
2. Mahaffy, *Social Life*, 467-8; 475-6
3. Vitruvius, ix, 9; x, 18; Athenaeus iv, 75; *Oxford History of Music*, Introd. Vol., 26
4. Mahaffy, 455; id., *Greek Life*, 382
5. Athenaeus, xiv, 31
6. Strabo, xiv, 1.57
7. In Gardner, *Ancient Athens*, 488
8. Pliny, xxxv, 40
9. Plutarch, "Aratus."
10. Strabo, xiv, 2.5
11. Pliny, xxxv, 36
12. Ibid., xxxv, 36
13. Lessing, G.E., *Laocoön*, London, 1874, 15
14. Pliny, xxxiv, 18
15. *Greek Anthology*, vi, 171
16. Pliny, l.c.
17. Bostock's note, ibid
18. Winckelmann, I, 229
19. Virgil, *Aeneid*, ii, 49
20. Pliny, xxxvi, 4
21. Winckelmann, II, 225
22. CAH, VIII, 675
23. In Gardner, E. A., *Six Greek Sculptors*, London, 1910, 6

CHAPTER XXVIII

1. Stobaeus. in Heath, *Greek Mathematics*, I, 357

2. Plutarch, "Marcellus."
3. Ball, W.W.R., *Short History of Mathematics*, London, 1888, 64
4. Ibid., 66-7
5. Plutarch
6. Cicero, *Tusc. Disp.*, i, 25
7. Cicero, *Rep.*, 1, 14
8. Singer, C., *Studies in the History of Science*, Oxford, 1921, II, 502
9. Heath, II, 18
10. Plutarch
11. Ibid
12. Polybius, viii, 5; Livy, xxiv, 34
13. Heath, l.c.
14. Plutarch
15. Polybius, l.c.
16. Plutarch
17. Livy, xxv, 31
18. Heath, II, 20
19. Sarton, 184; Usher, 44
20. Ibid., 80
21. Ibid., 41; Sarton, 184, 195
22. Vitruvius, i, I.16
23. Heath, *Aristarchus of Samos*, 310, 383
24. Ibid., 302
25. Heath, *Greek Math.*, II, 2
26. Williams, H.S., *History of Science*, N.Y., 1909, I, 233
27. Heath, *Aristarchus*, 298-7; CAH, VII, 311
28. *Enc. Brit.*, XI, 583
29. Tarn, 280
30. Heath, *Aristarchus*, 339-40
31. Sarton, 144; Glotz, *Ancient Greece*, 875
32. Strabo, i, 3.3
33. Ibid., i, 4.7-9
34. Ibid., i, 4 6
35. Wright, 14
36. Garrison, 102
37. Theophrastus, *History of Plants*, ii, 1.1, in Livingstone, *Legacy*, 178
38. Locy, 37
39. Grote, II, 17
40. Sarton, 143
41. Ibid., 126
42. In Wright, 14
43. Celsus, *De Artibus*, i, 4 in Botsford and Sihler, 631
44. Botsford and Sihler, 631
45. Sarton, 159; Garrison, 153
46. Sextus, Empiricus, *Adv. Math.*, xi, 50, in Livingstone, 201
47. Garrison, 103
48. Sarton, 159-60

CHAPTER XXIX

1. Carroll, 316
2. Athenaeus, xiii, 90
3. Diog. L., "Theophrastus," iv-xi
4. Theophrastus, *Characters*, Loeb Library, 1929, iii, xiv, etc
5. Diog., "Xenophanes," iii
6. Ibid., iii-v, x.
7. Aristotle, *Anal. Post.*, ii, 1
9. Ibid., iii
10. Zeller, E., *Stoics Epicureans and Sceptics*, London, 1870, 99
11. Ibid., 603
12. Wright, 128
13. Ueberweg, I, 186
14. Polybius, xii, 26
15. Diog., "Aristippus," xii-vix
16. Lacroix, I, 160-1
17. Diog., "Epicurus," v.
18. Ibid., vi-viii
19. Lucretius, v, 198; ii, 1090; Lucian "Zeus Tragoedus," in *Works*, III, 97
20. Lucretius, ii, 292; Plutarch, *Moralia*, 964 C.
21. Cicero, *Nat. Deor.*, i, 20
22. Diog., "Epicurus," xxiv
23. Ibid., xxvii; Murray *Greek Religion*, 168
24. Diog., xxv
25. Athenaeus, xii, 67
26. Diog., xxxi
27. Ibid., xxvii
28. Ibid.
29. Ibid., xxxi, 31
30. Ibid., xxvi
31. xxvii
32. Zeller, 464
33. Diog., xxxi, 28
34. Cf. Frags. 165, 186, 194 and 213 in Murray, 180
35. Murray, 138
36. Frag. 188 in Murray, 141

37. Diog., x.
38. Athenaeus, vii, 11
39. Becker, 925
40. *Jewish Enc.*, art. "Apikōros"; Bentwich, 77
41. Zeller, 388
42. Cicero, *De Fin.*, i, 7.25
43. In Murray, *Greek Literatur*, 372
44. Diog., "Zeno," i-ii
45. Ibid., xi, v.
46. Ibid., v.
47. Ibid., "Crates," i-iv, "Hipparchia", i-ii; Zeller, *Socrates*, 326 n.
48. Diog., "Zeno," xxviii-xxix
49. Ibid., xiv
50. Zeller, *Stoics*, 37n
51. Diog., "Zeno," ix
52. Ibid., xxvii. Lucian, Lactantius, and Stobaeus tell the same story; cf. Zeller, 40
53. Zeller, 69
54. Ibid., 121
55. Cicero, *Nat. Deor.*, ii, 7
56. Diog., "Zeno," lxviii-lxxvii
57. Tr by Pater, 50
58. Plutarch, *De Stoic. Repug.*, xxi, 4, in Zeller, 178; but Plutarch was intensely prejudiced against the Stoics
59. *Oxford Book of Greek Verse*, 535
60. Zeller, 288
61. Diog., "Zeno," xix
62. Ibid., lxiv
63. Zeller, 316
64. Diog., lxvi
65. Zeller, 303
66. Cicero, *Tusc. Disp.*, i, 34.83
67. Zeller, 327
68. Ibid., 207

CHAPTER XXX

1. Polybius, i, 1.
2. Plutarch, "Pyrrhus."
3. Ibid.
4. Ibid.
5. Mommsen, T., *History of Rome*, London, 1901, ii, 5
6. Plutarch, l.c.
7. Livy, xxv, 40, 31
8. Polybius, ii, 8
9. Ibid., vi, 103
10. Livy, xliii, 33
11. Polybius, xvi, 30; Livy, xxxi, 18
12. Polybius, xviii, 45
13. Livy, xxxiv, 52
14. Tarn, 29
15. Strabo, viii, 6.23
16. Polybius, xxxix, 2; Strabo, l.c.

EPILOGUE

1. Symonds, 579
2. Rede Lecture for 1876, in Symonds, 576
3. *Enc. Brit.*, ii, 344

فهرس

الموضـــوع | الصفحة

الموضـــوع　　　　　　　　　　　　　　　　　　الصفحة

فهرس الأشكال والصور

مقدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى جميع أنبيائه ورسله .
وبعد : فهذا هو الجزء الثالث والأخير من المجلد الثانى من مجلدات قصة الحضارة الستة ، وهو يقص تاريخ اليونان ويصف حضارتهم فى عهد انتشارهم فى بلاد الشرق والغرب حتى الفتح الرومانى كما يصف أسباب قوتهم وضعفهم وما يدين به العالم إلى هذا الشعب العظيم .

وقد تداركنا فى هذا الجزء بعض ما فاتنا فى الجزأين السابقين من الأسماء اليونانية التى وردت فى الكتب العربية القديمة فكتبناها كما وردت فى تلك الكتب وإن اختلفت بعض الاختلاف عن نطقها الذى أثبته المؤلف فى الأصل الإنجليزى ، فإذا وجد القارئ بعض الاختلاف فى كتابة تلك الأسماء فى هذا الجزء الثالث عنها فى الجزأين السابقين فسبب هذا أن المراجع العربية لم تكن ميسرة لنا من قبل . وليس هذا الاختلاف بذى بال وهو لا يعدو عدداً قليلا من الألفاظ أمثال القبيادس وأكسانوفون Xonophon, Alcibiades ولربما كان تعريبها كما ورد فى الجزأين السابقين أقرب إلى نطقها اليونانى من الصيغة التى وردت بها فى الكتب العربية القديمة ، ولكننا آثرنا أن نثبتها حتى تكون الصورتان أمام القارئ .

ولا يسعنا مرة أخرى إلا أن ننوه بفضل الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية التى اختارت هذا الكتاب وعهدت إلينا ترجمته ، وإلى لجنة التأليف والترجمة والنشر التى تكفلت بطبعه ونشره ، وإلى القراء الذين أقبلوا على أجزائه السابقة إقبالا كان هو الحافز الأكبر لما بذلناه وما نبذله من جهد فى ترجمة هذه الموسوعة القيمة .

المترجم

مايو سنة ١٩٥٤ — محمد بدران